لواقح الأنوار القدسية
في
بيان العهود المحمدية

تأليف

سيدي عبد الوهاب الشعراني

تقديم

الأستاذ محمد علي الأدلبي

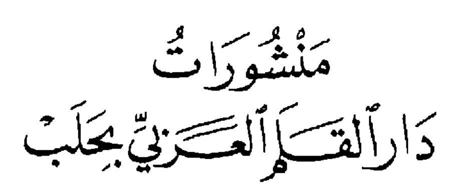


بحلب

لواقح الأنوار القدسيّة

في

بيان العهود المحمّدية



١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

عنوان الدار
سورية - حلب - خلف الفندق السياحي
شارع هدى الشعراوي
هاتف: ٢١٣١٢٩١ - ص.ب: ٧٨ - تلكس: ٣٣١٦٩٢ ريفكو

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢١٥٢٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

المؤلّف

نبذة عن الإمام الشعراني رحمه الله تعالى

أنقل هنا ما كتبه العلّامة أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب) حيث قال :

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي في طبقاته : هو شيخنا الإمام العامل العابد الزاهد الفقيه المحدث الأصولي الصوفي المربي ، من ذرية السيد محمد بن الحنفية – ولد رحمه الله تعالى ببلدة قلقشندة بمصر سنة ٨٩٨ هـ وهي قرية جده لأمه ، ثم نقل بعد أربعين يوماً من مولده إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة ، وإليها نسبته – .

توفي والده وهو طفل ، ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة ، ومخايل الرياسة والولاية ، فحفظ القرآن الكريم ، وأبا شجاع – مختصر في الفقه – والآجرُوميّة – مختصر في النحو – وهو ابن سبع أو ثمان ، ثم انتقل إلى مصر – القاهرة – سنة ٩١١ هـ ، فقطن بجامع الغمري ، وجد واجتهد – وحنن الله عليه شيخ الجامع وأولاده فمكث بينهم كأنه واحد منهم ، يأكل ما يأكلون ، ويلبس ما يلبسون وأقام بينهم حتى حفظ متون الكتب الشرعية وآلاتها .

ولبث في مسجد سيدي أبي العباس الغمري سبعة عشر عاماً يتعلم ويعلم ، ويتهجد ويتعبد ، وهو في كل هذه المدة لا يضيع أوقاته ، بل كان رحمه الله قد ملأها ما بين حفظ للمتون الشرعية وعرضها على أكابر علماء ذلك العصر وصفوة علماء ذلك المصر كالإمام السيوطي ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، وناصر

الدين اللقاني وأضرابهم ، وقد أفاض رحمه الله تعالى في ذكر أساتذته في كتبه ، كما أفاض في ذكر إجلاله لهم ، وحبهم له .

درس الشعراني على هؤلاء الأعلام وغيرهم من خيرة علماء ذلك العصر الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية بشتى فنونها وعلومها في الأصول والفقه ، والتصوف والحديث ، والتفسير ، والأدب واللغة حتى غدا كما يقول : لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علماً ، أو تخلق به عملاً .

ثم أقبل على الاشتغال بالطريق ، فجاهد نفسه مدة ، وقطع العلائق الدنيوية ، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض حتى قويت روحانيته .

ثم أخذ عن مشايخ الطرق ، فصحب سيدَي علياً الخواص والمرصفي ، والشناوي وتسلك بهم .

ثم تصدى للتصنيف فألف كتباً كثيرة . اهـ .

قال النجم الغزي في (الكواكب السائرة ٣٨/١٧٧) وكتبه كلها نافعة ، وقد دلت كتبه على أنه اجتمع بكثير من العلماء والأولياء والصالحين . اهـ .

هذا وقد حسده طوائف ، فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع الحنيف ، وعقائد زائفة ، ومسائل تخالف الإجماع ، وأقاموا عليه القيامة ، وشنعوا عليه ، وسبوا ، ورموه بكل عظيمة ، فخذلهم الله تعالى ، وأظهره عليهم .

وكان رحمه الله تعالى : مواظباً على السنة ، مبالغاً في الورع ، مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه ، متحملاً للأذى ، موزعاً أوقاته على العبادة ، ما بين تصنيف وتسليك وإفادة .

وكان رحمه الله تعالى يُسمع لزاويته دويٌّ كدوي النحل ليلاً ونهاراً .

وكان رحمه الله تعالى يُحيي ليلة الجمعة بالصلاة على الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ .

وكان رحمه الله تعالى عظيم الهيبة ، وافر الجاه والحرمة ، تأتي إلى بابه الأمراء .

وقد أكرمه الله تعالى لكرامات كثيرة ، وإكرامات عظيمة ولا عجب في ذلك فالله يكرم عباده الصالحين بما شاء سبحانه ، والإمام الشعراني واحد من هؤلاء ديناً وتقى وصلاحاً وصفاء مع الصدق والإخلاص والزهد في الدنيا ، والعمل للعقبى .

ولم يزل رحمه الله تعالى عابداً زاهداً متقرباً إلى الله تعالى بأنواع القربات والطاعات ، معظَّماً في الصدور ، محبباً في القلوب إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته راضياً مرضياً .

ومن كلامه رحمه الله تعالى :

١ ـ دُوروا مع الشرع كيف كان .

٢ ـ ينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه ، عكس ما عليه المتصوفة ، الذين لاحت لهم بارقة الطريق فمنعوا مطالعتها ، وقالوا : إنها حجاب جهلاً منهم .

توفي رحمه الله تعالى سنة ٩٧٣ هـ ودفن بزاويته .

أقول : وقبره رحمه الله تعالى معروف بمصر ـ وهو آهل بالزائرين له ، المتبركين به ، وذلك بالمسجد المسمى باسمه رحمه الله تعالى في باب الشعرية بالقاهرة .

من شذرات الذهب بتصرف مع دخول بعض الفقرات في الكواكب السائرة ، ومقدمة كتابه : الأنوار القدسية . ومن أراد الزيادة في معرفة أخباره فليرجع إلى كتابه (لطائف المنن) وجامع كرامات الأولياء للعلامة المحب الفاني المرحوم الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني نفعنا الله به وبعباده الصالحين وحشرنا معهم تحت لواء سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجعلنا أهلاً لنيل شفاعة المشفع صاحب الوجه المقبول عليه الصلاة والسلام ، وجعلنا ممن يرد حوضه عليه الصلاة

والسلام ، وممن يشرب منه وبيده الشريفة عليه الصلاة والسلام شربة لا نظمأ بعدها أبداً ـ آمين يا رب العالمين .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكتبه محمد علي إدلبي
حلب حرسها الله تعالى
٦ جمادى الأخرى ١٤١١ هـ

المؤلَّف

هذا الكتاب

لواقح الأنوار القدسية يكاد أن يكون الترغيب والترهيب للحافظ المنذري رحمه الله تعالى غير أنه بأسلوب آخر مبتكر ، شحذاً للهمم وتقويةً للعزائم .

وكان السبب في تأليفه ما ذكره الإمام الشعراني في مقدمة كتابه فقال : وكان الباعث لي على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان ـ الأصحاب ـ على ما نقص من دنياهم ، ولم أر أحداً منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلاً ، فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم ، فوضعت لهم هذا الكتاب المنبه لكل إنسان على ما نقص من أمور دينه . اهـ .

بدأ كتابه رحمه الله تعالى بالحث على إخلاص النية ، والترغيب بالعمل بالسنة النبوية ، واتباع الشارع ﷺ .

ثم بالحث على طلب العلم الشرعي وبذل الوسع في تحصيله ، والسعي في سبيله .

ثم تجده بعد ذلك يسير بك على أبواب الفقه باباً :

فالوضوء أوّلاً .

فقد بين ما فيه من التخلية عن الذنوب والآثام ، وما فيه من التحلية ، بأنوار العبادة : « إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » .

ثم السواك والأذان ودخول المساجد والسعي لها والمحافظة على نظافتها ، مع

بيان ما في صلاة الجماعة من الأجر ، وما جاء عن صاحب الشرع ﷺ في الحث عليها .

بعد ذلك يأتي الحديث عن الصلاة فرضاً ونفلاً وواجباً فذكر ما فيها أيضاً من تخلية عن الذنوب وآثارها ، وتحلية بآثار الطاعة وأنوارها .

أتبع ذلك بالحث على أداء الزكاة في أوقاتها ، مرغباً بالصدقة مبيناً آثارها وفوائدها وعوائدها .

ثم تحدث عن الصوم وفضائله ، وعن صوم النفل وفوائده .

بعده بيّن حكم الأضحية والأجر المعد لفاعلها .

بعد ذلك ذكر الحج والعمرة ، وبيّن مافيهما من فوائد وعوائد .

ثم رغب بتلاوة القرآن الكريم موضحاً الآثار المترتبة على ذلك ، وبين آثار وفوائد الإكثار من استغفار الله تعالى من ذكره جل في علاه ، وأوضح ما يناله المصلي على النبي ﷺ من رفع الدرجات والإكثار من الحسنات ومحو السيئات وغير ذلك من العطيات من رب الديات .

ثم أوضح ورغّب ما على المسلم أن يكون عليه حاله في بيعه وشرائه وهو مبحث نفيس ينبغي الإطلاع عليه والعمل بموجبه حتى لا يقع المرء في الحرام وهو لا يدري وهو غير معذور بجهلة .

بعد ذلك جاء دور الحديث بل الترغيب في الرجوع إلى الله تعالى عند كل مهمة ومدلهمة ، والتعرف إليه في الرخاء ليعرف عبده عند ذلك في الشدة .

ثم الحديث عن النكاح وبيان فوائده ، وضروراته ، وكيفية التدرج فيه من الخطبة إلى الزفاف إلى ما بعد ذلك .

ثم ما ينبغي أن يكون حال العبد من شكر النعمة بحسن الملبس والمظهر والمأكل والمشرب مع ذكر آداب الطعام والشراب والضيافة والزيارة .

أضف إلى ذلك ذكر جملة من الآداب الشرعية عامه وخاصة مع الناس كافة : مع الفقير والغني ، واليتيم وغير هؤلاء ، بل ذكر رحمه الله تعالى ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم في ليله ونهاره ، وسفره وحضره ، في مسجده وبيته وسوقه ، مع أهله وأولاده ووالده ، مع القريب والرحم والغريب وفي بلده وغير بلده ، وما ينبغي أن يكون عليه حاله في سائر شؤوناته أن يكون في جميع أحواله متقرباً إلى الله تعالى ، عاملاً بسنة النبي المصطفى سيدنا محمد ﷺ ، مبتعداً عن كل ما يبعده عن رب العزة سبحانه وتعالى .

كل هذا مدعماً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية معزوة لمخرجيها ، حتى لا يبقى شك لذي شك ، ولا دعوى لصاحب بدعة وهوى إنه بحق مكتبة في كتاب .

نعم إنه جدير بالقراءة وبالعمل بما فيه وفيما دعا إليه .

والله ولي التوفيق وهادي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والحمد لله رب العالمين

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العلامة العمدة الهمام ، البحر المحقق الفهامة ، عين أعيان المحققين العظام ، وأوحد أجلاء العارفين الكرام ، القطب الربانى والعارف المحقق الصمدانى الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعراوى رضى الله تعالى عنه :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين ، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين أبدا الآبدين آمين .

وبعد : فهذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثاله ، ولا أظن أحدا نسج على منواله ، ضمنته جميع العهود التى بلغتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من فعل المأمورات وترك المنهيات ، وسميته :

لواقح الأنوار القدسية فى العهود المحمدية

وكان الباعث لى على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم ، ولم أر أحدا منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلا ، فأخذتنى الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم ، فوضعت لهم هذا الكتاب المنبه لكل إنسان على ما نقص من أمور

دينه ، فمن أراد من الإخوان أن يعرف ماذهب من دينه فلينظر فى كل عهد ذكرته له فى هذا الكتاب ، ويتأمل فى نفسه ، يعرف يقينا ماأخل به من أحكام دينه ، فيأخذ فى التدارك أو الندم والاستغفار إن لم يمكن تداركه ، ثم لايخفى عليك ياأخى أن مجموع أحكام الشريعة ترجع إلى ثلاثة أمور : أمر ونهى ومرغب فيه لم يصرح الشارع فيه بأمرولا نهى ، وإنما رغب فى فعله بالثواب أو رهب من تركه بفوات الثواب كالوضوء على الوضوء ، فإن الترغيب فى فعل شىء مؤذن بالرضا عن فاعله ، كما أن الترهيب من فعل شىء مؤذن بعدم الرضا عن فاعله ، وإن كان ذلك لم يلحق بدرجة الأمر والنهى الصريحين .

وعبارة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام فى قواعده الكبرى : اعلم أن كل فعل مدح فى نفسه أو مدح فاعله من أجله أو وعد عليه بخير عاجل أو آجل فهو مأمور به ، لكنه متردد بين الإيجاب والندب اهـ .

وقد قسمت الكتاب على قسمين :

القسم الأول : فى بيان ماأخل به الناس من المأمورات .

القسم الثانى : فى بيان ماأخل به الناس من اجتناب المنهيات :

وإنما بدأت فى أول الكتاب بقسم المأمورات وأخرت المنهيات وإن كان الواقعون فى المنهيات أكثر عملا بالأصل من حيث أن الطاعات أصلية والمعاصى عارضة ، وأن كل مؤمن يود أن يطيع الله تعالى ولا يعصى أمره أبدا ، ولكن لله تعالى فى تقديره المعاصى على عبده حكم وأسرار لاتخفى على من فى قلبه نور .

ثم اعلم ياأخى أن طريق العمل بالكتاب والسنة قد توعرت فى هذا الزمان ، وعز سالكها لأمور عرضت فى الطريق يطول شرحها ، حتى صار الانسان يرى الأخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بشىء منها ، فلذلك كنت أقول فى غالب عهود الكتاب وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق ، ويزيل من طريقه الموانع التى تمنعه عن الوصول إلى التخلق به أو نحو ذلك من العبارات إشارة إلى أنه لايلزم من معرفة الفقيه بالأحكام الوصول إلى العمل بها . بل يحتاج مع ذلك إلى شيخ يريه معالم الطريق كما وقع للإمام الغزالى والشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيرهما ، وإنما شيدت كل عهد منه بالأحاديث الشريفة ، إعلاما لك ياأخى بأن عهود الكتاب مأخوذة من الكتاب والسنة نصا واستنباطا ، لئلا يطعن طاعن فيها وسدا لباب الدس من الحسدة فى هذا الكتاب

كما وقع لى ذلك فى كتاب [البحر المورود فى المواثيق والعهود]، الذى جمعت فيه عهود المشايخ التى أخذوها على، فإن بعض الحسدة لما رأى إقبال الناس على تلك العهود وعرف عجزه عن الوفاء بها مع ادعائه المشيخة، عمل حيلة واستعار من بعض المغفلين من أصحابى نسخة وأوهمه شدة الاعتقاد فى جنابى، وكتب منها عدة عهود ودس فيها أمورا مخالفة لظاهر الكتاب والسنة وأشاعها عنى فى مصر، فحصل بذلك فتنة عظيمة فى جامع الأزهر وغيره، وانتصر لى الشيخ ناصر الدين اللقانى، والشيخ شهاب الدين الرملى وجماعة، وأجابوا عنى بتقدير صحة ذلك منى وما سكنت الفتنة حتى أرسلت للعلماء نسختى التى عليها خطوطهم ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئا مما دسه الحسدة وأشاعوه عنى، ومن تلك الواقعة ماألفت كتابا إلا وتعرضت فيه لما دسه الحسدة فى كتبى، وتبرأت فيه من كل شىء يخالف الكتاب والسنة، طلبا لإزالة مافى نفوس بعض الناس، لئلا يحصل لهم الإثم بذلك. فهذا كان سبب تشييدى لعهود هذا الكتاب بالأحاديث والآثار، فإن الحاسد لو دس فيه شيئا يخالف الأحاديث التى أذكرها لا يروج له أثر عند الناس، وكيف يستدل مؤلف لكلامه بالأحاديث التى يخالفه منطوقها أومفهومها هذا أمر بعيد، فالله يحفظ هذا الكتاب من مثل ذلك إنه سميع مجيب.

واعلم ياأخى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان هوالشيخ الحقيقى لأمة الإجابة كلها، ساغ لناأن نقول فى تراجم عهود الكتاب كلها: أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعنى معشر جميع الأمة المحمدية، فإنه صلى الله عليه وسلم إذا خاطب الصحابة بأمر أو نهى أوترغيب أوترهيب انسحب حكم ذلك على جميع أمته إلى يوم القيامة، فهوالشيخ الحقيقى لنا بواسطة أشياخ الطريق أوبلا واسطة، مثل من صار من الأولياء يجتمع به صلى الله عليه وسلم فى اليقظة بالشروط المعروفة عند القوم. وقد أدركت بحمد الله تعالى جماعة من أهل هذا المقام كسيدى على الخواص، والشيخ محمد العدل، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ جلال الدين السيوطى وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

ثم لايخفى عليك ياأخى أن من شأن أهل الله عز وجل كونهم يأخذون العهد على المريد بتركه المباح زيادة على الأمر والنهى طلبا لترقيه، إذ المباح لاترقى فيه من حيث ذاته وإنما هو أمر برزخى بين الأمر والنهى، جعله الله تعالى مرتبة تنفيس للمكلفين يتنفسون به من مشقة التكليف إذ الاقبال على الله تعالى فى امتثال الأمر واجتناب النهى على الدوام ليس من مقدور البشر، فأراد أهل الله تعالى للمريد أن يقلل من المباح جهده ويجعل موضعه

فعل مأمور أو اجتناب منهى أو مرغب فى فعله أو تركه لأخذهم بالعزائم دون الترخيصات فترى أحدهم يفعل المندوب مع شدة الاعتناء به كأنه واجب ويجتنب المكروه كأنه حرام ويترك المباح كأنه مكروه ويفعل الأولى كأنه مستحب ويستغفر من فعل المكروه كأنه حرام ويترب من فعل خلاف الأولى كأنه مكروه ويتوب من ترك المندوب كأنه واجب ، ومن القوم من يقلب المباح بالنية الصالحة إلى خير فيثاب عليه ثواب المندوب ، كأن ينوى بأكله التقوى على عبادة الله تعالى ، أو بنومه فى النهار التقوى على قيام الليل عند من لم يصح عنده حديث :

« اسْتَعِينُوا بِالنَّوْمِ فِي الْقَيْلُولَةِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ » .

أما من صح عنده هذا الحديث فهو مستحب أصالة لا جعلا ، وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يسمى النوم وردا ويقول : لا أحد يوقظنى من ورد النوم حتى أستيقظ بنفسى . فعلم أن أهل الله تعالى من شأنهم أن لا يوجدوا إلا فى فعل واجب ، وما ألحق به من المندوب والأولى أو فى اجتناب منهى وما ألحق به من المكروه وخلاف الأولى . فإياك يا أخى أن تبادر إلى الإنكار عليهم إذا رأيت أحدا منهم يأخذ العهد على مريد بتركه المباح ، وتقول كيف يأخذ العهد على مريده بترك المباح مع أن الشارع أباحه له ، فإنك فى واد وأهل الله فى واد .

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى بعض أهله عن فعل المباح : فنهى فاطمة رضى الله عنها عن لبس الحرير والذهب ، مع أنه صلى الله عليه وسلم أباحهما لأناث أمته وقال :

« يا فَاطِمَةُ مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ » .

ونهى صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها عن الأكل فى يوم واحد مرتين وقال لها :

« أَكْلَتَانِ فِي النَّهَارِ إِسْرَافٌ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

مع أنه صلى الله عليه وسلم أباح لأمته أن يجمعوا كل يوم بين الغداء والعشاء بل هو الأكثر من فعله صلى الله عليه وسلم رحمة بالضعفاء من أمته ، وقد عمل القوم على نحو ذلك مع المريدين الصادقين ، فأخذوا المريد بتناوله الشهوات المباحة وبوضعه جنبه إلى الأرض من غير ضرورة ، وبالأكل من غير جوع ، وبالنسيان وبالاحتلام ، وكذلك أخذوه بمد رجله فى ليل أو نهار لا لضرورة إلى غير ذلك ، ولهم فى ذلك أدلة يستندون إليها .

فأما دليلهم فى مؤاخذتهم المريد بأكل الشهوات المباحة ، فهو كون الحق تعالى نعى أهل النار بأكلهم الشهوات بقوله تعالى :

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) الآية .

وقالوا : مانعاه الله تعالى على أهل النار وجزاهم عليه بالعذاب فالمؤمن أولى أن يتركه ، وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى :

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) .

هو واد فى جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : ياداود حذر وأنذر قومك من أكل الشهوات ، فإن قلوب أهل الشهوات عنى محجوبة اهـ ، والنوم كذلك بجامع الغفلة والحجاب عن الله تعالى إلا لضرورة .

وأما دليلهم فى مؤاخذتهم المريد بالنسيان ، فإنه لايصح وقوعه من المريد إلا بعد تعاطيه مقدمات ذلك الأمر الذى نسيه من الغفلة والتهاون به بدليل ماقاله علماؤنا فيمن نسى الماء فى رحله أو أضله فيه ، فلم يجده بعد الطلب فتيمم وصلى أنه يقضى ماصلاه بالتيمم ونسبوه إلى التقصير فى نسيانه وإضلاله ، وقالوا لو صلى بنجس لم يعلمه وجب القضاء فى الجديد وإن علم به ثم نسى وجب القضاء على المذهب والنظائر كثيرة .

وكان الشيخ محى الدين بن العربى رضى الله عنه يقول : إنما آخذ القوم المريد بالنسيان لأن مبنى طريقهم على الحضور الدائم مع الله عزوجل ، والنسيان عندهم نادر والنادر لاحكم له مع أن قاعدة الشريعة رفع حكم النسيان إلا مااستثنى ، كتدارك مانسيه من الصلاة وضمان ماأكله من طعام الغير بغير إذنه ناسيا ونحو ذلك .

ثم ليتأمل ذلك الناسى فى نفسه فى شدة اعتنائها بتحصيل أمر الدنيا وعدم وقوعه فى نسيانه ، كما إذا وعده شخص بألف دينار يعطيها له فى الوقت الفلانى ، كيف يصير يتذكر ذلك لحظة بعد لحظة حتى يأتى وقته حرصا على سحت الدنيا فأراد أهل الله تعالى من المريد أن يقلب تلك الداعية التى عنده للدنيا ويجعلها لأمور الآخرة ليفوز بمجالسة الله تعالى فى الدارين .

وأما دليلهم فى مؤاخذتهم المريد بالاحتلام ، فلأنه لم يقع منه إلا بعد مقدمات التساهل بالنظر إلى مالا يحل غالبا أو التفكر فيه ، فلما عجز عن الوصول إليه حال النظر والتفكر

أتاه إبليس فى المنام ليسخر به فإن من لايطلق بصره إلى محرم ولا يتفكر فيه لايحتلم أبدا ، ولذلك لم يقع الاحتلام إلا من المريدين والعوام دون الأكابر ، فإن الأكابر إما معصومون كالأنبياء أو محفوظون كالأولياء . ثم إن وقع أن أحدا من أكابر الأولياء احتلم فإنما يكون ذلك فى حليلته من زوجة أو جارية لا فيما لا يحل له ، وسببه غفلته عن تدبير جسده لما هو عليه من الاشتغال بالله عز وجل أو أمر المسلمين ، كما بلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه احتلم فى جاريته وقال : قد ابتلينا بهذا الأمر منذ اشتغلنا بأمر المسلمين .

وأما دليلهم فى مؤاخذة المريد بمد رجله من غير ضرورة فى ليل أو نهار ، فهو علمهم بأن المريد بين يدى الله عز وجل على الدوام شعر بذلك أم لم يشعر ، فأرادوا منه أن يواظب على ترك مد رجله بحكم الإيمان على أنه بين يدى الله حتى ينكشف حجابه ويشهد الأمر يقينا وشهودا ، وهناك يرى ضربه بالسيف أهون عليه من مد رجله بغير حاجة ، بل لو خير بين مد رجله ودخول النار لاختار دخول النار .

وقد بلغنا عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال : مددت رجلى بالليل وأنا جالس أقرأ وردى وإذا بهاتف يقول : ياإبراهيم ماهكذا ينبغى مجالسة الملوك ، قالوا فما مد إبراهيم رجله حتى مات بعد عشرين سنة ، فعلم من مجموع ماقررناه من باب أولى أن أهل الله عز وجل لايسامحون المريد بارتكابه شيئا من المكروهات فضلا عن المحرمات الظاهرة أو الباطنة وأن طريقهم محررة على موافقة الكتاب والسنة ، كتحرير الذهب بخلاف مايظنه من لاعلم له بطريقهم .

وقد أجمع أهل الله تعالى على أنه لايصح دخول حضرة الله تعالى فى صلاة وغيرها إلا لمن تطهر من سائر الصفات المذمومة ظاهرا وباطنا ، بدليل عدم صحة الصلاة لمن صلى وفى ثوبه أو بدنه نجاسة غير معفو عنها ، أو ترك لمعة من أعضائه بغير طهارة ، ومن لم يتطهر كذلك فصلاته صورة لاروح فيها لاحقيقية ، كما أن من احتجب عن شهود الحق تعالى بقلبه فى لحظة من صلاته بطلت صلاته عند القوم كذلك ، وقد نبه الشارع صلى الله عليه وسلم باشتراط الطهارة الظاهرة على اشتراط الطهارة الباطنة ، فأراد أهل الله تعالى من المريد أن يطابق فى الطهارة بين باطنه وظاهره ليخرج من صفة النفاق :

قد « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .

وفى حديث مسلم مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » .

وكذلك أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخا يرشده إلى زوال تلك الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله تعالى بقلبه لتصح صلاته من باب : مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ولا شك أن علاج الأمراض الباطنة من حب الدنيا والكبر والعجب والرياء والحسد والحقد والغل والنفاق ونحوها كله واجب كما تشهد له الأحاديث الواردة فى تحريم هذه الأمور والتوعد بالعقاب عليها ، فعلم أن كل من لم يتخذ له شيخا يرشده إلى الخروج من هذه الصفات فهو عاص لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لايهتدى لطريق العلاج بغير شيخ ولو حفظ ألف كتاب فى العلم ، فهو كمن يحفظ كتابا فى الطب ولا يعرف ينزل الدواء على الداء ، فكل من سمعه وهو يدرس فى الكتاب يقول إنه طبيب عظيم ، ومن رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته قال إنه جاهل ، فاتخذ لك يا أخى شيخا واقبل نصحى وإياك أن تقول طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة فإنه كفر ، فإنها كلها أخلاق محمدية سداها ولحمتها منها .

واعلم أن كل من رزقه الله تعالى السلامة من الأمراض الباطنة كالسلف الصالح والأئمة المجتهدين ، فلا يحتاج إلى شيخ :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) .

فأمعن يا أخى النظر فى هذه الخطبة والكتاب واعمل به فإنك إن شاء الله لا تضل ولا تشقى :

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ولنشرع بعون الله تعالى فى مقصود الكتاب فنقول ، وبالله التوفيق :

القسم الأول

من الكتاب وهو قسم المأمورات

أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نرجو من فضل ربنا الوفاء وأن نخلص النية لله تعالى فى علمنا وعملنا وسائر أحوالنا ، ونخلص سائر أعمالنا من سائر الشوائب ، حتى من شهود الإخلاص ومن حضور استحقاقنا ثوابا على ذلك ، وإن خطر لنا طلب ثواب شهدناه من باب المنة والفضل ، ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك طريق القوم على يد شيخ صادق متبحر فى علوم الشريعة بحيث يقرر مذاهب الأئمة الأربعة وغيرها ، ويعرف أدلتها ومنازع أقوالها ويقف على أم الكتاب التى يتفرع منها كل قول فيشتغل من يريد الإخلاص فى أعماله بذكر الله عز وجل ، حتى ترق حجب بشريته ويدخل حضرة الإحسان التى يعبد الله تعالى فيها كأنه يراه ، وهناك يشهد العمل كله خلقا لله تعالى عز وجل ليس للعبد فيه مدخل إلا كونه محلا لبروز ذلك العمل لاغير ، لأن الأعمال أعراض ، والأعراض لا تظهر إلا من جسم ، وهناك يذهب من العبد الرياء والكبر والعجب وسائر الآفات لأن هذه الآفات إنما تجىء للعبد من شهود كونه فاعلا لذلك العمل مع غفلته عن شهود الخالق له ، ومعلوم أنه لايصح الرياء والتكبر والعجب من العبد بعمل غيره أبدا ، وما رأينا أحدا نام إلى الصباح وأصبح يرائى أو يعجب أو يتكبر بفعل جاره القائم طول الليل أبدا فعلم أن من لم يصل إلى دخول حضرة الإحسان ويشهد أعماله كلها خلقا لله تعالى كشفا ويقينا لا ظنا ولا تخمينا فهو معرض للوقوع فى الرياء ولو حفظ ألف كتاب ، فاطلب يا أخى شيخا صادقا إن طلبت الترقى إلى مقام الإخلاص ، ولا تسأم من طول طلبك له ، فانه أعز من الكبريت الأحمر ، فانه من أقل شروطه التورع عن أموال الولاة ، وأن لايكون له معلوم فى بيت المال ولا مسموح ولا هدية من كاشف ولا شيخ عرب ولا شيخ بلد بل يرزقه الله تعالى من حيث لا يحتسب ، ويستخلص له الحلال الصرف من بين فرث الحرام ، ودم الشبهات ، وإلا فقد أجمع أشياخ الطريق كلهم على أن من أكل الحرام والشبهات لايصح له إخلاص فى عمل ، لأنه لا يخلص إلا إن دخل حضرة الإحسان ، ولا يدخل حضرة الإحسان إلا المطهر من سائر النجاسات الباطنة

والظاهرة، لأن مجموع أهل هذه الحضرة أنبياء وملائكة وأولياء، وهؤلاء من شروطهم العصمة والحفظ من تناول الحرام والشبهات ، فكل شيخ لم يصح له الحفظ فى نفسه فهو عاجز عن توصيل غيره إلى تلك الحضرة ، اللهم إلا أن يمن الله تعالى على بعض المريدين بالجذب دون السلوك المعهود فهذا لامانع منه ، فعلم أنه يجب على كل طالب علم لم يصل إلى الإخلاص أن يتخذ له شيخا يعلمه طريق الوصول إلى درجة الإخلاص، من باب : «مالايتم الواجب إلا به فهو واجب قال تعالى :

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) .

أى يقيموا الصلاة من العوج كالغفلة عن الله تعالى فيها ، ويؤتوا الزكاة يعنى بلا علة ثواب ولا خوف عقاب بل امتثالا لأمر الله تعالى كالوكيل فى مال موكله .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من أقل درجات الإخلاص أن يكون فى أعماله كالدابة المحملة ، فهى تعبانة من ثقل حملها منكسة الرأس لا تعلم بنفاسة ماهى حاملته ولا بخسته ولا تعلم هو لمن ، ولا إلى أين ينتهى حملها ؟ ولا ترى لها بذلك فضلا على غيرها من الدواب ، ولا تطلب على حملها أجرا اهـ .

وسمعته يقول : إذا راءى العبد بعلمه وعمله حبط عمله بنص الكتاب والسنة ، وإذا حبط عمله فكأنه لم يعمل شيئا قط فكيف يرى نفسه بذلك على الناس مع توعده بعد الإحباط بالعذاب الأليم ، فليتنبه طالب العلم لمثل ذلك اهـ .

قلت : وكذلك ينبغى للفقير المنقطع فى كهف أو زاوية أن يتفقد نفسه فى دعواها الإخلاص والانقطاع إلى الله تعالى ، فإن رآها تستوحش من ترك تودد الناس إليها وغفلتهم عنها فهو كاذب فى دعواه لانقطاع إلى الله تعالى ، فإن الصادق يفرح إذا غفل عنه الناس ونسوه فلم يفتقدوه بهدية ولا سلام ، ويفرح إذا انقلب أصحابه كلهم عنه واجتمعوا بشيخ آخر مرشد كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب [عهود المشايخ] والله أعلم .

ومما رواه الأئمة فى الإخلاص مرفوعا قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ فَارَقَ الدُّنيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ » .

رواه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وروى البيهقى مرسلا :

« أَنَّ رَجُلا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ الْإِخْلَاصُ، قَالَ: فَمَا الْيَقِينُ ؟ قَالَ: الصِّدْقُ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد :

« أَنَّ مَعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي ، قَالَ : أَخْلِصْ نِيَّتَكَ يَكْفِكَ الْعَمَلُ الْقَلِيلُ » .

وروى البيهقى مرفوعا :

« طُوبَى لِلْمُخْلِصِينَ ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى تَنْجَلِي عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظَلْمَاءَ » .

وروى البيهقى والبزار مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِشَرِيكِي وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ وَلَا تَقُولُوا هَذَا لِلهِ وَلِوُجُوهِكُمْ فَإِنَّهَا لِوُجُوهِكُمْ وَلَيْسَ لِلهِ مِنْهَا شَيْءٌ » .

وفى رواية لأبى داود وغيره بإسناد جيد مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ » .

وروى البيهقى مرفوعا عن عبادة بن الصامت قال :

« يُجَاءُ بِالدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ مَيِّزُوا مَا كَانَ مِنْهَا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَمْتَازُوا وَيُرْمَى مَا عَدَاهُ فِي النَّارِ » .

قال الحافظ المنذرى : وقد يقال إن مثل هذا لايقال من قبل الرأى والاجتهاد فسبيله سبيل المرفوع .

وروى الحافظ رزين العبدرى مرفوعا مرسلا :

« مَنْ أَخْلَصَ لِلهِ تَعَالَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » .

قال الحافظ المنذرى ولم أقف لهذا الحديث على إسناد صحيح ولا حسن ، ولا على ذكره فى شىء من الأصول التى جمعها رزين ، والله أعلم .

وروى الإمام أحمد والبيهقى مرفوعا :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ ، وجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيماً وَلِسَانَهُ صَادِقاً وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً ، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً » الحديث .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« إنمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ » وفى رواية : « بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مانَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ » .

وروى ابن ماجه باسناد حسن مرفوعا :

« إِنَّمَا يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » وفى رواية . « إِنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » .

وروى مسلم مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يَنْظُرُ إلَى أَجْسَامِكُمْ وَلاَ إلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا :

« إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ صَارَتْ أُمَّتِي ثَلَاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهِ خَالِصاً ، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهَ رِيَاءً ، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى لِيَسْتَأْكِلُوا بِهِ النَّاسَ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُخْلِصِينَ اذْهَبُوا بِهِمْ إلَى الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ لِلآخَرِينَ امْضُوا بِهِمْ إلَى النَّارِ » الحديث .

وروى الحافظ أبو نعيم عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : من رأى نفسه من المخلصين كان من المرائين ، ومن رأى نفسه من المرائين كان من المخلصين .

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة وسيأتى فى أوائل قسم المنهيات نبذة صالحة فيما جاء فى الرياء وعدم الإخلاص فى العمل والعلم فراجعه والله أعلم .

قلت : فقد بان لك أن من لم يخلص فى عمله وعلمه فهو من الأخسرين أعمالا ، ويشهد لذلك أيضا قرائن الأحوال التى جاءت بها الأحاديث فى سياقها ، وجميع ماورد فى فضل العلم والعمل إنما هو فى حق المخلصين فيه . فإياك ياأخى والغلط فإن الناقد بصير ، وقد كثر فى هذا الزمان أقوام لايعملون بعلمهم ، وإذا نازعهم إنسان فى دعواهم فى قولهم نحن من أهل العلم استدلوا بما جاء فى فضل طلب العلم مطلقا من غير شرط إخلاص ، فيقال لمثل هؤلاء فأين الآيات والأخبار والآثار الواردة فى حق من لم يعمل بعلمه ولم يخلص ؟ فلا تغالط يا أخى وتدعى الإخلاص فى علمك وعملك من غير تفتيش فإنه غش .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول فى معنى حديث :

« إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » .

هذا الرجل يتعلم العلم رياء وسمعة فيعلم الناس أمور دينهم ويفقههم ويحرسهم وينصر الدين إذا ضعف جانبه ، ثم يدخله الله تعالى بعد ذلك النار لعدم إخلاصه اه :

أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتبع السنة المحمدية فى جميع أقوالنا وأفعالنا وعقائدنا ، فإن لم نعرف لذلك الأمر دليلا من الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس توقفنا عن العمل به ، ثم ننظر فإن كان ذلك الأمر قد استحسنه بعض العلماء استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ثم فعلناه أدبا مع ذلك العالم ، وذلك كله خوف الابتداع فى الشريعة المطهرة فنكون من جملة الأئمة المضلين ، وقد شاورته صلى الله عليه وسلم فى قول بعضهم : إنه ينبغى أن يقول المصلى فى سجود السهو : سبحان من لا ينام ولا يسهو ، فقال صلى الله عليه وسلم هو حسن ، ثم لايخفى أن الاستئذان لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بحسب المقام الذى فيه العبد حال إرادته الفعل ، فإن كان من أهل الاجتماع به صلى الله عليه وسلم يقظة ومشافهة كما هو مقام أهل الكشف استأذنه كذلك وإلا استأذنه بالقلب وانتظر مايحدثه الله تعالى فى قلبه من استحسان الفعل أو الترك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ليس مراد الأكابر من حثهم على العمل على موافقة الكتاب والسنة إلا مجالسة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر لاغير فإنهم يعلمون أن الحق تعالى لايجالسهم إلا فى عمل شرعه هو ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما ماابتدع فلا يجالسهم الحق تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه أبدا وإنما يجالسون فيه من ابتدعه من عالم أو جاهل ، فعلم أنه ليس قصد أهل الله تعالى بعبادتهم

حصول ثواب ولا غيره فى الآخرة، لأنهم فى الدارين عبيد والعبد لايملك شيئا مع سيده فى الدنيا والآخرة إنما يأكل ويلبس ويتمتع بمال سيده وسداه ولحمته من نعمته ، ولو أن الحق تعالى أعطاه شيئا لوجب عليه التبرى منه إلى ربه ، ولا يجوز له أن يشهد ملكه له طرفة عين ، فلهذا المشهد خرجوا فى جميع عباداتهم عن العلل النفسانية فرضوا عن ربهم رضا مطلقا ورضى عنهم رضا مطلقا :

(ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) اهـ .

واعلم يا أخى أن من تحقق بالعمل بهذا العهد صار من رؤوس أهل السنة والجماعة فى عصره ؛ ومن لم يلقبه بذلك فقد ظلمه ، ولا أعلم الآن أحدا فى مصر تحقق بالعمل بهذا العهد وتقيد فى أقواله وأفعاله وعقائده بالكتاب والسنة إلا بعض أفراد من العلماء ،كالشيخ عبد الرحمن التاجورى المغربى وأضرابه رضى الله عنهم أجمعين .

قلت : وقد من الله تعالى على بالعمل به فى بعض أقوالى وأفعالى ، فكذب والله وافترى من نسبنى إلى البدعة المخالفة لجمهور أهل السنة والجماعة ، فإن هذا ماهو نفس مبتدع ، اللهم إلا أن يريد الابتداع فى شىء من المباحات فى الشريعة بحكم العمومات فهذا لاحرج عليه فى ذلك ،لأن هذا الأمر قل من سلم منه من العلماء فضلا عن غيرهم كما هو مشاهد ، فاعلم ذلك واحم سمعك وبصرك فى حق العلماء ، ولا تصغ إلى قول حاسد لهم قط إلا إن اجتمعت بأحدهم وفاوضته فى الكلام فى تلك البدعة ، فإذا رأيته متخلقا بها وعرفته بأنها بدعة وصمم على العمل بها فهناك حذر الناس منه شفقة عليه وعلى المسلمين ، حتى لايقع أحد منهم فى إثم لاالمبتدع ولا من تبعه . وإياك أن تحذر من اتباع أحد من العلماء بقول أحد من حسادهم من غير اجتماع به فربما يكون بريئا مما نسب إليه ، فيكون عليك إثم قاطع الطريق على المريدين لاتباع الشريعة ، فإنك حينئذ تحذر من اتباع السنة المحمدية ، وهذا واقع كثيرا فى الأقران فى هذا الزمان ، فترى كل واحد يحذر الناس عن الآخرة وكل منهما يزعم أنه من أهل الطريق والسنة والجماعة ، فيختل الأمر إلى عدم الاقتداء بواحد منهما ، فالله يحمينا وأصحابنا من مثل ذلك بمنه وكرمه آمين .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : لاتكمل عبادة فقير حتى يصير يشاهد الشرع فى كل عبادة عملها ، يعنى يعملها بحضرته على الكشف والمشاهدة ، لاعلى الإيمان والحجاب ، ثم قال : فإن قال قائل مادليلك على ذلك ؟ قلنا له قد رأيت النبى

صلى الله عليه وسلم فى واقعة من الوقائع فقلت له يارسول الله ماحقيقة متابعتك فى العمل على موافقة شريعتك ، فقال هى أن تعمل العمل مع شهودك للشرع حال العمل وبعد العمل اه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى الإحاطة بأدلة جميع المذاهب المستعملة والمندرسة وأقوال علمائها حتى لايكاد يخفى عليه دليل من أدلتهم ولا قول من أقوالهم فى مأمور به أو منهى عنه أو مباح ، ثم بعد ذلك لابد له من شيخ صادق يسلم إليه نفسه يتصرف فيها بالرياضات والمجاهدات حتى يزيل عنه سائر الصفات المذمومة ويحليه بالصفات المحمودة ليصلح لمجالسة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإن غالب الناس قد ادعوا مجالسة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مع تلطخهم بالقاذورات المانعة من دخول حضرة الله وحضرة رسوله فازدادوا مقتا وطردا . فاعمل ياأخى على جلاء مرآة قلبك من الصدأ والغبار ، وعلى تطهرك من سائر الرذائل حتى لايبقى فيك خصلة واحدة تمنعك من دخول حضرة الله تعالى ، أو حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أكثرت من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم فربما تصل إلى مقام مشاهدته صلى الله عليه وسلم ، وهى طريق الشيخ نور الدين الشونى ، والشيخ أحمد الزواوى ، والشيخ محمد بن داود المنزلاوى ، وجماعة من مشايخ اليمن ، فلا يزال أحدهم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكثر منها حتى يتطهر من كل الذنوب ، ويصير يجتمع به يقظة أى وقت شاء ومشافهة ، ومن لم يحصل له هذا الاجتماع فهو إلى الآن لم يكثر من الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الإكثار المطلوب ليحصل له هذا المقام .

وأخبرنى الشيخ أحمد الزواوى أنه لم يحصل له الاجتماع بالنبى صلى الله عليه وسلم يقظة حتى واظب على الصلاة عليه سنة كاملة يصلى كل يوم وليلة خمسين ألف مرة ، وكذلك أخبرنى الشيخ نور الدين الشونى أنه واظب على الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كذا وكذا سنة يصلى كل يوم ثلاثين ألف صلاة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لايكمل عبد فى مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم أى وقت شاء ، قال : وممن بلغنا أنه كان يجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم يقظة ومشافهة من السلف ، الشيخ أبو مدين شيخ الجماعة والشيخ عبد الرحيم القناوى ، والشيخ موسى الزولى ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى ،

والشيخ أبو العباس المرسي ، والشيخ أبو السعود بن أبي العشائر ، وسيدى إبراهيم المتبولى والشيخ جلال الدين الأسيوطى ، كان يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم واجتمعت به يقظة نيفا وسبعين مرة .

وأما سيدى إبراهيم المتبولى فلا يحصى اجتماعه به لأنه كان يجتمع به فى أحواله كلها ويقول : ليس لى شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الشيخ أبو العباس المرسى يقول : لو احتجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ماعددت نفسى من جملة المؤمنين .

واعلم أن مقام مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم عزيزة جدا ، وقد جاء شخص إلى سيدى على المرصفى وأنا حاضر فقال : ياسيدى قد وصلت إلى مقام صرت أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة أى وقت شئت ، فقال له : ياولدى بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام ؛ وسبعة وأربعون ألف مقام ، ومرادنا تتكلم انا ياولدى على عشر مقامات منها ، فما درى ذلك المدعى مايقول وافتضح فاعلم ذلك :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

ولنشرع فى بيان جملة من الأحاديث الحاثة على اتباع الكتاب والسنة فنقول وبالله التوفيق :

روى أبو داود الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، قال المنذرى : وهذا حديث حسن صحيح عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال :

« وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالْعَمَلِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعُ الْأَطْرَافِ؛ فَإِنَّ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ » .

ومعنى «عضوا عليها بالنواجذ» أى اجتهدوا على وجه البدعة، والزموا السنة واحرصوا

عليها ، كما يلزم العاض على الشيء بنواجذه خوفا من ذهابه وتفلته ، والنواجذ : هى الأنياب وقيل هى الأضراس .

وروى ابن أبى الدنيا والحاكم وقالا صحيح الإسناد ، مرفوعا :

« مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ وَأَمِنَ النَّاسُ بَوَائِقَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ فِي أُمَّتِكَ كَثِيرٌ ؟ قَالَ : وَسَيَكُونُ فِي قَوْمٍ بَعْدِي » . يعنى قلائل .

وروى البيهقى مرفوعا : « مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد على شرط الشيخين مرفوعا :

« الْاقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ أَحْسَنُ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قبل الحجر الأسود وقال إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحيهما عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط فبايعناه وإنه لمطلق الأزرار ؛ قال عروة بن عبدالله فما رأيت معاوية ولا ابنه قط فى شتاء ولا صيف إلا مطلق الأزرار ، وفى رواية إلا مطلقة أزرارهما .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى عن زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلى محلولة أزراره ، فسألته عن ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله .

وروى الإمام أحمد والبزار عن مجاهد وغيره قال : كنا مع ابن عمر فى سفر فمر بمكان فحاد عنه ، فسئل لم فعلت ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل هذا ففعلته ، وقوله حاد : أى تنحى عنه وأخذ يمينا أو شمالا .

وروى البزار عن ابن عمر أنه كان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يفعل مثل ذلك .

وروى الإمام أحمد وغيره أن ابن عمر أناخ راحلته فى مكان فقضى حاجته ، وأخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى حاجته فى ذلك المكان ، وقال أحببت أن أقضى حاجتى فى موضع قضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته .

قلت : وإنما تبع ابن عمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك لأن الكمل يستحيون من الأرض إذا قضوا عليها الحاجة خوفا أن تكون تلك البقعة مشرفة لاتصلح لقضاء الحاجة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك قال في نفسه لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن تلك البقعة تصلح لذلك مافعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك .

قال الحافظ : والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم في اتباعهم له واقتفائهم سننه كثيرة جدا ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكون في أعمال الخير من أهل الرعيل الأول فنبدأ بفعل الخير قبل الناس مسارعة للخير ويستن بنا الناس ، وذلك كما إذا رأينا إنسانا يسأل الناس ولا أحد يعطيه شيء فنعطيه أمام الناس تحريضا لهم على العطاء ولا نعطيه سرا ، وكذلك نحرص على أن نقوم من الليل من أول مايقع التجلي :

« وَيُنَادِي الْحَقُّ تَعَالَى هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُبْتَلًى فَأُعَافِيَهُ » .

إلى آخر ماورد في ذلك من أول الثلث الأخير من الليل في أغلب التجليات التي كان صلى الله عليه وسلم يتهجد وقتها ، كما أشار إليه قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) .

وذلك ليتأسى بنا إخواننا وجيراننا ، فربما قام أحدهم يتهجد حين يرانا فيكتب لنا وله الأجر .

ومن هذا الباب أيضا إظهار التصبر على البلايا والمحن في هذا الزمان ليتأسى الناس بنا في الصبر وعدم التسخط ، فإن رأينا الصبر بلغ حده أظهرنا الضعف حتى يرتفع كما وقع لأيوب عليه السلام ، فعلم أنه ينبغي لكل عامل أن يستر عمله ما استطاع إلا في محل يقتدى به في فعله وفي كيفيته ، والله تعالى اعلم .

وسمعت سيدي عليا الخواص رضي الله عنه يقول : لاينبغي إظهار الأعمال إلا للأكابر من العلماء والصالحين الغواصين على دسائس النفوس ، وأما أمثالنا فربما يظهر الواحد منا أعماله رياء وسمعة وتلبس عليه نفسه وتقول له أنت بحمد الله من المخلصين ، وإنما تظهر هذه العبادة ليقتدى بك الناس فينبغي لمثل هذا أن يمتحن نفسه بما لو جاء أحد يفعل ذلك الخير وتنقات الناس له مثله أو أكثر منه ، فإن انشرح لذلك فهو مخلص ، وإن انقبض خاطره

فهو مرائي دق المطرقة ، ولو أنه كان مخلصا لفرح بذلك أشد الفرح الذى قيض الله تعالى له من كفاه المؤنة ، ثم إن قالت له نفسه إنما تشوشت لفوات الخير العظيم الذى كان يحصل لك من حيث هو خير فليقل لها إنى معتمد على فضل الله لاعلى الأعمال ، فإن دخلت الجنة فإنما هو برحمة الله تعالى لا بعملى ، فينبغى للعبد أن لايصغى لدعوى نفسه فى الإخلاص وليمتحن الشيخ أو المدرس نفسه بما إذا فرت جماعته كلهم منه إلى شخص من أقرانه وبقى وحده لا يجد أحدا يتمشيخ عليه ، فإن انشرح لذلك فهو مخلص وإن حصل فى نفسه حزازة فالواجب عليه أن يتخذ له شيخا يخرجه من ظلمات الرياء وإلا مات عاصيا وذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الخير ، لأن الله تعالى لم يقبل له عملا اه :

وسمعته أيضا يقول : ينبغى للعالم إذا درس فى مثل جامع الأزهر أن يحرر نيته قبل ذلك ، ولو مكث سنين بلا إقراء حتى يجد له نية صالحة وذلك لغلبة دخول الأكابر الذين تميل النفوس إلى مراآتهم من الأمراء والأغنياء إلى الجامع ، وكان النووى إذا درس فى المدرسة الأشرفية بدمشق يوصى الطلبة أن لا يجيئوا دفعة واحدة خوفا من كبر الحلقة .

وكان إذا درس جلس فى عطفة المسجد ويقول : إن النفس تستحلى رؤية الناس لها وهى تدرس فى صحن المسجد أو صدره .

وبلغه يوما وهو يدرس فى جامع بنى أمية أن الملك الظاهر عازم على الصلاة فى الجامع فترك التدريس وحضور المسجد ذلك اليوم . فإياك يا أخى أن تعقد لك مجلس علم أو ذكر الله تعالى أو صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراك الناس إلا أن تكون سالما من هذه العلل والآفات .

وقد حضرت مرة الشيخ العالم العامل شمس الدين اللقانى مفتى المالكية بالجامع الأزهر وهو يقول لشيخنا الشيخ نور الدين الشونى شيخ مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا أخى إنى خائف عليك من تصدرك فى الجامع فى هذا المجلس ليلة الجمعة ويومها والأمراء والأكابر ينظرون إليك ، ويعتقدونك على ذلك ويقولون شىء لله المدد . فربما مالت نفسك إلى حب فرحها بذلك فخسرت الدنيا والآخرة .

وسمعته مرة أخرى يقول : إذا فرغ الناس من صلاة الجمعة فاصبر على قراءة سورة الكهف حتى ينفض الناس ، ثم اشرع فى القراءة فإن النفس تستحلى رؤية الناس لها فى ذلك المحفل العظيم اه .

فاعلم يا أخى ذلك واعمل به وبهدى هدى الصادقين اقتد والله يتولى هداك .

وروى مسلم والنسائى وابن ماجه وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه قوم من مضر مجتابى النمار : أى لابسى العباء الصوف المخطط فتمعروجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) والآية التى فى الحشر (اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) .

« تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ حَتَّى قَالَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » .

قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت فتتابع الناس حتى صار كومين من طعام وثياب حتى تهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ » الحديث .

وفى رواية للإمام أحمد والحاكم وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ سَنَّ خَيْرًا فَاسْتُنَّ بِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ » الحديث .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا :

« مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا مَا عَمِلَ بِهَا عَامِلٌ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ حَتَّى تُتْرَكَ » الحديث .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا وقال حديث حسن :

« مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْءٌ » .

ومعنى لا يرضاها الله ورسوله : أى لا يشهد لها كتاب ولا سنة بالصحة .

وروى ابن ماجه والترمذى وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ لِهٰذَا الْخَيْرِ خَزَائِنَ وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ندمن مطالعة كتب العلم وتعليمه للناس ليلا ونهارا ماعدا العبادات المؤقتة والحوائج الضرورية .

ومذهب إمامنا الشافعى رضى الله عنه أن طلب العلم على وجه الإخلاص أفضل من صلاة النافلة . واعلم أن الشارع صلى الله عليه وسلم ما نوع العبادات المتفاضلة فى الأجر إلا لعلمه صلى الله عليه وسلم بحصول الملل للعاملين ولو فى الأمور الواجبة ، فإذا حصل الملل فيها انتقلوا إلى واجب آخر أو إلى ذلك الأمر المفضول ، فإذا حصل الملل منه كذلك انتقلوا لمفضول آخر أو فاضل أو أفضل مالم يجدوا فى نفوسهم مللا فيه ، فعلم أن سبب تنوع المأمورات إنما هو وجود الملل فيها إذا دامت ، فلو تصور أن إنسانا لم يمل من الواجبات أو مما هو أفضل لأمره صلى الله عليه وسلم بملازمتها وترك الأمور المفضولة جملة ، لأنه ما تقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل أداء مافترضه عليهم ، ولكن لما كان يحصل لهم من الملل فى الواجبات حتى لايبقى فى نفس العامل داعية ولا خشوع ولا لذة بتلك العبادات كان العمل المفضول الذى له فيه داعية ولذة وخشوع أتم وأكمل .

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقسم الليل ثلاثة أجزاء ، جزءا ينام فيه ، وجزءا يطالع الحديث ويستنبط وجزءا يتهجد فيه . وكان يقول : لولا مذاكرة الإخوان فى العلم والتهجد فى الليل ماأحببت البقاء فى هذه الدار ، فعلم أنه لا ينبغى لطالب العلم أن يكب على مطالعة العلم ليلا ونهارا إلاإذا صلحت النية فيه ، ولم يقم أحد مقامه فى بلده أو إقليمه فإن دخل نيته حب رياسة أو طلب دنيا أوقام أحد مقامه فى نشر العلم فالاشتغال بكل ماصلحت فيه النية من الطاعات أولى ، وسيأتى فى العهود قريبا أن من جملة العمل بالعلم توبة العبد واستغفاره إذا وقع فى معصية ، فإنه لولا العلم ماعرف أنها معصية ، ولا تاب منها فتأمل

وقد قال داود الطائى رحمه الله تعالى : طالب العلم كالمحارب فإذا أفنى عمره فى تعليم

كيفية القتال فتى يقاتل ؟ فمن عقل العاقل أنه كلما رأى نفسه عملت بكل ماعلم واحتاجت للعلم أن يقدمه على سائر الطاعات التى لم يأمره الشارع بتقديمها عليه ، وكلما رأى نفسه مستغنية عن العلم وعلمها زائد على حاجتها أن يقدم غيره عليه كما كان عليه السلف الصالح فلا بد لكل إنسان من العلم والعمل والاشتغال بواحد منهما دون الآخر نقص .

واعلم أن جميع ماورد فى فضل العلم وتعليمه إنما هو فى حق المخلصين فى ذلك فلا تغالط فى ذلك فإن الناقد بصير . وقد وقع لنا مع المجادلين نزاع كثير فى ذلك ، فإنا نراهم متكالبين على الدنيا ليلا ونهارا مع دعواهم العلم وتعظيمهم نفوسهم بالعلم والجدال من غير أن يعرجوا على العمل بما علموا ويستدل أحدهم بما ورد فى فضل العلم وينسى الأحاديث التى جاءت فى ذم من لم يعمل بعلمه جملة واحدة ، وهذا كله غش النفس ، وفى القرآن العظيم :

(هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللّٰهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) .

فاسلك يا أخى على يد شيخ يخرجك من هذه الرعونات والظلمات والدعاوى وتصير تبكى على تفريطك فى الأعمال حتى يصير لك خطان أسودان فى وجهك من سيلان الدموع وإن لم تسلك كما ذكرنا فيطول تعبك فى الآخرة ، ياخسارة تعبك فى تحصيلك للدنيا .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول فى معنى حديث :

« إِنَّ اللّٰهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » .

معناه أن الناس ينتفعون بعلم الفاجر وتعليمه وإفتائه وتدريسه حتى يكون فى الصورة كالعلماء العاملين ، ثم يدخله الله بعد ذلك النار لعدم إخلاصه كما مر قريبا ، نسأل الله اللطف فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » زاد فى رواية : « إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

وروى البزار والطبرانى مرفوعا :

« إِذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الْفِقْهُ وَأَفْضَلُ الدِّينِ الْوَرَعُ » .

وروى الطبرانى والبزار باسناد حسن مرفوعا :

« فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« قَلِيلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ وَكَفَى بِالْمَرْءِ فِقْهًا إِذَا عَبَدَ اللهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا إِذَا عجب بِرَأْيِهِ » .

ورواه البيهقى باسناد حسن صحيح من قول مطرف بن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا :

« طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« مَنْ جَاءَهُ أَجَلُهُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لَقِيَ اللهَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ إِلَّا دَرَجَةُ النُّبُوَّةِ » .

وروى ابن ماجه باسناد حسن عن أبى ذر قال :

« قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ

تَعَالَى خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ عَمِلْتَ بِهِ أَوْ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ » .

وروى الخطيب باسناد حسن مرفوعا :

« الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَعِلْمٌ فِي اللِّسَانِ وَذَلِكَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ » .

وروى الديلمى فى مسنده وأبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين التى له فى التصوف والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللهِ تَعَالَى فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ »

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا لم نجد أحداً نتعلم منه العلم الشرعى فى بلدنا أن نسافر إلى بلد فيها العلم ، وهى هجرة واجبة علينا إذا ، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وهذا العهد قد أخل به كثير من الخلق ، وماتوا على جهلهم ، مع أن العلماء فى بلدهم وربما كانوا جيرانا لهم . وقد قال العلماء : من صلى جاهلا بكيفية الوضوء والصلاة يعنى أو غيرهما لم تصح عبادته وإن وافق الصحة فيها ، ويؤيده الحديث الصحيح مرفوعا :

« كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » .

فمن صلى ونكح وباع وصام وحج على حسب مايرى الناس يفعلون فقط فعبادته فاسدة ، وتأمل من كان عنده شك لما يسأله منكر ونكير عن دينه وعن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فيقول : لاأدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، كيف يضربانه بمرزبة لو ضرب بها جبل لهدم كما ورد ، تعرف أن الشارع فرض عليك معرفة مراتب العبادات ، وأنه لايكفيك أن تتبع الناس على فعلهم من غير معرفة :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وتقدم حديث مسلم وغيره مرفوعا :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » .

وروى الترمذى وصححه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد واللفظ لابن ماجه مرفوعا :

«مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ وَضَعَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ» .

وروى الطبرانى باسناد مرفوعا لابأس به :

«مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حَجَّتُهُ» .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسمع الناس الحديث الاكل قليل ونبلغه إلى البلاد التى ليس فيها أحاديث ، وذلك بكتبنا كتب الحديث وإرسالها إلى بلاد الإسلام .

وقد كتبت بحمد الله كتابا جامعا لأدلة المذاهب وأرسلته مع بعض طلبة العلم إلى بلاد التكرور حين أخبرونى أن كتب الحديث لاتكاد توجد عندهم إنما عندهم بعض كتب المالكية لاغير ، وأرسلت نسخة أخرى إلى بلاد المغرب ، كل ذلك محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعملا على مرضاته صلى الله عليه وسلم .

وكان سفيان الثورى وابن عيينة وعبد الله بن سنان يقولون : لو كان أحدنا قاضيا لضربنا بالجريد فقيها لايتعلم الحديث ومحدثا لايتعلم الفقه .

وفى كتابة الحديث وإسماعه للناس فوائد عظيمة ، منها عدم اندراس أدلة الشريعة ، فإن الناس لو جهلوا الأدلة جملة والعياذ بالله تعالى لربما عجزوا عن نصرة شريعتهم عند خصمهم ، وقولهم : إنا وجدنا أباءنا على ذلك . لايكفى ، وماذا يضر الفقيه أن يكون محدثا يعرف أدلة كل باب من أبواب الفقه .

ومنها تجديد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حديث ، وكذلك تجديد الترضى والترحم على الصحابة والتابعين من الرواة إلى وقتنا هذا .

ومنها وهو أعظمها فائدة الفوز بدعائه صلى الله عليه وسلم لمن بلغ كلامه إلى أمته فى قوله :

« نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا » .

ودعاؤه صلى الله عليه وسلم مقبول بلا شك إلا ما استثنى كعدم إجابته صلى الله عليه وسلم فى أن الله تعالى لايجعل بأس أمته فيما بينهم ، كما ورد .

وقوله : فأداها كما سمعها ، يبهم أن ذلك الدعاء إنما هو خاص بمن أدى كلامه صلى الله عليه وسلم كما سمعه حرفا بحرف بخلاف من يؤديه بالمعنى ، فربما لايصيبه من ذلك الدعاء شيء ، ومن هنا كره بعضهم نقل الحديث بالمعنى وبعضهم حرمه :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« نَضَّرَ اللهُ امْرَأً » وفى رواية ابن حبان: « رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » .

ومعنى نضر الله : الدعاء بالنضارة ، وهى النعمة والبهجة والحسن ، تقديره جمله الله وزينه بالأخلاق الحسنة والأعمال المرضية ، وقيل غير ذلك .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا :

« فَرُبَّمَا حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا :

« اللَّهُمَّ ارْفَعْ خُلَفَائِي قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ وَمَا خُلَفَاؤُكَ ؟ قَالَ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يَرْوُونَ أَحَادِيثِي وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ » .

قال الحافظ عبد العظيم رحمه الله : وناسخ العلم النافع له أجره ، وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقى خطه والعمل به لحديث مسلم مرفوعا :

« إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ » الحديث .

قال : وأما ناسخ غير العلم النافع مما يوجب الإثم عليه فعليه وزره ووزر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقى خطه والعمل به كما يشهد له حديث :

« وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » .

وذلك كعلوم السحر والبراهمة وعلم جابر المبدل ونحوها ، مما يضر صاحبه فى الدنيا والآخرة .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذٰلِكَ الْكِتَابِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نخلى نفوسنا من مجالسة العلماء ولو كنا علماء ، فربما أعطاهم الله من العلم مالم يعطنا ، وهذا العهد يخل بالعمل به كثير من الفقهاء والصوفية ، فيدعون أن عندهم من العلم ماعند جميع الناس ، بل سمعت بعضهم يقول لما لمته على عدم التردد للعلماء ، والله لو علمت أن أحدا فى مصر عنده علم زائد على ماعندى لخدمت نعاله ، ولكن بحمد الله تعالى قد أعطانا الله تعالى من العلم ماأغنانا به عن الناس ، وهذا كله جهل بنص الشارع كما سيأتى فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ قَالَ إِنِّي عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ » .

وفى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كفاية لكل معتبر . فاجتمع ياأخى فى كل قليل على العلماء واغتنم فوائدهم ، ولا تكن من الغافلين عنهم فتحرم بركة أهل عصرك كلهم لكونك رأيت نفسك أعلى منهم أو مساويا لهم ، فإن الإمدادات الإلهية من علم أو غيره حكمها حكم الماء ، والماء لا يجرى إلا فى السفليات ، فمن رأى نفسه أعلى من أقرانه لم يصعد له منهم مدد ، ومن رأى نفسه مساويا لهم فمددهم واقف عنه كالحوضين المتساويين ، فما بقى الخير كله إلا فى شهود العبد أنه دون كل جليس من المسلمين لينحدر له المدد منهم كما أوضحنا ذلك فى أول عهود المشايخ :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا :

« إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا ، قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ ، وَمَارِيَاضُ الْجَنَّةِ ، قَالَ : مَجَالِسُ الْعِلْمِ » .

قال وفى سنده راو لم يسم .

وفى رواية له أيضا عن أبى أمامة مرفوعا أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يابنى عليك بمجالسة العلماء واسمع كلام الحكماء ، فإن الله تعالى ليحيى القلب الميت بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر .

قال الحافظ العبدرى : ولعل هذا الحديث موقوف .

وروى أبو يعلى ورواته رواة الصحيح إلا واحدا عن ابن عباس قال :

« قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ : قَالَ مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عِلْمُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكرم العلماء ونجلهم ونوقرهم ولا نرى لنا قدرة على مكافأتهم ولو أعطيناهم جميع مانملك ، أو خدمناهم العمر كله ، وهذا العهد قد أخل به غالب طلبة العلم والمريدين فى طريق الصوفية الآن ، حتى لا نكاد نرى أحدا منهم يقوم بواجب حق معلمه ، وهذا داء عظيم فى الدين مؤذن باستهانة العلم وبأمر من أمرنا بإجلال العلماء صلى الله عليه وسلم ، فصار أحدهم يفخر على شيخه حتى صار شيخه يداهنه ويمالقه حتى يسكت عنه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد بلغنا عن الإمام النووى أنه دعاه يوما شيخه الكمال الأربلى ليأكل معه ، فقال ياسيدى أعفنى من ذلك .

فإن لى عذرا شرعيا فتركه ، فسأله بعض إخوانه ماذلك العذر ؟ فقال أخاف أن تسبق عين شيخى إلى لقمة فآكلها وأنا لا أشعر :

وكان رضى الله عنه إذا خرج للدرس ليقرأ على شيخه يتصدق عنه فى الطريق بما تيسر ويقول اللهم استر عنى عيب معلمى حتى لاتقع عينى له على نقيصة ولا يبلغنى ذلك عنه عن أحد رضى الله عنه ، ثم من أقل آفاتى سوء أدبك ياأخى مع الشيخ أنك تحرم فوائده ، فإما يكتمها عنك بغضا فيك وإما أن لسانه ينعقد عن إيضاح المعانى لك ، فلا تتحصل من كلامه على شىء تعتمد عليه عقوبة لك ، فإذا جاءه شخص من المتأدبين معه انطلق لسانه له لموضع صدقه وأدبه معه ، فعلم أنه ينبغى للطالب أن يخاطب شيخه بالإجلال والإطراق وغض البصر كما يخاطب الملوك ولا يجادله قط بعلم استفاده منه فى وقت آخر إلا على سبيل التعرف ؛ فيقول : ياسيدى سمعناكم تقررون لنا أمس خلاف هذا

فماذا تعتمدون عليه من التقريرين الآن حتى نحفظه عنكم ؟ ونحو ذلك من الألفاظ التى فيها رائحة الأدب ، وكذلك ينبغى له أن لايتزوج امرأة شيخه سواء كانت مطلقة فى حياته أو بعد مماته ، وكذلك لاينبغى له أن يسعى على وظيفته أو خلوته أو بيته بعد موته فضلا عن حياته إلا لضرورة شرعية ترجح على الأدب مع الشيخ ، وكذلك لاينبغى أن يسعى على أحد من أصحاب شيخه أو جيرانه فضلا عن أولاده ؛ فإن الواجب على كل طالب أن يحفظ نفسه عن كل مايغير خاطر شيخه فى غيبته وحضوره .

وسيأتى فى هذا الكتاب أيضا فى أثناء عهود البيع فراجعه ، وكذلك بسطنا الكلام بنقول العلماء على ذلك فى عهود المشايخ :

(وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وروى البخارى : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فِي قَتْلَى أُحُدٍ يَعْنِي فِي الْقَبْرِ ثُمَّ يَقُولُ أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ فَإِذَا أُشِيرَ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ » .

قلت : ومعنى كونه أكثر أخذا للقرآن ، أى أكثر عملا به من قيام ليل واجتناب نهى ونحو ذلك .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ » .

وفى رواية للإمام أحمد والطبرانى والحاكم مرفوعا :

« لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ » .

وفى رواية : « وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ » .

وروى الطبرانى أيضا مرفوعا :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إلاَّ مُنَافِقٌ : ذُو الشَّيْبَةِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَذُو الْعِلْمِ وَالإِمَامُ الْمُقْسِطُ » الحديث .

وروى الإمام أحمد والطبرانى باسناد حسن عن عبد الله بن بشر قال : سمعت حديثا منذ زمان :

« إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عِشْرُونَ رَجُلاً أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ فَتَصَفَّحْتَ وُجُوهَهُمْ فَلَمْ تَرَ فِيهِمْ رَجُلاً يُهَابُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ رَقَّ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إلاَّ ثَلاَثَ خِصَالٍ فَذَكَرَ مِنْهَا وَأَنْ يَرَوْا ذَا عِلْمٍ فَيُضَيِّعُونَهُ وَلاَ يَسْأَلُونَ عَلَيْهِ » .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا لم نعمل بعلمنا أن ندل عليه من يعمل به من المسلمين ، وإن لم يكن ذلك يجبر خللنا على التمام فإن من الناس من قسم له العلم ولم يقسم له عمل به ، ومنهم من قسم له العلم والعمل به ، ومنهم من لم يقسم له واحد منهما كبعض العوام .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : يتعين على كل من لم يعمل بعلمه أن يعلمه الناس ولمن يرجو عمله به .

وسمعته مرة أخرى يقول : ماثمّ عالم إلا وهو يعمل بعلمه ولو بوجه من الوجوه ، مادام عقله حاضرا ، وذلك أنه إن عمل بالمأمورات الشرعية واجتنب المنهيات فقد عمل بعلمه بيقين إذا رزقه الله الإخلاص فيه ، وإن لم يعمل بعلمه كما ذكرنا فيعرف بالعلم أنه خالف أمر الله فيتوب ويندم فقد عمل أيضا بعلمه ، لأنه لولا العلم ما اهتدى لكون ترك العمل بالعلم معصية ، فالعلم نافع على كل حال ويحمل ماورد فى عقوبة من لم يعمل بعلمه على من لم يتب من ذنبه اه . وهو كلام نفيس .

وملخص ذلك أنه لايشترط فى كون الإنسان عاملا بعلمه عدم وقوعه فى معصية ، كما يتبادر إلى الأذهان ، وإنما الشرط عدم إصراره على الذنب أو عدم إصراره على الإصرار وهكذا .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة مرفوعا :

« إِنَّمَا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمٌ عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى مرفوعا :

« مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ أَوْ قَالَ عَامِلِهِ » .

وروى البزار والطبرانى مرفوعا :

« الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا :

« مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » .

وروى الحاكم مرفوعا عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى :

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) . قال : « عَلِّمُوا أَهْلِيكُمُ الْخَيْرَ » .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكرم المساجد ولا نقضى الحاجة قريبا من أبوابها فى غير الأمكنة المعدة لذلك تعظيما وإجلالا لله تعالى ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس الذين حوانيتهم قريبة من أبواب المساجد فيتكلفون دخول المسجد إن كانت مطهرته يدخل إلى مجازها منه لأجل خلع نعالهم إذا دخلوا المسجد أو لكونها دورة عليهم ، ونحو ذلك ؛ وهذا الفعل من أقبح مايكون ، وليتأمل أحدهم إذا أراد أن يدخل قصر السلطان لايقدر يبول قط على باب قصره هيبة للسلطان وخوفا من خدامه ، فالله تعالى أحق بذلك .

وسيأتى زيادة على ذلك فى العهد الثالث عشر بعد هذا فراجعه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله إذا أراد أن يدخل المسجد يتطهر خارجه أو فى بيته ، ولايدخل قط محدثا ليتوضأ فى الميضأة التى هى داخل المسجد خوفا أن يدخل محدثا ، وكان إذا دخل المسجد يصير يرتعد من الهيبة حتى يقضى الصلاة فيخرج مسرعا ويقول الحمد لله الذى أطلعنا من المسجد على سلامة .

فقلت له : أنتم بحمد الله فى حضور مع الله تعالى داخل المسجد وخارجه .

فقال : ياولدى قد طلب الحق تعالى منا فى المسجد آدابا لم يطلبها منا خارجه وانظر إلى نهيه صلى الله عليه وسلم الجالس فى المسجد عن تشبيك الأصابع وعن تقليب الحصى ونحو ذلك تعرف ماقلنا ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم لم ينهنا عن ذلك فى غير المسجد .

ورأى رضى الله عنه مرة شخصا من الفقراء يمشى بتاسومة طاهرة فى صحن المسجد فزجره ونهاه عن ذلك ، وقال تورع فى اللقمة أحوط لك .

وقام له شخص مرة فى المسجد فزجره زجرا شديدا وقال . إن العبد إذا عظم فى حضرة الله تعالى ذاب كما يذوب الرصاص حياء من الله تعالى أن يشاركه فى صورةالتعظيم والكبرياء . وكان إذا جاء إلى المسجد لايتجرأ أن يدخل وحده ، بل يصبر على الباب حتى يأتى أحد فيدخل وراءه تبعاله ويقول : المسجد حضرة الله تعالى ولا يبدأ بالجلوس بين يدى الله تعالى قبل الناس إلا المقربون الذين لا خطيئة عليهم ، ولاتدنست جوارحهم قط بمعصية أووقعوا وتابوا منها توبة نصوحا ، كالأولياء الذين سبقت لهم العناية الربانية بالولاية الكبرى فى علم العدم ، وعلموا بالكشف الصحيح أن الله تعالى قبل توبتهم وبدل سيئاتهم حسنات ، بحيث لم يبق عندهم سيئة يستحضرونها ، ومتى استحضروها فليعلموا أن توبتهم معلولة لكونها لم تبدل سيئاتهم حسنات ، إذ لو بدلت لم يبق لها صورة فى الوجود ولا فى ذهنهم ولا فى الخارج . قال : ولست أنا من أحد هذين الرجلين فمالى وللدخول قبل الناس اهـ :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

روى أبو داود عن مكحول مرسلا قال :

« نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يُبَالَ بِأَبْوَابِ المَسَاجِدِ » والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسبغ الوضوء صيفا وشتاءامتثالا لأمر الله ، واغتناما للأجر الوارد فى ذلك فى الشتاء ، ولأنه ربما استلذت الأعضاء بالماء البارد فى الصيف فيبالغ المتوضى فى الإسباغ لحظ نفسه ، فينبغى أن يتنبه المتوضىء لمثل ذلك ويسبغ امتثالا للأمر لا لاستلذاذ الأعضاء بالماء ، وهذا سر أمر الشارع لنا بالوضوء ليقول العبد لنفسه إذا استلذ بالماء فى الصيف وادعت أنها مخلصة فى ذلك إنما هذا لحظ نفسك بدليل نفرتك من إسباغ الوضوء فى الشتاء ، فلو كان إسباغك

الوضوء فى الصيف امتثالا لأمر الله لـكنت تسبغين ذلك فى الشتاء من باب أولى ، لأنه وعدك بالأجر عليه أكثر ، وهذا الأمر يجرى مع العبد فى أكثر المأمورات الشرعية فيفعلها العبد بحكم العادة مع غفلته عن امتثال الأمر وعن شهود الشارع ، فيفوته معظم الغرض الذى شرعت تلك الطاعة له وهو الفوز بمجالسة الشارع فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ ناصح يرشده إلى تخليص العمل لله من حظ النفس :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وفى بعض طرق حديث جبريل فى سؤاله عن الإيمان والإسلام فى غير طرق الصحيحين :

« وَأَنْ تَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ وَتُتِمَّ الْوُضُوءَ » الحديث .

ورواه ابن خزيمة فى صحيحه بهذا السياق .

وروى الشيخان مرفوعا :

« إِنَّ أُمَّتِى يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ » .

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى : وقد قيل إن قوله « فمن استطاع » الخ ليس من كلام النبوة وإنما هو مدرج من كلام أبى هريرة موقوف عليه ذكره غير واحد من الحفاظ .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الْحِلْيَةَ تَبْلُغُ مِنَ الْمُؤْمِنِ مَوَاضِعَ الطَّهُورِ » .

وفى رواية : « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ » .

والحلية : هو مايتحلى به أهل الجنة من الأساور ونحوها ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا توضأ مد يده حتى تبلغ إبطه .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه أنهم قالوا :

« يا رَسُولَ اللهِ : كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِمَّنْ لَمْ يَرَكَ ؟ قَالَ إِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ بُلْقًا مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ » .

وروى الإمام أحمد باسناد حسن فى المبايعات :

« أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الامَمِ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ إِلَى أُمَّتِكَ ؟ قَالَ هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ لَيْسَ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِمْ ، قَالَ : وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ وَتَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْوَارُهُمْ » .

وروى مسلم ومالك مرفوعا :

« إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ وَكُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ قَطْرِ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ » .

وفى رواية لمسلم وغيره مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ » .

وفى رواية بإسناد على شرط الشيخين للحاكم مرفوعا :

« مَا مِنِ امْرِئٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الْاخْرَى حَتَّى يُصَلِّيَهَا » .

وروى البزار بإسناد حسن أن عثمان رضى الله عنه كان يسبغ الوضوء فى شدة البرد ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَا يُسْبِغُ عَبْدٌ الْوُضُوءَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ » .

وروى أبو يعلى والبزار والحاكم وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم مرفوعا :

« إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فى الْمَكَارِهِ وَإِعْمَالُ الأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ يَغْسِلُ الْخَطَايَا غَسْلًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« مَنْ أَسْبَغَ الْوُضُوءَ فِى الْبَرْدِ الشَّدِيدِ كَانَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الْأَجْرِ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ ثَلَاثًا فَذَلِكَ وُضُوئِى وَوُضُوءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِى » .

والله تعالى أعلم

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحافظ على دوام الوضوء وعلى تجديده لنكون مستعدين لقبول الواردات الإلهية ، فإن صدقته تعالى على عباده لا تنقطع ليلا ولا نهارا ، ومن كشف الله تعالى عن بصيرته وجد نفسه جالسا بين يدى الله عز وجل على الدوام ، وهذا أمر يتأكد فعله على أكابر العلماء والصالحين ، لأن معظم الواردات الإلهية فى العلوم الظاهرة والباطنة تنزل عليهم ، وقد أغفل ذلك كثير منهم .

وممن رأيته على هذا القدم من أولياء العصر الشيخ محمد بن عنان والشيخ داود والشيخ محمد العدل ، ومن أكابر الدولة بمصر ، الأمير محيى الدين بن أبى الأصبغ ، ووالده الأمير يوسف ، ومن المباشرين عبد القادر الزرمكى ، ومن التجار جلال الدين بن فاقوسة ، ومن العلماء أخى العبد الصالح شمس الدين الشربينى وصاحبه الشيخ صالح السملى ، ومن جماعة الوالى الحاج أحمد القواس ، حتى إنه سمع شخصا نائما أخرج ريحا فى المسجد فامتنع من النوم فى المسجد خوفا أن يخرج منه ريح فى النوم ، فإذا كان هذا يقع من الأمراء وغلمان الوالى فالعلماء والصالحون أولى بالمواظبة على الطهارة .

ورأيت سيدى محمد بن عنان إذا كان فى الخلاء وأبطأ عنه ماء الوضوء ضرب بيده على الحائط وتيمم حتى لا يمكث بلا طهارة وإن لم تجزله الصلاة بذلك التيمم .

وقد رأيت الشيخ تاج الدين الذاكر المدفون بزاويته فى حارة حمام الدود بمصر كلما يصلى بوضوئه صلاة مايجدد الوضوء ، وكان لا يدخل الخلاء إلا من الجمعة إلى الجمعة وبقية الأسبوع كله على طهارة ليلا ونهارا مع أكله وشربه على حكم عادة الناس ، فسألت أصحابه عن ذلك فقالوا : كل شىء نزل جوفه احترق من شدة الحال .

وكان سيدى محمد بن عنان يقلل الأكل جدا حتى لا يدخل الخلاء إلا قليلا ويقول : إن أحدنا مجالس لله على الدوام ولو لم يشعر بذلك ، وإذا قال الملك لعبده تهيأ لمجالستى

فإنى أريد أنك تجالسنى ثلاثة أيام مثلا ، فمن أدبه أن يستعد لذلك بقلة الأكل والشرب وإلا لزمه أن يقوم من تلك الحضرة الشريفة إلى البول والغائط وهو مكشوف السوأتين والشياطين حوله لايقربه ملك وهو جالس فى مكان نجس على أقبح صورة وأنتن ريح

وكذلك بلغنا عن الإمام البخارى أنه كان يقلل الأكل حتى انتهى أكله إلى تمرة أو لوزة فى كل يوم من غير ضرر

وكذلك بلغنا عن الإمام مالك ، أنه كان يأكل كل ثلاثة أيام أكلة واحدة ويقول أستحى من ترددى للخلاء بين يدى الله عز وجل ، ولما حج أخى الشيخ أفضل الدين أحرم بالحج مفردا فمكث نحو خمسة عشر يوما لايبول ولا يتغوط يقول : أستحى من الله أن أقذر هذه الأرض المشرفة بشىء من فضلاتى .

وكذلك رأيت أخى الشيخ أبا العباس الحريثى رحمه الله كان لا يدخل الخلاء إلا قليلا فبهدى هذه الأشياخ يا أخى اقتد وقد أنشد سيدى أبو المواهب من موشح :

أَنْتَ حَاضِرٌ فِى الْحَضْرَةِ   لَيْتَ شِعْرِى هَلْ تَدْرِى

فتحتاج يا أخى إلى شيخ يسلك بك حتى تعرف عظمة الله تعالى وتعرف مقدار حضرته وأهلها ، وتصير يشق عليك مفارقتها حتى ترى الضرب بالسيف أهون عليك من مفارقتها ، وإلا فمن لازمك التهاون بها لأنك لم تعرف للحضور مع الله طعما والله يتولى هداك .

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح والحاكم وقال صحيح على شرطهما وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« اُسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا أَعْمَالَكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةَ ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَيْهَا إِلاَّ مُؤْمِنٌ » .

قلت أى مؤمن بأنه فى حضرة الله على الدوام ، إذ الإيمان يتخصص فى كل مكان بحسبه ، فإذا جاء عقب قول من ينكر البعث مثلا لا يؤمنون فمعناه لايؤمنون بالبعث ، وإذا جاء ذلك عقب قول من ينكر الحساب ، فمعناه لايؤمنون بيوم الحساب ، وهكذا القول فى نحو حديث :

« لاَيَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

أى بأن الله يراه ، فلو آمن بأن الله يراه على الكشف والشهود حال الزنا ماقدر على الزنا ، فافهم فلا يلزم من نفى الإيمان بشىء من التكاليف مثلا نفى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد نفى سائر صفات الإيمان لكون الإيمان كله كالجزء الواحد إذا انتفى بعضه انتفى كله ، كما قالوا فى الإيمان بالرسل ، أنه إذا لم يؤمن ببعض الرسل لايصح له إيمان والله تعالى أعلم :

وروى الطبرانى مرفوعا :

« حَافِظُوا عَلَى الْوُضُوءِ وَتَحَفَّظُوا مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ وَإِنَّهَا لَيْسَ أَحَدٌ عَامِلاً عَلَيْهَا خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلاَّ وَهِيَ مُخَبِّرَةٌ بِهِ » .

وروى الامام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

« لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ بِوُضُوءٍ » .

يعنى ولو كانوا غير محدثين الحديث .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يَا بِلاَلُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ ؟ إِنِّي دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي ، فَقَالَ بِلاَلٌ يَا رَسُولَ اللهِ : مَا أَذَّنْتُ قَطُّ إِلّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ، وَمَا أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إِلاَّ تَوَضَّأْتُ عِنْدَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ بِهٰذَا بَلَغْتَ » .

ومعنى خشخشتك أمامى أى رأيتك مطرقا بين يدى كالمطارقين بين يدى ملوك الدنيا قاله الشيخ محيى الدين فى الفتوحات المكية والله تعالى أعلم .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْرٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » .

قال الحافظ عبد العظيم رحمه الله وأما الحديث الذى يروى مرفوعا :

« الْوُضُوءُ عَلَى الْوُضُوءِ نُورٌ عَلَى نُورٍ » .

فلا يحضرنى له أصل من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعله من كلام بعض السلف والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على السواك

عند كل وضوء . وعند كل صلاة ، وإن كان يقع منا كثيرا ربطناه فى خيط فى عنقنا أو عمامتنا إن كانت على عرقية من غير قلنسوة ، فإن كانت على قلنسوة وشددنا عليها العمامة وشققناه فى العمامة من جهة الأذن اليسرى ، وهذا العهد قد أخل به غالب العوام من التجار والولاة وحاشيتهم فتصير روائح أفواههم منتنة قذرة ، وفى ذلك إخلال بتعظيم الله وملائكته وصالح المؤمنين . فضلا عن غير الملائكة والصالحين ، ومارأيت أكثر مواظبة ولاحرصا على السواك من سيدى محمد بن عنان وسيدى شهاب الدين بن داود والشيخ يوسف الحريثى رحمهم الله ، وكل ذلك من قوة الايمان وتعظيم أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم ، لاسيما وقد أكد صلى الله عليه وسلم فى ذلك ولم يكتف بمجرد الأمر به مرة واحدة ، فلازم يا أخى على السنة المحمدية لتجنى ثمرة ثوابها فى الآخرة ، فإن لكل سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم درجة فى الجنة لا تنال إلا بفعل تلك السنة ، ومن قال من المتهورين هذه سنة يجوز لنا تركها يقال له يوم القيامة وهذه درجة يجوز حرمانك منها صرح بذلك الامام أبو القاسم بن قسى فى كتابه المسمى بخلع النعلين .

وقد بلغنا عن الشبلى رحمه الله أنه احتاج إلى سواك وقت الوضوء فلم يجده ، فبذل فيه نحو دينار حتى تسوك به ولم يتركه فى وضوء ، فاستكثر بعض الناس بذل ذلك المال فى سواك ، فقال إن الدنيا كلها لاتساوى عند الله جناح بعوضه ، فماذا يكون جوابى إذا قال لى لم تركت سنة نبي ، ولم تبذل فى تحصيلها ماخصصك الله به من جناح البعوضة ، فأعجزه ومضى ، وأظنك ياأخى لوطلب منك صاحب السواك نصفا واحدا حتى يعطيه لك لتركت السواك وقدمت النصف وأنت مع ذلك تزعم أنك من أولياء الله تعالى ومن المقربين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله إنها دعوى لا برهان عليها .

وسيأتى مايستفاد منه فى الأحاديث أن قليل العمل مع الأدب خير من كثير العمل من غير أدب .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول لقراء القرآن : إياكم والغيبة والتكلم بالكلام الفاحش ، ثم تتلون القرآن ، فإن حكم ذلك حكم من مس بألفاظ القرآن القذر ولا شك فى كفره اه ، وهذا أمر قد عم غالب قراء القرآن ، فلا يكاد يسلم منه إلا القليل ، حتى قال الفضيل بن عياض وسفيان الثورى ، قد صار القراء يتفكهون فى

هذا الزمان بالغيبة وتنقيص بعضهم بعضا ، خوفا أن يعلو شأن أقرانهم عليهم ويشتهرون بالعلم والزهد والورع دونهم وبعضهم يجعلها كالإدام فى الطعام وهو أخفهم إثما ؛

ورأيت شخصا من المجاورين يقرأ كل يوم ختمة وهو مع ذلك لايكاد يذكر أحدا من المسلمين بخير ، إنما هو غيبة وازدراء فنهيته عن ذلك فتركهم واشتغل بغيبتى ، فلا حول ولاقوة إلى بالله العلى العظيم ، فعظم يا أخى سنة نبيك ، واستغفر الله من استهانتك بتركها ، فإنك لو صرحت بالاستهانة كفرت وحكم الباطن عند الله تعالى فى ذلك حكم الظاهر .

(وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وروى البخارى وغيره واللفظ له مرفوعا :

« لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ » وفى رواية : مسلم « عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ » .

ورواية النسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ » .

وفى رواية الإمام أحمد بإسناد جيد والبزار والطبرانى :

« لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ كَمَا يَتَوَضَّئُونَ » .

وفى رواية لأبى يعلى وغيره :

« لَفَرَضْتُ عَلَيْكُمُ السِّوَاكَ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكُمُ الْوُضُوءَ » .

وروى أبو يعلى عن عائشة قالت : مازال النبى صلى الله عليه وسلم يذكر السواك حتى خشيت أن ينزل فيه قرآن

وروى النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه وغيرهم مرفوعا :

« السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » وزاد الطبرانى : « وَمَجْلاَةٌ لِلْبَصَرِ » .

وروى الترمذى مرفوعا وقال حسن غريب :

« أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ : الْحِنَّاءُ ، وَالتَّعَطُّرُ ، وَالسِّوَاكُ ، وَالنِّكَاحُ » .

وروى مسلم عن عائشة قالت : أول ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئ به إذا دخل بيته السواك :

وروى الطبرانى ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من بيته لشىء من الصلوات حتى يستاك .

وروى ابن ماجه والنسائى ورواته ثقات ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالليل ركعتين ثم ينصرف فيستاك .

وروى أبو يعلى مرفوعا :

« لَقَدْ أُمِرْتُ بِالسِّوَاكِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيَّ فِيهِ قُرْآنٌ أَوْ وَحْيٌ » .

وفى رواية للامام أحمد وغيره .

« حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيَّ » وفى رواية للطبرانى : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالسِّوَاكِ حَتَّى خِفْتُ عَلَى أَضْرَاسِي » وفى رواية له : « حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُدَرْدِرَنِى » .

أى يسقط أسنانى .

وروى البزار بإسناد جيد :

« إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اسْتَاكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّى ، قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ فَيَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ فَيَدْنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ صَارَ فِى جَوْفِ الْمَلَكِ ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرْآنِ » .

قال الحافظ المنذرى والأشبه أن هذا موقوف .

وروى أبو نعيم مرفوعا بإسناد جيد كما قاله المنذرى :

« لَأَنْ أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ بِسِوَاكٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ سَبْعِينَ رَكْعَةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ » .

وفى رواية أخرى بإسناد حسن :

« رَكْعَتَانِ بِالسِّوَاكِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة جدا والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نخلل أصابع اليدين والرجلين بالماء فى كل طهارة اهتماما بأمر الشارع صلى الله عليه وسلم ، ولا نترك فعل ذلك فى وضوء ولا غسل ، وهذا العهد يخل به كثير من المتعبدين والعوام ، فينبغى إشاعة ذلك بينهم فى أوقات وضوئهم فى المطاهر ، ليكون فاعل ذلك معدودا من رسل رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلى الله عليه وسلم يحب من يبلغ سنته التى اندرست إلى من يجهلها من أمته ، ومن أحبه صلى الله عليه وسلم حشر معه لقوله صلى الله عليه وسلم :

« يُحْشَرُ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

ومن حشر مع النبى صلى الله عليه وسلم لايلحقه فى مواقف يوم القيامة كرب .

وقد نور الله تعالى قلب السلطان حسن فجعل فى كتاب وقف مدرسته بالرميلة بمصر وظيفة لمن يقف فى أوقات الصلوات الخمس على المطهرة ، ليعلم الناس ما يخلون به من أمر الشارع فى وضوئهم بمدرسته ، فخلل يا أخى أصابعك وبلغ ذلك إلى من يجهله والله يتولى هداك :

وروى الطبرانى مرفوعا :

« حَبَّذَا الْمُتَخَلِّلُونَ مِنْ أُمَّتِى ، قَالُوا : وَمَا الْمُتَخَلِّلُونَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الْمُتَخَلِّلُونَ فِى الْوُضُوءِ ، وَالْمُتَخَلِّلُونَ مِنَ الطَّعَامِ » .

أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا وموقوفا وهو الأشبه :

« تَخَلَّلُوا فَإِنَّهُ نَظَافَةٌ ، وَالنَّظَافَةُ تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ مَعَ صَاحِبِهِ فِى الْجَنَّةِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« مَنْ لَمْ يُخَلِّلْ أَصَابِعَهُ بِالْمَاءِ خَلَّلَهَا اللهُ بِالنَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية له مرفوعا :

« لَتَنْتَهِكُنَّ الْأَصَابِعَ بِالطَّهُورِ أَوْ لَتَنْتَهِكَنَّهَا النَّارُ » .

وفى رواية له أيضا بإسناد حسن مرفوعا :

« خَلِّلُوا الْأَصَابِعَ الْخَمْسَ لَا يَحْشُوهَا اللهُ نَارًا » .

وقوله لتنتهكهن أى لتبالغن فى غسلها أو لتبالغن النار فى إحراقها والنهك المبالغة فى كل شىء .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية للترمذى :

« وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ » .

وروى الإمام أحمد رحمه الله أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه صلاة فقرأ فيها سورة الروم فلبس بعضها فقال :

« إِنَّمَا لَبَّسَ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ الْقُرْآنَ مِنْ أَجْلِ أَقْوَامٍ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ بِغَيْرِ وُضُوءٍ ، فَإِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأَحْسِنُوا الْوُضُوءَ » .

وفى رواية أنه تردد فى آية فلما انصرف قال :

« إِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ » .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على أذكار الوضوء الواردة فى السنة ولا نتركها فى وضوء واحد ، ونقولها بحضور تام ونستحضر معاصى كل عضو عند غسله ، ونتوب منها مع الغسل ، ليطهر باطننا بالتوبة وظاهرنا بالماء ، فكما لا تكفى طهارة الباطن عن الظاهر فكذلك لا تكفى طهارة الظاهر عن الباطن كما أشار إليه أمره صلى الله عليه وسلم ، المتوضىء بالشهادتين ، فإن الماء يطهر الظاهر والشهادتين يطهران الباطن ، فكأن المتوضىء أسلم إسلاما جديدا وتاب من ذنوبه كما تاب من أسلم من ذنب الكفر فافهم .

وقد روى مسلم وأبو داود وابن ماجه مرفوعا :

« مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغَ أَوْ فَيُسْبِغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » .

زاد فى رواية أبى داود :

« ثُمَّ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَقُولُ » .

فذكره وزاد فى رواية له أيضا بعد قوله ورسوله :

« اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ » الحديث .

والأحاديث فى أذكار أعضاء الوضوء وبعد الوضوء محررة فى كتب الفقه والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الركعتين بعد كل وضوء بشرط أن لا نحدث فيهما أنفسنا بشىء لم يشرع من أمور الدنيا أو بشىء لنا فى الصلاة ، ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يقطع عنه الخواطر المشغلة عن خطاب الله تعالى .

واعلم أن حديث النفس المذموم ليس هو رؤية القلب لشىء من الأكوان كما توهمه بعضهم ، فإنه ليس فى قدرة العبد أن يغمض عين قلبه عن شهود أنه فى مكان قريب أو بعيد من بستان أو جامع أو غير ذلك ، فإن فى حديث الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فى مُقَامِى هٰذَا » .

وكان ذلك فى صلاة الكسوف ، فلو كان ذلك يقدح فى كمال الصلاة لما وقع له صلى الله عليه وسلم ذلك ، وحمل بعضهم ماوقع له صلى الله عليه وسلم على قصد التشريع لأمته بعيد .

وأما ما نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه من تجهيزه الجيوش فى الصلاة ، فذلك لكماله ، لأن الكمل لا يشغلهم عن الله شاغل مع أن ذلك كان فى مرضاة الله عز وجل اهـ .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح يشغلك بالله تعالى حتى يقطع عنك حديث النفس فى الصلاة كقولك أروح لكذا أفعل كذا أقول كذا أو نحو ذلك وإلا فمن لازمك حديث النفس فى الصلاة ، ولا يكاد يسلم لك منه صلاة واحدة لا فرض ولا نفل ، فاعلم ذلك وإياك أن تريد الوصول إلى ذلك بغير شيخ كما عليه طائفة المجادلين بغير علم فإن ذلك لا يصح لك أبدا .

(وقد قال الجنيد يوما للشبلى) وهو مريد : يا أبا بكر إن خطر فى بالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تأتنا فإنه لا يجىء منك شىء اهـ .

قلت ومراده بغير الله عز وجل غير مالا يرضيه من المعاصى وإلا فحضور الطاعات على القلب لا يقدح فى السالك بالاجماع :

(وَاللّٰهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال :

« يا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فى الْإِسْلَامِ ، فَإِنِّى سَمِعْتُ دُفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَىَّ فى الْجَنَّةِ ؟ قَالَ مَا عَمِلْتُ عَمَلا أَرْجَى عِنْدِى مِنْ أَنِّى لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فى سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِى أَنْ أُصَلِّى » اه.

والدف بضم الدال هو صوت النعل حال المشى ، والمعنى أنى رأيتك مطرقا بين يدى كالمطرقين بين يدى الملوك والأمراء كما مر فى عهد المواظبة على الوضوء وإن اختلفت لفظ الواقعة .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ وَيُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ يُقْبِلُ بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ عَلَيْهِمَا إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يَسْهُو فِيهِمَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

قلت قواعد الشريعة تقتضى أن السهو محمول عن العبد فى صلاته : ولكن لما فرط العبد بعدم تفريغ نفسه من الشواغل قبل الدخول فى الصلاة ثم سها كان عليه اللوم ، ولو أنه فرغ نفسه ثم سها لم يكن عليه لوم اه والله أعلم :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِى هٰذَا يَعْنِى ثَلَاثًا ثَلَاثًا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وفى رواية للإمام أحمد :

« ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعًا » .

شك الراوى إلى آخر الحديث والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الأذان لكل صلاة ولو سمعنا المؤذن وإن احتاج الناس إلى الأذان برفع الصوت أذنا لهم ، وليس لنا أن نتعلل بالحياء لأن الحياء فى مثل ذلك حياء طبيعى نفسى وليس فى فعل المأمورات الشرعية حياء ، وإنما الحياء المطلوب أن يترك العبد مانهاه الله عنه فافهم ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس أصحاب الطبع اليابس ، فيقول له العامة أذن لنا يا سيدى الشيخ فيقول أستحى ، وهذا ليس بعذر ، فإن كان يا أخى ولابد لك من الحياء فاستح من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك فهذا هو الحياء الشرعى الذى يثاب عليه العبد .

وكان من آخر من رأيته مواظبا على هذه السنة الشريفة مولانا شيخ الاسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى الحنفى ورفيقه السيد الشريف الحطابى والشيخ محمد بن عنان والشيخ أبو بكر الحديدى ، والشيخ محمد بن داود وولده الشيخ شهاب الدين ، والشيخ يوسف الحريتى رضى الله عنهم أجمعين فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى الشيخان مرفوعا :

« لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِى النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا » .

أى اقترعوا ، وفى رواية الإمام أحمد مرفوعا :

« لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِى التَّأْذِينِ لَتَضَارَبُوا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ » .

وروى مالك والبخارى والنسائى وابن ماجه أن أبا سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال لعبد الرحمن بن أبى صعصعة :

« إِنِّى أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ فَإِذَا كُنْتَ فِى غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ لِلصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَىْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى سمعت ماقلته لك بخطاب لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظ ابن خزيمة فى صحيحه قال :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلم يَقُولُ : لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ أَىِ الْمُؤَذِّنُ شَجَرٌ وَلَا مَدَرٌ وَلَا حَجَرٌ ، وَلَا جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ » .

وفى رواية للإمام أحمد :

« يَسْتَغْفِرُ لِلْمُؤَذِّنِ مُنْتَهَى أَذَانِهِ ، وَيُسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ رَطْبٍ وَيَابِسٍ سَمِعَهُ ».

وفى رواية للبزار : « وَيُجِيبُهُ كُلُّ شَيْءٍ رَطْبٍ وَيَابِسٍ » .

زاد فى رواية للنسائى : « وَلَهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّى مَعَهُ » .

قال الخطابى : ومدى الشيء : غايته والمعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه فى رفع الصوت فيبلغ الغاية من المغفرة إذا بلغ من الصوت الغاية ، قال الحافظ المنذرى ويشهد لهذا القول رواية يغفر له مد صوته بتشديد الدال أى بقدر مد صوته قال الخطابى ، وفى وجه آخر وهو أنه كلام تمثيل وتشبيه يريد أن المكان الذى ينتهى إليه الصوت لو يقدر أن يكون مابين أقصاه وبين مقامه الذى هو فيه ذنوب تملأ تلك المدى لغفرها الله له .

وروى الإمام أحمد والترمذى مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَكَرَهُمْ ، وَرَجُلٌ يُنَادِى بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فى كُلِّ يومٍ وَلَيْلَةٍ » .

زاد فى رواية الطبرانى :

« وَيَطْلُبُ وَجْهَ اللهِ وَمَا عِنْدَهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا :

« الْمُؤَذِّنُ الْمُحْتَسِبُ كالشَّهِيدِ الْمُتَشَحِّطِ فى دَمِهِ ، إِذَا مَاتَ لَمْ يُدَوَّدْ فِى قَبْرِهِ » .

وروى الطبرانى فى مجاميعه الثلاثة مرفوعا :

« إِذَا أُذِّنَ فى قَرْيَةٍ أَمَّنَهَا اللهُ مِنْ عَذَابِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ » .

وفى رواية : « أَيُّمَا قَوْمٍ نُودِىَ فِيهِمْ بِالْأَذَانِ صَبَاحاً إِلَّا كَانُوا فى أَمَانِ اللهِ حَتَّى يُمْسُوا ، وَأَيُّمَا قَوْمٍ نُودِىَ فِيهِمْ بِالْأَذَانِ مَسَاءً إِلَّا كَانُوا فى أَمَانِ اللهِ حَتَّى يُصْبِحُوا ».

وروى ابن ماجه والدارقطنى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين مرفوعا :

« مَنْ أَذَّنَ اثْنَتَى عَشْرَةَ سَنَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَكُتِبَ لَهُ بِتَأْذِينِهِ فى كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ حَسَنَةً ، وَبِكُلِّ إِقَامَةٍ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً » .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« مَنْ أَذَّنَ مُحْتَسِبًا سَبْعَ سِنِينَ كُتِبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ » .

والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجيب المؤذن بما ورد فى السنة ولا نتلاهى عنه قط بكلام آخر ولا غيره أدبا مع الشارع صلى الله عليه وسلم ، فإن لكل سنة وقتا يخصها فللاجابة المؤذن وقت وللعلم وقت وللتسبيح وقت ، ولتلاوة القرآن وقت ، كما أنه ليس للعبد أن يجعل موضع الفاتحة استغفارا ولا موضع التسبيح للركوع والسجود قراءة ولا موضع التشهد غيره وهكذا فافهم ، وهذا العهد يخل به كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فيتركون إجابة المؤذن بل ربما تركوا صلاة الجماعة حتى يخرج الناس منها وهم يطالعون فى علم نحو أو أصول أوفقه ، ويقولون العلم مقدم مطلقا وليس كذلك فإن المسئلة فيها تفصيل فما كل علم يكون مقدما فى ذلك الوقت على صلاة الجماعة كما هو معروف عند كل من شم رائحة مراتب الأوامر الشرعية .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله ، إذا سمع المؤذن يقول حى على الصلاة يرتعد ويكاد يذوب من هيبة الله عز وجل ويجيب المؤذن بحضور قلب وخشوع تام رضى الله عنه ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا

« إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ » .

الحديث وقوله فقولوا يعنى عقب كل كلمة قالها ، لأن الفاء للتعقيب وبه قال جماعة من العلماء والله تعالى أعلم .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ قَالَ حِينَ يُنَادِي الْمُنَادِي : اللَّهُمَّ رَبَّ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ النَّافِعَةِ ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَارْضَ عَنَّا رِضًا لَا سُخْطَ بَعْدَهُ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ » .

وروى أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ سَمِعَ الْمُؤَذِّنَ فَقَالَ مِثْلَ مَا يَقُولُ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ » .

وفى رواية : « مَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ إِذَا سَمِعَ الْمُؤَذِّنَ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليـــه وسلم) أن نسأل الله تعالى ماشئنا من حوائج الدنيا والآخرة لنا وللمسلمين فيما بين الأذان وإقامـة الصلاة ولا نفرط فى ذلك إلا لعذر شرعى ، وذلك لأن الحجب ترفع فى ذلك الوقت بين الداعى وبين ربه بمثابة فتح باب الملك والإذن فى الدخول لأصحابه وخدامه عليه ، فمن كان من أهل الرعيل الأول قضيت حاجته بسرعة مقابلة له على سرعة مجيئه بين يدى ربه تعالى ، ومن كان من آخر الناس مجيئا كان أبطأهم إجابة مع أنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولـكن هكذا معاملته تعالى لخلقــه ، ولا يخفى أن الحق تعالى يحب من عباده الالحاح فى الدعاء لأنه مؤذن بشدة الفاقة والحاجة ومن لم يلح فى الدعاء فكأن لسان حاله يقول أنا غير محتاج إلى فضل الله تعالى ، وربما أن الله تعالى يـكشف حاله حتى يصير يدعو فلا يستجيب له ، ويلح فى الدعاء ليلا ونهارا فلا يرى له أثر إجابة ، حتى يكاد كبده يتفتت من القهر كما عليه طائفة التجار والمباشرين الذين دارت عليهم الدوائر فتراهم يقرون الأوراد ويحفظون الإقسامات ، ويدعون الله ليلا ونهارا بأن حاله يعود إلى ما كان فلا يجيبهم .

فإياك يا أخى أن تتهاون بالدعاء فى كل وقت ندبك الحق تعالى إلى الدعاء فيه فتقاسى مالا خير فيه :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا :

« الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ لَا يُرَدُّ » .

زاد النسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحيهما (فادعوا) وزاد الترمذى :

« فَقَالُوا فَمَاذَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

وروى الحاكم مرفوعا :

« إِذَا نَادَى الْمُنَادِى فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ ، فَمَنْ نَزَلَ بِهِ كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ فَلْيُجِبِ الْمُنَادِى » .

أى ينتظر بدعوته حتى يؤذن المؤذن فيجيبه ثم يسأل الله حاجته كما يدل عليه حديث أبي داود والنسائي وغيرهما مرفوعا :

« قُلْ كَمَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَ » .

وروى البيهقى مرفوعا :

« إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ . فَإِذَا قُضِيَ الْأَذَانُ أَقْبَلَ ، فَإِذَا ثُوِّبَ أَدْبَرَ » الحديث :

والمراد بالتثويب : هنا الإقامة .

وروى عن الإمام أحمد مرفوعا :

« إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« سَاعَتَانِ لَا يُرَدُّ عَلَى دَاعٍ دَعْوَتُهُ : حِينَ تُقَامُ الصَّلَاةُ ، وَسَاعَةُ الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نساعد الناس فى بناء المساجد فى الأمكنة المحتاج إلى صلاة الجمعة والجماعة فيها بأنفسنا وأموالنا بشرط الاخلاص والحل فى المال وعدم زخرفتها بالرخام الملون الرقيق وطلى سقفها بالذهب والألوان المعروفة ، ولا نختلف عن المساعدة فيها إلا لعذر شرعى فإنها من جملة شعائر الله تعالى ، ولتكون كنا للناس من الحر والبرد إذا صلوا وانتظروا الصلاة الأخرى ، ومن جملة ذلك عمارة المنبر وكرسى المصحف وبناء المطهرة والمنارة فنساعد فى بنائها كذلك وكذلك من الملحق ببنائها وقفنا الأوقاف عليها مساعدة لخدامها . ومن يقوم بوظائفها ويتلو القرآن فيها ويذكر اسم الله تعالى فيها فإن المساجد لا تكمل إلا بذلك .

وإنما شرطنا الاخلاص فى البناء والحل فى المال وعدم الزخرفة لأن معاملة الله تعالى لا تكون إلا على الأوضاع الشرعية فلا يقبلها من صاحبها فراجع يا أخى جميع ما ورد من فضائل الأعمال إلى من كان مخلصا فى عمله منفقا من طيب كسبه .

وأما من بنى مسجدا من حرام أو شبهات أو من غير إخلاص نية فربما أثم ولم يقبل منه ، وإذا كان يوم القيامة انهار به فى جهنم فعذب به .

وأما عدم الزخرفة فإنما هو حتى لايفتن المصلون بإطماحهم أبصارهم إلى تلك الألوان والصنائع فلا يفى أجره بوزره ، لأن روح الصلاة الذى هو الاقبال بالجسم والقلب على الله تعالى لم يحصل لمن يصلى هناك ، فكأنهم لم يصلوا هناك فلايعمر يا أخى شيئا من المساجد إلا إن علمت من نفسك الإخلاص ، فإن علمت من نفسك أنك إنما تعمر ليقال فأعط الناس الذين يكتمون عليك الأمر ماسمحت به المال ليصرفوه فى عمارته من غير أن ينسب إليك ذلك ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

«مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ تعَالَى بَنَى اللهُ تعَالَى لَهُ بَيْتًا فى الْجَنَّةِ» .

وفى رواية للطبرانى والبزار وابن حيان فى صحيحه واللفظ للبزار مرفوعا :

« مَنْ بَنَى لِلهِ مَسْجِدًا قَدْرَ مِفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فى الْجَنَّةِ »

وفى رواية لابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« مَنْ بَنَى لِلهِ مَسْجِدًا يُذْكَرُ فِيهِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فى الْجَنَّةِ » .

وفى رواية لابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ بَنَى لِلهِ مَسْجِدًا كَمِفْحَصِ قَطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فى الْجَنَّةِ » .

وفى رواية : « كَمِفْحَصِ قَطَاة لِبَيْضِها » الحديث .

ومفحص القطاة : هو مخيمها . وهو قدر موضع جبهة المطلى ، قالوا وإنما مثل بمفحص القطاة دون غيرها لأنها تروث فيه .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلهِ لِيُصَلَّى فِيهِ بَنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فى الْجَنَّةِ بَيْتًا أَفْضَلَ مِنْهُ » .

وفى رواية : « أَوْسَعُ مِنْهُ » .

رواه الإمام ، وروى الطبرانى مرفوعا .

« مَنْ بَنَى بَيْتًا يُعْبَدُ اللهُ تعَالَى فِيهِ مِنْ مَالٍ حَلَالٍ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا :

« مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لاَ يُرِيدُ بِهِ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ » .

وتقدم فى باب فضل العلم حديث :

« إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ بَعْدَ مَوْتِهِ مَسْجِدًا بَنَاهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننظف المساجد ونطهرها ، لاسيما إن حصل فيها قمامة أو نجاسة بواسطتنا أو واسطة أولادنا أو خدامنا أوالفقراء المقيمين عندنا ، فإنه يتأكد علينا كنسها وتطهيرها وإخراج القاذورات والقمامات منها ، إما إلى الكوم وإما إلى محل طرح تراب المسجد حتى يأتى الزبال يحمله إلى الكوم إن كان بعيدا عن المسجد ، وهذا العهد يخل به كثير من علماء الزمان وصالحيه الساكنين بجوار المسجد وباب دارهم من داخله ، فترى الحصر التى هى فيه قريبة من دارهم قذرة من دخول السقاء والحطب واللحم والخدم الحفاة الذين يخرجون إلى السوق حفاة ولا يتجرأ خادم المسجد يمنعهم من ذلك خوفا من ذلك الشيخ ، أو من طلبته أن يؤذوه أو يسلطوا عليه الناظر فيؤذيه بضربه أو بقطع شىء من جامكيته ونحو ذلك .

فليتنبه العالم أو الصالح لمثل ذلك ويحترم مساجد الله تعالى وليتأمل نفسه ، فى قلة خوفه من الله تعالى يجدها تخاف من الخلق أكثر من الله إما لغفلته عنه تعالى ، أو لكونه لايهتك ستره بخلاف الخلق ، ولو أنه دخل قصر الملك وحصل منه قذر فيه لم يصبر ساعة على تقديره قصر الملك ولو أنزله به الملك ، بل تراه إذا رأى ولده الصغير بال أو تغوط على باب قصر الملك يبادر على الفور بإزالته وتطهيره وربما مسحه بردائه أو قميصه خوفا أن يطلع عليه ذلك السلطان ولو أنه رأى مثل ذلك فى المسجد ماكان مسحه بردائه ولا بقميصه قط بل يقول انظر والفراشة يطهر هذا المكان ولو أنه لم يجده إلى آخر النهار لترك النجاسة فى المسجد ، وكل ذلك استهانة بجانب الله تعالى ، ومما يتساهل به سكان المسجد أيضا جعل الغنم والإوز والدجاج فوق سطحه ويحجبونه بحصير حتى لايراه أحد من الخلق الذين ينكرون ذلك عليهم ويتغافلون عن مثل ذلك .

وقد رأى سيدى على الخواص رحمه الله مرة على ظهر زاوية بعض الفقراء خروفا مربوطا ، فنادى على الشيخ حتى سود وجهه بين الناس فاعتذر له بعدم علمه ، فقال له

ماوضعه تقبيلك هنا إلا لعلمه بقلة اعتنائك بمثل ذلك ، فإنك لو أدبته وعلمته الأدب مع الله تعالى لم يقع منه مثل ذلك ثم أنشد :

وَمَنْ رَبَطَ الْكَلْبَ الْعَقُورَ بِبَابِهِ   فَكُلُّ أَذى لِلنَّاسِ مِنْ رَابِطِ الْكَلْبِ

وكان كنس المساجد المهجورة بمصر من وظائف سيدى على الخواص، فكان يكلسها ويكنس أسطحتها ومجارى ميضأتها وكراسى أخليتها ، وكان يتفقدها يوم الخميس ويوم الجمعة، فيخرج فى صلاة الصبح فلا يرجع إلا بعد المغرب احتسابا لله تعالى ، وكذلك كان من وظيفته كنس مقياس الروضة بمصر ، كان يكنسه ثانى يوم نزول النقطة ويكنس الطين الذى فى سلمه ويجرده بالحديد ويحمل منه قفة عظيمة يفرقها على خوابى الماء على نية التبرك ، وكان عليه سؤال الله تعالى فى إطلاعه للنيل كل سنة ، فكان يكون فى ليلة تنزل النقطة كأنه حامل حملا عظيما على ظهره حتى يوفى البحر وتنقطع جسوره فيتحول لحملة رى البلاد ، فإذا رويت تحول لحملة كمال الزرع وختامه من غير آفات تلحقه فلا يزال كذلك حتى يحصد الزرع وكان من دعائه : اللهم منّ علينا وعلى الأنعام بختام الزرع ولا تعذبنا بغلائه . فإذا طلع القمح وغيره إلى الحواصل تحوّل لعدم تسويسه فلا يزال كذلك إلى نزول النقطة هكذا كان شأنه على الدوام ، ويقول الملوك فمن دونهم محتاجون إلى اللقمة وإلى التبن لبهائمهم ، ومازاد على ذلك من الشهوات أمره سهل رضى الله تعالى عنه ، فاياك ياأخى وتقذير المساجد ثم إياك ، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان «أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ أَىْ تَكْنُسُهُ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ عَنْهَا بَعْدَ أَيَّامٍ فَقِيلَ لَهُ إِنَهَا مَاتَتْ فَقَالَ : فَهَلاَّ آذَنْتُمُونِى فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا » .

وفى رواية لابن ماجه « أَنَّهَا كَانَتْ تَلْتَقِطُ الْخِرَقَ وَالْعِيدَانَ مِنَ الْمَسْجِدِ » .

وفى رواية للطبرانى « أَنَّهَا كَانَتْ تَلْتَقِطُ الْقَذَى مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم إِنِّى رَأَيْتُهَا فِى الْجَنَّةِ بِلَقْطِهَا الْقَذَى مِنَ الْمَسْجِدِ » .

وروى أبو الشيخ الأصفهانى « أَنَّهَا أَجَابَتِ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْقَبْرِ لَمَّا صَلَّى عَلَيْهَا وَسَأَلَهَا مَا وَجَدْتِ مِنَ الْعَمَلِ أَفْضَلَ ؟ فَقَالَتْ : وَجَدْتُ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ قَمَّ الْمَسَاجِدِ » .

قلت: مرادها بأفضل الأعمال أى فى حق نفسها ، فلا ينافى ذلك من رأى أفضل الأعمال غير ذلك لأنه فى حق نفسه كذلك وهكذا ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا « أَبْنُوا الْمَسَاجِدَ وَأَخْرِجُوا الْقُمَامَةَ مِنْهَا ، فَمَنْ بَنَى لِلهِ مَسْجِدًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ وَهٰذِهِ الْمَسَاجِدُ الَّتِي تُبْنَى فِي الطَّرِيقِ قَالَ نَعَمْ ، وَإِخْرَاجُ الْقُمَامَةِ مِنْهَا مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ » .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه وغيرهم :

« عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ مِنَ الْمَسْجِدِ » .

وروى الترمذى وغيره « أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَتَّخِذَ الْمَسَاجِدَ فِي دِيَارِنَا وَأَمَرَنَا أَنْ نُنَظِّفَهَا » .

وروى ابن ماجه والطبرانى مرفوعا :

« جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ ، صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ ، وَخُصُومَاتِكُمْ ، وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ ، وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ » .

ومعنى جمروها أى بخروها ، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نمشى إلى المساجد فى الصلوات الخمس وغيرها لنصلى فيها لا سيما فى العشاء والصبح فى الليالى التى لا قمر فيها فى وقت مشينا إليها ، ولا نذهب إلى المساجد بنور إلا لضرورة شرعية ، وذلك لكثرة فضل الجماعة فى المسجد على غيره ، ولأن الناس يمشون يوم القيامة على الصراط وغيره فى نور أعمالهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : من مشى إلى المسجد فى نور أظلم الوجود عليه على الصراط ، ومن مشى إليه فى الظلام أضاء النور عليه جزاء على ما تحمله من مشقة المشى إليه فى الظلام .

واعلم يا أخى أن الشارع صلى الله عليه وسلم قد جعل خفة مشى العبد إلى المسجد

علامة على صحة إيمانه وكماله ، وجعل ثقل المشى إليه علامة على ضعف إيمانه ونقصه ، ونفاقه كما سيأتى فى الأحاديث .

فانظر ياأخى فى نفسك فإن وجدتها تستثقل المشى إلى المسجد فاحكم عليها بضعف إيمانها ونفاقها ، وتحتاج ياأخى إلى شيخ ناصح يسلك بك حتى يخلصك من بقايا النفاق والكسل ، وربمايكون الحاث لك على خفة مشيك إلى المسجد علة أخرى كجلوسك مع جماعة يتحدثون فى أخبار الدنيا وولاتها ، ومن عزل وتولى ومن يصلح ومن لايصلح ونحو ذلك ؛ فليمتحن الماشى إلى المسجد نفسه بما لو رحل منه ذلك الشخص الذى كان يتحدث هو وإياه أو مات ، فإن خف عليه المشى إلى المسجد فهو لأجل امتثال أمر الله تعالى وعلامة على إيمانه وإلا فالأمر بالعكس :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَضْعُفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ أَوْ سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » الحديث .

وفى رواية للإمام أحمد وأبى يعلى وغيرهما :

« كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » .

وفى رواية للإمام أحمد باسناد حسن مرفوعا :

« مَنْ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ فَخُطْوَةٌ تَمْحُو بِهَا سَيِّئَةً وَخُطْوَةٌ يُكْتَبُ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ ذَاهِبًا وَرَاجِعًا » .

ورواه أيضا الطبرانى وابن حبان فى صحيحه ، وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَغْمُرُ الَّذِينَ يَتَخَلَّلُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِنُورٍ سَاطِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية له أيضا باسناد حسن :

« مَنْ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِنُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الطبرانى باسناد جيد مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ اللهِ وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِرِينَ إِلَيْكَ ، وَبِحَقِّ مَمْشَاىَ هٰذَا فَإِنِّى لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلاَ بَطَرًا وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً ، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِى مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِى ذَنْبِى إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلاَّ أَنْتَ ، إِلاَّ أَقْبَلَ اللهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » .

قال الترمذى : والبطر الإدلاج فى الأشر. قال الجوهرى: البطر والأشر بمعنى واحد ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نطيل الجلوس فى المسجد ونخفف الجلوس فى السوق ولكل منهما شروط فشروط الجالس فى المسجد أن تكون حركاته وسكناته وخواطره كلها محمودة ، فإن لم تكن كذلك فمن الأدب تخفيف الجلوس لأنه مادام فى المسجد فهو جالس بين يدى الله تعالى شعر أو لم يشعر ، ومن لم يجالس الملوك بالأدب أسرع إليه العطب .

وقد كان سيدى محمد الشونى تلميذ سيدى مدين ، لا يتجرأ أحد يجالس سيدى مدينا بحضرته ، فكان كل من خطر بباله خاطر قبيح بين يدى سيدى مدين يقوم يضربه بالعصا ضربا مبرحا ، فإذا كانت هذه حضرة مخلوق وقد أقيم فيها هذا الميزان فكيف بالحق جل وعلا .

قلت : وهذا الأمر قد غلب على غالب الناس المقيمين فى المسجد من المجاورين والجالسين فيه ومن المترددين فيجلسون ويجرون قوافى الناس من العلماء والصالحين والولاة والقضاة والشهود والظلمة والتجار ويذكرونهم بالنقائص فى حضرة الله تعالى عز وجل ، فمثل هؤلاء كالبهائم بل البهائم أحسن حالا منهم .

ومن هنا كان سيدى على الخواص رحمه الله لا يدخل المسجد إلا عند قول المؤذن حى على الصلاة ، فحينئذ يأتى المسجد فقيل له : ألا تأتى المسجد مرة قبل الوقت ؟

فقال : مثلنا لا يصلح لاطالة الجلوس فى حضرة الله تعالى فنخاف أن نأتى لنربح فنخسر ، فينبغى لكل مؤمن مراعاة الأدب فى المسجد ، فإنه بيت الله الخاص ولا يبادر قبل الوقت إلا إن علم من نفسه القدرة على كف جوارحه الظاهرة ، والباطنة عن كل مذموم حتى عن سوء الظن بأحد من المسلمين ، حتى بالاهتمام العظيم بأمر الرزق والمعيشة فإن ذلك من أقبح الصفات لما فيه من رائحة الإتهام بالحق تعالى بأنه يضيعه وهو تعالى يرزقه من حين كان فى بطن أمه ، حتى ضربه الشيب .

قال سيدى على الخواص وعلى الجالس أيضا فى المسجد أمور .

منها أن لا يسأله أحد بالله شيئا ويقول لا ولو طلب منه عمامته أو جوختـه أو جميع مافى داره وخلوته ، إلا إن كان يطلب ذلك تعنتا أو امتحانا .

ومنها أن لا يمشى فى المسجد بتاسومة أو حلفاية إلا لعذر شرعى من جرح أو مرض أو برد شديد أو حر شديد .

ومنها أن يشغل نفسه بالعبادة مع مداومة الطهارة فلا يجلس فيه لحظة واحدة وهو محدث ومنها أن لا يخطر فى باله أنه خير من أحد من المسلمين فإن هذا ذنب إبليس الذى أخرج من حضرة الله من أجله ولعن وطرد ، وهذه أمهات الآداب وكل أدب له فروع .

(وأما شروط الجالس فى السوق) فأن لا يشغله البيع والشراء عن ذكر الله تعالى .

ومنها عفة البصر عن ذبونات جاره وأن لا يخطر فى باله سوء ظن به ولا حسد له

ومنها أن لا يعتمد فى رزقه على البيع والشراء بل يجعل ذلك امتثالا لأمر الله تعالى وهو معتمد على الله تعالى فإن الله تعالى يخلق البركة فى الرزق والغنى عن الناس عند الحرفة لا بالحرفة ، ونظير ذلك ماقالوا فى الطعام والشراب من أنه تعالى يخلق الشبع والرى عند الأكل والشرب . لا بالأكل والشرب .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول متى فرق الرجل بين الجلوس فى بيته والجلوس فى السوق فهو معتمد على غير الله وذلك معصية .

وقد كان سيدى على الخواص رضى الله عنه إذا فتح حانوته يقول بسم الله الفتاح العليم نويت نفع عبادك يا ألله ثم يجلس بحضور مع الله تعالى حتى ينصرف .

ومنها أن يغض بصره عن رؤية النساء ولا يستلذ قط بكلام امرأة فمتى استحلاه ومال قلبه إليها كان جلوسه فى السوق معصية .

ومنها أن ينشرح لكل يوم لا يبيع فيه شيئا أكثر من يوم يبيع فيه كثيرا تقديما لمراد الحق تعالى على حظ نفسه والآداب فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

فعلم أنه لا ينبغى لفقير أن يقول هنيئا للتاجر الفلانى أو الصنايعى الفلانى الذى يأكل من كسبه حتى يعرف سلامته من الآفات ، وكذلك لا ينبغى لتاجر أو صنايعى أن يقول هنيئا للفقير الفلانى المجاور فى المسجد الفلانى أو الحرم المكى أو المدنى أو بيت المقدس حتى يراه سلم فى ذلك من الآفات التى تطرق الفقير أو التاجر مثلا ، مما ذكرنا ومما لم نذكره وهذا يقع فيه كثير ممن ينظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها وعواقبها ؛ ولذلك كان من شرط الفقير أن لا يحمد أحدا من الفقراء الصادقين ، ولا تاجرا حتى يراه قد جاوز الصراط ودخل الجنة .

وقد كنت أسمع العلماء والتجار يقولون عن شخص أقام بمكة هنيئا لفلان ، أقام بمكة على خير واستراح من الدنيا ، فلما سافرت ورأيته بعين النصيحة وجدته على أسوأ حال ، منها أنى رأيته لا كسب له ، وإنما نفسه ناظرة لما فى أيدى الخلق ، وكلما مال إلى أخذ شيء من احد ولم يقسم له منه شيء يصير يهجوه فى المجالس بالكلام المؤذى ، فإما أن تصير الناس يعطونه خوفا من لسانه ، وإما أن يعاديهم ويقاطعهم ، ووالله أن بعض الناس الذين يؤذيهم لو عرض عليه أعمال هذا الشخص طول عمره بمكة يوم القيامة أن تكون فى مقابلة غيبة واحدة ، مارضى بها فى غيبته ، بتقدير أن الإخلاص وجد فى تلك الأعمال ، وأما إذا دخلها رياء أو سمعة فهى حابطة من أصلها لم يقبلها الله تعالى ، فليس له أعمال يعطى منها أحدا حقه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول لشخص من العلماء أراد الحج : إياك يا أخى أن تجاور فى مكة أو المدينة فتعجز عن القيام بأدائها ، فيصدق عليك المثل السائر حججت ومعك خرج زاد ، فرجعت وفوق ظهرك ألف خرج أو زار أى لأن تبعات كل شخص ممن تستغيبهم تجعل وحـــدها يوم القيامة ، فكأنها خرج وحدها ، فقال له ياسيدى اسمحوا لى بالمجاورة ، فقال لا أسمح لك إلا إن كنت تدخل على الشروط ، فقال له : وما الشروط فقال الشيخ : منها أنك لاتدخر قط فيها قوتا ولا دراهم مدة إقامتك بها ومنها أنك لا تأكل قط طعاما وحدك وأنت تعلم أن فيها أحدا جائعا فى ليل أو نهار ، ومنها أن تلبس المدوم الخليقات ولا تلبس شيئا قط من الثياب الفاخرة بل تبيعها وتنفقها

على الفقراء الجياع ، ومنها أن لا تحن مدة إقامتك إلى رجوعك إلى بلدك أبدا ولا تشتاق إلى دار ولا إلى ولد ولا إلى وظيفة ، ولا إلى إخوان فى غير مكة لأنك فى حضرة الله الخاصة وهو لا يأخذ منك إلا قلبك وقلبك خرج من حضرته فبقيت فى حضرته جسما بلا قلب فائش فى هذا طيب ومنها أن لا يطرقه مدة إقامته هلع ولا رائحة اتهام للحق تعالى من أمر رزقه ولا يخاف أن يضيعه أبدا ، لأن أهل حضرة الله تعالى لا يجوز لهم ذلك بل ربما مقت صاحب الإتهام وطرد من حضرة الله تعالى لسوء أدبه وضعف يقينه ، وهو يرى الحق تعالى يطعمه ويسقيه من حين كان فى بطن أمه إلى أن شابت لحيته ، وهذا من أقبح مايكون مع أن تلك الأرض تعطى ساكنها بالخاصية الهلع والإتهام للحق فى أمر الرزق ، حتى لا يكاد يسلم من ذلك إلا أكابر الأولياء ، قال : ومن هنا كره الأكابر الإقامة بمكة ، ومنها أن لا يخطر فى نفسه مدة إقامته هناك معصية أبدا ، ولو تعذر الوقوع من مثله فكيف بقريبة الوقوع ، ومن هنا سافر الأكابر من الأولياء بنسائهم وتكلفوا مؤنة حملهم لأجل ذلك .

وكان الشعبى يقول : لأن أقيم فى حمام أحب إلى من أن أقيم بمكة وكان يقول لأن أكون مؤذننا بخراسان أحب إلى من أن أقيم بمكة خوفا أن يخطر فى نفسى إرادة ذنب ولو لم أفعله فيذيقنى الله من عذاب أليم لقوله تعالى :

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وهذا خاص بالحرم المكى فهو مستثنى من حديث :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ » الحديث .

وقد قالوا لابن عباس لما سكن الطائف لم لا تقيم بمكة ؟ فقال لا أقدر على حفظ خاطرى من إرادة ظلمى للناس أو ظلمى لنفسى ، فكيف لو وقعت فى الفعل ، فإن الله تعالى لم يتوعد أحدا على مجرد إرادته السوء دون الفعل له إلا بمكة اه .

فقال الشخص ياسيدى التوبة عن المجاورة وحج ولم يجاور ، وقد أخبرنى سيدى محمد بن عنان أن أولياء العصر حجوا مع سيدى أبى العباس الغمرى نفعنا الله ببركاته ، وكانوا خمسة عشر وليا من مصر وقراها فقالوا له يا سيدى : دستوركم نجاور فى مكة أو المدينة؟ فقال : من قدر منكم على أدب مكة أو المدينة فليجاور ، فقالوا له وما أدب مكة؟ فقال : أن يكون على صفات أهل حضرة الله من الأنبياء والأولياء والملائكة ولا يطرق سريرته قط شئ

يكرهه الله مدة إقامته بها ، فكيف إذا فعل مايكرهه الله فقالوا: له وماأدب المدينة؟ فقال : هوكأدب مكة ويزيد عليها أنه لايخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أحواله حتى إنه يصغر عمامته ويتصدق بكل شىء دخل يده ولايلقى فى المدينة درسا إلا بما صرحت به الشريعة دون مافيه رأى أو قياس أدبا معه صلى الله عليه وسلم أن يكون لغيره كلام فى حضرته إلا بمشاورته ، فإن كان من أهل الصفاء فليشاوره صلى الله عليه وسلم فى كل مسئلة فيها رأى أو قياس ، ويفعل بما أشار به صلى الله عليه وسلم عليه بشرط أن يسمع لفظه صلى الله عليه وسلم صريحا يقظة ، كما كان عليه الشيخ محيي الدين بن العربى رحمه الله قال وقد صححت منه صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث قال بعض الحفاظ بضعفها ، فأخذت بقوله صلى الله عليه وسلم فيها ولم يبق عندى شك فيما قاله ، وصار ذلك عندى من شرعه الصحيح أعمل به وإن لم يطعن عليه العلماء بناء على قواعدهم ، فقال المشايخ كلهم : مامنا أحد يقدر على ماقلتم ورجعوا كلهم تلك السنة مع سيدى أبى العباس ، وكان من جملتهم سيدى محمد بن داود وسيدى محمد العدل ، وسيدى محمد أبو بكر الحديدى ، والشيخ على بن الجمال ، والشيخ عبد القادر الدشطوطى .

وأخبرنى شيخى الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى وكان حاجا معهم : أن سيدى عبد القادر الدشطوطى لم يدخل الحرم المدنى وإنما ألقى خده على عتبة باب السلام من حين دخل الحج للزيارة حتى رحلوا وحملوه وهو مستغرق ، فما أفاق إلا فى مرحلة أبيار على رضى الله عنه .

فتأمل يا أخى فى أحوال أهل الأدب مع الله تعالى وأنبيائه فى جلوسهم فى المساجد أوالأسواق واقتد بهم وتقدم قبل هذا العهد باثنى عشر عهدا زيادة على هذا فراجعها والله يتولى هداك .

وقد روى مسلم مرفوعا « أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا » .

وروى الإمام أحمد والبزار واللفظ له وأبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد : « أَنَّ رَجُلا قَالَ يَا رَسولَ اللهِ أَىّ الْبِلْدَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ وَأَىُّ الْبُلْدَانِ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ فَقَالَ لاَ أَدْرِى حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيلَ ، فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ جِبْرِيلُ أَنَّ أَحَبَّ الْبِقَاعِ إِلَى اللهِ الْمَسَاجِدُ وَأَبْغَضَ الْبِقَاعِ إِلَى اللهِ الْأَسْوَاقُ » .

وفى رواية « فَقَالَ جِبْرِيلُ لاَ أَدْرِى حَتَّى أَسْأَلَ مِيكَائِيلَ » .

فذكره ، رواها الطبرانى وابن حبان فى صحيحه .

وفى رواية الطبرانى « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ ؟ قَالَ لاَ أَدْرِى قَالَ فَسَلْ عَنْ ذٰلِكَ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَبَكَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ وَلَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ هُوَ الَّذِى يُخْبِرُنَا بِمَا شَاءَ ، فَعَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ خَيْرُ الْبِقَاعِ بُيُوتُ اللهِ فِى الْأَرْضِ ، فَقَالَ أَىُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ ، فَعَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَتَاهُ ، فَقَالَ شَرُّ الْبِقَاعِ الْأَسْوَاقُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ » فذكر منهم « رَجُلٌ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالْمَسَاجِدِ » .

وروى الترمذى واللفظ له وقال حديث حسن ، وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم وقال صحيح الاسناد مرفوعا :

« إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ » .

وروى ابن أبى شيبة وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما وغيرهم مرفوعا :

« مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلاَةِ وَالذِّكْرِ إِلاَّ تَبَشْبَشَ اللهُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ » .

قلت فتأمل قوله عليه الصلاة والسلام للصلاة والذكر ، أى ليس مقصوده بالجلوس فى المسجد إلا ذلك فلا يتبشبش تعالى لمن جلس للغو أو لعلة أخرى وكذلك القول فى قوله فى الحديث السابق ، فيمن اعتاد المسجد محمول على ذلك أيضا ، وكذلك جميع الأحاديث الآتية ، إذ لا يكون الترغيب فى شئ إلا إن سلم من الآفات ، ويستنبط من تبشبش الحق أى تبسمه كما يليق بجلاله لمن دخل بيته أنه يستحب للعبد أن يتبسم لضيفه إذا ورد عليه تأنيسا له وإدخالا للسرور عليه ، والله أعلم .

وروى ابن خزيمة مرفوعا « مَا مِنْ رَجُلٍ كَانَ تَوَطَّنَ الْمَسْجِدَ ، فَشَغَلَهُ أَمْرٌ أَوْ عِلَّةٌ ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا كَانَ إِلاَّ تَبَشْبَشَ اللهُ إِلَيْهِ » الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا « إِنَّ عُمَّارَ بُيُوتِ اللهِ هُمْ أَهْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .
وفى رواية له أيضا مرفوعا :

« مَنْ أَلِفَ الْمَسْجِدَ أَلِفَهُ اللهُ »

وروى الإمام أحمد والحاكم وفى سنده ابن لهيعة مرفوعا :

« جَلِيسُ الْمَسْجِدِ عَلَى ثَلَاثَةِ خِصَالٍ أَخٌ مُسْتَفَادٌ أَوْ كَلِمَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ مُنْتَظَرَةٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نأمر النساء بصلاتهن فى بيوتهن ونرغبهن فى لزوم البيوت ، ونبين لهن ما فى ذلك وغيره من الفضائل حتى لايحتجن إلى الخروج بسماع واعظ أجنبى ، فإننا مسئولون عن عيالنا سؤالا خاصا ، اللهم إلا أن تكون عجوزا أو قبيحة المنظر لا تشتهى إلا نادرا فالأمر فى ذلك سهل ، وإذا احتفت الفضائل بمكروهات كان ترك المكروه أولى من اكتساب تلك الفضيلة ، ومن تأمل بعين البصيرة ما يقع للنساء من الآفات إذا خرجن للواعظ لم يسمح لامرأته بالخروج إلى مثل ذلك على أن نساء هذا الزمان قد عمهن الجهل حتى صار بعضهن يقلن ليس على الصبيان صلاة ، إنما ذلك للعجائز ، وبعضهن يقلن إنما تجب الصلاة على من حجت وبعضهن يقلن ليس على نساء الفلاحين صلاة هذا أمر سمعته أنا منهن مرارا .

ولذلك كان سيدى أحمد الزاهد شيخ السلسلة يخص بوعظه النساء فى أكثر أوقاته ويقول : إنهن محبوسات فى البيوت ولا يسمعن شيئا من أحكام الشريعة لقلة مخالطتهن للرجال فكان يعقد المجلس لهن ويعلمهن أركان الوضوء والصلاة والصيام والحج وكيفية النية فى ذلك ، ويعلمهن حقوق الزوج وآداب الجماع وفضل صيام التطوع ومايجرح كمال العبادات وسبقه إلى نحو ذلك أيضا سيدى الشيخ إبراهيم الجعبرى المدفون خارج باب النصر بمصر المحروسة فكان يخص النساء بالوعظ ويبين لهن أحكام دينهن رحمه الله ، وهذا أمر قد أغفله غالب طلبة العلم الآن فضلا عن العوام ، فترى أحدهم يشاهد حليلته وهى جنب ليلا ونهارا لاتغتسل ولاتصلى ويضاجعها ويقبلها ، مع ذلك كأنها سيدته إماتهاونا بالدين أو خوفا أن تقول له هات لى فلوس الحمام ، أو قال عنى الجماع ونحو ذلك ، وأما فلوس الغسل من الحيض والنفاس والاحتلام فذلك عليها ، مع أن ذلك قليل الوقوع

بالنسبة للجماع ، ومن أخلاق الرجال عدم المشاحنة فى مثل ذلك يعطيها ما تحتاج إليه ؛ ولو لم يكن ذلك واجبا عليه ، وكما ساعدته هى على قضاء وطره من الجماع كذلك ينبغى له أن ساعدها على أمر دينها ويرشدها إلى فعل كل شيء فيه خير .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما أمر الشارع النساء أن يصلين فى البيوت مراعاة لمصلحة غالب الناس الذين لايتورعون عن النظر إلى الأجنبيات ، ولو أنهم كانوا كلهم يشهدون نفوسهم فى حضرة الله ، وأنه تعالى ناظر إليهم لأمرهن بالصلاة مع الرجال ، وتأمل لما كان الناس يحضرون بقلوبهم فى الإحرام فى الحج وتغلب عليهم هيبة الله تعالى ومراقبته ، كيف أمرت النساء بكشف وجوههن وأكفهن إذ يبعد أن أحداً فى تلك الحضرة يميل إلى امرأة من الأجانب .

فتأمل وعلم يا أخى عيالك وخدمك من النساء جميع مايحتجن إليه فى دينهن فإنك مسئول عن ذلك والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِامْرَأَةِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيّ حِينَ قَالَتْ لَهُ إِنِّى أُحِبُّ الصَّلَاةَ مَعَكَ ، قَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلَاةَ مَعِى ، وَصَلَاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي حُجْرَتِكِ ، وَصَلَاتُكِ فِي حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي دَارِكِ ، وَصَلَاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ ، وَصَلَاتُكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِى » .

قال الراوى فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شيء من بيتها وأظلمه ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل .

قال الحافظ المنذرى وبوب عليه ابن خزيمة : باب اختيار صلاة المرأة فى حجرتها على صلاتها فى دارها وصلاتها فى مسجد قومها على صلاتها فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كانت كل صلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم تعدل ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ، قال : وقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِى هٰذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ » الحديث . أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء هذا كلامه اه .

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا:

« خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بُيُوتِهِنَّ » .

وروى أبو داود مرفوعا « لاَ تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ » .

وروى الطبرانى مرفوعا ورجاله رجال الصحيح :

« الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ وَأَنَّهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ وَأَنَّهَا لاَ تَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى اللهِ إِلاَّ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » .

وفى رواية لابن حبان وابن خزيمة فى صحيحيهما مرفوعا:

« وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ » يعنى المرأة « مِنْ وَجْهِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا بإسناد حسن :

« النِّسَاءُ عَوْرَةٌ وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا وَمَا بِهَا مِنْ بَأْسٍ فَيَسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ إِنَّكِ لاَ تَمُرِّينَ بِأَحَدٍ إِلاَّ أَعْجَبْتِيهِ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَلْبَسُ ثِيَابَهَا فَيُقَالُ لَهَا أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ فَتَقُولُ أَعُودُ مَرِيضًا أَوْ أَشْهَدُ جَنَازَةً أَوْ أُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، وَمَا عَبَدَتِ امْرَأَةٌ رَبَّهَا مِثْلَ أَنْ تَعْبُدَهُ فِي بَيْتِهَا » .

وقوله : فيستشرفها الشيطان . أى ينتصب ويرفع بصره إليها ويهم بها لأنها قد تعاطت شيئا من أسباب نشاطه عليها وهو خروجها من بيتها قاله الحافظ المنذرى رحمه الله .

وروى الطبرانى بإسناد حسن لابأس به أن أبا عمرو الشيبانى رأى عبدالله يخرج النساء من المسجد يوم الجمعة ويقول أخرجن إلى بيوتكن خير لكن والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبين لتارك الصلاة من الفلاحين والعوام وسائر الجهال ماجاء فى فضل الصلوات الخمس وفضل من يواظب عليهن ويخص ذلك بمزيد تأكيد كما أكده الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أغفل ذلك غالب الفقراء وطلبة العلم الآن فترى أحدهم يخالط تارك الصلاة من ولد وخادم وصاحب وغيرهم ويأكل معهم ويضحك معهم ويستعملهم عنده فى العمارة والتجارة وغير ذلك ، ولا يبين لهم قط مافى ترك الصلاة من الإثم ولامافى فعلها من الأجر وذلك مما يهدم الدين ، فبين ياأخى لكل جاهل ما أخل به من واجبات دينه وإلا فأنت أول من تسعر بهم النار كما ورد فى الصحيح فإنك داخل فيمن علم ولم يعمل بعلمه ، وإن كنت لم تسم فقيها فى عرف الناس

وإنما قالوا إن الفقهاء يعرفون ويحرفون لكونهم هم المقصودون ببيان العلم للناس دون العوام عادة ، وإلا فكل من عرف شيئا من أحكام الشريعة ولم يعمل به فهو كذلك يعرف ويحرف .

واعلم ياأخي أن البلاء يرتفع عن كل مكان كان أهله يصلون ، كما أن البلاء ينزل على كل مكان يترك أهله الصلاة ، فلا تستبعد ياأخي وقوع الزلازل والصواعق والخسف على حارة يترك أهلها الصلاة أبدا ، ولا تقل إني أصلي فما علي منهم ، لأن البلاء إذا نزل يعم الصالح مع الطالح لكونه لم يأمرهم ولم ينههم ولم يهجرهم في الله :

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ » الحديث .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ . هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ فَكَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا » والدرن هو الوسخ .

وروى مسلم والترمذي وغيرها مرفوعا :

« الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ » .

وروى الطبراني مرفوعا ورجاله محتج بهم في الصحيح إلا يحيى بن إبراهيم القرشي :

« إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكًا يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ : يَا بَنِي آدَمَ قُومُوا إِلَى نِيرَانِكُمُ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا فَأَطْفِئُوهَا » .

وفي رواية للطبراني مرفوعا :

« يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُنَادِيًا عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَيَقُولُ : يَا بَنِي آدَمَ قُومُوا فَأَطْفِئُوا مَا أَوْقَدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيَقُومُونَ وَيَتَطَهَّرُونَ وَيُصَلُّونَ الظُّهْرَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمَا

فَإِذَا حَضَرَتِ الْعَصْرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ ، فَإِذَا حَضَرَتِ الْمَغْرِبُ فَمِثْلُ ذَلِكَ فَإِذَا حَضَرَتِ الْعَتَمَةُ فَمِثْلُ ذَلِكَ فَيَنَامُونَ فَمُدْلِجٌ فِي خَيْرٍ وَمُدْلِجٌ فِي شَرٍّ » .

وروى الطبرانى مرفوعا « الْمُسْلِمُ يُصَلِّى وَخَطَايَاهُ مَرْفُوعَةٌ عَلَى رَأْسِهِ كُلَّمَا سَجَدَ تَحَاتَّتْ عَنْهُ فَيَفْرُغُ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَدْ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ » .

قلت : المراد بهذه الخطايا غير خطايا الوضوء التى كفرت بالوضوء نظير ماورد فى سائر المأمورات الشرعية ، فان كل مأمور يكفر منها خاصا به وفى ذلك رفع التعارض بين الأحاديث الواردة فى ذلك ، والله أعلم .

وروى الطبرانى باسناد لابأس به مرفوعا :

« أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ يُنْظَرُ فِي صَلَاتِهِ ، فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ » .

وفى رواية أخرى له « فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ » .

قلت : إنما كانت سائر الأعمال تصلح إذا صلحت الصلاة لأنها إذا صلحت وقع الرضا من الله على صاحبها ، فانسحب الرضا على سائر أعماله ، وإذا فسدت وقع السخط من الله على فاعلها فانسحب ذلك على سائر أعماله ، والله أعلم .

وروى الطبرانى أيضا مرفوعا :

« لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طُهُورَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ ، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوْضِعِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكون منشرحين لتقديم ماجعله الشارع أفضل على ماجعله مفضولا ، وذلك لأن معظم الفضل والثواب فى الاتباع فلا نقدم على صلاة التطوع شيئا إلا إن صرح الشارع بتقديمه عليها ومثل هذا العهد يخل به كثير من الناس ، بل رأيت من هو جالس فى جامع كثير الجماعة ، وقد قامت الجماعة العظمى لصلاة العصر وهو جالس يطالع فى علم المنطق ، وهذا من شدة عمى القلب ، فإن الشارع جعل لكل عبادة وقتا تفعل فيه مقدمة على غيرها وإن كان هناك أفضل منها ، فليس لنا أن

نكرر صلاة العصر مثلا بدل سنتها بل قال ابن عمر: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلى صلاة العصر فى يوم مرتين، يعنى إذا كانت الصلاة الأولى صحيحة إلا أن يصلى الثانية فى جماعة، والعبد تابع للشارع لامشرع لنفسه حكما فعلم أن الشارع ماسن تلك السنة فى ذلك الوقت ذاهلا عن كون أن هناك أفضل منها وإنما ذلك ماعلمه بأن فعل المفضول فى الوقت الذى شرع فيه مطلوب، كما أن فعل الأفضل فى الوقت الذى شرع فيه مطلوب أيضا:

فلا ينبغى لطالب العلم أن يترك النوافل المؤكدة ويشتغل مكانها بعلم إلا إن تعين ذلك عليه بالطريق الشرعى بشرط الإخلاص فيه، وذلك لئلا يؤدى إلى ترك الاشتغال بالسنن كلها ويفوتها حتى كأنها لم تشرع فى حقه أبدا، هذا مع أنه كثيرا مايجلس فى لهو ولعب وغيبة ونميمة وحسد وفخر وكبر وعجب، ولا يقول لنفسه قط الاشتغال بالعلم أولى: فلا تلبس على نفسك ياأخى وتقول لمن أمرك بالاشتغال بسنة من السنن المضروب لها: وقت الاشتغال بالعلم أفضل مع عاملك بعدم إخلاصك فيه، فان مثل ذلك ربما يكون حجة فى قلة الدين: وتأمل طالب العلم إذا ترك فعل السنن والفضائل وأكثر من الجدال وترك الأوراد السنية كيف يذهب منه الأنس ولايكاد يعتقد فيه أحد ولا يقول له ادع لى أبدا، بخلاف من أكثر من فعل السنن والأذكار من طلبة العلم يصير الناس يعتقدونه ويسألونه الدعاء وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم:

« أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِى الْأَرْضِ، فَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَهُوَ شَرٌّ ».

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضى الله عنه يقول: إذا كان الفقيه تاركا للسنن والأوراد وآداب القوم فهو كالخبز الجاف اليابس.

فأكثر يا أخى من الصلوات المسنونات الموقتة، ولاتخل بها فى يوم من الأيام واجعل الاشتغال بالعلم فى غير أوقاتها وإن سمعت منى شيئا فاجعل بدل كل مجلس تريد تلغو فيه مجلس علم واترك اللغو فان المؤمن لايشبع من خير، ومن فعل الأوراد الشرعية كفته فى الاشتغال بالخير الذى أمره به الشارع حتى لايكاد يجد له وقت بطالة أبدا ماعدا أوقات الملل الذى يطرق البشر وذلك معفو عنه إن شاء الله تعالى، فاعلم ذلك واعمل عليه، وتقدم بسط الكلام على ذلك فى عهد الأمر بإدمان المطالعة فى كتب العلم فراجعه والله يتولى هداك:

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « الصَّلاَةُ نُورٌ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا بإسناد حسن :

« إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ فَتَتَهَافَتُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَتَهَافَتُ هٰذَا الْوَرَقُ عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ وَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا فَجَعَلَ ذٰلِكَ الْوَرَقُ يَتَهَافَتُ » .

وروى مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عن معدان قال : لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الله به الجنة أو قال قلت أخبرنى بأحب الأعمال إلى الله تعالى ، فسكت ثم سألته فسكت ، ثم سألته الثالثة فقال : سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لِلهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ بِهَا عَنْكَ خَطِيئَةً » .

وروى ابن ماجه مرفوعا باسناد صحيح :

« اسْتَكْثِرُوا مِنَ السُّجُودِ » .

وروى مسلم عن ربيعة بن كعب قال :

« أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بِحَاجَةٍ فَقَالَ سَلْنِي ، قُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ ؟ قُلْتُ هُوَ ذٰلِكَ : قَالَ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا مِنْ حَالَةٍ يَكُونُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَرَاهُ سَاجِدًا يُعَفِّرُ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ » .

أى يضع وجهه على التراب من غير حائل .

وفى رواية له أيضا مرفوعا :

« الصَّلاَةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْهَا فَلْيَسْتَكْثِرْ » .

وفى رواية له بإسناد حسن :

« إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَبْرٍ فَقَالَ : مَنْ صَاحِبُ هٰذَا الْقَبْرِ ؟ فَقَالُوا فُلاَنٌ

فَقَالَ : رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَى هٰذَا مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَا كُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد بالوضوء قبل دخول الوقت للصلاة أول الوقت ، فمن لم يستعد لذلك فربما فاته فضيلة جماعة الوقت وهذا العهد يخل به كثير من سكان المساجد فضلا عن التجار والصنايعية ، فيفرطون فى الوضوء أول الوقت حتى تفوتهم صلاة الجماعة ، ويقال لأحدهم قم توضأ فيقول الوقت متسع ، وقد وقع لى ذلك مع شخص من طلبة العلم فى جامع كثير الجماعة ، فرأيت الصلاة تقام للعصر وهو جالس يلغو ، فقلت له قم للصلاة فقال : الوقت متسع فقلت له ، ولو كان متسعا ، فهل تقدر تجمع لك فى صلاتك جماعة مثل هؤلاء ، فقال السبعة عشرون درجة حاصلة لى ولو صليت مع واحد ، فقلت له ، تجادلنى فى شيء ينقص أجرك وانصرفت وتركته ، فمثل هذا ربما يعد من جملة الأئمة المضلين عن السنة ، وربما جرهم ذلك إلى ترك واجب يعذبون عليه يوم القيامة ، فإن حقيقة الاضلال ليس هو إلا ترك الأئمة للأوامر الشرعية ، فيتبعهم الناس على ذلك فيصيرون قدوة فى الضلال فلا يرجى لمثل هؤلاء خير ، ولو كان معهم من العلم كأمثال الجبال :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : إذا قرأتم العلم فاقرءوه على العلماء العاملين ، وإياكم أن تقرءوه على أحد من المجادلين الذين لا يعولون على العمل بما علموه ، فإنكم تخسرون بركة علمكم ، فإن إبليس لهؤلاء بالمرصاد لكونهم حملة الشريعة بقاؤها ببقائهم ، فإذا تلفت حالهم تلفت حال الشريعة لعدم الأعمال التى يفعلونها ، حتى يقتدى الناس بهم فيها فكأن الشريعة لم تكن موجودة لأنه لا وجود لعينها إلا بالعمل بها ، وكان رضى الله عنه يقول : حكم الفقيه الذى لا يعمل بعلمه حكم الشاطر الذى تعلم آلات القتال كلها ثم خرج على نية القتال فى سبيل الله ، فلقيه إبليس فى الطريق فقال له اقطع الطريق فإنك تعرف تدافع وتخادع وما كل أحد يعرف ذلك فمر به إنسان معه أمتعة فضربه حتى صرعه وأخذ متاعه ورجع إلى بيته بلا جهاد ، فكذلك الفقيه المذكور يتخذ علمه سلاحا يقاتل به العامة ، وإن رأى علمه عليه فى واقعة قلد مذهب غيره ممن ليس هو عليه ويقول : يجوز لى التقليد للضرورة وإن نازعه أحد فى أن تقليده لغيره ضرورة أقام الأدلة والبراهين على الضرورة : فمثل هذا ربما يكون علمه زاده إلى النار اهـ .

فالزم ياأخى أدب الشريعة ولا تجادل من نصحك فربما تخسر دينك ، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما « أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا » الحديث .

وروى الطبراني مرفوعا «عَلَيْكُمْ بِذِكْرِ رَبِّكُمْ ، وَصَلُّوا صَلاَتَكُمْ فِي أَوَّلِ وَقْتِكُمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُضَاعِفُ لَكُمْ » .

وروى الترمذي والدارقطني مرفوعا :

« الْوَقْتُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّلاَةِ رِضْوَانُ اللهِ . وَالآخِرُ عَفْوُ اللهِ » .

وفي رواية للدارقطني : « وَسَطُ الْوَقْتِ رَحْمَةُ اللهِ » .

وروى الديلمي مرفوعا: «فَضْلُ أَوَّلِ الْوَقْتِ عَلَى آخِرِهِ كَفَضْلِ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا »

وروى الإمام أحمد والطبراني واللفظ للطبراني مرفوعا :

« يَقُولُ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ صَلَّى الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا وَلَمْ يُضَيِّعْهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا فَلَهُ عَلَيَّ عَهْدٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ لِوَقْتِهَا وَأَسْبَغَ لَهَا وُضُوءَهَا وَأَتَمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا خَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي ، وَمَنْ صَلاَّهَا لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَلَمْ يُسْبِغْ لَهَا وُضُوءَهَا وَلَمْ يُتِمَّ لَهَا خُشُوعَهَا وَلاَ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا خَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقُ ثُمَّ ضُرِبَ بِهَا وَجْهُهُ » .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على صلاة الجماعة في الصلوات الخمس وفيما تشرع فيه الجماعة من النوافل ، ولا نتخلف حتى تفوتنا الجماعة كلها أو بعضها وإن جعل الشارع لمن خرج لها فوجدها قد انقضت مثل أجرها ، لأن الشارع إنما جعل ذلك جبرا وتسكينا لخاطر من خرج للجماعة فوجد الناس قد فرغوا فتأسف وحزن فكان ذلك كالتعزية لصاحب المصيبة ، وإلا فكيف يجعل من فرط في أوامر الله كمن فعلها وبادر إليها وترك أشغاله كلها لأجله تعالى ، فافهم . وهذا العهد

يخل به كثير من سكان المساجد لاسيما المجادل الموسوس، فتراه يصبر حتى تفوته تكبيرة الإحرام مع الإمام ، ويفرغ الإمام من قراءة الفاتحة أو السورة بعدها ثم ينوى ويركع ويقول : إنما أفعل ذلك لأنى أتوسوس فى قراءة الفاتحة وذلك غير عذر شرعى ، وكل ذلك من أكل الحرام والشبهات فلا يزال أحدهم يأكل من ذلك ويقول الأصل الحل حتى يظلم قلبه فلا يصير يرتسم فيه شىء من الأفعال والأقوال لتلف القوة الحافظة ، ولو أنه سلم قياده لشيخ صادق من أهل الطريق لعلمه طريق الورع وكسب الحلال حتى نار قلبه ، وصار كالكوكب الدرّى ، فأدرك جميع ما يقع منــه ولا يصير ينسى شيئا إلا فى النادر .

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : ماسمعت شيئا ونسيته ، وذلك لشدة نورانية باطنه رضى الله عنه .

فاسلك يا أخى على يد شيخ يعلمك مراتب العبادات والاعتناء بأوامر الله عز وجل، وإلا فمن لازمك غالبا الشك فيما تفعله ، وربما وقعت فى التساهل أو فعلتها لعلة من غير إخلاص ليقال .

وقد وقع لفرقد السنجى رضى الله عنه أنه صلى فى الصف الأول أربعين سنة فتخلف عنه يوما فوجد فى نفسه خجلا من رؤية الناس له فأعاد صلاة أربعين سنة ، وقال : إنما كنت يانفس تصلين فى الصف الأول ليقال ، ثم اتخذ له شيخا ، وسلك على يده ، فاعلم ذلك واعمل عليه، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَضْعُفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعفًا » الحديث .

وفى رواية للشيخين وغيرهما مرفوعا :

« صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً » .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال : ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها يعنى صلاة الجماعة إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يأتى يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف. وقوله يهادى بين الرجلين يعنى يرفد من جانبيه ويؤخذ بعضده من العجز حتى يمشى به إلى المسجد .

وروى الإمام أحمد والطبرانى كل منهما بإسناد حسن مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيَعْجَبُ مِنَ الصَّلَاةِ فِى الْجَمْعِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُتَخَلِّفُ عَنِ الصَّلَاةِ فِى الْجَمَاعَةِ مَا لِلْمَاشِى إِلَيْهَا لَأَتَاهَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِى جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ » .

وفى رواية لابن ماجه وغيره مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى فِى مَسْجِدٍ جَمَاعَةً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا تَفُوتُهُ الرَّكْعَةُ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ كَتَبَ اللهُ لَهُ عِتْقًا مِنَ النَّارِ » .

وروى أبو داود والنسائى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا أَعْطَاهُ اللهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّاهَا وَحَضَرَهَا ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » .

وفى رواية لأبى داود وغيره مرفوعا :

« مَنْ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِى جَمَاعَةٍ غُفِرَ لَهُ ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ وَقَدْ صَلَّوْا بَعْضَهَا وَبَقِىَ بَعْضُهَا فَصَلَّى مَا أَدْرَكَ وَأَتَمَّ مَا بَقِىَ كَانَ كَذَلِكَ ، فَإِنْ أَتَى الْمَسْجِدَ وَقَدْ صَلَّوْا فَأَتَمَّ الصَّلَاةَ كَانَ كَذَلِكَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصلى مع الجماعة العظمى دون الصغرى ولا نقنع بالصغرى ونترك الكبرى إلا لعذر شرعى ، ومتى خالفنا ذلك استغفرنا الله تعالى من تركنا فعل ما هو الأحب إليه ، فعلم أنه ينبغى أن يكون الباعث لنا على صلاة الجماعة محبة الحق تعالى لها لا طلب الثواب ، فإن ذلك علة تقدح عندنا فى الإخلاص ، وما ساق الله تعالى أحدا من عباده إلى خير بالثواب الأخروى إلا لعلمه تعالى بأن ذلك لأحد ليس من أهل الإخلاص ، لكونه يعبد الله على علة وحرف ، ولو أنه وصل إلى مقام الإخلاص لم يحتج إلى ذكر ثواب ، بل كان يبادر لفعل ذلك امتثالا لأمر الله تعالى ، ولا يتوقف على معرفة الثواب فى ذلك ، هذا كله حال السلوك

فإذا تم سيره ورجع كشف له عن جميع ما فيه من الأجزاء ، ووجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه ، وهناك يرى فيه جزءا يطلب الثواب على عبادته وإن وصل إلى أعلى مراتب السلوك . ولما كان هذا الجزء يضعف حتى لايكاد يظهر له عين ، ربما ظن بعضهم أنه صار يعبد الله خالصا إخلاصا كليا لخفاء ذلك الجزء عليه ، والحال أنه باق ولكن عسكر جيش العبودية قوى عليه ، فافهم ، فإن هذا من لباب المعرفة :

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ عَبَدَنِي لِجَنَّةٍ أَوْ نَارٍ لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلاَ نَارًا أَلَمْ أَكُنْ أَهْلاً لِأَنْ أُطَاعَ؟ » اه . فلكل مقام رجال .

واعلم أنه قد يكون للفقراء أعذار باطنية فربما تخلفوا عن الخروج لصلاة الجماعة فلا ينبغى لأحد المبادرة إلى الإنكار عليهم إلا بعد أن يتعرف ذلك العذر منهم ، فربما غلب عليهم حال قاهر منعهم عن الخروج ، والمنهى عنه إنما هو تخلف العبد عن صلاة الجماعة لشغل دنيوى أومفضول مع قدرته على الخروج ، وهؤلاء لو ضرب أحدهم بسيف ماقدر على الخروج بل يرون ضرب السيف أهون على أحدهم من خروجه من بيته أو خلوته عند غلبة الحال عليه ، ولا يعرف ذلك إلا من ذاقه .

وقد كان سيدى الشيخ مدين لايخرج من بيته إلا لصلاة العصر فقط مع أن المسجد على باب داره ، وكذلك سيدى محمد الغمرى ، وكذلك سيدى على المرصفى فقيل لسيدى مدين فى ذلك ، فقال ربما يكون الفقير فى بيته فى حال جمعية قلب مع الله تعالى أقوى من جمعيته معه إذا خرج اه .

فسلم يا أخى للقوم ، وفى القرآن العظيم :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) .

مع كون الصحابة إنما نادوه طلبا لارشادهم فى أمور دينهم ، فلولا أنه صلى الله عليه وسلم كان فى حال جمعية خاصة مع الله تعالى لكان قدم الخروج لتعليم الناس أمور دينهم ، وكذلك القول فى كمل ورثة من بعده لا ينبغى لأحد أن ينكر عليهم إذا لم يخرجوا للصلاة إلا إذا علم رجحان خروجهم على مكثهم فى بيتهم ، فإن هناك يتعين عليهم الخروج على القول .

فتنبه يا أخى لذلك ، فإن لكل مؤمن حظا من مقامه صلى الله عليه وسلم .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

«صَلَاةُ الرَّجُلِ مَعَ الرجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلَاتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ » .

وكلما كثر فهو أحب إلى الله تعالى .

قلت : ومن هنا واظب أهل الله تعالى على الصلاة فى الجماعة الكبرى لكون الحق تعالى يحب صلاتنا فيها لا لعلة أخرى كما أنهم يحبون عفو الله عنهم لكونه تعالى يحب العفو لا لإدخال الراحة على أنفسهم بالعافية ، فافهم والله أعلم :

وروى البزار والطبرانى مرفوعا باسناد لابأس به :

« صَلَاةُ الرَّجُلَيْنِ يَؤُمُّ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ أَزْكَى عِنْدَ اللهِ مِنْ صَلَاةِ أَرْبَعَةٍ تَتْرَى، وَصَلَاةُ أَرْبَعَةٍ جَمَاعَةً أَزْكَى عِنْدَ اللهِ مِنْ صَلَاةِ ثَمَانِيَةٍ تَتْرَى وَصَلَاةُ ثَمَانِيَةٍ يَؤُمُّهُمْ أَحَدُهُمْ أَزْكَى عِنْدَ اللهِ مِنْ مِائَةٍ تَتْرَى » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا خرجنا لسفر أو نزهة أو غير ذلك ونزلنا فى فلاة من الأرض أن نصلى فيها ولو ركعتين ، فإن حضر وقت فريضة أذنا لها وأقمنا وصليناها جماعة ، فإن لم يتيسر صليناها فرادى فردا فردا :

وذهب بعضهم إلى أن صلاة الفرد فى الفلاة أفضل من صلاة الجماعة فى البلد .

قلت : ولعل ما ورد فى ذلك إنما هو تشجيع وتقوية عزم لمن يجد أحدا يساعده على الجماعة مع ضعف عزمه فما قوى داعيته إلى الصلاة فى البرية الأوعد الشارع له بتضعيف الأجر ، ولولا ذلك ماوجد عنده داعية كلية إلى الصلاة فى البرية أبدا لعدم من يراعيه هناك من الخلق ومن شأن الشارع أن يسوق الناس إلى عبادة ربهم بأمور شتى كل بما يناسب حاله ، وإلا فصلاة الجماعة لا تعادلها صلاته وحده أبدا من حيث الجماعة وإن فضلها صلاته وحده فانما هو لما وجد فيها من الاخلاص مثلا دون صلاة الجماعة ، وعلى ذلك جمهور العلماء رضى الله عنهم ، فافهم والله تعالى أعلم :

وروى أبو داود مرفوعا :

« الصَّلَاةُ فِى الْجَمَاعَةِ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ صَلَاةً ، فَإِذَا صَلَّاهَا فِى فَلَاةٍ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا بَلَغَتْ خَمْسِينَ صَلَاةً » .

وفى رواية لأبى داود أيضا :

« صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي الْفَلاَةَ تَضْعُفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي الْجَمَاعَةِ » .

وفى رواية لأبى داود أيضا :

« فَإِنْ صَلاَّهَا بِأَرْض قِيٍّ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا كُتِبَتْ لَهُ صَلاَتُهُ بِخَمْسِينَ دَرَجَةً » .

القى بكسر القاف وتشديد الياء : هو الفلاة كما هو مفسر فى رواية أخرى لأبى داود :

وورى أبو يعلى مرفوعا :

« مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يُرِيدُ الصَّلاَةَ إِلاَّ تَزَخْرَفَتْ لَهُ الأَرْضُ » .

وفى حديث لأبى داود والنسائى مرفوعا :

« يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ يُؤَذِّنُ وَيُصَلِّي فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هٰذَا يؤَذِّنُ وَيُصَلِّي يَخَافُ مِنِّي ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ » .

والشظية : رأس الجبل ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نهتم بصلاة الجماعة فى العشاء والصبح أكثر من الاهتمام بها فى غيرهما لتأكيد الشارع علينا فى ذلك لا لعلة أخرى ، ولولا علم الشارع صلى الله عليه وسلم منا التهاون فى حضور الجماعة فى هاتين الصلاتين ماأكد علينا فى حضورهما ، فإن تأكيد السيد على العبد إنما يكون إذا علم فى العبد التهاون بخدمته ، وإلا كان السيد أمره بذلك من غير تأكيد ولا بيان ثواب ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ولاسيما الصنايعى فى أيام الصيف ، فإن التعب ينحل عليه آخر النهار فلا يخلص منه إلى طلوع الشمس ، وهذا وإن لم يكن عذرا شرعيا ففيه رائحة العذر لأمر الشارع له بالأكل من عمل يده بخلاف من لا حرفة له ، فإنه لا عذر له فى تخلفه عن هاتين الصلاتين ، فعلم أن من أكل من عمل يده وتعاطى الأعمال الشاقة فى تحصيل لقمته وأدى الفرائض فى جماعة فهو من الكاملين فى مقام الإيمان ، والله تعالى أعلم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم أيها الفقراء والفقهاء الذين يأكلون من الأوقاف ولا يعملون حرفة أن تبادروا إلى الانكار على من رأيتموه طائفا

ببضاعة على رأسه وقت صلاة الجماعة أو الجمعة أو جالسا فى حانوته يبيع فر بما يكون له عذر شرعى ، بل ابحثوا عن أمره وتعرفوا حاله ثم أنكروا عليه طريقه الشرعى اه .

وسمع أخى أفضل الدين رحمه الله شخصا يقول : لولا الضعف لحضرت صلاة الجماعة فى العشاء والصبح ، فقال لاينبغى لك يا أخى أن تتعلل بالضعف إلا أن كنت بحيث لو وعدت على حضور الجماعة بألف دينار ، لاتقدر على الحضور بحيلة من الحيل ، فإن قدرت على الحضور لأجل الألف دينار ولم تحضر لصلاة الجماعة فعندك نفاق بنص الشارع اه والله تعالى أعلم .

وروى مالك ومسلم واللفظ له مرفوعا :

مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ » .

وفى رواية لابى داود مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ لَيْلَةٍ ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ » .

وبوب عليه ابن خزيمة فى صحيحه باب فضل صلاة العشاء والفجر فى جماعة ، وبيان أن صلاة الفجر فى الجماعة أفضل من صلاة العشاء فى الجماعة ، وأن فضلها يعنى الفجر فى الجماعة ضعف فضل العشاء فى الجماعة .

وروى الشيخان مرفوعا « أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا « وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا لَشَهِدَهَا » يعنى صلاة العشاء .

وروى البزار والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه عن ابن عمر قال : كنا إذا فقدنا الرجل فى صلاة الفجر والعشاء أسأنا فيه الظن .

وروى الطبرانى مرفوعا « مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ ثُمَّ

جَلَسَ حَتَّى يُصَلِّيَ الْفَجْرَ كُتِبَتْ صَلَاتُهُ يَوْمَئِذٍ فِي صَلَاةِ الْأَبْرَارِ وَكُتِبَ فِي وَفْدِ الرَّحْمٰنِ » .

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى يَوْمًا الصُّبْحَ ثُمَّ قَالَ أَشَاهِدٌ فُلَانٌ أَشَاهِدٌ فُلَانٌ ؟» الحديث.

وفيه أن هاتين الصلاتين يعنى الصبح والعشاء أثقل الصلوات على المنافقين .

وروى ابن ماجه مرفوعا « مَنْ غَدَا إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ غَدَا بِرَايَةِ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ غَدَا إِلَى السُّوقِ غَدَا بِرَايَةِ الشَّيْطَانِ » .

وروى مالك أن عمر بن الخطاب قال لرجل بات يصلى فغلبته عيناه عن الصبح : لأن أشهد صلاة الصبح فى جماعة أحب إلىّ من أن أقوم ليلة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على صلاة النوافل فىالبيت إلا بحق كصلاة العيد والكسوف مما شرعت فيه الجماعة وما أمر الله تعالى بفعل الفرائض فى المسجد إلا لإظهار شعائر الدين ، فلو أنه لم يشرع فعلها فى المسجد لم يقم للدين شعائر ، وأيضا فلولا مشروعية الجماعة فى الفرائض لربما كسل بعض الناس عن فعلها ولو فى البيت ، وما كل أحد يراقب نظر الحق إليه ، ومن هنا قالوا حبل العبادة طويل لكون غالب المحجوبين يراعى المخلوقين فإذا لم ير أحد، منهم ينظر إليه فربما يتساهل فى تلك العبادة فيتركها، بخلافه إذا حضر موضع الجماعة ، ورأى الناس يصلون فإنه يزداد نشاطا إلى فعل تلك العبادة .

وقد قال لى شخص مرة : لولا أن معى وظيفة الإمامة فى المسجد ماوجدت قط عندى داعية على مواظبة صلاة الجماعة ، فهذا من حكمة فعل الفرائض فى المساجد والنوافل فىالبيوت ، والله تعالى أعلم .

وقد روى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا » .

قلت : هذا الحديث يشتمل على معنيين أن يكون المراد ترك النوافل فى البيت أصلا فتصير كالقبور : أى لا صلاة فيها ، وأن يكون المراد به النهى عن جعل قبر الإنسان

فى بيته إذا مات لذهاب الاعتناء بالقبر ، إذا كان فى البيت لكثرة مشاهدته له ليلا ونهارا ، والله أعلم .

وفى رواية لمسلم وابن خزيمة فى صحيحه وغيرهما مرفوعا :

« إِذَا قَضَى أَحَدُكُمُ الصَّلَاةَ بِمَسْجِدِهِ فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيباً مِنْ صَلَاتِهِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَاعِلٌ مِنْ صَلَاتِهِ فِى بَيْتِهِ خَيْرًا » .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحيهما مرفوعا :

« لِأَنْ أُصَلِّىَ فِى بَيْتِى أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّىَ فِى الْمَسْجِدِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« صَلَاةُ الرَّجُلِ فِى بَيْتِهِ نُورٌ فَنَوِّرُوا بُيُوتَكُمْ » .

وروى النسائى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِى بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِى بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ » .

وروى البيهقى بإسناد جيد إن شاء الله تعالى مرفوعا :

« فَضْلُ صَلَاةِ الرَّجُلِ فِى بَيْتِهِ عَلَى صَلَاتِهِ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ كَفَضْلِ الْفَرِيضَةِ عَلَى التَّطَوُّعِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« أَكْرِمُوا بُيُوتَكُمْ بِبَعْضِ صَلَاتِكُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا علمنا حفظ جوارحنا الظاهرة والباطنة من خطور المعاصى على قلوبنا أن نمكث بعد الفريضة ننتظر الصلاة التى بعدها ولا نخرج من المسجد حتى نصلى الصلاة الأخرى ، فان لم نعلم من أنفسنا القدرة على الحفظ مما ذكرناه فمن الأدب أن نصلى الفريضة ونخرج على الفور ، وذلك لأن الجالس فى المسجد جالس بين يدى الله عز وجل ، إما كشفا ويقينا كالكمل من العارفين ، وإما ظنا وإيمانا ككل المؤمنين ، كالأعمى يعرف أن زيدا جليسه بكلامه معه ولا يراه ، فما جاء عن الشارع فى فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة فى المسجد هو فى حق

من كان محفوظا من الخواطر الرديئة لاسيا من كان فى الحرم المكى أو المدنى كما تقدم فى هذه العهود ، فإن من لا يحفظ خواطره ولا جوارحه من سوء الأدب مع الملوك فالأولى له البعد عن حضرتهم الخاصة ، فاعلم ذلك ولاتغبط من رأيته ينتظر الصلاة بعد الصلاة إلا إن أريته محفوظا مما ذكرناه على ذلك الذى قررناه ينزل قوله تعالى :

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) وفى حديث « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَاحَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ » .

فإن هذه الآية محكمة عند بعضهم فى حق الأكابر ، ويدل على ذلك حكايات القوم فى مؤاخذتهم بالخواطر بل قدمنا عن سيدى محمد الشوبمى صاحب سيدى مدين أنه كان لا يمكن أحدا من الجلوس بين يدى سيدى مدين إلا أن حفظ خواطره ، وخطر مرة فى قلب شخص الزنا فقام وضربه بالعصا ضربا مبرحا ، فاذا كان هذا أدبا مع مخلوق فالله تعالى أولى بالأدب على الدوام والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا « لاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبِسُهُ لاَ يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ الصَّلاَةُ » .

زاد فى رواية للبخارى: « وَالْمَلاَئِكَةُ تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ مَا لَمْ يَقُمْ مِنْ مُصَلاَّهُ أَوْ يُحْدِثْ » .

وفى رواية لمالك : « حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ » .

قيل لأبى هريرة وما يحدث قال : يفسو أو يضرط .

وروى أبو داود مرفوعا : « صَلاَةٌ فِي أَثَرِ صَلاَةٍ لاَ لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على جلوسنا فى مصلانا للذكر بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس وترتفع ونصلى ركعتين أو أربعا ، وعلى جلوسنا بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس ، ويلحق بالجلوس للذكر الجلوس لخير من علم شرعى أو إرشاد أو صلح بين الناس ونحو ذلك كما كان عليه فقهاء التابعين ، فكان عطاء ومجاهد يقولان : المراد بذكر الله علم الحلال والحرام . وقال مشايخ الصوفية : المراد

بذكر الله تعالى أن يذكره بأسمائه الحسنى ، وقد تبعهم على ذلك جمهور أهل الطريق الذين أدركناهم كسيدى على المرصفى والشيخ تاج الدين الذاكر وغيرهما . فكان سيدى على المرصفى يجلس بعد صلاة العصر يرشد الناس فى أمورهم بقراءة كتب القوم كرسالة القشيرى وعوارف المعارف ونحوهما من مؤلفاته ، وكان سيدى الشيخ تاج الدين يجلس بعد صلاة العصر فى قراءة البخارى وتفسير ما أشكل من ألفاظه إلى الغروب ، وكان سيدى محمد الشناوى يجلس بعد العصر يذكر الله تعالى إلى الغروب ، وكذلك كان يذكر بعد الصبح بلا إله إلا الله حتى تطلع الشمس ، فإن كان مسافرا ذكر ذكر المجلس هو وأصحابه وهو راكب حمارته رحمه الله ، وكان سيدى محمد بن عنان يشتغل بالأوراد سرا من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس وينام بعد صلاة الوتر ثم يقوم يتهجد ويصلى الصبح ، فلا يزال فى قراءة حزب سيدى أحمد الزاهد حتى تطلع الشمس ، ثم يشتغل بأوراد أخر إلى ضحوة النهار ، وكان لا يلتفت لأحد بكلمه فى هذين الوقتين لإقباله على الله تعالى رضى الله تعالى عنه ، وكان الشيخ

فهذا ماحضرنى الآن من سر تخصيص هذين الوقتين بذكر الله تعالى .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الترمذى . وقال حديث حسن مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حُجَّةٍ وَعُمْرَةٍ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ » .

وفى رواية للطبرانى : « انْقَلَبَ بِأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ » .

وروى الطبرانى مرفوعا ورواته ثقات :

« مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ ثُمَّ جَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّى تَمَكَّنَتِ الصَّلَاةُ يَعْنِي تَرْتَفِعُ الشَّمْسُ كَرُمْحٍ كَانَ بِمَنْزِلَةِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ مُتَقَبَّلَتَيْنِ » .

قال ابن عمر : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر لم يقم من مجلسه حتى يمكنه الصلاة

وفى رواية الطبرانى مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ يَثْبُتُ حَتَّى يُسَبِّحَ اللهَ سُبْحَةَ الضُّحَى كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ وَمُعْتَمِرٍ تَامًّا لَهُ حَجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ » .

قلت ولا يستبعد مؤمن حصول الأجر العظيم على العمل اليسير ، فان مقادير الثواب لاتدرك بالقياس ، فللحق أن يجعل الثواب الجزيل على العمل القليل والله سبحانه أعلم .

وفى رواية الإمام أحمد وأبى داود وأبى يعلى مرفوعا :

« مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى يُسَبِّحَ رَكْعَتَيِ الضُّحَى لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْراً غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ » .

وفى رواية لأبى يعلى : « وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » .

وفى رواية لابن أبى الدنيا مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ لَمْ يَمَسَّ جِلْدَهُ النَّارُ أَبَدًا » .

وفى رواية للبيهقى زيادة قوله :

« ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » والباقى بلفظه .

وفى رواية لأبى يعلى والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ أَوْ قَالَ الْغَدَاةَ فَقَعَدَ فِي مَقْعَدِهِ فَلَمْ يَلْغُ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَيَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى حَتَّى يُصَلِّيَ الضُّحَى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لاَ ذَنْبَ لَهُ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والطبرانى عن جابر بن سمرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر جلس فى مجلسه حتى تطلع الشمس حسنًا .

وفى رواية للطبرانى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الأذكار الواردة بعد الصبح والعصر والمغرب ونقدمها فى التلاوة على الأذكار التى لم ترد إذا جمعنا بينها وبين ماورد فى السنة من الأدعية والاستغفار ونحوها أدبا مع الشارع صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع الإمام النووى فى كتابه الأذكار جميع ماوجد فى كتب الحديث فراجعه ، وكذلك سيدى الشيخ أحمد الزاهد رحمه الله تعالى جمع فى حزبه الأذكار الواردة فى عمل اليوم والليلة وهو أمثل مارأيته من الأحزاب ، فمن واظب عليه حصل له خير الدنيا والآخرة ، ولولا أن سيدنا ومولانا أبا العباس الخضر أمرنى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذكار الواردة فى الصبح ، ثم أذكر الله تعالى مجلسا ماقدمت شيئا على حزب سيدى أحمد الزاهد الذى يقرأ بعد الصبح فى جامعه وفى جامع الغمرى بمصر لجمعه الأذكار الواردة وغيرها مما وضعه السلف الصالح رضى الله عنهم ، فعليك يا أخى بقراءته كل يوم ، وما رأيت أكثر مواظبة على قراءته كل يوم من سيدى محمد بن عنان والشيخ يوسف الحريثى رحمهما الله كانا لايتركانه سفرا ولاحضرا ، وإنما قدمت امتثال أمر الخضر عليه السلام على غيره من الأذكار لأنى تحت أمره كالمريد مع الشيخ ، فإن المريد ربما ذكر الله بالأذكار الفاضلة ، فدخلها الدخيل فصارت مفضولة ، فلذلك امتثلت أمره ، وقلت لولا أنه رأى لى الخير فى ذلك ما أمرنى به فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك .

وروى الترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح مرفوعا :

« مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَهُوَ ثَانٍ رِجْلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كُتِبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَى عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَكَانَ يَوْمَهُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَحُرِسَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَلَمْ يُتْبَعْ بِذَنْبٍ يُدْرِكُهُ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ إِلاَّ الشِّرْكَ بِاللهِ تَعَالَى » وزاد فيه النسائى « بِيَدِهِ الْخَيْرُ » وزاد فى رواية أخرى : « وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ قَالَهَا عِتْقُ رَقَبَةٍ » وزاد فى رواية أخرى له : « وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلاَةِ الْعَصْرِ أُعْطِيَ مِثْلَ ذٰلِكَ فِي لَيْلَتِهِ » .

وروى أبو داود والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للحارث بن مسلم التميمى :

« إِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ : اللّٰهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ يَوْمِكَ كَتَبَ اللهُ لَكَ حِرْزًا مِنَ النَّارِ ، وَإِنْ صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ : اللّٰهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ كَتَبَ اللهُ لَكَ حِرْزًا مِنَ النَّارِ » .

وروى النسائى والترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« مَنْ قَالَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَلَى أَثَرِ الْمَغْرِبِ بَعَثَ اللهُ لَهُ مَلاَئِكَةً مُسَلَّحَةً يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ مُوجِبَاتٍ وَمَحَى عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوبِقَاتٍ وَكَانَتْ لَهُ بِعِدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ مُؤْمِنَاتٍ » .

وروى أبو يعلى والطبرانى مرفوعا: « مَنْ قَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ » .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى بإسناد حسن نحوه وذكر فيه أن من قالها بعد الصبح فمثل ذلك .

وروى ابن السني فى كتابه مرفوعا :

« مَنْ قَالَ بَعْدَ الْفَجْرِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَبَعْدَ الْعَصْرِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » .

وروى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقبيصة رضى الله عنه :

« إِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَقُلْ ثَلَاثًا : سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ تُعَافَى مِنَ الْعَمَى وَالْجُذَامِ وَالْفَالِجِ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهدالعام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نؤم بالناس حيث طلبوا منا ذلك واجتمعت فينا الشروط ، ولا نقول نحن مالنا عادة بالإمامة كما يقع فيه الجافى الطبع من الفقهاء والفقراء. ومثل الإمامة أيضا الخطبة فنخطب ولا نمتنع إلا لعذر شرعى ، لأن الله تعالى أوجب علينا إقامة شعائر الدين ، فينبغى للفقيه أن يحفظ له خطبة جامعة للأركان والشرائط والآداب والوعظ الحسن ، لتكون معه يخطب بها إذا احتيج إليه ، كأن غاب الإمام أو الخطيب ، أو بادر بعض الناس وحلف بالطلاق لايخطب لنا اليوم إلا فلان كما يقع ذلك كثيرا فى بلاد الريف وغيرها .

واعلم أنه ليس مما ذكرناه من امتنع عن الإمامة لشهود ضعفه عن تحمل سهو المأمومين ونقص صلاتهم ، فإن هذا إنما ترك فعل ذلك احتياطا لنفسه لا حياء طبيعيا ؛

وقد رأيت الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله يصلى الظهر فأحرم خلفه رجل فلما سلم قال لا تعد تصلى خلفى أبدا ، فإنى عاجز عن تحمل نقص صلاتى فكيف أقدر على تحمل نقص صلاة غيرى ، فقال له الرجل إنما قصدت حصول فضل الجماعة لكم ، فقال الشيخ عدم تحمل نقص صلاتك أرجح عندى من حصول فضل جماعتك اهـ ولكل مقام رجال .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد واللفظ له وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« مَنْ أَمَّ قَوْمًا ، فَإِنْ أَتَمَّ فَلَهُ التَّمَامُ وَلَهُمُ التَّمَامُ ، وَإِنْ لَمْ يُتِمَّ فَلَهُمُ التَّمَامُ وَعَلَيْهِ الْإِثْمُ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ ضَامِنٌ مَسْئُولٌ لِمَا ضَمِنَ ، فَإِنْ أَحْسَنَ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّى خَلْفَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ فَهُوَ عَلَيْهِ » .

قلت : والفرق بين الصلاة التامة والكاملة أن التامة هى ماجمعت الشروط والأركان من غير أن ينقص منها شىء ، والكاملة مازادت على ذلك بالحضور والخشوع ونحو ذلك من الأعمال القلبية ، وقوله فى الحديث « فليتق الله تعالى » معناه أنه ليس له أن يؤم من هو أعلى منه درجة ، كأن يكون مرتكبا صغيرة أو مكروها أو خلاف الأولى ، ومن يصلى وراءه خال عن ارتكاب ذلك ، والله أعلم .

وروى الإمام أحمد والترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ أُرَاهُ قَالَ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَرَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا يَهُولُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، وَلَا يَنَالُهُمُ الْحِسَابُ وَهُمْ عَلَى كَثِيبٍ مِنَ الْمِسْكِ حَتَّى يُفْرَغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ : رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى . وَرَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ » الحديث ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا صفت سرائرنا من جميع مايسخط الله عز وجل بحيث لم يبق فى سرائرنا وظواهرنا إلا مايرضى ربنا أن نواظب على الصلاة فى الصف الأول عملا بقوله صلى الله عليه وسلم :

« لِيَلِيَنِى مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى » .

أى العقل : ولا يكون العبد عاقلا إلا إذا كان بهذا الوصف الذى ذكرناه ، فإن من كان فى ظاهره أو باطنه صفة يكرهها الله تعالى فليس بعاقل كامل ، ولا يتقدم للصف الأول بين يدى الله فى المواكب الإلهية إلا الأنبياء والملائكة ومن كان على أخلاقهم ، وأما من تخلف عن أخلاقهم فيقف فى أخريات الناس خير له ، فينبغى للإمام أن يأمر كل من عمل بعلمه بالتقدم كلما صلوا خلفه حتى يكون ذلك من عادتهم

فى الوقوف ، ويأمر بالتخلف إلى وراء كل من رآه لايعمل بعلمه ، ويعامل المصلين بما يظهرونه من الصفات الحسنة أو السيئة ، فليس تأخيره لبعض الناس سوء ظن به إنما هو بحسب ما أظهر الناس من الأعمال الناقصة ، ثم إن العمل بهذا العهد يعسر جدا على من يصلى خلفه المجادلون بغير علم : فإن كل واحد يقول أنا أفضل من فلان الذى قدم على فى الصف الأول أو الثانى مثلا ، وربما سهل العمل به فى المساجد التى يحضرها العوام أو يكون أهلها مضبوطين ، كزوايا المشايخ التى فقراؤها تحت طاعة إمامهم ، ويؤيد ما ذكرناه من شروط التقدم للصف الأول مارواه ابن ماجه والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم ، وقال صحيح على شرطهما مرفوعا عن العرباض بن سارية :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِلصَّفِّ الْمُقَدَّمِ ثَلَاثًا ، وَلِلثَّانِي مَرَّتَيْنِ ، وَلِلثَّالِثِ مَرَّةً » .

أى لأن كثرة الاستغفار للشخص قد تكون لكثرة ذنوبه ، وقد تكون لرفعة مقامه ، فأحد الاحتمالين يشهد لما قلناه .

وأما حديث : « خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا » .

فالمراد بالرجال الكمل من الأولياء الذين هم كما وصلنا فى أول العهد ، فإن طهر الله تعالى يا أخى باطنك وظاهرك فبادر للصف الأول ، وإلا فالزم الأدب ، وسيأتى فى عهود المنهيات أن مما يشهد لنا فى تأخير من يحب الدنيا إلى الصف الثانى وما بعده ، قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الترمذى مرفوعا :

« الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، يَجْمَعُهَا مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » .

فنفى كمال العقل عن كل من يجمع منها شيئا زائدا على غدائه وعشائه فى يومه وليلته ، وما سلم من هذا الأمر إلا قليل من الناس ، ويؤيده أيضا قول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : لو أوصى رجل بشىء لأعقل الناس صرف ذلك إلى الزهاد فى الدنيا . وإيضاح ما أشار إليه الحديث من نفى كمال العقل عمن يجمع الدنيا إلا لمن يجمعها حين يجمعها وفى بلده من هو مستحق لإنفاقها عليه من مديون ومحبوس وجيعان ونحو ذلك ، فإن كانت نيته بالجمع خيرا فهذا منه ، فينبغى تقديمه عند كل عاقل اكتسابا للأجر ، وغير ذلك ممن أمسك عن الإنفاق ورجح الحرص والشح عليه فهو ناقص العقل ، وما قررناه من تأخير مرتكب المعاصى وجامع الدنيا عن الصف الأول هو ماعليه طائفة الصوفية وجمهور

العلماء ، لاعلى الأمر بتقديم الوقوف فى الصف الأول على غيره مطلقا كما هو مقرر فى كتب الفقهاء ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِى النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا » .

وفى رواية لمسلم : « لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِى الصَّفِّ الأَوَّلِ لَكَانَتْ قُرْعَةً » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا عن العرباض بن سارية :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستغفر للصف المقدم ثلاثا وللثانى مرتين » وقد تقدم الحديث آنفا .

ولفظ ابن حبان « كان يصلى على الصف المقدم ثلاثا وعلى الثانى واحدة » :

وفى رواية للنسائى وابن حبان « كان يصلى على الصف الأول مرتين » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسوى صفوفنا ونتراص فيها ونقدم الوقوف فى ميامنها على غيره من الوسط أو المياسر ، وفى ذلك أسرار لاتذكر إلا مشافهة . وينبغى أن لايكون بين أحد من أهل الصف وبين من هو فى صفه شحناء ولاحسد ولا غل ولا مكر ولاخديعة ليوافق الباطن صورة الظاهر ، فان اختلاف القلوب أشد من اختلاف الجوارح ، ولذلك منع الإمام مالك رضى الله تعالى عنه صحة اقتداء مصلى الظهر مثلا بمن يصلى العصر ، وذلك لأن الجوارح تبع للقلب ، فكأن مكان المشاحن خال عن أحد يقف فيه لشرود قلب المشاحن عن جاره فليتأمل .

ومن الأسرار الظاهرة فى ذلك ، أن الله تعالى أمرنا بإقامة الدين ولايقوم إلا إذا كنا على قلب رجل واحد ، وفى القرآن العظيم :

(وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) .

يعنى قوتكم . ومن الأسرار أيضا أن الشيطان لا يدخل بين الصفوف ويوسوس

لأصحابها إلا إذا رأى بينها خللا ، فمتى قرب من الصف احترق من أنفاسهم كما فى حديث « يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ » .

أى تأييده، وهذا الأمر لايكاد يسلم منه أحد من المحبين للدنيا ومناصبها ووظائفها ، فإن كل من سعى على وظيفة شخص صار عدوا له وإن لم يسع فى الماضى ربما كان ناويا على السعى فى المستقبل إذا رأى حاكما يجيبه إلى ذلك فتحس القلوب بذلك ، فيكون عدوا مستورا فى الظاهر دون الباطن ، فلا ينبغى لأحد من هؤلاء أن يقف فى صف من بينه وبينه عداوة ليطابق باطنه ظاهره ، ويخرج عن صفة النفاق المشار إليها بقوله تعالى :

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) .

اللهم إلا أن يقف بعد التوبة ناويا التقرب إليه تمييلا لخاطره ، ووالله لوكان أئمة الدين على قلب رجل واحد مادخل فى الشريعة نقص قط ولاأطاق مخالفتهم أحد من الولاة ، وكان كل من خالفهم هلك بسرعة ، ولكنهم اختلفوا .

(لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً) .

وأما غير أئمة الدين ممن يحب الدنيا فقد كفى الله الظلمة شرهم لأنهم لا يزالون يستمطرون منهم الرزق ، فإن أعطوهم شيئا من سحت الدنيا خرس لسانهم وذهب سمعهم وبصرهم ، وصاروا خرسا صما عميا ، فوجودهم كالعدم وإن لم يعطوهم فهم يوافقونهم فى أغراضهم ضرورة تمييلا لخاطرهم ليعطوهم كما أعطوا غيرهم ، ويصيروا كذلك خرسا صما عميا ، فهذا هو الباب الذى دخل منه النقص فى الدين ، ولو كان العلماء كلهم زاهدين مادخل فى الدين نقص ، فجاهد يا أخى نفسك على يد شيخ ليخرجك من رعونات النفوس حتى لا يبقى فى نفسك شهوة ولا حرص على شىء من الدنيا ، وأمر أصحابك بالمجاهدة على يد شيخ كذلك ثم تراصوا فى الصف بعد ذلك ، وإن لم يتيسر ذلك فقفوا فى الصف واستغفروا الله من كل ذنب يعلمه الله :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وإسناد أحمد لابأس به مرفوعا :

« سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، وَحَاذُوا بَيْنَ مَنَاكِبِكُمْ،وَلِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ وَسُدُّوا الْخَلَلَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْحَذَفِ » .

يعنى أولاد الضأن الصغار .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ أَوِ الصُّفُوفِ الاوَلِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى ناحية الصف ويسوّى بين صدور القوم ومناكبهم ويقول :

« لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ » .

وفى رواية الشيخين : « فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلاَةِ »

وفى رواية للبخارى : « مِنْ إِقَامَةِ الصَّلاَةِ » يعنى التى أمرنا الله بها فى قوله :

« أَقِيمُوا الصَّلاَةَ » .

وروى النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« رُصُّوا صُفُوفَكُمْ ، وَقَارِبُوا بَيْنَهَا وَحَاذُوا بَيْنَ الأَعْنَاقِ ، فَوَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنِّى لأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خِلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ » .

والحذف : هو مايكون بين الاثنين من الاتساع عند عدم التراص .

وروى الطبرانى مرفوعا : « اسْتَوُوا تَسْتَوِ قُلُوبُكُمْ ، وَتَمَاسُّوا تُرْحَمُوا » .

ومعنى تماسوا : ازدحموا فى الصلاة قاله شريح ، وقال غيره تماسوا تواصلوا .

وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما مرفوعا :

« وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ » .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ » .

وروى مسلم عن البراء بن عازب قال : « كنا إذا صلينا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحببنا أن نكون عن يمينه يقبل علينا بوجهه » الحديث ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا رأينا الصف الأول

مثلا قد ازدحم الناس فيه وما بقى يحتمل دخول أحد فيه أن لا نزاحم أحدا فيه لندخل ، وإن كنا فيه ورأينا فى خروجنا منه تنفيسا لأهله من الزحمة خرجنا إلى الصف الثانى مثلا اللهم إلا أن يكون فى الصف الأول أحد يتأذى الناس برائحته فلنا مزاحمته حتى يخرج ، وكذلك الصف الثانى والثالث حتى يكون ذلك الشخص فى آخر صف. قلت لكن لا يسلم من حظ نفسه فى مثل ذلك إلا العلماء العاملون لكونهم لا يحتقرون أحدا من المسلمين إلا بطريق شرعى، والله سبحانه وتعالى أعلم :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَرَكَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا أَضْعَفَ اللهُ لَهُ أَجْرَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ » .

قلت وروى الإمام سعيد رحمه الله تعالى أن الإمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان يضرب بالدرة من رأى عليه رائحة كريهة ويؤخره إلى أخريات الصفوف والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، إذا رأينا ميسرة المسجد قد عطلت من صلاة الناس فيها أن نكرمها كل قليل بالصلاة فيها جبرا لها لأن البقع يفتخر بعضها على بعض ، وقد أمر الله عز وجل بجبر الخواطر ، وهذا من العدل بين الأمور : كما أن من انقطع إحدى نعليه يؤمر بأن ينعلهما جميعا أو يحفيهما جميعا ولا يلبس نعلا واحدا عملا بالعدل بين الرجلين ، وهذا سر لا يعلمه إلا أهل الله تعالى لأنهم يعرفون بالكشف الصحيح حياة كل شىء ، وأما غيرهم فلا ينهض بهم حالهم إلى العمل بمثل ذلك لعدم كشفهم ، وقد جلس عندى مرة أخى الشيخ أفضل الدين ونحن نعمر فى جامعنا الذى على الخليج الحاكمى فكلمته البقعة التى فى ذلك البر ، وقالت له قل لأهل الحارة يدخلونى فى جامع الميدان فإنى بقعة مشرفة ، فكلم عليها أهل الحارة ، فجاء شخص من الفقراء وجعلها بيت خلاء ، فجاء أخى أفضل الدين بعد ذلك فقال من فعل هذا ، فقلت الشيخ فلان ، فقال إن الله تعالى قد أعمى قلب هذا الشيخ ، كيف يجعل هذه البقعة خلاء مع شرفها ، فكان الشيخ من شدة نور قلبه يعتقد أن غيره يدرك مثل مايدركه هو من حياة البقاع وغيرتها من بعضها بعضا ، فرضى الله عنه فاعلم ذلك .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، عن ابن عمر قال قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ، إن ميسرة المسجد قد تعطلت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ عَمَرَ مَيْسَرَةَ الْمَسْجِدِ كَتَبَ اللهُ لَهُ كِفْلَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ عَمَرَ جَانِبَ الْمَسْجِدِ الْأَيْسَرِ لِقِلَّةِ أَهْلِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أن نؤمِّن مع إمامنا فى الصلاة الجهرية رجاء المغفرة لذنوبنا ، فلا نتقدم على تأمينه ولانتأخر ، وذلك لنوافق تأمين الملائكة الذين لا يرد لهم دعاء فيستجاب لنا تبعا لهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كان الملائكة لا يرد لهم دعاء لأنهم :

(لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ) .

وكل من أحكم باب ترك المعاصى من البشر كان كالملائكة لا يرد له دعاء ، وأما من وقع فى المعاصى فإن الله تعالى يرد دعاءه فى الغالب ، لأن الله تعالى مع العبد على حسب ما العبد عليه معه ، فكما أنه تعالى دعاه إلى الطاعة فلم يجب كذلك دعاه العبد فلم يجب دعاءه ، وكما أبطأ العبد فى الاجابة ولم يبادر إليها ، كذلك دعا ربه فلم يجبه بسرعة جزاء وفاقا .

وسمعته مرة أخرى يقول : حقيقة الإجابة هى قول الحق تعالى لعبده لبيك لا قضاء الحاجة ، فالحق يجيب عبده على الدوام فلا يقول يارب إلا قال له لبيك .

وأما قضاء الحاجة فيقول الله تعالى للعبد ذلك إلىّ لا إليك ، فإنى أشفق عليك من نفسك ولو أعطيتك ما سألت ، فيكون به هلاكك ، وسوف تحمدنى فى الآخرة على كل شىء منعتك إياه فى الدنيا ، حين ترى ثوابى العظيم لأهل الصبر والبؤس اه .

وظاهر كلام الشارع صلى الله عليه وسلم ، أن المراد بالموافقة هنا هى الموافقة فى النطق دون الصفات ، وقال بعضهم : المراد بها الموافقة فى الصفات فلا يكون فى باطن الانسان صفة شيطانية أبدا .

وكان الشيخ محيى الدين بن العربى يقول إنما قال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ » .

دون قوله استجيب دعاؤه الذى هو قوله :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) .

لأنه لو أجيب دعاؤه لاستقام كالأنبياء ، ولم يكن له مايغفر ، فلذلك راعى الشارع صلى الله عليه وسلم ضعفاء الأمة الذين لايكادون يسلمون من الوقوع فيما يغفر بين كل صلاة وصلاة ، ولو أنه راعى الأقوياء الذين لايذنبون لكان اكتفى بقولهم مع الإمام آمين مرة واحدة أول بلوغهم اهـ وهو كلام نفيس ، لكن ثم ماهو أنفس منه ، وهو أن الهدى يقبل الزيادة ولا يبلغ أحد منتهاه ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يطلب الزيادة والولى يطلب الزيادة والعاصى يطلب الزيادة ، فلا يستغنى أحد عن سؤاله الهداية ، ولم يزل عنده أمر يغفر بالنظر للمقام الذى ترقى إليه وهكذا ، ثم هذا من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين والله تعالى أعلم .

وكان أخى أفضل الدين يسمع تأمين الملائكة فى السماء ، فربما طول التأمين زيادة على إمامه . فمثل هذا ربما يسلم له حاله ، وسيأتى فى عهود المنهيات بسط القول فى مشاهدة العارفين فى أركان الصلاة ونوافلها فراجعه فى عهد أن لا نتساهل بترك إتمام الركوع والسجود .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مالك والشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« إِذَا قَالَ الْإِمَامُ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ، فَقُولُوا آمِينَ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وفى رواية للبخارى : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ ، وَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ فِى السَّمَاءِ آمِينَ ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وفى رواية لابن ماجه والنسائى :

« إِذَا أَمَّنَ الْقَارِئُ فَأَمِّنُوا » الحديث .

وفى رواية للنسائى : « فَإِذَا قَالَ : يَعْنِي الْإِمَامَ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ، فَقُولُوا آمِينَ ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ كَلاَمُهُ كَلاَمَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لِمَنْ فِي الْمَسْجِدِ » .

قال الحافظ المنذرى : آمين تمد وتقصر وتشديد الممدود لغة ، قيل هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقيل معناها اللهم استجب ، أو كذلك فافعل ، أو كذلك فليكن :

وروى ابن ماجه مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَانِي خِصَالاً ثَلَاثَةً : أَعْطَانِي صَلَاةً فِي الصُّفُوفِ ، وَأَعْطَانِي التَّحِيَّةَ ، إِنَّهَا لَتَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَعْطَانِي التَّأْمِينَ ، وَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنَ النَّبِيِّينَ قَبْلِي ؛ إِلاَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَى هٰرُونَ يَدْعُو مُوسَى وَيُؤَمِّنُ هٰرُونَ » .

وروى الحاكم مرفوعا : « لاَ يَجْتَمِعُ مَلَأٌ فَيَدْعُو بَعْضُهُمْ ، وَيُؤَمِّنُ بَعْضُهُمْ إِلاَّ أَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَى » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد للصلاة قبل فعلها بما يعيننا على الخشوع فيها ، وذلك بالجوع وترك اللغو وكثرة الذكر وتلاوة القرآن والمراقبة لله تعالى ، فإن كف الجوارح عن الفضول إنما يسهل على العبد بذلك ، فمن شبع ولغا وغفل عن الله تعالى شردت جوارحه عن إمكانها وعسر على العبد كفها .

فاعمل يا أخى على تحصيل الحضور مع الله تعالى فى العبادات كلها فإنه روحها ، إذ كل عبادة لاحضور فيها فهى إلى المؤاخذة أقرب ، ولا تطلب حصول خشوع من غير مقدمات سلوك أو جذب ، فإن ذلك لا يكون لك أبدا .

واعلم أن وضع اليمين على اليسار تحت الصدر من سنن الصلاة ، لكن إن شغل مراعاة ذلك القلب عن كمال الحضور مع الله تعالى ، فينبغى إرخاؤها بجنبه كما هو مذهب الإمام مالك فى نافلة الليل ، فمن لم يشغله مراعاة ذلك عن كمال الحضور مع الله تعالى بالنسبة لمقامه هو فمن الأدب وضع يديه تحت صدره ، ومن شغله مراعاة ذلك عن كمال الحضور فمن الأدب إرخاء يديه بجنبيه فعلم أن جعل اليدين تحت الصدر من أدب الأكابر وإرخاؤها بالجنبين من أدب الأصاغر ، وفى ذلك تنبيه على أن الأصاغر يعجزون عن مراعاة شيئين معا فى وقت واحد ، بخلاف الأكابر فاعلم ذلك . وكان أخى أفضل الدين يعيد كل صلاة ظن أنه حصل له فيها خشوع ويقول : كل عبادة شعرت النفس بكمالها فهى ناقصة ، فلا يسع العبد إلا أن يصلى ويستغفر الله عز وجل .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كان الأكابر لايحتاجون إلى تحصيل استعداد لكل صلاة كغيرهم لانفكاك قلوبهم عن التعلق بالأكوان ، فهم دائما حاضرون مع الله تعالى وراثة محمدية فى حال مزحهم ولغوهم اه . فلكل مقام رجال والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا : «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَلَّى فَلَمْ يُتِمَّ صَلَاتَهُ بِخُشُوعِهَا وَلَا بِرُكُوعِهَا وَأَكْثَرَ مِنَ الِالْتِفَاتِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ» .

وروى ابن حبان والطبرانى بإسناد حسن مرفوعا :

«أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ أَعْمَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ حَتَّى لَا تَكَادُ تَرَى فِيهَا خَاشِعاً» .

وقيل إنه موقوف وهو أشبه. قاله الحافظ المنذرى ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من نوافل الصلاة زيادة على النوافل المؤكدة فإن صلاة أمثالنا عددها كثير وأجرها قليل .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول فى معنى حديث :

« سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا عَلِمَ نَجَا » .

المراد به أن الواحد منهم يعمل بعلمه كله ولا يحصل له من ذلك قدر عشر من عمل بعشر علمه من السلف ، فلا تقتصر يا أخى على ثنتى عشرة ركعة فى اليوم والليلة إلا إذا كملت فرائضك ، وأنى لك بذلك ؟ وأكثر من النوافل جهدك فى اليوم والليلة .

ثم لايخفى عليك يا أخى أن سبب مشروعية النوافل هو علمه صلى الله عليه وسلم بإخلالنا بإتمام الفرائض ، فلو علم أننا نأتى بالفرائض على وجهها كاملة ماشرع لنا نافلة لأن التشريع مزاحمة أوصاف الربوبية وإن كان لاينطق عن الهوى ، فلما علم من أمته عدم إتيانهم بالفرائض كاملة استأذن ربه فى أن يشرع لهم النوافل الجابرة لخلل فرائضهم فأجابه الله تعالى فرجع التشريع إلى الله تعالى حقيقة .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) .

فهو صلى الله عليه وسلم كان أكثر العبيد أدبا .

واعلم يا أخى أن العلماء على قسمين : منهم من يقف فى النوافل على حد العدد المشروع الوارد فيها ، ومنهم من يزيد ، وينبغى حمل كلامهم على حالين ، فمن كملت نوافله فى الخشوع والحضور لا ينبغى له الزيادة ، ومن نقصت نوافله فله الزيادة جبرا لخلل نوافله ، كل ذلك ليكون العبد متبعا لا مبتدعا ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى مرفوعا :

« مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً غَيْرَ الْفَرِيضَةِ إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ » .

وزاد الترمذى والنسائى : « أَرْبعاً قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ .

وزاد ابن خزيمة وابن حبان : « وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْعَصْرِ » .

وأسقطا ذكر ركعتين بعد العشاء ، وفى رواية لابن ماجه :

« وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْعصْرِ » .

وهذا اختلاف فى تعيين الاثنى عشر فتحصل الاثنا عشر بصلاة اثنى عشر ركعة منها ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الصلاة بين المغرب والعشاء بحسب العدد الوارد فى الأحاديث ؛ لأنها ساعة يغفل الناس فيها عن ربهم ، وقد عمل بذلك مشايخ الطريق وشددوا على المريد فى المواظبة على فعلها ، ولها نور عظيم يجده الإنسان فى قلبه فاعمل عليه ، والله يتولى هداك .

ودليلهم فى ذلك ظاهر قوله تعالى :

(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والترمذى مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى بَعْدِ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيمَا بَيْنَهُنَّ بِسُوءٍ عُدِلْنَ بِعِبَادَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً » .

وفى رواية للطبرانى : « غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ عِشْرِينَ رَكْعَةً ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فى الْجَنَّةِ » .

وروى الطبرانى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول : نعم ساعة الغفلة ، يعنى الصلاة فيما بين المغرب والعشاء .

وروى رزين العبدرى مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ » .

وفى رواية : « أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، رُفِعَتْ صَلاَتُهُ فِى عِلِّيِّينَ » .

قال الحافظ المنذرى ولم أره فى شىء من الأصول : وروى النسائى بإسناد جيد عن حذيفة ، قال « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصلى بعد العشاء أربع ركعات ، ثم نوتر بعدها قبل النوم وفى ذلك موافقة للعالم الملكى ، فإن الله تعالى يتجلى له فى الثلث الأول من الليل ، ولكن لايدرك سر ذلك إلا أكابر الأولياء الذين تروحنوا ، وأما أهل الكثائف فلا يحسون بذلك التجلى ولا يذوقون له طعما ، فاعمل يا أخى على تلطيف الكثائف لتأخذ حظك من ذلك التجلى ، والله يتولى هداك .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَرْبَعٌ بَعْدَ الظُّهْرِ كَأَرْبَعٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَأَرْبَعٌ بَعْدَ الْعِشَاءِ يَعْدِلْنَ أَرْبَعًا مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وفى رواية أخرى له مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الأَخِيرَةَ فِى جَمَاعَةٍ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ كَانَ كَعَدْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه واللفظ للترمذى ، وقال حديث حسن مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ » .

وقال على رضى الله تعالى عنه : الوتر ليس بحتم كالصلاة المكتوبة ، ولكن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ خَافَ أَنْ لاَ يقومَ آخِرَ اللَّيْلِ ، فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ ، فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ صَلاَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ وَذٰلِكَ أَفْضَلُ » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود مرفوعا :

« الْوِتْرِ حَقٌّ فَمَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا قَالَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الطهارة عند النوم وننوى القيام للتهجد كل ليلة ولا ننام على حدث إلا لضرورة شرعية أو غلبة نوم ، وكذلك نواظب على قراءة الأذكار الواردة عند النوم وعند الاستيقاظ لكون الحق تعالى يحب ذلك لا لعلة أخرى إلا أن يصرح بها الشارع ، كالحفظ من الشياطين حتى يصبح ونحو ذلك ، وقد جربوا فوجدوا الأذكار عند النوم من أعون الأمور على قيام الليل وخفته على القلب والجوارح ، وهذا العهد يتأكد العمل به على الأكابر من العلماء والصالحين الذين يحبون مجالسة الحق تعالى والوقوف فى حضرته مع الأنبياء والملائكة وخواص عباده ، فإن الأذكار قوت أرواحهم والطهارة سلاحهم ، وفيه أيضا زيادة الوقوف فى حضرة الله تعالى فى عالم الغيب ، فإن الروح إذا فارقت الجسد بالنوم وهى على طهارة أذن لها فى السجود بين يدى الله تعالى حتى يستيقظ ، وإذا فارقت الجسد محدثة وقفت بعيدة عن الحضرة ففاتها العبادة الروحية المجردة عن الجسد كالملائكة ، فافهم فهذا من سر النوم على طهارة.

وأما سر النوم على وتر فإنه أمر يحبه الله ، فاذا نام أحدنا أو مات كان آخر عهده عملا يحبه الله تعالى فيحشر مع المحبوبين الذين لايعذبهم الله على ذنب أبدا كما أشار إليه قوله تعالى :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) .

أى فلو كنتم محبوبين له ماعذبكم فافهم ، فهذا من سر حكمة نوم العبد على وتر سواء كان من عادته التهجد أم لا وبهذا أخذ الأكابر من أهل الله ، وقالوا أرواحنا بيد الله ليس فى يدنا منها شيء ، فلا نعلم هل ترد أرواحنا إلينا بعد النوم أم لا ، وكان على ذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان يوتر قبل أن ينام . وكان عمر بن الخطاب ينام على غير وتر ويقول : أوتر إذا استيقظت ؛ وكان على رضى الله عنه ينام على وتر ، فإذا استيقظ تطهر وصلى ركعة فردة وأضافها إلى ماقبل النوم فيصير شفعا ثم يصلى ما كتب له ثم يوتر ، وهى حيلة فى عدم الوتر فى الليلة مرتين ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« لاَ وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ » .

فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوتر أبى بكر وعمر قال :

« حَذَرَ هٰذَا » يعنى أبا بكر « وَقَوِيَ هٰذَا » يعنى عمر .

فقوله : حذر هـــذا إشارة لـكمال أبى بكر وسعة علمه بالأخلاق الإلهية وقوله : قوى هذا إشارة إلى نقص مقام عمر فى المعرفة عن أبى بكر ، هكذا قاله أبو الحسن الشاذلى ، والله تعالى أعلم :

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ بَاتَ طَاهِرًا بَاتَ فِي شِعَارِهِ مَلَكٌ ، فَلَا يَسْتَيْقِظُ إِلاَّ قَالَ الْمَلَكُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فُلَانٍ فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا » .

والشعار: هو مايلى بدن الإنسان من ثوبه وغيره .

وروى أبوداود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ طَاهِرًا فَيَتَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ » .

وروى مالك وأبو داود والنسائى مرفوعا :

« مَا مِنِ امْرِيءٍ يَكُونُ لَهُ صَلاَةٌ بِاللَّيْلِ فَيَغْلِبُهُ عَلَيْهَا نَوْمٌ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ صَلاَتِهِ وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَيْهِ صَدَقَةً مِنْ رَبِّهِ » .

وفى رواية لابن ماجه والنسائى باسناد جيد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِى أَنْ يَقُومَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى ، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن البراء بن عازب قال :

قَالَ النبي صَلى اللهُ عَليه وسلم : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ، ثُمَّ قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْلَمْتُ نَفْسِى إِلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِى أَنْزَلْتَ ، وَنَبِيِّكَ الَّذِى أَرْسَلْتَ ».

فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ بِخَيْرٍ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ » .

وفى رواية للبخارى والترمذى : « فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا » .

وروى أبوداود واللفظ له والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا ومتصلا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لنوفل رضى الله عنه :

« اقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ » .

وروى أبوداود والترمذى والنسائى واللفظ للترمذى :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ وَيَقُولُ : إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ » .

قال معاوية بن صالح : وكان بعض أهل العلم يجعلون المسبحات ستا (الحديد) و (الحشر) و (الحواريين) و (الجمعة) و (التغابن) و (سبح اسم ربك الأعلى) .

وروى البزار ورجاله رجال الصحيح إلا واحدا مرفوعا :

« إِذَا وَضَعْتَ جَنْبَكَ إِلَى الْأَرْضِ يَعْنِي عَلَى الْفِرَاشِ ، وَقَرَأْتَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، فَقَدْ أَمِنْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ الْمَوْتَ » .

وروى البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، ثم قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا اُسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ » وقوله تعار : أى استيقظ .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَالَ حِينَ يَتَحَرَّكُ مِنَ اللَّيْلِ : بِسْمِ اللهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ

وَسُبْحَانَ اللهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، آمَنْتُ بِاللهِ وَكَفَرْتُ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ عَشْرًا غُفِرَ لَهُ كُل ذَنْبٍ يَسْتَخْوِفُهُ وَلَمْ يَنْبَغِ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ إِلَى مِثْلِهَا » والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد لقيام الليل بالزهد فى الدنيا وشهواتها ، وعدم الشبع من حلالها . ومن هنا صحت المواظبة من الصالحين على قيام الليل ومهاجرة غيرهم ، وما رأت عينى من نساء عصرى أكثر مواظبة على قيام الليل من زوجتى أم عبد الرحمن ، فربما صلت خلفى وهى حبلى على وجه الولادة بنصف القرآن ، وهذا عزيز جدا وقوعه من الرجال على وجه الإخلاص فضلا عن النساء .

وقد صلى خلفى مرة سلامة السند بصطى ، فقرأت به من أول سورة البقرة إلى سورة المزمل فى الركعة الأولى فخر نائما ولم يشعر بنفسه ، هذا مع صحة جسمه وقلة تعبه فى النهار ، فرضى الله عن أم عبد الرحمن ما أعلى همتها حيث علت على همة الرجال ، وإنما جعلنا الزهد فى الدنيا معينا على قيام الليل لما ورد فى الحديث :

« الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْجَسَدَ » .

ومفهومه أن الرغبة فى الدنيا تتعب القلب والجسد ، فإذا دخل الليل نزل الراغب فى الدنيا إلى الأرض محلولة أعضاؤه فنام كالميت ، بخلاف الزاهد فى الدنيا ينام وأعضاؤه مستريحة فيقوم بسرعة ، وإذا نام كأنه مستيقظ فعلم أن من طلب قيام الليل مع ترجيحه الذهب على الزبل فقد رام المحال ، وإن تكلف ذلك لايدوم ، وإن دام فهو فى حجاب لايكاد يتلذذ بمناجاة الحق ، ولا يذوق لها طعما ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يخرجه عن حب الدنيا شيئا فشيئا ، حتى لايبقى له هم دون الله تعالى ولا عائق يعوقه ، فإن حكم الشيخ فى سلوكه بالمريد وترقيه فى الأعمال حكم من يمر بالمريد على جبال الفلوس الجدد ، فإذا زهد فيها سلك به على جبال الفضة ، فإذا زهد فيها سلك به حتى يمر على جبال الذهب ثم الجواهر ، فإذا زهد فيهما مر به إلى حضرة الله تعالى فأوقفه بين يديه من غير حجاب ، فإذا ذاق مافيه أهل تلك الحضرة زهد فى نعيم أهل الدنيا والآخرة وهناك لايقدم على الوقوف بين يدى الله شيئا أبدا . وأما بغير شيخ فلا يعرف أحد يخرج من ورطات الدنيا ، ولو كان من أعلم الناس بالنقول فى سائر العلوم .

فاطلب لك يا أخى شيخا يسلك بك كما ذكرنا ، وإلا فلا تطمع فى دوام قيام الليل، وكيف يتخلص إلى حضرة ربه من سداه ولحمته شهوات ورعونات وعلل وأمراض باطنية فى كل عبادة سلكها ، فضلا عن المعاصى ؟ هذا مما لايكون عادة وتكونه القدرة .

وقد كان سيدى محمد بن عنان رضى الله عنه مع زهده فى الدنا لابد له من غمز أعضائه كل ليلة ليستريح جسمه ويقوم ليتهجد بسرعة لأن البدن لا يستغرق فى النوم إلا من شدة التعب .

وكان سيدى على الخواص إذا نام يرفع رأسه على موضع عال ويقول : إن الرأس إذا كان على موضع عال نام كأنه مستيقظ ، وكان أخى أفضل الدين يقرأ كل ليلة سورة الكهف ويقول إنها تخفف النوم اه ، وقد جربت أنا ذلك فوجدت قلبى طول الليل كأنه مستيقظ .

وقد روى الإمام سنيد فى تفسيره أن سورة الكهف كانت مكتوبة فى لوح يداربه مع الحسين بن على فى كل بيت يكون فيه من بيوت زوجاته والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« يعقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ، إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ » .

زاد فى رواية لابن ماجه : « لَمْ يُصِبْ خَيْرًا، فَحُلُّوا عُقَدَ الشَّيْطَانِ وَلَوْ بِرَكْعَتَيْنِ » .

وقافية الرأس : مؤخره ومنه سمى آخر بيت الشعر قافية .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ ،

وَالرَّجُلُ لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ » .

وفى رواية للإمام أحمد وأبى يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَفِرَاشِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلاَتِهِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنْظُرُوا إِلَى عَبْدِى ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَفِرَاشِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاَتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِى » الحديث .

وفى رواية للطبرانى : « إِنَّ اللهَ لَيَضْحَكُ إِلَى رَجُلَيْنِ رَجُلٍ قَامَ فِى لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ وَدِثَارِهِ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلاَئِكَتِهِ ، مَا حَمَلَ عَبْدِى هٰذَا عَلَى مَا صَنَعَ ؟ فَيَقُولُونَ رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ فَيَقُولُ : فَإِنِّى قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَاهُ وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا يَخَافُهُ » الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ نَامَ إِلَى الصَّبَاحِ فَذٰلِكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِى أُذُنِهِ » .

قلت : وقد وقع لبعض أصحابنا ذلك فقام والبول سائح من أذنيه على رقبته فغسله بحضرتى ، وكان يعتقد أن ذلك معنى من المعانى ، فينبغى لمن يؤمن بهذا الحديث إذا نام إلى الصباح أن يغسل أذنه من بول الشيطان وإن لم يره .

وروى ابن ماجه والترمذى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين مرفوعا :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « عَلَيْكُمْ بِصَلاَةِ اللَّيْلِ وَلَوْ رَكْعَةً » .

وفى رواية له باسناد حسن مرفوعا :

« شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » .

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعا :

« أَشْرَافُ أُمَّتِى حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة نحو حديث :

« عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ مَقْرَبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمُكَفِّرَةٌ لِسَيِّئَاتِكُمْ ، وَدَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ » . رواه الطبرانى .

وسيأتى فى عهد صيام رمضان حديث أحمد والطبرانى والحاكم مرفوعا :

« إِنَّ الْقُرْآنَ يَشْفَعُ فِي حَامِلِهِ ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَفِّعْنِي فِيهِ فَإِنِّي مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقضى أورادنا التى نمنا عنها أو غفلنا فى الليل مابين صلاة الصبح إلى صلاة الظهر ولا نتساهل فى ترك ذلك ، وهذا العهد لا يعمل به فى هذا الزمان إلا القليل من الناس لكثرة غفلتهم عن الله وعن الدار الآخرة ، فيفوت أحدهم الخير العظيم فلا يتأثر له ويقع منه النصف فيتأثر له لكون الدنيا أكبر همه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

واعلم أن أمر الشارع لنا بالقضاء إنما هو تنبيه لنا على مقدار مافاتنا فى الليل ، فإن النهار وقت حجاب ، فإذا حصل الحجاب للإنسان فى عبادة النهار عرف مقدار مافاته من مناجاة الله تعالى والحضور فيها وقويت داعيته إلى قيام الليل فى المستقبل ، وفى الحقيقة ماثم قضاء لأن كل عبادة وقعت إنما هى وظيفة ذلك الوقت بأمر جديد من الشارع ، وذلك الوقت ذهب فارغا فلا يملؤه مافعل فى غيره أبدا ، ومن هنا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، والله تعالى أعلم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على صلاة الضحى لئلا يطول زمن غفلتنا عن الله تعالى ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم أمين على الوحى ، وقد سن لنا صلاة الضحى ربع النهار لتكون الضحى كصلاة العصر بعد انقضاء وقت الظهر ، وإنما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ارتفاع الشمس كرمح ليبين لنا

أن وقتها يدخل من ذلك الوقت ، وبعضهم سماها صلاة الإشراق ، والذى عندى أن الضحى يحصل بصلاة الإشراق ، وأن لها اسمين وليستا بصلاتين ، وذلك كله شفقة علينا حتى لايطول زمن الغفلة عن الله تعالى من صلاة الصبح إلى الزوال فتقسو قلوبنا حتى تصير لا تحن إلى فعل خير أبدا فافهم .

ومن فوائد المواظبة عليها نفرة الجن عن مصليها ، فلايكاد جنى يقرب منه إلا احترق.

فواظب يا أخى عليها واشكر نبيك الذى سنهالك خوفا عليك من طول زمن القطيعة والهجران ، ووالله لولا الحضور بين يدى الله فى أوقات العبادات لذابت قلوب المشتاقين وتفتتت أكبادهم ، فالحمد لله رب العالمين .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال «أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد » قال أبوهريرة رضى الله عنه وهى صلاة الأوابين .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« مَنْ حَافَظَ عَلَى شُفْعَتِي الضُّحَى غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » .

والشفعة : بضم الشين وقد تفتح هى ركعتا الضحى .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى الضُّحَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ مِنْ ذَهَبٍ » .

وروى الإمام أحمد وأبويعلى ورجال أحدهما رجال الصحيح مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ اكْفِنِي نَهَارَكَ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِكَ » .

وروى أبو يعلى مرفوعا : « مَنْ قَامَ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ غُفِرَتْ لَهُ خَطَايَاهُ ، وَكَانَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا ورواته ثقات :

« مَنْ صَلَّى الضُّحَى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ ، وَمَنْ صَلَّى أَرْبَعًا كُتِبَ

مِنَ الْعَابِدِينَ ، وَمَنْ صَلَّى سِتًّا كُفِيَ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَمَنْ صَلَّى ثَمَانِيًا كَتَبَهُ اللهُ مِنَ الْقَانِتِينَ ، وَمَنْ صَلَّى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَمَا مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلاَّ وَلِلَّهِ مَا يَمُنُّ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا وإسناده متقارب :

« إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا كَهَيْئَتِهَا لِصَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَصَلَّى رَجُلٌ رَكْعَتَيْنِ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ ، فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ : وَكُفِّرَ عَنْهُ خَطِيئَتُهُ وَإِثْمُهُ ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ : وَإِنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ بَابُ الضُّحَى . فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يُدِيمُونَ صَلَاةَ الضُّحَى هٰذا بَابُكُمْ فَادْخُلُوهُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى » .

قلت : وقد رأيت هذا الباب فى واقعة ورأيت فيها باب الوتر أيضا مكتوبا عليه باب الوتر فأردت الدخول منه مع الداخلين فمنعنى الملك وقال : إنك لم تصل الليلة الوتر فعجزت عنه ولم يمكنى أدخل ، فلما استيقظت واظبت على صلاة الوتر ولو ثلاث ركعات وكذلك الضحى ولو ركعتين ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على صلاة التسبيح لما ورد فيها من الفضل ، ويتعين العمل بهذا العهد على كل من غرق فى الذنوب وتاه فى عددها كأمثالنا .

وقد وردت صلاة التسبيح على كيفية أخرى غير المشهورة ، وهى ما رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن أم سلمة قالت :

« عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيه وسلم كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلَاتِي ، فَقَالَ : كَبِّرِي اللهَ عَشْرًا ، وَسَبِّحِي عَشْرًا ، ثُمَّ صَلِّي مَا شِئْتِ ، ثُمَّ سَلِي مَا شِئْتِ ، تَقُولُ نَعَمْ نَعَمْ » .

فصلاة التسبيح على كيفيات مختلفة ، ولكن أصحها ما رواه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه .

قال الحافظ المنذرى : وصححه أيضا الحافظ أبو بكر الآجرى وشيخنا أبو محمد عبد الرحمن المقرى وشيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسى .

وقال أبو داود: وليس فى صلاة التسبيح حديث صحيح غيره .

وقال مسلم: ليس فى صلاة التسبيح حديث أحسن إسنادا منه، قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب :

« يَا عَمَّاهُ أَلاَ أُعْطِيكَ ، أَلاَ أَمْنَحُكَ ، أَلاَ أَحْبُوكَ ، أَلاَ أَفْعَلُ لَكَ عَشْرَ خِصَالٍ، إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَ ذَٰلِكَ غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَقَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ وَخَطَأَهُ وَعَمْدَهُ وَصَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ وَسِرَّهُ وَعَلاَنِيَتَهُ ، وَالْعَشْرُ خِصَالٍ هِيَ : أَنْ تُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَةٍ ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ فَقُلْ وَأَنْتَ قَائِمٌ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، ثُمَّ تَرْكَعُ فَتَقُولُ وَأَنْتَ رَاكِعٌ عَشْرًا ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا ، ثُمَّ تَهْوِي سَاجِدًا فَتَقُولُ وَأَنْتَ سَاجِدٌ عَشْرًا ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا ، ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُهَا عَشْرًا ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا ، فَذَٰلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ، تَفْعَلُ ذَٰلِكَ فِي أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فَافْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي عُمْرِكَ مَرَّةً » .

قال الحافظ المنذرى : وقد جاء فى رواية الترمذى :

« أَنَّهُ يُسَبِّحُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ، وَالتَّعَوُّذِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، ثُمَّ يَتَعَوَّذُ وَيَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ وَالسُّورَةَ ، ثُمَّ يُسَبِّحُ عَشْرًا بَعْدَ الْقِرَاءَةِ وَالتَّعَوُّذِ ، وَقَبْلَ الرُّكُوعِ وَلاَ يُسَبِّحُ فِي جَلْسَةِ الاسْتِرَاحَةِ شَيْئًا » اهـ .

وفى رواية للطبرانى بعد التشهد وقبل السلام :

« اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ تَوْفِيقَ أَهْلِ الْهُدَى ، وَأَعْمَالَ أَهْلِ الْيَقِينِ ، وَمُنَاصَحَةَ أَهْلِ التَّوْبَةِ ، وَعَزْمَ أَهْلِ الصَّبْرِ ، وَجِدَّ أَهْلِ الْخَشْيَةِ ، وَطَلَبَ أَهْلِ الرَّغْبَةِ ، وَتَعَبُّدَ أَهْلِ الْوَرَعِ ، وَعِرْفَانَ أَهْلِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَافَكَ ، اللَّهُمَّ مَخَافَةً تَحْجُزُنِى عَنْ مَعْصِيَتِكَ حَتَّى أَعْمَلَ لِطَاعَتِكَ عَمَلاً أَسْتَحِقُّ بِهِ رِضَاكَ ، وَحَتَّى أُنَاصِحَكَ بِالتَّوْبَةِ خَوْفًا مِنْكَ ، وَحَتَّى أُخْلِصَ لَكَ النَّصِيحَةَ حَيَاءً مِنْكَ ، وَحَتَّى أَتَوَكَّلَ عَلَيْكَ فِى الْأُمُورِ حُسْنَ ظَنٍّ بِكَ ، سُبْحَانَ خَالِقِ النُّورِ » ثم يسلم .

قال المنذرى : وقد وقع فى صلاة التسبيح كلام طويل وفيما ذكرناه كفاية اه .

قال البيهقى : وفعلها عبد الله بن المبارك ، وتناولها الصالحون بعضهم من بعض ، قال ابن المبارك : وإذا صلاها ليلا فالأحب له أن يصلى ويسلم من كل ركعتين ، وإن صلاها نهارا فإن شاء سلم وإن شاء لم يسلم ، قال ويبدأ فى الركوع « بسبحان ربى العظيم » ثلاثا وفى السجود بـ« سبحان ربى الأعلى » ثلاثا ، ثم يسبح التسبيحات المذكورة فقيل لعبد الله بن المبارك سها فيها هل يسبح فى سجدتى السهو عشرا عشرا ، قال لا إنما هى ثلاثمائة تسبيحة .

واعلم يا أخى أن ماذكرته لك من الأدلة هو الذى ذكره الحافظ المنذرى وهو أصح ماورد وقد اضطرب كلام النووى فى أدلتها لغيبة كتاب الترغيب والترهيب عنه ، فإن الكتاب لم يشتهر إلا أيام الحافظ ابن حجر وجده فى تركة إنسان مسودا فبيضه وأبرزه للناس ، ولو أن النووى كان رآه انقل ذلك عن المنذرى لكونه من الأئمة الحفاظ ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على صلاة التوبة كلما نذنب ذنبا وإن تكرر ذلك الذنب فى كل يوم سبعين مرة أو أكثر ، وذلك لأن التنصل من الذنوب مقدم على كل طاعة كالوضوء للصلاة ، وقد واظبت على هذه الصلاة أول بلوغى مدة سنتين حتى كنت أعد ذنوبى عندى فى دفتر فلما كثرت ذنوبى وزادت عن الحصر عجزت عن الصلاة عند كل ذنب ، فيا سعادة من مات من المذنبين صغيرا ويا شقاوة من طال عمره منهم .

واعلم أنه تعالى وإن كان :

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

يعنى المتطهرين بالتوبة أو بالماء أو بالتراب ، فهو لمن لم يتب لعدم ذنبه أحب إليه تعالى كالأنبياء والملائكة ، لأنهم ليس لهم ذنوب حقيقة يتوبون منها ، وما قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

إلا جبرا لخلل من نفذت فيه الأقدار وتكررت عليه المعاصى ، وطلب الإقالة منهم فلم يقل كما أشعر به : قوله التوابين : أى من تكرر منهم التوبة بتكرر الذنب فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كان صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنِّى لَأَتُوبُ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً » .

تشريعا لأمته ليستسنوا به ، وإلا فاعتقادنا أنه صلى الله عليه وسلم لاذنب له فى نفس الأمر ، إنما هو ذنب تقديرى .

ولا يخفى أن التوبة من جملة المقامات المستصحبة للعبد إلى الممات لقوله تعالى :

(وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

فلا يستغنى عنها مؤمن ، ولو ارتفعت درجته حتى يدخل الجنة فتنقضى حضرة اسمه تعالى التواب لزوال التكليف ، وقد يكون إحكم التواب فى الجنة كحكمه قبل وجود التكاليف ، فيكون توابا بالقوة لا بالفعل حقيقة .

واعلم أن من فضائل الصلاة أن العبد إذا وقف بين يدى الله عز وجل نادما مستغفرا لا يرده الله إلا مقبول التوبة التى هى الرجوع إلى كشف الحجاب بعد أن كان محجوبا حتى وقع فى الذنب ، فإذا رفع حجابه وجد الله تعالى فاعلا دون العبد إلا بقدر نسبة التكليف فقط ، وهناك يخف ندمه ضرورة قهرا عليه ، ولو أراد أن يندم كما كان فى حال الحجاب لايصح له وثم مقام رفيع ومقام أرفع ، ولولا أن فى شدة الندم تعظيم أوامر الله تعالى وتعظيم الوقوع فى المخالفات لكانت شدة الندم إلى الشرك أقرب ، وذلك لأنه يؤذن بترجيح كونه فاعلا دون الحق ، فمن رحمة الله تعالى بالعبد أن حبسه فى مقام شركة نفسه مع الله تعالى فى الفعل حتى يحكم ذلك المقام قبل أن ينقله إلى مافوقه .

فإن قيل : إن الأكابر من الأنبياء بكوا حتى نبت العشب من دموعهم . وبكى آدم حتى صارت دموعه بركة ماء يشرب منها الدواب والهوام نحو ثمانين سنة كما ورد ، وهؤلاء لا يتصور فى حقهم أنهم يرون شركة نفوسهم فى الفعل مع الله تعالى إلا بقدر

نسبة الفعل إليهم لأجل التكليف ، وذلك القدر ضعيف جدا لايكون لأجله الدم ولا الدموع الكثيرة ، وهذا الأمر هو بالأصالة للأنبياء ، لأن النبوة تأخذ بدايتها من بعد منتهى الولاية .

فالجواب : إن بكاء كل داع إلى الله تعالى إنما هو تشريع لقومه ، فيجرى الله تعالى عليه صورة الندم حتى لايسأل يوم القيامة عن تفريطه فى شىء من أحوال قومه التى كلفه الله تعالى ببيانها لهم ، ولا عن بيان كيفية خروجهم من ذنوبهم إذا وقعوا فيها ، ويحتمل أن يكون بكاء الأكابر من باب الفتوة على قومهم فحملوا عنهم ببكائهم ذلك البكاء الذى كانوا مأمورين به بعد وقوعهم فى الذنوب ، فكانت تلك البركة التى نشأت من بكاء آدم عليه السلام هى دموع بنيه التى كانت متفرقة فيهم ودفعها عنهم ، وهذا ماظهر لى فى هذا الوقت من الجواب عن الأكابر ، فعلم أن أحدا لايستغنى عن الاستغفار سواء كشف له الحجاب أو لم يكشف فانه إن شهد له مدخلا فى شركة الفعل فالواجب عليه سؤال المغفرة ، وإن لم يشهد له مدخلا فيه ، فالواجب عليه أيضا سؤال المغفرة قياما بواجب نسبة التكليف إليه كما قال أبونا آدم عليه الصلاة والسلام مع معرفته بما الأمر عليه من القضاء المبرم الذى لا مرد له :

(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

فلا يخلو حال المستغفر من أحد أمرين : إما تحقيق الذنب ، وإما التشريع ويكون ندمه صورة ، فتأمل ذلك وحرره ، والله يتولى هداك .

وروى الترمذى ، وقال حديث حسن ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ، ثُمَّ يُصَلِّى ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ ، إلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) » الآية .

وفى رواية للبيهقى وابن حبان : « ثُمَّ يُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ » .

وكذلك ذكر ابن ماجه فى صحيحه الركعتين لكن بغير إسناد .

وفى رواية البيهقى مرسلا : « مَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى بَرَازٍ مِنَ الأَرْضِ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ إلاَّ غَفَرَ لَهُ » .

والبراز : هو الأرض الفضاء ومثلها كل موضع خال من الناس لاسيما المكان المعظم والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصلى صلاة الحاجة إظهارا للفاقة والحاجة ، كالهدية التى يرسلها الإنسان لمن له عنده حاجة قبل أن يجتمع به :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ينبغى فعل صلاة التسبيح قبل صلاة الحاجة لما ورد من أنها تكفر الذنوب كلها وذلك من أكبر أسباب قضاء الحاجة ، فإن تأخير قضاء الحوائج إنما يكون بسبب الذنوب فى الغالب اه .

وسمعته يقول أيضا : ينبغى شدة الحضور فى أذكار السجدة الأخيرة من صلاة الحاجة التى يسلم بعدها ، وعلامة الحضور أن يحس أن مفاصله كادت تتقطع وعظمه كاد يذوب من هيبة الله تعالى ، وهناك ترجى الإجابة . وإيضاح ذلك أن قراءة القرآن على الله تعالى فى السجود لا يطيقها أحد لكون العبد فى أقرب ما يكون من الله تعالى كما ورد اه .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها ، هذا فى حكم معاملة الخلق مع بعضهم بعضا :

(وَاللهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وجميع ما يقدمونه له هدية هو من خزائنه ، فكأن العبد نقل تلك الهدية من بين يدى الله تعالى إلى بين يدى الله ، قال تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) .

فكانت صلاة الحاجة من العبد إظهار عبودية لاغير سواء كان مشاهدا لكونها من فضل الله حال إهدائها أو غافلا عن هذا المشهد كحال العوام .

وقد سمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول مرة : ليس للعبد أن يشهد له ملكا الشىء مما أعطاه الحق تعالى له إلا على وجه النسبة فقط ليبنى عليه الشكر وإلا فحقيقة العطاء أن ينتقل ذلك الشىء من ملك المعطى إلى ملك المعطى ، وذلك محال فى جانب الحق .

وسمعته أيضا يقول : لقائل أن يقول إن الحق تعالى لم يعط أحدا شيئا حقيقة إنما ذلك استخلاف لينفقه على المحتاجين إليه بطريقه الشرعى كالوكيل ، قال : ومن هنا لم يفرح أحد من أهل الله تعالى بشىء من أمور الدنيا والآخرة وتساوى عندهم نسبة ذلك إليهم وسلبه عنهم على حد سواء لأن أحدا منهم لايشهد له ملكا مع الله تعالى فى الدارين ، وهذا

أمر لاتذوقه ياأخى إلا بالسلوك على يد شيخ ناصح ، فإن أردت العمل بذلك المشهد النفيس فاطلب لك شيخا يرشدك إليه وإلا فلا سبيل لك إلى ذلك ولو عبدت الله تعالى بعبادة الثقلين .

ومن هنا افترى السالكون والعابدون ، فربما مكث العابد يعبد ربه على علة خمسمائة سنة والسالك يخرج عن العلة من أول قدم يضعه فى الطريق ، لأن بداية الطريق التوحيد لله تعالى فى الملك ثم الفعل ثم الوجود والعابد لايذوق لهذه الثلاثة مقامات طعما ، كما أشار إليه خبر الطبرانى وغيره مرفوعا :

« أَنَّ عَابِدًا عَبَدَاللهَ تَعَالَى فِي جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي فَيُكَرِّرُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ يَقُولُ يَا رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي » .

وهذه المقالة لوقالها المريد لشيخه فى أول بدايته لعيبت عليه فو الله لقد فازمن كان له شيخ وخسر من لم يتخذ له شيخا أو اتخذه ولم يسمع لنصحه كما عليه غالب المريدين فى هذا الزمان .

واعلم أن من شروط إجابة الدعاء كون العبد ليس عليه ذنب ، فمن سأل الله تعالى فى حاجة وعليه ذنب واحد لم يتب منه فهو إلى الرد أقرب .

وكان سيدى على البحيرى رحمه الله لايسأله أحد الدعاء إلا قال : قولوا كلكم ، أستغفر الله العظيم ، الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه من كل ذنب ، ثم يدعو ويقول : ياأولادى كيف يطلب العبد من ربه حاجة وهو قد أغضب ربه بالمعصية ، وإذا تاب منها ربما أجيب دعاؤه ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى الترمذى وقال حديث حسن واللفظ له وابن ماجه باسناد ضعيف مرفوعا :

« مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم ، ثُمَّ لِيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ

مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ لاَ تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلاَّ غَفَرْتَهُ ، وَلاَ هَمًّا إِلاَّ فَرَّجْتَهُ ، وَلاَ حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلاَّ قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن والنسائى واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح على شرط الشيخين :

« أَنَّ أَعْمَى أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عليهِ وسَلم ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي ، قَالَ أَوَأَدَعُكَ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ شَقَّ عَلَيَّ ذَهَابُ بَصَرِي ، قَالَ : فَانْطَلِقْ فَتَوَضَّأْ ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّي بِكَ أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِي نَفْسِي » .

قال عثمان بن حنيف : فرجع وقد كشف الله تعالى عن بصره .

وفى رواية للطبرانى فقال : عثمان بن حنيف ، فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

وروى الحاكم مرفوعا : « اثْنَتَا عَشْرَةَ رَكْعَةً تُصَلِّيهِنَّ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ وَتَتَشَهَّدُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، فَإِذَا تَشَهَّدْتَ فِي آخِرِ صَلَاتِكَ فَأَثْنِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وَاقْرَأْ وَأَنْتَ سَاجِدٌ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَقُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَاقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ ، وَمُنْتَهَى الرَّحْمَةِ مِنْ كِتَابِكَ ، وَاسْمِكَ الْأَعْظَمِ ، وَجَدِّكَ الْأَعْلَى ، وَكَلِمَاتِكَ التَّامَّةِ ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ ، ثُمَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، ثُمَّ سَلِّمْ يَمِينًا وَشِمَالاً وَلاَ تُعَلِّمُوهَا السُّفَهَاءَ فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ بِهَا فَيُجَابُونَ » .

قال أحمد بن حرب قد جربته فوجدته حقا :

وقال إبراهيم بن على الديلى قد جربته فوجدته حقا .

وقال الحاكم قال لنا أبو زكريا : وقد جربته فوجدته حقا : قال الحافظ المنذرى : والاعتماد فى مثل هذا على التجربة لا على الاسناد ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد لفهم إشارات الحق تعالى بتلطيف الكثائف حتى نحس إذا استخرنا ربنا بما هو الأولى لنا من فعل ذلك الأمر أو تركه فإن من كان غليظ الحجاب لايحس بشيء من ذلك، ولهذا نقول له استخر ربك فيقول قد استخرته فلم يترجح عندى أمر ولو أنه كان رقيق الحجاب لأدرك ما فيه الخيرة له من فعل أو ترك ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يمزق حجب عوائده ، ولا يصير له عن الله عائق بل يفهم مراد الحق تعالى بأول وهلة ، وهذا أمر عزيز الوجود ولذلك عول غالب الناس على استشارة بعضهم بعضا لاسيما إشارة الفقراء ، ولكن يحتاج أيضا إلى تلطيف حجاب حتى يعرف طريق الخيرة لذلك العبد من طريق كشفه وإلا فاشارته معكوسة ، وربما أشار على أحد بأمر فكان فيه هلاكه فيكون على المشير الإثم فى ذلك مثل من يفتى فى دين الله بغير علم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي لأحد أن يشير على أحد بشىء إلا إن كان مطمح نظره اللوح المحفوظ الذى لا تبديل فيه فإن لم يكن مطمح نظره ماذكر فليقل له استخر ربك .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : الإستشارة بمنزلة تنبيه النائم ، فترى الإنسان يكون جازما بفعل شيء فيشاور فيه بعض إخوانه فيقول له إن فعلت كذا حصل لك كذا ، فينحل عزمه عنه فى الحال ، فلو قال له إنسان بعد ذلك افعل كذ لايرجع إلى قوله .

وسمعته أيضا يقول : لاتستشر محب الدنيا فى شيء من أمور الآخرة فإن تدبيره ناقص لحجابه بالدنيا عن الآخرة ، ولاتستشر أيضا محب نعيم الآخرة من الزهاد والعباد فى شيء من الأمور المتعلقة بالأدب مع الحق تعالى فإنه محجوب بذلك عن الحق وعن حضرته الخاصة واستشر كمل العارفين بالله فى أمور الدنيا والآخرة فإنهم قطعوا المرتبتين ووصلوا لحضرة الحق وعرفوا آدابها ودرجات أهلها فى الأدب ، وفى المثل السائر : استعينوا على كل حرفة بصالح من أهلها فتأمل ذلك واعمل عليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لمن كان مشغوفا بحب الدنيا أن يفعل شيئا برأيه ولا باستخارته بل يسأل أهل الخير عن ذلك ويفعل مايشيرون به عليه ، ولو كان من أكابر ملوك الدنيا ، فإن صحة الرأى إنما تكون لمن زهد فى الدنيا

وشهواتها والولاة غارقون فى محبة الدنيا مع زيادة السكر الحاصل لهم من لذة الأمر والنهى والحكم ، ولذلك طلب الملوك العادلون أن يكون لهم وزراء ، لأن رأى الوزير ربما كان أكمل وأتم من الملوك لكون الوزير أنقص حكما وتصريفا منهم ، فلذلك قل سكره ، وقال العارفون لايعرف الشئ إلا من زهد فيه ، وفى الحديث :

« حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ » .

ولولا ظهور عيب الدنيا للزاهد مازهد فيها .

فاعمل ياأخى على جلاء مرآتك باشارة شيخ مرشد إن أردت أن تعرف مراد الحق وطريق الخيرة فيما تفعله فى المستقبل ، وإنما شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه امتثالا لأمر الله تعالى بقوله :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) .

وإلا فهو صلى الله عليه وسلم أتم خلق الله تعالى رأيا وأوسعهم علما وعقلا ، فكانت مشاورته لهم تمييلا لخاطرهم لا عملا باشارتهم ، من غير أن يظهر له صلى الله عليه وسلم وجه الحق فى ذلك ولذلك قال تعالى له :

(فَإِذَا عَزَمْتَ) يعنى على فعل ما أشاروا عليك به : (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)

لا على مشورتهم ، على أنه لايقدح فى كمال صلى الله عليه وسلم عدم التفاته إلى أمور الدنيا كما قال فى مسئلة تأبير النخل :

« أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ » .

يعنى التى لاوحى عندى من الله تعالى فيها ، فافهم .

قال بعض العارفين : ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتى صار أعلم الناس بأمور الدنيا اه .

فشاور فى جميع الأمور التى تحبها نفسك من يكون زاهدا فيها من العارفين لا من المتعبدين فإن المتعبد ربما نفرت نفسه من الأشياء بحكم الطبع ونفر غيره عنها كذلك ولو كان فيها مصلحة له كما يقع فيه كثير ممن ترك الكسب واشتغل بالعبادة وقنع بما يتصدق الناس به عليه فتراه يأمر الناس كلهم بترك الأسباب والكسب كذلك ويقول لهم ، ربكم يرزقكم وغاب عنه أن اعتماد مثله على الخلق لا على الله تعالى ، ولو أن هذا الشخص

شاور عارفا فقال له عليك بالكسب واعتمد على الله لا على الكسب ، وأعتق نفسك من تحمل منن الخلائق :

بل قال بعض مشايخ العرب لما ظن أنه متوكل أنا ماولانى أحد من الفقراء هذه الوظيفة ، وإنما ولانى الله تعالى ، فقال له شخص من قرناء السوء أنت والله من الأولياء فقلت له ، لا يكون من الأولياء إلا إن صرح بهذا القول بين يدى الباشا الذى ولاه وقال له فى وجهه أو قال لمن يبلغه ليس لك على جميل أو ليس للباشا على جميل وما ولانى إلا الله، فقال متى قلت ذلك ، عزلنى وسلب نعمتى قلت : فإذن قولك إنك معتمد على الله تعالى دون الخلق افتراء على الله تعالى وازدراء بطائفة الفقراء لاغير .

قلت : وقد رأيت بعض الأكابر من العارفين يشهد الله تعالى كل يوم فى جميع مايتحرك فيه أو يسكن ، ويقول اللهم إن كنت تعلم أن جميع حركاتى وسكناتى فى هذا اليوم خير لى فاقدرها لى ويسرها لى وإن كنت تعلم أنها شر لى فاصرفها عنى واصرفنى عنها وقال من واظب على ذلك كان فى أمان من الله تعالى أن يمكر به اه .

قال البيهقى ويعيد صلاة الاستخارة والدعاء ثانيا وثالثا أو أكثر ، حتى ينشرح صدره لشىء اه :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

روى الإمام أحمد وأبو يعلى والحاكم مرفوعا :

« مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وزاد فى رواية الحاكم : « وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وروى الترمذى مرفوعا بلفظ : « مِنْ سِعَادَةِ ابْنِ آدَمَ كَثْرَةُ اسْتِخَارَتِهِ لِلهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ تَعَالَى ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ تَعَالَى وَسَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللهُ تَعَالَى لَهُ » .

وروى البخارى وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن فيقول :

« إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَال عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَقَدِّرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ ، قَالَ : وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على المبادرة إلى حضور صلاة الجمعة بحيث نصلي السنة التي قبلها قبل صعود الإمام المنبر اهتماما بأمر الله عز وجل لنا بقوله :

(إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) .

يعني والشراء ولو كنتم محتاجين إلى ذلك إلا أن تبلغوا مرتبة الاضطرار .

وسمعت سيدي عليا الخواص يقول . يدخل الناس الجنة على حسب سرعة مبادرتهم لحضور الجمعة وحسب بطئهم ، فمن حضر المسجد أولا دخل الجنة أولا ومن حضر ثانيا دخل الجنة بعده وهكذا اه ويقاس الجمعة في ذلك المسارعة لكل خير والله أعلم :

وهذا العهد قد صار غالب الناس يخل به فلا يكادون يحضرون إلا بعد أن يصعد الإمام المنبر ، وبعضهم يفوته سماع الخطبتين ، وبعضهم تفوته الركعة الأولى ، وبعضهم يفوته ركوع الثانية ويصليها ظهرا ، وكل ذلك أصله قلة الاهتمام بالدين ، ولو أنه وعد بدينار إن حضر قبل الوقت لترك كل عائق دون ذلك وربما كان تخلف بعضهم للهو واللعب والوقوف على حلق المخبطين والمسخرة ، وربما كان تخلفه حتى عمم عمامة تعجبه فصار يهدمها ويبنيها حتى فرغ الخطيب ، بل رأيت من شرع في تعميمها من طلوع الشمس فلم يزل يهدمها ويبنيها حتى صلوا من الجمعة ركعة ، وذلك ربما يكون معدودا من الجنون نسأل الله اللطف .

وكان سيدي محمد بن عنان يستعد لحضور الجمعة من عصر يوم الخميس فلا يزال مراقبا لله تعالى حتى يحضر المسجد ، ولكل مقام رجال :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مالك والشيخان وغيرهما مرفوعا :

« مَنِ اغْتَسَلَ يوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الأولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » .

وفى رواية : « كَمَا مِثْلِ المُهَجِّرِ » .

وفى رواية للبخارى : « المُسْتَعْجِلُ لِلجُمُعَةِ كَالمُهْدِى بَدَنَةً » الحديث .

وفى رواية للامام أحمد مرفوعا :

« تَقْعُدُ المَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ المَسَاجِدِ فَيَكْتُبُونَ الأَوَّلَ وَالثَّانِى وَالثَّالِثَ حَتَّى إِذَا خَرَجَ الإِمَامُ رُفِعَتِ الصُّحُفُ » .

وروى الطبرانى والأصبهانى وغيرهما مرفوعا .

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَيَتَأَخَّرُ عَنِ الجُمُعَةِ ، فَيُؤَخَّرُ عَنِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِهَا » .

والأحاديث فى ترتيب درجات الذاهبين إلى الجمعة كثيرة .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَى فَقَدْ لَغَا » .

ومعنى لغى خلى من الأجر وقيل أخطأ وقيل صارت جمعته ظهرا وقيل غير ذلك قاله الحافظ المنذرى .

وروى البخارى والترمذى عن يزيد بن أبى مريم قال : لحقنى عبادة بن رفاعة ابن رافع ، وأنا أمشى إلى الجمعة فقال أبشر . فإن خطاك هذه فى سبيل الله ، قال فإنى سمعت أبا عيسى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُمَا حَرَامٌ عَلَى النَّارِ » .

وفى رواية للبخاري . « حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ مَا بَدَا لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يُصَلِّيَ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه مرفوعا :

« مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا » .

وفى رواية الطبرانى : « كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ عِشْرُونَ حَسَنَةً ، فَإِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ أُجِيزَ بِعَمَلِ مَائَتَيْ سَنَةٍ » .

قال الخطابى رحمه الله ، قوله « غسل واغتسل وبكر وابتكر » اختلف الناس فى معناه فنهم من ذهب إلى أنه من الكلام المتظاهر الذى يراد به التوكيد ولفظه مختلف ومعناه واحد ، ألاتراه يقول فى هذا الحديث ، ومشى ولم يركب ، ومعناها واحد وإلى هذا ذهب الأثرم صاحب أحمد ، وقال بعضهم ، معنى غسل غسل الرأس خاصة وذلك لأن للعرب لهم لمم وشعور وفى غسلها مؤنة ، فأراد غسل الرأس من أجل ذلك وإلى هذا ذهب مكحول وقوله : واغتسل معناه غسل سائر الجسد ، وذهب بعضهم إلى أن معنى « غسل » أصاب أهله قبل خروجه إلى الجمعة ليكون أملك لنفسه وأحفظ فى طريقة لبصره ، ومعنى « بكر » أدرك باكورة الخطبة وهى أولها ، ومعنى « وابتكر » قدم فى الوقت وقيل معنى بكر تصدق قبل خروجه ، قاله ابن الأنبارى وتأول فى ذلك ماروى فى الحديث من قوله :

« بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ الْبَلَاءَ لَا يَتَخَطَّاهَا » .

وقال أبو بكر بن خزيمة من قال فى الخبر غسل واغتسل يعنى بالتشديد فمعناه جامع

فأوجب الغسل على زوجته أو أمته واغتسل ، ومن قال غسل يعني بالتخفيف أراد غسل رأسه واغتسل فغسل سائر الجسد كما في الحديث الصحيح مرفوعا :

« اغْتَسِلُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، واغْسِلُوا رُؤُوسَكُمْ ، وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا جُنُبًا »

الحديث والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد لساعة الإجابة التي في يوم الجمعة ونقلل الأكل والشرب ، ونمنع اللهو واللغو والغفلة والذي أعطاه الكشف أن الساعة نحو خمس درج ، فينبغي أن لا يغفل العبد إلا مقدار نحو درجتين ليبقى له من الساعة نحو ثلاث درج للدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، وهذه الساعة مبهمة في اليوم كليلة القدر في ليالي رمضان ، وتنتقل بيقين كما يؤيده الأحاديث والأخبار التي تأتي آخر العهد وكما أعطاه الكشف ، فتارة تكون في بكرة النهار وتارة تكون في آخر النهار ، وتارة تكون بعد الزوال إلى أن تنقضي الصلاة وهو الأغلب .

وبالجملة أهل الحجاب ، ومحبة الدنيا في غفلة عن مثل هذا المشهد ، لا سيما طائفة المجادلين ، ومن يعبد الله على جهل ، وإنما خصصنا معظم الخير الذي يرجى في ساعة الإجابة بمن يشعر بها تحصيلا للقيام بآداب العبودية الظاهرة ، وإلا فقد ورد :

« مَنْ أَشْغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ » .

فافهم ، وإن كان ولا بدلك من الاشتغال بذكر أو قرآن فينبغي ذلك بحضور مع الله تعالى ، لا كما عليه الطائفة الذين يعبدون الله وقلبهم غافل عن الله تعالى فيفوتهم الحضور الذي هو قوت الأرواح ، وربما اشتغل أحدهم بالقرآن أو الذكر ومرت عليه الساعة ولم يشعر بها .

فاعمل يا أخي على جلاء مرآت قلبك لتدرك ساعة الاجابة التي لا يرد فيها سائل لوسع الكرم الإلهي فيها ، ولا تطلب معرفتها بلا جلاء فإن ذلك لا يكون وكم من نفحات للحق في الليل والنهار والناس في غفلة عنها :

وقد أخبرني شيخنا عن الشيخ أحمد بن المؤذن بناحية منية أبي عبد الله أنه جلس مراقبا لله تعالى مدة أربعين سنة لا يضع جنبه الأرض ، وكان أولياء عصره يقولون : ماترك هذا قطرة مدد تنزل من السماء في ليل أو نهار إلا وله فيها حظ ونصيب .

وأخبرنى سيدى على الخواص ، أن سيدى عيسى بن نجم خفير بحر البرلس ، مكث مراقبا لله تعالى بوضوء واحد مدة سبع عشرة سنة ، فلم تنزل قطرة مدد من السماء إلا وله فيها نصيب ، فإن لم تستطع يا أخى دوام المراقبة كالقوم فواظب على الساعات التى ورد فيها التجلى الخاص والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَى وَيَوْمِ الفِطْرِ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ مَا سَأَلَ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا » .

وفى رواية لابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ فِيهِ يَعْنِي يوْمَ الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ » الحديث .

وروى أبو يعلى وغيره مرفوعا : « أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً ، لَيْسَ فِيهَا سَاعَةٌ إِلَّا وَ لِلّٰهِ فِيهَا سِتُّمِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ » .

زاد فى رواية : « كُلُّهُمْ قَدْ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ » .

رواه البيهقى مختصرا بلفظ : « لِلّٰهِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال :

« فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا » .

وفى رواية للترمذى وابن ماجه :

«قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيَّةُ سَاعَةٍ هِيَ؟ قَالَ حِينَ تُقَامُ الصَّلَاةُ ، إِلَى الْإِنْصِرَافِ مِنْهَا » .

وفى رواية للترمذى والطبرانى مرفوعا :

« الْتَمِسُوا السَّاعَةَ الَّتِي تُرْجَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ » .

وفى رواية لابن ماجه على شرط الشيخين :

« هِيَ آخِرُ ساعاتِ النَّهارِ ، فقال عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ : إنّها لَيْسَتْ ساعَةَ صَلاَةٍ ؟ قَالَ بَلَى ، إنّ الْعَبْدَ إذَا صَلَّى ثُمَّ جَلَسَ لَمْ يَحْبِسْهُ إلاّ الصَّلاَةُ فَهُوَ فِي صَلاَةٍ » .

وفى رواية للإمام أحمد مرفوعا :

« بَعْدَ ذِكْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَفِي آخِرِ ثَلاَثِ ساعَاتٍ مِنْهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا اللهَ فِيهَا اسْتُجِيبَ لَهُ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « السَّاعَةُ الّتِي يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، أَغْفَلَ مَا يَكُونُ النَّاسُ » .

قال الإمام أحمد : وأكثر الأحاديث فى الساعة التى ترجى فيها إجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر ، وقال : وترجى بعد الزوال .

وقال ابن المنذر : روينا عن أبى هريرة أنه قال : هى من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ومن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس .

وقال الحسن البصرى وأبوالعالية : هى عند زوال الشمس.

وعن عائشة أنها من حين يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة .

وفى رواية عن الحسن ، أنه قال: هى إذا قعد الإمام على المنبر حتى يفرغ .

وقال أبو بردة : هى الساعة التى اختار الله فيها الصلاة .

وبالجملة فالأقوال فى ذلك كثيرة ولا يعرف الساعة حقيقة إلا أهل الكشف ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على غسل الجمعة صيفا وشتاء ، ولانتركه إلا لعذر شرعى ، وفى ذلك من الأسرار مالا يذكر إلا مشافهة .

وكان الإمام الشافعى يقول : ما تركت غسل الجمعة فى شتاء ولا صيف ، ولاسفر ولاحضر ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ، حتى بعض الفقراء وطلبة العلم ، فتراهم يتساهلون به ويستثقلونه إما كسلا أو لعدم سماحة نفوسهم بفلوس الحمام .

ومن الحكمة الظاهرة فى الغسل انتعاش الأعضاء بالماء حتى يصير بدنه كله حيا

فيناجي الله بكل عضو فيه ، ولذلك أمرنا الشارع بالغسل قبل الذهاب إلى الجمعة لنصلي على أثر الغسل ، ولو أمرنا بالغسل أول ليلة الجمعة ربما تخلل ذلك معصية أوغفلة فيموت البدن ، وإذا مات فما بقي يناجي ربه ويتضرع إليه على الوجه المطلوب من العبد ، فتأمل ذلك ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبراني وغيره مرفوعا : « مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ » .

وفي رواية للطبراني مرفوعا ورواته ثقات :

« إِنَّ الْغُسْلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَيَسُلُّ الْخَطَايَا مِنْ أُصُولِ الشَّعْرِ اسْتِلَالاً » .

وروى ابن خزيمة في صحيحه والطبراني مرفوعا :

« مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَانَ فِي طَهَارَةٍ إِلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى » .

وفي رواية لابن حبان في صحيحه :

« مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَمْ يَزَلْ طَاهِرًا مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ » .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن :

« إِنَّ هٰذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَمَنْ جَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننصت لسماع الخطيب حتى لا يفوتنا سماع شيء من الوعظ الذي يمكننا سماعه ، وأن نأخذ كل كلام سمعناه من الواعظ في حق أنفسنا كما نأخذه في حق غيرنا ، وهذا العهد قد أكثر الناس الإخلال به حتى بعض فقراء هذا الزمان وطلبة العلم يتلاهون عن سماع كلام الخطيب ، وإن سمعوا ذلك أخذوه في حق غيرهم من الظلمة وأعوانهم دون أنفسهم ، وغاب عنهم أنهم ظلموا أنفسهم بالوقوع في المعاصي المتعلقة بالله وبخلقه ، وما أحد منهم سلم منها ؛ بل بعضهم يرى نفسه على الخطيب وأنه لايحتاج إلي سماع وعظه ؛ ويقول : جميع ماقاله الخطيب معروف ، وبعضهم يقول : الإنصات سنة ويؤدي إلى حرام وذلك أننا نسمع منه الوعظ ولانعمل به ، وهذا جهل عظيم من هذا القائل ، ولوفتح هذا الباب لأدى إلى كراهة سماع كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لكون الناس عاجزين عن العمل بذلك على التمام ، ولا قائل بذلك .

فاخضع ياأخى لله تعالى واسمع الوعظ من الخطيب ، فإنه على لسان الحق لاسيما إن خاطبك بنحو قوله :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) أو (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) .

فانك المخاطب بذلك قطعا من الحق على لسان ذلك الخطيب ، ولو كشف الله لغالب الخلق لرأوا فى نفوسهم جميع الذنوب والقبائح إما فعلا وإما قولا وصلاحية ، ولكنهم قد صاروا فى غمرة ودعوى ومقت حتى لا يكاد أحد منهم يتعظ بوعظ واعظ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا » .

وروى أيضا مرفوعا : « يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ : فَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو فَذَلِكَ حَظُّهُ مِنْهَا . وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو اللهَ فَذَلِكَ إِلَى اللهِ ، فَإِنْ شَاءَ قَبِلَهُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ . وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على قراءة سورة الكهف ليلة الجمعة ويومها ، وكذلك نواظب على قراءة آل عمران ، ويس ، وحم الدخان اهتماما بأمر النبى صلى الله عليه وسلم لنا بذلك ، سواء أعقلنا سر تخصيص هذه السور بليلة الجمعة أم لم نعقل ذلك ، ولو أن العقول تحمل سر ذلك لأوضحناه للناس ، ولكن من الأدب كتم ما كتمه الشارع ، وإظهار ما أظهر من إضاءة النور والمغفرة ونحو ذلك ، والله حليم حكيم .

وروى النسائى والبيهقى مرفوعا والحاكم موقوفا وقال صحيح الإسناد :

« مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ » .

ولفظ الدارمى موقوفا : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » .

وفى إسناده أبو هاشم ، والأكثرون على توقيفه .

وروى ابن مردويه فى تفسيره بإسناد لا بأس به مرفوعا :

« مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، يُضِيءُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ » .

وروى البيهقى والأصبهانى مرفوعا : « مَنْ قَرَأَ حم الدُّخَانَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ » .

وفى رواية : « مَنْ قَرَأَ حم الدُّخَانَ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » .

وفى رواية للطبرانى والأصبهانى أيضا مرفوعا :

« مَنْ صَلَّى بِسُورَةِ الدُّخَانِ فِي لَيْلَةٍ بَاتَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » .

وفى رواية أخرى لهما مرفوعا :

« مَنْ قَرَأَ حم الدُّخَانَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يس فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَرَأَ السُّورَةَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا أصحاب الأموال بأن يعطفوا على فقراء بلدهم ويخرجوا زكاتهم ، ونبين لهم مرتبة الزكاة من الدين والإيمان ، فربما كان المانع لهم من إخراج زكاة أموالهم جهلهم بما ورد فيها من الآيات والأخبار لقلة مجالستهم للعلماء فإذا بيننا لهم مرتبة وجوب الزكاة ولم يخرجوا هجرناهم وجوبا لقوله تعالى :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) .

ومفهومه أن من لم يقم الصلاة ولم يؤدّ الزكاة فليس هو من إخواننا فى الدين ، ولا يخفى حكمه فوالله لقد صارت أفعال غالب الخلق كأفعال من لايؤمن بيوم الحساب ، ولا بما توعد الله تعالى عليه عباده ، فإن من لم يكن عنده ما توعده الله عليه أو وعده من الأمور المغيبة عنه كالحاضر فإيمانه مدخول .

وتأمل يا أخى لو أن السلطان أوقد نارا لمانع الزكاة ، وقال إن لم تخرج زكاتك أحرقتك فى هذه النار كيف يخرجها ولا يتوقف أبدا ؟ ولو قال له صديقه لا تخرج زكاتك لايطيعه ، وذلك لشهود النار وتعذيبه بها عاجلا غير آجل ، فهكذا فليكن الأمر فيما توعد به الحق تعالى عباده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم تأمل ياأخى فى تسمية الله تعالى إخراج الإنسان حق الله تعالى فى ماله زكاة : أى نموا وزيادة تعرف أن ذلك إنما هو امتحان لمن يدعى الإيمان ، وتصديق الله عز وجل فيما أخبر به هل يصدقه فى زيادة المال إذا أخرج حق الله منه ، ويكون فى شهوده كالزيادة أم لا ؟ وتأمل لو جلس يهودى بشكارة ذهب وقال لكل من مر عليه من المؤمنين كل من أعطى هذا الفقير درهما أعطيته دينارا ، كيف يتزاحم الناس على إعطاء هذا الفقير ، لأجل زيادة العوض ؟ وقد قال الله تعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) وقال تعالى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) وقال صلى اللهُ عليه وسلم « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ » .

فليمتحن المدعى للتصديق بكلام الله ورسوله نفسه ، فإن رآها لا تمل من الإعطاء أبدا للفقراء ولو طلبوا منه جميع مامعه أعطاه لهم فليحكم لها بكمال الايمان ، وإن رآها تمل من ذلك فليحكم عليها بنقص الايمان ، وربما كان أحدهم يعطى للفقراء لكثرة ماجرب من إضعاف التوسعة عليه كما أعطى ، فهذا عبد تجربة ، فربما كان الحاث له على العطاء كون الحق تعالى يخلف عليه أضعاف ما أعطى ، والمؤمن الكامل من أعطى عباد الله تعالى امتثالا لأمر الله لا لعلة إخلاف الله عليه ولا غير ذلك ، اللهم إلا أن يريد بكثرة الاعطاء كثرة الانفاق فى مرضاة الله تعالى فهذا لامانع منه ، وربما كان الانسان يخف عليه إعطاء الدينار للسائل أول مرة ، ثم إذا طلب منه السائل دينارا ثانيا أعطاه لكن ببعض ثقل ، ثم إذا سأله ثالثا أعطاه بثقل لكن أعظم من الثانى ، وهكذا حتى ربما

لايصل إلى الدينار العاشر ومعه بقية داعية للعطاء ، فلو أن مثل هذا كان كامل الإيمان لكان آخر دينار فى الخفة عليه كأول دينار على حد سواء فى الخفة .

وقد أخبرنى الشيخ جمال الدين ابن شيخ الاسلام زكريا أن الشيخ فرجا المجذوب لقيه ومعه أربعون نصفا فسأله الشيخ فرج نصفا فأعطاه ثم سأله آخر فأعطاه ، فما زال يسأله حتى بقى معه نصف واحد من الأربعين ، فقال أعطنى النصف الآخر ، فقال : ياشيخ فرج أنا محتاج إليه ، فقال : قد كتبت لك وصولا على شموال اليهودى بتسعة وثلاثين دينارا ، فقال : قف خذ النصف الآخر فقال مارضيت ، قال الشيخ جمال الدين : فبينما أنا جالس فى أثناء النهار وإذا يهودى يدق الباب فقلت له من هذا ؟ فقال يهودى ، فقلت له ادخل ، فقال : إن والدك كان أعطانى أربعين دينارا قرضا ومابينى وبينه إلا الله تعالى ، وقد عجزت عن دينار منها فأبرئ ذمتى ، ووضع الدنانير بين يدى ، فمن ذلك اليوم ماسألنى الشيخ فرج شيئا ومنعته إياه ، قال سيدى جمال الدين : فندمت أنى ما كنت أعطيته النصف الآخر ، فإنه عوض لى فى كل نصف واحد أربعين نصفا ثم قال تبت إلى الله تعالى أن أحدا من أولياء الله يطلب منى شيئا ولا أعطيه له اهـ .

فانظر يا أخى كيف صار إيمان سيدى جمال الدين فى آخر نصف من توقفه ، ولو أنه كشف حجابه لم يتوقف فى آخر نصف بل كان يعطيه من غير توقف ، قال سيدى جمال الدين : ثم إنى لقيت الشيخ فرجا بعد ذلك فذكرت له القصة فقال : إنما فعلت ذلك معك لأمرنك على معاملة الله عز وجل ، فإذا كنت وأنا عبد قد وفيت لك أضعاف ماأعطيتنى فالحق تعالى أولى بذلك :

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) ؟.

فقلت له لأى شىء ماقلت لى أعطنى درهما أعطك بدله دينارا؟ فقال : كانت تبطل فائدة الامتحان لأنه حينئذ يصير العوض مشهودا لك ولا تظهر ثمرة المحنة إلا إذا لم يذكر الممتحن العوض ، وأوهمه أنه لايعوض عليه بدل ذلك شيئا اهـ .

فعلم أن الواجب على العبد أن يعطى لله ماأمره به محبة فى ربه عز وجل لاطلبا للعوض الدنيوى أو الأخروى ، فإن ذلك سوء أدب وجهل بعظمة الله تعالى .

فأخرج ياأخى زكاتك طوعا وامتثالا لأمر ربك ، وإن لم تطاوعك نفسك فاتخذ لك شيخا يرقيك إلى كمال الإيمان ، فهناك لا تتوقف على توعده لك بحرقك بالنار إن لم

تخرج زكاتك ، فإنك تصير كمن آمن كرها فلا يصح إيمانك والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الْإِسْلَامِ » .

وروى أبو داود مرسلا والطبرانى والبيهقى مرفوعا متصلا قال الحافظ المنذرى والمرسل أشبه :

« حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ » .

يعنى النافلة ، والأحاديث فى الزكاة كثيرة مشهورة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نساعد الفقراء بالعمالة إذا طلب منا الفقراء أن نكون عمالا لهم على الزكاة إلا إذا لم نثق بنفوسنا فى جميع ذلك وإعطائه للفقراء من غير غلول ، فإن خفنا ذلك تركنا العمالة تقديما لمصلحة نفوسنا على مصلحة الغير ، وهذا العهد يخل به كثير من الفقراء والعلماء ، ويقولون : أى شىء لنا فى ذلك؟ فإن شاءوا يعطون الفقراء ، وإن شاءوا يمنعونهم ، وغاب هؤلاء عن قول الله تعالى :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) .

يعنى اطلبها منهم ولا تتوقف على أنهم يعطونها لك بغير سؤال فإن المال محبوب للنفوس ، وقليل من الناس من يوق شح نفسه ، فكان على هذا القدم سيدى الشيخ أبو بكر الحديدى رحمه الله تعالى ، فكان يأخذ من الناس الزكاة بالإلحاح ويعطيها للفقراء والمساكين ، فقيل له إنهم يصيرون يكرهونك ، فقال سوف يحبونى فى الآخرة حين يرون ثواب أعمالهم اهـ .

وقد قال أخى أفضل الدين لشخص مرة لاتترك فعل الخير ولو خفت أن يذمك الناس ، فقال له سيدى على الخواص ولو ذموك وفرغوا من الذم اهـ .

فافعل ياأخى كل شىء ندبك الشرع إليه ولا تتعلل بعذر عادى من حياء أو خوف ذم ، فإن العذر لا يقبل إلا إن كان شرعيا كخوفه على نفسه من الغلول لما يعلم من شدة محبة نفسه للدنيا وميله إليها ، فروض ياأخى نفسك مدة قبل دخولك فى جباية الأموال والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« الْعَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى كَالْغَازِى فِى سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « الْعَامِلُ إِذَا اسْتُعْمِلَ فَأَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَى الْحَقَّ لَمْ يَزَلْ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات مرفوعا :

« خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا وفى إسناده مجهول :

« سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِى النَّارِ إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَأَخَذَ فَوْقَ ذٰلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ » .

وفى رواية لمسلم وأبى داود وغيرهما مرفوعا :

« مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن يكون سدانا ولحمتنا القناعة والتعفف ، والأكل من الكسب الحلال بطريقة الشرع الشامل لمد اليدين بالدعاء إلى حضرة الله تعالى ، إذا عجزنا عن عمل الحرفة المعتادة ، ولا نأكل بديننا ، وهذا العهد لايعمل به على وجهه إلا من سلك الطريق على يدشيخ ، وإلا فلا يشم من العمل به رائحة ، فإن العبد مالم يصل إلى معرفة الله تعالى لايصح له فى القناعة ولا التعفف قدم ، وذلك أنه إذا عرف الله تعالى فمن لازمه الرضا به من الكونين ولايطلب قط فيهما نعيما غير مجالسة الحق جل وعلا ، ولا يبالى بما فاته منهما إذا كان الحق تعالى له عوضا من كل شىء ، وأما من لم يصل إلى معرفة الله تعالى ، فمن لازمه شراهة النفس لأن الدنيا مشهودة فلذلك كان

هذا العهد يخل به كثير من الناس فى هذا الزمان حتى لايكاد الإنسان يرى متعففا ولا قانعا ولا متورعا فى اللقمة أبدا بل غالب الفقراء يقولون وخلق لكم وغيرهم ، يقرل هات لنا ولا تفتش ، وبعضهم يقول الحرام علينا هو مالم تصل يدنا إليه ، وهذا كلام لا يجوز لمؤمن أن يتلفظ به لئلا يسمعه بعض العوام فيتبعه على ذلك .

ومن هنا قال العارفون : يجب على من لم يكن عنده ورع أن يتفعل فى التورع ، فإن لم يكن له نية صالحة فى الورع فربما صلحت نية من يتبعه فى الورع ، وقالوا أيضا : يجب على العالم إذا لم يعمل بعلمه أن يعلمه لمن يعمل به .

وقالوا إذا رأيت عالما لايعمل بعلمه فاعمل أنت به يحصل لك وله الخير :

« وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ » .

ثم لايخفى أن من أقبح الصفات عدم تعفف العالم والصالح وطلبهما من الولاة جوالى أو مسموحا أو مرتبا على بساط السلطان : ثم يطلبان بعد ذلك تمشية شفاعاتهم عندهم فى أمور المسلمين ، وهذا أمر لايتم لهم ، فإن شرط الشافع العفة والورع عما بأيدى الولاة فإنهم إذا رأوه زاهدا فيما رغب فيه ملوكهم فضلا عنهم عظموه ضرورة وأحبوه وقبلوا شفاعته وتبركوا به ، وقد كثر طلب الدنيا من طائفة الفقراء وغيرهم وصاروا يسافرون من نحو مصر إلى بلاد الروم والعجم ويتعللون بضيق المعاش ، وربما يكون أحدهم كاذبا ، لأن عنده فى بلده ما يكفيه الكفاية اللائقة بأمثاله ، وكان من الأدب لكل من عمل رئيسا فى الناس أن يرد جميع مايعرضه عليه أعوان الظلمة والسلطان ، ويقول لهم : أعطوه لمن هو أنفع منى للمسلمين من الجند الذين يسافرون فى التجاريد ونحوهم ، فأما أنا فجالس أذكر الله تعالى فى زاويتى أو أشتغل بعلم ما أحد يعمل به ، والأمر فى زيادة من حيث قلة العمل بالعلم فكيف أزاحم عسكر السلطان على ماله .

فاسلك يا أخى طريق الفقراء والعلماء الذين مضوا ولاتتبع أهل زمانك تهلك :

وقد بلغنا عن أبى إسحق الشيرازى أنه كانت تعرض عليه الأموال فيردها ، مع أن القمل سائح على وجهه ورأسه ولحيته ، وعليه فروة كباشية ، وكان يتغدى بماء الباقلا فيفت الكسرة اليابسة ويغمسها بماء الفول رضى الله تعالى عنه فاعلم ذلك .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : لله تعالى رجال يجمعون المال

ولايظهرون قناعة ويلحون فى السؤال ثم يعطون كل شىء حصل بأيديهم لمن هو محتاج إليه ولا يذوقون منه شيئا .

فإياك ياأخى والمبادرة بالانكار عليهم .

وبعضهم يجمع من الدنيا عنده حتى لاتستشرف نفسه لما فى أيدى الناس أو يقف لهم على باب وكان على ذلك سفيان الثورى رضى الله تعالى عنه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول : إذا ضاق على فقير أمر معيشته فليسأل الله تعالى فى تيسير رزق حلال مما قسمه الله تعالى له ، ولا يعين جهة ، ليكون ذلك معدودا من جملة الرزق الذى لايحتسبه ، فإن كل شىء جاء باستشراف نفس فهو غير مبارك فيه ، كما صرحت به الشريعة ثم نقل عن الشبلى أنه كان إذا جاع مد يده وسأل الله تعالى ، وقال هذا كسب يمينى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : لا ينبغى لفقير أن يأكل مما وعده به أحد ، لأن نفسه تصير متشوفة له حتى يحضر .

وجاءه مرة إنسان وقال قدخرجت لكم عن قنطار عنب فأرسل معى أحدا يحمله فأبى وقال لا نحب أن نأكل الامالم يكن فى حسابنا ، فإذا خرجت بعد ذلك عن شىء للفقراء فلا تعلمهم به قبل حضوره إن طلبت أنهم يأكلون منه .

وبلغنا عن إبراهيم أنه فقد الحلال فسف من التراب مدة أربعين يوما حتى وجد الحلال اللائق بحاله ومقامه .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : ينبغى لكل مؤمن فى هذا الزمان إذا حضر عنده طعام أو شراب أن لايأكل منه حتى يقول بتوجه تام : اللهم إن كان فى هذا الطعام شبهة حرام فاحمنى منه ، وإن لم تحمنى منه فلا تجعله يقيم فى بطنى ، وإن جعلته يقيم فى بطنى فاحفظنى من المعاصى الناشئةمن أكله ، فإن لم تحفظنى منها فمن على بالتوبة النصوح ، فإن لم تمن على بالتوبة فالطف بى ، ولا تؤاخذنى يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

وكان يقول : لاينبغى لفقير السؤال حتى يبيع آلات الدار الزائدة على الضرورة كالطراحة والمخدة والعمامة الزائدة والثوب الزائد والأوانى كلهم حتى نعله الزائد .

وكان يقول : لاينبغى لفقير فى هذا الزمان إذا وجد الحلال الصرف أن يشبع منه ، بل يأكل بقدر سد الرمق فقط خوفا أن يقع فى الحرام .

وسمعته أيضا يقول : ليست القناعة أن تأكل كل ما وجدته ولو كسرة يابسة كل يوم ، وإنما القناعة أن تطوى الثلاثة أيام فأكثر مع وجود الأكل عندك اه :

ولعل مراده رضى الله عنه الطى الذى لايضر الجسم فإن جوع المحققين إنما هو اضطرار لااختيار ، وذلك لأن الكامل يجب عليه إعطاء كل ذى حق حقه من جسمه أو غيره ، ولا يظلم شيئا من رعيته سواء الجوارح وغيرها .

وبالجملة فلا بد لمن يريد العمل بهذا العهد من شيخ يسلك به حتى يخرجه من حضرات الاتهام ويدخله حضرات اليقين ، فيعرف إذ ذاك أن ماقسمه الله تعالى للعبد لا يمكن أن يفوته ومالم يقسمه له لا يتبعه نفسه اه .

ومن هذا الباب أيضا الأقدار الجارية على العبد فإنها لاتخلو عن كون ذلك الأمر الذى دافع العبد الأقدار فى عدم وقوعه مقدرا أو غير مقدر ، فإن كان مقدرا فلا فائدة فى المدافعة إلا تعظيم انتهاك محارم الله تعالى لاغير ، وقد كلف الله تعالى العبد بذلك وجعل له الثواب فيه سواء كان مقدرا أو غير مقدر ، حتى أنه لو كشف له أن الله تعالى كتب عليه الزنا أو شرب الخمر لايجوز له المبادرة إلى ذلك ، لأنها مبادرة إلى مايسخط الله عز وجل ، فيجب عليه الصبر حتى يقع ذلك فى حالة غفلة أو سهو كما أشار إليه خبر :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى إِنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ مِنْ ذَوِى الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ » .

يعنى عقولهم الحافظة عن الوقوع لا عقول التكليف ، فافهم ، لئلا يؤدى إلى إبطال الحدود كلها ، فتأمل فى هذا المحل واعمل به .

وقد كان أخى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى على هذا القدم فأرسلت مرة أن يجعل على مقثأة البطيخ حارسا حتى يحضر له بالمركب يوسقه ، فأرسل يقول لى المؤمن لايحتاج إلى مثل ذلك ، فإن ما قسمه الله تعالى لأهل الريف أن يأكلوه لايقدر أحد يحمل منه إلى مصر بطيخة واحدة ، وما قسمه الله تعالى لأهل مصر لايقدر أحد من أهل الريف يأكل منه بطيخة واحدة ، ومن كان إيمانه كذلك فلا يحتاج إلى حارس اه .

هذا فى ملك الإنسان نفسه أما مال الغير فيجب على الحارس حفظه وإن لم يحرسه أثم ولم يستحق أجرة فافهم والله يتولى هداك .

وروى الشيخان واللفظ للبخارى مرفوعا :

« الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ » .

قال الخطابي وقد اختلفت الناس في المراد باليد العليا ، فقال بعضهم هي المنفقة والأشبه أن يكون المراد بها المتعففة لأنها أوضح من حيث المعنى والله تعالى أعلم :

وروى البزار مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْمُتَصَدِّقَ وَالْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ » .

وروى ابن خزيمة في صحيحه مرفوعا :

« أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : الشَّهِيدُ ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « وَمَنْ يَقْنَعْ يُقْنِعْهُ اللهُ » .

وفي رواية له مرفوعا : « عِزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » .

والعرض كل ما يقتنى من المال وغيره :

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ » .

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعا :

« إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ » .

وروى مسلم والترمذي وغيرهما مرفوعا :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ » .

والكفاف من الرزق ما كف عن السؤال مع القناعة لايزيد على قدر الحاجة .

وروى مسلم والترمذي وغيرهما مرفوعا :

« يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ » .

يعني أن تطلب من الدنيا ما يكفيك ويغنيك عن سؤال الناس .

وروى البيهقي مرفوعا : « الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لاَ يَفْنَى » .

قال الحافظ المنذرى ورفعه غريب وروى الترمذى ، وقال حديث حسن مرفوعا :

« مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » والمراد بسربه : نفسه .

وروى البخارى وابن ماجة وغيرهما مرفوعا :

« لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ فَيَأْتِي بِحُزْمَةِ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » .

وروى البخارى مرفوعا : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

قال بعضهم كان يضفر الخوص ويعمل أدراع الحديد .

وروى أبو داود والترمذى : « أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وسلمَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ : أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ المَاءَ ، فَقَالَ ائْتِنِي بِهِمَا ، فَأَتَاهُ بِهِمَا ، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلمَ بِيَدِهِ فَقَالَ : مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسَلم : مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ؟ فَقَال رَجُلٌ أَنا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ وَقَالَ : اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ بِهِ شَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَفَعَلَ وَجَاءَ فَأَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ : هٰذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ المَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لِثَلاَثٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، وَلِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، وَلِذِي دَمٍ مُوجِعٍ » .

والمدقع : هو الشديد الملصق صاحبه بالدقعاء يعنى الأرض التى لا نبات بها والغرم هو الذى يلزم صاحبه أداؤه بتكلف فيه لا فى مقابلة عوض ، والمفظع هو الشديد الشنيع ، والدم الموجع هو الذى يتحمل عن قريبه أو حميمه أو نسيبه دية إذا قتل نفسا ليدفعها إلى أولياء المقتول : ولو لم يفعل قتل قريبه أو حميمه الذى يتوجع لقتله ، والله تعالى أعلم ، (أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننزل جميع فاقاتنا ومهمات أمورنا فى الدنيا والآخرة بالله تعالى فى سرائرنا قبل ذكرها للخلق لأنه تعالى :

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) .

فإن لم يجبنا سبحانه وتعالى إلى رفعها علمنا حينئذ أن المانع إنما هو منا لعصياننا لأوامره . وعدم اجتنابنا لمناهيه فنكثر من الاستغفار ، ثم نسأل فإن لم يجبنا توسلنا بالخلق فلنسألهم من غير وقوف معهم ، ونراهم كالأبواب التى يخرج منها صدقات الحق تعالى وهذا العهد قل من يتنبه له من الفقراء فيسبق لهم الطلب من الخلق قبل الطلب من الله تعالى ، والخلق كلهم مفلسون فلا يعطونهم شيئا فيعسر الله تعالى عليهم أرزاقهم عقوبة لهم على سوء أدبهم معه سبحانه وتعالى ، وقد رأيت فى واقعة أننى نزلت تحت الأرض فوجدت الأموات فى فضاء واسع وهم جالسون حلقا حلقا يتحدثون على كثيب من رمل أبيض ، فسلمت عليهم فلم يردوا على السلام ، وقالوا لسنا فى دار تكاليف ، فقال لى شخص منهم اسمع منى هذا الدعاء لتدعو به إذا رجعت إلى الدنيا فقلت له نعم ، فقال إذا أصابك أمر يهمك من أمور الدنيا والآخرة فقل اللهم : إنى أنزلت بك ما يهمنى من أمور الدنيا والآخرة ، فحفظتها منه ، فلم أزل أدعو بها فى كل أمر مهم إلى وقتى هذا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به إلى حضرة التوحيد حتى يكون الغالب عليه ذكر الله عز وجل فيرى الحق تعالى أقرب إليه من الخلق فيسأله قبل كل أحد ومن لم يسلك كما ذكرناه فمن لازمه البداءة بسؤال الخلق لكون الغالب عليه شهودهم قبل الحق ، كما أن من لازمه أيضا عداوتهم إن لم يعطوه ، ولو قلت له إنما لم يعطوك لأن الله تعالى لم يقسم لك على أيديهم شيئا لم يلتفت إلى قولك ، وهذا كله جهل بالله تعالى وبالشريعة ، فإن الله لو قسم لأحد شيئا عند ذلك البخيل مثلا لوصل إليه ولو بالغصب والنقب ، فعلم أن الكريم ليس له منة على أحد والمنة فى ذلك لله وحده وإنما مدحه الله تحريضا له على التكرم لما هو عليه فى نفسه من البخل والشح ، فلولا المدح لربما كان

بخيلا لم يعط أحدا شيئا واكان الحق تعالى ذمه كما ذم البخيل ، فعلم أن الحق تعالى ما ذم البخيل إلا تحريضا للمؤمن على الإنفاق وإن لله عبادا رفع درجاتهم بعدم إطعامهم الطعام لأن فى ذلك رائحة منة تطرق العبد وعبيد الله الخلص لا يرون أنهم يشاركون الحق تعالى فى المنة على عباده ، بقوله تعالى حكاية عن لقمان :

« إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فافهم .

واعلم أن مدح الكريم إذن من فضل الله وذم البخل إذن من عدل الله من حضرتى اسميه المعطى والمانع كما أوضحنا ذلك فى رسالة الأنوار القدسية .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وقد روى أبو داود والترمذى وقال حديث حسن والحاكم ، وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ فَيُوشِكُ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ » .

وفى رواية للحاكم : « أَرْسَلَ اللهُ لَهُ بِالْغِنَى ، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى آجِلٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ جَاعَ أَوْ احْتَاجَ فَكَتَمَهُ عَنِ النَّاسِ وَأَفْضَى بِهِ إِلَى اللهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ قُوتَ سَنَةٍ مِنْ حَلاَلٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقبل كل ما جاءنا من الحلال من غير استشراف نفس ولا نرده ، وذلك لأنه جاءنا من عند الله تعالى من غير تعمد وقع منا أو اجتلاب ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) .

ولا يمتن الحق تعالى على العبد إلا بما هو حلال محمود .

وكانت طريقة سيدى أبى الحسن الشاذلى ، أنه لا يسأل ولا يرد ولا يدخر ، وكذلك كانت طريقة سيدى أحمد بن الرفاعى رحمهم الله تعالى .

وفى الحديث : « مَنْ تَوَرَّعَ عَنِ الْحَلاَلِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ » .

وهذا أمر ربما يخل به كثير من المشايخ فضلا عن غيرهم ، وكذلك كان دأب سيدى على الخواص إلى أواخر عمره ، ثم قبل من الناس قبل موته وصار يضع الدراهم والدنانير عنده فى قدرة ، فكل من مر عليه من العميان والعاجزين والمديونين يعطيه من ذلك ويقول ما فى الكون مال إلا وله ناس يستحقون الأكل واللبس منه من أصحاب الضرورات .

وسمعته رضى الله عنه يقول : لو كشف للمحجوبين لرأوا جميع ما يأتيهم من الناس إنما هو هدية من الحق تعالى وهو الذى قدمه إليهم فكيف يصح لصاحب هذا المشهد أن يرد ؟

فقلت له : فأين ميزان الشريعة حينئذ؟ فقال : موجود ، وهو أنه لو شهد أن الحق تعالى هو المعطى لايقبله إلا إن رأى وجه رضاه به فإن المعاصى كلها بتقدير الله وإرادته ، ومع ذلك فيردها العبد وجوبا ويدافعها جهده حتى لا يقع فى هلاكه ، فعلم أنه ما وقع لأحد رد إلا وهو محجوب فى خجاب ظاهر الشريعة المطهرة ، فإن لسان حالها يقول : إذا جاءكم مال من غير طيبة نفس الخلق فردوه ، ولو شهدتم أن الله تعالى هو المعطى فإنه هو الذى نهاكم عن قبوله فما رددتموه إلا بأمره ، ولسان الحقيقة يقول : ما ثم أحد يملك مع الله شيئا كشفا ويقينا فخذوا كل ماوصل إليكم عن الله لاعن خلقه ، ولسان الجامعين بين الحقيقة والشريعة يقولون : لانقبل شيئا للشرع عليه اعتراض لأن كون الأمور ملكا لله تعالى محل وفاق بين جميع الملل ، وما جعل الله تعالى الرقى فى الدرجات إلا بالورع عما حرم الله ، فإياكم أن تخرقوا سور الشرع ، فإن الذى قال لكم الوجود كله ملكى هو الذى نهاكم عن قبول الحرام والشبهات ، وكأنه تعالى يقول : ولو شهدتم أنه ملكى فلا تأخذوه إلا بطيبة نفس من عبدى فلان ، فإن أخذتموه بغير طيبة نفس منه عذبتكم ، فالعذاب إنما هو من أجل مخالفة ماحده الله لنا لامن جهة أن العبد يملك مع الله تعالى فإنه لايصح أن يتوارد ملكان حقيقيان على عين واحدة أبدا اهـ .

فيجب على صاحب الحقيقة مراعاة الشريعة وعكسه ، ومن لم يكن كذلك فهو أعور لايصح أن يقتدى به فى طريق أهل الله تعالى .

وأجمع العارفون على أن من شرط الكامل أن لايطفئ نور معرفته نور ورعه يعنى أن نور معرفته يحجبه عن شهود الملك لغير الله ، ونور ورعه لايكون إلا مع شهود نسبة الملك للخلق ، فالكامل من يتورع عن أكل ما بأيدى الناس إلا بطريقه الشرعى مع شهوده جزما أن ذلك ملك الله

عز وجل . فالزم يا أخى طريق الشريعة وإلا هلكت والسلام .

وقد روى الشيخان والنسائى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول له أعطه لمن هو أفقر إليه منى فقال :

« إِذَا جَاءَكَ مِنْ هٰذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ فَإِنْ شِئْتَ فَكُلْهُ وَإِنْ شِئْتَ فَتَصَدَّقْ بِهِ وَمَالَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ » .

قال سالم فلأجل ذلك كان عبدالله بن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه »

وفى رواية لمالك مرسلا : « إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وَسلمَ أَعْطَى عُمَرَ عَطَاءً فَرَدَّهُ فَقَالَ لِمَ رَدَدْتَهُ ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ خِيَارَنَا مَنْ لَا يَأْخُذُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إِنَّمَا ذٰلِكَ عَنِ المَسْأَلَةِ فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ يَرْزُقُكَهُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ عُمَرُ : أَمَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا أَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا وَلَا يَأْتِينِي بِشَىْءٍ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ إِلَّا أَخَذْتُهُ » .

وروى أبو يعلى والإمام أحمد باسناد صحيح والطبرانى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد مرفوعا :

« مَنْ بَلَغَهُ عَنْ أَخِيهِ مَعْرُوفٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافِ نَفْسٍ فَلْيَقْبَلْهُ وَلَا يَرُدَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى وإسناد أحمد جيد قوى مرفوعا :

« مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ مِنْ هٰذَا الرِّزْقِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ فَلْيَتَوَسَّعْ بِهِ رِزْقَهُ فَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيُوَجِّهْهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْهُ » .

قال شيخنا يعنى بشرط الحل فى ذلك الرزق .

وفى الحديث بيان جواز أخذ العبد مازاد على رزقه بنية التوسعة به على غيره والله تعالى أعلم .

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سألت والدى عن الاستشراف فقال هو قولك فى نفسك سيبعث إلى فلان سيصلنى فلان اه والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتصدق بكل ما فضل

عن حاجتنا ولاندخر منه شيئا إلا لضرورة شرعية سواء كان مالا أو طعاما أو ثيابا عملا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نخلى يوما واحدا من صدقة ، فإن لم نجد شيئا مما ذكرناه تصدقنا بالتسبيح وقراءة القرآن والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من صنائع المعروف .

وفى الحديث : « صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِى مَصَارِعَ السُّوءِ » .

ومعنى التصدق بالتسبيح وشبهه أن يجعل ثواب ذلك فى صحائف المسلمين ، وهذا العهد يتعين العمل به على كل من كان قدوة فى دين الله من العلماء والصالحين ، فينبغى لأحدهم أن يكون مقداما للناس فى كل خير . وفى ذلك فوائد : منها امتثال أوامر الله تعالى ومنها عكوف الطلبة والمريدين على شيخهم إذا رأوه يعيبهم على أمر معاشهم فيتقيدون عليه ويحصلون العلم وينشرون ذلك بعده ، ومنها دفع البلايا والمحن عنه فى ذلك اليوم .

ومن هنا قالوا : أقبح من كل قبيح صوفى شحيح ، وفى المثل السائر أن فلانا وفلانا جلسوا يأكلون كذا وكذا وتركونى مثل قط الفقيه لم يعزموا على يعنى أن غالب الفقهاء يشح على القط أن يرمى له ورك دجاجة أو رقبتها والأمثال لاتضرب فى شىء إلا إذا كان تكرر ذلك الشىء من أهله ، ويقولون فى المثل : يد تأخذ لاتعطى يعنى أن كل من تعود الأخذ من صدقات الناس فهو يشح على غيره .

وقد كان سيدى على الخواص إذا سأله فقير شيئا ينقسم كالطعام والفلوس قسمه ماعنده فى ذلك بينه وبين ذلك الفقير نصفين ، ويقول : إن الله تعالى يكره العبد المتميز عن أخيه.

وكان الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه يقول : إذا طلب منك أحد أن يؤاخيك فاسأله نصف ماله ، فإن أعطاك النصف فهو أخ وإلا فلا تجبه لصحبة اه .

ثم اعلم يا أخى أن من الأولياء من لم يجعل الله تعالى على يديه شيئا من أرزاق الخلائق لاقامته فى حضرة اسمه تعالى « المانع » فيقول الناس حاشى أن يكون هذا من أولياء الله تعالى ، فإن من شرط الولى السخاء والتكرم ، ولو كان هذا من أولياء الله تعالى لكان كريما سخيا ، وذلك لايقدح فى كمال ولاية ذلك الولى لأنه لم يمنع ذلك بخلا وإنما هو يود أن لوجعل الله على يديه رزقا لأحد وأعطاه له والاثم إنما هو فى حق من يمنع بخلا وشحا فى الطبيعة ، وأما من يمنع لحكمة فلا إثم عليه ، إذ الأولياء على الأخلاق الإلهية درجوا ، وقد سمى تعالى نفسه المانع ولم يسم نفسه بخيلا ، وربما كان ذلك الولى الذى ليس له سماط

ولا يطعم أحدا لقمة أعلى فى المقام ممن سفرته ممدودة ليلا ونهارا ، وقد قدمنا قبل هذا العهد قريبا أن من عباد الله الكمل قوما حماهم الله تعالى من مشاركة الحق تعالى فى خطور منتهم على أحد من خلقه ، فلذلك لم يجعل على يدهم رزقا لأحد يتميزون به على أقرانهم خوفا أن يخطر على بالهم المنة على من أخذ منهم ولو فى حال العطاء فقط ، ورأوا أن سلامتهم من مزاحمة الحق فى المنة أرجح من ثواب ذلك العطاء كما هو مشهد الكمل من الملامتية فى تركهم كثيرا من النوافل التى يرى العبد بها أنه قد وفى بحق الربوبية وزاد عليه ، فافهم .

واسلك يا أخى على يد شيخ ليخرجك من حكم الطبيعة عليك بالشح ويخلصك إلى حضرات الكرم والسخاء ، فلا تكاد تبخل على فقير بشىء كما درج عليه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا عملت شيخا يقتدى بك فإياك أن تدع أبناء الدنيا يخرجون عليك فى البخل بأن لا تشح بشىء مطلقا ، إذ من شرط الشيخ أن يكون الألف دينار عنده إذا أعطاها لفقير حكم الحصاة من التراب على حد سواء ، ومتى استعظمت يا أخى شيئا مما أعطيته فأنت لم تشم من طريق الصالحين شمة .

قال : وتأمل الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعى رضى الله تعالى عنه لما دخل اليمن أتوه بعشرة آلاف دينار ففرقها فى المجلس ، فصـــار يفرق منها ويعطى الناس حتى فرغت .

وقد حلق شخص لابراهيم الخواص رأسه على مايفتح الله به فجاءه وهو يحلق ألف دينار فدفعها إلى المزين فرماها المزين ، وقال للخواص أما تستحى تقول لى احلق رأسى لله ثم تعطينى شيئا من الدنيا ، والله ماحلقت لك إلا لله ورماها للناس .

وسأل شخص على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين شيئا فأخرج بدرة فيها عشرة آلاف دينار وقال : والله ماوجدت لك غيرها ، فقال له الشخص أعطنى أجرة حملها إلى منزلى ، فأعطاه طيلسانه فولى وهو يقول أشهد أنك من أولاد المرسلين حقا .

وكان على بن الحسين بن على بن أبى طالب إذا وجد على بابه سائلا يقول له مرحبا بمن يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة منى حتى يضعه بين يدى الله عز وجل اهـ .

قلت : وممن أدركته على هذا القدم الشيخ عبد الحليم بن مصلح ببلاد المنزلة غربي دمياط وسيدى محمد بن المنير المدفون بخارج الخانقاه السرياقوسية ، والشيخ محمد الشناوى رضى الله تعالى عنهم ، فرأيت الشيخ عبد الحليم وقد لقيه شخص وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة فقال أعطنى هذه الثياب ، فأعطاها له ولم يرجع إلى البيت ، وصلى بفوطة حمامى فى وسطه .

ورأيت الشيخ محمد بن المنير أعطى شخصا فى طريق الحجاز ماتت جماله خمسمائة دينار ، فلما وصل الرجل إلى مكة أتى بها ، فقال له ما أعطيتها لك إلا لله ولم يكن له به معرفة قبل ذلك .

وأما الشيخ محمد الشناوى فلا يحصى ما أعطاه للناس من البهائم والخيل والغنم والقمح والنقود والثياب ، وكان يصرح ويقول جميع ما يدخل يدى من الدنيا ليس هو خاص بى ، وإنما أراه مشتركا بينى وبين المحتاجين ، فكل من كان أحوج قدم منى أو منهم ، وقد من الله تعالى على بذلك فلم أرلى بحمد الله تعالى شيئا يخصنى من المحتاجين به ، فالحمد لله رب العالمين .

فاسلك يا أخى على يد شيخ صادق ليخرجك من شح الطبيعة بأفعاله وأقواله ، وإلا فمن لا زمك الشخ وبتقدير أنك تعطى الناس ما يسألون فلا يخلو ذلك من علة تؤثر فى الإخلاص كما يعرف ذلك أرباب السلوك ، فإن الشيخ إذا لم يكن فعله سابقا على قوله كان قدوة لهم فى الضلال كما إذا أمرهم بقيام الليل ونام هو ، وبالزهد فى الدنيا ورغب هو ، والله إنى لأصلى بالقرآن كاملا فى ركعة واحدة فى بعض الليالى وأود أن لو اطلع على ذلك بعض المريدين ليقتدوا بى فى ذلك ، فإنى أعلم أنى إذا نمت ناموا فيمن يقتدون إذا كنت بالليل نائما ، وربما أخالف ما آمر الناس به فيعملون معدلى ولو فى أنفسهم ، ويقولون إن الشيخ يأمرنا بالصلاة فى الليل وينام ، ويأمرنا برمى الدنيا ويجمعها هو ، ويزهدنا فى الدنيا ويأمرنا بإخراجها والتصدق بها ولا نراه يفعل هو شيئا من ذلك ، بخلاف ما إذا زهد الشيخ وأنفق أو تصدق أمامهم فإنهم ربما يتبعونه ، ووالله إنى لأتصدق فى بعض الأوقات بالدينار والقميص وأنا أحوج إليه أشد من الآخذ له تنشيطا للإخوان حتى يخرجوا عن مسك اليد ، وأرى ذلك مقدما على نفع نفسى ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ، وَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا ، كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ » .

وفى رواية لابن خزيمة : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ، تَقَبَّلَهَا اللهُ مِنْهُ وَأَخَذَهَا بِيَمِينِهِ فَرَبَّاهَا كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ فَتَرْبُو فِي يَدِ اللهِ ، أَوْ قَالَ فِي كَفِّ اللهِ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ ، فَتَصَدَّقُوا » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح :

« عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلمَ مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ : مَا بَقِيَ إِلاَّ كَتِفُهَا ؟ فَقَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ : بَقِيَ كُلُّهَا إِلاَّ كَتِفَهَا » .

ومعناه أن ماتصدقوا به هو الباقى .

وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يَقُولُ الْإِنْسَانُ مَالِى مَالِى، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَى ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ أَعْطَى فَأَبْقَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » .

وروى أبو يعلى بإسناد صحيح مرفوعا :

« وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ » .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه :

« إِنَّ الصَّدَقَةَ وَلَوْ قَلَّتْ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ » .

وفى رواية : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَدْرَأُ بِالصَّدَقَةِ سَبْعِينَ بَابًا مِنْ مِيتَةِ السُّوءِ » .

وقد روى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » .

وقال يزيد بن حبيب: وكان أبو مرة العبدرى لايخطئه يوم إلا تصدق فيه بشىء ولو بكعكة أو بصلة .

وفى رواية لابن خزيمة: كان يزيد بن عبد الله أول أهل مصر دخولا المسجد بمصر ، فما رؤى داخلا قط المسجد إلا وفى كمه صدقة أو فلوس وإما قمح وإما خبز حتى ربما حمل البصل ، فإذا قيل له إنه ينتن ثيابك فيقول إنى لم أجد فى البيت ما أتصدق به غيره ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ظِلُّ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَتُهُ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ الْقُبُورِ » .

وروى الإمام أحمد والبزار الطبرانى وابن خزيمة من صحيحه مرفوعا :

« لاَيُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَىْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا » .

زاد فى رواية البيهقى : « كُلُّهُمْ يَنْهَى عَنْهَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « الصَّدَقَةُ تَسُدُّ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ السُّوءِ » .

وروى البيهقى مرفوعا : « بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ ، فَإِنَّ الْبَلاَءَ لاَيَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ » .

وروى موقوفا عن أنس وهو الأشبه قاله الحافظ المنذرى والأحاديث فى ذلك كثيرة والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتصدق بما وجدنا ولا نستقل من الصدقة شيئا لما تقدم من الأحاديث الصحيحة من :

« أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ » .

ولما سيأتى من الأحاديث ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ، فيستحيون أن يتصدقوا بمثل تمرة أو لقمة أو زبيبة وهو حياء طبيعى لا شرعى ، وليس اللوم إلا على من يمنع الصدقة بالكثير بخلا ، وأما من يخرج ماوجد بعد جوع وقلة فهو مأجور وربما يسبق الدرهم منه ألف درهم من غيره كما يأتى وقال تعالى :

(لِيُنْفِقْ ذُوسَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا) .

فانظر يا أخى إلى ماوسع الله تعالى به على عباده حيث لم يأمرهم بالصدقة تكليفا مع حاجتهم إليها بل نهاهم عن ذلك ، لأن كل من تصدق بما فوق طاقته فن لازمه أن نفسه تتبع ذلك ثم يندم على إعطائه ، وفى الحديث :

« نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » فافهم .

وقد تصدقت عائشة رضى الله عنها مرة بحبة عنب فكأن السائل استقلها ، فقالت مالك لاتفقه ، كم فى هذه من مثقال ذرة ؟ وفى القرآن :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ـ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الصدقة أفضل ؟ قال :

« جَهْدُ الْمُقِلِّ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » .

وروى النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه واللفظ والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ أَخَذَ مِنْ عُرْضِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ تَصَدَّقَ بِهَا ، وَرَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلاَّ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ وَاحِدًا فَتَصَدَّقَ بِهِ » .

وقوله « من عرضه » أى من جانبه .

وروى الترمذى وابن خزيمة عن أم بجيد أنها قالت : يارسول الله إن المسكين ليقوم على بابى فما أجد شيئا أعطيه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنْ لَمْ تَجِدِى إِلاَّ ظِلْفًا مُحَرَّقًا فَادْفَعِيهِ إِلَيْهِ فِى يَدِهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« تَعَبَّدَ عَابِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ فَعَبَدَ اللهَ تَعَالَى فِى صَوْمَعَتِهِ سِتِّينَ عَامًا فَأَمْطَرَتْهِ

الارضُ وَاخْضَرَّتْ فَأَشْرَفَ الرَّاهِبُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ فَقَالَ: لَوْ نَزَلْتُ فَذَكَرْتُ اللهَ؛ فَازْدَدْتُ خَيْرًا، فَنَزَلَ وَمَعَهُ رَغِيفٌ أَوْ رَغِيفَانِ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي الْأَرْضِ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهَا وَتُكَلِّمُهُ حَتَّى غَشِيَهَا ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ فَنَزَلَ الْغَدِيرَ يَسْتَحِمُّ فَجَاءَ سَائِلٌ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ الرَّغِيفَيْنِ ثُمَّ مَاتَ فَوُزِنَتْ عِبَادَةُ سِتِّينَ سَنَةً مَعَ حَسَنَاتِهِ بِتِلْكَ الزَّنْيَةِ فَرَجَحَتِ الزَّنْيَةُ بِحَسَنَاتِهِ، ثُمَّ وُضِعَ الرَّغِيفُ أَوِ الرَّغِيفَانِ مَعَ حَسَنَاتِهِ فَرَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ فَغُفِرَ لَهُ » .

وفى رواية للبيهقى موقوفا عن على وابن مسعود :

« أَنَّ الرَّاهِبَ نَزَلَ إِلَى الْمَرْأَةِ فَوَاقَعَهَا سِتَّ لَيَالٍ ثُمَّ سَقَطَ فى يَدِهِ فَهَرَبَ فَأَتَى مَسْجِدًا فَأَوَى فِيهِ ثَلَاثًا لَا يَطْعَمُ شَيْئًا فَأُتِيَ بِرَغِيفٍ فَكَسَرَهُ فَأَعْطَى رَجُلًا عَنْ يَمِينِهِ نِصْفَهُ، وَأَعْطَى آخَرَ عَنْ يَسَارِهِ نِصْفَهُ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكَ الْمَوْتِ فَقَبَضَ رُوحَهُ، فَوُضِعَتْ عِبَادَةُ السِّتِّينَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتِ السِّتُّ لَيَالٍ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَتْ يَعْنِي السِّتَّ لَيَالٍ، ثُمَّ وُضِعَ الرَّغِيفُ فَرَجَحَ، يَعْنِي عَلَى السِّتِّينَ سَنَةً » .

وروى البيهقى مرفوعا : « إِنَّ الصُّعْلُوكَ كُلَّ الصُّعْلُوكِ الَّذِى لَهُ مَالٌ لَمْ يُقَدِّمْ مِنْهُ شَيْئًا » .

يعنى لم يتصدق منه بشىء، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتصدق بما نحب أدبا مع الله تعالى وعملا بقوله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

ونحن نحب أن ننال مقام البر عند الله تعالى ونكره أن نكون ناقصى المقام لما فيه من الجفاء والبعد فى شهودنا له فى نفس الأمر ، ولا يقوم بالعمل بهذا العهد إلا كمل الرجال الذين يغلب عليهم الحضور مع الله تعالى .

وقد بلغنا أن المنادى ينادى يوم القيامة « ألا من أعطى شيئا لله فليأت به » فيأتى الرجل بالثياب البالية والكسر اليابسة والأمور التى تزهدها النفوس ، ثم ينادى ثانيا .

ألا من أعطى شيئا لغير الله فليأت به فيأتى الرجل بالثياب الفاخرة والأطعمة النفيسة والأمور التى تهواها النفوس فيكاد الرجل من الحياء أن يذوب ويسقط لحم وجهه :

وبالجملة فمعاملة الله تعالى تابعة لمعرفته كثرة وقلة .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح إن طلبت أن تعرف صفاء المعاملة مع الله تعالى ، وإن لم تسلك كما ذكرنا فمن لازمك عدم صفاء المعاملة كما هو مشاهد فيمن يسأل الأغنياء بالله من الفقراء أن يعطوه رغيفا أو درهما فلا يعطونه ، ويمر على نحو الألف نفس أو أكثر فلا يلتفتون إليه ، ولو أنهم كانوا جالسين بحضرة ملك من ملوك الدنيا وسألهم أرذل الناس بحياة رأس الملك أن يعطوه رغيفا أو درهما لأعطوه المائة رغيف ، أو الدينار الذهب ، أو أكثر مراعاة لوجه العظيم ، فأيما أعظم عند هؤلاء قدرا حينئذ الله أو ذلك الملك ؟

فانظر وتأمل فى نقص إيمانك وقلة تعظيمك لله تعالى ، يا أخى وتب واستغفر وتشهد لتسلم الإسلام الكامل فان الله تعالى يعامل العبد بحسب ما فى قلبه من التعظيم وغيره ، ولو أن إنسانا قال السلطان أعظم عندى من الله تعالى لحكم الشرع بقتله أشر قتلة لكفره بعد إيمان فتأمل :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلّم خَرَجَ وَبِيَدِهِ عَصًا وَقَدْ عَلّقَ رَجُلٌ قِنوَحَشَفٍ فَجَعَلَ يَطْعَنُ فِى ذٰلِكَ الْقِنْوِ وَيَقُولُ : لَوْ شاءَ رَبُّ هٰذِهِ الصَّدَقَةِ تَصَدّقَ بِأَطْيَبَ مِنْ هٰذِهِ ، إِنَّ رَبَّ هٰذِهِ الصَّدَقَةِ يَأْكُلُ حَشَفًا يَوْمَ الْقِيامَةِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبقَتْ غِنًى ، وَالْيَدُ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسر بصدقاتنا المندوبة دون المفروضة على وزان الصلاة إلا ما استثنى مما تسن الجماعة فيه امتثالا لأمر الله عز وجل ، لا لطلب الأجر والثواب ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم قد وعد

بذلك وهو لا يخلف وعده ، ولا يضيع أجر من أحسن عملا ، اللهم إلا أن نطلب الأجر من باب الفضل والمنة فلا حرج على العبد فى ذلك ، إذ لا يستغنى عبد عن فضل سيده طوعا أو كرها .

واعلم أن الشارع ما أمر العبد بصدقة السر إلا لما يعلم من نفس العبد من محبة المال وإنفاقه ليقال ، فلا يكاد يسكت على ما أعطاه لأحد أبدا لعظمته عنده ، ولو أنه سلك الطريق لكان إخراج الألف دينار صدقة عنده كحبة عنب على حد سواء ، وما رأينا أحدا قط أعطى حبة عنب وصار يذكرها فى المجالس ويفتخر بها أبدا لهوانها عنده ، وكذلك الألف دينار عند الفقير الصادق إذا تصدق بها لا يحتفل بها ولا يذكرها فى المجالس أبدا ، وما سمى الفقير فقيرا إلا لكونه لا يملك شيئا مع الله تعالى ، فكيف يرى نفسه بشىء ليس هوله ؟ وفى الحديث :

« إِنَّ الدُّنْيَا لاَ تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ » .

فما قدر ما يخص الفقير من ذلك الجناح إذا فرق أجزاء صغارا حتى عم جميع الخلق من الملوك إلى السوقة ، فالفقير الصادق يستحى من الله تعالى أن يرى نفسه على الفقراء ، ولو تصدق بجميع الدنيا لو تصور أنه ملكها كلها ، لأنه يراها كجناح البعوضة ، وإنما لم نقل لأنه يراها قدر جناح بعوضة أدبا مع الله تعالى أن يشترك العبد مع ربه فى صفة من الصفات ، فلذلك قلنا كجناح بكاف التشبيه ، فافهم .

فعلم أنه يتعين على كل من يريد العمل بهذا العهد أن يسلك على يد شيخ مرشد يسلك به حتى يخرجه عن الرغبة والمحبة فى الدنيا ويدخله حضرة الزهد فيها ، وإلا فمن لازمه أنه يكره الإسرار بالصدقة ويحب إظهارها لما عنده من العظمة والمحبة لها وجهله بالله تعالى ، فإنه لا يعامل الله إلا من يعرف عظمة الله تعالى .

وقد صحبنى شخص من ذوى الأموال فذكرت له ما ورد فى صدقة السر من الأحاديث فقال لى تبت إلى الله تعالى عن إظهار شىء من الصدقات للناس ورؤية المنة على آخذها ، فقلت له : هذا لا يكون إلا بعد سلوك الطريق ، فقال لى قد تحققت بحمد الله بذلك فأرسلت له فقيرا سرا وقلت له اسأله فى دينار ولا تسأله إلا ليلا أو حيث لا يعلم بذلك أحد ، فسأله فأعطاه الدينار فلم يزل به أبو مرة يوسوس له باظهار ذلك حتى جاءنى وصار يذكر شدة احتياج الناس إلى الصدقة فى هذا الزمان ، إلى أن جاء إلىّ ذلك الفقير وقال إنه

فلانا محتاج وقد بلغنا أنه جاء إلى بعض التجار وسأله دينارا فأعطاه له ، ثم لم يزل به إبليس حتى ذكره لي وقال إنما ذكرته لك ياسيدى لكونى لاأحب أخفى عنك شيئا ، فانظر كيف أخرجه إبليس من صدقة السر وأوقعه فى تزكية نفسه ، ودعوى أنه لايخفى عنى شيئا من أحواله ، ولو أنى قلت له أعلمنى بعدد ماعندك من الدنيا ماسمح بذلك ، فوالله لقد صار الصدق أعز من الكبريت الأحمر ، ولو أنه كان دخل طريق الفقراء من بابها على يد شيخ لصار دخوله النار أهون عليه من إظهار ماأمره الله بكتمه

قلت : وقد بلغنا أن شخصا صام أربعين سنة لايشعر به أحد فلم يزل به إبليس حتى أوقعه فى التحدث بها . وذلك أن إبليس جاء إلى القصاب فى هيئة فقير وفى عنقه سبحة وعلى كتفه سجادة وصار يقول للجزار أعطنى هذه القطعة اللحم المليحة لأن لى ثلاثة أيام صائما ، فلم يزل يكرر ذلك حتى تحرك فى قلب ذلك العابد داعية إظهار صومه ، وقال اكتم صومك أنت أفضل لك فإنى صائم أربعين سنة ماشعر بذلك أحد ، فقال له إبليس أنا إبليس ومالى حاجة باللحم إلا حتى أوقعتك فى إظهار صيامك ، ثم قال له إبليس ، كيف تقول لى اكتم صومك فإنه أفضل وتقع أنت فى إظهاره ؟ فندم العابد وفارقه إبليس .

واعلم أنى مارأيت فى عمرى كله أكثر صدقة سرا من شيخنا شيخ الاسلام زكريا شارح البهجة ، والشيخ شهاب الدين ابن الشلبى الحنفى ، لاتكاد تجدهما يظهران من صدقتهما شيئا .

وقد جاء شخص من الأشراف إلى شيخنا الشيخ زكريا وقال له ياسيدى قد خطفوا عمامتى الليلة فأعطنى ثمن عمامة ، فأعطاه فلسا فرده الشريف فأخذه الشيخ ، فقلت له إن الفلس لايكفى فى مثل ذلك ، فقال الذنب له الذى جاء بحضرة الناس وقد رغبنى الله تعالى فى الإسرار بالصدقة فلا أظهر ذلك لأحد من الخلق ، ولو أنه جاء من غير أن يكون عندى أحد لأعطيته ثمن العمامة أو أكثر لأجل جده صلى الله عليه وسلم ، ثم لقيت الشريف بعد ذلك فأخبرته بما قال الشيخ فقال : إن الشيخ أرسل لى عمامة فى الليل وهاهى على رأسى .

وكذلك بلغنا عن سيدى على النبتيتى بن الجمال أنه كان يرسل كل سنة المائة حمل قمحا وأرزا وغير ذلك إلى مكة فى البحر ، ويسافر هو فى البر مع الحجاج ، ثم يجلس يبيعها

فى المسعى ويخبر بالسعر الغالى زيادة على الناس وينظر ، فكل من اشترى منه بالزيادة على السعر يعرف أنه مضطر فيعطيه مااشتراه بلا ثمن ويأمره بالكتمان ، فعلم بذلك غالب أهل مكة فكان يعطيهم كذلك حتى أنه لم يأخذ درهما واحدا فى بعض السنين ، فقيل له إن كان ولا بد لك من العطاء للناس بلا ثمن فتصدق أنت به ، فقال البيع أستر لنا من الصدقة وكذلك كان يفعل فى الثياب التى يفرقها يأمرهم بالكتمان فيها ، وكل من تكلم بذلك يرسل يأخذ الثوب منه ويقول : ياولدى غلطنا والثوب لشخص غيرك ، حتى لايصير يتكلم بعد ذلك بشىء .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يأخذ صدقات أصحابه ويجمعها عنده للفقراء ويقول لهم : إن جماعة من التجار أرسلوا لى على اسمكم شيئا من الفضة والذهب لأفرقه عليكم ثم يخلط على ذلك أضعافه ويفرقه عليهم بحيث لايعلم أحد من الخلق بذلك ، ولولاأنى رأيته فعل ذلك وهو لايشعر بى ماأعلمنى به ، وكان بعض من لايعرف مقامه يتهمه بأنه اختلس من مال الفقراء لنفسه ويبلغه ذلك عنه فيتبسم ولا يجيب عن نفسه شيئا .

فبهدى هـذه الأشياخ ياأخى اقتده لتفوز بمضاعفة الأجر ورضا الرب ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » .

وروى الترمذى واللفظ له والبيهقى وغيرهما مرفوعا :

« لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَأَرْسَاهَا بِالجِبَالِ فَاسْتَقَرَّتْ فَعَجِبَتِ المَلاَئِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الجِبَالِ ، فَقَالَتْ: يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الجِبَالِ ؟ قَالَ: نَعَمْ الحَدِيدَ ، قَالُوا : فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الحَدِيدِ ؟ قَالَ النَّارَ ؟ قَالُوا : فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : المَاءَ. قَالُوا: فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ المَاءِ ؟ قَالَ

الرِّيحَ ، قَالُوا : فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ: ابْنَ آدَمَ ، إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا عَنْ شِمَالِهِ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا : « صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَتْ سِرًّا إِلَى فَقِيرٍ أَوْ جَهْدًا مِنْ مُقِلٍّ ، ثُمَّ قَرَأَ : إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » الآية .

وروى أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ » الحديث، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقرض كل من استقرضنا من المحتاجين ، سواء كان مشهورا بحسن المعاملة أم لا امتثالا لقول الله تعالى :

(أَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) .

ومن أقرض الله تعالى من الخلق لايطلب جزاء .

واعلم ياأخى أن الله تعالى لم يأمر بالقرض إلا الأغنياء ، فهم الذين فازوا بلذة خطاب الله تعالى بقوله لهم : (أقرضوا) وأما الفقراء ففاتتهم تلك اللذة وذلك الأجر ، ومن هنا سارع الأكابر من الأولياء إلى التكسب بالتجارة والزراعة والحرفة ليفوزوا بلذة ذلك الخطاب لالعلة أخرى من طلب ثواب أو غيره قال تعالى :

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) الآية .

فوصفهم بالرجولية لأجل أكلهم من كسبهم وإقراضهم من فواضل كسبهم كل محتاج ، ومفهومه أن من لا كسب له والناس ينفقون عليه فهو من جنس النساء وإن كان له لحية

كبيرة وسبحة وسجادة وعذبة ومرقعة وشفاعات عند الحكام وغير ذلك ، وليس له فى الرجولية نصيب قال تعالى :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) الآية .

واعلم أن طلب التلذذ بخطاب الله تعالى كما ذكرنا محمود بالنسبة لمن هو تحته فى المقام ، وإلا فلله تعالى رجال يتوبون من التلذذ بخطاب الله تعالى إلا على وجه الشكر لاغير ، فإن من كان الباعث له التلذذ بخطاب الله تعالى فهو عبد للذته لا يكون عبدالله تعالى .

وقد أخبرنى أخى أفضل الدين رحمه الله أنه كان يقوم الليل مدة كذا وكذا سنة وهو لايشعر به أحد ، قال : فكنت أظن بنفسى الإخلاص فى ذلك ، فسمعت هاتفا يقول : إنما تقوم الليل للذة التى تجدها حال مناجاتك ، ولولا هى ماقمت للحق بواجب عبوديته ، قال : فاستغفرت الله تعالى وتجردت من تلك اللذة وعلمت أن تلك اللذة تجرح فى إخلاصى فالحمد لله رب العالمين .

فعلم أنه لا يقدح فى شيخ الزاوية أن يكون تاجرا ولا زارعا بل ذلك أكمل له .

فإياك ياأخى أن تنكر على فقير الكسب بالتجارة والزراعة أو معاملة الناس أواخر عمره وتقول فلان كان من الصالحين أول عمره وقد ختم عمره بمحبة الدنيا وشهواتها ، بعد أن كان زاهدا فيها وفى أهلها ، فربما يكون مشهد ذلك الفقير ماقلناه أو غير ذلك من النيات الصالحة ، فإن زهد الكمل ليس هو بخلو اليدين من الدنيا وإنما هو بخلو القلب ، ولا يتحقق لهم كمال المقام إلا بزهدهم فيما بأيديهم وتحت تصريفهم من غير حائل يحول بينهم وبين كنزه .

وأما زهدهم مع خلو اليد ، فربما يكون لعلة الفقر .

وقد قالوا : من شرط الداعى إلى الله تعالى أن لايكون متجردا عن الدنيا بالكلية ، بأن تخلو يده منها وذلك لأنه يحتاج ضرورة إلى سؤال الناس إما بالحال وإما بالمقال ، وإذا احتاج إلى الناس هان عليهم وقل نفعهم به بخلاف ما إذا كان ذا مال يعطى منه المحتاجين من مريديه وغيرهم ، فإن فقد الحال الذى يميل به قلوب المريدين إليه كان معه المال يميلهم إليه به ، ومن لاحال له ولا مال لاينفعه المقال ، وفى الحديث :

« عِزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ، وَشَرَفُهُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ » .

وممن جاهد نفسه بالتجرد عن الدنيا زمانا طويلا ثم مسك الدنيا من أشياخ العصر وتاجر فيها الشيخ عبد الرحيم البيروتى والشيخ على الكازرونى نفعنا الله ببركاتهما ، فأساء

الناس بهما الظن وأخرجوهما عن دائرة الفقراء ، والحال أنهما الآن أكمل مما كانا عليه فى بدايتهما على ماقررناه آنفا .

فاياك يا أخى وسوء الظن بأهل الطريق أو بمن لبس الزيق ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

ومن محك صدق من طلب الدنيا لله تعالى طلبا للفوز بلذة خطابه أن لايشح بشىء منها على محتاج إليه لأن من أحب شيئا وتلذذ به أحب تكراره ، ومتى تكدر من كثرة السائلين لما عنده فهو كاذب فى دعواه أنه يحب الدنيا للالتذاذ بخطاب الله أو لنفع عباد الله فاعلم ذلك ، وخرج بقولنا أن لا يشح مالوشح ومنع لحكمة شرعية فإن ذلك لايقدح فى صدقه :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد والترمذى واللفظ له وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ مَنَحَ مِنْحَةَ لَبَنٍ أَوْ وَرِقٍ أَوْ أَهْدَى رِفَاقًا كَانَ لَهُ مِثْلُ عِتْقِ رَقَبَةٍ » .

ومعنى قوله منحة ورق : عنى به قرض الدرهم ، وقوله أو أهدى رفاقا : عنى به هداية الطريق وإرشاد السبيل .

وروى الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى مرفوعا :

« كُلُّ قَرْضٍ صَدَقَةٌ » .

وروى الطبرانى وابن ماجه والبيهقى مرفوعا :

« دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فَرَأَى عَلَى بَابِهَا مَكْتُوبًا الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ » .

قال بعضهم : وذلك أن الصدقة قد تقع فى يد غنى فى الباطن والقرض لا يأخذه إلا محتاج .

وروى مسلم وابن ماجه والترمذى وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّةً إِلَّا كَانَ لَهُ كَصَدَقَتِهَا مَرَّتَيْنِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا كان لنا دين على

معسر أن ننظره ونضع عنه امتثالا لأمر الشارع صلى الله عليه وسلم وطلبا لمرضاته ، فإنه لايأمرنا قط إلا بما فيه النفع لنا فى الدنيا والآخرة ، لكن بشرط الإخلاص لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الرياء والسمعة ، فربما سامح أحدنا المعسر ببعض ما عليه بحضرة الناس ليقال ، ولو أنه لم يعلم به إلا الله تعالى لربما كان يثقل عليه ولا ينشرح له صدره ، فلينتبه من يفعل المعروف لمثل ذلك ويفتش نفسه التفتيش المبرئ للذمة ، فمن حاسب نفسه فى هذه الدار خف حسابه فى الدار الآخرة ، وإن وقع له حساب فإنما هو فى أمور لم يحاسب نفسه عليها فى دار الدنيا .

واعلم أنه ليس مراد الحق تعالى بالحساب إلا إقامة الحق على العبد وبيان فضله وحلمه عليه لا غير ، وإلا فالعبد ليس معه شىء يدفعه لسيده ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى مسلم والطبرانى مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ » .

وفى رواية للطبرانى : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنْ يُظِلَّهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ فَلْيُنْظِرْ مُعْسِرًا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: « تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَالُوا أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ؟ قَالَ: لاَ، قَالُوا تَذَكَّرْ، قَالَ : كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ ، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ ، فَقَالَ اللهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ » .

ومعنى تجوزوا عن الموسر : أى خذوا ماتيسر معه بقرينة الحديث الآتى، والله أعلم .

وفى رواية للشيخين : « كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ » .

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « أَنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللهُ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطّ ؟ قَالَ لاَ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ وَكُنْتُ أُدَايِنُ

النَّاسَ ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ يَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا ، قَالَ اللهَ تَعَالَى قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ فَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةً ، فَإِذَا حَلَّ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلاهُ صَدَقَةً » .

وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ ، أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ » .

ومعنى وضع له : أى ترك له شيئا مما له عليه .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا إِلَى مَيْسَرَتِهِ ، أَنْظَرَهُ اللهُ بِذَنْبِهِ إِلَى تَوْبَتِهِ » والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننفق جميع مادخل يدنا من المال على أنفسنا وعيالنا وأصحابنا وغيرهم ، ولاندخر منه شيئا إلا لغرض صحيح شرعى لا تلبيس فيه ، وكذلك نبادر بالصدقة لكن بنية صالحة من غير تهور فيها ، وعلى السائل الصبر حتى نحرر النية ، ولا ينبغى له المبادرة إلى سوء الظن ورمينا بالبخل ولومكثنا شهرا حتى نجد لنا نية صالحة ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ، فلا المعطى يتربص حتى يجد نية ، ولا الفقير يصبر : وخلق الإنسان عجولا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يخرجه من شح الطبيعة إلى حضرة الكرم ، حتى لايشح على محتاج إلا لحكمة دون بخل ، ومن لم يسلك فلا

سبيل له إلى العمل به ولو صار من أعلم الناس فإن العلم بمجرده محتف بآفات يتيه بها العبد عن طريق الوصول إلى العمل بما علم .

ومن كلام سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه : إنما احتاج العلماء إلى شيخ يربيهم مع ذلك العلم العظيم الكثير لعدم إخلاص نيتهم فيه ودخول الإعجاب فيه ، وطلب أحدهم أن يصرف وجوه الناس إليه ؛ ولو أنهم سلموا من الآفات وأتوا حضرة العلم بلا علة لنارت قلوبهم بالعلم وأشرفوا على حضرة الله عز وجل، وهان عليهم بذل نفوسهم فى مرضاة الله تعالى ، فضلا عن شىء من أعراض الدنيا .

فلا تطمع ياأخى أن تعمل بهذا العهد بنفسك من غير شيخ تقتدى به فإن ذلك لايصح لك ، بل من شأنك أن تكون جموعا منوعا حتى تموت كما هو مشاهد فى غالب الناس ، حتى رأيت بعض الناس وهو يسأل من بعض شيوخ العرب الظلمة أن يرتب له خبزا من صدقة ، فقلت له فى ذلك ، فقال : الضرورات تبيح المحظورات ، فقومت ثيابه وفرسه فوجدت ثمنها نحو ألفين ونصفا ، فقلت له : أين الضرورة ؟ فما درى ما يقول : فسألت عنه بعض من يعامله ، فوجدت له مع الناس نحو عشرة آلاف دينار ، فقلت له : أتلبس على الله ماهو مليح ؟ فقال لى : كان الواحد من الصحابة يملك العشرة آلاف دينار أو أكثر فقلت له وكان مع ذلك لا يدخرها عن محتاج فلم يجد جوابا ، ولو أنه كان سلك طريق أهل الله تعالى لأغناه الله عن السؤال بمال حلال أو بقناعة ، وذلك أن السالك على مصطلح أهل الله تعالى طريقه الذكر ، ومن خاصيته جلاء القلب من ظلمات الرعونات النفسانية حتى يشرف على الجزاء الجسمانى أو الروحانى الذى وعد الله به المنفقين والمتصدقين فى الدار الآخرة ، فإذا أشرف على ذلك صغرت عنده الدنيا بأسرها فيصير يبادر لإنفاقها ، ولو منعوه جهرا أنفق سرا لما يرى لنفسه فى ذلك من المصلحة ولا هكذا من يعلم أحكام الله على التقليد مع تعاطى شهوات النفوس من أكل وشرب ولباس ومركب ومنكح وغير ذلك من الأمور التى لاتكمل له إلا بالدنيا ، فلا يكاد ينفق شيئا فى مرضاة الله تعالى إلا إن اكتفت نفسه من شهواتها والشهوات لاقرار لها إذ كل شهوة تجذبه إليها ، ولو كان له فى كل يوم مائة دينار ما كفته .

واعلم يا أخى أنه قد ورد : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُرْزَقُ رِزْقَ سَنَةٍ فِي شَهْرٍ ، فَإِنْ رَفَقَ بِهِ كَفَاهُ وَإِلاَّ احْتَاجَ فِي بَقِيَّةِ سَنَتِهِ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُرْزَقُ رِزْقَ شَهْرٍ فِي جُمُعَةٍ ، فَإِنْ رَفَقَ بِهِ كَفَاهُ وَإِلاَّ احْتَاجَ فِي بَقِيَّةِ الشَّهْرِ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُرْزَقُ رِزْقَ جُمُعَةٍ فِي يَوْمٍ ، فَإِنْ رَفَقَ بِهِ كَفَاهُ وَإِلاَّ احْتَاجَ فِي بَقِيَّةِ جُمُعَتِهِ » .

وهذا محمول على من كان ضعيف اليقين كما يدل عليه نحو قوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » .

وقوله لبلال: « أَنْفِقْ وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلاَلاً » فافهم .

فلا ينبغى لمن معه مايزيد على حاجته أن يتصدق به إلا أن يكون قوى اليقين من الأغنياء أو من المتجردين .

أما من يأكل من كسب ربحه ، فله أن يمسك رأس ماله وما بقى من ربحه ينفقه على الأقارب وغيرهم ، وربح الألف الآن خمسة أنصاف كل يوم للعامل، فمن لايكفيه لنفقته ونفقة عياله وضيوفه كل يوم إلاعشرة أنصاف فله أن يمسك الألفى دينار أوأكثر بحسب حاجته ، ومن يكفيه كل يوم نصف فله أن يمسك نصفا وقس على ذلك ، وليس اللوم إلاعلى من يجمع ويمنع ،نسأل الله اللطف .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لكل خلق من أخلاق النبوة كرب فى مقابلة تركه يوم القيامة ، فمن لم يطعم لله جاء يوم القيامة جيعانا ، ومن لم يسق الماء لله جاء يوم القيامة عطشانا ، ومن آذى الناس جاء يوم القيامة يؤذى ، ومن لم يستر مسلما لله جاء يوم القيامة مهتوكا مكشوف السوءة على رؤوس الأشهاد ، ومن لم ينفس عن مسلم كربة جاء يوم القيامة مكروبا ، ومن لم يسامح أحدا فى حقه كان يوم القيامة تحت أسر من له عليه حق ، ومن ازدرى بالناس ازدرى هناك ، وهكذا فلا يجنى أحد إلاثمرة عمله فى الدنيا والآخرة كما ستأتى الإشارة إلى ذلك فى أحاديث العهد الثالث إن شاء الله تعالى .

ومن وصية سيدى سالم أبى النجاء القوى رضى الله عنه لأصحابه وهو محتضر : اعلموا يا إخوانى أن الوجود كله فى الدنيا والآخرة يعاملكم بحسب ما برز منكم من الأعمال ، فانظروا كيف تكونون :

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ مِنَ السَّمَاءِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » .

ولفظ رواية ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ إِلاَّ وَمَلَكٌ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضِ الْيَوْمَ يَجِدْ غَدًا ، وَمَلَكٌ بِبَابٍ آخَرَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَأَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفًا » وكذلك رواه الطبرانى، إلا أنه قال : « بِبَابِ السَّمَاءِ » .

قلت: قال بعض المحققين : والمراد بقول الملك « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفًا » .

أى إنفاقا فى وجوه الخير لأن الملك من عالم الخير فلا يدعو بفساد ، كما يقال فلان أتلف نفسه وماله فى مرضاة الله تعالى ، وأما على ما يتبادر إلى الأذهان فالمتلف لماله إنما عليه الإثم وهم لايدعون بالإثم فافهم، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ » .

والكفاف ما كف من الحاجة إلى الناس مع القناعة لا يزيد على قدر الحاجة ، والفضل مازاد على قدر الحاجة .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تَغْشَى أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بِمَكَانِهَا ، قال أبو هريرة : فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بِأُصْبُعِهِ هٰكَذَا فِي جُنَّتِهِ يُوَسِّعُهَا » .

والجنة بضم الجيم والنون: كل ما وقى الإنسان، وتضاف إلى مايكون منفعة، وقلصت: أى انجمعت وتشمرت وهو ضد استرخت وانبسطت .

قال الحافظ المنذرى : والمراد بالجنة هنا الدرع لأنه يجن المرء ويستره ، ومعنى الحديث : أن المنفق كلما أنفق طالت عليه وسبغت حتى تستر بنان رجليه ويديه ، والبخيل كلما أراد أن ينفق لزقت كل حلقة بمكانها فهو يوسعها ولا تتسع شبه صلى الله عليه وسلم نعمة الله ورزقه بالجنة .

وفى رواية بالجبة بالباء الموحدة ، فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبغت ووفرت حتى تستره سترا كاملا شاملا ، والبخيل كلما أراد أن ينفق منعه الشح والحرص وخوف النقص ، فهو يمنعه طلبا للمزيد والسعة زيادة على ما عنده فلا تزيد النعم عليه ولا تتسع ولا يستتر بها ما يريد ستره، والله أعلم .

وروى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقيس بن سلع الأنصارى :

« أَنفِقْ يُنفِقِ اللهُ عَلَيْكَ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » .

وكان يقلل النفقة فأنفق فصار أكثر أهله مالا .

وروى البزار باسناد حسن والطبرانى : « أَنَّ النَّبِيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ وَعِنْدَهُ صُبَرٌ مِنْ تَمْرٍ ، فَقَالَ مَا هٰذَا يَا بِلَالُ ؟ قَالَ أَعْدَدْتُهُ لِأَضْيَافِكَ قَالَ : أَمَا تَخْشَى أَنْ يَكُونَ لَكَ دُخَانٌ فِي جَهَنَّمَ ، أَنفِقْ يَا بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا » .

وفى رواية للطبرانى : « أَمَا تَخْشَى أَنْ يَكُونَ لَكَ بُخَارٌ فِي جَهَنَّمَ » .

وروى الشيخان وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأسماء بنت أبى بكر :

« لَا تُوكِى فَيُوكَأَ عَلَيْكِ » .

وفى رواية لهما : « أَنفِقِى وَلَا تُحْصِى فَيُحْصِى اللهُ عَلَيْكِ » .

قال الخطابى ومعنى لا توكى لا تدخرى ، والإيكاء : سد رأس الوعاء بالوكاء ، وهو الرباط الذى يربط به . يقول لا تمنعى ما فى يدك ، فيقطع الله مادة بركة الرزق عليك اه .

وروى البزار والحاكم وقال صحيح الإسناد عن بلال : قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يَا بِلَالُ مُتْ فَقِيرًا وَلَا تَمُتْ غَنِيًّا؟ قُلْتُ وَكَيْفَ لِى بِذٰلِكَ قَالَ : مَارُزِقْتَ فَلَا تَخْبَأْ، وَمَا سُئِلْتَ فَلَا تَمْنَعْ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ لِى بِذٰلِكَ ؟ قَالَ هُوَ ذَاكَ أَوِ النَّارُ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن أن طلحة بن عبيد الله جاءه مال كثير فى يوم ، فقال لغلامه أدع لى قومى فدعاهم ، فقسمه عليهم ولم يبق لنفسه شيئا وكان أربعمائة ألف .

وروى الطبرانى أن عمر بن الخطاب أرسل أربعمائة دينار مع الغلام إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وقال للغلام تلبث عنده فى البيت ساعة لينظر ما يصنع ، فذهب بها الغلام إليه وقال أمير المؤمنين يقول لك اجعل هذه فى بعض حوائجك ، فقال وصله الله ورحمه ، ثم قال تعالى ياجارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة أيضا إلى فلان حتى أنفذها كلها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال اذهب بهذه إلى معاذ ابن جبل وقف فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها الغلام وقال : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجاتك ، فقال رحمه الله ووصله ثم قال تعالى ياجارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأة معاذ فقالت ، ونحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فأرسلهما إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك وقال إنهم أخوة بعضهم من بعض .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن سهل قال كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير فوضعها عند عائشة ؛ فلما كان عند مرضه قال ياعائشة ابعثى بالذهب إلى على ثم أغمى عليه وشغل عائشة حتى قال ذلك مرارا ، كل ذلك ويغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة مابه ، فبعث إلى على فتصدق بها ، وأمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديد الموت ليلة الإثنين ، فأرسلت عائشة بمصباح لها إلى امرأة من نسائها فقالت ، اهدى لنا فى مصباحنا من عكتك السمن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسى فى حديد الموت .

وروى الطبرانى والإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح عن أبى ذر قال : إن خليلى صلى الله عليه وسلم عهد إلى قال :

« إِنَّ كُلَّ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أُوكِئَ عَلَيْهِ فَهُوَ جَمْرٌ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يُفْرِغَهُ فِى سَبِيلِ اللهِ » .

وقالت له الجارية يوما دعنى أثبت عندنا هذه السبعة دنانير لما ينوبك من الحوائج أو لما ينزل بك من الضيوف فأبى .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَوْكَأَ عَلَى ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ وَلَمْ يُنْفِقْهُ فِى سَبِيلِ اللهِ كَانَ جَمْرًا يُكْوَى بِهِ » .

وروى أبو يعلى والبيهقى عن أنس ورواته ثقات قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرا ، فلما كان من الغد أتت الخادم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَلَمْ أَنْهَكِ أَنْ تَرْفَعِي شَيْئًا لِغَدٍ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْتِي بِرِزْقِ غَدٍ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والبيهقى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايدخر شيئا لغد .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « إِنِّى لَأَلِجُ هٰذِهِ الْغُرْفَةَ مَا أَلِجُهَا إِلاَّ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَالٌ فَأَتَوَفَّي وَلَمْ أُنْفِقْهُ » والغرفة العلية .

وروى البزار مرفوعا : « مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا أُبْقَى صُبْحَ ثَالِثَةٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ شَيْئًا أُعِدُّهُ لِدَيْنٍ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى أن رجلا توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الصفة فلم يوجد له كفن فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« انْظُرُوا إِلَى دَاخِلِ إِزَارِهِ فَوَجَدُوا دِينَارًا أَوْ دِينَارَيْنِ ، فَقَالَ : كَيَّتَانِ أَوْ كَيَّةٌ مِنْ نَارٍ » .

وفى رواية : فوجدوا دينارا فقال : « كَيَّةٌ مِنْ نَارٍ » .

قال الحافظ المنذرى : وإنما جعل صلى الله عليه وسلم ذلك الدينار أو الدينارين كيتين أو كية من نار ، لأنه ادخر مع تلبسه بالفقر ظاهرا ، وشارك الفقراء فيما يأتيهم من الصدقة والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نأذن لزوجاتنا فى التصدق بما جرت به العادة من مالنا ولا نمنعها من ذلك طلبا لنزول الرحمة على بيتنا فى غيبتنا وحضورنا ، ولتدوم النعمة أيضا علينا ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس فيمنع زوجته أن تتصدق برغيف أو مغرفة طعام على فقير ، فيكون ذلك سببا لتضييق الرزق على أهل البيت ، وكذلك لا نمنعها أن تقرى الضيف فى غيبتنا على طريق العرب العرباء ، لكن من غير مخالطة للضيوف والأجانب ، وقد كان على هذا القدم سيدى الشيخ عثمان الحطاب ، والحافظ الشيخ عثمان الديمى فكان كل منهما يذهب إلى بيت الآخر

فى غيبته ، ويجلس مع امرأة أخيه وتخرج له مايأكل وما يشرب ، فكانا من أولياء الله تعالى ، لكن أنى لنا فى هذا الزمان أن يظفر أحدنا بأخ صالح يأمنه على الخلوة بعياله بحيث لا يتخلله تهمة فيه ، فوالله لقد قل الصادقون الذين يؤتمنون على مثل ذلك، فنوصى عيالنا أن يخرجوا للضيف مايأكل وما يشرب مع الخادم ولا يختلطن به .

واعلم يا أخى أنه كلما كثر طعامك للناس كلما كثرت النعمة عليك ، فإن الله تعالى يسوق لكل عبد من الرزق بقدر مايعلم فى قلبه من السخاء والكرم ، فمنهم من يكون عنده قوت خمسة أنفس، ومنهم من يكون عنده قوت عشرة ، وهكذا إلى الألف نفس أو أكثر ، فتعرف مراتب الناس فى الكرم بقدر عيالهم ، وقد يكون بعض الأولياء يطلب لنفسه الخفاء والتجرد ، فلا يكون عنده أحد وهو فى غاية الكرم ، ويود أن لو كان كل من فى الدنيا عائلته ، فمثل هذا يعطيه الله تعالى فى الآخرة أجر من عال جميع الخلق وراثة محمدية ، فيحصل له هذا الثواب العظيم مع الخفاء وعدم الشهرة ، فإن الله هو الرزاق للعبد ، ومن كان هذا مشهده فكثرة العيال وقلتهم عنده سواء لايتحمل هما من جهتهم أبدا ، وإنما يلحقه بعض كرب إذا توجهت العائلة إليه من حيث كونه واسطة مع عدم شهودهم أن الله هو الرزاق ، فيقصرون نظرهم على ذلك العبد فيؤثرون فيه الضيق والكرب حتى يصل إليهم رزقهم الذى قسمه الله لهم على يده ، ولو أنهم كلهم كانوا متوجهين إلى الله دونه ما تأثر من جهتهم قط ولا حمل هما .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد يقول : وعزة ربى لو كان أهل مصر كلهم عيالى ماطرقنى هم أبدا لعلمى بأن القسمة وقعت فى الأزل فلا زيادة ولا نقص ، ولا يقدر أحد يأكل لقمة قسمت لغيره وتعويق الرزق عن العبد إنما هو تأديب له أو اختبار أو رفع درجته اه .

قلت : وقد من الله تعالى علينا بذلك فلو كان جميع من فى الأرض كلهم عيالى ما اهتممت لهم إلا من جهة توجههم إلى وقصور بصرهم علىّ أو لكونهم لايستحقون ماطلبوه منى لتركهم الصلاة وتعديهم الحدود ونحو ذلك فالحمد لله رب العالمين .

ولا تصل ياأخى إلى العمل بهذا العهد إلا بالسلوك على يد شيخ مرشد يوصلك إلى شهود ما ذكرناه ، وإلا فمن لازمك الاهتمام بالرزق وترادف الأوهام المكدرة عليك حتى لاتكاد ترجع إلى شهود أن الله تعالى فرغ من قسمة الرزق إلا بعد تأمل وتفكر ،

وهناك تعلم أن إيمانك مدة الاهتمام بالرزق ناقص وأنه يجب عليك تجديد إيمانك كلما حصل عندك اهتمام بالرزق، ولو أنك سلكت الطريق لم يطرقك اتهام لله تعالى ولا اهتمام بما وعد الله بحصوله لك أو لغيرك ، ولا منعت زوجتك من الصدقة فى ليل أو نهار إلا لعذر شرعى .

فاسلك ياأخى على يد شيخ يخرجك من ظلمات الاتهام والأوهام، والله يتولى هداك: (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) . .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ وَلِزَوْجِهَا بِمَا اكْتَسَبَ وَلِلْخَازِنِ مِثْلَ ذَلِكَ لاَ يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَجْرِ بَعْضٍ شَيْئًا » .

وفى رواية : « إِذَا تَصَدَّقَتْ » بدل أنفقت .

وروى أبو داود أن أبا هريرة: سئل عن تصدق المرأة من بيت زوجها قال لا إلا من قوتها، والأجر بينهما ، ولا يحل لها أن تتصدق من مال زوجها إلا بإذنه ، فزاد الحافظ رزين العبدرى فى جامعه : فإن أذن لها فالأجر بينهما ، فإن فعلت بغير إذنه فالأجر له والإثم عليها .

وروى أبوداود والنسائى مرفوعا: «لاَ يَجُوزُ لِاْمْرَأَةٍ قَطُّ عَطِيَّةٌ إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا» .

وروى الشيخان وغيرهما عن أسماء بنت أبى بكر قالت: يارسول الله مالى مال إلا ما أدخل به على الزبير أفاتصدق ؟ فقال :

« تَصَدَّقِي وَلاَ تُوعِي فَيُوعِي اللهُ عَلَيْكِ » .

وفى رواية لهما أنه صلى الله عليه وسلم قال لها :

« ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ وَلاَ تُوعِي فَيُوعِي اللهُ عَلَيْكِ » .

وروى الترمذى بإسناد حسن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة عام حجة الوداع :

« لاَ تُنْفِقُ امْرَأَةٌ شَيْئًا مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَلاَ الطَّعَامَ ؛ قَالَ ذَلِكَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أن نطعم الطعام لكل من ورد علينا ، ونسقى الماء كذلك ولا نتوقف على استحقاقه لذلك إلا بطريق شرعى تخلقا بأخلاق الله عز وجل ، فإنه يرزق البر والفاجر ، وممن أدركناه على هذا القدم الشيخ محمد بن عنان والشيخ يوسف الحريثى ، والشيخ عبدالحليم بن مصلح ، والشيخ أبو الحسن الغمرى ، والشيخ محمدالشناوى الأحمدى رضى الله عنهم ، فكان طعامهم وشرابهم لكل وارد ، وكان الشيخ يوسف الحريثى إذا لم يحضر عنده طعام لايدع الضيف يخرج من عنده حتى يسقيه الماء .

وقد قدمنا أن السخاء هو خلق الله الأعظم ، ويحتاج من يعمل بهذا العهد إلى شيخ يخرجه من ظلمات البخل إلى حضرة الكرم ، ويخرجه من الآفات التى تطرق الكريم من شهود فضله على الناس الذين يطعمهم وحب المدحة على ذلك فى المدائن وقراها ، فقل كريم فى هذا الزمان أن يخلص من هذه الورطة ، بل غالب الكرام وجلوا فى حب المدح بالكرم وحب تفضيلهم على أقرانهم بذلك .

فاسلك يا أخى الطريق على يد شيخ ، وإلا فمن لازمك الآفات وذلك لتطعم لله وتمنع لله وترى على الكشف والشهود أن جميع ما أنت فيه من النعم هو كله لله تعالى جعله الله تعالى لعباده على يديك ، ليس لك تعمل فى تحصيله ، إنما أنت خازن استأمنك الملك على أرزاق عباده ، فلوسجدت لله على الجمر أبد الآبدين ما أديت شكر ذلك ، وقد عم غالب الفقراء فى هذا الزمان العلل فى أعمالهم وأخلاقهم لقلة من يربيهم أو لقلة سماعهم لمن يربيهم ، فصار المطعم يطعم لعلة والمانع يمنع لعلة ، وصار من لايطعم الناس يحسد من يطعم الناس ، ويود أن الله تعالى يحول من ذلك الكريم النعمة . وبعضهم يقول : هو يطعم الناس من عنده إنما المنة لله تعالى فى ذلك كل ذلك يقصد أن يطفىء نور أخيه بين الناس حسدا وبغيا ، ولو أنهم فطموا على يد شيخ لحفظهم الله تعالى من تلك الآفات .

واعلم يا أخى أن من شأن البشر الملل ممن يحتاج إليه ، فمن الأدب أن لايطعم العبد الناس إلا ما سمحت به النفس من غير كلفة ، ومن تكلف سوف يهرب ، فحرر النية يا أخى وأطعم الطعام ، واسق الماء من البحر أو من الصهاريج أو من الآبار حسب الطاقة .

وممن رأيته تحقق بهذا المقام سيدى على الخواص ، وكان أكثر ملئه الماء لقماوى الكلاب وحيضان بيوت الخلاء .

وممن رأيته تبعه على ذلك وزاد عليه أخى العبد الصالح الشيخ أحمد الهنيدى المقيم بناحية منبوبة تجاه بولاق بمصر المحروسة لا يمل من حفر الآبار وسقى الماء وحمله إلى الأسقية ، تارة يحمله فى يديه وتارة على حمارته رضى الله عنه ، وكان على هذا القدم جدى الشيخ نور الدين الشعراوى كان وظيفته فى كل يوم يملأ سبيل الجامع وسبيل الزاوية وسبيلا آخر فى وسط البرية ، يقوم لذلك من الليل فيملؤها قبل الفجر ثم يملأ المطهرة وحيضان بيوت الخلاء كذلك قبل الفجر رضى الله تعالى عنه :

و « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » .

وفائدة ذكرنا مناقب الرجال إنما هى ليتنبه الفقير لتخلفه عن مقامات الرجال ، فيعرف نقص نفسه عن العمل بأخلاقهم ولا يقنع بلبس الصوف والجلوس على سجادة يخبط فى دين الله ، تارة بالرأى وتارة بالوهم ، وتارة يتكلم فى الله بما لا يليق بجلاله وعظمته ، حتى إنى سمعت بعضهم يقول : ما ثم موجود إلا الله فقلت له ، فأنت إيش؟ فقال كلاما والله لو كان معى شاهد آخر يشهد لذهبت به إلى حكام الشريعة يضربون عنقه ، ولم يكن هذا الأمر فى الأشياخ الذين أدركناهم إنما هو الزهد والورع واتباع السنة المحمدية رضى الله عنهم أجمعين .

فإياك أن تجالس من يتكلم فى الذات والصفات بغير ما صرحت به الشريعة أو تصغى لقوله ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) :

وروى الشيخان وغيرهما أن رجلا قال : يارسول الله أى الإسلام خير؟ قال :

« تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرِى السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة قال :

« أَطْعِمِ الطَّعَامَ وَأَفْشِ السَّلَامَ وَصِلِ الْأَرْحَامَ وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « خِيَارُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ » .

وروى الحاكم والبيهقى مرفوعا: «مِنْ مُوجِبَاتِ الرَّحْمَةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ الْمِسْكِينِ».

وفى رواية: «مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ السَّغْبَانَ» يعنى الجائع.

وروى الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى، وقال الحاكم صحيح الإسناد مرفوعا:

«مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ حَتَّى يُشْبِعَهُ، وَسَقَاهُ حَتَّى يُرْوِيَهُ، بَاعَدَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ سَبْعَ خَنَادِقَ، مَا بَيْنَ كُلِّ خَنْدَقَيْنِ مَسِيرَةُ خَمسمائَةِ عَامٍ».

وروى البيهقى وغيره مرفوعا: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تُشْبِعَ كَبِدًا جَائِعًا».

وروى ابن أبى الدنيا وغيره مرفوعا موقوفا عن ابن مسعود والوقف أشبه قاله الحافظ المنذرى:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْرَى مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَجْوَعَ مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَظْمَأَ مَا كَانُوا قَطُّ، فَمَنْ كَسَى لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَسَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَطْعَمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَطْعَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ سَقَى لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَقَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

وروى أبو الشيخ مرفوعا: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِالَّذِينَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ مِنْ عَبِيدِهِ».

وروى الطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رجل، فقال: ما عمل إن عملته دخلت الجنة؟ فقال:

«أَنْتَ بِبَلَدٍ تَجْلُبُ الْمَاءَ قَالَ نَعَمْ؟ قَالَ فَاشْتَرِ بِهَا سِقَاءً جَدِيدًا ثُمَّ اسْقِ فِيهَا حَتَّى تَخْرِقَهَا، فَإِنَّكَ إِنْ تَخْرِقْهَا تَبْلُغْ بِهَا عَمَلَ الْجَنَّةِ».

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات مشهورون، أن رجلا قال: يارسول الله إنى أفرغ فى حوض حتى إذا ملأته لإبلى ورد علىّ البعير لغيرى فسقيته، فهل لى فى ذلك من أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّا أَجْرٌ».

وروى الشيخان مرفوعا: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ، فَوَجَدَ بِئْرًا وَنَزَلَ فِيهَا وَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ

فقال : لَقَدْ بَلَغَ هٰذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِى كانَ بَلَغَ مِنِّى ؟ فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاء ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِىَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » .

وفى رواية : « فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وروى أبو داود واللفظ له وابن ماجه وغيرها أن سعد بن عبادة قال :

« يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أُمِّى مَاتَتْ فَأَىُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ الْمَاء » .

فحفر بئرا وقال هذه لأم سعد :

وفى رواية للطبرانى فقال : « عَلَيْكَ بِالْمَاءِ » .

وروى البخارى فى تاريخه وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ حَفَرَ بِئْرَ مَاء لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ ذُو كَبِدٍ حَرَّاء مِنْ جِنٍّ وَلاَ إِنْسٍ وَلاَ طَائِرٍ إِلاَّ أَجَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ سَقَى مُسْلِمًا شَرْبَةً مِنْ مَاء حَيْثُ يُوجَدُ الْمَاء ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً ، وَمَنْ سَقَى مُسْلِمًا شَرْبَةَ مَاء حَيْثُ لاَ يُوجَدُ الْمَاء فَكَأَنَّمَا أَحْيَاهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نشكر كل من أسدى إلينا معروفا ونكافئه على ذلك ولو بالدعاء أدبا مع الشارع فى أمره لنا بذلك ، وقد كثرت الخيانة لهذا العهد من غالب الناس ، حتى صرت تربى اليتيم إلى أن يصير له أولاد ولا يتذكر لك نعمة ولا يحفظ معك أدبا ، وصار من وقع له ذلك يحذر من يريد يفعل مثله مع الناس ، فبتقدير أن المنعم من أولياء الله تعالى لا يلتفت إلى شكره ، فالمنعم عليه لا يستحق ذلك كما سيأتى ، والكمل على الأخلاق الإلهية ، والله عز وجل يحول النعم حين تكفر .

فاشكر يا أخى من أسدى إليك معروفا لكن من غير وقوف معه ، فتراه كالقناة الجارى لنا منها الماء أو كالأجير الذى يغرف لنا من طعام رجل غيره بأجرة جعلها له .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ مرشد حتى يصل به إلى حضرة الإحسان ويرى الأمور كلها لله تعالى كشفا وشهودا ، ويصير يرى النعم من الله

تعالى ببادئ الرأى ولا يضيفها إلى الخلق إلا بعد تأمل وتفكر، عكس من لم يسلك الطريق، فإنه لايكاد يشهد النعمة من الله تعالى إلا بعد تفكر وتأمل .

فاسلك يا أخى الطريق لتفوز بالأدب مع الله تعالى ومع خلقه كما أمرك، فقال تعالى :

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

وقد قرن الله تعالى السعادة بشهود الأمور كلها من الله ، وقرن الشر بشهودها من الخلق، ومقام الكمال فى السعادة شهود الأمور كلها ببادئ الرأى من الله خلقا وإيجادا، ومن العبد نسبة وإسنادا لأجل إقامة الحدود وكأن لسان الحق تعالى يقول : من قتل نفسا بغير حق فاقتلوه ، ولو شهدتم أنى قدرت عليه ذلك أوأنى أنا الفاعل ، كما قال :

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) .

فلا يسعنا إلا امتثال الأمر، وكذلك الحكم فى الزنا وشرب الخمر ونحوها، فكأنه قال تعالى: من ظهر من جوارحه كذا فافعلوا به كذا ، فنقول سمعا وطاعة ، وأكثر الناس عمى عن تحقيق هذه المسألة فإما يضيفونها إلى الله تعالى فقط أو إلى الخلق فقط ، لكن من يضيفها إلى الله وحده أكبر أدباً ممن يضيفها إلى الخلق وحدهم غافلا عن الله تعالى .

وقد رأيت شخصا من خطبا الجامع الأزهر رسم له السلطان سليم بن عثمان مائة دينار لما صلى الجمعة فى الجامع الأزهر وكانت نوبته تلك الجمعة ، فجاءه رفيقه ومنعه عن الخطبة ذلك اليوم لأجل المائة دينار ، فصار الخطيب الممنوع يحط على المانع وصرت أقول له : إن الله تعالى لم يقسم لك شيئا ، فيقول : هذا قد تسبب فى قطع رزقى، فقلت له : ولو تسبب فليس هو بقاطع إنما هو آلة للقدرة الإلهية والحكم لمن حرك الآلة، فحكمك حكم من ضرب بعصا فصار يسب العصا، أو غرف له طعام بمغرفة فصار يمدح المغرفة ويشكرها بين الناس وينسى الفاعل بتلك الآلة ، فهذا حكمه على حد سواء عند أهل التحقيق ، ولا يخفى ما فى ذلك من قلة العقل .

ثم قلت له : أين قولك فى الخطبة كل جمعة : والله ثم والله لايعطى ويمنع ويضع ويرفع إلا الله ؟ فقال قطعتنى بالحجة ، ولو أن هذا سلك الطريق وبنى أمره على التوحيد الكامل ما توقف فى ذلك ولا احتاج إلى مجاهد ولاعادى أحدا عارضه فى طريق وصوله إلى رزقه ، بل كان يرى كل شىء عورض فيه أن الله تعالى لم يقسمه له فلا يتعب نفسه .

فاعلم ذلك واسلك طريق القوم إن أردت العمل بهذا العهد على وجه الكمال لتكون من أهل السنة والجماعة، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ).

واعلم أن كفران النعم للوسائط مما يحولها ، وإذا حولت فلا يقدر من كفرت نعمته أن تجرى لك نعمة على يديه :

(سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

لأن كفران النعمة يقطع طريقها ، فبتقدير أن من كفرت نعمته لايؤاخذك ، فأنت لا تستحق تلك النعمة فلا بد من وجود صفة الاستحقاق فى المنعم عليه ، وعدم كفرانه نعمة من كان واسطة فيها من زوج ووالد وسيد ونحوهم ، وقد كثر كفران النعم فى هذا الزمان من الزوجة والأولاد والأرقاء والمريدين ، وبذلك تعسرت عليهم الأرزاق ، وكلما تأخر الزمان زاد على الناس الأمر فى تعسير الأرزاق وفى تحويلها عنهم بالكلية، لقلة الشكر بالعمل من قيام الليل وغيره حتى تتورم منهم الأقدام،فإن الشكر بالقول مابقى يكفى لغالب النعم فى هذا الزمان لكون الموازين قد أقيمت فيه على الناس لقرب الساعة ، وما قارب الشيء أعطى حكمه ولقلة الإخلاص فى القول ، وقد قال تعالى فى حق آل داود :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) .

ولم يقل قولوا آل داود شكرا ، وهـذه الأمة المحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل لأنهم أعظم نعمة بنبيهم وشريعتهم، فليتنبه من كان غافلا عن ذلك ليدوم الماء فى مجاريه .

وقد كان الشيخ عصيفير المجذوب المدفون بخط بين السورين بمصر، كلما رأى حوضا مملوءا للبهائم يفتح بالوعته فيسيح على الأرض ويقول الذى يملؤه أنت أعمى القلب ، فإن أهل هذا الزمان صاروا لايستحقون رحمة ولا نعمة لكثرة عصيانهم ومخالفتهم ، فقال ياسيدى : إنما هذا للبهائم فقال إنها تحملهم إلى مواضع المعاصى اهـ فكان يتكلم على لسان أحوال الزمان بلسان الحقيقة دون لسان الشريعة لكونه مجذوبا ، وكان مراده مما قاله تنبيه الناس إلى المشى على طريق الاستقامة لتدوم عليهم النعم ، وإلا فالخلق لايستحقون على الله تعالى شيئا مطلقا ، وإنما جميع نعمه عليهم من باب الفضل والمنة ، والله تعالى أعلم .

وروى أبو داود والنسائى واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما مرفوعا :

« مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » .

وفى رواية الطبرانى : « حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ شَكَرْتُمُوهُ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَاكِرٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ » .

وروى الترمذى وأبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ » .

وفى رواية للترمذى مرفوعا وقال حديث حسن :

« مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ » .

وفى رواية له : « مَنْ أُسْدِيَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِلَّذِي أَسْدَاهُ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات والطبرانى مرفوعا :

« إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ لِلهِ تَعَالَى أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ » .

وفى رواية لأبى داود والترمذى وقال حديث صحيح :

« لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ » .

قال الحافظ المنذرى : روى هذا الحديث برفع الله وبرفع الناس ، وروى أيضا بنصبهما وبرفع الله وبنصب الناس وعكسه ، أربع روايات .

وروى الطبرانى وابن أبى الدنيا مرفوعا :

« مَنْ أُولِيَ مَعْرُوفًا فَلْيَذْكُرْهُ ، فَمَنْ ذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » .

وروى ابن أبي الدنيا وغيره مرفوعا بإسناد لابأس به :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لاَ يَشْكُرُ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللهَ وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ » .

وروى أبو داود والنسائى واللفظ له : « قَالَ الْمُهَاجِرُونَ يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الْأَنْصَارُ بِالْأَجْرِ كُلِّهِ ؟ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَحْسَنَ بَذْلاً لِلْكَثِيرِ ، وَلاَ مُوَاسَاةً فِي الْقَلِيلِ مِنْهُمْ ، وَلَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ ، قَالَ أَلَيْسَ تُثْنُونَ عَلَيْهِمْ بِهِ وَتَدْعُونَ لَهُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالَ : فَذَاكَ بِذَاكَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن يكون معظم محبتنا للصوم من حيث كون الله تعالى قال : « الصوم لى » لامن حيثية أخرى كطلب ثواب أو تكفير خطيئة ونحو ذلك ، فإن من عمل لله تعالى كفاه هم الدنيا والآخرة وأعطاه مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فضلا عن الثواب وتكفير الخطايا ، وغيرها من الأغراض النفسانية فى الدنيا والآخرة ، ولم يبلغنا عن الله تعالى أنه قال فى شيء من العبادات إنه له خالصا إلا الصوم ، فلولا مزيد خصوصية ما أضافه إليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : معنى قوله تعالى « الصوم لى » يعنى من حيث إنه صفة صمدانية ليس فيه أكل ولا شرب ولذلك أمر الصائم أن لا يرفث ولا يفسق ، ولا يقول الهجر من الكلام أدبا مع الصفة الصمدانية التى تلبس بنظير اسمها اه .

وقال سفيان بن عيينة فى معنى قوله تعالى :

(كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ) .

قال : إذا كان يوم القيامة يحاسب الله تعالى عبده ويؤدى ماعليه من المظالم من سائر عمله ، حتى لايبقى إلا الصوم فيحمل الله تعالى مابقى عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنة اه وهو كلام غريب .

ومن فوائد الصوم أنه يسد مجارى الشيطان من بدن الصائم ويصير عليه كالجنة فلا يجد الشيطان من بدنه مسلكا يدخل إلى قلبه منه من العام إلى العام ، ومن الاثنين إلى الخميس

أو من الخميس إلى الاثنين ، أو من الأيام البيض إلى الأيام البيض ، أو من الشهر الحرام إلى الشهر الحرام ، أو من عاشوراء إلى عاشوراء ، أومن يوم عرفة إلى يوم عرفة ، كل صوم يكون جنة منه إلى نظيره من الصوم الذى بعده كل جنس بما يقابله ، فللاثنين دائرة وللخميس دائرة، ولأيام الليالى البيض دائرة، وللشهر الحرام إلى مثله دائرة، وليوم عرفة إلى مثله دائرة ، وليوم عاشوراء إلى مثله دائرة ، ولكل دائرة حفظ من أمور خاصة ، بها فلا يصل إبليس إلى العبد ليوسوس له بها كنظيره من الصلاة والزكاة والحج والوضوء والركوع والسجود ، فكل منهما ذنوب تكفر بها ، فلا يكفر عمل مايكفر غيره من الأعمال ، ويؤيد ماقلناه خبر مسلم مرفوعا :

« الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ » .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كان صوم رمضان شهرا كاملا إما تسعا وعشرين أو ثلاثين ، لأن أصل مشروعيته كان كفارة للأكلة التى أكلها آدم عليه السلام من الشجرة ، فأمره الله تعالى بصومه كفارة لها .

وقد ورد أنها مكثت فى بطنه شهرا حتى ذهبت فضلاتها ، وورد :

« الشَّهْرُ يَكُونُ ثَلَاثِينَ وَيَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ » فافهم .

واعلم أن فائدة الصوم لاتحصل إلا بالجوع الزائد على الجوع الواقع عادة فى غير رمضان فمن لم يزد فى الجوع فى رمضان فحكمه كحكم المفطر ، سواء فى عدم سد مجارى الشيطان لاسيما إن تنوع فى المآكل والمشارب وأنواع الفواكه وتعشى عشاء زائدا عن الحاجة ، ثم تعمم بالكنافة أو الحلاوة أو الجبن المقلى ثم تسحر آخر الليل كذلك ، فإن مثل هذا ينفتح من بدنه للشيطان مواضع زائدة عن أيام الإفطار فتكثر مجارى الشيطان التى يدخل منها إلى هلاكه فى مثل هذا الشهر العظيم ، الذى فيه ليلة القدر خير من ألف شهر ، وهى مدة أعمار الناس الغالبة وهى ثلاث وثمانون سنة ، فلو وزنت عبادة العبد طول هذا العمر مع أعماله فى ليلة القدر لكانت ليلة القدر أرجح من سائر أعماله الخالصة الدائمة التى لايتخللها فتور فكيف بالأعمال التى دخلها الرياء وتخللها معاص وسيئات وغفلات وشهوات .

ومن نظر بعين البصيرة وجد جميع صوم الأيام التى قبل ليلة القدر كالاستعداد والتطهير

للقلب حتى يتأهل لرؤية ربه عز وجل فى تلك الليلة وأظن غالب كبراء الزمان فضلا عن غيرهم غارقين فيما ذكرناه فيمضى عليهم شهر رمضان ، وقد زاد قلبهم ظلمة بأكل الشهوات والنوم .

وقد كان المؤمن فى الزمن الماضى لايخرج من صوم رمضان إلا وهو يكاشف الناس بما فى سرائرهم لشدة الصفاء الذى حصل عنده من توالى الطاعات وعدم المخالفات .

وسمعت الشيخ إبراهيم عصفورا المجذوب رضى الله تعالى عنه يقول : والله إن صوم هؤلاء المسلمين باطل لأكلهم عند الإفطار اللحم والحلاوات والشهوات ، وماعندى صوم إلا صوم القوم الذين يفطرون على زيت أو خل ونحو ذلك ، وكان الناس لايهتدون لمعانى إشاراته لكونه مجذوبا وكنت أنا أفهم معانى كلامه وإشاراته وتوبيخاته كأنه يقول المسلمون لاينبغى لهم فى رمضان إلا الجوع الشديد :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : من أدب المؤمن إذا أفطر عنده الصائمون أن لايشبعهم الشبع العادى وإنما يشبعهم شبع السنة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ » .

قال أهل اللغة : واللقيمات جمع لقمة من الثلاث إلى التسعة ، فمتى أخرج الإنسان لمن أفطر عنده أكثر من تسع لقيمات فقد أساء فى حقه ، ولايبقى له أجر إفطاره بما حصل له من تعدى السنة اهـ ، وهذا الأمر لايفعله إلا من خرج عن حكم الطبع ومعاملة المخلوقين إلى فضاء الشريعة ، ومعاملة الله وحده حتى صار يشفق على دين أخيه المسلم أكثر مما يشفق هو على نفسه ، وعلامات خروجك من حكم الطبع أن لاتتأثر من ذمه فيك بين الأعداء إن لم تشبعه ، لأن حكم من يتعدى السنة مع العارف كحكم الطفل على حد سواء والطفل لايجاب إلى كل ما اشتهت نفسه :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يخرج للصائمين أقل من عادتهم فى الإفطار فاشتكوا النقيب له فقال إن شكوتم منه فى الدنيا فسوف تشكرونه فى الآخرة.

ومن وصية سيدى على الخواص رحمه الله : إياك أن تخرج للضيف فى رمضان كشيخ العرب أو غيره فوق رغيف خوفا أن يتكدر منك إن لم تشبعه ، فإنه لو كشف له عن صنيعك معه لقبل رجليك ، وقال جزاك الله عنى خيرا الذى لم تعط نفسى الخبيثة حظها من شهواتها ، وسعيت فى كمال صومها .

فاسلك يا أخى على يدشيخ حتى يخرجك عن حكم الطبيعة وتصير تعامل الخلق بالرحمة والشفقة ، وإلافن لازمك الخوف من عتاب المخلوقين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أولياء الله أشفق على العباد من أنفسهم لأنهم يمنعونهم من الشهوات التى تنقص مقامهم وهم لايفعلون بأنفسهم ذلك أبدا ماأمكنهم وراثة محمدية اه .

فاعلم ذلك واعمل به، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الشيخان وغيرهما واللفظ للبخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : كُلُّ عَمَلِ ابْنَ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا صَامَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ وَإِذَا لَقِىَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » .

وفى رواية لمسلم : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى » .

وفى رواية لمالك وأبى داود والترمذى :

« وَإِذَا لَقِىَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَجَزَاهُ فَرِحَ » الحديث .

قلت : وإنما كان الصائم يفرح بهذين الشيئين لأن الإنسان مركب من جسم وروح فغذاء الجسم الطعام وغذاء الروح لقاء الله والله أعلم .

قال الحافظ : ومعنى قوله « الصيام جنة » بضم الجيم هو مايجن العبد ويستره ويقيه مما يخاف ، قال : ومعنى الحديث : إن الصوم يستر صاحبه ويحفظه من الوقوع فى المعاصى .

والرفث يطلق ويراد به الجماع ويطلق ويراد به الفحش، ويطلق ويراد به خطاب الرجل للمرأة فيما يتعلق بالجماع .

وقال كثير من العلماء: المراد به فى هذا الحديث الفحش ورديء الكلام. والخلوف: بفتح الخاء وضم اللام هو تغير رائحة الفم من الصوم .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « الصِّيَامُ لِلّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَعْلَمُ ثَوَابَ عَامِلِهِ إِلاَّ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا : « صُومُوا تَصِحُّوا » .

وروى الإمام أحمد باسناد جيد والبيهقى مرفوعا :

« الصِّيَامُ جُنَّةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية لابن خزيمة فى صحيحه :

« الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى والحاكم ورواتهم محتج بهم فى الصحيح مرفوعا :

« الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَيَقُولُ الصِّيَامُ : أَىْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالشَّهْوَةَ فَشَفِّعْنِى فِيهِ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ : مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ قَالَ فَيَشْفَعَانِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ » .

وروى البيهقى مرفوعا : « إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً لاَ تُرَدُّ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« ثَلاَثٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ » الحديث .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْماً فِى سَبِيلِ اللّٰهِ تَعَالَى إِلاَّ بَاعَدَ اللّٰهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً » .

قال الحافظ : قد ذهب طوائف من العلماء إلى أن هذا الحديث فى فضل الصوم

فى الجهاد وبوب على ذلك الترمذى وغيره ، وذهبت طائفة إلى أن كل صوم فى سبيل الله إذا كان خالصا لله تعالى والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن يكون معظم قصدنا من قيام رمضان وغيره امتثال أمر الله عز وجل والتلذذ بمناجاة الحق لا لطلب أجر أخروى ونحو ذلك هروبا من دناءة الهمة ، فإن من قام رمضان لأجل حصول الثواب فهو عبد الثواب لا عبد الله تعالى ، كما أشار إليه حديث :

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ » .

اللهم إلا أن يطلب العبد الثواب إظهار الفاقة ليميز ربه بالغنى المطلق ويتميز هو بالفقر المطلق ، فهذا لا حرج عليه ، لكن هذا لا يصح له إلا بعد رسوخه فى معرفة الله عز وجل بحيث يصير يجل الله تعالى أن يعبده خوفا من ناره أو رجاء لثوابه .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يدخله حضرة التوحيد فيرى أن الله تعالى هو الفاعل لكل ما برز فى الوجود وحده ، والعبد مظهر لظهور الأعمال إذ الأعمال أعراض وهى لا تظهر إلا فى جسم ، فلولا جوارح العبد ما ظهر له فعل فى الكون ولا كانت الحدود أقيمت على أحد ، فافهم .

ومن لم يسلك على يد شيخ فهو عبد الثواب حتى يموت لا يتخلص منه أبدا ، فهو كالأجير السوء الذى لا يعمل شيء حتى يقول لك قل لى إيش تعطينى قبل أن أتعب؟ فأين هو ممن تقول له افعل كذا وأنا أعطيك كذا وكذا ؟ فيقول والله ما قصدى إلا أن أكون من جملة عبيدك ، أو أن أكون تحت نظرك أو أن أكون فى خدمك لا غير ، أليس إذا اطلعت على صدقه أنك تقربه وتعطيه فوق ما كان يؤمل لشرف همته ، بخلاف من شارطك فإنه يثقل عليك وتعرف أنت بذلك خسة أصله وقلة مروءته ، ثم بعد ذلك تعطيه أجرته وتصرفه عن حضرتك ، وربما انصرف هو قبل أن تصرفه أنت لعدم رابطة المحبة التى بينك وبينه ، فما أقبل عليك إلا لأجرته ، فلما وصلت إليه ولى ونسيك ولا هكذا من يخدمك محبة فيك فاعلم ذلك .

وسمعت سيدى عليا الخواص إذا صلى نفلا يقول أصلى ركعتين من نعم الله على فى هذا الوقت ، فكان رضى الله عنه يرى نفس الركعتين من عين النعمة لا شكرا لنعمة أخرى فقلت له فى ذلك فقال ومن أين يكون لمثلى أن يقف بين يدى الله عز وجل والله إنى لأكاد

أذوب خجلا وحياء من الله لما أتعاطاه من سوء الأدب معه حال خطابه فى الصلاة ، فإن أمهات آداب خطابه تعالى مائة ألف أدب ، ما أظن أننى عملت منها بعشرة آداب ، فأنا إذا وقفت بين يديه فى صلاة أو غيرها من العبادات إلى العقوبة أقرب فكيف أطلب الثواب ؟

وسمعته مرة أخرى يقول : يجب على العبد أن يستقل عبادته فى جانب الربوبية ولو عبد ربه عبادة الثقلين بل ولو عبده هذه العبادة على الجمر من ابتداء الدنيا إلى انتهائها ما أدى شكر نعمة إذنه له بالوقوف بين يديه فى الصلاة لحظة واو غافلا ، وكذلك ينبغى له إذا قلت طاعاته أن يرى أن مثله لايستحق ذلك القليل ، ومن شهد هذا المشهد حفظ من العجب فى أعماله وحفظ من القنوط من رحمة الله تعالى اه .

وقال له مرة شخص ياسيدى ادع لى ، فقال ياولدى ماأتجرأ أسأل الله فى حاجة وحدى لالنفسى ولا لغيرى ، اصبر حتى نجتمع مع الناس فى صلاة العصر وندعو لك معهم فى غمارهم .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : والله إنى لأقوم أصلى بالليل فأرى نفسى بين يدى الله كالمجرم الذى قتل النفس وفعل سائر الفواحش وأتوا به إلى الوالى يتلفه ، وأرى الجميلة لله تعالى الذى أذن لى فى الوقوف بين يديه ولم يطردنى جملة واحدة كما طرد التاركين للصلاة .

وسمعته مرة أخرى يقول : من شرط الكامل فى الطريق أنه يكاد يذوب حياء من الله تعالى إذا تلا كلامه وإن كان الله تعالى قد أذن فى تلاوة كلامه للكبير والصغير ولكن من شرط العارف أن لايتلو كلامه إلا بالحضور معه تعالى ، لأن قراءة كلامه مناجاة له تعالى وكيف حال من يناجى رب الأرباب وهو غافل ، فوالله لو رفع الحجاب لذاب كل تال للقرآن كما أشار إليه قوله تعالى :

(إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) .

وقوله تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) اه .

وهذا أسرار يذوقها أهل الله تعالى لاتذكر إلا مشافهة لأهلها .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول أيضا : من شرط الفقير أن يرى نفسه كصاحب الكتبة من الحشيش واللواط والزنا وغير ذلك ، فإذا قال له شخص من المسلمين ادع لى يكاد يذوب حياء وخجلا لأن معاصيه مشهودة له على الدوام :

ورأيته مرة فى وليمة فقال له شخص من العلماء ، ادع الله لى فصار يعرق جبينه ولم يقدر ينطق من البكاء وقال لى ما كأن إلا قتلنى هذا .

ولما أراد التزوج عرض عليه الناس بناتهم فكان كل من خطبه لابنته يقول ياأخى بنتك خسارة فى مثلى فلم يرنفسه أهلا لواحدة يتزوجها، ثم قال لى : مارأيت يقارب شكلى ورذالتى إلا عرب الهيتم الذين يطوفون على أبواب الناس يأكلون الطعام الذى يصبه الناس على المزابل فى أفنية بيوتهم رضى الله عنه .

وقد قلت مرة لصاحب كتبة ادع لى فاستحى وعرق جبينه وقال ياسيدى لاتعد من فضلك تقول لى ذلك تؤذينى ، فإنى والله لما قلت لى ادع لى رأيت نفسى كيهودى قال له شيخ الإسلام ادع لى اه .

وكان سيدى أبو المواهب الشاذلى يقول حكم الملك القدوس أن لايدخل حضرته أحد من أهل النفس .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى يقول : لاتبرز ليلى لمن يطلب على الوقوف بين يديها عوضا منها وإنما تبرز لمن يرى الفضل والمنة لها التى أذنت له فى الوقوف بين يديها :

وكان يقول من كان الباعث له على حب القيام بين يدى الله تعالى فى الظلام لذته بمناجاته فهو فى حظ نفسه ما برح ، لأنه لولا الأنس الذى يجده فى مناجاته ما ترك فراشه وقام بين يديه ، فكأن هذا قام محبة فى سواه وهو لايحب من أحب سواه إلا بإذنه ، فإن الأنس الذى يجده فى قلبه سواه بيقين .

وكان يقول : ماأنس أحد بالله قط لعدم المجانسة بينه وبين عبده بوجه من الوجوه ، وماأنس من أنس إلا بما من الله تعالى من التقريب الإلهى ، لا بالله تعالى .

ومن هنا قامت الأكابر حتى تورمت منهم الأقدام لعدم اللذة التى يجدونها فى عباداتهم ، فإن اللذة تدفع الألم فلايتورم لهم أقدام ، فعلم أن عباداتهم لله تعالى محض تكليف لايدخلها اللذة ، ولو دخلها لذة لكانوا عبيدها وهم مطهرون مقدسون عن العبودية لغير الله تعالى اه .

فاسلك يا أخى الطريق على يد شيخ حتى يخرجك من العلل وتصير تأتى العبادات امتثالا لأمر ربك لاغير ولا تريد بذلك جزاء ولا شكورا .

وقدسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا وقع لأحدكم تقريب فى المواكب الإلهية فلا يقتصر على الدعاء فى حق نفسه فيكون دنىء الهمة وإنما يجعل معظم الدعاء لإخوانه المسلمين .

وقد من الله تعالى علىّ بذلك ليلة من الليالى لما حججت فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، فمكثت فى الحجر أدعو لإخوانى إلى قريب الصباح ، فأعطانى الله تعالى ببركة دعائى لهم نظير جميع مادعوته لهم بسهولة ، ولو أنى دعوت ذلك الدعاء لنفسى لربما لم يحصل لى ذلك ، فالحمد لله رب العالمين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا تقتصروا فى قيام رمضان على العشر الأواخر من رمضان ، بل قوموه كله واهجروا نساءكم فيه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، فإنى رأيت ليلة القدر فى ليلة السابع عشر منه قال : وقد أجمع أهل الكشف على أنها تدور فى ليالى رمضان وغيره ليحصل لجميع الليالى الشرف ، وبه قال بعض الأئمة أى إنها تدور فى جميع ليالى السنة فإذا تمت الدورة افتتحت دورة ثانية ، هكذا سمعته يقول : وظواهر الأدلة كلها يعطى تخصيصها بشهر رمضان وهو المعتمد فاعلم ذلك :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى النسائى والبيهقى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أَتَاكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ ، لِلّٰهِ تَعَالَى فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ » .

وفى رواية لمسلم : « فُتِحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ » .

وفى رواية لابن خزيمة وابن ماجه وغيرهما :

« إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ » .

وفى رواية لابن خزيمة : الشياطين مردة الجن بغير واو ، ومعنى صفدت : أى شدت بالأغلال .

قال الحليمى : وتصفيد الشياطين فى شهر رمضان يحتمل أن يكون المراد به أيامه خاصة ، وأراد الشياطين الذين يسترقون السمع ؛ ألا تراه قال مردة الشياطين لأن شهر رمضان كان وقتا لنزول الرحمة والقرآن إلى السماء الدنيا ، وكانت الحراسة قد وقعت بالشهب كما قال تعالى :

(وَحفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ) الآية .

فزيد التصفيد فى شهر رمضان مبالغة فى الحفظ ، والله تعالى أعلم .

قال : ويحتمل أن المراد أيامه ولياليه ويكون المعنى أن الشياطين لايخلصون فيه إلى إفساد الناس كما يخلصون فى غيره لاشتغال المسلمين بالصيام الذى فيه قمع الشهوات بقراءة القرآن وغيره من سائر العبادات اهـ .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن مرفوعا :

« إنَّ هٰذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَلاَ يُحْرَمُ خَيْرَهَا إلاَّ مَحْرُومٌ » .

وروى أبو الشيخ والبيهقى بإسناد فيه ضعف مرفوعا :

« يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي رَمَضَانَ : يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ » الحديث .

وروى البزار وغيره مرفوعا : « إنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » .

وروى البيهقى وقال الحافظ المنذرى حديث حسن مرفوعا :

« يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ - يعنى من شهر رمضان - إلَى انْفِجَارِ الْفَجْرِ ، يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ تَمِّمْ وَأَبْشِرْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وَأَبْصِرْ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرَ لَهُ ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ يُتَابَ عَلَيْهِ ، هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابَ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلَهُ » الحديث .

وروى النسائى مرفوعا : « إنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَيْكُمْ صِيَامَ رَمَضَانَ ، وَسَنَنْتُ

لَكُمْ قِيَامَهُ ، فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وذكر مالك فى الموطأ قال : سمعت من أثق به من أهل العلم يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الأمم قبله ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذى بلغ غيرهم فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ » .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة : « مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَوَافَقَهَا أُرَاهُ قَالَ : إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وروى الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الصامت قال : قلنا يا رسول الله أخبرنا عن ليلة القدر قال :

هِيَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ، أَوْ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ أَوْ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، أَوْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ ، أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتبع صوم رمضان بصوم ستة أيام من شوال تطهيرا لما عساه تدنس من غفلات يوم العيد ، بأكل الشهوات التى كانت النفس محبوسة عن تناولها مدة صوم رمضان فربما أقبلت النفس بهمتها على أكل الشهوات فى يوم العيد ، وحصل لها فيه من الغفلة والحجاب أكثر مما كان يحصل لها لو تعاطت جميع الشهوات التى تركتها فى رمضان ، فكانت هذه الستة كأنها جوابر لما نقص من الآداب والخلل فى صومنا لفرض رمضان كالسنن التابعة للفرائض أو كسجود السهو .

ومن هنا قال سيدى على الخواص : ينبغى الحضور والأدب فى صوم هذه الستة أيام كما فى رمضان بل أشد لأنها جوابر ، وإذا حصل النقص فى الجوابر لم يحصل بها المقصود ، فيتسلسل الأمر فيحتاج كل جابر إلى جابر قال : ونظير ذلك تخصيص الشارع الجبر لخلل الصلاة بالسجود

دون القيام والركوع وغيرهما ، لما ورد أنها حالة أقرب ما يكون العبد فيها مع ربه عز وجل فلا يقدر إبليس يدخل لقلب العبد فيها حتى يوسوس له ، ولو جعل الجابر غير السجود لربما كان يوسوس للعبد فيه فيحتاج الجابر لجابر آخر وإنما استحب بعض العلماء صومها متوالية غير متفرقة فى الشهر لأن التوالى أقرب فى جلاء الباطن من المتفرق ولذلك سن الأشياخ الخلوة على التوالى من ثلاثة أيام إلى أربعين يوما إلى أكثر من ذلك حسب القسمة الإلهية لتتوالى جمعية قلوبهم بالحق تعالى ، كما يشهد لذلك حديث البخارى وغيره فى تحنثه صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بغار حراء .

ومن هنا أمر الأشياخ مريديهم فى حال الخلوة بالجوع وترك اللغو وتوالى الذكر وعدم النوم ، وذلك لتتراكم الأنوار وتتقوى فينهزم جيش الشياطين ، ويكون حزب الله هم الغالبون .

وإيضاح ذلك أنه إذا تخلل الخلوة غفلة أو شبع أو لغو أو نوم فإن الظلمة تغلب على تلك الأنوار المتفرقة لكون الظلمة هى الأصل ، إذا الطين هو الغالب فى نشأة البشر على النور ، فما لم يكن عسكر النور أقوى لم يخرج الإنسان عن الظلمة والكثافة ، فقد بان لك حكمة صوم الستة أيام المذكورة ، وحكمة صومها على التوالى والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيره مرفوعا :

« مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالَ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ » .

وزاد الطبرانى « فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ كُلُّ يَوْمٍ بِعَشَرَةٍ يا رَسُولَ اللهِ ؟ فقَالَ : نَعَمْ » قال الحافظ المنذرى ورواة الطبرانى رواة الصحيح .

وفى رواية لابن ماجه والنسائى مرفوعا :

« مَنْ صَامَ سِتَّةَ أَيَّامٍ بَعْدَ الفِطْرِ كَانَ كَصِيَامِ السَّنَةِ ، مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « فَشَهْرُ رَمَضَانَ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ ، وَصِيَامُ سِتَّةٍ بِشَهْرَيْنِ ، فَذَلِكَ صِيَامُ سَنَةٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا قال الحافظ المنذرى فى إسناده نظر :

« مَنْ صَامَ سِتَّةَ أَيَّامٍ بَعْدَ الفِطْرِ مُتَتَابِعَةً فَكَأَنَّمَا صَامَ السَّنَةَ كُلَّهَا » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالَ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصوم يوم عرفة ولانترك صومه إلا لعذر شرعى ، كأن نكون بعرفات أوبنا مرض يشق معه الصوم ونحو ذلك . والحكمة فى كراهة صومه للحاج أنه يوم تحط فيه الخطايا فيتأثر البدن ويضعف لقهره مع كمال تعشقه لجميع أهويته المكروهة ، لأنها لا تخرج إلا بجذب من البدن كدم الحجامة ، فيحصل للبدن فتور وانحلال فلا يضاف إليه الجوع المقوى للانحلال ، فكما يكره للصائم الحجامة كذلك يكره لمن وقف بعرفة الصوم وهذا من رحمة الله تعالى بعباده لأن النهى عن صومه للحاج إنما هو نهى شفقة عليه فمن خالف وصام وأظهر القوة فلا بد من إخلاله بالأعمال من وجه آخر كما جرب ، هذا ماظهر لى من الحكمة فى هذا الوقت وهنا أسرار يعرفها أهل الله لاتسطر فى كتاب .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم واللفظ له وأبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ » .

وفى رواية للترمذى مرفوعا : « صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّى أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « مَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَةَ غُفِرَ لَهُ سَنَةٌ أَمَامَهُ وَسَنَةٌ بَعْدَهُ » .

زاد فى رواية الطبرانى بإسناد حسن :

« وَمَنْ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَنَةٍ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى عن مسروق ، أنه دخل على عائشة رضى الله عنها فى يوم عرفة فقال اسقونى ، فقالت عائشة ياغلام اسقه عسلا ، ثم قالت : وما أنت

يامسروق بصائم ؟ قال لأنى أخاف أن يكون يوم الأضحى ، فقالت عائشة ليس ذاك إنما عرفة يوم يعرف الإمام ، ويوم النحر يوم ينحر الإمام ، أو ماسمعت يامسروق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدله بألف يوم؟ قلت، والألف يوم أكثر من سنتين.

وروى أبو داود والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة .

وكان ابن عمر يقول : لم يصم النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة بعرفة ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان وأنا لا أصومه ، وكان مالك والثورى يختاران الفطر، وكان ابن الزبير وعائشة يصومان يوم عرفة . وروى ذلك عن عثمان بن أبى العاص ، وكان إسحق يميل إلى الصوم ، وكان عطاء يقول أصوم فى الشتاء ولا أصوم فى الصيف، وكان قتادة يقول لا بأس به إذا لم يضعف عن الدعاء .

وقال الإمام الشافعى : يستحب صوم يوم عرفة لغير الحاج، فأما الحاج فالأحب إلى أنه يفطر ليقويه على الدعاء . وقال الإمام أحمد بن حنبل إن قدر على أن يصوم صام وإن أفطر فذلك يوم يحتاج فيه إلى القوة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصوم يوم عاشوراء ونوسع فيه على عيالنا بالطعام والكسوة وغير ذلك من كل ما هم محتاجون إليه ، لكن بشرط أن يكون ذلك من وجه حل لا اعتراض للشريعة عليه فلا يؤمر من لم يجد المال الحلال أن يوسع على نفسه فضلا عن غيره ، فيكون للآكل المهنأة وعليه هو الإثم ، وقد أصبح عيال الفضيل بن عياض يوما وليس عندهم شيء يأكلونه فأرسل إليه الخليفة بخمسمائة دينار فردها ، فقال له العيال لو كنت أخذت منها نفقة يومنا ، فقال : ما مثلى ومثلكم إلا كبقرة شردت من أهلها فصار كل من قدر عليها يطعنها أو يذبحها ، ثم قطع قطيفة كانت تحته نصفين ، وقال بيعوا هذه وأنفقوا ثمنها فى هذا اليوم خير لكم من أن تطعنوا فضيلا أو تذبحوه ، فعلم أن من جملة الكسب الذى لا يؤمر العبد بالتوسعة على العيال منه معلوم الوظائف التى لا يباشرها بنفسه ولا بنائبه ، ومنه ما كان من هدايا التجار الذين يبيعون على الظلمة ، ومنه هدايا من يأخذ البلص من أركان الدولة ومشايخ العرب ، ومنه ماأرسله الناس إلى الشيخ اعتقادا فى صلاحه فليس له قبوله ولا التوسعة به على عياله ،

لأن أكل الرجل بدينه من أقبح الكسب ، ووالله إن أكل خبز الحنطة الآن من غير أدم توسعة عظيمة ، ولكن الناس لما تهوروا فى أكل الشهوات والشبهات ولم يفتشوا على الحل، صاروا لا يعدون التوسعة إلا بأكل ما فوق ذلك .

وسيأتى قريبا فى عيش النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل خبز الشعير غير منخول وما كان يسبغه إلا بجرعة من ماء ، فتورع يا أخى ولا تحتج بالعيال وعدم صبرهم فإن فى باب الإحسان إلى الأرقاء :

« أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَمَنْ لاَ يُلاَئِمُكُمْ فَبِيعُوهُ وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ » .

فكذلك القول فى الزوجة والأولاد ، ومن لا يلائمنا منهم نفارقه بالطلاق والفراق أو نخيره بين ذلك وبين الإقامة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسائه .

هذا ما عليه أهل الله تعالى فاسلك طريقهم ولا تلبس على نفسك :

وقد كان بشر الحافى يقول : لو أنى أجبت العيال إلى كل ما طلبوه منى لخفت أن أعمل شرطيا أو مكاسا ولا أكفيهم :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ » .

ولفظ رواية ابن ماجه مرفوعا : « صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ إِنِّى أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِى بَعْدَهُ » .

وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَنَةٍ » .

وروى البيهقى وغيره من طرق مرفوعا :

« مَنْ وَسَّعَ عَلَى عِيَالِهِ وَأَهْلِهِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ سَائِرَ سَنَتِهِ » .

قال البيهقى وهذه الأسانيد وإن كانت ضعيفة فهى إذا ضم بعضها إلى بعض أحدثت قوة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقوم ليلة النصف من شعبان ، ونصوم نهارها ونستعد لها بالجوع الشاق وقلة الكلام والصمت ، فإن من يشبع ليلتها وأكثر اللغو من الكلام والغفلة عن الله تعالى لايذوق لما فيها من الخيرات طعما ، ولو سهر فهو كالجماد الذي لا يحس بشيء ، وما حث الشارع العبد على الاستعداد لحضور المواكب الإلهية إلا ليشعر بما تمنحه فى تلك المواكب ، ويتلقى مايخصه من الإمداد بالأدب ، ومن لا يشعر بذلك فإنه خير كبير ، فعلم أنه يجب على كل مؤمن أن يتوب من جميع ما ورد فى الحديث أنه يمنع حصول المغفرة لصاحبه ليلة النصف من شعبان قبل دخول ليلة النصف كالمشاحن بغير عذر شرعى ، وكأخذ العشور من المكس وكالعقوق للوالدين ونحو ذلك ، فيجب السعى فى إزالة ما عندنا من الشحناء وما عند غيرنا منا فى حقنا ولو بإرسال كلام طيب أومدح بين الأقران ونحو ذلك ، كإهداء هدية وبذل ماله لننال الرحمة والمغفرة من الله تعالى فى تلك الليلة ولا نتهاون بالمبادرة فى إزالة الشحناء إلى ليلة النصف . فربما يتعسر علينا إزالة ما عندنا أو عند المشاحن لنا من الحقد الكمين ، فتفوتنا المغفرة تلك الليلة .

وبالجملة فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ يخرجه من محبة الدنيا وأغراضها ومناصبها ، وطلب المقام عند أهلها ، ومن لم يسلك كذلك فمن لازمه غالبا الشحناء بواسطة الدنيا إما لكونه يحوف على الناس أوهم يحوفون عليه ، ولذلك قل العاملون بهذا العهد حتى من العلماء ومشايخ الزوايا ، فتراهم تدخل عليهم ليلة النصف من شعبان وأحدهم مشاحن أخاه ولايبالى بما يفوته من المغفرة العظيمة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يجب على قاطع الرحم المبادرة قبل ليلة النصف من شعبان إلى زوال القطيعة ، وكذلك الحكم فى جميع ما ورد فيه التجلى الإلهى كالثلث الأخير من الليل فى جميع ليالى السنة ، فيجب عليه أن يتوب من جميع الذنوب وإلا لم يكن من أهل دخول حضرة الله عز وجل ولو وقف يصلى فصلاته صورة لاروح فيها اهـ .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : تجب المبادرة على قاطع الرحم إلى صلة الرحم ولا يؤخر الصلة حتى تدخل ليلة النصف ، فربما يتعسر صلتها تلك الليلة ،

وكذلك تجب المبادرة إلى بر الوالدين على كل من كان عاقا لوالديه ، وكذلك يجب علينا إذا كان أحد من معارفنا عشارا أو مكاسا أن نأمره بالتوبة عن تلك الوظيفة والعزم على أن لايعود إليها لينال المغفرة تلك الليلة ، فإن الله تعالى أخبر أنه لايغفر لأهل هذه الذنوب ولا يرفع لهم إلى السماء عمــلا ، وذلك عنوان الغضب من الله تعالى عليهم ، نسأل الله اللطف .

فعلم أن التوبة عن هذه الأمور وإن كانت واجبة على الدوام فهي في ليلة النصف آكد كما قالوا يستحب للصائم أن يصون لسانه عن الغيبة والنميمة في رمضان ، ومعلوم أن ذلك واجب في رمضان وغيره ، ولـكن لما توقف كمال العبادة على ذلك استحب من تلك الحيثية فافهم ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبراني وابن حبان في صحيحه مرفوعا :

« يَطَّلِعُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلاَّ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ » .

وروى البيهقي مرفوعا : « أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ : هٰذِهِ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، وَلِلهِ فِيهَا عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ بِعَدَدِ شُعُورِ غَنَمِ بَنِي كَلْبٍ ، لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مُشْرِكٍ وَلاَ إِلَى مُشَاحِنٍ ، وَلاَ إِلَى قَاطِعِ رَحِمٍ ، وَلاَ إِلَى مُسْبِلٍ إِزَارَهُ ، وَلاَ إِلَى عَاقٍّ لِوَالِدَيْهِ وَلاَ إِلَى مُدْمِنِ خَمْرٍ » .

وفي رواية الإمام أحمد : « فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلاَّ اثْنَيْنِ مُشَاحِنٍ أَوْ قَاتِلِ النَّفْسِ » .

وفي رواية للبيهقي مرفوعا : « يَطَّلِعُ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ ، وَيَرْحَمُ الْمُسْتَرْحِمِينَ ، وَيُؤَخِّرُ أَهْلَ الْحِقْدِ كَمَا هُمْ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَقُومُوا لَيْلَتَهَا وَصُومُوا يَوْمَهَا ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : أَلاَ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلاَ مِنْ مُسْتَرْزِقٍ فَأَرْزُقَهُ ، أَلاَ مِنْ مُبْتَلٍ فَأُعَافِيَهُ أَلاَ كَذَا ، أَلاَ كَذَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ » .

قلت : ومعنى ينزل ربنا أنه ينزل نزولا لائقا بذاته لايتعقل ، لأنه لايجتمع مع خلقه في حد ولا حقيقة .

ومن فوائد أخبار الصفات امتحان العبد هل يؤمن بها كما وردت ، فيفوز بكمال الإيمان أم يؤولها فيحرم كمال مقام الإيمان ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصوم الاثنين والخميس ولا نترك صومهما إلا لعذر شرعي ، ونجب المبادرة إلى إزالة الشحناء قبل صومهما حتى لايطلع الفجر وبيننا وبين أحد شحناء ، نظير ماورد في ليلة النصف من شعبان . ومن العذر للعبد أن يكون الصوم يضر ببدنه أو عقله لانحراف مزاجه عن مقام الاعتدال ، وكل أحد مؤتمن على مايدعيه في نفسه من ذلك ، وكذلك من العذر أن يتعاطى العبد الأعمال الشاقة المأمور بها في طريق الكسب الشرعي ، كالحرث والحصاد والدراس وسد الجسور وجرفها وتخمير الطين ، وحمله إلى البناء من بكرة النهار إلى آخره ، ونحو ذلك ، فلا يؤكد على هؤلاء صيام الاثنين والخميس ونحوهما من النوافل إلا إن تبرعوا بأنفسهم وصاموا ، مع أن رخصة الله تعالى لهم أتم وأكمل ، لأنهم ربما أخلوا بأعمال أخر أفضل مما فعلوه .

فاتبع ياأخي الشرع ، وكن من المتبعين ولا تكن من المبتدعين ، واخف صومك إن خفت أن أحدا يمدحك على ذلك وتميل نفسك إليه .

وسمعت سيدي عليا الخواص يقول : إنما قال صلى الله عليه وسلم :

« فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » .

لأن كل يوم الاثنين والخميس أوقات رضا ، ولأوقات الرضا مزية على أوقات الغضب ، فأين من يرفع حاجته في وقت رضا الملك ممن يرفعها في وقت غضبه ؟ اهـ فتأمل ذلك ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الترمذي وقال حديث حسن مرفوعا :

« تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » .

وروى مالك وأبو داود والترمذي والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم الاثنين والخميس ، فقال رجل : يارسول الله إنك تصوم الاثنين والخميس فقال :

« إِنَّ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ يَغْفِرُ اللهُ فِيهِمَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلاَّ الْمُتَهَاجِرَيْنِ » ، يعنى بغير حق « فَيَقُولُ دَعُوهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « تُنْسَخُ دَوَاوِينُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي دَوَاوِينِ أَهْلِ السَّمَاءِ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلاَّ رَجُلاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاء » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا: « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي يَوْمِ الاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَمِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيَغْفِرُ لَهُ ، وَمِنْ تَائِبٍ فَيَتُابَ عَلَيْهِ ، وَيُرَدُّ أَهْلُ الضَّغَائِنِ بِضَغَائِنِهِمْ حَتَّى يَتُوبُوا » .

وروى ابن ماجه والنسائى والترمذى وقال حسن عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى صوم الاثنين والخميس ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصوم ثلاثة أيام من كل شهر لاسيا أيام الليالى البيض ، ولا نترك صيامها إلا لعذر شرعى لا إيثار الشهوة الأكل ، فإن اللوم إنما هو على من ترك الصوم إيثارا للشهوة ، وهذا يجرى معنا فى سائر الأعمال : (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومن فوائد صومها أنها تزيل من صاحبها ما فى قلبه من الحقد والغش وسوء الظن وغيرها من الكبائر الباطنة .

وقد ورد أن أول من صامها آدم عليه السلام لما وقع فى الخطيئة واسودّ وجهه ، فكان كل يوم يبيض منه ثلثه حتى رجع إلى لونه المعتاد بعد صوم هذه الثلاثة أيام ، فكان ذلك تشريعا لأولاده المختصين أن يصوموها إذا وقعوا فى معصية واسودت أبدانهم ؛

وأما غير المختصين فربما يقعون فى أكبر الكبائر ولا يظهر عليهم شىء من السواد استهانة بهم جزاء على وقوعهم فى المعاصى ، استهانة بمحارم الله تعالى فرد عليهم عدم الاعتناء بشأنهم نظير فعلهم بخلاف الأكابر من الأمة لما كانت معاصيهم نفوذ أقدار لا انتهاكا للمحارم ، اعتنى الحق تعالى بهم ، ونبههم على ما يزيل الإثم عنهم .

وقد وقع لبعض المريدين أنه نظر إلى امرأة سرا فاسود وجهه وصار كالقار ، فانتضح

بين الناس ، فذهب إلى الإمام أبى القاسم الجنيد فشفع فيه عند الله فرد الله عليه لونه ، وذلك لأن هذا المريد كان ممن اعتنى الحق به ، وإلا فكم يقع غيره فى كبائر وصغائر ولا يظهر عليه شىء من ذلك ، فلا يزال من هذا شأنه يزيد باطنه ظلمة حتى يستوجب النار .

وقد سئل بعضهم عن تحقيق سواد جسد آدم ما سببه ؟ فقال : كان ذلك دليلا على أنه حصل له السيادة بأكله من الشجرة ، ويؤيد ذلك ما ورد فى الحجر الأسود أنه نزل من الجنة أبيض فسودته خطايا بنى آدم : أى صيرته سيدا بالتقبيل والتبرك ، وكان أظهر علامة على حصول السيادة اللون الأسود ، وأيضا فإن من مقام الأنبياء أن لا ينتقلوا من درجة إلا لأعلى منها لدوام ترقيهم وكذلك كمل ورثتهم اه وهو جواب حسن ؛

فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام .

وروى مسلم ذلك أيضا عن أبى الدراء ولفظه : أوصانى حبيبى بثلاث لا أدعهن ماعشت فذكر بمعناه .

وروى الشيخان مرفوعا : « صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ » .

وروى الطبرانى والبيهقى وقال فى إسناده لم أقف فيه على جرح ولا تعديل مرفوعا :

« صَامَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّهْرَ ، إِلاَّ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى ، وَصَامَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نِصْفَ الدَّهْرِ ، وَصَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، صَامَ الدَّهْرَ وَأَفْطَرَ الدَّهْرَ » .

زاد فى رواية للإمام أحمد البيهقى والنسائى وابن ماجه وغيرهم ، وأنزل الله تعالى تصديق ذلك فى كتابه :

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) اليوم بعشرة أيام .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والبزار ورجاله رجال الصحيح مرفوعا :

« صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ ـ يعنى رمضان ـ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ » .

وفى رواية لمسلم وأبى داود والنسائى مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ فَهٰذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ » .

ووحر الصدر : هو غشه وحقده ووسواسه .

وروى الطبرانى عن ميمونة بنت سعد قالت : يارسول الله أفتنا عن الصوم : فقال :

« مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصُومَهُنَّ فَإِنَّ كُلَّ يَوْمٍ يُكَفِّرُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَيُنَقِّي مِنَ الْإِثْمِ كَمَا يُنَقِّي الْمَاءُ الثَّوْبَ » .

وروى النسائى مرفوعا : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ » .

وروى الشيخان وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص :

« بَلَغَنِي أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ ـ أي كله ـ فَلَا تَفْعَلْ إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، صُمْ وَأَفْطِرْ ، صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ » الحديث .

وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حديث حسن عن أبى ذر قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثًا فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ » .

وفى رواية لأبى داود والنسائى عن قدامة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بصيام أيام البيض ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة :

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « هُوَ كَهَيْئَةِ الدَّهْرِ » .

زاد فى رواية : « الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا » .

قال الحافظ هكذا جاء فى رواية النسائى وغيره قدامة والصواب قتادة كما فى رواية أبى داود وابن ماجه .

وروى الطبرانى ورواته ثقات أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الصيام فقال :

« عَلَيْكَ بِالْبِيضِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصوم عند القدرة ما أمرنا بصومه من صوم الأشهر الحرم ، لاسيا المحرم ، وصوم يوم وإفطار يوم ، والإكثار من الصوم فى شعبان ، وكذلك صوم الأربعاء والخميس والجمعة والسبت والأحد على التوالى ، وغير ذلك مما ورد امتثالا للأمر واغتناما للأجر ، ولانترك شيئا من ذلك إلا لعذر شرعى كما أشرنا إليه بقولنا عند القدرة .

وفائدة الأمر بالعبادات لمن لم يقسم له الاستغفار إذا لم يفعل فيجبر ذلك الخلل الواقع ، وفيه إظهار أنه لم يترك ذلك إلا لعدم القسمة لاتهاونا بالأوامر الشرعية .

وفى المثل السائر : وقع من فلان كذا وكذا وما هى عادته إنما وقع ذلك منه لفرط الحرص ، ولكن بذلك تفاوتت مراتب الناس ، فإن العمل الصالح إنما شرع وسمى صالحا لحضور صاحبه فيه مع الحق تعالى ، فأكثر الناس فعلا للمأمورات أكثر مجالسة الحق فى الدنيا والآخرة .

ومن منّ الله تعالى عليه بدوام الحضور فى بعض العبادات ليلا ونهارا ، فجلوسه مع الحق تعالى كذلك دائم ، لكن يفوته تنوعات الواردات من الحق إذ التنوع أكثر نعيما من التنعم بالشيء الواحد عادة ، فربما سئمت منه نفسه فلا يصير بعده نعيما لعدم اللذة فيه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول : لكل مأمور شرعى من فرض أو مندوب مجالسة مع الحق تعالى ، ولكل منهى عنه من حرام أو مكروه حجاب عن الله تعالى ، ومن شهد كشفا أن المشرع هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر والنهى كان على وزان ذلك فيكون حجابه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضوره معه على حسب فعل أوامره واجتناب نواهيه ، وكذلك القول فيما سنة الأئمة ومقلدوهم فيما يوافق الشريعة تكون مجالسة العامل بذلك للأئمة ومقلديهم بقدر مافعل من سائر مأموراتهم واجتنب من منهياتهم وحجابه عنهم ، بقدر ماوقع فى مخالفاتهم اهـ وهو كلام نفيس .

فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « صُومُوا الأَشْهُرَ الْحُرُمَ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا واللفظ لمسلم :

« أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ » .

وفى حديث الطبرانى مرفوعا : « وَمَنْ صَامَ يَوْمًا مِنَ الْمُحَرَّمِ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثُونَ يَوْمًا » .

قال الحافظ المنذرى : وهو حديث غريب وإسناده لابأس به ، فجملة الشهر إن كان كاملا بتسعمائة يوم .

وروى الشيخان وغيرهما : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يوْمًا وَلَا يفِرُّ إِذَا لَاَقَى الْعَدُوَّ » .

وزاد فى رواية : « وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ »

وفى رواية لمسلم : « أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ » الحديث .

وروى النسائى عن أسامة بن زيد قال : قلت يارسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ماتصوم من شعبان ؟ قال :

« ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبَ وَرَمَضَانَ وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » .

وفى حديث أحمد والطبرانى ، وكان أحب الصيام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان .

وروى الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر ، ويفطر حتى نقول لايصوم ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا صيام شهر رمضان ، وما رأيته فى شـــهر أكثر صياما منه فى شعبان » :

زاد فى رواية لأبى داود وغيره : وكان يصومه إلا قليلا بل كان يصومه كله ، وكان يقول :

خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » .

وروى أبو يعلى وغيره مرفوعا : « مَنْ صَامَ الْأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ كُتِبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ صَامَ الْأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ وَالْجُمُعَةَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ يُرَى ظَاهِرُهُ مِنْ بَاطِنِهِ وَبَاطِنُهُ مِنْ ظَاهِرِهِ » .

وفى رواية للطبرانى والبيهقى : « بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً فِى الْجَنَّةِ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ ، وَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية لهما أيضا : « مَنْ صَامَ الْأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ ، ثُمَّ تَصَدَّقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِمَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ غُفِرَ لَهُ كُلُّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ حَتَّى يَصِيرَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه وغيره عن أم سلمة قالت : أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من الأيام يوم السبت ويوم الأحد ، كان يقول :

« إِنَّهُمَا يَوْمَا عِيدٍ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَهُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا لم نكن محتاجين إلى الجماع أن نأذن لحليلتنا فى الصوم ولا نمنعها منه إلا عند الحاجة لخوفنا أو خوفها العنت أو مقدماته ، أو ضعف قوتها الموجبة لضعف النطفة لاسيما أيام توقع الحمل فنأمرها بالأكل للدسم وشرب السكر ونحو ذلك ، ونمنعها الصوم وأصل هذا العهد ما ورد فى الصحيحين وغيرهما مرفوعا :

« لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » .

وظواهر الحديث تفهم أن التحجير عليها فى الصوم إنما هو تقديم لمصلحة الزوج ، فإن كان غير محتاج فمن السنة أن يساعدها على العبادة وسيأتى بسط ذلك فى قسم المنهيات إن شاء الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتسحر من الحلال دون الشبهة فى كل ليلة نصوم يومها ، ولا نترك ذلك أبدا امتثالا لأمر الشارع صلى الله عليه وسلم لنا بذلك لا لعلة أخرى ، لأن تلك العلة إن كانت للتقوية على الصيام فذلك حاصل بنية امتثال الأمر لا يحتاج إلى نية ، وإن كانت لعلة ثواب فالثواب حاصل لكل

من أخلص فى عمله ، وإن كانت للشهوة مع غفلته عن النية الصالحة فذلك خارج عن الشريعة فلا نتكلم عليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ينبغى للمتسحر أن لا يزيد على ثلاث لقم أو ثلاث تمرات ، فإن السر فى التقوية على الصوم بالسحور حاصل بالأكل القليل فليس فى الكثير فائدة ، كما أن نوم القيلولة ينفع من يقوم الليل ولو كان قدر ثلاث درج كما جرب اهـ .

وكان سيدى الشيخ عبد العزيز الديرينى يقول : النوم بعد الزوال دواء للسهر الآتى ، والنوم قبل الزوال دواء للسهر الماضى اهـ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لعبد أن يتسحر إلا بنية ولاينام إلا بنية ، وكذلك ينبغى لكل من عمل عملا يتعدى نفعه للناس أن ينوى بذلك نفع الناس ليثاب عليه ، وأما نفع نفسه فحاصل بحكم التبعية فأى شىء يضر الطباخ إذا قام من الليل فغسل اللحم وهيأه فى القدر وأوقد عليه النار ، حتى غذى منه نحو الثلاثمائة نفس أن ينوى بذلك نفع من يأكل من العاجزين ، عن الطبخ لكبر أو عدم عيال وغير ذلك ، فإنه لا يعطيهم طعامه إلا بثمنه ، فالثمن حاصل على كل حال ، وإنما لم نقل بحصول الثواب له إذا لم ينو نفع الناس ، لحديث :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » .

وهذا لم ينو ، فلقد فاز والله عبيد الله الخلص الذين عبدوه امتثالا لأمره ورأوا الفضل له تعالى عليهم فى تأهيلهم لذلك ، وخسر ذلك المقام عبيد الثواب ، والعلل الدنيوية :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة مرفوعا :

« فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحُورِ » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا :

« البَرَكَةُ فِي ثَلَاثَةٍ : فِي الجَمَاعَةِ وَالثَّرِيدِ وَالسَّحُورِ » .

وفى رواية للطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ » .

وروى أبوداود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما عن العرباض بن سارية قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السحور في رمضان ، فقال :

« هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارَكِ » .

يعني السحور كما في رواية ابن حبان .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة في صحيحيهما والبيهقي مرفوعا :

« اسْتَعِينُوا بِطَعَامِ السُّحُورِ عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ وَبِالْقَيْلُولَةِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ » .

وفي رواية : « وَبِقَيْلُولَةِ النَّهَارِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ » .

وروى النسائي بإسناد حسن : « السُّحُورُ بَرَكَةٌ أَعْطَاكُمُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا فَلَا تَدَعُوهُ » .

وروى البزار والطبراني مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ فِيمَا طَعِمُوا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ حَلَالاً : الصَّائِمُ ، وَالْمُتَسَحِّرُ ، وَالْمُرَابِطُ فِي سَبِيلِ اللهِ » .

وروى الإمام أحمد وإسناده حسن مرفوعا :

« السُّحُورُ خَيْرٌ كُلُّهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ » .

وفي رواية لابن حبان في صحيحه : « تَسَحَّرُوا وَلَوْ بِجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « نِعْمَ السُّحُورُ التَّمْرُ ، وَقَالَ يَرْحَمُ اللهُ الْمُتَسَحِّرِينَ » .

وفي رواية مرفوعا : « نِعْمَ سَحُورُ الْمُؤْمِنِ التَّمْرُ » .

رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعجل الفطر ونؤخر السحور.

وأما تعجيل الفطر فالحكمة فيه المسارعة إلى تعجيل حظ النفس من حيث كونها مطيتنا ، ولولا هي ما استطعنا ظمأ الهواجر في أيام الصيف الطوال ، وفي المثل السائر : تقول النفس لصاحبها كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك ، وفي الحديث :

« أَعْطُوا الْأَجِيرَ أُجْرَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ » .

وفى حديث آخر : « الْمُنْبَتُّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى » .

والمنبت : هو الذى حمل دابته فوق طاقتها حتى عجزت واضطجعت ، فلا هو قطع طريق السفر ولا هو أبقى ظهر دابته ، فبمجرد ما تغرب الشمس تحنّ النفس إلى الفطر وتتألم لتأخيره ويكون كالعذاب عليها .

وأما تأخير السحور ، فالحكمة فيه عدم التفات النفس إلى الأكل والشرب حين الشروع فى الصوم حتى لايخرج ذلك كمال الصوم ، فإن شرط العبودية أن يتوجه المكلف بقلبه وقالبه إلى فعل ما كلف به فإن التفت إلى تمنى فعل ما منعه الله منه فى الصوم فكأنه دخله بلا قلب والمدار على القلب ؛ فلو أن الشارع أمرنا بعدم تأخير السحور لربما اشتاقت النفس إلى الأكل عند الفجر ، فلما أمرنا بتأخيره إلى قبيل الفجر قل التفات النفس إلى الأكل والشرب فدخلت للصوم بكليتها ، ومعلوم أن العمل القليل مع الأدب خير من الكثير بلا أدب . وإذا كان العبد عنده التفات إلى الأكل والشرب أول شروعه فى الصوم فكيف حاله أواخر النهار ، فلا تكاد النفس تنشرح لفعل ما كلفت به أبدا وعبادة المكره لايقبلها الله تعالى :

ومن هنا كره الشارع قيام العبد للصلاة ونفسه تتوق إلى الطعام :

ومن هنا كره أيضا بعض العلماء الوضوء بالماء الشديد السخونة أو البرودة لنفرة النفس منه ونفرة العبد من العبادة تبعده عن حضرة ربه :

ومراد الشارع بالطهارة تقريبه منها فلا يجتمع التقريب والتبعيد فى عمل واحد ، فإنه إن حضر هذا غاب هذا :

ومن المعلوم أن الله تعالى أمرنا بالإحسان إلى أنفسنا ، ومن الإحسان إليها تعجيل فطرها وتأخير سحورها ، فإن فيها جزءا يطلب ذلك وإن لم تعطه عصى عليها وجمح ونازعها فى الخروج من الصوم لنيل شهواتها هذا مشهد الكمل ، وأما العباد فلا ذوق لهم فى مثل ذلك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه :

« لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى سُنَّتِي مَا لَمْ تَنْتَظِرْ بِفِطْرِهَا النُّجُومَ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : تَعْجِيلُ الْفِطْرِ ، وَتَأْخِيرُ السُّحُورِ ، وَضَرْبُ الْيَدَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الصَّلَاةِ » .

وروى أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« لَا يَزَالُ الدِّينُ ظَاهِرًا مَا عَجَّلَ النَّاسُ الْفِطْرَ ، لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخِّرُونَ » .

وروى أبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أنس قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط صلى صلاة المغرب حتى يفطر ولو على شربة من ماء ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نفطر من صومنا على تمر ، فان لم نجد فعلى ماء .

والحكمة فى ذلك أن معظم ما كانت النفس محبوسة عنه فى النهار الطعام والشراب وهى محتاجة إلى الطعام أكثر ، فلذلك قدم على الشراب ، فانهم قالوا شهوة الشرب كذابة فإذا ردها الانسان مرارا ذهبت ، ولا هكذا شهوة الطعام : وكان أخى أفضل الدين يكتفى فى غالب أيامه بالريق الذى يعجن به الطعام قبل بلعه ولا يشرب إلا فى النادر ، وفى الفطر على التمر المسارعة إلى تحلية النفس بعد تعبها لتطيعنا فى وقت آخر إذا دعوناها إلى مثل ذلك العمل الذى حليناها لأجله ، وفى الشرب للماء المسارعة إلى طفء لهيب تلك النار التى تأججت من الجوع وحرارة الطعام حتى انطبخ ، فلو قيل بالجمع بين التمر والماء عند الإفطار لم يكن بعيدا عن مراد الشارع ، لأنهما يكسران حدة الصوم ، وربما كان له ورد من صلاة أو غيرها بعد المغرب فيأتى به على وصف الإقبال وعدم الالتفات إلى الأكل والشرب ، ولذلك ورد :

« إِذَا حَضَرَ الطَّعَامُ وَالصَّلَاةُ فَابْدَءُوا بِالطَّعَامِ » .

ولعل محل ذلك إذا كان عنده توقان نفس إلى الطعام ، وإلا فقد ورد أيضا :

« فَابْدَءُوا بِالصَّلَاةِ وَلَا تُؤَخِّرُوا الصَّلَاةَ لِشَيْءٍ » فيحمل ذلك على حالين .

فاسلك يا أخى على يد شيخ صادق يطلعك على حكمة جميع الأعمال التى أمرك بها الشارع لتتلذذ بأسرار الشريعة وتزداد محبة فيه صلى الله عليه وسلم ، وتعرف أنه أشفق على بدنك وعلى دينك من نفسك ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

روى أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى حديث حسن صحيح مرفوعا :

« إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ » .

وروى أبو داود والترمذى وقال حديث حسن ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلى على رطبات ، فإن لم يكن رطبات فتمرات ، فإن لم يكن تمرات حسا حسوات من ماء .

وفى رواية لأبى يعلى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب أن يفطر على ثلاث تمرات أو شىء لم تصبه النار .

قلت : ولعل الحكمة فى ترك الفطر على ما مسته النار كون النار مظهرا غضبيا ، فلذلك أمرنا صلى الله عليه وسلم أن نفطر على ماء أو تمر لأنهما مما لم تمسه النار ، ويؤيده أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ من الأكل مما مست النار ، ثم إنه ترك ذلك توسعة لأمته فمن يتوضأ الآن من ذلك فلا بأس بتركها عند الفطر لما قيل إنه ناقض فى الجملة ، والله تعالى أعلم .

وقد روى ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم وقال صحيح على شرطهما مرفوعا :

« فَمَنْ وَجَدَ تَمْرًا فَلْيُفْطِرْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى الْمَاءِ فَإِنَّهُ طَهُورٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا كان عندنا طعام من حلال وفاض عنا وعن عيالنا ومن تلزمنا نفقته ، أن نطعمه لإخواننا ، فإن لم نجد حلالا

أو وجدناه ولم يفضل عنا فلا نؤمر بتفطير أحد من الصائمين عندنا ، وهذا العهد يخل بالعمل به كثير من العلماء والصالحين الذين اشتهروا بالكرم فضلا عن غيرهم ، فربما كان مايطعمه أحدهم لإخوانه من جملة مال أيتام كان وصيا عليهم ، فقد رأيت بعضهم أخذ أموال الأيتام وعمل بها أطعمة ، ولا زال يعزم على وجوه العظم الذين يشكرونه فى المجالس حتى أفنى ذلك المال كله ، فجاء قيم الأيتام الذى نصبه الحاكم يطالبه فلم يجد معه شيئا فجاء الذين كانوا يأكلون عنده فشهدوا بافلاسه .

وقد سمعته مرة يقول : قد خلت مصر من العلماء العاملين ومن الصالحين وما بقي أحد يتورع عن الحرام .

وسمعته مرة أخرى يقول : لا أحد يسمعنى كلام أحد من هؤلاء الفقهاء أبدا فإنهم ليس لهم دين .

وسمعته مرة أخرى يقول : لو علمت أن فى مصر كلها أحدا بحمد الله أورع منى أو أعلم منى لتتلمذت له وقبلت فعاله اه .

فمثل هذا ممن (زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) .

وذلك أن المؤمن مرآة المؤمن ، ولا يرى الإنسان فى المرآة إلا صورته لا صورة المرآة ، بل لو جهد كل الجهد أن ينظر جرم المرآة لايقدر لسبق انطباع صورته فى المرآة قبل نظره جرم المرآة .

وقد جاء رجل إلى أبى يزيد فقال ياسيدى رأيت صورتك الليلة صورة خنزير ، فقال : له صدقت يا أخى ، المؤمن مرآة المؤمن ، رأيت صورتك فى فحسبت أنك أنا .

فالزم ياأخى الورع فى نفسك وفيمن تعول جهدك ولا تنبسط فى شيء إلا بنية صالحة على الوجه الشرعى ، وإياك أن تبادر إلى الفطر فى رمضان عند من اشتهر بالعلم والصلاح حتى تخالطه وتعرف شدة ورعه ، والله يتولى هداك :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ » .

وفى رواية : « مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ » .

وروي الطبراني وأبو الشيخ مرفوعا : « مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ مِنْ حَلَالٍ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فِي سَاعَاتِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ جِبْرِيلُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ » .

وفى رواية لأبى الشيخ : « وَصَافَحَهُ جِبْرِيلُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَمَنْ صَافَحَهُ جِبْرِيلُ رَقَّ قَلْبُهُ وَكَثُرَتْ دُمُوعُهُ ، قَالَ سَلْمَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ؟ قَالَ فَقَبْضَةٌ مِنْ طَعَامٍ ، قَالَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ لُقْمَةُ خُبْزٍ ؟ قَالَ : فَمَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ ، قَالَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ؟ قَالَ فَشَرْبَةٌ مِنْ مَاءٍ » .

والقبصة بالصاد المهملة : وهو ما يتناوله الآخذ بأصابعه الثلاث .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا يَعْنِي فِي رَمَضَانَ كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَعِتْقَ رَقَبَةٍ مِنَ النَّارِ ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ كُلُّنَا نَجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم : يُعْطِي اللهُ تَعَالَى هٰذَا الثَّوَابَ لِمَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ أَوْ مَذْقَةِ لَبَنٍ » الحديث .

وروى الترمذى واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم دَخَلَ عَلَى عِمَارَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ فَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ طَعَامًا فَقَالَ كُلِي : فَقَالَتْ إِنِّي صَائِمَةٌ ، فَقَالَ : إِنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِذَا أُكِلَ عِنْدَهُ حَتَّى يَفْرَغُوا وَرُبَّمَا قَالَ حَتَّى شَبِعُوا » .

وفى رواية لابن ماجه : « إِنَّ الصَّائِمَ تُسَبِّحُ عِظَامُهُ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ مَا أُكِلَ عِنْدَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعتكف فى كل وقت لايكون لنا فيه ضرورة لاسيما فى رمضان ، فإن كان لنا ضرورة خارج المسجد فالأولى تقديمها على الاعتكاف ، ولولا أن الضرورة تجذب قلب صاحبها وتخرجه من المسجد إذا اعتكف فى المسجد لكان الأولى لكل من لزم الأدب مع الله تعالى ، أن لايخرج من

المسجد، لأنه بيته الخاص ولولا خصوصية المسجد ماأمر الشارع بالاعتكاف فيه دون البيوت والأسواق وغيرهما، ولو أراد صاحب القدم من الأولياء أن تحصل له مراقبة الله تعالى فى غير المسجد مثل المسجد لما قدر ، فما أمرنا الله تعالى ورسوله بالاعتكاف فى المسجد إلا لنتنبه لأنفسنا، ونعلم أننا بين يدى الله تعالى على الدوام شعرنا أو لم نشعر، فإذا ذقنا ذلك فى المسجد وتلذذنا بمراقبة الحق تعالى فيه انجر ذلك إن شاء الله تعالى إلى خارج المسجد، وصرنا نشهد كوننا بين يدى الله تعالى على الدوام على الكشف والشهود إلا ماشاء الله تعالى .

ومن هنا شرع القوم الخلوة للمريد ليتمرن على الوحدة وعدم الشواغل عن الله تعالى وأمر الأشياخ مريديهم بعدم مد الرجل فى الخلوة على التقليد والإيمان بأنهم بين يدى الله تعالى ، وكذلك أمروه أن لايشتغل فى الخلوة إلا بالمأمورات الشرعية وذلك ليعاين العبد ربه فيها على التقليد .

وقد قال بعضهم لاتناج ربك إلا بكلامه فإنك إن ناجيته بغير كلامه لم يجبك إلا إن كنت مضطرا ، فتسامح بمناجاته بغير كلامه تعجيلا لزوال الاضطرار ، فعلم أن المريد لايزال يراعى الأدب إيمانا حتى يصير مشهودا ويصير يتأدب مع الله خارج الخلوة كما مر فى الكتاب ، ووالله لو كشف عن المؤمن الحجاب لما قدم على مجالسته تعالى شيئا ولكن الحجاب عليه أشد من دخوله النار .

وانظر إلى اعتناء الحق جل وعلا بمحمد صلى الله عليه وسلم كيف جعل عينيه تنامان ولا ينام قلبه ، تعجيلا لنعيمه فى الدنيا قبل الآخرة من غير أن ينقص من نعيمه الأخروى شىء ، وهذا المقام لغيره من الأنبياء ولكل وارث له من بعده ، فتنام عيناه ولا ينام قلبه ، وذلك ليكون حكمه من حيث شهود الحق تعالى كاليقظان ، وحكمه من جهة راحة جسده كالنائم ، ليعطى كل ذى حق حقه ، فعلم أن نوم الأكابر لاينقص به رأس مالهم، وإنما هو من نعمة الله تعالى عليهم لكونه غلبة لاتعمل لهم فيه ، بخلاف من يتعمل ويفرش تحته طراحة ويضع له مخدة لغير ضرورة فإن مثل هذا ينقص رأسه ماله بيقين .

واعلم يا أخى أنه يحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ وإلا فمن لازمه غالبا غفلته عن حضرة ربه بشهوة من شهواته فإنه ماتعاطاها مع معرفته بأنها تخرجه عن حضرة ربه إلا وهو مختار لها ، ففيها رائحة اختيار مجالسة غير الحق على الحق ، وذلك يكاد أن يكون حراما وأكثر الناس فى غمرة ساهون عن جميع ماقلناه ، فلا يزال السالك

يترك شهوة بعد شهوة حتى لايكون بينه وبين ربه إلاحجاب العظمة ويصير مشاهدا لربه بلا كلفة كما لايتكلف لدخول النفس وخروجه ، ومادام يغفل ويسهو فهو لم يتحقق بالمقام ومن هنا حفظ من حفظ من الأولياء ووقع من وقع منهم .

وبالجملة فادام مع العبد بقية غفلة فن لازمه الحجاب ووقوعه فيما لايليق وهو مالم يأمره الحق به ولم يحثه عليه ، إذ العبد لايجالس الحق تعالى إلا فى فعل المأمورات أو اجتناب المنهيات ، وما عدا ذلك فلا يقدر على مجالسته فيه أبدا إنما هو يجالس الكون .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط الكامل أن لايعمل بقول من الأقوال إلا مع الحضور مع صاحب القول من الحق تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو أحد من الأئمة أو مقلديهم ، فإذا كان يوم القيامة امتدت مجالسته المذكورة وانبسطت فى الزمان وتنعم مع أصحابها بقدر مقامه فى الحضور معهم ، ومن لم يحضر حال العمل مع صاحب ذلك الكلام الذى عمل به لم يتنعم يوم القيامة بشهود أصحابه ولا كأنه جالسهم قط .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كل مقام لايدرقه العبد هنا لايعطاه هناك .

فاسلك ياأخى على يد شيخ ناصح إن أردت أن تكون من أهل الله تعالى ، وإلا فأنت غافل عن الله تعالى فى أكثر عباداتك كلها والله يتولى هداك .

وروى البيهقى مرفوعا : « مَنِ اعْتَكَفَ عَشْرًا فِي رَمَضَانَ كَانَ كَحَجَّتَيْنِ وَعُمْرَتَيْنِ » .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الأسناد والبيهقى مرفوعا :

« مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَ خَنَادِقَ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ » .

وأحاديث اعتكاف النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد كثيرة مشهورة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نخرج زكاة فطرنا كل سنة قبل صلاة العيد ، ولا نترخص فى تركها إلا بطريق شرعى ، وهذا العهد قد صار

غالب الناس يخل به حتى بعض مشايخ الزوايا وبعض العلماء، فينبغي لكل شيخ فى زاوية أو عالم فى حارة أن يخرج زكاته قبل الناس لتقتدى الناس به فإنه قدوة لهم وقد صار فى أفواه غالب الناس إذا قيل له افعل كذا أو كذا من الأمور التى أمره الله بها يقول قل هذا للعالم الفلانى فإننا ما رأيناه يفعل ذلك أبدا ، فإذا قيل لهم إذا علمتم أنكم مأمورون به من جهة الشارع تعين عليكم فعله ولو لم يعمل به العلماء، فيقولون فإذا كان العلماء لا يقدرون على العمل به فنحن أعجز فاعذرونا من باب أولى فإننا أنقص منهم درجة فى الإيمان ، وغاب عن هؤلاء أن الحجة بفعل العالم لاتكون إلا فيما لم يصل إلينا علمه من الشارع أما ماوصل علمه إلينا فلا حجة لنا فى تركه لترك غيرنا ، وإنما ذلك حجة فى قلة الدين .

وقد أدركنا ونحن صغار أبواب المساجد والقمح على أبوابها كالكيمان من كثرة من يخرج زكاته فصرت الآن لاترى على باب مسجد شيئا من القمح إلا فى نادر من المساجد كل ذلك لعدم اعتناء الناس بالأوامر الشرعية ، وبذلك اندرست الشريعة فلا عالم يبدأ بالعمل قدام الناس ولا هو ينكر عليهم بالقلب والغالب ، هكذا تخرج عظمة الله تعالى من قلوب هذه الأمة كما خرجت من قلوب بنى إسرائيل ، فعمهم الله بالعذاب.

وقد كنت أترخص فى ترك إخراج زكاة فطرى مدة عمرى ، لكونى ماملكت قط نفقة يوم وليلة فى ليلةالعيد إلى أن دخلت سنة خمسين وتسعمائة ، فرأيت فى واقعة عقب العيد أنى فى أرض فضاء واسعة وفيها خلق كثير معهم شيء كالأرائك التى يتكأ عليها وكل واحد يرمى أريكته نحو السماء فتصعد نحو أربعة أذرع وترجع إلى الأرض ، فرميت أنا الآخر أريكتى فصعدت يسيرا ورجعت ، فقلت لملك من الملائكة بجنبى ماهذا ؟ فقال لى تنظر هذه الأرائك كلها وأصحابها؟ فقلت نعم : فقال هؤلاء صاموا رمضان ولم يخرجوا زكاة فطرهم ، فتطور صومهم كالأريكة جلدا محشوا لاأرواح فيه ، فقلت له أنا لم أملك قوت يوم وليلة ، فقال أما عندك قميص زائد؟ أما عندك رداء زائد؟ أما عندك قبقاب زائد؟ تبيع ذلك وتشترى به قمحا وتخرج به زكاتك ، فقلت نعم ، فقال : فأخرج فإن مثلك لاينبغى له الأخذ بالرخص ، فتذكرت قبقابا جديدا كان عندى فى صندوق أهداه لى بعض التجار فبعته وأخرجت زكاتى ، ومن تلك السنة وأنا أخرج زكاتى وزكاة من تلزمنى نفقته ، وتقوى بذلك عندى الحديث الوارد فى :

« إِنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى يُخْرِجَ الْعَبْدُ صَدَقَتَهُ »

فالحمد لله رب العالمين .

فأخرج يا أخى زكاة فطرك ، ولا تبخل بشىء تبيعه من أمتعتك التى لا ضرورة إليها فى ثمن زكاة فطرك، وتأمل نفسك وبذلها الدراهم الكثيرة للقاضى وحاشيته ، والمفتش وحاشيته إذا لم يمشوا لك حاجتك وحسابك الدنيوى، بل ترى الحظ الأوفر لنفسك فى إعطائها كل ماطلبه الولاة ، وذلك لتوفر داعية نفسك إلى محبة الدنيا دون الآخرة ، بل لو قال لك قائل لا تبذل هذه الفلوس كلها فى تحصيل تلك الوظيفة أو فى تمشية ذلك الحساب لاترجع إليه وتخالف رأيه ، فهكذا يا أخى فليكن دينك عندك أرجح ، فإن لم يكن راجحا على حب دنياك فلا أقل من المساواة .

وقد أجمع الأشياخ على أنه لا يقدر أحد يعامل الله تعالى للدار الآخرة حتى يرى الدنيا كلها فى عينه كالتراب لا يستكثر شيئا منها يبذله فى مرضاة الله .

وقالوا : من كانت عنده دنياه أعز عليه من دينه فهو أخس الناس مرتبة عند الله وعند خلقه ، وإن عظمه أحد من الخلق فإنما ذلك لعلة دنيوية . فعلم أنه ينبغى لكل من صار قدوة أن لا يتخلف عن فعل مأمور أو اجتناب منهى ، وذلك لئلا يكون من أئمة الضلال ، والله إنى لأخرج من البيت لصلاة الجماعة وقراءة الورد وأنا أحس بعظمى أنه ذائب ، وربما اضطجع فى المجلس بين الفقراء وهم يقرءون الورد خوفا أن أتخلف فيتبعنى بعض الكسالى على ذلك ، فأكون معدودا من أئمة الضلال ، أو يكون على وزر كل من تخلف بتخلفى ، فلا يوجد أحد أتعب قلبا ولا جسدا ممن يطلب أن يكون قدوة للناس فى الخير ، فإن القدوة إن بخل بخلوا ، وإن تكرم تكرموا ، وإن جبن عن الجهاد جبنوا ، وإن تشجع تشجعوا ، وإن قام الليل قاموا ، وإن نام لليل ناموا ، وإن زهد فى الدنيا زهدوا ، وإن رغب فى شهواتها رغبوا ، وإن اغتاب الناس اغتابوا ، وإن حفظ لسانه حفظوا ، وإن أكل الحرام والشبهات أكلوا ، وإن خزن الدنيا خزنوا ، وإن أنفقها أنفقوا ، وإن ناقش نفسه فى دسائسها ناقشوا أنفسهم كذلك ، وإن أهملها أهملوا ، وإن تحمل أذى الناس تحمل أصحابه ، وإن لم يتحمل لم يتحملوا ، وإن ستر عورات الناس ستروا ، وإن هتك عوراتهم هتك أصحابه كذلك تبعا له ، وإن تواضع للناس تواضع أصحابه ، وإن تكبر تكبروا وإن جلس على الحوانيت وأبواب المساجد جلس أصحابه كذلك ، وإن جلس فى خلوته جلس أصحابه فى خلواتهم كذلك ، وهكذا فى سائر الأحوال ، فالعاقل من اعتبر فى نفسه ولم يكن عبرة لأحد .

واعلم أنه قد ورد فى حق الفقراء والمساكين :

« أَغْنُوهُمْ عَنِ الطَّوَافِ هٰذَا الْيَوْمَ » .

يعنى أغنوهم عن الطواف على الناس للسؤال عن كل شئ يأكلونه يوم العيد ليصيرلهم وقت يستريحون فيه ، ويفرحون بالعيد ويحصل لهم به سرور من أجل التعب والنصب فى العبادة مدة شهر رمضان ؛ فإن أحدهم كان يجوع حتى يقع فى الجوع المفرط ، ومقتضى الحديث السابق بقرينة العلة المذكورة أن إعطاء الفقراء المساكين الطعام المطبوخ كالهريسة مثلا أفضل من إعطائهم الحب صحيحا وبه قال الإمام مالك رضى الله عنه ، فإن القمح مثلا يحتاج إلى غربلة وتنقية وطحن وعجن وخبز وأجرة ودخول وخروج ووقود وقدر وحوائج طعام وغير ذلك ، وهذا من الإمام مالك رضى الله عنه من باب التوسعة على الفقراء وتسهيل الأمر عليهم ، وإن خالف قاعدته الأغلبية من أن الوقوف على حد ما ورد أفضل من الابتداع ولو استحسن ، وقد صحت الأحاديث بتعيين الحب دون الطعام واللحم النئ ، والمطبوخ ، ولكن قد أذن الشارع للأمة بعده أن يبينوا ماشاءوا بقوله :

« مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » .

وهم أمناء على الشريعة بعد الشارع صلى الله عليه وسلم ، فمن وقف على حد ما ورد فهو أحسن ، ومن تعدى إلى أمر تشهد له الشريعة بالحسن فهو لا أحسن .

وإنما كان الغالب على الناس إخراج الحبوب فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم لقلة الطواحين فى عصره صلى الله عليه وسلم ، فكان كل واحد يطحن القمح على الرحى فى بيته ، فلو أن المخرج للزكاة كلف طحن القمح أوطبخ الطبيخ مثلا للمساكين فى ذلك اليوم الذى هويوم أكل وشرب وبعال لنقص عليه السرور ذلك اليوم ، لأنه كان يشتغل ذلك اليوم كله فى عمل الطعام لأهل بيته وللفقراء ، فعادل صلى الله عليه وسلم بين الدافع والآخذ فى التعب فى ذلك اليوم ، فعلى المخرج القمح فقط ومابعد ذلك على الفقير ، وإلا فمعلوم أن الفقير يفرح بالصحن الهريسة يوم العيد أكثر من فرحه بالقمح واللحم والدهن النئ لكونه المطبوخ موافقا لسرور ذلك اليوم عكس القمح ، فإنه يدخل على الفقير هما وشغل بال حتى يصلح للأكل فيفوته كمال السرور فى ذلك اليوم .

ومن هنا قال بعض العارفين ، إنما سمى العيد بذلك لعود ما كان مأمورا به فى غيره من العبادة مباحا تركه أو لعود ما كان منهيا عنه مباحا فيه من نحو الغفلة والسهو ، وعن

الإكثار من العبادة وإعطاء النفس حظها من الشهوات ، لأن بدون ذلك لا يتم للإنسان سرور اليوم ، فمن حبس النفس للعبادة فى يوم العيد فقد أخطأ حكمة الشارع التى طلبها لأمته فى يوم العيد ، ففى الحديث :

« أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ » .

ولا شك أن النفس كانت مع صاحبها كالأجير فى رمضان ليلا ونهارا ، فكان من المعروف إعطاء النفس حظها فى يوم العيد ، فهو كالتنفيس لها من تعب التكليف ، فهكذا فلنتفهم مقاصد الشارع صلى الله عليه وسلم فما قال لنا قط فى يوم :

« إنهُ يَوْمُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَبِعَالٍ » .

إلا يوم العيد وأيام التشريق فالحمد لله رب العالمين .

قال الخطابى رضى الله عنه : ومما يدل على تأكيد إخراج زكاة الفطر قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر » فإنه بين فيه أن صدقة الفطر فرض واجب كما فى الزكاة الواجبة فى الأموال ، وفيه بيان أن ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحق بما فرض الله ، لأنه :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)

قال : وقد قال بفرضية زكاة الفطر ووجوبها عامة أهل العلم ، وقد عللت بأنها طهرة للصائم من الرفث واللغو ، فهى واجبة على كل صائم غنى ذى خدم أو فقير يجدها فضلا عن قوته ، وإذا كان وجوبها لعلة التطهير ، فكل صائم محتاج إلى التطهير ، فكما اشتركوا فى العلة فكذلك يشتركون فى الوجوب اه .

وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم ، على أن صدقة الفطر فرض ، وممن حفظنا عنه ذلك من أهل العلم محمد بن سيرين وأبو العالية والضحاك وعطاء ومالك وسفيان الثورى والشافعى وأحمد وأبو ثور وإسحاق وأصحاب الرأى .

وقال إسحق هو كالإجماع من أهل العلم اه .

وروى أبو داود وابن ماجه وغيرهما وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فَرَضَ صَدَقَةَ الفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ

وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود مرفوعا : « صَاعٌ مِنْ بُرٍّ أَوْ قَمْحٍ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ ، أَمَّا غَنِيُّكُمْ فَيُزَكِّيهِ اللهُ ، وَأَمَّا فَقِيرُكُمْ فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى » .

وروى أبو حفص بن شاهين فى فضائل رمضان ، وقال حديث غريب جيد الإسناد مرفوعا :

« شَهْرُ رَمَضَانَ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا يُرْفَعُ إِلَّا بِزَكَاةِ الْفِطْرِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) فقال : « أُنْزِلَتْ فِي زَكَاةِ الْفِطْرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحيى ليلتى العيدين بالصلاة ذات الركوع والسجود لأن إحياءها بذلك هو المتبادر إلى الأفهام ، ويدل عليه عمل السلف الصالح كلهم بذلك ، وإن كان الإحياء يحصل بفعل كل خير من قراءة وتسبيح وغير ذلك كالصلاة عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال سيدى على الخواص : ويجب أن يستعد لقيام كل ليلة أراد العبد قيامها بالجوع سواء ليلة العيدين أو الجمعة أو ليلة النصف ، من شعبان أو غير ذلك ، كالثلث الأخير من الليل إذا كان يقومه فإن من شبع قل مدده اه .

وسمعته رضى الله عنه يقول : الحكمة فى إحياء ليلتى العيدين ، أنه يعقبهما يوما لهو ولعب ، فيكون نور العبادة فى هاتين الليلتين منبسطا على العبد ، ويمتد إلى النهار فيمسك رج العبد من غير أن يرخى عنانه بالكلية فى ميدان الغفلة والسهو ، بخلاف من بات نائما إلى الصباح ، أو غافلا عن ربه ، فإنه يصبح مطلق العنان فى الغفلات .

فانظر ما أحكم أوامر الشارع وما أشفقه على دين أمته . فإذا علمت ذلك فكلف نفسك يا أخى فى إحياء هاتين الليلتين ولو لم يكن لك بذلك عادة ، ولا تتعلل بأن السهر

يشق عليك ، فإننا نراك تسهر فى ليالى الأعراس كذا وكذا ليلة وربما كان ذلك من غير نية صالحة ولا امتثال لأمر الشارع ، فامتثال ماأمرك به أولى .

وقد قلت مرة لشخص من أبناء الدنيا تعال اسهر معنا هذه الليلة وكانت ليلة العيد الأصغر ، فتعلل بأن السهر يضره ، فقلت له بالله عليك اصدقنى إذا أردت أن تفتح مطلبا وأبطأ عليك البخور الذى تطلقه من العشاء إلى الفجر هل كنت تسهر إلى الصباح تترقب مجيئه ؟ فقال نعم ، فقلت له : فإذا أبطأ من بعد الفجر إلى المغرب هل كنت تترقبه ولاتنام ؟ فقال نعم : فدرجته إلى تسعة أيام وهو يجد من نفسه أنه يقدر على السهر من غير وضع جنبه إلى الأرض ، فقلت له فى اليوم العاشر فقال لا أقــدر ، فقلت له : يا أخى فإذا أنت تؤثر الدنيا على الآخرة ؟ فقال نعم : ولو كنت أحب الآخرة لكان الأمر بالعكس .

فقلت له : فإذن يجب عليك اتخاذ شيخ يخرجك من محبة الدنيا وشهواتها حتى تنقلب تلك الداعية التى كانت عندك فى فتح المطالب إلى محبة الأجر الأخروى وتصير تحس بنفسك أنك تقدر تسهر فى الخير تسعة أيام بلياليها من قوة الداعية ، كما هو شأن أهل الله على الدوام ، وذلك أنهم كانو إذا دعوا للسهر فى الخير أجابوا وإذا دعوا للسهر فى التفرج على المخبطين لايجدون لهم داعية وذلك لاعتناء الحق تعالى بهم وراثة محمدية ، كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم عزم ليلة وهو شاب أن يسهر مع فتيان مكة فى لهو فأخذالله بروحه إلى الصباح ، فلم يستيقظ حتى أحرقه حر الشمس .

فاسلك ياأخى على يد شيخ حتى لا تصير تجد ثقلا من العبادة ، وبمجرد مايأتى وقت عبادة أمرك الحق تعالى بها تتوفر الدواعى منك على فعلها ، ولو كان وراءك ألف غرض تركته لئلا يفوتك امتثال أمر ربك أو الأجر الباقى الذى جعله لك الحق فى ذلك الأمر بل تعمل إذا عارضك أحد فى طريقه ومنعك منه ألف حيلة ، كما تفعل ذلك فى أهوية نفسك فتأمل ذلك والله يتولى هداك .

وروى ابن ماجه مرفوعا ورواته ثقات إلا واحدا :

« مَنْ قَامَ لَيلَتِي العِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ القُلُوبُ » .

وفى رواية للأصبهانى مرفوعا : « مَنْ أَحيَا اللَّيَالِيَ الخَمْسَ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة

لَيْلَةَ التَّرْوِيَةِ ، وَلَيْلَةَ عَرَفَةَ ، وَلَيْلَةَ النَّحْرِ ، وَلَيْلَةَ الْفِطْرِ ، وَلَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَحْيَا لَيْلَةَ الْفِطْرِ وَلَيْلَةَ الأَضْحَى لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرفع أصواتنا بالتكبير فى الأوقات التى ندب إليه فيها ، كالعيدين وأيام التشريق فى المساجد والطرق والمنازل ، ولانتعلل بالحياء من ذلك ، تقديما لامتثال أمر الله عز وجل على حيائنا الطبيعى ، وكذلك نأمر به من حضر عندنا من الأمراء والأكابر بل هم أولى من الفقراء بالتكبير ليخرجوا عن صفة الكبرياء التى تظاهروا بها فى ملابسهم ومراكبهم ، فكأن أحدهم بقوله الله أكبر قد تبرأ من كبرياء نفسه ، وتعاظمها .

وهنا أسرار أخر فى ذلك لانذكر إلا مشافهة وصفة التكبير ووقته مقرر فى كتب الفقه والله تعالى أعلم :

وروى الطبرانى مرفوعا : « زَيِّنُوا أَعْيَادَكُمْ بِالتَّكْبِيرِ » .

قال الحافظ المنذرى ولكن فيه نكارة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نضحى عن أنفسنا وعيالنا وأولادنا كل سنة ولا نترك التضحية إلا لعذر شرعى . والحكمة فى ذلك إماطة الأذى عمن ذبحت على اسمه ومغفرة ذنوبه ، فعلم أن من شرط دفع الضحية البلاء عن أهل المنزل أن تكون من وجه حلال .

فليحذر الشيخ أو العالم من التضحية بما يرسله مشايخ العرب ، أو الكشاف من نهب غنم البلاد وبقرها ، فإن ذلك يزيد فى البلاء على أهل المنزل .

وعلم أيضا أنه لايكفى شراء اللحم والتصدق به ، لأن السر إنما هو فى إراقة الدم ، ومن لم يكن له قدرة على شراء أضحية وليس عنده فضل ثوب ولا دابة فليكثر من الاستغفار بدل الأضحية ، فلعل الاستغفار يجبر ذلك الخلل .

وكذلك ينبغى للفقراء المتجردين أن يذبحوا نفوسهم بسيوف المخالفات وليس لأحد التاون بأوامر الله عز وجل حسب الطاقة :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن والحاكم، وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، وَإِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الْأَرْضِ فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا » .

وروى ابن ماجه والحاكم وغيرها وقال الحاكم إنه صحيح الإسناد :

« أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَالُوا : مَا هٰذِهِ الْأَضَاحِي فَقَالَ : سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ؟ قَالُوا فَمَا لَنَا فِيهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ قَالُوا : فَالصُّوفُ ؟ قَالَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مِنَ الصُّوفِ حَسَنَةٌ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ فِي هٰذَا الْيَوْمِ » يعنى يوم العيد الأضحى « أَفْضَلَ مِنْ دَمٍ يُهْرَاقُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ رَحِمًا يُوصَلُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَحُّوا وَاحْتَسِبُوا بِدِمَائِهَا فَإِنَّ الدَّمَ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي حِرْزِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وفى رواية له مرفوعا : « مَنْ ضَحَّى طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ مُحْتَسِبًا لِأُضْحِيَتِهِ كَانَتْ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « مَا أُنْفِقَتِ الْوَرِقُ فِي شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ نَحْرٍ يُنْحَرُ فِي يَوْمِ عِيدٍ » .

وروى الحاكم مرفوعا وموقوفا ولعله أشبه :

« مَنْ وَجَدَ سَعَةً لِأَنْ يُضَحِّيَ فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَحْضُرَنَّ مُصَلَّانَا » .

وروى أبو داود والترمذى وغيرها مرفوعا :

« خَيْرُ الْأُضْحِيَةِ الْكَبْشُ » زاد ابن ماجه « الْأَقْرَنُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نذبح أضحيتنا بنفسنا ، وإن كان لنا عذر شرعى وكلنا من يذبح عنا وحضرنا الذبح اهتماما بأوامر الله عز

وجل ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس فلا يذبح بنفسه ولا يحضر الذبح فينبغى الاعتناء بما ذكرنا .

وروى البزار وأبو الشيخ وابن حبان :

« أنَّ النَّبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم قَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : قُومِي إِلَى أُضْحِيَّتِكِ فَاشْهَدِيهَا ، فَإِنَّ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا أَنْ يُغْفَرَ لَكِ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِكِ ، قَالَتْ : يَارَسُولَ اللهِ أَلَنَا ذٰلِكَ خَاصَّةً أَهْلَ الْبَيْتِ أَوْ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ بَلْ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ » .

وفى رواية للأصبهانى مرفوعا : « يَا فَاطِمَةُ قُومِي فَاشْهَدِى أُضْحِيَّتَكِ فَإِنَّ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا مَغْفِرَةً لِكُلِّ ذَنْبٍ ، أَمَا أَنَّهُ يُجَاءُ بِدَمِهَا وَلَحْمِهَا فَيُوضَعُ فِي مِيزَانِكِ سَبْعِينَ ضِعْفًا . فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : يَا رَسُولَ اللهِ هٰذَا لِآلِ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً فَإِنَّهُمْ أَهْلٌ لِمَا خُصُّوا بِهِ مِنَ الْخَيْرِ أَوْ لِآلِ مُحَمَّدٍ وَلِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ؟ قَالَ: لِآلِ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً وَلِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً » .

قال الحافظ المنذرى: وقد حسن بعض مشايخنا هذا الحديث ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتصدق بلحم أضحيتنا حتى جلدها كما ورد ، ولاندخر اللحم عندنا لنأكله فى المستقبل كما يفعله بخلاء الناس ، فإن ذلك لا يدفع عنا البلاء الذى شرعت له الأضحية ، وكان هذا البخيل يقول رضيت بأنى آكل أضحيتى ولا يندفع عنى بلاء وهذا من خفة العقل ؛ فربما يحدث ببدنه حكة أوجرب أو جراحات أو جذام أوتهمة باطلة ونحو ذلك فيندم حيث لاينفعه الندم .

ثم إن جميع ما يحصل له بعض مايستحق مع أن ذلك لايهون قط على الشارع صلى الله عليه وسلم كما لايهون على الوالد وقوع البلاءوالعقوبة بولده العاق له .

ومن أشرب قلبه الإيمان ومحبة الشارع صلى الله عليه وسلم ألقى قياده له ، فإنه لايأمر قط بشىء إلا وفيه مصلحة للعبد فى الدنيا والآخرة .

وليحذر المضحى أن يرى له فضلا على من يرسل إليه اللحم من الفقراء ، بل يرى الفضل عليه للفقير الذى يتحمل عنه البلاء بذلك الورك مثلا ، بل لو عرض عليه وجع الضرس

مثلا حتى يمنعه نوم الليل والأكل والشرب فجاء شخص يتحمل عنه ذلك بالأضحية كلها لسمحت نفسه بها .

ومثال الفقير الذي يتحمل البلاء عن صاحب الصدقة ، مثال من غسل ثوب إنسان من الوسخ أو فصده وأخرج من بدنه الدم الفاسد فلا يليق بصاحب الثوب والدم ، أن يرى نفسه على من غسل ثوبه أو فصده بل اللائق به إعطاؤه الدراهم والشكر له :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقد روى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد .

« مَنْ بَاعَ جِلْدَ أُضْحِيَتِهِ فَلَا أُضْحِيَةَ لَهُ » .

قال الحافظ المنذرى : وقد جاء فى غير ما حديث نهي النبى صلى الله عليه وسلم عن بيع جلد الأضحية ، والله تعالى اعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحسن الذبحة وذلك بإحداد الشفرة بحيث لا تراها البهيمة ، والإسراع بالذبح فى المنحر .

ومن هنا استحب العلماء النحر لكل ما طال عنقه دون الذبح تعجيلا لزهوق الروح . وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، وفى الحديث أيضا :

« إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » اهـ .

فمن ذبح البهيمة بغير رحمة تطرق قلبه بها فهو جبار ليس له فى ديوان المحسنين ولا فى أجورهم سهم ولا نصيب ، ومن لا يرحم لا يرحم .

وقد روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ » يعنى فيما أمرتم بقتله « وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » .

وروى الطبرانى ورجاله رجال الصحيح : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا قَالَ : أَفَلَا قَبْلَ هٰذَا؟ أَوَ تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ » .

وفى رواية الحاكم : « مَوْتَتَانِ هَلَّا أَحْدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا » .

وروى ابن ماجه عن ابن عمر قال :

« أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بِحَدِّ الشِّفَارِ وَأَنْ تُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ ، وَقَالَ : إِذَا ذَبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجْهِزْ » .

والشفار : جمع شفرة وهى السكين ، وقوله فليجهز ، أى فليسرع ذبحها ويتمه .

وروى عبد الرزاق موقوفا : إن عمر رضى الله عنه رأى رجلا يسحب شاة برجله ليذبحها ، فقال له : ويلك ، قدها إلى الموت قودا جميلا .

وسيأتى إن شاء الله فى عهد الشفقة والرحمة على خلق الله مزيد أحاديث والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أن نبادر بالحج إذا استطعناه ، لاسيما عند خوفنا اخترام المنية ، ولا نتأخر لعلة دنيوية ، ولا لخوف الموت فى الطريق ، كما يقع فيه بعض من غلب عليه حب الدنيا وشق عليه مفارقة أهله وأوطانه وشربه الماء الحلو وأكله الفواكه وجلوسه فى الظل ، وجمعه المال من وظائفه وغير ذلك ، فيموت أحدهم من غير أن يحج حجة الإسلام ، وذلك فى غاية النقص ، فإنه لا يكمل أركان دين الغنى والفقير إلا بالحج .

وقد قلت مرة لبعض طلبة العلم : ألا تحج ؟ فقال لا أستطيع ، فقلت له : لماذا ؟ فقال : خوفا أن يسعى أحد على وظيفة تدريسى للعلم ، فقلت : هذا ليس بعذر شرعى ، فإن تدريس العلم ما شرع إلا بغير معلوم احتسابا لوجه الله ، وما أحد يعارض فى مثل ذلك ، فقال : أخاف أن يأخذها أحد لأجل المعلوم الذى فيها . فقلت له : كم عيالك ؟ فقال أربعة أنفس ، فقلت له : كم لك من المعلوم كل يوم ، فقال عشرة أنصاف غير معلوم هذه الوظيفة ، فقلت : إنها والله تكفيك ، فتهاون فى الحج حتى جاءه شخص فسرق من بيته قبيل موته نحو ثلثمائة ذهبا ، فدخلت له فقلت له : أين قولك إنك لا تستطيع الحج ، فقال حب الدنيا غلب على قلوبنا ، فقلت له : فيجب عليك أن تتخذ لك شيخا ليسلك بك الطريق حتى يخرجك من محبة الدنيا ، فقال لا أستطيع مجاهدة نفسى : فقلت له فاذهب من هذه الدار ، فقال ما هو بيدى ، فقلت له : قل اللهم اقبضنى إن كان الموت خيرا لى ، فقالها فمات بعد شهر رحمه الله .

واعلم يا أخى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل تكفير الخطايا إلا فى الحج

المبرور الذى لا إثم عليه، ومن يترك الصلاة فى الطريق أو يخرجها عن وقتها فهو عاص، يبر حجه فلا يكفر عنه حجه خطيئة واحدة، كما سيأتى الإشارة إليه فى الأحاديث.

فواظب يا أخى على الصلاة فى الطريق وحرر النية الصالحة وحج واعتمر عند القدرة وإلا خسرت فلوسك ودينك والله يتولى هداك.

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: « أَفْضَلُ الْعَمَلِ إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ ».

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا:

« أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى إِيمَانٌ لَا شَرْكَ فِيهِ، وَغَزْوٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وَحَجٌّ مَبْرُورٌ ».

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول: حجة مبرورة تكفر خطايا سنة. قال الحافظ: والمبرور هو الذى لا يقع فيه معصية.

وفى حديث جابر مرفوعا: « إِنَّ بِرَّ الْحَجِّ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ ».

وفى رواية: « وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ ».

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: « مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ».

ووفى رواية الترمذى: « غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ».

قال ابن عباس: والرفث هو ماروجع به النساء.

وقال الأزهرى: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة فيما يتعلق بالجماع.

وقال الحافظ المنذرى، ويطلق الرفث أيضا ويراد به الجماع، ويطلق ويراد به الفحش ويطلق ويراد به خطاب الرجل للمرأة فيما يتعلق بالجماع.

وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء، والله تعالى أعلم.

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ الْحَجَّ الْمَبْرُورَ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « إِنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ » .

وروى النسائى باسناد حسن مرفوعا : « جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ » .

وفى رواية لابن خزيمة فى صحيحه :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جِهَادٍ؟ قَالَ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ : الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « حُجُّوا فَإِنَّ الْحَجَّ يَغْسِلُ الذُّنُوبَ كَمَا يَغْسِلُ الْمَاءُ الدَّرَنَ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه قال : ولكن فى القلب من واحد من رواته شىء مرفوعا .

« إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى الْبَيْتَ أَلْفَ أَتْيَةٍ لَمْ يَرْكَبْ قَطُّ فِيهِنَّ مِنَ الْهِنْدِ عَلَى رِجْلَيْهِ » .

وروى أبو يعلى مرفوعا رواته ثقات إلا واحدا .

« مَنْ خَرَجَ حَاجًّا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحَاجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننفق فى الحج والعمرة بقدر وسعنا ، ولا نتكلف لما فوق مقامنا من الجمال أو المحفة أو المحارة أو مؤنة الأكل أو الحلاوات ، خوفا أن يعقبنا ندم لمعاملتنا غير الله مع إظهار أن ذلك لله تعالى ولا نتقرب إلى الله تعالى بشىء تنقبض النفس للإنفاق فيه عاجلا أو آجلا ، وإنما اللائق أن ينفق الإنسان ماله فى مرضاة الله وهو منشرح القلب والقالب ، وذلك لايكون إلا إذا أنفق من ماله حسب طاقته ، وإلا فمن لازمه غالبا ارتكابه الدين ودخول الفخر وحب السمعة فى حجه ، فإن من أوسع فى النفقة فوق طاقته فالغالب عليه وقوعه فيما ذكرنا

لاسيما إن كان شيخا أو عالما لا كسب له ، فان الإنسان ربما ساعدوه بالنفقة حتى الكشاف ومشايخ العرب وغيرهم من الظلمة ، إذ لو تبع الحل وتورع لما وجد فى هذا الزمان أجرة ركوبه على الحمل بلا محمل ، ولكن والله قد دخل الدخيل فى الأعمال لقلة الناصحين من العلماء والصالحين ، فإن من لا ينصح نفسه لا ينصح الناس ، ومن يغش نفسه فلا يبعد أن يغش الناس .

وقد حج صلى الله عليه وسلم على رحل رث يساوى ثلاثة دراهم ، ثم قال :

« اَللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا لاَ رِيَاءَ فِيهِ وَلاَ سُمْعَةَ » .

واعلم يا أخى أن كل من تكلف ودخله الفخر فى حجه فهو إلى الإثم أقرب ، فإياك يا أخى وقبول المعونة فى الحج ممن لا يتورع فى مكسبه ، كالتجار الذين يبيعون على الظلمة والمكاسين ولا يردونهم إذا اشتروا منهم ، أو كمشايخ العرب ، فان كسبهم يكاد أن يكون سحت السحت ، وكذلك جمالهم يأخذونها من بلادهم من الناس غصبا فى حجة حمول جماعة السلطان ، فربما أرسلوا لسيدى الشيخ جملا أو جملين فحج عليهما فيذهب غارقا فى المعصية ، إلى أن يرجع أو يموتا منه فى الطريق .

وإنما نبهناك يا أخى على مثل ذلك لعلمى بأن النفس غالبة على كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ أو لم تحفه عناية الله تعالى فيدخل أعماله العلل والرياء وحب الشهرة بالكرم أو السخاء فى الطريق ليقال ، فان أبا مرة لا يترك مثل هؤلاء يأتون بأعمالهم كاملة بل ولا ناقصة ، فيزين لهم أعمالهم ويهون عليهم المساعدة فى الحج بمال الظلمة ولا يكاد أحدهم يسلم له شىء من أعماله : وما رأت عينى فى الثلاث سفرات التى سافرتها أحدا حج من العلماء وتورع فى مأكله وملبسه مثل أخى الشيخ الصالح شمس الدين الخطيب الشربينى المفتى بجامع الأزهر فسح الله تعالى فى أجله ، فانى رأيته لا يقبل من أحد شيئا لنفقة نفسه فى الطريق ، ويكرى له جملا لا يكاد يتميز من جمال عرب الشعارة ويصير يمشى عن الجمل فى أكثر الأوقات ليلا ونهارا فيمشى ويتلو القرآن والأوراد ، ولا يركب إلا عند التعب الشديد رحمة بالجمل ، ثم يحرم مفردا فلا يحل من إحرامه حتى يتحلل أيام منى وأكثر أيامه صائما فى مكة وغيرها ، وإن جاءه غداء أو عشاء أطعمه لفقراء مكة وطوى ، ولا يمل من الطواف بالبيت ليلا ونهارا ، وفى طول الطريق يعلم الناس مناسكهم ولا تكاد

تسمع منه كلمة لغو يبدؤك بها فضلا عن كلمة غيبة فى أحد تعريضا أو تصريحا رضى الله عنه ، وزاده من فضله .

فحج يا أخى مثل هذا الأخ وإلا فلا تحج غير حجة الإسلام .

وقد رأيت شخصا آخر أقام من العلماء بمكة سنتين فجلست عنده نحو درجة فى الحجر فحرق فى أهل مكة ثم انتصل إلى علماء مصر فلا خلى ولا بقى ، فقلت له : يا أخى جلوسك فى هذه البلد معصية وجميع ماتحصله من الخير فى مكة لايرضى به واحد من هؤلاء العلماء الذين استغبتهم يوم القيامة ، بل أعرف منهم واحدا لايرضيه جميع أعمالك الصالحة فى غيبة واحدة ، فضلا عن أعمالك التى دخلها الدخيل ، ثم قلت له : لوعلم أهل مصر ماأنت منطو عليه ماحسدك أحد على هذه الإقامة بل كان يستعيذ بالله من حالك ، فياطول ماسمعتهم يقولون : هنيئا لفلان .

فإياك ياأخى أن تسلك هذا المسلك ، والله يتولى هداك .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح على شرط الشيخين .

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسَلم قَالَ لِعَائِشَةَ فِى عُمْرَتِهَا : إِنَّ لَكِ مِنَ الأَجْرِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ وَنَفَقَتِكِ » .

والنصب هو التعب وزنا ومعنى .

وروى الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى وإسناده حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« النَّفَقَةُ فِى الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِى سَبِيلِ اللهِ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » .

وفى رواية « الدِّرْهَمُ بِسَبْعِمِائَةٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَا أَمْعَرَ حَاجٌّ قَطُّ » .

قيل لجابر ما الإمعار؟ قال ما افتقر ورو ه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وروى الطبرانى والأصبهانى مرفوعا : « إِذَا خَرَجَ الْحَاجُّ حَاجًّا بِنَفَقَةٍ طَيِّبَةٍ فَنَادَى لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ زَادُكَ حَلَالٌ وَرَاحِلَتُكَ حَلَالٌ وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْخَبِيثَةِ فَنَادَى لَبَّيْكَ نَادَاهُ مِنَ السَّمَاءِ لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ زَادُكَ حَرَامٌ وَنَفَقَتُكَ حَرَامٌ وَحَجُّكَ مَأْزُورٌ غَيْرُ مَبْرُورٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعتمر فى رمضان إذا جاورنا بمكة أودخلنا فى رمضان ولانفوتها إلا لعذر شرعى ، فانه ورد أنها تعدل حجة ، وذلك لما عند الإنسان من الصفاء والنور فى رمضان لما هو عليه من الجوع وكثرة العبادة والأجر يعظم بحسب شدة القرب من حضرة الله تعالى ، ولا شك أن الجيعان يكاد يلحق بخدام أهل الحضرة من الملائكة والأنبياء بخلاف الشبعان ، فانه بعيد منها قريب من حضرة البهائم ، وأين عبادة المتدنس المتلطخ بالفواحش ، من عبادة المتطهر منها ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي » .

وفى رواية للبخارى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من التواضع فى الحج ، ونلبس ثياب الدون اللائقة بالخدمة فى السفر ، ونحرم فى العباية الغليظة دون الحسينى الرفيع ونحو ذلك مما يفعله التجار وغيرهم ، كل ذلك اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فعلم أنه لاينبغى لبس الثياب الرقيقة والفرجيات المحررات التى فيها خطوط حمر وخضر وصفر ونحو ذلك من لباس أهل الرعونات : لأن لثياب الزينة محلا مخصوصا ليس هذا موضعه . وقد اجمع أهل الله عز وجل على أن من كان فيه صفة الغنى أو رائحة التكبر لا يدخل حضرة الله تعالى ، ولا يحصل له شيء من الإمدادات التى تفرق على أهل تلك الحضرة قال تعالى :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) .

والمتكبر ولا بس الثياب الفاخرة فخرا ليس فيه صفة الافتقار ولا المسكنة ، إنما فيه صفة الجبابرة فينبغى لمن عادته فى بلده الملابس الفاخرة أن يبيعها كلها ويأخذ له ثيابا تناسب حالة الفقراء والمساكين فى الطريق حتى يرجع من الحج ، وربما زاد من تلك الثياب على مائة دينار ثم إن احتاج إلى صرف ثمنها فى مؤنة سفره نفقته وإن استغنى عنها تصدق منها صدقة مضاعفا كل درهم يرجح على ألف درهم فى الحضر ، فضلا عن ثواب

لبس الثياب الفاخرة بقصد إظهار النعمة ، فان لإظهار النعمة وقتا آخر ليس هذا موضعه ولعل لإركابه عاجزا مرحلة واحدة أفضل من حجه هو ، ولو أن ثيابه الفاخرة كانت معه فى الطريق ربما لا تنفعه لقلة من يشتريها فى السفر :

وكذلك ينبغى لمن يحج أن لا يستصحب معه الهدايا النفيسة من شاشات وأزر وحبر كما يفعله التجار لأن ميزان الحق منصوبة على من ورد تلك الحضرة ، ولم يقطع عنه علائق الدنيا بأجمعها ثم إنها ربما تسرق منه فى الطريق ، وإن لم تسرق منه نقص بعض رأس ماله فى الدين ، وكان الأولى له أن ينفق ثمنُ تلك الهدايا على فقراء مكة أويحملها معه لمن عجز فى الطريق عن النفقة ، أو عن المشى ، فينبغى للحاج أن تكون له بصيرة :

وقد رأيت شخصا من الفقراء أشرف على الموت من الجوع والعطش والتعب ، فجاء إلى شخص فى محمل عظيم فقال اسقنى لله أو ركبنى لله ، فقال يفتح الله عليك ، فقال أعطنى دينارا أركب به ، فقال مامعى شىء فصدقته لكونه مشهورا بالدين ، فرد الفقير وهو يقول فى سبيل الله دورانك فى هذه الجبال ، والله للقمة أو شربة ماء لفقير أرجح من طبل خاناتك ، ولوأن هذا الراكب فى المحمل كان عنده بصيرة لحسب حساب الفقراء والمساكين وأبقى لهم بقية نفقة ، وإلا ركب مقتبا ، فإن المحمل مشهور ، ويقصد الناس الراكب فيه ، فإن لم يقم بواجبه وإلا فليركب فى شىء مستور ، ثم إن راكب ذلك المحمل تخاصم مع زوجته تلك الليلة فسمعته يقول لها : لك معى سبعين بندقيا ، قم يافلان عدها من كيسى فتعجبت من رده ذلك السائل فى وادى النار ، قبيل الأزلم بمرحلة ممايلى الينبوع ، وقدبلغنى أن ذلك الفقير مات تلك الليلة ، فمثل هذا حجه إلى الاثم أقرب:

فإياك أن تتبعه فى مثل ذلك وقد تقدم فى عهد إطالة الجلوس فى المساجد وتخفيفه فى السوق نبذة صالحة فى آداب المسجدالحرام وبيان أن من الأدب أن لايبيت المقيم بمكة على دينار ولادرهم ، وهو يعلم أن فيها جائعا أو محتاجا ، وأن لايخطر على باله مدة إقامته بمكة معصية ، وأن لا يمسك طعاما أوشرابا إلا لضرورة فلا بأس بمراجعتها :

(وَاللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ) .

روى الترمذى فى الشمائل وابن ماجه عن أنس قال :

« حَجَّ النَّبِىُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ خَلِقَةٍ تساوى أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ أَوْ لاَ تُسَاوِى ثُمَّ قَالَ : اللهُمَّ حَجَّةٌ لاَ رِيَاءَ فِيهَا وَلاَ سُمْعَةَ » .

والقطيفة : كساء بال له خمل .

وروى البخارى أن أنسا رضى الله عنه حج على رحل ولم يكن شحيحا وحدث :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم حَجَّ عَلَى رَحْلٍ وَكَانَتْ زَامِلَةً » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء لاضرب ولاطرد ولا إليك إليك .

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة :

« أَنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَقَالَ : كَأَنِّى أَنظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاضِعاً أُصْبُعَهُ فِى أُذُنِهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهٰذَا الْوَادِى وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَسِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ هرْشَى فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلّم أَىُّ ثَنِيَّةٍ هٰذِهِ ؟ قَالُوا ثَنِيَّةُ هَرْشَى أَوْ لِفْتٍ قَالَ: كَأَنِّى أَنظُرُ إِلَى يُونُسَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ وَخِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهٰذَا الْوَادِى مُلَبِّياً » .

وثنية هرشى : قريبة من الجحفة ، ولفت بكسر اللام وفتحها ، هى ثنية جبل قديد بين مكة والمدينة. والخلبة : هو الليف كما ورد فى رواية أخرى .

وروى الطبرانى وإسناده حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فِى مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قُطْوَانِيَّتَانِ وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِ شَنُوءَةَ مَخْطُومٍ بِخُطَامِ لِيفٍ لَهُ ضَفِيرَتَانِ » .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن ابن عباس قال :

« كَانَ لَمَّا مَرَّ النَّبِىّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِوَادِى عُسْفَانَ حِينَ حَجَّ قَالَ : لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَى بَكَرَاتٍ خَطْمُهَا اللِّيفُ أُزُرُهُمَا الْعَبَاءُ وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ » .

وعسفان : موضع على مرحلتين من مكة. والبكرات : جمع بكرة بسكون الكاف وهى الفتية من الإبل. والنمار : جمع نمرة ، وهو كساء مخطط .

وروى الطبراني : « أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ حَجَّ عَلَى ثَوْرٍ أَحْمَرَ وَعَلَيْهِ عَبَاءَةٌ قُطْوَانِيَّةٌ » ورواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم .

وروى أبو يعلى والطبراني مرفوعا : « لَقَدْ مَرَّ بِالرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْهُمْ نَبِيُّ اللهِ مُوسَى حُفَاةً عَلَيْهِمُ الْعَبَاءُ يَؤُمُّونَ بَيْتَ اللهِ الْعَتِيقَ » .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَارَسُولَ اللهِ مَنِ الْحَاجُّ ؟ قَالَ الشَّعِثُ التَّفِلُ قَالَ: فَأَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ الْعَجُّ وَالثَّجُّ قَالَ: وَمَا السَّبِيلُ؟ قَالَ الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ ».

وفي رواية : « قَالَ فَمَا يُوجِبُ الْحَجَّ ؟ فَقَالَ الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » .

رواه ابن ماجه بإسناد حسن . والتفل : بفتح التاء وكسر الفاء ، هو الذي ترك الطيب والتنظيف حتى تغيرت رائحته . والعج : هو رفع الصوت بالتلبية أو التكبير . والثج : هو نحر البدن .

وفي حديث أحمد وابن حبان في وقوف الناس بعرفة مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ ، يَقُولُ عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا غُبْرًا » الحديث .

والشعث من الناس هو البعيد العهد بتسريح شعره وغسله ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرفع صوتنا بالتلبية ولا نتعلل بالحياء من الناس كما يفعله بعض الكبراء ، فإن ذلك وقت لا يراعى فيه إلا الله عز وجل .

والمراد بالتلبية ، إظهار العبودية وأننا أجبنا الداعي لنا إلى الحج ولم نتخلف تهاونا به ؛ وقد راعى الشارع صلى الله عليه وسلم رفع الصوت بذلك ، ولم يكتف بإذعان قلوبنا كما راعى أفعال الصلوات ولم يكتف بما في باطننا من الخضوع .

وقد قلت مرة لشخص من الأكابر ، أما ترفع صوتك بالتلبية؟ فقال : أستحي ، فما مهدت له دهليزا حتى رفع صوته إلا بعد جهد كبير ، وكل هذا من شدة الجفاء وعدم مخالطة أهل الشريعة ، فارفع صوتك يا أخي والله يتولى هداك .

وروى الترمذي وابن ماجه والبيهقي مرفوعا :

« مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي إلاَّ لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ » .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَأَمَرَنِي أَنْ آمُرَ أَصْحَابِي أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْإِهْلاَلِ وَالتَّلْبِيَةِ » .

زاد فى رواية ابن خزيمة وابن حبان :

« فَإِنَّهَا ـ يَعْنِي التَّلْبِيَةَ ـ مِنْ شِعَارِ الْحَجِّ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « مَا أَهَلَّ مُهِلٌّ قَطُّ وَلاَ كَبَّرَ مُكَبِّرٌ قَطُّ إِلاَّ بُشِّرَ قِيلَ يَا رسولَ اللهِ بِالْجَنَّةِ ؟ قَالَ نَعَمْ » .

وفى رواية للإمام أحمد وابن ماجه :

« مَا مِنْ مُحْرِمٍ يُضَحِّي لِلَّهِ يَوْمَهُ وَيُلَبِّي حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ إِلاَّ غَابَتْ بِذُنُوبِهِ فَعَادَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

ومعنى يضحى أى لا يجعل بينه وبين الشمس حجابا ، لأن الضح هو الحر والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من الطواف واستلام الحجر الأسود والركن اليمانى مدة إقامتنا بمكة المشرفة ، وكذلك نكثر من الصلاة فى المقام ، وندخل البيت ، لكن بعد الاستعداد بالجوع المفرط حتى تخشع وتذل نفوسنا فإن تلك حضرة لا أقرب منها فى سائر المساجد ، فإن خفنا من الزحمة اكتفينا بدخول الحجر ، فإنه من البيت إن شاء الله تعالى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شبع فى مكة فهو كالبهائم لأن الشبعان ينعقد عليه بخار الأكل كأنه بيضة فولاذ سابغة على جسمه فلا يكاد يصيبه شىء من مطر الرحمة النازل هناك ، ومن كان جائعا فكأنه عريان تحت المطر فيغرق فى الرحمة إن شاء الله تعالى .

وأخبرنى سيدى على الخواص أن سيدى إبراهيم المتبولى لما حج كلمته الكعبة وبشرته بقبول حجة تلك السنة ووقع بينه وبينها معاتبات ومباسطات اهـ .

وكذلك رأيت أنا فى الفتوحات المكية أن الشيخ أخبر أنه وقع بينه وبين الكعبة مراسلات ومخاطبات، وذكر أنه رآها ناقصة فى بعض المقامات فكملها وتتلمذت له حتى رقاها هكذا .

قال رضى الله عنه ولكل مقام رجال .

وسمعت سيدى عليا الخواص أيضا رحمه الله يقول إنما كان الحجر الأسود أسود لأنه ليس فى الألوان لون يدل على السيادة إلا اللون الأسود ، وأن معنى « سودته خطايا بنى آدم » أى جعلته سيدا بكثرة التقبيل ، قال وكذلك القول فى اسوداد جلد آدم لما خرج من الجنة إلى الأرض كان دليلا على حصول السيادة بخروجه من الجنة إلى الأرض ر خلافته ، وقد أجمع المحققون على أن الأنبياء لا ينقلون قط من حال إلا لأعلى منها اهـ .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : إنما أمر خواص بنى آدم عليه السلام بتقبيل الحجر مع كونهم أشرف من الحجر ابتلاء من الله تعالى لهم جبرا لما أخذت الخلافة فى الأرض من عبوديتهم ، لأن الخلافة تعطى الزهو والعجب ، فأمر كل خليفة بتقبيل ما هو دونه لينظر الحق تعالى وهو أعلم بمن ينقاد لأوامر الله تعالى ، ومن يتكبر عنها اهـ :

(وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد أنه قيل لعبد الله بن عمر ، مالى لا أراك تستلم إلا هذين الركنين الحجر الأسود والركن اليمانى ، فقال ابن عمر : إنما أفعل ذلك لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ اسْتِلاَمَهُمَا يَحُطُّ الخَطَايَا » .

قال : وسمعته أيضا يقول : « مَنْ طَافَ أُسْبُوعاً يُحْصِيهِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ » .

قال وسمعته يقول : « مَا رَفَعَ رَجُلٌ قَدَماً وَلاَ وَضَعَهَا إِلاَّ كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ » .

وفى رواية للحاكم وقال صحيح الإسناد :

« أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ ، إِنَّمَا أَفْعَلُ ذٰلِكَ لأَنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَسْحُهُمَا يَحُطُّ الخَطَايَا » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ طَافَ بِالبَيْتِ أُسْبُوعاً لاَيَلْغُو فِيهِ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ يَعْتِقُهَا » .

والعدل بالفتح المثل ، وماعاد الشىء من عين جنسه ، وبالكسر ماعادله من غير جنسه وكان نظيره .

وقال البصريون : العدل والعدل اثنان وهما المثل ؛

وروى الترمذى مرفوعا : « مَنْ طَافَ بِالبَيْتِ خَمْسِينَ مَرَّةً خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وقال البخارى : هو من قول ابن عباس رضى الله عنهما .

وروى الترمذى وقال حديث حسن وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الحجر :

« وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ » .

قلت : قال بعض المحققين وعلى هنا بمعنى اللام ؛

وقال الشيخ محيى الدين فى الفتوحات : الحق أن على هنا على بابها وأن الحق تعالى إنما كلف العبد أن يستلم الحجر بصفة عبوديته وافتقاره وذله لا بصفة ربوبيته وسيادته من كونه يقول : فعلت قمت قعدت ، ومن جهة كون الحق شرفه على غيره من الحيوانات ، فقوله : بحق أى بصفة لا تليق إلا بالحق كالكبرياء والعظمة ، فمن استلمه كذلك شهد الحجر عليه لا له ، وتأمل ذلك فإنه دقيق قال ولما أودعت الحجر الأسود شهادة التوحيد خرجت الشهادة عند تلفظى بها ؛ وأنا أنظر إليها بعينى فى صورة ملك وانفتح فى الحجر الأسود طاق حتى نظرت إلى قعر الحجر والشهادة قد صارت مثل الكعبة واستقرت فى قعر الحجر وانطبق الحجر عليها وانسد ذلك الطاق وأنا أنظر إليه ، فقال لى الحجر . هذه أمانة لك عندى أرفعها لك عندى يوم القيامة فشكرته على ذلك اه والله أعلم ؛

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن والطبرانى مرفوعا :

« إِنَّ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ مِنْ أَبِي قُبَيْسٍ لَهُ لِسَانٌ وَشَفَتَانِ » .

زاد فى رواية للطبرانى : « يَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَلَمَهُ بِالْحَقِّ، وَهوَ يَمِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح مرفوعا :

« نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْودُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ » .

وفى رواية لابن خزيمة : « أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنْ حِجَارَةِ الْجَنَّةِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجَنَّةِ غَيْرُهُ وَكَانَ أَبْيَضَ كَالْمَهَا، وَلَوْلاَ مَا مَسَّهُ مِنْ رِجْسِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا مَسَّهُ ذُوعَاهَةٍ إِلاَّ بَرِئَ » والمها مقصورة: جمع مهاة وهى البلورة .

وفى رواية لابن خزيمة: « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَاقُوتَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا سَوَّدَتْهُ خَطَايَا الْمُشْرِكِينَ ، يَبْعَثُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ أُحُدٍ » الحديث .

وروى الطبرانى موقوفا بإسناد صحيح :

« نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعَ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ كَأَنَّهُ مَهَاةٌ بَيْضَاءُ فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ وُضِعَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ »

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ ، وَلَوْلاَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى طَمَسَ نُورَهُمَا لَأَضَاءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم عن ابن عمر قال :

« اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَجَرَ ثُمَّ وَضَعَ شَفَتَيْهِ عَلَيْهِ يَبْكِي طَوِيلاً ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَبْكِي ، فَقَالَ : يَا عُمَرُ ؟ هُنَا تُسْكَبُ الْعَبَرَاتُ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما أن النبى صلى الله

عليه وسلم لما قبل الحجر بعد الطواف ، وضع يديه عليه ثم مسح بهما وجهه ، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أن نستعد للعبادة فى عشر ذى الحجة بإزالة الموانع التى تمنع العبد من شعوره بأوقات تقريبات الحق تعالى لتؤدى الأعمال الصالحة فيها على ضرب من رائحة الكمال كما مر فى ليالى القدر ، فإن من غلظ حجابه لا يشعر بأوقات المواهب ولا يحس بها .

وقد جعل الله تعالى تمام الأعمال بحضور العبد فيها مع الله تعالى ، وجعل نفعها بحسب ماغاب العبد عن شهوده لربه فيها .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كل من مرت عليه ليالى التقريب ولم ينقطع صوته من شدة البكاء والنحيب فكأنه نائم ، فوالله لقد فازأهل الله تعالى بمجاهدتهم لنفوسهم حتى لم يبق لهم مانع يمنعهم من دخول حضرة الله تعالى فى ليل أو نهار ، ووالله لو سجدوا على الجمر ما أدوا شكر الحق تعالى على إذنه لهم فى الدخول إلى حضرته لحظة واحدة فى عمرهم ، ووالله لو وقف المريدون على الجمر بين يدى أشياخهم من منذ خلق الله الدنيا إلى انقضائها لم يقوموا بواجب حق معلمهم فى إرشادهم إلى إزالة جميع تلك الموانع التى تمنعهم من دخول حضرة الله عز وجل . وإذا كان العبد يحب من أعطاه العزيمة والبخور حتى فتح المطلب ولا يكاد يبغضه مع كون ذلك مكروها لله عز وجل ، فكيف بمن يعطيه الاستعداد الذى يدخل به حضرة الله عز وجل حتى يصير معدودا من أهلها بل من ملوك الحضرة والله إن أكثر الناس اليوم فى غمرة ساهون ، نسأل الله اللطف بنا وبهم .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لايطلب من غالب أهل هذا الزمان كمال مقام الإيمان فإنه متعذر جدا ، وإنما السعيد كل السعيد من خرج من الدنيا ومعه رائحة الإيمان ، ومن ادعى منهم كمال الإيمان ، كذبته أفعاله من الانهماك على الدنيا وندمه على فواتها أكثر من ندمه على فوات مجالسة الله عز وجل .

وسمعته يقول أيضا من علامة نقص الإيمان فى العبد عدم تأثره على فوات شىء من مرضاة الله عز وجل وعدم حفظه لجوارحه مع علمه بأنه يحاسب على جميع ما فعل .

وقد قدمنا عن الحسن البصرى أنه كان يقول : أدركنا أقواما كنا فى جنبهم لصوصا ولو رأوكم لقالوا إن هؤلاء لايؤمنون بيوم الحساب .

وقد كان مالك بن دينار يقول . والله لو حلف إنسان بأن أعمالى أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له صدقت ، لا تكفر عن يمينك ، فتأمل ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى البخارى والترمذى وأبو داود وابن ماجه والطبرانى وغيرهم مرفوعا :

« مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ هٰذِهِ الأَيَّامِ يَعْنِي أَيَّامَ عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، إِلاَّ رَجُلاً خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ » .

وروى الترمذى وابن ماجه والبيهقى مرفوعا :

« مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يُتَعَبَّدَ لَهُ فِيهَا مِنْ عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ يَعْدِلُ صِيَامُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا بِصِيَامِ سَنَةٍ وَقِيَامُ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْهَا بِقِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وفى رواية للبيهقى : « إِنَّ الْعَمَلَ فِيهِنَّ » يعنى فى ليالى عشر ذى الحجة « يُضَاعَفُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » .

وروى البيهقى والأصبهانى باسناد لابأس به عن أنس بن مالك قال : كان يقال فى أيام عشر ذى الحجة كل يوم ألف يوم ، ويوم عرفة عشرة آلاف يوم ، يعنى فى الفضل ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد لوقوف عرفة بتلطيف الكثائف وإزالة الحجب المانعة من قبول الدعاء من الغذاء الحرام ، والثياب الحرام ، ووجود دغل أو حقد أو حسد فى القلب لأحد من المسلمين ، فان تلك مواضع ذل وانكسار ، وبكاء وعويل ، وأكل الحرام ولبسه يقسى قلب العبد ، ومن أعظم دواء لحصول رقة القلب الجوع الشرعى يوم التروية وليلة عرفة ، وهذا أمر قل من يتنبه له من الحجاج فيأكل أحدهم اللحم والطعام حتى يشبع ويطلب رقة قلبه يوم عرفة فلا يقدر ، ويريد يبكى على ذنوبه فلا يقدر ، وقد ورد القلب القاسى بعيد عن الله ثم بتقدير قربه من الله فهو لا يرجو إجابة دعائه عقوبة له فلا يستجاب له ، لأن الله تعالى عند ظن عبده به ومن ظن بالله أنه لا يجيب دعاءه لم يجيبه .

ثم مما لا يخفى عليك يا أخى ، تحريم رؤيتك نفسك على أحد من الخلق فى عرفات

لأنه موقف لايناسبه إلا الذل والمسكنة ، وقد قبل رجل فيه رجل سيدى أفضل الدين رحمه الله ، فكاد أن يذوب من الحياء من الله تعالى وصار يضرب بيده على وجهه ، فاعلم يا أخى أنك متى رأيت نفسك على أحد هناك فربما رمت المغفرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم وازدراء أحد ممن وقف بعرفة من جمال أو عكام أو غيرهما ممن لايؤبه له ، فإن الجماعة الذين يغفر الله لأهل الموقف كلهم بدعائهم من شأنهم الخفاء والتستر بحجب العوائد حتى لايكادوا يتميزون عن عامة الناس بعمل ، فمن ازدرى مثل هؤلاء مقته الله ورجع بلا مغفرة عقوبة له قال وهم عدد قليلون ، تارة يكونون ستة وتارة ثلاثة وتارة واحدا ، فيغفر الله تعالى لأهل الموقف كلهم بشفاعة هؤلاء .

فينبغى للعاقل مراعاة هذا الأدب فى كل مجمع أشد من غيره ، فإن المجمع لا يخلو غالبا عن ولى مستور يحضر فيه مع الناس يغفر لهم بسببه ، حتى قال بعض العارفين : لايجتمع ثلاثة قط إلا وفيهم ولى لله تعالى أو ولية .

وقد أخبرنى سيدى على الخواص أن شخصا من العلماء استأذنه فى الحج سنة من السنين فقال الشيخ له لا تسافر تمقت فقال : كيف أمقت بالحج ؟ ثم خالف وسافر إلى مكة فحضر وقت الخطبة فنهض قائما وقال : يا أهل مكة جمعتكم باطلة ، فان شرطها أن يسمعها أربعون رجلا من أهل الجمعة ، وما هنا إلا مسافرون ، وكانت الناس متفرقين فى ظل الكعبة من شدة الحر ، فوقع لذلك ضجة عظيمة وأعادوا الخطبة ، وكان من جملة من كان حاضرا هناك القطب والأوتاد والأبدال ومن شاء الله تعالى من أوليائه ، فرجع ممقوتا. قال الشيخ على الخواص : فأول مارأيته حين دخل مصر وجدته ممقوتا كالجلد الذى لاروح فيه ، ثم قال لى : تقول لى إن حججت تمقت ولولا حضورى هناك فى هذه السنة بطلت جمعة أهل مكة فى الموسم ، قال الشيخ : فعرفت تمكن المقت منه من القطب والأولياء الحاضرين هناك اهـ .

وقد رأيت أنا صاحب هذه الواقعة ، وقد نزع الله تعالى منه الاعتقاد فى سائر العلماء والصالحين فلا تكاد تذكر له أحدا إلا جرحه ، وكان مع ذلك يقرأ كل يوم ختمة .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى مرارا يقول : أنا خائف على هذا الرجل من الموت على غير حالة مرضية فقلت : ولو أن هذا المنكر كان عنده أدب لعلم أن

لله تعالى رجالا يسمعون كلام من بينهم وبينه مسيرة ثلاثين ألف سنة وراثة إبراهيمية .

وقد وقع لى فى ابتداء أمرى أنى كنت أسمع كلام من فى أقطار الأرض من الهند والصين وغيرها ، حتى انى كنت أسمع كلام السمك فى البحار المحيطة ، ثم إن الله تعالى حجب ذلك عنى وأبقى معى العلم كى لا أنكر مثل ذلك على أحد .

وكان سيدى أحمد بن الرفاعى يتكلم على الكرسى بأم عبيدة فيسمعه من حولها من القرى :

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وحكى الشيخ يوسف الحريثى رحمه الله قال : لما حججت سهرت ليلة فى الحرم خلف المقام وكانت ليلة مقمرة فلما راق الليل دخل جماعة يخفق النور عليهم فطافوا وصلوا خلف المقام ، وجلسوا يسيرا ، فجاءهم شخص وقال : يعيش رأسكم فى الشيخ على ، فقالوا رحمه الله ، فقال : من يكون موضعه ؟ فقالوا : حسن الخلبوص بناحية زفتى بالغربية ، فقال : أناديه فقالوا نعم ، فقال ياحسن ، فإذا هو واقف على رؤوسهم عليه ثوب معصفر ، ووجهه مدهون بالدقيق وعلى كتفه سوط ، فقالوا له كن موضع الشيخ على ، فقال على الرأس والعين وذهب ، فلما رجعت إلى بلادى فقصدته بالزيارة فى خان بنات الخطاء فوجدت واحدة راكبة على عنقه ويداها ورجلاها مخضوبتان بالحناء وهى تصفعه فى عنقه ، وهو يقول لها برفق ، فإن عيناى موجعتان ، فأول ما أقبلت عليه قال لى مبادرا يافلان زغلت عينك ، وغرك القمر ماهو أنا فعرفته أنه هو ، وأمرنى بعدم إشاعة ذلك .

وحكى سيدى محمد بن عنان رحمه الله قال : حججت سنة من السنين فلما وقفت بعرفة قلت فى نفسى ، ياترى من هو صاحب الحديث اليوم فى هذا الموقف ، فإذا بالقائل يقول لى : هو أبو على معداوى دجوة ، فلما رجعت إلى مصر قصدته بالزيارة فإذا هو رجل زفر اللسان ، يشتم الناس وفى رجليه مركوب مكعوب ، وعمامته مخططة بأزرق كعمامة النصارى ، فأول ما رآنى ، قال لى اكتم مامعك ، ثم عزم على وأدخلنى داره . وضيفنى ، فقلت له بم نلت هذه المنزلة ؟ فقال لا أعلم ولكنى رأيت صبيا فى جامع فى قماطه فأخذته وأعطيته لامرأة فى بلد أخرى ترضعه وجعلت لها أجرة وأشعت أنه ولدى ليس فى ثدى أمه لبن ، فلم أزل أتردد إليه حتى كبر وفطم ، فإن كان الله تعالى أعطانى شيئا فهو لسترى على أم ذلك المولود ، قال : ثم أخذ على العهد بالتستر له ، وقال إياك ثم إياك أن تذكرنى بذلك حتى أموت اهـ .

ورأيت سيدى عليا الخواص يرسل الناس الذين لهم حوائج عند الله تعالى ويقول لهم : روحوا إلى جامع الملك الظاهر بمصر يوم الأربعاء فى صلاة العصر فاسقوا الشجرة النبق التى فيه، وقولوا : ياأولياء الله اقضوا حاجتى نقض حاجتكم ، فكانوا يذهبون ويسقونها فيقضى الله حوائجهم ، فبلغ ذلك العالم الذى قدمنا أنه مقت فأنكر على الشيخ وقال إيش خلى هذا لعباد الأوثان ؟ فأعلمت الشيخ بذلك، فقال : إنما أرسل الناس فى حيلة سقى الشجرة سترة للأولياء الذين يجتمعون تحتها يوم الأربعاء ليقضوا حاجة كل من راح هناك حين يسمعونه يذكر ذلك للشجرة ، وكان ذلك كاللغز بينه وبين الأولياء الذين يصلون العصر تحتها فى كل يوم الأربعاء ، وإلا فهو يعلم أن الله تعالى لم يجعل للشجرة قضاء حاجة أحد من الناس، ولولا أن الأولياء الذين يحضرون يحبون الخفاء ويتشوشون من إظهارهم للناس لكان الشيخ يرسل الناس إليهم دون الشجرة ، فلذلك راعى الشيخ خواطرهم .

وسمعته مرة يقول : لله تعالى رجال إذا مروا على جماعة من العصاة فسلموا عليهم أمنهم الله من عذابه ، ولله رجال أقامهم فى قضاء حوائج الناس فيقضون حوائجهم فى السر ثم يرسلونهم إلى من اشتهر بالصلاح فى بلدهم لتقضى حاجتهم ظاهرا لا باطنا ، ويسترون بذلك نفوسهم ويكبرون بغيرهم ممن لا سر له ولا برهان ، ثم يسألون الله أن يحميه من الدعوى ، ولله رجال يسقون الناس الماء فى الأسواق وعلى الأسبلة التى على الطرقات ، فلا يشرب أحد منهم إلا ويملئونه مددا ، فيقوم ذلك مقام الأخذ للطريق ، ولله رجال نصبهم لتحمل البلايا والمحن عن أهل بلدهم أو إقليمهم ، ومع ذلك فهم يبغضونهم وينكرون عليهم ليلا ونهارا فلا يصدهم الإنكار عن تحملهم البلايا عنهم ، فيبيت الولى منهم سهرانا بالضارب تنام الإنس والجن وهو لا ينام والناس يضحكون ويلعبون ويتلذذون بالنساء على الفرش لايحسون بشىء مما تحملوه عنهم مما كان نازلا عليهم ولله رجال يسألون الله تعالى أن يكبر جثتهم فى النار لأجل تحقيق الوعد من الله بملئها فيحملون عن آلاف من العصاة حرقهم بالنار ، وهذه فتوة ما سمعنا بمثلها إلا عن الشبلى رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان يقول : أتمنى على الله تعالى أن يكبر جثتى فى الآخرة حتى يملأ بها طباق النار كلها ولا يدخل أحد من هذه الأمة النار محبة فى نبيها محمد صلى الله عليه وسلم اه .

وسمعته مرة أخرى يقول : إياكم أن تزدروا أحدا من أصحاب الحرف الدنيئة ،

كالقراد والمخيط والشوذب ، فإن الله تعالى ربما أعطاهم القوة على سلب إيمان العلماء والصالحين حال رؤية العالم أو الصالح نفسه عليهم ، فإن أكبر الأولياء يقدر على سلبه أصغر الناس إذا رأى نفسه على أحد من الخلق .

كما حكى عن سيدى محمد بن هرون الذى كان أخبر بسيدى إبراهيم الدسوقى وهو فى ظهر أبيه ، إنه كان إذا خرج من صلاة الجمعة يشيعه الناس إلى داره ، لا يكاد أحد منهم يقدر على التخلف عنه اغتناما لرؤيته ولحظه ، فمر يوما على صبى تحت حائط يفلى ثوبه من القمل وهو ماد رجليه لم يضمهما ، فقال سيدى محمد فى سره هذا الصبى قليل الأدب ، يمر عليه مثلى ولا يضم رجليه ، فسلب لوقته ، وتفرقت عنه الناس ، فما وصل داره ومعه أحد ، فتنبه لنفسه ورجع للصبى يستغفر فى حقه ، فلم يجده فسأل عنه أين ذهب ؟ فقال له : هذا صبى القراد ولعله ذهب إلى الإسكندرية ، فسافر الشيخ إليه فلم يجده فقالوا له : لعله سافر إلى المحلة الكبرى ، فرجع إلى المحلة فلم يجده ، فقالوا لعله سافر إلى مصر فرجع الشيخ إلى مصر فوجده فى الرميلة فلما وقف على الحلقة ، قال القراد الكبير للصبى ، أقم وجهك هذا زبونك جاء فتلاهى عن الشيخ حتى فرغ من اللعب ثم دعاه ، وقال : مثلك فى العلم والصلاح والشهرة ينبغى له أن يخطر فى باله أنه خير من أحد من خلق الله عز وجل ، أما تعلم أن ذلك ذنب إبليس الذى طرد لأجله عن حضرة الله عز وجل ، فقال : التوبة فقال وكلنا نتوب عن مثل ذلك ، ثم قال المعلم للصبى ياقريمزار أين وضعت علمه ومعارفه حين سلبته ، فقال فى قلب السحلية التى كنت أفلى قميصى عند شقها فى الحائط الفلانى ، فقال له : رد عليه حاله فقال قريمزار ، قل لها بأمارة ما وضع لك قريمزار اللباب على باب شقك ردى إلى حالى ؛ فذهب سيدى محمد بن هرون إلى بلده ونظر فى شقها وذكر لها الأمارة ؛ فخرجت ونفخت فى وجهه فرد عليه حاله وإذا بالخلق انقلبت إليه يقبلون أقدامه حتى أذى بعضهم بعضا من الزحام ؛ ثم أخذ الشيخ هدية لقريمزار وسافر إليه فقال له كيف ترى نفسك بعلم تستقل بحمله سحلية ؟ فمن ذلك الوقت ما ازدري الشيخ أحدا من خلق الله حتى مات .

فانظر ياأخى كيف أخذ سيدى محمد بن هرون مع جلالة قدره حتى سلبه صبى قراد .

وحكى الشيخ الإمام العالم العلامة السيد الشريف بزاوية الحطاب بمصر ، قال : كان ابن البساطى شيخ سوق الوراقين ممحونا بابنة عمه ، فرأت يوما فى فخذه بدو البرص

خنفرت منه إلى بيت أهلها فحصل له غم شديد ، فخرج إلى السوق فبينما هو مغموم إذ وقف عليه شخص مشهور بالخلاعة فيقف على الواحد يطلب منه جديدا ، فإذا أعطاه له لايفارقه حتى يقول له سكنى عشر سكان ، فأعطاه ابن البساطى الجديد ، فقال أعطنى السلك فقال ياسيدى الشيخ أعتقنى من ذلك فانى مغموم ، فما زال به حتى أخرج عينه فيه وسكه عشر سكات ملاح ، فقال له حاجتك مقضية من جهة ابنة عمك ، ولكن هات لنا فى المقبرة الفلانية تحت الجبل المقطم أربعين رغيفا ، فى كل رغيف نصف رطل جبن مقلى ، وهات معك إبريقا كبيرا ملآن ماء ، ففعل ذلك وحمله عند الفجر ، ثم نظر من شق الباب فوجد جماعة مطرقين عليهم خمر وهيبة ينتظرون صلاة الصبح ، وإذا بالرجل الذى سكه أمامهم فقال للحاضرين : من يقضى حاجة هذا الذى على الباب ويدخل مامعه؟ فقال شخص أنا ، ففتح الباب وكشف عن عورة ابن البساطى ، ومسح بريقه على موضع البرص فذهب لوقته ثم قال له هاهى خارجة من بيت عمك ، جاءت إلى بيتك ، فرجع فوجدها فى البيت فقال لها من جاء بك ؟ فقالت حصل لى غم ما كنت إلا مت ، فلولا جئت لك طلعت روحى ، فكتم ذلك عنها فبعد أيام ؛ وإذا بالشيخ داخل سوق الوراقين وهو يقول : ما يضر الإنسان غير لسانه فكل من رأى شيئا وقال لا رأيت ولا نظرت سلم ، وكل من قال رأيت رد إليه كل شيء إلى موضعه يعرّض بتلك الواقعة ، فلما وصل إليه قال أعطنى جديدا ، فقدم إليه الحق الذى فيه الغلة ، وقال ياسيدى : خذ ما تختار ، فقال ما آخذ إلا الجديد ، فأعطاه له : فقال كمل لى عادتى بالسلك فذاب ابن البساطى من الحياء ولا يقدر يفشى سره ، فقال له تشفعت عندك بسيد المرسلين تعتقنى من السلك ، فقال له : عتقتك بشرط الكتمان ، فلم يتكلم ابن البساطى بذلك حتى علم بموته .

وحكى لى شيخ الإسلام المحدث الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى بمصر عن شيخ الإسلام صالح البلقينى أن والده الشيخ سراج الدين مر يوما ما بباب اللوق فوجد هناك زحمة . فقال ما هذه الزحمة ؟ فقالوا له : شخص من أولياء الله يبيع الحشيش ، فقال لو خرج الدجال حينئذ فى مصر لاعتقدوه من شدة جهلهم . كيف يكون شخص حشاش من أولياء الله؟ إنما هو من الحرافيش ثم ولى فسلب الشيخ جميع مامعه حتى الفاتحة ، فتنكرت عليه أحواله وصارت الفتاوى تأتى إليه فلا يعرف شيئا ، ونسى ما قاله فى حق الحشاش ، فمكث كذلك فى مدرسته بحارة بهاء الدين ثلاثة أيام ، فدخل عليه فقير فشكى إليه حاله

فقال هذا من الحشاش الذى أنكرت عليه ، فإن الفقراء أجلسوه هناك يتوب الناس عن أكل الحشيش فلا يأخذها أحد من يده ويعود إلى أكلها أبدا حتى يموت ، فأرسل استغفر له يرد عليك حالك ، فأرسل له فبمجرد ما أقبل الرسول أنشده الشيخ :

نَحْنُ الْحَرَافِيشُ لاَ نَسْكُنْ عَلاَلِي الدُّورْ وَلاَ نُرَائِي وَلاَ نَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورْ

نَقْنَعْ بِلُقْمَةٍ وَخِرْقَةٍ فِي مَسْجِدٍ مَهْجُورْ مَنْ كَانَ ذَا الْحَالُ حَالَهُ ذَنْبُهُ مَغْفُورْ

فلو كنا عصاة نبيع الحشيش ما أقدرنا الله على سلب شيخ الإسلام ، ثم قال له : سلم على شيخ الإسلام ، وقل له اعمل أربعة خراف معاليف شواء وأربعمائة رغيف وتعال اجلس عندى ، وكل من بعته قطعة حشيش ن له رطلا وأعطه رغيفا ، فشق ذلك على شيخ الإسلام ، فما زال به أصحابه حتى فعل ذلك ، وصار يزن لكل واحد الرطل ويعطيه الرغيف والشيخ يتبسم ، ويقول : نحن نحليهم فى الباطن وأنت تحليهم فى الظاهر ، إلى أن فرغ الخرفان ثم قال له : اذهب إلى الديك الذى فوق سطح مدرستك فاذبحه وكل قلبه يرد لك علمك ، فبالله عليك كيف تتكبر على المسلمين بعلم حله الديك فى قلبه ، فمن ذلك اليوم ماأنكر الشيخ البلقينى على أحد من أرباب الأحوال .

هذه حكاية الشيخ أمين الدين عن والده الشيخ سراج الدين وكان قبل ذلك ينكر على سيدى على بن وفا أشد الإنكار ، حتى أنه تنكر ودخل من جملة المغاربة الذين يحضرون ميعاد سيدى على فرأى الشيخ سراج الدين فى رجله حبلا معقودا ، وسيدى على يحل عقده ، والشيخ سراج الدين يعقدها وهو بين النائم واليقظان ، فأنشده سيدى على قصيدته التى أولها :

يَا أَيُّهَا الْمَرْبُوطُ إِنَّا نُرِيدُ حَلَّكْ وَأَنْتَ تُرِيدُ تَرْبِطُ رِجْلِي إِلَى رِجْلِكْ

إلى آخرها ، فلما وقعت له هذه الواقعة مع الحشاش تاب إلى الله عن الإنكار ، وأوصى أن سيدى عليا يصب عليه الماء إذا مات ففعل له ذلك سيدى على بن وفا وقال والله رجع أمرك إلى سلامة .

وقد وقع للشيخ أبى بكر الدقوسى شيخ سيدى عثمان الحطاب وقائع غريبة مع هذا الحشاش وكان يتردد إليه كثيرا ويرسل له أصحاب الحوائج فيقضيها لهم على أتم حال ؛ وكان يقول ما أخذها أحد من يده وعاد إلى بلعها .

وحكى الشيخ محمد الطنيخى عن إمام جامع سمانود أن شخصا كان ينام فى المحراب بثياب دنسة ، فكان كلما أراد أن يقف فى المحراب يجده نائما فيه فسماه عجل المحراب ، فجاء الإمام يوما فغمزه برجله فى جنبه ، فقام وعيناه كالدم الأحمر فمسك الإمام ودفعه فى المحراب فوجد نفسه فى أرض قفراء وعرة فتعرجت رجلاه من المشى ، فقطع عمامته ولف منها على رجليه ، فلما تعب تراءت له شجرة فقصدها فإذا عندها عين ماء ، وإذا بأثر أقدام توضأت وذهبت فتبع الآثار فوجد جماعة كثيرة فى عطفة جبل ، وإذا بالرجل الذى كان ينام فى المحراب هو شيخ الجماعة وعليه ثياب نظيفة ، فالتفت إلى أصحابه وقال هل رآنى أحدمنكم يوما وأنا عجل بقر فقالوا لا ، فقال قولوا لهذا ، فقال الإمام أستغفر الله وتاب فأشار الشيخ إلى واحد من الجماعة فدفعه إلى جامع سمانود فقام ودفعه فوجد نفسه خارجا من حائط المحراب والناس ينتظرونه فى صلاة العصر فأخبرهم بالقصة ، وأن تلك الأرض القفراء سفر سنة كاملة عن مصر .

هذه حكاية الشيخ شمس الدين الطنيخى رواية عن صاحب الواقعة .

وحكى الشيخ الصالح أحمد بن الشيخ الشربينى أنه كان مجاورا بمكة واشتاق إلى والدته بشربين ، وليس معه دراهم يكرى بها ولا ركب يسافر إلى مصر ، فبينما هو كذلك إذ وجد رجلا مبتلى بالمسعى ينكر عليه أهل مكة أشد الإنكار ، ففاجأه بالكلام وقال تريد تروح إلى مصر فقال نعم ، فدفعه وإذا به على باب داره بشربين هذه حكاية لى ، وأخبرنى أنه كان صاحب الشفاعة لأهل الموقف فى سنة ثلاثة وعشرين وتسعمائة .

وحكى الشيخ نور الدين الشونى أن شخصا فى قنطرة الموسكى كان مكاريا يحمل النساء من بنات الخطا وكان الناس يسبونه ويصفونه بالتعريص ، وكان من أولياء الله تعالى لا يركب امرأة قط من بنات الخطا وتعود إلى الزنا أبدا ، فقال للشيخ نور الدين له : بم وصلت إلى هذه المنزلة فقال باحتمال الأذى .

قال : وأخبرنى أن شخصا من مماليك السلطان الغورى ركب حماره البارحة وساقه إلى ناحية مصر العتيق ، ثم عدى إلى الروضة ثم إلى الجيزة حتى وصل إلى الأهرام والشيخ يجرى وراءه مع عجزه ، فطلب الشيخ منه أجرته فضربه بالدبوس حتى دغدغ أكتافه وكان قادرا أن يسأل الله تعالى أن يخسف به الأرض فيخسفها به .

قال الشيخ نور الدين : وأخبرنى شخص عن هذا المكارى أن شخصا طلب منه أن

يحمله إلى زاوية الخلفاء التى بين السورين فحمله فى ساعة إلى الحرام المدنى فقال أنزل فهذه زاوية الخلفاء فزار ورجع بجراب تمر إلى بيته بزاوية الخلفاء فأعطاه أجرته دينارا فرده وأخذ عثمانيا اه

وكان سيدى على الخواص رضى الله عنه يرسل أصحاب الحوائج إلى شخص يبيع الفجل على باب جامع الأزهر فيقضيها لهم فى الحال .

وجاءه شخص وفى حلقه علقة صارت مثل السمكة فقال له اذهب إلى الرجل الذى يبيع الفجل على باب جامع الأزهر وأعطه جديدا ، وخذ منه حزمة فجل فكلها ففعل الرجل فأكل منه ورقة واحدة فعطس فطلعت العلقة من حلقه .

وأخبرنا الشيخ أن هذا الرجل كان لا يأكل أحد من فجله وببدنه مرض من جذام أو برص أو غيرهما إلا شفى .

وسمعته يقول : إن الله تعالى أعطى أرباب الأحوال فى هذه الدار التقديم والتأخير والولاية والعزل والقهر والتحكم على الله تعالى الذى هو الإدلال عليه ونفوذ الأمر فى كل ما أرادوه من الأمور ، فإياكم والإنكار على أحد إلا بعد التوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحفظكم من ذلك الرجل وإلا فربما مقتكم فهلكتم .

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى يقول : أرباب الأحوال مع الله كحالهم قبل خلق الخلق وإنزال الشرائع اه .

قلت : ورأيت عند سيدى على الخواص إبريقا كبيرا يضمه فى حانوته بجنبه ليس فيه غير الإبريق ، وكان يزن أجرة الحانوت كل شهر نصفين لأجل هذا الابريق وكان كل من جاءه مكروبا فى أمر عظيم كخوف القتل فما دونه يقول له افتح هذا الباب واشرب من الإبريق الذى هناك بنية قضاء حاجتك ، فكان الناس يفعلون ذلك فتقضى حوائجهم ، فقلت له فى ذلك ، فقال إن الأربعين يشربون منه كل ليلة ، وكان الابريق يخبرهم بحاجة كل من شرب منه عقب شربه فيقضون حاجته .

فتأمل فى هذه الحكايات فإنها غريبة ، وإنما ذكرتها لك لتحفظ الأدب ولا تقول أبدا إنك خير من أحـــد من خلق الله تعالى ، لعلمى بأن مثل ذلك هو ذنب إبليس الذى طرده الله ولعنه بسببه .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو يعلى والبزار وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« وَمَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِّينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي. فَلَمْ يُرَ أَكْثَرَ عِتْقًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ عَرَفَةَ » .

قوله ضاحين : بالضاد المعجمة والحاء المهملة أى بارزين للشمس غير مستترين منها يقال لكل من برز للشمس من غير شيء يظله ويكنه ضاح .

وروى البيهقي مرفوعا :

« إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَتِهِ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا مُرْهَقًا ، وَفُلَانًا كَذَا ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ » .

والمرهق: هو الذى يغشى المحارم ويفعل المفاسد .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ يَوْمَ عَرَفَةَ غُفِرَ لَهُ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى عَرَفَةَ » .

قلت : فهذا سبب قولى: أول العهد أن نستعد للوقوف بالجوع ، فإن العبد إذا جاع ثلاثة شبعت جوارحه وانكفت عن المحارم ، بخلاف ما إذا شبع. وفى هذا الحديث تأييد لما قدمناه من أن كل طاعة إذا سلمت من الآفات حفظ صاحبها من المعاصى إلى مثلها ، وتقدم بسطه فى عهد صوم رمضان فراجعه ، والله تعالى أعلم .

وروى البيهقى وقال ليس فى إسناده من نسب إلى وضع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَقَفَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِالْمَوْقِفِ فَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِائَةَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا

صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَعَلَيْنَا مَعَهُمْ مِائَةَ مَرَّةٍ ، إلا قَالَ اللهُ تَعَالَى يَا مَلَائِكَتِي مَا جَزَاءُ عَبْدِي هٰذَا ، سَبَّحَنِي وَهَلَّلَنِي وَكَبَّرَنِي وَعَظَّمَنِي وَعَرَّفَنِي وَأَثْنَى عَلَيَّ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّي؟ اشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَشَفَّعْتُهُ فِي نَفْسِهِ وَلَوْ سَأَلَنِي عَبْدِي هٰذَا شَفَّعْتُهُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نأتى بالمناسك كلها كما وردت ، فنقدم ما قدم صلى الله عليه وسلم ونؤخر ما أخر ؛ ولو خيرنا صلى الله عليه وسلم اخترنا الكيفية التى فعلها هو فى حجة الوداع ، وهى معروفة عندنا فى كتب الأدلة ، سواء عقلنا الحكمة فى التقديم أم لم نعقلها . فلا يقال لأى شيء إذا دخل الحجاج مكة طافوا بالبيت ثم يخرجون إلى عرفات التى هى طرف الحرم ثم يرجعون ثانيا ، لأنا نقول إنما نفعل ذلك اقتداء بأبينا آدم عليه السلام لما حج من الهند ، فكان اقتداؤنا به فى الخروج من الحرم إلى خارجه ثم دخولنا ثانيا أولى ، مع أن العقل ، يقتضى بأن من وصل إلى حضرة الملك من أى طريق كان ، لا معنى لخروجه ، ثم دخوله ثانيا ، لأن الكعبة هى المقصود الأعظم ، مع أنا لم نعقل ذلك إلا بأمر الشارع لابعقولنا ، فحكمنا حكم ماإذا كان فى حضرة الملك جماعة ثم أرسل لهم الملك أن اخرجوا إلى حاجة كذا وكذا ، فإن من الأدب ذهابهم إلى تلك الحاجة ، فلوتخلفوا فى الحضرة عصوا . وأيضا فإن من يأتى حضرات الملوك من غير طرقها المعتادة لا يحصل له من العلم ما يحصل لمن سلك الطريق التى دخل منها الأنبياء والأولياء .

ولكن لايخفى أن من رحمة الله تعالى وشفقته على عباده أنه أذن لهم أن يدخلوا مكة قبل الوقوف لما علم عندهم من شدة الشوق ليحصل لهم التبريد لبعض أشواقهم ، لامن كلها ، إذا لحق تعالى لايبدى لهم ما يطيقونه من عظمته ويخلع لهم الخلع إلا أن وقفوا بعرفة أولا ثم بالمزدلفة ثانيا ثم بمنى ثالثا ؛ فلا يزال العبد يقرب من مكة وهو يزداد تعظيما للهتعالى حتى يدخل مكة والحرم ، فهناك يعرف كل أحد ربه بقدر مقامه ، فربما يكون أعلى مقام لنا فى التعظيم يستغفر منه قوم آخرون .

وممن حجب عما قلنا الشيخ محي الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه وسع اطلاعه ، فقال الذى أقول به إنه لا يجب على المعتمر الخروج لأدنى الحل ليحرم بالعمرة ، لأنه قد وصل إلى الحضرة التى هى محل القرب ولا معنى للخروج .

قال : وأما قصة عائشة رضى الله عنها فإنما أمرت بالخروج لأنها كانت آفاقية ثم نفست فأمرت بالقضاء على صورة ما فاتها اهـ ، والجمهور على خلافه .

فدر يا أخى مع السنة ولا تدر مع كشفك أو عقلك ، فإن الله تعالى إنما جعل الأجر والثواب والدرجات لمن كانت أعماله تبعا لما شرعه تعالى ، وكأن لسان حال الشارع يقول : من لم يأت من الأمة إلى حضرتى من تلك الطريق البعيدة طردته ولم أمكنه من شهودى .

وتأمل يا أخى شأن الحق تعالى تجده أقرب إلينا من حبل الوريد ، ومع ذلك أسدل الحجاب بيننا وبينه ، حتى أننا رأيناه من حيث التنزيه أبعد من كل شىء ، فلما صرنا كذلك أمرنا بالسلوك ثانيا ، كالذى كان فى مكان بعيد ثم رجع إلى محل القرب الذى كان مقيما فيه أولا ، فلا نزال سالكين والحجب ترفع حتى نعود إلى محل بروزنا من حضرة القرب ، فلو طلبنا أن ندخل حضرة القرب من غير سلوك لم يصح لنا ذلك .

وإيضاح ذلك أن تنظر يا أخى فى حضرة الحق تعالى قبل أن يخلق المخلوقات كلها ، فتجد ليس هناك إلا الله تعالى ثم أنت ، ولا تقول بفناء الشاهد ، لأننا إذا نفينا أنفسنا فمن هناك يشهد الحضرة أو يتعاقها فافهم ، فلا يزال الحق تعالى كلما خلق واحدا أخذ الواحد مكانا فى شهودك ويبعد الحق فى وهمك ، إذ لا حلول ولا اتحاد فلا تزال دائرة الخلق تتسع فى الشهود وتنبسط بتكثر أفراد الوجود شىء بعد شىء ودائرة الحق تعالى تضيق فى شهودك حتى لا تكاد ترى الحق تعالى أبدا ، لأنك إنما تشاهد خلقا ، حتى أن بعضهم لما اتسعت عليه الدائرة عطل فخسر الدارين ، فإنه مازال يشهد دائرة الخلق تتسع وكل شىء وقف عقله عليه من جبل أو بحر أو فضاء ، يقول له نور الإيمان فما وراء ذلك ، فإذا قال سماء أو بحرا أو جبلا أو فضاء قال له : فما وراء ذلك ؟ فلما تاهت عقول المنزهين لله تعالى هذا التوهان أوجب الله تعالى عليهم السلوك بأعمال مخصوصة أرسل الله بها رسله إليهم ، وقال إن طلبتم القرب من حضرتى من غير باب ماشرعته لكم لا تزدادون من حضرتى إلا بعدا ، فقالوا سمعا وطاعة ، فلا زالوا يعملون بالشريعة ، ودائرة الخلق تضيق بنقص أفرادها التى تكثر بها الوجود واحد بعد واحد ، ودائرة الحق تتسع حتى يرجعوا إلى الحال الأول فلا يرون إلا الله . فلا يقال فلأى شىء ما أوقف الله تعالى عباده فى الحضرة التى شردوا عنها أولا وأغناهم عن هذا التعب . لأنا نقول ماسبق العلم أن يكون الرقى فى الدرجات إلا

على هذا الحكم ، ولا يقال فى سبق العلم لم؟ بل من الأدب أن العبد يتطلب الحكمة فى ذلك من الله تعالى ، فإذا أطلعه على الحكمة رأى أن مافعله الحق بعباده أكمل فى وجوه المعارف .

وتأمل حكمة الإسراء به صلى الله عليه وسلم إلى الأفلاك العلى تعثر على ماأومأنا إليه .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وقد روى البيهقى منقطعا عن على بن أبى طالب ، وقال الحافظ المنذرى : الأشبه عندى أنه من قول ذى النون المصرى رضى الله عنه عن أبى سليمان الدارانى قال :

سئل على بن أبى طالب لم كان الوقوف بالجبل ولم يكن بالحرم ؟ فقال لأن الكعبة بيت الله والحرم باب الله ، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون ، قيل يا أمير المؤمنين ، فما معنى الوقوف بالمشعر الحرام ؟ فقال لما أذن لهم فى الدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، فلما أن طال تضرعهم أذن لهم بتقريب قربانهم بمنى ، فلما أن قضوا تفثهم ، وقربوا قربانهم ، وتطهروا بها من الذنوب التى كانت عليهم أذن لهم بالزيارة إليه على الطهارة ، فقيل : ياأمير المؤمنين ، فمن أين حرم عليهم صيام أيام التشريق؟ فقال : لأن القوم زوار الله تعالى وهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصوم بغير إذن رب المنزل الذى أضافهم ، فقيل : ياأمير المؤمنين ، فما تعلق الرجل بأستار الكعبة ، لأى معنى هو ؟ فقال : هو مثل الرجل إذا كان بينه وبين صاحبه جناية فيتعلق بثوبه ويتنصل إليه ويتخدع له ليهب له جنايته . والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبادر لرمى الجمار إيمانا حتى تنكشف لنا حكمتها جهارا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له :

« يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا فِي رَمْيِ الجِمَارِ ، فَقَالَ : تَجِدُ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ » .

لما علم أن السائل لايتعقل حكمتها ، وربما امتحن الحق تعالى عباده فى أمرهم بما لا يتعقلون حكمته كرمى الجمار وتقبيل الحجر الأسود وكإضافته إلى نفسه تعالى مايحيله العقل

بدليله كالنزول إلى سماء الدنيا، وغير ذلك من آيات الصفات وأخبارها لينظر كيف يعملون؟ هل يؤمنون بما أضافه الحق تعالى إلى نفسه على ألسنة رسله وإن لم يتعقلوه؟ أم يردون ذلك على الرسل أو يقبلونه، لكن بعد تحريفه بالتأويل عن مواضعه، فيفوتهم الإيمان الكامل كما يقع فيه غالب الناس فيخافون أن يكذبوا الرسل فتضرب أعناقهم، ويخافون أن يقبلوا آيات الصفات على ظاهرها فيقعون فى التشبيه؛ فلذلك رأوا التأويل أحسن عندهم لأنه طريق وسطى بين طريقين، وإنما قلنا فاتهم كمال الإيمان دون فوات الإيمان كله، لأنهم لولا آمنوا به ما اشتغلوا بتأويله ولكانوا يرونه لغيرهم.

فاعمل يا أخى بأوامر الحق على الوجه المشروع سواء أعقلت معناها أم لم تعقل، وسيأتى فى الأحاديث مايشير إلى الحكمة.

وذكر الشيخ محيى الدين فى باب الحج من الفتوحات مانصه:

إنما كان حصى الرمى سبعا لأن الشيطان يأتى للرامى هناك بسبع خواطر لابد من ذلك فيرمى كل خاطر بحصاة، ومعنى التكبير عند كل حصاة الله أكبر من هذه النسبة التى أتانا بها الشيطان وأطال فى ذلك ثم قال:

فإذا أتاك بخاطر الشبهة بالإمكان للذات، فارمه بحصاة الافتقار إلى المرجح، وهو أنه واجب الوجود لنفسه.

وإن أتاك بأنه جوهر فارمه بالحصاة الثانية، وهو دليل الافتقار إلى التحيز والوجود بالغير.

وإن أتاك بخاطر الجسمية فارمه بحصاة الافتقار إلى الأداة والتركيب والأبعاض.

وإن أتاك بالعرضية فارمه بحصاة الافتقار إلى المحل والحدوث بعد أن لم يكن.

وإن أتاك بالعلية وهى دليل مساواة المعلول له فى الوجود فارمه بالحصاة الخامسة وهى: «كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ».

وإن أتاك بالطبيعة فارمه بالحصاة السادسة وهى دليل نسبة الكثرة إليه، وافتقار كل واحد من آحاد الطبيعة إلى الأمر الآخر فى الاجتماع به إلى إيجاد الأجسام الطبيعية، فإن الطبيعة مجموع فاعلين ومفعولين حرارة وبرودة؛ ورطوبة ويبوسة، ولا يصح اجتماعها لذاتها ولا افتراقها لذاتها ولا وجود لها إلا فى عين الحار والبارد والرطب واليابس.

وإن أتاك بالعدم وقال لك فإذا لم يكن الحق هذا ولا هذا من جميع ماتقدم فما ثم شىء،

فارميه بالحصاة السابعة وهى دليل آثاره فى الممكن ، ومعلوم أن العدم لا تأثير له ، وهو كلام نفيس .

فاعمل يا أخى برياضة نفسك على يد شيخ مرشد حتى تصير تحس هذه الخواطر الشيطانية وترى وتنظر وتسمع من أتاك بها فترميه على الكشف واليقين ، وإلا فارمها على وجه الإيمان بها ، وكذلك تعرف من طريق الكشف مايقبل من حصاك وما يرد فتأخذ فى إزالة تلك الصفة التى كانت سببا لعدم قبول رميك ، فترسلها وتتوب منها ، فإن من لم يتقبل عمله كأنه ما عمل شيئا :

« فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » . (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى البزار والطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا فى حديث طويل :

« وَإِذَا رَمَى الْجِمَارَ لاَ يَدْرِى أَحَدٌ مَالَهُ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية لابن حبان : « وَأَمَّا رَمْيُكَ لِلْجِمَارِ فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا تَكْفِيرُ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمُوبِقَاتِ » .

قلت : ويصح تنزيل ذلك على الخواطر السبعة التى ذكرها الشيخ محيى الدين ، فإن كل خاطر منها كبيرة بلا شك ، والله تعالى أعلم :

وروى الطبرانى « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رسولَ اللهِ مَا لَنَا فِى رَمْىِ الجِمَارِ ؟ فَقَالَ : تَجِدُ ذٰلِكَ عِنْدَ رَبِّكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه والحاكم واللفظ له وقال إنه على شرط الشيخين مرفوعا :

« لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللهِ إِلَى الْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِى الْأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِى الْأَرْضِ ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِى الْأَرْضِ » .

قال ابن عباس : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا يارسول الله هذه الجمار التى ترمى كل سنة فنحسب أنها تنقص ، فقال :

« مَا تُقُبِّلَ مِنْهَا رُفِــعَ وَلَوْلاَ ذٰلِكَ لَرَأَيْتُمُوهَا مِثْلَ الجِبَالِ » .

قال الحافظ المنذرى : وفى إسناده يزيد بن سنان وهو مختلف فى توثيقه .

قلت : ومجموع الحصى كل سنة ستمائة ألف حصاة مضروبة فى سبعين فيكون كل حصاة من حصى الرامين كل سنة مضروبة فى سبعين بستمائة ألف .

وإيضاح ذلك أن الله تعالى وعد البيت كل سنة أن يحجه ستمائة ألف فصدق صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« وَلَوْلاَ ذٰلِكَ لَرَأَيْتُمُوهَا مِثْلَ الجِبَالِ » .

يعنى على طول السنين ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحلق رؤوسنا أونقصر فى النسك ويكون معظم قصدنا بذلك أن نحصل دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لنا بقوله :

« اللَّهُمَّ اغفِرْ لِلمُحَلِّقِينَ » .

قال شيخنا : والحكمة فى إزالة الشعر بالحلق أو التقصير أنه شرع لكونه مأخوذا من الشعور ، فكان الحلق إشارة إلى زوال الشعور وحصول العلم إذا اشعر حجاب على الرأس اهـ .

وقد بسط الشيخ محيى الدين بن العربى أسرار الحج كلها فىالفتوحات المكية ، فراجعها تر العجب فما رأينا أحدا أبان عنها مثله رضى الله عنه .

وروى الشيخان وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اللَّهُمَّ اغفِرْ لِلمُحَلِّقِينَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَالمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ اغفِرْ لِلمُحَلِّقِينَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَالمُقَصِّرِينَ ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ اغفِرْ لِلمُحَلِّقِينَ ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَالمُقَصِّرِينَ ؟ قَالَ : وَالمُقَصِّرِينَ »

وروى مسلم عن أم الحصين أنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة .

وروى الإمام أحمد والطبرانى بإسناد حسن عن مالك بن أبى ربيعة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ » فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ وَلِلْمُقَصِّرِينَ » .

قال مالك بن أبي ربيعة وأنا يومئذ محلوق الرأس ، فما يسرني بحلق رأسي حمر النعم أو خطرا عظيما .

قلت : والذى ظهر لى ، أنه صلى الله عليه وسلم ما دعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثا إلا لشهودهم أنهم وفوا بما كلفوا على التمام ، وذلك معدود من ذنوب الخواص ، فلذلك احتاجوا إلى تكرار الدعاء لهم بالمغفرة ، بخلاف المقصرين فإنهم معترفون بالتقصير ، فلذلك استغفر لهم مرة واحدة لما عساه ينفى غيرهم من دعوى الوفاء بما كلفوا به ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتضلع من شرب ماء زمزم مدة إقامتنا بمكة امتثالا لقول السائب رضى الله عنه : اشربوا من سقاية العباس فإنه من السنة ، وتأسيا بفعله صلى الله عليه وسلم وفعل الأنبياء قبله والأولياء والأقطاب إلى وقتنا .

وقد سألت الله تعالى لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة وشربت من ماء زمزم فى سبع وخمسين حاجة لى ولإخوانى فقضى الله جميع ما كان منها من حوائج الدنيا ، ونرجو من كرم الله قضاء الحوائج الأخروية فإن قضاء حوائج الدنيا عنوان الآخرة :

ومن جملتها تهبير دبيلة كانت طلعت بجنبى قدر البطيخه تحت طبقات الجلد ، وكان حكماء مصر كلهم أجمعوا على أن يشقوا جنبى ويخرجوها منه فشربت ماء زمزم للشفاء منها ، فألقى الله تعالى فى باطنى نارا ثلاثة أيام حتى طبختها وقتلتها فنزلت فى منزل خليص كمشيمة البهيمة سوداء كالزفت الأسود حتى ملأت بركة وحصل لى عند نزولها من الطلق كما يحصل للمرأة فعوفيت منها ببركة شربى من ماء زمزم ، وعلمت صحة الحديث الوارد فى شربها والله هو الشافى ، فإن الماء بطبعه لا يفعل مثل هذه الأفاعيل كلها .

فاشرب يا أخى من ماء زمزم وقدمه على مياه المطر وغيرها فإن عذوبته حلاوة فى إيمانك وشفاء لأمراضك .

واحذر ياأخى أن تكثر من شراء الشاشات والأزر والحبر ونحو ذلك كما يفعله التجار، فإن ميزان الحق منصوبة على كل فقير ورد على تلك الحضرة فى عدم حذف العلائق، ومن حمل الهدايا كما ذكرنا فلا بد أن ينقض رأس ماله أو يسلط الله تعالى عليه من يسرقها فى الطريق عقوبة له فلا يرجع من الحج إلا وعليه الديون، ثم يعسر الله عليه القضاء عقوبة كما جرب فاعلم ذلك، والله يتولى هداك.

وروى الطبرانى ورواته ثقات وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

« خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ طَعَامُ الطُّعْمِ وَشِفَاءُ السُّقْمِ، وَشَرُّ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ وَادِى بَرَهُوتَ بِبَتِيهِ بِحَضْرَمَوْتَ » الحديث.

قلت: ولا يرد على هذا الحديث الماء الذى نبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك ليس هو من الماء الذى على وجه الأرض، بل هو من المعجزات، وقد أفتى البلقينى وغيره بأنه أفضل من ماء زمزم، والله أعلم.

وفى رواية للبزار باسناد صحيح مرفوعا:

« ماءُ زَمْزَمَ طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سُقْمٍ ».

ومعنى طعام طعم: أى يشبع من أكله.

وروى الطبرانى موقوفا باسناد صحيح عن ابن عباس: قال كنا نسميها شباعة يعنى زمزم وكنا نجدها نعم العون على العيال.

وروى الدارقطنى مرفوعا: « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ، إِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِى شَفَاكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِشِبَعِكَ أَشْبَعَكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِقَطْعِ ظَمَئِكَ قَطَعَهُ اللهُ، وَهِىَ هَمْزَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسُقْيَا اللهِ إِسْمَاعِيلَ ».

ورواه الحاكم وزاد فيه: « وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيذًا أَعَاذَكَ اللهُ، قَالَ فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذَا شَرِبَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا وَاسِعًا وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ »:

وروى البيهقى باسناد صحيح أن عبد الله بن المبارك كان إذا شرب من ماء زمزم استقبل الكعبة وقال : اللهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ » .

وها أنا أشربه لعطش يوم القيامة ثم يشرب .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه المرفوع منه باسناد حسن ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من الصلاة فى مسجد مكة والمدينة لما ورد فى ذلك من الفضل ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم إنما بين لنا فضل هذين المسجدين لنستغنم الصلاة فيهما مدة إقامتنا هناك ، لاسيما إن زادت الصلاة فى الخشوع هناك ، كما هو الغالب فيجتمع للمصلى شرف البقعة وشرف الحضرة وربما يحصل لبعض المصلين الأجر الذى يخرج عن الحصر لكونه جليس الملك وجلساء الملوك لاتحصى مواهبهم فى العادة .

وتقدم فى عهود الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم :

« الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ » .

لأن فيها عمل جميع البدن ، فيكون معظم عملنا الصلاة والطواف ماعدا المناسك ومهمات الحوائج وهذا العهد يخل به كثير من التجار الذين يبيعون فى الموسم القماش فلا يتهنأ أحدهم بطواف بل ولا بصلاة الجماعة ، فيصير فى النهار غافلا وبالليل نائما أو يحسب ماباع به وما اشتراه حتى يرحل الحاج .

وقد رأيت ذلك وقع لقاضى المحمل وكان من العلماء لكونه سافر بأحمال قماش ، فرأيته طائفا يوما واحدا ورأيته يصلى الصلاة منفردا ففاته خير كثير ، فمن أراد من التجار أن يتفرغ للعبادة فليوكل من يبيع له ذلك بشرط أن تكون نفسه غافلة عن الحسابات والربح والخسارة فى الطواف وغيره ، فإن من كانت أكبر همه هناك حرم الخير ، لكون القلب ليس له اشتغال إلا بأمر واحد متى توجه إليه حجب عن غيره ، والحكم للأغلب من الأمرين :

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم والنسائي وابن ماجه : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هٰذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » .

زاد في رواية الإمام أحمد وابن خزيمة :

« وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلَاةٍ في هذا » .

يعني مسجد المدينة كما صرح به في رواية ابن حبان والبزار ولفظ رواية البزار :

« صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هٰذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَإِنَّهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِمِائَةٍ » .

قال الحافظ المنذري وإسنادها صحيح .

وفي رواية لأحمد وابن ماجه باسنادين صحيحين :

« وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ » .

وروى البزار مرفوعا : « أَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَسْجِدِي خَاتَمُ مَسَاجِدِ الْأَنْبِيَاءِ » .

والأحاديث في فضل الحرمين وبيت المقدس مشهورة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نشتكي أحدا من أهل المدينة المشرفة ، ولا نخيفه ولو بحق لنا ، إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكون جميع أهل المدينة جيرانه ، وهذا العهد يخل به كثير من التجار وجماعة أمير الحاج ، فمثل هؤلاء سافروا ليربحوا فخسروا لإخلالهم بالتعظيم لمن الوجود كله في بركته صلى الله عليه وسلم ، ووالله إن غالب الناس اليوم لا تتعدى محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حنجرته وأقل تعظيمه صلى الله عليه وسلم أن يكون في الحرمة كأعظم ملوك الدنيا في إكرام جليسه ، ومن نزل عن ذلك فهو قليل الإيمان ، ووالله لو شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم الآن لغرت عليه من رؤية مثلي له ولم أر نفسي أهلا لرؤيته ، وكيف لمثلنا أن يرى وجها رأى الله جهارا وجلس بين يديه .

وسمعت سيدي عليا الخواص يقول : من حقق النظر وجد جميع أهل المدينة من حر وعبد صغير وكبير كلهم جالسين في داره صلى الله عليه وسلم ، وكيف يخيف الإنسان من هو جالس في دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشتكيه من الحكام ، بل رأيت

من اشتكى شريفا ابتاع منه تمرا وصار يقول للشريف أنت رافضى كلب مالك دين ، ولعمرى هذا الكلام لا يقع ممن شم رائحة المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الشرفاء كلهم أولاده صلى الله عليه وسلم ، وإذا كرهوا أحدا من أصحاب والدهم أوسبوه فلا ينبغى أن يحكم بينهم إلا جدهم صلى الله عليه وسلم فى الآخرة ، وأما نحن فإننا عبيد للفريقين ، وكيف يقول عبد لسيده يا كلب ؟

فالزم الأدب يا أخى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاده وأصحابه وجيرانه ، ولا تظهر الخصومة والعصبية لأولاده لأجل أصحابه ولا عكسه ، فإن مثل ذلك ليس إليك والله يتولى هداك :

وروى الشيخان مرفوعا : « لاَ يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلاَّ انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِى الْمَاءِ » .

وفى رواية لمسلم وغيره : « لاَ يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ إِلاَّ أَذَابَهُ اللهُ فِى النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ أَوْ ذَوْبَ الْمِلْحِ فِى الْمَاءِ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيَّ » .

ومن هنا كان جابر يقول : من أخاف أهل المدينة فقد أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الطبرانى باسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اللَّهُمَّ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَخَافَهُمْ فَأَخِفْهُ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ » .

قلت : يعنى والله أعلم لافرض ولا نفل لأن الصرف هوالفريضة ، والعدل هو النافلة كما قاله سفيان الثورى ، وقيل الصرف هو النافلة والعدل هو الفريضة ، وقيل الصرف التوبة والعدل الفدية :

قال : مكحول : وقيل الصرف الاكتساب والعدل الفدية ، وقيل الصرف الوزن والعدل الكيل ، وقيل غير ذلك .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ آذَى أَهْلَ الْمَدِينَةِ آذَاهُ اللهُ » الحديث ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؟ إذا دخلنا ثغرا من ثغور المجاهدين ، أن ننوى المرابطة مدة إقامتنا فيه ولو لم يكن هناك عدو لاحتمال أن يحدث هناك عدو .

ومن هنا استحب للإنسان أن يتعلم رمى النشاب والمضاربة بالسيف والرمح ليكون مستعدا لرد العدو عن نفسه وماله وعياله وإخوانه المسلمين فى أى محل حل ، سواء كان العدو كافرا أومن البغاة أومن قطاع الطرق ، ويقبح على من أعطاه الله قوة أن يبخل بها ولا يتعلم آلات الحرب ، فربما خرج عليه بعض اللصوص فهتك حريمه وأخذ ماله أو قتله أو جرحه :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا : وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِى الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةَ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ الْغُدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » .

والغدوة : المرة الواحدة من الذهاب ، والروحة : المرة الواحدة من المجىء :

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ فِيهِ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ » .

زاد فى رواية للطبرانى : « وَبُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَهِيدًا » .

وفى رواية لأبى داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال على شرط مسلم وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الْمُرَابِطَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤَمَّنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ » والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا سافرنا إلى الحجاز أو الشام أوغيرهما أن نحرس إخواننا وأمتعتهم ودوابهم لاسيما إن كان معهم وديعة لأحد أومسافرين

بمال غيرهم ، كل ذلك وفاء بحق أنفسنا ونفوس إخواننا، فينبغي لمن يسافر أن يطوى النوم فى الليل والنهار إلا غلبة ، ويتمرن على ذلك قبل السفر ليدخل له مستعدا :

« وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » .

وهـذا العهد يخل بالعمل به غالب الحجاج فينظر أحدهم الحياص وقد أخذ جمل الحاج أو عمامته وهو قادر على أن يخلص ذلك من الحياص فلا يتبعه لعدم ارتباط قلبه بأخيه المسلم .

ومن هنا استحب بعضهم أن يجتمع أهل كل بلد أو حارة أو إقليم على بعضهم لأجل العصبية ، والخلاص من المهالك فى مضايق الأودية ، فربما زلقت رجل جمله بحمله فوقع فى الوادى فلا يستطيع صاحبه أن يمسكه عن الوقوع فكن بالأخى رحيما شفوقا على إخوانك ليعاملوك فى سفرك بنظير مانفعل معهم، والله يتولى هداك .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ » .

وفى رواية للإمام أحمد وأبى يعلى والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَطَوِّعًا لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنِهِ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ » أى فى قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) .

والمراد بتحلة القسم تكفير القسم وهو اليمين .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ حَرَسَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَصِيَامُ نَهَارِهَا » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة، والله تعالى أعلم .

(أخـذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكرم الغزاة والحارسين لودائع الناس فى مثل العقبة والأزلام ، وكذلك نكرم خفر الدرب من العرب أصحاب الإدراك ، وإذا ضاع لنا شىء لم نلزمهم به إلا بطريق شرعى ، ولو كان لهم على ذلك صرفى بيت المال ، بل ينبغى أن نساعدهم بما نقدر عليه من البقسماط والأدم والنقد ترغيبا لهم فى الإقامة فى تلك الأماكن المخوفة ، ونحوط أمتعة الناس ونبدؤهم بالعطاء ولا

تذلهم بالسؤال ، وكذلك نكرمهم إذا وردوا علينا فى مصر وغيرها ، ولا نبخل عليهم ونقول إن هؤلاء لهم جامكية من جهة السلطان مع قدرتنا على الإحسان إليهم حسب الطاقة قال الله تعالى :

(لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) .

فمن لم يجد نقدا يعطيه للغزاة فليعطهم ولو رغيفا أو نصفا أو يخدم عيالهم مدة سفرهم ويقوم بمهمات حوائجهم ، ومثل الغزاة والحارسين فى سبيل الله فى تفقد عيالهم بالبر والإحسان كل من سافر لمصلحة إخوانه كالجابى الذى يجبى لهم مال وقفهم أو يأتى لهم بالقمح والحطب وما يقوم بمصالحهم ، فينبغى لإخوانه أن يتعاهدوا عياله وأولاده بالبر وقضاء الحوائج ولا يخل بذلك إلا من ليس له مروءة وما رأت عينى فى عصرى أحدا قام بهذا الأمر معى ومع أصحابه مثل الشيخ أحمد الكعكى رحمه الله .

وبالجملة فقد صارت أخلاق المؤمنين قليلة لقلة ارتباط قلوبهم ببعضهم بعضا ولا يقوم بمثل ذلك إلا من باشر صريح الإيمان قلبه وهو مقام عزيز فى هذا الزمان لغلظ الحجاب من أكل الحرام (والله عليم حكيم) .

وروى النسائى والترمذى وقال حديث حسن وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِى سَبِيلِ اللهِ كُتِبَتْ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » .

وروى ابن حبان والبيهقى لما نزلت الآية قوله تعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) : « قَالَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِى » فنزلت الآية قوله تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِى سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » .

زاد فى رواية ابن ماجه : « مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْغَازِى شَىْءٌ » .

وروى الطبرانى ورجاله رجال الصحيح مرفوعا :

« وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ وَأَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسأل ربنا أن نموت شهداء فى سبيل الله لاعلى فرشنا ، فإن لم يحصل لنا مباشرة ذلك حصل لنا النية الصالحة ، وربما ترجح على ثواب من باشر الجهاد حتى قتل لغلبة ما يطرق المجاهدين من حب الرياء والسمعة ، ومن نوى ولم يباشر الجهاد حتى مات على فراشه ربما أعطاه الله تعالى ذلك الأجر كاملا من غير مناقشة ، كما ورد مثل ذلك فيمن عزم على قيام الليل فأخذ الله روحه إلى الصباح ، وقد وسع الله تعالى على هذه الأمة باعطائهم الأجر بالنية الصالحة ، فكل فعل لم يقسم الله تعالى لهم مباشرته يحوزون فضله بالنية قال صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

لم يقل وإنما لكل امرئ ما عمل مع أن النية أيضا عمل قلبى ، فافهم واشكر الله تعالى على ذلك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : فى قدرة من وفقه الله تعالى أن لايترك عملا من أعمال أهل الإسلام إلاوله فيه نصيب ، وذلك أن ينوى فعل كل خير بنية جازمة فإذا لم يحصل له فعله حصل له أجره من حيث النية :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » .

وفى رواية لمسلم وغيره مرفوعا : « مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ يُصِبْهُ » .

وروى أبو داود والترمذى : « وَمَنْ سَأَلَ اللهُ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ كَانَ لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« وَمَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ مُخْلِصًا أَعْطَاهُ أَجْرَ شَهِيدٍ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِه »

والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا لم يقسم لنا جهاد أن لانفر من الأمور التى ورد أنها تلحقنا بالشهداء فى الثواب الأخروى بل نتلقاها بالرضا ، فإن لم يتيسر فبالصبر لا أنقص من ذلك فليس بعد الصبر إلا السخط .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح ليرقيه إلى حضرات الصبر ثم حضرات الرضا ، وذلك أن المحجوب لا يعرف للصبر طعما وماعنده إلا السخط والكراهة ، فلا يزال يرقيه عن مقام السخط بذكر الثواب الأخروى حتى يصير يتجلد ويصبر ، فإذا أحكم مقام الصبر بين له مافى الصبر من ادعاء القوة ومقاومة القهر الإلهى بنفسه وعدم استحلائه أقدار الله وما هو فيه من سوء الأدب مع الله تعالى من حيث ترجيحه خلاف ما اختاره الحق تعالى له ، وهناك ينشرح للبلاء وينبسط له *فعلم أن للبلاء ثلاث مراتب سخط وصبر رضا ، فيحبس الله تعالى العبد فى مرتبة حتى يأتى بها ذوقا قبل أن ينقله إلى ما بعدها ، فكل مرتبة فى محن أفضل من غيرها ، فلا يقال من يتلذذ بالبلاء أفضل مطلقا ، ولا مقام الصبر أفضل مطلقا ، فلا بد لكل إنسان من هذا ومن هذا ليشكر ويصبر ، وفى الحديث :

« عِظَمُ الأَجْرِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ » .

فما ربحه الراضى خسره من جهة عدم إحساسه بالبلاء ، وما ربحه من أحس بالبلاء خسره من جهة عدم الرضا عن الله والتلذذ بقضاء الله .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : الرضا عن الله تعالى لا يخلو من كراهة خفية ، لأن فى كل إنسان جزءا يكره المرض ولا يخرج عنه أبدا ، وجزءا يختار خلاف مااختار الله ولايخرج عنه أبدا ، وجزءا يحب الدنيا ولا يكرهها أبدا ، وقس على ذلك سائر النقائص ، ولو كشف للمتصوفة لرأوا ذلك الجزء يدق ولا يزول ومن هنا استغفر الأكابر من أفعالهم الحسنة .

وسمعته أيضا يقول : الرضا مشتق من روض الدابة الشموس فلابد أن يبقى بعد رياضتها بقية من الرعونة ، وماخرج عن ذلك سوى الأنبياء لأن الله تعالى طهر طينتهم من النقائص بسابق العناية ومن هنا عصموا دون غيرهم .

فاسلك ياأخى على يد شيخ ليخرجك من الرعونات وتصير تتلقى أقدار سيدك بالرضا والانشراح ظهرا وتستغفر من الجزء الخفى الذى فيك يكره أقدار سيدك .

وقد كان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : إنما خاف الأكابر من المرض لما يطرق المريض من كراهيته ومن السخط اه ، وكان بجوارى امرأة بها ضارب العظم ليلا ونهارا فسمعتها ليلة تقول أنا حسب ٧ زربونك ، يارب تفضل علىّ بغمض الجفن لحظة ، ثم تقول : أستغفر الله مالله زربون ، وسمعتها أيضا تقول : ايش عملت لك يارب لهذا كله .

وكان سفيان الثورى يقول : رجال البلاء إنما هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم يقول والله ماأدرى ماذا يقع منى لو ابتليت فلعلى أكفر ولا أشعر اه وهذا منه اتهام لنفسه رضى الله عنه ، ولكل مقام رجال :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد روى الإمام مالك والشيخان وغيرهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاء فِيكُمْ ؟ قَالُوا : يَارَسُولُ اللهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، قَالَ : إِنَّ شُهَدَاء أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ ، قَالُوا : فَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ مِنَ الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

زاد فى رواية لهم : « وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا : « الشُّهَدَاء خَمْسَةٌ : الْمَطْعُونُ ، وَالْمَبْطُونُ ، وَالْغَرِيقُ ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وفى رواية للإمام أحمد والطبرانى مرفوعا ورواتها ثقات :

« وَفِي النُّفَسَاء يَقْتُلُهَا وَلَدُهَا جَمْعَاء شَهَادَةٌ » .

والجمعاء : هى التى تموت وولدها فى بطنها .

وفى رواية للطبرانى ورواتها رواة الصحيح :

« وَالْحَرَقُ شَهَادَةٌ ، وَذَاتُ الْجَنْبِ شَهَادَةٌ » .

زاد فى رواية للإمام أحمد باسناد حسن « وَالسُّلُّ شَهَادَةٌ » .

قال الحافظ : والسل هو داء يحدث فى الرئة يئول إلى ذات الجنب ، وقيل هو زكام أو سعال طويل مع حمى هادئة ، وقيل غير ذلك .

وروى الشيخان مرفوعا : « الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » .

وروى البخارى مرفوعا : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُونُ فِى بَلَدٍ فَيَكُونُ فِيهِ يَعْنِى الطاعُونُ فَيَمْكُثُ لاَ يَخْرُجُ صَابِرًا مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ » .

وروى أبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى حسن صحيح مرفوعا :

« مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

وفى رواية للترمذى وغيره مرفوعا : « مَنْ أُرِيدَ مَالُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَقَاتَلَ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

ولفظ رواية النسائى : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ مَظْلُومًا فَهُوَ شَهِيدٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعلم أولادنا وعيالنا القرآن ونأمرهم أن يعلموه لغيرهم ولا يقولوا لمن طلب منهم التعليم مانحن فارغين فإن ذلك من أعظم القربات ، ولعله يكون مقدما على الشغل الذى هو فيه .

واعلم أن الله تعالى ماأمرنا بتعليم القرآن والعلم للناس إلاطلبا للأجر الأخروى ، فمن خف عليه تعليمه للناس بلا أجر دنيوى فهو كامل الإيمان ، ومن أحس بثقل إذا علمه بغير أجرة فهو رجل دنياوى خالص وأجره فى الآخرة قليل .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : الحكم فى جميع الأعمال الصالحة لغلبة الباعث ، فمن غلب عليه تلاوة القرآن لدنيا يصيبها حبط عمله المذكور ، أوللأجرالأخروى فلا حبوط .

قال : ومن أراد من الفقراء أخذ الأجرة على القرآن أو العلم من غير نقص الأجر فى الآخرة . فليعقد نيته على تلاوته تقربا إلى الله عز وجل ، ثم يأخذ تلك الدراهم التى تعطى

ا، على تلاوته على نية أن ذلك ابتداء عطاء من الله لا بيع لقراءة القرآن ، والعلم بتلك الدراهم اهـ .

واعلم يا أخى أن الله تعالى ما أعطى كتابه وسنة نبيه لعباده إلا ليعملوا بهما ، ويعلموهما الناس بالأصالة .

وقد روى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ فَسَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ » .

وروى الحاكم عن ابن عباس وقال صحيح الإسناد :

« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ » وذلك قوله . (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا) قال الذين قرءوا القرآن .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعد بالطهارة لقراءة القرآن ، ونأمر أصحابنا بذلك بنية تعظيم كلام الله عز وجل ونية سجود التلاوة إذا قرأنا آية سجدة أو سمعناها ، ويتعين ذلك أدبا متأكدا على التجار والمباشرين الذين يحضرون المساجد قبل الصلوات فى مثل جامع الأزهر ونحوه ، فيجلسون محدثين فى لغو وغفلة بل وغيبة ، وربما يمكثون بلا طهارة حتى تقام الصلاة فيذهبون للوضوء فتفوتهم صلاة الجماعة أو بعضها ، فليتنبه الجالس فى محل يتلى فيه القرآن ويصلى فيه الجماعة لمثل ذلك فإن عرف من نفسه عدم السلامة من اللغو فى المسجد فضلا عن الغيبة ، فليجلس خارج المسجد ليفوز بالسلامة :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم وابن ماجه والبزار مرفوعا :

« إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ » .

وفى رواية : « يَا وَيْلِي أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةَ ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ » .

وروى البزار بإسناد جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنده سورة النجم فلما بلغ السجدة سجد ، قال أبوهريرة وسجدنا معه ، وسجدت الدواة والقلم والأحاديث ، فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتعاهد القرآن بالتلاوة ولنحسن صوتنا به جهدنا طلبا لميل الناس إلى سماعه ، فإن علمنا من الناس أنهم لايستلذون بسماعه منا أسمعنا به أنفسنا فقط ، لئلا يقع الناس فى حقنا وحق القرآن ، ويقولون قراءة فلان تقسى القلب فيجعلون سماع كلام الله يقسى القلب كأنه معصية ومن لحق بنفسه استراح وأراح .

واعلم ياأخى أن روح تلاوة القرآن هو الحضور مع الله تعالى فيه ، لكن يحتاج من يشهد هذا المشهد إلى سلوك على يد شيخ صادق حتى يصير لايتشتت قلبه بتلاوة القصص التى فى القرآن عن شهود صاحب الكلام ، فيجمع فى شهوده بين سماع كلام الله القديم فى حال كونه حكاية عن كلام الخلق الحادث ، وهو مشهد عزيز لم أر له ذائقا إلى وقتى هذا :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ مَثَلُ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ » .

وروى مسلم مرفوعا : « تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عَقْلِهَا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَمَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ » .

ومعنى أذن بفتح الذال أى يستمع وقيل بكسر الذال :

قال الحافظ المنذرى : ومعنى الحديث مااستمع الله لشيء من كلام الناس كما استمع إلى

من يتغنى بالقرآن أى يحسن به صوته ، قال وذهب سفيان بن عيينة وغيره إلى أنه من الاستغناء وهو خلاف الظاهر .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » .

قال الخطابى رحمه الله: معناه زينوا أصواتكم بالقرآن هكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث ، وزعموا أنه من باب المقلوب كما قالوا عرضت الناقة على الحوض أى عرضت الحوض على الناقة ، لأن الذى يشرب هو الذى يعرض عليه الماء ، ثم روى باسناده مرفوعا .

« زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ » قال : وهو الصحيح .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا وَتَغَنُّوا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ الَّذِى إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ » .

وروى أبو داود أنه قيل لابن أبى ملكية ، أرأيت إن لم يكن حسن الصوت قال يحسنه مااستطاع اه ومعناه حسن القراءة لاالمقروء والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على قراءة ماورد من الآيات والسور كل يوم وليلة ، كالفاتحة وآية الكرسى وخواتيم سورة البقرة وخواتيم سورة آل عمران وقراءة سورة يس ، والواقعة والدخان وتبارك ونحو ذلك والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة ، ومن واظب على ذلك كان فى حرز وأمان من الآفات الظاهرة والباطنة .

وأكثر من يخل بهذا العهد بعض طلبة العلم الذين حدثوا فى هذا الزمان فلا تكاد تجد لأحدهم وردا من القرآن ولا من الأذكار وإن كلمهم أحد فى ذلك جادلوه ، وقالوا نحن مشتغلون بالعلم ، وربما جلس أحدهم يلغو ويمزح ويستغيب الناس أضعاف زمن تلك الأوراد ولا يقول لنفسه قط إن الاشتغال بالعلم أفضل أبدا بل ربما نسى بعضهم القرآن فى حجة اشتغاله بالعلم وهو ذنب عظيم ، كل ذلك لعدم من يربيهم .

وقد كان السلف الصالح إذا رأوا طالب العلم لايعتنى بالعمل بما علم لايعلمونه العلم .

فلازم ياأخى على قراءة ماأمرك به الشارع صلى الله عليه وسلم وأرشدك إليه شفقة عليك من الآفات ، ولا تكن من الغافلين عن ذلك .

وتأمل ياأخى من لاورد له من طلبة العلم ولا أدب تجده معرى من الخير ليس على وجهه أنس ولا عليه خشية من الله تعالى، بخلاف من له أوراد وأذكار .

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم والنسائى والحاكم وغيرهم مرفوعا :

« نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ ، فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُعْطِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ الْحَرْفَ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ » .

وروى مسلم والترمذى والنسائى مرفوعا « لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » .

وروى الترمذى مرفوعا فى قصة الغول الذى كان يأكل من تمر أبى أيوب الأنصارى كل ليلة فلما أمسكه أبو أيوب قال إنى أذكر لك شيئا اقرأ آية الكرسى فى بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره ، فجاء أبو أيوب فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ » .

ووقع مثل ذلك أيضا لأبى هريرة رضى الله عنه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ » اهـ باختصار .

وقال الحافظ المنذرى والغول : هو شيطان يأكل الناس ، وقيل هو من يتلون من الجن :

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا :

« آيَةُ الْكُرْسِيِّ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ ، لاَ تُقْرَأُ فِى بَيْتٍ وَفِيهِ شَيْطَانٌ إِلاَّ خَرَجَ مِنْهُ » الحديث .

وفى رواية « قِرَاءةُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ تَعْدِلُ قِرَاءةَ أَلْفِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ » .

قال بعضهم : وفى إخبار الشارع صلى الله عليه وسلم لنا بذلك فوائد : منها أن من نام عن ورده حتى فات وقته فينبغى له قراءة سورة «قل هو الله أحد» بعد قراءة آية الكرسى وسورة «إذا زلزلت» ونحو ذلك مما ورد أنه يعدل ثلث القرآن ، أو ربع القرآن ، أو نصف القرآن جبرا لما فاته من التطويل ، والله أعلم .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى واللفظ له وابن ماجه والحاكم وصححه مرفوعا :

« قَلْبُ الْقُرْآنِ سُورَةُ يس ، لاَ يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ إلاَّ غُفِرَ لَهُ » .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إنَّ سُورَةً فِى الْقُرْآنِ ثَلاَثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِىَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

«سُورَةُ تَبَارَكَ هِىَ الْمَانِعَةُ هِىَ الْمُنَجِّيَةُ تُنَجِّى قَارِئَهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نداوم على الإكثار من ذكر الله سرا وجهرا ولا نترك الذكر لفظا إلا إذا حصل لنا ثمرته التى هى دوام الحضور مع الله فى جميع أحوالنا ، فلا يزال الذاكر ينسى أفراد العالم شيئا بعد شىء إلى أن يحجب عن شهوده لشىء منه ، ويصير لا يرى إلا الله ، ثم إنه يحجب عن شهوده نفسه كذلك بأن يرق ويدق حتى يصير كالذرة ثم يغيب فإذا تحقق بالمقام قيل له ارجع إلى شهود أفراد العالم ، وانظر ماانطوت عليه من الحقائق ، فإنها كلها دلائل على ذلك فإنك حجبت عن معرفتى بقدر ما حجبت عن شهود العالم ثم يرجع بعد معرفة الله إلى أفراد العالم شيئا بعد شىء إلى أن لايغيب عنه من العالم ذرة إلا ما كان فوق دائرته فتأمل .

وكذلك ينبغى لنا أن نحث المترددين إلينا على حضور مجالس الذكر ونحارب من سعى فى إبطال مجلس ذكر ونجادله ونباحثه ، فإن ظهر الحق على يديه أيدناه وقاتلنا معه ، وذلك

لأن غالب من يعقد مجالس الذكر فى المساجد يدخله الدخيل من حب الرياء والسمعة والشهرة ، لاسيما فى مثل جامع الأزهر ، فإن ذكر الله تعالى من أعظم القربات ، ومثل ذلك يقعد له إبليس فى كل مرصد ، حتى يحرف نيته واحتفاف القرائن ملحق بالأدلة ، ولم يزل الجدال بين طلبة العلم وبين المتصوفة فى شأن هذه المجالس، والحق أحق أن يتبع، فلا ينبغى لعاقل أن يجهر بذكر الله فى مسجد إلا إذا لم يشوش على نائم أو مصل أو مدرس لعلم ، فإن احتفت القرائن فى إخلاص الذاكرين لله تعالى نصرناهم أو بإخلاص المطالع للعلم نصرناه ؛ ويحتاج من يمشى بين هؤلاء إلى نور عظيم وسياسة عظيمة :

وقد وقع للجنيد أن الإمام أحمد بن سريج قال له : إن رفع أصواتكم بالذكر يؤذى حلقتنا فى العلم ، فقال له ينبغى مراعاة أقرب الطريقين إلى الله تعالى ، فقال ابن سريج فإذا وجب مراعاة طريقتنا لأنها أقرب إلى الله تعالى من طريقكم ، فقال الجنيد وما علامة القرب ؟ قال ابن سريج : أن يكون الغالب عليه شهود الحق ، فقال الجنيد هذا عليكم لا لكم ، لأن الغالب عليكم إنما هو شهود أحكام دين الله لا الله ، فقال ابن سريج : نريد حالة يقع الامتحان بها ، فقال الجنيد يافلان خذ هذا الحجر وألقه فى حضرة هؤلاء الفقراء ، فألقاه فصاحوا كلهم : الله ثم قال له خذ هذا الحجر وألقه بين هؤلاء الذين يطالعون فى العلم ، فألقاه فقالوا له : حرام عليك ، فقال ابن سريج الحق معك ياأبا القاسم.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من علامة ترجيح ذكر الله على قراءة العلم ثقل العلم على لسان الإنسان وهو يطالع فى الروح وخفة ذكر الله تعالى ، فإن المشرف على الانتقال من هذه الدار يجب عليه استغنام ماهو الأفضل ، فلو كان تعلم مسائل الفقه والنحو والأصول أفضل لما ثقلت على لسان المحتضر وأهل الله تعالى لقصر أملهم كأنهم محتضرون فى كل وقت اهـ.

وأخبرنى الشيخ أحمد الضرير المقيم فى منية الخنازير بالشرقية ، قال : جاورت عند الشيخ عمر روشنى شيخ الشيخ دمرداش بمصر ، وكان فى مدينة توريز العجم أن شخصا من علماء توريز اسمه ملا عبد اللطيف كبير المفتين بها سعى فى إبطال مجالس الذكر المتعلق بالشيخ عمر فى الجامع الكبير وقال إن المسجد إنما جعل بالأصالة للصلاة ، وكان يحضر ذلك المجلس نحو خمسة آلاف نفس ، فقال الشيخ عمر فإذا ذكرنا بخفض الصوت تمنعنا

من ذلك ، قال لافقال الشيخ عمر معاشر الفقراء اخفضوا أصواتكم فى الذكر ومن قوى عليه وارد برفع الصوت فليرده ويكتمه مااستطاع ففعلوا ، فحمل من المجلس ذلك اليوم نحو خمسمائة نفس مرضى واحترقت أكباد نحو أربعة عشر نفسا ، وخرجت من أجنابهم فماتوا قال الشيخ أحمد فحسست بيدى على أكبادهم فوجدتها مشوية محروقة تفتتت كالكبد المشوى على الجمر فأرسل الشيخ عمر إلى ملاعبد اللطيف وجماعته ، وقال : هل يقول عاقل إن مثل هؤلاء الذين ماتوا لهم تفعل فى الموت ولكن سهم الله تعالى فى البعيد قال الشيخ أحمد فتطبقت دار ملا عبد اللطيف تلك الليلة عليه وعلى أولاده وعياله وبهائمه وغلمانه ، فلم يسلم أحد منهم وماتوا أجمعين ، وكان يوما مشهودا فى توريز .

فعلم أنه ينبغى لطالب العلم أن يتلطف فى العبارة للذاكرين . ولايقوم عليهم كقيامه على من يخرجه من الدين بل فعله ذلك هو الذى يذكر لأنه كالمنع من الدين ولو استحضر عظمة الله تعالى لما استطاع أن ينطق بكلمة فى حق أحد من الذاكرين له .

فلازم ياأخى على الذكر وانصر أصحابه بالطريق الشرعى ، إكراما لله تعالى وتعظيما له ، وإن احتفت قرائن الرياء وعدم الإخلاص فى الذاكرين فانصر طلبة العلم المخلصين ، ولا تكن من الذين ينصرون أحد الفريقين بحظ النفس والله يتولى هداك .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : مراد الشارع صلى الله عليه وسلم ومشايخ الطريق من مريدهم ، إذا أكثر من الذكر باللسان والقلب أن يحصل له الأنس ويصير قلبه لايغفل ولا يتكلف للذكر ، بل يكون الحق مشهوده على الدوام وتارة يشهد بقلبه وتارة يشهد هو ، أنه فى حضرة الله وإن الله يراه ، وكلا الحالين إذا دام يمنع العبد من وقوعه فى المعاصى وسوء الأدب مع الله تعالى ، ومالم يكثر العبد من ذكر الله عز وجل لا يحصل له هذا الأنس ، بل يقع فى كل معصية كالبهائم السارحة .

وسمعته مرة أخرى يقول : من خاصية تمكن الذكر من القلب أن يهذب أخلاق صاحبه ، فمن لم يهذب فكأنه لم يذكر فهذا مقصود الشارع والأشياخ بأمرهم المريد بإكثاره من الذكر .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ما ثم كرامة للعبد أفضل من ذكر الله تعالى ، لأنه يصير جليسا للحق كلما ذكر .

وقد اختلى مريد سنة كاملة ، فما رأى نفسه وقعت له كرامة ، فذكر ذلك لشيخه فقال أتريد كرامة أعظم من مجالسة الحق تعالى ، ثم قال له ما رأيت ، قال له ما رأيت أكشف حجابا منك لك فى الكرامة العظمى سنة كاملة ولا تشعر بها اه فاعلم ذلك .

واحذر يا أخى من التصدر للذكر فى مثل جامع الأزهر ، فربما كان الباعث لك على المواظبة هناك رؤية الناس لك اه فاعلم ذلك والله أعلم .

وروى الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« يقول الله عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى، فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى ، وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ » .

وفى رواية للطبرانى بإسناد حسن مرفوعا قال الله عز وجل ذكره :

« لاَ يَذْكُرُنِى عَبْدٌ فِى نَفْسِهِ إِلاَّ ذَكَرْتُهُ فِى مَلَإٍ مِنْ مَلاَئِكَتِى، وَلاَ يَذْكُرُنِى فِى مَلَإٍ إِلاَّ ذَكَرْتُهُ فِى الرَّفِيقِ الأَعْلَى » .

وفى رواية لابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : أَنَا مَعَ عَبْدِى إِذَا هُوَ ذَكَرَنِى وَتَحَرَّكَتْ بِى شَفَتَاهُ ».

قلت : وفى هذا الحديث إطلاق أن أسماء الله تعالى ليست عينه لقوله فيه « وتحركت بى شفتاه » وما تحركت الشفتان إلا بالإسم فافهم والله أعلم :

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد أن رجلا قال : يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على، فأخبرنى بشىء أتشبث به قال :

« لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللهِ » .

ومعنى أتشبث أتعلق .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى والبزار عن معاذ بن جبل قال : آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله تعالى قال :

« أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى » .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَثَلُ الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِى لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ الْحَىِّ وَالْمَيِّتِ » .

ولفظ مسلم « مثل البيت الذى يذكر الله فيه » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ اللهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرسلا : « اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ إِنَّكُمْ مُرَاءُونَ » .

قلت : وإنما سمى صلى الله عليه وسلم من ينسب الذاكرين إلى الرياء منافقا ، لأنه لاينسبهم إلى الرياء إلا وقد تحقق هو به ، فعرفه صلى الله عليه وسلم حاله ، وأنه لولم يكن عنده رياء لحملهم على الإخلاص نظير ما عنده ومن هنا قالوا : لايصح من الشيطان أن يسلم أبدا لأنه لو أسلم لم يتصور فى باطنه كفر يوسوس به الناس ، فكان بباطنه الكفر من العالم ، لأنه لا واسطة لأحد فى الكفر إلا إبليس فافهم والله أعلم .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « مَا مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلاَّ وَلِلهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ صَدَقَةٌ يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ بِأَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَىُّ الْمُجَاهِدِينَ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ : أَكْثَرُهُمْ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا ، قَالَ فَأَىُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا : ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلاَةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ كُلُّ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يَقُولُ أَكْثَرُهُمْ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا : فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَجَلْ » .

وروى الطبرانى والبيهقى بإسناد جيد مرفوعا :

« لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا » .

قلت وقوع التحسر فى الجنة إنما يكون لهم أول دخولهم حين يرون مقام من فوقهم والله أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ لَمْ يُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ فَقَدْ برِئَ مِنَ الْإِيمَانِ » .

قال الحافظ المنذرى ، حديث غريب .

وروى البخارى ومسلم واللفظ للبخارى مرفوعا :

« إنَّ لِلهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَبَادَرُوا وَقَالُوا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ » فذكر الحديث إلى أن قال : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : أُشْهِدُكُمْ أَنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ . قَالَ : يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبيهقى وغيرهم مرفوعا :

« يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ ، فَقِيلَ وَمَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أَهْلُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ » .

وروى الإمام أحمد ورواته محتج بهم فى الصحيح إلا واحدا مرفوعا :

« مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلاَّ وَجْهَهُ إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « لَيَبْعَثَنَّ اللهُ تَعَالَى أَقْوَامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي وُجُوهِهِمُ النُّورُ عَلَى مَنَابِرِ اللُّؤْلُؤِ يَغْبِطُهُمُ النَّاسُ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ ، قَالَ فَجَثَى أَعْرَابِيٌّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا نَعْرِفْهُمْ ؟ فَقَالَ: هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى وَبِلاَدٍ شَتَّى يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ اللهِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا ، قَالُوا : وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : حِلَقُ الذِّكْرِ » .

قلت ولا يخفى أن محل أفضلية الذكر على غيره ما إذا تعلم العلم وعرف أمور دينه كلها إذ الذاكر جايس للحق ولا ينبغى مجالسته إلا بعد التضلع فى أحكام الشريعة ، ويصير

عنده علم بشروط جميع العبادات وآدابها، وهناك يصلح لمجالسة الملك، فإن الشريعة حكمها كالدهليز لمجالسته .

ومن هنا قالوا : يجب على العبد أن يقدم العلم المتعلق بأدب الملوك على مجالستهم ومن جالسهم بلا أدب فهو إلى العطب أقرب والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحفظ لساننا فى كل مجلس نجلسه عن كلام اللغو والفحش ما أمكن وإن وقعنا فى ذلك فلا ننصرف حتى نذكر الله تعالى بما ورد ، أنه يكفر ما وقع فى المجلس ، وذلك أن الملك لا يكتب ما عمله العبد من السيئات إلا بعد ساعة أو ثلاث ساعات كما ورد :

« فَإِنِ ٱسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهَا وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ يَكْتُبْهَا » .

وهذا من جملة رحمة الله تعالى بعباده من حيث كون رحمته وحلمه سبق غضبه وانتقامه فإذا وقع العبد فى معصية تسابق إليه أسماء الرحمة والانتقام .

ومعلوم أن أسماء الرحمة أسبق ، فتأتى أسماء الانتقام فتجد أسماء الرحمة قد سبقتها إلى محل الانتقام فرجعت أسماء الانتقام بلا تأثير فالحمد لله رب العالمين .

وكان الشيخ محيى الدين بن العربى يقول : إذا عصيت الله تعالى فى أرض فلا تفارقها حتى تعمل فيها خيرا، كقولك لا إله إلا الله أو سبحان الله أو الحمد لله فكلما صارت البقعة تشهد عليك كذلك صارت تشهد لك يوم القيامة والله يحفظ من يشاء كيف يشاء .

وروى أبو داود والترمذى واللفظ له والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال الترمذى حديث حسن مرفوعا :

« مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذٰلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِى مَجْلِسِهِ ذٰلِكَ » .

وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس :

« سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَارَسُولَ اللهِ

إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى ؟ فَقَالَ هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ » .

وقوله بأخرة غير ممدود: أى بآخر أمره.

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كلمات لايتكلم بهن أحد فى مجلس حق أو مجلس باطل عند قيامه ثلاث مرات إلا كفرت عنه خطاياه ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، والله تعالى أعلم .

والأحاديث فى فضل قول لاإله إلا الله وحده لاشريك له وفى التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، وفى لاحول ولاقوة إلا بالله وفى أذكار المساء والصباح ، وعقب الصلوات كثيرة مشهورة ، ولا يثبت حفظ الأذكار عند العبد إلا عمله بها .

فاعمل ياأخى بكل ماتقدر عليه من هذه الأذكار وكلما تجد لك وقتا يحمل أكثر من ذلك فزد من الأذكار ، وإن جمعت لك حزبا جامعا تقرؤه فى مجلس صباحا ومساء كان أعون لك :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتحفظ من الشيطان كلما نريد النوم ، وذلك بالنوم على طهارة باطنة وظاهرة وبقراءة الأذكار الواردة فى ذلك ، فإن من نام على حدث وعدم قراءة أذكار فمن لازمه عدم مفارقة الشيطان له فلا يزال يوسوس له بكثرة النوم ، ويريه المنامات الرديئة ليحزنه حتى يستيقظ .

فاعمل يا أخى بالأذكار الواردة عند النوم ونم على طهارة إن أردت الحفظ من الشيطان .

وقد سمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إنما كان أكابر الأولياء يرون المنامات الرديئة مع حفظهم من الشيطان تنشيطا لهم لأن المنام وحى المؤمن ، وإنما كانوا لايرون المنامات التى تسرهم كالمريدين لقوتهم ، فإنهم فرغوا من الأمور التى تؤلفهم على الطريق وعرفوا سعة فضل الله على العباد فصاروا لاينظرون إلا إلى الذى عليهم من الحقوق لاإلى الذى لهم بخلاف المريد لو رأى المنامات الرديئة أول دخوله الطريق لانقطع عنها وفترت همته اه .

فقلت له إن فى الحديث : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ »
وكل رؤيا أحزنت العبد فهى غير صالحة فكيف سميتموها صالحة ؟ .

فقال : لولا أنها صالحة مانشطت ذلك الولى ولانبهته على نقائصه إذ كل شىء أورث خيرا فهو خير اهـ.

قلت : وقد وقع لى مرة أننى تمنيت أن أرى حالى فى القبر فنمت فرأيت تلك الليلة أنى نائم فى القبر على طراحة خيش محشوة بشوك أم غيلان ، وأنا أتقلب عليها ، فتنبهت لأمر كنت عنه غافلا وهذا الحال لم يزل الحق تعالى ينبهنى عليه فى النوم ، فربما أترك وردى ليلة فأرى نفسى فى لهو ولعب أوحاملا حطبا أو مارا فى شجر التين فأعرف بذلك أننى ملت إلى شهوة أو عندى نفاقا ونحو ذلك مما حجبت عن شهوده فى اليقظة فإن اللهو يدل على الغفلة عن الله وحمل الحطب إشارة للنفاق ، فإن كان النفاق الذى عندى قليلا رأيت أنى حامل حطب الطرفاء ، وإن كان فوق ذلك رأيت أننى حامل حطب الزند وإن كان خشبا علمت أن عندى نفاقا عظيما .

وأما شجر التين فهو علامة على القرب من الوقوع فى معصية لأن شجرة التين هى التى أكل منها آدم عليه السلام ، وهذا كله من جملة فضل الله علىَّ لأتوب من ذلك وأستغفر فالحمد لله رب العالمين .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثَلَاثًا ، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِى كَانَ عَلَيْهِ » .

وفى رواية للترمذى وقال حديث حسن صحيح مرفوعا :

« إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِىَ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ ، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِىَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ » .

قال الحافظ المنذرى: والحلم هو رؤية الجماع فى النوم، وهو المراد هنا يقال حلم الجلد إذا فسد وتغير اهـ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا حصل لنا قلة نوم وسهر مفرط لقلة رطوبات البدن أو لخوف من لصوص أو من عفريت ونحو ذلك أن نتداوى بالأذكار الواردة فى ذلك قبل التداوى بالحكماء ، فإنى رأيتهم يداوون من غلب عليه الخوف باحماء الذهب على النار ثم يطفونه بالماء ويسقونه للخائف :

واعلم يا أخى أن قلة النوم تقع كثيرا عقب المرض الطويل فيخف دماغ العبد من الرطوبات والدسومات ، فلا يكاد ينام ويحصل له بذلك ضرر شديد حتى يصير يتمنى الموت من شدة الألم . فعلم أنه لا ينبغى للعبد أن يترك التداوى بما ذكر ، ويقول الأفضل للعبد أن يحمد الله تعالى على ترك النوم. لأنا نقول التداوى بذلك لا ينافى الحمد لله تعالى على السهر من حيث تقديره ، فيتداوى العبد من حيث إن السهر المفرط لا يصير به عند العبد إقبال على الله تعالى فى عبادة من العبادات ، بل يصير يعبد الله تعالى من غير شدة داعية ولو كان يحصل عنده بزيادة السهر المفرط داعية لما كان ينبغى للعبد أن يستعمل شيئا يجلب النوم أبدا فافهم :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما يفزع فى النوم من غفل عن الحق تعالى فى اليقظة وخاف من الخلق ، وإلا فمن أكثر من ذكر الله عز وجل أنس بكل شيء واستأنس به كل شيء من ناطق وصامت .

فاعمل على جلاء مرآتك يا أخى حتى لا تصير تخاف أحدا إلا الله ، وإلا فمن لازمك الخوف من الجن والإنس وغيرهما وعدم استئناسهم بك .

فقد كان فى بيتى امرأة من الجن فكانت إذا قربت منى قامت كل شعرة فى جسدى فكنت أذكر الله فتبعد من وقتها ، ثم كانت تقف فى طريقى إلى المسجد فى الظلام فما فزعت منها قط بل كنت أمر عليها فى المجاز المظلم فأقول لها السلام عليكم ، وما نفر خاطرى منها قط مع أن طباع الإنس تنفر من الجن .

وسكن عندى مرة أخرى جماعة من الجن أيام الغلاء ، فكنت أقول لهم كلوا من الخبز والطعام بالمعروف ولا تضروا بإخوانكم المسلمين ، فأسمعهم يقولون سمعا وطاعة .

وسكن يدق فى بيتى مرة أخرى ، فكان يأتى كل ليلة فى صورة جدى كبير . فيطفى السراج أولا ، ثم يصير يجرى فى البيت فكان العيال يحصل لهم منه فزع ، فكمنت له تحت رف وقبضت على رجله فزلق وصار يستغيث فقلت له تتوب ؟ فقال نعم فلا زال يدق فى يدى حتى صارت رجله كالشعرة الواحدة وخرج ، فمن ذلك اليوم ماجاءنا .

ونمت ليلة فى بيت على الخليج الحاكمى ضيفا عند إنسان فى قاعة وحدى فغلق على الباب فدخل جماعة من الجن فأطفئوا السراج وداروا حولى يجرون كالخيل ، فقلت لهم وعزة الله كل من دارت يدى عليه ماأطلقته إلا ميتا ، ونمت بينهم ، فما زالوا يجرون حولى إلى الصباح .

ودخلت مرة الميضأة بجامع الغمرى بالقاهرة أتوضأ ، وكانت ليلة شتاء مظلمة فدخل على عفريت كالفحل الجاموس فهبط فى المغطس ويصعد الماء فوق الإفريز نحو نصف ذراع ، فقلت له ابعد عنى حتى أتوضأ فلم يرض ، فجعلت فى وسطى مئزرا وهبطت عليه فزهق من تحتى وخرج هاربا ، ووقع لى مع الجن وقائع كثيرة .

وإنما ذكرت لك لتعلم أن من قرأ الأوراد الواردة فى عمل اليوم والليلة فليس للجن ولا الإنس عليه سبيل ، فإنه لولا الأوراد التى كنت أتلوها لكنت خفت ضرورة من هؤلاء الجان كغيرى ، فاعمل على ذلك والله يتولى هداك .

وروى أبو داود والترمذى وقال حسن والنسائى والحاكم واللفظ للترمذى مرفوعا :

« إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ » .

وكان عبد الله بن عمر يلقنها من عقل من ولده ومن لم يعقل منهم كتبها له فى صك ثم علقها عليه ، وليس عند الحاكم تخصيص ذلك بالنوم .

وفى رواية النسائى عن خالد بن الوليد أنه كان يفزع فى منامه فشكا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا اضْطَجَعْتَ فَقُلْ : بِاسْمِ اللهِ ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ » فذكر مثله .

وفى رواية للطبرانى أن خالد بن الوليد حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

أهاويل يراها فى الليل ، حالت بينه وبين صلاة الليل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«يَاخَالِدُ بْنَ الْوَلِيدِ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ. لاَتَقُولُهُنَّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى يُذْهِبَ اللهُ ذٰلِكَ عَنْكَ؟ قَالَ: بَلَى يَارَسُولَ اللهِ بِأَبِي وَأُمِّي ، فَإِنَّمَا شَكَوْتُ هٰذَا إِلَيْكَ رَجَاءَ هٰذَا مِنْكَ ؟ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ » .

قالت عائشة رضى الله عنها : فما لبث إلا ليالى حتى جاء خالد بن الوليد فقال : يارسول الله بأبى أنت وأمى ، والذى بعثك بالحق ما أتممت الكلمات التى علمتنى ثلاث مرات حتى أذهب الله عنى ما كنت أجد ما أبالى لو دخلت على أسد فى خيسته بنيل أو نهار . وخيسة الأسد: هو موضعه الذى يأوى إليه .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى باسناد جيد صحيح به رواه مالك مرسلا أيضا عن عبد الرحمن بن خنيس التميمى أنه قيل له هل أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال نعم ، فقيل كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الجن ؟ فقال إن الشياطين تحدرت تلك الليلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعلة من نار يريد أن يحرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال : يامحمد قل كما أقول قل :

« أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلاَّ طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمٰنُ » .

قال فطفئت نارهم وهزمهم الله تعالى :

وروى الطبرانى باسناد جيد : « أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَصَابَهُ أَرَقٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ نِمْتَ ؟ قَالَ : قُلِ اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظَلَّتْ ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ وَمَا أَقَلَّتْ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّتْ

كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ يَطْغَى، عَزَّ جَارُكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ » .

زاد فى رواية أخرى له : « وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الأذكار الواردة فى دخول البيت والمسجد والخروج منهما امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما فى ذلك أيضا من المصلحة لنا فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يكشف له عن حكمة ذلك فليفعله على وجه الإيمان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشفق عليه من والديه فلا يأمره إلا بما فيه حفظه من الآفات ، فالله تعالى يجعلنا وإخواننا ممن سلم قياده للنبي صلى الله عليه وسلم فى كل أمر آمين ، آمين آمين .

وروى الترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ : بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ، يُقَالُ لَهُ حَسْبُكَ هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ » .

زاد فى رواية أبى داود : « فَيَقُولُ لَهُ » يعنى للشيطان شيطان آخر : « كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ سَفَرًا أَوْ غَيْرَهُ فَقَالَ حِينَ يَخْرُجُ آمَنْتُ بِاللهِ ، اعْتَصَمْتُ بِاللهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ، إِلاَّ رُزِقَ خَيْرَ ذَلِكَ الْمَخْرَجِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح عن أنس بن مالك قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ فَيَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ » والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ان نستعيذ بالله ونستعد

للشيطان باستعمال ما يبعده منا خوف الوسوسة المضرة فى إيماننا وأعمالنا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يدشيخ صادق يسلك بهحتى يدخله الحضرات التى تحرق كل من قرب إليها من الشياطين ويصير الشيطان يفر من ظله وذلك بالزهد الكامل فى حلال الدنيا إلا بقدر الضرورة ، فإن من لم يزهد فى الدنيا فهو أعمى القلب غارق فى شهوات الدنيا لايعرف طريق الآخرة ، ومثل هذا يكون من حمير إبليس الذين يركبهم ويتصرف فيهم :

وإيضاح ذلك أن القوم جعلوا الحضرات ثلاثة : حضرة الله ،وحضرة الخلق ،وحضرة الخيال التى هى النوم ، فمتى خرج المستيقظ من حضرة شهود أن الله يراه ركبه إبليس ،لأنه واقف على باب الحضرة على الدوام ولايمكنه الدخول أبدا ، فمن توسوس فى صلاته فهولم يدخل حضرة الله فصلاته صورة لاروح فيها وهى باطلة فى مذهب الخواص يجب عليهم إعادتها لأن الله تعالى ما سامح عباده بالغفلة إلا خارج الصلاة وأما فيها فلا ، ولذلك أوجبنا الاستعداد لطرد إبليس لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب وفى الحديث :

« أُعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

ولا يمكن العبد ذلك إلا بدخوله حضرته فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : الدنيا كلها ابنة إبليس وكل من أحبها زوّجها له ويصير إبليس يتردد إليه لأجل ابنته ، بل سمعته يقول : الشيطان يتردد إلى من خطب ابنته ولولم يدخل بها على عادة الأصهار فإن أردت ياأخى الحفظ من وسوسته فلا تصاهره ولا تخطب ابنته وهذا باب غلط فيه غالب طلبة العلم فضلا عن العوام فتجد أحدهم لاينفك عن السعى فى تحصيل الدنيا صيفا وشتاء ، ثم يطلب أن يصلى مثل صلاة الصالحين حين يسمع بذكر خشوعهم فى الصلاة وحضورهم مع ربهم فيها ، فتراه يقصر ويطول عند النية ويهمز فى الهواء ويخطف النية حين هربت منه فى الهواء ، فلا يزال فى وسوسة فى أقواله وأعماله حتى صار غالبهم يجهر فى الصلاة السرية ، وبعضهم يترك الاحرام مع الإمام ويصبر حتى يركع الإمام فينوى ويركع معه بلا قراءة فاتحة خوفا أن يحرم عقب إحرامه ، فيلزمه قراءة الفاتحة التى من شأنه أنه يتوسوس فيها فعمل به إبليس حتى فوته قراءة الفاتحة ومناجاة ربه فى الركعة الأولى . وبعضهم يحلف بالطلاق الثلاث ، وبالله تعالى أنه ما يزيد على نية واحدة ثم ينقض ذلك ، ويقول أستغفر الله أنسيت ، وكل ذلك لإتيانهم البيوت من غير

أبوابها ، وليس أبوابها إلا السلوك على يد أشياخ الطريق بالوهد والورع عن كل مأكل وملبس فيه رائحة شبهة ، ولعمرى من يشك فى أفعاله وأقواله المحسوسة فلا يبعد أن يشككه إبليس فى إيمانه بالله وملائكته ، حتى يموت على الشك فى الإسلام والعياذ بالله تعالى .

وقد رأيت بعضهم يفطر فى رمضان عند بعض المكاسين ، وإذا توضأ يمشى على حصر المسجد بتاسومة جلد خوفا من توهم نجاسة فى الحصير لا يعلم بها ، فقلت له شاكل بعضك بعضا ، فقال الضرورات تبيح المحظورات ، فإننا مضطرون إلى الدنيا وما نحن عاجزين عن عدم التحفظ من النجاسة ، فسكت عنه ثم مات بعد شهر فوجدوا عنده نحو ثلاثة آلاف دينار زائدة على نفقته ونفقة زوجته .

فإياك يا أخى أن تسلك مسلك مثل هذا وتدعى الحاجة والضرورة ، فإن الناقد بصير ، والله يتول هداك .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد وأبو يعلى والبزار والطبرانى مرفوعا :

« إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ ؟ فَيَقُولُ اللهُ ، فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذٰلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ » .

وروى الترمذى وصححه وابن خزيمة وابن حبان وغيرها مرفوعا فى حديث طويل :

« وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا وَمَثَلُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ حَتَّى أَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ وَكَذٰلِكَ الْعَبْدُ لَا يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ » .

وروى مسلم : « أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ذٰاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا . قَالَ : فَفَعَلْتُ ذٰلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من الاستغفار ليلا ونهارا سواء استحضرنا ذنوبنا أو لم نستحضرها ، وهذا العهد يخل به كثير من المتصوفة

الذين لم يفطموا على يد شيخ ، فيزين الشيطان لهم أنهم صاروا موحدين ، لا فعل لهم مع الله تعالى فلا يكاد أحدهم يستحضر له ذنبا يستغفر الله منه ، وربما قال فى نفسه بعيد أن مثلى يعذبه الله ، ولو كشف الله عن بصيرته كما كشف للعارفين لرأى أنه قد استحق الخسف به فى الدنيا ودخول النار فى العقبى ، إذ العبد سداه ولحمته ذنوب وكم وقع العبد فى ذنب ونسيه وسيبدو له ذلك يوم القيامة ، فأكثر ياأخى من الاستغفار .

وقد كان سيدى على الخواص يتفقد أعضاءه من رأسه إلى قدمه كل يوم صباحا ومساء ويتوب إلى الله تعالى من جناية كل عضو ذلك اليوم أو تلك الليلة لاسيما الأذن والعين واللسان والقلب ، ويقول إن الاستغفار يطفىء غضب الجبار ، ومن قال أستغفر الله لم يبق عليه ذنب إن شاء الله تعالى ، لاسيما إن أشرف الإنسان على معترك المنايا وضاق عمره عن العمل الصالح فإن هذا مابقى له شىء أنفع من الاستغفار .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ماتوقف عن أحد حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا من تركه الاستغفار قال تعالى :

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) الآية . وقال تعالى : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) .

فعلم أنه مالمن عزل عن وظيفته أو حبس على جريمته أو دينه أنفع من كثرة الاستغفار وذلك أن العزل والحبس خزى للعبد بين الناس ونكال ، فإذا أرضى ربه بالاعتراف والاستغفار ورضى عنه ربه أخرجه لوقته من السجن فإن استغفر ولم يطلقه الحق تعالى فهو دليل على أن الحق تعالى لم يقبل توبته وأن عنده بقية تجبر أو ميل إلى معصية .

وقد جرب أن كل من أحكم سد باب المعاصى لم ترد له دعوة لأنه يصير كالملائكة .

فلا تقع ياأخى فى المعاصى وتطلب إجابة دعائك فإن ذلك لا يكون ، وإن كان فهو استدراج ، فكما دعاك الحق تعالى إلى طاعته فلم تجب كذلك دعوته فلم يستجب لك ، وكما أسرعت إلى طاعته حين دعاك إليها ، كذلك أسرع الحق تعالى باجابتك على الفور « جزاء وفاقا » .

ومن وصية الشيخ أبى النجا سالم المدفون بمدينة نوى لأصحابه وهو محتضر : اعلموا أن الوجود كله يعاملكم على حسب مابرز منكم ، فانظروا كيف تكونون ؟ اه .

ومن كلام سيدى على الخواص : من غزل شيئا لبس منه فلم يلم الحائك اهـ.

وبالجملة فقد صرنا فى زمان علامات الساعة وهو النصف الثانى من القرن العاشر صاحب الفتن والمحن وبرزت علامات الساعة على كواهلنا شئنا أم أبينا فلا فى يدنا رد التقدير عنا ولا فى يدنا دفع الجزاء عنا ومع ذلك فنقول أستغفر الله العظيم امتثالا لأمر الله تعالى لا غيره .

« ومن لزم الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » والله لو جلس الواحد منا بقية عمره كله يقول أستغفر الله لا يغفل ساعة واحدة لا يفى بجبر خلل معاصيه السابقة فضلا عن اللاحقة .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم والترمذى وحسنه وابن ماجه والبيهقى مرفوعا :

« يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ ، وَمَنِ اسْتَغْفَرَنِي وَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّى ذُو قُدْرَةٍ عَلَى أَنْ أَغْفِرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ وَلاَ أُبَالِي » الحديث .

وروى الترمذى مرفوعا وقال حديث حسن :

« قَالَ اللهُ : يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي » .

والعنان : بفتح العين المهملة ، هو السحاب . وقراب الأرض : بضم القاف ، ما يقارب ملأها .

وروى الإمام أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

«قَالَ إِبْلِيسُ : وَعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِى عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِى وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى » .

وروى البيهقى مرفوعا : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ وَدَوَائِكُمْ ؟ أَلاَ إِنَّ دَاءَكُمْ الذُّنُوبُ وَدَوَاءَكُمْ الِاسْتِغْفَارُ » .

وقال الحافظ المنذرى : الأشبه أنه من قول قتادة .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا » .

وروى ابن ماجه باسناد صحيح والبيهقى مرفوعا :

« طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارٌ كَثِيرٌ » .

وفى رواية للبيهقى باسناد لابأس به مرفوعا :

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعْمَلُ ذَنْبًا إِلاَّ وَقَفَ المَلَكُ ثَلاَثَ سَاعَاتٍ ، فَإِنِ اسْتَغْفَرَ مِنْ ذَنْبِهِ لَمْ يُوقِفْهُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُعَذِّبْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قلت : ولعل المراد بالساعات أمر يسير وليس المراد بها الساعات الفلكية ، فإن قواعد الشريعة تقتضى وجوب التوبة على الفور ، والثلاث ساعات يخرج العاصى بها عن الفورية ، ولكن رأيت بخط سيدى الشيخ أحمد الزاهد أن حد الإصرار على الذنب أن يدخل عليه وقت صلاة أخرى وهو لم يتب ، وهذا فيه رائحة تطويل المدة ، لكن ذلك لاينضبط لزيادة الأوقات ونقصها صيفا وشتاء فليتأمل ، والله أعلم .

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« إِذَا أَخْطَأَ الْعَبْدُ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ » (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) » .

وروى البيهقى مرفوعا : « إِنَّ لِلْقُلُوبِ صَدَأً كَصَدَإِ النُّحَاسِ وَجِلاَؤُهَا الِاسْتِغْفَارُ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا وقيل إنه موقوف :

« مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إلاَّ غَفَرَ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ ـ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ـ » الآية .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَ إِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ » .

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد على شرطهما إلا أنه قال يقولها ثلاثا :

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى والأصبهانى عن أنس بن مالك قال :

« كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فِي مَسِيرِهِ فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا فَاسْتَغْفَرْنَا فَقَالَ : أَتِمُّوهَا يَعْنِي سَبْعِينَ مَرَّةً فَأَتْمَمْنَاهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : مَا مِنْ عَبْدٍ وَلاَ أَمَةٍ اسْتَغْفَرَ اللهَ فِي يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ سَبْعَمِائَةِ ذَنْبٍ وَقَدْ خَابَ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ فِي يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ذَنْبٍ » .

وروى الحاكم عن البراء بن عازب وقال صحيح على شرطهما فى قوله تعالى :

(وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) .

هو الرجل يذنب الذنب فيقول لايغفره الله لى .

وروى الحاكم وغيره مرفوعا : « مَنْ قَالَ اللَّهُمَّ مَغْفِرَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي وَرَحْمَتُكَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ عَمَلِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحسن ظننا فى ربنا ، وأنه يجيب دعاءنا ولا نترك الدعاء أبدا استنادا إلى السوابق ، فإن فى ذلك تعطيلا للأوامر الشرعية ، ولو تأمل العبد وجد نفس دعائه من الأمور السوابق ، ونحن نعلم من ربنا جل وعلا أنه يحب من عبده إظهار الفاقة والحاجة ، ويثيب عبده على ذلك سواء أعطاه أو منعه ، وأكثر من يخل بالعمل بهذا العهد من سلك الطريق بغير شيخ ، فيترك الوسائل كلها ويقول : إن كان سبق لى قضاء هذه الحاجة فلا حاجة للدعاء ، وإن لم يقسم لى قضاء

تلك الحاجة فلا فائدة فى الدعاء ، وقد مكثت أنا فى هذا المقام نحو شهر ثم أنمدنى الله منه على يد شيخى الشيخ محمد الشناوى رحمه الله ، وفى القرآن العظيم :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) .

فأخبر أن العبد من أدبه مع الله أن يدعوه فى كل شدة ولا يعول على السوابق ؛ فإن العبد لا يعلمها نفيا ولا إثباتا ، وقد دعت الأكابر من الأنبياء والأولياء ربهم سبحانه وتعالى ولم ينظروا إلى السوابق :

(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) والله يتولى هداك .

وروى مسلم واللفظ له والترمذى وابن ماجه مرفوعا فيما يروى عن ربه عز وجل :

« يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ . يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ » الحديث .

وروى الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه واللفظ لمسلم مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِى » .

وروى أبو داود مرفوعا والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد واللفظ للترمذى وقال حسن صحيح :

« الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ — وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ — » أى صاغرين .

وروى الترمذى والحاكم وإسناد كل منهما صحيح مرفوعا :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ فِى الرَّخَاءِ » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدعاء » .

وروى الترمذى والحاكم باسناد صحيح وحسن مرفوعا :

« مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَتْ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ ، إِذَنْ نُكْثِرُ ، قَالَ اللهُ أَكْثَرُ » .

وروى الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى كلهم باسناد جيد والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا ، قَالُوا إِذَنْ نُكْثِرُ قَالَ : اللهُ أَكْثَرُ » .

زاد فى رواية الحاكم : « فَإِذَا عُجِّلَ لِلْعَبْدِ دُعَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَرَأَى مَا أُدُّخِرَ لِغَيْرِهِ فِي الْجَنَّةِ ، مِمَّنْ لَمْ يُسْتَجَبْ دُعَاؤُهُمْ قَالَ : يَا لَيْتَنِي لَمْ يُعَجَّلْ لِي شَيْءٌ مِنْ دُعَائِي فِي الدُّنْيَا » الحديث بمعناه .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ » والصفر : هو الفارغ .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« لاَ يرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاء وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعَمَلِ إِلاَّ الْبِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُذْنِبُهُ » .

وروى البزار والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« لاَ يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، وَالدُّعَاء يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ ، وَإِنَّ الْبَلاَءَ لَيَنْزِلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاء فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

ومعنى يعتلجان : يتصارعان ويتدافعان .

وروى الترمذى وابن أبى الدنيا مرفوعا :

« سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لاندعو ربنا بدعاء مخترع إلا إذا لم نستحضر شيئا من الأدعية الواردة ، وذلك لأن لفظ الشارع صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل ونكون به متبعين لامبتدعين :

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : من دعا الحق تعالى بدعاء شرعه أجابه تعالى بسرعة ، ومن دعاه بدعاء مخترع لم يجبه إلا إن كان مضطرا .

وسمعته مرة أخرى يقول : لايجيب الحق تعالى دعاء العبد فى صلاته إلا إن كان الدعاء مشروعا ، ولذلك شرع تعالى لنا مناجاته بكلامه لأنه وحى منه بخلاف كلام الخلق هكذا قال ، فينبغى للعبد أن يحفظ له جملة من الأدعية الواردة ليدعو بها فى الشدائد وغيرها :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِأَنِّى أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالاِسْمِ الَّذِى إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ » .

وفى رواية للحاكم وقال صحيح على شرطهما :

« لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ » .

قال الحافظ المقدسى وإسناده لامطعن فيه ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود إسنادا منه .

قلت : والمراد بالاسم الأعظم فخامة الألفاظ اللائقة بالجناب الأعلى ، وإلا فليس لله اسم غير أعظم .

وقد قال رجل لذى النون المصرى : علمنى الاسم الأعظم ؟ فقال أرنى الأصغر وزجره .

وسمعت بعض العارفين يقول : الاسم الأعظم هو كل ماقام له التعظيم فى قلب الداعى ،

فكأنه أعظم عنده من اسم آخر كما يقع فيه بعض العوام وإلا فنى قوة كل اسم مافى سائر الأسماء الإلهية لرجوعها كلها إلى ذات واحدة ، والله تعالى أعلم .

وروى الترمذى وقال حديث حسن :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ قَدْ اسْتُجِيبَ لَكَ فَسَلْ » .

وروى الحاكم مرفوعا : « إِنَّ لِلهِ مَلَكاً مُوَكَّلاً بِمَنْ يَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، فَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثاً ، قَالَ الْمَلَكُ إِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ » .

ومعنى أقبل : أذن فى الدعاء عليك فسل .

وروى الإمام أحمد واللفظ له وابن ماجه وأبوداود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم .

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِأَبِى عَيَّاشٍ وَهُوَ يُصَلِّى وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، يَا مَنَّانُ ، يَا بَدِيعَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

زاد فى رواية : « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى » .

زاد فى رواية للحاكم :

« أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانسأل الله تعالى شيئا إلا بعد أن نحمد الله تعالى ونصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وذلك كالهدية بين يدى الحاجة .

وقد قالت عائشة رضى الله عنها : مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها ، فإذا حمدنا الله تعالى رضى عنا ، وإذا صلينا على النبى صلى الله عليه وسلم شفع لنا عند الله فى قضاء تلك الحاجة ، وقد قال تعالى :

(وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) .

وتأمل بيوت الحكام تجدها لابد لك فيها من الواسطة الذى له قرب عند الحكام وإدلال عليه يمشى لك فى قضاء حاجتك ، ولو أنك طلبت الوصول إليه بلا واسطة لم تصل إلى ذلك . وإيضاح ذلك أن من كان قريبا من الملك فهو أعرف بالألفاظ التى يخاطب بها الملك وأعرف بوقت قضاء الحوائج ، فنى سؤالنا للوسائط سلوك للأدب معهم ، وسرعة لقضاء حوائجنا ومن أين لأمثالنا أن يعرف أدب خطاب الله عز وجل .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا سألتم الله حاجة فاسألوه بمحمد صلى الله عليه وسلم وقولوا اللهم إنا نسألك بحق محمد أن تفعل لنا كذا وكذا ، فإن لله ملكا يبلغ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له : إن فلانا سأل الله تعالى بحقك فى حاجة كذا وكذا فيسأل النبى صلى الله عليه وسلم ربه فى قضاء تلك الحاجة فيجاب ؛ لأن دعاءه صلى الله عليه وسلم لا يرد ، قال : وكذلك القول فى سؤالكم الله تعالى بأوليائه ، فإن الملك يبلغهم فيشفعون له فى قضاء تلك الحاجة :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى واللفظ له وقال حديث حسن والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلاً دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ ، قَالَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ : ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ اللهَ تُجَبْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نؤخر الدعاء بحوائجنا المهمة إلى الأوقات التى أخبر الحق تعالى أنه لا يرد فيها الدعاء كحال السجود بين الأذان والإقامة ، وأوقات التجلى الإلهى فى الثلث الأخير من الليل لاستدعائه تعالى منا الدعاء فيها ، وما طلب ذلك منا إلا وقد أراد إجابتنا وقضاء حوائجنا ، فله الفضل وله الثناء الحسن الجميل ، ولكن يحتاج الداعى أن يكون متلبسا بآداب الدعاء ، ويتحفظ جهده من أن يدعو الله تعالى فى حصول شىء إلا بعد تفويض ذلك الأمر إليه ، فربما سأل العبد شيئا

فكان فيه هلاكه كما وقع لبلعام بن باعوراء ، وكما وقع لثعلبة حين قال يارسول الله اسأل الله لى أن يكثر مالى فكان فى ذلك هلاكه ، ولو أن العبد قال اللهم أعطنى كذا أو ادفع عنى كذا إن كان فيه صلاح لى لم يهلك ، لأنه تعالى إن أعطاه ماسأل كان خيرا ، وإن منعه إياه كان خيرا، وإن دفع عنه ذلك البلاء كان خيرا ، وإن لم يدفعه كان خيرا .

ومن كلام سيدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا خيرك الله تعالى فى شيء فإياك أن تختار ، وفر من اختيارك إلى اختياره ، فإنك جاهل بالعواقب .

وسمعت سيدى محمد بن عنان يقول : من أقبح الذنوب عند الله أن يسأل العبد ربه فى حصول شيء من غير تفويض ، ثم إذا أعطاه له وحصل له منه ضجر وتعب سأل الله تعالى أن يحوله عنه ، فإن الحق تعالى جوده فياض على عبده وله أوقات لا يرد فيها سائلا ولو كان كافرا ، والحق تعالى ليس هو تحت أمرنا ولا طاعتنا ، حتى نقول له بكرة النهار مثلا افعل لنا كذا ثم آخر النهار نندم ونقول له حول عنا ماأعطيته لنا بكرة النهار اهـ .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ عارف بالله تعالى يعلمه أدب الخطاب مع الله تعالى ، فإن غاية أدب العامة أن يعرفوا أدب الخطاب مع جنسهم من الخلق من ملوك وأولياء . وأما أدب خطابهم مع الله تعالى فلابد لهم فيه من شيخ ربى فى الحضرة الإلهية ، ومكث فيها زمنا طويلا حتى صار يعرف أدبها بالفعل وأدب أهلها على اختلاف طبقاتهم كما هو شأن من يدخل ويخرج حضرات ملوك الدنيا ليلا ونهارا :

(وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى) .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى مرفوعا :

« أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » .

زاد فى رواية : « فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ » أى حقيق .

وروى مالك والشيخان والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ » .

وفى رواية لمسلم : « إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى

السَّماءِ الدُّنْيا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرَ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ » .

قلت : قال العلماء ونزول الحق تعالى هو نزول يليق بذاته لا يقدر الخلق على تعقله لمباينة الحق تعالى لخلقه فى سائر المراتب ، فلا يجتمع مع عباده فى حد ولا حقيقة ولا جنس ولا نوع فكيف يصح لهم تعقل صفاته فاعلم ذلك .

وروى أبو داود والترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن عن أبى أمامة :

« قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ ، أَيْ أَرْجَى إِجَابَةً ؟ قَالَ جَوْفُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا ونذكر لاخواننا مافى ذلك من الأجر والثواب ، ونرغبهم فيه كل الترغيب إظهارا لمحبته صلى الله عليه وسلم وإن جعلوا لهم وردا كل يوم وليلة صباحا ومساء من ألف صلاة إلى عشرة آلاف صلاة ، وكان ذلك من أفضل الأعمال .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : صلاة الله تعالى على عبده لايدخلها العدد لأنه ليس لصلاته تعالى ابتداء ولا انتهاء وإنما دخلها العدد من حيث مرتبة العبد المصلى لأنه محصور مقيد بالزمان ، فتنزل الحق تعالى للعبد بحسب شاكلة العبد وأخبر أنه تعالى يصلى على عبده بكل مرة عشرا فافهم ، ويؤيد ماقلنا كون العبد يسأل الله تعالى أن يصلى على نبيه دون أن يقول هو اللهم إنى صليت على محمد مثلا لأن العبد إذا كان يجهل رتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرتبة الحق تعالى أولى ، فعلم أن تعداد الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو من حيث سؤالنا نحن الله أن يصلى عليه ، فيحسب لنا كل

سؤال مرة ، ويحتاج المصلى إلى طهارة وحضور مع الله لأنها مناجاة لله كالصلاة ذات الركوع والسجود ، وإن لم تكن الطهارة لها شرطا فى صحتها منه وصاحبها جالس بين يدى الله عز وجل فى محل القرب يسأل أن يصلى على نبيه ، وإن كان الفضل لمحمد صلى الله عليه وسلم أصالة فإنه هو الذى سن له أن يصلى عليه ليحصل للمصلى الصلاة من الله تعالى :

فمن واظب على ما ذكرناه كان له أجر عظيم وهو من أولى مايتقرب به إليه صلى الله عليه وسلم وما فى الوجود من جعل الله تعالى له الحل والربط دنيا وأخرى مثله صلى الله عليه وسلم ، فمن خدمه على الصدق والمحبة والصفاء دانت له رقاب الجبابرة وأكرمه جميع المؤمنين كما ترى ذلك فيمن كان مقربا عند ملوك الدنيا ، ومن خدم السيد خدمته العبيد .

وكانت هذه طريقة شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ نور الدين الشونى نسبة إلى بلدة اسمها شونى قريبا من بلد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وكذلك كانت طريقة الشيخ العارف بالله تعالى أحمد الزواوى المدفون بدمهور من أعمال البحيرة ، فكان ورد الشيخ نور الدين الشونى كل يوم عشرة آلاف ، وكان ورد الشيخ أحمد الزواوى أربعين ألف صلاة ، وقال لى مرة طريقتنا أن نكثر من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم حتى يصير يجالسنا يقظة ونصحبه مثل الصحابة ونسأله عن أمور ديننا وعن الأحاديث التى ضعفها الحفاظ عندنا ونعمل بقوله صلى الله عليه وسلم فيها وما لم يقع لنا ذلك ، فلسنا من المكثرين للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

واعلم ياأخى أن طريق الوصول إلى حضرة الله من طريق الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من أقرب الطرق فمن لم يخدمه صلى الله عليه وسلم الخدمة الخاصة به وطلب دخول حضرة الله فقد رام المحال ، ولا يمكنه حجاب الحضرة أن يدخل ، وذلك لجهله بالأدب مع الله تعالى ، فحكمه حكم الفلاح إذا طلب الإجتماع بالسلطان بغير واسطة فافهم .

فعليك ياأخى بالاكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كنت سالما من الخطايا فإن غلام السلطان أو عبده إذا سكر لايتعرض له الوالى أبدا ، بخلاف من لم يكن غلاما له ، ويرى نفسه على خدام السلطان وعبيده وغيرهم ، ولا يدخل من دائرة

الوسائط فإن جماعة الوالى يضربونه ويعاقبونه ، فانظر حماية الوسائط وما رأينا قط أحدا تعرض لغلام الوالى إذا سكر أبدا إكراما للوالى ، فكذلك خدام النبى صلى الله عليه وسلم لايتعرض لهم الزبانية يوم القيامة إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نفعت الحماية مع التقصير مالا تنفعه كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الاستناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستناد الخاص .

وقد كان فى زمن شيخنا الشيخ نور الدين الشونى من هو أكثر منه علما وعملا ، ولكنه لم يكن يكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يكثر الشيخ فلم يكن ينهض له علمه وعمله إلى التقريب الذى كان فيه الشيخ نور الدين فكانت حوائجه مقضية وطريقه ماشية وسائر العلماء والمجاذيب تحبه ووالله ليس مقصود كل صادق من جمع الناس على ذكر الله إلا المحبة فى الله ولا جمعهم على الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا المحبة فيه فافهم .

وقد قدمنا أوائل العهود أن صحبة النبى صلى الله عليه وسلم البرزخية تحتاج إلى صفاء عظيم ، حتى يصلح العبد لمجالسته صلى الله عليه وسلم ، وأن من كان له سريرة سيئة يستحى من ظهورها فى الدنيا والآخرة لا يصلح له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولو كان على عبادة الثقلين ، كما لم تنفع صحبة المنافقين ، ومثل ذلك تلاوة الكفار للقرآن لاينتفعون بها لعدم إيمانهم بأحكامه .

وقد حكى الثعلبى فى كتاب العرائس أن لله تعالى خلقا وراء جبل ق لا يعلم عددهم إلا الله ، ليس لهم عبادة إلا الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

وقد حبب لى أن أذكر لك يا أخى جملة من فوائد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم تشويقا لك ، لعل الله تعالى أن يرزقك محبته الخالصة ، ويصير شغلك فى أكثر أوقاتك الصلاة والتسليم عليه ، وتصير تهدى ثواب كل عمل عملته فى صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أشار إليه خبر كعب بن عجرة أنى أجعل لك صلاتى كلها ، أى أجعل لك ثواب جميع أعمالى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« إِذَنْ يَكْفِيكَ اللهُ تَعَالَى هَمَّ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ » .

فمن ذلك وهو أهمها صلاة الله وسلامه وملائكته ورسله على من صلى وسلم عليه ،

ومنها تكفير الخطايا وتزكية الأعمال ورفع الدرجات ، ومنها مغفرة الذنوب ، واستغفار الصلاة عليه لقائلها ومنها كتابة قيراط من الأجر مثل جبل أحد ، والكيل بالمكيال الأوفى ومنها كفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل صلاته كلها عليه كما تقدم ، ومنها محو الخطايا وفضلها على عتق الرقاب ، ومنها النجاة من سائر الأهوال وشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بها يوم القيامة ، ووجوب الشفاعة ، ومنها رضا الله ورحمته والأمان من سخطه والدخول تحت ظل العرش ، ومنها رجحان الميزان فى الآخرة وورود الحوض والأمان من العطش ، ومنها العتق من النار والجواز على الصراط كالبرق الخاطف ، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت ، ومنها كثرة الأزواج فى الجنة والمقام الكريم ومنها رجحانها على أكثر من عشرين غزوة وقيامها مقامها ، ومنها أنها زكاة وطهرة ينمو المال ببركتها ، ومنها أنه تقضى له بكل صلاة مائة حاجة بل أكثر ، ومنها أنها عبادة وأحب الأعمال إلى الله تعالى ، ومنها أنها علامة على أن صاحبها من أهل السنة ، ومنها أن الملائكة تصلى على صاحبها مادام يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنها تزين المجالس وتنفى الفقر وضيق العيش ، ومنها أنها يلتمس بها مظان الخير ، ومنها أن فاعلها أولى الناس به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ومنها أنه ينتفع هو وولده بها وبثوابها ، وكذلك من أهديت فى صحيفته ، ومنها أنها تقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنها نور لصاحبها فى قبره ويوم حشره على الصراط ، ومنها أنها تنصر على الأعداء وتطهر القلب من النفاق والصدأ ، ومنها أنها توجب محبة المؤمنين فلا يكره صاحبها إلا منافق ظاهر النفاق ، ومنها رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام إن أكثر منها فى اليقظة ، ومنها أنها تقلل من اغتياب صاحبها وهى من أبرك الأعمال وأفضلها وأكثرها نفعا فى الدنيا والآخرة وغير ذلك من الأجور التى لا تحصى .

وقد رغبتك بذكر بعض ثوابها فلازم ياأخى عليها فإنها من أفضل ذخائر الأعمال ، وقد أمرنى بها أيضا مولانا أبو العباس الخضر عليه السلام ، وقال لازم عليها بعد الصبح كل يوم إلى طلوع الشمس ، ثم اذكر الله عقبها مجلسا لطيفا فقلت له سمعا وطاعة ، وحصل لى ولأصحابى بذلك خير الدنيا والآخرة وتيسير الرزق بحيث لو كان أهل مصر كلهم عائلتى ماحملت لهم هما فالحمد لله رب العالمين .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا .

« مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا » .

وفى رواية للترمذى : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ » .

وروى الإمام أحمد والنسائى واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم :

« الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا » .

وفى رواية : « عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ عَشْرًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ مِائَةً ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِائَةً كُتِبَ لَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ بَرَاءةٌ مِنَ النِّفَاقِ وَبَرَاءةٌ مِنَ النَّارِ وَأَسْكَنَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الشُّهَدَاءِ » .

وروى الإمام أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِي أَلاَ أُبَشِّرُكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا بإسناد حسن :

« مَنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدَةً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلاَةً » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا :

« حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي » .

وروى أبو حفص بن شاهين : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّةٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ » .

وروى البيهقى مرفوعا باسناد حسن : « إِنَّ صَلاَةَ أُمَّتِي تُعْرَضُ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ

جُمُعَةٍ ، فَمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً كَانَ أَقْرَبُهُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَالَ جَزَى اللهُ عَنَّا مُحَمَّدًا مَا هُوَ أَهْلُهُ أَتْعَبَ سَبْعِينَ كَاتِبًا أَلْفَ صَبَاحٍ » .

قلت : وهى من أورادى فأقولها ألف مرة صباحا وألف مرة مساء كل يوم فالحمد لله

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَالَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي » .

وروى الإمام أحمد والترمذى والحاكم وصححه ، وقال الترمذى حسن صحيح : « عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي قَالَ مَا شِئْتَ قُلْتُ الرُّبُعُ قَالَ مَا شِئْتَ ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ النِّصْفُ ، قَالَ مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ » .

وفى رواية لهم : « إِذَنْ يَكْفِيكَ اللهُ هَمَّ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ » .

وقوله فكم أجعل لك من صلاتى ، قال الحافظ المنذرى ، أى كم أجعل لك من دعائى صلاة عليك اهـ .

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله ، مامعنى قول كعب بن عجرة فكم أجعل لك من صلاتى ، قال : أن تصلى على وتهدى ثواب ذلك إلى لا إلى نفسك اهـ :

والأحاديث فى فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة مشهورة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا الذين لم يكثروا التعبد بعلم ولا غيره فى التكسب بالبيع والشراء والزراعات وكل عمل يساعدهم على القوت بطريقه الشرعى على وجه الإخلاص لا على وجه التكاثر والمفاخرة بمطاعم الدنيا وملابسها وشهواتها ، فإن من اكتسب الدنيا على وجه التكاثر والتفاخر ، فمن لازمه تعدى الحدود الشرعية فى الحل لأن الحلال فى كل زمان لا يتحمل الإسراف .

وقد زار الحسن البصرى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فأخرج له عمر كسرة يابسة ونصف خيارة ، وقال : كل يا حسن فإن هذا الزمان لا يتحمل الحلال فيه الاسراف اه ، فلا ترى أحدا فى سعة من الدنيا إلا وهو قليل الورع فيغش وينصب ، ويبيع على المكاسين وأكلة الرشا وغيرهم ، وأما إن طلب التوسع فى الدنيا بغير طريق التكسب الشرعى وأقبل على العبادة فربما أكل بدينه ، ووقع فى الرياء والنفاق لمن يحسن إليه ، وإن لم يكن مقبلا على العبادة ساق الناس بألسنة حداد إذا لم يعطوه ما طلب فالتكسب الشرعى أولى بكل حال .

وقد ورد أن الله تعالى علم آدم عليه السلام ألف حرفة ، وقال له يا آدم قل لبنيك يكتسبون بهذه الحرف ولا يأكلون بدينهم .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : قد تغير التكسب اليوم على كل فقير وفقيه لعدم من يتفقدهم بالبر والإحسان فى هذا الزمان لقلة المكاسب ، فقد صار التاجر اليوم يمكث الثلاثة أيام أو أكثر لا يستفتح ، فكيف يفتقد غيره ، وهو لم يعمل بقوت نفسه وعياله وضيوفه ، فضلا عن المغارم التى عليه من كراء بيت وحانوت وعوائد للظلمة من غفراء ورسل محتسب ومشد التراب ومشد الفلوس ، والذهب فى الأسواق ، فالتاجر فى أغلب أيامه ينفق من رأس ماله أو ماله أو مال غيره الذى هو عامل فيه ، ومثل هذا لا يطالب أن يفتقد فقيرا ولا فقيها ، لا سيما إن كان الفقير أو الفقيه غير مخلص فى علمه وعبادته ، وأما الفلاح فهو طول سنته فى شقاء وتعب وكلفة لقصاد الكشاف والعمال والعرب والعشير وأتباعهم فلا يزال يقدم لهؤلاء كلما كان عنده من لبن وسمن ودجاج وغنم حتى أنه يبيع غزل امرأته لهم ثم آخر السنة يحملونه عاطل البلد زيادة على خراجه وربما رسموا على زرعه فى الجرن فيطلب لأولاده منه طحينا فلا يمكنوه من ذلك فياليتهم جعلوه كغلمان الأمين الذين لهم عادة ، ومعلوم أن القرى هى مادة الأمصار فجميع ما فى الأمصار إنما يحمل من القرى ، فوالله لقد صارت الرعية اليوم بأعمالهم السيئة ؛ كأنهم فى صحراء من نار أو كسمك كان فى بركة فنزل عنه الماء ، فصارت الكلاب والجوارح تفسخه بالنهار والذئاب والثعالب تفسخه بالليل ، وما بقى يرجى عود المـاء فى البركة الذى هو كناية عن الرحمة لينغمر فيه السمك ، ولا يعرف ما قلناه إلا الذين يلزمون بما لا يلزم ممن تقدم ذكرهم من السوقة والفلاحين .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : غالب أهل النعم لا تعرف مقدارها إلا بالتحول كما حكى أن عبدا كان سيده يكرمه ويلبسه الثياب الحسنة ويأكل معه على السماط فتنكر عليه سيده يوما ونقمه فقال بعنى فى سوق السلطان فاشتراه إنسان حاله أضيق من سيده ، فخلع عنه ثيابه وألبسه خليقات وصار يطعمه من فضلة السماط ، فقال سوق السلطان ، فاشتراه إنسان حاله أضيق من الثانى فصار يأكل الدقيق ويطعمه النخالة فقال سوق السلطان ، فاشتراه إنسان يأكل النخالة ويجوعه ، فقال سوق السلطان ، فاشتراه إنسان يجوع ويجوع العبد معه ، واحتاج فى ليلة إلى منارة يضع عليها المسرجة ، فما وجد شيئا فأجلسه ، ووضع المسرجة على رأسه إلى بكرة النهار ، فقال سوق السلطان ، فوجده فقير وهو خارج إلى السوق ممن كان يعرف حاله الأول ، فذكر له قصته مع هؤلاء الذين اشتروه فقال له : إن سمعت منى رددتك إلى سيدك الأول ، فقال : وماذا أصنع قال تعترف له بالنعمة فاعترف فرجع فاشتراه سيده الأول ، فما عرف هذا العبد مقدار النعمة إلا بتحويلها لاسيما من فتح عينه على النعمة من غير اكتساب كالجالسين فى مثل جامع الأزهر أو الزوايا التى لها خبز وجوامك وليس عليهم مغارم فإن هؤلاء لايعرفون ما الخلق فيه وربما بطر أحدهم النعمة التى هو فيها حتى صار يرد على الخادم والنقيب الخبز اليابس ، فحول الله عنه النعمة ثم إنه يريد استرجاعها فلا يتيسر له ذلك أبدا .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرة يابسة فى بيت عائشة رضى الله عنها تحت حائط وقد علاها الغبار ، فأخذها صلى الله عليه وسلم ونفخ التراب عنها ثم أكلها وقال :

« يَا عَائِشَةُ أَحْسِنِي مُجَاوَرَةَ نِعَمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ النِّعْمَةَ قَلَّ مَا نَفَرَتْ عَنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ » .

وفى القرآن العظيم : (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

ففهمنا من هذه الآية أن النعم لا تتحول عن صاحبها وهو شاكر لله تعالى أبدا .

وقد أخبرنا الشيخ عبد الحليم بن مصلح ببلاد المنزلة رحمه الله تعالى قال : بيت جماعة من الفقراء فى الزاوية حتى زوجتهم ، وكانوا يخدمون وأزواجهم فى الزاوية ، فتركنا ذلك

تكبرا ، فنقص رزقهم عما كان ، ثم إنهم طلبوا أن يعملوا لهم صنائع فنقص الرزق عما كان ، ثم تركوا الجلوس على السماط مع الفقراء والمساكين والعميان وصاروا يأخذون خبزهم وطعامهم منفردين متكبرين فنقص الرزق عما كان ، ثم اختصروا الأسباع التى رتبت عليهم فيها كل خمسة أحزاب وجعلوها حزبين ، وبعضهم جعلها ثلاثة ، واختصر المؤذنون نوب الأذان فى الخمسة الأوقات إلى وقتين أو ثلاثة فنقص رزق المؤذنين وقراء الأسباع بقدر مانقصوا ، وتعطل بعض الخراج عما كان ثم إنهم امتنعوا من خدمة بعضهم بعضا ، فصاروا لايسافرون ليأتوا بالقمح والحطب مثلا إلابعوض بعدأن كانوا يسافرون طلبا للأجر والثواب فنقص الرزق عما كان ، ثم إنهم امتنعوا عن السفر بالأجرة أيضا حين صار معهم بعض فلوس حصلوها من جوامكهم وأظهروا الغنى عن مثل ذلك فنقص الرزق عما كان ، ثم إنهم منعوا زوجاتهم عن غربلة القمح ترفها فنقص الرزق عما كان ، ثم إنهم منعوهن من العجين فنقص الرزق عما كان ، ثم إنهم طلبوا تخفيف عدد المجاورين فطلبوا التخصيص بتفرقة الجبن والعسل وغير ذلك عليهم وحدهم دون غيرهم فنقص الرزق عما كان اه.

قلت : وقد ربيت أنا جماعة فكانوا فى أرغد عيش فتحركت نفسهم لمحبة الدنيا فنقص رزقهم عما كان وكفروا بواسطتى لهم فى الرزق ، فقلت لهم : إن الله تعالى كما جعل مفاتيح رزقكم بيدى كذلك ربما يجعل المنع بيدى عقوبة لكم فلم يسمعوا ، فما مكثت نحو شهر حتى وقع التفتيش فى الأوقاف والرزق فخرجت جباة الزاوية كلها للسلطان ، فنعوا يدنا عن استخراجها ، حتى يعرضوا فيها للسلطان ببلاد الروم ، فهى معطلة إلى الآن .

قلت : وقد وعدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة العشرين من شهر صفر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة بعودها إلى الزاوية إن تابوا ودخلوا فى الأدب والتربية حتى يرجعوا عن جميع ماوقعوا فيه من أسباب تنقيص الرزق اه. ولو أنهم سمعوا لشيخهم فيما يأمرهم به من الهدى ما تغير عليهم حال ، فإنه كرئيس المركب ، وكم غرقت مركب قال الرئيس للنوتية اطووا القلع فى هذا الريح أو أرخوا حبل الراجع فلم يفعلوا فغرقت ، فالله تعالى يلهم جميع الإخوان سماع نصيحتى وعدم مخالفتى حتى لايندموا حيث لاينفعهم الندم فيطلبوا رجوع رزقهم إليهم كما كان فلا يصح لهم ويطلبوا عمل

الحرف من التجارة والحدادة وخياطة النعال مثلا فلا يصبرون ويطلبون الرجوع إلى عبادة الله كما كانوا ، فلا يقدرون فيها فيهلكون ثم لايهونون على كما لايهون على الوالد ضرر الولد العاق له ، ثم أقل مايمكث الإنسان فى عمل الحرفة التى يأخذ منها الخبز والأدم من أول النهار إلى بعد العصر ، وربما كانت تلك الأجرة لاتكفيه ، ولذلك ينبغى للفقير القاطن فى زاوية أن يشتغل بالله فى أوراده بقدر مايشتغل المحترف فى حرفته ولا يكفيه الاشتغال فى ورده من الفجر إلى الضحى مثلا .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : قد شرعت النعم التى بأيدى الخلائق فى التحويل واحتاجوا فى تسخير أرزاقهم إلى المشى على قواعد أخرى غير ما كانوا عليه ، وما بقى يكفى أحدهم فى تسخير النعمة له العمل الذى كان عليه فى الزمن الماضى . وجملة الأمر أن من كان له شيخ يجب عليه أن لا يخالفه فإنه لايستعمل كل واحد إلا فيما يصلح له ولا يمنع أحدا من شىء إلا وهو يضره فاعلموا ذلك أيها الإخوان والله يتولى هداكم آمين .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

يعنى يضفر الخوص كما فى رواية . وروى ابن ماجه مرفوعا :

« مَا كَسَبَ الرَّجُلُ كَسْبًا أَطْيَبَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ » .

وروى الإمام أحمد والبزار والطبرانى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْكَسْبِ ؟ فَقَالَ بَيْعٌ مَبْرُورٌ ، وَعَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ » .

وروى الطبرانى ورجاله رجال الصحيح والبيهقى مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ » .

وفى رواية له أيضا عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ : « مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ ؟ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ كَانَ هٰذَا فِى سَبِيلِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وِلْدَةٍ صِغَارٍ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يسْعَى عَلَى أبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا: «مَنْ أمْسَى كالاًّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ أمْسَى مَغْفُورًا لَهُ » .

وروى الأصبهانى وغيره مرفوعا : « نِعْمَ لَهْوُ المَرْأَةِ مِغْزَلُهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبكر فى طلب الرزق مبادرة لقطع خاطر الاهتمام بأمر الرزق لاحبا للدنيا من حيث هى دنيا ، فإن فى الآدمى ماعدا الأكابر جزءا يهتم بأمر المعيشة ويضطرب ولا يسكن حتى يحصل العبد كفايته ذلك اليوم . وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يفتحون حوانيتهم فإذا ربحوا قدر نفقة ذلك اليوم أغلقوا الحانوت ورجعوا إلى بيوتهم ، وكذلك بلغنا عن الشيخ المحقق الصالح جلال الدين المحلى شارح المنهاج أنه كان يفتح حانوته من بكرة النهار فيبيع الناس القماش ويقول : إنما أبكر للسوق اغتناما لدعائه صلى الله عليه وسلم بالبركة لمن يبكر فى طلب رزقه ودعاؤه لا يرد فلا يزال يبيع حتى يتعالى النهار ثم يغلقه ويرجع إلى الجلوس لإقراء الناس فى المدرسة المؤيدية أو غيرها .

وكان سيدى على الخواص يفتح حانوته إلى أذان العصر فيغلقه ويقول دخل وقت التأهب لليل ، وكان إذا فتح حانوته قال : بسم الله الرحمن الرحيم نويت نفع عبادك يا ألله فلا يزال يقضى للناس حوائجهم من زيت وطحينة وأرز وفول ويبيع قفاف وغير ذلك حتى ينصرف ، وكان إذا عرف من إنسان أنه لايعتقده يرجح له الوزن والكيل ، وإن عرف أنه يعتقده أعطاه على تحرير الذهب ، وكان إذا أخذ إنسان منه شيئا بدرهم وماطله يذهب إلى داره ويطالبه كذا كذا مرة فى اليوم الواحد ويقول نعظم حقوق الناس عندهم حتى لايتساهلون فى قضائها فى دار الدنيا ، ونخلصهم بمطالبتنا لهم من منتنا عليهم يوم القيامة إذا سامحناهم بذلك فى الدنيا ونريح أنفسنا أيضا من رؤيتها أن لها حقا على أحد من عباد الله تعالى :

وقد أودعنا غالب آدابه رضى الله عنه فى طريق كسبه فى كتاب [البحر المورود] فراجعه ، فعلى ماقررناه يحمل ما ورد من الترغيب فى عدم المبادرة إلى السوق على من لم يكن له نية صالحة ، وإنما يبادر اهتماما بالدنيا لكونها أكبر همه .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا » .

وكان إذا بعث سرية أو جيشا بعثهم من أول النهار ، وكان صخر بن وداعة الغامدى تاجرا فكان يبعث فى تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله . قال الحافظ : وروى هذا الحديث جماعة كثيرون من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم على وابن عباس وابن مسعود وعدّ عشرة .

وروى البزار والطبرانى مرفوعا :

« بَاكِرُوا طَلَبَ الرِّزْقِ فَإِنَّ الْغُدُوَّ بَرَكَةٌ وَنَجَاحٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى أسباب تعسير الرزق كعدم الإيثار وكالمعاصى الظاهرة والباطنة من زنا وغيبة وحقد وحسد وتكبر وفخر وعجب ، وكالنوم فى الأسحار وقت تفرقة الغنائم وكالنوم بعد الفجر حتى يتعالى النهار .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إن الله تعالى يقسم الأرزاق المحسوسة بعد صلاة الصبح والأرزاق المعنوية بعد صلاة العصر ، قال : ولذلك نهينا عن النوم فى هذين الوقتين لأن فيه إظهار عدم الفاقة وعدم الاعتناء بمشاهدة من يقسم الأرزاق من قبل الحق تعالى .

وسمعته مرارا يقول : والله إنه ليصبح عندى نفقة الجمعة أو أكثر ويكون على النوم فلا أنام لأجل حضورى بقلبى مع الله تعالى وقت القسمة ، حتى لا أظهر عدم احتياجى إلى فضله فى وقت من الأوقات اهـ .

وقد كان لى مريد ، فكنت إذا فرقت تينا أو عنبا أو حلاوة يحضر مع الفقراء محبة فى رؤيتى لا لعلة أخرى فاصطفاه الله إلى حضرته رحمه الله ، وكنت إذا اطلعت على ما فى قلبه من ذلك القصد أكاد أدخله فى قلبى من شدة أدبه معى ، وأيضا فى النوم بعد الصبح علة أخرى ، وهو أنه يورث وجع الجنب كما جربته ، وذلك أنى كنت أسهر ليلة الجمعة فى مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من العشاء إلى صلاة الصبح ، فكنت

أصلى الصبح وأنام ، فاعترانى وجع الجنب ولا أعرف سببه ، فرأيت شيخى الشيخ الصالح المحدث الشيخ أمين الدين بن النجار إمام جامع الغمرى بالقاهرة ، فروى لى حديثا سنده بالسريانى عن أنس بن مالك ومتنه بالعربى، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ وَاظَبَ عَلَى النَّوْمِ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِالْبَعْجِ » .

فقلت للشيخ : وما هو البعج ؟ فقال : هو وجع الجنب ، فتركت النوم بعد الصبح حتى تطلع الشمس فزال المرض بحمد الله تعالى .

وروى الإمام أحمد والبيهقى وغيرهما مرفوعا :

« نَوْمُ الصُّبْحِ يَمْنَعُ الرِّزْقَ » .

وروى البيهقى عن فاطمة رضى الله عنها قالت :

« رَآنِى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ فَحَرَّكَنِى صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ بِرِجْلِهِ ، فَقَالَ قُومِى اشْهَدِى رِزْقَ رَبِّكِ وَلَا تَكُونِى مِنَ الْغَافِلِينَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُقَسِّمُ أَرْزَاقَ النَّاسِ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ » .

وروى البيهقى أيضا عن على رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، بعد أن صلى الصبح وهى نائمة فذكره بمعناه .

وروى ابن ماجه عن على، قال : «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم قبل طلوع الشمس » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجمل فى طلب أرزاقنا ولا نقعد للرزق كل مرصد إيمانا بأن ما قسمه الله تعالى لنا لا يقدر أهل السموات وأهل الأرض أن يردوا عنا منه ذرة ، كما أن من لم يقسمه الحق تعالى لنا لا يقدر أحد أن يوصل إلينا منه ذرة ، وكان على هذا القدم أخى العبد الصالح الشيخ عبد القادر شقيقى رحمه الله ، كان يزرع القمح والفول والسمسم وغير ذلك مع الشركاء، فلا يعرف أين هو الطين الذى زرع ذلك فيه ، ولا أين وضعوه فى الجرن ، فلا يزال كذلك حتى يدرسوه ويذروه فى الريح ولا يحضره إلا وهو داخل الدار فهما أعطاه الشركاء قبله منهم من غير أن تحدثه نفسه بمحاسبتهم ، وأرسلت له مرة أن يوقف على مقثأة بطيخنا الذى نزرعه فى الجزيرة قريبا منه حارسا يحرسه حتى نرسل له المركب نوسقه فأبى

وأرسل يقول لى : وبعد ؛ فإن ما قسم الله لأهل الريف أن يأكلوه لايقدر أحد أن يحمل منه شيئا إلى مصر ، وما قسمه الله لأهل مصر لا يقدر أحد من أهل الريف أن يأكل منه شيئا ، فلا حاجة إلى حارس ، فقلت له فى ذلك تعطيل الأسباب ، فقال : لا تعطيل إن شاء الله تعالى ، فإن الحارس إنما جعل لطمأنينة قلب المتزلزل فى إيمانه بأن ما قسمه الحق تعالى له لا يمكن أن غيره يأخذه وأنت بحمد الله إيمانك صحيح فلا حاجة لحارس اهـ ، فعلم أن من تحقق بهذا الإيمان لا يحتاج قط إلى غلق بابه على شىء من حوائجه ، إلا من حيث منع اللصوص عن السرقة لما عنده من أموال الناس ومساعدته لهم بعدم غلق الباب ، فإنه إذا غلقه عسر عليهم الوصول إلى ما يسرقونه ، وكذلك إذا كان يأكل الدجاج المحشو أو الكلاج واللوزنيج ونحو ذلك لا يحتاج إلى غلق بابه خوفا من أحد يدخل .

وقد وقع لى مرة أننى كنت آكل فى دجاج أنا وأخى الشيخ الصالح العالم العلامة نور الدين الطنتتائى ، فسح الله فى أجله ، فقلت : هذا وقت مجىء الشيخ الصالح شمس الدين الخطيب الشربينى ، وكان بيننا نحن الثلاثة صداقة وود ، فقال لى الشيخ نور الدين اغلق الباب لئلا يجىء الخطيب فيأكل دجاجنا ، فقلت له : لايخلو الحال من أمرين إما أن يكون قسم له أكله فلا يمكننا منعه ولو قفلنا الباب جاء من الحيط ، وإما أن لايكون قسم له معنا أكل فلا نحتاج إلى غلق باب ، فقال : اغلق الباب وخذ فى الأسباب ، فقلت له : ما دليلك فى ذلك ؛ فقال حديث :

« أَعْقِلْ وَتَوَكَّلْ » .

فقلت له : ذلك فى حق من يخاف فوات شىء هوله ، وأنا لا أخاف من ذلك ، فقال : تمنعه من الأكل حتى تحرر نيتك فى مسامحتك بما يخصك من الدجاجة ، فقلت له : قد سامحته من قبل أن يدخل ، وإذا كان خاطر الإنسان طيبا منشرحا لما يأخذه اللص فلا تحريم على اللص إلا من حيث القصد للحرام لا من حيث أكله الطعام مثلا ، لأن تحريم الأكل عليه إنما كان لأجل الأذى وعدم طيب النفس ، بدليل قرائن أدلة الشريعة ، فسكت الشيخ نور الدين ، ثم دخل الشيخ الخطيب وأكل ماقسم له رضى الله تعالى عنهما .

فإياك يا أخى أن تزاحم على رزق بحيث تؤذى أحدا فى طريق تحصيله ، واعمل على جلاء مرآة قلبك من الصدأ والغبار المانع من تحقيق الإيمان على يد شيخ صادق ليخرجك من حضرات الأوهام إلى حضرات اليقين ، بحيث تصير لا تهتم بالحضور إلى محل تفرقة السلطان مثلا ما لا على العلماء والصالحين ، ولا تتأثر على فوات ذلك إذا نسوك ، ولاتتأثر

من منعهم أن يكتبوا اسمك ، ولا ممن قال لهم امسحوا اسم فلان بعد الكتابة لأنه غنى غير محتاج إلى مثل ذلك أو قال لا تعطوه إلا إن حضر فإنه كبير النفس يحب الضخامة ، ونحو ذلك .

فامتحن يا أخى نفسك فى إيمانك فقد أعطيتك الميزان وأنت أعرف بنفسك ، فإن رأيتها تأثرت ممن منعها فالواجب عليك أن تتخذ لك شيخا يرقيك إلى حضرات اليقين ، فإنك متمكن من ذلك ولا تعتذر بعذر فتموت على نقص فى إيمانك ، فكم قتل الناس بعضهم على تحصيل الدنيا فضلا عن ترك المزاحمة عليها ، ولو أن إيمانهم كان كاملا لم يفعلوا شيئا من ذلك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : الرزق فى طلبه صاحبه دائر والمرزوق فى طلب رزقه وبسكون أحدهما يتحرك الآخر .

وكان كثيرا ما يقول : لأن تجىء إلى ربك وأنت كامل الإيمان مع النقص فى الأعمال خير لك من أن تأتى بعبادة الثقلين وفى إيمانك ثلمة ، فإن السعادة دائرة مع كمال الإيمان وصحته اهـ .

ويتعين السلوك قولا واحدا على كل تاجر حصل عنده حزازة فى صدره بكثرة وقوف الزبونات على جاره دونه ، وكذلك يتعين على كل عالم أوشيخ حصل عنده حزازة بكثرة المريدين لأحد من أقرانه أو بتركهم درسه واجتماعهم على غيره ، بحيث لم يبق عنده أحد من الطلبة أو المريدين أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه ، حتى يرقيه إلى درجة الإخلاص ، بحيث ينشرح لكل من تحول من طلبته إلى غيره ، فمن تكرر من طلبته إذا تحولوا عنه فليس له فى الإخلاص نصيب كما صرحت به الأخبار ، والله يتولى هداك :

و (يَهْدِى مَنْ يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الترمذى وقال حديث حسن ومالك وأبوداود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اَلسَّمْتُ الحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » .

ولفظ مالك وأبو داود : « مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لاَ تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ لِيَمُوتَ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ رِزْقٍ هُوَ لَهُ فَأَجْمِلُوا فِي طَلَبِ أَخْذِ الْحَلاَلِ وَتَرْكِ الْحَرَامِ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا ، فَخُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ » .

وفى رواية له أيضا : « أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » .

وفى رواية للحاكم : « فَإِنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا » .

وفى رواية للحاكم : « فَإِنِ اسْتَبْطَأَ أَحَدُكُمْ رِزْقَهُ فَلاَ يَطْلُبْهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يُنَالُ فَضْلُهُ بِمَعْصِيَتِهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والبزار والطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ » .

ولفظ الطبرانى : « أَكْثَرُ مِمَّا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا :

« لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ أَدْرَكَهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ تَعْجَلَنَّ إِلَى شَيْءٍ تَظُنُّ أَنَّكَ إِنِ اسْتَعْجَلْتَ إِلَيْهِ أَنَّكَ مُدْرِكُهُ إِنْ كَانَ لَمْ يُقَدِّرْ لَكَ ذَلِكَ ، وَلاَ تَسْتَأْخِرَنَّ عَنْ شَيْءٍ تَظُنُّ أَنَّكَ إِنِ اسْتَأْخَرْتَ عَنْهُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ عَنْكَ إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَهُ عَلَيْكَ » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى تَمْرَةً غَابِرَةً فَأَخَذَهَا فَنَاوَلَهَا سَائِلاً فَقَالَ : أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا ، وقيل إنه موقوف على ابن مسعود ، قال الحافظ المنذرى وهو أشبه :

« لَوِ اجْتَمَعَ الثَّقَلَانِ الجِنُّ وَالْإِنْسُ عَلَى أَنْ يَصُدُّوا عَنِ الْعَبْدِ شَيْئًا مِنْ رِزْقِهِ مَا اسْتَطَاعُوا » .

وروى ابن حبان فى صحيحه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا حَسَنًا وَسَوَّارًا ابْنَيْ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَقَالَ لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ، مَا تَهَزْهَزَتْ رُؤُوسُكُمَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ وَهُوَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ وَيَرْزُقُهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجتهد فى طلب الحلال لنأكل منه ونلبس منه وننفق على عيالنا وإخواننا منه ، فإنه موجود ما دام المكلفون فى الدنيا ، وإذا صدق العبد فى طلب الحلال استخرجه الله من بين الحرام والشبهات ، كما يستخرج اللبن من بين فرث ودم ، فلا تسمع يا أخى إلى قول من يقول مابقى فى الدنيا حلال فإن ذلك جهل منه وأصل ذلك كثرة أكله هو من الحرام والشبهات ، فظن أن أحدا لايسلم من ذلك قياسا عليه هو ، وغاب عنه أن الله تعالى إذا اعتنى بعبده طهره من الخبائث ، ويسر له الحلال الصرف الخالص ، فلولا ماسبق فى علم الله تعالى من خبث نفس هذا القائل ماساق إليه الخبيث ، قال تعالى :

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

فمن خبثت نفسه سيقت للخبيث ، وسيق الخبيث لها ، ومن طابت نفسه سيق إليها الرزق الطيب وسيقت إليه ، فاعمل يا أخى على إصلاح النية واطلب الحلال جهدك ، فإن رزقت حلالا فاحمد الله ، وإن رزقت حراما فاستغفر الله ، وقد بذلت جهدك فلا يبقى عليك إن شاء الله تعالى كثير لوم فى الآخرة كاوم من أرخى عنانه فى أكل الحرام ولم يجاهد نفسه ولم يدافع الحرام ، وقد كلف الله تعالى العبد بمدافعة الحرام ولو كشف له أن الله قسمه له ، ومتى لم يدافع عصى فلا يقال كيف يؤاخذ الله تعالى العبد على ماقسمه له ، لأن ذلك يؤدى إلى أن يقيم العذر للكفار وجميع العصاة ، ولا يبقى لله تعالى عليهم حجة ،

وذلك خروج عن الشرائع . فعلم أنه إذا كان من كشف له عن قسمة الحرام له يعصى بترك المدافعة. فغيره ممن هو فى حضرة الأوهام من باب أولى :

وقد أجمع أهل الكشف على أن العبد إذا كشف له عن اللوح المحفوظ من المحو ورأى الحق تعالى قد قدر عليه زنا أو شرب خمر لا يجوز له المبادرة إلى ذلك ، بل يدافع الأقدار جهده حتى يقع فى غفلة أو حجاب فينفذ الله تعالى فيه قضاءه وقدره ، ولو أنه بادر لعصى ربه واستحق بذلك العقوبة زيادة على عقوبة تلك المعصية .

فتأمل ذلك واعمل عليه فإنك لا تجده فى كتاب وعاشر أهل الورع من العلماء والفقراء وإياك وعشرة من لا يتورع فإن صفات العبد قد تكون مكتسبة ، ولذلك قالوا إن كل شيء رأيته فى جليسك ربما ينتقل إليك ولو على طول من خير أو شر ، فمن خالط أهل الشر فكأنه تعاطى أسباب المعصية ، فيكون عقابه أشد عقاب مما وقع غفلة أو سهوا ، وهاأنا أعطيتك ميزانا تعرف بها أهل الورع من غيرهم ، وهو أن كل من رأيته يزاحم عسكر السلطان فى الجوامك ويطلب أن يكون له مسموح أو مرتب لو نظر على وقف أو كثرة وظائف فأبعد عنه وكل من رأيته يعرض الحكام عليه المال ويرده فأقرب منه فإنه يعينك على مقصودك ، ومن هنا قالوا ، من تمام التوبة هجر إخوان السوء الذين كان يعصى الله معهم ، فإنه إذا شاهدهم وهم يعصون على عادتهم خف القبح الذى كان عنده للمعصية وبالحرى أن يرجع إلى فعل ماتاب منه ، فقد بان لك أن مجاهدة النفس فى ترك الحرام والشبهات واجبة وأن المدار بعد ذلك على حماية الله للعبد أو عدم حمايته ، وأن العبد مثاب فى مدافعته سواء قسم له ذلك أم لم يقسم وأنه لا ينبغى لمن قدم له طعام فيه شبهة فلم يأكل منه أن يرى نفسه على من أكل إلا من حيث الشكر لله على حمايته له لا غير ، وإلا فلو قسم له أكله لأكل منه كما أكل من رأى نفسه عليه .

وإيضاح ذلك أن بعض المتورعين ربما يقول فى نفسه أنا كنت قادرا على أن آكل من طعام ذلك المكاس مثلا ، ولكنى منعت نفسى هذا مع كونه غافلا عن شهود القسمة وهو وهم باطل ، فلم يتورع المتورعون ولم يزهد الزاهدون إلا فيما لم يقسم لهم وإنما أثابهم الله تعالى من حيث مدافعتهم للأكل من الحرام فقط ، وفى التحقيق ذلك حماية لهم من الله تعالى فاعلم ذلك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ وَلاَ يَقْبَلُ إِلاَّ الطَّيِّبَ ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : ـ يٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ـ » الآية وقال : « ـ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ـ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذٰلِكَ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن : إِنْ شَاءَ اللهُ «طَلَبُ الْحَلاَلِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وفى رواية للطبرانى والبيهقى مرفوعا : « طَلَبُ الْحَلاَلِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن والحاكم وقال صحيح الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ وَأَمِنَ النَّاسُ بَوَائِقَهُ أَيْ شَرَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هٰذَا فِي أُمَّتِكَ الْيَوْمَ كَثِيرٌ قَالَ : وَسَيَكُونُ فِي قُرُونٍ بَعْدِي ».

وروى الإمام أحمد والطبرانى وإسنادهما حسن مرفوعا :

« أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا، حِفْظُ أَمَانَةٍ ،وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَيُّمَا رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً مِنْ حَلاَلٍ فَأَطْعَمَ نَفْسَهُ أَوْ كَسَاهَا مَنْ دُونَهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ كَانَ لَهُ بِهِ زَكَاةٌ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « طُوبَى لِمَنْ طَابَ كَسْبُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَكَرُمَتْ عَلاَنِيَتُهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ » .

وروى الطبرانى أن سعد بن أبى وقاص قال : يارسول الله أدع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نفتش كل شيء دخل يدنا فى هذا الزمان من مال وطعام ولباس وغير ذلك، ولا نستعمل شيئا تردد فى صدورنا حله وحرمته ، وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يفتشون كل شيء دخل يدهم إلى سابع يد استولت عليه فى الحل ، وبعضهم إلى عاشر يد فى الحل ، ثم يستعملونه فإن لم يتداوله العشرة أيد لم يستعملوه ، وهذا أمر تعذر فعله الآن على غالب فقراء الزمان ، ويكفى أحدهم إن شاء الله تفتيش أول يد يأخذون منها :

واعلم ياأخى أن من أعظم المساعدة على الورع القناعة ، فمن لم يقنع أكل رأس الفيل ولم يشبع ، ومن لازم الشره عدم الورع ، وإن كان المتورعون لم يتورعوا إلا فيما لم يقسم لهم على وزان ماتقدم فى العهد قبله .

وقد جاء شخص إلى سيدى على الخواص فقال : ياسيدى خاطرك على مابقيت أقدر آكل كثيرا فقال له الشيخ أحمد الله تعالى على ذلك الذى حماك من أكل الشبهات فى هذا الزمان ، ولم يصف له دواء ، مع أنه كان يعرفه :

قلت : ومن هنا كان الفقير الصادق لا يرى نفسه أبدا على من لم يتورع ، فإن المنة لله تعالى لا لفعل العبد فى ذلك، ولو أنه تعالى قسم له شيئا من الحرام لأكله فماهناك إلا حماية الله للعبد أو عدم حمايته كما مر فى العهد قبله ثم لا يخفى أن أهل الله تعالى لا يعولون فى الورع على العلامات الظاهرة فى الأيدى وإنما يعولون على ما يلقيه الحق تعالى فى قلوبهم ، فقد يكون الذى يأخذونه من يد صالح حراما ، وقد يكون الذى يأخذونه من يد ظالم حلالا فمثل هؤلاء يسلم لهم حالهم لاطلاعهم على بواطن الأمور ، بخلاف من لم يطلع إلا على ظواهرها ، فإن هذا ربما رأى ظالما أخذ حراما ثم توارى عنه بجدار ، فقال يحتمل أن ذلك الحرام خرج عن يده ، وهذا غيره ولكل مقام رجال وقد عزم على شخص أنا وأخى أفضل الدين ، وقدم إلينا خروف شواء مشويا وكانت النية فيه غير صالحة لأنه عزم على جماعة أولاد عمر أمراء الصعيد فلم يحضروا عنده ، فعزم علينا لنأكله مكانهم فلما وضعه بين أيدينا وجدته يغلى دودا مثل أذناب المغازل فلم أقدر أتناول منه لقمة واحدة ، وصار صاحب الطعام يقول : كلوا هذه اللقمة فقط ولا أقدر أعلمه بما رأيت لكونه محجوبا عن ذلك ، وكذلك رآه أخى المذكور ولكنه قال رأيته يغلى سعالى ، فقلت له ، أنا مارأيت إلا دودا ، فقال : المقصود الحماية ونفرة الخاطر منه ، وقد حصلت ولله الحمد ، فإن لم تصل ياأخى إلى

ورع أهل الله تعالى فإياك أن تنزل عن الورع فى ظاهر الشرع فتزل قدمك إلى النار والله يتولى هداك .

وروى الشيخان والترمذى مرفوعا : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » الحديث .

وفى رواية للبخارى وغيره : « وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا شَكَّ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ » ومعنى يوشك أى كاد وأسرع .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

« الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ » .

وفى رواية لأحمد باسناد جيد : « الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ » .

وفى هذا الحديث سلامة من سوء الظن بالناس فإنه ماتورع صاحب العلامات الظاهرة إلا مع سوء الظن بذلك الشخص الذى تورع عن طعامه مثلا ولو أنه حسن به الظن لأكل طعامه وهذا ورع المتنطعين وفيه أيضا آفة وهى الشهرة بالورع بين الناس بخلاف من يعمل بميزان قلبه يكون ورعه مستورا والله أعلم .

وروى الشيخان : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ تَمْرَةً فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ : لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا » .

وروى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالَا يَرِيبُكَ » .

زاد فى رواية للطبرانى : « قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَمَنِ الْوَرِعُ ؟ قَالَ الَّذِى يَقِفُ عِنْدَ الشُّبْهَةِ » .

وروى البخارى أن أبا بكر قدم إليه غلامه شيئا فيه شبهة فأكله ، ولم يعلم فلما علم قاء كل شىء فى بطنه :

قلت : وفى هذا الحديث بيان عدم عصمة غير الأنبياء ، وأن المحفوظ قد يقع فى الحرام ولكن من عناية الله تعالى بأوليائه أن لا يترك الحرام يقيم فى باطنهم : وربما يكون ماوقع فيه أبو بكر إنما كان ليعلم الأمة أن يتقيؤا ما أكلوه من الحرام لا غيره ، وكان ذلك حراما صورة كما وقع لآدم عليه السلام فى أكله من الشجرة والله تعالى أعلم :

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَفْضَلُ الدِّينِ الْوَرَعُ » .

وفى رواية له أيضا : « خَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ » .

وروى ابن ماجه والبيهقى مرفوعا: « كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ » .

قلت . وإنما كان المتورع أعبد الناس لأن من أكل الحلال الخالص يصير لا يمل من العبادة ومن لا يمل فهو أعبد ممن يمل على اختلاف طبقات الناس كثرة وقلة والله تعالى أعلم .

وروى الترمذى وقال حديث حسن وابن ماجه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن يكون عندنا سماحة فى البيع والشراء وسهولة فى أخذ حقنا وفى وزن ماللناس علينا :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق يخرجه من حضرة محبة الدنيا والحرص على جمعها ويدخله حضرة الولاية التى منها يرى الدنيا بأسرها لاتزن عند الله جناح بعوضه ويرى منها عظمة حرمة المؤمن وأن الدنيا بأسرها لو كانت فى يده وأخذها إنسان فلا فرق عنده بينها وبين كناسة البيت وهنالك يكون عنده السماحة فى البيع والشراء وحسن المطالبة والعطاء ومن لم يسلك الطريق كما ذكرنا فمن لازمه غالبا تقديم تحصيل الجديد النقرة على حرمة أبيه فضلا عن الأجانب .

فاعمل ياأخى على السلوك على يد شيخ إن أردت أن تكون من أهل الجنة ومحبوبا عند الله وعند الناس ، والله يتولى هداك .

وروى البخارى وابن ماجه واللفظ له مرفوعا :

« رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى » .

ولفظ الترمذى مرفوعا : « غَفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى » .

ولفظ رواية النسائى : « أَدْخَلَ اللهُ رَجُلاً كَانَ سَهْلاً مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا الْجَنَّةَ » .

وروى الترمذى ، وقال حديث حسن والطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ ، حَرُمَتِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ » .

وفى رواية للحاكم وقال صحيح على شرط مسلم :

« مَنْ كَانَ هَيِّنًا لَيِّنًا قَرِيبًا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » .

وروى الترمذى والحاكم مرفوعا : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ ، سَمْحَ الشِّرَاءِ ، سَمْحَ الْقَضَاءِ » .

زاد فى رواية للطبرانى : « سَمْحَ الاقْتِضَاءِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : دَعُوهُ ، إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً ، ثُمَّ قَالَ : أَعْطُوهُ شَيْئًا مِثْلَ سِنِّهِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لاَ نَجِدُ إِلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ ، قَالَ أَعْطُوهُ ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » .

وروى الترمذى مرفوعا فى حديث طويل :

« أَلاَ وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ حَسَنَ الْقَضَاءِ ، حَسَنَ الطَّلَبِ ، وَمِنْهُمْ سَيِّئَ الْقَضَاءِ ، حَسَنَ الطَّلَبِ ، فَتِلْكَ بِتِلْكَ . أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ السَّيِّءَ الْقَضَاءِ السَّيِّءَ الطَّلَبِ ، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ الْحَسَنُ الْقَضَاءِ ، الْحَسَنُ الطَّلَبِ . أَلاَ وَشَرُّهُمْ سَيِّئُ الْقَضَاءِ ، سَيِّئُ الطَّلَبِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « إِنَّ صَاحِبَ الدَّيْنِ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْضِيَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقيل كل نادم على بيع أو شراء عملا بأخلاق السلف الصالح كما نقيل كل نادم على وقوعه فى حقنا .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : لا يبلغ الإنسان مقام المحبة لله ولرسوله إلا إن سامح جميع الخلق مماله عليهم من مال وعرض فى الدنيا والآخرة إكراما لمن هم عبيده ، ولمن هم من أمته صلى الله عليه وسلم اه ، وقد تحققنا بذلك ولله الحمد ، ونرجو من فضل ربنا دوام ذلك إلى الممات فلست أرى لى قط على أحد حقا لا فى مال ولا فى عرض ولو عمل معى ما عمل إكراما لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن سامح الناس سامحه الله وبالعكس ، فعلم أن من شاحح أحدا من هذه الأمة المحمدية ولم يسامحهم بحقه من غير ضرورة شرعية فما عرف قدر عظمته صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن معرفته بقدر عظمة الله تعالى التى كلف بها الخلق ولا يقدر على العمل بما قلناه إلا من حفته العناية الربانية وسلك الطريق على يد شيخ صادق ، وإلا فمن لازمه غالبا مشاححة كل من له عليه حق ولو كان شريفا بل رأيت من حبس شريفا على ألف نصف مع كونه هو يملك الثلاثين ألف دينار فقلت له إن هذا عضو من أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن حبسه فقد آذى جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن آذى جده فقد آذى الله ، فلم يسمع ، فبعث الله تعالى له فى تلك الجمعة مرضا منعه الأكل حتى مات .

وكذلك رأيت شخصا من طلبة العلم اشتكى شخصا مشهورا بالصلاح وسجنه إلى بيت الحكام على نصف وعثمان ، فمثل هؤلاء مقامهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، كمقامه عندهم فى الدنيا فياطول تعبهم فى عرصات القيامة ، ويا طول قهرهم حين يرونه صلى الله عليه وسلم يشفع لأقرانهم الذين كانوا يجلونه ويعظمونه ويريحهم من تعب الموقف ، وأهل الجفاء واقفون يتحسرون على تخلفهم عن دخول الجنة ، وفى الحديث :

« أَقْرَبُكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا » .

ومن أخلاقه العفو والصفح والمسامحة بحقه صلى الله عليه وسلم .

وقد بسطت الكلام على الأدب مع الشرفاء فى كتاب البحر المورود وذكرنا فيه أن مسامحة الشريف الذى طعن فى نسبه أوجه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسامحة

من ثبت نسبه كما يقال يكرم الناس لأجلنا اه أى وجه لمن اشتكى شريفا يوم القيامة حين يلقى جده صلى الله عليه وسلم ، والله أن غالب الخلق الذين لا يكرمون الشرفاء اليوم كالبهائم السارحة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرطهما واللفظ لابن حبان مرفوعا :

« مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا بَيْعَتَهُ أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية لابن حبان : « مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا عَثْرَتَهُ » .

وفى رواية لأبى داود فى المراسيل :

« مَنْ أَقَالَ نَادِمًا أَقَالَ اللهُ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننصح كل مسلم ولو لم يطلب هو منا ذلك ، فكيف إذا استنصحنا ، وهذا العهد المبارك قل من يفعل به الآن من التجار فإنه يخاف إن بين عيب مبيعه أن لا يشتريه منه أحد حتى قال لى بعض إخوانى الصادقين أنا فى غلبة ، فقلت له لماذا ، فقال : صرت أنصح المشترى وأعطيه أحسن القماش فيرده ويقول هات لى من ذاك الذى هو دونه ، فأحلف له بالله أن ماأعطيته له أولا هو الأنفع والأحسن ، فلا يرجع لى ، ويأخذ الردىء قياسا لى على الناس الذين يغشون فهل على إثم إذا أعطيته الردىء ؟ فقلت له : لا ، فلكثرة غش الناس لبعضهم بعضا صاروا لا يصدقون من نصحهم من التجار .

وكان الشيخ على المليجى المدفون بناحية مليج ، ينسج ويبيع القماش وكان بجانبه وعاء فيها زعفران فكل خيط انقطع يجعل عليه نقطة زعفران ، ويقول : تحت كل نقطة عيب :

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يبيع القفاف فكان إذا أعطاه أحد زيادة على ثمنها رده إليه ، فإذا قال له المشترى أنا خاطرى طيب بذلك ، فيقول الشيخ أنا خاطرى بذلك ماهو طيب .

وسمعته يقول : لا يبلغ المؤمن كمال مقام الإيمان حتى يكون أشفق على أخيه المؤمن من نفسه وراثة محمدية اه .

قلت : وقد تحققنا بذلك ولله الحمد فأنا أشفق على المسلمين من أنفسهم وامتحنت

تفمص فى ذلك مرارا فوجدتها صادقة، وأعطونى مرة فى خراج رزقى فوق العادة فرددتهم إلى العادة، فكنت بذلك أشفق على المستأجر من نفسه، ومن ذلك أنا أتأثر على كل خير فات أحدا من إخوانى المسلمين أكثر مما يتأثرون فأنا أشفق عليهم حينئذ من أنفسهم فالحمد لله رب العالمين.

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يخرجه من الحجب المانعة من التحقق بهذا المقام وإلا فلا يشم له رائحة :

(وَاللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم والنسائى مرفوعا : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » .

وروى الشيخان عن زياد بن علاثة قال : سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فشرط على النصح لكل مسلم، فبايعته على ذلك.

وفى رواية للشيخين وغيرهما عن جرير قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم زاد النسائى فكان جرير إذا باع الشىء واشترى قال : أما أن الذى أخذنا منك أحب إلينا مما أعطينا إليك فاختر.

قلت : وتقييد وجوب النصح بالمسلم فى الحديث جرى على الغالب وإلا فغير المسلم كذلك لا يجوز غشه كما يشهد لذلك :

« جِهَادُنَا فِيهِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَسْلَمَ فَإِنَّهُ مِنَ النُّصْحِ لَهُ » والله أعلم.

وروى الامام أحمد مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، أَحَبُّ مَا تَعَبَّدَ لِي عَبْدِي النُّصْحُ لِي » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ لاَ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لاَ يُصْبِحُ وَيُمْسِي نَاصِحًا لِلهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِإِمَامِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

ولفظ رواية ابن حبان فى صحيحه : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا التجار وغيرهم فى الصدق فى أخبارهم بالثمن خوفا عليهم وعلى أموالهم من النقص ، فإن الله جعل البركة مقرونة بالصدق فى العمل والعلم والعمر والرزق وغير ذلك ، فمن لم يصدق نزع الله البركة من علمه وعمله وعمره ورزقه .

وقد كان شخص بجوارنا معصرانيا ، يخبر بالثمن باطلا وكان ماله نحو العشرة آلاف دينار ، فذهبت كلها وصار يسأل الناس ، فقلت له : ماسبب خسارتك ، فقال : كنت أخلط الزيت الحلو على الشيرج وأبيعه على أنه شيرج ، ولا أتذكر قط أنى بعت بخسارة ، فقلت له ، كفى بخلطك الزيت الحلو غشا وخسارة فتوبته عن ذلك ، فتاب بحمد الله ، وقال : مابقى عندى شيء من الغش ولا غيره ، فأخذت له ألف دينار من بعض إخواننا واشترى بها حبا للمعصرة ، وجلس يبيع فرأيته تلك الليلة وهو يضع الغلة فى حق فكل شيء وضعه فيه طار منه فى الهواء كقشر السمك ، فقلت لصاحب الفلوس : النية تغيرت فادرك مالك قبل أن يتلف فراح المعصرانى إلى شيخ قالوا إنه يكاشف فقال لصاحب المال : لاتخف ولا تسمع لمن يخوفك فرأيته تلك الليلة يطحن السمسم فيخرج من تحت الحجر كالنخالة لا دهن فيه ، فقلت لصاحب الفلوس : أدرك مالك فراحوا لشيخ آخر فقال لا تخافوا فنمت تلك الليلة فرأيته يبنى له جدارا على حرف جسر الفيض أول قطعة ، وكلما وضع شيئا ينهال به الجرف ، فقلت لصاحب المال خذ مالك فدعا المعصرانى إلى القاضى فأنكر المال جملة واحدة فجمعت بين الإثنين وقلت لصاحب المال قد عرفنا قلة بركة مال المعصرانى فما سبب قلة البركة فى مالك أنت الآخر ، فقال : كنت أبيع الناس بالنساء وزيادة الثمن حتى لا يكاد أحد يستفيد شيئا من ورائى فمحق الله بركة مالى فما رأى بعد ذلك خيرا .

فاصدق ياأخى فى إخبارك المشترى ولا تغش فيحول الله عنك النعم والله يتولى هداك .

وروى الترمذى وقال حديث حسن وابن ماجه مرفوعا :

« التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

وفى رواية للأصبهانى مرفوعا: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفى رواية له أيضا مرفوعا: «إِذَا كَانَ فِي التَّاجِرِ أَرْبَعُ خِصَالٍ طَابَ كَسْبُهُ إِذَا اشْتَرَى لَمْ يَذُمَّ، وَإِذَا بَاعَ لَمْ يَمْدَحْ وَلَمْ يُدَلِّسْ فِي الْبَيْعِ وَلَمْ يَحْلِفْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ».

وفى رواية للبيهقى مرفوعا: «إِنَّ أَطْيَبَ الْمَكَاسِبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإِذَا اشْتَرُوا لَمْ يَذُمُّوا، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يَمْدَحُوا، وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ حَقٌّ لَمْ يُمَاطِلُوا، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسِّرُوا».

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَ الْبَائِعَانِ بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا فَعَسَى أَنْ يَرْبَحَا وَيَمْحَقَا بَرَكَةَ بَيْعِهِمَا، وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ مُنْفِقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْكَسْبِ».

وروى الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا:

«إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلاَّ مَنِ اتَّقَى وَبَرَّ وَصَدَقَ» والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننوى الوفاء لكل شيء استدناه من الناس، ولو صداقا لامرأة خوفا أن لا يعيننا الله تعالى على الوفاء إذا نوينا عدم الوفاء ويصير علينا التبعة فى الآخرة ويزيد الصداق بكون الشارع، جعل وطء تلك الزوجة التى نوينا عدم وفاء مهرها كالزنا.

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يقطع به الحجب المانعة عن شهوده الآخرة بعين البصيرة ويصير يطابق بين الدارين فكل شيء رأى أن الله تعالى لا يمشيه هناك يتركه هنا ومن لم يسلك كذلك فمن لازمه قصر بصره على هذه الدار ولا يكاد يتذكر الآخرة بل يقول لكل شيء وقت كما سمعته من خلق كثير، ولذلك كثرت الخيانة لهذا العهد من غالب الناس فى هذا الزمان، فصار كل واحد ينصب على الآخرة ويأخذ عمامة هذا يلبسها لهذا فلذلك ركبتهم الديون ودخلوا الحبوس، ولو أنهم نووا الوفاء

بصدق لأعانهم الله على الوفاء ، وكم من شخص تحبسه امرأته ويحكمها الله تعالى فيه حتى يصير يقبل نعلها أن تطلقه فلا تطلقه ، وهذا من أعظم الخزى ، على كل ذى مروءة .

ثم إذا وقعت يا أخى فى الدين فإياك أن تظهر لصاحب الدين الفقر ، والأمر بخلاف ذلك فيسلطه الله عليك بالحبس ، وتقسى قلبه عليك وإياك أن تتزوج وعليك دين أو تتسرى أو تعمل عرسا أو سماطا بل قتر على نفسك كل التقتير ، وكل شيء دخل يدك مما زاد على ضرورتك ، فأعطه لصاحب الدين ، واشكر فضله فى صبره عليك ، وقل له بحق وصدق والله أنا فى خجل منك ، ولكن ادع الله لى أن يوسع على حتى أوفيك وأوفى غيرك ، وقد دخل جماعة كثيرة من إخواننا الحبوس بسبب الكلام المر لصاحب الدين وبسبب التزويج وعمل الأعراس ، والعزومات ، وقال أصحاب الديون نحن أحق بذلك المال الذى ينفقه على شهوات نفسه وهو حق ، وإذا طلب صاحب الدين أن يحبس المديون فمن الأدب أن لايتوارى عنه بل يجيء بنفسه إليه ويقول أنا أسيرك فى الدنيا والآخرة ، فإن شئت فاحبس وإن شئت فأطلق ، وكذلك من الأدب أن يشكره بين الناس ويدعو له فيما بينه وبين الله بتوسعة الرزق وتعطيفه عليه حتى لايحبسه ولا يضيق عليه ، وإذا ساق الفقراء أو العلماء فمن الأدب أن يكونوا مع صاحب الحق لأن بيده العقد والحل ولا يكونوا مع المديون فيزداد الأمر شدة فإن المديون هو القابل الدين الذى أتلف مال الناس وفى الحديث :

« هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ » .

ثم إذا جاء العلماء أو الفقراء سياقا ، فمن الأدب من صاحب الدين أن يجعل لسياقهم تأثيرا ولايخالفهم يندم وإن راح بعدهم إلى الشرع غلبوه ، وإياك أن تستكثر مع القدرة إسقاط شطر الدين لأجل سياق العلماء والصالحين فإن جميع ذلك الدين لا يجيء فى مقابلة خطوة واحدة يمشيها إليك عالم أو صالح .

وقد بلغ سيدى عليا الخواص أن شخصا أتى بفقير سياقا على خصمه ليصبر عليه بدينه وكان خمسمائة دينار فأبى أن يصبر فقال الشيخ وعزة ربى الخمسمائة دينار لاتجيء حق طريق الفقير ، ولكن مابقى يصل منها إليه شيء فاتهم ذلك الشخص بتهمة فى بيت الوالى فضرب فمات وحضرنا جنازته رحمة الله عليه ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى الحاكم والطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ وَفِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ثُمَّ مَاتَ

تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى غَرِيمَهُ بِمَا يَشَاء ، وَمَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ثُمَّ مَاتَ اقْتَصَّ اللهُ تَعَالَى لِغَرِيمِهِ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

ولفظ رواية الطبرانى : « مَنْ ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ يَنْوِى أَنْ يُؤَدِّيَهُ أَدَّاهُ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنِ اسْتَدَانَ دَيْنًا وَهُوَ لاَ يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ فَمَاتَ . قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ظَنَنْتَ أَنِّى لاَ آخُذُ لِعَبْدِى حَقَّهُ فَيُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَتُجْعَلُ فِي حَسَنَاتِ الآخَرِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الآخَرِ فَتُجْعَلَ عَلَيْهِ » .

وروى البخارى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءهَا أَدَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي دَيْنًا ثُمَّ جَهَدَ فِي قَضَائِهِ ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَهُ فَأَنَا وَلِيُّهُ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها مالك وللدين ولك عنه مندوحة ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ » فأنا ألتمس ذلك العون .

وفى رواية للطبرانى : « كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ وَسَبَّبَ لَهُ رِزْقًا » .

وروى النسائى وابن ماجه وابن حبان : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدَّانُ دَيْنًا يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءهُ إِلاَّ أَدَّاهُ اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا » .

وروى ابن ماجه والبيهقى مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَدَايَنَ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لاَ يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللهَ سَارِقًا » .

وروى الطبراني مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً يَنْوِي أَنْ لاَ يُعْطِيَهَا مِنْ صَدَاقِهَا شَيْئًا مَاتَ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ زَانٍ » .

وروى النسائي والطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُتِلَ رَجُلٌ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ عَاشَ ، ثُمَّ قُتِلَ ، ثُمَّ عَاشَ ثُمَّ قُتِلَ ، ثُمَّ عَاشَ ، ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ » .

ولفظ رواية البزار وغيره مرفوعا : « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ لاَ يُؤَدِّيَهُ إِلَيْهَا فَهُوَ زَانٍ » .

وفي رواية للطبراني ورواته ثقات مرفوعا :

« أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ ، لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا ثُمَّ مَاتَ ، وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ » الحديث .

وروى ابن ماجه والبزار مرفوعا : « إِنَّ الدَّيْنَ يُقْتَصُّ مِنْ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ مَاتَ إِلاَّ مَنْ تَدَايَنَ فِي ثَلاَثِ خِلاَلٍ : الرَّجُلِ تَضْعُفُ قُوَّتُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَسْتَدِينُ يَتَقَوَّى بِهِ عَلَى عَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّهِ . وَرَجُلٍ يَمُوتُ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ لاَ يَجِدُ مَا يُكَفِّنُهُ ، وَلاَ يُوَارِيهِ إِلاَّ بِدَيْنٍ ، وَرَجُلٍ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْعُزْبَةَ فَيَنْكِحُ خَشْيَةً عَلَى دِينِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْضِي عَنْ هٰؤُلاَءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح الإسناد :

« إِنَّ اللهَ مَعَ الدَّائِنِ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا يَكْرَهُهُ اللهُ » .

وكان عبد الله بن جعفر يقول لخادمه اذهب فخذلي بدين فإني أكره أن أبيت ليلة إلا والله معي .

وروى أبو داود والبيهقي مرفوعا : « إِنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَا عَبْدٌ بَعْدَ الْكَبَائِرِ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا أَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ لاَ يَدَعُ قَضَاءَهُ » .

وروى ابن أبي الدنيا والطبراني مرفوعا :

« أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْأَذَى فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ عَلَيْهِ تَابُوتٌ مِنْ جَمْرٍ فَيُقَالُ : مَا بَالُ الْأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنَ الْأَذَى فَيَقُولُ إِنَّ الْأَبْعَدَ مَاتَ وَفِي عُنُقِهِ أَمْوَالُ النَّاسِ لَا يَجِدُ قَضَاءً أَوْ وَفَاءً » الحديث، والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبادر إلى وصية ميتنا وإلى قضاء دينه وفاء بحقه ولا نتهاون بذلك وينبغي للوارث أن لايشاحح أصحاب الدين ولا يتعبهم فى المطالبة حتى يقع الإبراء للميت بغير طيب نفس فربما ادعى بما بقى عليه يوم القيامة ، بل ينبغى له أن يعطى من نصيبه الذى ورثه للمديون نصيبا ويقول لنفسه قدرى أن ذلك ناقص من حصتك من الأصل لاسيما إن شح ولم يبرئ ذمة الميت ، وقال بينى وبينه معاملات باطنة فإن الميت لوعاش لم يعط الوارث إلا مافضل عن الدين ، فليعامل الوارث ميته معاملة الحى ، فإنه لابد له من لقائه يوم القيامة ، ويدعى عليه بما أخذه من إرثه بغير حق إذ ليس له إلا مافضل بعد وفاء الدين ، فلا فرق بين من يأخذ مال مورثه سرا أو جهرا وخاصم أرباب الديون ، ومنعهم حقهم وبين الغاصب أو السارق ، فافهم وبادر ياأخى إلى وفاء دين مورثك ورد قلبه فى قبره كما برد قلبك بالذهب وأدخل عليه سرورا كما أدخل عليك سرورا ووسع عليه كما وسع عليك والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد والترمذى وقال حسن وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا:

« نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى » .

ولفظ ابن حبان : « نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا باسناد حسن والحاكم والدارقطنى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِرَجُلٍ عَلَيْهِ دَيْنٌ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَأَبَى فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ : عَلَيَّ دَيْنُهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : الآنَ بَرَدَتْ جِلْدَتُهُ » .

وروى أبو يعلى والطبرانى مرفوعا : « إِنَّ جِبْرِيلَ نَهَانِي أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ وَقَالَ إِنَّ صَاحِبَ الدَّيْنِ مُرْتَهَنٌ فِي قَبْرِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ » .

وفى رواية : « إِنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَإِذَا عَلَيْهِ دَيْنٌ فَقَالَ : صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ صَلِّ عَلَيْهِ ، قَالَ فَمَا يَنْفَعُكُمْ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى رَجُلٍ رُوحُهُ مُرْتَهِنَةٌ فِي قَبْرِهِ لاَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلاً ضَمِنَ دَيْنَهُ قُمْتُ فَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ فَإِنَّ صَلاَتِي تَنْفَعُهُ » .

قال الحافظ المنذرى: وهذا منسوخ بحديث مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم لما فتح الله عليه الفتوح صلى على من عليه دين وقال :

« أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَمَنْ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ » الحديث والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرجع فى جميع مهماتنا وشدائدنا فى الدنيا والآخرة إلى الله تعالى ، وندعو ربنا بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عند الكرب ، وأمر به أمته ، ولا نخترع دعاء من عند أنفسنا ما أمكن ، وينبغى لنا أن نعتقد إجابة دعائنا ، ويكره أن نظن عدم الإجابة خوفا أن لا يجيب دعاءنا ، فإن الله تعالى عند ظن عبده به .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا ظن أحدكم أن الله تعالى لا يستجيب دعاءه لكثرة عصيانه مثلا فليسأل غيره أن يدعو له ، لكن إن كانت الحاجة مما فيه رائحة التبسط فى الدنيا فلا يسأل فيها من خرق ببصره إلى شهود الدار الآخرة من الصالحين ، فإنه ربما رأى عدم قضاء تلك الحاجة أولى لما فى تركها من الثواب والدرجات ، وليسأل فى ذلك من لم يخرق بصره إلى الدار الآخرة فإنه أكثر توجها إلى الله فى قضائها ، إذ العارف ليس له همة تجلب شيئا من شهوات الدنيا ، بل يرى لله الفضل فى حرمانه منها اهـ وهو كلام نفيس ، وقد ذقت ذلك من نفسى فربما يسألنى أحد فى حاجته فأعلم أن له فى تركها الأجر العظيم ، فاسأل الله له عدم قضائها لأن الخلق عند العارفين كالأطفال لا يجابون إلى كل ما سألوا ، وينبغى لكل داع أن يدعو بما ورد لا كما عليه الإمام البونى وأضرابه ، فإن كلام النبوة أفصح وأكثر أدبا ؛ فإذا دعونا بدعائه صلى الله عليه وسلم الذى فعله أو أمرنا به كان أقرب إلى الإجابة ، وما أمرنا صلى الله عليه وسلم أن ندعو بشىء أو بحصول شىء

إلا وقد مهد لنا عند ربه طريق الإجابة ، وكل من فى قلبه تعظيم للشارع صلى الله عليه وسلم يستعظم أن يسلك طريقا لا يرى فيها قدم الاتباع لنبيه صلى الله عليه وسلم ، بل لو كشف له لرآها طريقا وعرة مظلمة كثيرة المهالك قليلة الأنس ، وقد ترك أقوام كثيرون من المباشرين وأركان الدولة الأدعية الواردة فى السنة واستعملوا أدعية مخترعة لها شروط كترك أكل الزفر والجوع والبخورات ونحو ذلك ، فازدادوا مقتا وطردا ، وأين نفس البونى مثلا من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فاسلك يا أخى طريق أهل الله وتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبك الله ، والله يتولى هداك .

وروى الترمذى واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد أن مكاتبا جاء إلى على رضى الله عنه فقال : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى ، قال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كان عليك مثل جبل ثبير دينا أداه الله عنك .

« قُلِ اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ » .

قلت : وإضافة الحرام إلى الله فى هذا الحديث بيان للجواز :

وروى أبو داود : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَرَأَى رَجُلا جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكَ هَهُنَا فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ ؟ فَقَالَ : هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ ، فَقَالَ : أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّكَ وَقَضَى دَيْنَكَ ، فَقَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » .

قال الرجل فقلتها فأذهب الله همى وقضى عنى دينى :

وروى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ :

« أَلَا أُعَلِّمُكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ دَيْنًا لَأَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ ، قُلْ يَا مُعَاذُ : اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، إِلَى قَوْلِهِ : قَدِيرٌ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا تُعْطِيهِمَا مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ مِنْهُمَا مَنْ تَشَاءُ ارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِينِي بِهَا عَمَّنْ سِوَاكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِى بِيَدِكَ مَاضٍ فِىَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِى وَنُورَ صَدْرِى ، وَجِلاَءَ حُزْنِى ، وَذَهَابَ هَمِّى إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا » .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« كَلِمَاتُ الْمَكْرُوبِ : اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِى إِلَى نَفْسِى طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَأَصْلِحْ لِى شَأْنِى كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » .

وروى الترمذى والنسائى والحاكم مرفوعا :

« دَعْوَةُ أَخِى ذِى النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِى بَطْنِ الْحُوتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِى شَىْءٍ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ »

وروى الطبرانى والحاكم مرفوعا : « مَنْ قَالَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ كَانَ لَهُ دَوَاءً مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ دَاءً أَيْسَرُهَا الْهَمُّ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبجل العلماء والصالحين والأكابر ولو لم يعملوا بعلمهم ، ونقوم بواجب حقوقهم ونكل أمرهم إلى الله تعالى ، فمن أخل بواجب حقوقهم من الإكرام والتبجيل فقد خان الله ورسوله ، فإن العلماء نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملة شرعه وخدامه ، فمن استهان بهم تعدى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك كفر ، وقد مال إلى ذلك من كفر من قال عن عمامة عالم هذه عميمة عالم بالتصغير ، وتأمل من استهان بغلام السلطان إذا أرسله إليه كيف يسمع السلطان من رسوله فيه ويسلب نعمة ذلك الذى استهان ويطرده عن حضرته ، بخلاف من بجله وعظمه ، وقام بواجب حقه يقربه السلطان ولو كان بعيدا ويكرمه ويجله .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يدخله حضرة الولاية الكبرى ، ويشهد هناك من هو المقدم عند الله ومن هو المؤخر ، ويصير يقدم من قدمه الله ويؤخر من أخره الله على الكشف والشهود ، كما يشاهد الإنسان ذلك فى حضرة ملوك الدنيا ، فإن لم تسلك يا أخى كما ذكرنا فلا يصح لك تقديم أحد على أحد إلا لعلة دنيوية ، وليس ذلك التقديم هو الذى أمرك الله به . فعلم أن كل من أقام الميزان بغير حق على العلماء والأكابر حرم النفع بهم وعصى الله ورسوله :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الطبرانى مرفوعا : « تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إِلَّا مُنَافِقٌ : ذُو الشَّيْبَةِ فِى الْإِسْلَامِ ، وَذُو الْعِلْمِ ، وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي زَمَانٌ أَوْ لَا تُدْرِكُوا زَمَانًا لَا يُتَّبَعُ فِيهِ الْعَلِيمُ وَلَا يُسْتَحْيَا فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعطى جميع الحقوق التى علينا للخلق فى هذه الدار ونتحللهم منها قبل يوم القيامة ، وذلك لكون الدنيا أوسع من الآخرة لاجتماع الحقوق علينا هناك وكثرة الطالبين لنا ، ولا هكذا الدنيا إنما يطالبنا فيها بعض أناس .

سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يكمل حال الفقير إلا إن أعطى جميع الحقوق التى عليه قبل المطالبة ، ومتى أحوج صاحب الحق إلى وقوف عند حاكم فقد خرج من طريق الفقراء إلى طريق العوام والظلمة سواء أكان ذلك الحق لزوجة أو جار أو أجير أو فقراء يستحقون زكاته ونحو ذلك ، وهذا العهد لا يصح العمل به إلا لمن سلك الطريق وخرج عن محبة الدنيا وشهد مواقف القيامة ، وما يقع فيها من مناقشات الحساب حتى لا يفوت صاحب الحق مثقال ذرة من حقه ، ومن لم يسلك الطريق فمن لازمه محبة الدنيا والوقوف مع أربابها للحكام كما هو واقع لغالب فقراء هذا العصر فضلا عن غيرهم .

وقد رأيت بعيني شخصا من فقراء العصر تولى نظرا على وقف له فيه معلوم النظر نصف وعثمانى كل شهر ، اشتكاه شخص من المستحقين وقال له أنت أكلت معلومنا ، والمسئول منك إما أن تعطينا حقنا، وإما أن نسامحك فيامضى وتنزل عن النظر فأبى ورضى بوقوفه عند الحكام، فأخذه بعض المستحقين ومسكه من كمه ودخل هو وإياه بيت قاضى العسكر فبهدله غاية البهدلة على شان نصف وعثمانى كل شهر ، مع أن تجارة هذا الشيخ كما حكى عنه أصحابه نحو عشرة آلاف ونصف، فإذا كان هذا حال المشايخ فى هذا الزمان فكيف حال غيرهم ، وما رأيت هذا الحال قط فى أحد من الأشياخ الذين أدركناهم ، فلم نر أحدا منهم قط واقفا عند حاكم يدعى عليه نحو زوجة أو جار أو صاحب أو أجير بل كانوا يعطون الحق الذى عليهم قبل السؤال.

فاسلك يا أخى طريقهم إن أردت أن ينفع الله بك المسلمين فى إرشادهم والشفاعة فيهم عند الحكام وغيرهم، فإن من شرط الشيخ أن يكون محفوظ الظاهر مهابا فى العيون وتأمن الظالم أو المريد لو جاء لزيارة الشيخ فوجده مربوطا برسل الحكام يدعون عليه ويخرجونه كيف يهون فى عين الظالم أو المريد فلا يقبل ذلك الظالم بعد ذلك له شفاعة ولا ينتفع به ذلك المريد، فشرط الشيخ أن يكون وارثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كونه يحكم فى غيره ولا يحكم أحد عليه ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك.

وقد روى البخارى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا قال :

« قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ ».

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَعْطُوا الْأَجِيرَ أُجْرَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ ».

وهو وإن كان ضعيفا فكثرة طرقه تكسبه قوة ، والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعظ كل عبد غضب من سيده ونرغبه فى أداء حق الله وحق مواليه ، كما نعظ سيده ونأمره أن يرفق به عملا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغرغر ويقول :

« الصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ».

فلولا أن الاحسان إلى الأرقاء أمر عظيم ماقرنه صلى الله عليه وسلم بالصلاة التي هي عماد الدين .

واعلم ياأخي أنك لو أحسنت إلى عبدك مدى الدهر لاتقوم بواجب حق عبدك عليك لأنه بالأصالة إنما هو عبد الله كما أنك عبده ، فإحسانك إليه يصحبه شهود المنة عليه ، ولا هكذا إحسان عبد إليك ، فأجره موفر للدار الآخرة بخلاف أجرك ، وهنا أسرار يعرفها أهل الله تعالى لاتسطر في كتاب .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغي للفقراء أن يرواهم ملكا لشيء من الوجود لاعبدا ولا أمة ولا دابة كما كان صلى الله عليه وسلم وكمل ورثته يفعلون ، وكان كل عبد دخل في يدهم أعتقوه لوقته ، فهم يستحيون من الله تعالى أن يراهم يستعبدون أحدا من الخلق ، ويجعلون عبد سيدهم عبد الهم ، فإن ذلك عندهم من أعلى طبقات سوء الأدب ، ومن هنا كانوا عبيدالله خالصين لم يسترقهم شيء من مملكة الدارين ، ولو أعطاهم الحق تعالى شيئا قبلوه أدبا ثم خرجوا عنه في الحال لربهم حياء منه أن يراهم مشاركين له في وصف من الأوصاف ، فليس فرحهم سوى إقبال الحق عليهم ، وليس حزنهم إلا على إدبارهم عنه لاغير ، فسواء أقطعهم الجنة كلها أولم يقطعهم منها هو عندهم سواء ، لعدم شهودهم دخول شيء من الكونين في ملكهم وشكرهم لله تعالى ، إنما هو من حيث النسب لاغير ، فافهم ذلك فإنه نفيس جدا .

ويؤيد ماقلناه من عدم ملك العبد مع ربه حديث :

« لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي » .

وبالجملة فليس في الدارين نعيم أكبر من نعيم مجالسة الحق تعالى ، ولذلك ورد :

« لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا » .

وذلك لأنهم لايجالسون الله تعالى في الجنة إلا بقدر مجالستهم له في ذكره في دار الدنيا وإن كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فمجالسة الحق في دار الدنيا كالنواة الكامل فيها أغصان وورق وثمار ، فربما تكون الذرة من مجالسة العبد لربه في الدنيا تضعف له في الآخرة ألف ألف ضعف أو أكثر أبد الآبدين :

(ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) والله أعلم .

فيحتاج العامل بهذا العهد إلى شيخ يرشده إلى مشاهد الرجال فى ذلك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ » .

وروى البخارى مرفوعا : « الْمَمْلُوكُ الَّذِى يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَيُؤَدِّى إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِى عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَالطَّاعَةِ لَهُ أَجْرَانِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الْمُصْلِحِ أَجْرَانِ » .

وكان أبو هريرة يقول : والذى نفسى بيده لولا الجهاد فى سبيل الله والحج وبر أمى لأحببت أن أموت وأنا مملوك :

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَنَّ عَبْدًا أَطَاعَ اللهَ تَعَالَى وَأَطَاعَ مَوَالِيَهُ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ قَبْلَ مَوَالِيهِ بِسَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَيَقُولُ السَّيِّدُ رَبِّ هٰذَا كَانَ عَبْدِى فِى الدُّنْيَا ، قَالَ : جَازَيْتُهُ بِعَمَلِهِ وَجَازَيْتُكَ بِعَمَلِكَ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « إِنَّ عَبْدًا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَرَأَى عَبْدَهُ فَوْقَ دَرَجَتِهِ فَقَالَ : يَا رَبِّ هٰذَا عَبْدِى فَوْقَ دَرَجَتِى ؟ قَالَ : قَدْ جَازَيْتُهُ بِعَمَلِهِ وَجَازَيْتُكَ بِعَمَلِكَ » .

وروى الترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : شَهِيدٌ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ وَنَصَحَ مَوَالِيَهُ » .

وروى الترمذى والطبرانى مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ عَلَى كُثْبَانِ المِسْكِ أُرَاهُ ، قَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عَبْدٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ » الحديث .

وفى رواية : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَهُولُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ، وَلاَ يَنَالُهُمُ الحِسَابُ وَهُمْ عَلَى كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ حَتَّى يُفْرَغَ مِنْ حِسَابِ الخَلاَئِقِ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَعَبْدٌ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، وَفِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوَالِيهِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « أَوَّلُ سَابِقٍ إِلَى الجَنَّةِ مَمْلُوكٌ أَطَاعَ اللهَ وَأَطَاعَ مَوَالِيَهُ » والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب كل غنى عنده عبيد أو مال فى العتق لاسيما إن كان كثير الذنوب كالحكام وحاشيتهم وقضاة الأرياف الذين يتهورون فى الأحكام ، فعلم أن الفقير لايطالب بعتق العبيد ، ولكن قد جعل الله تعالى للفقراء ماهو كعتق رقبة منه ، ماروى فى الصحيح :

« أَنَّ مَنْ قَالَ كُلَّ يَوْمٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ يَعْتِقُهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَمَنْ قَالَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَ كَعَدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ » .

وورد أيضا: « مَنْ قَالَ كُلَّ يَوْمٍ اللَّهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلاَئِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مَرَّةً وَاحِدَةً عَتَقَ رُبُعُهُ مِنَ النَّارِ ، فَإِنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ عَتَقَ نِصْفُهُ ، فَإِنْ قَالَهَا ثَلاَثًا عَتَقَ ثَلاَثَةُ أَرْبَاعِهِ ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَتَقَ كُلُّهُ » .

والأحاديث فيما هو كعدل رقبة أو رقاب من الأعمال كثيرة مشهورة لمن تتبعها فى السنة ، والله تعالى أعلم :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ » .

ولما سمع بذلك على بن الحسين رضى الله عنه بادر إلى عبد أعطى فيه عشرة آلاف درهم أو ألف دينار فأعتقه .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ » .

وروى الترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ، يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُمَا عُضْوًا مِنْهُ » .

وفى رواية للإمام أحمد باسناد حسن صحيح وأبى داود والنسائى مرفوعا :

« مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً فَهِيَ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ » .

ولفظ رواية الحاكم وقال صحيح الإسناد :

« مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً فَكَّ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نغض بصرنا عن رؤية كل مانهانا الله تعالى عن النظر إليه من مستحسنات الدنيا المحسوسة والمعنوية ، وأن نروض نفوسنا قبل الغض بالجوع ونحوه حتى يصير غض البصر مماتعطيه سجيتنا لانتكلف له ، ويحتاج من يريد ذلك إلى السلوك على يد شيخ ناصح .

وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم مع كمالهم وتمكنهم يجعلون على رؤوسهم الطيلسان ، ويرخون حاشية الرداء على أعينهم ، حتى يكون بصرهم مكفوفا فلا يرون إلا مواقع الأقدام ، وبعضهم كان يلبس البرنس صيفا وشتاء منهم أنس بن مالك رضى الله عنه ، وكان يقول إنه يكف البصر عن فضول النظر وتبعهم على ذلك سادات الصوفية وأمروا به مريديهم إذا خرجوا إلى السوق حتى يرجعوا ، وللشيخ جلال الدين السيوطى فى ذلك مؤلف سماه [الأحاديث الحسان فيما ورد فى الطيلسان] .

وقد خرج شخص من مريدى سيدى مدين مرة بغير طيلسان فرأى جرة خمر فكسرها

فهجره سيدى مدين ، فقيل له فى ذلك فقال : إنى لم أهجره من أجل كسره جرة الخمر ، وإنما هجرته من جهة تعاطيه أسباب فضول النظر وعدم خروجه إلى السوق بالطيلسان ، فعرض نفسه لأمر قد يعجز عنه ، ولو أنه خرج بطيلسان أو غض بصره لما وقع بصره على محرم اهـ .

ويتعين فعل ما ذكرناه اليوم من غض البصر على فقراء الزاوية لعدم ضبطهم على امتثال أمر الله لهم بغض البصر ، فإذا لبسوا الطيلسان رد بصرهم قهرا ويصير ينبههم على الكف حين يحتاجون لرفع الرأس ، ويتكلفون لرفعه بخلاف ما إذا تركوا الطيلسان ، فإنه يسهل عليهم الالتفات إلى طبقات البيوت وغيرها .

وسيأتى فى عهود المنهيات فى معنى حديث : « وكانت خطيئة أخى داود عليه السلام النظر » أن المراد بالخطيئة كونه رفع بصره عليه السلام بغير حضور ، وذلك لأن الأكابر مكلفون بأن لايقع منهم حركة ولا سكون إلا بعد حضور مع الله ومراقبة له ، فكانت الخطيئة عين الرفع مع الغفلة ، لاعين النظر إلى امرأة أو رياء كما قيل ، لأن الأنبياء معصومون عن الوقوع فى النظر المحرم ولو فجأة ، لعكوفهم بقلوبهم فى حضرة الإحسان فلا يقع منهم خطيئة لاسهوا ولا عمدا . وأيضا فإنهم مشرعون لأممهم فى جميع الحركات والسكنات ، فلو صح فى حقهم الوقوع فى معصية ما لصدق عليهم تشريع المعاصى ولا قائل بذلك من المسلمين ، فكانت ذنوبهم صورية ليروا من وقع من أممهم فى خطيئة كيف يفعل ، وقد بكى داود حتى نبت العشب من دموعه تعظيما لحرمات الله تعالى على أن قومه يفعلونها ، فكان بكاؤه صلى الله عليه وسلم إنما هو من باب شفقته على قومه ، كما كان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله فى اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة وقال :

« إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي » .

يعنى مما ستقع فيه أمتى بعدى ، هكذا كان سيدى على الخواص يقول لنا فى معنى استغفار المعصومين ، وقال جميع ماذكر عن الأنبياء مما يخالف هذا إنما أخذه الناس من كتب اليهود الذين كذبهم الله تعالى فى وجوههم ولم يأتنا ذلك فى كتاب ولا سنة وإنما جاء الأمر مجملا ، والأنبياء من مقامهم العكوف فى حضرة الإحسان التى منها حفظ من حفظ من الأولياء الذين دخلوا حضرة الإحسان .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح ليدلك على دخول الحضرة التى تحفظ منها جوارحك

عن الوقوع فى شىء من المعاصى ، ولا يصير لها قط شهوة إلى معصية ، وإلا فمن لازمك الوقوع حتى لايكاد يسلم لك عضو واحد من أعضائك من المعصية ، والله يتولى هداك .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : مراتب شهود الأكابر أن لايروا شيئا إلا ويرون الله تعالى قبله، فيكون الحق تعالى حاجبا لهم عن الأكوان، ومثل هؤلاء لايؤمرون بغض البصر كالغير، وإنما يعصمون أبصارهم حياء من الله تعالى وإجلالا له . قال ومشهد من دونهم أن لايروا شيئا إلا ويرون الحق تعالى معه ، فيشهدون الحق مع الخلق مع الفرق بين العبد والرب ، ومشهد أصحاب الفكر من العلماء أن لايشهدوا شيئا إلا يرون الله بعده لأن الأكوان أمارات على القدرة الإلهية والصنعة تدل على الصانع بيقين اه .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : من شهد الخلق مع الحق معا فهو الكامل الذى لا أكمل منه ، خلاف قول الجنيد وغيره : من شهد الخلق لم ير الحق ومن شهد الحق لم ير الخلق اه .

قلت : وقول أخى أفضل الدين هو الحق لاسيما والرسول مكلف برعاية أمته ليلا ونهارا من حيث الأمر والنهى ومعظم رسالته إنما هو لأجلهم ، إذا كان شهود الحق تعالى حاجبا له عن الكون ، فلمن يأمر وينهى ولمن يخاطب بالتكاليف وفيمن يجاهد بالسيف فتأمل . فقد علمت يا أخى أن كراهة عدم غض البصر إنما هو فى حق من يورثه ذلك محظورا لا فى حق أهل الله تعالى المتقدم ذكرهم ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا عن الله عز وجل قال :

« النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلاَّ أَحْدَثَ اللهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا فِي قَلْبِهِ » .

ولفظ الطبرانى : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ أَوَّلَ رَمْقَةٍ » .

قال البيهقى : والمراد أن يقع بصره على المرأة من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعا لا أنه يقصد النظر إليها أولا .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ » الحديث .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ تَرَى أَعْيُنُهُمُ النَّارَ فَذَكَرَ مِنْهُمْ ، وَعَيْنٌ كَفَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« اُضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ ، فَذَكَرَ مِنْهَا : وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ » الحديث .

وروى مسلم عن جرير قال : « سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ اصْرِفْ بَصَرَكَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نختار التزويج على العزوبة ولو كنا فى عبادة ليلا ونهارا ، ونعين من طلب التزويج جهدنا ، وذلك لأن عبادة العازب ناقصة ، وإنما مدح الله تعالى السيد يحيى عليه السلام بالعزوبة بقوله :

(وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) .

لأن مقامه أعطى ذلك . فخرج عن الشهوة الغالبة على البشر .

وقال الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله : لم تكن العزوبة مقصودة ليحيى عليه السلام وإنما ذلك لأن زكريا كان يعجبه حال مريم عليها السلام ، كلما دخل عليها من حيث أنها كانت بتولا أى منقطعة عن الأزواج ، فلما استفرغ وسعه فى ذلك خرج ولده يحيى كذلك فما هى صفة كمال فى نفس الأمر بدليل أن الله تعالى أثنى على الرسل بالتزويج فى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) اهـ .

وكم يقع العازب فى فاحشة ويستره الله ، وكم تخطر فى باله الفاحشة ويحميه الله ، وكم يصلى صلاة وجارحته منتشرة فى حال الصلاة ، وكم يسىء الناس ظنهم به ، وكم يمنعونه

من السكنى بين النساء فى الربوع وغيرها ، ولو أنه تزوج لكان أعف نفسه عن مثل ذلك ومن هنا ورد :

« مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ » الحديث .

أى أتى زوجته قبل أن يحضر لصلاة الجمعة خوفا أن يخطر فى باله وهو بين يدى الله عز وجل الجماع ولو حلالا فى تلك الحضرة الخاصة ، والجمع العظيم ، فإذا جامع زوجته وخرج للجمعة أمن من ذلك .

ومن فوائد التزويج أنه ينشط الكسلان للمكسب الحلال بالأصالة ، وإن وقع بسببه فى الكسب الحرام فليس ذلك بالأصالة وإنما هو بالعرض .

وقد حكى لى شيخنا رضى الله عنه : أن شخصا كان يتعبد فى زاوية ويأكل من صدقات الناس وأوساخهم ، وكان كثير التزويج ، فكانت كل امرأة تزوجها لا تقيم معه إلا نحو يومين أو ثلاثة أو جمعة ثم يطلقها حين تطلب منه النفقة ، فخطب امرأة صاحبة عقل فنصحها الناس عنه ، فقالت تزوجته وتوكلت على الله ، فلما كان اليوم الثانى من دخوله بها ، قالت له يارجل أما تخرج تكتسب للأولاد شيئا؟ فقال ما أعرف صنعة فقالت له خذ هذه الحلقة الذهب وبعها واشتر بها لنا فولا ، فاشترى به نحو ثلاثة أرادب ، فشرعت تنقى هى وإياه ثم بلته بالماء إلى اليوم الثانى ، ثم سلقته ، وقالت أخرج بعه وقل ياصباح العافية فما زال يبيع إلى قريب الظهر ثم جعلت الباقى مقلى ، وقالت أخرج به بمشاق أو نخالة أو بخبز ، ولا تتوقف فما فرغ لنصف العصر فلقيه بعض إخوانه بعد جمعة ، وقال قد تعجبنا من إقامة هذه المرأة معك هذه المدة ، فقال : والله ماأنا فارغ أطلق فإنى إلى الظهر فى الفول الحار وإلى نصف العصر فى المقلى .

واعلم أن الله تعالى قال : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) .

ففضل الرجال بذلك فمن لا كسب له فهو والمرأة سواء فى الدرجة :

وانظر ياأخى إلى إيجار السيد موسى عليه السلام نفسه عشر سنين فى تحصيل مهر امرأة تعرف مقدار التزويج .

وقال لى بعض فقراء العصر وقع لى أنى أمرت بعض الفقراء المتعبدين عندى فى الزاوية بالتزويج ، فقال لا حاجة لى بذلك ، فغلبته نفسه فوقع فى الزنا ، فتزوج ياعازب واسع

سعى الرجال فلأن تتزوج وتسأل الناس وتكتسب بنصب وتعب خير لك من أن تأتى يوم القيامة زانيا أو محشورا مع قوم لوط ، ولو كنت على عبادة الثقلين .

ومن القواعد أن السلامة مقدمة على الغنيمة وقول بعض الفقراء فى هذا الزمان أن العزوبة مقدمة على التزويج ، إنما ذلك فى حق من لم يخف على نفسه العنت ، أما من يخاف العنت فالتزويج مطلوب له بالإجماع ، وقد ورد :

« شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ » وورد « خَيْرُكُمْ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ الْخَفِيفُ الْحَاذِّ ، وَهُوَ الَّذِى لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ زَوْجَةٌ » .

وهما محمولان على ماقررناه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول لمن شاوره فى التزويج، وليس له كسب ، شاور ياأخى غيرى أتريد منى أن أعلمك سرقة العمائم فتلخص من جميع ذلك أن صفة التزويج أولى من صفة العزوبة بكل حال لأجل النسل والإعفاف .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان واللفظ لهما وأبو داود والترمذى والنسائى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرَ » .

يعنى اللاتى يعففنه عن النظر إلى الأجانب .

وروى الترمذى مرفوعا وقال حديث حسن :

« أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ الْحِنَّاءُ وَالتَّعَطُّرُ وَالسِّوَاكُ وَالنِّكَاحُ » .

وفى بعض الروايات : « وَالْحَيَاءُ » بالياء دون النون .

وروى البيهقى مرفوعا : « إِذَا تَزَوَّجَ الْعَبْدُ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الدِّينِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِى النِّصْفِ الْبَاقِى » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ : الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الْأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ الْعَفَافَ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرسلا باسناد حسن :

« مَنْ كَانَ مُوسِرًا وَهُوَ مُحْتَاجٌ لِأَنْ يَنْكِحَ فَلَمْ يَنْكِحْ فَلَيْسَ مِنِّى » .

وروى الشيخان وغيرهما : « فِى خَبَرِ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ قَالَ أَحَدُهُمْ ، أَمَّا أَنَا فَأَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَقَالَ لِى رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم لٰكِنِّى أُصَلِّى وَأَرْقُدُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نختار ذات الدين الشوهاء على الجميلة الفاسقة عند فقد ذات الدين الجميلة ، وهذا العهد يخل بالعمل به غالب الناس ، حتى بعض من ينسب إلى العلم والصلاح لإيثارهم الدنيا على الآخرة ، وفى الحديث :

« لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ » .

والقاعدة عند أهل الله تعالى أن يكون نومهم ضرورة وأكلهم ضرورة ولبسهم ضرورة وجماعهم ضرورة أما عند غلبة شهوتهم عليهم أو غلبة شهوة عيالهم عليهم ، ومن أتى الجماع عند الضرورة كفاه جارية سوداء ، كما اكتفى الإمام الشافعى بالجارية ، وكان اسمها بلاغا وكانوا إذا طلبوه لتزويج المنعمات يقول مالى فراغ إلى الاستمتاع بهن ثم يقول إن فى بلاغ لبلاغا .

واعلم يا أخى أن من أكبر الفسق الذى تقع فيه المرأة تركها الصلاة ، وعدم الغسل من الجنابة كلما يقع لها جنابة فيصير الإنسان يضاجعها وهى جنب ساخط عليها ربها ، ومذهب الإمام أحمد رضى الله عنه أنها مرتدة لا يجوز نكاحها وأولادها من زنا ، على قاعدة الشريعة :

فابحث يا أخى على دين المرأة وحسن خلقها ولا يضرك ما فاتك بعد ذلك عكس ما عليه غالب الناس ، فترى أحدهم يسأل عن حسنها وعن مالها فقط ، وما عليه من دينها بل يصير

يقبلها ويعانقها ، كما تفعل الأمة مع سيدها مع أنها مرتدة مراقة الدم إن لم تتب ، وذلك في غاية الجهل والتهوير ، ولذلك يكون عاقبة أحدهم وخيمة من الفراق والشكاوى حين يريد أن يأخذ شيء من حوائجها ليرهنه أو يبيعه لينفقه ، بل رأيت بعض الشباب تزوج عجوزا ذات مال وصار يخدمها ، وينتظر موتها ليرثها فلم تمت فطلقها بعد اثنتي عشرة سنة ، وكان يقول كلما أقرب منها يحصل لي في بدني الأذى كأنني شربت سما ، وهذا كله لاينبغي لمؤمن أن يفعله لاسيما من كان مشهورا بالعلم والصلاح ، وقد قالوا من ادعى طريق الفقراء واسترقته شهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب في دعواه :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الإمام أحمد باسناد صحيح والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه مرفوعا :

« تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى إِحْدَى خِصَالٍ ، لِجَمَالِهَا ، وَمَالِهَا ، وَخُلُقِهَا ، وَدِينِهَا فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ وَالْخُلُقِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ » .

وفي رواية للشيخين وغيرهما مرفوعا : « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا . فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » .

قال الحافظ عبد العظيم قوله « تربت يداك » كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل هي كلمة دعاء عليه بالفقر ، وقيل بكثرة المال ، واللفظ مشترك بينهما قابل لكل منهما والثاني هنا أظهر ومعناه أظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال أكثر الله مالك :

وروى الأول عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما قال له ذلك لأنه رأى الفقر خيرا له من الغنى ، والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم :

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ ذُلاًّ ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ فَقْرًا ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحُسْنِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ دَنَاءَةً ، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْ بِهَا إِلاَّ أَنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ وَيُحْصِنَ فَرْجَهُ أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ ، بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « لاَ تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ وَلا

تَزَوَّجُوهُنَّ لِأَمْوَالِهِنَّ ، فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ ، وَلَـكِنْ تَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ وَلَأَمَةٌ جَذْمَاءُ سَوْدَاءُ ذَاتُ دِينٍ أَفْضَلُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نختار تزويج الودود الولود على الجافية الطبع العجوز ، من حيث إن تزويج الولود الودود أشرح للخاطر ، لما فيه فتح باب الشكر لله عز وجل وارتباط القلب بها من حيث أولادها ، ولا هكذا العجوز الجافية فإن من تزوجها ربما سخط على مقدور ربه عز وجل لنفرة الخاطر منها ، وربما ولدت الجافية ولدا فجاء نصف الخلق ضعيفا لضعف الداعية بخلاف الودود ، يستخرج بحسن ملاعبتها وحلاوة كلامها المنى الكثير من جميع مكامنه فتنزل النطفة غزيرة فيأتى الولد ضخم الخلق ، حسن الوجه جميل الأخلاق على صورة ما كان أبواه عليه حال الوقاع بإذن الله تعالى .

وبالجملة فلا تجد أحدا يختار خلاف مااختار له الشارع صلى الله عليه وسلم إلا لعلة دنيوية ، اللهم إلا أن يكون فى مقام رياضة النفس فهذا له حكم آخر .

وقد كان بعضهم يتزوج كل امرأة رآها شوهاء ويصبر عليها ويقول : أنا أحق بها من غيرى فأحملها عن إخوانى المسلمين وكان بعضهم يختار شراء العبد القوى الرأس أو الدابة البطيئة السير ويصبر عليها .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : قل أحد من الأولياء إلا وهو تحت حكم امرأته تؤذيه بلسانها وبأفعالها ، إما أن يكون ذلك لمشاكلتها لنفسه ، وإما أن يكون ذلك اختبارا منه ليحمل أذاها عن غيره ممن يتزوجها .

وأخبرنى شيخنا الشيخ نور الدين الشونى شيخ مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر وقراها أنه جاور عند سيدى عثمان الحطاب بمصر فخرج يتوضأ فى ليلة باردة ، فوجد شخصا ملفوفا فى نخ حلفاء قال : فحركته برجلى وقلت له من أنت ؟ فقال عثمان ، فقلت له ياسيدى مالك نائم هنا ، فقال أخرجتنى أم أحمد من البيت اه .

وكذلك رأيت زوجة سيدى الشيخ محمد بن أبى الحمايل السروى تشتمه وتخرجه عن طريق الفقر ويخاف منها ، ورأته مرة وهو طائر فى الليل مع الطيارة فقالت : انظروا عرصته أيش قام عليه بطيران ، وكانت زوجة سيدى على الخواص تهجره الثلاثة

أشهر وأكثر ، وهجرته شهرا لكونه سقى دجاجها من الماء المكشوف ، وغلط مرة فشرب من قلتها فحكت موضع فمه بشقفة حتى لاتضع فمها موضع فمه ، وسافر بها إلى الحجاز وهى هاجرة له ، فسافر بها من مصر ورجع من غير أن يقع بينها وبينه كلام ، ثم لما ماتت تبعها براية بيضاء أمام نعشها ، مع أنه أخبرنى فى مرض موتها بأن له سبعا وخمسين سنة من حين دخل بها لم ينم معها ليلة واحدة ، وهما مصطلحان ، فمثل هؤلاء لهم مقاصد صحيحة فينبغى التسليم لهم فيمن يتزوجونه من العجائز الشوهات والسيآت الخلق :

وَ (اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد والنسائى :

«أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليهِ وسلّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَمَنْصِبٍ وَمَالٍ إِلاَّ أَنَّهَا لاَ تَلِدُ أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ؟ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّى مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى البيهقى أن عمر رضى الله عنه كان يقول : حصير فى بيت خير من امرأة لم تلد ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكون رحمة بين العباد وميزان عدالة بين الناس لانحيف على واحد دون آخر فنرغب مثلا الزوج فى الوفاء بحق زوجته وحسن عشرتها ، ونرغب المرأة فى الوفاء بحق زوجها وطاعته وعدم مخالفته ونتلو على كل واحد منهما ماورد فى ذلك فى حقه عن الشارع صلى الله عليه وسلم ، وهذا العهد قل من يعمل به الآن لأمور يطول شرحها ، وأولى الناس بالعمل به حملة القرآن والعلم لاطلاعهم على ماورد فى ذلك بخلاف العوام والظلمة فإن أكثرهم لايكاد يعرف أصول الدين فضلا عن فروعه ، وينبغى للفقيه إذا وعظ النساء والرجال أن يذكر لكل فريق ماعليه من الحق للآخر .

وقد دخل الأمير محيى الدين بن أبى أصبغ أحد أركان الدولة بمصر المحروسة يوما فرأى قارىء البخارى لعياله فى البيت يقرأ عليهن حقهن على الزوج ؛ فقال له يا أعمى القلب

اذكر لهن ماعليهن من حق الزوج أولا ، لأننا لا نطيقهن مع جهلهن بما لهن علينا من الحق فكيف نطيقهن إذا عرفن الحقوق التى لهن علينا ؟ اه .

فإياك يا أخى إذا عرفت العلم أن تتخذه سلاحا تقاتل به كل من له عليك حق ، فإن ذلك حق أريد به باطل ، وربما عملت يا أخى بالأقوال التى ليست فى مذهبك وخاصمت بها زوجتك وظفرت عليها بالحجج حتى تقهرها وتظهر للناس أنها ظالمة ، والحال بخلاف ذلك ، والناقد بصير .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يبين له طرق السياسة وتمهيدها لكل خصم حتى يكون كل منهما يبادر إلى إعطاء ماعليه من الحق لما لنفسه من الحظ والمصلحة ، فإن من لم يعرف طرق السياسة ربما نسبوه إلى غرض وخاصمه أحد الخصمين وأخرجه عن كونه ميزان عدالة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أخلاق الزوجة على صورة أخلاق الرجل فى نفسه لأنها منه خلقت ، فمن جهل شيئا من أخلاقه فلينظر إلى أخلاق زوجته فإنها تغمز عليه ، فإن أردت يا أخى استقامة زوجتك فى الأخلاق فاستقم مع الله فيما بينك وبينه ، قال وهذا أمر قد أغفله غالب الناس فصاروا يشكون من أخلاق زوجاتهم ولا ينتبهون لنفوسهم ولو أنهم عرفوا ماقلناه لرجعوا لنفوسهم فاستقاموا فى أخلاقها فاستقامت أخلاق نسائهم اه .

وقد جربت أنا زوجتى أم عبد الرحمن رضى الله عنها فى أخلاقها ، فلا أتعوج فى عمل ظاهر أو باطن إلا وتتعوج على فى أخلاقها قهرا عليها مع أنها ذات خلق حسن ، وربما أكون معها فى أحسن ما يكون من حسن العشرة فيخطر فى بالى فعل شىء من الشهوات فتتغير فى المجلس قهرا عليها فأعرف سبب ذلك فأرجع عنه فترجع فى الحال .

وفى رسالة القشيرى عن الفضيل بن عياض : أنه كان يقول : إنى لأعصى الله تعالى فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى وزوجتى ، فإذا استغفرت وندمت زال ذلك الخلق السيىء فأعرف قبول التوبة ، وكثيرا ماكنت أستغفر وأندم فيدوم الحمار على شموسه ، والعبد والزوجة على مخالفة ما آمرهم به فأعرف أن توبتى لم تقبل . ففتش يا أخى نفسك فى الأخلاق السيئة قبل أن تشكو من زوجتك ، وكذلك المرأة ينبغى لها أن تفتش نفسها ثم تشكو من زوجها . ثم إن ماذكرناه من هذه القاعدة هو الغالب فى الناس ، وقد يكون

بعض الأولياء مستقيما فى الباطن ويبتلى بزوجته وبأصحابه وغيرهم اختبارا له وتحملا عن غيره من الناس ، فربما كان غيره يتزوج تلك الزوجة فلا يتحمل أذاها :

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ » الحديث .

وروى الشيخان مرفوعا : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا » .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ » .

وفى رواية للترمذى والحاكم مرفوعا : « إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفَهُمْ بِأَهْلِهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« خِيَارُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ فَإِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا » .

قلت : والمداراة تكون باسقاط جزء من الدنيا والمداهنة تكون باسقاط شطر من الدين . فالمداراة مستحبة ، والمداهنة حرام فى حرام ومكروه فى مكروه ، والله أعلم :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا: « إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا » .

والضلع : بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام أفصح من سكونها ، والعوج : بكسر العين وفتح الواو ، وقيل إذا كان فيما هو منتصب كالحائط والعصا يقال فيه عوج بفتح العين والواو وفى غير المنتصب كالدين والخلق والأرض ونحو ذلك يقال فيه عوج بكسر العين وفتح الواو ، قاله ابن السكيت .

وروى مسلم مرفوعا : « لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ » .

ومعنى : يفرك يبغض ، وهو بسكون الفاء وفتح الياء والراء وضم الراء شاذ :

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَيْدَةَ قَالَ : يَارَسُولَ اللهِ مَاحَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ ، وَلَا تُقَبِّحْ ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » .

ومعنى لا تقبح : أى لاتسمعها المكروه ، بأن تشتمها وتقول قبحك الله ونحو ذلك .

وروى ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » .

وقوله عوان : أى أسيرات ، ومنه فك العانى . .

وروى ابن ماجه والترمذى والحاكم مرفوعا :

« أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَحَصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا دَخَلَتْ مِنْ أَىِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَتْ » .

وروى البزار باسناد حسن والحاكم : « عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ أَىُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَى الْمَرْأَةِ ؟ قَالَ زَوْجُهَا: قُلْتُ أَىُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَى الْمَرْأَةِ ؟ قَالَ زَوْجُهَا : قُلْتُ فَأَىُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَى الرَّجُلِ ؟ قَالَ أُمُّهُ » .

وروى البزار بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِابْنَتِهِ فَقَالَ : إِنَّ ابْنَتِي هٰذِهِ أَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطِيعِى أَبَاكِ، فَقَالَتْ : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَتَزَوَّجُ حَتَّى تُخْبِرَنِى مَا حَقُّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ ؟ قَالَ : حَقُّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ لَوْ كَانَ بِهِ قَرْحَةٌ فَلَحَسَتْهَا أَوْ انْتَثَرَ مَنْخَرُهُ صَدِيدًا أَوْ دَمًا ثُمَّ ابْتَلَعَتْهُ، مَا أَدَّتْ حَقَّهُ ؟ قالَتْ : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ تُنْكِحُوهُنَّ إِلاَّ بِإِذْنِهِنَّ » .

وفى رواية لابن ماجه وابن حبان فى صحيحه فى قصة أخرى :

« فَقَالَتْ : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَتَزَوَّجُ مَا بَقِيتِ الدُّنْيَا » .

وروى أبو داود مرفوعا : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِّى الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا » .

زاد فى رواية ابن ماجه : « وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ جَبَلٍ أَحْمَرَ

إِلَى جَبَلٍ أَسْوَدَ ، أَوْ مِنْ جَبَلٍ أَسْوَدَ إِلَى جَبَلٍ أَحْمَرَ ، لَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَفْعَلَ » .

وروى الطبراني مرفوعا: « أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ : كُلُّ وَدُودٍ وَلُودٍ ، إِذَا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيءَ عَلَيْهَا أَوْ غَضِبَ زَوْجُهَا قَالَتْ : هٰذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ لاَ أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ حَتَّى تَرْضَى » .

وروى النسائي والبزار مرفوعا : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَى امْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن والنسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى تَنُّورٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننفق على زوجاتنا وعيالنا وبناتنا ونؤدبهن ونصبر عليهن ، ونقدم فى النفقة من أمرنا الشارع بتقديمه ، لكن أمر الشارع لنا بالانفاق إنما يكون بشرط وجود ماننفقه من وجه حلال ، فإن لم نجد ذلك من وجه حلال خيرنا فى الإقامة مع عدم تكليفنا عيالنا بذلك ، أو فى الفراق أو فى الرضا بالخبز الحاف من غير أدم ، فمن أجاب فهو منا ، ومن عصى فليس منا ، ولسنا منه .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى صبر شديد هو وعياله وأولاده كما كان أهل بيت النبوة فى حال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فمن لازم كل منهم السخط على المقدور وعدم الرضا بما قسمه الله له ، وقد قل فى هذا الزمان المكاسب ولو من شبهات وصار التاجر فضلا عن غيره لايعمل بالقوت إلا بمعاينة أسباب الموت .

ثم اعلم أن من الناس من لم يقسم الله تعالى له ولعياله رزقا إلا من الوظائف على طريقة فقهاء الزمان ، فتأنف نفس ذلك المعيل أن يباشر تلك الوظائف ، إما تكبرا وإما خوفا أن يقول الناس فيه إنه دنيوى كما يقع لبعض المعتقد فيهم ، بل رأيت بعضهم لم يباشر وظيفته كذا وكذا سنة ، وطلب من الناظر أن يصرف له معلومها ، فأبى إلا أن يباشرها فسلط عليه جماعة من ذوى اللسان ، واشتكوا الناظر وحبسوه كأنه هو الجانى ، وأعرف جماعة لا يسألون الناس مع حاجتهم وإن أعطوهم شيئا ردوه بحضرة الناس ،

ويأكلون معلوم وظائفهم من غير مباشرة ، مع أنهم يفتون بتحريم ذلك فى حق غيرهم ، وهذا كله من الجهل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَيْسَ الْمُعْطِى بِأَفْضَلَ مِنَ السَّائِلِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : اسع على عيالك ليلا ونهارا ولو سماك الناس دنيويا فانه خير من أن يسموك صالحا وأنت تأكل صدقاتهم وأوساخهم ، وناظر لما فى أيديهم ، وكل من لم يعطك شيئا تصير تكرهه ، مع أن تلك الكراهة من غير حق .

وقد رأى سيدى على الخواص مرة شخصا من مشايخ العصر ، كان يتجر فى البز والقماش ، فترك ذلك وعمل شيخا ، فقال له ارجع إلى حالتك الأولى فإنها أرجح لك ، وأطهر لقلبك فلم يسمع ، فدعا الشيخ عليه بمحبة الدنيا وحرمانه منها فصار بعد شهر كذلك فلا هو يترك الدنيا ولا يقدر على أن يأكل منها ولا يتصدق منها ، ولا ينفق على عياله فتلف بالكلية لمخالفته الإشارة ، وبلغنى أن له الآن كل سفرة نحو خمسة عشر ألف دينار فى بلاد التكرور وفى بلاد الشام وفى الحجاز ، وقد قالوا : أقبح من كل قبيح صوفى شحيح .

فاعمل يا أخى على تحصيل النفقة عليك وعلى عيالك كل يوم بيوم ، ولا تدخر شيئا إلا لعذر شرعى .

« وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ » والله تعالى أعلم .

وقد تقدم فى كتاب الصدقات الترغيب فى النفقة على الزوج والأقارب وتقدمهم على غيرهم .

وروى مسلم مرفوعا : « دِينَارٌ أَنفَقْتَهُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ أَنفَقْتَهُ فِى رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ ، وَدِينَارٌ أَنفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِى أَنفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ » .

وفى رواية لمسلم والترمذى : « أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ » .

قال أبو قلابة : بدأ بالعيال ، ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار ؟ يعفهم الله أو ينفعهم الله به ويغنيهم .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والترمذى مرفوعا :

« عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » .

وروى الشيخان : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيّ امْرَأَتِكَ » .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد مرفوعا :

« مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَة ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَاأَنْفَقَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَقَرَابَتِهِ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ » .

وروى الدارقطنى والحاكم وصحح إسناده مرفوعا :

« وَمَا وَقَى الْمَرْءُ بِهِ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَنْفَقَ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفَقَةٍ ، فَإِنَّ خَلَفَهَا عَلَى اللهِ ، وَاللهُ ضَامِنٌ إِلاَّ مَا كَانَ فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ » .

وسئل محمد بن المنكدر عما وقى المرء به عرضه ؟ فقال : هو ما يعطى للشاعر وذى اللسان المتقى .

وروى البزار مرفوعا : « إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلاَءِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ نَفَقَتُهُ عَلَى أَهْلِهِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ فِيهِ الْعِبَادُ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً » .

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله والمراد بالتلف فيمن أمسك أن يتلف ذلك بالإنفاق فى سبيل الله لأن الملك من عالم الخير فكأنه سأل الله تعالى أن الممسك ينفق ماله فى سبيل الله كالسخى ولا يشح به إلا بطريق شرعى ، والله أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هٰذِهِ الْبَنَاتِ بِشَىْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى يَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ » .

وفى رواية للترمذى مرفوعا : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ » .

« يعنى السبابة والتى تليها » كما فى رواية ابن حبان فى صحيحه .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ أَوْ صَحِبَهُمَا إِلاَّ أَدْخَلَتَاهُ الْجَنَّةَ » .

وروى البزار والطبرانى مرفوعا : « مَنْ سَعَى عَلَى ثَلاَثِ بَنَاتٍ فَهُوَ فِى الْجَنَّةِ ، وَكَانَ لَهُ كَأَجْرِ مُجَاهِدٍ فِى سَبِيلِ اللهِ صَائِمًا قَائِمًا » .

زاد فى رواية : « فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَبِنْتَانِ ؟ قَالَ : وَبِنْتَانِ » وشواهده كثيرة .

وفى رواية للترمذى وأبى داود مرفوعا :

« مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلاَثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَى اللهَ فِيهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ » .

وروى أبو داود والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنثى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ الذكُورَ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ » .

ومعنى لم يئدها : أى لم يدفنها حية وكانوا يدفنون البنات أحياء، ومنه قوله تعالى :

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ) والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسمى أولادنا بالأسماء الحسنة ، ونرشد جميع أخواتنا إلى ذلك ونمنع بعضهم من تسمية ميخائيل وغبريان ونحوهما كشموال ، من حيث كونها صارت من أسماء اليهود والنصارى ، كما نمنع المسلم من لبس العمامة الصفراء والزرقاء، من حيث كونها صارت شعارا لأهل الكتابين، ويؤيد ذلك حديث :

« مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

ونمنع بعضهم من تسمية أحدهم بأسماء الله تعالى ، كنافع ومالك ومؤمن وعزيز وحكيم وعدل وجليل وحليم ووكيل ونحوهم مما ورد ، لكن ظواهر الشريعة تشهد بالجواز لورودها فى السنة .

قال سيدى على الخواص : وينبغى اجتناب الألقاب الكاذبة كشمس الدين ، وقطب الدين وبدر الدين ونحوها وإن كان لها معنى صحيح بالتأويل ، كأن يقال المراد أنه شمس دين نفسه ، أو قطب دين نفسه ، أو بدر دين نفسه وهكذا ، وهذا أمر قد عم غالب الناس حتى العلماء والصالحين ، وصاروا يستنكرون النداء بأسمائهم المجردة عن الألقاب كمحمد وعمر وعلي ونحو ذلك ، واتباع السنة أولى . ومن أراد التفخيم لعالم أو صالح فليخاطبه بلفظ السيادة ، كسيدى محمد ، وسيدى عمر ، ونحو ذلك ، فإنه أبعد عن الكذب من قطب الدين ونحوه .

و (اللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَحَسِّنُوا أَسْمَاءَكُمْ » .

قلت : قال بعض العلماء: ليس كل الناس يدعى بأبيه يوم القيامة ، وإنما ذلك خاص

بمن ليس له ذنب يفتضح به ، أما من له ذنب يفتضح به فينادى باسم أمه ستراً له، والله أعلم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ مَا عُبِّدَ أَوْ حُمِّدَ » .

وفى رواية : « أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ » .

وروى أبو داود والنسائى مرفوعا : « تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ » .

أى لأن الحارث هو الكاسب ، والهمام هو الذى يهم مرة بعد أخرى ، وكل إنسان لاينفك عن هذين الأمرين ، والله تعالى أعلم .

(أخـــذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نؤدب أولادنا الذكور والإناث ، ولا نكل تأديب البنات إلى أمهن جملة كما عليه بعضهم ، لاسيما إن كنا أعلم بالأدب من الأم ، وهذا باب قد أغفله غالب الناس حتى صار الولد الأمرد يجلس يلغو بين الرجال الأكابر بمزح ، ولاشك أن الأب المسئول عن ذلك فعليه الأمر لولده بالخير ويبقى التوفيق من الله تعالى ، وقد أدركنا الناس وهم يؤدبون أولادهم ليلا ونهارا ، ولا يكتفون بالفقيه أوالمعلم ، فإن قلب الأجنبى على الولد ليس كقلب الوالد .

وقد كان أخى الشيخ عبد القادر لايجلس قط بين رجال حتى دارت لحيته ، ولما تزوج مكث نحو سنة لايقدر على مجالسة والده ، وما اطلع والده ولا أمه قط على غسله من الجنابة .

ورأى سيدى على الخواص شخصا من أولاد العلماء دخل الحمام مع والد زوجته فى جمعة الدخول بها ، فأنكر ذلك غاية الإنكار وقال إذاكان هذا حال أولاد العلماء فكيف بغيرهم .

وسمعت مرة يقول : إنماكان غالب أولاد الأولياء والعلماء لاحياء فيهم ولا أدب ولا فضيلة لأنهم عكارة ظهور آبائهم حين تصفو من الكدورات ، فنزل ذلك فى نطفة أولادهم بخلاف أولاد الفلاحين والعوام الغالب عليهم اكتساب الفضائل لموت آبائهم من غير تصفية .

فأدب يا أخي ولدك ولا تغفل عنه وإن كنت شيخ زاوية، فعلمه كيف يتلقى الواردين من الفقراء والعلماء والأمراء ومشايخ القرى وغيرهم، وعلمه آداب الضيافة، ومكافأة الناس على هداياهم، وعدم ادخار شيء عن الضيف وعدم تكلفه له، وأخبره بأن من تكلف للضيف سوف يهرب ولو على طول، وأمره بإجلال جماعة والده ومحبتهم والإحسان إليهم، وإيثارهم على نفسه في المأكل والهدايا وغير ذلك، وذلك ليعكفوا عليه بعد والده حتى يظهر له فضله، ويحتاج الناس إليه في علم أو سلوك أو شفاعة ونحو ذلك.

وأمره باكتساب الفضائل ليلا ونهارا والإيثار على نفسه، وتحمل الأذى من جميع الخلق حتى يصير يهرب من الناس فيتبعونه، فإن كل من احتاج إلى جلب الناس بالإحسان فشيخته مفتعلة، وإن رفعهم من جهة تصرموا من جهة أخرى، وليس هذا من شأن الفقراء، إنما ذلك من شأن أبناء الدنيا، وقد خالف كثير من أبناء ماذكرناهم وعادوا أصحاب والدهم ففر الناس منهم وأخربوا الزاوية، ولو أنهم أجلوا أصحاب والدهم لكملوهم بالأدب الذي أخذوه عن والدهم.

وبعضهم ادعى أنه رأى والده بعد موته في المنام، وقال له كل من كنت أحبه فابغضه فعمل بذلك، فقلت له هذا إبليس، فلم يعتقد صدق مقالتي وقال رأيت والدي حقا، فقلت لو رأى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له اكره أبا بكر وعمر وكل من كنت أحبه فابغضه هل يجوز له بغضهم؟ فقال لا، فقلت فكذلك في أصحاب الأولياء، فرجع واستغفر الله تعالى وتاب وصالح جماعة والده فعمرت الزاوية، فالحمد لله رب العالمين.

وقد جاءني الشيخ جلال الدين البكري بولده محمد وقال لي ادع الله له أن يجعله كأخيه أبي الحسن فقلت له يكفي واحد في البيت مرصد لإقراء الناس العلم ولكن ادعو له أن الله يعرفه مقادير الواردين على الزاوية فانقبض خاطره من ذلك.

وبالجملة فالكمال في الشخص إنما يكون بمراعاة معرفة الشرع والعرف والعمل بهما والسلام:

وروى الترمذي مرفوعا: « لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ ».

وفى رواية له أيضا مرفوعا ومرسلا : « مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ » ومعنى نحل : أعطى ووهب .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَكْرِمُوا أَوْلاَدَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ » والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نروض نفوسنا فى عدم الميل الطبيعى إلى أولادنا بحيث نعرف من أنفسنا أنها صارت لاتتأثر لو ماتوا فى ساعة واحدة تقديما لمرضاة الله تعالى على مرضاة نفوسنا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق يسلك به حتى يخرجه عن محبة الدنيا وشهواتها ، وإلا فمن لازمه التأثر المصاحب للضجر على فراق ماله وأولاده ، ولو أنه كان راض نفسه قبل ذلك لم يقع منه تأثير ، إن لم يكن ذلك كشفا كان إيمانا بقوله تعالى :

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) .

وربما أتت المصيبة للولى فى حال إدباره عن الله تعالى فيتأثر ضرورة ، وربما أتته المصيبة للعاصى فى حال إقباله على الله تعالى فلا يتأثر ، وقد بسطنا الكلام على هذا العهد فى عهود المشايخ فراجعها ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ » .

وفى رواية للنسائى مرفوعا :

« مَنِ احْتَسَبَ ثَلاَثَةً مِنْ صُلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقَامَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : وَاثْنَانِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَانِ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ يَا لَيْتَنِي قُلْتُ وَوَاحِدًا » .

والحنث هو الإثم والذنب ؛ والمعنى أنهم لم يبلغوا السن الذى يكتب عليهم فيه الذنوب :

وروى ابن ماجه بإسناد حسن مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلاَّ تَلَقَّوْهُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ دَخَلَ » .

وروى مالك والشيخان وغيرهم مرفوعا :

« لاَ يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسُّهُ النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ ».

وفي رواية لمسلم : «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ لِنِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ : لاَ يَمُوتُ لِإِحْدَاكُنَّ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبُ إِلاَّ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ أَوِ اثْنَانِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أَوِ اثْنَانِ » .

وفي رواية للنسائي : « يُقَالُ لَهُمْ » يعني الأولاد « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُونَ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا فَيُقَالُ لَهُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ » .

وروى مسلم مرفوعا : « صِغَارُهُمْ » يعني الأموات « دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ فَيَأْخُذُوا بِثَوْبِهِ ، أَوْ قَالَ بِيَدِهِ فَلاَ يَتَنَاهَى ، أَوْ قَالَ يَنْتَهِي حَتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وَإِيَّاهُ الْجَنَّةَ » .

والدعاميص : بفتح الدال جمع دعموص بضمها . وهي دويبة صغيرة يضرب لونها إلى السواد تكون في الغدران ، شبه الطفل بها في الجنة لصغره وسرعة حركته ، وقيل هو اسم للرجل الزوار للملوك الكثير الدخول والخروج عليهم ، لا يتوقف على إذن منهم ولا يخاف أين يذهب من ديارهم ، شبه به طفل الجنة لكثرة ذهابه في الجنة حيث شاء لا يمتنع من بيت فيها ولا موضع ، وهذا قول ظاهر والله أعلم .

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ لَمْ يَرِدِ النَّارَ إِلاَّ عَابِرَ سَبِيلٍ» يعني الجواز على الصراط « فَقَالَ رَجُلٌ وَاثْنَانِ ؟ فَقَالَ : وَاثْنَانِ » .

قال جابر : وبالجملة لو قال وواحد لقال له وواحد .

وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد حسن مرفوعا :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ السِّقْطَ لَيَجُرُّ أُمَّهُ بِسَرَرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِذَا احْتَسَبَتْهُ » .

والسرر : هو ما تقطعه القابلة ، وما بقي بعد القطع هو السرة :

وروى الترمذي مرفوعا : « مَنْ كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِمَا الْجَنَّةَ ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَفَرَطٌ ؟ قَالَ : وَفَرَطٌ يَا مُوَفَّقَةُ ، قَالَتْ : فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ قَالَ أَنَا فَرَطُ أُمَّتِي لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي » .

والفرط : هو الذى لم يدرك من الأولاد الذكور والإناث وجمعه أفراط :

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ قَدَّمَ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ كَانُوا لَهُ حِصْنًا حَصِينًا مِنَ النَّارِ ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ، قَالَ وَاثْنَيْنِ. قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: قَدَّمْتُ وَاحِدًا قَالَ : وَوَاحِدًا » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسعى فى تطهير باطننا من سائر الأدناس بالسلوك على يد شيخ مرشد ليطابق لباسنا الأبيض قلبنا الأبيض ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم ما ندبنا إلى لباس الأبيض إلا ليتنبه لذلك العارفون ، فيسعون على تبييض قلوبهم مثل ثيابهم .

وقد قدمت أم أخى أفضل الدين مرة له ثوبا أبيض فرده ، وقال أستحى من الله أن ألبس ما يخالف لون باطنى ، فهكذا يكون نظر العارفين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا رأيتم الفقير يعتنى بلبس الثياب البيض أو الجبة النقية البياض قبل خمود نار بشريته ، فاعلموا أنه قد مكر به فلا ترجوا له فلاحا اهـ :

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : مثال من لبس الثياب النقية البياض مع دنس القلب مثال من تلطخ بالعذرة قبل الخروج إلى صلاة الجمعة فى بدنه وثيابه ثم رش ماء الورد عليه اهـ .

وكان الشعبى رضى الله عنه لا يغسل ثوبه حتى يبلى ، فإذا قيل له إن ثوبك قد اتسخ واسود يقول : ليت قلبى فى القلوب مثل ثوبى فى الثياب .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم ، وقال صحيح على شرط الشيخين :

« اُلْبَسُوا الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَحْسَنُ مَا زُرْتُمُ اللهَ بِهِ فِي قُبُورِكُمْ وَمَسَاجِدِكُمْ الْبَيَاضُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحب من الثياب القميص اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسر فى ذلك كونه ساترا لأكثر البدن بخلاف الإزار والرداء ، اللهم إلا أن يكون الوقت حارا شديد الحر فلنا التخفيف بلبس الإزار .

وسمعت سيدى محمد بن عنان يقول : أبدان الفقراء كأبدان المخدرات من النساء ، ليس لأحدهم أن يغتسل إلا مستور البدن بقميص مهلهل ، فقلت له ، إن أعلى ماأمر به الشارع عند الغسل الإزار الساتر للعورة فقط ، فقال صحيح ، ولكن هكذا أدركنا أشياخنا وماهم على خلاف فى ذلك ، وربما كان لهم دليل فى ذلك لم يطلع عليه غيرهم ، وبتقدير عدم الدليل فى ذلك ، فالأدب مع الله ستر البدن كله قياسا على الصلاة ، فإن الشارع لم يكتف فيها بساتر العورة فقط ، بل أمر المصلى بستر ظهره وبطنه وأكتافه كما هو معلوم اه .

وقد قال الإمام أحمد بوجوب ستر المنكبين فى الصلاة برداء ونحوه :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : يجب الحضور مع الله تعالى فى كل عمل مشروع ، ولا شك أن الغسل عمل مشروع :

ومن أدب الحضور أن يكون العبد مستور البدن كله إلا مااستثنى شرعا ، وأهل الله تعالى فى جميع أوقاتهم فى صلاة كما أشار إليه قوله تعالى (على صلاتهم دائمون) اه :

واغتسل أخى أبوالعباس الحريثى مرة بازار فقط فزجره سيدى محمدبن عنان وقال : بدن الفقير كله عورة والله أحق أن يستحيى منه ، فقد بان لك وجه حب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للقميص وتقديمه على الإزار والسراويل فى الفضل ، ومن بالغ فى الأدب فلا لوم عليه ولو لم يرد فى ذلك شىء بخصوصه ، فإن العمومات تشهد له .

وقد قلت مرة لشيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رحمه الله : السنة فى العذبة أن تكون أربع أصابع فقط كما ورد فما دليل الصوفية فى تطويلها أكثر من ذراع حتى أنهم يغرزونها فى أعلى العمامة فقال لى : لولا أنهم رأوا فى ذلك شيئا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مافعلوه .

وقد بلغنا أن بغداد لما خربها التتار رموا كتب المجتهدين والمحدثين فى الدجلة ، حتى صارت الخيل تمشى عليها إلى ذلك البر كالجسر ، فكم ذهب فى تلك الكتب من أحاديث وعلوم اه .

فكانت عذبته رضى الله عنه نحو ذراع ونصف لكبر العمامة . كان يوم الجمعة يلبس عمامة صغيرة سبعة أذرع بعذبة ، فيصلى الجمعة بالسلطان قايتباى ، ويرجع إلى البيت فيلبس العمامة الكبيرة رضى الله تعالى عنه .

واعلم يا أخى أن بعض الأولياء يصل إلى مقام لا يصير يقدر على حمل القميص ، فيكتفى بلبس الازار ليلا ونهارا ومثل هذا يسلم له حاله :

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وروى أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن ماجه عن أم سلمة قالت : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص . ولفظ ابن ماجه وهى رواية لأبى داود «ولم يكن ثوب أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القميص» والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحضر قلوبنا مع الله تعالى عند كل نعمة تجددت علينا ، ونتلقاها بكل شعرة فينا ، ونحمد الله تعالى عليها كما ورد ولانرى نفوسنا تستحق ذرة منها بكسبها وقوتها بل هى محض فضل من الله تعالى علينا من غير استحقاق .

وكان عيسى عليه السلام يقول للحواريين : بحق أقول لكم ، والله إننا لا نستحق على ربنا الرماد نسفه .

وفى رواية : والله لأكل التراب والنوم على المزابل مع الكلاب ولبس المسوح من الثياب لكثير على أهل الدنيا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول فى سجوده : اللهم إنى أعترف بين يديك بأنى لا أستحق ذرة واحدة مما أنعمت به على فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أعترف بين يديك بكل ذنب فعلته جوارحى إلى وقتى هذا فتطول عليها بالعفو والمغفرة لتطمئن .

وكان يقول : من أراد تخليد النعم عليه فليتلقاها بالشكر والاعتراف بالذنب ، فإن من تلقاها مع الغفلة فقد حل عقالها وعرّضها للزوال وهذا شأن غالب الناس اليوم فيتلقون النعم وهم غائبون عن الشكر كالبهائم السارحة ، ولذلك تفلتت منهم النعم وربما أخذوها مع الإستهانة بها ، فكان ذلك سبب زوالها وفى الحديث :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : يَا مُوسَى إِذَا جَاءَتْكَ مِنِّى بَاقِلاَةٌ مُسَوَّسَةٌ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِى فَاشْكُرْنِى عَلَى ذَلِكَ فَإِنِّى مُهْدِيهَا إِلَيْكَ وَلاَ تَرَى نَفْسَكَ أَهْلاً لَهَا هٰكَذَا شَأْنُ الْعَبِيدِ » .

واعلم أن تتمة الشكر أن يتصدق العبد بالخلق إذا لبس الجديد ولا يحبسه عنده إلا لغرض شرعى ، كأن يعده للمحتاج إليه من قرابته أو يكون من وجه حل :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

واعلم أن أعظم الشكر والحمد على النعمة أن يكون ذلك بالفعل لا بالقول قال تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) .

ولم يقل قولوا آل داود شكرا ، وهذه الأمة أولى بذلك لعلو مقامها فافهم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه شكرا لله ولم يكتف بالقول ، فما ورد من الاكتفاء بالشكر بالقول إنما هو رخصة للضعفاء .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : يجب على الشاكر أن يرى جميع ما يشكر به ربه من جملة نعم الله عليه ، فلا يرى أنه كافأ الحق فى نعمة من النعم ، ولو سجد على الجمر من افتتاح الوجود إلى انتهائه :

(وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وروى أبو داود والحاكم مرفوعا « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَطْعَمَنِى هٰذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلاَ قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى كَسَانِى هٰذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلاَ قُوَّةٍ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ » وليس فى رواية الحاكم « وما تأخر » .

وروى الترمذى وغيره أن عمر رضى الله عنه لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذى كسانى ماأوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« منْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى كَسَانِى مَا أُوَارِى بِهِ عَوْرَتِى ،

وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي خَلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ كَانَ فِي كَنَفِ اللهِ وَفِي حِفْظِ اللهِ ، وَفِي سِتْرِ اللهِ حَيًّا وَمَيِّتًا » .

وفى رواية للبيهقى : « ثُمَّ عَمَدَ إِلَى ثَوْبِهِ الْخَلَقِ فَكَسَاهُ مِسْكِينًا لَمْ يَزَلْ فِي جِوَارِ اللهِ ، وَفِي ذِمَّةِ اللهِ ، وَفِي كَنَفِ اللهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، مَا بَقِيَ مِنَ الثَّوْبِ سِلْكٌ » .

قيل لعبد الله بن زحر من أى الثوبين؟ قال لاأدرى .

وروى ابن أبى الدنيا والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَعَلِمَ أَنَّهَا مِنَ اللهِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ شُكْرَهَا قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، وَمَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَنَدِمَ عَلَيْهِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ مَغْفِرَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ ، وَمَا اشْتَرَى عَبْدٌ ثَوْبًا بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ فَلَبِسَهُ فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهِ إِلاَّ لَمْ يَبْلُغْ رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يَغْفِرَ اللهُ لَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب نساءنا فى ترك لبس الحرير تورعا لما ورد من عموم الأحاديث الآتية فى الباب ، وأيضا فإن زماننا قد ضاق عن مثل ذلك لقلة المكاسب على التجار فضلا عن الفقراء الذين يأكلون من صدقات الناس من الأوقاف والزكوات والافتقادات ونحو ذلك .

واعلم يا أخى أن كل من أمعن فى التفتيش على المال الحلال لم يجد ثمن لبس الخيش لعياله فضلا عن الكتان ، فضلا عن الحرير . فينبغى للفقير إذا طلبت امرأته ثوب حرير أو بخنق حرير أو منديل حرير أن لايجيبها إلا إن وجد ثمن ذلك من وجه حل ، فإن لم تصبر فليخيرها بين الإقامة على الفاقة وبين الفراق ، كما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه حين ضاقت عليهن المعيشة امتحانا واختبارا لهن ، لتظهر مراتبهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيعرف من يحبه منهن لله تعالى ومن يحبه لعلة الدنيا ، هذا شأن الصادقين وأما النصابون فلا يتوقفون على شىء يأخذونه من الولاة تارة بالسؤال وتارة بالقال والقيل وتارة بالحال ، ولم يكن السلف الصالح هكذا إنما كانوا يلبسون الخليقات والمرقعات ، فالعاقل من اتبعهم فى ذلك .

وكانت زوجة سيدى على الخواص رحمه الله كلما تطلب شيئا من الثياب الفاخرة يقول

لها الملابس الفاخرة أمامك فى الجنة ، وما بقى إلا القليل وما دخلنا دار الدنيا لمثل ذلك إنما ادخلناها للعمل الصالح اه

فينبغى للعالم والصالح أن يقرأ على عياله ماورد فى السنة من الأحاديث ليتركن لبس الحرير اختيارا من أنفسهن :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لَاتَلْبَسُوا الْحَرِيرَ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِى الدُّنْيَا لَمْ يلبَسْهُ فِى الآخِرَةِ » .

زاد فى رواية قال ابن الزبير :

« مَنْ لَبِسَهُ فِى الدُّنْيَا لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ ، قال الله تعالى ـ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ـ » .

وفى رواية للنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِى الآخِرَةِ ، فَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبِسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « لَا يَسْتَمْتِعُ بِالْحَرِيرِ مَنْ يَرْجُو أَيَّامَ اللهِ » .

وروى الشيخان وغيرهما أن ابن الزبير خطب فقال : لاتلبسوا نساءكم الحرير فإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ فَإِنَّ مَنْ لَبِسَهُ فِى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِى الآخِرَةِ » .

وروى النسائى والحاكم وقال صحيح على شرطهما :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ الْحِلْيَةَ وَالْحَرِيرَ ، وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ حِلْيَةَ الْجَنَّةِ وَحَرِيرَهَا فَلَا تَلْبَسُوهُمَا فِى الدُّنْيَا » .

وروى البزار باسناد حسن مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَرَكَ الْحَرِيرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَأَكْسُوَنَّهُ إِيَّاهُ مِنْ حَظِيرَةِ الْقُدْسِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ اللهُ الْحَرِيرَ فِى الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِى الدُّنْيَا » .

وروى أبو الشيخ ابن حيان وغيره « أُرِيتُ أَنِّى دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَعَالِى أَهْلِ الْجَنَّةِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ وَذَرَارِى الْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ أَقَلَّ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ فَقِيلَ لِى أَمَّا الْأَغْنِيَاءُ فَإِنَّهُمْ عَلَى الْبَابِ يُحَاسَبُونَ وَيُمَحَّصُونَ وَأَمَّا النِّسَاءُ فَأَلْهَاهُنَّ الْأَحْمَرَانِ : الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا « وَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الْأَحْمَرَيْنِ الذَهَبِ وَالْمُعَصْفَرِ » والأحاديث فى ذلك كثيرة .

وقال بعض العارفين إنما شرع لبس الحرير للنساء لاستمالة قلوب الرجال إليهن حال الوقاع ، فينبغى للمرأة الحاذقة لبسه قبيل الوقاع ومقدماته ثم تنزعه لوقته ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نترك الترفع فى اللباس تواضعا واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولو كان معنا قناطير من الذهب ، فنجعل ذلك فى مرضاة الله تعالى من الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحاويج وهذا العهد يخل به كثير من الفقراء فضلا عن العوام وربما خلف الواحد منهم نحو سبعين زيقا ثمن كل زيق ثلاثة ذهبا أو أكثر ، وقد رأيت من خلف سبعمائة زيق من العلماء .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ينبغى التسليم لمن لبس الثياب الفاخرة من الأولياء ، كسيدى عبد القادر الجيلى ، وسيدى على بن وفا ، وسيدى مدين وأضرابهم .

وقد كان سيدى عبد القادر يلبس كل ذراع من الخام بدينار ، فاعترض عليه بعض الناس فقال : العبد إذا مات كفن مرة ، وأنا قد مت أكثر من مائة موتة فى مخالفة نفسى ، فلى أن ألبس كل بدلة ثمن مائة كفن اه .

ثم السر فى ترك اللباس الرفيع أن النفس تميل إليه بالخاصية ، وتفرح به وكل شىء فرح به العبد من الدنيا حجبه عن دخول حضرة الله عز وجل كما تحجب المعصية ، فيريد الإنسان أن يجد قلبه حال لبس الرفيع الفاخر مثل حاله فى حال لبسه الخلق القليل الثمن فلا يقدر ومن شك فليجرب ، وكذلك جربنا السجود على الأرض الطاهرة بلا حائل يجد الإنسان انفساحا وانشراحا وصلة بالله عز وجل بخلاف الصلاة على بساط أو حصير ، ومدار كلام الشارع ونصحه لنا على عكوفنا فى حضرة الله عز وجل ليعطى الخدمة للحق

حقها ويتملى بشهوده تعالى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أشفق علينا من أنفسنا ، فضلا عن الدينا ، فما منعنا من فعل شيء إلا هو يبعدنا عن حضرة الحق تعالى ، وقد أخبرنا أن كل من تكبر قصمه الله .

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن التواضع حقيقة إنما هو فى النفس لا فى الثياب ، وربما يلبس الإنسان العباءة والخيش ، وعنده من الكبر ما ليس عند أهل اللباس الرفيع ؛ فليتفقد الإنسان نفسه عند لبس الخيش والخلق ، فربما يكون يرى نفسه بذلك على أصحاب اللباس الرفيع فيمقته الله ، وهو لا يشعر وما رقع السلف الصالح ثيابهم إلا لقلة الحلال فى زمانهم بالنظر لمقامهم ، فإن التجار وغيرهم كل يوم فى نقص من الورع ، فكان أحدهم إذا اشترى له ثوبا بدراهم حلال لا يجد مثلها بعد ذلك حتى يشترى قميصا كاملا ، فلما كانوا لا يعجبهم كل الحلال فى زمانهم كانوا يرقعون كل شيء انخرق بشراميط الثياب التى اشتروها فى الزمن الماضى التى هى أحل من دراهم زمانهم وقت الترقيع ، فعلم أن من جمع له شراميط من جوخ أو غيره والتدمها ٧ ثم خيطها مراعيا كل لون فى صف كما يفعله بعض فقراء الأحمدية فهو مغرور ، وقد رأيت من اشترى قطعة جوخ ثم قطعها قطعا بقدر جديد نقرة ، وذلك من أكبر رعونات النفوس مع ما فيه من إتلاف المال لغير غرض شرعى فافهم ، بخلاف مرقعات السلف فإن فى لبسها فوائد ، منها كونه أحل ؛ ومنها عدم التفات النفس إليه بخلاف الجديد يصير كل وقت يلتفت إليه ، ومنها خفة المؤنة وعدم الركون إلى الإقامة فى هذه الدار .

وقد كان سيدى الشيخ حسن العراقى المدفون فوق كوم بركة الرطل بمصر المحروسة ، إذا أعطوه جوخة نفيسة أو صوفا نفيسا يقطعه بالسكين حتى يصير شرائح شرائح ، ثم يخيطه بخيط دارج بمسلة ويلبسه ، فقلت له فى ذلك ؟ فقال دينى أعز على من الدنيا بأسرها ، وإنى إذا لبست ذلك وهو جديد لا تخريق فيه تصير النفس تلتفت إليه كل قليل وتسارقنى فى النظر إليه ولو فى الصلاة بخلاف ما إذا شرمطته . وإذا تعارض عندنا مفسدتان ارتكب الأخف منهما ولا شك أن إتلاف جميع مالى عندى دون دينى اهـ .

ففتش يا أخى نفسك فيما تأكل وفيما تلبس ؛ فمن فتش لا يجد شيئا فى هذا الزمان يشترى به جوخة نفيسة ولا شاشا نفيسا أبدا ، وربما كان ذلك الشاش الرفيع أو الجوخة البند فى التى على العالم أو الصالح من هدايا بعض الولاة أو ثمنها من وظائف لا يسد فيها لا بنفسه ولا بنائبه ؛

(وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقد تقدم فى هذه العهود أن من آدب الفقراء كلما لبسوا ثوبا جديدا أوعمامة أو رداء فى هذا الزمان أن يقول بتوجه تام : اللهم إن كان فى هذا الثوب أو الرداء أو العمامة درهم من الحرام فاحمنا من لبسه أو سامحنا فى لبسه ولا تؤاخذنا بذلك فى الدنيا والآخرة ، واجعلها تقيم عندنا بقدر ما فيها من الحل ، فإنك عالم بالسرائر ، ومن حين عملت أنا بهذا العهد ما تقطع لى ثوب ، وقد عدّ أخى إبراهيم السندبسطى الثياب التى كسوتها للناس فى مدة صحبته لى فوجدها سبعمائة زيق ، ما بين جوخ وصوف ومضربات وجبب وقمصان ، ومنها مايقيم عندى يوما ، ومنها ما يقيم سنة وأقل وأكثر بقدر مافيها من الحل فى نفس الأمر الذى يعلمه الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين .

وروى الترمذى مرفوعا وقال حسن صحيح :

« مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَىِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا » .

وروى أبو داود والبيهقى مرفوعا : « مَنْ تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبِ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ قال الراوى أحسبه قال : تَوَاضُعًا كَسَاهُ اللهُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ » .

وروى أبو داود وابن حبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا الدنيا يوما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ » .

يعنى ٧ التحفل . والبذاذة بالموحدة وذالين معجمتين هى التواضع فى اللباس برثاثة الهيئة وترك الزينة والرضا بالدون من الثياب .

وروى البيهقى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْمُتَبَذِّلَ الَّذِى لَا يُبَالِى بِمَا لَبِسَ » .

وروى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها «أنها أخرجت لأبى بردة كساء ملبدا من الذى يسمونه الملبدة وإزارا غليظا مما يصنع باليمن وأقسمت بالله لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين الثوبين » والملبد المرقع ، وقيل غير ذلك .

وروى البيهقى عن ابن عمر قال «توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن نمرة من صوف تنسج له» .

وروى ابن ماجه والحاكم « أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل خشنا ولبس خشنا ، لبس الصوف ، واحتذى المخصوف» قيل للحسن ما الخشن؟ قال: غليظ الشعير ، ما كان صلى الله عليه وسلم يسيغه إلا بجرعة من ماء .

وروى الترمذى والحاكم مرفوعا : « أَنَّهُ كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ كِسَاءُ صُوفٍ ، وَجُبَّةُ صُوفٍ ، وَكُمَّةُ صُوفٍ ، وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ ، وَكَانَتْ نَعْلاَهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ » .

والكمة بضم الكاف وتشديد الميم : القلنسوة الصغيرة .

وروى الحاكم موقوفا على عبدالله قال : « كانت الأنبياء لا يستحيون أن يلبسوا الصوف ويحلبوا الغنم ويركبوا الحمير » .

وروى ابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وعليه جبة من صوف ضيقة الكمين ، فصلى بنا فيها ليس عليه شيء غيرها » .

وروى البيهقى مرفوعا : « بَرَاءَةٌ مِنَ الْكِبْرِ لُبْسُ الصُّوفِ وَمُجَالَسَةُ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُكُوبُ الْحِمَارِ وَاعْتِقَالُ الْعَنْزِ ، أو قال الْبَعِيرُ » .

وروى البيهقى مرسلا عن الحسن قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى مروط لنسائه ، وكانت أكسية من صوف مما يشترى بالستة والسبعة ، وكن نساؤه يأتزرن بها » .

وروى مسلم وغيره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط مرحل من شعر أسود» والمرط كساء يؤتزر به ، وقد يكون من صوف ، وقد يكون من خز ، والمرحل هو الذى فيه صور رحال الجمال .

وروى مسلم وغيره عن عائشة قالت : «كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وساد يتكىء عليه من أدم حشوه ليف» .

وفى رواية لمسلم وغيره أيضا « إنما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان ينام عليه أدما حشوه ليف» .

وروى أبو داود البيهقى عن عقبة بن عبيد السلمى قال : «استكسيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسانى خيشتين فلقد رأيتنى وأنا أكسى أصحابى » والخيشة ثوب يتخذ من مشاقة الكتان تغزل غزلا غليظا وتنسج نسجا رقيقا ، وقوله : وأنا أكسى أصحابى أى وأنا أعظمهم وأعلاهم كسوة :

وروى أبو داود وابن ماجه والترمذى عن بريدة قال « لو رأيتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم وقد أصابتنا السماء حسبت أن ريحنا ريح الضأن » ·

قال الحافظ : ومعنى الحديث أنه كان ثيابهم الصوف ، وكان إذا أصابهم المطر تجىء من ثيابهم ريح الصوف : وزاد فى رواية للطبرانى فى آخره « إنما لباسنا الصوف، وطعامنا الأسودان التمر والماء » ،

وروى أبو يعلى والترمذى واللفظ لأبى يعلى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه قال : خرجت فى غداة شاتية جائعا ، وقد أوبقنى البرد ، فأخذت ثوبا من صوف قد كان عندى ، ثم أدخلته فى عنقى وأخرمته على صدرى أستدفىء به ، والله ما كان لى شىء آكل منه ، ولو كان فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم شىء لبلغنى فذكر الحديث ، إلى أن قال : ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست إليه فى المسجد وهو مع عصابة من أصحابه ، إذ طلع علينا مصعب بن عمير فى برد له مرقعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأرفعه عيشا ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التى عليها فذرفت عيناه فبكى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ إِذَا غُدِىَ عَلَى أَحَدِكُمْ بِجَفْنَةٍ مِنْ خُبزٍ وَلَحْمٍ ، وَرِيحَ إِلَيْهِ بِأُخْرَى وَغَدَا فى حُلَّةٍ وَرَاحَ فِى أُخْرَى ، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ قُلْنَا بَلَى نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ ، قَالَ بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ » .

ولفظ رواية الترمذى عن على قال : خرجت فى يوم شات من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت إهابا مطويا فجوبت وسطه فأدخلته فى عنقى وشددت وسطى فحزمته بخوص النخل وإنى لشديد الجوع ، فذكر الحديث. ومعنى جوبت : خرقت فى وسطه خرقا كالجيب وهو الطوق الذى يخرج الإنسان منه رأسه ، والإهاب الجلد ، وقيل ما لم يدبغ .

وروى البيهقى « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ مُقْبِلاً عَلَيْهِ إِهَابُ كَبْشٍ قَدْ تَنَطَّقَ بِهِ، فقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انظُرُوا إِلَى هٰذَا الَّذِي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يُغَذِّيَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ شَرَاهَا أَوْ شُرِيَتْ لَهُ بِمَائَتَيْ دِرْهَمٍ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ » .

وروى مالك عن أنس قال: «لقد رأيت عمر رضى الله عنه وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقد رقع مابين كتفيه ثلاث رقاع لبد بعضها على بعض» .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » .

وروى الطبرانى والبيهقى « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَعِيرُ الثَّوْبَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَلْبَسُهُ إِذَا خَرَجَ ، وَاسْتَعَارَ مِنْ شُرَحْبِيلَ دِرْعًا مُرَقَّعًا صَلَّى بِالنَّاسِ فِيهِ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى، عن عبد الله بن شداد قال: رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة وريطة كوفية ممشقة. والعدنى : منسوب إلى عدن. والريطة: بفتح الراء وسكون التحتية كل ملاءة تكون قطعة واحدة ونسجا واحدا ليس لها لفقان . وممشقة : أى مصبوغة بالمشق بكسر الميم وهى المغرة .

وروى البزار عن جابر قال : حضرت عرس على وفاطمة ، فما رأينا عرسا كان أحسن منه ، حشونا الفراش يعنى الليف ، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا ، وكان فرشها ليلة عرسها إهاب كبش .

وروى البخارى والترمذى وحسنه عن ابن سيرين، قال: كنا عند أبى هريرة وعليه ثوبان ممشقان من كتان، فمخط فى أحدهما ثم قال بخ بخ يتمخط أبو هريرة فى الكتان الحديث .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوها فى أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

وروى الطبرانى عَنْ ثوْبَانَ قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا يَـكْفِينِي مِنَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ وَإِنْ كَانَ لَكَ بَيْتٌ يُظِلُّكَ فَذَاكَ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ دَابَّةٌ فَبَخٍ » .

وروى الطبرانى ورجاله رجال الصحيح ، عن ابن عمر سأله رجل فقال : ماألبس من الثياب ؟ فقال : مالا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك فيه الحكماء ، قال : ماهو؟ قال مابين الخمسة دراهم إلى العشرين درهما :

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ ، الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ فى الْـكَلاَمِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتصدق بالثوب الخلق أو العمامة الخلقة أو النعل الخلق إذا لبسنا الجديد ، وإنما لم يأمرنا صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالجديد ، لأن النفس تتبعه فى الغالب ، ومن تصدق بماتتبعه نفسا فأجره ناقص ، فعلم أن من لم تتبع نفسه الجديد فالتصدق به أولى ، إلا أن يكون من الـكاملين أو فى مقام المجاهدين ، فإن الـكامل فرغ من مجاهدة نفسه ، وأمربالإحسان إليهاويعاملها على الأجانب لـكونها أقرب الناس إليه ، والأقربون أولى بالمعروف :

وأما من كان فى مقام المجاهدة ، فإنه مأمور بمخالفة النفس فيما تهواه فيتصدق بالجديد ولو تبعته نفسه حتى يغلبها نزاعها له ، وسوف يدخل إن شاء الله مقاما لاتتبع نفسه شيئا يعطيه لأحد من الناس ، ولو كان أنفس مايكون كما جربناه وذقناه ، قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وقد سمع سيدى على الخواص رحمه الله فقيرا يقول : خليقة لله ، جديد لله ، كسيرة لله ، فنزع له خلقته ، وأعطاه جديدا وكسرة وقال : لما سمعته يقول لله ، كاد لحمى يذوب من الحياء ، ولو سألنى جميع ما على لله لأعطيته له ، وكان الحظ الأوفر لى لما أرى لله على من المنة فى إعطائى كل ماطلبه الفقيرلله فإن الفقراء غافلون عن طلب العوض على ذلك فى الآخرة ، لـكونهم لايشهدون لهم مع الله ملـكا يعطون منه أحدا ، وإنما نعيمهم والتذاذهم فى الأخذ من الحق ، وإعطاء ذلك ثانيا للحق كما يلتذ من ألبسه السلطان بيده خلعة

ثم بعد مدة يقول له أعطها للفقير الفلانى ، وأنا ألبسك خلعة أخرى أنفس من تلك فى الثمن واللون والرقة ، فإذا أعطاها ألبسه السلطان أخرى بيده .

وقد قال لى الأمير يوسف بن أبى أصبغ : نزع لى السلطان قايتباى مضربته وألبسها لى بيده فكدت أن أغيب من لذة يده ، فكانت عندى ألذ من جامكية وظيفتى .

وألبسه السلطان الغورى مرة ثوب صوف وعمامة فأعطاهما لى ، فأبيت أن ألبسهما أدبا مع السلطان فحلف على فلبستهما ، وكان سجاف الصوف بسبعة عشر دينارا ذهبا فضلا عن الصوف ، وأما الشاش فكان عرضه نحو سبعة أذرع ، ثم بعد مدة تصدقت بهما فالحمد لله الذى خلع علينا ملابس الملوك .

وحكى لى سيدى على الخواص رحمه الله أن السلطان قايتباى أرسل لسيدى إبراهيم المتبولى سلادى فلبسه ، وتحزم عليه بحبل حلفاء وصار يعزق فى الغيط ، وهو لابسه فصار كله وحلا ثم نزعه وأعطاه لفقير ، وقال له بعه وانتفع بثمنه .

فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى الترمذى والحاكم مرفوعا « مَامِنْ مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْباً إلاّ كَانَ فى حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ خِرْقَةٌ » .

وفى رواية للترمذى « مَنْ كَسَا مُسْلِماً ثَوْباً لَمْ يَزَلْ فى سِتْرِ اللهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ خَيْطٌ أَوْ سِلْكٌ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِماً ثَوْبًا عَلَى عُرْىٍ كَسَاهُ اللهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ » .

وروى ابن أبى الدنيا موقوفا « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْرَى مَا كَانُوا قَطُّ وَأَجْوَعَ مَا كَانُوا قَطُّ وَأَظْمَأَ مَا كَانُوا قَطُّ وَأَنْصَبَ مَا كَانُوا قَطُّ ، فَمَنْ كَسَا لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَسَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » الحديث .

وروى الطبرانى عن عمر مرفوعا « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ أَوْ أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ أَوْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَةً » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبقى الشيب

فى لحيتنا إذا شبنا ولو قبل وقته المعتاد من حيث أنه نذير لنا ، يخبرنا بقرب الموت وانتقالنا من هذه الدار إلى البرزخ . ولا يخلو حالنا من أن ننتقل إما إلى خير أو شر ، وكلاهما يذكرنا به الشيب فنأخذ به فى الأهبة للانتقال والتزود ونتنصل من ذنوبنا وتبعاتنا ، وقد ألغز فى نظير ذلك فى النعش الشاطبى فى أبيات فقال :

أَتَعْرِفُ شَيْئًا فِى السَّماءِ نَظِيرُهُ ... إِذَا سَارَ صَاحَ النَّاسُ حَيْثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوبًا وَتَلْقَاهُ رَاكِبًا ... وَكُلُّ أَمِيرٍ يَعْتَرِيهِ أَسِيرُ
يَحُضُّ عَلَى التَّقْوَى وَيُكْرَهُ قُرْبُهُ ... وَتَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ وَهْوَ نَذِيرُ
وَلَمْ يُسْتَزَرْ عَنْ رَغْبَةٍ فِى زِيَارَةٍ ... وَلَكِنْ عَلَى رَغْمِ الْمَزُورِ يَزُورُ

وأنشد الإمام الشافعى محمد بن إدريس رضى الله عنه لما طالع الشيب رأسه ولحيته :

خَبَتْ نَارُ نَفْسِى بِاشْتِعَالِ مَفَارِقِى ... وَأَظْلَمَ لَيْلِى إِذْ أَضَاءَ شِهَابُهَا
أَيَا بُومَةً قَدْ عَشَّشَتْ فَوْقَ هَامَتِى ... عَلَى رَغْمِ نَفْسِى حِينَ طَارَ غُرَابُهَا
رَأَيْتِ خَرَابَ الْعُمْرِ مِنِّى فَزُرْتِنِى ... وَمَأْوَاكِ مِنْ كُلِّ الدِّيَارِ خَرَابُهَا
أَأَنْعَمُ عَيْشًا بَعْدَ مَا حَلَّ عَارِضِى ... طَلَائِعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِى خِضَابُهَا
وَلَذَّةُ عُمْرِ الْمَرْءِ قَبْلَ مَشِيبِهِ ... وَقَدْ فَنِيَتْ نَفْسٌ تَوَلَّى شَبَابُهَا
إِذَا اصْفَرَّ لَوْنُ الْمَرْءِ وَابْيَضَّ شَعْرُهُ ... تَنَغَّصَ مِنْ أَيَّامِهِ مُسْتَطَابُهَا
فَدَعْ عَنْكَ سَوْآتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ... حَرَامٌ عَلَى نَفْسِ التَّقِىِّ ارْتِكَابُهَا
وَأَدِّ زَكَاةَ الْجَاهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهَا ... كَمِثْلِ زَكَاةِ الْمَالِ تَمَّ نِصَابُهَا
وَأَحْسِنْ إِلَى الْأَحْرَارِ تَمْلِكْ رِقَابَهُمْ ... فَخَيْرُ تِجَارَاتِ الْكَرِيمِ اكْتِسَابُهَا
وَلَا تَمْشِيَنْ فِى مَنْكَبِ الْأَرْضِ فَاخِرًا ... فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ تُرَابُهَا
وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّى طَعِمْتُهَا ... وَسِيقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلَمْ أَرَهَا إِلَّا غُرُورًا وَبَاطِلًا ... كَمَا لَاحَ فِى ظَهْرِ الْفَلَاةِ سَرَابُهَا
وَمَا هِىَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ ... عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا عِشْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا ... وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلَابُهَا
فَطُوبَى لِنَفْسٍ أَوْطَنَتْ قَعْرَ دَارِهَا ... مُغَلَّقَةَ الْأَبْوَابِ مُرْخًى حِجَابُهَا

فَلَنْ تَخْرَبَ الدُّنْيَا بِمَوْتِ شُرُورِهَا وَلَـكِنَّ مَوْتَ الأَكْرَمِينَ خَرَابُهَا

انتهى كلام الشافعى رضى الله عنه . ولما بلغ الأربعين سنة رضى الله عنه أمسك العصا فقيل له : نراك تدمن إمساك العصا ولست بمحتاج إليها فقال لأذكر أنى مسافر من هذه الدار

وأنشد أيضا لما خرج من بغداد إلى مصر :

وَمُتْعَبُ الْعَيْشِ مُرْتَاحٌ إِلَى بَلَدٍ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ فى ذَلِكَ الْبَلَدِ
وَمَاشٍ وَالْمَنَايَا فَوْقَ هَامَتِهِ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ غَيْبًا مَاتَ مِنْ كَمَدِ
آمَالُهُ فَوْقَ ظَهْرِ النَّجْمِ شَامِخَةٌ وَالْمَوْتُ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ عَلَى رَصَدِ
مَنْ كَانَ لَمْ يُعْطَ عِلْمًا فى حَيَاةِ غَدٍ فَمَا تَفَكُّرُهُ فى رِزْقِ بَعْدَ غَدِ

وأنشد أيضا لما خرج من بغداد أو من مكة إلى مصر :

لَقَدْ أَصْبَحَتْ نَفْسِى تَتُوقُ إِلَى مِصْرٍ وَمِنْ دُونِهَا أَرْضُ الْمَهَامِهِ وَالْقَفْرِ
فَوَاللهِ مَا أَدْرِى إِلَى الْفَوْزِ وَالْغِنَى أُسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أُسَاقُ إِلَى قَبْرِى

ولما تمنى بعض الناس موته أنشد يقول :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَقُلْ لِلَّذِى يَبْغِى خِلَافَ الَّذِى مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

وإنما ذكرت لك ياأخى هذه الأشعار لتعرف أن السلف الصالح كان الموت على بالهم لايغفلون عنه ساعة ويحبون من يذكرهم بالموت سواء كان شيبا أو انحناء أو مرضا أو غير ذلك .

واعلم أنه قد يكون للإنسان زوجة شابة وهو شائب فتكره منه الشيب فلينظر صاحب هذا الحال بين مفسدة إبقائه ومفسدة نتفه ، ويفعل ماهو الأحق ؟ .

وقد أخبرنى سيدى على الخواص رحمه الله أن عمره مائة سنة وشىء ، فقلت له : إن شيبكم فى اللحية قليل ، فقال لما ضربنى الشيب وأنا ابن خمسين سنة تكدرت ابنة عمى ، فوقف الشيب عن الزيادة من ذلك اليوم اه

وكذلك وقع لى أنا مع زوجتى أم عبد الرحمن ، نمت بحضرتها فشرعت تنتف الشعرات البيض ، فاستيقظت على جذبها الشعر فوقف للشيب من ذلك اليوم .

وأخبرنى شيخنا الشيخ دمرداش المحمدى المدفون خارج مصر فى طريق بركة الحاج، أنه كان له صاحب شعرى اللحية وكان معه زوجتان إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة ، فكانت الصغيرة تنتف الشعر الأبيض كلما نام عندها ليصير صغيرا ، وكانت الكبيرة تنتف الأسود ليصير مثلها ، فما مضى عليه أشهر حتى لم يبق فى لحيته شعرة اه :

فيحمل ماورد فى ترغيب الرجل فى إبقاء الشيب على ما إذا لم يعارضنا أمر آخر يتولد منه شرور ، وأنكاد مع شدة محبة الرجل لزوجته .

وقد روى البيهقى أنه رفع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة قتلت زوجها ، فقال لها ماحملك على قتله ؟ فقالت إنى امرأة صغيرة السن ، وقد زوجنى أبى له كرها على فلما عجزت عن التخلص منه غلبتنى نفسى فرضخت رأسه بحجر رحى فمات ، فأمر ظاهرا بقتلها ثم أسر إلى بعض أهلها أنها تختفى أو تهرب .

وتزوج شخص من إخواننا شابة ، وكانت لحيته بيضاء لأجل ماله وكان كثير المال ليس له ولد ، فكانت تكلفه بعمل اللحم على الصاج ، وبالشهوات ، فإذا أتى بها قالت لاحاجة لى بذلك ، فيأتى ويقول لى : إنى أنفق عليها كل يوم نحو عشرة أنصاف وما هو على قلبها ولا خاطرها ، وما أعرف لى ذنبا ، فقلت له : ذنبك بياض لحيتك ، فلم تزل به حتى طلقها . فكاد عقله يذهب .

وقد وقع لشخص آخر من إخواننا أنه صبغ لحيته بالسواد لأجل واحدة كان يحبها ، ثم عقد عليها وأوهمها أنه شاب ، فلما دخل عليها قالت له لحيتك لحية شاب ، وحركتك فى الجماع حركة شيخ ، فطلقها من كثرة النكد .

وكذلك وقع لسيدى الشيخ نور الدين الشونى رحمه الله تعالى أنه تزوج بعد تسعين سنة شابة ، ولم يكن تزوج قبلها أحدا ، وكان أبوها من كبار المعتقدين فى الشيخ ، فكانت تؤذى الشيخ فيقول لى ما أعرف إيش تكرهنى على إيش فأسكت وأستحى أن أقول له من كبر سنك ، وشكت إلى والدها من خشونة جبة الشيخ فنزعها وصار ينام معها فى ثياب الكتان الحمسينى ، ومع ذلك فكانت تشكو منه ، وكلما عمل على غرضها فى أمر طلبت منه أمرا آخر حتى كدرت عليه معيشته فطلقها ، فاصبغ يا أخى الشيب الذى فى لحيتك بغير السواد ، ولا تنتفه إلا لعذر شرعى والله يتولى هداك .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا « لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ مَامِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية له مرفوعا « الشَّيْبُ نُورُ الْمُسْلِمِ » .

زاد فى رواية للطبرانى « فَقَالَ رَجُلٌ فَإِنَّ رِجَالاً يَنْتِفُونَ الشَّيْب، فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عَلَيهِ وسلمَ: مَنْ شَاءَ فَلْيَنْتِفْ نُورَهُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا « مَنْ شَابَ شَيْبَةً فى الإِسلَامِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكتحل كل ليلة بالإثمد ونأمر بذلك عيالنا وأولادنا ، ويكون معظم نيتنا بذلك امتثال أمر الشارع صلى الله عليه وسلم لاجلاء البصر ، فإن جلاء البصر حاصل بذلك واو لم نقصده ، اللهم إلا أن يكون قصدنا به التداوى فنوى جلاء البصر ، ومراد أهل الله تعالى أن تكون أفعالهم كلها وأقوالهم كلها من تحت حكم الشارع امتثالا لأمره واو لم يعقلوا معناه ؛

وقد أجمع أهل الله تعالى على أن العمل من غير معرفة العلة أقوى فى استعداد العبد من العمل مع معرفة العلة ، لأنه إذا لم يعرف العلة لم يكن الباعث له على فعل ذلك العمل إلا امتثال الأمر، بخلافه إذا علل فربما يكون الباعث له على العمل حكمة تلك العلة ، من شفاء أو ثواب ، ولا شك أن من فعل شيئا من أوامر سيده محض امتثال أمر كان أحب إلى الله وأكثر أجرا ممن عمل لعلة ، إذ من المعلوم أن من يخدمك محبة فيك لاطلبا للأجرة هوعندك أعظم قدرا وأقرب محلا ممن خدمك لأجل الأجرة ، ولولا الأجرة ماخدمك فافهم ، والله تعالى أعلم .

وروى الترمذى وقال حديث حسن والنسائى وابن حبان فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اكْتَحِلُوا بِالْإِثْمِدِ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعَرَ » .

قال ابن عباس رضى الله عنه : وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاثة فى هذه وثلاثة فى هذه ؛ ولفظ رواية النسائى وابن حبان :

« إِنَّ مِنْ خَيْرِ أَكْحَالِكُمُ الْإِثْمِدَ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعَرَ »

وروى الطبرانى مرفوعا « عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ فَإِنَّهُ مَنْبَتَةٌ لِلشَّعْرِ ، مَذْهَبَةٌ لِلْقَذَى ، مَصفَاةٌ لِلْبَصَرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسمى الله تعالى عند الطعام والشراب ، وذلك لأن كل شىء فعل مع الغفلة عن الله فهو كالميتة . وفى القرآن : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فافهم ، ففى التسمية تقديس الطعام وتزكيته وتنميته والحضور مع الله تعالى بأسمائه الحسنى لاسيما والأكل محل الغفلة عن الله تعالى لقوة الداعية إليه ، ومن هنا كرهت الصلاة بحضرة طعام أوشراب تتوق إليه نفس المصلى ، ونهى عن الأكل والشرب فى الصلاة ولو نفلا ، لأن العبد لايقدر أن يرد عن نفسه لذة الأكل والشرب فتزاحمه تلك اللذة فى حال مناجاته ، وتحول بينه وبين لذة مناجاة الحق تعالى التى هى روح الصلاة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لايكمل الفقير حتى يحضر مع الله تعالى فى حال الأكل والشرب وفى حال الجماع كما يحضر فى حال الصلاة ، ويجمع بين لذة الأكل ولذة المناجاة فى آن واحد لا تحجبه إحدى اللذتين عن الأخرى ، فيشكر الله تعالى من وجهين فى آن واحد .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لايكمل الفقير عندنا فى الطريق إلا لمن كان يسمع ملك الإلهام يقول يا فلان كل أو اشرب أو جامع أو قم أو اجلس ، أو نم أو مد رجلك أو اخزن قوتك أو تصدق بما عندك ونحو ذلك ، فمن لم يسمع ملك الإلهام فهو بعيد عن الحضرات الإلهية .

وسمعته مرة أخرى يقول : ما أكلت حتى ألهمت فى نفسى يافلان كل ، ولا فرغت من الأكل حتى ألهمت يافلان يكفى .

وسمعته يقول : كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول : ما أكلت طعاما قط حتى قيل لى بحقنا عليك كل ولا نمت حتى قيل لى بحقنا عليك نم وهكذا اه .

وسمعته مرة أخرى يقول : ينبغى للفقير أن يأكل بنعت الحضور مع الله ، فيرى أنه يأكل والحق ناظر إليه بعينه التى لاتنام يرى شره نفسه أو قناعتها ، فمن أدمن ذلك رزقه الله القناعة وخلع عليه من الآداب مالم يكن عنده .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : سموا الله تعالى على كل حركة وسكون يبارك لكم فيها ، وما شرعت التكاليف كلها إلا لحضر العبد فيها مع الله :

وكان ولدى عبد الرحمن وهو ابن ثلاث سنين يقول كلما يأكل : بسم الله الشافى ، من غير أن أعلمه ذلك وهى مناسبة للمقام، ولا يخفى أن الخلق ولو علت رتبتهم فى المقامات يحتاجون إلى التسمية قياما بشعائر السنة خلاف ماعليه بعض أهل الشطح من قولهم : إنما يسمى الله على طعامه من كان يرى ملكا مع الله تعالى ، أما من يرى الملك فى الطعام لله تعالى وأنه مقدمه إليه فلا يحتاج إلى تسميته ، لأن طعام الحق تعالى إذا قدمه لعبده بركة فى نفسه لا يقبل الزيادة فى النمو اه .

والحق أن كل طعام قدم للعبد له وجهان ، وجه إلى نسبته إلى العبد وكسبه ، ووجه إلى نسبته إلى الحق تعالى وخلقه ، فوجه نسبة الخلق يقبل الزيادة ، ووجه نسبة ذلك إلى الحق لا يقبل الزيادة .

ودخل على الشيخ شمس الدين الأبوصيرى أحد أصحاب الشيخ أبى السعود الجارحى رحمه الله فأكل ولم يسم ، فقال طعام الأستاذين لا يحتاج إلى تسمية الله تعالى عليه لأنه بركة فى نفسه ، فأقمت عليه الحجة فى ذلك ، فرجع إلى رحمه الله فاعلم ذلك وكن متبعا للسنة فى كل عمل سواء عقلت معناها أم لم تعقله . فإنه لا أكمل مما شرعه الحق تعالى على ألسنة رسله أبدا .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلمَ كَانَ يَأْكُلُ طَعَامًا فى سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم : أَما إِنَّهُ لَوْ سَمَّى اللهَ لَكَفَاكُمْ » .

وروى أبو داود وابن ماجه مرفوعا « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فإِنْ نَسِيَ فى أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِاسْمِ اللهِ فى أَوَّلِه وَآخِرِهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا « مَنْ سَرَّهُ أنْ لاَ يَجِدَ لِلشَّيْطَانِ عِنْدَهُ طَعَاماً وَلاَ مَقِيلاً وَلاَ مَبِيتاً فَلْيُسَلِّمْ إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَيُسَمِّ اللهَ عَلَى طَعَامِهِ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا « إذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ تعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قالَ الشَّيْطَانُ لاَمَبِيتَ عِنْدَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ ، وَإذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ تعالى عِنْدَ دُخُولِهِ قالَ الشَّيْطَانُ أدْرَكْتُمُ المَبِيتَ ، وَإذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قالَ الشَّيْطَانُ أدْرَكْتُمُ العَشَاءَ » :

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخـذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نروض نفوسنا بآداب الصالحين حتى لايصير عندها شره عند أكلنا مع الجماعة وذلك حتى لا نسابق إلى لحمة أو رطبة ثم نضجها أو إلى عسل أو سمن فى نحو العصيدة ونحو ذلك ، فمن أكل من غير تقدم رياضة فمن لازمه غالبا شراهة النفس .

وسمعت شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى يقول : لاينبغى لأحد أن يأكل مع جماعة إلا إن كان يؤثرهم بأطايب الطعام ، فإن لم يعلم من نفسه القدرة على إيثارهم ، فمن الأدب أن يأكل وحده ، وتقدم فى هذه العهود أن الفقراء فى الزمن الماضى كانوا لايأكلون مع والد ولاوالدة ولا أستاذ ولا رجل كبير خوفا أن تسبق عين أحدهم إلى لقمة أو لحمة أو خوخة أو تفاحة أو رطبة ، فيأخذها فيأكلها وهو لايشعر بسبق عين من ذكر إليها .

وكان سيدى أبو الحسن الغمرى لايأكل مع أحد إلا لضرورة ويقول : ما آمن على نفسى أن تأكل من قدام رفيقها ، ولا أن تسابق إلى أطايب الطعام دون جارها ، لقلة حيائها من الله تعالى أو من عباده

وقد أمرنا الشارع صلى الله عليه وسلم بالأكل مما يلينا لعلمه بشراهة نفوسنا من أصل الخلقة ، ولو أنها لم يكن عندها شره مااحتجنا إلى الأمر بالأكل مما يلينا ، والله تعالى أعلم .

وروى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن بسر قال : كان للنبى صلى الله عليه وسلم

قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال، فلما أصبحوا وسجدوا الضحى أتى بتلك القصعة وقد أثرد فيها فالتقوا عليها ، فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعرابى ماهذه الجلسة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ : كُلُوا مِنْ جَوَانِبِهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا » .

والذروة : هى أعلاها، وهى بكسر الذال المعجمة :

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ فِى وَسَطِ الطعَامِ فَكُلُوا مِنْ جَانِبَيْهِ وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ » .

ولفظ أبى داود : « وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَليه وَسلمَ إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طعَامًا لاَ يَأْكُلُ مِنْ أَعْلَى الصَّحْفَةِ وَلَكِنْ لِيَأْكُلْ مِنْ أَسْفَلِهَا فَإِنَّ الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ مِنْ أَعْلاَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقنع من الأدم بتغميس اللقمة بخل أو زيت، لاسيما فى هذا الزمان الذى صار فيه الدرهم الحلال أعز من الكبريت الأحمر ، وشىء يمدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم لايجوز لأحد أن يذمه ، ووالله إن سف التراب الآن لكثير علينا لقلة حيائنا من الله وكثرة غفلتنا عنه وقلة شكرنا له، وعدم رضانا بما قسمه لنا، وكل ذلك ينافى صفات العبودية ؛ ومن لم يقم بأوصاف العبيد فلا ينبغى له مطالبة سيده بالقيام به ، لأنه لايستحق على سيده شيئا ولو كان عبدا له كما أشار إليه خبر :

« فَكَمْ مِمَّنْ لاَ مُطْعِمَ لَهُ وَلاَ مَأْوَى » .

أى لايطعمه الحق كما تختار نفسه ولا يؤويه كما تختار نفسه ، وإلا فهو تعالى يرزق الكافر فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من طلب من الحق فوق الضرورة فى هذه الدار فهو أعمى البصيرة ، وإذا كان لايقدر على القيام بالشكر لله على الضروريات فكيف يقدر على شكره على الشهوات .

وسمعته مرة أخرى يقول : من رضى عن الله بالقليل من الدنيا رضى الحق منه بالقليل من العمل .

وقد أجمع أشياخ الطريق على أن كل مريد وجد الخبز فقال آكل خبزى بإيش لايجىء منه شىء فى الطريق .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به إلى الحضرات التى يعلم منها العبد مالله تعالى عليه من الحقوق حتى يصير يرى لله المنة عليه الذى لم يخسف به الأرض فضلا عن تسخير الأرزاق التى تهواها نفسه ، فإن حكم أمثالنا فى تعدية حدود الله تعالى كحكم العبد الذى فسق فى حريم سيده ودخل سيده عليه وهو يفعل الفاحشة فى زوجته ، فهل يقدر مثل هذا إذا دفع له سيده رغيفا حافا يابسا أن يرده عليه ويقول ما آكل إلا بأدم من لحم أو عسل أو جبن ونحو ذلك ، لاوالله لايستحق الخبز اليابس ؛ ولا يقدر سيده على نفسه أن ينظر إليه فضلا عن كونه يطعمه ، هذا حكم أمثالنا مع الحق وهو معنى قوله تعالى :

(وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ) .

فكم وقع العبد فى الزنا فى إماء الله وهو تعالى يراه ؛ وكم سرق ،أوكم سكر وكم نظر إلى مالايحل ، وكم أكل حراما ، وكم استغاب إنسانا ، وكم قذف أعراضا ، وكم شهد لأصحابه زورا وكم قطع رحما ، وكم عق والدا ، وكم أكل مال يتيم ، وربما اجتمعت هذه الصفات كلها فى عبد فمثل هذا إنما يستحق النار .

وفى البخارى «أن رجلا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس حلة وتبختر فيها فخسف الله به فى زقاق أبى لهب فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة» وهذه الصفات أقبح من التبختر بيقين ، فهى أحق بأن يخسف بصاحبها ، وإذا علمت ذلك فلا ينبغى لمن جعل نفسه قدوة أن يطبخ ألوان الطعام فى هذا الزمان لقلة وجود ذلك من وجه حلال ، بل رأيت بعضهم له عمامة صوف وجبة صوف وله سرارى وزوجات لاتصلح إلا للأمراء ويطبخ ألوان الطعام أكثر من بعض أركان الدولة ، فنظرت فى أمره فإذا هو يأخذ هدايا الظلمة وصدقاتهم على اسم الفقراء ويتزوج بها ويتسرى ولا يعطى الفقراء شيئا فمثل هذا شيخه إنما هو إبليس .

وبالجملة فكل شيخ تخصص عن فقراء زاويته بشيء دخل على اسمهم ولو بالقرينة ، فليس له في المشيخة نصيب ، وإنما هو نصاب كما أوضحنا ذلك في عهد شيخ الزاوية في عهود المشايخ ، والله تعالى أعلم .

فاقنع يا أخي فيما بقي من عمرك ولو بكسر خبز الشعير المدشوش على الرحى من غير أدم ، واستح من الله الذي أطعمك ذلك ولم يعذبك بالنار في الدنيا ولم ينزل عليك البلايا ، ومن استحق النار فصولح بالرماد لا ينبغي له إلا الشكر :

وقد قالوا مرة لسيدي على الخواص : رأينا شخصا من حملة القرآن ، يفعل معصية فتعجب من ذلك كل العجب ، ثم قال : والله لاينبغي لحامل القرآن أن تغلبه نفسه على الشهوات المباحة ، فكيف غلبت هذا نفسه على شهوة محرمة ، ثم قال لي : بالله إيش يستحق هذا من الله تعالى ، والله إن مثل هذا خارج إلى طبع البهائم ولكن سبحان الحليم اهـ .

فليحذر العبد إذا ترادفت عليه النعم وتيسرت له ألوان الطعام في هذا الزمان من الاستدراج لا سيما لشيخ العلم وشيخ الزاوية ، فإن في الحديث :

« إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ مِنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ » .

فيقول الشيخ لنفسه : لو كنت عند الله بمكانه لحماك من الدنيا . وفي الحديث :

« حُلْوَةُ الدُّنْيَا مُرَّةُ الآخِرَةِ » .

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وأبوداود والترمذي ، وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا ما عندنا إلا الخل فجعل يأكل ويقول :

« نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ ، نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ ، نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ » .

قال جابر : فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله صلى الله عليه وسلم :

وقال طلحة بن نافع : وما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر :

وروى الترمذي وابن ماجه : عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بنت أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ فَقَالَ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْتُ : لَا إِلاَّ

بَسَرٌ يَابِسَةٌ وَخَلٌّ ، فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَرِّبِيهِ ، فَمَا افْتَقَرَ بَيْتٌ فِيهِ أُدْمٌ مِنْ خَلٍّ » .

وفى رواية لابن ماجه عن أم سعد قالت : « دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ عَلَى عَائِشَةَ وَأَنَا عِنْدَهَا فقَالَ: هَلْ مِنْ غِذَاءٍ ؟ فقَالَتْ عِنْدَنَا خُبزٌ وَتمرٌ وَخَلٌّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : نِعمَ الإِدَامُ الخَلُّ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فى الخَلِّ فَإِنَّهُ كانَ إِدَامَ الأَنْبِيَاءِ قَبلِى ، وَلَمْ يَفتَقِرْ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ » .

ومعنى ما افتقر بيت : أى ماخلا من أدم ، ومعنى لم يفتقر : أى إن قنع أهله به فلا يحتاج إلى غيره .

وروى الترمذى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » .

وفى رواية للحاكم مرفوعا: « كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ طَيِّبٌ مُبَارَكٌ » .

والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبحث عن كيفية أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم والفواكه والبطيخ وغير ذلك ، لنقتدى به فى ذلك ، حتى نكون تحت القدوة به صلى الله عليه وسلم فى كل أمر ، فإن لم نجد شيئا عنه فى ذلك سلكنا فى الأكل لذلك الشىء مسلك الملوك والأكابر فى الأدب ، فإن عند الأكابر من الأدب فى الأكل ماليس عند غيرهم ، أو نترك أكل ذلك الشىء جملة لاسيما إن كان أكله من الشهوات النفسية دون الضرورية .

وقد بلغنا عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه ترك أكل البطيخ الهندى والأصفر وقال : لم أعرف كيفية أكله صلى الله عليه وسلم له ، وما رأت عينى فى فقراء العصر أحرص على فعل السنة من سيدى محمد بن عنان ، ومن سيدى يوسف الحريثى ، ومن سيدى محمد بن داود بنواحى المنزلة ، لو أن الدنيا بحذافيرها أعطوها ولم يعرفوا كيفية قبضها المشروع لتركوها كما يترك أحدهم البعرة .

وقد حضرت الشيخ يوسف الحريثى ليلة وفاته فقال لى : يا ولدى فى نفسى غم ،

الذى خرجت من الدنيا ولم أعرف كيفية تخليل اللحية فى الوضوء بحديث صحيح أو حسن وقد سألت عن ذلك الشيخ عثمان الديمى والشيخ جلال الدين السيوطى وغيرهما فلم يشفوا غليلى من ذلك، هذا لفظه ليلة وفاته ، ثم توفى بعد نحو عشر درج رحمه الله .

وقد بوب الحافظ المنذرى على أكل اللحم بقوله : باب الترغيب فى نهش اللحم دون تقطيعه بالسكين إن صح الخبر ، والله أعلم .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : إن كان اللحم مثل مخ الدجاج أو الحمام فقربه إلى فيك لخفته وكل ، وإن كان كبيرا مثل ورك الخروف والإوز المعلوف فاقطع منه بالسكين ثم خذ القطعة الخفيفة وانهش لحمها من على عظمها .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« أَنْهَشُوا اللَّحْمَ نَهْشًا فَإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ » .

وفى رواية للحاكم عن صفوان بن أمية قال : « رَآنِى رَسُولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وَسلمَ وَأَنَا آخُذُ اللَّحْمَ عَنِ الْعَظْمِ بِيَدِى، فَقَالَ : يَا صَفْوَانُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ، قَالَ:قَرِّبِ اللَّحْمَ مِنْ فِيكَ فَإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ » .

قال الترمذى حديث غريب ، وقال الحافظ عبد العظيم لا بأس به فى المتابعات .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « لَا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بِالسِّكِّينِ فَإِنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الْأَعَاجِمِ ، وَانْهَشُوهُ نَهْشًا فَإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ » .

قال الحافظ : وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم احتز من كتف شاة فأكل ثم صلى، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجتمع على الطعام كلما نأكل مع عيالنا وأولادنا وإخواننا وهو مجرب للبركة فى الرزق ، وفيه ائتلاف القلوب ، وفى الحديث :

« شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَحْدَهُ وَجَلَدَ عَبْدَهُ وَمَنَعَ رِفْدَهُ » .

فلو لم يكن فى الاجتماع إلا خروجنا عن صفة شرار الناس بنص كلام الشارع لكان

فى ذلك كفاية فى الزجر ، وقد من الله تعالى على بانشراح الخاطر بالأكل مع الناس ، وانقباضه إذا أكلت وحدى ، فأحس باللقمة تنزل فى جوفى مظلمة موحشة ، فإذا دعوت أحدا للأكل معى ولو واحدا زال ذلك هذا جربته فى نفسى كما جربت ذلك فى الصلاة فى الجماعة والصلاة وحدى ، من حيث أن كلا من الجماعتين مظلوب شرعا :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يربيه حتى يخرجه عن شح النفس ، ويعطل صفته وعن ٧ الاستعمال ، فإنه جبلى فى النشأة ولذلك قال تعالى :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) .

وما قال تعالى : ومن يزل شح نفسه ، ونظير ذلك قوله تعالى :

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

والحسد مقرون بالنعمة ، فلو أنه شرع للإنسان أن يستعيذ بالله من وجود الحاسد لكان ذلك استعاذة من وجود النعمة ، فإن الحاسد لايفقد إلا بفقد النعمة ، ومعلوم أن نعمة مع حسد خير من نقمة بلا حسد .

فاسلك يا أخى على يد شيخ حتى يخرجك من ضيق الشح والبخل إلى ساحة الجود والكرم ، فتكون محبوبا للناس ولو كنت فاسقا ، بخلاف ما إذا كنت شحيحا بخيلا ، فإنك تكون مبغوضا لهم ، ولو كنت على عبادة الثقلين ، ولا شك أن محبة أخينا المسلم لنا أنفع من أكلة نلقيها عذرة فى الخلاء وعلينا تبعتها وحسابها فى الآخرة ، فأكثر من العزومات على الإخوان جهدك ليأخذوا بيدك إذا عثرت فى الدنيا والآخرة ، لكن عند وجود ذلك من حلال من غير تكلف ، وإذا علم الحق تعالى من قلبك السخاء والكرم أجرى على يديك أرزاق الخلائق بقدر ما عندك من ذلك ، فطوبى للأجواد . وفى المثل السائر : إذا قل مال المرء وإطعامه الطعام قلت أصدقاؤه : وإيضاح ذلك أن الغالب على أصدقاء الزمان العلل النفسانية التى تميل إليها النفوس ، فلايصحبون شخصا إلاويشركون معه محبة إحسانه ، وإذا انتفى إحسانه لا يكادون يقدرون على نفوسهم أن تميل إليه كل ذلك الميل الكلى ، بحيث يكون عندهم كمن يطعمهم ويحسن إليهم أبدا ، والدين ما قام إلابالعصبية والمعاضدة ولاتقع عصبية وتعاضد قوم إلابإحسانهم إلى بعضهم ، ومالا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب :

وسمعت سيدى بدرالدين التوزى يقول: من مد يده بالإحسان إلى الناس نفذت كلمته فيهم ، ومن بخل عليهم حرم انقيادهم له.

وسمعته مرة أخرى يقول : من مدّ يده إلى الأخذ من الولاة وغيرهم قصرت كلمته ويده عندهم ، ومن زهد فيما بأيديهم ورد كل ما أعطوه له عليهم طالت كلمته ويده عندهم.

فتحبب ياأخى إلى إخوانك بالإحسان بكل ماتقدر عليه لاسيما إن كنت تدعوهم إلى الله، والله يتولى هداك.

وروى أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ جَمَاعَةً قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ ، قَال : تجْتَمِعُونَ عَلَى طَعَامِكُمْ أَوْ تَتَفَرَّقُونَ ؟ قَالُوا نَتَفَرَّقُ ، قَالَ : اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ تَعالى يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ ».

وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كُلُوا جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّقُوا فَإِنَّ الْبَرَكَةَ مَعَ الْجَمَاعَةِ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِى الثَّلَاثَةِ ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِى الْأَرْبَعَةِ » .

وفى رواية لمسلم والترمذى وابن ماجه والبزار مرفوعا :

« طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِى الِاثْنَيْنِ ، وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِى الْأَرْبَعَةَ ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِى الثَّمَانِيَةَ » .

وزاد فى رواية : « وَيَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ » .

وروى أبو يعلى والطبرانى وغيرهما مرفوعا: « إِنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْأَيْدِى » .

قال الحافظ عبد العظيم : ولكن فى الحديث نكارة، والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نلعق أصابعنا قبل

مسحها إحرازللبركة كما ورد ؛ فربماكانت البركة الموضوعة فى الطعام فى تلك البقايا التى على الأصابع ، ومن فاته بركة الطعام كان كالذى يأكل ولا يشبع ، وقد استعاذ من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وقد ورد « إِنَّ اللهَ تعالَى أَخْفَى ثَلَاثًا فى ثَلَاثٍ : أَخْفَى رِضَاهُ فى طَاعَتِهِ ، وَأَخْفَى سَخَطَهُ فى مَعْصِيَتِهِ ، وَأَخْفَى أَوْلِيَاءَهُ فى عِبَادِهِ » .

أى فربما كان رضا الله تعالى عنه معلقا على طاعة لايؤبه لها لقلتها وسهولتها ، وربما كان سخطه تعالى فى معصية صغيرة فى رأى العبد لايتنبه لها غالب الناس ، وربما كان ذلك الشخص الذى ازدريناه فى عيننا من أولياء الله تعالى فيمقتنا الله تعالى ، فوجب على كل عاقل الإقبال على فعل كل مأمور ، والإدبار عن فعل كل منهى وتعظيم كل مسلم بطريقه الشرعى ، فإن الله تعالى إنما كلفنا بنهى المسلمين عن كل منكر ولم يبح لنا ازدراءهم ، ولا يخفى أن رضا الله المعلق على فعل شىء إذا حصل لايقع بعد وسخط على ذلك العبد أبدا ، كما أن سخطه إذا حصل لايقع بعده رضا على ذلك العبد أبدا ، وإذا مقت من ازدرى وليا لايفلح بعد ذلك أبدا :

فافعل ياأخى جميع المأمورات واعتن بالسنن كأنها واجبات واجتنب المناهى ولو مكروهات واجتنبها كما تجتنب المحرمات ، فمن استهان بالسنن كفر ، كما أن من استهان بالمكروهات كذلك . وفى الحديث :

« الْمُؤْمِنُ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ ، وَالْفَاجِرُ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا » .

ولا تقدر يا أخى على الوصول إلى العمل بهذا العهد إلا إن سلكت الطريق على يد شيخ صادق حتى يوصلك إلى حضرات تعظيم أوامر الله ونواهيه ، وإلا فمن لازمك التهاون بها .

وسمعت سيدى محمد بن عنان يقول : لا يبلغ الفقير مقام الأدب مع الله تعالى إلا إن تاب من ترك السنن كما يتوب من ترك الواجبات ويندم على فعل المكروهات ، كما يندم على فعل الكبائر هذا لفظه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يبلغ العبد إلى مقام الأدب مع الله

تعالى حتى يفرق بين الأوامر والنواهي ، فيعتنى بالتوبة من ترك الواجب أكثر من توبته من ترك السنن ، ويندم فى فعله للكبائر أكثر من ندمه عند فعله الصغائر ، ويندم فى فعله للصغائر أكثر من ندمه فى فعل المكروهات ، ويندم فى فعله للمكروهات أكثر من ندمه فى فعل خلاف الأولى لأننا تابعون لامشرعون اه : أى فإن الشارع فاوت بين المأمورات والمنهيات ، فمن الأدب أن نفاوت بينها فى المرتبة ولا نجعلها كلها واحدا ، فيحمل كلام سيدى محمد بن عنان على أحوال المريدين ، وكلام سيدى على على أحوال العارفين ، لأن المريد فى مقام الزجر والتنفير والترغيب ، والعارف فى مقام التحقيق لبعد مقامه عن الاستهانة بفعل مأمور أو ترك منهى بخلاف المريد ، ولذلك رأى الأشياخ للمريد أن رمى ما بيده من الدنيا فى البحر أقوى فى استعداده من التصدق به بشرط أن يضمنوا له فى نفوسهم رجوع ذلك المال إليه إذا خلص من ورطة محبته للدنيا كما وقع لسيدى مدين وغيره ، فأرادوا حسم مادة إمساك الدنيا وإخراج حبها من قلبه ويده ثم إذا كمل حاله أمر بإمساكها وإنفاقها فى مصارفها الشرعية ، وحرموا عليه إتلافها أو رميها فى مضيعة أدبا مع الله تعالى ، فافهم .

واللسان يقصر عن البيان لمن لم يسلك الطريق إذ من لازمه استشكال الأحكام بعضها بعضا ، ولو أنه سلك الطريق لم يجد حديثا ولا أثرا ولا قولا للأئمة يناقض آخر ، بل كل واحد محمول على مقام يليق به ، فإن الشارع يجل مقامه عن وجود التناقض فى كلامه ، لأنه كان يخاطب كل جليس بما يناسبه ، كما يعرف ذلك من تصفح الشريعة :

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلعق الأصابع والصحفة وقال : « إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِى أَىِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ » .

وقال فى رواية مسلم أيضا : « إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ وَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِى فِى أَىِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ ، فَإِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا » .

وفى رواية أخرى له مرفوعا: « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِى فِى أَيَّتِهِنَّ الْبَرَكَةُ » .

وروى الشيخان وأبوداود وابن ماجه مرفوعا : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلَا يَمْسَحْ أَصَابِعَهُ حَتَّى يَلْعَقَهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، وبعد كل نعمة إظهارا للاعتراف بالنعم ، ولتدوم علينا ، فمن أكل وانصرف غافلا عن الحمد فهو كالبهائم ، وربما عوقب بزوال النعم وقساوة قلوب الخلائق عليه ، حتى يتمنى الموت فلا يجاب .

وينبغى لوالد الطفل ووالدته أن يعلماه قول الحمد لله ، ولا يسامحاه فى ترك ذلك وقتا واحدا ليصير ذلك من عادته ، وينبهاه على أن يقول ذلك بحضور القلب مع اللسان ، فإن القلب إذا شكر وقع الشكر من جميع الجوارح من حيث كونها رعيته ، وإذا شكر باللسان لم يتعد ذلك إلى غيره ، ولدوام النعم وتحويلها تحقيق آخر يعرفه أهل الله ليس هذا موضعه ، وإنما الشارع يخوّف صغار العقول بالأمور التى يخافون منها طلبا لردهم إلى مقام الأدب ، إذ لا يتعدى الحدود فى الغالب إلا من لم يكمل عقله وكامل العقل لا يحتاج إلى تخويف فى الدنيا والآخرة ، لعلمه بأن جميع ما يحوله الله عنه مما بيده ليس له منه إلا ما استمتع به قبل التحويل والملك فى جميع الأشياء لله تعالى فلا يتأثر على فوات شىء لأنه ما فاته إلا وهو ليس من رزقه ، ومن لازم كامل العقل أيضا حسن ظنه بربه فلا يحمل هم رزق فهو مرفوع الهمة على أن يحمد ربه أو يعبده لعلة ثواب أو خوف من عقاب .

وفى بعض الكتب المنزلة

« يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَل وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ عَبَدَنِى لِنَعِيمِ جَنَّةٍ أَوْ لِخَوْفٍ مِنْ نَارٍ لَوْ لَمْ أَخْلُق جَنَّةً وَلَا نَارًا لَمْ أَكُنْ أَهْلًا لِأَنْ أُطَاعَ » . اه

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح حتى يخرجه عن الرعونات النفسية ، ويصير يعبد الله امتثالا لأمره لا لعلة دنيوية ولا أخروية ، وذلك يحصل للمريد فى أول مبادى الطريق فليس هو بمقام عظيم كما يتوهمه من لم يسلك الطريق ، وقد تحققنا بذلك ولله الحمد أول دخولنا فى الطريق ، وذلك أنى لما ذقت مقام التوحيد

والأفعال لله تعالى لم أجد لى عملا حتى أطلب به الثواب ، وإنما هو تعالى يحركنى كالآلة الفارغة التى ليس عليها شىء ينتقل إلى غيرها كدولاب الغزل الفارغ ، والتكاليف تابعة للنسب والإضافات الشرعية ، وقد أضاف الله تعالى الأعمال بالوجه اللائق بنا وبنى على ذلك الثواب والعقاب ، ويكفينا ذلك فى تعقل إقامة الحجة علينا .

فاحمد يا أخى ربك محبة فيه ، وامتثالا لأمره ، لا ليعطيك شيئا فى نظير ذلك تكن من أهل الأدب معه تعالى ، والله يتولى هداك .

وروى أبو داود وابن ماجه والترمذى مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَطْعَمَنِى هٰذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وروى مسلم والنسائى والترمذى وحسنه مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » .

قال الحافظ : والأكلة بفتح الهمزة المرة من الأكل ، وقيل بضم الهمزة وهى اللقمة .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ النَّبِىَّ صلى اللهُ عليه وسلم خَرَجَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِىَ الله عَنْهُمَا إِلَى دَارِ أَبِى أَيُّوبَ الْأَنْصَارِىِّ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ إِلَى أَنْ قَالَ : فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شَيْئًا مِنْ لَحْمِ الْجَدْيِ ، فَوَضَعَهُ فِى رَغِيفٍ وَقَالَ : يَا أَبَا أَيُّوبَ أَبْلِغْ هٰذَا فَاطِمَةَ فَإِنَّهَا لَمْ تُصِبْ مِثْلَ هٰذَا مُنْذُ أَيَّامٍ فَذَهَبَ بِهِ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى فَاطِمَةَ فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَبِعُوا ، قَالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم : خُبْزٌ وَلَحْمٌ وَبُسْرٌ وَرُطَبٌ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ : وَالذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ هٰذَا هُوَ النَّعِيمُ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَكَبُرَ ذٰلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : بَلْ إِذَا أَصَبْتُمْ مِثْلَ هٰذَا فَضَرَبْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ فَقُولُوا بِاسْمِ اللهِ ، وَإِذَا شَبِعْتُمْ فَقُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هُوَ أَشْبَعَنَا وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا فَأَفْضَلَ ، فَإِنَّ هٰذَا كَفَافٌ بِهٰذَا » .

وروى أبو يعلى مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ فَشَبِعَ وَشَرِبَ فَرَوِىَ ، فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى

أَطْعَمَنِي وَأَشْبَعَنِي وَسَقَانِي وَأَرْوَانِي خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

قال الحافظ : والأحاديث فى ذلك كثيرة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتلقى جميع ما أنعم الله تعالى به علينا ونحن على طهارة كاملة ، كما نتطهر للصلاة والطواف ونحوهما ، فإن العلماء اختلفوا فى المراد بالوضوء عند الأكل ، فقال قوم : المراد به الوضوء كاملا ، وقال قوم : المراد به غسل اليد فقط فمشينا على الأحوط وهو الطهارة الكاملة، فإن لم يتيسر ذلك غسلنا اليد والفم ، وكذلك نفعل بعد الأكل .

وهنا أسرار يذوقها أهل الله لا تسطر فى كتاب ، يعرفها من يعرف أن سيد القوم هو خادمهم، ولذلك كان سيدى محمد بن عنان لا يمتنع من صب الأمير الكبير على يديه، ولا يستحى من استخدامه ويقول: من امتنع من صب الكبير على يديه فكأن لسان حاله يقول لا أمكنك أن تكون سيدا علىّ . وكان سيدى على الخواص لا يمكن أحدا يصب على يديه ولو زبالا ، فكان يشهد عبودية نفسه وسيادة غيره، ويقول : ليس من الأدب استخدام السيد ولو طلب هو ذلك تجملا، كما ننزهه عن أن يكون هو المزيل لقاذوراتنا ، ولكل مقام رجاله ، ولكل رجال مشهد ، ومن هنا قال العلماء: لا ينبغى أن يقال سبحان خالق الخنازير مع أنه تعالى خالق لها بالإجماع ، ولو كشف للعبد الحجاب لخاطبته أسرار الله من كل ذات وحجب بالسر القائم بالذوات عن الذوات كما أشار إليه خبر :

« إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ » الحديث ، وأكثر من ذلك لا يقال .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى عن سلمان قال : قرأت فى التوراة أن بركة الطعام الوضوء بعده فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما قرأت فى التوراة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ » .

وفى سنده ضعف . وقال الحافظ عبد العظيم هو حديث حسن قال : وقد كان سفيان الثورى يكره الوضوء قبل الطعام اهـ، ولعله لم يبلغه فيه شىء عن الشارع؟ قال البيهقى وكذلك

وابن أنس كرهه ، وكذلك قال مالك ، الشافعى استحب تركه واحتج بحديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى وهو حديث ابن عباس قال :

« كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم فَأَتَى الْخَلاَءَ ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ فَأُتِيَ بِالطَّعَامِ، فَقِيلَ لَهُ أَلاَ تَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ: لِمَ أُصَلِّ فَأَتَوَضَّأُ » .

وفى رواية لأبى داود والترمذى فقال :

« إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى الصَّلاَةِ » .

وبوب عليه الحافظ عبدالعظيم باب الترغيب فى غسل اليدين قبل الطعام إن صح الخبر.

وروى ابن ماجه والبيهقى مرفوعا : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُكْثِرَ اللهُ تَعَالَى خَيْرَ بَيْتِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ إِذَا حَضَرَ غِذَاؤُهُ وَإِذَا رُفِعَ » .

قال الحافظ عبد العظيم : والمراد هنا بالوضوء غسل اليدين، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب من ولى من إخواننا ولاية فى العدل فى رعيته ومعاملتهم بالرفق والشفقة والإذن فى الدخول عليه فى كل وقت إلا فى وقت ضرورة شرعية ، لأن من لم يكن مع رعيته كذلك عزلته المرتبة ونفرت منه ، وما ولى الله تعالى عبدا على عباده إلا أن يكون لهم كالأب الشفيق والأم الحنونة .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ورياضة نفس حتى يصير يستلذ بمخالفة رعيته لأوامره العرفية ليحلم عليهم ، لأن الخلق فى حجر الولاة كالغنم والمعز فى يد راعيهم ، وربما انتشروا منه فى أرض ذات شوك وهو حاف فهذا حكم الخلق ، ولولا أنهم بهائم لما احتاجوا إلى من يرعاهم :

وفى الأثر الوارد « أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَا كَلَّمَهُ رَبُّهُ إِلاَّ بَعْدَ صَبْرِهِ عَلَى رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ » .

والسر فى ذلك الإدمان بصبره على الغنم قبل صبره على قومه ، وبلغنا أنه بالغ فى الشفقة حتى أنه أورد الغنم مرة على الماء فكان فيهم نعجة عرجاء فلم تستطع أن تشرب من الجرف ، فنزل الماء وجعلها على ظهره حتى شربت اه فرعية كل راع من سلطان أو أمير أو شيخ فى الطريق هم ربحه وخسرانه ، فبهم يربح وبهم يخسر .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ينبغى لكل من ولاه الله ولاية على الناس أن يصبر على مخالفتهم لأوامره لاسيما فى أوائل الولاية حتى ترتاض نفسه ويتمكن فى مقام الصبر والحلم ، فإن من كانت رعيته منقادة له فهو خدّاع ، لايظهر مقامه فى الحلم فليقل من ضجر ممن ولاه الله لنفسه إن لم تتحملى أنت عوج رعيتك فمن يحمله؟ اه.

وبلغنا أن ذا الكفل عليه السلام لم يكن رسولا ، وإنما كفل رسول زمانه حين خرج فى غزاة وقال له اخلفنى فى قومى خلافة حسنة ، فكان لاينام فى الليل ولا فى النهار ، فتقلق يوما من ذلك فأراد أن ينام فى القائلة فغلق بابه ووضع رأسه ، فأول ماخفق به النوم دق إبليس عليه الباب فتصدع رأسه ، وقال قم افصل بينى وبين خصمى ، وكان قصد إبليس أنه يتقلق ويترك الخلافة لما علم الذى الكفل فى ذلك من الأجر العظيم ، فقام وفصل بينهما فأتاه فى اليوم الثانى كذلك والثالث كذلك إلى أن ألهمه الله تعالى أنه إبليس ، فاستعاذ بالله منه فانصرف عنه ، فلولا أنه كان من الصالحين لفتنه فى دينه ، فليتنبه كل من ولى ولاية لمثل ذلك .

وربما وسوس إبليس للمريدين بالأمور المخالفة للأدب مع الشيخ من كل وجه ليعرض الشيخ للنفرة منهم فيلتقمهم كما يلتقم التمساح السمك ويصير يسخر بالشيخ ، فإنهم قالوا : حكم الشيخ حكم الصياد الذى يصطاد المريدين من أفواه الشياطين ويخرجهم من تحت أسنانهم .

وقد وقع لى مرة أن جميع إخوانى المقيمين فى الزاوية تغيرت أحوالهم وثقل الذكر والخير على نفوسهم حتى لم يبق فى يد حكمى منهم شعرة واحدة ، فأردت الانتقال من الزاوية إلى مكان ليس فيه فقراء ، فلما أردت الخروج من الزاوية تمثل لى إبليس تجاهها وهو يصفق ويرقص ويقول لى غلب غلب غلب ، فرجعت فزاد عليهم الأمر وطلبوا أن يحترفوا بالقرآن فى ليالى الجمع وغيرها ويتركوا مجالس ذكر الله والصلاة على نبيهم صلى الله عليه وسلم احتسابا ، فتوجهت للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستئذان فى ذلك ، فرأيت سيدى عليا الخواص رحمه الله وهو واقف خلف باب لاأرى من وجهه إلا أنفه وهو يقول لى : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم اصبر على إخوانك طالبا وجه الله ولا تبال بمخالفتهم لأوامر الله عز وجل وتخوّلهم بالموعظة كل حين اه فعلمت أن ذلك إنما كان امتحانا لى فى الصبر حين وسوس لى إبليس وقال لى ليس لتربيتك فيهم ثمرة

والإنسان إنما يزرع فى أرض تنبت الزرع ومن المدر فى السباخ فهو قليل العقل وغاب عنى أن الله تعالى ماطلب منى إلجاءهم إلى امتثال أمره ، وإنما طلب منى ماطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من وفور شفقته يود أن لو دخل الناس كلهم الجنة ، فقال الله تعالى له :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) وقال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

فكل داع إلى الله تعالى لابد أن يقع له كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وراثة محمدية ، فيحجبه الله تعالى عن شهود انقسام أهل القبضتين إلى شقى وسعيد ، وعن كون ذلك حتما لابد منه فلذلك يضيق صدر الداعى إذا عصوا أمره فيحتاج الداعى إلى الله إلى مراقبة شديدة على الدوام عرفا لأنهم قالوا مراقبة الله على الدوام من غير تخالل فترة ليس من مقدور البشر ، فافهم .

وقد قال لى مرة شخص من حذاق المريدين المقيمين عندى : لولا كثرة مخالفتنا لك ماعظم الله أجرك ، فأنت مأجور على كل حال إن أطعناك أو عصيناك ، فلك الأجر من الجهتين ، فالله تعالى يزيده توفيقا كما أيدنى آمين ، فإنه نبهنى على أن ذوق الأمور ليس هو كالسماع بها وثبتنى حين تزلزلت وقد ثبت الله تعالى الرسل بما قصه عن بعضهم فقال :

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وقال : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وقال : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) .

وكل داع إلى الله تعالى على قدم رسول من الرسل ، وكل من جاءه بلاء فوق طاقته احتاج ضرورة والله هو المصبر له إن صبر ، فلا يوجد أحد أتعب قلبا ولا بدنا ممن يتولى أمور المسلمين لغلبة وقوع الملل منه وعدم تحمله ذم رعيته له لاسيما نظار المساجد ، فإن جميع المستحقين يؤذونهم بلسانهم ويشكونهم للحكام ويحملونهم على المحامل السيئة وأنهم يأكلون مال الوقف .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سمع جيرانه بكاء وعويلا فى داره فسألوا عن ذلك، فقالوا إن عمر قدخير زوجاته وسراريه بين الإقامة عنده من غير مسيس إلى أن يموت، وبين أن يعتقهن أو يطلقهن؟ وقال قد جاءنى أمر شغلنى عنكن فلا أقدر ألتفت إلى واحدة منكن حتى أفرغ من الحساب يوم القيامة رضى الله تعالى عنه .

وبلغنا أنه كان لاينام ليلا ولا نهارا إلا بعض خفقات وهو جالس ويقول : إن نمت فى الليل ضيعت نفسى، وإن نمت فى النهار ضيعت حقوق الرعية .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : يحاسب المؤمن الذى لم يتول ولاية عن نفسه فى يوم كان مقداره قدر وقت صلاة يصليها ، ويحاسب من تولى ولاية عن نفسه وعن جميع رعيته ويسأل عن جميع حقوقهم فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فمن قام بواجب حق ولايته كان إبليس له بالمرصاد ، فيدخل عليه الأمور التى يتقلق منها حتى يكاد يجزم بأنه يعزل نفسه من تلك الولاية ، وذلك مجرب لتحويل النعم والعزلة من تلك الولاية ، ثم إذا عزل يحرك الله تعالى عنده الندم عليها فيطلبها ويعسرها عليه حتى يقهره ويصير كالولى الذى سلب .

وقدوقع لبعض إخواننا أنه تقلق من كثرة الواردين عليه وكلفتهم ومؤنتهم فقلت له: إن الناس يتمنون أن يكونوا موضعك فى النعمة ويصبرون على ضيافة الناس وقضاء حوائجهم ، فقال : اخترت أن أدخل مصر وأسكن فى بيت من غير زاوية ولامريدين ، ففى تلك الجمعة قيض الله تعالى له من زور له مكاتيب ، وادعى أن تلك الرزقة الموقوفة على سماط الفقراء الواردين والمقيمين له ، وصار شيخ الزاوية يبرطل الحكام على رجوعها فلم يجيبوه إلى وقتنا هذا ، فذكرته بقوله فاستغفر .

فاصبر ياأخى على رعيتك كلما ملت نفسك منهم ، واعذر كل من فر من ولايته فى هذا الزمان المبارك ، ولا تسخر به تبتل بنظير ذلك .

وقد حكى لى الأمير محيي الدين بن أبى أصبغ أحد أركان الدولة بمصر : أن شخصا كان له جار من القضاة سيء الخلق ، وكان يخرج خلقه على الأخصام ، فكان جاره يبالغ فى الإنكار عليه ويقول : إيش هذا الخلق ، وكان لذلك القاضى بيت فوق مجلس حكمه فلما أكثر عليه جاره من الإنكار ، قال له : احكم يا أخى مكانى غدا ، لأنى أنا عازم على شرب دواء فقال نعم ، فجاءه خصم ادعى على خصمه أن له عنده مائة دينار ، فقال :

ماله عندى شىء، فالتمس من المدعى البينة فأتى بثمانية يشهدون بها ، فقال : هؤلاء شهود زور ، فأتى بمزكين فزكوهم ، فثبت الحق على ذلك الخصم ، وطلب التقسيط عليه ، فأبى صاحب الحق ، فما أجاب إلا بعد أن كادت روحه تزهق منه ، فقال كم تقدر كل يوم على نصف ، فقال لا أقدر على ذلك ، فجعل عليه ذلك القاضى عثمانيا كل يوم ، فقال : لا أقدر ، فقال : كل جمعة عثمانى ، فقال : لا أقدر ، فقال : كل شهر عثمانى ، فقال : لا أقدر فقال كل سنة عثمانى فقال : لا أقدر ، فقام القاضى النائب ورمى عمامة نفسه وصار ينطحه برأسه ويرفسه برجله وهو يقول : لاأقدر على عثمانى ، ثم نادى القاضى الأصيل ، فقال تعال انزل لحكمك عذرتك عذرتك عذرتك اه .

وما ذكرت لك ذلك ياأخى إلا لتقيم الأعذار للناس فى هذا الزمان إذا لم يصبروا على رعيتهم ، فإنهم فى النصف الثانى من القرن العاشر الذى اختفى فيه أكابر الأولياء لعجزهم عن شروط الظهور من الصبر على مروق الناس من الحق وتكليفهم الولى أن يرد عنهم الأقدار مع تماديهم على القبائح فاعلم ذلك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ » فذكر منهم « إمَامٌ عَادِلٌ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » .

وروى مسلم والنسائى مرفوعا : « إنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا » .

وروى مسلم مرفوعا : « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ » الحديث . والمقسط : العادل .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « عَدْلُ يَوْمٍ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » الحديث .

زاد فى رواية الأصبهانى : « قِيَامُ لَيْلِهَا وَصِيَامُ نَهَارِهَا، وَجَوْرُ سَاعَةٍ فِى حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَعَاصِى سِتِّينَ سَنَةً » .

وروى الترمذى والطبرانى مرفوعا . « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ عَادِلٌ » . زاد فى رواية « رَفِيقٌ » .

وسيأتى فى عهود المنهيات عدة أحاديث تتعلق بالجور فى الحكم والاحتجاب ، وغير ذلك فراجعه، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننصر المظلوم ونرغب جميع إخواننا فى ذلك حسب القدرة ، ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سياسة عظيمة بحيث يمهد لكل من الخصمين بساطا حتى يبادر كل منهما إلى العمل بإشارته لاسيما أرباب الجدال والنفوس الأبية ، فإن أحدهم يكون ظالما ويطلب من الناس أن يعينوه فى الظلم ، وكل من خالفه سلقه بلسان حديد وآذاه كل الأذى ، وهذا هو الغالب على الناس اليوم ، ولذلك ترك بعضهم التخليص بين الناس لا سيما بين جند السلطان وأولاد العرب وصار الخصمان يتضاربان بالعصا والسلاح ولايتجرأ أحد يدخل بينهما ، بل صار بعض الحكام يخاصمون من أصلح بين الأخصام ، كل ذلك لعدم استحقاق الرعية للرفق بهم ، فإن أردت يا أخى العمل بهذا العهد فتعلم طرق السياسة أولا ، ثم انصر المظلوم وإلا تحول الأمر الذى كان فيه المظلوم إليك واحتجت إلى من ينصرك .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول ليس للمظلوم ونصره أعظم من صبره على ظلم عدوه له ، واستشعاره نظر الله تعالى إليه ورضاه بعلم الله فيه اه وقد جربت أنا ذلك فصبرت على أذى خصمى ففعل الله به من الأذى ما لم يكن فى حسابى . وفى الحديث :

« لاَ يَنْتَصِرُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِى بِى أَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْ قَلْبِهِ يَقِينًا فَيَكِيدُهُ أَهْلُ السَّمٰوَاتِ وَأَهْلُ وَالْأَرْضِ إِلاَّ نَصَرْتُهُ عَلَيْهِمْ » . وفى الحديث أيضا : « أَنَا وَلِيُّ مَنْ سَكَتَ » .

فلما جربت ذلك فى هلاك خصمى صرت أقابله ببعض الأذى صورة باللسان من غير قلب رحمة به وخوفا عليه من سطوات الحق حين ينتصر تعالى لى ، وفى للقرآن العظيم :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقد جرب أن من غضب لله غضب الله لغضبه ، ومن غضب حمية جاهلية لم يغضب الحق لغضبه لأنه لم يغضب لله خالصا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من قوى قلب أخيه على الصبر على من أذاه فقد نصره أيضا اه ، وهو لائق بأهل الرياضات من الفقراء لا بكل الناس ، فإن من يطلب أجره من الله ويعفو ويصفح قليل فى الناس اليوم ، وغالب الناس اليوم ليس قصدهم إلا أمور الدنيا وما رخص الله تعالى للخلق فى مقابلتهم من أساء عليهم إلا تنفيسا لهم ، أما من أقدره الله على كظم غيظه فترك المقابلة له أفضل بلا خلاف ، مع أن رخصة المقابلة مشروطة بقدر ما يسكن به الغضب خوفا من إثارة فتنة أعظم من فتنة عدم المقابلة ، فإن بعض الناس ربما يمنع من أن يقابل عدوه بالسيئة فيزداد حنقا ويقع منه الأذى لخصمه أضعاف ما آذاه به . ولما تأمل أهل الله تعالى فى تسمية سيئة المجازاة سيئة تركوا المقابلة وقالوا . إذا قابلنا المسىء بقدر إساءته فماذا الذى تركناه من السوء ؟ فنحن إذا من أهل السوء ، وأيضا فإن الله تعالى إنما شرط فى سيئة المجازاة المثلية تعريضا لعدم المؤاخذة ، فإن المثلية لاتكاد توجد لتعذر مساواتها للسيئة الأصلية فى التأثير والأذى وفى موافقة الألفاظ أو الأفعال أو الحاضرين ذلك المجلس وغير ذلك ، فلذلك سارعوا إلى الصفح .

(وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاّ خَذَلَهُ اللّهُ تَعَالَى فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاّ نَصَرَهُ اللّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ » .

وروى أبو الشيخ ابن حبان مرفوعا: « أُمِرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ أَنْ يُضْرَبَ فِي قَبْرِهِ مِائَةَ جَلْدَةٍ فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ وَيَدْعُو حَتَّى صَارَتْ جَلْدَةً وَاحِدَةً فَامْتَلأَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا ،

فَلَمَّا أُفْرِنْقِعَ عَنْهُ وَأَفَاقَ قَالَ عَلاَمَ جَلَدْتُمُونِي ؟ قَالُوا إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلاَةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَمَرَرْتَ عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ » .

وفي رواية له أيضا مرفوعا : « قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ فِي عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ، وَلأَنْتَقِمَنَّ مِمَّنْ رَأَى مَظْلُومًا فَقَدَرَ أَنْ يَنْصُرَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ » .

وروى أبو داود مرفوعا: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أُرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللهُ مَلَكاً يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ،فَقَالَ رَجُلٌ يَا رسولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ قَالَ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذٰلِكَ نَصْرُهُ » .

وفي رواية لمسلم : « وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرَةٌ ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستعمل ما ورد من الكلمات عند خوفنا من ظالم ولو كان لنا حال نقابل به الظالم ميلا إلى إظهار الضعف وأدبا مع الله ثم مع السلطان الذى ولى ذلك الظالم مع أن ذلك الظالم ما سلط علينا إلا بذنوب وقعت منا ولم نتب منها توبة يقبلها الله تعالى ، فليرجع العاقل إلى نفسه ويفتش ما وقع فيه من الصغائر والكبائر ، وما ألحق بها ويتوب ويستغفر ، ثم بعد ذلك يلتجىء إلى الله تعالى ويدعوه بما ورد .

وقد قال لى سيدى على الخواص رحمه الله : إنه ليس من شأن الكامل أن يحمى نفسه من ظالم بالحال وإنما عليه الصبر ، وأما أصحابه فله حمايتهم من الظلمة بالحال فينفخهم مثلا أو يعزلهم من ولايتهم وكذلك كان يفعل سيدى إبراهيم المتبولى ، كان يحتمل الأذى من الحكام فى حق نفسه دون إخوانه ، ويقول : إنما أفعل ذلك لإخوانى لعدم صبرهم وفاء بحقهم قال : وقد كان لى صاحب من أرباب الأحوال كان يقدر على تنفيذ حاله فى السلطان فمن دونه وكان لا ينفذه فى أحد وكان مكاريا ، فركب حماره يوما واحد من

جند السلطان قايتباى من قنطرة الموسكى إلى مصر العتيق إلى الروضة ثم إلى الجيزة ثم إلى نواحى الأهرام وكان قد طعن فى السن ، فصار الجندى يسوق الحمار ويقول له الشيخ ارفق بى يا ولدى فإنى عاجز فلا يسمع له ، فلما وصل به إلى مكان ربيع الخيل طلب الشيخ منه كراءه فسحب الدبوس وضربه حتى كسر يديه وأكتافه ، ورجع الشيخ فنام نحو شهر ضعيفا .

وأخبرنى الشيخ نور الدين الشونى رحمه الله عن هذا المكارى بعينه أن شخصا قال له : ركبنى إلى مسجد الخلفا قريبا من قنطرة الموسكى بخط حارة عبد الباسط وأعطاه ثلاثة نقرة وكان مع ذلك الشخص قفة فيها سمك مقلى ، فما مشى وراءه إلا يسيرا ثم قال له : انزل هذا مسجد الخلفا فوجد الشخص نفسه على باب السلام بالمدينة المشرفة ، فزار النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وزار البقيع والشيخ واقف ينتظره على باب السلام بالسمك ، فلما خرج قال له إن شئت تقيم حتى يجىء الحاج وإن شئت ترجع معى ، فقال : أرجع معك ، فرجع معه وشرط عليه أن لا يتكلم بذلك لأحد حتى يموت الشيخ ، وذكر الشخص أن الشيخ حكى له واقعة الجندى الذى ركب حماره إلى ربيع الجيزة فقال له يا سيدى لو كنت مكانك لقتلت الجندى بحالى ، فقال لا ياولدى ما أمرنا الله تعالى فى هذه الدار إلا بالصبر على ظلم الظالم وأن نرى ذلك من بعض ما نستحق اه .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : من كان مشهده مقام «وأعوذ بك منك» وظلمه ظالم فطريقه أن يلوذ بالله من تقدير الله فلا يستغنى عن الحاجة إلى الله أحد ، وتأمل سيد المرسلين محمدا صلى الله عليه وسلم كيف أمره الله تعالى بالإستعاذة بالله :

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) وَ(مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ـ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) .

هذا مع علو مقامه صلى الله عليه وسلم على مقام جميع الخلق .

فاتبع ياأخى طريق الاقتداء ودر فى الأبواب التى دخل منها الأكابر ، ولا تطلب الوصول إلى غرضك من غير طريقهم فإنها كلها مسدودة ، وقد علق الله الأسباب على المسببات وأحوج الخلق إلى الخلق وأحوج الجميع إليه شاءوا أم أبوا :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الطبرانى ورجاله رجال الصحيح مرفوعا :

« إِذَا تَخَوَّفَ أَحَدُكُمُ السُّلْطَانَ فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ » يعنى الذى يريده « وَشَرِّ الإِنْسِ وَالْجِنِّ وَأَتْبَاعِهِمْ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، عَزَّ جَارُكَ ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ » .

وفى رواية له أيضا ورواتها محتج بهم فى الصحيح عن ابن عباس قال :

« إِذَا أَتَيْتَ سُلْطَانًا مَهِيبًا تَخَافُ أَنْ يَسْطُوَ بِكَ فَقُلِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَعَزُّ مِنْ خَلْقِهِ جَمِيعًا ، اللَّهُ أَعَزُّ مِمَّا أَخَافُ وَأَحْذَرُ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمُمْسِكُ لِلسَّمَوَاتِ أَنْ تَقَعْنَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، مِنْ شَرِّ عَبْدِكَ فُلَانٍ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ . اللَّهُمَّ كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّهِمْ ، جَلَّ ثَنَاؤُكَ ، وَعَزَّ جَارُكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ » .

ورواه الطبرانى أيضا باسقاط قوله ثلاث مرات ورواية الثلاث أصح .

وروى ابن أبى شيبة مرفوعا عن أبى مجلز وهو تابعى ثقة :

« مَنْ خَافَ ظَالِمًا فَقَالَ : رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلم نَبِيًّا وَرَسُولاً ، وَبِالْقُرْآنِ حَكَمًا وَإِمَامًا ، نَجَّاهُ اللهُ مِنْهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نروّض نفوسنا إذا طلبنا الدخول على الظلمة ومخالطتهم بالورع عن شبهات الدنيا والزهد فى حلالها ، فإذا أحكمنا المقام فى ذلك دخلنا بعد ذلك على كل ظالم وخرجنا من حضرته سالمين من الإثم إن شاء الله تعالى . وأما من دخل إليهم من غير أن يروض نفسه فى الورع والزهد فمن لازمه غالبا الآثام والسكوت على منكراتهم ، لأن من يستمطر من أحد حسنة يخاف من تغير خاطر ذلك الأحد عليه ولو كان فى ذلك سخط الله كما جرب ، بخلاف من يدخل إليهم زاهدا فيما بأيديهم بحيث لو قبلوا نعله ليأخذ مالهم لايلين إليهم خوفا من الله ، فهذا

يخرج سالما من الإثم ومن تسليطهم عليه بضرب أو حبس أوتحويل نعمة : ولما وشوا بذى النون المصرى وجئ به من مصر إلى بغداد ، مقيدا مغلولا فى محنة وقعت له فلما مروا به على عجوز تسرح كتانا فى مخزنها فقلت : ماهذه السكبكة ، فقالوا لها إنهم أتوا بذى النون المصرى إلى الخليفة ليقتله لزعم أهل مصر أنه أتلف عقائد الناس ، فقالت العجوز ائتونى به فأتوها به ، فقالت له : ياذا النون إن أردت النصرة على من ظلمك بين يدى الخليفة فاستحضر عظمة الله تعالى ، ومثل نفسك أنت والأخصام والخليفة بين يدى الله عز وجل وهو الحاكم ، وإياك أن تخاف من الخليفة نيسلطه الله عليك ، وإياك أن تجيب عن نفسك فيكلك الله إليها ، بل اسكت وارض بعلم الله فيك ، وانتظر ماينطق الله تعالى به الخليفة فى شأنك ، فقال لها نعم ، فلما مضوا به إلى بين يدى الخليفة ادعى عليه أهل مصر بأنه زنديق أتلف عقائد الناس ، فقال له الخليفة ماتقول؟فقال : ماذا أقول؟إن قلت لاكذبتهم وأنا أستحى أن أكذب مسلما ، وقد سافروا من مصر إلى هنا لتنصرهم على وإن قلت نعم كذبت نفسى وظلمتها وطالبنى الله بها فسكت الخليفة ثم قال : إن كان هذا زنديقا فما على وجه الأرض مسلم ، ثم صنع له محفة وفرش له فيها نحو ويبة من الذهب ، وقال أنفقه فى سفرتك ولا تنسنا من دعائك ، فمر ذو النون على العجوز وقال لها ، جزاك الله عنى خيرا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من لم يعطه الله التصريف فى الظلمة بالعزل والتولية وتحويل النعم وتأثيره فى أبدانهم فليس له الإكثار من الدخول عليهم فى شفاعة ولا غيرها لاسيما فى هذا الزمان الذى قد صار الفقير فيه عند الظلمة من أحقر الناس لايقبلون له شفاعة إما لعدم مشى الفقير على قواعد الصالحين ، وإما لعدم استحقاق الناس للشفاعة فيهم اه .

وقد صحبت أنا جماعة من الولاة على قدم الزهد فيما بأيديهم فلم يردوا إلى شفاعة إلى أن عزلوا أو ماتوا ، فأحكم ياأخى مقام الزهد فى أموالهم وهداياهم ثم ادخل عليهم ليلا ونهارا فى الشفاعات لايضرك ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد شفع سيدى الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى يوم مائة شفاعة عند السلطان وهو يرد ولا يقبل ، فلما رجع مرة أخرى بعد المائة عرض عليه السلطان دراهم فردها ، وأشار إلى مدورات حجارة كانت بين يدى السلطان فصارت ذهبا ، فاستغفر السلطان من مخالفة الشيخ ورسم بقضاء جميع الحوائج التى يسأل فيها كلها .

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي رضى الله عنه فى الفتوحات المكية أنه دخل على الملك الظاهر بيبرس يشفع فى وزير من وزرائه كان تغير عليه وأمر بصلبه ، فقال له السلطان لاأقبل لك فيه شفاعة وذكر عنه أمورا يستحق بها القتل ، فقال له الشيخ يامولانا السلطان أنا من جملة رعيتك وأستحي من الله أن تضيق دائرة حلمي وصفحي على واحد من الناس فكيف بدائرة حلم مولانا السلطان ؟ قال الشيخ : فقبل شفاعتي فيه وقضيت عنده فى ذلك المجلس مائة حاجة وثمانية عشر حاجة ، فمثل هؤلاء ياأخي هم الذين لايخاف عليهم من الدخول على الملوك والأمراء والظلمة ، وأما محب الدنيا الذى يستمطر من الظلمة هدية أو حسنة فيخاف عليه من هلاك دينه :

(وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وسيأتى فى عهود المناهى حديث الإمام أحمد مرفوعا :

« مَنِ تَبِعَ الصَّيْدَ غَفلَ ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلاَّ ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا » اهـ .

وهو محمول على من دخل إليهم وهو راغب فى دنياهم .

وفى رواية الإمام أحمد وغيره مرفوعا :

« يَكُونُ بَعْدِى أُمَرَاءُ يَغْشَاهُمْ غَوَاشٍ وَحَوَاشٍ مِنَ النَّاسِ ، يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَهُوَ مِنِّى وَأَنَا مِنْهُ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا ورواته ثقات :

« سَيَتَفَقَّهُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِى فى الدِّينِ ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَقُولُونَ نَأْتِى الأُمَرَاءَ فَنُصِيبُ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَنَعْتَزِ لُهُمْ بِدِينِنَا وَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ ، كَمَا لا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلاَّ الشَّوْكُ كَذَلِكَ لاَ يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ » .

قال ابن الصلاح كأنه يعنى الخطايا والأحاديث فى ذلك كثيرة وسيأتى غالبها فى عهود المناهى والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نشفق على جميع خلق الله تعالى من مؤمن وكافر بطريقه الشرعي كل بما يناسبه من الرحمة ، لكن لانبالغ فى الرحمة كل المبالغة بحيث نرحم الشاة فلا نذبحها مثلا لأن للرحمة حدا لانتعداه ، وقد سمى الحق تعالى نفسه أرحم الراحمين وأمرنا بذبح الحيوانات فنذبحها مع رقة القلب ، ونضرب من شرد عن طريق الإستقامة من رعية وعبد وولد وبهيمة رحمة به على وجه التأديب لا التشفى للنفس ونكون أرحم به من نفسه وراثة محمدية ، وقد تحققنا بذلك ولله الحمد ، فأنا أتأثر على إخوانى إذا فاتهم شيء من الخير أكثر مما يتأثر أحدهم إذا فاته ذلك ، وأحب لهم أن لايكون معهم من الدنيا سوى مايسد جوعتهم ويوارى عورتهم ، وأكره لهم الزيادة من الدنيا التى تشغلهم عن ربهم وهم لايكرهون ذلك وأحب لهم الأمراض التى تكفر عنهم خطاياهم وأفرح لهم بها وهم يغتمون من ذلك وينقبضون له وأحب لهم أن يصبروا على ظلم الناس لهم ، وأذاهم لهم ، ويرضون بالصلك والضرب بالنعال ، وأكره لهم الانتصار لأنفسهم وهم يحبون ذلك وهكذا ، فأنا أشفق عليهم وعلى دينهم من أنفسهم اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسيأتى فى عهود المنهيات التى رأيت فى واقعة لوحا نزل من السماء فى سلسلة من فضة فى أرض من البلور الأبيض فرأيت فيه ثلاث عيون تتفجر ماء أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج ، مكتوب على العين العليا : مستمد هذه العين من الله ، ومكتوب على الوسطى مستمد هذه العين من العرش ، ومكتوب على السفلى : مستمد هذه العين من الكرسى فألهمنى الله أن أشرب من عين العرش فشربت منه حتى رويت ، فقصصت ذلك على الشيخ شهاب الدين المعبر ، فقال تتخلق بالرحمة على جميع العالم على حسب الحد المشروع ، فالحمد لله رب العالمين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شروط من تخلق بالرحمة على العالم أن يعامل الجماد معاملة الحى ، فيمسك كوز الماء مثلا ويضعه برفق وشفقة ، خوفا أن يتألم من الوضع قال : وقد وضعت الكوز مرة بعنف فقال آه ، فمن ذلك اليوم وأنا أضعه برفق .

وكان رضى الله عنه يملأ قعاوى الكلاب ويقول : إنهم مساكين لايقدرون يملئون من البئر إذا عطشوا ويمنعهم الناس من دخول دورهم ، ومن الشرب من حيضان دوابهم خوف التنجيس .

وكان يرسل بعض تلامذته إلى المذبح فيأتي بشعث اللحم وبالطحال ونحوها للقطط كل يوم ويقول : إن غالب الناس اليوم لا يطعم قطة الدار شيئا ، وإنما تخطف كلما قدرت عليه إذا جاعت على رغم أنفه .

وكان يتفقد النمل الذي في شقوق الدار ويضع له الدقيق ولباب الخبز على باب جحره ويقول : نمنعهم من الانتشار لأجل القوت ، فإن النملة إذا جاعت خرجت تطلب رزقها ضرورة ، وعرضت نفسها لوقوع حافر أو قدم عليها فتموت أو تنكسر رجلها ، فإذا وجدت ما تأكل على باب جحرها استغنت عن الخروج اهـ .

قلت : ومما وقع لي أن زوجتي فاطمة القصبية أم ولدي عبد الرحمن نزل عليها حادر وأشرفت على الموت وغابت عن إحساسها وصاحت أمها وأهل الدار عليها حين رأوا أمارات الموت فحصل عندي كرب شديد لأجلها من جهة موافقتها للمزاج ودينها وخيرها فإذا بقائل يقـــول لي : ادخل مجاز الخلاء تجد ذبابة في شق سحبها ضبع الذباب وهي صائحة يريد أكلها فخلصها ونحن نخلص لك زوجتك ، فدخلت وصغيت إلى الشق فسمعت صياح الذبابة فوجدت الشق ضيقا لا يسع الأصبع ، فأدخلت عودا برفق واستخرجتها وخلصتها من ضبع الذباب ، فأفاقت أم عبد الرحمن في الحال وزغرتت أمها هذا أمر وقع لي .

وقد تقدم في هذه العهود أن سيدي أحمد بن الرفاعي وجد بأم عبيدة كلبا أجرب أبرص أجذم عافته نفوس الناس وأخرجوه من البلد ، فمكث الشيخ يخدمه في صحراء أم عبيدة نحو أربعين يوما ، وعمل عليه مظلة من الحر وصار يدهنه حتى برئ وغسله بالماء الحار ، وقال : خفت أن يقول الله لي يوم القيامة : أما كان فيك رحمة تشمل كلبا من خلقي اهـ .

وسمعت أخي أفضل الدين مرة يقول : من الأدب إذا ركب العبد دابة أن يرحمها بالنزول عنها ولا يركب إلا عند الضرورة . ورأيته رضي الله عنه قلب حافر الحمارة لما نزل من عليها وقبله ، وقال : اجعليني في حل وصار يعتذر إليها كما يعتذر لمن اعتدى عليه من الناس رضي الله عنه . وكان يقول : لا ينبغي لفقير أن يجعل للنمل الطائف على رزقه مانعا يحول بينه وبينه من قطران ونحوه إلا بعد أن يخرج له نصيبا معلوما من ذلك ويضعه له على باب جحره اهـ وهذا العهد قد صار غالب الخلق لا يلتفت إلى العمل به حتى حملة

للقرآن ، بل صار الناس يضربون المثل بحرمانهم القطة من طعامهم ، ويقولون : صار فلان وفلان يأكلون من الشيء الفلانى ، وأنا واقف أنظر إليهم لا يرمون لى شيئا مثل قطة الفقيه .

فارحم يا أخى الخلق على حسب درجاتهم وتفاوتهم على الوجه الشرعى، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وأحمد والترمذى مرفوعا :

« مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ لاَ يَرْحَمْهُ اللهُ » .

زاد فى رواية للامام أحمد : « مَنْ لاَ يَغْفِرْ لاَ يُغْفَرْ لَهُ » .

وروى الطبرانى ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحَمُوا ، قَالُوا : يَا رسولَ اللهِ وَكُلُّنَا رَحِيمٌ ؟ قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ وَلَـكِنَّهَا رَحْمَةُ الْعَامَّةِ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « مَنْ لَمْ يَرْحَمِ النَّاسَ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ » .

وفى رواية له بإسناد جيد قوى مرفوعا:

« مَنْ لاَ يَرْحَمْ مَنْ فِى الْأَرْضِ لاَ يَرْحَمْهُ مَنْ فِى السَّمَاءِ » .

وروى أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِى الْأَرْضِ يَرْحَمْـكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ » .

وروى الإمام أحمد باسناد جيد : « ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَـكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْـكَبِيرَ ، وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ ، وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْـكَرِ » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا : « إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ فِى قُرَيْشٍ مَا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا وَإِذَا حَـكَمُوا عَدَلُوا » .

وروى الطبرانى مرفوعا . « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِى غَيْرِ مَنْقَصَةٍ وَذَلَّ فِى نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِى غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ » الحديث .

وروى أبو داود واللفظ له والترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلاَّ مِنْ قَلْبِ شَقِىٍّ » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل الحسن والحسين عليهما السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمى ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا قط ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ » .

وروى الشيخان : « أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ وَمَا نُقَبِّلُهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رسولَ اللهِ إِنِّى لأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا فَقَالَ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ » .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين :

« أَنَّ رَجُلاً أَضْجَعَ شَاةً وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ هَلاَّ أَحْدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا » .

وروى عبد الرزاق : « أَنَّ جَزَّارًا فَتَحَ بَابًا عَلَى شَاةٍ لِيَذْبَحَهَا فَانْفَلَتَتْ مِنْه حَتَّى جَاءَتِ النَّبِىَّ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَتَبِعَهَا وَأَخَذَ يَسْحَبُهَا بِرِجْلِهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم اصْبِرِى لِأَمْرِ اللهِ ، وَأَنْتَ يَا جَزَّارُ فَسُقْهَا سَوْقًا رَفِيقًا » .

وروى عبد الرازق أن عمر رضى الله عنه رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال له : ويلك ، قدها إلى الموت قودا جميلا .

وروى أبو داود عن أبى مسعود قال :

« كُنَّا مَعَ النَّبِىِّ صَلى اللهُ عليهِ وسلم فِى سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً وَمَعَهَا

فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تُعَرِّشُ فَجَاءَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَالَ : مَنْ فَجَعَ هٰذِهِ فِي وَلَدَيْهَا رُدُّوا وَلَدَيْهَا إِلَيْهَا » .

ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: من حرق هذه قلنا نحن قال :

« إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ : مَنْ رَبُّ هٰذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هٰذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ لِي يَارسولَ اللهِ ، فَقَالَ أَفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هٰذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ ».

وروى الإمام أحمد عن يعلى بن مرة بإسناد جيد قال :

« كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم جَالِسًا ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ جَاءَ جَمَلٌ يُخَبِّبُ حَتَّى ضَرَبَ بِجِرَانِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ وَيْحَكَ انْظُرْ لِمَنْ هٰذَا الْجَمَلُ؟ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا ، قَالَ فَخَرَجْتُ أَلْتَمِسُ صَاحِبَهُ فَوَجَدْتُهُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَدَعَوْتُهُ إِلَيْهِ فَقَالَ : مَا شَأْنُ جَمَلِكَ هٰذَا ؟ فَقَالَ : وَمَا شَأْنُهُ ؟ لاَ أَدْرِي وَاللهِ مَا شَأْنُهُ ، حَمَلْنَا عَلَيْهِ وَنَضَحْنَا عَلَيْهِ حَتَّى عَجَزَ عَنِ السِّقَايَةِ فَأْتَمَرْنَا الْبَارِحَةَ أَنْ نَنْحَرَهُ وَنُقَسِّمَ لَحْمَهُ قَالَ : لاَ تَفْعَلْ هَبْهُ لِي أَوْ بِعْنِيهِ، فَقَالَ بَلْ هُوَ لَكَ يَارسولَ اللهِ ، قَالَ: فَوَسَمَهُ بِمِيسَمِ الصَّدَقَةِ ثُمَّ بَعَثَ بِهِ » .

وفي رواية للامام أحمد : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم قَالَ لِصَاحِبِ الْبَعِيرِ؟ مَا لِبَعِيرِكَ يَشْكُوكَ؟ زَعَمَ أَنَّكَ سَنَأْتَهُ حَتَّى كَبُرَ تُرِيدُ أَنْ تَنْحَرَهُ، قَالَ صَدَقْتَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَفْعَلُ » .

وفي رواية أخرى : « قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِصَاحِبِ الْبَعِيرِ بِعْنِيهِ ، فَقَالَ . لاَ بَلْ أَهَبُهُ لَكَ يَارسولَ اللهِ ، وَإِنَّهُ لِأَهْلِ بَيْتٍ مَا لَهُمْ مَعِيشَةٌ غَيْرُهُ ، فَقَالَ : أَمَّا

إِذَا ذَكَرْتَ هٰذَا مِنْ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ الْعَمَلِ وَقِلَّةَ الْعَلَفِ ، فَأَحْسِنُوا إِلَيْهِ » الحديث .

وروى ابن ماجه عن تميم الدارى قال :

« كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم إِذْ أَقْبَلَ بَعِيرٌ يَعْدُو حَتَّى وَقَفَ عَلَى هَامَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : أَيُّهَا الْبَعِيرُ اُسْكُتْ ، فَإِنْ تَكُ صَادِقًا فَلَكَ صِدْقُكَ ، وَإِنْ تَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْكَ كَذِبُكَ مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَمَّنَ عَائِذَنَا وَلَيْسَ بِخَائِبٍ لَائِذُنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسولَ اللهِ مَا يَقُولُ هٰذَا الْبَعِيرُ ؟ قَالَ : هٰذَا بَعِيرٌ هَمَّ أَهْلُهُ بِنَحْرِهِ وَأَكْلِ لَحْمِهِ فَهَرَبَ مِنْهُمْ وَاسْتَغَاثَ بِنَبِيِّكُمْ صَلى اللهُ عليهِ وسلم، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ صَاحِبُهُ أَوْ قَالَ أَصْحَابُهُ يَتَعَادَوْنَ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمُ الْبَعِيرُ عَادَ إِلَى هَامَةِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَلَاذَ بِهَا ، فَقَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ هٰذَا بَعِيرُنَا هَرَبَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيامٍ فَلَمْ نَلْقَهُ إِلاَّ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : أَمَا إِنَّهُ يَشْكُو إِلَيَّ فَبِئْسَتِ الشِّكَايَةُ ، قَالُوا: يَا رسولَ اللهِ مَا يَقُولُ؟ قَالَ : يَقُولُ إِنَّهُ رُبِّيَ فِي أَمْنِكُمْ أَحْوَالاً وَكُنْتُمْ تَرْكَبُونَ عَلَيْهِ فِي الصَّيْفِ إِلَى مَوْضِعِ الْكَلَإِ وَتَرْحَلُونَ عَلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى مَوْضِعِ الدِّفَاءِ ، فَلَمَّا كَبِرَ اسْتَفْحَلْتُمْ فَرَزَقَكُمُ اللهُ مِنْهُ إِبِلاً سَائِمَةً ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ هٰذِهِ السَّنَةُ الْخَصِيبَةُ هَمَمْتُمْ بِذَبْحِهِ وَأَكْلِ لَحْمِهِ، فَقَالُوا : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم: مَا هٰذَا جَزَاءُ الْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ مِنْ مَوَالِيهِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ لاَ نَبِيعُهُ وَلاَ نَنْحَرُهُ، فَقَالَ : كَذَبْتُمْ قَدِ اسْتَغَاثَ بِكُمْ فَلَمْ تُغِيثُوهُ ، أَنَا أَوْلَى بِرَحْمَتِهِ مِنْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ وَأَسْكَنَهَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاشْتَرَاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُمْ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْبَعِيرُ انْطَلِقْ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ تَعَالَى ، فَرَغَا عَلَى هَامَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آمِينَ ، ثُمَّ رَغَا فَقَالَ آمِينَ ، ثُمَّ رَغَا فَقَالَ آمِينَ ، ثُمَّ رَغَا الرَّابِعَةَ فَبَكَى النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم، فَقُلْنَا : يَا رسولَ اللهِ

مَا يَقُولُ هٰذَا الْبَعِيرُ ؟ فَقَالَ : يَقُولُ جَزَاكَ اللهُ أَيُّهَا النَّبِيُّ خَيْرًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ ، فَقُلْتُ آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ : سَكَّنَ اللهُ رُعْبَ أُمَّتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا سَكَّنْتَ رُعْبِي ، فَقُلْتُ آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ: حَقَنَ اللهُ دِمَاءَ أُمَّتِكَ مِنْ أَعْدَائِهَا كَمَا حَقَنْتَ دَمِي ، فَقُلْتُ آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ: لَا جَعَلَ اللهُ بَأْسَ أُمَّتِكَ بَيْنَهَا فَبَكَيْتُ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الْخِصَالَ سَأَلْتُ رَبِّي فَأَعْطَانِيهَا وَمَنَعَنِي هٰذِهِ ، وَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ اللهِ أَنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بِالسَّيْفِ جَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ » .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » .

وفى رواية له أيضا : « عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذَا هِيَ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » .

والخشاش بالمعجمتين والشينين المعجمتين : هو حشرات الأرض والعصافير ونحوهما .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم :

« رَأَى الْهِرَّةَ تَنْهَشُ قُبُلَ الْمَرْأَةِ وَدُبُرَهَا إِذَا أَقْبَلَتْ وَإِذَا أَدْبَرَتْ » أى فى النار .

وروى الإمام أحمد والطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع :

« أَرِقَّاؤُكُمْ أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَطْعَمُونَ ، وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، فَإِنْ جَاءُوا بِذَنْبٍ لَا تُرِيدُونَ أَنْ تَغْفِرُوهُ فَبِيعُوا عِبَادَ اللهِ وَلَا تُعَذِّبُوهُمْ » .

وفى رواية للترمذى فى العبيد مرفوعا :

« إِنْ أَحْسَنُوا فَاقْبَلُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَاعْفُوا ، وَإِنْ غَلَبُوكُمْ فَبِيعُوا عِبَادَ اللهِ وَلَا تُعَذِّبُوهُمْ » .

وفى رواية للترمذى والأصبهانى مرفوعا :

« الْعَبْدُ أَخُوكَ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ وَإِنْ رَأَيْتَهُ مَظْلُومًا فَأَعِنْهُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَكِسْوَتُهُ وَلاَ يُكَلَّفُ إلاَّ مَا يُطِيقُ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ وَلاَ تُعَذِّبُوا عِبَادَ اللهِ خَلْقًا أَمْثَالَكُمْ » .

وروى أبو داود وغيره عن على كرم الله وجهه ورضى عنه قال : كان آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلم :

« الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

وفى رواية لابن ماجه أنه قال: « الصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فَمَا يَزَالُ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَفِيضَ بِهَا لِسَانُهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« اللهَ اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، أَشْبِعُوا بُطُونَهُمْ ، وَاكْسُوا ظُهُورَهُمْ ، وَأَلِينُوا لَهُمُ الْقَوْلَ » .

وروى أبو داود والترمذى : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رسولَ اللهِ كَمْ أَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ ؟ قَالَ : كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، وسيأتى بعضها فى عهود المنهيات، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب كل من صحبناه من الولاة أن يتخذ له وزيرا صالحا وبطانة حسنة كما درج عليه الخلفاء الراشدون ، وذلك لأن للولاية والحكم فى الناس لذة وسكرا يزلزل العقل ، والوزير ليس عنده تلك اللذة ، فربما يجزم السلطان أو الأمير بفعل شىء ويراه صوابا وهو خطأ ، فيأتى إليه الوزير فيقول يامولانا السلطان إن فعلت كذا وقع كذا ، فيرجع السلطان فى الحال عن ذلك الأمر ، فكأنه كان نائما واستيقظ ، ولعل وجود الوزير الصالح قد فقد وتودع من وجوده مابقيت الدنيا وذلك لأمور يطول شرحها : منها أن الولايات قد وليها غير أهلها بحكم الوعد السابق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو لم يقع ذلك لزم الخلف لما وعد به صلى الله عليه وسلم وهو الصادق . ومنها عدم استحقاق الرعية فى هذا الزمان للرفق بهم والشفقة عليهم لما هم منطوون عليه من المعاصى والقبائح التى تكل الألسن عن وصفها ، كما يعرف ذلك الحكام والمخالطون للناس . ومنها تقصيرهم فى عبادة ربهم وتركهم قيام الليل وصيام

النهار ، وأكلهم الحرام والشبهات والتعاون عند الظلمة فى ظلم بعضهم بعضا .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لم يزل الحق تعالى ينظر إلى هذه الأمة المحمدية بعين الرعاية والحفظ من الآفات ظاهرا وباطنا ، وإنما سلط عليهم الحكام بالجور والظلم ليجبر تعالى خالى مافرطوا فيه من العبادات ، وربما كانت البلايا والمحن فى حقهم أنفع لهم من الصدقات والخيرات وأكثر أجرا وأثقل فى موازينهم اه.

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يولى الناس الملاح عند الظلمة وأهل المكوس ويقول : إذا وقف أحدكم فى هذه الوظيفة وعمل فيها خيرا وستر على من يراه من التجار والسوقة ولم يأخذ منها شيئا ، كان أفضل له من أن يجلس يسبح الله تعالى فى سبحة ، وكان يقول لهم : إياكم أن تقفوا لمصلحة نفوسكم وحرروا نيتكم على مصالح المسلمين ، وكل من قدرتم عليه من الهاربين من المكس فاكتموا أمره عن المكاسين .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول لصاحب الجهة : لا تظن أن تفريطك على الناس يكثر مالك ، وإنما يكثره تفريج الناس من المكس ، فتخرج من وظيفتك سالما من الديون السلطانية لكونك قللت من مظالمك لله تعالى . وكان يقول : أعطوا الخفراء عادتهم إذا جئتم إلى مصر من الحجاز أو الشام على وجه أن ذلك خفارة لامكس ، فإنكم ما جئتم إلا فى ظل سيف السلطان ، ولولا وجود السلطان ما استطاع أحد منكم أن يخرج إلى البرارى بماله وحريمه ، وكان يقول : أخفوا عن المكاسين كل ما قدرتم على إخفائه ، فإن خفتم ضررا من إخفائكم فأعطوهم عادتهم ؛ فربما غمز أحد عليكم فصرتم تسألونهم بأضعاف ما كانوا يأخذونه منكم فلايرضون ، وربما حبسوكم وضربوكم ، وكان يقول : لو أن التجار قاموا بما عليهم لله تعالى فى أموالهم من الصدقات الواجبة والمستحبة لم يسلط عليهم مكاسا ولا ظالما ، لكن لما بخلوا ومنعوا حق الله تعالى سلط الله تعالى عليهم الظلمة ، قال : ونرجو من فضل الله تعالى فى الآخرة أن يخفف بذلك حسابهم كما يفعل بجميع المظالم ، قال تعالى :

(وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) .

فعلم أن وجود الولاة الصالحين والوزراء الناصحين تابع لأعمال الخلائق من الرعية استقامة وعوجا ، فإن قال الرعية نحن لانقدر أن نستقيم فى أعمالنا قلنا لهم فاعذروا ولاتكم فانهم عنكم تفرعوا ، فكما لا قدرة لكم على الكف عن الأعمال السيئة فكذلك لا قدرة

للولاة على رد الجزاء السيء عنكم فاعذروهم بماتعذرون به نفوسكم ، فأسسوا هذا الأساس أولا ثم انسبوا لهم الظلم ولنفسكم العوج ، واستغفروا الله كلكم ، لأن التوبة هى الرجوع إلى تقدير الله ، وإنه لاراد لما قضى ، وفى هذا أدب عظيم مع الحق تعالى باطنا ، لكن لما كان فيه رائحة لإقامة الحجة على ربه وجب عليه إخفاؤه وإظهار أنه عصى باختياره واستحق العقوبة ، ومن لم ينظر بهاتين العينين فهو أعور من فقير وفقيه :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ ، جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ » .

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلاً فَأَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحاً ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ » .

وروى البخارى والنسائى مرفوعا : « مَابَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ » .

وفى رواية : « وَهُوَ إِلَى مَنْ يَغْلِبُ مِنْهُمَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر سواء أنفسنا وغيرنا فإن كلاهما واجب .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ صادق يعرفه طرق السياسة ليدخل منها إلى حضرة انقياد الناس له ، فإن كثيرا من الناس يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر من غير سياسة ، فيزداد المنكر بقيام نفس ذلك العاصى أو الظالم مثلا .

وقد رأيت فقيها مر فى الحمام على شخص مكشوف الفخذين فوكزه برجله باحتقار وازدراء ، وقال حرام عليك هذا ، فقال الشخص جكارة فيك يافقيه أن أرمى المئزر أصلا فرماه جكارة فى الفقيه ، ولو أنه كان يعرف طرق السياسة لجلس إليه برفق ،

وقال له فى أذنه يا سيدى أنت من ذوى المروآت ونخاف أن أحدا ينظرك فيعترض عليك ، فكان الآخر يقول له جزاك الله تعالى عنى خيرا ،وكثيرا ما يأمر إنسان بمعروف أو ينهى عن منكر بغير سياسة فيحصل له ضرر ويصير يقول أنا ظالم الذى أمرت فلانا أو نهيته ، ولكن تبت إلى الله إنى ما عدت آمر بالمعروف أو أنهى عن المنكر فيجعل الواجب محظورا ويستغفر منه ، وكل ذلك من قلة السياسة :

واعلم يا أخى أن الإجماع منعقد على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال الله تعالى :

(وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ) .

وما قام الدين إلا بذلك ، وقد ذم الله تعالى بنى إسرائيل بقوله تعالى :

(كانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ) .

وقد جعل الشارع صلى الله عليه وسلم لتغيير المنكر ثلاثة طرق : اليد واللسان والقلب :

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : تغيير المنكر باليد للولاة الذين إن ضربوا العاصى لا يقدر بضربهم ، وتغييره باللسان للعلماء العاملين ، فيأمرون الناس وينهونهم فيمتثلون قولهم ، وتغييره بالقلب لكمل العارفين فيتوجه العارف إلى الله فى كسر جرة الخمر ، فتنفلق نصفين بنفسها وإلى الظالم فتيبس يده ، التى يضرب بها ذلك المظلوم ، فقلت له : إن الشارع جعل ذلك أضعاف الإيمان فقال : جعله صحيح ، لأن الإنسان ، كلما ارتفع عن حجاب الإيمان إلى حضرة الإحسان رق حجاب إيمانه فكنى عن تلك الرقة بالضعف بالنظر لمرتبة الشهود الواقع لأهل حضرة الإحسان ، فليس المراد بضعف الإيمان الضعف المذموم ، لأن صاحب هذا الحال قد ارتقى عن الإيمان خلف الحجاب إلى حضرة الشهود ، كالذى كان مؤمنا بشىء من وراء حائط من زجاج ثخينة لا يرى أحد ماوراءها ، فصارت ترق وتدق ، حتى صارت كالبلور تحكى ماوراءها ، فهذا معنى قوله « أضعف الإيمان » وأما على مايفهمه غالب الناس من أنه ينكر بقلبه فليس ذلك بتغيير للمنكر ، بل هو باق ، والشارع قد صرح بأنه يغيره بقلبه وليس التغيير إلى ما ذكرناه من كسر جرة الخمر مثلا فافهم هذا ، مع أنا نقول الإنكار بالقلب واجب على كل مسلم اه .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى يقول لأصحابه : إذا رأيتم منكرا فغيروه بقلوبكم ،

لاسيما منكرات الولاة والظلمة وجند السلطان ، ولاتطلبوا تغييره باليد واللسان فيضركم، ونزل الشيخ مرة هو والفقراء تحت شجرة جميز بنواحى المطرية خارج مصر المحروسة فجاء جماعة من مماليك السلطان فنزلوا وأخرجوا جرار الخمر والأقداح ، فقال بعض الفقراء يا سيدى نريد نكسر جرارهم فقال يضربوكم ، ٧ علو حمار ، ولكن إن كان لأحد منكم قلب فليتوجه إلى الله تعالى فى كسر جرارهم ، واشتغلهم ببعضهم فتوجه منهم فقير فانكسرت جرار الخمر، وظن كل واحد أن صاحبه جسر جرته ، فتضاربوا بالسلاح حتى تجرحوا وركبوا يشتكون بعضهم بعضا لأستاذهم ، فقال الشيخ هكذا فغيروا المنكر فإن مد اليد فى هذه الدار ليس هو للفقير فإن مد يده قطعت اهـ .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إنى لأتعجب ممن يشتغل بإزالة منكرات الغير ولايسعى فى إزالة منكرات نفسه ، ويهجر الغير لأفعال نفسه الرديئة وإن كان واجبا ولكن الله تعالى ذم من ينسى نفسه ويشتغل بأمر الخلق فى قوله تعالى :

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) .

أى وهم أقرب الأشياء إليكم ، وقال تعالى :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) .

وقد قالوا : تخلص من الغرق ثم اشتغل بأخذ يد غيرك مع وجوب عزمك لاحال غرقك أنك تأخذ بيد غيرك . وكذلك القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اشتغل بأمر نفسك ونهيها وأنت عازم على أمر غيرك ونهيه وليس المحظور إلا أن تشتغل بنفسك وأنت عازم على أنك لا تأمر غيرك فأنت كمن خاف من أمره بمعروف أو نهيه عن منكر ثوران نفس المأمور أو المنهى وزيادته فى المعصية ، فمن السياسة أن تترقب له وقتا آخر وأيضا فإن من كان جالسا يشرب الخمر فصار يقول لإنسان آخر يشرب حرام عليك لايؤثر قوله فى ذلك الشارب بل يضحك عليه ، ويقول له قل ذلك لنفسك وقد قال الشاعر :

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

وهذا العهد يخل به كثير من الناس لأجل عدم سلامتهم من المنكر ، فيخافون أن ينكروا منكرا فيقول الناس لهم انهوا أنتم أنفسكم عن كذا وكذا ، ولو أنهم سلموا من

المنكر لربما انقاد الناس لهم » ومن هنا قالوا لا ينبغي لإنسان أن يعظ الناس إلا إن كان متعظا قبلهم ، فلا يأمرهم بترك الدنيا ويزاحم هو عليها ولا يأمرهم بالصدقة ويبخل هو ولا يأمرهم بقيام الليل وينام هو ، وقس على ذلك لأن رؤية الناس إلى أفعاله تحجبهم عن سماع مقاله ، ولا يخفى أن ذلك أكثرى لا كلى ، فلا يلزم من عدم انقياد الناس للواعظ أنه غير عامل بعلمه ، فإن الأنبياء عليهم السلام عاملون بعلمهم بالإجماع بعصمتهم ، ومع ذلك فما أطاعهم وانقاد لهم إلا القليل ، وإنما الإنقياد وعدمه راجع للقبضتين ، والداعى جاء يميز بدعوته بين أهل كل قبضة لا غير ، وليس بيده سعادة ولا شقاوة ، قال الله تعالى :

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) .

وكذلك الحكم فى كل داع إلى الله إلى يوم القيامة ، وقول الناس حصل لفلان خير ببركة سيدى الشيخ إنما هو أدب فقط مع ذلك الشخص ولو حققوا النظر لوجدوا ضرره أكثر من نفعه على مصطلح فهمهم فإن اتباعه فى الخير قليل ومخالف ذلك كثير فقد أضربهم بإقامة الحجة عليهم عند الله تعالى ، ولم يبق لهم عذر ، ولو أنه لم يأمرهم ولم ينههم لربما قالوا : ياربنا لم يأتنا نذير ، ومن هنا قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى لما مدحوا أتباعه وكثرة نفعه : ضررنا أكثر من نفعنا والهالك من أتباعنا أكثر من الناجى لأننا نبين لهم فيخالفون فيهلكون ، ومؤاخذة الإنسان بعد البيان أشد من مؤاخذته من غير بيان » فعلم أن الكامل من نظر ماله ليشكر الله وما عليه ليستغفر الله ، وإن كانت أدلة الشريعة تشهد بأنه ليس على الداعى إثم من حيث كونه كان سببا لمؤاخذة من خالفه ، وإنما ذلك من حيث أن ثم لنا مقاما رفيعا وأرفع فلا يقال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب فكيف يشرع لفاعله الاستغفار؟ لأنا نقول قد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) يعنى فتح مكة . (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

فأمره بالاستغفار من حيث أن ذلك الجهاد والاشتغال بهداية الأمة اشتغال بالخلق فى الجملة ، فلما رقاه إلى الاشتغال بالحق دون الخلق استغفر من ذلك المقام ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم :

« لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي » .

أى غير الاشتغال به كما فى حال الصلاة ، إذ لا يؤمر أحد فيها بأمر ولا نهى للغير :
وقد بلغنا أن داود عليه السلام لما شرع فى بناء بيت المقدس كان كلما بنى شيئا أصبح منهدما ، فقال : يارب إنى كلما بنيت بيتك يهدم ، فأوحى الله تعالى إليه : إن بيتى لا يقوم بناؤه على يد من سفك الدماء ، قال داود : أليس ذلك فى سبيلك ، فقال تعالى : بلى ، ولكن أليسوا خلقى ؟ اهـ ويؤيد ذلك قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ .

أى لأن فى السلم والصلح عدم سفك الدماء، فرجح الحق تعالى تأخير قتلهم وتقريرهم على كفرهم لأجل القبضتين ، وهنا أسرار يذوقها أهل الله لاتسطر فى كتاب ، والله تعالى أعلم .

وروى مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى مرفوعا :

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

وفى رواية للنسائى : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَغَيَّرَهُ بِيَدِهِ فَقَدْ بَرِئَ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ فَغَيَّرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ بَرِئَ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِلِسَانِهِ فَغَيَّرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ بَرِئَ وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

وروى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم» .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ » .

وروى البخارى والترمذى مرفوعا : « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ تَعَالَى وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ؛ فَقَالُوا إِنْ خَرَقْنَا فِي سَفِينَتِنَا

خَرْقا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلَكوا جميعًا ، وَإِنْ أَخذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا » .

وروى الترمذى مرفوعا : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَاهٰذَا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَاتَصْنَعُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذٰلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ ـ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ : كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِىِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ـ ثُمَّ قَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ : كَلاَّ وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا » .

أى تعطفونه وتقهرونه وتلزمونه باتباع الحق كرها عليه

وروى أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا .

« مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِى قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِى يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلاَ يُغَيِّرُونَ إِلاَّ أَصَابَهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا » .

وروى أبو الشيخ والبيهقى عن أبى هريرة قال :

« قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ أَتْقَاهُمْ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ » .

وروى الأصبهاني مرفوعا : « أَيُّهَا النَّاسُ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَلَا يَسْتَجِيبَ لَكُمْ ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُوهُ فَلَا يَغْفِرُ لَكُمْ، إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَرْفَعُ رِزْقًا وَلَا يُقَرِّبُ أَجَلًا، وَإِنَّ الْأَحْبَارَ مِنَ الْيَهُودِ وَالرُّهْبَانِ مِنَ النَّصَارَى لَمَّا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ ، ثُمَّ عُمُّوا بِالْبَلَاءِ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « لَا تَزَالُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَنْفَعُ مَنْ قَالَهَا وَتَرُدُّ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَالنِّقْمَةَ مَالَمْ يَسْتَخِفُّوا بِحَقِّهَا ، قَالُوا : يارَسُولَ اللهِ وَمَا الاسْتِخْفَافُ؟ قَالَ يَظْهَرُ الْعَمَلُ بِمَعَاصِي اللهِ فَلَا يُنْكِرُوا وَلَا يُغَيِّرُوا » .

وروى أبو الشيخ والبيهقى عن أبى هريرة :

« إِذَا رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ تَهَابُ أَنْ تَقُولَ لِلظَّالِمِ يَا ظَالِمُ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ » .

وسيأتى عدة أحاديث فى عهود المنهيات والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستر جميع عورات المسلمين مع تبيينها لهم سترا على نقائصهم ، وأول مانرجع فائدة ذلك علينا فى الدنيا والآخرة ، فإن من ستر ستر ، ومن هتك الناس هتك جزاء وفاقا .

واعلم أن كل من كمل عقله لايستبعد وقوعه فى شىء من الذنوب ، فإن لم يكن وقع فيها فهو معرض للوقوع فيها ، فلينظر فى جميع ما وقع فيه الناس وسحبوا إلى بيت الوالى يجد نفسه قابلة له ، لأن طينة البشر واحدة إلا من عصمه الله كالأنبياء، ثم من أقبح ما يكون ذكر من كان عاصيا ثم تاب أحدا من العصاة بسوء ، وقد قالوا فى المثل : تابت الزانية البارحة فقات مقصودى الوالى يكبس على بنات الخطأ الكلاب الذين لا يخافون الله ، ونسيت نفسها وما كانت عليه .

ثم اعلم يا أخى أن العاصى ما دام يغلق عليه بابه ولا يتجاهر فله الستر، فإذا تجاهر فلنا كشفه ، وكذلك لايجوز لك أن تذكر للناس ما رأيته يفعله من خلف باب أو طاقة أو دور قاعة ، وكن أولى به من نفسه ؛ ولكن لا بأس بأن تذكر له بعض ما رأيت فلعله يتوب وهذا العهد قد صار العمل به أعز من الكبريت الأحمر ، فلا تكاد تجد أحدا من إخوانك

الأصدقاء فضلا عن غيرهم يسترعورة إذا اطلع عليها بل ينشرها فى الناس ، وكلما وصيته على الكتمان تحركت عنده الداعية للإفشاء .

وقد قال الإمام الغزالى : لا تركن إلى صديق حتى تمتحنه غاية الامتحان ، فربما أحصى عليك الزلات حال رضاه عنك ليهجوك بها حال سخطه عليك ، كما هو مشاهد كثيرا فيمن يصحب الناس لغير الله : بل وقع لسيدى يوسف العجمى أن شخصا مكث عنده نحو ثلاث سنين يطلب الطريق إلى الله تعالى والشيخ لا يلتفت إليه ، فلما أكثر على الشيخ قال له : ياولدى أنت عندى بمنزلة ولدى ، ومقصودى أن تستر على ، فإنى قتلت نفسا هذه الليلة رأيتها بين عيالى وها هو فى ذلك الفرد الخوص فاحمله فى هذه الليلة واخرج به إلى الكوم وادفنه ولك عندى دينار ذهبا ففعل الشخص ذلك ، ثم إن الشيخ تنكر على ذلك المريد ثانى يوم وأمر بإخراجه من الزاوية ورمى حوائجه فى الشارع ، فما شعر الشيخ إلا ومقدم الوالى ونائبه جاءوا إلى الشيخ واتهموه بقتيل وقالوا معنا بينة تشهد بموضع دفنه ، فأمر الشيخ بعض الفقراء أن يذهب معهم إلى الكوم فاستخرجوا الفرد وفتحوه فإذا هو خروف ، فمقت ذلك الفقير واتهم بالزغل فشنقوه بعد جمعة :

وحكى لى الشيخ شمس الدين البوصيرى أنه خدم سيدى الشيخ أبا السعود الجارحى نحو ثلاثين سنة والشيخ آخذ حذره منه ، فقال له يوما : ياسيدى مرادى تطلعنى على شيء من أسرار أهل الله عز وجل ، فقال : يا محمد والله ما أئتمنك على إخراج ريح أخرجه بحضرتك خوفا أن تحكيه للناس .

وبالجملة فيحتاج من يخالط الناس اليوم إلى أن يروض نفسه حتى يكون كعالية ٧ العوال فى الدقاق ويصير يخشى الله بالغيب ويخاف أن يمقته إذا ذكر أحدا من عبيده بسوء لاسيما العلماء العاملون والفقراء الصادقون فإن ملاحظهم دقيقة ، وربما ظن بعض المجادلين فى عقائدهم نقصا أو فى أعمالهم خللا فيحكى ذلك للناس من غير أن يراجعهم فى ذلك فيمقته الله ، لأن كل من استند إلى الله دون خلقه كان الله له بالنصر وهذا شأنهم على الدوام ، لا يعولون قط على نصرة مخلوق ولا يشتكونه من بيت حاكم ، ولو فعل معهم ما فعل فلما أكرموا عبيده لأجله كذلك أكرمهم وأجلهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من ادعى أنه من أهل الله ولم يتحمل الأذى من عبيده فقد كذب :

وسمعت مرة أخرى يقول : إذا نازعتك نفسك فى إظهار عورة مسلم فقل لها انظرى ثمرة ذلك ، فإنك إذا أظهرتيها للناس لا بد من إظهار جميع زلاتك على رؤوس الأشهاد يوم القيامة حتى تفتضحى بحضرة من كان يعتقد فيك الصلاح فى الدنيا ، فربما أن النفس تكتم مارأت ، وليتأمل الذى يظهر عورات الناس بعينه يجد نفسه أغضب الله ، وتعرض للهتيكة ولا يعطيه الناس لأجل ذلك شيئا ، إنما ذلك رفث ومقت وفسوق لا غير نسأل الله تعالى العافية .

وبالجملة فلا يتجسس على العورات إلا فاسق ، فإن القلب المطهر من السوء لا يظن فى الناس إلا خيرا .

ورأى سيدى مدين فقيرا تجسس على فقير دخل الخلوة بشاب أمرد فأخرج الشيخ ذلك المتجسس من الزاوية وقال لولا أنك من أهل السوء ما ظننت السوء ، فقال ياسيدى التوبة فقبل الشيخ توبته وأمره بأن يعامل إخوانه معاملة من يسيء بهم الظن من غير سوء ظن ، وأمر المتهومين بتحمل الأذى من جميع الناس وقال لهما : من سلك مسلك التهم فلا يلومن من أساء به الظن اه فعلم أن كل من اشتكى أحدا أذاه من بيت حاكم فليس له فى طريق أهل الله نصيب اه .

فاستر يا أخى إخوانك إن طلبت أن تخرج من الدنيا مستورا :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم وأبوداود واللفظ له ، والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللهُ فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فى عَوْنِ أَخِيهِ » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا : « لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فى الدُّنْيَا إلاَّ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ يَرَى مُؤْمِنٌ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرَهَا عَلَيْهِ إلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّةَ » .

وروى أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد أن الهيثم كاتب عقبة بن عامر قال لعقبة بن عامر : إن لنا جيرانا يشربون الخمر ، وأنا داع الشرط ليأخذوهم ، قال لاتفعل وعظهم وهددهم ، فقال : إنى نهيتهم فلم ينتهوا وأنا داع

الشرط ليأخذوهم ، فقال عقبة : ويحك لا تفعل ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ سَتَرَ عَوْرَةً فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْؤُدَةً فى قَبْرِهَا » .

والشرط بضم الشين المعجمة وفتح الراء : هم أعوان الولاة الظلمة الواحد منهم بضم الشين وسكون الراء .

وروى أبوداود والنسائى أن ماعزا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأقر عنده أربع مرات يعنى بالزنا فأمر برجمه ، وقال لهزال :

« لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ » .

قال الحافظ : وسبب قول النبى صلى الله عليه وسلم لهزال :

« لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ » .

ما رواه أبو داود وغيره عن محمد بن المنكدر : أن هزالا أمر ماعزا أن يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ماعز بن مالك يتيما هو فى حجر هزال ؛ فأصاب جارية من الحى ، فقال له هزال ائت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنعت لعله أن يستغفر لك ، واسم المرأة التى وقع عليها فاطمة ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا ورجاله رجال الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ عَلِمَ مِنْ أَخِيهِ سَيِّئَةً فَسَتَرَهَا سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن مرفوعا :

« مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَشَفَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فى بَيْتِهِ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فى جَوْفِ رَحْلِهِ » .

ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وما أعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك . وسيأتى فى عهود المنهيات زيادة على ذلك فراجعه ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعين من يقيم الحدود على إقامتها ومن يؤدب ولده أو تلميذه على تأديبه ولا نعارضه فى ذلك ولا نداهن فيه مساعدة على إقامة شعار الدين ، وتطهيرا للمحدودين والمجلودين للتأديب ، ومن سعى فى عدم جلدهم أوحدهم فقد غشهم وآذاهم فى دينهم بابقاء دنسهم ونجاستهم ، فهو يزعم أنه يحبهم وفعله فعل من يكرههم .

فإياك يا أخى أن تشفع فيمن وقع فيما يوجب الحد من شرب الخمر وقذف عرض أو يوجب التأديب من سفه صغير على كبير ، أو طفل على أمه أو أبيه ، أو تلميذ على شيخه فإن ذلك غش له ، بل ساعده على تطهيره ما أمكن ، وإن تكدر منك فى الدنيا أو فى الصغر فسوف يشكرك على ذلك فى الآخرة أو عند بلوغ درجة الرجال فى الطريق ، ويقول جزاك الله عنى خيرا ؛ وينبغى للمؤدب أن يفتش نفسه عند ضرب التأديب فربما يكون عنده من الطفل نفس من جهة شكوى زوجته مثلا ، لقلة قضائه حاجتها ونحو ذلك فتحرش عليه والفقيه فى الغالب كثير السماع لزوجته فيجعل طوخا فى مليج ويتذكر له ذنبا ويمسك عليه الغلطة ثم يضربه موهما للناس أن ذلك الضرب للتأديب وإنما هو لتحريش امرأة الفقيه .

وقد قال لى الشيخ نور الدين الجارحى وكان من أهل العلم الكبار : يا ولدى قد أحسست بعقلى نقص ، فقلت له : من أى شىء ؟ فقال : أنا بالنهار مجالس للأطفال ، وبالليل مخالط للنساء فسرق طبعى منهم اه ، فليحذر الفقيه من ذلك . وأما شيخ الطريق إذا أدب مريدا فلا ينبغى أن يقال له فتش نفسك فى ذلك لأن الأشياخ قد خرجوا عن حضرات التلبيس والتشفى للنفوس ، إنما يؤدبون التلميذ محض شفقة ورحمة كضرب الأم ولدها ونخسها له بالإبرة حتى يخرج الدم فلا يحملها أحد إلا على محض التأديب ، وكذلك الشيخ وكل مريد نسب شيخه فى تأديب تلميذه إلى أمر نفسانى فقد نقض عهده ووجب تجديد العهد ، فإن لم يرض الشيخ عليه فليظهر له التشويش الكامل ولا يأكل ولا يشرب حتى يرضى عنه الشيخ ، ولا ينبغى له أن يسوق أحدا على الشيخ حتى أنه يأخذ عليه العهد ، فإن ذلك لا يدخل فى أفعال أهل الطريق ، إنما السياق فى الأمور الدنيوية ، والشيخ إنما يغضب لمصلحة المريد لا لمصلحة نفسه ، فلو أنه رأى كسر نفس المريد بلغت الغاية لدعاه إليه وأظهر له الرضا من غير سياق ، فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى النسائى وغيره مرفوعا : « حَدٌّ يُقَامُ فى الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا ثَلاثِينَ صَبَاحًا » .

وفى رواية له موقوفا على أبى هريرة :

« إِقَامَةُ حَدٍّ فى الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « حَدٌّ يُعْمَلُ فى الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا بإسناد حسن :

« حَدٌّ يُقَامُ فى الأَرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى فِيهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ عَامًا » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَقِيمُوا حُدُودَ اللهِ فى القَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَلاَ تَأْخُذْكُمْ فى اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ » .

وسيأتى فى عهود المناهى عدة أحاديث تتعلق بذلك ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب جميع أهل المعاصى فى التوبة ونخبرهم بسعة رحمة الله لهم إذا تابوا ، وأنه لايتعاظم عليه تعالى ذنب أن يغفره ما عدا الشرك ، ونلين لهم الكلام ونحسن إليهم كل الإحسان حتى يحكوا ذلك لرفقتهم فى المعاصى ، فلعل قلوبهم تلين للتوبة ، وكذلك لانؤيس أيضا أن نخاطب التائبين بالألفاظ الحسنة المميلة لخاطرهم ، كلفظ السيادة ، ونراهم أطهر منا قلبا لأنهم قريبو عهد بتوبة ، وهى تجب ماقبلها من الذنوب بنص الحديث بخلافنا ، فربما كان أحدنا بعيد عهد بالوقوع فى معصية أو كثير الطاعات المتوالية فيقول فى نفسه بعيد أن الله تعالى يعذب مثلى ، وغاب عنه أنه فى تلك الحالة من أبعد الأبعدين عن حضرة الله عز وجل لعدم انكسار قلبه ، والله تعالى يقول :

« أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِى » .

أى من أجل مخالفتهم لأمرى ، ودخول النقص فى طاعاتهم فهم لا يرون لهم وجها عندى :

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : إنما بدأ الإمام القشيرى فى رسالته لما ذكر

رجال الطريق بابن أدهم والفضيل بن عياض تقوية لقلب المريدين لكون ابن أدهم والفضيل سبق لهما زمن قطيعة فكان الشيخ بذلك يقول : إن من سبقت له العناية لاتضره الجناية ، حتى لايستبعد المريد الذى سبق له زمن قطيعة كثرة الفتح عليه من الله ومحو تلك الذنوب كلها ، اه :

وسمعته مرة أخرى يقول : كل من لم يذق من الفقراء مرارة القطيعة لايعرف مقدار حلاوة الوصال ، فكان من كمال حال الفقير الذى أراد الله أن يؤهله لتربية المريدين وإرشادهم وقوعه فى بداية أمره ولو فى نية المخالفات ، وذلك ليصير عنده حلم على العصاة وصبر على تقويم عوجهم ، وأيضا فإنه بوقوعه فى المعصية يزول عنه الإعجاب بعمله ويعرف سعة حلم الله عليه ، ويقوم بين يديه بالذل والإطراق والأدب الذى هو مهر دخول الحضرة الإلهية ، ولو أنه لم يسبق له معصية لم يعرف ذلك وكان يسبق له مثل ما وقع فى الإدلال على الله بعمله كما هو مشاهد فيمن تربى على التورع وعدم ابتلائه بشىء من القاذورات ، فتراه يرى الخلق كلهم هالكين إلا هو ، وهذا عين الكبر الذى أدخل الله به المتكبرين النار ، ويؤيد ذلك حديث :

« الْعَابِدُ الَّذِى عَبَدَ اللهَ تَعَالَى فى جَزِيرَةٍ فى الْبَحْرِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أُدْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، فَيَقُولُ يَارَبِّ : بَلْ بِعَمَلِى ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ : قَايِسُوا بَيْنَ عِبَادَتِهِ الْخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَيْنَ نِعْمَةِ الْبَصَرِ ، فَفَعَلُوا ، فَرَجَحَتْ نِعْمَةُ الْبَصَرِ ، فَأَمَرَ بِهِ إِلى النَّارِ ، فَقَالَ يَارَبِّ : أَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ ، فَأَدْخَلَهُ » .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : حكم العاصى حكم الزبل الذى يوضع فى أرض شجر الفواكه فيحليها ويطيب طعمها ، أو كحكم الأنفحة للبن ، فإنه مع حلاوته وطيب طعمه يحتاج إلى الأنفحة المنتنة الخبيثة الطعم لتثبته وتصونه عن الفساد ، فعلى العاقل أن يتفكر فى حكم مصنوعات الله عز وجل ويعطى كل فعل حقه على الميزان الشرعى .

وقد مكث شخص من أهل الجدال فى سوق أمير الجيوش فى حانوت قصار ينكر على أهل السوق من تجار ودلالين ويحكم ببطلان بيعهم وشرائهم بأشياء لم ترد صريحة فى الشريعة مما يخفى على كثير من الناس فشكوا ذلك لى بحضرة أخى أفضل الدين ، فقلت لهم

إن شاء الله أكلمه لكم فقال أخى أفضل الدين الكلام لا يؤثر فى مثل هذا إنما يؤثر فيه صدمة إلهية ، فنى تلك الليلة وجدوه مع جارية جاره فقبضوا عليه بالوالى وأرادوا يجرسونه بها وهى راكبة على ظهره ، فاجتمع عليه التجار والدلالون وشفعوا وخلصوه بعد علقة شديدة وغرامة فلوس ، فمن ذلك اليوم سكت عن الإنكار وصار هو يطلب منهم السكوت عنه ، فقال سيدى أفضل الدين وعزة ربى هذه الزلة أنفع له من عبادته التى كان يتكبر بها على الناس .

فإياك يا أخى وتنفير من تاب من العصاة منك بكلامك الجافى وعدم إحسانك إليهم ، فإن إبليس ربما قال لهم أى فائدة لكم فى صحبة هؤلاء الفقهاء وتركتم أصحابكم الذين كانوا يحبونكم ويسترون عليكم زلاتكم ، وجئتم إلى من يحتقركم ويزدريكم ، ويكشف عوراتكم ويجىء لكم بحيلة الوالى فإذا صغوا إلى كلام إبليس طلبوا الرجوع إلى حالتهم الأولى ضرورة .

فرغب يا أخى من تاب من إخوانك فى التوبة كل الترغيب وأحسن إليه كل الإحسان واذكر له ما ورد فى قبول التوبة من الآيات والأخبار تكن حكيم الزمان ، والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمَرَنِى أَنْ أَمْحَقَ الْمَزَامِيرَ وَالْكِبَارَاتِ » .

يعنى البرابط والمعازف والأوثان التى كانت تعبد فى الجاهلية .

« وَأَقْسَمَ رَبِّى بِعِزَّتِهِ : لا يَشْرَبُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِى جَرْعَةً مِنْ خَمْرٍ إِلاَّ سَقَيْتُهُ مَكَانَهَا مِنْ حَمِيمِ جَهَنَّمَ مُعَذَّبًا أَوْ مَغْفُورًا لَهُ ، وَلا يَسْقِيهَا صَبِيًّا صَغِيرًا إِلاَّ سَقَيْتُهُ مَكَانَهَا مِنْ حَمِيمِ جَهَنَّمَ ، وَلا يَدَعُهَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِى مِنْ مَخَافَتِى إِلاَّ سَقَيْتُهَا إِيَّاهُ مِنْ حَضِيرَةِ الْقُدْسِ » .

وفى رواية للبزار مرفوعا بإسناد حسن ، قال الله تعالى :

« مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَأَسْقِيَنَّهُ فى حَضِيرَةِ الْقُدْسِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ اللهُ مِنْ خَمْرَةِ الآخِرَةِ ، فَلْيَتْرُكْهَا فى الدُّنْيَا » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ شَرِبَ حَسْوَةً مِنْ خَمْرٍ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ صَرْفًا وَلا عَدْلاً ، وَمَنْ شَرِبَ كَأْسًا لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَلاةَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » .

وفى رواية الحاكم والترمذى وحسنه :

« فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَادَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ، فإِنْ عَادَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صباحًا » .

قال الحافظ عبد العظيم : وأما حديث : « فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ فَاقْتُلُوهُ » .

وفى رواية : « لَمْ يَتُبِ اللهُ عَلَيْهِ وَغَضِبَ عليْهِ » فهو منسوخ ، والله أعلم .

والأحاديث فى ذلك كثيرة وسيأتى بعضها فى عهود المنهيات ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحفظ فروجنا عما لا يحل لنا مباشرته من فرج ومفاخذة لذكر أو أنثى أو تقبيل لذلك بشهوة محرمة ، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيما حرم عليه ، ومن هنا حرم غالب العلماء الاستمتاع بما بين السرة والركبة للحائض ، وحرموا قطرة الخمر وإن لم تسكر ، وحرموا على الصائم تناول مقدار أقل من سمسمة وإن لم تؤثر فيه ثوران شهوة ، وحرموا عليه القبلة ولو شيخا ، ويسمى ذلك تحريم الحريم والاحتياط ، ونعم مافعلوا .

وقد حكى لى من أثق به قال : كنت أقرأ على فقيه فى جامع الأزهر وأنا شاب فكان يرسلنى إلى عياله بالحاجة فكانت تكلمنى بالكلام الحلو فأنفر منها ، فما زلت كذلك حتى صرت أستحلى كلامها فعرضت لى يوما بأنى أدخل معها البيت فنفرت منها فما زالت بى حتى دخلت وصارت تظهر لى دينها وورعها حتى ملت إليها ، فوقعت عليها فصرت معها فى الحرام نحو سنة وهى تقلب على زوجها الكلام وتقول له مارأيت مثل جفاء هذا الولد الذى ترسله يرمى الحاجة من الباب ويروح والبارحة رمى كوز الزيت حار فانكب على الأرض ولشكو من دينه وعفته ، فصار الفقيه يقول لى : يا ولدى هذه مثل أمك قال : ووقع للفقيه أنه دخل علينا يوما وأنا معها نائم فى الناموسية ، فبادرت وخرجت إليه وقالت ابنة خالتى جاءت وهى غضبانة من زوجها وهى تسلم عليك ، فقال سلمى عليها وقولى لها الحمد لله الذى جئتى عندنا ولم تروحى للأجانب فخرج الفقيه وعمل لنا لحما على الصاج وأتى به إلينا ، فأكلت أنا وإياها وأعطيناه الفضلة فأكلها .

قال : ووقع لى مرة أخرى أننى نمت فى الخزانة فأحسست بدخوله ، فغلقت الباب وخبأت المفتاح فقال الفقيه مقصودى أنام فى الخزانة شوية لأنى عازم على السهر فى قراءة فقالت له : المفتاح ضاع ، فقال هاتى الحجر نفش الضبة فت من الطربة ، فما زالت به حتى نام خارج الخزانة فجاءنى السعال فكتمته فجاءتنى عطسة فرددتها ، فانخزقت بالغائط والبول فتغوطت وبلت ، وجاء فى بطنى ريح فكنت أصوت بالضراط فألهمنى الله التوبة الخالصة من ذلك للوقت فكره الله إلىّ الزنا والخلوة بالأجنبية أو القرب منها قال ، وأصل ذلك كله قربى من أمرأة الفقيه ، ولو أنى لم أقرب منها ولا قضيتها حاجة لم أقع فى ذلك اه .

وقد عدوا استحلاء كلام الأجنبية من زنا الكلام المحرم ، فعلم أنه لاينبغى القرب من نساء أصحابنا اللاتى يخشى منهن الفتنة ولو بطيبة أنفس أزواجهن ، لأن ما حرمه الله لايباح بالإباحة ، فهم فى الحكم كالذى يقر أهله على مقدمات الزنا ، وهذا الأمر يقع فيه كثير من الفسقة الذين يتصاحبون على الفساد فيطلب كل منهما التقرب لصاحبه بتمكينه من محادثة زوجته والنظر إليها ويقول لهم إبليس أنتم الآن صادقون فى الأخوة والمحبة ، وقد وقع مثل ذلك لبعض إخواننا ، ورأى صاحبه يفعل الفاحشة فى زوجته .

فإياك يا أخى أن تتهاون بمثل ذلك أو تمكن جاريتك أن يأخذ أحد من فقراء الأحمدية أو البرهامية عليها العهد إلا مع المحافظة على آداب الشريعة ، فإن كثيرا من الفقراء يعتقد أنه صار والدها يجوز له النظر ، وترى هى كذلك أنها صارت ابنته ولها أن تظهر وجهها له ، وكل ذلك خروج عن الشريعة المطهرة ، وربما جعل إبليس ذلك مقدمات للزنا ، وقد قال الله تعالى لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أزواج رسول الله المطهرات الطاهرات المبرآت من فوق سبع سموات :

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) .

فإذا كان هذا فى هؤلاء مع علو مقامهم فكيف بمن نفسه عاكفة على الشهوات المحرمة كعكوف الذباب على العسل .

فاترك يا أخى جميع الأبواب التى تتوصل منها إلى الزنا ولا تدخل منها وتطلب السلامة فإن ذلك لا يكون والله يحفظ من يشاء كيف شاء :

وروى الحاكم والبيهقى مرفوعا : « يَا شَبَابَ قُرَيْشٍ ، احْفَظُوا فُرُوجَكُمْ لَا تَزْنُوا ، أَلَا مَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ » .

وفى رواية للبيهقى مرفوعا : « يَا فِتْيَانَ قُرَيْشٍ لَا تَزْنُوا ، فَإِنَّهُ مَنْ سَلِمَ لَهُ شَبَابُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَحَصَّنَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا ، دَخَلَتْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَتْ » .

وروى البخارى واللفظ له والترمذى مرفوعا :

« مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ضَمِنْتُ لَهُ الْجَنَّةَ » .

والمراد بمابين لحييه اللسان ، وبما بين رجليه الفرج قاله الحافظ المنذرى ، وفى رواية للترمذى وحسنه مرفوعا :

« مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وفى رواية للطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فَقْمَيْهِ وَفَخِذَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

والفقمان : هما اللحيان ، واللحيان : هما عظم الحنك .

وروى الإمام أحمد وابن أبى الدنيا وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ : اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى العفو عن قاتل أبيهم أوأخيهم أوولدهم ، أوعمن جنى عليهم أو ظلمهم بأخذ مال أوضرب أو وقوع فى عرض ونحو ذلك ، فإن من عفا عفا الله عنه :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما جعل الله تعالى الدية على العاقلة إذا شح الورثة ولم يعفوا ، وإلا فالعفو أولى عند الله تعالى . والحكمة فى جعل الدية على

العاقلة إنهم هم الذين كانوا سببا لتجرئه على القتل لإغرارهم ، فلولا أنه جعل الدية عليهم لم يكفوه عن القتل ، فلما جعلها عليهم كانوا أول من يكفه عن ذلك خوفا من غرامة الدية اه ويتعين العمل بهذا العهد على العلماء والصالحين لكونهم قدوة للناس فربما شاححوا فى حقهم فاقتدى بهم العوام والظلمة وقالوا إن فلانا مع صلاحه وعلمه غلبت عليه النفس ولم يصفح ، فنحن أضعف منهم ، وما فاز الصالحون وتميزوا عن غيرهم إلا باحتمال الأذى والصفح عن زلل الإخوان فى حقهم ، وإن شاححوا أحدا فإنما ذلك تأديب له وتقبيح لئلا يتجاسر على غيرهم كما وقع ذلك لشيخنا الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى .

فحكى لى الأخ الصالح الشيخ شعيب خطيب جامع الأزهر رحمه الله قال : دخلت على الشيخ جلال الدين السيوطى وهو محتضر فقبلت رجله وسألته الصفح عمن كان آذاه من الفقهاء ، فقال : يا أخى قد سامحتهم من حين وقعوا فى حقى ، وإنما أظهرت لهم التشويش والعداوة بسبب ذلك وصنفت كراريس فى الرد عليهم لئلا يتجرءوا على أعراض غيرى من الناس ، فقال الشيخ شعيب ، وهذا هو كان الظن بكم اه .

قلت : ومع صفحه رضى الله عنه مقتوا كلهم ولم ينتفع أحد بعلمهم وكان أصل ذلك كله أنه أمرهم بمعروف لما تولى الشياخة على الخانقاه البيبرسية فرآهم لا يحضرون لا بأنفسهم ولا بنائبهم ولهم عبيد وبغال وسرارى وأموال فقال : شرط الواقف أن الخبز والجوامك إنما هى للفقراء المحتاجين الذين اجتمعت فيهم شروط الصوفية المذكورة فى رسالة القشيرى وغيرها فتجمعوا على الشيخ وضربوه ورموه فى الميضأة بثيابه ، فعزل نفسه وحلف أن لا يسكن مصر ما عاش، فأقام فى روضة مقياس النيل حتى مات ، ورأيت شخصا ممن قال ضربته بقبقابى على كتفه فى أسوأ الأحوال استولت عليه نفسه فى أكل الشهوات مع إفلاسه فكان ينصب على كل من رأى معه دجاجا أو أوزا أو سكرا أو عسلاء ويقول : بعنى ذلك ثم يذهب به إلى البيت ويأكل ذلك ويختفى حتى يزهد صاحب ذلك المتاع من طول التردد ويصير ذلك فى ذمته إلى يوم القيامة ، ولما مات لم يتبع جنازته أحد نسأل الله العافية ومما أخبرنى به أيضا قال لما عجزنا عن أذاه بوجه من الوجوه اجتمعنا نحو عشرة أنفس ودخلنا عليه وقلنا له يا سيدى ، قدر أننا كفار وأسلمنا وقد استخرنا الله تعالى أن نقرأ عليكم فلعل أن يحصل لنا خير ، قال : وصرنا نقرأ عليه نحو سنة وهو متحرز منا فلما كان بعد سنة أذاه بعض الناس فقمنا عليه وأظهرنا للشيخ شدة المحبة له فركن إلينا فقلنا

له يا سيدى أنتم بحمد الله من أهل الكشف ومقصودنا تخبرونا بشىء من وقائع الولاة لنظهر على المنكرين عليكم بذلك إذا صح فلعلهم يتوبون كما تبنا فيحصل لهم الخير فسكت الشيخ ساعة ثم قال السلطان جان بلاط يضرب عنقه فى يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى ، ويتولى بعده فلان ، فأخذوا خط الشيخ بذلك ومضوا به إلى السلطان جان بلاط وأشاعوا الخبر بذلك فى مصر فحصل للمملكة رج ، فقال السلطان على به أقتله قبل أن أقتل ، فطلبوا الشيخ فاختفى نحو سبعة وأربعين يوما حتى ضربت عنق السلطان كما قال ، اه :

فانظر يا أخى شدة هذا الأذى ومع ذلك صفح عنهم رجاء الصفح من الله كما درج عليه أهل الطريق رضى الله عنهم .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : كل مريد آخذا إخوانه بمايبدوا فى حقه منهم فلا ترجو له خيرا ولا رقيا فى مقامات الرجال :

فاعف يا أخى عن إخوانك واصفح لتفوز بمحبة الله عزوجل لك كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يلطف كثائفه ويصير يرى ما أعد الله تعالى لمن عفا وأصلح وصفح عن أخيه فى الجنة إن لم يصل إلى درجة الصالحين الذين امتثلوا أمر ربهم من غيرنظر إلى ثواب أوخوف من عقاب ، ومن لم يسلك كما ذكرنا فبصره مقصور على أمور الدنيا يبيع أباه بفلس كما يترك الجنة وما فيها لغرض من الدنيا ، ويصفح عن خصمه لأجله ثم من أقبح لما يقع فيه المريد أن يقول له شيخه اصفح فيقول لا ، وفى ذلك نكث للعهد وخروج من طريق الفقراء إلى طريق العوام فيجب عليه أن يتوب ويجدد العهد :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو يعلى بإسناد صحيح عن عدى بن حاتم قال : هشم رجل فم رجل على عهد معاوية فأعطى ديته فأبى أن يقبل حتى أعطى ثلاثا ، فقال رجل : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ أَوْ دُونَهُ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمٍ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ تَصَدَّقَ » .

وروى الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح مرفوعا :

« مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ فِى جَسَدِهِ جِرَاحَةً فَيَتَصَدَّقُ بِهَا إلاَّ كَفَّرَ اللهُ عَنْه مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « ثَلاَثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إيمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَىِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَنْ شَاءَ: مَن أَدَّى دَيناً خَفِيًّا وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ ، وَقَرَأَ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ ـ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ـ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَوْ إِحْدَاهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ أَوْ إِحْدَاهُنَّ » .

وروى الترمذى وابن ماجه بإسناد حسن ، لولا الإنقطاع أن رجلا من قريش دق سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية فقال له معاوية إنا سنرضيك وألح الآخر على معاوية فأبرمه فقال معاوية شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس عنده : فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَابُ بِشَىْءٍ فِى جَسَدِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ ، إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً » .

فقال الرجل فإنى أذرها له ، فقال معاوية لاجرم لأرضينك فأمر له بمال .

وفى رواية للامام أحمد موقوفا : « مَنْ أُصِيبَ بِشَىْءٍ فِى جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار مرفوعا قال :

« ثَلاَثٌ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ حَالِفًا لَحَلَفْتُ ، لاَ يَنْقُصُ مَالٌ مِن صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلاَ يَعْفُو عَبْدٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهِ عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الحديث .

وفى حديث الطبرانى : « وَلاَ عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللهُ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَا زَادَ اللهُ بِعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا » .

وروى الحاكم وصحح إسناده مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ الْبُنْيَانُ وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ » .

وروى البزار والطبرانى مرفوعا : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَرْفَعُ اللهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ قَالوا نَعَمْ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ تَحْلُمُ عَلَى مَنْ جَهِلَ عَلَيْكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ » .

وفى رواية للطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه :

« أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَكْرَمِ أَخْلاَقِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » .

وفى رواية للإمام أحمد بإسناد جيد مرفوعا :

« مَنْ لاَ يَغْفِرْ لاَ يُغْفَرْ لَهُ » .

وروى أبو داود : « أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سُرِقَ لَهَا شَيْءٌ فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى مَنْ سَرَقَهُ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لاَ تُسَبِّخِي عَنْهُ » .

ومعناه : لا تخفى عنه العقوبة وتنقصى أجرك فى الآخرة بدعائك عليه ، والتسبيخ : التخفيف :

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « إِذَا وَقَفَ النَّاسُ لِلْحِسَابِ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ ثَانِياً وَثَالِثاً ، فَقَالَ وَمَنْ ذَا الَّذِى أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ؟ فَقَالَ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ ، فَقَامَ كَذَا وَكَذَا أَلْفٌ يَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وروى الحاكم والبيهقى بإسناد صحيح عن أنس قال :

« بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّى ؟ فَقَالَ : رَجُلاَنِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ خُذْ مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ يَا رَبِّ فَيَحْمِلُ مِنْ أَوْزَارِى وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُكَاءِ ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ ذٰلِكَ الْيَوْمَ لَيَوْمٌ

عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ فَقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ : اُرْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فَرَفَعَ بَصَرَهُ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ فَيَقُولُ لِأَيِّ نَبِيٍّ هٰذَا ، لِأَيِّ صِدِّيقٍ هٰذَا لِأَيِّ شَهِيدٍ هٰذَا ؟ قَالَ اللهُ هُوَ لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ ، فَقَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذٰلِكَ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُ ذٰلِكَ ، قَالَ بِمَاذَا ؟ قَالَ بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ يَارَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فَخُذْ بِيَدِ أَخِيكَ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذٰلِكَ اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى بر والديهم وصلتهم ، والإحسان إليهم ، وبر أصدقائهم من بعدهما ، ونبين لهم تأكيد طاعتهما ويقاس على ذلك بر والد القلب من المشايخ وصلته والإحسان إليه ، وبر أصدقائه من بعده ، وبيان تأكيد حقه .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى توفيق زائد فى هذا الزمان مع مصاحبة أستاذ يطلعه على مقام الوالدين المذكورين ، وذلك لايكون فى أب الروح إلا بعد اطلاع المريد على نفاسة الطريق ونفاسة ما يدعوه إليه الشيخ كشفا ويقينا ، وإلا فمن لازمه كثرة الإخلال بتعظيمه وعصيانه :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لايتحرك عند مريد داعية التعظيم والإجلال لشيخه كما ينبغى إلا بعد الفتح عليه ، وأكثر المريدين قد عدموا الفتح فى هذا الزمان ، فلذلك كان من لازمهم غالبا عقوق الأستاذين وعدم احترامهم :

وقد تقدم فى هذه العهود أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه منذ وعى على نفسه لم يأكل مع والدته خوفا أن تسبق عينها إلى لقمة أو قطعة لحم أو رطبة أو عنبة فيأكلها وهو لا يشعر .

وقد كان الطلبة والمريدون فى الزمن الماضى يجلون أشياخهم فى الطريق ، وآباءهم من الطريق ، ولو صار أحدهم شيخ الإسلام ، وذلك لنظرهم إلى الدار والآخرة وقد صار غالب الناس اليوم بصره مقصورا على أحوال الدنيا وزينتها ، حتى إنى أعرف شخصا من المدرسين بالجامع الأزهر والمفتين بهجاءت والدته من الريف فأنكرها خوفا أن تزدريه امرأته المصرية ، وقال لها ياعجوز إن قلت أنا أم الشيخ أخرجتك ، ولم أعد أمكنك من

الدخول إلى دارى أبدا ، فكان يقول للخادم هدبتم العجوز الفلاحة ، عشيتم العجوز الفلاحة ، مع أن عنده المال والثياب ويترجمه الناس بأكثر من عشرة آلاف دينار ، ولو أنه كان فيه رائحة الأدب مع الله وقبل وصيته فى قوله :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) .

لكساها بدلة قماش وصارت أم الشيخ على رؤوس الأشهاد، فبالله أين ثمرة علم مثل هذا فإياك يا أخى ثم إياك .

وقد بلغنا عن الشيخ بهاء الدين أنه قال : بينما أنا راكب مع والدى شيخ الإسلام تقى الدين السبكى فى طريق الشام ، إذ سمع شخصا من فلاحى الشام يقول : سألت الفقيه يحيى النووى عن مسئلة كذا وكذا فنزل والدى عن فرسه ، وقال : والله لا أركب وعين رأت الشيخ يحيى النووى تمشى ، ثم عزم عليه بركوب الفرس ، وأقسم عليه بالله وصار الشيخ ماشيا حتى دخل الشام فهكذا يا أخى كان العلماء يفعلون بأشياخهم ، مع أنه لم يدركه وإنما جاء بعد موته بسنين ، وكان يدخل دار الحديث بالشام ويدور فى أبوابها وعطفها ويصلى فيها ويقول لعلى أمس موضعا مسته قدم النووى ثم ينشد :

وَفِي دَارِ الْحَدِيثِ لَطِيفُ مَعْنًى   أُصَلِّي فِي جَوَانِبِهَا وَآوِي
عَسَانِي أَنْ أَمَسَّ بِحُرِّ وَجْهِي   مَكَانًا مَسَّهُ قَدَمُ النَّوَاوِي

وما رأت عينى فى مشايخ الزمان أحدا يبر أصدقاء شيخه وخدامه مثل شيخنا سيدى محمد الشناوى رحمه الله ، وكان إذا رأى أحدا ممن وقع بصره على أستاذه الشيخ محمد السروى يصير يرفرف عليه كالطير الحمام على ولده ، لكونه كان يعرف نفاسة مادعاه الشيخ له ، وقد اجتمع على الشيخ محمد السروى نحو عشرة آلاف وتلقنوا عليه ، كما حكى لى ذلك وقال : قد أخذوا عنى ولكن لم يعرفنى أحد منهم سوى ابن الشناوى ، لأن شرط المعرفة بمقام إنسان الإشراف على مقامه هذا لفظ الشيخ محمد لى بالزاوية الحمراء خارج مصر رضى الله عنه ، ويليه فى طائفة الفقهاء فى التعظيم لأصحاب شيخه الشيخ شهاب الدين الرملى الشافعى بمصر المحروسة ، كان إذارأى أحدا من أصحاب الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف أو أحدا من أصحاب الشيخ زكريا يجله ويعظمه ويقول : كأنى أنظر إلى الشيخ إذا رأيت أحدا من أصحابه ولذلك أجله الله تعالى وجعل الفقها

عاكفين على قوله شرقا وغربا ، مصرا وشاما ، وحجازا ، وروما ، ولا يتعدونه رضى الله عنه وقد توفى فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، وصلى عليه بالجامع الأزهر يوم الجمعة وكان يوما مشهودا من كثرة الخلق حتى لم يجد غالب الناس مكانا يسجد فيه ورجع غالب الناس فصلوا الجمعة فى غير جامع الأزهر ، ودفن بزاوية سيدى على باب الله قريبا من جامع الميدان رضى الله تعالى عنه .

فعظم يا أخى والديك ، وقم بواجب حقهما طلبا لمرضاتهما ، وإن طلبا منك غداءك فأعطه لهما ، وأطو ذلك اليوم ، وإن ضعفا فأخدمهما ، وإن مشى باطنهما فاغسل النجاسة عنهما بيدك ، ولا تقل لهما أف قط ، كما أنهما كان يمسحان عنك البول والغائط وتخرو عليهما ، وتبول على ثيابهم ويتحملان ذلك منك ، كما أشار إلى ماذكرناه قوله تعالى : (فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) .

بل من الأدب إذا طلبا من الولد جميع ما يملكه أن يعطيه لهما .

وقد روى ابن ماجه والبزار والطبرانى والبيهقى عن جابر :

« أَنَّ رَجُلا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي مَالاً وَوَلَدًا وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ » يعنى من باب البر والإحسان .

وفى رواية للطبرانى : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبِي يَأْخُذُ مَالِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ : اذْهَبْ فَأْتِنِي بِأَبِيكَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ لَكَ ، إِذَا جَاءَكَ الشَّيْخُ فَاسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ قَالَهُ فِي نَفْسِهِ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ، فَلَمَّا جَاءَ الشَّيْخُ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَا بَالُ ابْنِكَ يَشْكُوكَ تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ مَالَهُ ؟ قَالَ اسْأَلْهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ أَنْفَقْتُهُ إِلاَّ عَلَى إِحْدَى عَمَّاتِهِ أَوْ خَالاَتِهِ أَوْ عَلَى نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ إِيهٍ دَعْنَا مِنْ هٰذَا أَخْبِرْنِي عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِي نَفْسِكَ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ ؟ فَقَالَ الشَّيْخُ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا يَزَالُ اللهُ يَزِيدُنَا بِكَ يَقِينًا لَقَدْ قُلْتُ

فِي نَفْسِي شَيْئًا مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاي ، فَقَالَ : قُلْ وَأَنَا أَسْمَعُ فَقَالَ : قلت :

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَمُنْتُكَ يَافِعًا ... تُعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ عَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إِلاَّ سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِيَ تَهْمُلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّهَا ... لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ مِنْكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ
فَوَاَفَيْتَنِي حَقَّ الْجِوَارِ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ
تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلاَفِ كَأَنَّهُ ... بِرَدٍّ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ

وأطال الحافظ السخاوى فى طرق ذلك فى حرف الهمزة مع النون ، فى كتابة الأحاديث الدائرة على الألسنة فراجعه إن أردت زيادة على ما ذكرناه :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا ، قَالَ ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، قَالَ ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« لاَ يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيَعْتِقَهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى رَسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ ، فَقَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ فَقَالَ نَعَمْ قَالَ فَفِيهِما فَجَاهِدْ » .

وروى أبو داود : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ أَحْبَبْتُ

أَنْ أُبَايِعَكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ ، قَالَ ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا » .

وروى أبو يعلى والطبرانى : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رسولَ اللهِ إِنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ وَلاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : هلْ بَقِيَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ أُمِّي ، قَالَ : فَاتَّقِ اللهَ فِي بِرِّهَا فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ » .

وفى رواية للطبرانى عن طلحة بن معاوية السلمى قال :

« قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالَ أُمُّكَ حَيَّةٌ ؟ قُلتُ نَعَمْ قَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ » .

وروى أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال :

« كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ أُحِبُّها وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا فقَالَ لِي طَلِّقْهَا فَأَبَيْتُ ، فَأَتَى عُمَرُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ طَلِّقْهَا » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه واللفظ له مرفوعا :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ الَّذِي يُصِيبُهُ وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاء . وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا : « عِفُّوا عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ وَبِرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ » الحديث .

وروى الحاكم وغيره مرفوعا : « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا دَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ وَأَسْحَقَهُ فَقُلْتُ آمِينَ » .

ومن برهما أيضا أن لا يطعم أحدا من عياله قبلهما كما فى حديث الثلاثة الذين انهدرت عليهم الصخرة فسدت فم الغار .

كما رواه البخارى وابن حبان فى صحيحه من قول أحد الثلاثة عن والديه :

« وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ وَلَدًا » .

أى لا أسقى اللبن الذى حلبته لأحد قبلهما .

وروى الشيخان وغيرهما، عن أسماء بنت أبى بكر قالت: «قدمت علىّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلتها فقال :

« صِلِي أُمَّكِ » .

وفى رواية: «قدمت أمى وهى راغبة» أى طامعة «فيما عندى تسألنى الإحسان إليها» وفى أخرى «راغمة» بالميم: أى كارهة للإسلام.

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه والطبرانى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« رِضَا اللهِ فِى رِضَا الْوَالِدِ ، وَسَخَطُ اللهِ فِى سَخَطِ الْوَالِدِ » .

وفى رواية للبزار : « رِضَا الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِى رِضَا الْوَالِدَيْنِ وَسَخَطُهُ فِى سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ » .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رسولَ اللهِ إِنِّى أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيماً فَهَلْ لِى مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟ قَالَ لاَ ، قَالَ: فَهَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قالَ نَعَمْ : قَالَ فَبِرَّهَا » .

وروى أبوداود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه:

« أَنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي سَلَمَةَ قالَ: يَا رَسُولُ اللهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا ؟ فقَالَ نَعَم الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا وَالاَسْتِغْفَارُ لَهُمَا ، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا » .

وروى مسلم عن ابن عمر : أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، قال ابن دينار فقلت له أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر ، إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ وُدَّ أَبِيهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال أتدرى لم أتيتك ؟ قال قلت لا ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصِلَ أَبَاهُ فِى قَبْرِهِ فَلْيَصِلْ إِخْوَانَ أَبِيهِ بَعْدَهُ » .

إنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصل رحمنا من نسب أو رضاع وإن قطعت كأبى الأم وأولاد البنات وبنات الإخوة للأم وبنات الأعمام والعمات والخالات والأخوال ، وتحصل الصلة بإطعام الرحم أو كسوته ، أو وزن الدين عنه وإخراجه من السجن أو إرسال هدية له إن كان بعيدا ، وذهابه له إن كان مكانه قريبا منه ، فإن لم يكن هدية فإرساله السلام له ومدار الأمر على أن يكون معتنيا برحمه وبالإحسان إليه عملا بوصية الله تعالى ورسوله حسب الاستطاعة ، ومن فرط فى شىء مما ذكرناه مع القدرة فقد قطع رحمه وقاطع الرحم لا يصعد له عمل ولا يغفر الله له حين يغفر لجميع خلقه فى ليلة القدر ، وفى ليلة النصف من شعبان .

وهذا العهد قل من يعمل به الآن من غالب طلبة العلم والمشايخ فضلا عن غيرهم ، فبمجرد ما تتسع عليهم الدنيا ينسون قرابتهم الفقراء ويستنكفون أن يعترفوا بأنهم من قرابتهم ، مع أنهم يعطون الثياب والمال ويطبخون الأطعمة فى الفرح وغيرها لمن ليس بينه وبينهم قرابة ولا نفع لا فى علم يستفيده ولا يفيده ، وذلك دليل ظاهر على أن جميع إطعامهم وإحسانهم للناس إنما هو ليقال فلان وهب ، وذلك أن الأجنبى يشكر أحدهم فى المجالس والقريب يأكل وينكر أو يسكت عن الشكر ، ولو أن الله تعالى فتح عيون قلوب هؤلاء لقدموا ما أمرهم الله بصلته قبل من لم يأمر الله بصلته ، كما أنه لو فتح عيونهم لأكثروا العطاء لمن لا يشكرهم وفرحوا به أكثر ممن يشكرهم ، لأن من شكر المعطى فقد

كافأه فيذهب المعطى إلى الآخرة صفر اليدين من الأجر ومن لم يشكره يجد ثوابه كاملا فى الآخرة لم ينقص منه شيء .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حضرات القرب حتى يشرف على أحوال الآخرة بعين قلبه ويخرق بصره إلى الدار الآخرة وينظر ماأعدالله تعالى للعاملين بما أمرهم الله تعالى به فإنه مامن مأمور شرعى إلا وله درجة فى الجنة لا ينالها العبد إلا إن فعل ذلك المأمور ، ومن قال فى الدنيا إن صلة الرحم يجوز تركها يقال له فى الآخرة ، وهذه أيضا درجة يجوز منعك إياها :

(جَزَاءً وِفَاقًا) وفى الحديث « وَلاَ يَشْبَعُ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ » .

وتأمل إذا كنت محبا للدنيا كل المحبة وتسافر إلى البلاد البعيدة فى طلبها ، إذا جلست فى مجلس ذكر أو قرآن تنعس ويجيئك النوم من كل مكان ، وتحجب عن شهود ما أعد الله تعالى لك فى ذلك الذكر من الثواب ، كل ذلك لضعف داعيتك إلى طلب الجنة . وتأمل نفسك إذا جلس بجنبك إنسان ببدرة من ذهب وقال خذ لك على كل كلمة تقولها دينارا كيف يذهب عنك النوم وتمكث سهران إلى الصباح ، ولو قال لك إنسان يكفيك هذا الذهب الذى أخذته وقم نم لك درجتين أو ثلاثة لا تسمع له لقوة داعيتك إلى الدنيا ، فعلم أن كل من جاءه النوم فى حال الذكر وتلاوة القرآن وغيرهما من الأذكار وذهب نومه فى حال إعطائه الذهب فهو ضعيف الإيمان والتصديق بما وعد الله به من الثواب وهو دنياوى دق المطرقة ، ليس له فى طريق أهل الله نصيب ، ولو كان من أكثر الناس عبادة .

وقد قالوا : من شرط المؤمن الكامل أن يكون الغائب الذى وعده الله به أو توعده عليه كالحاضر على حد سواء ، فمتى رجح الحاضر على الغائب أدنى ترجح فإيمانه لم يكمل وغالب الناس اليوم يقولون بلسان الحال ذرة منقودة خير من درة موعودة .

فاعمل يا أخى على ورقة حجابك بالسلوك على يد شيخ ناصح لتقوم بأوامر الله عز وجل الذى كلفك بها أو ندبك إليها إن لم تكن من رجال امتثال الأمر لوجه الله ، فإن من نزل عن درجة رجاء طلب الثواب الأخروى فقد خسر مع الخاسرين ، فلا هو عمل امتثالا لأمر الله ولا هو عمل لأجل ثواب الله ، هذا شأن أهل جنة الأعمال .

وأما الكمل الذين هم أهل جنة المنن فهم معولون على فضل الله تعالى ، فلا عليهم إن كثرت أعمالهم أو قلت لعدم اعتمادهم على الأعمال وشهودهم أن خلقها ليس إليهم وإنما

هم يستغفرون من التقصير قياما بواجب حق الربوبية فى عالم الشهادة لمطمح بصرهم من طريق كشفهم على ماقسم لهم من الأعمال وعلى ما لم يقسم ، فلهم فى قلوبهم حكم مع الله لايجوز إفشاؤه ، لا سيما إن كان لهم أتباع يقتدون بهم ، فإنهم فى ذلك كالأئمة فلا يجوز لهم أن يسامحوا نفوسهم فى شيء من الأوامر ، ومن هنا قالوا إن النبي معصوم لكونه متبوعا فى جميع أفعاله وأقواله ، فلوصدق عليه وقوعه فى معصية أو إخلاله بواجب لصدق عليه تشريع المعاصى ولا قائل بذلك كما هو مقرر فى أصول الفقه والدين :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » الحديث .

وفى رواية لهما مرفوعا : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

ومعنى ينسأ فى أثره بالهمز : أى يؤخر ويزاد له فى أجله .

وروى الترمذى مرفوعا : « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ » .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائده والبزار بإسناد جيد والحاكم مرفوعا :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَيُوَسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُدْفَعَ عَنْهُ مِيتَةُ السوءِ فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وفى رواية للبزار والحاكم وصححه مرفوعا :

« مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَادَ فِي عُمْرِهِ وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وفى رواية لأبى يعلى مرفوعا : « إِنَّ الصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يَزِيدُ اللهُ بِهِمَا فِي الْعُمْرِ وَيَدْفَعُ بِهِمَا مِيتَةَ السُّوءِ وَيَدْفَعُ بِهِمَا الْمَكْرُوهَ وَالْمَحْذُورَ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن والحاكم مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ لَيَعْمُرُ بِالْقَوْمِ الدِّيَارَ وَيُثْمِرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ ، وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بغضا لَهُمْ ، قِيلَ : وَكَيْفَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ » .

وفى رواية للإمام أحمد مرفوعا : « صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ أَوْ حُسْنُ الْخُلُقِ ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ » .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال :

« أَوْصَانِي خَلِيلِي صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتكفل اليتيم ونرحمه ونشفق عليه ونسعى على الأرامل والمساكين ، ونمسح رأس اليتيم ، ونرغب جميع أصحابنا فى ذلك طلبا لرضا الله عز وجل ، ومرافقة لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، ويتعين العمل بهذا العهد على كل من ربى يتيما لأنه ذاق ذل اليتم ، وعرف مقدار كسر خاطر اليتيم ، وقد امتن الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) .

إلى آخر النسق ، فنهاه عن قهر اليتيم ونهر السائل لذوقه ذلك ، وأمره بالتحدث بالنعمة ، وقد حكى الشيخ شمس الدين الطنيخى ثم الغمرى قال : تربيت يتيما عند سيدى الشيخ عثمان الحطاب رحمه الله ، فكان إذا رأى يتيما يرفرف عليه كالطير على فرخه ، قال : فرآنى يوما وأنا أرمقه فقال لى مالك ياولدى ؟ أنا ربيت يتيما ، وذقت طعم ذل اليتم وكسر الخاطر اه . وكذلك يقول مؤلفه إنى ربيت يتيما فمات والدى وأنا ابن ثمان سنين وتركنى مع إخوتى يتاما ، فكنت ربما أنظر الفاكهة تدخل بيت جيراننا فأقف أنظر إليهم وهم يأكلون ، فربما أعطونى الخوخة أو التينة أو الخيارة فأجد لها موقعا عظيما ، ولما كفلنى والد تربيتى الشيخ خضر رحمه الله ، وأتى بى الريف إلى مصر وكسانى ثياب ولده الذى مات فى فصل السلطان قايتباى رحمه الله حصل لى لذة أجد طعمها إلى الآن فى نفسى مع أن لحيتى قد شابت ، فاعلم ذلك واشفق يا أخى على اليتيم والمسكين ، يقيض الله تعالى لك من يفعل ذلك مع ذريتك ، كما وقع لجدى الشيخ نور الدين رضى الله عنه فإنه كان يشفق على الأيتام والأرامل والمساكين والمجذومين ، ويحلب اللبن ويأكل مع المجذوم

وجذامه يقطر صديدا فببركته قيض الله تعالى لى الشيخ خضر الذى ربانى وزوجته ، فعشت معهما فى أرغد عيش وأرفهه فى المآكل والملبس حتى ماتا ، وبلغت وتزوجت فكنت أعد ذلك من جملة ما جوزى به جدى رحمه الله ، فالحمد لله رب العالمين :

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى مرفوعا : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هٰكَذَا ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا » .

وفى رواية لمسلم والبزار وغيرهما مرفوعا :

« كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِى الْجَنَّةِ » .

وفى رواية للبزار مرفوعا : « مَنْ كَفَلَ يَتِيماً لَهُ ذُو قَرَابَةٍ أَوْ لاَ قَرَابَةَ لَهُ ، فَأَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ وَضَمَّ أُصْبُعَيْهِ ، وَمَنْ سَعَى عَلَى ثَلاَثِ بَنَاتٍ فَهُوَ فِى الْجَنَّةِ » الحديث .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ عَالَ ثَلاَثَةً مِنَ الْأَيْتَامِ كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِرًا بِسَيْفِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِى الْجَنَّةِ أَخَوَانِ كَمَا هَاتَانِ أُخْتَانِ ، وَأَلْصَقَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« مَنْ قَبَضَ يَتِيماً بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ إِلاَّ أَنْ يَعْمَلَ ذَنْباً لاَ يُغْفَرُ » .

وفى رواية الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ ضَمَّ يَتِيماً بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » .

وروى الطبرانى والأصبهانى مرفوعا : « مَا قَعَدَ يَتِيمٌ مَعَ قَوْمٍ عَلَى قَصْعَتِهِمْ فَيَقْرُبُ قَصْعَتَهُمْ شَيْطَانٌ » .

وفى رواية لهما أيضا مرفوعا : « إِنَّ أَحَبَّ الْبُيُوتِ إِلَى اللهِ تَعَالَى بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مُكْرَمٌ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « خَيْرُ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوْمَأَ الرَّاوِي بِيَدِهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى امْرَأَةٌ آمَتْ زَوْجَهَا ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى مَاتَتْ أَوْ مَاتُوا » .

قال الخطابي والسفعاء بفتح السين المهملة ممدودا هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج فتحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج ، وآمت المرأة بمد الهمزة وتخفيف الميم إذا صارت أيما ، وهي من لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا تزوجت أم لم تتزوج بعد : والمراد هنا من مات زوجها وتركها أيما .

وفي رواية لأبي يعلى بإسناد حسن مرفوعا :

« أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْتَحُ بَابَ الْجَنَّةِ إِلاَّ أَنِّي أَرَى امْرَأَةً تُبَادِرُنِي فَأَقُولُ لَهَا مَالَكِ وَمَنْ أَنْتِ ؟ فَتَقُولُ أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَى أَيْتَامٍ لِي » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلاَّ لِلّٰهِ كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٍ ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى » .

وروى الطبراني : « أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلمَ يَشْكُو قَسَاوَةَ قَلْبِهِ . فَقَالَ أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ ، ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَامْسَحْ رَأْسَهُ وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِينُ قَلْبُكَ وَتُدْرِكُ حَاجَتَكَ » .

وفي رواية للإمام أحمد « فقَالَ لهُ : امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ » .

وروى الطبراني ورواته ثقات إلا واحدا فليس بالمتروك .

« وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لاَ يُعَذِّبُ اللّٰهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ رَحِمَ الْيَتِيمَ وَلاَنَ لَهُ فِي الْكَلاَمِ وَرَحِمَ يُتْمَهُ وَضَعْفَهُ وَلَمْ يَتَطَاوَلْ عَلَى جَارِهِ بِفَضْلِ مَا آتَاهُ اللّٰهُ » .

وروى الأصبهاني مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَبُكَاءَ الْيَتِيمِ فَإِنَّهُ يَسْرِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » .

وروى الحاكم والبيهقي والأصبهاني مرفوعا : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرَكَ وَحَنَى ظَهْرَكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرِي فَالْبُكَاءُ عَلَى يُوسُفَ ، وَأَمَّا الَّذِي حَنَى ظَهْرِي فَالْحُزْنُ عَلَى أَخِيهِ بِنْيَامِينَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَتَشْكُو اللهَ ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ، قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللهُ أَعْلَمَ بِمَا قُلْتَ مِنْكَ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَخَلَ يَعْقُوبُ بَيْتَهُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَمَا تَرْحَمُ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ أَذْهَبْتَ بَصَرِي وَحَنَيْتَ ظَهْرِي فَارْدُدْ عَلَيَّ رَيْحَانَتَيَّ فَأَشُمُّهُمَا شَمَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ اصْنَعْ بِي بَعْدُ مَا شِئْتَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا يَعْقُوبُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَبْشِرْ فَإِنَّهُمَا لَوْ كَانَا مَيِّتَيْنِ لَنَشَرْتُهُمَا لَكَ لِأُقِرَّ بِهِمَا عَيْنَكَ وَيَقُولُ لَكَ : يَا يَعْقُوبُ أَتَدْرِي لِمَ أَذْهَبْتُ بَصَرَكَ وَحَنَيْتُ ظَهْرَكَ وَلِمَ فَعَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِيُوسُفَ مَا فَعَلُوا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ إِنَّكَ أَتَاكَ يَتِيمٌ مِسْكِينٌ وَهُوَ صَائِمٌ جَائِعٌ وَذَبَحْتَ أَنْتَ وَأَهْلُكَ شَاةً فَأَكَلْتُمُوهَا وَلَمْ تُطْعِمُوهُ وَيَقُولُ : إِنِّي لَا أُحِبُّ شَيْئًا مِنْ خَلْقِي حُبِّي لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ فَاصْنَعْ طَعَامًا وَادْعُ الْمَسَاكِينَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَكَانَ يَعْقُوبُ كُلَّمَا أَمْسَى نَادَى مُنَادِيهِ مَنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيَحْضُرْ طَعَامَ يَعْقُوبَ ، وَإِذَا أَصْبَحَ نَادَى مُنَادِيهِ مَنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيُفْطِرْ عَلَى طَعَامِ يَعْقُوبَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسَاكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَكَالَّذِي يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ » .

وروى الإمام أحمد والطبراني مرفوعا : « مَنْ أَنْفَقَ عَلَى ابْنَتَيْنِ أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ذَوَاتَيْ قَرَابَةٍ يَحْتَسِبُ النَّفَقَةَ عَلَيْهِمَا حَتَّى يُغْنِيَهُمَا مِنْ فَضْلِ اللهِ أَوْ يَكْفِيَهُمَا كَانَتَا سِتْرًا لَهُ مِنَ النَّارِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نزور الإخوان

والصالحين ، ونكرم كل وارد علينا حتى واردات الحق تعالى فنكرمها بتلقيها بالتعظيم والإجلال والرضا بها عن الله عز وجل .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يسلك به حتى يدخله حضرات الولاية ، ويمر به إلى حضرات الأخلاق الحسنة ، ويكسوه منها ماقسم له فتصير سجيته تعصى النفس والشيطان فى كل ما يطلبانه من العبد ، وبطيع الملك بالبديهة ويطيعه فى جميع لمانه ، وهناك يخوض فى الرحمة إن زار أحدا ذاهبا وراجعا ، فإن غالب زيارات الناس اليوم لبعضهم بعضا لا إخلاص فيها وإنما هى أهوية نفوس ، فترى الفقير أو العالم يزور أخاه وهو متلفت إلى ذكر ما اطلع عليه من نقائص أخيه ، وتستحلى نفسه ذلك حتى يذكره للناس ، وربما كان المذكور لهم ذلك أعداء لذلك الفقير المزور ، فلا هو نصحه فى ذلك النقص الذى رآه فيه بينه وبينه ، ولا هو ستره بين الناس. وكثيرا ما يخرج أحدهم من عند ذلك الفقير أو العالم يقول زرت فلانا البارحة مثلا فوجدت عنده دعوى عظيمة للصلاح والعلم ، ولو علمت أنه فى تلك الحالة مازرته ، ويظهر الندم على زيارته احتقارا له بين الناس ، فمثل هذا الزائر خاض فى نار جهنم ذاهبا وراجعا ، مع أن هذا القائل ربما زار الظلمة والمكاسين وأكلة الحرام ، وأكل طعامهم فى رمضان ، وخرج بنشر فضائلهم ، ولاتكاد تسمع منه لفظة واحدة فى حقهم تنقصهم ، وربما أجاب عنهم زجر من ينقصهم ورد عليه فكان العلماء والصالحون أحق بذلك .

واعلم أن للفقراء والصالحين مكرا خفيا بالزائرين لهم لغير الله فربما طردوهم بتعاطيهم كلمة مباحة حتى لا يكادون يرجعون إليهم ، كما وقع لسيدى أبى السعود الجارحى مع شخص من العلماء الكبار دخل عليه بميزان الامتحان فقال الشيخ أبو السعود :

يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي أَشَرَّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

بنصب الناس وأشر ، فقال العالم هذا لايعرف الفاعل من المفعول ، فكيف يكون صالحا وفارقه ذامآله فلقيه الشيخ بعد شهر فكاشفه ، وقال : يظن الناس بضم السين فنزل العالم واستغفر الله تعالى ، فقال له الشيخ نصبة راحت بلك ، ورفعة جاءت بلك ، ماهكذا يزور الناس الفقراء ، وما يضرنا اللحن إلى اللحن فى القرآن أو الحديث اه .

فحرر يا أخى النية الصالحة لكل من طلبت زيارته ثم زر ، ولو لم تجد نية صالحة إلى سنة أو أكثر فلا حرج عليك فى ترك الزيارة ، وقد كان السلف الصالح يحبون إرسال

السلام لبعضهم بعضا ، ويرون ذلك أحسن من اللقاء خوفا ، إن كل واحد يرائى الآخر بذكره أحسن ما عنده من الكلام والأخلاق ، ويزكى نفسه فيستحقان الطرد والمقت كما وقع لإبليس لعنه الله .

وبالجملة فلا يتشوش من قلة زيارة إخوانه له إلا كل قليل العقل : وقد دخل علىّ شخص من مشايخ العصر كان عندى من أعز الإخوان ، فذكرت له عن سيدى على الخواص رحمه الله أنه كان يقول: من شرط من يدعى الكمال فى طريق أهل الله تعالى، أن يكون فقيها محدثا صوفيا فقلت وقد من الله تعالى على بالثلاثة ولله الحمد وقصدت بقولى فقيها أننى من أهل الفهم فى الكتاب والسنة إذ الفقه لغة الفهم ، وبقولى محدثا أننى أعرف أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وبقولى أنا صوفى لبس الجبة الصوف ، فخرج من عندى ما ترك زاوية حتى دخل يذمنى فيها ، فقلت له كيف تدعى طريق الفقراء وأنت لا تحمل أخاك على محمل واحد حسن .

وقد قال الإمام النووى فى آداب العالم والمتعلم فى مقدمة شرح المهذب: يجب على الطالب أن يحمل إخوانه على المحامل الحسنة فى كل كلام يفهم منه نقص إلى سبعين محملا ، ثم قال : ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق اه :

ثم إذا دخلت يا أخى لزيارة أخيك فإياك وذكر حال أركان الدولة ، وما هم فيه أو تذكر أحدا من المسلمين بسوء ونحو ذلك فيصير اجتماعكما معصية ، وهذا الأمر يقع فيه أكثر الزوار اليوم فيجمع كل واحد منهما جملة كلام وقع فى تلك الجمعة فيحكيه لصاحبه ليس فيه كلمة واحدة نصحا ولا خيرا ، ومثل هؤلاء لا ينبغى فتح الباب لهم . وقد كان سيدى يوسف العجمى شيخ سلسلة التصوف بمصر المحروسة رحمه الله يوصى النقيب أنه لا يفتح الباب لأحد ممن لا يريد الطريق إلى الله تعالى من أبناء الدنيا إلا إن كان معه طعام أو فتوح للفقراء من مال وثياب، ويقول : من لم يأت بشىء معه للفقراء فزيارته مدخولة، فقيل له إنكم بحمد الله ليس عندكم ميل إلى الدنيا ، فقال صحيح ولكن أعز ما عند أبناء الدنيا دنياهم، وأعز ما عند الفقراء وقتهم ، فلا يشغلونه إلا فى شىء يحصل لهم به درجات فى الآخرة، فإن بذلوا للفقراء أنفس ما عندهم من الدنيا بذلنا لهم أنفس ما عندنا من الوقت.

وما أعرف فى أصحابى اليوم أحسن زيارة من أخى الإمام العلامة شمس الدين الخطيب الشربينى فسح الله فى أجله وصاحبه الشيخ صالح السلمى رضى الله عنهما ، فلم

أضبط عليهما قط حال زيارتهما كلمة سوء فى أحد من خلق الله تعالى ، لامن أهل العلم ولا من الفقراء ولا من الولاة ولا من العامة ، فرضى الله عنهما ، وهذا أمر عزيز الوقوع فى طائفة العلماء فى هذا الزمان فضلا عن غيرهم ، بل وقع لى أن شخصا من العلماء جلس عندى فى الحجر تحت الميزان فأخذ يستغيب واحدا من أقرانه ، فلولا لطف الله لنزل على وعليه صاعقة من السماء ، فقلت له : وفى مثل هذا المكان الشريف يقع منك غيبة ؟ فقال : وأستغيب فى جوف الكعبة من يستحق الغيبة ، فقلت له : دستور أدعو الله إن كنت كاذبا ينزل عليك الحب الأفرنجى ؟ فقال نعم ، فدعوت عليه بذلك فى الملتزم فما رجع من الحجاز إلا وبدنه مشغول بالحب ، وهو إلى الآن بضربان المفاصل ، نسأل الله العافية :

وقد كانت زيارة الإخوان فى الزمن الماضى كلها فائدة وتلقيحا لبعضهم بعضا كتلقيح النخل ، وكان أحدهم لا يقول لأحدهم كيف حالك إلا ليعرفه أخوه بما هو محتاج إليه على الأثر قول بفعل فصار اليوم يلقى الشخص أخاه فيقول له كيف حالكم فيقول طيب والحال أنه فى غاية التشويش من ضيق معيشة أو من أذى أحد له لعلمه بأن قلب من قال له كيف حالكم فارغ منه إما شامت وإما يسخر به ، ولذلك يلقى بعض الناس صاحبه فيقول له أى شىء حالكم ؟ فلا هو يخبره بحاله ولا الآخر يقف حتى يعرف حاله ، وكل ذلك نفاق مكتوب اسم صاحبه فى جريدة المنافقين ، فى دواوين السماء بنص الشريعة المطهرة ، وكانوا يقولون فى الزمن الماضى : إذا قل رأس مالك زر إخوانك وصار الحال اليوم إذا زار صاحب الرسمال من الدين أخاه نقص رأس ماله أو زال .

وسمعت سيد عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى أن يتوقف الزائر لأخيه فى الله تعالى على شىء يركبه مع قدرته على المشى إليه ، وكذلك كل عبادة كطلب علم وخطبة امرأة هو محتاج إليها وجنازة وشفاعة ونحو ذلك كما قال الشعبى رحمه الله ، وكان لى صاحب يأتينى من كوم الجارح إلى مصر حافيا مكشوف الرأس ؛ فربما منعه البواب فيقول قولوا لعبد الوهاب رجل جاءكم حافيا مكشوف الرأس فردوه وما قبلوه ، فكيف بمن يجيئكم متنعلا بعمامته ، فكنت أفهم إشارته فأخرج له أتلقاه بالترحيب وأقبل يده ، وأنشد مجنون بنى عامر :

وَلَوْ قَطَعُوا رِجْلِي مَشَيْتُ عَلَى الْعَصَا ۝ وَإِنْ قَطَعُوا الْأُخْرَى حَبَوْتُ حَبَوْتُ

وَلَوْ دَفَنُونِي تَحْتَ أَلْفِ قَامَــةٍ تَخَلْخَلْتُ مِنْ بَيْنِ التُّرَابِ وَجِئْتُ

وأنشدوا أيضا :

زُرْ مَنْ هَوِيتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حُجُبٌ وأَسْتَارُ

لَا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

وخرجت مرة مع سيدى محمد بن عنان لشخص من الفقراء اسمه الشيخ عبدالودود بنواحي قلعة الجبل بمصر ، فلما أقبل عليه الشيخ حجل بين يديه فرحا بقدومه كما حجل بعض الصحابة بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم عليه زائرا ، وكذلك كان يفعل الشيخ أبو بكر الحديدى إذا قدم عليه فقير .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لفقير أن يزورأحدا من إخوانه إلا بشيء من القوت ولو رغيفا ، فإن لم يجد شيئا فليدع له بظهر الغيب فإنها هدية فى صحيفته يوم القيامة ، وهى أنفع من رغيف بعنى بيقين .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لاتدخلوا لزيارة عالم أو صالح إلا وميزان إنكاركم مكسرة خوفا عليكم من المقت ؛ فإنه أعلم منكم بيقين :

* وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ *

لعدم وصولهم إلى مراتبهم ، وكم ممن دخل على عالم أو صالح بدين فخرج بلا دين فحرروا نيتكم قبل الدخول ، فإن لم يصح لكم إخلاص فارجعوا .

وكان أخى الشيخ الصالح الشيخ محمد الصندفاوى يقول . ربما أمكث السنة أو أكثر وأنا مشتاق إلى زيارة بعض الإخوان فلا أجد نية صالحة أزوره بها فعاتبنى مرة على طول غيبتى فقلت له حتى وجدت لى نية صالحة جئتك بها ، فقال جزاك الله تعالى خيرا .

وسمعت شيخنا الشيخ عبد القادر الشاذلى رحمه الله يقول : إذا خرج أحدكم لزيارة فلا يخرج إلا بعد صلاة ركعتين ثم يقول بتوجه تام : اللهم إن كان فى علمك أن أحدا من الإخوان خرج لزيارتى من بيته فعوقنى عن الخروج ، وإن كان لم يخرج فعوقه فى البيت حتى أذهب إليه لئلا نتعب نحن وهو من غير ملاقاة ، فإن للقاء لذة ليست كغيره :

كما حكى أن أعرابيا ضاع له بعير فكان ينادى ألا من رأى البعير الفلانى فهو له ، فقال له إنسان فما فائدة وجوده ؟ قال لذة اللقاء لا غير :

وكان أخى الشيخ أحمد السطيحة رحمه الله يقول : أقل مقام الفقير الزائر أن يتلقاه المزور ، كما يتلقى الأمير الكبير ، وإن كان عنده بطيخ أو رطب أو عنب أو نحو ذلك تقى له أطايبه كما ينقى لمن دخل عليه من أكابر الدولة ، كالدفتردار وقاضى العسكر والسنجق والباشا ، ومتى قصر عن ذلك فقد أساء الأدب مع الفقير ، وإن كان يدعى الفقر قلنا له أنت لم تشم من طريق الفقر رائحة ؛ لأن تعظيم الخلق إنما يكون بحسب مقامهم عند الله تعالى ، ولا شك أن صفة الافتقار أقرب إلى الله من صفة الكبرياء والغنى .

وقد قال أبويزيد البسطامى رضى الله عنه : يا رب بم يتقرب إليك المتقربون؟فقال : بما ليس من صفتى ، فقال يارب وما هو ؟ قال الذل والافتقار اه وهذا الأمر على خلاف القاعدة العقلية من أنه لايقرب شىء من شىء إلا بمافيه من المشابهة ؛ فكل ماتخلق به العبد من نظير صفات الحق تعالى فى الأسماء التى لم يأذن فى التخلق بها يبعده عن الحق كما أشار إليه خبر :

« الْكِبْرِيَاءُ إِزَارِي وَالْعَظَمَةُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » .

فثم صفات لم يأذن الحق فى التخلق بها ، وثم صفات أذن لعباده فى التخلق بها كالكرم والصفح والحلم ونحو ذلك .

وسمعت سيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح رحمه الله يقول : ماخرج أحد لزيارة عالم أو صالح ليستفيد علما أو أدبا إلا ورجع بما كان فوق أمله من ذلك ، وما خرج أحد لإنكار أو انتقاد إلا ورجع محملا بالأوزار ، لأن العلماء بالله تعالى جارون على الأخلاق الإلهية فى نحو حديث :

« أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » . وفى نحو حديث « الْمَسْجِدُ بَيْتِي ، فَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِشَيْءٍ فَهُوَ حَظُّهُ » .

واعلم أن الزيارة مأخوذة من الزور : أى الميل ، يقال زار فلان فلانا إذا مال إليه ، ومن شرط صحة الميل لشخص أن يعمى عن مساويه .

وقد بلغنا عن السلف أنهم كانوا إذا خرجوا إلى زيارة عالم أو صالح تصدقوا بصدقة وطلبوا بذلك أن الله تعالى يعميهم عن مساوى ذلك المزور ، فكانوا لايخرجون من عنده إلا بفائدة ، ولو لم يكن هو من أهلها أجراها الله تعالى على لسانه لموضع صدق الزائر ؛

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إذا زارت غيالكم بعض إخوانكم فلا تتكلفوا فى الطبيخ عندهم ، وخففوا الأمر جهدكم ، فإن طبختم عندهم الطعام كلفتموهم إلى مثل ذلك ، ثم لا تناموا عندهم إلا إن كانت الدار واسعة المرافق تسعكم وتسعهم من غير مشاركة فى دخول بيت الخلاء ، ويكون الزمان زمان صيف ، فإن كانت الدار ضيقة أوفى ليالى الشتاء ، فارجعوا ناموا فى بيوتكم . واستأذنه مرة بعض إخواننا فيما يطبخه عند أصهاره من الطعام ؟ فقال : تسمع نصحى فقال : نعم ، فقال خذ أذناب البقر من قاعة الدهن واسلخها وفكك عظمها واصلقها فى الماء ، فإذا علا الدهن فوق الماء فاقشط الدهن وكب الماء الزفر وضع فى الدست ماء نظيفا واسكب الدهن عليه ، ثم حط عليه شوية أرز أوشوية دشيش قمح ، فقال ياسيدى ، أستحى أدخل لبيت أصهارى بأذناب البهائم ، فقال : يا ولدى إن الذنب لا ينظر أحد إليه بخلاف الأشياء الفاخرة وهذا لا يقدر عليه إلا من خلص حاله مع الله ولم يراع أحدا من وجوه العظم .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : لا ينبغى للمريد أن يزور ولا يزار لغلبة الآفات عليه ، فلا هو مرصد للتربية ليقتدى به ولا المزور معد لتربيته ، وربما سمع من ذلك الشيخ الذى زاره كلمة موافقة لهواه فتسربها نفسه فهلك ، وأراد سيدى محمد الشناوى زيارة شيخ من مشايخ عصره فشاور شيخه الشيخ محمد بن أبى الحمائل رحمه الله فنظر إليه شزرا ، وقال : يا محمد لا ينبغى لمريد أن يأخذ عن شيخ إلا إذا علم أنه يكفيه عن جميع الناس ، فإن كنت لا أكفيك فكيف تقيدت على فى الظاهر وباطنك بخلافه ، فقال يا سيدى التوبة فتاب ، قال فما زرت بعد ذلك المجلس أحدا من المشايخ حتى مات شيخى .

وسمعت أخى أبا الفضل يقول : قل أن يزور مريد مريدا إلا ويذكر كل منهما للآخر محاسن نفسه ويزكى كل منهما نفسه فيهلكان جميعا ، لأن إبليس لمثل ذلك بالمرصاد ، وغاية الزيارة أنها سنة ، وإذا جاءنا فى طريق تلك السنة معصية لا نقدر على السلامة منها تركنا تلك السنة ، ولاشك أن تزكية الإنسان لنفسه حرام إلا لغرض صحيح ، كما زكى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بقوله :

« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » .

وإنما قال ذلك لأجل أن أمته يزيحون نفوسهم من التعب فى الذهاب إلى نبى بعد نبى يوم القيامة كغيرهم من الأمم ويأتونه أولا ، فما ذهب إلى غيره وتعب إلا من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه :

ومعلوم أن المريد غارق فى حكم الطبيعة لايقدر على تزكية نفسه إلا ليمدح بذلك عند الناس فافهم ، وما أمرنا الشارع بزيارة بعضنا بعضا إلا خالصا مخلصا لوجه الله لانريد من الخلق جزاء ولا شكورا .

وسمعت سيدى الشيخ أبا السعود الجارحى يقول : إذا زار أحدكم أميرا فليسأله الدعاء فإن الله تعالى يستحيي من الأكابر فى هذه الدار أن يرد لهم دعوة يسألونه فيها فلاتتوقف ياأخى فى ذلك ، وإن من فضله سبحانه وتعالى أنه يجيب دعاء ملوك الكفار إذا سألهم قومهم حاجة فضلا عن ولاة المسلمين ، كما وقع لفرعون فى طلوع النيل حين توقف وقال يارب لاتفضحنى بين قومى : وتأويل ذلك أن سؤال الأمير لربه فى الأمور الدنيوية أقرب من دعاء الصالح إذ الأمير همته متوفرة إلى الدنيا بخلاف الصالح ، فإذا سأل أحدنا الأمير المحب للدنيا فى حاجة يتوجه بكليته إلى قضاء تلك الحاجة الدنيوية الفانية التى لاتسوى جناح بعوضة فيعطيها الله لذلك المدعو له ، لأن حضرة جوده واسعة وجوده فياض لا يرد سائلا يسأل شيئا نفيسا أو خسيسا بخلاف الصالح ليس له همة متوجهة إلى تحصيل شىء من أمور هذه الدار إلا مالا بد له منه ، ومعظم همته أن الله تعالى يؤخر تلك الحاجة للدار الآخرة التى هى دار البقاء .

وقد ورد : « إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْدَمُ فِي الآخِرَةِ عَلَى كُلِّ حَاجَةٍ قَضِيَتْ لَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا لِمَا أَعَدَّ اللهُ ، وَلِمَا يَنْظُرُ مِنَ الثَّوَابِ الجَزِيلِ لِأَهْلِ البُؤْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا حَتَّى يُقَالَ لِأَحَدِهِمْ إِذَا غُمِسَ فِي النَّعِيمِ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطّ ؟ فَيَقُولُ لاَ يا رَبِّ » .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : بلغنا عن الإمام أحمد أن السلف كانوا إذا اجتمع أحدهم بأخيه لايفترقان إلا على قراءة سورة :

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) .

إلى آخرها فينبغى المواظبة على ذلك :

وكان سيدى محمد بن عنان إذا زاره أحد لايدعه يذهب حتى يقدم له طعاما ، فإن لم

يجد أسقاه الماء، وكان يقول أحيوا هذه السنة فإن بها تأتلف القلوب، ويقوى شعار الدين وتتعاضد القلوب بعضها بعضا ، وكان يقول : إذا دخل أحد من الأكابر عليكم فلا تغيروا ملبوسكم لأجل قدومه إلا بنية صالحة ، وكذلك إذا دعيتم لشفاعة أو جنازة ثم يحكى عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول لو قيل لى إن فلانا داخل عليك فسويت لحيتى بيدى لقدومه وأنا غافل عن نية صالحة فى ذلك لخشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين اه .

وسمعت سيدى محمدا المنير رضى الله عنه يقول ليتحفظ الفقير إذا دخل عليه أمير كل التحفظ ، فإن كان يعلم من نفسه أنه يأمره بمعروف وينهاه عن منكر فليقابله ، وإلا فليقل له أحد إن فلانا ماهو هنا ويشير إلى مكان بعينه فى نفسه وأين من يدخل عليه الباشات أو الدفتر دار مثلا وعليه ثوب حرير فيقول له هذا حرام عليك فانزعه ، وإلا فلا تعد تدخل علينا هذا أمر قليل وقوعه جدا ، فالهروب من مقابلتهم أولى والسلام .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : من أدب الزيارة للملوك أن يدخل الزائر إليهم أعمى ويخرج من عندهم أخرس .

فتأمل ياأخى جميع ماذكرته لك فى هذا الدهليز إلى العمل بالعهد ثم زر أواترك والله يتولى هداك .

وروى مسلم مرفوعا : « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هٰذِهِ الْقَرْيَةِ ؟ قَال : هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ، قَالَ : فَإِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » .

والمدرجة : الطريق ، ومعنى تربها : أى تقوم بها وتسعى فى صلاحها وتكافئه عليها .

وروى ابن ماجة والترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْزَارَ أَخًا فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ : بِأَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً » .

وفى رواية للبزار وأبى يعلى مرفوعا :

« مَا مِنْ عَبْدٍ أَتَاهُ أَخُوهُ يَزُورُهُ فِي اللهِ إِلاَّ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ طِبْتَ

وَطَابَتْ لَكَ الْجَنَّةُ وَ قَالاَ : قَالَ اللهُ فِي مَلَكُوتِ عَرْشِهِ : عَبْدِي زَارَنِي وَعَلَيَّ قِرَاهُ فَلَمْ أَرْضَ لَهُ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّةِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِرِجَالِكُمْ فِي الْجَنَّةِ ؟ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالرَّجُلُ يَزُورُ أَخَاهُ فِي نَاحِيَةِ الْمِصْرِ لاَ يَزُورُهُ إِلاَّ لِلهِ فِي الْجَنَّةِ » الحديث .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا زَارَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ شَيَّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ كَمَا وَصَلَهُ فِيكَ فَصِلْهُ » .

وروى مالك باسناد صحيح مرفوعا : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلْمُتَحَابِّينَ فِيهِ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيهِ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيهِ » .

وفى رواية له منقطعا قال عبد الله بن مسعود لأصحابه حين قدموا عليه : هل تجالسون؟ قالوا لانترك ذلك ، قال هل تزاورون ؟ قالوا نعم ياأبا عبد الرحمن ، إن الرجل منا ليفقد أخاه فيمشى على رجليه إلى آخر الكوفة حتى يلقاه ، قال إنكم لن تزالوا بخير مافعلتم ذلك :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ زَارَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ حَتَّى يَرْجِعَ ، وَمَنْ عَادَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ خَاضَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » .

وروى البزار باسناد جيد : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى بَنِي وَاقِفٍ نَزُورُ خِلاًّ لَنَا الْبَصِيرَ وَكَانَ مَكْفُوفَ الْبَصَرِ » .

وروى الطبرانى والبزار مرفوعا : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

قال البزار ولا يعلم فيه حديث صحيح .

وقال الحافظ عبد العظيم وكذلك أنا لم أقف له على طريق صحيح لكن له أسانيد حسان عند الطبرانى وغيره ، قلت : قال الحافظ السخاوى ومجموع طرق الحديث

يصير بها قويا وقول البزار ليس فيه حديث صحيح لاينافى ذلك قال وقد أنشد ابن دريد فى ذلك :

عَلَيْكَ بِإغْبَابِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا ... إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكَا
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْغَيْثَ يُسْأَمُ دَائِمًا ... وَيُسْأَلُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

وأنشد غيره :

أَقْلِلْ زِيَارَتَكَ الصَّدِيقَ تَكُونُ كَالثَّوْبِ اسْتَجَدَّهُ
وَأَشَدُّ شَيْءٍ لِامْرِئٍ أَنْ لاَ يَزَالَ يَرَاكَ عِنْدَهُ

والله تعالى أعلم .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت لعبيد بن عمير ، قد آن لك أن تزورنا ، فقال أقول ياأمه كما قال الأول :

« زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

فقالت دعونا من بطالتكم هذه ، الحديث .

وروى الامام أحمد ورواته ثقات : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ سَلَمَةَ أَصْلِحِي لَنَا الْمَجْلِسَ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مَلَكٌ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَيْهَا قَطُّ » .

وروى الإمام أحمد عن أم بجيد بضم الموحدة وفتح الجيم ، قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فى بنى عمرو بن عوف ، فأتخذ له سويقاً فى قعبة فإذا جاء سقيتها إياه » .

وروى الطبرانى موقوفا ورواته ثقات : أن إبراهيم بن قشيط وهو المدفون بطنط أبى تراب فى الغربية قال الحافظ وليس فى مصر قبر صحابى محقوق غيره دخل على عبد الله بن الحرث ابن جزء الزبيدى فرمى إليه بوسادة كانت تحته وقال : من لم يكرم جليسه فليس من أحمد ولا من إبراهيم عليهما الصلاة والسلام والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقرى الضيف ونكرمه ونأمر جميع إخواننا بذلك ونبين لهم ماورد فى تأكيد حقه ، وهذه السنة عظيمة

والعمل بها قليل لاسيما قرى الأمراء فلا تكاد ترى لهم رغيفا إلا فى النادر وكان الأولى لهم إحياء هذه السنة التى اندرست ويقرون كل وارد عليهم حسب الطاقة ، لأن حامل العلم والقرآن من نواب النبى صلى الله عليه وسلم وصغيرته كبيرة فينبغى لكل عالم أن يدعو طلبته إلى طعامه كلما قرءوا عليه ولو رغيفا يفرقه عليهم .

وقد قلت مرة لطالب علم ورد علىّ فغديته لاتؤاخذنا بالتقصير فإن طعاما قليل الدسم ماهو مثل طعام شيخك فقال لى أنا مارأيت له طعاما إلى وقّى هذا مع أنه أجازه بالفتوى والتدريس .

واختلف الناس مرة فى هلال رمضان فقال الناس انظروا العلماء هل هم صائمون فصوموا ؟ فقال شخص عن شيخه إنه تغدى هو وأنا فى هذا اليوم، فقال له طالب آخر هذا من علامة كذبك ، فإن شيخنا مارأيناه قط يأكل مع أحد ، ثم قال لى يقولون فى أفواه الناس ثلاثة لاترى لهم أجنحة الفرس ورجل الثعبان وخبز الفقيه ، فقلت له ثم من العلماء من قلبه عاكف فى حضرة الاسم المانع فلا يقدر على أن يطعم أحدا إلا إن خرج من حضرته إلى حضرة الاسم الكريم والمعطى وأجبت عن شيخه فلم يصغ إلىّ وقال لاأقدر على قلبى يميل إلى من لايطعمنى مثل من يطعمنى أبدا فقلت له هل هذا الذى منعكه كان رزقك وحال بينك وبينه ، أم ليس هو رزقك ؟ فقال هو ليس رزقى وقولك صحيح ولكن الله قد ذم البخيل، مع أنه لم يقسم على يديه لأحد رزقا ، فقلت له : للحق تعالى أن يذم عبده ، وأما نحن فليس لنا الاشتغال بذم الخلق خوفا من وقوعنا فى غيبتهم، ورجوعنا فى أمرهم إلى القسمة الأزلية فيه رائحة عذر لهم وأسلم لديننا ، فعلم أن الكريم جعل الله تعالى أرزاق الخلائق على يديه ومدحه فضلا منه ، والبخيل لم يجعل لأحد على يديه رزقا وذمه عدلا منه فما أطعم كريم قط أحدا من رزقه هو وإنما أطعمه ماقسمه الحق تعالى المالك الآخذ، ولو أراد أن يمنعه لما قدر وليتأمل الإنسان فى نفسه يطبخ الدست الطعام الكبير فى داره ويتعب فى تحصيله ولا يقسم له منه لقمة ويأتى الضيف فيأكل منه ، فالمنة لله تعالى الذى خلق وقسم والعبد كالقناة الجارى منها الماء أو كالدست أو كالمغرفة فمن مدح القناة أو الدست أو المغرفة فى المجالس ونسى الله فهو أخرف العقل .

فإياك يا أخى أن تطلق لسانك فيمن وردت عليه فلم يطعمك شيئا لاسيما الأولياء المكملون من أصحاب الكشف فإنهم ما منعوك عن بخل وإنما ذلك لكونك لم يقسم لك شىء على يدهم لكونهم خرجوا عن شهود الملك لشىء من الكون دون الله ويرون

نفوسهم كالوكيل الذى عين له المالك جماعة يعطيهم وجماعة يمنعهم فليس له تعدى مراسم المالك الحقيقى أبدا فهم يودون أنه يقسم على يدهم شيء لذلك الممنوع فلم يجبهم الحق تعالى لذلك لما سبق فى علمه ، وقد قالوا : أقبح من كل قبيح صوفى شحيح أى يشح على الناس بحكم الطبع والجبلة لا بحكم الكشف وعدم القسمة .

وقد أخبرنى شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رحمه الله تعالى أنه قدم هو وجماعة على سيدى إبراهيم المتبولى ببركة الحاج فأبطأ عليهم بالضيافة ، قال ثم خرج إلينا فقال ما بقى شيخ فى هذا الزمان إلا اللقمة ، فإن كان عندنا مدد فهو فى لقمتنا ، ثم شق لنا بطيخة وصار يفرق علينا من غير ترتيب السنة فأراد بعض أصحابى أن يعترض عليه ، فقلت له الأدب ولكن ورخوا هذه الواقعة فورخناها فكانت تفرقته على ترتيب الأعمار فالذى أعطاه أولا مات أولا والذى أعطاه ثانيا مات ثانيا وكنا اثنى عشر نفسا ، فلم يتقدم متأخر على متقدم أخذ الشقة قبله ، ثم قال لى ياولدى الاعتقاد ربح والإنكار خسران رضى الله تعالى عنه .

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : إياك أن تضيف إنسانا أو يخطر فى بالك المقابلة إذا وردت أنت الآخر عليه بل أطعمه لوجه الله لا تريد منه جزاء ولا شكورا ، ومتى خطر فى بالك أنه يقابلك إذا وردت عليه فلست مخلصا بل أنت مراء والمرائى أجره حابط من أصله ، قال وهذا هو حال غالب الناس اليوم ، فإن علمت ذلك ياولدى من إنسان فلا تأكل له طعاما لاسيما الفلاحون ، فإن أحدهم لايتكلف لمن ورد عليه إلا على نية طلب العوض لعجزهم عن بلوغ مقام الإخلاص وإن شككت فجرب اه .

قلت : وقد سافرت مرة إلى سيدى أحمد البدوى أزوره فعزم على شخص وذبح لى شاة وجمع أهل بلده عليها ، فحصل لى منها عضة من ذنبها من غير زيادة فما رجعت مصر ومكثت نحو سبعة أيام إلا وهو داخل إلى ومعه سبعة عشر نفسا ، وكنت متجردا من الدنيا لا أقبل من أحد شيئا مطلقا ، وليس لى حرفة ، فأرسلت السوق وجئت لكل واحد برغيف وشقفة ملح ، فلما وضعتها بينهم صاروا يوبخون صاحب العنز ويقولون هذا صاحبك ثم غضبوا وخرجوا من غير أكل إلى وقتنا هذا فاعلم ذلك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول إذا استضفت إنسانا فقال لك بعد يوم أو يومين أو ثلاثة دستور أروح فإنى أخاف أن أكون شققت عليكم فلا تأكل له طعاما

بعد ذلك ، لأنه ما قال ذلك إلا بحسب ما عنده من أنه يستثقل بالضيف اه وهذا منزع دقيق .

وسمعته مرة أخرى يقول : إياك أن تأكل لمن استضافك لأجل اعتقادمفيك الصلاح فإنك إن كنت صالحا فى نفس الأمر فقد أكلت بدينك ، وإن لم تكن صالحا فقد أكلت حراما بنص الشريعة ، فقلت له ممن آكل؟ فقال لا تاكل إلا ممن لو رآك تشرب الخمر لايقطع ضيافته عنك فإنه حينئذ يطعمك لله تعالى ، بخلاف من غلب ظنك فيه أنك لو سلمت من الصلاح لم يطعمك لقمة اه وهذا ورع الفقراء الذين مضوا ، وأما اليوم فلا تكاد ترى أحدا يتورع من ذلك .

وسمعته رضى الله عنه يقول : إذا استضفت إنسانا فى رمضان فلا تقدم له طعاما كثيرا زيادة على حاجته إلا إن علمت منه العفة والقناعة وعدم شراهة النفس ، فإن علمت منه ضد ذلك فأخرج له شيئا يسيرا لأن رمضان شهر الجوع ومن أعان ضيفا على تعدى آداب الشارع فهو إلى قلة الأجر أقرب فينبغى للفقير أن يكون أشفق على الناس وعلى دينهم من أنفسهم فقلت له ربما خاف الإنسان من نسبته إلى تقصير إذا أخرج للضيف كسرة يابسة مثلا فقال : من يخاف العتب من الناس ما هو من رجال هذا المقام إنما هذا لمن يراعى الله وحده ، وقد جربنا أنه ما أخلص عبد فى شىء ورد عليه بسوء أبدا فإن رد عليه بسوء فإنما ذلك لشىء يخالطه من أهوية النفوس .

وسمعته مرة أخرى يقول : لا يكمل الفقير عندنا فى الطريق حتى يكرم كل وارد عليه من الأنفاس والخواطر من حيث إنهم رسل الله إليه فتروح تلك الأنفاس والخواطر إلى حضرة ربها شاكرة له ماصنعه فيها من الأعمال المرضية والأخلاق النبوية .

وسمعته مرة أخرى يقول : إياك أن تضيف مريدا من مريدى الغير ، إلا إن كنت تعلم منه ثبات قلبه مع أستاذه بحيث لايبدى لك ميلا يجرح مقام أستاذه فإن علمت منه ذلك فليس لك أن تضيفه ، لئلا يتلف حاله مع شيخه ويصير لايقبله كما أنك أنت الآخر لا تقبله من حيث إشراكه أستاذه معك أو إشراكك مع أستاذه .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : إذا صرت موردة للناس فإياك أن تتكلف لضيف فإنك تهرب ولو على طول .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » الحديث.

وفى حديث الشيخين : « وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » .

أى وإن لزوارك وأضيافك عليك حقا ، يقال للزائر زور بفتح الزاى سواء فيه الواحد والجمع قاله الحافظ عبد العظيم .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلم فَقَالَ إِنِّى مَجْهُودٌ فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِى إِلاَّ مَاءٌ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ بِأَمْرِهِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، لاَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِى إِلاَّ مَاءٌ ، فَقَالَ مَنْ يَضِيفُ هٰذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ أَنَا يَا رسولَ اللهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ هَلْ عِنْدَكِ شَىْءٌ ؟ قَالَتْ لاَ إِلاَّ قُوتَ صِبْيَانِنَا قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَىْءٍ ، وَإِذَا أَرَادُوا الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ ؟ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِى السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ » .

وفى رواية: « فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ . قَالَ فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ وَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَالَ : قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ ـ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ـ » .

وروى مالك والشيخان وغيرهم مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِىَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ » .

قال الترمذى : ومعنى لا يثوى عنده لا يقيم حتى يشتد على صاحب المنزل والحرج الضيق اه .

وقال الخطابى : معناه لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد ثلاثة أيام من غير استدعاء منه حتى يضيق صدره فيبطل أجره .

قال الحافظ عبد العظيم : وللعلماء فى هذا الحديث تأويلان : أحدهما أنه يعطيه ما يجوز به ويكفيه فى يوم وليلة إذا اجتاز به ، وثلاثة أيام إذا قصده ، والثانى يعطيه ما يكفيه يوما وليلة ويستقبلهما بعد ضيافته ؟

وروى الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى مرفوعا :

« لِلضَّيْفِ عَلَى مَنْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ثَلَاثٌ فَمَا زَادَ فَهُوَ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى الضَّيْفِ أَنْ يرتحِلَ لَا يُؤَثِّمُ أَهْلَ الْمَنْزِلِ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات والحاكم مرفوعا :

« أَيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُومًا فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ قِرَاهُ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ » .

وفى رواية لأبى داود وابن ماجه : « لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، فَمَنْ أَصْبَحَ بِفِنَائِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ دَيْنٌ إِنْ شَاءَ قَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ » .

وفى رواية لأبى داود والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« أَيُّمَا رَجُلٍ أَضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُومًا ، فَإِنَّ نَصْرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ قِرَى لَيْلَتِهِ مِنْ زَرْعِهِ وَمَالِهِ » :

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ حَقٌّ لَازِمٌ ، فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ قَالَهَا ثَلَاثًا ، قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا كَرَامَتُهُ ؟ قَالَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، فَمَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّى عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَتْ مَائِدَتُهُ مَوْضُوعَةً » .

وفى رواية لابن ماجه وابن أبى الدنيا مرفوعا :

« لَلْخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ مِنَ الشَّفْرَةِ إِلَى سَنَامِ الْبَعِيرِ » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد مرفوعا : « مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَنَّةِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُضِيفُ » .

ورجاله رجال الصحيح إلا ابن لهيعة والله تعالى أعلم :

(أخذعلينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا الفلاحين وأهل الغيط فى الزرع وغرس الأشجار التى تثمر أو يتخذ منها الخشب لمنافع الناس ، فإن ذلك معدود من الصدقة الجارية بعد موت العبد سواء باشر الزرع والغرس بنفسه أو أقام من يفعل ذلك له بأجرة ، لكن أجر من يباشر ذلك أرجح وأكثر منفعة فإن الأرض قد قلت بركتها تبعا لاختلاف النيات ، وفساد المعاملة مع الله تعالى ومع خلقه ، وما بقى فيها فائدة إلا لمن يعمل بيده ، وأما من يعمل بالأجرة فهو إلى الخسارة أقرب لاسيما زرع الكتان فانه مجرب للخسارة لكثرة تعبه ، اللهم إلا أن يوجد شخص يراقب الله تعالى فى غيبة صاحب الزرع حتى يكون غيابه مثل حضوره فربما فضل له شيء يسير بعد الخراج والكلف وهذا أعز من الكبريت الأحمر بل بعضهم لاينصح فى شغله بحضرة صاحب الزرع وذلك مذهب للبركة بل أخبرنى بعض الإخوان أنه زرع كتانا وعصفرا فما جاء الكتان قدر كلفته ولا جاء العصفر قدر أجرة النساء اللاتى جنوه ، فطالبوه ببقية الكلفة .

وقد بلغنا أن شخصا من الملوك فى زمن داود عليه السلام رأى فى منامه قمحا قدر بيض النعام ، وكان لايرى فى منامه إلا شيئا له حقيقة ، فأرسل رسلا إلى نواحى الأرض يسألون هل رأى أحد منكم أو سمع بقمح قدر بيض النعام ، فقال شيخ قد طعن فى السن ، نعم ، رأيت ذلك وهو تحت عتبة تلك الدار الخراب ، فحفروا نحو قامتين فوجدوا خابية كبيرة ملآنة من ذلك القمح ، فأحضروها بين يدى ذلك الملك ، فسأل الملك داود عليه السلام عن ذلك فأوحى الله تعالى إليه أن شخصا استأجر أرضا فحرثها فوجد فيها قدرة ذهب ، فحملها إلى صاحب الأرض فردها ، وقال هى رزقك ولم يرض أن يأخذها ، فجمعا أصحابهما فأشاروا أن يجهزوا ابنة أحدهما وتزوج لابن الآخر ففعلا ، وفضل من القدرة بعض دنانير فزرعا بها زرعا فجاء على هذا الحال فإن الزرع يصغر ويكبر بحسب طيب

النية وخبثها اهـ ، وقد عز إصلاح الناس من غالب أهل هذا الزمان : فالعاقل من زرع وحده مع مباشرة الزرع مع الأجير :

(وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) . (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وفي رواية : « فَلاَ يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلاَ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلاَ دَابَّةٌ وَلاَ طَائِرٌ إلاَّ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ » .

ومعنى يرزؤه : يصيب منه وينقصه .

وفي رواية : « فَلاَ يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلاَ دَابَّةٌ وَلاَ طَيْرٌ ، إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَنْ بَنَى بُنْيَانًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلاَ اعْتِدَاء ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلاَ اعْتِدَاء كَانَ لَهُ أَجْرُهُ جَارِيًا مَا انْتَفَعَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الرَّحْمٰنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى »

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَنْ نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ عَلَى حِفْظِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا حَتَّى تُثْمِرَ كَانَ لَه فِي كُلِّ شَيْءٍ يُصَابُ مِنْ ثَمَرِهَا صَدَقَةٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وفي رواية له أيضا مرفوعا : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ قَدْرَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْغَرْسِ » .

وروى البزار وأبو نعيم والبيهقي مرفوعا :

« سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ : مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلاً ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ قَالَ : يَا مَعَاشِرَ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ كُنْتُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذْ لاَ تَعْبُدُونَ اللهَ تَحْمِلُونَ الْكَلَّ وَتَفْعَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمُ الْمَعْرُوفَ ، وَتَفْعَلُونَ إِلَى ابْنِ السَّبِيلِ حَتَّى إِذَا مَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَبِنَبِيِّهِ إِذْ أَنْتُمْ تُحَصِّنُونَ أَمْوَالَكُمْ ، فِيمَا يَأْكُلُ ابْنُ آدَمَ أَجْرٌ ، وَفِيمَا يَأْكُلُ السَّبُعُ وَالطَّيْرُ أَجْرٌ ، قَالَ جَابِرٌ فَرَجَعَ الْقَوْمُ فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ هَدَمَ مِنْ حَدِيقَتِهِ ثَلاَثِينَ بَابًا » .

قال الحاكم وفيه النهى الواضح عن تحصين الحيطان والنخيل والكرم وغيرها عن المحتاجين والجائعين أن يأكلوا منها اه ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى الجود والسخاء ، ونكون أول فاعل لذلك لا سيما فى شهر رمضان ، وهذا العهد قد قل العمل به فى غالب الناس حتى العلماء ومشايخ الزوايا ، فاكتفوا بالتوسعة على أنفسهم فى المطاعم والملابس والنكاح للمخدرات والسرارى الحسان ، حتى إنى رأيت بعض من يدعى الصلاح والفقر لا يركب الحمار بل الخيول المسومة ، ورأيته مرة احتاج للركوب فى حاجة وغابت الفرس وعنده حمارة فلم يركبها ، وقال أستحى أن أمر فى مصر على حمارة مع أنه متعمم بصوف وله عذبة وشعرة ، وهذا أمر ينافى طريق الفقراء من كل وجه .

وقد سمعته مرة يقول : نحن بحمد الله الدنيا فى يدنا لا فى قلبنا ، فأرسلت له ضريرا معيلا يطلب منه شيئا من ملبوسه أو ثمن جبة أو صاعا من قمح فلم يعطه ، مع أن بيته أوسع من بيت أمير ، فقال له الضرير ، فأين قولك بحضرة فلان الدنيا فى يدنا لا فى قلبنا ، وهل ثم أحوج منى فإنى أعمى معيل ، وتعرف أن أحدا ما بقى يعطى السائل شيئا فضلا عن كونه يرسل له شيئا بلا سؤال ، فرجع من عنده مكسور الخاطر ، وكان الأولى بذلك الشيخ أن يعطيه نفقة يومه أو قميصا من ثيابه التى تزيد على ثلاثين زيقا ، كما أخبرنى بذلك خادمه .

ودخلت مرة أنا وأخى الشيخ زين العابدين ابن الشيخ عبيد البلقسى نفعنا الله ببركاته على شيخ من مشايخ العصر فصار يرغبنا فى الفقر وضيق اليد ويقول لنا الفقراء ما تميزوا

عن الناس إلا بالزهد فى الدنيا اختيارا ، فملنا إليه بالمحبة لحسن كلامه ، فجاءنا ولده يستشفع بنا عنده أن يزيد نفقته ، فقلنا له كم يعطيك كل يوم ، فقال عشرة أنصاف ، فقلنا له وهذا يكفى أكبر الفقراء ، فقال دخل والدى كل يوم ثلاثمائة نصف ينفق منها نحو خمسة عشر نصفا ويخزن الباقى ، فقلت له: قديكون ياولدى يتصدق به من غير علمك فقال : لو كان يتصدق ما كان فى صندوقه نحو أربعين ألف دينار ، هذا لفظ ولده ، فإذا كان هذا حال مشايخ العصر الذين يقتدى بهم فكيف بالعوام !

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من أراد أن يظهر بالمشيخة فى هذا الزمان فليكن أول عامل بجميع ما يدعو إليه ، وإلا فهو فتنة على العباد اه فلا أتعب قلبا ولا بدنا ولا أضيق معيشة من الفقراء الصادقين أبدا .

وسمعته يقول : ليس السخى من ينفق ماله فيما نهاه الله عنه ، وإنما السخى من ينفق ماله فى مرضاة الله .

وسمعته يقول : إياك أن ترى مع فقير دنيا عريضة ولا تراه يؤدى زكاتها فتسىء الظن به فإن من الفقراء من يكون من أصحاب الخطوة فيخطو خطوة إلى بلاد الهند مثلا من مصر فيدفع زكاته إلى فقراء تلك البلاد ، كما كان يقع للشيخ محمد الشربينى رحمه الله .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق لا مثل هذا الشيخ الذى ذكرناه ، فإن من دعا إلى خير ولم يفعل كانت أفعاله مكذبة له وحاجبة للناس عن سماع مقاله ، فإذا سلك على يد شيخ بصدق وإخلاص فإنه يقربه إلى حضرة الله عز وجل وهناك يقوى يقينه بالله وينفق كل مادخل فى يده بخلاف البعيد عن حضرته ، فإنه بالضد من ذلك فلا يكاد يعطى أحد شيئا لضعف يقينه :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا ومرسلا : « السَّخِىُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْجَاهِلُ سَخِىٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ » .

وروى الأصفهانى مرفوعا : « أَلاَ إِنَّ كُلَّ جَوَادٍ فِى الْجَنَّةِ حَتْمٌ عَلَى اللهِ وَأَنَا بِهِ كَفِيلٌ ، أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ بَخِيلٍ فِى النَّارِ حَتْمٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَأَنَا بِهِ كَفِيلٌ ؟ قالوا

يَا رَسُول اللهِ مَنِ الْبَخِيلُ ، وَمَنِ الْجَوَادُ ؟ قَالَ : الْجَوَادُ مَنْ جَادَ بِحُقُوقِ اللهِ فِي مَالِهِ ، وَالْبَخِيلُ مَنْ مَنَعَ حُقُوقَ اللهِ وَبَخِلَ عَلَى رَبِّهِ ، وَلَيْسَ الْجَوَادُ مَنْ أَخَذَ حَرَامًا وَأَنفقَ إِسْرَافًا » .

قلت : وقد سئل الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله عن حقيقة الإسراف ، فقال : الإسراف كرم واسع خارج عن الحد والمقدار ، ولكن لما كان صاحب هذا الحال لا يقدر على المداومة عليه بل يندم على ما يخرجه إذا وجد حاله قد ضاق جعله الله تعالى مذموما ، وجعل المحمود حالة بين إسراف وتقتير ، والله أعلم .

وروى الترمذي مرفوعا : « إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا » .

وروى أبو داود في مراسيله : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا وَلَّى أَمْرَهُمُ الْحُكَمَاءَ ، وَجَعَلَ الْمَالَ عِنْدَ السُّمَحَاءِ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ شَرًّا وَلَّى أَمْرَهُمُ السُّفَهَاءَ ، وَجَعَلَ الْمَالَ عِنْدَ الْبُخَلَاءِ » .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « السَّخَاءُ هُوَ خُلُقُ اللهِ الْأَعْظَمُ » .

وفي رواية له أيضا مرفوعا : « مَا جُبِلَ وَلِيٌّ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا عَلَى السَّخَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هٰذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، أَلَا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا » .

وروى الطبراني : « أَنَّ شَخْصًا قَالَ يَارَسُولَ اللهِ مَنِ السَّيِّدُ؟ قَالَ : يُوسُفُ ابْنُ يَعْقُوبَ ابْنِ إِسْحٰقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالُوا فَمَا فِي أُمَّتِكَ سَيِّدٌ ؟ فَقَالَ : بَلَى رَجُلٌ أُعْطِيَ مَالًا وَرُزِقَ سَمَاحَةً وَأَدْنَى الْفَقِيرَ وَقَلَّتْ شَكَاتُهُ فِي النَّاسِ » .

وروى الطبرانى والأصفهانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ جِبْرِيلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّى لَمْ أَتَّخِذْكَ خَلِيلاً عَلَى أَنَّكَ أَعْبَدُ عِبَادِى لِى وَلَـكِنِ اطَّلَعْتُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ أَجِدْ قَلْبًا أَسْخَى مِنْ قَلْبِكَ » .

وروى ابن أبى الدنيا والأصبهانى وأبو الشيخ مرفوعا :

« تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقضى حوائج المسلمين وندخل عليهم السرور ، ولا نقبل على ذلك هدية منهم على قاعدة أن فعل الطاعات بالأصالة إنما هو للثواب الأخروى ، وما فاز بذلك إلا العارفون الذين يفعلون الأوامر الشرعية ، امتثالا لأمر الله دون الأجر الأخروى، وأما غيرهم فهو بارك فى رحلة الثواب لا ينفك ، وقد جربنا أن كل من قبل عوضا على شفاعة شفعها عند حاكم فهو خارج عن الطريق ، ثم تنقطع الوصلة بينه وبين الحق فيرد الحاكم شفاعته ولا يصير له عندهم حرمة ، كما لا حرمة لأحد من أهل الدنيا عندهم بخلاف من هو قائم لله تعالى :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إذا جاء المشفوع له بهدية للشافع فليردها عليه ، فإن لم يقبلها وقال خرجت عنها للفقراء فليأخذها الشافع ويفرقها على الفقراء والمساكين لاسيما إن كان ظالما أو من أعوان الظلمة ، وهذا الورع قد صار اليوم قليلا فى الفقراء فصار حكمهم حكم البزددار عند الظلمة يعمل لهم المصالح التى هى مفاسد .

فاقض ياأخى حوائج المسلمين لله تعالى وإن طلبت على ذلك أجرا فاطلبه من الله على سبيل إظهار الفاقة وإنه لا غنى لك عن فضله ، وإياك وقبول الهدية على ذلك لا سيما من النساء والفقراء من الدنيا .

وقد رأيت مرة شخصا من مشايخ العصر يشفع عند الحكام بجعالة مثل الرسل عند الظلمة فدخلت امرأة عجوز حبس الوالى ولدها ، فقالت ياسيدى الشيخ اشفع لى فى ولدى ، فقال لها مامعك للفقراء ؟ فقالت سبعة أنصاف وعثمانى بعت بها غزلى اليوم ، فقال هذه ماتكفى فلا زال يشدد عليها حتى جاءته بربعة غزل أخرى فأخذها فأعطاها للنقيب وأخذ الفلوس لنفسه ، هذا أمر شهدته منه مع أنه بنى له مقصورة وجعل له سترا وتابوتا فكل ذلك لعدم الفطام على يد شيخ ناصح .

وقد سمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول عن هذا الرّجل: لوأمكنني منع هذا الرجل من الجلوس بين الناس لفعلت لـكونه جلس بنفسه من غير إذن من شيخ وعمل على عقول بعض الأمراء وتجاهى علينا ، وقد عمل على عقل أكابر الدولة حتى صاحبنا الأمير محيي الدين مع كونه من دهى العالم ولـكن لما جمعته على سيدى على الخواص قال له إن اجتمعت على ذلك الرجل فلا تعد تأتنى أبدا فلم يجتمع به حتى مات .

فاسلك ياأخى الطريق على يد شيخ ثم اجلس لقضاء حوائج الناس بعد الفطام والله يتولى هداك :

وقدكان الشيخ جلال الدين المحلى شارح المنهاج رحمه الله يخدم جميع عجائز الحارة وشيوخها العاجزين ويشترى لهم الحوائج من السوق ، وربما سأله إنسان فى حاجة فيترك التدريس ويقوم لحاجة ذلك السائل . وسألته عجوز مرة يشترى لها زيتا من السوق فقام من الدرس ، فقالوا له تترك الدرس لأجل عجوز؟فقال نعم حاجتها مقدمة عليكم ، وكان أكثر ما يخرج لحوائج عجائز حارته حافيا ويقول الأصل فى الأرض الطهارة ، وكان يخرج فى الليلة المطيرة مشدودالوسط ويقول من له حاجة بنار أجىء بها من الفرن فيطوف على عجائز الحارة واحدا واحدا رضى الله عنه ، وقال للشيخ فخر الدين المقدسى والجوجرى يوما حين قالوا له كيف تقدم شراء زيت حار أو مجيئك بالنار على تدريسنا العلم ؟ فقال لهما المدار على إدخال السرور والمحتاج يحصل له بقضاء حاجته من السرور أكثر مما يحصل لـكما بتعليمكما العلم هكذا حكى لى الحاج جلال الدين بزددار الجوالى ؛ وكان قد صحب الشيخ جلال الدين سنين كثيرة قال : ورأيته مرة يخبز لعجوز فقلت له فى ذلك فقال قطعنا عمرنا فى الاشتغال بالعلم والآفات فيه كثيرة قل من ينجو منها ومارؤى أحد من العلماء بعد موته، فقال غفر لى بعلمى أبدا إلا قليلا لمافيه من الآفات بخلاف مثل هذه الحوائج فربما يغفر لنا بها والله تعالى أعلم .

وسمعت سيدى محمد بن عنان يقول: عندى أن النقيب الواقف فى حوائج فقراء الزاوية أكثر أجرا من المقيمين العاكفين على القراءة والذكر والعبادة لأنه لولاسعيه عليهم لم يقدر أحد منهم على الجلوس لتلك العبادة بل كان يخرج يسعى على الرغيف قهرا عليه اه .

وكان سيدى خضر الذى كفلنى يتيما يخرجنى فى المطر ويعطينى جفنة ، ويقول املأها

نارا من الفرن ودر على أهل الحارة واعرض عليهم من لهما حاجة ثم يقول يا ولدى إنما أقصد بذلك أن الله تعالى يقيض لك من يخدمك عند العجز مجازاة على فعلك هذا ، ثم يقول لى : أما رأيت ياولدى بعض الشيوخ العاجزين عليه الخليقات النظيفة وهو ضرير يقاد إلى المسجد لايفوته صلاة فى جماعة وهو مستغن عن سؤال الناس ؟ فأقول نعم ، فيقول : أما رأيت شيخا عليه تحفت خافى مكشوف الرأس وما عليه من الصلاة أبدا إذا فاتت وهو داثر يسأل الناس جديدا نقرة فلا يعطونه ؟ فأقول نعم : فيقول هذا ضيع حقوق الله وحقوق عباده فى صغره فضيعه الله فى كبره وذاك وفى بحق الله وحق عباده فى صغره فقيض الله تعالى له من يخدمه فى كبره فلا تكاد ترى مخدوما قط فى كبره إلا وقد خدم الناس فى صغره اهـ .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ كَانَ فى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وزاد الحافظ العبدرى : « وَمَنْ مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ حَتّى يُثْبِتَ لَهُ حَقَّهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ الْأَقْدَامُ » .

قال الحافظ المنذرى : ولم أر هذه الزيادة فى شىء من أصوله إنما رواها ابن أبى الدنيا والأصبهانى : وفى رواية لمسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم مرفوعا :

« مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ » .

وروى الطبرانى وأبو الشيخ مرفوعا : « إِنَّ لِلّهِ تَعَالَى خَلْقًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِى حَوَائِجِهِمْ أُولٰئِكَ الْآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « إِنَّ لِلّهِ تَعَالَى عَلَى أَقْوَامٍ نِعَمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِى حَوَائِجِ النَّاسِ مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ فَإِذَا مَلُوهُمْ نَقَلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ » .

وفى رواية لابن أبى الدنيا والطبرانى :

« إن لله تعالى أقوامًا اختصّهم بالنِّعَم لمنافع العباد يُقرّهم فيها ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم » .

وفى رواية للطبرانى وابن أبى الدنيا وغيرهما مرفوعا :

« ما عَظُمَتْ نِعمةُ اللهِ على عبدٍ إلاّ اشتدّتْ عليهِ مؤنةُ النّاسِ ، ومَنْ لمْ يحتملْ تلكَ المؤنةَ للنّاسِ فقدْ عرّضَ تلكَ النِّعمةَ للزّوالِ » .

وفى رواية للطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« ما مِنْ عبدٍ أنعمَ اللهُ عليهِ نِعمةً فأسْبَغَها عليهِ ثمّ جعلَ مِنْ حوائجِ النّاسِ إليهِ فتبرّمَ ، فقدْ عرّضَ تلكَ النِّعمةَ للزّوالِ »

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ مَشَى فى حاجةٍ كانَ خيرًا لهُ مِن اعتكافِ عشرِ سنينَ ، ومَن اعتكفَ يومًا ابتغاءَ وجهِ اللهِ جعلَ اللهُ بينَهُ وبينَ النّارِ ثلاثَ خنادقَ كلُّ خندقٍ أبعدَ ما بينَ الخافقَيْنِ » .

وروى أبو الشيخ بن حبان وغيره مرفوعا :

« مَنْ مَشَى فى حاجةِ أخيهِ حتّى يُثْبِتَها لهُ أظلّهُ اللهُ عزّ وجلّ بخمسةٍ وسبعينَ ألفَ مَلَكٍ يُصلّونَ عليهِ ويدْعونَ لهُ إنْ كانَ صباحًا حتّى يُمسيَ ، وإنْ كانَ مساءً حتّى يُصبحَ ، ولا يرفعُ قدمًا إلاّ حطّ اللهُ عنهُ بها خطيئةً ، ورفعَ لهُ بها درجةً » .

وروى أبو داود فى مراسيله : « أنّ ناسًا مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قدِموا يُثْنونَ على صاحبٍ لهمْ خيرًا ، قالوا : ما رأينا مِثلَ فلانٍ قطُّ ، ما كانَ فى مسيرٍ إلاّ كانَ فى قراءةٍ ، ولا نزلْنا منزلاً إلاّ كانَ فى صلاةٍ ، قال: فمَنْ كانَ يكفيهِ ضَيْعَتَهُ ؟ حتّى ذكرَ: ومَنْ كانَ يعلفُ جملَهُ أوْ دابّتَهُ ؟ قالوا نحنُ ، قالَ فكلُّكمْ خيرٌ منهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ كَانَ وُصْلَةً لِأَخِيهِ إِلَى ذِى سُلْطَانٍ فِي مُبَلَّغِ بِرٍّ أَوْ إِدْخَالِ سُرُورٍ رَفَعَهُ اللهُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن وأبو الشيخ مرفوعا :

« مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ سَرَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

ورويا أيضا مرفوعا: « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ ، كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ أَوْ أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ أَوْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَةً » .

والأحاديث فى قضاء حوائج المسلمين كثيرة مشهورة :

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ شَفَعَ شَفَاعَةً لِأَحَدٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الْكَبَائِرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نستحى من الله حق الحياء سرا وجهرا حتى لا يكون لنا سريرة سيئة نخشى من ظهورها وفضيحتها لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ونأمر جميع إخواننا بذلك :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يسلك به حضرات القرب ويدخله حضرات الإحسان ، حتى لا يكاد يخرج منها إلا فى النادر ، وهناك يكون شهوده للحق تعالى مستداما ، فتارة يرى أن الله يراه ، وتارة يؤمن بأنه جليس الله ، وإن كان يراه كالأعمى يعرف أنه جليس زيد وإن كان لايراه ، ومن لم يسلك على يد شيخ فمن لازمه غالبا قلة الحياء مع الله تعالى حتى فى صلاته :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لا يبلغ أحد مقام الحياء مع الله تعالى حتى يتعطل كاتب الشمال فلا يجد شيئا يكتبه فى حقه أبدا ، وحتى يصير لايتجرأ على مد رجله إلا إن استأذن الحق ، ولا يأكل شهوة إلا إن استأذن الحق ، ولا ينظر نظرة إلا إن استأذن الحق ، ولا يتكلم كلمة إلا إن استأذنه وهكذا ، هذا فى الأمور العادية ، أما الأمور المشروعة فيكتفى فيها بالإذن العام :

وبالجملة فكل من وقع فى شهوة كمعصية أو مكروه ، فما استحى من الله حق الحياء المشروع .

وبلغنا أن سيدى إبراهيم بن أدهم مد رجله ليلة فى الظلام ، فسمع قائلا يقول : يا إبراهيم ما هكذا تجالس الملوك فضم رجله ولم يمدها إلى أن مات رحمه الله .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من استحى من الله استحيا الله منه يوم القيامة أن يؤاخذه ، ومن غضب إذا انتهكت حرمات الله غضب الله إذا انتهكت له حرمته كذلك ، ومن لم يستح من الله لم يستح الله من عذابه ، ومن لم يغضب لله تعالى لا يغضب الله لأجله وهكذا ، فجازاته تعالى كالفرع فى هذه الأمور وإن كان الأصل منه كما قال :

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وكما قال : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وسألت شيخ الإسلام زكريا رحمه الله عن الفرق بين الحياء الشرعى والحياء الطبيعى فقال : الفرق بينهما هو أن الحياء الشرعى يكون فيما أمر به الشارع أو نهى عنه فيستحى من الله أن يترك مأمورا أو يقع فى منهى ، والحياء الطبيعى يكون فيما سكت عنه الشارع من الأمور العادية ، كان يستحى أن يخرج بعمامة لا تليق به أو يخرج إلى السوق بغير رداء على كتفه ونحو ذلك . ومن الفرق أيضا أن يكون تقبيحه للأمور تبعا للشارع لا بحكم الطبع كما يقع فيه غالب الناس فيقع فى الغيبة والنميمة ، ولا يستقبح ذلك ، ويستقبح أكل الشيء المخدر أو شرب القهوة أو الجلوس على دكان حشاش ، مع أن ذلك أخف من إثم الغيبة والنميمة بيقين ، ولو أنه مشى على الحياء الشرعى لاستقبح ما قبحه الشارع أكثر مما قبحه الطبع اهـ فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » .

وفى رواية لمسلم : « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ » .

وفى رواية للترمذى : « الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ » والعى قلة الكلام .

وروى الطبرانى وأبو الشيخ : « أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ الْحَيَاءُ مِنَ الدِّينِ ؟ فَقَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ بَلْ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ » .

وروى الطبرانى وغيره ورواته محتج بهم فى الصحيح مرفوعا :

« لَوْ كَانَ الْحَيَاءُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلاً صَالِحًا » .

وروى مالك وابن ماجه مرفوعا : « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ » .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ » .

وروى الحاكم وغيره وقال صحيح على شرط الشيخين مرفوعا :

« الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرَنَاءُ جَمِيعًا ، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ » .

وروى أبو الشيخ : « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَلاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ حَيَاءَ فِيهِ » .

وروى الترمذى والطبرانى موقوفا ومرفوعا :

« اُسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ، قَالُوا يَانَبِيَّ اللهِ إِنَّا لَنَسْتَحِى وَالْحَمْدُ لِلهِ ، قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ الاُسْتِحْيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحسن خلقنا مع الناس ما استطعنا ، ونرغب جميع إخواننا فى ذلك :

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح حتى تلطف كثائفه ويخرجه من درجات الجفاء إلى درجات حسن الخلق ، ومن لم يسلك على يد شيخ فمن لازمه غالبا سوء الخلق إلا أن تحفه العناية من الأزل ، فمثل هذا لا يحتاج إلى شيخ فى ذلك إن شاء الله .

وقد بلغنا أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان مشهورا بحسن الخلق ، فعمل الحسدة على إغضابه ، فلم يقدروا فبرطلوا الخياط مرة أن يعمل له الكم اليمين ضيقا جدا لا يخرج يده منه إلا بعسر ويعمل اليسار كالخرج ، فلما رآه الإمام قال له جزاك الله خيرا ، الذى ضيقت كمى اليمين لأجل الكتابة ولم تحوجنى إلى تشميره ، ووسعت اليسار لأحمل فيه الكتب ، مع أنه كان يقول رضى الله عنه : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان ، فيحمل قوله هذا على غضبه لله تعالى ، ويحمل عدم غضبه على غضبه لحظ نفسه ، فالكمل على الأخلاق الإلهية والله تعالى يغضب لغيره ولا يغضب لنفسه ، فلو انتقم تعالى لنفسه لأهلك الخلق كلهم فى لحة فافهم :

وبلغنا أنهم صبوا مرة على الجنيد غسالة سمك وهو خارج لصلاة الجمعة فعمته من جمته إلى ذيله ، فضحك وقال : من استحق النار فصولح بالماء لا ينبغى له الغضب ، ثم عاد إلى البيت واستعار ثوب زوجته فصلى فيه .

وكان السلف الصالح رضى الله عنهم كلهم يقولون : الدرجات هى الخلق الحسن ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الدرجات ، وكانوا إذا آذاهم إنسان يعتذرون إليه ويقولون : نحن الظالمون عليك ، ولو أنا أطعناك فيما طلبته منا ماآذيتنا فاللوم علينا لاعليك وكانوا إذا بلغهم عن امرأة أو عبد سوء خلق تزوجوها أو اشتروا العبد وصبروا على سوء خلقهما ، وكذلك كانوا يشترون الحمارة أوالبغلة الحرون فيركبونها ولايضربونها يروضون نفوسهم فى الصبر عليها ، وكان على هذا القدم سيدى أفضل الدين رحمه الله ، فكان لايحرك رجله على الحمارة أبدا إذا ركبها ، ويحتاج مثل ذلك إلى طول روح عظيمة لاسيما الحديد المرارة .

وقد رأيت مرة شخصا نحريرا ضرب حمارته فلم تمش ، فنزل وصار يعضها فى أذنها وذنبها بفمه ، ويقول هيه يامشومة هيه يامشومة ، كأنه يخاطب من يعقل .

وقد رأيت مرة شخصا انقطع الجحش من وراء حمارته ، فقال له طرش طرش فلم يجئ فقال له ياسيدى قطب الدين ياسيدى قطب الدين فلم يجىء فنزل وضربه فمات فى الحال ، وقال لاتجىء بقولى طرش ولا بقولى ياسيدى قطب الدين ، فأقول جزاؤك الموت .

ورأيت مرة شخصا علق بقرته يطحن عليها لما ضعف ثوره فلم تدر فى الطاحون فضربها فلم تدر ، فقال قنى لى أنا أعرف أن نفسك كبيرة لأجل الشوية السمن التى حوشتها من لبنك ، ثم ذهب وأتى بالقدرة السمن فكسرها فى مدار الطاحون ، وقال بقيتى تكبرى نفسك بايش ، ثم ضربها بمرزبة فماتت . والحكايات فى سوء الخلق كثيرة ، وإنما ذكرت بعض ذلك لتعلم أن الواجب على كل مؤمن أن يروض نفسه ليصبر على تحمل أذى الناس والدواب ولا يخرج إلى طبع المجانين ، فإن حكم هؤلاء الذين ذكرناهم حكم المجانين بلا شك ، فعلم أن من أعظم حسن الخلق صبرك على من تقدر على تنفيذ غضبك فيه ثم تتركه كزوجتك وفتاك .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لى مع ابنة عمى سبع وخمسون سنة ماأظن أننا بتنا ليلة واحدة صلحاء إلى يومنا هذا .

وحكى عن الشيخ جلال الدين شارح المنهاج أنه كان له فتى قوى الرس كثير اللعب فكان الشيخ يذهب إلى الفرن بخبز ويمر عليه وهو يلعب فيقف عليه وهو حامل طبق الخبز ويقول ويلك قم تعال كل من هذا الخبز السخن فلا يقوم له فيذهب الشيخ إلى البيت ويرجع له ثانى مرة يطلبه للغذاء رضى الله تعالى عنه ، وكذلك من أعظم حسن الخلق أن تغفر وتسامح لمن آذاك من الناس عملا بقوله تعالى :

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) .

وكذلك من أعظم حسن الخلق أن يكون الإنسان نفاعا للناس ومع ذلك يذمونه وينقصونه فلا يمنعه ذلك من النفع لهم ، وذلك كنقيب الفقراء وناظر وقفهم فإن من لازمهم غالبا ذم الفقراء لها وحملهما على محامل سيئة ، وإن جميع مايصل إليهم إنما هو فضلة النقيب والناظر .

وقد كان الشيخ بدر الدين بن دنيا شيخ نقباء سيدى الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر يعمل الطعام الفاخر من عنده للفقراء والزوار ، ويقول شخص خرج لكم عن هذا الطعام ويوهمهم أن ذلك من غيره ثم يسمعهم يقعون فى عرضه ويقولون هذا لايأتينا إلا بمافضل عنه ومع ذلك فلا يصده ذلك عن الإحسان إليهم ، بل يفرح ويقول العبد لايعامل إلا الله وأما الخلق فمفاليس ليس معهم شىء يأخذه منهم يوم القيامة ، وقد حكيت ذلك لسيدى على الخواص فقال هذا من أعظم أخلاق الرجال فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك :

وروى مسلم والترمذى : «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِىَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِى صَدْرِكَ : أَىْ تَرَدَّدَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

وروى الشيخان والترمذى : « عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ لَمْ يَكُنْ رَسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا ، وَكَانَ يَقُولُ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلاَقًا » .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« ما شَيْءٌ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَإِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ » .

أى المتكلم بالفحش وبذىّ الكلام : وفى رواية للبزار :

« وَإِنَّ صَاحِبِ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ » .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه والبيهقى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ فَقَالَ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

وروى الترمذى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » .

ولفظ الطبرانى : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الْقَائِمِ بِاللَّيْلِ الظَّامِي بِالْهَوَاجِرِ » .

وفى رواية له أيضا : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلَ وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُسَدِّدَ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّوَّامِ الْقَوَّامِ بِآيَاتِ اللهِ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَكَرَمِ ضَرِيبَتِهِ » والضريبة الطبيعة وزنا ومعنى .

وروى ابن أبى الدنيا مرسلا : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَنِهَا عَلَى الْبَدَنِ ؟ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« كَرَمُ الْمُؤْمِنِ دِينُهُ وَمَرُوءَتُهُ عَقْلُهُ وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ » .

وروى محمد بن نصر المروزى مرسلا :

« أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ حُسْنُ الْخُلُقِ ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَانِيًا وَثَالِثًا وَهُوَ يَقُولُ لَهُ حُسْنِ الْخُلُقِ ، ثُمَّ سَأَلَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ لَهُ مَالَكَ لاَ تَفْقَهُ : حُسْنُ الْخُلُقِ هُوَ أَنْ لاَ تَغْضَبَ إِنِ اسْتَطَعْتَ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَنِ اللهِ تَعَالَى قَالَ : إِنَّ هٰذَا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي ، وَلَنْ يُصْلِحَ لَهُ إِلاَّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَا خَلِيلِي حَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ تَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَعَ الْأَبْرَارِ ، وَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ أَنْ أُظِلَّهُ تَحْتَ عَرْشِي ، وَأَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ حَضِيرَةِ قُدْسِي ، وَأَنْ أُدْنِيَهُ مِنْ جِوَارِي » .

وروى البزارى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَحْسَنُكُمْ أَخْلاَقًا » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« إِتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات : « أَنَّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي » .

وروى الطبرانى والبزار : « أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ : الْمَرْأَةُ يَكُونُ لَهَا

زَوْجَانِ ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ هِيَ وَزَوْجَاهَا لِأَيِّهِمَا تَكُونُ لِلْأَوَّلِ أَوِ الْآخِرِ ؟ قَالَ تَخَيَّرُ أَحْسَنَهُمَا خُلُقًا كَانَ مَعَهَا فِي الدُّنْيَا يَكُونُ مَعَهَا فِي الْجَنَّةِ ، يَا أُمَّ حَبِيبَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

وروى أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن مرفوعا :

« إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » ، وفي رواية : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ » .

والأحاديث في ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نروض نفوسنا على مراقبة الله عز وجل حتى نرفق بخلق الله ونتأنى في تحصيل مانطلبه ونحلم على من خالفنا وعصانا وآذانا ، وهذا العهد من أكمل أخلاق الرجال وقليل فاعله ، ومن تخلق به ذوقا لم يصر عنده غلظة ولا فظاظة لاعلى من أمره الله بالإغلاظ عليهم كالكفار ، وكذلك من تخلق به لم يتكدر ممن أبطأ في قضاء الحاجة أبدا لأن الرسول لم يبطأ بها وإنما أبطأ بها وقتها المضروب لها في علم الله ، وكذلك من تخلق به لايقابل أحدا آذاه بنظير فعله أبدا ، ولو أن جاريته رمت ولده في نار فمات لم يقابلها ولا بكلمة تغيظها ، بل ربما أعتقها تماما للحلم .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى يعامل الجماد معاملة الحي ، فيضع الاناء برفق ويأخذه برفق ، ويذبح الطائر برفق وينشر الخشب برفق ، ويصعد على ظهر الدابة برفق ، ويهمز إذا نزل عنها برفق لأجل الأرض ويقول : إن الأرض أمنا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يصبر معه على المجاهدة والرياضة حتى يدخله حضرات الأسماء الإلهية ، فينصبغ في حضرة الرحيم والحليم والصبور ، ويصير لايتكلف لرفق ولاحلم ولاصبر كما لايتكلف لدخول النفس وخروجه من خياشيمه ، ومن لم يسلك فمن لازمه الإخلال بهذا العهد ويدرك في نفسه مشقة وتعبا :

فاسلك ياأخي على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد ، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » .

وفي رواية لمسلم مرفوعا : « إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » .

وروى مسلم وأبو داود مرفوعا : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيَرْضَاهُ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مالاَ يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ » .

وروى البزار وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا كَانَ الرِّفْقُ فِى شَىْءٍ قَطُّ إِلاَّ زَانَهُ » .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُدْرِكُ بِالْحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « وَجَبَتْ مَحَبَّةُ اللهِ عَلَى مَنْ أُغْضِبَ فَحَلُمَ » .

وروى أبو الشيخ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَحْكِى أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعوِّد نفوسنا طيب الكلام وطلاقة الوجه لكل مسلم من عدوٍّ وصديق .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يدخل به الحضرات الإلهية ، فيشهده محاسن الوجود ويحجبه عن مساويه إذ المحاسن هى الأصل والمساوى عارضة عرضت من حيث الأحكام الشرعية لاغير ، فإذا شهد تلك المشاهد صار يخاطب من الخلق السر القائم بهيا كلهم لاهم ، ومن كان يخاطب سر الله تعالى فكأنه يخاطب الله ، ومن كان هذا مشهده رزق من طيب الكلام وطلاقة الوجه مالا يقدر قدره وجنبه الله كل كلام جاف :

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى إذا أتى خنزيرا أو كلبا قال أنعم صباحا ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال أعود نفسى الكلام الطيب ، وكان يخبر أن ذلك كان من خلق السيد عيسى عليه السلام .

قال : ومر الحواريون يوما على كلب ميت فقالوا ماأشد نتن ريحه ياروح الله ! فقال هلا قلتم ماأشد بياض أسنانه اهـ .

فعلم أن من لم يسلك على يد شيخ كما ذكرنا فمن لازمه غالبا الكلام الجافى للناس لاسيما

أصحاب الموازين على ظاهر الشرع ، فإنهم يزدرون ويحتقرون كل من خالفت مافهموه ويغلظون عليه الكلام ، إلا إن كان له مال أو جاه كما هو مشاهد منهم حال خطابهم الأمراء والمباشرين مع علمهم بمظالمهم وشربهم الخمر وتضييع الصلوات وغير ذلك ، فيتلطفون بهم فى حال خطابهم أشد الملاطفة بخلاف من لامال له ولا جاه من الحشاشين وأصحاب الكتب ، ولو فتح الله عيون بصائر هؤلاء لتلطفوا فى كلامهم لسائر المسلمين ، فإن ذلك أقرب إلى انقيادهم لهم وسماع وعظهم :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط الداعى إلى الله تعالى أن لايكون عنده غلظة ولا فظاظة على الفسقة المارقين ، بل يجب عليه تليين الكلام والتقرب إلى خواطرهم بالإحسان إليهم ، حتى يميلوا إليه ، فإذا مالوا فلينصحهم إذ ذاك :

وقد بلغنا أن داود عليه السلام كان يغلظ القول على عصاة بنى إسرائيل ، حتى أنه ربما يقول : اللهم لاترحم من عصاك ، فلما وقع فى الخطيئة التى ذكرها الله تعالى صار يقول : اللهم اغفر للخطائين حتى تغفر لداود معهم ، ثم أوحى الله تعالى إليه ياداود المستقيم لايحتاج إليك والأعرج أغلظت عليه بالقول حتى نفر منك ونفرت منه فلماذا أرسلت ، فتنبه داود لذلك وصار يطوف على بنى إسرائيل فى بيوتهم ويكلمهم بالكلام اللين ويعظهم بالموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن .

قلت : وقد أقبلت مرة من سفر الريف على خان بنات الخطأ فرأيت صاحبة حملة مهر البغايا فسلمت عليها وكلمتها بكلام لين وعرضت لها بالتوبة فتابت ، وجاءت بزوجها فتاب الآخر من تلك المعصية حتى ماتا .

وكلمت مرة يهوديا بكلام حلو فأسلم وحسن إسلامه ، ثم سافر إلى بيت المقدس فعمل خادما فيه حتى مات .

وسيأتى فى عهود المنهيات أن جماعة من الفسقة مروا فى زورق فى الدجلة على معروف الكرخى وبين أيديهم الخمر وآلات اللهو ، فقالوا له ياسيدى ادع الله تعالى عليهم ، فقال أبسطوا أيديكم معى ، فبسطوها فقال معروف اللهم كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة ، فقالوا له كيف ذلك ؟ فقال : ياأولادى إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا فطوينا لهم التوبة فى الدعاء .

قال شيخنا شيخ الإسلام زكريا فى شرح رسالة القشيرى ، وهذا من معروف غاية السياسة وغاية اللطافة اه :

وكثيرا ما كاتبت اليهود والنصارى أصحاب المكوس والمظالم فى تخفيف المظالم عن المسلمين وأقول فى كتابى لهم أسأل الله للمعلم فلان أن يرضى عنه ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وأضمر له سؤال التوبة من الكفر ليصح دخوله الجنة ، وربما أنكر ذلك من لا علم له بطرق السياسة ، فإنى أعلم أنى لو قلت له أسأل الله للمعلم أن يتوفاه على الإسلام لنفر خاطره منى ولم يقبل شفاعتى ، كما ينفر المسلم من قول أحد له أسأل الله أن يميت البعيد على غير الإسلام ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ .

فاعرف يا أخى طرق السياسة وعود نفسك طيب الكلام ، فإنه أحسن سواء كان المخاطب صالحا أو طالحا :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وروى مسلم مرفوعا : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » .

وروى ابن أبى الدنيا مرسلا : « إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى النَّاسِ وَأَنْتَ طَلِيقُ الْوَجْهِ » .

وفى رواية للإمام أحمد والترمذى مرفوعا :

« كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِى إِنَاءِ أَخِيكَ » .

وروى الترمذى مرفوعا وحسنه وابن حبان فى صحيحه :

« تَبَسُّمُكَ فِى وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَكَ صَدَقَةٌ » الحديث .

وفى رواية لأبى داود والترمذى والنسائى وغيرهم مرفوعا :

« لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ ،

وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ وَوَبَالَهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ » .

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَهَبَ وُصْلَةَ الْحَبْلِ ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ بِنَفْسِكَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » .

وروى الطبرانى والحاكم مرفوعا : « مُوجِبُ الْجَنَّةِ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ وَحُسْنُ الْكَلَامِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نفشى السلام بيننا على العدو والصديق من المسلمين بل العدو أولى بالسلام ، وكان من يسلم يقول لعدوه أنت فى أمان منى أن أوذيك أو أسعى فى ضررك ، ومعنى السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنت يا رسول الله فى أمان منى أن أخالف شرعك ، فكان المسلم عليه يقر عينه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وإلا فالأكابر من الناس كالسلطان آمنون من شر الأصاغر فليفهم .

اعلم أن الأكابر لا يهجرون أحدا إلا لمصلحة فهم يتركون السلام عليه تقبيحا لصنيعه وهم فى الباطن يحبونه محبة أهل الاسلام لبعضهم بعضا ، فحكمهم كالطفل مع والدته تخوفه بالبعوة والقطربة ليرجع عن الفعل الردىء خوفا أن يتربى عليه وهى راحمة له فى الباطن محبة له ، وربما نخسته بالإبرة فى يده حتى يخرج دمه ، فإياك أن تظن بهم أنهم تركوا السلام أو البشاشة لانسان لحظ نفوسهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا مررت على عدوك فسلم عليه واجهر له بالسلام ، بحيث تصدع قلبه إن كنت تعلم من دينه أنه يغلب نفسه ويرد عليك السلام ، وإلا فترك السلام عليه أولى لئلا توقعه فى معصية بترك الرد الذى هو واجب ، وهو منزع دقيق فليتأمل .

وسمعته مرة أخرى يقول : البداءة بالسلام سنة ، وهى أكثر ثوابا من الرد ، وإن كان واجبا ، لاسيما بين المتشاحنين ، فإن المبادرة لزوال الشحناء واجبة ، والسلام طريق

إليها ، وهو مستثنى من قاعدة أن ثواب الواجب أفضل من ثواب السنة ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى عهود المشايخ فراجعها إن شئت والله أعلم :

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم أَىُّ الْإِسْلاَمِ خَيْرٌ ؟ قَالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرِئُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ »

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه : « لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » .

وروى البزار بإسناد جيد مرفوعا : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَيْسَتْ حَالِقَةَ الشَّعَرِ وَلَكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ ، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ لَكُمْ ذَلِكَ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ يُصَفِّينَ لَكَ وُدَّ أَخِيكَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيتَهُ وَتُوَسِّعُ لَهُ فِى الْمَجْلِسِ وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا : « أَفْشُوا السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد : عَنْ أَبِى سَبْرَةَ قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِى الْجَنَّةَ ، قَالَ : إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلُ السَّلاَمِ ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ فَذَكَرَ مِنْهَا رَدَّ السَّلاَمِ » .

وروى الطبرانى عن الأغر أغر مزينة قال : كنا إذا طلع الرجل من بعيد بادرناه بالسلام قبل أن يسلم علينا :

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ » .

وفى رواية : « قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ الرَّجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ أَيُّهُمَا يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ ، قَالَ : أَوْلَاهُمَا بِاللهِ تَعَالَى » .

وروى البزار وابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْمَاشِيَانِ أَيُّهُمَا بَدَأَ فَهُوَ أَفْضَلُ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن عن أنس قال : كنا إذا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفرق بيننا شجرة فإذا التقينا نسلم على بعضنا بعضا :

وروى أبو داود والترمذى والنسائى مرفوعا : « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى أَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ » .

وزاد رزين العبدرى : « وَمَنْ سَلَّمَ عَلَى قَوْمٍ حِينَ يَقُومُ عَنْهُمْ كَانَ شَرِيكَهُمْ فِيمَا خَاضُوا مِنَ الْخَيْرِ بَعْدَهُ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « حَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ قَامَ عَلَى جَمَاعَةٍ أَنْ يُسَلِّمَ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلمَ عَشْرٌ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ فَرَدَّ فَجَلَسَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ عِشْرُونَ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ فَرَدَّ فَجَلَسَ فَقَالَ ثَلَاثُونَ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ ، فَقَالَ أَرْبَعُونَ ، قَالَ هَكَذَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصافح إخواننا عند

اللقاء ، ولا نترك ذلك إلا لضرورة ، كأن لم يرض من نصافحه أن يصافحنا لفخامته كالباشات والدفتردار ونحوها أو لجهل وغلظة كجند السلطان وجبلية الوالى ونحوهم ، وكان ذلك من خلق أخى أبى العباس الحريثى رحمه الله ومن خلق والده كان لا يسلم عليهما أحد إلا صافحاه فيهداها اقتده .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول الحكمة فى المصافحة استجلاب الود والتعاضد كان كلا منهما يقول لصاحبه أنا معك فى جميع ما تريد من الخير فإن صورة المصافحة صورة العهد :

« وَكَانَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلمَ لَايُصَافِحُ أَحَدًا إلاَّ وَيَشُدُّ عَلَى يَدِهِ فَيشُدُّ بِكَهُ »

إشارة لقوة التلازم اه فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « مَامِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إلّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « إنَّ المُسْلِمَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا وَتَصَافَحَا وَضَحِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فى وَجْهِ صَاحِبِهِ لاَ يَفْعَلاَنِ ذَلِكَ إلّا لِلهِ ، لَمْ يَتَفَرَّقَا حَتى يُغْفَرَ لَهُمَا » . . .

وفى رواية للإمام أحمد والبزار وأبى يعلى مرفوعا :

« مَامِنْ مُسْلِمَيْنِ الْتَقَيَا فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ إلاّ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْضُرَ دُعَاءَهُمَا ، وَلَا يُفَرِّقَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى يَغْفِرَ لَهُمَا » .

ومعنى يحضر دعاءها ، يجيبه ، وإلا فالحق تعالى حاضر على الدوام .

وروى الطبرانى عن أنس قال : كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا تلاقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا :

وفى رواية له مرفوعا « إنَّ المُؤْمِنَ إِذَا لَقِيَ المُؤْمِنَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ بِيَدِهِ يُصَافِحُهُ تَنَاثَرَتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا يَتَنَاثَرُ وَرَقُ الشَّجَرِ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « إنَّ مِنْ تَمَامِ التَّحِيَّةِ الأَخْذُ بِاليَدِ » .

وروى أبو داود « أَنَّ رَجُلا سَأَلَ أَبَا ذَرٍّ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يُصافِحُكُمْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ ؟ قَالَ مَا لَقِيتُه قَطُّ إِلَّا صَافَحَنِي ، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ وَلَمْ أَكُنْ فى أَهْلِي فَجِئْتُ فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ فَالْتَزَمَنِي فَكَانَتْ تِلْكَ أَجْوَدَ وَأَجْوَدَ » .

وقد روى مالك معضلا وأسند من طرق ولكن فيها مقال مرفوعا :

« تَصَافَحُوا يَذْهَبُ الْغِلُّ وَتَهَادَوا تَحَابُّوا وَتَذْهَبُ الشَّحْنَاءُ» والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى العزلة عن الناس إذا لم يأمنوا على أنفسهم عند الاختلاط ، فإن أمنوا عليها فالمستحب الاختلاط على أصل قاعدة المسلمين فى دينهم .

وقد أجمع الأشياخ على أنه ليس للكمل الهروب من الناس لعدم الخوف عليهم من الإشتغال بالخلق عن الله تعالى ، وأما من خاف مع دعوى الكمال فدعواه الكمال زور وبهتان فهو إما شخص جلس بنفسه من غير فطام على يد شيخ ، وإما أن شيخه مفتر كذاب لايصلح لأن يكون أستاذا كما هو الغالب فى أهل هذا الزمان ، حين فقدت الأشياخ الذين آخرهم فى مصر سيدى على المرصفى رضى الله عنه ، فصار كل من سولت له نفسه أن يكون شيخا جمع له بعض ناس من العوام وجلسوا يذكرون الله تعالى صباحا ومساء بغير آداب الذكر المشهورة عند القوم وظن فى نفسه أنه صار شيخا مثل المشايخ الماضين ، مع أنه لا يصلح أن يكون مريدا كما بسطنا الكلام على ذلك فى رسالة قواعد الصوفية ، وهو كتاب من طالع فيه علم بأنه ما صنف فى الطريق مثله وحكم على نفسه أنه لم يشم طريق الارادة وقد رأيت كثيرا ممن أذن لهم أشياخهم بالتربية عادوا أشياخهم وهجروهم وادعوا أنهم أعلم بالطريق منهم فمقتوا ولم ينتج على يدهم أحد ، وكل ذلك لوقوع الاذن لهم من أشياخهم قبل خمود نار بشريتهم فكان اللوم على الأشياخ لاعليهم :

وقد كان سيدى على المرصفى عزيز الإذن فى المشيخة إلا أن يأتيه إذن بذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا فلما مات انحل نظام الطريق فى مصر وقراها ، وما ظهر بعده أحد حذا حذوه سوى الأخ الصالح سيدى أبى العباس الحريثى رحمه الله .

وكان يحكى عن سيدى يوسف العجمى أنه لما أراد الله تعالى أن ينقله من بلاد العجم سمع قائلا يقول يا يوسف اذهب إلى مصر انفع الناس ، فقال شيطان ثم ناداه ثانيا فقال

شيطان ، ثم ناداه ثالثا فقال شيطان ، فلما ناداه الرابعة قال اللهم إن كان هذا وارد حق من جهتك فاقلب لى هذا النهر لبناحتى أغرف منه بقصعتى هذه ، فانقلب النهر لبنا وشرب منه فعلم أنه وارد حق فلما دخل مصر وجد أخاه الشيخ حسنا التسترى سبقه إلى مصر ولكن لم يتصدر للمشيخة ، فقال له يوسف يا حسن الطريق لواحد لأنها على الأخلاق الإلهية فإما أن أبرز وتكون وزيرى وخادمى وإما أن تبرز وأكون وزيرك وخادمك ، فرد الشيخ حسن الأمر لسيدى يوسف فبرز وصار سيدى حسن يخدمه إلى أن مات ، فبرز سيدى حسن بعده بإذنه له فى حياته فأظهر فى الطريق العجائب والغرائب ونزلت له الملوك والأمراء فلم تزل الحسدة يلقون فيه إلى السلطان الكلام القبيح لينفروه عنه حتى امتنع من زيارته وأمر بسد باب زاويته عليه ، وكان الشيخ والفقراء غائبين فى وليمة فلما رجعوا آخر النهار وجدوا باب الزاوية مسدودا ، فقال الشيخ من فعل هذا فقالوا الوزير ، فقال : ونحن نسد طبقات بدنه فعمى وطرش وخرس وانكتم من المخرجين فمات لوقته فبلغ السلطان ذلك وقالوا إن هذا الأمر ما كان إلا لمولانا السلطان والوزير حمله عنه فنزل السلطان ثانيا لزيارته واستغفر مما صدر منه واعتذر منه ، وكان اسمه السلطان شعبان ابن السلطان حسن ، هذه حكاية سيدى على المرصفى رحمه الله : وأخبرنى مرة بأن شيخه سيدى محمدا ابن أخت سيدى مدين كان عزيز الإذن فقال لى ياعلى أبرز فقد جاءك الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت يده ، ولم أبرز خوفا أن يكون ذلك من مكر الأشياخ بالمريد كما وقع لغيرى ومراد الشيخ أذن لك سول الله أن تبرز للصحراء ونحوها بالإذن العام قال : فمكثت حتى جاءنى الأمر من الله تعالى فبرزت حينئذ وجلست فى بلدى مرصفة فلقنت نحو العشرة آلاف فقير ، فجاءنى الشيخ عبد القادر الدشطوطى وقال ياعلى قم اخرج سح فى الأرض وخل هذا التقيد ، فقلت له اللائق بى ماأنا فيه واللائق بك ماأنت فيه فانصرف .

وقال لى مرة : ياولدى لايصح الإذن لفقير من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع مائتى ألف مقام وسبعة وأربعين ألف مقام رضى الله تعالى عنه :

فاسلك ياأخى على يد شيخ لتعرف الطريق ومخارسها ومهالكها وتصير إن اعتزلت تكون عزلتك بحق وإن خالطت تكون مخالطتك بحق .

وإلا فمن لازمك الهوى وحظ النفس قربا أو بعدا لأنك إن قربت منهم كان لعلة

دنيوية ، وإن بعدت منهم كان لسوء ظنك بهم وحب التميز عليهم كما هو مشاهد ، وأقل مراتب الشيخ إذا ظهر أن يكون أعبد من سائر مريديه وأعلم منهم وأزهد منهم وأورع منهم وأخوف من الله ، فلا تجد أتعب قلبا ولا بدنا من الشيخ إذا نصح فى الطريق . وأما إذا غش نفسه وأتباعه فهو من حزب إبليس ، فإنه متى رأى المريد أنه أعلم أو أعبد من الشيخ عدم النفع به .

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم عن عامر بن سعد قال : كان سعد بن أبى وقاص فى إبله ، فجاء ابنه عمر فلما رآه سعد قال أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فنزل فقال له أنزلت فى إبلك وتركت الناس يتنازعون الملك ، فضربه سعد فى صدره فقال اسكت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِىَّ النَّقِىَّ الْغَنِىَّ الْخَفِىَّ » .

قال الحافظ : والمراد بالغنى غنى النفس وهو القانع بما قسم له :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا «أَنَّ رَجُلاً قَالَ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فى سَبِيلِ اللهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فى شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ » .

وفى رواية : « يَتَّقِى اللهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » .

وفى رواية لمالك والبخارى وأبى داود وغيرهم مرفوعا :

« يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بِهَا سَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ » وسعف الجبال : أعلاها ورءوسها .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه واللفظ له عن معاذ ابن جبل قال :

« مَنْ جَاهَدَ فى سَبِيلِ اللهِ كَانَ ضَامِناً عَلَى اللهِ ، وَمَنْ عَادَ مَرِيضًا كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى إِمَامٍ يُعَزِّرُهُ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ ، وَمَنْ جَلَسَ فى بَيْتِهِ لَمْ يَغْتَبْ إِنْسَانًا كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ » .

وَفى رواية : « وَمَنْ قَعَدَ فى بَيْتِهِ فَسَلِمَ النَّاسُ مِنْهُ ، وَسَلِمَ مِنَ النَّاسِ فَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وفى رواية لابن أبى الدنيا مرفوعا : « أَعْجَبُ النَّاسِ إِلَىَّ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِى الزَّكَاةَ وَيُثَمِّرُ مَالَهُ وَيَحْفَظُ دِينَهُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ » .

وَرَوَى الطبرانى وَحسن إسناده مرفوعا : « طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ » ،

وروى الترمذى عن عُقبة بن عامر قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسولَ اللهِ مَا النَّجاةُ ؟ قَالَ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » ،

وروى أبو داود مرفوعا : « إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِى ، وَالْمَاشِى فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِى ، قَالوا فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ » .

قال فى الصحاح : والحلس هو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب ، يعنى الزموا بيوتكم فى الفتن كلزوم الحلس لظهر الدابة .

وروى أبوداود والنسائى باسناد حسن مرفوعا :

« إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هٰكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : فَكَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذٰلِكَ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ ؟ قَالَ الْزَمْ بَيْتَكَ وَابْكِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ » .

وقوله مرجت : أى فسدت ، وقوله وخفت أماناتهم ؛ أى قلت ، مأخوذ من قولهم خف القوم أى قلوا .

وروى البيهقى مرفوعا : « يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِى دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ هَرَبَ بِدِينِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ » الحديث .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ تَعَالَى كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَتَه وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ انقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ندفع غضبنا ونكظم غيظنا ، ونأمر بذلك جميع إخواننا ، وإذا غضب أحدنا وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع ، فإن لم يزل فليتوضأ .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق يدخله إلى حضرة الرضا بكل واقع فى الوجود وبطريقه الشرعى ، فلا يبقى عنده شىء يغضبه لأنه فعل حكيم عليم ، وما ترك الناس يغضبون إلا حجابهم عن شهود أن الله هو الفاعل لكل ما برز فى الوجود ، وشهودهم الفعل من جنسهم ، فلذلك غضبوا على غضبهم ، ولو أنهم سلكوا الطريق لوجدوا الفعل لله تعالى ببادى الرأى ، فلم يجدوا من يرسلون عليه غضبهم . ووجدوا كل شىء وقع فى الوجود هو عين الحكمة ، فذهب اعتراضهم وعصمتهم للنفس جملة .

فاسلك ياأخى على يد شيخ ناصح ليقل غضبك ، وإلا فمن لازمك الغضب شئت أم أبيت ، فعلم أن الكامل لايغضب لنفسه قط ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى ، وكأن الحق تعالى يقول للكامل : إذا رأيت عملا برز على يد أحد من عبيدى مخالفا لشريعة نبيى صلى الله عليه وسلم فاغضب ، ولو شهدت أنى أنا الفاعل لكنى لم آمرك أن تغضب على فعلى ، وإنما آمرك أن تغضب على وجه نسبة الفعل إلى عبدى ، فعلم أنه لاسبيل لأحد إلى تبرئة العبد عن الفعل جملة أبدا .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَي) فافهم .

وقد قدمنا أن كل من غضب لله تعالى غضب الله تعالى لغضبه إذا آذاه أحد :

(جَزَاءً وِفَاقًا) .

ومن رأى محرمات الحق وسكت على فاعلها مع قدرته على منعه لم يغضب الله لغضبه ولا ينتصر له ، بل يتركه حتى يكاد يذوب فلا يلومن العبد إلا نفسه ، إما كشفا ويقينا وإما إيمانا وتسليما .

وقد اجتمعت مرة بإبليس لعنه الله بساحل نيل مصر في واقعة ، فجادلته وجادلني. وكان من جملة ماقال لي : لم يسلطني الله تعالى قط على إنسان إلا بعد وقوع ميل منه إلى ذلك الأمر الذي وسوست له به ، فالانسان ككفتي الميزان وقلبه كلسان الميزان وأنا واقف تجاهه أنتظر ميل قلبه لمعصية فأنفذ قضاء الله فيه بحكم الاضافة فقط، فلا آتيه إلا إن رأيت لسان الميزان خرج من فيها وتدلى ، فهناك آتيه فأنحيه إلى فعل تلك المعصية ، وما دام لسان الميزان لم يخرج وهو واقف في خط استواء القلب فلا سلطان لي عليه ، لأنه إما معصوم كالأنبياء ، وإما محفوظ كالأولياء اهـ .

وقلت : من تحقق بهذا كشفا وشهودا فهو الذي يقيم حجة الله تعالى على نفسه وإلا فمن لازمه أن يقول أيّ شيء أعمل؟ قدّر الله تعالى على فلا يكاد يندم إلا قليلا ، وقد طلب الله تعالى منا في هذه الدار الندم والاستغفار عند كل معصية ولم يكتف منا بذلك في الباطن من غير إظهار ، وذلك ليقتدى بنا المريدون ويعظموا حدود الله إذا وقعوا في معصية ، ومن هنا سموا الكامل أبا العيون ، فعين ينظر بها التقدير الإلهي ليعطي التوحيد حقه :

(وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .

وعين ينظر بها نسبة الفعل إلى نفسه ليتوب ويستغفر من كل ذنب في آن واحد :

ولا يعرف ماقلنا إلا من سلك الطريق ، فإن الإنسان أول مايفتح عينيه على نسبة الفعل إليه ، فلا يزال كذلك حتى يدخل الطريق وتنجلي له حضرة التوحيد ، فهناك يشهد الفعل لله تعالى وحده بقطع النظر عن الخلق جملة ، ويصير جبريا محضا ثم يرقيه شيخه إلى حضرة يشهد فيها نقص ذلك المقام من حيث أن عدم نسبة الفعل للعبد كالتكذيب للقرآن ، فإن الله تعالى أضاف العمل إلى العبد وأقام به عليه الحجة ، فكيف يقول لا عمل لي ولا حجة لله عليّ ، وأكثر مايقع في هذا النقص من يسلك بغير شيخ ، وربما ذاق حضرة التوحيد فوحل فيها إلى أن مات ، معطلا من العمل بالشريعة فلا تكاد تجده يحرم حراما ولا يستغفر من ذنب مطلقا ، وإن قال له شخص إن الله تعالى قال :

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) .

أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم « إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ » . قال ذلك في حق قوم يشهدون أن لهم مع الله ملكا ونحن لا نشهد ذلك ، ومن هنا

يضل ضـــلالا مبينا ويستهين بمحارم الله ، فإن زنى يقول إن الله هو المقدر ، وإن سكر يقول إن الله هو المقدر ، وإن أخذ مال الناس يقول إن الله هو المقدر ، فيقال له : وإذا أدخلك جهنم على هذه الأعمال فهو المقدر كما أوضحنا ذلك فى رسالة الأنوار ، فو الله لو خـــدم المريد شيخه عمر الدنيا كلها ماأدى شكر أدب واحد علمه له شيخه من هذه الآداب :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا عن أبى سعيد الخدرى قال :

« صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَوْمًا صَلاَةَ الْعَصْرِ ، ثُمَّ قَامَ خَطِيباً ، فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَـكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُـكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، أَلاَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » وكان فيما قال: «أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ » .

قال فبكى أبو سعيد وقال والله رأينا أشياء فهبنا ، وكان فيما قال :

« أَلاَ إِنَّهُ يُنْصَبُ لِـكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ بِقَدْرِ غُدْرَتِهِ ، وَلاَ غُدْرَةَ أَعْظَمَ مِنْ غُدْرَةِ إِمَامٍ عَامَّةٍ يَرْكُزُ لِوَاءَهُ عِنْدَ اللهِ » وكان فيما حفظناه يومئذ « أَلاَ إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ بَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الْفَيْءِ ، وَمِنْهُمْ سَرِيعَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الْفَيْءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْءِ ، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ ، وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ ، أَلاَ وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ ؟ فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالْأَرْضِ » .

وذكر البخارى تعليقا عن ابن عباس فى قوله تعالى :

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

قال الصبر عند الغضب ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله وخضع لهم عدوهم :

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ آوَاهُ اللهُ فِي كَنَفِهِ وَنَشَرَ عَلَيْهِ رَحْمَتَهُ وَأَدْخَلَهُ فِي مَحَبَّتِهِ : مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا قَدَرَ غَفَرَ ، وَإِذَا غَضِبَ فَتَرَ » .

ومعنى شكر : أى أنفق مما أعطاه الله تعالى :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ دَفَعَ غَضَبَهُ دَفَعَ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ » .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ » .

وروى أبوداود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَإِنَّ الْغَيْظَ يَذْهَبُ عَنْهُ » الحديث بمعناه .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصالح بين المسلمين ونبذل فى الصلح بينهم المال ، ولا نتوقف فى إعطاء عمامتنا وثيابنا للمظلوم حتى يصفح أو للظالم حتى يرجع عن ظلمه ، ثم لانطلب على ذلك عوضا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وكان على هذا القدم شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ عبد المجيد الطريني رضى الله عنهم .

فكان شيخنا يبذل الخيل والبهائم والقمح وغير ذلك ، ويرى لله تعالى المنة عليه

بذلك الذى أهله له ويقول من أين للواحد منا أن يكون ميزان عدالة بين الناس يرجعون إليه ويقفون عند قوله ؟

وكان الشيخ عبد الحليم لايرى له اختصاصا فى شىء مما يدخل يده دون المسلمين بل يرى جميع ما دخل يده مشتركا بينه وبين المسلمين :

قلت : وقد من الله تعالى علىّ بذلك ولله الحمد فلا أرى لى بحمد الله ترجيحا على إخوانى فى شىء مما يدخل يدى بل كل من رأيته محتاجا لذلك من نفسى أو غيرها قدمته :

وكان أخى الشيخ عبد القادر كذلك ، فكل من رآه محتاجا قدمه ثم لايطلب على ذلك عوضا لاسرا ولا جهرا .

وأعطيته مرة ثمن بقرة يأكل أولاده لبنها فوجد فى الطريق شخصا مربوطا فوزنهن عنه ولم يكن له به معرفة قبل ذلك .

وكان الشيخ عبد المجيد الطرينى لايتوقف قط فى إعطاء شىء يسئل فيه .

وحضرته مرة وهو يصالح بين اثنين ادعى أحدهما على الآخر بسبعمائة دينار فذهب الشيخ ورجع بالسبعمائة فى خرقة فوزنها عن ذلك المديون فقال لى المديون هل عرضت للشيخ بشىء فقلت لا والله ، فذكرت ذلك للشيخ فقال : لم يطلب أحد منى ذلك وإنما عادة الأجواد إذا حضروا فى قضية أن يسدوها رضى الله تعالى عنه ؛

وأخبرنى الشيخ شهاب الدين الطرينى ثم الغمرى أن الشيخ عبد المجيد لماسجن بسبب الديون التى تراكمت عليه بمصر من كثرة إعطائه الأموال للناس بغير عوض وجد فى السجن شخصا محبوسا على مائة دينار فضمنه وأخرجه من السجن وتخلف عنه هو فى السجن قليلا رضى الله تعالى عنه ثم أفرج عنه بعد ذلك .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يخرجه عن محبة الدنيا ويطلعه على عظيم مقام المسلمين وإن بذل الدنيا كلها فى الصلح بينهم من بعض حقوقهم عليه ؛ ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه الإخلال بهذا العهد فلا يهون عليه بذل نصف فضة فى الصلح بين المتخاصمين ، ولو أدى إلى رواحهم إلى بيت الوالى وإن سمح بالنصف سمح وعنده حزازة أو بلا حزازة لكنه يطلب على ذلك عوضا من رد مثله

أو شكر الناس له أو يطلب به الثواب وليس ذلك من أخلاق الكاملين .

فاسلك يا أخي الطريق على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « كُلُّ سُلاَمَي مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ » الحديث .

ومعنى سلامى : أى عضو ، ومعنى يعدل بين الاثنين : أى يصلح بينهما بالعدل .

وروى أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى حسن صحيح مرفوعا :

« أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ، قَالُوا بَلَى : قَالَ إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » .

قال الترمذى ويروى مرفوعا : « لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلٰكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « لاَ يَكْذِبُ مَنْ يَمْشِي بَيْنَ اثْنَيْنِ لِيُصْلِحَ » .

وفى رواية : « لَيْسَ بِالْكَاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا » .

قال المنذرى رحمه الله : يقال نميت الحديث بتخفيف الميم إذا بلغته على وجه الإصلاح وبتشديدها إذا كان على وجه إفساد ذات البين .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « مَا عُمِلَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنَ الصَّلاَةِ وَإِصْلاَحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَخُلُقٍ جَائِزٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وروى البزار والطبرانى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِأَبِي أَيُّوبَ : أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ ؟ قَالَ بَلَى : قَالَ صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا » .

وروى الأصبهانى وهو غريب جدا مرفوعا :

« مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ وَأَعْطَاهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا عِتْقَ رَقَبَةٍ وَيَرْجِعُ مَغْفُورًا لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وتقدم فى عهود العفو عن الناس حديث :

« أَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي الآخِرَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرد عن عرض أخينا المسلم إذا استغابه أحد عندنا أو بلغنا ذلك عنه حسب الطاقة ، وهذا العهد قد صار غالب الناس يخل بالعمل به حتى بعض مشايخ العصر من العلماء والصلحاء فتراهم يسكتون على غيبة أخيهم وربما اشتفوا بذلك فى نفوسهم ، وهذا من أقوى الأدلة على عدم فطامهم عن محبة الدنيا على يد شيخ ناصح ، فإن محب الدنيا يحب الانفراد فيها بالمقام ومحبة الصيت والشهرة بالكمال ويكره من يعلوه فى ذلك فهو يتوهم بغيبة الناس لمن يعلوه أن الناس إذا نقصوه يزول اعتقادهم فيه ويعكفون على اعتقادهم له هو ، وغاب عنه أن من نوى شيئا أو فعله رجع عليه نظيره ، ولو أنه تشوش ممن استغاب أخاه المسلم لزاده الله تعالى رفعة على أقرانه كلهم ، لأن الحماية إنما هى من الله تعالى لا من الخلق .

(وقد أخذت علينا العهود من المشايخ) أن نقوى نور إخواننا جهدنا ونطفىء نور أنفسنا جهدنا ليرجع نظير ذلك علينا ، فإن من سعى فى إطفاء نور أخيه أطفأ الله تعالى نوره ، وما رأيت على هذا القدم من أهل عصرنا هذا أشد عملا بهذا العهد من سيدى محمد الشناوى ، والشيخ عبد الحليم وأخى أبى العباس الحريثى ، فما يذكر عندهم أحد من أهل الخرقة إلا ويذكرون محاسنه ويربونه عند الناس ، وهذا العهد بحمد الله تعالى من خلقى مع الأمراء الواردين على فلا أكاد أفتر عن ذكر محاسن غيرى من مشايخ العصر عندهم لأصرفهم عنى إلى غيرى ، وذلك لأنى لا أقبل لهم هدية ولا أحب بحمد الله ترددهم إلى ، وأرى جميع ما معى من الأعمال لايجىء حق طريق ذلك الأمير إذا جاءنى مرة واحدة ، ولو ترددت إليه ألف مرة لا أرى أنى كافأته على تلك المرة .

وكان على ذلك سيدى على الخواص رحمه الله تعالى كان إذا بلغه أن أحدا من الأمراء عازم على زيارته يذهب هو إليه قبل أن يأتى الأمير إليه .

وكان إذا ورد عليه أحد يطلب شفاعة عند أحد يقول له أنت من أى الحارات ؟ فيرسله إلى من يكون ساكنا فى تلك الحارة من الفقراء ، ويقول ما نقدر نتعدى الأدب على الناس فى حاراتهم ، وإن رأى عند ذلك الرجل قلة اعتقاد فيمن يكون من حارته من الفقراء حسن اعتقاده فيه ويقول مقصودى أن أكون مقيما عند فلان من جملة

جماعته لتحصــل لى بركته ، فيرجع ذلك الرجل وهو معتقد فى شيخ حارته ويملأ عينه منه .

فاسلك يا أخى على يد شيخ حتى يخرجك من حب الرياسة وتصير تحب الخفاء لنفسك والظهور لغيرك ؛ وهناك لا تصير تقدر تسمع غيبة فى أحد من إخوانك، ومادمت تحب الدنيا والظهور فمن لازمك محبة تنقيص إخوانك تصريحا وتعريضا ، فتكون ممقوتا بين العباد وتنصرم منك المشيخة وكلما ترقع ثوبها تخرقت من موضع آخر :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول لفقير رآه إذا ركب يجعل جماعته يمشون معه كالصغير الذى فى زفة طهوره ، كيف تحب الظهور فى هذه الدار وإبليس نفسه اختار الخفاء فيهـا وقال لا أظهر فى دار لعننى الله فيها فشىء زهد فيه إبليس وكرهه كيف تحبه أنت ، فقلت له : لنا مخالفة إبليس فى كل شىء أحبه فإنه لا يحب إلا الشر ، فقال صحيح ، ولـكن ذكرت ذلك توبيخا مثل ما نوبخ المسلم بالخلق الحسن الذى نراه فى الـكافر وإن لم يتدين هو به كما إذا رأينا الرهبان يزهدون فى الدنيا وشهواتها ، فنقول نحن أحق بذلك منهم كما قال عمر رضى الله تعالى عنه لمن رآه يأكل الطيبات منهم منهمكا عليها .

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِـكُمْ فِى حَيَاتِـكُمُ الدُّنْيَا) الآية .

مع أنها وردت فى أهل الـكتاب فافهم .

وكان سيدى على بن وفا يقول : يامريد الله لاتحتفل بظهور شأنك احتفالا يؤدى إلى تفعلك واستجلاء ذكر الناس لك بذكر الـكمالات ، فإنك إن رزقت ماطلبت لن تتمتع به إلا قليلا ، ثم الله أشد بأسا وأشد تنكيلا ، واسع فى الخفاء جهدك حتى يقع الظهور لك قهرا عليك صدقة من الله عليك :

(وَكَـفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَـفَى بِاللهِ نَصِيرًا) .

فاعلم ذلك واعمل عليه يذهب عنك الغل والحسد وسائر الأمراض الباطنة المتعلقة بالناس الحاملة لك على غيبتهم والحاملة على غيبتك ، والله يتولى هداك :

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

« مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ فِى الْغَيْبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية للترمذى مرفوعا : « مَنْ رَدّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

زاد فى رواية : « ثُمَّ تَلاَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) .

وفى رواية لأبى داود وغيره مرفوعا :

« مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ آذَاهُ بَعَثَ اللهُ لَهُ مَلَكاً يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِالْغَيْبَةِ نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِى مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نواظب على الجوع حتى يكثر صمتنا عن الكلام فيما لم يأمرنا الله تعالى به ، فإن من لازم من شبع كثرة الكلام والأشر والبطر بخلاف الجيعان ، ومن شك فى قولى هذا فليجرب بأن يجوع شخصا كثير الغناء وإنشاد القصائد يومين لا يطعمه شيئا ، ويقول له غن لى شوية أو انبسط أنا وإياك فى الحكايات المضحكة فإنه لا يجيبه إلى ذلك أبدا ، فمن طلب الصمت مع الشبع فقد طلب ما هو كالمحال ، وهذا أمر مشاهد وقد غلط فيه كثير من المتورعين بغير شيخ من الفقراء فترى أحدهم يشبع ويأكل كل ما يجده من الشهوات ، وربما كان من طعام الظلمة والمكاسين ويطلب الصمت وقلة الكلام وذلك لا يكون .

وقد رأيت مرة من جعل على نفسه كل ما يتكلم بغيبة نصفا للفقراء عقوبة لنفسه ومع ذلك فما قدر على رد نفسه وصار يخرج فى كل غيبة نصفا حتى زهق وترك الغرامة وصار يستغيب ، ولو أنه ظفر بأحد من أهل الطريق لدله على الدهليز الذى يدخل منه قلة الكلام والغيبة وذلك هو الجوع الذى لا يخلى له حيلا ولا قوة للكلام الشرعى فضلا عن العرفى

فضلا عن الحرام وقد عدّ الأشياخ الصمت من أركان الطريق وأنشدوا :

بَيْتُ الوِلاَيَةِ قُسِّمَتْ أَرْكَانُهُ سَادَاتُنَا فِيهِ مِنَ الأَبْدَالِ
مَا بَيْنَ صَمْتٍ وَاعْتِزَالٍ دَائِمًا وَالْجُوعِ وَالسَّهَرِ النَّزِيهِ الْعَالِي

فمن أخلّ بواحدة من هذه الأربعة لا يتم له حال فى الطريق .

فعلم أن من يريد العمل بهذا العهد يحتاج ضرورة إلى شيخ يسلك به حتى يفطمه عن شدة الميل إلى الشهوات ، ويصير هو يقهر شهوته ويحكم عليها وهناك يقل كلامه ضرورة ويتكدر ممن يكثر عنده الكلام بغير فائدة .

فاسلك يا أخى على يد شيخ لتعمل بهذا العهد وإلا فمن لازمك الإخلال به ، والله يتولى هداك .

وقد صحبت من رجال الصمت جماعة منهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا والشيخ على الخواص والشيخ محمد بن عنان والشيخ محمد المنير رحمهم الله ، فكان وقتهم عندهم أعز من الكبريت الأحمر ، وكل من تسلسل معهم فى الكلام زجروه ولم يستحيوا منه ويقولون له قم ضيعت علينا الزمان .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام المذكور يقول لقاض جاءه يسلم عليه ويهنئه بالشهر وزاد فى الكلام : قم أنت رسول الشيطان إلينا ثم ضرب له بالجريدة على الأرض ، وقال : إن عدت تجيء على هذا الوجه أدبتك .

وقرأت عليه شرحه على رسالة القشيرى كاملا فما أظن أنى سمعت منه كلمة لغو خالية عن علم أو أدب ، وقد صحبته عشرين سنة وأنشدنى يوما :

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ لاَ يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

وسمعته يحكى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : لا تتكلمْ بكلمة حتى تنظر لها محلا مشروعا ، فإن الكلمة كالسهم إذا خرج من القوس ، وإذا خرجت الكلمة منك ملكتك ولم تملكها .

وسمعته رضى الله عنه يقول : حين قرأت عليه باب الصمت اعلم يا ولدى أن السلف الصالح ما ملكوا لسانهم إلا بكثرة الجوع ، وقد أخطأ هذا الطريق جماعة من الناس الذين

لم يسلكوا الطريق على يد الفقراء ، وذلك أن الفقراء يدخلون إلى كل عمل من الطريقة الموصلة إليه وغيرهم لايعرفون تلك الطريق ، فهم كمن يحفظ الدواء ولا يعرف ينزله على الداء ، فخذ يا ولدى الطريق عن أهلها فإنى والله يا ولدى لما طلبت الطريق فى مصر سافرت إلى سيدى محمد الغمرى فى المحلة الكبرى فتلقنت عليه الذكر وأقمت عنده أربعين يوما ، وحصل به خير عظيم ، فقلت له : ياسيدى أما كان فى مصر أحد يرشد الناس ؟ فقال نعم ، كان الشيخ مدين موجودا ولكن كانت طريقته مستورة لا تكاد تميزه عن أبناء الدنيا فى المآكل والملابس وقلة الأعمال الظاهرة ، وأنا كنت صغيرا جاهلا بالطريق وما كان عندى شيخ إلا كابر الجوع والعبادة والتقشف ، وكان سيدى محمد على هذا القدم ، هذا لفظه لى رحمه الله فاعلم ذلك وادخل لباب الصمت من دهليزه ، والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد والترمذى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« كَانَ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلاً عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ ، وَمَنْ حَسَبَ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلاَمُهُ إِلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا عن أبى سعيد الخدرى قال :

« جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ أَوْصِنِي ؟ فَقَالَ : اخْزُنْ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَٰلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ » .

وروى الشيخان وغيرهما : عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » .

وفى رواية أخرى للشيخين مرفوعا : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ » .

وروى الطبرانى بإسناد صحيح : عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ

اللهِ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ الصَّلاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا يَا رسولَ اللهِ ؟ قالَ أنْ يَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِكَ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه :

« أنَّ رَجُلاً قالَ يَا رسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ ، فَذَكَرَ الحديثَ إلَى أنْ قالَ : فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلاَّ عَنْ خَيْرٍ » .

وروى الترمذى والبيهقى : « أنَّ رَجُلاً قالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قالَ أمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا وحسن إسناده : « طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا وحسن إسناده :

« مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا لِيَغْنَمَ أوْ يَسْكُتَ عَنْ شَرٍّ فَيَسْلَمَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ » .

قلت : وذلك لأن ستر العورات غالبا لايكون إلا بالصمت وكشفها لايكون إلا بالكلام فلذلك جوزى صاحبه بشاكلة قوله ، والله أعلم :

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « لاَ يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإيمَانِ حَتَّى يَخْزُنَ مِنْ لِسَانِهِ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه :

« أنَّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أوْ قالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلاَّ حَصَائِدُ ألْسِنَتِهِمْ » زاد فى رواية للإمام أحمد : « إنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فَإذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أوْ عَلَيْكَ » .

وروى الترمذى وابن أبى الدنيا مرفوعا :

« إذَا أصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإنَّ الأعْضَاءَ كُلَّهَا تَشْكُو تُكَفِّرُ اللِّسَانَ ، تَقُولُ

أَتَّقِ أللهَ فِينَا فَإِنمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنِ أَسْتَقَمْتَ أَسْتَقَمْنَا ، وَإِنِ أَعْوَجَجْتَ أَعْوَجَجْنَا » .

وروى الطبرانى ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِى لِسَانِهِ » .

وروى مالك والبيهقى وغيرهما أن أبا بكر رضى الله عنه كان يجبذ لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد، والأحاديث فى ذلك كثيرة، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسعى فى تحصيل مقام سلامة صدورنا من الغل والحسد وغير ذلك ، فإن من كان غير سليم الصدر محروم الخيرات كلها .

وقد أخبرنى سيدى على النبتيتى البصير وكان كثير الاجتماع بالخضر عليه السلام أن شروط الاجتماع بالخضر ورؤيته ثلاثة :

أولها سلامة الصدر من كل سوء لأحد من هذه الأمة :

والثانى أن يكون على سنة ليس مرتكبا شيئا من البدع :

الثالث أن لا يخبأ دراهم ولا رزقا للغد ، ومن لم تجتمع فيه هذه الثلاثة الشروط لا يجتمع بالخضر ولو كان على عبادة الثقلين اهـ ولو لم يكن فى عدم سلامة الصدر إلا خسف الأرض ووقوع العذاب لكان فيه كفاية ، قال الله تعالى :

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) الآية .

فمن مكر بأحد من المسلمين أو نوى به سوءا فى ساعة من ليل أو نهار فقد تعرض لخسف الأرض به .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يزيل جميع رعوناته حتى تصفى نفسه ويلحق بعالم الخير من الملائكة فلا يصير يرى فى أحد عيبا قياسا على نفسه هو ، فهو كالعنين الذى لم يعرف لذة الجماع قط ، فلو قيل له إن فلانا اختلى بفلانة الأجنبية لا يظن فيه أن يفعل بها فاحشة أبدا ، بخلاف الشاب الأعزب ، أو الذى يحب الجماع فإنه يقيسه على نفسه هو ويقول بعيد أنه سلم من الفاحشة قياسا على نفسه هو لو كان اختلى بها .

وقد حكى لى الشيخ عبد السلام الرماصى أن شخصا من البربرة المجاورين فى جامع الأزهر سرقت حوائجه فى الجامع فصار يتعجب ويقول اليهود والنصارى مايدخلون الجامع والمسلمون مايسرقون فمن أخذ حوائجى؟ فقال له شخص الفار أخذهم فقال نعم هذا صحيح وذلك أن البربرة عندهم الأمانة فقاسوا جميع المسلمين على أنفسهم اهـ .

فعلم أن من لم يسلك على يد شيخ كما ذكرنا فمن لازمه التضمخ بأخلاق الشياطين التى هى كلها فساد .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : جميع الصفات البشرية مجموعة فى كل ذات ، ففى الأكابر ما فى الأصاغر وعكسه ، لكن المحاسن ظهرت فى الأكابر وخفيت فى الأصاغر ولذلك دعوا إلى الترقى ، والمساوى ظهرت فى الأصاغر وخفيت فى الأكابر ، ولذلك يجوز فى حق الولى أن يقع فى الكبائر ويجوز فى حق الكافر أن يسلم. وما خرج عن هذه القاعدة إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم محاسن صرف ليس فيهم شىء من المساوى اهـ :

وسمعت أخى أفضل الدين يقول : لا يصح من عبد سلامة الصدر إلا بعد تصفيته من استعمال شىء من المساوى ، وهناك يقول إن جليسه لا يقع فى معصية ومتى جوز ولو غفلة وقوع أحد فى معصية فمن لازمه عدم التطهر من تلك الصفة التى يجوز وقوع الغير فيها :

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) ـ (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الترمذى وقال حديث حسن عن أنس قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَا بُنَىَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِى لَيْسَ فى قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ » الحديث .

وروى الإمام أحمد بإسناد على شرط الشيخين والنسائى وأبو يعلى والبزار عن أنس قال :

« كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِىِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ : يَطْلُعُ الآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ النَّبِىُّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ : ذَلِكَ فى ثَانِى يَوْمٍ وَثَالِثِ يومٍ وَرَابِعِ يومٍ ، وَذَلِكَ الرَّجُلُ يَطْلُعُ فَتَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ

ابْنُ عُمَرَ وَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَقَالَ مَا هُوَ إِلاَّ أَنِّي إِذا انْقَلَبْتُ عَلَى فِرَاشِي فِي اللَّيْلِ ذَكَرْتُ اللهَ وَكَبَّرْتُهُ حَتَّى لِصَلاَةِ الْفَجْرِ غَيْرَ أَنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ هٰذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِهَا » .

وفي رواية أنه قال : « إِذَا أَتَيْتُ مَضْجَعِي اضْطَجَعْتُ وَلَيْسَ فِي قَلْبِي غِمْرٌ لِأَحَدٍ » والغمر هو الحقد ، والحديثان بالمعنى مختصر .

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيرهما :

« قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ ، قَالُوا صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ ؟ قَالَ هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ ، وَلَا غِلَّ ، وَلَا حَسَدَ » .

وروى ابن أبي الدنيا مرسلا : « إِنَّ بُدَلَاءَ أُمَّتِي لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ ، وَلٰكِنْ دَخَلُوهَا بِرَحْمَةِ اللهِ ، وَسَخَاوَةِ النُّفُوسِ ، وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ » .

وروى الإمام أحمد والبيهقي مرفوعا : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيماً » الحديث ، والله سبحانه تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتواضع لاخواننا المسلمين بمعنى أننا نرى نفسنا دونهم في المقام ، لا أنا نرى لنا مقاما فوقهم ونتنازل لهم منه كما هو ظاهر لفظ التواضع .

وهذا العهد يحتاج من يريد العمل به إلى شيخ قطعا ، وقد تحققنا به بحمد الله تعالى على يد سيدي علي الخواص فلست أرى لي مقاما على أحد من المسلمين ولو بلغ في الفسق ما بلغ ، فالحمد لله رب العالمين .

وهذا العهد قد صدرت به كتاب عهود المشايخ المسمى بالبحر المورود في المواثيق والعهود ، وذكرت فيه علامات من تحقق بهذا العهد حتى يسلم له دعوى التواضع ، فإن

الانسان ربما يقول بلسانه نحن من أقل الناس نحن تراب ، وإذا احتقره إنسان أو نقصه تضيق عليه الدنيا بما رحبت، فأين قوله نحن من أقل الناس ؟ ولو أنه كان صادقا لرأى أن جميع ما نقصه المنقوصون دون ما يعرفه هو من صفات نفسه الخبيثة :

وقد عثرت من رجال التـواضع الخالق بجماعة فى مصر المحروسة وصحبتهم ، وانتفعت بصحبتهم : منهم شيخ الاسلام الشيخ نور الدين والطرابلسى الحنفى والشيخ شهاب الدين بن الشلبي المفتى الحنفى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى والشافعى ، والشيخ ناصر الدين اللقانى المالكى ، وشيخ الاسلام الشيخ شهاب الدين بن النجار الحنبلى ، والشيخ نور الدين الطندتائى الشافعى ، والشيخ شهاب الدين الرملى فهؤلاء هم الذين أطلعنى الله تعالى على تواضعهم الخالق الذى لا تفعل فيه : والفرق بين التواضعين أن التواضع الخلق يرى صاحبه نفسه دون الناس حتى إنك لو أردت أن ترفعه عليك لا يرتفع عند نفسه أبدا :

وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم للشيخ نور الدين الطندتائى بالتواضع فى واقعة رأيتها ، وذلك أنى رأيته قريبا فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم مقدما على مشايخه ، فقال شخص يارسول الله ماسبب قرب هذا منك ولم يكن أكثرهم علما ولا صلاة عليك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم قربه منى تواضعه :

وأما المتصوفة بمصر فما رأيت منهم أكثر تواضعا من الشيخ إبراهيم الذاكر المقيم بالجاولية بالقرب من جامع ابن طولون رضى الله عنه :

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد يقول : لا يبلغ أحد درجة المتواضعين من أكابر العارفين حتى يرى أن نفسه ليست بأهل أن تنالها رحمة الله ، وإنما رحمة الله له محض امتنان :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعفوٍ إِلاَّ عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ » .

وروى الطبرانى : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فى غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فى نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ » .

وروى الترمذى والنسائى وغيرهما مرفوعا : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِىءٌ مِنَ الْكِبْرِ وَالْغُلُوِّ وَالدَّيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

قال الحافظ وقد ضبط بعض الحفاظ الكبر بالنون والراء وليس بمشهور :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَوَاضَعَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ رَفَعَهُ اللهُ ، وَمَنِ ارْتَفَعَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ اللهُ » .

وفى رواية : « مَنْ تَوَاضَعَ تَعَظُّماً يَخْفِضُهُ اللهُ ، وَمَنْ تَوَاضَعَ خَشْيَةً يَرْفَعُهُ اللهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصدق مع الله تعالى ومع إخواننا المسلمين فى أقوالنا وأفعالنا ودعاوينا وإن كان صدقنا كالكذب بالنسبة لمقام غيرنا من الأولياء والصالحين .

وقد أجمع الأشياخ على أن الصدق كالسيف ما وضع على شىء إلا أثر فيه ، فعلم أنه يسوغ لنا أن نقول نحن نحب الله ورسوله والمسلمين أجمعين على قدر ما أعطانا الله تعالى ، خلافا لما نقله الغزالى عن بعضهم من قوله : إذا قيل لك تحب الله أو تخاف الله فاسكت لأنك إن قلت نعم كذبت ، فإن أفعالك ليست أفعال المحبين ولا الخائفين ، وإن قلت لا أحب الله و لا أخافه كفرت اه والأولى ماذكرناه .

فكل إنسان من المسلمين له نصيب فى كل مقام من الخوف والرجاء والتقوى والزهد والورع وغير ذلك على قدر ماأعطاه الله تعالى ، ولكن إذا نظر الإنسان إلى مقام من فوقه قضى بأنه ما ذاق ذلك المقام أصلا بالنسبة إلى من فوقه . فإذا قيل لك أتخاف الله ؟ فقل نعم على قدر ماوضعه الله عندى من الخوف : وإذا قيل لك أتحب الله ؟ فقل نعم ، على قدر ما وضعه عندى من المحبة له : وإذا قيل لك هل أنت ورع أو زاهد فى الدنيا ؟ فقل نعم على قدر ما وضعه الله عندى من ذلك وهكذا فاعلم ذلك فإنه نفيس .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما عدوه من الكذب الملحق بالصدق

كذب الإنسان على زوجته بأنه يحبها أكثر من ضرتها والكذب فى الصلح بين الناس كقوله إن فلانا يحبك مع علمه بأنه يبغضه، وهذا داخل فى معنى الحديث من قوله :

« وَتَقَارِبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا » .

وفى الحديث : « لَيْسَ بِالْكَاذِبِ مَنْ يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَقُولُ خَيْرًا أَوْ يُنْمِي خَيْرًا » .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى :

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) .

فإن الله تعالى سما صدقا فكيف يسئل عنه ؟

فالجواب أن المراد بهذه الآية الغيبة والنميمة ونحوهما إذا نقل العبد الكلام كما سمعه من غير زيادة منه وذكر أخاه المسلم بما فيه من السوء ، فهذا ، وإن كان صدقا فيسأل عنه ويؤاخذ به فما كل صدق حق إذ الصدق ما وقع والحق ما وجب فعله .

ومعلوم أن الغيبة والنميمة وإن كانتا صدقا لايجوز فعلهما، إذ ما كل صدق يجوز فعله وذكره بخلاف الحق فافهم .

واختلفوا فيمن سئل عن شيء يلزم منه أذى لمسلم، كما إذا قال لنا ظالم أين فلان يعنى حتى يظلمه بأخذ مال أو ضرب ونحوهما هل يصدق أو يقول لا أعلم طريقه ويورّى عن ذلك ؟ فقال : بكل منهما قوم ، والمختار جواز الكذب بل وجوبه .

وقد وقع للشيخ شهاب بن الأقيطيع البرلسى رضى الله عنه أنه كان ينسج ، فدخل عليه شخص من قطاع الطريق وجماعة الوالى وراءه يطلبونه ، فقال للشيخ خبئنى فقال ادخل تحت رجلى ، فنزل فجاء جماعة الوالى فقالوا للشيخ هل رأيت فلانا ؟ فقال نعم ، فقالوا أين هو ؟ فقال تحت رجلى فضحكوا وتركوه ، وقال لقاطع الطريق ينجى اه .

قلت : ولعل هذا خاص بمن له تصريف ، وأما من ليس له تصريف فليس له ذلك لئلا يضر الظلمة بأحد لأجل كلامه فيصير إثم ذلك عليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول : من كشف الله تعالى عن بصيرته رأى جماعة الولاة الذين يعاقبون الناس كالزبانية الذين يسحبون الناس فى الآخرة إلى النار ،

وكما لا ينسب أحد الظلم إلى الزبانية ويحط عليهم فكذلك زبانية الولاة فى الدنيا وإن ذموا شرعا ، هذا نظر أهل الله تعالى ، فلولا أن الله عز وجل ذم زبانية الدنيا لم يسع أحد من أهل الله أن يذمهم ، فاعلم ذلك والله تعالى أعلم .

وفى الباب حديث توبة الله تعالى على كعب بن مالك وصاحبيه الذى رواه الشيخان وغيرهما وقوله فيه لما اعتذر إليه غيره وقبل النبى صلى الله عليه وسلم عذره : والله يا رسول الله ما كان لى من عذر ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ... الحديث .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« اُضْمَنُوا لِى سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ اُصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ » الحديث .

وفى رواية لأبى يعلى والحاكم مرفوعا : « تَقَبَّلُوا لِى سِتًّا أَتَقَبَّلْ لَكُمُ الْجَنَّةَ : إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَكْذِبُ » الحديث .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ »

وروى ابن أبى الدنيا وغيره مرفوعا : « تَحَرَّوُا الصِّدْقَ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْهَلَكَةَ فِيهِ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ » .

وفى حديث الشيخين وغيرهما مرفوعا : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا » الحديث .

وفى رواية الامام أحمد مرفوعا : « إِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ بَرَّ ، وَإِذَا بَرَّ أَمِنَ ، وَإِذَا أَمِنَ دَخَلَ الْجَنَّةَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نميط الأذى عن طريق المسلمين المحسوسة والمعنوية. فالأولى معروفة ، والثانية هى إزالة الشبه التى تعرض

فى عقائدهم فنميط الأذى عنها بما أطلعنا الله تعالى عليه من طريق كشفنا للحقائق ، فيكتب لنا إن شاء الله نظير الثواب الذى ورد لمن أماط الأذى المحسوس كالحجر والشوك .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ لاأحد عنده أعلى منه معرفة بالله عز وجل ليزيل الشبهة العارضة فى عقائد أهل الأفكار من أكابر العلماء ، فضلا عن غيرهم .

وقد وضعت فى ذلك ميزانا نحو كراسة ، أزلت بها غالب الاشكالات التى فى مذاهب الفرق الاسلامية ، كالجبرية والمعتزلة .

ووضعت ميزانا أخرى تزيل الشبه التى تعرض للعبد فى طريق المعرفة بالله تعالى حاصلها أن الله تعالى لم يكلف عبدا بأن يعرف الله تعالى كما يعرف الله نفسه أبدا ، وإن لله تعالى بنفسه علما اختص به لايعلمه ملك مقرب ولانبى مرسل ، لأنهم لو علموه لساووه فى العلم ، ولا قائل بذلك من جميع الملل فضلا عن دين الاسلام ، وذلك أنه تعالى لايتحد مع عباده فى حد ولا حقيقة ولافصل ولاجنس .

فرد يا أخى جميع ماورد فى الآيات والأخبار من التنزيه إلى مرتبة علمه تعالى بنفسه ورد جميع ماورد فى الآيات والأخبار من الصفات التى ظاهرها التشبيه إلى مرتبة علم خلقه تعالى به ، فما أحوج الناس إلى التأويل إلا ظنهم بأن الله تعالى كلفهم بتعقل مرتبة التنزيه التى لايتعقلونها ، وإلا فلو علموا أنها خاصة به تعالى ماأولوا شيئا وكان يكفيهم الايمان بأنه :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) .

فعلم أن من رحمة الله تعالى بخلقه أنه تنزل لعقول خلقه بإضافة الصفات التى فيها رائحة التشبيه إليه ليأخذوا منها المعانى ، ثم تذهب تلك الصفات التى كادوا أن يكيفوها بعقولهم كأنها حق ويبقى معهم العلم بالتنزيه الذى هو الأصل ، وإنما قلنا التى فيها رائحة التشبيه لأن التشبيه لايلحق الحق تعالى أبدا كما لايلحقه التكييف ، وذلك لأن التكييف لايصح إلا لو وقف التجلى الإلهى للعقول والقلوب أكثر من التنزيه وذلك محال ، فجميع التجليات الإلهية كلمحة بارق ولا تقف للرائى حتى يكيفها ثم بتقدير وجود التكييف لأهل العقول

فلا بد من جهلهم بالله تعالى ، لأن تجليه دائما أبد الآبدين ودهر الداهرين ، فإن قدر أن الإنسان عرف مامضى فلايعرف مايأتى .

وأجمع العارفون أن الحق تعالى لايتكرر له تجل فى صفة أبدا .

وأجمعوا على أنه تعالى خالق لجميع الوجود الكونى علوا وسفلا ، وأنه تعالى خالق غير مخلوق ، ومن كان خالقا غير مخلوق لايعرف ، ومن شك فى قولى هذا فليتعقل لنا شىء بعقله لم يخلقه الله تعالى لامحسوسا ولا معنويا مما تصوره القوة المصورة ، فإنه لايقدر أبدا فكيف يصور الله تعالى ، فالحق تعالى أن يرد على أهل العقول جميع المعارف التى اكتسبوها بعقولهم ، ويقول لهم ما أحد منكم عرفنى حق معرفتى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول : من طلب معرفة الله تعالى من طريق الفكر دون الكشف فمن لازمه الشبه ولا يخرج عن ذلك إلا بالكشف .

وسمعت أخى أفضل الدين رضى الله تعالى عنه يقول : إنما أدخل إبليس على المتكلمين التأويل ليحرمهم ثواب كمال الإيمان بالغيب ، وذلك لأن الله تعالى ما كلفهم إلا أن يؤمنوا بعين مانزل لابما أولوه بعقولهم قال تعالى :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) وقال تعالى (آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا) اه .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب فصوص اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر وهو مجلد ضخم فراجعه ترى شيئا لم تجده فى كتب أحد من المتكلمين ولله الحمد وليس هذا من باب الدعوى وإنما هو حق ، وإيضاحه أن كل كلام خلقه الله ليس له مثل حقيقة من كل وجه إذ حقيقة المثلية أن لايزيد أحد الكلامين على الآخر حرفا ولامعنى ، فلا بد من زيادة أحدهما أو نقصه عن الآخر فالمثلية موجودة فى الذهن غير موجودة فى نفس الأمر ، لمن عرف ما الأمر عليه فكل كلام ذكره الإنسان يصح أن يقول فيه هذا كلام لم يسبقنا إليه أحد فافهم والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ سَبْعُونَ شُعْبَةً أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » .

قال الحافظ : يقال أماط الشىء عن الطريق إذا نحاه عنها وأزاله منها .

قال والمراد بالأذى كل مايؤذى المار كالحجر والشوك والعظم والنجاسة ونحو ذلك .

وروى مسلم وابن ماجه عن أبى بردة قال : قلت يارسول الله علمنى شيئا أنتفع به قال :

« أَعْزِلِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ » .

وروى الشيخان فى حديث طويل : « وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » .

وفى رواية لابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« أَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِنْحَاؤُكَ الْقَذَرَ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » الحديث .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه والبيهقى :

« وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَ وَالْعَظْمَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ صَدَقَةٌ » .

وروى الطبرانى والبخارى فى كتاب الأدب المفرد عن معاوية قال كنت مع معقل ابن يسار فى بعض الطرقات ، فمررنا بأذى فأماطه أو نحاه عن الطريق ، فرأيت مثله فأخذته فنحيته فأخذ بيدى ، وقال يا أخى ماحملك على ماصنعت؟ قلت ياعم رأيتك صنعت شيئا فصنعت مثله ؛ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ أَمَاطَ أَذًى مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وَمَنْ تُقُبِّلَتْ مِنْهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وفى رواية للطبرانى : « وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

قلت : وفى هذا الحديث بشارة عظيمة فإن سماحة كرم الله تعالى تتعاظم أن لاتقبل من مسلم حسنة واحدة ، فالحمد لله رب العالمين :

وروى الشيخان مرفوعا : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ذٰلِكَ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ » .

وفى رواية لمسلم : « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فى الْجَنَّةِ فى شَجَرَةٍ قَطَعَهَا عَنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى الْمُسْلِمِينَ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ فَقَالَ وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هٰذَا عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ لاَ يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « نَزَعَ رَجُلٌ ، لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، غُصْنَ شَوْكٍ عَنِ الطَّرِيقِ » .

إما قال الراوى : « كَانَ فى شَجَرَةٍ فَقَطَعَهُ ، وَإِمَّا كَانَ مَوْضُوعًا فَأَمَاطَهُ عَنِ الطَّرِيقِ فَشَكَرَ اللهُ ذٰلِكَ لَهُ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى باسناد لابأس به فى المتابعات ، عن أنس بن مالك قال :

« كَانَتْ شَجَرَةٌ تُؤْذِى النَّاسَ فَأَتَاهَا رَجُلٌ فَعَزَلَهَا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ فِى ظِلِّهَا فِى الْجَنَّةِ » والله تعالى أعلم

قلت : وينبغى للحجاج أن يتقدموا ويزيلوا ما فى طريق الحاج من شوك أم غيلان فى نحو وادى الخروبة والعقيق وبساتين القاضى ، فإن غالب الأحمال تعلق بتلك الأشجار فإن العرب يقطعون الفرع ويتركون شيئا منه كالأضلاع خارجا ، فربما كان المحمل لعجوز ضعيفة فيعلقها فى الليل ويرميها يكسرها وقد تعلقت محفة للشيخ عبد الله الغمرى ليلا فى فرع من الخروبة لما حج سنة سبع وأربعين فاشترى له فأسا من مكة وعزم على قطعها إذا رجع فأدركته المنية فى منزل بدر فمات رضى الله عنه ، والله تعالى يثيب العبد بالنية والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقتل الوزغ والحية والعقرب وكل شىء يؤذى المسلمين بطريقه الشرعى ، حتى إبرة العجوز التى تشق الجلد وتدخل فيه ، وأما الحيات ففيها تفصيل سيأتى فى الأحاديث بشرطه .

وقد بلغنا عن وهب بن منبه أنه سئل عن الوزغ ماشأنه حتى يقتل ؟ فقال لما فيه من السم ، يدل له أنك إذا قطعت ذنبها تصير ساعة تضطرب وأيضا فإنها كانت تنفخ نار النمروذ على إبراهيم الخليل عليه السلام فقيل لها ، وماذا تغنى نفختك مع ضعفها فقالت أعرف أن نفختى ضعيفة ، وإنما فعلت ذلك إظهارا للشماتة بإبراهيم حيث كسر آلهتنا ، هكذا

رأيته منقولا فى بعض الكتب ، وسيأتى فى رواية ابن حبان فى صحيحه والنسائى مايشهد لتلك المسئلة بغير هذا اللفظ والله تعالى أعلم .

وأدلك ياأخى على فائدة عظيمة ، إذا قرصتك عقرب فادهن دائر مخرج الغائط بالزيت الطيب ، فإن الحرقان يبرد فى الحال ، وقد جربنا ذلك مرارا ، وإذا لسعتك حية أو ثعبان ولم تجد دواء طاهرا فخذ من غائطك أو غائط غيرك مقدار مثقالين وادفعه بالماء سواء كان جافا أو رطبا ، فإن السم يجتمع من سائر البدن ويخرج قرصا واحدا بالقىء ، وقد جربنا ذلك أيضا وهو من أسرع ماوجدناه للبرء والله تعالى أعلم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فى أَوَّلِ ضَرْبَةٍ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً ، وَمَنْ قَتَلَهَا فى الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دُونَ الْحَسَنَةِ الْأُولَى ، وَمَنْ قَتَلَهَا فى الضَّرْبَةِ الثَّالِثَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دُونَ الثَّانِيَةِ » .

وفى رواية لمسلم : « وَمَنْ قَتَلَ وَزَغًا فى أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ مِائَةَ حَسَنَةٍ ، وَفى الثَّانِيَةِ دُونَ ذٰلِكَ ، وَفى الثَّالِثَةِ دُونَ ذٰلِكَ » .

وفى رواية لمسلم وأبى داود قال : « فِى أَوَّلِ ضَرْبَةٍ سَبْعِينَ حَسَنَةً » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والنسائى : « أَنَّ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا كَانَ عِنْدَهَا رُمْحٌ مَوْضُوعٌ فى الْبَيْتِ تَقْتُلُ بِهِ الْوَزَغَ وَتَقُولُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَخْبَرَنَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ صَلّى اللهُ عليهِ وَسلمَ لَمَّا أُلْقِىَ فى النَّارِ لَمْ تَكُنْ دَابَّةٌ فى الْأَرْضِ إِلا أَطْفَأَتِ النَّارَ عَنْهُ غَيْرَ الْوَزَغِ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَيْهِ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسلم بِقَتْلِهِ » .

قال الحافظ والوزغ هو الكبار من سام أبرص .

وروى البخارى عن أم شريك قالت :

« أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِقَتْلِ الْأَوْزَاغِ قَالَ : وَكَانَ يَنْفُخُ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه .

« مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَلَهُ سَبْعُ حَسَنَاتٍ ، وَمَنْ قَتَلَ وَزَغاً فَلَهُ حَسَنَةٌ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ مُشْرِكاً قَدْ حَلَّ دَمُهُ » .

وفى رواية للبزار : « مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ عَقْرَباً » الحديث .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ » يعنى الحيات « وَمَنْ تَرَكَ قَتْلَ شَىْءٍ مِنْهُنَّ خِيفَةً فَلَيْسَ مِنَّا » .

قال الحافظ ويروى عن ابن عباس :

« الْحَيَّاتُ مَسْخُ الْجِنِّ كَمَا مُسِخَتِ الْقِرَدَةُ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم سُئِلَ عَنْ حَيَّاتِ الْبُيُوتِ فَقَالَ : إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئاً فى مَسَاكِنِكُمْ فَقُولُوا : أَنْشُدُكُمُ الْعَهْدَ الَّذِى أَخَذَ عَلَيْكُمْ نُوحٌ ، أَنْشُدُكُمُ الْعَهْدَ الَّذِى أَخَذَ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ ، أَنْ لاَ تُؤْذُونَا فَإِنْ عُدْنَ فَاقْتُلُوهُنَّ » .

وكان ابن عمر يقتل الحيات كلهن حتى حدثه أبو لبابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل حيات البيوت فأمسك رواه مسلم وغيره :

وروى مالك ومسلم وأبو داود أن شخصا قتل حية وجدها على فراشه ، فمات لوقته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله ادع الله أن يحييه لنا فقال :

« اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ كَافِرٌ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ » .

وفى رواية لهم : « إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاثًا فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ » .

وفى الحيات نوع أبتر إذا نظرت إليه الحامل ألقت مافى بطنها ، قاله النضر بن شميل وأطال الحافظ المنذرى فى ذكر مذاهب العلماء فى قتل الحيات المتعلقة فى البيوت وفى تركها فراجعها .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى » .

زاد فى رواية : « فَهَلاَّ نَمْلَةً وَاحِدَةً » .

قال الحافظ وقد جاء فى حديث آخر أن هذا النبى هو عزير عليه الصلاة والسلام ، قال وقوله فهلا نملة واحدة دليل على أن التحريق كان جائزا فى شريعتهم ، وفى الحديث تنبيه على أن المنكر إذا وقع فى بلد من أفراد الناس فلا يأمن أن ينزل عليه العقاب العام والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ننجز الوعد فى الأمانة ونأمر بذلك جميع إخواننا ، وهذا العهد قد صار غالب الخلق يخل به بحكم الوعد السابق من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكاد يسلم من خيانته إلا قليل من الناس .

وقد حكى لى من أثق به أنه أودع عند شخص من المعتقدين فى العصر ألف نصف فى رمضان يحج بها هو وعياله جمعها من معزه وغنمه وغزل امرأته خوفا أنها تخرج منه قبل سفر الحاج ، وقال سيدى الشيخ يحفظها لى حتى أسافر ، فلما جاء الميعاد طلبها منه ، فقال : مارأيتك قط وقام على جماعته فكادوا أن يكفرونى ، وقالوا تخون سيدى الشيخ فقلت له هل دعواك صحيحة على الشيخ فإن كانت صحيحة فاحلف لى فأتى بامرأته واعترفت له بالزوجية وحلف لنا بالطلاق الثلاث منها أنه أعطاه ألف نصف وديعة ، فقلت له لم لم تشهد عليه اثنين من المحكمة؟ فقال : قد قلت له الموت والحياة بيد الله عز وجل ومقصودى أعطيهم لك قدام شهود ، فقال لى أنت قلبك خراب أما تكتفى بشهادة الله تعالى ، فقلت له كفى بالله شهيدا فركنت إليه فراحوا إلى يوم تاريخه :

فإياك يا أخى أن تعطى شخصا فى هذا الزمان وديعة بلا شهود :

وكذلك وقع لصاحبنا الشيخ محمد السنهورى الضرير أنه جمع له خمسة وعشرين دينارا على نية التزويج فبلغ ذلك شخصا من المشايخ اسمه الشيخ حسن النطاح ، وكان من شأن

هذا أن له مثل ركبة العنزة موضع السجود وله شعرة مضفورة وهى مكشوفة ويذكر الله معنا كل مجلس حتى يصير له رغاء كرغاء البعير من الهيام ، فأتى هذا الشيخ إلى الشيخ محمد السنهورى ، وقال يا أخى أعجبنى خبرك ودينك ولى بنت عظيمة الجمال ما أحببت أن أحدا يأخذها غيرك ، وأعطونى فيها ثلاثين دينارا وأنا أرضى منك بعشرين دينارا ، فأتى بهم الضرير له فى صرة وقال تحضر عبد الوهاب معنا ، فقال أما ترضى أن يكون الله شاهدا لك ، فقال الضرير نعم ، فأخذهم وراحوا إلى يوم تاريخه .

وكذلك حكى لى من أثق به قال : حضرت شخصا يقبض شخصا سبعمائة دينار ، وكان القابض يظهر الدين والورع فقلت له أنا لا أتحمل شهادة ولكن أما ترضيا بالله والملائكة الكرام الكاتبين التى معكما ومعى شهودا فإن الله تعالى يقبل شهادتهم علينا فى الأعمال فقال المقبض رضيت فكتبت له ورقة صغيرة صورتها أقبض فلان فلانا سبعمائة دينار ، ورضى المقبض بشهادة الله تعالى والملائكة وأخذ الورقة فى رأسه فبعد مدة يسيرة رأيت فى المنام أنه جحد ، فقلت له طالبه فطالبه ، فقال له ليس لك معى شىء ، فقال أماتذكر شهادة الملائكة فمضى القابض إلى القاضى وقال شخص يدعى على بسبعمائة دينار وشهوده الملائكة فقال ائتنى به أعزره ، فلولا لطف الله تعالى بأن شخصا سمع الواقعة وهو فوق سطح لا يراه حتى شهد لراحت الفلوس كلها ، قال : والله ما كان عندى أن أحدا يشهد الله والملائكة ويخون أبدا .

فإياك يا أخى أن تثق بأحد فى هذا الزمان وتدع عنده وديعة بلا شهود إلا بعد تجربة طويلة .

وأخبرتنى السيدة أم الحسن زوجتى ابنة سيدى أبى السعود ابن الشيخ مدين ، وكانت من الصالحات الخيرات الدينات الصادقات ، أن شخصا جاء يصلى فى زاوية جدها فرأى تاجرا من جماعة الشيخ داخلا فى الخلوة بألف دينار ، فعمل أعمى وصار ذلك التاجر يطعمه ويسقيه ويكسوه مدة سنة وهو يعتقد أنه أعمى ، ويترقب غياب التاجر ليخونه فى الألف دينار إلى أن غاب التاجر ليلة فى مولد فكسر الأعمى المتفعل قفل الصندوق وأخذ الألف دينار وهرب بها إلى الصعيد وصار بها تاجرا له عبيد وأصحاب . فانظر صبر هذا الأعمى سنة وما أحد من أهل الزاوية يشعر به أنه بصير حقيقة فى ليل أو نهار ، وكان كل من فى الحارة والزاوية يتبرك به لما هو عليه من الصوم وقيام الليل وقلة الكلام والورع هذا فى الأموال .

وأما فى الفروج والكلام فلا تحصى الخيانة فيهما :

فحكى أن امرأة من بنى إسرائيل كانت بديعة الجمال فتداعت هى وخصمها عند قاض من بنى إسرائيل ، فلما نظر القاضى إليها وقع فى قلبه محبتها فقال لها فى أذنها لا أقضى لك إلا إن مكنتينى من نفسك ، فلم تجبه إلى ذلك فراجعت القاضى وخوفته من الله تعالى ، فلم يخف فرفعت أمرها لحاكم سيامى ليخلصها فلما نظر إليها افتتن بها كذلك وقال لا أخلصك إلا إن مكنتينى من نفسك ، فخوفته من الله تعالى فلم يخف فرفعت أمرها للسلطان فطلب منها أن تمكنه كذلك فبكت ورفعت أمرها إلى داود عليه الصلاة والسلام فعلم بذلك القاضى والحاكم والسلطان فدبروا حيلة يؤدى قبولها إلى قتلها ، وقالوا نريح الناس من فتنتها ، فأتوا داود عليه السلام ببينة تشهد عليها أنها ربت عندها كلبا وصارت تمكنه من نفسها كلما أرادت ، فأمر داود عليه السلام بقتلها ، ثم إن الله تعالى ألهم سليمان وصغار الحارة أن يعمل أحدهم حاكما تتداعى عنده امرأة جميلة تأخذ بالقلوب وأقاموا البينة زورا وشهدوا على تلك المرأة بتمكينها الكلب منها ، فقال سليمان هذه البينة زور ورد شهادتهم كل ذلك وداود ينظر من حيث لا تشعر الأطفال ، فعلم داود أنه حكم بغير الحق فرجع عن أمره بقتلها .

وقد أخبرنى الشيخ عمر الإمام عندنا بالزاوية أن شخصا لعب على عقل أخت رجل من أصحابه وتزوجها ثم سافر بها لبلد أخرى ، فادعى أنها أخته وزوجها لإنسان وهرب فصار يطلب المرأة وهى تمتنع منه ، ثم إن أخاها صادفه بعد ذلك فبرطل القاضى بدينارين ذهبا فانقلب معه على أخيها فحكيت ذلك لأخى أفضل الدين فقال هذا يستحق التأديب بالعمى فعمى الحاكم بعد ثلاثة أيام فهو أعمى إلى وقتنا هذا ، وما حكيت لك هذه الحكايات إلا لتعرف زمانك وتحترز حتى من ولدك ، وأما خيانة الكلام فكثيرة جدا فلا تكاد تجد أحدا يحفظ لك سرا أبدا ولم تزل الناس يحتاجون إلى من يكتم أسرارهم فى كل عصر وحامل للسر فقد من الدنيا فاكتم سرك حتى عن ولدك ، فربما صار عدوا لك كما وقع لأولاد الأمير الزردكاش فاطلعوا من والدهم على ما يوجب القتل عند الملوك فأنهوا ذلك إلى الباشا على بمصر فسلب نعمته وأذله حتى عزم على شنقه وحصل له اللطف بواسطة واحد زاره من الفقراء والله يحفظ من يشاء كيف يشاء :

وروى أبو يعلى والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« تَقَبَّلُوا لِي سِتًّا أَتَقَبَّلْ لَكُمُ الْجَنَّةَ : إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلا يَكْذِبْ ، وَإِذَا وَعَدَ فَلا يُخْلِفْ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلا يَخُنْ » .

وفى رواية للإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« اضْمَنُوا لِي سِتًّا أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ : أَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ » الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا : « اُكْفُلُوا لِي سِتًّا أَكْفُلْ لَكُمُ الْجَنَّةَ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الصَّلاةُ ، وَالزَّكَاةُ ، وَالْأَمَانَةُ ، وَالْفَرْجُ ، وَالْبَطْنُ ، وَاللِّسَانُ » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِى جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنِ الْأَمَانَةِ وَرَفْعِهَا فَقَالَ : يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْجَمْرِ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ ، ثُمَّ أَخَذَ عَصَاهُ فَدَحْرَجَهَا فَيُصْبِحُ النَّاسُ فَيَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِى بَنِى فُلَانٍ رَجُلاً أَمِيناً حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ ! وَمَا فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ » .

وفى رواية للإمام أحمد والبيهقى عن ابن مسعود أنه قال :

« الْقَتْلُ فِى سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلاَّ الْأَمَانَةَ ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّ الصَّلاةَ أَمَانَةٌ ، وَالْوُضُوءَ وَالْوَزْنَ أَمَانَةٌ ، وَالْكَيْلَ أَمَانَةٌ ، وَأَشْيَاءَ عَدَّدَهَا ، وَأَشَدُّ ذٰلِكَ الْوَدَائِعُ ، وَتَصْدِيقُ ذٰلِكَ فِى كِتَابِ اللهِ ، قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ » .

وروى الترمذى : « إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِى خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً فَقَدْ حَلَّ بِهَا الْبَلاءُ ، فَذَكَرَ مِنْهُنَّ : وَإِذَا اتُّخِذَتِ الْأَمَانَةُ مَغْنَماً وَالزَّكَاةُ مَغْرَماً » الحديث .

وروى أبو داود وابن أبى الدنيا عن عبد الله بن أبى المها رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث ، فبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، فذكرت ذلك بعد ثلاثة فجئت ، فإذا هو بمكانه فقال :

« يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هٰهُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « عَلَامَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُئْتُمِنَ خَانَ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحب لله ونبغض لله حتى زوجتنا وأولادنا وأموالنا وأعمالنا ، فلا يكون لنا فى شىء من ذلك علة نفسانية أبدا وهذا العهد من أعز مايوجد ، فإن غالب الناس يدعى المحبة لله وهوكاذب .

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام :

« كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّتِي فَإِذَا أَجَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي » اه .

وسمعت مرة شخصا يقول لأخيه ، يافلان محبتك لله تشبه محبتى فى العبادة ، تنام حتى يعشش العنكبوت على عينيك وتطلب محبة الله ، هذا زور وبهتان اه :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يوقفه فى حضرة يشهد فيها وجه نسبة الأمور للحق دون نسبتها للخلق ، فإذا شهد ذلك المشهد يجد وجه الحق أجمل من كل جميل وأطيب رائحة من المسك ، فحجبه عن شهود وجه نسبة الأمور الخلق ، وأشهده وجه قبح وجه الخلق بالنسبة لوجه الحق ، كوجه الطاعة إذا تصورت صورة جميلة ووجه المعصية إذا تصورت صورة قبيحة ، فهل يصير أحد يقدم القبيح الصورة والرائحة مثلا ويؤخر الصورة الحسنة الطيبة الرائحة ؟ فهذا هو المراد بوجه الحق تعالى فى كلام القوم .

وإيضاح ذلك أن كل فعل مخلوق له وجهان : وجه إلى الحق يعنى موافقا للشريعة ، ووجه إلى الخلق يعنى مخالفا لها ، فكل ماوافق الشريعة فهو وجه الحق وهو باق أبد الآبدين ، وكل ماخالف الشريعة فهو وجه الخلق وهو هالك من وقت ظهوره إلى أبد الآبدين إلا من حيث المؤاخذة عليه فى الآخرة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) .

أى وجه الشيء الموافق لما يحبه الله ويرضاه ، ويعبرون عن عجب الذنب أيضا بوجه الحق ، لأن منه يركب الخلق يوم البعث ، فلا تظن ياأخى أن المراد بوجه الحق مايزاد بوجه الإنسان والحيوان فإن ذلك محال ، فإن حقيقته تعالى مخالفة لسائر حقائق عباده التى هى الأرواح فضلا عن الصور الظاهرة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فعلم أن من أحب ولده أو زوجته حب الطبع فليس هو من أهل الطريق ، وإنما هو مفتر كذاب ، وكذلك من شح على سائل بشيء طلبه .

وبالجملة فتى رجح ولده وزوجته عنده فى المحبة على ولد الغير وزوجته فهى محبة طبيعية إلا أن يكون من الكمل الذين يحبون الخلق لله تعالى ، ويعلمون أن فيهم جزءا يجب ترجيح محبة ولده على ولد الغير فيعطون ذلك الجزء حقه فليزن مدعى الكمال نفسه بهذا الميزان ، فعلم أنه لولا وجود صفة صالحة فى أولاد الكمل ماأحبوهم ، فالصفة الصالحة هى وجه الحق فما أحبوا حقيقة إلا وجه الحق .

وقد عز الأخ الذى يحب أخاه لله فى هذا الزمان وصار كالكبريت الأحمر ، فلكل واحد لسان قدام أخيه ولسان وراءه حتى بعض مشايخ الزوايا ، وإن شككت فى قولى هـذا فامدح له بعض أقرانه وبالغ فيه حتى أنك تكاد تطفى نوره ، فإنه لابد أن يذكر لك كلاما فيه رائحة تنقيص تعريضا أو تصريحا ، فأين دعواه المحبة ؟ وما صحبت فى عصرى هذا أخا صالحا أتحقق أنه من ورائى مثل ماهو من قدامى غير الشيخ الصالح زين العابدين ابن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ عبيد الباقيسى ، فسح الله فى أجله لايعرف عدو يأخذ منه كلمة فى حق أصحابه كلهم ، لأنه يقلب كل كلام فيه رائحة نقص ويجعله يعطى الكمال وهذا عزيز جدا .

وقد ادعى شخص من مشايخ العصر أنه يحبنى أعز من ولده وحلف لى بالله العظيم وله نحو عشرين نصفا من الجوالى ، فأرسلت أمتحن دعواه وأطلب منه أن يرتب لى نصفا واحدا منها فعبس فى وجه السائل ومن ذلك اليوم ماادعى محبتى قط .

وقد أجمع أهل الطريق على أن أقل مراتب الأخوة فى الله تعالى أن أخاه لو طلب منه نصف مابيده من مال وثياب وطعام وغير ذلك لأعطاه له بانشراح صدر .

وقالوا : كل من ادعى أنه أخوك فزنه بهذا الميزان فأوفى به فتردد إليه وإلا فخف رجلك عنه فإن من لاينفعك فى الدنيا لاينفعك فى الآخرة .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لايخلو من يطلب منك شيئا من الإخوان وتمنعه أن تكون اطلعت من طريق كشفك أنه ليس هو له أوهو له فإن كان ليس هو له فأعطه له لتخرج عن وصفك بالبخل وسوف يرجع إليك لأنه لم يقسم له ، وإن كان هو له فأعطه له اختيارا قبل أن يصل إليه اضطرارا ولو بالغصب والسرقة اه .

وقدمن الله علىّ بسهولة كل مايطلب منى من الثياب والمال والاختصاصات وغيرها فلا أمنع أحداً شيئا طلبه منى إلا بوجه شرعى ، إما أن يكون هناك من هو أحوج إلى ذلك الشيء منه وإما لكونه يستعين به على معاصى الله أوعلى أكل الشهوات المكروهة ، وأما شخص عدم الموانع الشرعية كلها فمعاذ الله أن نمنعه لأن تصرفنا فى مال الحق تعالى كتصرف الوكيل ، وتعرف أننا متى منعنا من أمرنا الحق باعطائه عزلنا من الوكالة فتتحول عنا النعم ونغر الخلائق الذين حولنا .

وقد أنشدنى سيدى على الخواص رحمه الله يوما على لسان مريد من الفقراء :

يَا عَمِّ حِيضَانِ الْوُرُودِ مَلاَنَةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ وَحَوْضٌ فَارِغٌ مَا عَلَيْهِ وُرُودُ

فعلم أن الفاسق ينبغى بغضه فى الله لفقد الصفات الصالحة التى ندبنا الحق إلى محبته لأجلها ، ومتى أحببنا فاسقا من حيث فسقه فقد خرجنا عن الشريعة ، فليتفقد من يريد يحب لله ويبغض لله نفسه قبل أن يحب بالطبع ويكره بالطبع كما هو واقع فى أكثر الناس ، فما دام الشخص موافقا للناس على أغراضهم النفسانية فهم يحبونه ويشكرونه ولو كان فاسقا ، ومتى تكدروا منه قامت عليه القيامة ولو كان على عبادة الثقلين .

وسمعت شخصا يدعى محبة أخى أفضل الدين وهو يقول له : رح واستكف البلاء فقال : والله إنى أحبك وأسأل الله تعالى أن يحشرنى معك فى الآخرة ، فقال له أخى وأى شيء تفعل إذا حشرونى إلى النار؟قال أفارقك وأروح ، فقال ليست هذه بأخوة إنما الأخوة أن لاتدخل الجنة حتى أتخلص من النار وتدخلنى معك فقال لاأطيق اه.

وقد ادعى إنسان محبتى فى طريق الحجاز وصار ملازما لى لايكاد يفارقنى فجمعنى أنا وإياه مضيق شق العجوز فزاحمت جمالى جماله فدفع جملى فوقع بحمله فمن ذلك اليوم سقط من عينى وعلمت أنه فى الآخرة أقل مساعدة لى .

ودخلت مرة على سيدى الشيخ ناصر الدين اللقانى المالكى رضى الله عنه زائرا ومعى بعض كعك فقال : والله مانصحب مثلكم إلا ليأخذ بيدنا فى عرصات القيامة لاغير ، فكانت تعجبنى هذه الكلمة منه وإن كان فيها علة خفية من حيث أن المحبة لله لايريد صاحبها ممن أحبه جزاء ولاشكورا .

وقد ظفرت فى زمانى كله بواحد له هذا المقام وهو سيدى عبد القادر المغازلى الذى وقف علىّ وعلى ذريتى ثم بعد ذريتى على الشيخ أبى الحمائل نصف السيرجة ونصف الطاحون بخط بين السورين ، فإنه لما رأى الوارد على كثيرا من غير علمى أتى بسبعمائة دينار ليشترى بهما النصفين المذكورين ، فلما رأى البائع عزمه سامح الآخر بالبعض ، فقال للفقراء الذين عندى اجعلوا له سبعا وادعوا له فقرءوا تلك الليلة فنزل وهو ضعيف يتوكأ على عصا من بيته ، وقال مامع أحد منكم إذن منى أن يقرأ لى ولا يقول اللهم ارحم عبد القادر أبدا ، وخلوا بينى وبين ربى رحمه الله تعالى ، وإلى الآن ماوجدت أحدا على قدمه بل كل من فعل خيراً للفقراء يكاد يستعبدنا ويأخذ جميع أعمالنا الصالحة إن كان لها وجود ولا نرضيه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إن الله تعالى يغار من محبة عبده أحدا غيره إلا بإذنه على الكشف والشهود ومتى أحب أحداً غافلا عن هذا المشهد فينبغى له الاستغفار ألف مرة فقد أذن الشبلى مرة فوقف عند قوله أشهد أن محمداً رسول الله ثم قال وعزتك وجلالك لولا أمرتنى بذكر غيرك ماذكرت سواك اه .

ولايخفى أن هذا كان من الشبلى حال سكره وغيبته ، وإلا فلو كان صاحيا لعلم أن الله تعالى أمرنا بذلك ، فإن المحمود إنما هو الغيرة لله لاعلى الله .

وهناك أسرار يذوقها أهل الله تعالى إذا صاروا لا يشهدون إلا الله تعالى فاعلم ذلك وتدبر فيه ، والله يتولى هداك :

وروى الشيخان والترمذى والنسائى مرفوعا : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ تَعَالَى ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِى النَّارِ » .

وروى مسلم مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِجَلاَلِي ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي » .

وروى الحاكم مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلهِ تَعَالَى » .

وفى حديث الشيخين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ » .

أى اجتمعا على ما يرضيه وتفرقا على ما يسخطه ، فكان اجتماعهما بإذن وافتراقهما بإذن .

وسيأتى فى عهد تشييع الميت رواية الإمام أحمد مرفوعا بإسناد حسن :

« وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا : « إِنَّ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ لاَيُحِبُّهُ إِلاَّ لِلهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ مَالٍ أَعْطَاهُ فَذَلِكَ الْإِيمَانُ » .

وروى الطبرانى وأبو يعلى مرفوعا : « مَا تَحَابَّ رَجُلاَنِ فِى اللهِ تَعَالَى إِلاَّ كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ تَعَالَى أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ » .

وفى رواية للحاكم : « إِلاَّ كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « مَنْ أَحَبَّ فَهُوَ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً فِى الْجَنَّةِ مِنَ الْمَحْبُوبِ » الحديث بمعناه .

وروى الشيخان : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَارَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ تَرَى فِى رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ — يَعْنِى فِى الْأَعْمَالِ — ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه : « لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِناً ، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ » والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نختار للمجالسة الجليس الصالح وهو الذى لا يلحقنا إثم بمجالسته ، وذلك إما بالتوبة من الإثم فإذا وقع أحدنا بسببه فى ذنب تاب على الفور من غير إصرار ، وإما بعدم وقوعنا فى الإثم بسببه أصلا :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سياسة وفراسة ليعرف من يستحق المجالسة ممن لا يستحق ، ومن لا سياسة عنده يقبل على مجالسة كل من رآه ، ثم بعد ذلك يقطع مجالسته فيصير عدوّا له .

وقد قالوا : العاقل من يقدم التجريب قبل التقريب ، ووالله إن الإثم الذى يقع فيه من يعتزل الناس اليوم يكفيه ويغنيه عن زيادة الأوزار التى يكتسبها من مجالسة الناس ، فلا يكاد الإنسان يجد مجلسا واحدا يخلو عن إثم أبدا، إما غيبة ، وإما نميمة ، وإما غفلة عن الله تعالى ، وإما تحريض على طلب دنيا وإما غير ذلك ، فالوحدة خير من مجالسة الناس اليوم ، إلا أن تتعين المجالسة عليه بطريقه الشرعى .

ففتش ياأخى على الصالحين وجالسهم ، فإن لم تجدهم فاجلس وحدك فقد قالوا : الوحدة ولا الجليس السوء ، وقالوا : الجلوس مع الكلب أولى من الجلوس مع من يحملك على الآثام :

واعلم يا أخى أن كل من حصل لك بواسطة مجالسته إثم فهو جليس سوء ، فهل سلم لك على هذا جليس واحد ؟ لا والله لا تكاد تجده فالوحدة أولى ، والسلام .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً » . ومعنى يحذيك : يعطيك .

ولفظ رواية أبى داود والنسائى مرفوعا :

« مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ شَىْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ نَافِخِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجعل جلوسنا دائما للقبلة عملا بعموم قوله تعالى :

(وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) .

أى نحو الكعبة ، اللهم إلا أن يكون أحدنا جالسا فى حلقة فقبلة أحدنا حينئذ وجوه أصحابنا من حيث أن المؤمن مرآة المؤمن ؛ ولا يخفى أن توجه العبد لأخيه فى غير صلاة أفضل من توجهه للقبلة ، فإن لم نجد من نستقبله من المسلمين استقبلنا القبلة لأنها تليه فى المرتبة :

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الطبرانى باسناد حسن : « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا ، وَإِنَّ سَيِّدَ الْمَجَالِسِ قِبَالُ الْقِبْلَةِ » .

وفى رواية له أيضا : « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَرَفًا ، وَإِنَّ شَرَفَ الْمَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةُ » .

قال الحافظ : وفى الباب أحاديث غير هذه لا تسلم من مقال ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا التجار الذين يسافرون إلى الشام أن يجعلوا معظم نيتهم امتثال أمر الشارع فى سكنى الشام دون التجارة ، فإن التجارة حاصلة تبعا ولو لم ينووها ، وذلك ليكونوا فى سكناهم الشام تحت امتثال أمر الشارع فيثابوا على ذلك ، بخلاف ما إذا جعلوا نيّتهم التجارة فقط فلا يحصل لهم أجر عند بعضهم ، لحديث :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » .

ولا ينافى ما ذكرناه قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء : إن الأرض المقدسة لا تقدس أحدا ، وإنما يقدس كل إنسان عمله . لأنا نقول إذا أمرنا الشارع بشىء فلا نخرج عن العهدة إلا بفعله ، فنسكن فى الشام امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معولين على فضل الله لا على أرض الشام ، وكذلك القول فى حق من أقام بمكة والمدينة لأجل فضل الصلوات هناك يقيم لأجل مضاعفة الأجر فى الصلوات هناك ، ولا يعتمد فى نجاته فى الآخرة إلا على الله تعالى دون الأعمال الصالحة ، فافهم .

وكان لفظ أبى الدرداء الذى أرسله إلى سلمان الفارسى :

أما بعد فهلم يا أخى إلى الأرض المقدسة فلعلك تموت فيها فكتب إليه سلمان :
أما بعد، ياأخى فقد بلغنى كتابك وفهمت مافيه وإن الأرض المقدسة لاتقدس أحدا، وإنما يقدس كل إنسان عمله والسلام .

فإياك يا أخى أن تسافر للقدس أو دمشق بلا نية صالحة ، فإن الدنيا وما فيها كالهباء إلا ماابتغى به وجه الله . وقد علمت هذا العهد لبعض إخواننا من التجار فصار يحرر نيته من مصر إلى زيارة أبينا الخليل عليه الصلاة والسلام ، وإلى زيارة موسى ولوط وشعيب ونوح وإن لم يثبت من طريق المحدثين أن تلك القبور هى قبور هؤلاء الأنبياء يقينا فيزورهم العبد بالنية ، وأيضا فإن أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها الإطلاق والسراح فى البرزخ فلا يطلبهم إنسان فى مكان إلا ويحضرون عنده، وإذا كان بعض الأولياء يحضر عند مريده فى أى وقت طلبه فالأنبياء أولى بذلك :

(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فى شَامِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فى يَمَنِنَا ، قَالُوا : وَفى نَجْدِنَا ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فى شَامِنَا ، وَبَارِكْ لَنا فى يَمَنِنَا ، قَالُوا : وَفى نَجْدِنَا، قالَ هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، أَوْ قَالَ : وَمِنْهَا يَخْرُجُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ : عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ » .

وروى ابن خزيمة والترمذى بإسناد جيد مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : يَا شَامُ أَنْتِ صَفْوَتِى مِنْ بِلَادِى أُدْخِلُ فِيكِ خِيرَتِى مِنْ خَلْقِى ، إنَّ اللهَ تَكَفَّلَ لِى بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ » .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين مرفوعا :

« أَلَا وَإِنَّ الْأَمَانَ إِذَا وَقَعَتِ الْفِتَنُ فَالْأَمْنُ بِالشَّامِ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « أَهْلُ الشَّامِ وَأَزْوَاجُهُمْ وَذُرِّيَّاتُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ وَإِمَاؤُهُمْ

إِلَى مُنْتَهَى الْجَزِيرَةِ مُرَابِطُونَ ، فَمَنْ نَزَلَ مَدِينَةً مِنَ الْمَدَائِنِ فَهُوَ فِى رِبَاطٍ أَوْ ثَغْرٍ مِنَ الثُّغُورِ فَهُوَ فِى جِهَادٍ » .

وروى الترمذى وصححه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« طُوبَى لِلشَّامِ ، إِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهِ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى وصححه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« سَتَخْرُجُ عَلَيْكُمْ فِى آخِرِ الزَّمَانِ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ تَحْشُرُ النَّاسَ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيْمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا وموقوفا ورواتهما ثقات :

« أَهْلُ الشَّامِ سَوْطُ اللهِ فِى أَرْضِهِ يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَحَرَامٌ عَلَى مُنَافِقِيهِمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى مُؤْمِنِيهِمْ وَلَا يَمُوتُوا إِلَّا هَمًّا وَلَا غَمًّا ٧ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا يقول :

« فِى الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ : أَىْ يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الْغُوطَةُ ، فِيهَا مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا المسلمين المسافرين أن يذكروا الله تعالى على دوابهم إذا ركبوها لاسيما الإبل ، وذلك لأن فى السفر الغفلة فى الغالب .

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوى إذا سافرنا معه وركب بعد الصبح ذكر المجلس على الحمارة هو وأصحابه ، وكذلك كان يذكر المجلس بعد العشاء وهو راكب : ولايفوت العبادات التى يفعلها فى الحضر رضى الله عنه .

واعلم يا أخى أن كل من غفل عن امتثال أمر ربه أو اجتناب نهيه ، فقد غفل عن ربه ، وكل من غفل عن ربه فقد تلف وعدم العزم الشرعى وعرّض جسمه لسائر الآفات ، وذلك لأن الشفاء فى الإقبال والمرض فى الإدبار ، فإن روائح الحضرة الإلهية تجلو الصدأ عن القلب لطيب رائحتها ، وكل من توجه لغيرها جاءته الآفات من كل جانب وازداد قلبه صدأ وقد أنشد سمنون المحب رضى الله عنه :

وَلاَ عَيْشَ إلاَّ مَعْ رِجَالٍ قُلُوبُهُمْ ... تَحِنُّ إلَى التَّقْوَى وَتَرْتَاحُ لِلذِّكْرِ
أُدِيرَتْ كُؤُوسٌ لِلْمَنَايَا عَلَيْهِمُ ... فَأَغْفَوْا عَنِ الدُّنْيَا كَإِغْفَاءِ ذِي السُّكْرِ
هُمُومُهُمْ جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ ... بِهِ أَهْلُ وُدِّ اللهِ كَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
فَأَجْسَادُهُمْ فِي الأَرْضِ قَتْلَى بِحُبِّهِ ... وَأَرْوَاحُهُمْ فِي الْحُجْبِ نَحْوَ الْعُلاَ تَسْرِي
فَمَا عَرَّسُوا إلاَّ بِقُرْبِ حَبِيبِهِمْ ... وَمَا عَرَّجُوا عَنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلاَ ضُرِّ

وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : تأملت فى ذنوب أهل الإسلام فلم أر منها ذنبا أعظم من الغفلة عن الله تعالى :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « مَا مِنْ رَاكِبٍ يَخْلُو فِي مَسِيرِهِ بِاللهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ إلاَّ رَدِفَهُ مَلَكٌ ، وَلاَ يَخْلُو بِشِعْرٍ وَنَحْوِهِ إلاَّ رَدِفَهُ شَيْطَانٌ » .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْدَفَهُ عَلَى دَابَّتِهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَيْهَا كَبَّرَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثَلاَثًا وَحَمِدَ اللهِ تَعَالَى ثَلاَثًا وَسَبَّحَ اللهَ ثَلاَثًا وَهَلَّلَ اللهَ تَعَالَى وَاحِدَةً ثُمَّ ضَحِكَ ، وَقَالَ : مَا مِنِ امْرِئٍ يَرْكَبُ دَابَّتَهُ فَيَصْنَعُ كَمَا صَنَعْتُ إلاَّ أَقْبَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فَضَحِكَ إِلَيْهِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وابن خزيمة :

« مَا مِنْ بَعِيرٍ إلاَّ فِي ذِرْوَتِهِ شَيْطَانٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رَكِبْتُمُوهَا كَمَا أَمَرَكُمْ ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى الدلجة وهو السير بالليل ، وفى الصلاة فى كل منزل عرسوا فيه : أى نزلوا فيه آخر الليل ، وذلك ليشهد لهم يوم القيامة ، فإنه مامن شيء فارقناه إلا ويسأله الله تعالى عنا هل وفينا بحقه أم لا ، سواء أكان صاحبا أوثوبا أوطعاما أو زمانا أو مكانا وكذلك يسألنا هل ذكرنا الله تعالى مدة صحبتنا لذلك الشيء أم نسيناه . ومن الوفاء بحق الثوب أو الزمان أوالمكان

أن لانعصى الله تعالى فيه ، وما من نعمة ولا نقمة إلا وهى مذكرة بالله تعالى عند أرباب البصائر ، فمن لم يذكره بالنعم ذكره بالمحن .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود مرفوعا : « عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

«ثَلاَثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَى أَحَدِهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ ، فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُ لِي وَيَتْلُو آيَاتِي » الحديث .

وهذا الحديث يؤيد قول بعض العلماء : إن الله يحب من عباده الملق له والمتماق ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نذكر الله تعالى إذا عثرت دابتنا فإنها ما عثرت بنا إلا بغفلتنا عن الله تعالى ، كما أنه ما غلط إمام فى قراءته فى الصلاة إلا لعدم طهارة المقتدين ، فعلم أن عثرة دابتنا عقوبة لنا ، فإن ذكرنا الله تعالى ردت العقوبة إلى خير إن شاء الله تعالى .

وروى النسائى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد عن أبى المليح عن أبيه قال :

« كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلمَ فَعَثَرَ بَعِيرُنَا فَقُلْتُ تَعِسَ الشَّيْطَانُ[1] فَإِنَّهُ يَعْظُمُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ ، وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللهِ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » .

وفى رواية الإمام أحمد بإسناد جيد والبيهقى :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَ عَلَى حِمَارٍ وَرَدِيفُهُ شَخْصٌ فَعَثَرَ الْحِمَارُ فَقَالَ الرَّجُلُ تَعِسَ الشَّيْطَانُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ تَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي ، وَإِذَا قُلْتَ بِسْمِ اللهِ تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ ، وَإِذَا قِيلَ بِسْمِ اللهِ خَنَسَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » والله تعالى أعلم .

---

(١) لعل هنا سقطا ، مثل « لاتقل ذلك » .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نقول كلما نزلنا منزلا فى السفر :

« أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

فإن من قال ذلك لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ، وذلك لما رواه مالك ومسلم والترمذى وابن خزيمة فى صحيحه :

وقد رتب الله تعالى الأسباب على مسبباتها والكل منه وإليه ، فكما خلق الرى عند الشرب والشبع عند الطعام ، فكذلك يحرسك عند قولك ما أمرك الله تعالى بقوله فاعلم ذلك .

وروى الطبرانى بإسناد لا بأس به عن عبد الله بن بسر قال : خرجت من حمص فآوانى الليل إلى البيعة فحضرنى أهل الأرض فقرأت هذه الآية من الأعراف :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) .

إلى آخر الآية ، فقال بعضهم لبعض احرسوه الآن حتى يصبح ، فلما أصبحت ركبت دابتى ، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ندعو لإخواننا المسلمين بظهر الغيب لاسيما المسافرون ، وأول ما ترجع منفعة ذلك علينا بقول الملك «ولك مثله» :

واعلم أن من جملة الدعاء للإخوان قولنا اللهم لا تستجب لنا دعاء على أحد من إخواننا وأولادنا وغيرهم حال غضب منا عليهم ، فإن الله تعالى ربما لم يستجب دعاءنا فيهم ، وهذا معدود من الشفقة والرحمة بالإخوان والأولاد والأهل وغيرهم ، فربما دعا الإنسان على من يحبه فى حال غضب فيستجيب الله تعالى دعاءه فيه فيندم على ذلك ويطلب رد السهم فلا يرتد :

وبالجملة فكل ما فعله الإنسان مع الخلق يرجع عليه نظيره ، فإن لم يدركه ذلك أدرك ذريته من بعده ، وقد تقدم فى هذه العهود قول أبى النجاء القوى رحمه الله تعالى لأصحابه لما سألوه الوصية لهم وهو محتضر :

اعلموا أن الوجود كله يقابلكم بحسب ما برز منكم من الأعمال ، فانظروا كيف تكونون ؟ من رجع عليه سوء فلا يلومن إلا نفسه :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم وأبو داود واللفظ له مرفوعا :

« إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَالَتِ المَلَائِكَةُ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا: « دَعْوَتَانِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ :دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المَرْءِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِنَّ أَسْرَعَ الدُّعَاءِ إِجَابَةً دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ » .

وفى رواية لأبى داود والبزار والترمذى مرفوعا :

«ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا مرضنا فى بلاد الغربة أن نحب الموت هناك ، تقديما لمراد الله تعالى على مرادنا ، ورغبة فى الثواب الوارد فيمن مات غريبا . والسر فى ذلك أن من مات غريبا يكون معوّلا على فضل الله تعالى دون الخلق ، بخلاف من مات بين أهله وعشيرته فإنه يموت وهو راكن إلى نفعهم له ، وفى الحديث :

« أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي » .

ولا شك أن كل من مات غريبا مات منكسر الخاطر ، وقد أخبر الله تعالى أنه عنده يعنى باللطف والحنان ، ومن كان الله عنده كذلك فقد فاز فوزا عظيما :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى النسائى واللفظ له وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

« إِنَّ رَجُلاً مَاتَ بِالمَدِينَةِ مِمَّنْ وُلِدَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ ثُمَّ قَالَ: يَا لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قَالُوا: وَلِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِى الجَنَّةِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَوْتُ غُرْبَةٍ شَهَادَةٌ » .

وفى حديث الطبرانى الذى عدّد فيه الشهداء :

« وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ ، وَالغَرِيبُ شَهِيدٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نبادر بالتوبة عقب كل ذنب ، ولا نصرّ على ما فعلناه لحظة واحدة هروبا من سخط الله تعالى ، مع أن الإصرار أيضا معصية ثانية ، فإذا وقع بادرنا أيضا بالتوبة من الإصرار ، وهكذا القول فى الإصرار على عدم التوبة من الإصرار أبدا ، فما من ذنب إلا وله دواء ، حتى لو أصر على ذنب سبعين سنة أو أكثر فندم واستغفر الله عن جميع الإصرار السابق كله انسحب الاستغفار عليه ، فإن التوبة تجبّ ماقبلها .

قال العلماء : والتوبة عن الشرك مقطوع بها بنص القرآن فهى مقبولة بلاشك ، بخلاف معاصى أهل الإسلام فإنها كلها مظنونة القبول ، وذلك لأن المشرك كان فى حجاب القطيعة الكلية فلاطفه الحق تعالى كما لاطف الشيخ الفانى وحمل عنه حكم الذنوب السالفة كلها إذا تاب وأحسن .

وأما العاصى من أهل الإسلام فكان حكمه حكم الشاب القوى العاتى لضعف حجاب قطيعته فإنه مسلم موحد يشم رائحة الإسلام ، فكان من شأنه أن لايقع فى معصية الله تعالى : هذا ماظهر لى الآن من الحكمة ومن فتح الله تعالى عليه بشىء أوضح مماقلناه فليلحقه بهذا الموضع .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : ما دامت شهوة الذنوب فى القلب فلا فائدة فى الطاعات ، لأن ظلمة شهوة المعصية تمنع دخول نور الطاعات إلى القلب ، والمدار على حصول النور فى القلب حتى يصلح لمجالسة الرب اهـ :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم والنسائى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وفى رواية لمسلم مرفوعا : « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح والبيهقى واللفظ له مرفوعا :

« إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ لَبَابًا مُسِيرَةُ عَرْضِهِ أَرْبَعُونَ عَامًا أَوْ سَبْعُونَ سَنَةً ،

فَتَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَلَا يَغْلِقُهُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ » .

وروى ابن ماجه بإسناد جيد مرفوعا :

« لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُهُ وَيَرْزُقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ » .

وروى أبو يعلى مرفوعا : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْبِقَ الدَّائِبَ الْمُجْتَهِدَ ، فَلْيَكُفَّ عَنِ الذُّنُوبِ » .

والدائب : هو المتعب نفسه فى العبادة المجتهد فيها .

وروى الطبرانى مرفوعا «الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ، فَسَعِيدٌ مَنْ هَلَكَ عَلَى رَقْعِهِ » .

ومعنى واه : مذنب ، وراقع : بمعنى تائب مستغفر .

وروى الترمذى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِى ، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » الحديث .

قال الحافظ : ومعنى قوله : « فليعمل ما شاء » .

أنه ما دام يذنب ويستغفر ويتوب فانا أغفر له وتكون توبته واستغفاره كفارة لذنبه ، لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعود إلى مثله ، فإن هذه توبة الكذابين ، والله أعلم .

وروى الطبرانى عن معاذ قال: « قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ أَوْصِنِى ؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَاذْكُرِ اللهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ فَأَحْدِثْ لَهُ تَوْبَةً ، السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ» .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَنْسَى اللهُ حَفَظَتَهُ ذُنُوبَهُ

وَأَنْسَى ذَلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى يوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِذَنْبٍ » .

قلت : وقال بعضهم فى هذا الحديث : إن العبد مادام يستحضر ذنوبه ويذكرها فهى لم تمح ولم تبدل لأن صورتها موجودة فى صحف الملائكة ، فلا يصح للعاصى أن يظن أن معاصيه بدلت بالحسنات إلا إن نسيها ولم يذكرها أصلا ، وذلك لأنها إذا بدلت لم يبق للذنوب صورة حتى يذكرها العبد اه وهو قاصم للظهور ، ونسأل الله اللطف :

وروى الطبرانى وغيره ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةَ ، وَالْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ الْمَقْتَ » .

وروى الطبرانى وغيره ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » .

وكان ابن عباس يقول : المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بالله عزوجل ؛ وروى أيضا مرفوعا والوقف أشبه : وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« النَّدَمُ تَوْبَةٌ » .

زاد فى رواية للحاكم : « وَإِذَا عَلِمَ اللهُ مِنْ عَبْدٍ نَدَامَةً غَفَرَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ مِنْهُ » .

وروى مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى ، وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ آخَذَهُ اللهُ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ » .

وروى البيهقى وغيره مرفوعا : « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً » .

وروى الطبرانى والترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

زاد أحمد فى رواية : « أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؟ قَالَ : هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ » .

والأحاديث والآثار فى أمر التوبة كثيرة مشهورة، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نفرغ أنفسنا للعبادة والإقبال على الله تعالى ، لا سيما إذا بلغنا الأربعين سنة .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ ناصح يسلك به حتى يقطع علائقه الدنيوية كلها أو يقلبها بالنية الصالحة إلى مرضاة الله تعالى مع بقائه على علائقه إذ مامن شيء فى الوجود إلا وله وجهان: وجه مقرب إلى الله تعالى ووجه مبعد عنه، فيأخذ العبد الوجه المبعد فيقلبه فيصير مقربا .

فامتحن يا أخى بهذا الميزان جميع الأعمال ماعدا المعاصى، ومن قال: إن المعاصى قد تقرب العبد لما يقع فيها من الذل والانكسار فراده أثرها لاعينها .

وتأمل قول الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : معصية أورثت ذلا وإنكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبار ، فجعل الخيرية فى أثر المعصية لافى عين المعصية ، فلا يصح إجماعا أن يفهم أحد عن القوم أنهم يقولون إن المعصية تقرب إلى الله تعالى أبدا ، فإن الحس يكذب هذا القائل ، فلو أراد العاصى أن يحصل له بالله وصلة بوقوعه فى المعصية لا يصح ذلك له أبدا ، بل يجد حبل الوصلة بشهوده تعالى أو شهود حضرته انقطع .

وقد جاء شخص إلى الجنيد رضى الله عنه فقال : يا سيدى أنا صرت آتى المعاصى وأنا مشاهد لله عزوجل من كونه خالقا لتلك المعصية، فقال الجنيد: هذا تلبيس من الشيطان ولو حققت النظر لوجدت نفسك حال المعصية لا يصح لها مشاهدة الحق تعالى مطلقا ، ثم لو قدر أنك شاهدته تعالى لشهدته ساخطا عليك غير راض عنك اه وهو كلام نفيس .

فاسلك يا أخى على يد شيخ يقطع علائقك أو يقلبها إلى خير كما قررنا إن أردت العمل بهذا العهد وإلا فمن لازمك كثرة العوائق عن ربك حتى تموت ، وقد عجز الأكابر فضلا عن مثلك أن يعرفوا طريق قطع علائقهم بأنفسهم من غير شيخ فلم يقدروا ، فلا يزال الشيخ يأمرك بإزالة العوائق واحدا بعد واحد حتى لا يبقى إلا واحد فيقول لك أزله وها أنت وحضرة ربك .

وتحتاج يا أخى إلى طول زمان وصبر على مأمورات شيخك ، وغالب الناس يرجع من الطريق فلا يحصل من قطع العلائق على طائل :

وإيضاح ذلك أن طريق السير فى الطريق طريق غيب والمريد كالأعمى الذى يريد يسلك طريقا طول عمره ما سلكها ، والشيخ كالمسافر الذى سلكها فى نور الشمس زمانا طويلا فعرف مهالكها كلها ، فهو بتقدير أنه يعمى أو يسير فى ظلمة الليل يعرف المهالك الطرق المسدودة كدليل الحاج سواء ، فمن سلم للشيخ وانقاد له قطع تلك الطريق ونجا من العطب ، ومن لم يسلم للشيخ لا يعرف يمشى وربما وقع فى مهلكة ، فلم يعرف يخرج منها حتى يموت ، ولولا أنها طريق غيب لا يقدر أحد على سلوكها وحده ما كان للدعاة إلى الله فائدة من أنبياء وأولياء وعلماء ، فلا بد من مزيد خصوصية ، فتأمل :

فإن قال لنا قائل : الأعمال مقسومة لكل شخص فمن قسم له شيء فلابد أن يفعله فلا نحتاج إلى آمر بذلك .

قلنا : والآمر أيضا مقسوم فلابد أن يقع ، فليس للشيخ مدخل فى القسمة ، وإنما له مدخل فى إصلاح العبادة وتعليم المريد كيفية فعلها على الوجه الشرعى بحيث يخلص من الآفات :

وقد أجمع الأشياخ على أنه لو صح لعبد أن يأتى بالمأمورات على الوجه الذى أمره الله تعالى به من غير خلل لما احتاج أحد إلى شيخ ، لكن لم يصح لهم ذلك فاحتاجوا ضرورة إلى من يبين لهم مراد الحق فلذلك احتاج أتباع المجتهدين إلى المجتهدين ليبينوا لهم مراد الشارع ، مقلدوا الأتباع إلى من يبين لهم مراد المجتهدين ، وهكذا فكل أهل دور يعرفون مراد الدور الذى قبلهم لقربهم منهم ، ولو أراد الذين بعدهم أن يعرفوا الواسطة التى قبلهم ويستقلوا بفهم كلام من قبلهم على وجهه لا يقدرون .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط عبد الله الخاص أن يكون له مانع يمنعه عن دخول حضرته تعالى ، ومتى كان عنده مانع فهو عبد ذلك لا عبد المخصوص اهـ :

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : كل مريد أمره شيخه برمى مابيده من الدنيا فأبى فقد مكر به واستحق الطرد عن حضرة الله تعالى فلا يرجى له فلاح بعد ذلك أبدا فهنيئا لمن جعل خده أرضا لأستاذه يمشى عليه بنعله :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« يَقُولُ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ قَلْبَكَ نُورًا وَغِنًى ، وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ رِزْقًا . يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَبَاعَدْ مِنِّي أَمْلَأْ قَلْبَكَ فَقْرًا وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ شُغْلًا » .

وروى ابن ماجه والترمذى واللفظ لهوقال حسن صحيح وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة قال :

« تَلَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ) الآية ، ثُمَّ قالَ : يَقُولُ اللهُ : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَيْهَا مَلَكَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول اللهصلى اللهعليه وسلم) أننرغب إخواننا فى العمل الصالح عند فساد الزمان من غير اعتماد عليه دون فضل الله تعالى ، ونأمرهم برؤية المنة لله عليهم الذى أهلهم لتلك العبادة ولم يطردهم عن حضرته كما طرد غيرهم ، ونأمرهم بالرضا عن الله تعالى بالعمل القليل مثل ما يرضون عنه إذا قسم لهم رزقا قليلا بالنسبة للأغنياء والأمراء ، وأن يقولوا الحمد لله الذى غلط الزمان فى حقنا حتى أوقعنا له فيه عبادة فى غير أوانها ، وذلك لكثرة تشعب الخواطر والهموم بوزن المغارم والمظالم مع قلة المكاسب وكثرة العيال وقلة البركة فى الرزق كما يعرف ذلك من ألزم بما لم يلزمه ، وليس عند الفقراء المنقطعين فىالزوايا علم ولا خبر من ذلك ، ولذلك أقام الله تعالى عليهم الميزان ولميكتف منهم بالأعمال اليسيرة لعدم الشواغل وعدم الحرفة ، فلاينبغى لأحد منهم أن يستكثر عملا أصلا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يدخله حضرات القرب

وبرى هناك من اعتمد على غير الله والغير يتبرأ منه ويتخلى عنه وهناك يعتمد على الله ضرورة دون العمل وعملك غير بلا شك .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد والخلاص من كل سوء، والله يتولى هداك .

وروى ابن ماجه والترمذى وأبو داود مرفوعا :

« ائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ » .

زاد فى رواية أبى داود : « قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ » .

وروى مسلم والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ » .

قال الحافظ : والهرج هو الاختلاف والفتن ، وقد فسر فى بعض الأحاديث بالقتل لأن الفتن والاختلاف من أسبابه فأقيم المسبب مقام السبب، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نداوم على العمل ولو قل ، فإننا كل يوم فى قرب من الأجل فاللائق بنا استغنام العمل لا تركه ، وهذا العهد يخل به كثير ممن يتعبد بنفسه من غير شيخ ، فيتعاطى أعمالا شاقة فتمل نفسه فيترك العمل آخر عمره جملة واحدة ، ولذلك تقول الناس حبل العبادة طويل .

وقد كان شخص من الناس اجتمع علىّ فجملته يفتتح المجلس بالجماعة لما كان عليه من المواظبة على الأوراد والخيرات ، ثم بعد مدة سلبه الله تعالى ذلك الخير كله وصار كالفخارة الفارغة وزال ذلك البريق الذى كان على وجهه ، فإن كل من لا شيخ له إذا أكثر من العبادات فلا بد أن يمل منها ويذهب ميله إليها حتى لا يبقى له إليها داعية أو يعجب بها وهذا مكر من الله تعالى به بلا شك ، وقد مدح الله تعالى رجالا بقوله :

(رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) .

فكن يا أخى مع هؤلاء ، ولا تكن مع من مكر به من الناكثين لعهود أشياخهم ، فلعلك يدور فيك ماء الحياة ويخضر عودك فلا تمل من العمل.

وقد كان السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم إذا دخل أحدهم فى سن الأربعين سنة أقبل على عبادة ربه حتى لو قيل له غدا تموت لا يجد له زيادة على ذلك العمل الذى هو عليه رضى الله عنهم أجمعين :

ويتعين العمل بهذا العهد على الدعاة إلى الله تعالى لأنه متى لم يكن الشيخ أكثر عملا من المريد لا يتم اقتداؤه به ، وإذا ترك الشيخ عبادة كان يفعلها اقتدى به المريد ضرورة ، ولذلك قام صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه وكان أواخر عمره أكثر صلاته بالليل جالسا ولم يترك العمل ، ولذلك كان أتعب صلى الله عليه وسلم من بعده فما تورمت أقدام أحد بعده إلا نادرا ، فلا تجد يا أخى أتعب قلبا ممن يكون قدوة أبدا :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصير وكان يحجره بالليل فيصلى عليه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه ، فجعل الناس يثوبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم يصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ، فَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ » .

وفى رواية عنها : وكان آل محمد إذا عملوا عملا أثبتوه قالت :

« وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ » .

وفى رواية عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » .

كل هذه الروايات فى الصحيحين ، وفى رواية لمالك والبخارى أيضا :

« إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الَّذِى يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ » .

وكانت عائشة إذا عملت عملا أثبتته يعنى داومت عليه . وروى الترمذى مرفوعا :

« أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا دِيمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ » .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخص شيئا من الأيام ؟ قالت لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع ؟

ومعنى يحجره فى الرواية الأولى : يتخذه حجرة ، وناحية فينفرد عليه فيها ، ومعنى يثوبون : يرجعون إليه ويجتمعون عنده :

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أم سلمة قالت « ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته وهو جالس ، يعنى فى النوافل ، وكان أحب الأعمال إليه ما داوم عليه العبد ، وإن كان يسيرا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحب الفقر وقلة ذات اليد ، وكذلك نحب من كان بهذه الصفة أيضا من الفقراء والمساكين والمستضعفين ، ونحب مجالستهم عملا بقوله تعالى :

(وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) الآية .

وذلك لأن رحمة الله تعالى لا تفارقهم فنحبهم ونحب مجالستهم لمحبة الله تعالى لهم ، وكذلك نحب الفقر لما فيه من كثرة سؤالنا للحق وتوجهنا إليه لا لعلة أخرى .

وإيضاح ذلك أن حاجة العبد تذكره بالله تعالى وعدم حاجته تنسيه الحق قال تعالى :

(كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) وقال (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) .

ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم :

« اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا وَكَفَافًا » .

أى لا يفضل عنهم من غدائهم ولا عشائهم شىء ، وذلك ليصيروا متوجهين إلى الله تعالى كل حين لا ينسونه ؛

فانظر ما أشد شفقته صلى الله عليه وسلم على أهل بيته ، ويقاس بأهل بيته غيرهم ، فوالله لو علم الإنسان قدر مقام الفقر لتمناه ليلا ونهارا :

وقد قال الإمام الشافعي رضى الله عنه : مافزعت نفسى من الفقر قط ،أى بل تنشرح له إذا أقبل وتنقبض إذا أدبر ، هذا مذهب الإمام الشافعي رضىالله عنه فما بالكم يامقلدون له لا تفرحون بما كان يفرح به ، ولا تنقبضون مما كان ينقبض له . فإن قلتم لا نقدر على اتباعه فى ذلك . قلنا لكم اطلبوا لكم شيخا يوصلكم إلى اتباعه ، فإن هذه الدرجة التى ذكرها الإمام هى أول درجات أهل الطريق ، فمن شدة محبة المريد للطريق أول دخوله لها أنه يصير يكره الدنيا بالطبع وينقبض لدخولها فى يده لعلمه بأنه ليس له قدرة على نية صالحة فى إمساكها ولا إنفاقها ، ثم إذا من الله تعالى عليه بالكمال فى الطريق وصارت الدنيا فى يده لا فى قلبه يتمنى دخولها فى يده وينقبض إذا أدبرت عنه ، لأن من كمال الداعى إلى اللهتعالى من الأمة أن تكون الدنيا فائضة عليه ليطعم منها أتباعه وينفق عليهم منها ، ومن لم يكن كذلك فدعاؤه إلى الله ناقص ويطرقه الذل فى طلب اللقمة والخضوع لمن أتاه بها من أصحابه وغيرهم ، كما أن من لازمه الغيبة لكل من لم يحسن إليه كما سيأتى فى حديث :

« مَنْ كَثُرَتْ عِيَالُهُ وَلَمْ يَغْتَبِ الْمُسْلِمِينَ » الحديث .

فأشار إلى أن الغالب على الفقير المحتاج غيبة من لم يعطه ما احتاج إليه ، فانظر آفة المحتاج :

وكذلك القول فى الداعى إلى الله تعالى إذا كان فقيرا فإن الغالب على مريديه معه تلفتهم إلى غيره ليطعمهم ويكفيهم مؤنتهم ، هذا أمر قهرى على كل إنسان محتاج ، فما أمر الأشياخ مريديهم بترك الدنيا إلا لما يحصل لهم من الشغل بها ، وأيضا فليس لهم اتباع حتى يمسكونها لهم .

فانظر ما أكمل نظر أهل الطريق ، وما ذكرت لك شيئا حتى ذقته فى نفسى ، فإنى كنت أكره الدنيا بالطبع فلما خرجت محبتها من قلبى ولله الحمد صرت أود أن لو كان عندى كل يوم ألف أردب ذهبا أنفقها على خلق الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يعطينا فى الآخرة ثواب من تصدق كل يوم أو ساعة بألف أردب ذهبا :

(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) .

فهذا حالى الآن وما أدرى ماذا يقع لى عند الموت فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

ثم لايخفى أن من شرط الفقير أن لايكون له اختيار مع الله تعالى ، فقولى إنى صرت أود أن لوكان عندى كل يوم ألف أردب ذهبا إنما هو من حيث التكسب وإظهار الفاقة والحاجة بمعنى أننا نرى من كثرة ذنوبنا أننا لو تصدقنا منها كل يوم أو ساعة بالألف الأردب الذهب لايكفرها ، فنحن ننقبض لزوال الدنيا من كفنا كما ننقبض لوقوع المعاصى على يدينا سواء .

وأما من حيث الرضا عن الله تعالى فيما قسمه فلا نختار غير مااختاره لنا ، فإن وسع علينا الدنيا فرحنا وإن ضيقها علينا فرحنا بذلك ، وعلى ماقررناه من محبة الكمل للدنيا يحمل حال العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر له النبي صلى الله عليه وسلم بعطاء وصار يحثو فى بردته فلما أراد أن يحملها عجز فما بقى يهون عليه أن ينقص منها ولا هويقدر يحملها ، فكان قصد العباس رضى الله عنه بأخذه الكثير من الذهب إظهار الفاقة ولتكثر الصدقة والنفقة على يديه ، لاأنه يأخذها ويمنع نفسه منها من للخير كما هو شأن أبناء الدنيا فافهم ، فوالله إنى لأحب لجميع أصحابى أن لو كان مع كل واحد مثل أحد ذهبا وأكره لهم ضيق اليدبشرطه الشرعى ، وما منع الله أهل القناعة باليسير من الدنيا إلا فتحا لباب الراحة للعبد وإراحته من تعب المزاحمة على الرزق ، ومعاداة إخوانه المسلمين لأجلها .

وأما من يسأل الله تعالى كل ساعة توسعة الدنيا لينفقها على خلق الله فلا حرج عليه ، ولا مضايقة له فى حق أحد فحكم من يطلب من الله كثرة الدنيا لينفقها حكم من يطلب من الله كثرة الأعمال الصالحة ليدين الله تعالى بها سواء لأن كلاهما عبادة :

وكان فيما نسخت تلاوته «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَوْ أَنَّ لَهُ ثَالِثًا لَابْتَغَى رَابِعًا ، وَلَا يَمْلَأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » .

ويجب استثناء جميع الأنبياء والأولياء من محبة ذلك وإن كانوا من بنى آدم لعصمتهم أو حفظهم من محبة الدنيا لغير الله تعالى .

وقد كان أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) أى للآخرة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) .

أى لله . فعلم أن الكمل لايضرهم كثرة الدنيا وما رد صلى الله عليه وسلم جبال الذهب حين عرضها الله عليه إلا تشريعا لأمته خوفا عليهم أن لايبلغوا مقام العارفين فيها فيهلكوا فكان رده لذلك من باب الاحتياط لأمته خوفا أن يقتدوا به ظاهرا فى الأخذ ولا يقدروا يتبعونه فى الإنفاق ، ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

« مَايَسُرُّنِى أَنَّ لِى مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمْضِى عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِى مِنْهُ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ إِلاَّ دِرْهَمٌ أُخْبِسُهُ لِدَيْنٍ » .

فقوله : مايسرنى أى أن يكون عندى مثل أحد ذهبا وأحبسه عن الناس ، فما تبرأ إلا من حبسه لامن إنفاقه كما هو سياق الحديث .

فاعمل ياأخى على خروج حب الدنيا من قلبك بالكلية حتى تصير تنقبض لدخولها عليك ، ثم اعمل على محبتها للإنفاق فى سبيل الله حتى لاتصير تقنع بجميع مافى الدنيا أن لو دخل فى يديك ثم أنفقته لأن غايتك أنك أنفقت دون جناح الناموسة ، وأنا أعطيك ميزانا فى حق الأمة لافى حق الأنبياء تميز به بين المحمود والمذموم ، وهو أن الله تعالى إذا مدح عبدا من عبيده فإنما ذلك لفتور همة العبد عن امتثال أمر سيده مجانا ، ولو أنه علم من قلبه عدم العلة من حيث الثواب وغيره لما مدحه بل كان يأمره فقط أن يفعل ذلك الشىء على قاعدة العبيد مع ساداتهم .

فابحث على ماقلته من طلب ثواب أو غيره تعثر عليه وتأمل لولا أنه تعالى مدح المؤثرين على أنفسهم لما آثروا على أنفسهم أحدا ، لأن كل إنسان يقدم أغراض نفسه على غرض غيره من أصل الجبلة ، فإذا خرجوا عن شح الطبيعة أطلعهم على ظلمهم لأنفسهم الذى نهاهم عنه وأمرهم بالبداءة بها على قاعدة حديث: « الأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالمَعْرُوفِ » ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم :

« أُبْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ » .

ليخرجه عن الظلم لنفسه فافهم ، فلا تجد قط آيتين أو حديثين صحيحين غير منسوخ أحدهما وهما متناقضان أبدا ، وإنما هما محمولان على حالين ، ولايعرف ذلك إلا من سلك الطريق ، وأما من لم يسلك فمن لازمه القول بالتناقض ويصير يتمحل الأجوبة من غير ذوق فتارة يخطئ وتارة يصيب فتأمل جميع ماقررناه تعرف أن الدنيا ماذمت إلا فى حق من لم يكتسب بها خيرا .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى البزار بإسناد حسن مرفوعا .

« إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ مُخِفٍّ » .

وروى الطبرانى بإسناد صحيح عن أم الدرداء قالت قلت لولدى مالك لاتطلب كما يطلب فلان وفلان ، فقال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ وَرَاءَكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا أَىْ صَعْبَةً لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَتَخَفَّفَ لِتِلْكَ الْعَقَبَةِ » .

وَروى الطبرانى عن أنس قالَ : « خَرَجَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَوْماً وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ أَبِى ذَرٍّ فقَالَ: يا أَبَا ذَرٍّ أَعَلِمْتَ أَنَّ بَيْنَ يَدَى السَّاعَةِ عَقَبَةً كَئُودًا لَا يَصْعَدُهَا إِلَّا الْمُخِفُّونَ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنَ الْمُخِفِّينَ أَنَا أَمْ مِنَ الْمُثْقَلِينَ ؟ قَالَ : عِنْدَكَ طَعَامُ يَوْمٍ ؟ قَالَ نَعَمْ، وَطَعَامُ غَدٍ ؟ قَالَ نَعَمْ ، وَطَعَامُ بَعْدَ غَدٍ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ لَوْ كَانَ عِنْدَكَ طَعَامُ ثَلَاثٍ كُنْتَ مِنَ الْمُثْقَلِينَ » .

وروى الإمام أحمد ورواته رواة الصحيح : « أَنَّ أَبَا ذَرٍّ قَالَ إِنَّ خَلِيلِي صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ عَهِدَ إِلَىَّ أَنَّ دُونَ جِسْرِ جَهَنَّمَ طَرِيقًا ذَا دَحْضٍ وَمَزَلَّةٍ وَإِنَّا إِنْ نَأْتِ عَلَيْهِ وَفى أَحْمَالِنَا اقْتِدَارٌ وَاضْطِمَارٌ أَحْرَى أَنْ نَنْجُو مِنْ أَنْ نَأْتِى عَلَيْهِ وَنَحْنُ مَوَاقِيرُ » ، والدحض : هو الزلق .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا : « إِنَّ اللهَ لَيَحْمِى عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » .

وفى رواية للطبرانى باسناد حسن وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا حَمَاهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِى سَقِيمَهُ الْمَاءَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اطَّلَعْتُ فى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ » .

زاد فى رواية الامام أحمد بإسناد جيد : « وَاطَّلَعْتُ فى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ وَتُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فى صَدْرِهِ لَايَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً » .

وروى الطبرانى مرفوعا ورواته رواة الصحيح والترمذى وابن ماجه :

« إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنَ إِلَى عُمَانَ أَكْوَابُهُ عَدَدُ النُّجُومِ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَكْثَرُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا ، قَالَ شُعْثُ الرُّءُوسِ دُنْسُ الثِّيَابِ الَّذِينَ لَايَنْكِحُونَ الْمُنَعَّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ السُّدُدُ الذِينَ يُعْطُونَ مَا عَلَيْهِمْ وَلَا يُعْطَوْنَ مَالَهُمْ » والسدد هنا هى الأبواب .

وروى مسلم والطبرانى وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يعنى لدخول الجنة كما فى رواية « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » .

وفى رواية : « بِأَرْبَعِينَ عَامًا » .

وروى الطبرانى وأبو الشيخ مرفوعا : « إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ يُزَفُّونَ كَمَا يُزَفُّ الْحَمَامُ ، فَيُقَالُ لَهُمْ قِفُوا لِلْحِسَابِ ، فَيَقُولُونَ وَاللهِ مَا تَرَكْنَا شَيْئًا نُحَاسَبُ بِهِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقَ عِبَادِى ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِينَ عَامًا » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى ورواة الطبرانى رواة الصحيح مرفوعا :

« يَأْتِى قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَنُورِ الشَّمْسِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ نَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ لَا وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ

يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ » فذكرَ الحديث إلى أنْ قَالَ « طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ مَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : نَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سُوءٍ كَثِيرٌ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ » .

وفي رواية للامام أحمد مرفوعا : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى يَقُولَ الْمُؤْمِنُ الْغَنِيُّ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ عَيْلاً فَذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يُحْجَبُونَ عَنِ الْأَبْوَابِ » .

وفي رواية للترمذي وابن حبان في صحيحه : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا ، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا ، يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي مِسْكِينًا وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، يَا عَائِشَةُ حِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الحاكم والبيهقي وغيرهما مرفوعا : « اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي فَقِيرًا وَلَا تَوَفَّنِي غَنِيًّا ، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ ، فَإِنَّ أَشْقَى الْأَشْقِيَاءِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ » .

وروى الطبراني وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال :

« أَوْصَانِي خَلِيلِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِصَالٍ أَرْبَعٍ : أَنْ لَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي ، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَتْ » الحديث .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : رَجُلٌ ضَعِيفٌ مُسْتَضْعَفٌ ، ذُو طِمْرَيْنِ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » .

وروى النسائي وابن حبان في صحيحه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ : أَلَا تَرَى كَثْرَةَ المَالِ هُوَ الغِنَى ، قَال نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى القَلْبِ وَالفَقْرُ فَقْرُ القَلْبِ » .

وروى ابن أبي الدنيا وابن حبان في صحيحه : « اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِكَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُكَ فَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ وَأَقْلِلْ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَلَا شَهِدَ أَنِّي رَسُولُكَ فَلَا تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَلَا تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ وَأَكْثِرْ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا » .

وفي رواية لابن ماجه مرفوعا : « اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَعَلِمَ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَقْلِلْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَعَجِّلْ لَهُ القَضَاءَ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي وَلَمْ يُصَدِّقْنِي وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَطِلْ عُمُرَهُ » .

وروى الإمام أحمد باسنادين أحدهما صحيح مرفوعا :

« اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ المَوْتُ وَالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الفِتْنَةِ ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ وَقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ » .

وروى أبو يعلى والأصبهاني مرفوعا : « مَنْ قَلَّ مَالُهُ وَكَثُرَتْ عِيَالُهُ وَحَسُنَتْ صَلَاتُهُ وَلَمْ يَغْتَبِ المُسْلِمِينَ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهُوَ مَعِي كَهَاتَيْنِ » .

وروى الطبري ورواته محتج بهم في الصحيح :

« إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ جَاءَ إِلَى أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ ، وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَمًا لَمْ يُعْطِهِ ، وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْسًا لَمْ يُعْطِهِ ، وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الجَنَّةَ لَأَعْطَاهَا إِيَّاهُ ذُو طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » .

وروى الترمذي مرفوعا : « إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ

بِالْأَصَابِعِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ نَقَرَ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : عَجِلَتْ مَنِيَّتُهُ ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ قَلَّ تُرَاثُهُ » .

وفى رواية الحاكم : « أَغْبَطُ النَّاسِ عِنْدِى » والباقى بنحوه .

وروى الترمذى وحسنه مرفوعا : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّى لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا قُلْتُ لاَ يَا رَبِّ وَلَكِنِّى أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا أَوْ قَالَ ثَلاَثًا أَوْ نَحْوَهَا ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ » .

والحاذ : هو الخفيف الحال قليل المال .

وروى ابن ماجه والحاكم : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْقَدُوا وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الدُّجَى يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نزهد فى الدنيا بقلوبنا ونرضى منها بالقليل اقتداء بجمهور الأنبياء والأولياء ، ونرغب جميع إخواننا فى ذلك ، وسيأتى فى عهد الصبر على البلاء حديث الترمذى مرفوعا .

« لَيْسَتِ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلاَلِ وَلاَ إِضَاعَةِ الْمَالِ ، وَلَكِنِ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا هُوَ أَنْ لاَ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِ اللهِ تَعَالَى وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذْ أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ » .

وخرج بقولنا بالقلب الزهد فيها باليد مع تعلق القلب بها ، فليس ذلك هو الزهد المشروع .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ عظيم مافوقه شيخ فى عصره يسلك به حتى يخرجه من ظلمة حب الدنيا إلى نور حب الآخرة ويريها له كأنها رأى عين ، وهناك يزهد فى الدنيا وجميع شهواتها المكروهة حين يرى حجابها له عن ربه مع فنائها وانقطاعها وعدم نظر ربه لها ، كما ورد :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْذُ خَلَقَ الدُّنْيَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا هَوَانًا بِهَا » .

وقد ذكرنا فى العهود السابقة أن حقيقة الزهد فى الدنيا إنما هو زوال محبة المال والطعام والمنام والكلام ؛ فلا يزال السالك يتبع أستاذه وهو يخلصه من شبائك الأوهام شيئا فشيئا إلى أن يخلصه من الدنيا بأمرها ثم يرجع به رجوعا ثانيا ، ويقول له أمسك جميع ما كنت أنهاك عنه فى الذهاب وانو له نية صالحة واستعمل كل شىء فيما خلق له على الوجه المشروع ، على أن الزاهدين المتورعين كلهم لايصح لهم الزهد ولا التورع عما قسمه الحق لهم أبدا ، إنما حقيقة الزهد والتورع زوال تعلق القلب بما لم يقسم لا غير .

فعلم أن المريد متى رأى شفوف نفسه على من لم يزهد ولم يتورع فهو فى عالم الطبيعة ، وورعه وزهده لاحقيقة له ، وهذا ورع أكثر الناس اليوم كأنه يظن بنفسه أنه كان قادراً أن يأكل ماقدر عليه من الحرام ، ومنع نفسه منه ، وغاب عنه أن كل شىء تركه تبين أنه لم يقسم له فكيف يرى بذلك نفسه ؟ فالورع الحقيقى إنما هو حماية الله تعالى للعبد فلا يقسم له الأكل من شىء للشرع عليه اعتراض ، فيستخرج له الحلال كما يستخرج له اللبن من بين فرث ودم .

وقد درج العلماء العاملون كلهم على عدم أخذهم من الدنيا فوق زاد الراكب :

وقد بلغنا أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما غضب من سلطان مصر حمل أمتعة بيته على حمارته وأركب زوجته فوقها وخرج من مصر ، فانظر ياأخى شيخ الاسلام واعتبر به رضى الله عنه ، والله يتولى هداك :

ثم يتعين على كل من ادعى المشيخة فى الطريق أن يتظاهر برمى الدنيا وترك مطاعمها اللذيذة وملابسها النفيسة وفرشها الرفيعة ومراكبها المســـومة ، وذلك لئلا يتبعه المقتدون فيهلكون فإنهم لايتعقلون مشهده بتقدير صدقه وربما كذبوه فى دعـواه حين يرون أفعاله تخالف أقواله ، فيحجبهم شاهد الفعل عن شاهد القول .

وكذلك يتعين على الشيخ أن يكون أكثر من المريدين سهرا لليل وأكثر جوعا ، وأقل لغوا وأكثرهم صدقة ، وذلك ليكون إماما يقتدون به فى الأفعال ، وأما إذا كان أكثرهم نوما وأكثرهم أكلا حتى صار بطنه كبطن الدب أو أكثرهم لغوا أو أقلهم صدقة وخيرا ، فإنهم يرون نفوسهم عليه ضرورة فلا يثبت له قدم فى الإمامة وتطرده المرتبة عنها ودعواه المشيخة زور وبهتان لابرهان عليه .

وقد دخلت امرأة على سيدى الشيخ عبد القادر الجيلى فرأته فى ملابس ومآكل وفرش

ودخلت على ولدها عنده فوجدته على برش وعنده كسرة يابسة وملح ، فرجعت إلى الشيخ وقالت ياسيدى لايطيب خاطرى باقامة ولدى عندك إلا إن أطعمته مما تأكل وكان بين يديه دجاجة فقال إذا صار ولدك يحيى الموتى باذن الله أطعمته من طعامى ، ثم أمر الدجاجة فانتفضت من الإناء وصارت حية ، ثم ذهبت إلى حال سبيلها اهـ ، فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ لفارقته تلك المرأة وهى منكرة عليه .

وكذلك يتعين على الشيخ أن يوطن نفسه على تحمل أذى من يأمره من إخوانه بأنه يترك الدنيا وهو لم يشرف على الدار الآخرة بقلبه ، فانه كالكلب العاكف على الجيفة كل من منعه من الأكل منها يكشر أسنانه ويهبهب عليه ، وربما عضه حتى يرجع عنه ، فليكن أمر الشيخ إخوانه بترك الدنيا بسياسة ورفق ورحمة وتقديم مقدمات وذكر ما كان السلف الصالح عليه ثم يقول يرحم الله من اقتدى بهم . وليحذر من التكدر منهم بالباطن إذا عصوا أمره وليس عليه إلا أن يظهر لهم عدم الرضا بكثرة رغبتهم فى الدنيا لاغير كما يظهر الوالد غضبة أولده إذا خالفه ، ويعبس فى وجهه وقلبه راحم له مشفق عليه ، وربما ضربه بالعصا وربما نخست الأم ولدها بالإبرة فى يده حتى أخرجت دمه ومع ذلك فيقضى العقل بأن ذلك كله ليس ببغض لولدها وإنما هو لوفور شفقة والدته عليه ، فليوطن الداعى إلى طريق الله عز وجل نفسه على سماع كل مكروه ممن يدعوهم لأنهم عمى عما يدعوهم إليه ثم إذا انجلى حجابهم فسوف يشكرون الداعى لهم إلى الخير ، وإن لم ينجل حجابهم فقد وفى الداعى بما عليه من النصح والجهاد فيهم .

ثم لايخفى أنه لابد أن ينقسم جماعة كل داع إلى الله تعالى كما انقسم من دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى دين الإسلام إذ هو الشيخ الحقيقى لجميع الأمة كما مر بيانه أول خطبة الكتاب ، وجميع الدعاة نوابه صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن يقع لهم مع أصحابهم كما وقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه ، فمنهم من يقول :

(سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ومنهم من يقول : (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) ومنهم من يقول : (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) نفاقا .

ومنهم من يقول إنما يريد هذا الشيخ بدعائنا إلى الله الفضل والرياسة علينا عند الناس ، ومنهم من يقول إنما يريد بذلك نصحنا ونجاتنا من النار ، ومنهم من لايتحول عن محبة شيخه فى شدة ولا رخاء ، ومنهم من هو معه على الرخاء فإذا جاءت الشدة تحول

عن شيخه ، ومنهم من لايبرح من حول شيخه ولو أغلظ عليه القول ، ومنهم من إذا أغلظ عليه الشيخ القول هرب منه كما أشار إليه قوله تعالى :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) .

ومنهم من يريد الدنيا وزينتها وهو غافل عن الآخرة ، ومنهم من يريد الدنيا للآخرة كعبد الرحمن بن عوف ، ومنهم من لايريد الدنيا كأهل الصفة ، ومنهم من يقول لشيخه قد أكثرت جدالنا وتنقيصنا بين الناس ، كما قال قوم نوح :

(يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) الآية .

فلا يؤمنون لنصحه حتى يروا العذاب الأليم ، ومنهم من يقول لشيخه بلسان المقال أو الحال لن نؤمن لك إلا إن أريتنا كرامة كما قالت قريش :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) .

إلى آخر النسق ، وكما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام :

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) .

ثم طائفة لايؤمنون بقول شيخهم لهم إن فعلتم كذا وقع لكم من العقوبة كذا إلا إن وقع ، ومنهم من يفدى شيخه بنفسه فى المهالك كما فعل سعد بن أبى وقاص ، ومنهم من لايقدر على ذلك ، ومنهم من إذا ذكرت عيال شيخه بسوء يكاد يتميز غيظا كما وقع لأكابر الصحابة فى قصة عائشة ، ومنهم من لايتميز بل خاض مع الخائضين ، ومنهم من يمتثل أمر شيخه فى السفر فى مصالح العباد مثل ماكان أكابر الصحابة يفعلون ، ومنهم من يكره ذلك ويؤثر الدعة والراحة كما وقع لمن تخلف عن غزوة تبوك ، ومنهم من يحب شيخه أكثر من أهله وماله وولده ، ومنهم من يؤثر ماله وولده وأهله فى المحبة على شيخه فلو قال له اخرج لفلان عن دينار وإلا هجرتك ومنعتك من مجالستى لاختار عدم دفع الدينار على القرب من شيخه ، ومنهم من يخاف على تغير خاطر شيخه ويعتقد أن الحق تعالى يغضب لغضبه ، ومنهم من يؤذى شيخه وولده وأصحابه وعياله ولا عليه من تغيير خاطره ، ومنهم من يمتثل أمر شيخه فيما إذا قال له أعط أخاك نصف مالك وقاسمه كما وقع للمهاجرين مع الأنصار ، ومنهم من لايمتثل ولا يسمع لأخيه بدرهم ، ومنهم من يمتثل أمر شيخه إذا أمره بأن يؤثر أخاه على نفسه فى وظيفة أو بيت أو خلوة أو مال ، ومنهم من لايمتثل

ذلك ، ومنهم من يجل مقام شيخه عن أن يتزوج له مطلقة فى حياته أو بعد حياته ، ومنهم من يتزوج مطلقة شيخه فى حياته ولولا قول الله تعالى :

(وَلاَ تَنْـكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا) .

لربما كان وقع فى ذلك بعض الناس ، ومنهم من إذا وجد كيمان الذهب لايأخذ منه إلا قوت يومه فقط ، ومنهم من لايقنعه إلا أن ينقله كله ، ومنهم من قصده بجمع الدنيا الطمع وشره النفس ، ومنهم من قصده بذلك إظهار الفاقة كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام لما أمطرت عليه السماء الذهب وصار يحثو فى ثوبه ويقول لاغنى لى عن بركة ربى ، ومنهم من يرى الدنيا بعين الاحتقار فكيمان الذهب عنده كالبعر ، ومنهم من يراها بعين التعظيم تبعا لمراد الحق تعالى فى تميزها فى قلوب عباده على التراب ، ومنهم من إذا قيل له واظب على صلاة الجماعة فى المسجد يتعلل بالنوم ولو أنه علم أن هناك تفرقة ذهب لأتى المسجد ولم يتعلل بذلك كما وقع لبعض الأنصار حين جاء أبو عبيدة بمال من البحرين وحضر من لم يكن عادته الحضور فى صلاة الصبح ولما تخلف جماعة عن صلاة العشاء قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ عَلِمَ أَنَّ فِي الْمَسْجِدِ عِرْقًا سَمِينًا لَحَضَرَ » .

ومنهم من يحضر لصلاة الجمعة قبل الناس كأصحاب الصفة ، ومنهم من لايأتى إلا والخطيب فوق المنبر أو فى الركعة الأولى أو الثانية أولا يأتى حتى تفوته الجمعة ، ومنهم من يحضر المسجد قبل الناس فيلغو ويلعب ، ومنهم من يحضر فى خشوع وعبادة حتى ينصرف ، ومنهم من يستأذن شيخه فى كل فعل من سفر أو تزويج أو بناء دار أو زرع ونحو ذلك ، ومنهم من لايستأذنه فى ذلك إما حياء منه أو استهانة به وقد رأى صلى الله عليه وسلم أثر صفرة على عبدالرحمن بن عوف فقال « مهيم » فقال تزوجت الحديث وكان ذلك من عبد الرحمن حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا استهانة بلا شك ، ومنهم من كان يتكرم على جميع أصحابه بكل مادخل فى يده ولا يبقى لنفسه شيئا كمعاذ بن جبل وأبى الدرداء وغيرهما كان يقول بتحريم الادخار ، ومنهم من كان يتكرم بالبعض ويمسك البعض ، ومنهم من لايطعم أحدا شيئا بل يشح على نفسه أن يطعمها ، ومنهم من كان يسمح لصاحبه بجميع ماله كأبى بكر رضى الله عنه ، ومنهم من كان يسمح لصاحبه بنصف ماله كعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ومنهم من كان النبى صلى الله عليه وسلم

يداريه كمخرمة ، ومنهم من كان الناس منه فى أمان كعثمان بن عفان رضى الله عنه وأبى سعيد الخدرى ، ومنهم من كان ينفق ولا يخشى من الله إقلالا كبلال ، ومنهم من كان يخرج ماله تكافا ككعب بن مالك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » .

ومنهم من كان يرضى بقضاء النبى صلى الله عليه وسلم ولا يختار خلاف مااختاره له كالعشرة المشهود لهم بالجنة ، ومنهم من لا يرضى بقضائه ويختار خلاف مااختار النبى صلى الله عليه وسلم كما فى قصة أسامة بن زيد حين نقم على ولايته بعض الناس ، وكما فى قول بعضهم هذه قسمة ماأريد بها وجه الله ، وقول بعضهم أن كان ابن عمتك فى حديث :

« اسْقِ يَا زُبَيْرُ » .

ومنهم من كان يغضب إذا فرق النبى صلى الله عليه وسلم مالا ونسيه كمخرمة ، ومنهم من لا يغضب والنبى منه فى أمان ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يدارى من نسيه فى العطاء بقوله :

« إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنِّى لَأُعْطِى الرَّجُلَ أَتَأَلَّفُهُ ، وَالَّذِى أَمْنَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِى أُعْطِى » .

ومنهم من كان يهاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا رآه ويصير يرعد من هيبته ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا أَخِى فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » .

ومنهم من لا يهابه ولا يرعد ، ومنهم من كان مطهرا من جميع المعاصى كالعشرة المشهود لهم بالجنة ، ومنهم من كان يقع فى الكبائر كماعز ونعيمان ، فكان نعيمان كل قليل يأتون به النبى صلى الله عليه وسلم وهو سكران فيحده ، وكان نعيمان مضحاكا كان يضحك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه :

ومن جملة ما وقع لنعيمان أنه رأى رجلا أعمى يقول من يقودنى إلى البراز ، فأخذه نعيمان وأجلسه فى محراب المسجد فشمر ثيابه للجلوس فصاح الناس به إنك فى المسجد فقال الأعمى لئن وجدت نعيمان لأضربنه بعصاى ، فسمع نعيمان فجاء إليه وقال هل لك فيمن يدلك على نعيمان ، فقاده إلى عثمان بن عفان وهو ساجد فقال هـذا هو فصار

الأعمى يضرب عثمان رضى الله عنه ، فصاح الناس بالأعمى إنك تضرب أمير المؤمنين ، وله وقائع كثيرة رضى الله عنه :

ومنهم من كان يؤذى أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكرمهم لأجله صلى الله عليه وسلم ، كما وقع لأبى بكر حتى خطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال

« هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُولِي صَاحِبِي » .

وحتى أحوجوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيان مرتبته بقوله :

« سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلاَّ خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ » .

ومنهم من كل يتحمل الأذى من جميع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ولا يكرههم لأجله إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولو فعلوا معه من الأذى ما فعلوا ، ومنهم من كان يؤذى جاره كما يدل عليه قصة من شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جاره كان يؤذيه ، وقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« اُطْرَحْ مَتَاعَكَ عَلَى الطَّرِيقِ وَكُلُّ مَنْ مَرَّ عَلَيْكَ وَقَالَ مَا هٰذَا ؟ فَقُلْ لَهُ جَارِى يُؤْذِينِى » .

ومنهم من كان يجالس النبى صلى الله عليه وسلم بشرط أن يملأ له صلى الله عليه وسلم بطنه كأبى هريرة وذلك لئلا يصير له تلفت إلى غيره صلى الله عليه وسلم وينقطع خاطر مفارقته لأجل الجوع ، ومنهم من كان يجالس النبى صلى الله عليه وسلم لأجل العلم والأدب ولايشرك معه علة من العلل ، ومنهم من كان يشح بإخراج الزكاة كثعلبة ، ومنهم من كان يسمح بأطايب أمواله للفقراء ، ومنهم من كان كثير المال كعبد الرحمن بن عوف ، ومنهم من كان لا يملك عشاء ليلة كما فى قصة من وقع على زوجته فى رمضان ، ومنهم من كان يعجب بملبسه كالذى خسف به فى زقاق أبى لهب بمكة ، ومنهم من كان لا يعجب بشىء من ملبسه ولا غيره كأبى بكر رضى الله عنه وغيره ، ومنهم من كان يظهر الغنى وليس فى بيته شىء يأكله ، ومنهم من يكون عنده الدنيا وهو يظهر الفقر ويأخذ من الزكوات والصدقات كالذى وجدوا فى حجزة إزاره بعد موته ثلاثة دنانير أو دينارين فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« كَيَّاتٌ أَوْ كَيَّتَانِ مِنْ نَارٍ » .

ومن النساء من كانت تحب النبي صلى الله عليه وسلم وترى الفضل له إذا خطبها لتكون معدودة من أزواجه فى الجنة ، ومنهن من كانت تكره ذلك وتستعيذ بالله منه كابنة الجون ، ومنهن من كانت تستحى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جالسته وتصير ترتعد من هيبته ، ومنهن من كانت لاتهابه ولا تستحى منه كهند فان النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع النساء وقال :

« وَلاَ تَقْتُلْنَ أَوْلاَدَكُنَّ » .

فقالت له هند نحن ربيناهم صغارا فقتلتهم أنت كبارا ، فسكت صلى الله عليه وسلم ولم يتم المبايعة ، ومنهن من تقلقت لما رأت معيشة النبي صلى الله عليه وسلم ضاقت وطلبت الفراق ، ومنهن من اختارت المقام معه صلى الله عليه وسلم والصبر على ذلك كعائشة رضى الله عنها . ومنهن من كانت كثيرة الغيرة كعائشة حتى أنها رأت سودة وهى ذاهبة بإناء فيه طعام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقامت لها وكسرت الإناء وساح الطعام على الأرض فقام النبي صلى الله عليه وسلم وضم الطعام من الأرض فى الإناء وقال :

« غَارَتْ أُمُّكُمْ » .

ومن خدامه من كانت لا تجيبه إذا ناداها فيقول :

« والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ خَوْفُ الْقِصَاصِ لَأَوْجَعْتُكِ بِهٰذَا السِّوَاكِ » .

ومنهن من كانت تعتنى بكل شيء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم كعائشة رضى الله تعالى عنها وبريرة ، ومنهن من لم ترو عنه ولا حديثا :

هذا ماحضرنى الآن من الشواهد التى تشهد لانقسام أصحاب كل داع إلى الله تعالى كما انقسم من دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن طلب زيادة على ذلك فليتتبع أحوال الأمم السابقة مع أنبيائها ، فإن تلك الأقسام لم تزل فى أصحاب جميع الدعاة إلى الله تعالى :

وعلم من جميع ما قررناه أن من طلب من المشايخ أن يكون جميع أصحابه مستقيمين متجردين عن الدنيا ومتأدبين معه ، لااعتراض لهم عليه ولا اختيار لهم معه ، أو يشاورونه على جميع أمورهم كما شرط القوم ذلك فى حق المريدين الصادقين فهو أعمى البصيرة ، وإنما وظيفة جميع الدعاة إلى تعالى أن يبلغوا الآداب الشرعية إلى قومهم لا غير ، فهم مأجورون على كل حال سواء امتثل الخلق أمرهم أو لم يمتثلوا ، وقد أرسل النبي صلى الله

عليه وسلم إلى الناس كافة فأقر كل من كانت له حرفة على حرفته ، ولم يأمر أحدا منهم بالخروج عما أقامه الله فيه من الحرف ، بل سلكهم وأرشدهم وهم فى حرفهم :

فوطن يا أخى نفسك أن يقع من أصحابك جميع ما تقدم فى حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب معه ، ومن ضده فى حقه وحق أصحابه وذلك إما ليستن بهم من بعدهم وهو اللائق بمقامهم وإما أن يكون ما وقع من سوء الأدب فى بعض الأوقات بيانا لعدم العصمة ثم يتوبون على الفور ، فكيف يطلب مشايخ النصف الثانى من القرن العاشر من تلامذتهم أن يكونوا معهم على الأدب فى جميع أحوالهم ، هذا شىء كالمحال ، فإن شيئا لم يصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه كيف يصح لأحد بعدهم ؟ مع أنهم خير القرون ومع شهودهم علو مقامه صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه من الزهد والعبادة وكثرة المعجزات ومع كونه أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ، فلا تطلب ياسيدى الشيخ من تلامذة القرن العاشر أن يكونوا فى الأدب فوق أدب الصحابة ، هذا مما لا يكون :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ثم لايخفى عليك يا أخى أن الزهد فى الدنيا لا يكون إلا فيما هو حلال خالص : وأما ترك مافيه شبهة فلا يسمى زهدا وإنما هو تورع ، فعلى هذا لاتجد الآن زاهدا إلا أن يكون فى علم الله لانعلمه نحن ، لأن غالب مابأيدى الخلائق الآن من الأموال للشرع عليه اعتراض وما بقى إلا أن يأكل الإنسان أكل المضطر ويلبس لبس المضطر ، وكل من رخص لنفسه هنا فربما شدد الله عليه الحساب يوم القيامة وبالعكس ، وقد صار فى أفواه غالب الناس هات حرام وبس ، وهذا لا ينبغى لمؤمن أن يتلفظ به لأنه كالاستهزاء بمناقشة الحق تعالى له يوم القيامة :

وكذلك لا يخفى عليك يا أخى أن من الشبهات ما يأخذه شيخ الزاوية باسم الفقراء ، ويختلس منه شيئا لنفسه ، فهو ولوكان حلالا من أصله فقد صار شبهة من حيث النصب :

وقد أخبرنى من أثق به أن شيخا له سبحة وسجادة أعطاه الباشات ألف نصف على اسم الفقراء المقيمين بزاويته فلم يعط فقيرا منها نصفا وقال هذه شبهات وقد انشرح صدرى أن أحمل عنكم حسابها ، فاشترى له بها صوفا وتزوج بالباقى فنفرت منه فقراء الزاوية ولم يبق لهم فيه عقيدة :

فاياك يا أخى أن تفعل مثل ذلك إذا عملت شيخا ، وفى قصة سلمان الفارسى أنه لما قرب ظهور رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صار سلمان يسيح فى البلاد لعله يعثر عليه ، فدل على راهب فذهب إليه فوجده صائم الدهر لا يأكل شيئا من الشهوات فخدمه حتى مات فرأوا وراءه ثلاثة قماقم فيها نحو نصف أردب فضة فرجمه الرهبان ولم يصلوا عليه ، فسأل عمن يدله على الله تعالى فدل على راهب آخر على قدم عظيم فى الزهد والعبادة فخدمه ، فلما مات وجدوا وراءه مالا جزيلا فرجمه الرهبان ولم يصلوا عليه ، فدل على ثالث فذهب إليه فوقع له مثل الأولين فرجموه ولم يصلوا عليه فدل على النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن كان ما كان .

وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يزهد جميع أصحابه فى الدنيا ، ثم يقول : من بنى منكم دارا فكأنما بنى على موج البحر . قال الشيخ عبد القادر الجيلى : وما أحسن تمثيله الدنيا بموج البحر ثم ينشد :

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا ... مُقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتَ قَلِيلُ
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ كِفَايَةٌ ... لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ
أَلَا إِنَّ قُطَّاعَ الْفَيَافِي إِلَى الْحِمَى ... كَثِيرٌ وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ قَلِيلُ

يعنى فكما أن البناء لا يثبت على الموج فهكذا لايثبت فى الدنيا لأنها زائلة متحركة كتحرك الموج على الماء اهـ .

وفى باب الطهارة من الفتوحات المكية ما نصه : أجمع أهل كل ملة ونحلة على أن الزهد فى الدنيا مطلوب ، وكذلك إخراج ما مع الإنسان منها مطلوب ، وقالوا إن فراغ اليد من الدنيا أحب لكل عاقل خوفا على نفسه من الفتنة التى حذرنا الله منها بقوله :

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) اهـ .

ومن قواعد الرهبان أن لايدخروا قوتا لغد ولا يمسكوا فضة ولا ذهبا .

ورأيت شخصا قال لراهب انظر لى هذا الدينار هو من ضرب أى الملوك؟ فلم يرض وقال النظر إلى الدنيا منهى عنه عندنا .

ورأيت الرهبان مرة وهم يسحبون شخصا ويخرجونه من الكنيسة ويقولون له أتلفت علينا الرهبان ، فسألت عن ذلك فقالوا رأوا على عمامته نصفا مربوطا فقلت لهم ربط الدنيا عندكم مذموم ؟ فقالوا وعند نبيكم اهـ .

فإذا كان هذا حال الرهبان، ففقراء المسلمين المقيمون فى الزوايا أولى بتركهم الدنيا .

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى ابن ماجه مرفوعا باسناد حسنه بعضهم قال الترمذى وفيه بعد :

« أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَارَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِى اللَّهُ تَعَالَى وَأَحَبَّنِى النَّاسُ ؟ فَقَالَ ازْهَدْ فِى الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِى أَيْدِى النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ » .

قال الحافظ وليس فى رواية من ترك، لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ولا يمنع كون راويه ضعيفا أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قاله اه .

قلت : وهذا الحديث من الأربعة أحاديث التى عليها مدار الإســلام وقد نظمها بعضهم بقوله :

عُمْدَةُ الدِّينِ عِنْدَنَا كَلِمَاتُ ... أَرْبَــعٌ مِنْ كَلَامِ خَيْرِ الْبَرِيَّهْ

اتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ مَا ... لَيْسَ يَعْنِيكَ وَاعْمَلَنْ بِنِيَّهْ

اه والله أعلم .

وروى ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن أدهم معضلا :

« جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ : يَا رَسولَ اللَّهِ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ يُحِبُّنِى اللَّهُ عَلَيْهِ وَيُحِبُّنِى النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَمَّا الْعَمَلُ الَّذِى يُحِبُّكَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَالزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْعَمَلُ الَّذِى يُحِبُّكَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ مَا فِى يَدِكَ مِنَ الْحُطَامِ » .

وروى الطبرانى بإسناد مقارب مرفوعا : « الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْجَسَدَ » .

وروى ابن أبى الدنيا مرسلا « قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُول اللَّهِ مَنْ أَزْهَدُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ لَمْ يَنْسَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى ، وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى وَلَمْ يَعُدَّ غَدًا مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنَ الْمَوْتَى » .

وروى الطبرانى والأصفهانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : يَا مُوسَى إِنَّهُ لَنْ يَتَصَنَّعَ الْمُتَصَنِّعُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَتَقَرَّبِ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ الْوَرَعِ عَمَّا حَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهُمْ ، وَمَاذَا جَزَيْتَهُمْ ؟ فَقَالَ تَعَالَى : أَمَّا الزُّهَادُ فِي الدُّنْيَا فَإِنِّي أَبَحْتُ لَهُمْ جَنَّتِي يَتَبَوَّءُونَ مِنْهَا حَيْثُ شَاءُوا . وَأَمَّا الْوَرِعُونَ عَمَّا حَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا نَاقَشْتُهُ وَفَتَّشْتُهُ إِلَّا الْوَرِعِينَ فَإِنِّي أَسْتَحْيِيهِمْ وَأُجِلُّهُمْ وَأُكَرِّمُهُمْ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وروى أبو يعلى مرفوعا : « مَا تَزَيَّنَ الْأَبْرَارُ فِي الدُّنْيَا بِمِثْلِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا » .

وفى رواية له مرفوعا : « إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقِّي الْحِكْمَةَ » .

وروى الطبرانى وإسناده يحتمل التحسين مرفوعا :

« صَلَاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ ، وَهَلَاكُ آخِرِهَا بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ » .

وروى البزار مرفوعا : « يُنَادِي مُنَادٍ دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » والحتف : الموت .

وروى أبو عوانة فى صحيحه وابن حبان والبيهقى مرفوعا :

« خَيْرُ الرِّزْقِ أَوْ قَالَ الْعَيْشِ مَا يَكْفِي » الشك من الراوى .

وروى مسلم والنسائى مرفوعا : « إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن مرفوعا : « الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية للطبرانى : « وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ » .

وفى رواية له مرفوعا : « مَنْ قَضَى نَهْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَهوَتِهِ فِي الآخِرَةِ ، وَمَنْ مَدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى زِينَةِ الْمُتْرَفِينَ فِي الدُّنْيَا كَانَ مَهِينًا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى القُوتِ الشَّدِيدِ صَبْرًا جَمِيلاً أَسْكَنَهُ اللهُ مِنَ الفِرْدَوْسِ حَيْثُ شَاءَ » .

وروى ابن أبى الدنيا باسناد حسن موقوفا على ابن عمر ، وروى عن عائشة مرفوعا والوقف أصح :

« لاَ يُصِيبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلاَّ نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيمًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا يَكْفِينِي مِنَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ وَوَارَى عَوْرَتَكَ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ بَيْتٌ يُظِلُّكَ فَذَاكَ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ دَابَّةٌ فَبَخٍ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات فى حديث :

« أَكَلَ رَسُولُ اللهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْبُسْرَ وَالرُّطَبَ ، وَشَرِبَ المَاءَ الْبَارِدَ وَقَالَ : لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هٰذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّا لَمَسْئُولُونَ عَنْ هٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ نَعَمْ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: خِرْقَةٍ كَفَّ بِهَا عَوْرَتَهُ وَكِسْرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ أَوْ جُحْرٍ فَيَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الحَرِّ وَالقَرِّ » .

وفى رواية للترمذى والحاكم وصححاه والبيهقى مرفوعا :

« لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هٰذِهِ الخِصَالِ بَيْتٍ يُسْكِنُهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالمَاءِ » .

قال: وجلف الخبز هو غليظه وخشنه ، وقيل هو الخبز ليس معه إدام ، قاله النضر ابن شميل .

وروى البزار ورواته ثقات إلا واحدا مرفوعا :

« مَا فَوْقَ الْإِزَارِ وَظِلُّ الْحَائِطِ وَحُبُّ الْمَاءِ ، فَضْلٌ يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ يُسْأَلُ عَنْهُ » .

وروى الترمذى والحاكم والبيهقى : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : « قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدنيا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَلاَ تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ » .

زاد العبدرى : فما كانت عائشة تستجد ثوبا حتى ترقع ثوبها وتنكسه .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد عن سلمان قال عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لِيَكُنْ بُلْغَةُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ » .

وروى ابن ماجه باسناد حسن : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ اسْتَمْنَحَ رَجُلا نَاقَةً فَرَدَّهُ ثُمَّ اسْتَمْنَحَ آخَرَ فَأَعْطَاهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَ فُلَانٍ لِلْمَانِحِ الْأَوَّلِ وَاجْعَلْ رِزْقَ فُلَانٍ يَوْمًا بِيَوْمٍ لِلَّذِي بَعَثَ بِالنَّاقَةِ » .

وروى ابن ماجه والترمذى وقال حديث صحيح مرفوعا :

« لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات عن الضحاك بن سفيان :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لَهُ : يَا ضَحَّاكُ مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ ، قَالَ : وَإِلَى مَاذَا يَصِيرُ ؟ قَالَ : إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا » .

زادفى رواية : « إِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ » .

أى نثر عليه الفلفل ، يقال قزحت القدر إذا وضعت فيه الأبزار ، وملحه معروف .

وروى الإمام أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد :

« حُلْوَةُ الدُّنيَا مُرَّةُ الآخِرَةِ ، وَمُرَّةُ الدُّنيَا حُلْوَةُ الآخِرَةِ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا : « مَنْ أُشْرِبَ حُبَّ الدُّنيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلاثٍ : شَقَاءٍ لاَ يَنْفَدُ عَنَاهُ ، وَحِرْصٍ لاَ يَبْلُغُ غِنَاهُ ، وَأَمَلٍ لاَ يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ » .

وروى البيهقى مرفوعا : « هَلْ مِنْ أَحَدٍ يَمْشِي عَلَى المَاءِ إلاَّ ابْتَلَّتْ قَدَمَاهُ ؟ قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : كَذَلِكَ صَاحِبُ الدُّنيَا لاَ يَسْلَمُ مِنَ الذُّنُوبِ » .

وروى الإمام أحمد والبيهقى مرفوعا وإسنادهما جيد :

« الدُّنيَا دَارُ مَنْ لاَ دَارَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » .

وزاد البيهقى : « وَمَالُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجوع ولا نشبع كل الشبع من الطعام فى دار الدنيا ، وذلك لأن الله تعالى مدح البكائين من خشية الله ، ولا يبكى خالصا إلا من كان جائعا ، وأما الشبعان فمن لازمه التفعل فى البكاء والتفعل لا يقبله الله تعالى ، ومالا يتوصل إلى المقصود إلا به فهو مقصود . فجع يا أخى لتبكى وتدخل حضرة ربك فى صلاتك وغيرها مع الخائفين من سطواته ، ولا تشبع تطرد إلى حضرة البهائم والشياطين .

وهذا العهد قلّ من يعمل به الآن من غالب الناس بل ربما أكل أحدهم الشهوات وشبع من الحرام ، بل رأيت جماعة انهمكوا فى أكل الشبهات حتى قست قلوبهم ، فلا تكاد تجد أحدا منهم يبكى عند سماع موعظة وباعوا دخول حضرة ربهم بشهوة البطن .

واعلم يا أخى أن البكائين من خشية الله عز وجل قد قلوا من الدنيا ، وآخر من رأيته من البكائين عند سماع القرآن والموعظة سيدى الشيخ على البحيرى تلميذ سيدى على النبتيتى ، وتلميذ الشيخ شهاب الدين بن الأقيطع رحمهما الله ، كان إذا سمع آية عذاب فى حق الكفار بكى حتى يبل لحيته وتصير عيناه تهملان من الدموع ؛ وكذلك كان شيخه سيدى علىّ وشيخنا الشيخ زكريا فكانا يبكيان حتى كأن النار لم تخلق إلا لهما وبعدهم قلّ

البكاء والخضوع حتى لاتكاد تجد إلا من هو قاسى القلب ، وربما لامه بعض الناس على ترك البكاء فيقول : البكاء إنما هو للمريدين ونحن بحمد الله قد قوينا على ترك البكاء وأفعال أحدهم تكذبه ، فإن الناس لوأخرجوه من زاويته أو أخذوا رزقته أو مسموحه لصار يبكى كالعجوز على ولدها مع أن هذا ربما تفوته المواكب الإلهية فى الأسحار كل ليلة فلا يبكى ولا يتأثر على فواتها فأين دعواه ؟ وشرط العاقل أن لايدعى دعوة قط حتى يكون له شاهد من فعله عليها .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كل من لم يبك عند سماع المواعظ فهو كالحمار ، فإن الله تعالى هو الواعظ للعبد بكل آية على ألسنة الواعظين اه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يسلك به حضرات الخائفين ويصير يبكى بقلبه ولو ضحك بفمه : وقد بكى السلف الصالح الدم حين نفدت الدموع من خوف الخاتمة وخوف القطيعة ، ومن خوف المكر بهم والاستدراج ، وأنت ياأخى كأنك أخذت من الله تعالى مرسوما أنه لايمكر بك وكل ذلك من تلبيس إبليس ، وقد قال تعالى فى حق المصلين .

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) وفى حق المزكين (الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) وفى حق المؤمنين (الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وفى حق الخائفين (الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) .

فتأمل يا أخى إذا كان أهل هذه الصفات لم يؤمنهم الله تعالى من عذابه فكيف من كان بالضد من ذلك كأمثالنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح حتى يصير الجوع من شأنك لتبكى عند المواعظ خوفا من ربك ، والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » فذكر منهم : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ ذَكَرَ اللهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يُصِيبَ الْأَرْضَ مِنْ دُمُوعِهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الإمام أحمد والنسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح الإسناد مرفوعا :

« لا يدْخُلُ النَّارَ رَجُلٌ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللبَنُ فِي الضَّرْعِ » .

وزاد فى رواية البيهقى : « وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاّ عَيْنٌ خَرَجَ مِنْهَا مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وروى الأصبهانى وابن ماجه والبيهقى مرفوعا :

« مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، ثُمَّ يُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إلاّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » .

وروى البيهقى مرسلا : « مَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنٌ بِمَائِهَا إلاّ حَرَّمَ اللهُ سَائِرَ ذَلِكَ الْجَسَدِ عَلَى النَّارِ ، وَلاَ سَالَتْ قَطْرَةٌ عَلَى خَدِّهَا فَيَرْهَقُ ذَلِكَ الْوَجْهُ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ وَلَوْ أَنَّ بَاكِيًا بَكَى فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ لَرُحِمُوا ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إلاّ لَهُ مِقْدَارٌ وَمِيزَانٌ إلاّ الدَّمْعَةَ فَإِنَّهُ يُطْفَأُ بِهَا بِحَارٌ مِنَ النَّارِ » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد عن ابن أبى مليكة قال : جلسنا إلى عبد الله ابن عمر فى الحجر فقال ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا ، لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ، ولبكى حتى ينقطع صوته :

وروى أبو داود واللفظ له والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن مطرف عن أبيه عبد الله قال :

« رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عليهِ وَسلمَ يُصَلِّى وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ » .

أى صوت كصوت الرحى ، يقال أزت الرحى إذا صوتت :

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن على رضى الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر إلا المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا قائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح .

وفى حديث الطبرانى وغيره : «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : لَمْ يَتَعَبَّدْنِي المُتَعَبِّدُونَ بِمِثْلِ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَتِي » .

وروى الترمذى وابن أبى الدنيا والبيهقى عن عقبة بن عامر قال :

« قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » .

وروى البيهقى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه سلم خَطَبَ النَّاسَ فَبَكَى رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم : لَوْشَهِدَ كُمُ الْيَوْمَ كُلُّ مُؤْمِنٍ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ كَأَمْثَالِ الجِبَالِ الرَّوَاسِي لَغُفِرَ لَهُمْ بِبُكَاءِ هٰذَا الرَّجُلِ وَذٰلِكَ أَنَّ المَلاَئِكَةَ تَبْكِي وَتَدْعُو لَهُ وَتَقُولُ اللَّهُمَّ شَفِّعِ الْبَكَّائِينَ فِيمَنْ لَمْ يَبْكِ » .

وروى البيهقى والأصبهانى مرفوعا : « يَقُولُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَارْتِفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي ، لاَ تَبْكِي عَيْنُ عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَخَافَتِي إِلاَّ أَكْثَرْتُ ضَحِكَهَا فِي الْجَنَّةِ » .

وروى أبو الشيخ والبيهقى مرفوعا : « إِذَا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا » .

وفى رواية لهما مرفوعا : « إِذَا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَعَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَبَقِيَتْ لَهُ حَسَنَاتُهُ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتعاطى الأسباب التى تذكرنا بالموت وتقصر أملنا ، كمعاشرة العباد والزهاد فى الدنيا امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم :

« أَذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ » الحديث .

ومالا يتوصل إلى فعـل المأمور إلا به فهو من جملة المأمور واجبا لواجب ومندوبا لمندوب .

فعلم أن من عاشر الراغبين فى الدنيا كالتجار والذين يسعون على الوظائف والأنظار ليلا ونهارا وطلب أن يكون الموت على باله فقد رام المحال .

ورأى سيدى على الخواص تاجرا يبنى له دارا ويغرس له فيها جنينة وقد طعن فى السن فقال لفقير كان بجواره ارحل يا أخى وإلا فتنك جارك بعمارته وأنساك الموت والآخرة فرحل الفقير .

وسمعته مرة أخرى يقول : من الأضداد أن من يذكر الموت يحيا قلبه ومن ينساه يموت ، وذلك لأن من لازم ذكر الموت قصر الأمل والمبادرة إلى العمل ، فمثل هذا ولو طال عمره فعمله حسن إن شاء الله تعالى وذلك أعظم ما يكون العبد عليه اﻫ .

فعلم أن من أعظم نعم الله تعالى على العبد أن يقصر أمله ويطول عمره ويحسن عمله ، وهناك ينشد لسان حاله للمحجوبين عنه :

لاَ تَظُنُّوا المَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ ... لَحَيَاةٌ هِيَ غَايَاتُ الْمُنَى

لاَ تَرُعْكُمْ فَجْأَةُ المَوْتِ فَمَا ... هِيَ إلاَّ نُقْلَةٌ مِنْ هَهُنَا

وإيضاح ذلك أن كل من جاهد نفسه حتى قتلها بسيوف المجاهدات وترك لذات المنام وأكل الشهوات فإنما هو ينتقل من دار إلى دار ، فلا يتأثر على فوات دار الدنيا إلا ليعمل فيها خيرا لاغير. وأما تعاطيه لذاتها وشهواتها فيندم عليها غاية الندم ويفرح لمفارقتها ، وأما من لم يجاهد نفسه فيما ذكرناه فهى متعشقة للدنيا مشتبكة بعلائقها كاشتباك الصوف المبلول بالشوك فيقاسى فى طلوع روحه الشدائد ، وإنما شدد على الأكابر طلوع روحهم مع كونهم لا التفات لهم إلى الدنيا ولا تعشق لهم بها إلا من حيث وفور شفقتهم على أصحابهم لعدم وصولهم إلى ما كانوا يطلبونه لهم من المقامات ، فكان مقصود الأكابر تأخير أجلهم ليكملوا أصحابهم وليس مقصودهم البقاء فى الدنيا لحظ نفوسهم فافهم ، ولذلك قال بعض الأنبياء لجبريل عليه السـلام : ألا تراجع ربك فى التأخير؟ قال : جف القلم بما هو كائن .

ويؤيد ما قررناه قول الجنيد فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ رَبِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

أن المراد به أنه اطلع على ما تقع فيه أمته من المعاصى بعده ، فكان يستغفر الله تعالى لهم لاله ، لأنه صلى الله عليه وسلم لاذنب عليه ، فقال له قائل فما المراد بقوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ؟) .

فقال : المراد به ذنب أمته ، وإنما أضيف إليه لأنه هو المشرع لتحريمه ، فكأنه قيل له استغفر لأهل الذنب الذى حرّمته شريعتك اهـ.

هكذا رأيته عن الجنيد منقولا فى بعض الكتب ، وهو اللائق بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول يهوّن الموت على كل إنسان من الأمة ويصعب بقدر جهاده لنفسه فمن بقى عليه بقية مجاهدة صعب عليه طلوع الروح بقدرها والناس بين مقلّ ومكثر . وأما الخواص الذين لم يبق عليهم من مجاهدة نفوسهم بقية كأبى بكر الصديق وأضرابه فلا يتأثر بطلوع روحه أبدا ، وإنما يتأثر الجسم من حيث فراق من كان سببا لحياته المدبرة له ، فإن الله تعالى أوحى إلى الروح أن ادخلى كرها واخرجى كرها : أى ادخلى كرها عليك واخرجى كرها على الجسد ، وذلك لأنها من عالم الانفساح والسراح والجسم يقيدها فيه عن سراحها ، وقد أنشد سيدى على بن وفا رضى الله عنه فى الروح مخمسا :

قَدْ سَمِعْتُ الرُّوحَ تَحْكِي   أَنْ نَفْسَ الْمُتَزَكِّي
أَنْشَدَتْ كَالْمُتَشَكِّي   أَنَا فِي الْغُرْبَةِ أَبْكِي
مَا بَكَتْ عَيْنُ غَرِيبِ

بَعْدَ رَوْضِي وَمُرُوجِي   وَارْتِفَاعِي وَعُرُوجِي
صِرْتُ فِي الضِّيقِ الْحَرِيجِ   لَمْ أَكُنْ عِنْدَ خُرُوجِي
مِنْ مَكَانِي بِمُصِيبِ

كُنْتُ حَقًّا رُوحَ مُلْكِي   فَتَغَرَّبْتُ بِدَرْكِي
مَعَ وَهْمِ خُلْدِ إِفْكِي   فَاعْجَبُوا لِي وَاتْرُكِي
وَطَنًا فِيهِ حَبِيبِي

وأنشد ابن سينا فى الروح :

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عَارِفٍ وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ
وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ
أَنِفَتْ وَمَا سَكَنَتْ فَلَمَّا وَاصَلَتْ أَلِفَتْ مُجَاوَرَةَ الْخَرَابِ الْبَلْقَعِ
وَأَظُنُّهَا نَسِيَتْ عُهُودًا بِالْحِمَى وَمَدَامِعًا هَطَلَتْ وَلَمْ تَتَقَطَّعِ
إِذْعَاقَهَا الشَّرَكُ الْكَثِيفُ وَصَدَّهَا قَفَصٌ عَنِ الْأَوْجِ الْفَسِيحِ الْمُرْبَعِ
حَتَّى إِذَا قَرُبَ الْمَسِيرُ إِلَى الْحِمَى وَدَنَا الرَّحِيلُ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَوْسَعِ
هَجَعَتْ وَقَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ فَأَبْصَرَتْ مَا لَيْسَ يُدْرَكُ بِالْعُيُونِ الْهُجَّعِ
فَكَأَنَّمَا بَرْقٌ تَأَلَّقَ بِالْحِمَى ثُمَّ انْطَوَى فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْمَعِ

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يخلصه من العوائق والحجب التى تحجبه عن شهود الدار الآخرة وأهوالها ، ويعرفه أنه مادام فى هذه الدار فرسل الله تعالى مرسمة عليه تكتب عليه جميع ماشاء الله تعالى من الأقوال والأفعال فكأنه فى سجن ، فإذا خرجت روحه فكأنه أطلق من السجن ، ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه نسيان الموت والدار الآخرة كما هو حال أكثر الناس اليوم فكلنا فى غمرة ساهون ، نسأل الله اللطف :

وفى الحديث : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ » .

وإنما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتا لأنه مات عن التدبير والاختيار مع الله تعالى ، وسلم نفسه لمجارى الأقدار ولم يبق عنده نزاع لها .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ليصير الموت نصب عينيك طبعا من غير تكلف ، فلا ترى إلا عاملا بخير أو مستغفرا من ذنب قد سبق على أيام السلوك لك ، والله يتولى هداك .

وروى ابن ماجه والترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » يعني الموت .

وفي رواية للطبراني بإسناد حسن مرفوعا :

« أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » يعني الموت « فَإِنَّهُ مَا كَانَ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ ، وَلاَ قَلِيلٍ إِلاَّ جَزَّأَهُ » .

أي كثره ، وهاذم بالذال المعجمة أي قاطع .

وروى البزار وغيره باسناد حسن : « أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم : مَرَّ بِمَجْلِسٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ ، فَقَالَ : أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، أَحْسِبُهُ قَالَ : فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ مِنَ الْعَيْشِ إِلاَّ وَسَّعَهُ ، وَلاَ فِي سَعَةٍ إِلاَّ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِ » .

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعا قال :

« كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ عِبَرًا كُلُّهَا : عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هُوَ يَضْحَكُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ آمَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ، ثُمَّ لاَ يَعْمَلُ » .

وروى الترمذي والبيهقي : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دَخَلَ مُصَلاَّهُ فَرَأَى قَوْمًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ : أَيْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ : أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ » الحديث بطوله .

وروى الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« خَرَجْنَا مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فِي جَنَازَةٍ فَجَلَسَ إِلَى قَبْرِهَا فَقَالَ : مَا يَأْتِي عَلَى هٰذَا الْقَبْرِ مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ وَهُوَ يُنَادِي بِصَوْتٍ ذَلِقٍ طَلْقٍ يَا ابْنَ آدَمَ نَسِيتَنِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الْوِحْدَةِ وَبَيْتُ الْغُرْبَةِ وَبَيْتُ الْوَحْشَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ وَبَيْتُ الضِّيقِ إِلاَّ مَنْ وَسَّعَنِي اللهُ عَلَيْهِ » الحديث .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى باسناد جيد :

« أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ : يَا رسولَ الله مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحزَمُ النَّاسِ؟ قَالَ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَكْثَرُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ » .

وروى الطبرانى باسناد حسن والبزار : « أَنَّ رَجُلاً مَاتَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَيَذْكُرُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَرَسُولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم سَاكِتٌ، فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : هَلْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَ المَوْتِ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَهَلْ كَانَ يَدَعُ كَثِيرًا مِمَّا يَشْتَهِي ؟ قَالُوا لَا ، قَال : مَا بَلَغَ صَاحِبُكُمْ كَثِيرًا مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظًا وَكَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » .

وروى البزار مرفوعا : « أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ : جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ وَطُولُ الأَمَلِ وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا » .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « يَهْلِكُ آخِرُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ » .

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى وأبو نعيم والأصبهانى أن أسامة بن زيد اشترى وليدة بمائة دينار لأجل فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى إِلَى شَهْرٍ ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ ، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ مَا طَرَفَتْ عَيْنَاىَ إِلاَّ ظَنَنْتُ أَنَّ شَفْرَيَّ لاَ يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي ، وَلاَ رَفَعْتُ قَدَمِي وَظَنَنْتُ أَنِّي أَضَعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ ، وَلاَ لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلاَّ ظَنَنْتُ أَنِّي لاَ أُسِيغُهَا حَتَّى أُغَصَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ ، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ بِهِ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » .

وروى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع على أصحابه ذات عشية فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ تَسْتَحْيُونَ ؟ قَالُوا : مِمَّ ذٰلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : تَجْمَعُونَ

مَالاَ تَأْكُلُونَ وَتبنُونَ مَالاَ تَعْمُرُونَ وَتُؤَمِّلُونَ مَا لاَ تُدْرِكُونَ ، أَلاَ تَسْتَحيُونَ مِنْ ذَلِكَ ؟ » .

وروى البخارى والترمذى عن عبد الله بن عمر قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال :

« كُنْ فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » .

وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .

ورواه الترمذى والبيهقى بلفظ :

« كُنْ فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَصْحَابِ الْقُبُورِ » وقال لى: « يَا ابْنَ عُمَرَ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غَدًا » .

وروى أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال :

« مَرَّ بِي رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّى فَقَالَ : مَا هٰذَا يَاعَبْدَ اللهِ ؟ قُلْتُ يَارسولَ اللهِ خُصٌّ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلاَّ أَسْرَعَ مِنْ ذَٰلِكَ » .

وفى رواية لهم أيضا عن ابن عمر قال :

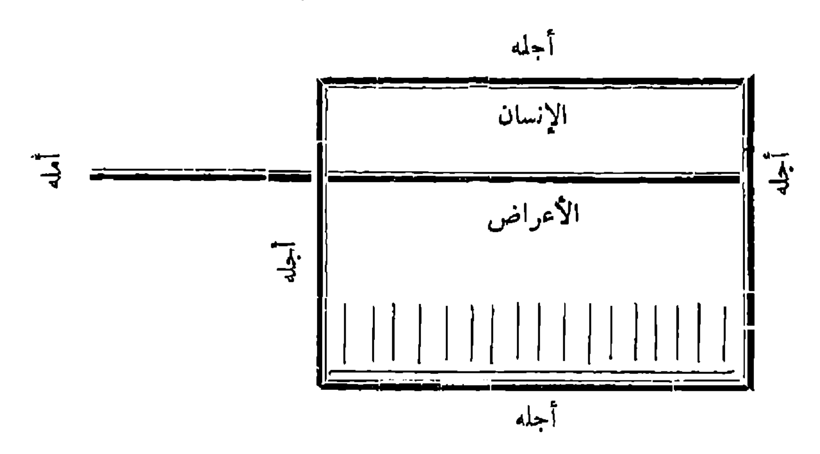
« مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا وَهَى فَقَالَ : مَا هٰذَا يَاعَبْدَ اللهِ؟ فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ فَقَالَ : مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلاَّ أَعْجَلَ مِنْ ذَٰلِكَ » .

وروى البخارى والترمذى وابن ماجه والنسائى عن ابن مسعود قال :

« خَطَّ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ سلمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ

وَخَطّ خُطُوطًا صِغَارًا إِلَى هٰذَا الَّذِى فِي الْوَسَطِ فَقَالَ : هٰذَا الإِنْسَانُ وَهٰذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ ، وَهٰذَا الَّذِى هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهٰذِهِ الْخُطُوطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَ هٰذَا نَهَشَهُ هٰذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَ هٰذَا نَهَشَهُ هٰذَا » .

وهذه صورة خط النبي صلى الله عليه وسلم كما نقله الحفاظ :



وفي رواية للبخارى والنسائى واللفظ للبخارى عن أنس قال :

« خَطّ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم خَطًّا وَقَالَ هٰذَا الإِنْسَانُ وَخَطّ إِلَى جَنْبِهِ خَطًّا وَقَالَ هٰذَا أَجَلُهُ ، وَخَطّ خَطًّا آخَرَ بَعِيدًا مِنْهُ فَقَالَ : هٰذَا الأَمَلُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ إِذْ جَاءَهُ الأَقْرَبُ » .

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد فى قوله تعالى :

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) فقال النبى صَلى اللهُ عليهِ سلم : « لاَ تَزْدَادُ مِنْهُمْ إِلاّ بُعْدًا » .

وفى رواية : « وَلاَ يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إِلاّ حِرْصًا ، وَلاَ يَزْدَادُونَ مِنَ اللهِ إِلاّ بُعْدًا » .

وروى الحاكم والبيهقى : « إِنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رسولَ اللهِ أَوْصِنِي فَقَالَ : عَلَيْكَ

بِالْإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلَاتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ » يعني في الدنيا والآخرة.

وروى مسلم مرفوعا : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِتَنًا ، كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ » الحديث.

وفي رواية للترمذي مرفوعا : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا فَهَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا » الحديث.

وروى ابن ماجه مرفوعا: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا » الحديث.

وروى ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن مرفوعا :

« الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ ».

وروى أبو داود والحاكم والبيهقي عن مصعب بن سعيد عن أبيه قال الأعمش ولا أعلمه إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ ».

قال الحافظ: لم يذكر الأعمش من حدثه ولم يجزم برفعه. والتؤدة : هي التأني والثبات والتثبت وعدم العجلة.

وروى الترمذي والبيهقي مرفوعا: « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ ؟ قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رسولَ اللهِ، قَالَ : إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ نَزَعَ ».

وروى الحاكم وقال صحيح على شرطهما مرفوعا :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، قِيلَ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ ؟ قَالَ : يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ ».

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا عَسَلَهُ ، قَالُوا وَمَا عَسَلَهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قَالَ : يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بَيْنَ يَدَىْ رِحْلَتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ أَوْ قَالَ مَنْ حَوْلَهُ » .

وروى البخارى مرفوعا : « أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً » .

وروى الحاكم وقال صحيح على شرطهما مرفوعا :

« مَنْ عَمَّرَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِى الْعُمْرِ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالاً » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح والطبرانى وغيرهما :

« أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَارَسُولَ اللهِ أَىُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ قَالَ فَأَىُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نخاف من سطوات ربنا وغضبه علينا ليلا ونهارا ولانأمن مكر الله علينا فى ساعة من ليل أو نهار .

واعلم يا أخى أن أحدا لايستغنى عن الخوف ولا يسقط عنه ولو بلغ الغاية مادام فى هذه الدار إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم ، وأما ما عداهم فمن حقه الخوف حتى يضع قدمه فى الجنة لأنه من المقامات المستصحبة بعدالموت ، بخلاف نحو مقام التوبة والتقوى فإنه خاص بالحياة مدى التكليف .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا خافت الأمم كلها كان الأنبياء كلهم آمنين ، وإن وقع منهم خوف فإنما ذلك على أممهم اه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يزيل حجبه الكثيفة المانعة له من الخوف ، فإن الإنسان كلما قرب من حضرة الله عز وجل استعظمه وخاف

منه ، وكلما بعد وحجب فبالعكس نظير ذلك فى الدنيا أصحاب حضرة السلطان ، فترى عندهم من الخوف منه ومن سطوته ماليس عند البعداء عن حضرته وربما شتمه هؤلاء ونقصوه بخلاف من كان من أهل حضرته .

وقد كان السلف الصالح كلهم على قدم الخوف حتى ماتوا لعلو مقامهم وقربهم من ربهم ، وخلفهم أقوام ليس عندهم من الخوف إلا الاسم ، فإن أعمالهم تكذب أقوالهم .

وقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : والله لقد أدركنا أقواما او رأوكم لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب . ورأى شخص فى المنام مالك بن دينار فى الجنة فأتاه يبشره بذلك فقال له مالك أما وجد إبليس أحدا يسخر به غيرى وغيرك ، وكانت السحابة إذا مرت عليه وهو يملى الحديث يسكت ويرتعد ويقول اصبروا حتى تمر فإنى أخاف أن تكون فيها حجارة ترجمنا بها .

وسألوه مرة أن يخرج معهم للاستسقاء ، فقال بالله عليكم اتركونى فإنى أخاف أن لا تسقوا بسببى اه .

وطلب جماعة من سيدى عبد العزيز الدريى كرامة وقالوا مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى نأخذ عنك الطريق ، فقال : يا أولادى وهل ثم كرامة من الله لعبدالعزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به وقد استحق الخسف به من سنين ؟ فقال له شخص إن الخسف لا يكون إلا للكفار وأنتم من المؤمنين ، فقال قد خسف الله تعالى بشخص لبس حلة وتبختر فيها فى مكة ، كما فى البخارى عن ابن عباس ، وكم لعبد العزيز من أعظم من التبختر؟ اه

وكان معروف الكرخى إذا استيقظ من منامه يمسح على وجهه بيده ويقول : الحمد لله الذى لم يغير صورتى فى صورة كلب أو خنزير لسوء أدبى : وكان تلميذه السرى السقطى ينظر إلى أنفه فى اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسود وجهه ، وإنما خص الأنف بالنظر لكون الإنسان لا ينظر من وجهه غيره .

وكانت رابعة العدوية لا تنام الليل وتقول أخاف أن أوخذ على بيات ، وكانت تنام وهى تمشى فى الدار ، فإذا قيل لها فى ذلك تنشد :

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ وَهْىَ قَرِيرَةٌ وَلَمْ تَدْرِ فِى أَىِّ الْمَنَازِلِ تَنْزِلُ

وأحوال السلف الصالح فى الخوف كثيرة مشهورة ، فطالع يا أخى فى مناقبهم ، وإياك والاقتداء بأهل هذا الزمان المتمشيخين بأنفسهم فإنك ربما هلكت :

وكان آخر الخائفين من الإخوان الذين أدركتهم الأخ الصالح الشيخ أبا الفضل الأحمدى رحمه الله تعالى : رأيت مرة قائلا يقول لى يافلان ما صحبت فى عمرك مثل أبى الفضل ولا تصحب ، فحكيت ذلك له فارتمى إلى الأرض وصار يفحص بيديه ورجليه كالطير المذبوح ، فلما أفاق قال لى قتلتنى فى هـذا النهار ، ومن أنا حتى تتكلم بى الهواتف؟ والله ما أظن إلا أن الله تعالى ينظر إلىّ نظر الغضب ليلا ونهارا ولـكن أسأله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يمن علىّ بحسن الخاتمة والموت على التوحيد آمين .

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق صاحب سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم يقول : والله لوددت أن أكون شجرة تعضد فكيف بأمثالنا ؟ .

فاسلك يا أخى على يد شيخ حتى يخرجك من مواطن تلبيس النفس والشيطان وتصير تخاف من الله تعالى لتأمن من عذابه يوم القيامة ، فإن من خافه هنا أمن منه هناك وبالعكس ، وتأمل قوله تعالى :

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا) .

تعثر على جميع ماقلناه ، وذلك أن المتقى ماحشر إلى الرحمن الذى يعطى الرحمة إلا لـكونه كان فى دار الدنيا جليس أسمـــاء الخوف والانتقام ، ولذلك اتقى ربه ، ولو أنه كان جليس أسماء الحنان واللطف والمغفرة لما خاف وكان يقع فى كل محظور فافهم ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان مرفوعا : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ . وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّى أَخَافُ اللهَ » .

وفى حديث الترمذى والحـاكم فى قصة الـكفل الذى كان فى بنى إسرائيل وكان لا يتورع عن ذنب ، أنه دعا امرأة وراودها عن نفسها وأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما جلس مجلس الرجل من امرأته ارتعدت وبكت ، فقال ما يبكيك ؟ قالت لأن هذا عمل ما عملته قط ، وما حملنى عليه إلا الحاجة ، فقال أو تفعلين هذا من مخافة

الله؟ فأنا أحرى بذلك اذهبي ولك ما أعطيتك ، ووالله لا أعصيه بعدها أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه ، إن الله قد غفر للكفيل فعجب الناس من ذلك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي وَاسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ، فَلَمَّا مَاتَ فَعَلَ بِهِ بَنُوهُ ذٰلِكَ . فَأَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ أَنِ اجْمَعِي مَا فِيكِ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ : إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُوهُ ثُمَّ ذَرُّوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا بِهِ مَا أَمَرَهُمْ ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ هٰذَا ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ » .

وروى الترمذى والبيهقى مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه فيما يروى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل أنه قال :

« وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَجْتَمِعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَانِ وَأَمْنَانِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى البخارى والترمذى وغيرهما مرفوعا : « وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ ، وَاللهِ إِنِّي لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ » والصعدات : الطرقات .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « مَنْ خَافَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوَّفَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ خَوَّفَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن يكون رجاؤنا وظننا فى الله تعالىٰ حسنا بطريقه الشرعى بأن نأتى بجميع المأمورات الشرعية ، ثم نرجو فضل ربنا ونعول على فضله لا على تلك الأعمال ، فإنه لو آخذنا بما فى طاعاتنا من سوء الأدب معه لغذبنا أبد الآبدين ، وهذا الرجاء والظن بالله تعالى متعين على الإنسان فى كل نفس ، ومن قال إن ترجيح حسن الظن لا يكون إلا عند الموت قلنا له والموت حاضر عندنا فى كل نفس من الأنفاس ، ليس لنا عهد من الله تعالى برجوع نفس واحد إذا خرج ، فيحتاج المؤمن إلى عينين عين ينظر بها إلى حضرة الانتقام فيخاف من الله تعالى ، وعين ينظر بها حضرة الرحمة والمغفرة فيرجو فضل الله ورحمته ، فالعينان فى آن واحد لأنهما يتعاقبان فافهم .

ويحتاج من يريد الوصول إلى ذلك إلى شيخ يسلك به حتى يجعل له عينين بعد أن كان أعور ، وقد حثنا الله تعالى على حسن الظن به بقوله :

« أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى فَلْيَظُنَّ بِى خَيْرًا » .

فمن لم يظن بالله خيرا فقد عصى أمر الله تعالى ، وقد مشى الصادقون من المريدين على هذه القاعدة مع أشياخهم ، فإن ظنوا بشيخهم أنه يحميهم من إبليس بنظره حماهم ، وإن ظنوا أنه لا يقدر على حمايتهم فلا يصح لهم حماية ، ولذلك أمروا مريدهم أن لا يغفل عن شهود كونه معه لأنه مادام يشهد شيخه ملاحظا له فهو محفوظ من كل آفة ، ومتى غفل عن ذلك جاءته الآفات من كل جانب .

ومما جربناه نحن أن من كان اعتقاده فينا متوفرا مهما طلب من الحوائج قضى له ، ومن لم يكن اعتقاده فينا متوفرا لم تقض له حاجة ولو كنا أقطابا فالمدار على حسن ظن المتوجه للشيخ لا على الشيخ وربما تقضى حاجة المعتقد ولم يكن يعلمها الشيخ إلا إن أعلمه بها المتوجه إليه فاعلم ذلك وسل الله تعالى أن يرزقك حسن الظن عند الموت ، فربما كان الإنسان حسن الظن بالله تعالى حال الصحة فإذا حضرته الوفاة أساء الظن بربه فيجنى ثمرة ذلك ، فعلم أن حسن الظن ليس فى العبد وإنما هو مثل قوله تعالى :

(وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

أى استصحبوا صفات الإسلام دائما ، ولا تتركوها نفسا واحدا فكل وقت جاءكم الموت وجدكم مسلمين فافهم ذلك فإنه نفيس ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى أواخر عهود المشايخ .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الترمذي وقال حديث حسن مرفوعا :

« قَالَ اللهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، يَاابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

وقراب الأرض بكسر القاف وضمها أشهر: هو ما يقارب ملأها .

وروى للترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَ أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ فِي مِثْلِ هٰذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ يَا رَبَّنَا ، فَيَقُولُ لِمَ ؟ فَيَقُولُونَ : رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أَوْجَبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي » .

وروى الشيخان مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » .

وروى أبو داود وابن حبان وغيرهما مرفوعا :

« حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ » .

وفي رواية للترمذي، والحاكم : « إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللهِ » .

وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول :

« لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ » .

وروى البيهقى عن رجل من ولد عبادة بن الصامت لم يسمه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَجُلٍ إِلَى النَّارِ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى شَفَتِهَا ، الْتَفَتَ فَقَالَ : أَمَا وَاللهِ يَا رَبِّ إِنْ كَانَ ظَنِّي بِكَ لَحَسَنًا ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » .

يعنى فأدخله الله الجنة كما فى رواية، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نميل إلى الضعف ونبادر عند نزول البلاء علينا إلى سؤال العفو والعافية ، ولا نتجلد إلا بما نعلم من أنفسنا بالقرائن من القدرة على الصبر عليه ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ممن يدعى الصلاح من غير سلوك على يد شيخ ، فيظهر القوة لتحمل ما فوق طاقته، فربما تخلفت عنه العناية فيصير يقع منه ألفاظ ربما يكفر بها .

وقد كان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : نحن لا نخاف البلاء وإنما نخاف مما يبدو منا حال البلاء من السخط والضجر ثم يقول : والله ما أدرى ماذا يقع منى لو ابتليت ؟ فلعلى أكفر ولا أشعر اهـ .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : ليبحث العبد عن حكمة نزول المرض به هل هو رفع درجات أو عقوبات أو مكفرات ؟ فإنه لا يكاد يخرج عن هذه الثلاث ، ولكل منها علامة ، فعلامة كونه رفع درجات أن يقع مع انشراح وانفساح الصدر والرضا وعلامة العقوبة أن يقع مع الألم والسخط والاشمئزاز ، وعلامة المكفرات أن يقع مع الصبر وعدم السخط ، وأصل ذلك أن الله تعالى يجلس العبد فى المقام المفضول حتى يتحقق به ثم بعد ذلك ينقله إلى المقام الأفضل ، فلذلك كان العبد يحبس فى مقام الصبر مع عدم الانشراح للصدر ليحصل له الأجر الذى وعد الله به الصابرين ، ثم ينقله إلى مقام الرضا ليحصل له الأجر الذى وعد الله به الراضين ، فلا بد لكل كامل من حصول الأمرين ،

ولو علت مرتبته ، فعلم مما قررناه توجيه قول بعضهم إن المرض له ثلاث حالات : فإن كان المرض رفع درجات فلا ينبغى له سؤال العافية منه ، وكذلك إن كان عقوبة أو مكفرا ، ومن هنا سلم الأكابر لله تعالى ولم يسألوا الإقالة حقيقة ، وإنما سؤالهم تملق لله تعالى وإظهار للضعف لاغير .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يخلو كامل من جزء فيه يمل من المرض لعدم طاقته للزيادة ، فسأله الاقالة من المرض إلا ذلك الجزء ، وأما بقية أجزائهم فكلها راضية بالمرض وربما تلذذت به اه .

وهذا تحقيق عظيم ، فرحمه الله تعالى ماكان أدق نظره .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يخرجه من رعونات النفوس ومن دعوى القوة وغيرها من الدعاوى الكاذبة ، حتى لايفتضح بشىء يدعيه فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه الدعاوى لما ليس من شأنه القدرة عليه .

وقد كنت أنا وأخى الشيخ أبو العباس الحريثى فى جنازة فجاء لنا شخص من مشايخ الزمان وقال عندى من القوة الآن مالو قبضت على الحديد لتعجن فى يدى ، فأخرج له أبو العباس مفتاح كالون حديد فقال خذ هذا أرنا ماادعيت فافتضح الشيخ المدعى ، ومن ذلك اليوم ما ادعى عندنا دعوى أبدا .

فاسلك يا أخى على يد شيخ يشهدك ضعفك حتى تجد نفسك أضعف من ناموسة ، كما هو شأن العارفين رضى الله عنهم ، حتى إن بعضهم كان يحمل ليمونة فلم يقدر ، وبعضهم لم يقدر يحمل على بدنه قميصا من الضعف وآثر العرى إلا مع المئزر ، وبعض المجاذيب تعرى :

وَ (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) .

وما أنكر مثل ذلك إلا من لاذوق له فى مقامات الرجال ، وأنشدنى شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله :

وَلَوْ يَذُوقُ عَاذِلِي صَبَابَتِي ‏ ‏ ‏ صَبَا مَعِي لٰكِنَّهُ مَا ذَاقَهَا

فمل ياأخى إلى الضعف الذى هو أساسك وسداك ولحمتك ، وإن جاءك قوة من الله تعالى فى تحمل البلاء فهى عارضة ، والله يتولى هداك .

وقد كان بالإمام الشافعى رضى الله عنه بواسير تنضح الدم ليلا ونهارا حتى صار

لايجلس إلا والطست تحته يتلقى مايقطر من الدم ، فزاد به الألم يوما فقال اللهم إن كان فى هذا رضاك فزدنى ، فقال له شيخه مسلم بن خالد الزنجى : مه يامحمد لست أنا ولا أنت من رجال البلاء ، سل الله العفو والعافية هذا ، والإمام الشافعى رضى الله عنه أحد الأوتاد الأربعة بشهادة الخضر عليه السلام ، كما نقله الشيخ محيى الدين بن العربى رضى الله عنه عن الخضر عليه السلام ، فإذا كان هذا حال الأوتاد فما بال من هو غارق فى شهوة فرجه وبطنه كأمثالنا نسأل الله العافية :

وروى الترمذى وقال حديث حسن وابن أبى الدنيا :

« أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ : يَا رَسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : سَلْ رَبَّكَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ : فَإِذَا أُعْطِيتَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَأُعْطِيتَهَا فِي الآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ » .

وروى الترمذى وحسنه والنسائى عن أبى بكر أنه قام على المنبر ثم بكى ، فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أول على المنبر ثم بكى فقال :

« سَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ » .

وروى ابن ماجه بإسناد جيد مرفوعا :

« مَا مِنْ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا الْعَبْدُ أَفْضَلَ مِنَ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْمُعَافَاةَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ لاَ يُرَدُّ ، قَالُوا فَمَاذَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرطهما أن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله أرأيت إن علمت ليلة القدر فماذا أقول فيها؟ قال قولى :

« اللَّهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّى » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من مخالطة أهل البلاء بقصد كثرة حمدنا لله وشكرنا له الذى عافانا منه أى من ذلك البلاء كل ما نرى صاحبه وأما حديث :

« فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ » .

فإنما ذلك وارد فى ضعفاء اليقين رحمة بهم ، كما رحم ضعفاء اليقين أيضا بنهيهم نهى شفقة عن الدخول فى بلد فيه وباء أو طاعون ، وإلا فلو كان كل من خالط أهل البلاء ابتلى أو دخل بلدا فيها وباء مات ما سلم أحد من المخالطين ولا من الداخلين ، وكل من فر من الطاعون حتى انقضى زمنه ورجع تبين أنه لو لم يفر من الطاعون وجلس فى بلده لكان لم يمت مثل غيره .

وأخبرنى والدى رحمه الله أن والده الشيخ على الشعراوى رضى الله عنه كان إذا رأى مجذوما أو أبرص دعاه وأكل معه اللبن والمائعات ، ويقول : بسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه نويت جبر خاطر أخى هذا .

قال : ودخل مرة بلدنا أجذم تقطر أطرافه صديدا ، فتقذر منه أهل البلد فأدخله داره وحلب له البقرة وسقاه من اللبن ثم شرب فضلته اهـ .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا رأى مبتلى يغشى عليه فإذا أفاق وقيل له فى ذلك يقول : إنما خفت من سطوات الغضب الإلهى أن تلحقنى لكونى أكثر منه عصيانا لله تعالى ، فحكمى حكم من كان متهوما هو وآخر بقتل شخص ثم مسكوا صاحبه وعاقبوه بحضرته وهو ينظر فإنه يخاف ضرورة ، ولو كان من أشجع الناس ، فإن الشجاع ماله قوة إلا فى أول إقدامه على البلاء ؛ وأما إذا مسك وتوعد بالقتل والضرب وأنواع العقوبات فإن قلبه يتجزع ، فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم ولكن رحمة الله وسعت كل شىء .

فعلم مما قررناه أن الحمد لله يعظم ويكثر عند مشاهدتنا أهل البلاء على الحمد الواقع فى حال غيبتهم عن عيوننا .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى إذا دخل مصر المحروسة من بركة الحاج يبدأ بدخول

المارستان فيدور على أهل البلايا ويسلم عليهم ويصبرهم ولا يسلم على أحد من أهل مصر إلا بعد أهل المارستان ، فما كان يخرج إلا وهو حامد شاكر لله تعالى بكل شعرة فيه .

وقد حبب لى أن أذكر لك يا أخى جملة من الأمراض التى عافاك الله منها منشورة على أعضاء البدن من الرأس إلى الرجلين لتحدث عند ذكر كل مرض شكرا لله عز وجل الذى عافاك من ذلك البلاء مع استحقاقك لأضعافه لاسيما إن كنت من الصالحين أو من العلماء العاملين ، فإن ميزان الحق تعالى منصوبة على هؤلاء بالتأديب والبلاء والمحن حتى لايغفلوا لحظة واحدة عن ربهم ، فإن الغفلة عن الرب عند أهل الله عز وجل من أعظم الذنوب التى يقع الإنسان فيها ، ووالله لو أن عبدا عبدالله عز وجل مدة الدنيا كلها بعبادة الثقلين ما أدى شكر معافاته من مرض واحد من الأمراض .

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق :

ينبغى للعبد أن يتذكر ما أنعم الله به عليه من العافية صباحا ومساء ، ويشكر الله تعالى على ذلك ، فكم ممن هو بالصداع الحار أو البارد لايفتر عنه ساعة ؟ وكم ممن هو بالشقيقة لاتدعه يستلذ بنوم ؟ وكم ممن هو بالضارب ليلا ونهارا حتى كاد أن يعمى بصره ؟ وكم ممن هو مبتلى بالماليخوليا والصرع والفالج ورعشة الرأس ليلا ونهارا ؟ وكم ممن هو مبتلى بالتشنج والكزاز والاختلاج والاسترخاء والنزلات والوساوس السوداوية والقطرب والكابوس وبرد الرأس وقروحه وسدد الدماغ وغير ذلك ؟ وكم ممن انصبت المواد الرديئة فى عينيه حتى أشرف على العمى أو عمى . وكم ممن طلع فى عينيه السبل والظفرة والدمعة والشعرة والجرب والغشاوة والبياض . وكم ممن نزل الماء فى عينيه وتربى فى أجفانه الدود فهو يغلى فى جفونه ليلا ونهارا وكل يوم يقلبون جفنه ويلحسون الدود ليخف عنه الغليان . وكم ممن تساقت أجفانه وانتتف شعر عينيه أو ابيض حتى تشوهت صورته . وكم ممن طلعت فى عينيه قروح ودمامل ونملة وسرطان واشتد عليه الضارب وصار الدم والقيح ينضح من عينيه ليلا ونهارا . وكم ممن تورمت أذناه واستدت وطرشت وصمت وتقرحت ودودت من صرصورها ولحقها الضارب حتى يحس الإنسان بأن وتدا من حديد يدق فيها ليلا ونهارا . وكم ممن دخل فى أذنه حيوان مؤذ فلم يقدر أحد على إخراجه فمنعه الأكل والنوم . وكم ممن طلعت فى أنفه توتة أو طاعون فأكل أنفه حتى صار طاقة مفتوحة والقيح والصديد ينضح منه حتى تقذرته زوجته وطلبت فراقه . وكم ممن طلعت فى داخل أنفه قروح فعجز عن اندمالها . وكم ممن أصابه الرعاف الدائم حتى أشرف على الموت من سيلان

الـم . وكم ممن طلعت داخل أنفه بواسير فصار أنفه يضرب عليه ليلا ونهارا . وكم ممن تشققت شفتاه وتقرحت وطلعت الأكلة فى فه فأكلت دائره حتى صارت أسنانه بادية ونفرت منه زوجته أن يقبلها فطلبت فراقه وهو يحبها . وكم ممن ضربت عليه أسنانه وأضراسه فمنعته النوم والأكل وشرب الماء : وكم ممن هو أبخر الفم منتنه لايستطيع أحد أن يقرب منه من شدة نتن فه : وكم ممن لعابه سائل على صدره ليلا ونهارا مع بطلان شقيه بالفالج وغيره : وكم ممن تورمت حلقه حتى صارت رقبته كخلية النحل من الورم وطلعت فيها الخنازير والعقد البلغمية وهى تنضح قيحا وصديدا ليلا ونهارا ، والفتائل مدسوسة فيها لاتختم من موضع إلا وتفتح فى موضع آخر ، حتى منعته الأكل والشرب . وكم ممن وقفت فى حلقه شوكة أو علقة فما قدر أحد على أن يخرجها . وكم ممن ثقل لسانه وتورم وتشقق . وكم ممن طلع تحت إبطه طاعون أو خراج فأكل إبطه حتى صار طاقة . وكم ممن ابتلى بضيق النفس والربو والسعال والنفس المنتن حتى منعه ذلك أن يضع جنبه فى الأرض وكم ممن طلع فى بدنه خراج فتورم وتشقق حتى لايستطيع أن ثوبه يامسه . وكم ممن تورمت معدته واشتد لهيبها ورياحها وحرقتها حتى صار لايستلذ بطعام . وكم ممن اشتد عليه الفواق والغثيان وكثرة القىء وانتفخت معدته واشتد لهيبها. وكم ممن تورمت كبده وتقرحت. وكم ممن حصل له الاستسقاء فعجزت الأطباء عن غلاجه وصار بطنه منفوخا لايقدر يضع جنبه على الأرض. وكم ممن تورم طحاله وتورم جنبه وتمكن فيه المغص والقولنج حتى تمنى طلوع روحه فلم تطلع .وكم ممن حصل له الإسهال المتواتر والزحير الدائم حتى صارت ثيابه وفرشه سائحة من البول والغائط وتمنى خادمه موته . وكم ممن حصل له مرض جرد الكلى حتى تورمت كلاه وصارت تنزل قطعا قطعا . وكم ممن دخل الحصى والرمل فى كلاه : وكم ممن تربت الحصاة فى مثانته وقضيبه حتى صار يصيح كالمطلقة كلما يبول وكل قليل يشقون ذكره ويستخرجونها منه كالزيتونة وهو يتلوى على فراشه كالثعبان . وكم ممن ابتلى بحرقة البول وتعقده أو إدراره أو تعسره حتى بال الدم وجمد فى مثانته . وكم ممن تورمت مقعدته أو نقبت أو طلع فيها خراجات أو بواسير أو نواصير أو شقاق حتى صار يحس ليلا ونهارا كأن دبره يشرح بسكين . وكم ممن ابتلى بالتوتة والأبنة . وكم ممن حصل له نشر العظم . وكم ممن طلع فى ذكره القروح والدمامل حتى تورم وصار كفخذ الرجل : وكم ممن تورمت أنثياه حتى صارت كالبطيخة أو كالزير العظيم حتى صارت مدلاة بين رجليه إلى قدمه

ولا يقدر يجلس على خلاء لوضوء ولا غيره وعدم لذة الجماع جملة واحدة . وكم ممن تعارضت عنده الأمراض ، فكل دواء ينفع هذا يضر هذا كالقولنج والفتق حتى صار يتمنى الموت فلا يجاب . وكم ممن ابتلى برمى الدم والقيح على الدوام حتى أنه يحس بقواه نفدت كلها فهو ميت فى صورة حى : وكم ممن ابتلى بالحب الفرنج وضربان المفاصل الحارة والباردة حتى صار لا يستلذ بأكل ولا بمنام . وكم ممن ابتلى بالنقرس حتى صار الدود يتناثر منه كرأس الكلب إذا دودت : وكم ممن ابتلى بعرق النسا وبأوجاع الوركين والركبتين وترهلت أوراكه وأعضاؤه ووجهه وأطرافه . وكم ممن ابتلى بوجع الظهر وبداء الفيل وبالكساح وبالفالج . وكم ممن ابتلى بالأكلة فى بدنه وبالحصباء والجرب والحكة والنملة والجمرة والبرص والبهق والجذام الذى قطع أطرافه . وكم ممن ابتلى بعمل الزغل أو بقتل قتيل أو الزنا بامرأة أو بسرقة فأمر الولاة بضربه مقارع وكسارات وحمى الطاسة الحديد ووضعها على رأسه أو عصر رأسه بجلد فيه نوى تمر حتى تخرج عيناه من أماكنها . وكم ممن أمروا بكسر عظام يديه ورجليه بقدوم على حجر . وكم ممن أسقوه جيرا وملحا حتى تسلخت أمعاؤه وتزلعت . وكم ممن أمروا بخوزقته أو شنكلته أو توسيطه أو سلخه أو شرخه بين نخلتين أو وضعه فى نقرة نحاس وأحموا تحته النار حتى نزل صديده ودمه من أبزازها . وكم ممن دقوا فى أصابعه البوص وأطلقوا فيها النار . وكم ممن حموا له كلبتين من حديد فى النار ثم يخلعوا بهما من لحمه وأطعموه له . وكم ممن حموا له مرودا من حديد حتى صار كالجمرة ثم دسوه فى قضيبه أو عينيه فأسالهما أو فجرهما فعمى . وكم ممن وقع فى النار أو الماء المغلى فذاب جلده وتزلع . وكم ممن طعن بحربة أو سكين أو ضرب بنشابة فجاءت فى عينيه أو أذنه فغارت وانتزع نصلها ولم يقدر أحد على إخراجها . وكم ممن شرب لبنا مسموما أو أكل طعاما مسموما فذاب لحمه . وكم ممن لسعته أفعى فعمى فى الحال وتقطع لحمه . وكم ممن أكل بطيخا ونام فجاء ثعبان فدخل نصفه فى حلقه فاستيقظ فوجد نفسه كذلك . وقس على ما ذكرناه مالم نذكره من سائر الآفات :

وفائدة ذكر هذه الأمور شكر الله تعالى على عدم ابتلائنا بها وأنه تعالى لا يبتلينا بها فى المستقبل إن شاء الله تعالى لالتجائنا إليه فاعلم ذلك ، وإياك أن تستبعد وقوعك فيما يقتضى هذه العقوبات والأمراض فان غاية أصحابها أنهم وقعوا فى حرام أو مكروه ، كم أوخت ياوقعى فى ذلك . وإياك أن تستبعد وقوعك وإن لم تقع فانت معرض للعقوبات

والأمراض وأسبابها مادمت فى هـذه الدار ، وجائز فى حقك أن تقتل النفس وتشرب الخمر وتزنى بحليلة جارك ولو كنت شيخا فى الطريق فالعاقل من خاف والسلام ، فتدبر يا أخى فى هذا العهد واعمل به تجتن ثمرته ، والله يتولى هداك .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يستحضر جميع هـذه الأمراض كلها كلما يقوم من النوم وكلما يريد النوم ويخبر أن ذلك كان من شأن سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه وكان يقول : ينبغى أن لا يكتفى أمثالنا بالشكر باللسان فى هذا الزمان لكثرة معاصينا وعدم إخلاصنا ، وإنما ينبغى أن يكون شكرنا بالفعل كقيام الليل وحفر الآبار وصوم الهواجر وكف النفس عن جميع الشهوات ونحو ذلك .

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الترمذى وقال حديث حسن وابن ماجه والبزار والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَقَالَ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى عَافَانِى مِمَّا ابْتَلَى هٰذَا بِهِ وَفَضَّلَنِى عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً لَمْ يُصِبْهُ ذٰلِكَ الْبَلَاءُ » .

وفى رواية للطبرانى « فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذٰلِكَ شَكَرَ تِلْكَ النِّعْمَةَ » وإسناده حسن.

قلت : فينبغى لمن دخل مارستان المرضى أن يقول ذلك سرا عند كل مريض ليعافيه الله من جميع تلك الأمراض ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نصبر على مصائب الزمان ، وإن لم نصبر صبرنا على عدم الصبر فإنه ابتلاء أيضا لما فيه من إظهار المروق من تحت الأقدار .

ويحتاج صاحب هذا المقام إلى عينين : عين ينظر بها إلى تقدير الضجر عليه فيصبر تحت الأقدار . وعين ينظر بها إلى الأمر بالصبر فيتصبر ، هذه صورة الصبر على عدم الصبر فافهم .

وكذلك نأمر بالصبر والتصبر جميع إخواننا إذا ابتلوا بشىء فى أنفسهم أو أموالهم نخبرهم بما جاء من الأحاديث فى فضل البلاء والمرض والحمى .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ ضرورة ليعلمه أدب المرض ويخبره بأنه ما مرض عضو من أعضاء البدن الظاهرة والباطنة إلا باستعماله فى غير ما أمر به إلا أن

يكون معصوما ، فمن عزف ما قلناه ووجعه عضو فليفتش نفسه، فإنه لابد أن يكون فعل به غير ما أمر فليعزم على التوبة النصوح فهى أقرب إلى شفاء ذلك العضو ، وقد أغفل هذا خلق كثير فلم يتنبهوا لما قلناه فدامت أمراضهم أو طال زمنها ، فكل عضو عليه زكاة ، فان أخرجها صاحبه منه فقد أخرج ما فيه من الخبث والمرض ، وإن لم يخرجها فلا بد له قبل دخوله الجنة من التطهير إما بالعفو عنه من باب رحمة الامتنان ، وإما بالتوبة والاستغفار ، وإما بالعذاب فى النار :

وقد قال لى شخص من العميان مقصودى أحد يفلى لى جبتى من القمل ، فلم أصغ إليه لا بنفسى ولا بغيرى فآخذنى الله تعالى بذلك ، وأطلع فى جفن عينى دملين نصارا ينضحان قيحا وصديدا مدة سبعة أشهر حتى أنهما أجمعت الحكماء على أنهما تلفا وذهب ضوءهما وما بقى ينفع فيهما دواء ، فألهمنى الله تعالى بتذكر ذلك الأعمى فتبت واستغفرت فخففت الألم من ذلك اليوم حتى استعجب الحكماء ، وقالوا هذا أمر ربانى ما للخلق فيه عمل :

وكذلك وقع لى فى سنة خمس وخمسين أن امرأة قالت لى اكتب لى للكاشف كتابا يخلص لى ولدى من الحبس ، فقلت لها ليس لى معرفة بالكاشف ، وتركت الكتابة لها فرمدت أكثر من شهر وضعف بصرى عن قراءة الخط الدقيق بعد أن كنت أقرأ الكتابة التى فى داخل القمر وأقرأ حروفها وأنا إلى وقتى هذا على ذلك الحال من ضعف البصر وكذلك القول فى الأذن إذا قال لك شخص اسمع لى حاجتى أو سورتى ، وكذلك القول فى الرجلين إذا قال لك إنسان امش معى خطوة اقض حاجتى ، وكذلك القول فى الفرج إذا حصل به فاحشة ، ونحو ذلك فلا تطمع فى معافاتك من البلاء وأنت تستعمل أعضاءك فى غير ماخلقت له أبدا بحسب مقامك فان العارفين ربما آخذ الله أحدهم بنظره إلى غيره بغير إذنه فان ذلك لايكون . ثم لا يخفى أن العارفين ربما كانت لهم مؤاخذات على ذنوب لم يؤاخذ بها غيرهم بحسب علو مقامهم :

وقد نظر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليلة إلى السماء فحصل فى قلبه قساوة ، فحكى ذلك لأمه فقالت : ياولدى لعلك نظرت إلى السماء على غير وجه الاعتبار ، والله تعالى ما أذن لك إلا فى نظر الاعتبار اه .

ونظر بعض المريدين إلى أمرد فاسود وجهه : وصار كقعر القدر حتى استغفر له

الجنيد فزال سواده ، وكم نظر غيره إلى مثل ذلك ولا يسود له وجه فاعلم ذلك ، وقد نبهتك على أمر ما أظنه طرق سمعك من غيرى قط فاشكرنى عند ربك واحفظ جوارحك إن أردت سلامتها من العاهات ، والله يتولى هداك .

وروى الإمام مسلم فى حديث مرفوعا : « الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ » .

قلت : ومعنى كونه ضياء أن صاحبه يحصل له نورانية فى قلبه بالمرض فيدرك الحق والباطل . وأما من لم يصبر فهو فى ظلمة يقع فى كل محظور ، وأما كون الصدقة برهانا فهى لكونها دليلا على أن صاحبها يوقى من الشح الذى فى نفسه ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا فى حديث طويل :

« وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » .

وروى الطبرانى والحاكم مرفوعا فى حديث طويل :

« الصَّبْرُ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ ، وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ » .

وروى مسلم مرفوعا : « عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « مَا ابْتَلَى اللهُ عَبْدًا بِبَلَاءٍ وَهُوَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَكْرَهُهَا إِلَّا جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ الْبَلَاءَ كَفَّارَةً وَطَهُورًا مَا لَمْ يُنْزِلْ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ فِي كَشْفِهِ » .

قلت: ويفهم من هذا الحديث أن من كان على طريقة يحبها الله تعالى وابتلى ببلاء فهو رفع درجات، والله تعالى أعلم.

وروى ابن ماجه وابن أبي الدنيا والترمذي وقال حسن صحيح عن سعد قال:

« قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتَلَاهُ اللهُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَلَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ ».

وفي رواية لابن حبان في صحيحه: « فَمَنْ ثَخُنَ دِينُهُ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَمَنْ ضَعُفَ دِينُهُ ضَعُفَ بَلَاؤُهُ ».

وروى ابن ماجه وابن أبي الدنيا والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا:

« إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ وَيُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً؟ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ: قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ الْعُلَمَاءُ. قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: الصَّالِحُونَ كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بِالْقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وَيُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَلْبَسُهَا، وَلَأَحَدُهُمْ كَانَ أَشَدَّ فَرَحًا بِالْبَلَاءِ مِنْ فَرَحِكُمْ بِالْعَطَاءِ. قَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ذَلِكَ لِمَا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ وَهُوَ يَتَوَعَّكُ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَوَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ الْقَطِيفَةِ فَقَالَ: مَا أَشَدَّ حُمَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ. إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ » الخ.

قلت: والمراد بالعلماء في الحديث العلماء بالله تعالى، وبأحكامه من حيث كونهم ورثة الأنبياء، والمراد بالصالحين من شارك العلماء في العمل وتخلف عنهم في درجة العلم كالعباد ونحوهم من المقلدين، والله تعالى أعلم.

وروى الترمذي وابن أبي الدنيا والطبراني مرفوعا:

« يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ ».

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « يُؤْتَى بِالشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ لِلْحِسَابِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُتَصَدِّقِ فَيُنْصَبُ لِلْحِسَابِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلاءِ ، فَلاَ يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلاَ يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ فَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا » الحديث .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أَوْ أَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلاَءَ صَبًّا وَسَحَّهُ عَلَيْهِ سَحًّا ، فَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ وَقَالَ : يَا رَبَّاهُ قَالَ : لَبَّيْكَ عَبْدِى فَلاَ تَسْأَلُنِى شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ ، إِمَّا أَنْ أُعَجِّلَهُ لَكَ ، وَإِمَّا أَنْ أَدَّخِرَهُ لَكَ » .

وروى مالك والبخارى مرفوعا : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » أى يوجه إليه مصيبة ويصيبه ببلاء .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات مرفوعا :

« إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ » .

وفى رواية لابن ماجه وغيره : « وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ » .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ فَلاَ يَزَالُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا » .

وفى رواية للإمام أحمد وأبو يعلى وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ فَلَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلٍ ابْتَلاَهُ اللهُ فِى جَسَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَٰلِكَ حَتَّى يُبَلِّغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِى سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ انْطَلِقُوا إِلَى عَبْدِى فَصُبُّوا عَلَيْهِ الْبَلاَءَ صَبًّا فَيَحْمَدُ اللهَ فَيَرْجِعُونَ فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا صَبَبْنَا عَلَيْهِ الْبَلاَءَ كَمَا أَمَرْتَنَا ؟ فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ » .

وفى رواية للطبرانى أيضا مرفوعا : « الْمُصِيبَةُ تُبَيِّضُ وَجْهَ صَاحِبِهَا يَوْمَ تَسْوَدُّ الْوُجُوهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » والنصب : التعب . والوصب : المرض .

وفى رواية لمسلم مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :
« مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » .

وَروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فِى مَالِهِ أَوْ فِى نَفْسِهِ فَكَتَمَهَا وَلَمْ يَشْكُهَا لِلنَّاسِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ » .

وروى ابن أبى الدنيا مرفوعا : « سَاعَاتُ الأَمْرَاضِ يُذْهِبْنَ سَاعَاتِ الْخَطَايَا . وَعَادَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَكَبَّ عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ مَا غَمَضْتُ مُنْذُ سَبْعٍ وَلاَ أَحَدٌ يَحْضُرُنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : أَيْ أَخِي اصْبِرْ تَخْرُجْ مِنْ ذُنُوبِكَ كَمَا دَخَلْتَ فِيهَا » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات إلا واحدا مرفوعا :
« إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا ابْتَلاَهُ اللهُ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ » .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :
« إِذَا اشْتَكَى الْمُؤْمِنُ أَخْلَصَهُ اللهُ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا يُخَلِّصُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » .

وروى ابن أبى الدنيا : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ سلمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَتُحِبُّونَ

أَنْ لاَ تَمْرَضُوا : قَالُوا ؟ وَاللهِ إِنَّا لَنُحِبُّ الْعَافِيَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ : وَمَا خَيْرُ أَحَدِكُمْ أَنْ لاَ يَذْكُرَهُ اللهُ ! » .

وفي رواية : « فَقَالَ أَتُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ ؟ » .

وروى الإمام أحمد ورواته ثقات مرفوعا :

« إِذَا ابْتَلَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ بِبَلاَءٍ فِي جَسَدِهِ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : لِلْمَلَكِ اكْتُبْ لَهُ صَالِحَ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ ، وَإِنْ شَفَاهُ غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ ، وَإِنْ قَبَضَهُ غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ » .

وروى ابن أبي الدنيا والطبراني والبزار مرفوعا :

« عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ وَجَزَعِهِ مِنَ السَّقَمِ ، وَلَوْ كَانَ يَعْلَمُ مَا لَهُ فِي السَّقَمِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ سَقِيماً الدَّهْرَ » .

وروى أبو يعلى ورواته ثقات مرفوعا والبزار :

« لاَ تَزَالُ الْمَلِيلَةُ وَالصُّدَاعُ بِالْعَبْدِ وَالْأَمَةِ ، وَإِنَّ عَلَيْهِمَا مِنَ الْخَطَايَا مِثْلَ أُحُدٍ ، فَمَا تَدَعُهُمَا وَعَلَيْهِمَا مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ » .

والمليلة : هي الحمى تكون في العظم .

وروى رزين العبدري مرفوعا : « يَقُولُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أُخْرِجُ عَبْدًا مِنَ الدُّنْيَا أُرِيدُ أَغْفِرُ لَه ، حَتَّى أَسْتَوْفِيَ كُلَّ خَطِيئَةٍ فِي عُنُقِهِ بِسَقَمٍ فِي بَدَنِهِ وَإِقْتَارٍ فِي رِزْقِهِ » .

وروى ابن أبي الدنيا ورواته ثقات مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ لَيُكَفِّرُ عَنِ الْمُؤْمِنِ خَطَايَاهُ كُلَّهَا بِحُمَّى لَيْلَةٍ » .

وفي رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ وَعِكَ لَيْلَةً فَصَبَرَ وَرَضِيَ بِهَا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وروى ابن أبي الدنيا والطبراني مرفوعا :

« الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، وَهِيَ نَصِيبُ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » .

وفى رواية للبزار بإسناد حسن مرفوعا :

« الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ » .

وروى البخارى والترمذى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ الْجَنَّةَ » يريد عينيه .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا سَلَبْتُ مِنْ عَبْدِي كَرِيمَتَيْهِ وَهُوَ بِهِمَا ضَنِينٌ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ إِذَا هُوَ حَمِدَنِي عَلَيْهَا » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « عَزِيزٌ عَلَى اللهِ أَنْ يَأْخُذَ كَرِيمَتَيْ مُؤْمِنٍ ثُمَّ يُدْخِلَهُ النَّارَ » قال يونس يعنى عينيه .

وروى البزار مرفوعا : « لَنْ يُبْتَلَى عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ ، وَلَنْ يُبْتَلَى عَبْدٌ بَعْدَ الشِّرْكِ بِاللهِ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَابِ بَصَرِهِ ، وَلَنْ يُبْتَلَى عَبْدٌ بِذَهَابِ بَصَرِهِ فَيَصْبِرُ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَذْهَبَ اللهُ بَصَرَهُ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ وَاجِبًا ، أَنْ لاَ تَرَى عَيْنَاهُ النَّارَ » .

قلت : ومعنى حقا على الله واجبا أى من حيث الوقوع بحكم عوائد فضل الله تعالى ، وليس المراد الوجوب الذى هو التحجير فإن الحق تعالى لايدخل تحت حد الواجب على عباده كما هو مقرر فى العقائد ، والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا : « عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: يَاجِبْرِيلُ مَا ثَوَابُ عَبْدِي إِذْ أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْهِ ؟ إِلاَّ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِي وَالْجِوَارَ فِي دَارِي » .

قال أنس : فلقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون حوله يريدون أن تذهب أبصارهم ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نتداوى بذكر

اسم الله عز وجل على موضع المرض والوجع ، ولا ندعو طبيبا إلا إذا لم يزل المرض بذكر اسم الله تعالى ، والعلة فى عدم زوال المرض بذكر اسم الله ضعف عقيدة المسمى لله عز وجل ، فلو قوى يقينه لاهتز الجبل العظيم عند ذكره اسم الله تعـالى ، كما وقع للفضيل بن عياض وسفيان الثورى حين طلعا جبل ثور : وقال الفضيل : إن من طاعة الله لعبده إذا أطاعه أن لو قال لهـذا الجبل تحرك لتحرك فتحرك الجبل ، فقال له الفضيل اسكن لم أرد تحريكك إنما ضربتك مثلا .

وكان شيخى الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى بمصر المحروسة إذا أقسم على شيء أن يتحرك تحرك .

ورأيته مرة قال للوح كان بعيدا عنه نحو ثلاثة أذرع أقسمت عليك بالله أن لاجئت فزحف اللوح وأنا أنظره حتى جاء إلى الشيخ .

فيحتاج من يريد للعمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حضرات التعظيم لله عز وجل لتنفعل الأشياء له بذكر اسم الله تعالى فإن الله عز وجل يعامل العبد بقدر ما عنده من تعظيمه :

وقد قال رجل لذى النون المصرى ياسيدى علمنى اسم الله الأعظم ، فقال له موبخا أرنى اسمه الأصغر حتى أعلمك الأكبر ثم قال للسائل : اعلم يا أخى أن أسماء الله كلها عظيمة فاصدق واطلب بها ما شئت يحصل .

وقد كان شخص من أولياء الله تعالى يبصق على اليد المقطوعة فيلصقها فلصق يد إنسان فقال بالله عليك تعلمنى ذلك فقال أقول بسم الله فقال ليس هذا هو فوقعت يده :

وقد كان معروف الكرخى يقول لأصحابه . إذا كان لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه به ولا تقسموا عليه به تعالى ، فقيل له فى ذلك فقال هؤلاء لايعرفون الله تعالى فلا يجيبهم ولو أنهم عرفوه لأجابهم اهـ .

وكذلك وقع لسيدى محمد الحنفى الشاذلى رحمه الله أنه كان يعدى من مصر إلى الروضة ماشيا على الماء هو وجماعته ، فكان يقول لهم قولوا ياحنفى وامشوا خلفى وإياكم أن تقولوا يا ألله تغرقوا ، فخالف شخص منهم وقال يا ألله فزلقت رجله فنزل إلى لحيته فى الماء ، فالتفت إليه الشيخ وقال : ياولدى إنك لا تعرف الله حتى تمشى باسمه تعالى على الماء فاصبر معى حتى أعرفك بعظمة الله تعالى ثم أسقط الوسائط :

واعلم يا أخى أن هذا الأمر لا يكون بالتفعل وإنما هو أمر يلقيه الله تعالى فى قلب عبده المؤمن فيملؤه تعظيما .

فاسلك يا أخى على يد شيخ حتى تعرف عظمة الله ثم بعدذلك ارق نفسك وغيرك باسمه تعالى وإلا فلا يزول المرض برقياك بأسماء الله تعالى من حيث نسبة الأمر إليك ، وإلا فقد يكون الإنسان مجاب الدعوة ويكون فى مدة المرض بقية فلا يجاب فما أثرت الرقى وعجلت الشفاء إلا فى حق من انتهت مدة مرضه فافهم ، كما أن العقاقير كذلك ما أثرت فى عبد حصول الشفاء إلا إذا انتهت مدة المرض ، ولذلك يستعمل تلك العقاقير أو الرقى شخص فلا يحصل له بها شفاء وذلك لكون مدة المرض ما انتهت ، ثم يجىء إنسان انتهت مدة مرضه فيستعملها فيبرأ فيقول ما رأيت أسرع فى شفاء المرض الفلانى من استعمال الشىء الفلانى ، وإنما السر فيه ما ذكرنا من انتهاء مدة المرض فكانت الرقى والعقاقير مخففة للمرض لا غير إما بالخاصية وإما بغير ذلك .

وكان سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمه الله يقول : لاتطلبوا التداوى بالحكيم إلا بعد أن لايحصل لكم الشفاء بالرقية وتعدمون الصبر ، وهناك تحتاجون للطبيب ضرورة لكن بشرط أن يكون من المسلمين ، لأن للحكيم مدخلا فى الشفاء بتوجهه إلى الله تعالى فى شفاء من يداويه ، ولا هكذا اليهود والنصارى فإنه عدو لله تعالى ولا يصلح أن يكون شافعا لنا عنده تعالى .

وهذا الأمر قد كثر فى الناس حتى العلماء والصالحين فصاروا يستعملون اليهود فى التداوى مع أنهم يقولون لا يجوز لمسلم التيمم بقول حكيم كافر له لا تستعمل الماء يزد مرضك ، ولو أنه تيمم بقوله فصلاته باطلة ، ولم يزالوا يقررون فى دروسهم للعلم أنه لايجوز لمسلم العمل بقول كافر فكيف يليق بعاقل أن يجعل واسطته فى الشفاء بينه وبين الله تعالى شخصا قد غضب الله عليه إما عاجلا وإما آجلا بالنظر للخاتمة ؟

فاياك يا أخى والتداوى باليهود فإنه نقض للعهود .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : فى التداوى بالمشركين دسيسة فى الدين ولا يتنبه لها المريض وهى أنه إذا حصل له الشفاء بما وصفه له موافقة قدر يصير يميل

إليه بالمحبة أمرا قهريا ويشكر فضله كلما رآه ويريد أن لا يعاديه كما أمره الله فلا يقدر قال : وتأمل قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) الآية .

تجده تعالى ما أخبر أنه عدونا إلا لعلمه تعالى وحده لنقص ديننا وإيماننا ، فقال وعدوكم حتى لا يبقى لنا عذر فى محبتهم اهـ وهو كلام نفيس .

وروى مالك والشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى عن عثمان بن أبى العاص :

« أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذ أَسْلَمَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ : بِسْمِ اللهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ أَوْ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ »

وفى رواية لمالك : « أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ » .

قال عثمان : ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بى ، فلم أزل آمر بها أهلى وغيرهم .

وفى رواية لأبى داوود والترمذى عن عثمان قال :

« أَتَانِى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَبِي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يُهْلِكُنِي ، فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : امْسَحْ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ شَكَا مِنْكُمْ شَيْئًا أَوِ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ : رَبُّنَا اللهُ الَّذِى فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ ، اغْفِرْ لَنَا حَوْبَنَا وَخَطَايَانَا ، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هٰذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأَ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « إِذَا اشْتَكَيْتَ فَضَعْ يَدَكَ حَيْثُ تَشْتَكِي ، ثُمَّ قُلْ بِسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ مِنْ وَجَعِي هٰذَا ؟ ثُمَّ ارْفَعْ يَدَكَ ، ثُمَّ أَعِدْ ذٰلِكَ وِتْرًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحتجم كلما حدث لنا مرض يثور به الدم ، فإن لم نحتجم فصدنا فى ذراعنا ونحو ذلك من العروق ، والحكمة فى ذلك أن الأوجاع سارية فى الدم مثل الدرات فى منى الحيوانات ، فاذا فصد الدم وخرج من الجسد خرج معه الألم ، ومتى لم يخرج الدم خبث ضرورة فى البدن واحتاج المريض إلى الأدوية المسهلة . فافصد ياأخى إذا ثار وجع برأسك أو رمد بعينيك ، افصد فى أرنبة أنفك ، فانى جربته لزوال الرمد فيخرج الدم الذى فى العين وتصفى لوقتها :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ » .

وفى رواية لأبى داود وابن ماجه مرفوعا :

« إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِمَّا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ خَيْرٌ فَالْحِجَامَةُ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الاسناد على شرطهما مرفوعا :

« أَنَّ جِبْرِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ الْحَجْمَ أَنْفَعُ مَا تَدَاوَى بِهِ النَّاسُ » .

وروى مالك بلاغا : « إِنْ كَانَ دَوَاءٌ يَبْلُغُ الدَّاءَ ، فَإِنَّ الْحِجَامَةَ تَبْلُغُهُ » .

وروى أبو داود وابن ماجه والترمذى عن سلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت :

« مَا كَانَ أَحَدٌ يَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعًا بِرَأْسِهِ إِلاَّ قَالَ احْتَجِمْ وَلاَ وَجَعًا بِرِجْلَيْهِ إِلاَّ قَالَ اخْضِبْهُمَا » .

وروى الترمذى وقال حديث مرفوعا :

« مَا مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِمَلَإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا لِي مُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ » .

وفى رواية للحاكم : « مَا مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِمَلَإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ كُلُّهُمْ يَقُولُوا ٧ يَا مُحَمَّدُ عَلَيْكَ بِالْحِجَامَةِ »

وروى الترمذى عن عكرمة قال كان لابن عباس أغيلمة ثلاثة حجامون ، فكان اثنان منهم يغلوان عليه وعلى أهله وواحد يحجمه ويحجم أهله . وقال قال ابن عباس قال نبي الله صلى الله عليه وسلم :

« نِعْمَ الْعَبْدُ الْحَجَّامُ يُذْهِبُ الدَّمَ وَيُخِفُّ الصُّلْبَ وَيَجْلُو عَنِ الْبَصَرِ » .

وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ خَيْرَ مَا تَحْتَجِمُونَ فِيهِ يَوْمَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، وَيَوْمَ تِسْعَ عَشْرَةَ ، وَيَوْمَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ » . وقال : « إِنَّ خَيْرَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ وَاللَّدُودُ وَالْحِجَامَةُ وَالْمَشْيُ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ لَدَّهُ الْعَبَّاسُ وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ مَنْ لَدَّنِي؟ فَكُلُّهُمْ أَمْسَكُوا فقَالَ : لاَ يَبْقَى أَحَدٌ مِمَّنْ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ لُدَّ غَيْرَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ » . قال النضر : اللدود الوجور .

وروى الترمذى وأبو داود عن أنس قال :

« كَانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ يَحْتَجِمُ فِي الْأَخْدَعَيْنِ وَالْكَاهِلِ ، وَكَانَ يَحْتَجِمُ لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ » .

والأخدع : عرق فى سالفة العنق. والكاهل : مابين الكتفين .

وروى الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وأبو داود مرفوعا :

« مَنِ احْتَجَمَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ كانَ لَهُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ » .

زاد فى رواية لأبى داود : « مَنِ احْتَجَمَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ كانَ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ » .

وروى رزين العبدرى قال الحافظ المنذرى ولم أرها فى الأصول :

« إِذَا وَافَقَ يومُ سَبْعَ عَشْرَةَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ كانَ دَوَاءَ السَّنَةِ لِمَنْ احْتَجَمَ فِيهِ » .

وفى رواية لأبى داود عن أبى بكرة أنه كان ينهى أهله عن الحجامة يوم الثلاثاء ويزعم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ يَوْمُ الدَّمِ وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يَرْقَأُ » .

وروى ابن ماجه عن ابن عمر أنه قال : يانافع تبيغ بى الدم فالتمس لى حجاما واجعله

رفيقا إن استطعت ولا تجعله شيخا ولا صبيا صغيرا ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« الْحِجَامَةُ عَلَى الرِّيقِ أَمْثَلُ ، وَفِيهَا شِفَاءٌ وَبَرَكَةٌ ، وَتَزِيدُ فِي الْعَقْلِ وَفِي الْحِفْظِ ، فَاحْتَجِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَاجْتَنِبُوا الْحِجَامَةَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَالْأَحَدِ تَحَرِّيًا ، وَاحْتَجِمُوا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاءِ فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِى عَافَى اللهُ أَيُّوبَ وَضَرَبَهُ بِالْبَلَاءِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَبْدُو جُذَامٌ وَلَا بَرَصٌ إِلَّا يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَلَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ » .

قلت : وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « يَوْمُ الْأَرْبِعَاءِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » .

وفى رواية له أخرى : « آخِرُ أَرْبِعَاءٍ فِي الشَّهْرِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » .

وقوله « تبيغ بى الدم » أى غلبنى حتى قهرنى ، وقيل هو الدم المتردد فى البدن مرة من هنا ، ومرة من هنا ، إذا لم يجد مخرجا وهو بمثناة فوقية مفتوحة ثم موحدة ثم مثناة تحتية مشددة ثم غين معجمة .

وروى أبو داود مرسلا : « مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ أَوْ يَوْمَ السَّبْتِ فَأَصَابَهُ وَضَحٌ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » والوضح : المراد به هنا البرص .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَاسْتَعِينُوا بِالْحِجَامَةِ لَا يَتَبَيَّغُ الدَّمُ بِأَحَدِكُمْ فَيَقْتُلُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) . أن نعود المرضى ونسألهم الدعاء امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم :

« عُودُوا الْمَرْضَى » .

ولا نعودهم لعلة أخرى من طلب ثواب أو مكافأة فانه ليس للعبد شيء حتى يطالب به الحق ولا يرى أنه كافأ أحدا عاده ولو تردد هو إليه ألف مرة اللهم إلا أن يطلب الثواب من باب الفضل والمنة لعلمه بأنه تعالى لايضيع أجر من أحسن عملا

أو يرى أنه كافأه صورة لا حقيقة فله ذلك ، لكن فى طلب الثواب دقيقة وهو أنه تعالى شرط فى كونه لا يضيع أجر عبده أن يحسن عمله . وأى عبد يدعى أنه أحسن عمله حتى يطلب الثواب فهضم العبد نفسه بين يدى الله عز وجل واجب . وجواب هذه المسألة من علوم الأسرار لايسطر فى كتاب .

وقد رأيت جماعة من الفقراء لايعودون مريضا إلا إن عرفوا من أنفسهم أن الله تعالى يجيبهم فى تخفيف ذلك المرض عن المريض أو فى نقله عنه إليهم ، أو إلى تماسيح البحر والوحوش المؤذية وإلا دعوا له فى أماكنهم من غير ذهاب إليه ؛ ويقولون دليلنا فى ذلك حديث :

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ جَمِيعُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » .

ونحن لا قدرة لنا على المشاركة فى البلاء ولا فى نقل المرض أو تخفيفه عنه فان أقدرنا الله تعالى عليه حضرنا عنده. ومثل هؤلاء يسلم لهم حالهم والعمل بالسنة المحمدية على الوجه المتعارف بين الناس أولى لأن منازع هؤلاء خفية وربما كسروا خاطر من لم يعودوه أو أدخلوا عليه هما أو حزنا بعدم عيادتهم له ، ويقول لو علموا إننى أعيش أتونى وعادونى وفى الحضور عند المريض من شرط العمل بحديث : « إذا دخلتم على مريض فنفسوا له فى الأجل فإنه أطيب لنفسه » اهـ. فطلب الشارع صلى الله عليه وسلم الحضور عند المريض من غير شرط وأمرنا بالتنفيس عنه كقولنا له : أنت طيب بخير وعافية لا تخف ، ولكن لا تغفل عن التوبة والاستغفار فان الله تعالى يقبل توبتك الآن لضعف الداعية إلى فعل ذلك الشيء الذى تتوب عنه . والقاعدة عند أهل الشريعة أن الميسور لايسقط بالمعسور فعلى ماشرطه هؤلاء الأشياخ بتقدير تحمل المرض وتخفيفه إذ تعسر التحمل لا يسقط الحضور ، كما قالوا إذا لم يحفظ شيئا من القرآن يقف بمقدار ماكان يقرأ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لمن يعود مريضا أن يكون متلطخا بذنب من الذنوب الظاهرة والباطنة ، فإن دعاء العصاة محجوب عن حضرة الإجابة ، بل الذى ينبغى أن يكون على طهارة ظاهرة وباطنة اهـ .

فعد يا أخى إخوانك امتثالا لأمر الشارع ولا تطلب منهم أن يكافئوك إذا مرضت

بل افرح ، إذا لم يعدك أحد فإن تلك الضعفة ربما تكون هى القاضية ولا أحد يكافئهم عنك :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وإذا صرت عالما أو شيخ زاوية فإياك أن تتكبر عن عيادة أحد من المسلمين ، بل عد المسلمين كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم محترفهم وأميرهم ، لكن بنية صالحة بحيث لا ترى لنفسك بذلك فضلا على أحد ممن عدتهم من فقراء المسلمين فتنظر إلى ضخامتك فى عيون الناس وحقارة ذلك الفقير ، فإن رأيت لنفسك فضلا على وجه الكبر أثمت وضللت عن السنة ضلالا مبينا ، وسيأتى فى الأحاديث تقييد حصول الثواب بكونه محتسبا ، والله أعلم .

وقد رأيت بعض المتنفسين يخص العوام بالزيارة والعيادة ويقول إنهم يحصل لهم جبر بخاطرهم بزيارتنا وعيادتنا لهم لضخامتنا فنبهته على نقص هذا المشهد فتاب إلى الله تعالى ، وأمرته بالأخذ عن شيخ يخرجه عن علل الأعمال فامتثل وحصل له خير كبير ، وصار يستغفر الله تعالى من جميع إخلاصه الذى كان يشهده قبل الاجتماع بأهل الطريق :

وَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ ، فَذَكَرَ مِنْهَا وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ » .

وفى حديث الترمذى والنسائى مرفوعا : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ ، فَذَكَرَ مِنْهَا وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ » .

وفى حديث مسلم مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى ، قَالَ يَا رَبِّ : كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ » الحديث.

وروى الإمامام أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عُودُوا الْمَرْضَى ، وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« خَمْسٌ مَنْ عَمِلَهُنَّ فِي يَوْمٍ كَتَبَهُ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : مَنْ عَادَ مَرِيضاً وَشَهِدَ جَنَازَةً وَصَامَ يَوْماً ، وَرَاحَ إِلَى الْجُمُعَةِ وَأَعْتَقَ رَقَبَةً » .

قلت : فإن تعذر على العبد عتق رقبة فليقل « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » عشر مرات ، فإنها تعدل عتق رقبة كما ورد ، والله تعالى أعلم .

وروى الترمذى وحسنه وابن ماجه واللفظ له وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ عَادَ مَرِيضاً نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً » ولفظ ابن حبان : « قَالَ اللهُ طِبْتَ » الخ

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَعَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ مُحْتَسِباً بُوعِدَ مِنْ جَهَنَّمَ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفاً » .

والخريف العام : كذا فسره أنس بن مالك .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِماً غُدْوَةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ » .

وفى رواية لابن ماجه : « إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ مَشَى فِي خُرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ » قاله ابن الأنبارى .

وخرافة الجنة : هو اجتناء ثمرها ، يقال خرفت النخلة أخرفها فشبه ما يحوزه عائد المريض من الثواب بما يحوزه المخترف من الثمر

قلت : زاد فى رواية عن الإمام أحمد والطبرانى . قال أنس : « يارسول الله هذا الأجرُ للصحيح الذى يعودُ المريض فما للمريض ؟ » قال :

« تُحَطُّ عَنْهُ ذُنُوبُهُ » اه .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ خَرَجَ عَنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وروى ابن ماجه ورواته ثقات مشهورون إلا أن فيه انقطاعا مرفوعا :

« إِذَا دَخَلْتَ عَلَى مَرِيضٍ فَمُرْهُ يَدْعُو لَكَ فَإِنَّ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ الْمَلاَئِكَةِ » .

قلت : ودعاء الملائكة لا يرد لعصمتهم وكذلك كل من ترك المعاصى جملة من البشر استجيب دعاؤه ، فلا يلومن من رد دعاؤه إلا نفسه فان الله تعالى مع العبد على حسب ما العبد معه عليه ، فإذا أمر الله تعالى العبد فلم يمتثل كذلك يدعوه فلم يستجب له .

(جَزَاءًا وِفَاقًا) والله أعلم .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « عُودُوا الْمَرْضَى وَمُرُوهُمْ فَلْيَدْعُوا لَكُمْ ، فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَرِيضِ مُسْتَجَابَةٌ وَذَنْبُهُ مَغْفُورٌ » يعنى بالمرض .

وفى رواية لابن أبى الدنيا مرفوعا :

« لاَ تُرَدُّ دَعْوَةُ الْمَرِيضِ حَتَّى يَبْرَأَ » .

يعنى ويعصى ربه فان لم يعص فلا مانع من قبول دعوته والله سبحانه وتعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ندعو للمريض بما ورد فى السنة ، وكذلك نأمر المريض أن يدعو كذلك بما ورد ولا نخترع دعاء من عند أنفسنا فنعطل ماورد فى السنة وذلك سوء أدب مع الشارع .

ورأيت فى كلام بعض العارفين أن من دعا بغير ماورد لا يستجيب الله دعاءه إلا إن كان مضطرا ، فإن دعا فى غير اضطرار فلا يستجاب له ، فقيل له إن الأحاديث جاءت مطلقة عن هذا القيد فقال يحمل المطلق على المقيد ولأى شىء يترك الإنسان ماورد من كلام أعرف الخلق بالله على الإطلاق وأكثرهم أدبا معه ويخترع هو دعاء قليل الأدب والنفع قليل المعانى اه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كان الحق تعالى يستجيب دعاء من دعاه بما ورد لأن ماورد من جملة الوحى ، والوحى صفة من صفات الله تعالى ، فكأن الصفة تخاطب موصوفها بخلاف غير الوحى اه .

فكلف خاطرك يا أخى واحفظ ماورد من الأحاديث فى الدعاء للمريض ومر المريض لتصير من أهل السنة فى ذلك والله تعالى أعلم .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى مرفوعا :

« مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ إِلاَّ عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَٰلِكَ الْمَرَضِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« مَنْ قَالَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ فَقَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا ، وَأَنَا أَكْبَرُ ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ قَالَ يَقُولُ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِى ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، قَالَ يَقُولُ اللهُ صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِى لاَ شَرِيكَ لِى ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ قَالَ يَقُولُ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا لِى الْمُلْكُ وَلِى الْحَمْدُ ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِى ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ صَدَّقَهُ كَذَٰلِكَ ، وَإِذَا قَالَ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ صَدَّقَهُ كَذَٰلِكَ ، وَكَانَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَقُولُ : مَنْ قَالَ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ فِى مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ » .

وروى ابن أبى الدنيا معضلا مرفوعا : « مَامِنْ مَرِيضٍ يَقُولُ : سُبْحَانَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الرَّحْمٰنُ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ مُسَكِّنُ الْعُرُوقِ الضَّارِبَةِ ، وَمُنَيِّمُ الْعُيُونِ السَّاهِرَةِ إِلاَّ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى مَرِيضٍ فَأْمُرُوهُ فَلْيَدْعُ لَكُمْ فَإِنَّهُ مُجَابُ الدَّعْوَةِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا كتبنا وصية فى المرض أن نعدل فيها ولا نضار بأحد من الورثة .

سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لأحد أن يوصى بدفنه فى مكان معين ، إلا إن أعطاه الله تعالى علم ذلك من طريق كشفه الصحيح الذى لا يدخله محو أن ذلك المكان الذى عينه هو الذى ذر على سرته منه يوم ولد ، وغرف الملك الذى ذره عليه :

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : أعرف موضع طينتى التى عجنت مع طينة أبى آدم عليه السلام ، ولم تزل روحى تشاهد ذلك المكان إلى وقتى هذا فقلت له سألتك بالله تعلمنى بمحلها فقال على يمين منزل الحاج ببدر قريبا من مسجد الغمام ، فلما حضرته الوفاة سافر إلى هنالك فدفن بها ، فكان الأمر كما قال ، وأخبرتنى والدته بعد موته أنه قال لها ليلة النصف من شعبان تلك السنة التى مات فيها إن ورقتى الليلة نزلت بموتى ودفنى فى بدر ، قالت فقلت إن ولدى ميت تلك السنة لأنى ما عهدت عليه قط كذبا فسافر تلك السنة إلى مكة وهو مريض ، فصار الناس يقولون له حج مثلك لا يجب ولا يستحب بالاجماع ، فيقول ما أنا مسافر للحج وإنما أسافر لقبرى ، فرض فى الذهاب ومات قبل بدر بمرحلة فحمل إلى بدر رضى الله عنه فمثل هذا هو الذى يوصى بالدفن بمكان معين .

وقد قال شخص لسيدى على الخواص مرة دستور نعمل لكم مدفنا ندفنكم فيه ؟ فقال نحن ليس لنا مع الله اختيار فى حال حياتنا فكيف يكون لنا معه اختيار بعد موتنا ولما مات وخرجنا مع جنازته للصلاة عليه فى جامع الحاكم بمصر ، وكانت السماء تمطر كأفواه القرب حال الصلاة عليه ، قلت لأخى أفضل الدين أى مكان تقولون يدفن؟ فقال فى زاوية الشيخ بركات خارج باب الفتوح فعارض فى دفنه هناك شرف الدين الصغير أكبر جماعة الديوان ، وقال لابد من دفنه فى تربتى بالقرب من الإمام الشافعى ، وساعده جماعات كثيرة وأخى أفضل الدين يقول لى : لا تتكلم لو كان معهم جن سليمان ما قدر أحد ينقله إلى القرافة فكان الأمر كما قال فخطف التابوت جماعة من الزعر والشطار وخرجوا به نحو باب الفتوح رضى الله عنه .

وكان سيدى على وأخى أفضل الدين يكرهان بناء القبة على القبر ووضع التابوت الخشب والستر عليه ونحو ذلك لآحاد الناس ، ويقولون هذا لا يليق إلا بالأنبياء ومن داناهم من الأولياء الأكابر ، وأما نحن فمقامنا الدفن تحت نعال الناس فى الشوارع .

ورأى أخى أفضل الدين مجذوبا طلع لنائب مصر وقال له ابن لى زاوية وقبة ، فقال

قدطاب الموت لكل عاقل إذا كان المجاذيب صاروا في هذا الزمان الخبيث يحبون للشهرة ويطلبون من الظلمة أن يعمروا لهم زاوية مع كونهم معدودين من الأولياء ، فكيف بأمثالنا الذين الفتنة إليهم أقرب من شراك نعلهم اه :

وكان سيدى محمد بن عنان وسيدى أبو العباس الغمرى وسيدى محمد المنير وغيرهم رضى الله عنهم يعتبون على الفقير إذا بنى له ضريحا ، أو عمل له مقصورة فى حياته ويقولون هذا كله من بقايا شهوات النفوس اه :

وأما الوصية بدعاء الناس إلى صلاة الجنازة فلا بأس للعبد أن يوصى إخوانه أن يدعوا إخوانهم فى جنازته بقصد تكثير الشافعين لكثرة ذنوبه لا لعلة أخرى نفسانية وإن كان مصلى الجنائز يضيق فى العادة عن جنازة مثله فليوص بالصلاة عليه فى محل واسع بقصد تخفيف التعب والزحمة على الناس لا لعلة أخرى ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ » .

وفى رواية : « ثَلَاثَ لَيَالٍ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » .

وكان ابن عمر يقول : ما مرت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندى وصيتى مكتوبة .

قلت : ومعنى قوله ماحق امرىء مسلم الخ . أى ليس له أن يبيت ليلتين أو ثلاثا إلا ووصيته مكتوبة بما له وبما عليه ، وهذا الأمر قليل فاعله ، فيستحى أصحاب المريض أن يقولوا له اوص خوفا عليه من الفزع وليس على بال المريض موت كما جرب ذلك وقالوا إن المريض يخاف الموت فى كل ضعفة إلا ضعفة الموت فيطول أمله فيها ، والنصح من الإيمان ، وشىء أمر به الشارع الذى هو أرحم بالإنسان من أمه لاعذر فى تركه لأحد مراعاة لخاطره ، وكم اشتغلت ذمم أموات بتركهم الوصية وحبسوا عن مقامهم الكريم حتى توفى عنهم ديونهم ، وربما شحت الورثة بذلك المال الذى على ميتهم فلم يوفوا عنه فيصير محبوسا فى البرزخ إلى يوم القيامة ، فالله ورسوله أحق بالطاعة من ذلك المريض الذى يخاف عليه الموت والله تعالى أعلم .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلِ اللهِ وَسُنَّةٍ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى تُقًى وَشَهَادَةٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ وَصِيَّةٍ فَنَفْسُهُ مَحْبُوسَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُوَفَّى عَنْهُ لِتَقْصِيرِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ » .

وروى أبو يعلى باسناد حسن عن أنس قال :

« كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ . يَا رَسُولَ اللهِ مَاتَ فُلَانٌ قَالَ : أَلَيْسَ كَانَ مَعَنَا آنِفًا ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ كَأَنَّهَا أَخْذَةُ غَضَبٍ ، المَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّةً » .

وروى الطبرانى عن ابن عباس قال: ترك الوصية عار فى الدنيا ونار وشنار فى الآخرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا دخلنا على من حضره الموت أن نحببه فى لقاء الله تعالى ونقول له ، يافرحك قرب قدومك على أرحم الراحمين ، وعلى من هو أرحم بك من والدتك ، ونقول له هذا مصير الأولين والآخرين ما ترى من الله إلا مايسرك فإذا صغى لقولنا ومات على ذلك أحب تعجيل اللقاء ضرورة فأحب الله لقاءه ونقول له ألك على أحد حق أو لأحد عليك حق لنبنى عليه مقتضاه ؟ ونعرّض له بالعفو عن جميع الناس الذين آذوه فى دار الدنيا ليعفو الله تعالى عنه ، وإذا رأينا أسارير جبهته اصفرت ونارت وتحول فى جبهته دارة فذلك علامة السعادة ، فإذا رأيناه قد علا عليه قتر وسواد وزرقة فذلك علامة الشقاء ، فإن غلب على ظننا قبول شفاعتنا فيه شفعنا فيه ومكثنا عنده حتى يحوّل الله الأمر ، وإن لم يلق الله تعالى فى قلبنا أنه يقبل شفاعتنا فيه فارقناه مع السكوت ، ورد الأمر فيه إلى الله تعالى ، ثم لا ينبغى لأحد منا بعد ذلك أن يضحك ولا ينبسط فى مأكل ولا غيره حتى يموت بعد أن شاهدنا من كان يصلى ويصوم ويحج معنا قد ختم له بسوء ، فوالله إن أحوالنا تشبه أحوال البهائم السارحة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

واعلم يا أخى أنه قد يقع لبعض الأولياء أنه ينطق بموسى أو عيسى عند طلوع روحه فيظن به أنه ختم له باليهودية أو النصرانية وليس كذلك ، وإنما ينطق بذلك لكونه وارثا له فى المقام فكأنه يشير إلى الحاضرين ، أن كل من كان متعلقا بنبى أو رسول أو ولى فلا

بد أن يحضره ويأخذ بيده فى الشدائد ، فليس ثم أعلى مقاما ممن يذكر محمدا رسول الله عند الموت ، فإن من كان وارثا له حاز إرث جميع الأنبياء فيستغنى بذكر محمد صلى الله عليه وسلم عن الجميع :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا كَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ، قَالَ : لَيْسَ ذَلِكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » .

وتقدم فى حديث ابن أبى الدنيا مرفوعا :

« اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَعَلِمَ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَقْلِلْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَعَجِّلْ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي وَلَمْ يُصَدِّقْنِي وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَلَا تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ ، وَلَا تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ وَأَكْثِرْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا » .

وفى رواية لابن ماجه : « فَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَطِلْ عُمْرَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا مات لنا ميت أن نكثر من حمد الله ومن قول :

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

امتثالا لأمر الشارع فى ذلك ، فعلم أنه لا ينبغى لعالم أو صالح أن يقول واولداه واذراعاه ونحو ذلك من الألفاظ التى لو جلس يقولها إلى أن تقوم الساعة لا يكتب له بها حسنة ولا يخفف عنه ما فى قلبه من النار التى يحس بها والد الميت أو أمه فيه ، كأن جسده قد حشى جمرا .

فاتبع يا أخى السنة المحمدية فى كل قول وفعل والله يتولى هداك .

وقد بسطنا الكلام على هـذا العهد فى عهد موت الأولاد من عهود المشايخ والله تعالى أعلم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوِ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقُلْتُ : يَا رَسولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ ، قَالَ فَقُولِي : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَى حَسَنَةً فَقُلْتُ ذَلِكَ ، فَأَعْقَبَنِي اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ مُحَمَّدٌ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ » .

وقوله المريض أو الميت هو خاص برواية مسلم وليس فى رواية غيره شك .

وفى رواية لمسلم وأبى داود وغيرهما عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ أَجَرَهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَهُ خَيْرًا مِنْهَا » .

قالت فلما مات أبو سلمة قلت أى الناس خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لى خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولفظ رواية الترمذى مرفوعا : « إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي فَأْجُرْنِي بِهَا وَأَبْدِلْنِي خَيْرًا مِنْهَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ جَبَرَ اللهُ مُصِيبَتَهُ وَأَحْسَنَ عُقْبَاهُ وَجَعَلَ لَهُ خَلَفًا يَرْضَاهُ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « أُعْطِيتُ أُمَّتِي شَيْئًا لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ قَوْلُهُمْ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَأَحْدَثَ اسْتِرْجَاعًا وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُهُ يَوْمَ أُصِيبَ » .

وروى الترمذى وحسنه وابن ماجه فى صحيحه مرفوعا :

« إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ فَحَمِدَ اللهَ وَاسْتَرْجَعَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ابْنُوا لِعَبْدِى بَيْتًا فِى الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ » والله أعلم .

قلت : وفى هذا الحديث استئناس لمن قال إن مساكن الجنة لا تخلق إلا بعد وجود المكلف وعمله بما أمره الله به وأن قوله تعالى ·

(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

المراد به أعدت لهم قبل دخولها وكذلك يؤيده حديث :

« غِرَاسُ الجَنَّةِ سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلهِ وَلاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ » .

ومن فعل كذا بنى الله له بيتا فى الجنة ، وإن كان مذهب أهل السنة والجماعة غير ذلك ، وهو أنها بنيت وفرغ من بنائها كما هو مقرر فى كتب العقائد والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى تغسيل الموتى وتكفينهم وفى حفرهم القبور ، وإذا قالوا مانعرف نغسل أو نكفن أو نحفر علمناهم كيفية ذلك على حسب ما ورد فى السنة ، ونكتم على الميت مانراه عليه من السوء :

وهذا العهد ينبغى لكل مسلم أن يتعلمه مبادرة لاغتنام الأجر وتوفرة الغرامة للفلوس لا سيما الفقراء المجاورون فى المساجد والزوايا ، فإنه إذا لم يكن أحد منهم يعرف يغسل ولا يكفن يصير الميت معوقا ، حتى يأتوا بشخص من موضع بعيد بأجرة أو بغير أجرة وربما تغيرت رائحة الميت بالتأخير ، ولو أن أحدا منهم تعلم كيفية ذلك لما حملوا منة رجل غريب : ثم الذى ينبغى لأغنياء المسلمين إذا مات فى حارتهم فقير أن يكفنوه احتسابا لوجه الله تعالى ، ويقبح عليهم أن يردوا فقيرا وأن يروا فقراء يتحملون الدين لأجل كفن ذلك الفقير ، وكذلك ينبغى لشيخ الزاوية أو للعالم الذى فى الحارة أن يكفن ذلك الفقير من ماله الزائد على قوت يوم وليلة ولو أنه يبيع ثوبه أو عمامته المستغنى عنه ويقبح على شيخ الزاوية الذى يصطاد الدنيا بفقرائها أن يرى فقيرا عنده محتاجا إلى الكفن وهو يتلاهى عنه وعنده وعليه الثياب الفاخرة والمال ، وأف على لحيته ثم أف .

وقد كان أخى العبد الصالح الشيخ عبد القادر شقيقى رحمه الله يغسل الموتى ببلاد الريف ويكفنهم من عنده على ذمة الله تعالى، ويوفى ثمن ذلك للبزازين شيئا فشيئا إلى أن يوفى لهم الثمن ، وماقال لأهل ميت فى بلدة قط هل عندكم كفن أم لا ؟ ويقول :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ) .

لا لغيرها ، وكان إذا أحسن إليه أحد بشىء يقول فلان من المحسنين لأنفسهم ، وما قال قط فلان من المحسنين لى ، ويقول قد يكون صاحب تلك الحسنة يحب عدم إظهارها وكان يقول من شرط المؤمن أن يكون كل شىء دخل فى يده من الدنيا على اسم المحاويج من نفسه أو من غيره والملك فى ذلك كله لله والمنة له على العباد لا لنا .

وقال له مرة ولده اشتر لنا بقرة نأكل لبنها أو ثورا نحرث عليه أو حمارة نركبها ، فقال له ياولدى انظر بهائم بلدنا إذا رجعت كلها من المرعى آخر النهار فإنها لو كانت كلها فى دارى ما رأيت نفسى أحق من المسلمين بشعرة منها ، فلا فرق ياولدى بين أن تكون هذه البهائم كلها فى دارى أو عند الناس كلها سواء إنما هى أوهام تقوم فى مخيلات الخلق لشهودهم الملك لهم فيها مع غفلتهم عن الله تعالى .

وقد كان أخى هذا فقيها من فقهاء الريف رضى الله تعالى عنه ، وقد حلف لى بعض الإخوان بالله العظيم ثم بالطلاق الثلاث أنه لو وضع جميع مشايخ الزوايا بمصر فى كفة والشيخ عبد القادر هذا فى كفة لرجح بالجميع ، فبهدى هذا الأخ يا أخى اقتده وكفن يا أخى الموتى وغسلهم واحفر لهم ولو بأجرة أو هدية والله يتولى هداك .

وروى الطبرانى ورواته محتج بهم فى الصحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« مَنْ غَسَّلَ مَيِّتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ غفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبعِينَ كَبِيرَةً ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ قَبْرًا حَتَّى يَسْتُرَهُ أَوْ يُوَارِيَهُ فَكَأَنَّمَا أَسْكَنَهُ مَسْكَنًا حَتَّى يُبْعَثَ » .

وفى رواية لمسلم : « مَنْ غَسَّلَ مُسْلِمًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَمَنْ كَفَّنَ مَيِّتًا كَسَاهُ اللهُ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقِ الْجَنَّةِ » الحديث .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ حَفَرَ قَبْرًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ

غَسَّلَ مَيِّتًا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، وَمَنْ كَفَّنَ مَيِّتًا كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ » الحديث .

وفى رواية له أيضا : « مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ طَهَّرَهُ اللهُ مِنْ ذُنُوبِهِ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا وَكَفَّنَهُ وَحَنَّطَهُ وَحَمَلَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَلَمْ يَفْشِ عَلَيْهِ مَا رَأَى خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وروى الحاكم وقال رواته ثقات مرفوعا :

« زُرِ الْقُبُورَ تَذَكَّرْ بِهَا الآخِرَةَ وَاغْسِلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ يَتَعَرَّضُ فِي كُلِّ خَيْرٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نشيع موتى المسلمين ونحضر دفنهم ولا نرجع من غير حضور الدفن إلا لأمر أهم منه شرعا ، امتثالا لأمر الشارع وقياما بواجب حق أخينا المسلم فى الصلاة عليه وحضور دفنه ، وقياما بواجب حق أهله ومراعاة لخاطرهم فإنه مطلوب .

وقد سئل الحسن البصرى عمن يحضر الجنازة مراعاة لخاطر أهلها هل يقدح ذلك فى الإخلاص ؟ فقال لا ، كلا الأمرين مطلوب اهـ .

ويتعين ذلك على كبير الحارة لكونه إذا حضر حضرت الناس ، فيكون له إن شاء الله تعالى مثل ثواب من حضر بحضوره قياسا على ماورد فى المؤذن :

« إِنَّهُ يُعْطَى مِثْلَ ثَوَابِ مَنْ حَضَرَ إِلَى الصَّلَاةِ بِأَذَانِهِ » .

وينبغى لعالم الحارة أو شيخ الفقراء فى الحارة أن يعلم من يريد المشى مع الجنازة آداب المشى معها ، من عدم اللغو فيها ، وذكر من تولى وعزل من الولاة أو سافر ورجع من التجار ونحو ذلك ، فإن ذكر الدنيا فى ذلك المحل ماله محل. ومما جرب أن كثرة الكلام اللغو تميت القلب وإذا مات القلب فى طريق الجنازة شفعوا فى الميت بقلوب ميتة فلا يستجاب لهم فأخطأ من لغا فى طريق الجنازة فى حق نفسه وفى حق الميت :

وقد كان السلف الصالح لا يتكلمون فى الجنازة إلا بما ورد وكان الغريب لا يعرف من هو قريب الميت حتى يعزيه لغلبة الحزن على الحاضرين كلهم .

وكان سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول إذا علم من الماشين مع الجنازة أنهم لا يتركون اللغو فى الجنازة ويشتغلون بأحوال الدنيا فينبغى أن نأمرهم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن ذلك أفضل من تركه ، ولا ينبغى لفقيه أن ينكر ذلك إلا بنص أو إجماع فإن مع المسلمين الإذن العام من الشارع بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وقت شاءوا ، ويالله للعجب من عمى قلب من ينكر مثل هذا وربما غرم عند الحكام الفلوس حتى يبطل قول المؤمنين لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق الجنازة ، وهو يرى الحشيش يباع فلا يكلف خاطره أن يقول للحشاش حرام عليك ، بل رأيت منهم فقيها يأخذ معلوم إمامته من فلوس بائع الحشيش والبرش :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم مرفوعا :

« حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ فَذَكَرَ مِنْهَا وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ » .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا » . وكان يقول : « لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ فذكر منها وَيَتْبَعُهُ إِذَا مَاتَ » زاد فى رواية : « فَمَنْ تَرَكَ خَصْلَةً مِنْهَا فَقَدْ تَرَكَ حَقًّا وَاجِبًا » .

وروى الإمام أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« عُودُوا الْمَرْضَى وَاتْبَعُوا الْجَنَائِزَ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ ، قِيلَ وَمَا الْقِيرَاطَانِ ؟ قَالَ : مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ » .

وفى رواية للبخارى : « وَمَنْ تَبِعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى

يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ » .

وروى مسلم مرفوعا : « مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِهَا وَصَلَّى عَلَيْهَا وَاتَّبَعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ مِنَ الْأَجْرِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ كَانَ لَهُ قِيرَاطٌ مِثْلَ أُحُدٍ » .

وروى البزار ورواته ثقات رواة الصحيح موقوفا :

« مَنْ أَتَى جَنَازَةً فِي أَهْلِهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، فَإِنْ تَبِعَهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، فَإِنْ صَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، فَإِنِ انْتَظَرَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطٌ » .

وروى البزار مرفوعا : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُجَازَى بِهِ الْعَبْدُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنْ يُغْفَرَ لِجَمِيعِ مَنْ تَبِعَ جَنَازَتَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا فى أن يدعوا معارفهم إلى حضور جنازة من مات لهم ، وفى تعزية أهل الميت طلبا لحصول كثرة الأجر للميت وللمصلين وللمعزين لأهله .

واعلم يا أخى أن الله تعالى ما ندبنا للصلاة على الميت إلا وهو يريد منا قبول شفاعتنا فيه ، فله الفضل والثناء الحسن .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لفقيه أن يبادر الامامة على جنازة إلا إن كان يعلم من نفسه أنه ليس عليه ذنب ، فإن شرط الشافع فى غيره أن يكون مغفورا له فإن قدموه وعزموا عليه تقدم وهو مستح من الله خجلان وصلى بالناس :

وكان الحسن البصرى يقول : أدركنا الناس وهم يرون الأحق بالصلاة على جنائزهم من رضوه لفرائضهم :

فـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وروى مسلم والترمذى والنسائى مرفوعا : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ » .

وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه مرفوعا :

« مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئاً إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ » .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يؤخر الجنازة حتى يبلغ المصلون أربعين رجلا لهذا الحديث .

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ » فسئل أبو المليح عن الأمة فقال أربعون .

وفى رواية لأبى داود واللفظ له وابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيُصَلِّى عَلَيْهِ ثَلاَثَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ أَوْجَبَ » يعنى وجبت له الجنة .

وكان الإمام مالك إذا استقل أهل الجنازة جزأهم ثلاثة صفوف لهذا الحديث .

وروى الترمذى مرفوعا : « مَنْ عَزَّى مُصَاباً فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ صَاحِبِهِ » .

وفى رواية له : « وَمَنْ عَزَّى ثَكْلَى كُسِىَ بِرِدَاءٍ فِى الْجَنَّةِ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّى أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلاَّ كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقتنى كلبا إلا لصيد أو ماشية أو حراسة دارنا من اللصوص ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة ، وذلك لأسرار يعرفها من كان حاضرا عند صدور العالم من الغيب إلى الشهادة ، وأطلعه الله تعالى على ما انطوى عليه الكلاب من الصفات ، ويعرف ما استند إليه من قال بنجاسته ، ومن قال بطهارته من الأئمة المجتهدين والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنِ اقْتَنَى كَلْباً إِلاَّ كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ » .

وفى رواية : « يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ » .

وفى رواية لمسلم : « أَيُّمَا أَهْلِ دَارٍ اتَّخَذُوا كَلْبًا إِلاَّ كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ كَلْبَ صَيْدٍ نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِمْ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « مَنْ أَمْسَكَ كَلْبًا فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ إِلاَّ كَلْبَ حَرْثٍ أَوْ مَاشِيَةٍ » .

وروى الترمذى وابن ماجه واللفظ للترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« لَوْلاَ أَنَّ الْكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا ، فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ » .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ أَنْ يَأْتِيَهُ فِي سَاعَةٍ فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ فَرَأَى صلى اللهُ عليه وسلم جَرْوَ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ فَقَالَ أَخْرِجُوهُ فَأُخْرِجَ فَدَخَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأْتِنِي ؟ فَقَالَ مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ ، إِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ » .

وروى أبو داود أن ذلك الجرو كان للحسين أو الحسن رضى الله عنهما ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانسافر سفرا قصيرا فضلا عن الطويل إلا مع رجلين فأ كثر .

ومن فوائد ذلك ما إذا عرض لنا عارض من مرض أو وقوع من على دابة فواحد يجلس عندنا وواحد يبلغ الناس خبرنا أو يأتينا بما احتجنا إليه لذلك العارض من سكر أو مبلول أو جبيرة ونحو ذلك .

ومن فوائد ذلك أيضا الأنس بالرفيق لأهل حضرة المراقبة لله عز وجل ، فإن شهود العبد أن الله يراه له هيبة عظيمة فافهم ، وما نهانا الشارع صلى الله عليه وسلم عن فعل شىء قط إلا لحكمة بالغة ، وفى كلام القوم : خذ الرفيق قبل الطريق :

(وَاللهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

وقد روى البخارى والترمذى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« لَوْ أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الْوِحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ » .

وروى الامام أحمد بسند صحيح : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لَعَنَ رَاكِبَ الْفَلَاةِ وَحْدَهُ » .

قلت : ويؤيد ذلك حديث : « يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ » .

أى تأييده . ومن حرم التأييد من الله فقد لعن أى أبعد عن أهل حضرته بإسدال الحجاب بينه وبين حضرة الله عز وجل ، وإلا فمن لايتحرك إلا إن حركه الله عز وجل أين طرده فافهم ، والله تعالى أعلم .

وروى مالك وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة والحاكم وصححه مرفوعا :

« الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ » .

والدليل على أن مادون الثلاثة من المسافرين عصاة هذا الحديث ، ومعنى الشيطان هذا العاصى كقوله تعالى :

(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) .

معناه عصاة الإنس والجن ، وبوب عليه ابن خزيمة باب النهى عن سفر الاثنين والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمكن امرأة من حلائلنا تسافر وحدها بغير محرم أو نسوة ثقات ، وكذلك لا نمكنها تخرج لزيارة فى حارة قليلة الناس أو فيها من يخشى منه من الجند والعياق إلا مع محرم ، وهذا العهد يخل بالعمل به كثير من المغفلين ، فربما أمسكوا زوجته فزنوا بها وهتكوها فيصير زوجها فى حيرة بين فراقها وبين الإقامة معها ، ومثل حلائلنا فى ذلك أولادنا المرد فلا نمكنهم قط من الخروج لمواضع التنزهات وغيرها إلا مع من يوثق به لاسيما إن كان أحدهم جميل الصورة .

وقد كان سيدى محمد بن عراق لا يمكن ولده سيدى عليا أن يخرج إلى السوق حين كان أمرد إلا ببرقع خوفا عليه من السوء وخوفا على الناس من الفتنة رضى الله عنهما ،

وما رأيت فى عصرنا هذا أكثر غيرة على عياله من سيدى الشيخ أبى الفضل بن أبى الوفا رضى الله عنه وعن جميع ساداته ، كان إذا طلب العيال الحمام ينزلهم بالليل فى زورق من الروضة إلى مصر العتيقة ، ويقذف بهم وحده ثم يطلع بهم إلى الحمام فيدخله قبلهم ويفتش جميع عطفه من المستوقد والسطوح ثم يخرج من يكون هناك ويغلق باب الحمام ويجلس على بابه حتى يقضين حاجتهن ثم يردهن كذلك إلى المركب ويطلع بهن إلى البيت ليلا رضى الله عنه .

ويليه فى ذلك سيدى الشيخ أبو السعود ابن سيدى مدين رضى الله عنه ، كان لا يمكن أحدا مطلقا من دخول بيته لا فى مرض ولا غيره .

ويليه فى ذلك الأمير الصالح محيي الدين بن أبى أصبغ ، رأيته يفعل فى دخول الحمام كما كان يفعل سيدى الشيخ أبو الفضل السابق ، ورأيته إذا احتاج عياله إلى الفصد لا يستعمل إلا الجرائحى الذى طعن فى السن فهؤلاء الثلاثة الذين اطلعت على ضبطهم لعيالهم هذا الضبط فجزاهم الله عن ذلك خيرا آمين .

وليس ذلك من باب سوء الظن بالعيال أو بالأجانب وإنما هو تنزه عن مواضع الريبة فيعاملهم معاملة من يسيء الظن من غير سوء ظن فافهم ، فإن الكمل لا يراعون جانبا دون جانب فكان فى ذلك الفعل مراعاة الجانبين . وممن اطلعت عليها من النساء تخاف على رؤية شخصها وهى فى الإزار وتستحى أن يراها أحد وهى خارجة من الخلاء زوجتى فاطمة أم عبد الرحمن رضى الله عنها سافرت بها إلى الحجاز ثلاث مرات ، فما أظن أن العكام رأى لها خجا قط من حين خرجت من بيتها إلى أن دخلت مكة المشرفة ثم رجعت إلى بيتها ، وكانت تركب فى مثل العقبات فوق ظهر القتب داخل الحمل المغطى ونزل نساء الأكابر كلهم فى نزول العقبة وطلوعها وهى لم تنزل وما شعرت قط بقضاء حاجتها إلا فى المحطات ولا فى حال السير رضى الله عنها ، ولم تركب قط حمارا وقالت لا أستطيع أن يرانى أحد حتى الكحال عجزت فيها أنه يرى عينها فلم أقدر عليها ورضيت بالوجع وصبرت حتى زال الرمد وضاق ميق عينها اليسرى عن العين اليمنى إلى الآن ، فهذا أمر رأيته منها ولم يبلغنى وقوع ذلك لأحد من عيال إخواننا ، فالحمد لله رب العالمين على ذلك .

وقد روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ سَفَرًا يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَصَاعِدًا إِلَّا وَمَعَهَا أَبُوهَا أَوْ أَخُوهَا أَوْ زَوْجُهَا أَوْ ذُو مُحْرَمٍ مِنْهَا » .

وفى رواية للشيخين : « لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ يَوْمَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ مِنْهَا أَوْ زَوْجُهَا » .

وفى رواية للشيخين ومالك وغيرهم مرفوعا : « لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَا » .

وفى رواية أخرى لهم : « مَسِيرَةَ يَوْمٍ » .

وفى أخرى لهم : « مَسِيرَةَ لَيْلَةٍ » .

وفى رواية لهم ولأبى داود وابن خزيمة : « أَنْ تُسَافِرَ بَرِيداً » .

قلت : ولعل اختلاف هذه الروايات إنما هو من حيث أمن الطريق وعدمه، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانستصحب كلبا أو جرسا فى سفر أو غيره .

وهذا العهد يخل بالعمل به كثير من طلبة العلم الذين يسافرون الحجاز والشام ونحوهما فيقرون الجمال على وضع الجرس فى أعناق الجمال وأرجلها مع قدرتهم على إزالة ذلك ، ولو أنهم قالوا للجمال إن لم تقطع هذا الجرس ماسافرنا معك لقطعه اغتناما للأجرة ، وقد رأيت كلبا سافر مع صاحبه إلى مكة فذكرت له الحديث فى ذلك فقال لى فقير دعه فإنه قد يكون من الجن فسكت عنه :

(وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« لَاتَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ » .

زاد فى رواية لأبى داود « وَلَا جِلْدَ نَمِرٍ » .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « الْجَرَسُ مَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ » .

وروى النسائى مرفوعا : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جَرَسٌ » .

ولفظ ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « إِنَّ الْعِيرَ الَّتِى فِيهَا الْجَرَسُ لَا تَصْحَبُهَا الْمَلَائِكَةُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ أَمَرَ بِالْأَجْرَاسِ أَنْ تُقْطَعَ مِنْ أَعْنَاقِ الْإِبِلِ يَوْمَ بَدْرٍ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « مَعَ كُلِّ جَرَسٍ شَيْطَانٌ » .

وروى النسائى مرفوعا : « لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا جُلْجُلٌ » .

وكان ابن عمر يحدث بهذا ويقول كم نرى فى الركب من جلجل ؟ والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسافر أول الليل ولا نعرس فى الطريق ، ولا نفترق عن أصحابنا فى المنازل إلا لضرورة أخرى أشد مما ذكرناه وإذا كان أمير الركب جاهلا فينبغى تعليمه ذلك ثم إن خالف فلا لوم على الناس وإنما اللوم عليه وحده .

وفى نهى الشارع لنا عن ذلك عدة مصالح يعرفها أهل الله عز وجل لا تسطر فى كتاب يدركها من عرف تجليات الحق تعالى فى الليل ، ولو كشف لمن يسافر أول الليل الحجاب لذاب كما يذوب الرصاص ونظيره من يطوف بالكعبة ليلا كما قاله بعضهم :

(وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وروى مسلم وأبو داود والحاكم مرفوعا : « لَا تُرْسِلُوا مَوَاشِيَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعْبَثُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ » .

ولفظ رواية الحاكم : « احْبِسُوا صِبْيَانَكُمْ حَتَّى تَذْهَبَ فَزْعَةُ الْعِشَاءِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تَنْتَشِرُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ » .

وفى رواية لأبى داود وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« أَقِلُّوا الْخُرُوجَ إِذَا هَدَأَتِ الرِّجْلُ فَإِنَّ اللهَ يَبُثُّ فى لَيْلِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَاشَاءَ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« إِذَا عَرَّسْتُمْ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا طَرِيقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ » .

وفى رواية لابن ماجه : « إِيَّاكُمْ وَالتَّعْرِيسَ عَلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ وَالسِّبَاعِ وَاجْتَنِبُوا قَضَاءَ الْحَاجَةِ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا الْمَلَاعِنُ » .

قال الحافظ المنذرى ، والتعريس هو نزول المسافر آخر الليل ليستريح .

وروى أبو داد والنسائى مرفوعا : « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا إِذَا نَزَلُوا تَفَرَّقُوا فى الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ إِنمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ » .

قال أبو ثعلبة الخشنى رضى الله عنه فلم ينزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نهتم بتحصيل الدنيا كل الاهتمام ولا نقبل عليها كل الإقبال وإنما يكون ذلك بقدر الضرورة لا غير .

وهذا العهد لا يقدر على العمل به إلا من سلك على يد شيخ ناصح وسافر به حتى أشرف على شهود دار البقاء بعين بصيرته ، ونظر مافيها من النعيم المقيم والمعيشة الواسعة الهنيئة حتى كأنها رأى العين ، وهناك يزهد فى دار الفناء .

وإيضاح ذلك أن الإنسان إذا كان عنده شىء نفيس لا يصح له أن يتركه اختيارا إلا لوجود ما هو أنفس منه كما إذا كان حاملا فى برية خرج فلوس جدد ، فرأى كوم فضة فإنه يصب ذلك الخرج ويملؤه فضة فإذا سافر بالخرج الفضة ورأى كوم ذهب فإنه يصب الفضة ويملأ خرجه ذهبا ، وما دام لم يجد ماهو الأنفس فهو بخيل بما معه لا يتركه إلا إن وقاه الله شح نفسه .

وقد ذكرنا فى عهود المشايخ فى كتاب البحر المورود ، أن العهود أخذت علينا إذا مررنا على أتلال الذهب أو الفضة من غير مزاحم عليها فى الدنيا ولا تبعة علينا بها فى الآخرة أن لا نأخذ منها إلا قدر قوتنا ذلك اليوم ، أو قضاء ديننا ، وأنه إذا دخلت لنا بغلة محملة ذهبا إلى دارنا من مطلب مثلا لا نأخذ منها دينارا بل نخرجها بحملها ونغلق باب دارنا احتياطا لأنفسنا أن ينقص نعيمها فى الآخرة ، وقد ذكرنا فيه أن الفقراء ماتميزوا عن غيرهم إلا بتركهم الدنيا اختيارا لا اضطرارا ، فإن التارك للدنيا اضطرارا هو والعوام سواء .

فعلم أن من دسائس النفس على العبد أن توسوس له بالاهتمام بالدنيا والسعى لها وتقول له هذا سعى على العيال لا لنفسك والسعى على الغير من العيال مطلوب ، وإنما اللوم لو سعيت لنفسك فيصير يسعى ويهتم ويجمع فى حجة العيال وهو يدخر ذلك حتى صار عنده الألف

دينار وعياله على ماهم عليه من الضيق ، لم يوسع عليهم شيئا ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من غالب فقراء هذا الزمان ، حتى صاروا يسافرون من مصر إلى الروم فى طلب الدنيا ولو أن بعض المريدين فعل ذلك لعيب عليه فكيف بالشيخ .

وقد عرضوا على سيدى على الخواص رحمه الله أن يجعلوا له مسموحا فأبى ، وقال هذا مال لاينبغى أن يكون إلا لعسكر السلطان الذين يسافرون فى التجاريد ، وأما الفقير الجالس منا فى بيته أو فى زاويته فلا ينبغى له أن يأخذ من ذلك درهما واحدا ، وكذلك عرضوا على بحمد الله نحو أربعة آلاف دينار أوصى بها لى قاضى اسكندرية فرددتها احتياطا لنفسى من أكل مال القضاة والشبهات التى لم تقسم لى ، وخوفا عليها من ميلها إلى جميع الدنيا فالحمد لله على ذلك .

وقد سافر شخص من فقراء مصر المحروسة إلى بلاد الروم فاجتمع باياش باشاه الوزير فقال له ماجاء بك إلى بلادنا فقال أطلب شيئا من مال السلطان يقوم بعيالى فقال له وما حرفتك ، فقال أدل الناس على الله تعالى فقال له أف عليك أيها الشيخ كيف تسافر فى سن الشيخوخة من مصر إلى هنا تطلب الدنيا أما كان فى مصر وقراها ما يكفيك مع أنك ترى ربك وهو يرزقك أنت وعيالك من حين ولدت إلى أن صارت لحيتك بيضاء لم يقطع بك يوما واحدا ، فإذا كنت وأنت فى هذا السن لم تثق بضمان الله لرزقك ، ولم تطمئن نفسك إلى قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) .

فبالله عليك أين معرفتك بالله حتى تدل الناس عليه ، فما درى الشيخ مايقول ورجع إلى مصر نادما هذه حكاية صاحب الواقعة لى بنفسه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول يجب على من تصدر للمشيخة والشفاعات عند الحكام أن لايقبل منهم هدية ولا برا ولا حسنة ، ولو كان ذلك حلالا من أصله ، فإن من قبل من الولاة شيئا هان فى أعينهم وردوا شفاعته لكونه صار معدودا من عيالهم فهو ولو كان معه سر لايصلح له أن يؤثر فيمن يعوله ويطعمه ويكسوه ، ولا يستجيب الله له فيه دعاء لو دعا عليه وهذا الأمر قد عم غالب الفقراء فبطلت شفاعتهم عند الحكام وعدموا تفريج كرب المكروبين :

فاترك أيها الشيخ الدنيا والاهتمام بشأنها ولا تكن متهما لربك وما قسمه الله تعالى لك لابد أن يأتيك ولو تركته لايخرج عنك والله يتولى هداك :

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « تَفَرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّهُ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ أَفْشَى اللهُ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ » .

وفى رواية لابن ماجه باسناد صحيح مرفوعا :

« مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ أى أمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « إِنَّهُ مَنْ تَكُنِ الدُّنْيَا هِمَّتَهُ يَجْعَلُ اللهُ تَعَالَى فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ » .

أى فرق عليه حاله وصناعته ومعاشه وما هو مهتم به وشغبه عليه ليكثر كده ويعظم تعبه .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هِمَّتَهُ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ جِوَارِى فَإِنِّى بُعِثْتُ بِخَرَابِ الدُّنْيَا وَلَمْ أُبْعَثْ بِعِمَارَتِهَا » .

وروى البيهقى وغيره مرفوعا : « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا » .

وفى رواية للحاكم والبيهقى مرفوعا : « مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ لَمْ يُبَالِ اللهُ فى أَىِّ أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا أَهْلَكَهُ » .

وفى راية لابن ماجه مرفوعا : « مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْهُ الْهُمُومُ أَحْوَالُ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فى أَىِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ » .

وروى فى بعض الكتب الإلهية أن الله تعالى قال :

« يَا دُنْيَا مَنْ خَدَمَنِى فَاخْدُمِيهِ ، وَمَنْ خَدَمَكِ فَاسْتَخْدِمِيهِ » . رواه أبو نعيم وغيره .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ » الحديث .

وفي رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ أَصْبَحَ حَزِيناً عَلَى الدُّنْيَا أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمكن محبة الدنيا من قلوبنا بحيث نغفل بها عن عبادة ربنا المشروعة ، ولا نكاثر بها أهلها ولا تنافس أحدا عليها سواء أكانت مالا أو وظيفة أو طعاما أو رياسة أو غير ذلك من سائر شهواتها سدا لباب ميل نفوسنا إلى أهويتها :

ثم إذا فتح الله علينا فتوح العارفين إن شاء الله تعالى وقد فعل بنا ذلك ولله الحمد فمن الأدب أن نمسك الدنيا بأسرها ولا نترك منها شيئا إلا عند العجز عنه ونقلب الشهوة المذمومة إلى الشهوة المحمودة من غير حجاب عن الله عز وجل ولا غفلة عن عبادته قال تعالى مادحا للكمل :

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) .

فأخبر أنهم مع قيامهم في الأسباب التي يحجب بها غيرهم لايغفلون عن ذكر الله تعالى ، لأن الدنيا قد خرجت من قلوبهم وصارت في يدهم لاغير ، وماذم الله تعالى حب الدنيا إلا إذا كان حبها بحكم الطبع ويبخل العبد بها عن المحتاجين ، وأما إذا وسع بها على المساكين وستر بها نفسه وكفها بها عن سؤال الناس فنعمت الدنيا حينئذ وبئس رميها ولذلك ماذم الله تعالى ذات الدنيا وإنما ذم الميل إليها فقط ، إذ لو كانت مذمومة لذاتها لم نؤمر بمسكها في حال من الأحوال فافهم :

ولا يخفى أن مراد كل من ذم الدنيا من الشارع صلى الله عليه وسلم أو غيره من صالحي المؤمنين الدنيا الزائدة على الحاجة ، أما ما يحتاج إليه فليس من الدنيا في شيء بل هو مطلوب إذ النكتة في ذم الدنيا إنما هو الاشتغال بها عن عبادة الله عزوجل لاغير ، فمن عصمه الله أو حفظه عن الوقوع فيما يلهى عنه تعالى فلا حرج عليه ولذلك طلب أيوب وسليمان الدنيا ، ومعلوم أنهما معصومان من طلب ما يشغلهما عن الله فافهم :

وسمعت سيدي عليا المكزوانى بمكة المشرفة يقول : فسق العارف بعد كماله يكون في تبسطه في الدنيا في مأكل وملبس ومنكح ومركب اه .

وكان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : إذا أحب الله تعالى عبدا زوى عنه الدنيا وإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه وشغله بها عنه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول : كل شيء شغلك عن الله لحظة واحدة فهو مشئوم عليك فى الدنيا والآخرة .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله تعالى إذا أتاه أحد بشيء من الدنيا انقبض وظهر أثر ذلك عليه . وأتاه مرة شخص بأربعين دينارا فى صرة بعد صلاة الصبح فرماها فى وجه صاحبها وقال له أما تستحى من الله تعالى تصبحنا بالدنيا ووبخه وقال له لا تعد إلى مثل ذلك أبدا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ينبغى للشيخ المقتدى به أن يجعل عنده شيئا من النقد نحو المائة دينار زائدة عن حاجته ليدفع خاطر الاهتمام فى الرزق فإنه يدق معه فى المقامات ولا يزول ، فلكل شيخ له مشهد يدين الله تعالى به ، فرضى الله عن الصادقين .

وبالجملة فلا يصح لك يا أخى عدم محبة الدنيا والمزاحمة عليها إلا بعد السلوك على يد شيخ ناصح تفنى مرادك فى مراده واختيارك فى اختياره وإلا فلا تشم من الزهد فيها رائحة كما عليه غالب مريدى أشياخ هذا الزمان ، فيموت شيخهم وهو متحسر على رؤية أحد منهم ، أطاعه حتى صار زاهدا فى الدنيا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى الطبرانى مرفوعا : « هَلَاكُ آخِرِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَطُولِ الْأَمَلِ » .

وروى البزار مرفوعا : « يُنَادِى مُنَادٍ كُلَّ يَوْمٍ دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « وَمَنْ مَدَّ عَيْنَهُ إِلَى زِينَةِ الْمُتْرَفِينَ كَانَ مَهِينًا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ » .

وَفِى رِوَايَة : « كَانَ مَمْقُوتًا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ » .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناد جيد عن عمر قال :

« لَا يُصِيبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ كَرِيمًا » .

قال الحافظ المنـــذرى وروى مرفوعا والوقف أصح ، وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« حُلْوَةُ الدُّنْيَا مُرَّةُ الآخِرَةِ ، وَمُرَّةُ الدُّنْيَا حُلْوَةُ الآخِرَةِ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا: «مَنْ أُشْرِبَ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلَاثٍ: شَقَاءٍ لَا يَنْفَدُ عَنَاهُ ، وَحِرْصٍ لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ ، وَأَمَلٍ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الآخِرَةُ حَتَّى يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ فَيَأْخُذَهُ ، وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ » .

وَرَوَى البيهقى مرفوعا : « هَلْ مِنْ أَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ إِلَّا ابْتَلَّتْ قَدَمَاهُ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ كَذَلِكَ صَاحِبُ الدُّنْيَا أَيْ مُحِبُّهَا لَا يَسْلَمُ مِنَ الذُّنُوبِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتمنى الموت إلا إن خفنا على أنفسنا من فتنة فى ديننا فى هذا الزمان الذى يرى الإنسان دينه فى كل يوم ينقص عن اليوم الذى قبله ، وهذا الأمر قد وقع من حين انتهى كمال الدين وهو سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كما رأيت ذلك فى لوح نزل من السماء فى واقعة فى المنام ، وقد أخذت الأمور كلها يا أخى فى النقص وصار دين المؤمن ينقص كل يوم عن الحال الذى قبله ، وصار يتصعب على الإنسان القبض على دينه كما يتصعب عليه القبض على جمرة فى كفه ليلا ونهارا ، فكما ضعف عن دوام القبض على الجمرة كذلك ضعف عن دوام القبض على الدين على حد سواء ، فلا يموت الإنسان يوم يموت إلا على أنقص الأحوال ، وأول أخذ الدين فى النقص من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، حين بلغ أهل العلم حدهم وأهل الطريق حدهم ، هذا ما رأيته مكتوبا فى لوح تجاه مدرسة الشيخ إبراهيم المواهبى الشاذلى بباب الخرق من مصر المحروسة ، وكان فى سلسلة فضة وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد العزيز الدرينى فى منظومته وكان فى سنة سبعين وخمسمائة يقول :

وَقَدْ بَدَا النَّقْصُ فِى الأَحْوَالِ أَجْمَعِهَا ... وَبُدِّلَتْ صَفْوَةُ الأَوْقَاتِ بِالْكَدَرِ

وقد مررت فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة على شيخ قد طعن فى السن وهو نائم

تحت قنطرة الخليج الحاكمى بمصر المحروسة أيام الصيف فسلمت عليه فرد على السلام ثم قال لى ما اسمك ؟ قلت له عبد الوهاب فقال : لى سنين عديدة ومقصودى لو رأيتك اجلس فجلست عنده فصافحنى وقبض على يدى فكدت أن أصيح من عصرها ، فقال لى ماتقول فى هذه القوة ؟ فقلت قوة شديدة ، فقال هذه من لقيمات الحلال التى أكلناها فى حال الصبا ، فلولا تلك الخميرة لكان جسمنا اليوم كالنخالة من حيث المكاسب وعدم تورع الناس ، ثم قال لى ياولدى عمرى الآن مائة وثلاث وأربعون سنة ، والله قد تغيرت الناس ونقصت أديانهم وأماناتهم فى هذه الثلاث سنين الأخيرة أكثر مما نقصت أديانهم فى المائة وأربعين سنة ، قد صار الآن أخوك وصاحبك كأنه ماهو أخوك وصاحبك كأنه ما هو صاحبك بل ابنك كأنه ماهو ولدك ولا أنت أبوه وانحلت القلوب عن بعضها بعضا ، وتراكمت البلايا ونزلت على الخلائق مع قلة الصبر حتى كثر سخطهم على مقدورات ربهم ، ونقصت بذلك أديانهم وصار الموت اليوم تحفة لكل مؤمن كما ورد فلا يطلب المعيشة فى هذا الزمان إلا من حجب عن نقصه ، ثم قال ياولدى وأنا أوضح لك ذلك فى حق صالحى هـذا الزمان فضلا عن طالحيه ، فقلت له نعم ، فقال أصلح الصالحين هو أن يقوم من الليل فيتوضأ ويصلى ماكتب له إلى الفجر ثم يصلى الصبح ويشتغل بورده كذلك إلى الظهر ومن الظهر إلى العصر ومن العصر إلى المغرب ، ومن المغرب إلى العشاء ومن العشاء إلى أن ينام . فلو فرضنا سلامته من جميع المعاصى الظاهرة فهل يقدر على سلامته من سوء الظن بأحد من أقرانه أو حساده أو رؤية نفسه عليه فى ساعة من الساعات طول عمره ؟ فقلت له هـذا بعيد ، فقال لو وضعت عبادة الشخص طول عمره فى كفة وسوء الظن بمسلم فى كفة لرجح سوء الظن ، فإذا كانت عبادة الصالحين لاتفى بجزاء ذنب واحد فكيف بمن عليه ما لايحصى من حقوق الخلق اه ، فقبلت يده وانصرفت رضى الله تعالى عنه .

فسلم ياأخى أمرك إلى الله واسأل الله تعالى الصبر على مرارة هذا الزمان فإن البلاء كالسحاب الواقف وأنت كالماشى تحته أو كالسحاب السائر وأنت واقف فلابد من فراق أحدكما لصاحبه .

وقد كان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : إنما خاف الأكابر من البلاء لما فيه من السخط لا لذاته ثم يقول : والله ماأدرى ماذا يقع منى لو ابتليت ؟ لعلى أكفر ولا أشعر .

فاعلم ذلك وتزل ياأخى كراهية تمنى الموت على كل من كان فى خير وعدم الكراهة على كل من كان فى شر ولا تطاق الأمر والله يتولى هداك :

وروى الامام أحمد وَالحاكم : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَشْتَكِي فَتَمَنَّى الْمَوْتَ ، فَقَالَ : يَا عَبَّاسُ لَا تَتَمَنَّى الْمَوْتَ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا تَزْدَدْ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ وَإِنْ كُنتَ مُسِيئًا فَأَنْ تُؤَخَّرْ لَتَسْتَعِدَّ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ، لاَ تَتَمَنَّى الْمَوْتَ » .

وفى رواية للإمام أحمد والبيهقى باسناد حسن مرفوعا :

« لاَ تَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ فَإِنَّ هَوْلَ الْمَطْلَعِ شَدِيدٌ وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ الْعَبْدِ وَيَرْزُقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ » .

وفى رواية لمسلم : « لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلاَ يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلاَّ خَيْرًا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى فعل شىء يرد البلاء إلاإن ورد به الحديث ، فلا نطالب رفع البلاء لشىء سكت عنه الشارع فضلا عما نهانا عن فعله ، وهذا العهد يتساهل فى خيانته كثير من الناس حتى العلماء فيرون على رؤوس أولادهم التمائم والعظام والخرز ونحو ذلك ، فلاينكرون على من فعله ولايقطعونه، وكان الأدب تقطيع ذلك ومنع الولد وأمه من ذلك هروبا من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المجاب الذى لايردعلى من علق ذلك أو حمله ، ولولا أن الشارع يعلم أن الله تعالى يكره ذلك مانهى أمته عنه ، فنجتنب كل مانهانا عنه سواء عقلنا له معنى أو لم نعقل له معنى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول : من أراد عدم نزول البلاء عليه فلا يجعل له قط سريرة مسيئة يستحى من اطلاع الناس عليها ، فمن كان له سريرة سيئة

استحق نزول البلاء وتحويل النعم ، ومن هنا كثر تحويل النعم فى هذا الزمان حتى عن أولاد الفقراء ، فالعاقل من فتش نفسه إن أراد تخليد النعم عليه :

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وقد روى أبو يعلى باسناد جيد والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ » .

وروى الإمام أحمد والحاكم ورواته ثقات :

« أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لِيُبَايِعَهُ مَعَ جَمَاعَةٍ فَبَايَعَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الْجَمَاعَةَ وَلَمْ يُبَايِعْ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَقَالُوا مَا شَأْنُهُ ؟ فَقَالَ : إِنَّ فِي عَضُدِهِ تَمِيمَةً فَقَطَعَ الرَّجُلُ التَّمِيمَةَ فَبَايَعَهُ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثُمَّ قَالَ : مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ » .

والتميمة يقال إنها خرز كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، واعتقاد هذا الرأى جهل وضلالة ، إذ لامانع ولا دافع غير الله تعالى ، فإن كان الذى علقها يعتقد أنها تدفع فقد أشرك ، وإن كان يعتقد أنها لاتدفع فلا فائدة لتعليقها فافهم :

وروى أبو داود أن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبدالله بن عكيم وبه حمرة فقلت ألا تعلق تميمة فقال أعوذ بالله من ذلك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ عَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ » .

وفى رواية للترمذى فقال : « الْمَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ » .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ أَبْصَرَ عَلَى عَضُدِ رَجُلٍ حَلَقَةً أُرَاهُ ؟ قَالَ : مِنْ صُفْرٍ ؟ فَقَالَ : وَيْحَكَ مَا هَذِهِ فَقَالَ : مِنَ الْوَاهِنَةِ فَقَالَ : أَمَا إِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا » .

زاد فى رواية : « فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا » .

وفى رواية أخرى : « فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ وُكِلْتَ إِلَيْهَا » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا : « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » .

قال أبو سليمان الخطابى رحمه الله : المنهى عنه من الرقى ما كان بغير لسان العرب فلم يدر ماهو ولعله قد يدخله سحر أو كفر ، فأما إذا كان مفهوم المعنى وكان نيته نفسه ذكر الله تعالى فإنه مستحب متبرك به اهـ.

وقال الحافظ عبد العظيم : التولة شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن قال وهو شبيه بالسحر أو من أنواعه .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : ليست التميمة مايعلق به بعد البلاء وإنما التميمة مايعلق به قبل البلاء والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك الوصية سواء أكنا فى المرض أو فى الصحة ، وكذلك لانضار فيها ولا نؤخر العتق والصدقة حتى تحضرنا الوفاة ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من أرباب الدنيا لطول أملهم وشدة بخلهم وحسدهم لوارثهم .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ صادق يلطف كثائفه حتى يرق حجابه وتصير الدنيا عنده كالتراب والموت عنده نصب عينيه ، وإلا فمن لازمه الخيانة لهذا العهد غالبا :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ » .

وفى رواية : « ثَلَاثَةَ لَيَالٍ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » والله سبحانه وتعالى أعلم .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « الْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّتَهُ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ أَوِ الْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سِتِّينَ سَنَةً ، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْوَفَاةُ فَيُضَارَّانِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ » .

وروى النسائى مرفوعا : « الْإِضْرَارُ فِي الْوَصِيَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « مَنْ فَرَّ بِمِيرَاثِ وَارِثِهِ قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَأَنْ يَتَصَدَّقَ الرَّجُلُ فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ بِدِرْهَمٍ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ عِنْدَ مَوْتِهِ بِمِائَةٍ » .

وروى أبو داود والترمذى : « مَثَلُ الَّذِي يَعْتِقُ عِنْدَ مَوْتِهِ مَثَلُ الَّذِي يُهْدِي بَعْدَ مَا شَبِعَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نسرع بالجنازة تعجيلا للدفن وإكراما للميت ومسارعة لنعيم البرزخ ، بناء على ما نعتقد من فضل الله تعالى ومغفرته ورحمته للميت .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ ، وَإِنْ تَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ » .

وروى أبو داود والنسائى أن أبا بكرة لحق بجنازة عثمان بن أبى العاصى وهم يمشون مشيا خفيفا ، فقال بأعلى صوته : لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نرمل رملا .

وروى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المشى مع الجنازة فقال :

« مَا دُونَ الْخَبَبِ إِنْ يَكُنْ خَيْرٌ تَعَجَّلُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَبُعْدًا لِأَهْلِ النَّارِ » .

والخبب : ضرب من العدو ، وقيل هو كالرمل والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن ندعو للميت ونحسن الثناء عليه خوفا من الوقوع فى غيبته ، تصريحا أو تعريضا ، فالتصريح ذكره بما يكره والتعريض مثل قول القائل إذا سمع أحدا يذكر الميت بسوء أريحانا من غيبة الناس كل شاة معلقة بعرقوبها ونحو ذلك ، فأين هذا اللفظ من قول القائل رحم الله فلانا ما كان أحسن

معاملته وما كان أحسن خلقه ونحو ذلك ، وفى التورية مندوحة عن الكذب فإنه لابد فى أفعل التفضيل من وجود من يفضل عليه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ماثم شيء فى الوجود يماثل شيئا آخر من جميع الوجوه أبدا فلا بد من زيادة أو نقص ولو بزيادة شعرة واحدة فى لحيته أو رأسه .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال :

« اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ » .

وروى أبو داود واللفظ له وابن ماجه عن أبى هريرة قال :

« مَرُّوا عَلَى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ وَجَبَتْ ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا ، فَقَالَ : وَجَبَتْ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ شَهِيدٌ » .

وفى رواية للشيخين وغيرهما أن عمر قال يارسول الله ماوجبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ » .

وروى البخارى مرفوعا : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ نَفَرٍ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، فَقُلْنَا وَثَلَاثَةٌ ؟ قَالَ : وَثَلَاثَةٌ ، قُلْنَا وَاثْنَانِ قَالَ : وَاثْنَانِ ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ » .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأَدْنَيْنَ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا خَيْرًا إِلَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى قَدْ قَبِلْتُ عِلْمَكُمْ وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » هذه رواية أبو يعلى .

وفى رواية للبزار مرفوعا : « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ وَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْهُ شَرًّا ، وَتَقولُ النَّاسُ فِيهِ خَيْرًا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عِبَادِي عَلَى عَبْدِي وَغَفَرْتُ لَهُ عِلْمِي فِيهِ » .

قلت : وروى الإمام سنيد فى تفسيره :

« إِنَّ شَخْصًا مَاتَ فِي حَيَاةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَشَهِدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِيهِ بِالشَّرِّ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ ، فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : إِنَّ شَهَادَتَهُمْ فِيهِ بِالشَّرِّ صَحِيحَةٌ وَلَكِنْ أَجَزْتُ شَهَادَةَ أَبِي بَكْرٍ تَكْرِمَةً لَهُ » والله أعلم .

وروى الإمام أحمد ورواته رواة الصحيح :

« كَانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ إِذَا دُعِيَ إِلَى جِنَازَةٍ سَأَلَ عَنْهَا ، فَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ قَامَ فَصَلَّى عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا غَيْرُ ذَلِكَ قَالَ لِأَهْلِهَا شَأْنُكُمْ بِهَا وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهَا » .

وروى أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ » .

وتقدم حديث أم سلمة فى الصحيح مرفوعا :

« إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤَمِّنُ عَلَى مَا تَقُولُونَ » .

وروى البخارى فى صحيحه مرفوعا : « لاَ تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» .

وروى البخارى أيضا وزاد ابن حبان عن مجاهد قال : قالت عائشة مافعل يزيد بن قيس لعنه الله ؛ قالوا قد مات قالت فأستغفر الله فقالوا لها مالك لعنتيه ثم قلت أستغفر الله؟ فقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لاَ تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ » الحديث .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلاَ تَقَعُوا فِيهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نرغب إخواننا من الرجال فى زيارة قبور أمواتهم كل قليل ، وذلك لنجازى على ذلك فلا ينسانا أهلنا من الزيارة إذا متنا ولا نترك ذلك إلا من عذر شرعى .

وقد روى الإمام سنيد بن عبد الله الأزدى فى تفسيره :

« زُورُوا الْقُبُورَ وَلاَ تُكْثِرُوا مِنْ زِيَارَتِهَا » .

أى خوفا من زوال الاعتبار بها كما هو شأن من يغسل الموتى ويحملهم ويحفر لهم فإنك لاتكاد تجد عنده اعتبارا بذلك أبدا لكثرة مخالطته لهم وكذلك إذا سكن الإنسان فى المقابر يذهب اعتباره ، بخلاف ماإذا كان بعيد العهد برؤية القبور وأشرف عليها فإنه يجد فى نفسه الاعتبار والاتعاظ يتذكر أحوال الموتى وما ندموا عليه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تتخذوا لكم فى القبور مساكن ومراحيض فإن ذلك يؤدى إلى مكث الناس هناك فيذهب اعتبارهم بالأموات فقلت له ربما يقرءون ختوما فيها ، فقال الأفضل للفقهاء أن يتوضئوا خارج المقابر ، فإن المراحيض ربما سرت إلى الأموات فأضرت بحالهم :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« زَارَ النَّبِيُّ صلى الله عليهِ وسلمَ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَي مَنْ حَوْلَهُ ، فَقَالَ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لى فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْمَوْتَ » .

وروى الإمام أحمد ورواته محتج بهم فى الصحيح :

« إِنِّى نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً » .

وفى رواية لابن ماجه باسناد صحيح : « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ » .

وتقدم حديث الإمام سنيد : « زُورُوا الْقُبُورَ وَلاَ تُكْثِرُوا » .

وروى الحاكم مرفوعا : « زُورُوا الْقُبُورَ تَذْكُرُوا بِهَا الآخِرَةَ » .

وفى رواية للترمذى : « كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ » .

قال الحافظ المنذرى رحمه الله : قدكان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور نهيا عاما للنساء والرجال ثم أذن للرجال فى زيارتها ، واستمر النهى فى حق النساء ، وقيل كانت رخصة عامة وفى ذلك كلام طويل للعلماء والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نكثر من الاستعداد لأهوال يوم القيامة بالأعمال الصالحة ، وذلك بأن نفعل جميع ماأمرنا به على التمام ونجتنب جميع مانهينا عنه على التمام من غير اعتماد عليه دون الله تعالى ، وكذلك نستعد لها بالتوبة من كل خلل وقعنا فيه : فإن كل من أخل بشىء من التكاليف فمن لازمه مقاساة الأهوال والشدائد ومن بذل وسعه فى مرضاة الله فهو من الذين :

(لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ) وتقول لهم (هٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

ولا يحصل لك ياأخى كمال الاستعداد إلا بالسلوك على يد شيخ مع شدة صبرك على مناقشته ، إلى أن لايخلى عليك تبعة ظاهرة وينشر لك صحيفتك كلها ، فيطلعك على جميع زلاتك فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ويحصيها عليك ، ويعلمك بطريق الخلاص منها بالتوبة منها ورد المظالم إلى أهلها ، ومالم يمكن رده يشفع لك فيه عند الله تعالى ، ويدعو لك حتى تموت إن شاء الله تعالى على حالة الاستقامة ، فإن شدة الأهوال يوم القيامة إنما تكون على من أخل بالأوامر الشرعية .

ولنبين لك ياأخى بعض أمور لتقيس عليها الباقى ، وذلك أن كل من بذل وسعه فى طاعة الله تعالى حتى خرج منه العرق من شدة التعب خف عرقه يوم القيامة ، فإن كل إنسان لايخوض يوم القيامة إلا فى العرق الذى بخل بإخراجه فى طاعة الله كمجالس الذكر وحفر الآبار وحمل الأثقال ونحو ذلك ومن آثر الدعة والراحة فلم يتعب فى مرضاة الله تعالى خرج عليه العرق الذى حبس ولم يخرج فى طاعة الله تعالى فيصل إلى خلخال رجله فما فوقها إلى أن يغطى صاحبه ، وهكذا القول فيمن أطعم الفقراء والمساكين وأسقاهم لله تعالى فإنه لايحس بجوع ولا عطش إلا بقدر مافرط ، وكذلك القول فى المشى على الصراط المنصوب

على ظهر جهنم يكون المشى عليه على حكم استقامة الإنسان على الشريعة المطهرة ، فمن زل عنها هنا فى أعماله ولم يقبل الله تعالى توبته زلق على الصراط ، فإما يتعلق بالكلاليب حتى تدركه الشفاعة ، وإما يصل إلى النار فيمكث فيها ماشاء الله حتى تدركه الشفاعة لاسيما من زنى أو شرب الخمر أو ترك الصلاة أولم يطعم المسكين ، أوخاض مع الخائضين فيما حرم الله تعالى من أعراض المؤمنين. وكذلك النهوض على الصراط سرعة وبطئا يكون على قدر ماكان عليه من النهوض للطاعة وسرعته فيها أو بطئه ، وكذلك القول فى الشرب من الحوض يكون على قدر التضلع من العلوم الشرعية ، بشرط الإخلاص الكامل فيها :

فقس ياأخى على ذلك فما من هول من أهوال يوم القيامة إلا وقد جعل الشارع صلى الله عليه وسلم له عملا مبرورا إذا عمله العبد نجا من ذلك الهول ، وقد حبب لى أن أذكر لك حديث مواقف القيامة من رواية على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه ، فإنه ينبه على أمهات الأهوال رأيته فى كتاب الفتوحات المكية فى الباب الرابع والستين منها ولم أجده فى شىء من الأصول التى اطلعت عليها من كتب المحدثين ، ولكن عليه لامعة كلام النبوة فأقول وبالله التوفيق :

قال الشيخ الإمام الكامل المحقق الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله : حدثنى شيخنا القصار بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة تجاه الركن اليمانى من الكعبة المعظمة وهو يونس ابن يحيى الهاشمى العباسى من لفظه وأنا أسمع ، قال أنبأنا أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموى ، قال أنبأنا أبو بكر محمد بن على المعروف بابن الخياط قال قرئ على أبى سهل محمود بن عمر بن إسحق العكبرى وأنا أسمع قيل له حدثكم أبو بكر محمد بن حسين النقاش ، فقال نعم حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسين بن على الطبرى المروزى ، قال أنبأنا محمد بن حميد الرازى أبو عبد الله ، قال أنبأنا مسلمة بن صالح قال أنبأنا القاسم بن الحكم ابن سلام الطويل عن غياث بن المسيب عن عبد الرحمن بن غنيم وزيد بن وهب عن عبدالله ابن مسعود ، قال : كنت جالسا عند على بن أبى طالب رضى الله عنه وعنده عبدالله بن عباس وعدة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ فِي الْقِيَامَةِ لَخَمْسِينَ مَوْقِفًا : فَأَوَّلُ مَوْقِفٍ إِذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ ، يَقُومُونَ عَلَى أَبْوَابِ قُبُورِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ حُفَاةً عُرَاةً جِيَاعًا عِطَاشًا ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مُؤْمِنًا بِرَبِّهِ ، مُؤْمِنًا بِنَبِيِّهِ ، مُؤْمِنًا بِجَنَّتِهِ وَنَارِهِ ، مُؤْمِنًا بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، مُؤْمِنًا بِالْقَضَاءِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، مُصَدِّقًا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ نَجَا وَفَازَ وَسَعِدَ وَغَنِمَ ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا بَقِيَ فِي جُوعِهِ وَعَطَشِهِ وَغَمِّهِ وَكَرْبِهِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ .

ثُمَّ يُسَاقُونَ مِنْ ذٰلِكَ الْمَقَامِ إِلَى الْمَحْشَرِ فَيَقِفُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ أَلْفَ عَامٍ فِي سُرَادِقَاتِ النِّيرَانِ وَفِي حَرِّ الشَّمْسِ ، وَالنَّارُ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَالنَّارُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَالشَّمْسُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ ، وَلا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّ الْعَرْشِ ، فَمَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى شَاهِدًا لَهُ بِالْإِخْلاصِ مُقِرًّا بِنَبِيِّهِ مُحمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ بَرِيئًا مِنَ الشِّرْكِ وَمِنَ السِّحْرِ وَمِنْ إِهْرَاقِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مُحِبًّا لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ مُبْغِضًا لِمَنْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ اسْتَظَلَّ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمٰنِ ، وَنَجَا مِنْ غَمِّهِ وَمَنْ حَادَ عَنْ ذٰلِكَ وَوَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الذُّنُوبِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ وَشَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ بَقِيَ فِي الْحَشْرِ وَالْعَذَابِ وَالْهَمِّ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بِمَا يَشَاءُ .

ثُمَّ تُسَاقُ الْخَلْقُ إِلَى النُّورِ وَالظُّلْمَةِ فَيُقِيمُونَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ أَلْفَ عَامٍ ، فَمَنْ لَقِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَمْ يَدْخُلْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ النِّفَاقِ وَلَمْ يَشُكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَأَعْطَى الْحَقَّ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقَالَ الْحَقَّ وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَطَاعَ اللهَ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ وَرَضِيَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَنِعَ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ خَرَجَ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ فِي مِقْدَارِ طَرْفَةِ عَيْنٍ مُبْيَضًّا وَجْهُهُ ، وَقَدْ نَجَا مِنَ الْهُمُومِ كُلِّهَا ، وَمَنْ خَالَفَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَقِيَ فِي الْهَمِّ وَالْغَمِّ أَلْفَ سَنَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُسْوَدًّا وَجْهُهُ وَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ .

ثُمَّ يُسَاقُ الْخَلْقُ إِلَى سُرَادِقَاتِ الْحِسَابِ وَهِيَ عَشْرُ سُرَادِقَاتٍ فَيَقِفُونَ فِي كُلِّ سُرَادِقٍ مِنْهَا أَلْفَ سَنَةٍ فَيُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي أَوَّلِ سُرَادِقٍ مِنْهَا عَنِ الْمَحَارِمِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الثَّانِي فَيُسْأَلُ عَنِ الْأَهْوَاءِ فَإِنْ كَانَ لَمْ يَقَعْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الثَّالِثِ فَيُسْأَلُ عَنْ عُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَاقًّا جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الرَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنْ حُقُوقِ مَنْ فَوَّضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ حُقُوقَهُمْ وَأُمُورَهُمْ وَعَنْ تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ وَأُمُورِ دِينِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ فَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الْخَامِسِ فَيُسْأَلُ عَمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا لَهُمْ جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ السَّادِسِ فَيُسْأَلُ عَنْ حُقُوقِ قَرَابَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَدَّى حُقُوقَهُمْ جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ السَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنْ كَانَ وَصُولًا لِرَحِمِهِ جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الثَّامِنِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْحَسَدِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاسِدًا جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ التَّاسِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَكْرِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَكَرَ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَازَ إِلَى السُّرَادِقِ الْعَاشِرِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْخَدِيعَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَدَعَ أَحَدًا نَجَا وَنَزَلَ فِي ظِلِّ عَرْشِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَارَّةً عَيْنُهُ فَرِحًا قَلْبُهُ ضَاحِكًا فُوهُ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْخِصَالِ وَلَمْ يَتُبْ بَقِيَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ مِنْهَا أَلْفَ عَامٍ جَائِعًا عَطْشَانًا حَزِينًا مَغْمُومًا مَهْمُومًا لَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَةُ شَافِعٍ .

ثُمَّ يُحْشَرُونَ إِلَى أَخْذِ كُتُبِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ فَيُحْبَسُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ مِنْهَا أَلْفَ سَنَةٍ فَيُسْأَلُونَ فِي أَوَّلِ مَوْقِفٍ مِنْهَا عَنِ الصَّدَقَاتِ وَمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ أَدَّاهَا كَامِلَةً جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الثَّانِي فَيُسْأَلُ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ ، فَمَنْ عَفَا عَفَا اللهُ عَنْهُ وَجَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الثَّالِثِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الرَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَإِنْ كَانَ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الْخَامِسِ فَيُسْأَلُ عَنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، فَإِنْ كَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ السَّادِسِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْحُبِّ فِي اللهِ وَالْبُغْضِ فِي اللهِ ، فَإِنْ كَانَ مُحِبًّا لِلّٰهِ مُبْغِضًا فِي اللهِ

جَازَ إِلى الْمَوْقِفِ السَّابعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَالِ الْحَرَامِ ، فإِنْ لَمْ يَكُنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ جَازَ إِلى الْمَوْقِفِ الثَّامِنِ فَيُسْأَلُ عَنْ شُرْبِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ شَيْئًا جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ التَّاسِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْفُرُوجِ الْحَرَامِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَاهَا جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الْعَاشِرِ فَيُسْأَلُ عَنْ قَوْلِ الزُّورِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَهُ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الْحَادِي عَشَرَ فَيُسْأَلُ عَنِ الأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَلَفَهَا جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الثَّانِي عَشَرَ فَيُسْأَلُ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَهُ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الثَّالِثَ عَشَرَ فَيُسْأَلُ عَنْ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ وَلاَ افْتَرَى عَلَى أَحَدٍ جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الرَّابِعَ عَشَرَ فَيُسْأَلُ عَنْ شَهَادَةِ الزُّورِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَهِدَهَا جَازَ إِلَى الْمَوْقِفِ الْخَامِسَ عَشَرَ فَيُسْأَلُ عَنِ الْبُهْتَانِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَهَتَ مُسْلِمًا مَرَّ فَنَزَلَ تَحْتَ لِوَاءِ الْحَمْدِ وَأُعْطِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَنَجَا مِنَ الْغَمِّ وَهَوْلِهِ وَحُوسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الذُّنُوبِ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ تَائِبٍ مَكَثَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ مِنْ هٰذِهِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الْغَمِّ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بِمَا شَاءَ .

ثُمَّ يُقَامُ النَّاسُ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِهِمْ أَلْفَ عَامٍ ، فَإِنْ كَانَ سَخِيًّا قَدْ قَدَّمَ مَالَهُ لِيَوْمِ فَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ قَرَأَ كِتَابَهُ وَهُوِّنَ عَلَيْهِ قِرَاءَتُهُ وَكُسِيَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ ، وَتُوِّجَ مِنْ تِيجَانِ الْجَنَّةِ ، وَأُقْعِدَ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ، وَإِنْ كَانَ بَخِيلاً لَمْ يُقَدِّمْ مَالَهُ لِيَوْمِ مَعَادِهِ وَفَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ ، أُعْطِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ وَيُقْطَعُ لَهُ مِنْ مُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ ، وَيُقَامُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ أَلْفَ عَامٍ فِي الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْعُرْيِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْفَضِيحَةِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ .

ثُمَّ يُحْشَرُ النَّاسُ إِلى الْمِيزَانِ ، فَيَقُومُونَ عِنْدَ الْمِيزَانِ أَلْفَ عَامٍ ، فَمَنْ رَجَحَ مِيزَانُهُ بِحَسَنَاتِهِ فَازَ وَنَجَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَمَنْ خَفَّ مِيزَانُهُ بِحَسَنَاتِهِ وَثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ

حُبِسَ عِنْدَ المِيزَانِ أَلْفَ عَامٍ فى الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ وَالعَذَابِ وَالعَطَشِ وَالْجُوعِ حَتَّى يَقْضِىَ اللهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ .

ثُمَّ تُدْعَى الخَلاَئِقُ إلى المَوْقِفِ بَيْنَ يَدَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فى اثْنَىْ عَشَرَ مَوْقِفاً ، كُلُّ مَوْقِفٍ مِنْهَا مِقْدَارُ أَلْفِ عَامٍ ، فَيُسْأَلُ فى أَوَّلِ مَوْقِفٍ عَنْ عِتْقِ الرِّقَابِ الّتِى وَجَبَتْ عَلَيْهِ ، فإنْ كانَ قَدْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللهُ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ وَجَازَ إلَى المَوْقِفِ الثّانِى فَيُسْأَلُ عَنِ القُرْآنِ وَحَقِّهِ وَقِرَاءَتِهِ ، فإنْ جاءَ بِذَلِكَ تَامًّا جَازَ إلى المَوْقِفِ الثّالِثِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ الجِهَادِ ، فإنْ كانَ جاهَدَ فى سَبِيلِ اللهِ مُحْتَسِباً جازَ إلى المَوْقِفِ الرَّابِعِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ الغِيبَةِ ، فإنْ لَمْ يَكُنِ اغْتَابَ أَحَدًا جَازَ إلى المَوْقِفِ الخَامِسِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ النَّمِيمَةِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ نَمَّامًا جازَ إلى المَوْقِفِ السَّادِسِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ الكَذِبِ فإنْ لَمْ يَكُنْ كَذّابًا جازَ إلى المَوْقِفِ السَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الإخْلاصِ فى طَلَبِ العِلْمِ فإنْ كانَ طَلَبَ العِلْمَ خالِصًا وَأَخْلَصَ فِيهِ وَعَمِلَ بِهِ جازَ إلى المَوْقِفِ الثّامِنِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ العُجْبِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ مُعْجِبًا بِنَفْسِهِ فى دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَلا فى شَىْءٍ مِنْ عَمَلِهِ ، جازَ إلى المَوْقِفِ التَّاسِعِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ التَّكَبُّرِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ تَكَبَّرَ عَلَى أَحَدٍ جازَ إلى المَوْقِفِ العاشِرِ ، فَيُسْأَلُ عَنِ القُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ جازَ إلى المَوْقِفِ الحادِى عَشَرَ ، فَيُسْأَلُ عَنِ الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ جازَ إلى المَوْقِفِ الثّانِى عَشَرَ ، فَيُسْأَلُ عَنْ حَقِّ جارِهِ ، فإنْ كانَ أَدَّى حَقَّ جارِهِ أُقِيمَ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ تَعَالَى قَرِيرَةً عَيْنُهُ فَرِحًا قَلْبُهُ مُبْيَضًّا وَجْهُهُ كاسِيًا ضاحِكاً مُسْتَبْشِرًا فَيُرَحِّبُ بِهِ رَبُّهُ وَيُبَشِّرُهُ بِرِضَاهُ عَنْهُ ، فَيَفْرَحُ عِنْدَ ذَلِكَ فَرَحًا لا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إلاّ اللهُ ، وَإنْ كانَ لَمْ يَأْتِ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ تَامَّةً وَمَاتَ غَيْرَ تَائِبٍ ، حُبِسَ عِنْدَ كُلِّ مَوْقِفٍ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى يَقْضِىَ اللهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ .

ثُمَّ يُؤْمَرُ بِالخَلاَئِقِ إلى الصِّرَاطِ ، فَيَنْتَهُونَ إلى الصِّرَاطِ وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ الجُسُورُ عَلَى جَهَنَّمَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ ، وَقَدْ غَابَتِ الجُسُورُ فى جَهَنَّمَ

مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ عَامٍ وَلَهَبُ جَهَنَّمَ بِجَانِبِهَا يَلْتَهِبُ ، وَعَلَيْهَا حَسَكٌ وَكَلَالِيبُ وَخَطَاطِيفُ ، وَهِيَ تِسْعَةُ جُسُورٍ ، يُحْشَرُ الْعِبَادُ كُلُّهُمْ عَلَيْهَا ، وَعَلَى كُلِّ جِسْرٍ مِنْهَا عَقَبَةٌ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، أَلْفِ سَنَةٍ صُعُودًا ، وَأَلْفِ عَامٍ اسْتِوَاءً ، وَأَلْفِ عَامٍ هُبُوطًا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) يَعْنِي عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْجُسُورِ وَمَلَائِكَةٌ يَرْصُدُونَ الْخَلْقَ فِيهَا ، فَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنِ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ بِاللهِ تَعَالَى ، فَإِنْ جَاءَ بِهِ مُخْلِصًا لَا شَكٌّ فِيهِ وَلَا زَيْغَ جَازَ إِلَى الْجِسْرِ الثَّانِي فَيُسْأَلُ عَنِ الصَّلَاةِ ، فَإِنْ جَاءَ بِهَا تَامَّةً جَازَ إِلَى الْجِسْرِ الثَّالِثِ فَيُسْأَلُ عَنِ الزَّكَاةِ ، فَإِنْ جَاءَ بِهَا تَامَّةً جَازَ إِلَى الْجِسْرِ الرَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الصِّيَامِ ، فَإِنْ جَاءَ بِهِ تَامًّا جَازَ إِلَى الْجِسْرِ الْخَامِسِ ، فَيُسْأَلُ عَنْ حِجَّةِ الْإِسْلَامِ فَإِنْ جَاءَ بِهَا تَامَّةً جَازَ إِلَى الْجِسْرِ السَّادِسِ فَيُسْأَلُ عَنِ الطُّهْرِ مِنَ الْحَدَثِ ، فَإِنْ جَاءَ بِهِ تَامًّا جَازَ إِلَى الْجِسْرِ السَّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَظَالِمِ فَإِنْ كَانَ لَمْ يَظْلِمْ أَحَدًا جَازَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ قَصَّرَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ حُبِسَ عَلَى كُلِّ جِسْرٍ مِنْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ » اهـ الحديث .

ففتش ياأخى نفسك فإن كنت وقعت فى شىء من هذه الذنوب التى ذكرت فى المواقف المذكورة فقد سمعت ماتجازى به وإن لم تكن وقعت فى شىء منها أو وقعت وقبل الله تعالى توبتك لم تقاس شيئا من تلك الأهوال حتى تدخل الجنة برحمة الله تعالى ، ولكن من أين لك أن تعرف أن الله تعالى قبل توبتك فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم تذهل فيه عقول العقلاء ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كل الخلق تحت المشيئة ويخاف عليهم دخول النار ماعدا الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وقد درج الأكابر كلهم على قدم الخوف مع عملهم بالشريعة على الكمال ، فكيف يليق بغيرهم عدم الخوف؟ ولكن إبليس للخلق بالمرصاد ، فربما طمع العصاة فى جانب العفو والمغفرة حتى تراكمت عليهم الذنوب مع عدم التوبة حتى أتلف عليهم دينهم ، وكان ذلك من جملة مكر إبليس بهم. فالعاقل من عمل وخاف من الله عز وجل أن يدخله النار بذنوبه التى شملتها طاعاته فضلا عن معاصيه اهـ.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول : رأيت أن القيامة قد قامت وخفت ميزاني فلا تسأل ماحصل لي من الغم اه .

قلت . ورأيت أنا مرة أن الصراط قد نصب ، والخلق يصعدون ويزلقون ويقعون من مقدار قامة وأنا واقف فجاءني ملك من الملائكة ، فقال لي مالك لاتصعد ، فقلت لاأطيق فقال لي يكون معك شيء من الدنيا ، فقلت ماهي شيء ففتح كفي اليسار فأخرج من بين أصابعي نحو السفاية ، فقال ارمها وأنت تصعد فرميتها فصعدت :

(فالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

ولنشرع بعون الله تعالى في قسم المناهي وهي أقل من المأمورات ، لأن الأصل في الوجود الطاعة اللهم إلا أن يجعل الأمر بالشيء نهي عن ضده فتكون بذلك أكثر من المأمورات : إذا علمت ذلك فنقول وبالله التوفيق :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتدين بفعل شيء من البدع المذمومة التي لايشهد لها ظاهر كتاب ولاسنة ، وأن نجتنب العمل بكل رأى لم يظهر لنا وجه موافقته للكتاب والسنة إلا إن أجمع عليه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى التبحر في معرفة الأحاديث والآثار والإحاطة بجميع أدلة المذاهب المندرسة والمستعملة ، حتى لايكاد يعزب عن علمه من أدلتهم إلا النادر ، ولعله يخرج عن التقليد في أكثر الأحكام ، وأما من لم يبلغ هذا المقام فيجب عليه التقليد لمذهب معين وإلا وقع في الضلال .

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يعرف من طريق كشفه كل مسأل لها دليل من كلام الشارع ويقول : لايبلغ الرجل عندنا مقام الكمال حتى يعرف يقينا ماكان من كلام الشارع ، وماكان من كلام الصحابة وماكان من القياس وماكان رأيا خارجا عن موافقة ماذكرناه قال : ومثل هذا الرأى هو الذي يرمى به وليس لأحد أن يعمل به قال فكل من لم يبلغ مرتبة التبحر في علوم الشريعة ومعرفة أدلة المذاهب فمن لازمه الوقوع في التدين بالآراء التي لايكاد يشهد لها كتاب ولاسنة .

فتبحر ياأخي في علوم الشريعة وأعط الجد من نفسك في المطالعة والحفظ لأحاديث الشريعة وكتب شراحها وحفظ مقالاتهم ، حتى تكون عارفا بجميع المذاهب ، لأنها بعينها

هى مجموع الشريعة المطهرة ، وربما تدين مقلد فى مذهب بقول إمامه من طريق الرأى فصحت الأحاديث فى مذهب آخر بضد ذلك الرأى ، فوقف مع مذهبه ففاته العمل بالأحاديث الصحيحة فأخطأ طريق السنة ، قال وقول بعض المقلدين لولا أن رأى إمامى دليلا ماقال به جمود وقصور مع أن نفس إمامه قد تبرأ من العمل بالرأى ونهى غيره عن اتباعه عليه اه .

وكان أخى أفضل الدين يقول : محل العمل برأى الإمام الذى لايعرف لقوله مستند مالإذا لم نطلع على دليل يخالفه فهناك ينبغى لنا إحسان الظن بقوله ونقول لولا أنه رأى لقوله دليلا ماقاله أما إذا اطلعنا على دليل فلنا تقديم العمل به على كلام المجتهد إذا كان مثلنا من أهل النظر الصحيح ، ويحمل كلام ذلك الإمام على أنه لم يظفر بذلك الدليل ولو ظفر به لعمل به اه :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يحتاج من يريد التقيد على العمل بالكتاب والسنة ويجتنب العمل بالرأى إلى التبحر فى علم العربية وعلم المعانى والبيان والنحو فى لغة العرب حتى يعرف مواطن طرق الاستنباط ، ويعرف أقوال العرب ومجازاتها واستعاراتها ويعرف مايقبل التأويل من الأدلة ومالا يقبلها اه .

قلت : وقد من الله تعالى على بالاطلاع على أدلة مذاهب الأئمة الأربعة وغيرها وعرفت مستند أقوالهم فى جميع أبواب الفقه فما من قول من أقوالهم إلا ورأيته مستندا إلى دليل إما إلى آية وإما إلى حديث وإما إلى أثر وإما إلى قياس صحيح على أصل صحيح وصارت مذاهب الأئمة الأربعة بحمد الله الآن عندى كأنها منسوجة من الشريعة المطهرة سداها ولحمتها ، كما يعرف ذلك من طالع كتابى مختصر السنن الكبرى للامام البيهقى رحمه الله ، وكل من لم يطلع على أدلة المذاهب كما ذكرنا فلا يعرف يميز مسائل الرأى من النص ؛ وربما وقع فى العقائد الزائغة وعمل بالمذاهب الباطلة إلا أن يحكم التقيد بمذهب محرر .

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول : لايكمل الرجل عندنا فى طريق الله عز وجل حتى يكون إماما فى الفقه والحديث والتصوف ، ويحقق هذه العلوم على أهلها اه .

فعلم أنه لاينبغى لمن يدعى العلم بالشريعة أن يكتفى بما فهمه هو منها بغير شيخ كما وقع

لبعض أهل عصرنا فإنه بمجرد ماصار يفهم اشتغل بالتأليف وترك القراءة على العلماء فصار فى جانب والعلماء فى جانب ، وبعد عن معرفة الراجح عند علماء زمانه فخالفوه ولم ينتفع أحد بعلمه ولو أنه صبر فى القراءة على الأشياخ حتى أجازوه بالفتوى والتدريس لزكوه وأقبلت الناس عليه بعد مشايخه فاعلم ذلك .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رحمه الله يقول : قل أن يجتمع فى شخص فى عصر من الأعصار علم الفقه والحديث والتصوف، قال ولم يبلغنا أنها اجتمعت فى أحد بعد الطيبى صاحب حاشية الكشاف إلى وقتنا هذا ، ومن اجتمعت فيه هذه العلوم الثلاثة فهو الذى ينبغى أن يلقب بشيخ أهل السنة والجماعة فى عصره ، ومن لم يلقبه بذلك فقد ظلمه .

فطالع يا أخى كتب أهل السنة المحمدية وكتب علمائها وكتب الأصوليين ورسائل الصوفية ولو سلكت الطريق على يد شيخ خوفا من أن يزل لسانك بشىء من علوم الدائرة الباطنة فينكره عليك العلماء فيقل نفعك للناس بخلاف ماإذا عرفت سياج العلماء فتصير تخرج لهم من العلوم ما يقبلونه وتكتم عنهم مالا يقبلونه فإن رد العلماء على الصوفية إنما هو لدقة مدارك الصوفية عليهم لا لغير ، فلا يلزم من الرد عليهم فساد قولهم فى نفس الأمر كما قال الغزالى رضى الله عنه : كنا ننكر على القوم أمورا حتى وجدنا الحق معهم قال تعالى :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) وقال تعالى : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) اه .

ومما يؤيد كلام الغزالى رحمه الله قول الإمام أبى القاسم الجنيد رحمه الله : كان عندى وقفة فى قولهم يبلغ الذاكر فى الذكر إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يحس ، إلى أن وجدنا الأمر كما قالوا ، فعلم أن النفوس لم تزل تحتج وتميل فى العمل إلى ماعليه الأكثر بحكم التقليد ، وتقدم العمل به لكثرة العاملين به بخلاف ماعليه البعض ، فإنه كالطريق التى سالكها قليل فلا يجد السالك فيها من يستأنس به فى العمل فتصير عنده وحشة فتأمل .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يحكى عن سيدى إبراهيم المتبولى

رضى الله عنه أنه كان يقول : لايكمل الرجل عندنا حتى يعلم حكمة كل حرف تكرر فى القرآن ، ويخرج منه سائر الأحكام الشرعية إذا شاء .

وسمعته رضى الله عنه يقول : لايبلغ العبد مقام الكمال حتى يكون إماما فى التفسير والفقه والحديث ، ويسلك الطريق على يد شيخ عارف بالله تعالى حتى يصير يعرف الطريق بالذوق لابالوصف والسماع ، وهناك يدخل الحضرات المحمدية ويعرف أحكام الشريعة المطهرة ، ويميزها من سائر البدع لأن الكامل من شرطه أن لايكون له حركة ولاسكون فى ليل أو نهار إلاعلى الميزان الشرعى .

وسمعته يقول أيضا : من شرط الكامل الاطلاع من طريق كشفه على جميع أقوال المجتهدين ، ويميز الرأى من أقوالهم ويعرف ماوافق الصواب فى نفس الأمر من أقوالهم وما خالفه .

وسمعته أيضا يقول : كان الأشياخ المتقدمون يقولون : لايجوز لعبد أن يتصدر للطريق إلاإن علم من نفسه التقيد على الكتاب والسنة ، ويكون ظاهره محفوظا من سائر البدع ، وذلك لئلا يقع فى شىء من البدع فيتبعه المريدون عليه فيضل فى نفسه ويضل غيره ، ويكتب من أئمة الضلال وقد بسطنا الكلام على ذم الرأى فى أوائل كتابنا مختصر السنن الكبرى للبيهقى رحمه الله فراجعه .

وسمعت سيدى عليا النبتيتى رضى الله عنه يقول لفقيه : إياك ياولدى أن تعمل برأى رأيته مخالفا لما صح فى الأحاديث ، وتقول هذا مذهب إمامى ، فإن الأئمة كلهم قد تبرءوا من أقوالهم إذا خالفت صريح السنة ، وأنت مقلد لأحدهم بلا شك ، فمالك لاتقلدهم فى هذا القول وتعمل بالدليل كما تقول بقول إمامك الاحتمال أن يكون له دليل لم تطلع أنت عليه ، وذلك حتى لاتعطل العمل بواحد منهما .

ثم إن المراد بالرأى المذموم حيث أطلق فى كلام أهل السنة أن لايوافق قواعد الشريعة المطهرة ، وليس المراد به كل مازاد على صريح السنة مطلقا ، حتى يشمل ماشهدت له قواعد الشريعة وأدلتها ، فإن ذلك لايقول به عاقل ويلزم منه رد جميع أقوال المجتهدين التى لم تصرح بها الشريعة ولاقائل بذلك .

وروى الإمام البيهقى فى باب القضاء من السنن الكبرى أن الرأى المذموم حيث أطلق فهو كل مالا يكون مشبها بأصل قال وعلى ذلك يحمل كل ماورد فى ذم الرأى اه

ومما رويناه عن الأئمة المجتهدين فى تبرئهم من القول بالرأى فى دين الله أن ابن عباس وعطاء وتبعهما على ذلك الإمام مالك كانوا يقولون : كل أحد مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه يقول : حرام على من لايعرف دليلى أن يفتى بكلامى ، وكان إذا أفتى أحدا بفتوى يقول : هذا رأى أبى حنيفة وهو أحسن ماقدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكان يقول : إذا رأيتم كلامى يخالف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعملوا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم واضربوا بكلامى الحائط .

وقال للمزنى حين قلده فى مسألة : لاتقلدنى يا إبراهيم فى كل ماأقول وانظر لنفسك فإنه دين ، وكان يقول فى المسألة إذا رأى دليلها ضعيفا لو صح الحديث لقلنا به ، وكان أحب إلينا من القياس .

وفى رواية : إذا ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم بأبى هو وأمى شىء لم يحل لنا تركه ولا حجة لأحد معه .

وفى رواية : لاحجة لأحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كثروا لا فى قياس ولا فى شىء فإن الله تعالى لم يجعل لأحد معه كلاما ، وجعل قوله يقطع كل قول .

وقد جمعنا كلام الإمام كله فى ذلك فى مقدمة كتابنا المسمى بالمنهج المبين .

وأما الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فحاله معلوم فى اتباع السنة حتى إنه اختفى أيام المحنة ثلاثة أيام ، ثم خرج فقيل له إنهم الآن يطلبونك ، فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمكث فى الغار حين اختفى من الكفار أكثر من ثلاث .

وبلغنا أنه لم يدون له فى الفقه كلاما قط خوفا أن يخالف رأيه كلام الشارع صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول أو لأحد كلام مع الله ورسوله؟ وجميع مذهبه ملفق من صدور أصحابه .

وكان يقول : لايكاد أحد ينظر فى كتب الرأى إلا وفى قلبه دغل . وكان يقول : إذا رأيتم فى بلد صاحب حديث لايدرى صحيحه من سقيمه وهناك صاحب رأى ، فاسألوا من صاحب الحديث ولا تسألوا من صاحب الرأى .

وكان يقول : لاتقلدوا فى دينكم فإنه قبيح على من أعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها

ويمشى فى الظلام، ولعله يشير به إلى العقل الذى جعله الله آلة يميز بها بين الأمور ويستبصر بها فى دينه :

وكان يقول : لاتقلدونى ولا تقلدوا مالكا ولا الأوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم وخذوا الأحكام من حيث أخذوا اه :

قلت : وهو محمول على من كان فيه قوة النظر ، وإلا فقد صرح العلماء بأن التقليد أولى لضعيف النظر فاعلم ذلك والله أعلم .

وروى الإمام مالك بلاغا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ».

وروى الترمذى مرفوعا : « إِنِّى تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِى أَهْلَ بَيْتِى » .

زاد فى رواية : « فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِى فِيهِمَا » .

والمراد بأهل بيته العلماء منهم كعلى وابن عباس والحسن والحسين والله أعلم :

وفى حديث أبى داود وغيره مرفوعا :

« فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » .

وروى البخارى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْىِ هَدْىُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا » .

وروى أيضا : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ الظَّانِّينَ » .

أى الذين يتكلمون فى دين الله بالظن ، ذكره فى أول كتاب الفرائض موقوفا على ابن مسعود :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هٰذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ » .

وسيأتى جملة من الأحاديث الواردة فى الرياء فى العلم فى العهد الذى عقبه إن شاء الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بتأخير الأوامر الشرعية ، بل نبادر لفعلها ولا نستأذن فى ذلك أحدا لعلمنا بأن الأوامر الشرعية لايدخلها حبالة للاستدراج بخلاف الأمور المستنبطة فربما دخلها الاستدراج فلا نفعل شيئا منها إلا بعد قولنا بتوجه تام دستور يارسول الله نفعل كذا وكذا مما أذنت للأئمة أن يسنوه فى عموم قولك :

« مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » .

ثم لانشرع فى العمل بذلك إلا بعد سماع الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بآذاننا لفظا ، فإن لم نسمع إذنه لنا لفظا تمهلنا حتى يلقى الله تعالى فى قلبنا إذنه صلى الله عليه وسلم لنا ورضاه بذلك الفعل منا ، وأن عملنا به أحب إليه صلى الله عليه وسلم من ترك العمل ، وذلك لأن البدعة ولو استحسنت قد لايرضاها الله ورسوله بقرينة مارواه ابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« مَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا » اه .

فمن هنا قلنا إن من الأدب أن نستأذنه صلى الله عليه وسلم فى كل مالم تصرح به الشريعة بخلاف ماصرحت به الشريعة ، فلا يحتاج إلى استئذان بل قال بعضهم من احتاج إلى إذن فيها فإيمانه مدخول فليجدد إيمانه ، ويقول لاإله إلاالله ويلحق بما صرحت به الشريعة فى عدم استحباب الإستئذان فيه ماأجمع عليه .

وإيضاح ذلك أن الوقوف على حد ماورد أكمل فى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم من اتباع البدعة ولو استحسن ، لأننا فى حال الوقوف على حد الشريعة متبعون ، وفى حال تعدينا لحدودها الصريحة مبتدعون ، ولو بالاسم ، وأيضا فإن نظر الشارع أتم وأكمل من

نظرنا ، ولو بلغنا الغاية فى الفهم على أنه قد استقرىء أنه ماتعدى أحد الشريعة وعمل ابتدع إلا وأخل بجانب كبير من صريح السنة المحمدية .

وإيضاح ذلك أن الله تعالى أنزل الشريعة على أعلى غاياتها ، فما ترك إلا ماعلم تعالى أن خواص عباده لايقدرون على المداومة عليه ، وجعل لكل مأمور شرعى وقتا ، فإذا زاد العبد على ذلك أخذ ذلك المزاد وقت غيره من باقى المأمورات ولم يبق له وقت يفعله فيه فمثل هذا زاد بدعة وترك سنة أو سننا بحسب ماذهب فى الابتداء ،وأيضا فإن الله تعالى ماضمن المساعدة والمعونة إلا للعامل بما شرعه تعالى أو شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم عن إذنه لاغيره وأما شرعه غيره فلم يضمن للعامل به المعونة ، كما أن من سافر إلى مكة بالزاد يحصل له المعونة من الله ذاهبا وراجعا لأنه سافر تحت الأمر ، بخلاف من يسافر بلا زاد لأنه لم يسافر تحت الأمر الإلهى ، فلذلك كان يقاسى من الشدائد مالا يحصى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لو صفت القلوب كما أمر الله تعالى لوجد أصحابها جميع مااستنبطه المجتهدون من القرآن كالمنطوق به على حد سواء ، فإن الله تعالى يقول :

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) .

ولكن لما أظلمت القلوب وتكدرت من أكل الحرام والشبهات وارتكاب المعاصى والآثام خفى عليهامنازع الأئمة وسموا كلامهم رأياوالحال أن كلامهم من صلب السنة اه.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربى رحمه الله يقول : من أعطى الفهم فى كتاب الله لايحتاج قط إلى قياس ، فإذا جاء لمسألة ضرب الوالدين مثلا فلا يحتاج فى القول بتحريمه إلى قياس الضرب على التأفيف ، وإنما يأخذ ذلك من مضمون قوله تعالى :

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) .

ومعلوم أن الضرب ليس بإحسان ، فما احتجنا هنا إلى قياس وقس على ذلك اه .

فقف ياأخى عن العمل بكل شىء لم تصرح الشريعة بحكمه ولم تجمع العلماء عليه ولا تتعد فإن الله لايؤاخذك إلا بما صرحت به الشريعة ، كما أنه لايؤاخذ الصحابة إلابما صرح به القرآن والسنة ، وقدر ياأخى نفسك أنك فى زمن الصحابة ، وقبل وجود جميع المذاهب هل كان الحق تعالى يؤاخذك إلا بمخالفة ماصرحت به الشريعة ، فكذلك القول الآن .

وقد ورد على شخص من الفقراء فقال لى مررت البارحة على شخص من علماء المالكية زائرا فقلت له عند الانصراف ، اقرءوا لنا الفاتحة فأبى وقال ماثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بقراءتها عند الانصراف ، فقلت لهذا الزائر الأمر سهل ليس علينا وزر إذا قرأنا الفاتحة عند الانصراف ، ولا إذا لم نقرأها فنمت تلك الليلة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعاتبني على قولى الأمرسهل ، ثم أمرنى بمطالعة مذهب الإمام مالك ، فطالعت الموطأ والمدونة الكبرى ثم اختصرتها ولفظه صلى الله عليه وسلم : ياعبد الوهاب عليك بالاطلاع على أقوال إمام دار هجرتى والوقوف عندها فإنه شهد آثارى اه فعلمت بالقرائن من كلامه صلى الله عليه وسلم أن الوقوف على حد ماورد أحب إليه صلى الله عليه وسلم مما ابتدع وإن استحسن إلا إن أجمع عليه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى مجاهدة ورياضة شديدة على يد شيخ ناصح ليستنير قلبه ويصير أهلا لمجالسته صلى الله عليه وسلم فى حال عمله لسنته على الكشف والشهود أو على الإيمان والتسليم كالأعمى يعرف أنه جليس زيد ، وإن كان لا يراه ؛ فعلم أن منَ عمل بشيء من الأوامر الشرعية غافلا عن شهود المشرع فما أدى الأدب معه حقه لأنه ماشرعه لك إلا لتحضر معه فيه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ينبغى للعالم أن يشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل فعل خالف صريح ماورد فى السنة ، وشهدت له ظواهر الشريعة وعموماتها كما فى مسألتنا هذه فقد شهد لها عموم قوله صلى الله عليه وسلم :

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهِ ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إِلاَّ تَفَرَّقُوا عَلَى أَنْتَنَ مِنْ جِيفَةِ حِمَارٍ » .

رواه الطبرانى وغيره . فيلحق مثل هذا بصريح السنة ولا حرج على فاعله بل له الأجر فى ذلك ، وعلى هذا فتكون قراءة الفاتحة عندالإنصراف وقبل التفرق أولى من تركها كزيادة العمامة على سبعة أذرع ، وكأخذ المعلوم على شيء من القربات الشرعية من إمامة وخطابة وتدريس علم وقراءة قرآن ونحو ذلك وإن لم يسمع لفظه صلى الله عليه وسلم له بالإذن ولأن ذلك أدب على كل حال والله أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هٰذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » .

وفى رواية لأبى داود : « مَنْ صَنَعَ أمْرًا عَلَى غَيْرِ أمْرِنَا فَهُوَ رَدٌّ » .

وروى الإمام أحمد وغيره أن عصيب بن الحرث رضى الله عنه قال : بعث إلى عبد الملك ابن مروان وقال إنا قد جمعنا الناس على أمرين رفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة والقصص بعد الصبح والعصر فقال أما إنهما أمثل بدعكم عندى ولست بمجيبكم إلى شىء منهما ، قال ولم ، قال لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« مَا أحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إلاّ رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ » .

فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنْ إلٰهٍ يُعْبَدُ أعْظَمَ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ » .

وروى الطبرانى مرفوعا بإسناد حسن : « إنَّ اللهَ تَعَالَى حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ » .

وروى الطبرانى باسناد صحيح عن عمر بن زرارة قال : وقف على عبد الله بن مسعود وأنا أقص فقال ياعمر لقد ابتدعت بدعة ضلالة ، أو أنت أهدى من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ قال : فلقد رأيتهم تفرقوا عنى حتى مابقى عندى أحد والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجيب سائلا سألنا عن مسألة فى العلم إلا إن علمنا من أنفسنا ، ومن السائل الإخلاص فإن لم نعلم ذلك تربصنا بالجواب ولو مكثنا سنة وأكثر حتى نجد إخلاصا لأن الخوض فى العلم بلا إخلاص معصية وبتقدير إخلاصنا فى العلم دون السائل فلا نساعده عليه .وطريقنا إذا علمنا من أنفسنا الرياء فى العلم أن نجاهد أنفسنا على التخلص من الرياء فيه والإعجاب به ونأمر بذلك إخواننا ثم نعلمهم بعد ذلك .

وكان سفيان الثورى رضى الله عنه إذا لاموه على عدم جلوسه لتعليم الناس العلم يقول : والله لو علمنا منهم أنهم يطلبون بالعلم وجه الله العظيم لأتيناهم فى بيوتهم وعلمناهم ، ولكنهم يطلبون العلم ليجادلوا به الناس ويحترفوا به أمر معاشهم .

وكان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : لو صحت النية فى العلم لم يكن عمل يقدم عليه إلا العمل وما يحتاج منه ولكن تعلموه لغيرا لعمل :

وحكى أن سفيان الثورى دخل على الفضيل يوما فقال ياأبا على عظنا بموعظة، فقال الفضيل وماذا أعظكم كنتم معاشر العلماء سرجا يستضاء بكم فى البلاد فصرتم ظلمة ، وكنتم نجوما يهتدى بكم فى ظلمات الجهل فصرتم حيرة ، يأتى أحدكم إلى هؤلاء الأمراء فيجلس على فراشهم ويأكل من طعامهم ثم بعد ذلك يدخل المسجد فيجلس يدرس العلم والحديث ويعظ الناس ويقول حدثنى فلان عن فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والله ماهكذا كان من يحمل العلم فبكى سفيان ثم انصرف .

وكان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : إذا رأيتم العالم أو العابد ينشرح لذكره بالعلم والصلاح فى مجالس الأمراء والأكابر فاعلموا أنه مراء .

وكان سفيان بن عيينة رضى الله عنه يقول : من علامة الرياء فى طلب العلم أن يخطر فى باله أنه خير من العوام لأجل العلم ، ومن فعل ذلك مات قلبه فإن العلم لايحيى قلب صاحبه إلا إن أخلص فيه ، وذلك أنه إذا تكبر به صار وجهه للدنيا وظهره لحضرة الله عز وجل .

واعلم أن رائحة الحضرة هى التى بها حياة القلوب فالإقبال عليها يحيى والإدبار عنها يميت ، كما مات قلب الكفار حين أعرضوا عن الله عز وجل . وكان يقول أيضا : إذا رأيتم طالب العلم كلما ازداد علما ازداد جدالا ورغبة فى الدنيا فلا تعلموه .

وكان كعب الأحبار رضى الله عنه يقول : سيأتى على الناس زمان يتعلم جهالهم العلم ويتغايرون به على القرب من الأمراء كما يتغايرون على النساء ، أو كما يتغاير النساء على الرجال فلذلك حظهم من علمهم .

وكان صالح المرى رضى الله عنه يقول : من علامة إخلاص طالب العلم أن ينشرح صدره كلما وصفه الناس بالجهل والرياء والسمعة ، كما أن من علامة ريائه انقباض قلبه من ذلك . وكان يقول : احذروا عالم الدنيا أن تجالسوه خوفا أن يفتنكم بزخرفة لسانه ومدحه للعلم وأهله من غير عمل به . وكان يقول : ربما كان علم العالم زاده إلى النار فلا ينبغى لأحد أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط ، وهناك يعلم حقيقة علمه هل هو حجة له أو عليه .

وكان إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . وكان يقول . مررت بحجر مكتوب عليه قلبنى تعتبر : فقلبته فإذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم

لاتعمل فكيف تطلب علم مالا تعلم ؟ وكان يقول اطلبوا العلم للعمل فإن أكثر الناس قد غلطوا فى ذلك فصار علمهم كالجبال وعملهم كالهباء .

وكان ذو النون المصرى رضى الله عنه يقول : أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علما ازداد فى الدنيا زهدا وتقللا من أمتعتها ، ونراهم اليوم كلما ازداد أحدهم علما ازداد فى الدنيا رغبة وتكثيرا لأمتعتها . وكان يقول :كيف يكون طالب العلم عاملا به وهو ينام وقت الغنائم ووقت فتح الخزائن ووقت نشر العلوم والمواهب فى الأسحار لايتهجد من الليل ساعة .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول :كيف تعلمون هؤلاء العلم وهم يأكلون من الحرام والشبهات والله إنهم كالأموات الذين يرتعون فى النار ولو أنهم كانوا أحياء لوجدوا ألم النار فى بطونهم من هذه الدار .

وكان منصور بن المعتمر رضى الله عنه يقول لعلماء زمانه : لستم علماء ، وإنما أنتم مقلدون بالعلم يسمع أحدكم المسئلة ويحكيها فقط ، ولو أنكم كنتم تعملون بعلمكم لتجرعتم الغصص فإن العلم كله يحثكم على التورع فى المأكل والملبس حتى لايجد أحدكم رغيفا يأكله ولاخرقة يوارى بها عورته ، والله لقد لبست الحصير كذا كذا شهرا حتى وجدت ثوبا من حلال .

وكان الربيع بن خثيم يقول :كيف يرائى العالم بما يعلم مع علمه بأن كل مالا يبتغى به وجه الله يضمحل ، وكان إذا دخل عليه أمير على غفلة وهو يدرس العلم يغتم لذلك ، وكان إذا بلغه أن أحدا من الأمراء عازم على زيارته لايدرس علما ذلك اليوم خوفا أن يراه ذلك الأمير وهو فى محفل درسه العظيم . وكان يقول : من علامة المخلص فى علمه أن ينقبض فى نفسه إذا مدحه الأكابر ويتأثر كما يتأثر ممن اطلع عليه وهو يزنى .

وكان الحسن البصرى يقول : يقبح على طالب العلم أن يشبع من الحلال فى هذا الزمان فكيف بمن يشبع من الحرام ، والله إنى أود أن الأكلة تصير فى بطنى كالآجرة فتكفينى حتى أموت فإنه بلغنا أنها تمكث فى الماء ثلثمائة عام وأكثر . وكان يقول ورع العلماء إنما يكون فى الشبهات وإنما ورعهم اليوم عن المعاصى الظاهرة . وكان يقول بلغنا أنه يأتى آخر الزمان رجال يتعلمون العلم لغير الله كى لايضيع ، ثم يكون عليهم تبعته يوم القيامة ، فليفتش الإنسان نفسه .

وكان بكر بن عبد الله المزنى رضى الله عنه يقول : علامة المرائى بعلمه أن يرغب الناس فى العلم ليقرءوا عليه ، ثم إنه إذا شاوره أحد فى القراءة على غيره لا يرغبه كل ذلك الترغيب .

وكان عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول : قد غلب على القراء فى هذا الزمان أكل الحرام والشبهات حتى أنهم غرقوا فى شهوة بطونهم وفرجهم واتخذوا علمهم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالستهم . وكان يقول لولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس ولكنهم صاروا يحترفون بعلمهم ويصطادون به الدنيا فهانوا فى ملكوت السموات والأرض . وكان يقول من عقل الرجل أن لا يطلب الزيادة من العلم إلا إذا عمل بما علم فيتعلم العلم كى يعمل به إذ العلم إنما يطلب للعمل .

وكان الشعبى رضى الله عنه يقول : اطلبوا العلم وأنتم تبكون ، فإن أحدكم إنما يريد به زيادة إقامة الحجة على نفسه يوم القيامة .

ولما ترك بشر الحافى الجلوس لإملاء الحديث قالوا له ماذا تقول لربك إذا قال لك يوم القيامة لم لا تعلم عبادى العلم ؟ فقال أقول له يارب قد أمرتنى فيه بالإخلاص ولم أجد فى نفسى إخلاصا .

وكان سفيان الثورى يقول : إذا رأيتم طالب العلم يخلط فى مطعمه ويأكل كل ماوجد فلا تعلموه العلم فإن من لا يعمل بعلمه شبيه بشجر الحنظل كلما ازداد ريا بالماء ازداد مرارة . وكان يقول لو أن عبدا تعلم العلم كله ثم عبد الله تعالى حتى يصير كالسارية أو الشن البالى ثم لم يفتش على ما يدخل جوفه أحلال هو أم حرام ما تقبل الله منه . وكان يقول والله لقد أدركنا أقواما يروضون الطالب سنين كثيرة ولا يعلمونه شيئا من العلم حتى يظهر لهم صلاح نيته فى العلم .

وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول : خدمت الإمام مالكا رحمه الله تعالى عشرين سنة فكان منها سنتان فى العلم وثمانية عشر سنة فى تعليم الأدب ، فياليتنى جعلت المدة كلها أدبا .

وكان الإمام الشافعى رحمه الله يقول : قال لى مالك رحمه الله يا محمد اجعل علمك ملحا وأدبك دقيقا .

وقال أبو عصمة : بت ليلة عند الإمام أحمد أطلب الحديث فوضع لى إناء فيه ماء للتهجد فجاء إلى صلاة الصبح فوجد الإناء بحاله ، فقال لى لماذا جئت ؟ فقلت جئت أطلب الحديث ، فقال كيف أعلمك الحديث وليس لك تهجد فى الليل ؟ اذهب لحال سبيلك .

وكان عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول : من حمل القرآن ثم مال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزوا ولعبا ؛ وكان يقول إذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن من جوفه والله مالهذا أحمل ، أين مواعظى وزواجرى وكل حرف منى يقول لك لاتعص ربك .

وكان النووى رحمه الله يقول : عليكم بالإخلاص فى العلم لينفع الله تعالى به العباد ، قال ولم يبلغنا عن أحد من العلماء غير العاملين أنه رؤى بعد موته فقال غفر الله لى بعلمى أبدا قال ومن الدلائل الصريحة على رياء العالم أن يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره .

وكان الشافعى رضى الله عنه يقول : ينبغى للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله عز وجل ولا يعتمد على العلم فقط فإنه قليل الجدوى فى الآخرة اهـ . وأقاويل العلماء فى الإخلاص فى العلم كثيرة مشهورة .

وكان شيخنا الشيخ شمس الدين السمانودى رحمه الله تعالى إذا تفرس فيمن يطلب العلم أنه يريد يصطاد به الدنيا بطريق ولاية القضاء وقبول الرشا لايعلمه مسئلة واحدة ويقول له ، طهر قلبك من محبة الدنيا حتى تصلح للعلم ثم تعال أعلمك العلم ، ثم قال : وكان شيخنا العارف بالله تعالى سيدى على النبتيتى ، لا يعلم أحدا حتى يقول له يا ولدى ما نويت بهذا العلم الذى تطلب منى أن أعلمك ، فإن رأى نيته صالحة علمه وإلا علمه النية ثم علمه رضى الله عنه والله أعلم .

وروى النسائى والترمذى وغيرهما مرفوعا : « أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ فَقَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِىءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِى النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ فُلَانٌ عَالِمٌ . وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ سُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِى النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ

وَلَـٰكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ ، وَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ » .

وَقولُه جرىء بالمد : أى شجاع .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « سَيَتَفَقَّهُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي فِي الدِّينِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ نَأْتِي الْأُمَرَاءَ نُصِيبُ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَنَعْتَزِلُهُمْ بِدِينِنَا ، وَلَا يَكُونُ ذَٰلِكَ كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلَّا الشَّوْكُ ، وَكَذَٰلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إِلَّا الْخَطَايَا وَالْآثَامُ » .

وروى عبدالرزاق وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال «كيف بكم إذا لابستم فتنا يربو فيها الصغير ويهرم منها الكبير ، وتتخذ سيئة ، فإذا تركت يقال تركت السنة ، فقيل له ومتى ذلك ؟ فقال : إذا قلت أمناؤكم وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم وكثرت خطاياكم ، وتفقه الناس لغير الدين والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وفى رواية : وتعلم العلم لغير العمل» .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« بَشِّرْ هَٰذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالدِّينِ وَالرِّفْعَةِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ » .

وقوله سمع بتشديد الميم : ومعناه أن كل من أظهر علمه للناس رياء أظهر الله تعالى نيته الفاسدة فى عمله يوم القيامة ، وفضحه على رءوس الإشهاد الذين راءاهم فى دار الدنيا .

وَرَوَى البيهقى مرفوعا : « إِنَّ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ وَإِنَّ الرَّجُلَ

لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُكْتَبُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ مَعْمُولٌ بِهِ فى السِّرِّ فَيضْعَفُ أَجْرُهُ سَبْعِينَ ضِعْفًا فَلاَ يَزَالُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتّى يَذْكُرَهُ وَيُعْلِنَهُ فَيُكْتَبُ عَلاَنِيَةً وَيُمْحَى تَضْعِيفُ أَجْرِهِ كُلِّهِ ثُمَّ لاَيَزَالُ بِهِ حتّى يُحِبَّ أَنْ يَذْكُرَ بِهِ وَيُكْتَبَ رِيَاءً » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِمَنْ عَبَدَهُ رِيَاءً وَسُمْعَةً بِعِزَّتِى وَجَلاَلِى مَاأَرَدْتَ بِعِبَادَتِى؟ قَالَ بِعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ رِيَاءَ النَّاسِ، قَالَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَىَّ مِنْهُ شَىْءٌ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصُحُفٍ مُخْتَتَمَةٍ وَتُفْتَحُ بَيْنَ يَدَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَلْقُوا هٰذِهِ وَاقْبَلُوا هٰذِهِ فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ وَعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ مَا رَأَيْنَا إِلاَّ خَيْرًا فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ هٰذَا كَانَ لِغَيْرِ وَجْهِى وَإِنِّى لاَأَقْبَلُ إِلاَّ مَا ابْتُغِىَ بِهِ وَجْهِى » .

قلت: والمراد والله أعلم بوجه الله تعالى هو وجه التشريع بأن يفعل ذلك امتثالا لأمره فهذا هو وجهه تعالى .

وإيضاح ذلك أن كل عمل له وجهان وجه إلى الكون ووجه إلى الحق، فما وافق الشرع كان وجها للحق وما خالفه كان لغير الحق تعالى فافهم والله أعلم .

وروى البيهقى عن ابن عباس أنه قال « من راءى بشىء فى الدنيا بعمله وكله الله يوم القيامة إلى عمله ، وقال له انظر هل يغنى عنك شيئا » . قوله بعمله : أى من عمله .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ فى جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ أَعَدَّهُ اللهُ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ بِعَمَلِهِمْ » .

وفى رواية : « إِنَّ فى جَهَنَّمَ وَادِيًا تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةِ مَرَّةٍ أَعَدَّهُ اللهُ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ بِأَعْمَالِهِمْ فى الدُّنْيَا » .

وروى أبو يعلى وغيره مرفوعا : « مَنْ أَحْسَنَ صَلاَتَهُ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » .

وروى البيهقى مرفوعا : « مَنْ صَامَ يُرَائِى النَّاسَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِى فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ صَلَّى يُرَائِى فَقَدْ أَشْرَكَ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هٰذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ ، فَقِيلَ : فَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يا رسولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُهُ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ ، قَالُوا ؟ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسولَ اللهِ ؟ قَالَ : الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جُوزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا ؟ هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ لِلهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِهِ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » .

زاد فى رواية : « فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى ، فَهُوَ لِلَّذِى أَشْرَكَ وَأَنَا مِنْهُ بَرِىءٌ » .

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال « سيقرأ ناس القرآن على لسان محمد فيحلون حلاله ويحرمون حرامه وينزلون عند منازله لايحوزون منه شيئا إلا كما يحوز رأس الحمار الميت » :

وروى ابن حبان فى غير صحيحه والحاكم وغيرهما عن معاذ بن جبل مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاَكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ فَجَعَلَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكًا بَوَّابًا عَلَيْهَا فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينِ يُصْبِحُ إِلَى حِينِ يُمْسِي لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى

السَّماءِ الدُّنيا ذَكَرتهُ فَكَثَّرتهُ ، فَيقُولُ ذٰلِكَ المَلَكُ لِلحَفَظَةِ : اضرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا صَاحِبُ الغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنِ اغْتابَ النَّاسَ أَنْ يُجَاوِزَنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ أَعْمَالِ العَبْدِ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّماءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلَ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هٰذَا عَرَضَ الدُّنيَا وَكَانَ يَفْتَخِرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ ، قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَقِيَامِ لَيْلٍ وَتَهَجُّدٍ إِلَى السَّماءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ الكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ بِعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِ ذٰلِكَ إِلَى السَّماءِ الرَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ يَشْمَتُ بِالنَّاسِ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ : وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ زَكَاةٍ وَصَلاَةٍ وَجِهَادٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الخَيْرِ إِلَى السَّماءِ الخَامِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الحَسَدِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَحْسُدُ النَّاسَ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ إِلَى السَّماءِ السَّادِسَةِ كَأَنَّهُ العَرُوسُ المَزْفُوفَةُ إِلَى بَعْلِهَا ، فَيَقُولُ لَهُمُ المُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ العُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَعْمَلُ وَيَعْجَبُ بِعَمَلِهِ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ إِلَى السَّماءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنْ أَرَادَ غَيْرَ وَجْهِهِ أَنْ يُجَاوِزَنِي إِلَى غَيْرِي فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ الَّذِينَ يُشَيِّعُونَهُ وَهُمْ ثَلاَثَةُ آلاَفِ مَلَكٍ يَا رَبِّ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْتُمُ الحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى قَلْبِهِ ، إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هٰذَا

رِفْعَةً عِنْدَ الْأُمَرَاءِ وَذِكْرًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ ، وَصِيتًا فِي الْمَدَائِنِ قَالَ : ثُمَّ تَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى مَا فَوْقَ السَّمٰوَاتِ وَتُشَيِّعُهُ مَلَائِكَةُ الْحُجُبِ حَتَّى يَقِفُونَ بِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هٰذَا غَيْرَ وَجْهِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَتَلْعَنُهُ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ » الحديث بالمعنى فى بعضه .

قال الحافظ المنذرى: وآثار الوضع ظاهرة على هذا الحديث فى جميع طرقه وجميع ألفاظه اهـ .

قلت: ويحتمل أن يكون هذا الحديث له أصل صحيح أو حسن أو ضعيف ولكن نسى الراوى لفظ النبوة فترجم عنه بلسانه هو والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نعبث بشىء من جوارحنا فى الصلاة كمسح الحصى عن الجبهة ومسك اللحية إلا لضرورة أدبا مع الله تعالى. وهذا العهد لا يصح لأحد العمل به إلا بعد السلوك على يد شيخ صادق يقطع به الحجب حتى يدخله حضرة الله تعالى ويعاشر أهلها وينظر ماهم عليه من الخشية والرعدة والخرس والبهت ، حتى لا تكاد تتحرك لهم جارحة من الهيبة ولا يحك جسده إذا أكله ، وأما من لم يسلك الطريق ولم يقطع الحجب ولم يخالط أهل تلك الحضرة الإلهية فإنما هو فى حضرة الجن والشياطين ، ومن شأنهم كثرة الحركة كما هو شأن لهب النار الذى خلقوا منه ، فالعبد وإن كان فى أصله قليل الحركة يصير ذا حركة بحكم سرقة الطبع من الشياطين .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن طلبت العمل بهذا العهد واللحوق بأهل الأدب مع الله تعالى والله يتولى هداك .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلَا يَمْسَحِ الْحَصَى فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ » .

وفى رواية للشيخين : « فَلَا تَمْسَحِ الْحَصَى وَأَنْتَ تُصَلِّي فَإِنْ كُنْتَ وَلَا بُدَّ فَاعِلًا فَوَاحِدَةٌ تَسْوِيَةُ الْحَصَى » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا مِنْ حَالَةٍ يَكُونُ الْعَبْدُ فِيهَا أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ أَنْ يَرَاهُ وَهُوَ سَاجِدٌ يُعَفِّرُ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ » .

وفى حديث ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« يَا غُلَامُ تَرِّبْ وَجْهَكَ » .

وروى الشيخان : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وَسلمَ نَهَى أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ مُخْتَصِرًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمر قط بين يدى مصل خوفا أن نكتب بذلك فى ديوان الشياطين لتجرئنا على حضرة الله تعالى التى تخيلها المصلى فى ذهنه ، كما أشار إليه خبر :

« إِنَّ اللهَ قِبْلَةَ أَحَدِكُمْ » .

ولو أن أحدا من أهل الله تعالى ضرب بالسيف ليمر لاختار ضرب السيف على المرور ولا يمر لأمور يشهدها لا تذكر إلا مشافهة ، وقد بسطنا الكلام على حضرة التنزيه فى كتاب اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر وهو مجلد ضخم يحل مشكلات علم الكلام :

(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدِى المُصَلِّى مَا ذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ » .

قال أبو النضر لا أدرى أقال أربعين يوما أو شهرا أو سنة :

وروى الترمذى عن أنس قال : لأن يقف أحدكم مائة عام خير له من أن يمر بين يدى أخيه وهو يصلى .

وروى ابن ماجه فى سننه بإسناد صحيح وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُكُمْ مَا لَهُ فِى أَنْ يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَىْ أَخِيهِ مُعْتَرِضًا وَهُوَ يُنَاجِى رَبَّهُ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ فِى ذَلِكَ المَقَامِ مِائَةَ عَامٍ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْخَطْوَةِ الَّتِى خَطَاهَا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ لِيَسْتُرَهُ مِنَ النَّاسِ فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلْيَدْفَعْ فِى نَحْرِهِ ، فَإِنَّ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ » .

وفى رواية للشيخين : « وَلْيَدْرَأْ مَا اسْتَطَاعَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ألا نتهاون بترك الصلاة أو بإخراجها عن وقتها إذا اشتد مرضنا فضلا عن أوقات الصحة ، بل نصلى بحسب استطاعتنا فى الطهارة وفعل الأركان ، ولا ننتقل لمرتبة سفلى إلا بعد عجزنا عن العليا ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من أكابر الناس فضلا عن غيرهم ، فيترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس ، فيقولون له صل جالسا فإنك ضعيف فيطاوعهم فى ذلك وهو يعلم من نفسه القدرة على الوقوف حتى لا يسفه كلامهم ، والحق أحق أن يتبع ، فليراع العبد ربه ويبذل استطاعته حتى لا يترك منها بقية وليحذر من تلبيس النفس عليه بميلها إلى الكسل والرخص فإنهم قالوا إن بذل الإنسان استطاعته فى التقوى أشد من تقواه حق تقاته ، وذلك أن تقوى الله حق تقاته أن يعلم العبد أن تقواه من الله تعالى ، ولولا أنه قواه على ذلك ماقدر يتقى ، وأما تقوى الله بحسب الاستطاعة فهو أن يبذل قوته فى التقوى بحيث لايبقى من قدرته بقية قط وهذا عزيز فإنه لابد أن النفس تخلى من قوتها بقية تتنفس بها ، ولا يخرج عن ذلك إلا الأكابر من الأولياء وغالب الناس يظن أن تقوى الله حق تقاته أشد وأشق وليس الأمر كذلك ، ولا تصل يا أخى إلى معرفة تمييز حظ النفس مما هو لله تعالى إلا بعد السلوك على يد شيخ مرشد يخرجك من حضرات التلبيس :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد ومسلم مرفوعا :

« بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ » .

قلت والمراد بالرجل هنا المؤمن ، ومعنى الحديث بين الرجل منكم أيها المؤمنون وبين الكافر ترك الصلاة والله أعلم .

وفى رواية لأحمد وأبى داود والنسائى والترمذى وكل حسن صحيح مرفوعا :

« الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَرْكُ الصَّلاَةِ فَمَنْ تَرَكَهَا كَفَرَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الْمِلَّةِ » .

وفى رواية للطبرانى : « مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ كَفَرَ جِهَارًا » .

وفى رواية لابن ماجه والبيهقى : « فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ » .

وروى الترمذى عن عبد الله بن شقيق رضى الله عنه قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ، وكان أيوب يقول ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه وقال إسحاق صح عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ عَمْدًا كَافِرٌ » .

وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن النبى صلى الله عليه وسلم أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يخرج وقتها كافر والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ألا نناجى قط الحق تعالى فى صلاة أو قراءة حال النعاس ، وذلك أن من الأدب فى خطاب الأكابر أن يكون بكل عضو وذلك لا يكون إلا مع حضور القلب ، وحضور القلب لا يكون إلا مع اليقظة فمن خاطب الحق تعالى حال النعاس واشتغال القلب بغير الله فقد أساء الأدب .

وفى كلام سيدى عمر بن الفارض رحمه الله تعالى :

إِذَا مَا بَدَتْ لَيْلَى فَكُلِّىَ أَعْيُنٌ ... وَإِنْ هِىَ نَاجَتْنِى فَكُلِّى مَسَامِعُ

وبالجملة فلا تعرف يا أخى أدب مخاطبة الحق تعالى إلا إن سلكت على يد شيخ صادق ، وتحتاج إلى صبر شديد وزمن طويل .

وقد قال أئمة الطريق عليكم بالإخلاص فى الأعمال فإنه يوصلكم إلى الجنة ، وعليكم بالأدب مع الله تعالى فى عباداتكم فإن ذلك يوصلكم إلى دخول حضرة الله تعالى وتكونون إخوان النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فإن هؤلاء هم أصحاب المراتب فى الأدب مع الله تعالى فتشاهدون أقوالهم وأفعالهم وتتعلمون من آدابهم ، وما دمتم لم تدخلوا حضرة الله تعالى فأنتم فى حضرة الشيطان اهـ .

فعلم أن من الأدب مع الله تعالى إذا حضر أوان النعاس أن يسكت العبد ويأخذ فى المراقبة من غير تلفظ بشىء :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلَاةِ فَلْيَرْقُدْ حَتَّى

يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ فإنَّ أحَدَكُمْ إذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ » .

وَفى رِوَايَة للنسائى مرفوعا : « إذَا نَعَسَ أحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّى فَلْيَنْصَرِفْ فَلَعَلَّهُ يدْعُو عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يدْرِى » .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « إذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بفوات حضورنا فى المواكب الإلهية من حين ينصب موكب الحق تعالى إلى أن تنقضى حوائجنا فينبغى الاستعداد لحضورها بتقليل الأكل والنوم على طهارة ونحو ذلك مما يطرد الشيطان عنا فإن الشيطان لا يفارق من ينام على شبع أوحدث ، فكلما أراد العبد أن يقوم يوسوس له فينومه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق حتى يخلصه من جميع العوائق ويخرجه من حضرات الشياطين إلى حضرات الملائكة المقربين ، وقد قالوا من شرط العبدالخالص أن لايكون له عوائق تعوقه عن حضرة خدمة مولاه فى ليل أونهار .

وبالجملة فأهل المواكب الإلهية كأهل المواكب الدنيوية ، فكما أن كل من كان أكثر الغيبة عن حضور موكب السلطان يقطعون جامكيته ويمحون اسمه من ديوان مماليك السلطان فكذلك من أكثر النوم والغيبة عن حضور موكب الرحمن تتكدر منه أكابر الحضرة ويقطعون عنه الامداد ولا يقضون بعد ذلك له حاجة ويصيرون يبغضونه لزهده فى خدمة ربهم فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

واعلم يا أخى أن الموكب الإلهى بالليل ينصب غالبا من أول الثلث الآخر وكثيرا ما ينصب أوائل النصف الثانى إلا ليلة القدر وليلة الجمعة ، فإنه ينصب من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

وفى رواية للإمام سنيد بن عبد الله الأزدى إلى انصراف الناس من صلاة الصبح فينبغى لطالب الخيرات أن لا يغفل عن ربه فى هذه الأوقات إمابصلاة وإمابذكر وإما غير ذلك من المراقبة لله تعالى :

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّهُ ذُكِرَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ نَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ فَقَالَ ذَلِكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِى أُذُنَيْهِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « إِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ الصَّلَاةَ مِنَ اللَّيْلِ أَتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ قُمْ صَلِّ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ فَقَدْ أَصْبَحْتَ فَيَأْتِيهُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ وَسَوْفَ تَقُومُ فَإِنْ قَامَ وَصَلَّى أَصْبَحَ نَشِيطاً خَفِيفَ الْجِسْمِ قَرِيرَ الْعَيْنِ وَإِنْ هُوَ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ حَتَّى أَصْبَحَ بَالَ الشَّيْطَانُ فِى أُذُنَيْهِ » .

قلت وقع من بعضهم شك فى أن ذلك بول حقيقى فرأى الشيطان فى منامه وهو يبول فى أذنه ، فاستيقظ والبول يخر على ثيابه والله أعلم :

وروى الشيخان مرفوعا: « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَأَ انْحَلَتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ صَلَّى انْحَلَتْ عُقَدُهُ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ » .

زاد فى رواية لابن ماجه : « وَلَمْ يُصِبْ خَيْرًا » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا : « قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ لِسُلَيْمَانَ يَا بُنَيَّ لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن حبان وغيره مرفوعا : « إِنَّ اللهَ يَبْغُضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِى الْأَسْوَاقِ جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ حِمَارٍ بِالنَّهَارِ عَالِمٍ بِأَمْرِ الدُّنيَا جَاهِلٍ بِأَمْرِ الآخِرَةِ » .

قلت الجعظرى : المختال فى مشيته والجواظ الغليظ الجافى والصخاب الذى يرفع صوته فى الأسواق بسبب أمور الدنيا والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمارى بالعلم قط

ولا نكتمه عن أحد علمنا منه الاخلاص فيه ولو كفر هو بتعليمنا له ، كما أن من شرط المعلم كذلك الاخلاص :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من علامة إخلاص المعلم للعلم أن لا يلتفت إلى اعتراف الناس بتعليمه أو كفرانهم به ، وكل من تكدر ممن تركه من طلبته وقرأ على غيره فما شم للاخلاص رائحة وهو مراء بعلمه اه :

وعبارة الإمام النووى فى كتاب التبيان وفى مقدمة شرح المهذب .

اعلم أن من أهم ما يؤمر به المعلم أن لا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره قال : وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله الكريم اه .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : إياك أن تكتم العلم عن عدوك فإن الشرع حقيقة إنما هو لله ولرسوله ، ومن شرط كل محب لله ولرسوله أن يحب نشر ما شرعه الله ورسوله فى جميع الخلق سواء كانوا أصدقاء أو أعداء .

وقد جاء التحذير العظيم فى حق من كتم العلم عن أهله كما سيأتى فى الأحاديث وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه ينشد :

أَأَنْشُرُ عِلْمًا بَيْنَ رَاعِيَةِ الْغَنَمْ وَأَنْثُرُ مَنْظُومًا لِسَارِحَةِ النَّعَمْ

إلى أن قال :

فَإِنْ يَسَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهِ وَأَدْرَكْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفِيدًا وَاسْتَفَدْتُ وِدَادَهُمْ وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَىَّ وَمُكْتَتَمْ
وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إنما توعد الشارع صلى الله عليه وسلم السلف الصالح إذا كتموا العلم تشجيعا لهم حتى يتكلموا به لخوفهم من الشهرة ، وأما الناس اليوم فلو كان التحذير فى الكلام لتكلموا ولم يسكتوا ، فكان السلف الصالح لكثرة إخلاصهم يود كل واحد منهم أن لو كانت الشهرة بالعلم لأخيه فكانوا يقوون نور إخوانهم ويضعفون نورهم عند الناس ، وربما عرضت المسئلة الواحدة على ثلاثين نفسا وكل منهم يردها حتى تجىء إلى الأول خوفا من القول فى دين الله بالرأى اه .

واعلم يا أخى أن حكمة النهى عن المماراة فى العلم هو للاستهانة به ، فيجلس الفقيهان يتكلمان بالعلم ولا يقصدان العمل وقلوبهم غافلة عن العمل بالكلية ويشكك كل واحد منهما الآخر فيما يفهمه ويدخل عليه الشبهة ولا يعلمه بالجواب ، وإلا فلو شككه ثم أجابه وعلمه الجواب لما نهى عنه بل هو مطلوب لأن فيه امتحانا للطالب ليختبر به علمه وجهله وكثيرا ما يكون طالب العلم جازما بحكم فهمه من الآية أو الحديث فيجلس مع بعض المجادلين فيدخل عليه التشكيك ثم يلتهى عنه بأمر فيصير ذلك الطالب مترددا فيما كان جازما به وليس ذلك من شأن أهل الإيمان الصادق ، وهذا المعنى الذى فهمته من حكمة النهى عن المماراة اقتبسته من حديث مسلم وغيره فى شأن رؤية البارى جل وعلا فى القيامة :

« هَلْ تُمَارُونَ فى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ » الحديث .

ففسر الشارحون هناك قوله تمارون أى تشكون فكذلك يكون المعنى هنا ومن ظفر بنقل فى ذلك فليلحقه بهذا الموضع من هذا الكتاب والله أعلم .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُجَادِلَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا وَشَرَى بِهِ ثَمَنًا وَكَذَا وَكَذَا حَتَّى يَفْرُغَ الْحِسَابُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهور فى رواية الحديث بل نتثبت فى كل حديث نرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرويه عنه إلا إن كان لنا به رواية صحيحة .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا ينبغى لفقيه أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا إلا إن كان له به علامة يعرف بها ، أن ذلك من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إما من طريق النقل وإما من طريق سؤاله للنبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك الحديث . وقوله هو من كلامى يقظة ومشافهة ، هذا كله فيما كان ضعيفا من طريق النقل ، أما ما صح من طريق المحدثين واستحسن فلا يحتاج إلى سؤاله صلى الله عليه وسلم فيه .

فاعلم ياأخي أن أكثر من يقع في خيانة هذا العهد المتصوفة الذين لاقدم لهم في الطريق فربما رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس من كلامه لعدم ذوقهم وعدم فرقانهم بين كلام النبوة وكلام غيرها، ولو أنهم كانوا من العارفين لعرفوا كلام النبوة وميزوه عن غيره ، فإن لامعة نور النبوة لا تخفى على من في قلبه نور .

وقد سمعت بعضهم يحكي قول أبي محمد الكتاني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له يا رسول الله ادع الله لي أن لا يميت قلبي ، فقال : قل كل يوم أربعين مرة : يا حي يا قيوم لاإله إلاأنت ، وهي رؤية منام فصار هذا يرويه عنه على إيهام أنه صلى الله عليه وسلم قاله لأصحابه ، ورواه عنه الأئمة الحفاظ وهو وهم فاحش ، فلولا أنني أعلمته بذلك ما علمه

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : إنما قال بعض المحدثين أكذب الناس الصالحون لغلبة سلامة بواطنهم فيظنون بالناس الخير وأنهم لا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرادهم بالصالحين المتعبدون الذين لا غوص لهم في علم البلاغة فلا يفرقون بين كلام النبوة وغيره بخلاف العارفين فإنهم لا يخفى عليهم ذلك حتى أن بعضهم كان يعرف صوت الشريف من غيره من وراء حجاب لكونه من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

وقد من الله تعالى علي بتمييز كلام النبوة من غيره من حيث حلاوة التركيب العلمي بأنه لا أحد يقدر على فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربما سمع الصحابي شيئا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عنه حفظ بعض اللفظ والمعنى موفور في قلبه فيكمل لنا الحديث بلفظه هو فأعرفه بركاكة تركيبه ، وربما ظن بعض المحدثين أن ذلك الحديث موضوع ، والحال أن الوضع إنما هو في مثل لفظة ونحوها وأصل الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتعلم يا أخي علم الحديث لتخرج من الوقوع في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بغير قصد، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » قال الجلال السيوطي إنه متواتر .

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » باسقاط قوله « مُتَعَمِّدًا » (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نغترّ بحفظ العلم الذى يطلب منا العمل به من غير عمل كما عليه غالب الناس اليوم ، وما هكذا كان السلف الصالح رضى الله عنهم فقد بلغنا أنهم كانوا يستغفرون من كل مسئلة لم يعملوا بها ويعدون ذلك ذنبا ، ومن كان هذا مشهده ذهب عنه الاغترار بالعلم .

ثم اعلم يا أخى أن من الناس من قسم الله تعالى له العمل بما علم ، ومنهم من قسم الله العلم من غير عمل ، ومنهم من قسم الله له العمل بغير علم ، ومنهم من لم يقسم له علم ولا عمل فالواجب على كل من لم يعمل بعلمه كثرة الاستغفار والتوبة والإكثار من تعليم العلم للناس لعلهم يعملون به فيكون ذلك فى صحائف من علمهم حيث فاته العمل بما علم ثم يستغفر من ذلك فربما لا يكون عمل الناس بعلم العالم يجبر خلل تركه هو العمل بما علم .

وكان الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله يقول : من حقق النظر لم يجد عاقلا إلا وهو عامل بعلمه لا يمكنه أن يترك العمل به أبدا ما دام عاقلا ، وذلك أنه إن عمل بعلمه على وفق الشريعة المطهرة بأن باشر العمل على وجه الإخلاص فيه فهو عامل بعلمه ، وإن وقع فى معصية فاستغفر منها وتاب فقد عمل أيضا بعلمه ، فإنه لولا علمه ما اهتدى لكون ذلك معصية فما جعله يتوب منها إلا العلم فمثل هذا قد ينفعه علمه على كل حال اه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ليرقيه إلى درجات المراقبة لله تعالى والخوف من عذابه حتى يعرف كل مسئلة ترك العمل بها ويستغفر ، فلا يلتبس عليه مسئلة واحدة من كل باب لم يعمل بها كما كان عليه العلماء العاملون .

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا رحمة الله تعالى يقول : كل فقيه لا يجتمع بالقوم فهو كالخبز الحاف بلا أدم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يكمل طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد من أشياخ الطريق ليخرجه من رعونات النفوس ومن حضرات تلبيس النفس ، ومن لم يجتمع على أهل الطريق فمن لازمه التلبيس غالبا دعوى العمل بما علم وكل من نسبه إلى قلة العمل أقام عليه الأدلة التى تمشى عند الله ، ومن شك فى قولى هذا فليجرب .

فاسلك يا أخى على يد شيخ والزم خدمته واصبر على جفائه لك وتغرباته عليك فإن الذى يريد أن يطلعك عليه أمر نفيس لا يقابل بالأعراض الدنيوية فإن للعلم رياسة عظيمة وللنفس فيه دسائس ربما خفيت على مشايخ العلم فضلا عن الطلبة :

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فى الرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ وَلا آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » .

وروى البزار وغيره مرفوعا : « مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ ، كَمَثَلِ الْفَتِيلَةِ تُضِيءُ عَلَى النَّاسِ وَتَحْرِقُ هِيَ نَفْسَهَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « كُلُّ عِلْمٍ وَبَالُهُ عَلَى صَاحِبِهِ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ بِهِ » .

وفى رواية له مرفوعا : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن منصور بن زاذان قال : بلغنا أن العالم إذا لم ينتفع بعلمه تصيح أهل النار من نتن ريحه ، ويقولون له ماذا كنت تفعل ياخبيث فقد آذيتنا بنتن ريحك ؟ أما يكفيك مانحن فيه من الأذى والشر فيقول لهم كنت عالما فلم أنتفع بعلمى والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا ندعى العلم إلا لغرض شرعى ، ولا نقول أبدا نحن من أعلم الناس لا بلساننا ولا بقلبنا ومن أين لنا ذلك ونحن نعلم أن فى بلدنا من هو أعلم منا فضلا عن الاقليم الذى نحن فيه ثم إذا جرى القدر علينا بدعوى العلم . ولو فى وقت غيظ فالواجب علينا أن نبادر إلى التوبة والاستغفار على الفور خوفا من نزول المقت علينا من الله عز وجل ، وهذه مصيبة لا يبتلى بها أحد وهو عاقل أبدا ، فإنه ما من علم طالع العبد فيه وأحاط ببعضه علما إلا وسبقه إليه إلى وضعه علماء ربما لا يصلح أن يكون هو من طلبتهم .

وقد ادعى شخص مرة العلم وقال : والله لا أعلم أن أحدا من أبى بكر الصديق إلى عصرنا هذا أعلم منى فى علم من العلوم ، فقام إليه شاب صغير لا لحية له فقال هل أنت أعلم

من الإمام الشافعي ؟ هل أنت أعلم من سيبويه ؟ هل أنت أعلم من أئمة الأصول ؟ هل أنت أعلم من علماء المعاني و البيان ؟ هل أنت أعلم من أئمة التفسير ؟ هل أنت هل أنت ، وهكذا فما درى المدعي ما يقول فافتضح في المجلس .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : بلغنا أن محمد بن جرير الطبري ألف تفسيرا ألف مجلدة ضخمة وكان محفوظه من متون العلوم نحو حمل مائة بعير .

وكان ابن شاهين يقول : كتبت من المؤلفات مالا أحصى عده وحسبت الحبر فبلغ ألفين من القناطير .

وكان بعضهم يقول : لو كتبت ما في صدري ما حمله مركب ، ولم يزل في كل عصر علماء حاملون العلم لا يجيء العلماء المشهورون من طلبتهم .

وسمعت شخصا ضعيف الحال مثلي يقول : والله العظيم لا أعلم الآن في مصر كلها أعلم مني ولو أنني علمت لمشيت إليه واستفدت منه اه ، ومثل هذا مجنون وأقل جزائه أنه حرم بركة علماء زمانه ومات بجهله .

وقد رأيت شخصا يدعي القطبية يقول : أطلعني الله تعالى على دائرة الأولياء كلهم فلم أر فلانا منهم وأشار إلى شخص صالحي عصره ، فقال له شخص في المجلس إن كنت صادقا فقل لي كم في لحيتك من شعرة ؟ فما درى ما يقول وخجل بين الناس وإذا كان الله تعالى نهى العلماء عن دعوى العلم مع علمهم فكيف بمن يجهل ويدعي العلم مع الجهل .

وحكى لي شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله قال : اجتمع يوما في مجلس الحسن البصري رضي الله عنه خمسمائة محبرة تكتب عنه العلم ، فحصل له بعض عجب في نفسه فقال لا تسألوني في هذا المجلس عن علم من العلوم إلا أخبرتكم به ، فقام إليه صبي أمرد ضعيف يتوكأ على عصا فقال ياسيدي قد سمعنا قولك فهل للناموسة كرش أو مصران ، فتغير لون الحسن واصفر ثم حمل من ذلك المجلس مغشيا عليه فمات بعد ثلاثة أيام اه .

وذكر الشيخ الكامل محيي الدين بن العربي رضي الله عنه عن نفسه أنه كان راكبا مرة في سفينة في البحر المحيط فهاجت الريح ، فقال اسكن يا بحر فإن عليك بحرا من العلم ، فطلعت له هاتفة من البحر وقالت له : قد سمعنا قولك فماتقول فيما إذا مسخ زوج المرأة هل تعتد عدة الأحياء أم الأموات ؟ فما درى الشيخ ما يقول : فقالت له الهاتفة تجعلني شيخة لك وأنا أعلمك الجواب ؟ فقال : نعم ، فقالت : إن مسخ حيوانا اعتدت عدة الأحياء ، وإن مسخ جمادا اعتدت عدة الأموات اه : ذكر هذه الحكاية في ترجمة مشايخه من الجن والإنس والملائكة والحيوانات ، وبلغنا أنه من ذلك الوقت ما سمع أحد منه رائحة دعوى العلم .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يأخذ بيده ويدخله حضرات العلوم والخزائن الإلهية حتى يرى أن جميع ما علمه هؤلاء لا يجيء نقطة من البحر المحيط : وقد استخرج أخي الشيخ أفضل الدين من سورة الفاتحة مائتي ألف علم ونيفا وأربعين ألف علم وذكرنا منها في كتابنا المسمى بتنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء ثلاثة آلاف علم لا يتعقلها الإنسان إلا إن رأى أسماءها إذ لم تخطر له قط على بال .

فانظر يا أخي فيما علمته من الفقه والنحو والأصول وغيرها تجده لا يجيء قطرة من البحر المحيط بالنسبة لعلوم أهل الله عز وجل :

وقد نقل ابن السبكي في الطبقات الوسطى عن أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه أنه كان يقول : ما أنزل الله من السماء علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وجعل لي فيه حظا ونصيبا اهـ .

ثم من فوائد السلوك على يد شيخ أن السالك يصل إلى حضرة يرى جميع صفاته الظاهرة والباطنة عارية عنده وأمانة أودعها الحق عنده فلا يسوغ له أن يدعيها أو شيئا منها لنفسه أبدا حياء من الله تعالى ، فالناس يرونه عالما في عيونهم وهو يرى نفسه جاهلا ، وهناك يأمن من أن يدعي لنفسه حالا أو مقالا سرا أو جهرا ومن لم يسلك كما ذكرنا فرق لازمه الحجاب غالبا والدعاوى المضلة عن سواء السبيل حتى أن بعضهم قال أنا الله فكفر ، نسأل الله اللطف :

فاسلك يا أخي طريق الأدب مع الله على يد شيخ ولو كنت من أعلم الناس عند نفسك فإنه لا بد أن يظهر لك جهلك إذا سلكت الطريق ، والله يتولى هداك .

وفي قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام كفاية لكل عاقل ، وذلك أن الخضر قال لموسى عليه السلام أنا أعلم أهل الأرض، يا موسى ماعلمي وعلمك في علم الله إلا كما نقر هذا العصفور من هذا البحر ، والمراد بعلم الله معلومه لقوله تعالى :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) .

فلو كان المراد به العلم القائم بالذات لم يصح وصفه بالقلة فافهم ، ومعلوم الله هو العلم الذي يبثه في قلوب عباده وهو غير علمه الأزلي الخاص به ، لأن علم الخلق وإن كان من جملة علم الله ففيه رائحة الحدوث من حيث إضافته إلى الخلق فافهم . وإياك والغلط وإنما أولنا لك يا أخي الحديث لأن الخضر عليه السلام عالم بالله ، ومعلوم عنده أن علم الله

تعالى لا يوصف بنقص ما ولا بد لمنقار العصفور من بلل يكون عليه فافهم ، فلو جعلنا المراد بعلم الله القائم بالذات لما صح وصفه بالنقص على قدر ما أخذ العصفور ولا قائل بذلك ويصح أن يريد الخضر بذلك الإشارة للقلة على وجه ضرب المثل ، ولو أنه عبر بما تأخذه الناموسة على فمها من البحر لساغ له ذلك أيضا لأنه أقل مما يأخذه منقار العصفور فاعلم ذلك .

وقد روى الطبرانى مرفوعا : « « سَيَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا ؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا ؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا ؟ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ قَالَ إِنِّى عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نجادل فى علم من العلوم الشرعية إلا بقصد نصرة الدين بشرط الإخلاص والحضور مع الله تعالى فى ذلك على الكشف والشهود لا على الظن والرياء والغفلة والتخمين ومغالبة الخصوم من أهل مذهبنا أو غيرهم :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ متضلع من علوم الشريعة قد اطلع على جميع أدلة المذاهب المستعملة والمندرسة وسلك طريق القوم فى درجات الإخلاص .

وأما من أراد العمل بهذا العهد بنفسه من غير شيخ فهو يروم المحال غالبا ، وقد اطلعت بحمد الله تعالى على العين التى يتفرع منها جميع المذاهب فى حال سلوكى ، وتأملت جميع مذاهب المجتهدين ومقلديهم وهى متفرعة عنها كشفا ويقينا ، فلم يخف على بحمد الله تعالى من منازع أقوالهم إلا النادر ، ولو أننى كنت سلكت وحدى بغير شيخ لكنت محبوسا خلف حجاب التقليد للأقوال ، لا أعرف من أين جاءت .

فـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

واعلم يا أخى أنه لا ينبغى لمقلد الإمام أن يسمى جماعة الإمام الآخر خصوما كقوله إن قال الخصم كذا قلت كذا فإن حسن الأدب فى اللفظ من أخلاق العلماء العاملين :

وقد أطلعنى إنسان مرة على كتاب فى الرد على الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فرأيت تلك الليلة فى واقعة الإمام أبا حنيفة ، وقد تطور نحو سبعين ذراعا فى السماء وله نور كنور الشمس ، وأجد ذلك العالم الذى رد عليه تجاهه يشبه الناموسة السوداء انتهى : وإذا كان

إمامنا الشافعي رضي الله عنه يقول : الناس كلهم فى الفقه عيال على أبى حنيفة ، فكيف يسوغ لأمثالنا أن يتصدر للرد عليه ؟ هذا فوق الجنون بطبقات وقد قال تعالى :

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

فأمر الله تعالى بإقامة الدين لا بإضجاعه بالتكبر على أئمته ، وهذا الأمر قد فشا فى مقلدى المذاهب ، فترى كل إنسان يدحض حجة مذهب غيره ، حتى لا يكاد يبقى له تمسكا بكتاب ولا سنة ، وذلك من أقبح الخصال ، وإنما كان اللائق بهم الجواب عن الأئمة إما بعدم اطلاعهم على ذلك الدليل الذى ظفر به الراد عليهم وإلا بأن لذلك المجتهد منزعا فى الاستنباط من وجوه قواعد العربية يخفى على أمثالنا .

وقد بلغنا أن الإمام الشافعي لما دخل بغداد وزار قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، حضرته صلاة الصبح فترك القنوت مع أنه يقول به فقيل له فى ذلك ، فقال استحييت من الإمام أن أقنت بحضرته وهو لا يقول به فرضى الله تعالى عن أهل الأدب ، هذا فى باب الآداب والسنن . أما الواجب والحرام فإذا قام عند المجتهد دليل فيه فليس له أن يتركه أدبا مع من يخالفه فافهم .

وقد حكى الشيخ محيى الدين فى الفتوحات المكية أن من وراء النهر جماعة من الشافعية والحنفية لم يزل الجدال بينهم قائما طول السنة حتى أن بعضهم يفطر فى رمضان ليتقوى على الجدال مع خصمه :

وقد روى الطبراني مرفوعا : « إِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ عَلَى ثَلاَثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ طَرِيقَةً » .

انتهى فلا ينبغى لأحد أن يرد على من يجادله إلا إن نظر فى هذه الطرق كلها ، ولم يجد كلام خصمه يوافق طريقة واحدة منها ، وما ذكر الشارع ذلك إلا سدا لباب الجدال بغير علم تقوية للدين فإن النزاع يوهنه ويضعفه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يقوم الدين إلا بالاتفاق عليه لا بالاختلاف فيه ثم لا يصح للعلماء اتفاق إلا إن خرجوا عن رق الشهوات النفسانية ومالم يخرجوا فلا يصح لهم ارتباط قلوبهم مع بعضهم بعضا أبدا . فعلم أن أنصار الدين حقيقة هم الذين سلكوا الطريق وخرجوا من حضرة النفوس إلى حضرة الأرواح ، فإن الأرواح

لاشهوة لها إلى شيء من الأغراض النفسانية أبداً، وهناك يكون نصرتها للدين خالصة من الشوائب، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك.

وقد روى البيهقي والترمذي وغيرهما مرفوعا وحسنه الترمذي :

« مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ ، ثُمَّ قَرَأَ صلى اللهُ عليه وَسلم : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) ».

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ ».

والألد: هو شديد المخاصمة . والخصم هو الذي يحج من يخاصمه ويدحض حجته: اللهم إلا أن يقوم لنا صاحب بدعة لايشهد لها كتاب ولا سنة فلنا إدحاض حجته نصرة لله ولرسوله وللمسلمين :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانفعل شيئا قط يؤذى المسلمين إلا بطريقه الشرعي كإقامة الحدود والتعزيرات والتأديبات ، وذلك كأن يتغوط أحدنا على ملاق الأخلية التي يدخلها الناس أو يبول في مكان جلوس الناس في الظل أو الشمس ، أو مكان جلوسهم في الحمام وغير ذلك من سائر الرذائل خوفا أن يتبع على ذلك فينبغي لقاضي الحاجة أن يحرر نزول الغائط في طاقة الخلاء ويبول في خلاء الحمام أو في بالوعته وكما ينبغي له أن يخفي عن الناس رؤيته حال قضاء الحاجة ، فكذلك ينبغي له أن يخفي ماخرج من بوله وغائطه ولا يطلع أحدا عليه .

قال سيدي على الخواص : وينبغي قياس الأذى المعنوي على هذا الأذى المحسوس ، وذلك كأن يدخل على أحد من العوام وغيرهم الشبه بأن يذكرلهم العقائد الزائغة والأقوال التي يردها ظاهر الشريعة كمسئلة زل فيها عالم تتعلق بالنكاح أو بأكل شبهة ونحو ذلك ، فربما تسارعت نفس العامي إلى التدين بها فيهلك مع الهالكين ، وصار إثم ذلك في عنق ذلك العالم .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ناصح يرقيه في درجات الشفقة على المسلمين وأديانهم وأبدانهم وثيابهم ، حتى يكون أشفق على المسلمين من أنفسهم وراثة محمدية . ومن طلب الوصول إلى العمل بهذا العهد بغير شيخ فقد أتى

البيوت من غير أبوابها وقد من الله تعالى على بهذه الشفقة فأنا بحمد الله أشفق على دين الإنسان وبدنه من نفسه . وإيضاح ذلك أنى أحزن على فوات الخير للسلمين أكثر من حزنهم إذا فاتهم ، وأشفق على أبدانهم من دخول النار إذا أكلوا الحرام أكثر مما يشفقون هم عليها وأطلب لهم احتمال الأذى من جميع الأنام ، وعدم مقابلة الناس بالأذى وهم لا يرضون بذلك بل ينتصرون لأنفسهم ويحرمون نفوسهم ثواب الله تعالى ، وهكذا فقس عليه والله يتولى هداك .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « اتقُوا اللَّعَّانَيْنِ ، قَالُوا وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الّذِى يَتَخَلَّى فى طَرِيقِ النَّاسِ وَفى ظِلِّهِمْ » .

قال الحافظ المنذرى رحمه الله : وإنما نهى عن التخلى فى طريق الناس وظلهم لأنه يؤذى المار والجالس ، قال وليس كل ظل ينهى عن قضاء الحاجة فيه لأنه صلى الله عليه وسلم قضى حاجته تحت حائش نخل وهو لا يخلو عن ظل اهـ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : اعلم أن اللعن الوارد فى السنة يختلف باختلاف الأثر المترتب عليه خفة وثقلا وقبحا ، فلكل فعل قبيح لعن يناسبه وإلا فأين لعن من فعل فعل قوم لوط ممن بال فى طريق الناس ، وكذلك القول فى مقت الله عز وجل يتفاوت بتفاوت ذلك الفعل فللكفار لعن ولمرتكب الكبيرة لعن ولمرتكب الصغيرة لعن ولمرتكب المكروه لعن اهـ فليتأمل ويحرر .

وروى الطبرانى مرفوعا باسناد حسن : « مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فى طَرِيقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ » .

وروى مسلم وَغيره : « أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَى أَنْ يُبَالَ فى المَاءِ الْجَارِى » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فى مُغْتَسَلِهِ » .

وفى راوية للإمام أحمد وغيره : « نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يَبُولَ الرَّجُلُ فى مُسْتَحَمِّهِ وَقَالَ : إنَّ عَامَّةَ الْوَسْوَاسِ مِنْهُ » .

وروى الإمام أحمد وغيره : « نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يُبَالَ فى الْجُحْرِ » .

قالوا لقتادة ومايكره من ذلك ؟ فقال : كان يقال إنها مسكن الجن والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك شي من آداب السنة المحمدية كما عليه بعض المتهورين ، فيترك أحدهم السنة ويقول الأمر سهل وربما أشعر ذلك اللفظ بالاستهانة بتركها رغبة عنها وذلك كفر فليحذر الفقيه المتدين من مثل ذلك .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا تجد شيئا يخل بالمروءة إلا وهو مخالف للشريعة وما من مأمور شرعى إلا وله درجة فى الجنة لا تنال تلك الدرجة إلا به وكذلك القول فى أهوال يوم القيامة لايلحق العبد هول منها إلابفعله منهيا عنه فى دار الدنيا فلكل منهى كرب يلحق صاحبه هناك ، ومن أحكم فعل المأمورات وترك المنهيات لا يلحقه هناك غم ولا هم ولا حزن ومن أخل بشىء من ذلك لحقه الكرب والهم بقدر ما أخل اه .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : ما أخل أحد بآداب الشريعة إلا وترقى لفعل المكروهات ولافعل المكروهات إلا وترقى لفعل الحرام وكان يقول من رأيته يتعاطى الأسباب التى تخل بالمروءة فلا ترجو له خيرا ، قال وذلك كان يدخل مع والد زوجته أو ولدها أو أخيها الحمام أو يكلم أحدا وهو يقضى الحاجة فى الخلاء ، أو يخرج صوتا بحضرة الناس أو فى المسجد ، أو يقضى الحاجة قريبا من الناس بحيث يسمعون صوت الخارج من ريح أو بول أو لا يستر شخصه عند البراز يتكلم بكلام الفساق والأراذل مما يستحى أرباب المروءة أن ينطقوا به ونحو ذلك اه .

وما رأت عينى إلى وقتى هذا أكثر مروءة من ولد عمى الشيخ أحمد وشخص من جبلية الوالى كان ينام عندنا فى المسجد ، أما ولد عمى فكان لا يقدر قط يقضى الحاجة وأحد ينظر إليه وقد سافرت معه من مصر إلى المحلة الكبرى فى المركب فما قدر على إخراج بول ولا غائط ، وكان يطلع البر مع الناس فيجلس فيتخيل أن أحدا ينظر إليه فلا يخرج له شىء ويرجع بلا قضاء حاجة ، مع أنه كان يتباعد أكثر من جميع الناس ، وأما الشخص الجبلى فسمع مرة صوت ريح من نائم عندنا فامتنع من النوم فى المسجد وأكرى له حاصلا وصار ينام فيه خارج المسجد وقال ، خفت أن يخرج منى ريح وأنا نائم فى المسجد .

وأما أم ولدى عبد الرحمن رضى الله عنها ، فلها الآن معى تسع عشرة سنة فما رأيتها قط وهى تقضى حاجتها فى خلاء البيت إلى وقتى هذا رضى الله عنها .

فعلم أن علو الهمة والمروءة من الإيمان .

وقد أجمع أهل الطريق على أن كل مريد تعاطى قضاء حاجته بالقرب منه وهو يزحف من غير أن يقوم لها فلا يجيء منه شيء فى الطريق ، وكذلك إذا أرسله شيخه فى حاجة إلى السوق ، فقال أنظروا هل بقى حاجة أخرى حتى آتى بهما جميعا فلا يجيء منه شيء فى الطريق إلا أن يكره خروج الطريق لغرض شرعى .

وقد بلغنا أن شخصا من الفقراء خطب ابنة سلطان فقال له السلطان إن مهر ابنتى غال عليك ، فقال كم هو ؟ قال مائة جوهرة كل جوهرة بألف دينار ، فقال وأين معدن تلك الجواهر ؟ فقال له السلطان فى بحر الظلمات ، فأخذ الفقير قصعته وذهب إلى البحر فما قدر على الغوص فيه ، فصار يغترف من البحر ويرش على الساحل فمر عليه شخص فقال له فماذا تصنع من هذا البحر بقصعتك هذه ، فقال لا أرجع حتى أصل إلى الجوهر أو أموت وأنا طالبه ، فبلغ ذلك السلطان فأعجبه مروءته ، فقال مثلك يصلح أن يكون وزيرا ، فأعطاه الوزارة وزوجه ابنته اهـ .

فهكذا ينبغى للمؤمن الخاطب للمعالى (واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد روى أبو داود وغيره مرفوعا :

« لاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ عَلَى غَائِطِهِمَا يَنْظُرُ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَى عَوْرَةِ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يَمْقُتُ عَلَى ذَلِكَ » .

وفى رواية له : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَ يَبْعُدُ عَنِ النَّاسِ إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ حَتَّى لاَ يَرَى أَحَدٌ شَخْصَهُ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا » .

وروى الترمذى وحسنه مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَدْخُلِ الْحَمَّامَ إِلاَّ بِمِئْزَرٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك المبادرة إلى غسل الجنابة التى تصيبنا فى بدننا أو ثيابنا ، بحيث يدخل وقت الصلاة ونحن لم نتطهر

وكذلك القول فى الحدث الأصغر والأكبر ، لاسيما إن كان عصى به كأن قبل أجنبية أو باشر حائضا فينبغى المبادرة إلى الطهارة من ذلك كما نبادر بالتوبة بل بعضهم أوجب المبادرة فورا إلى الغسل من الجنابة التى عصى بها كما هو مقرر فى كتب الفقه ، وربما أخر الإنسان الغسل أو غسل النجاسة عن بدنه حتى دخل وقت الصلاة فلا يفرغ من ذلك حتى تفوته صلاة الجماعة ، وهذا العهد مفقود لإزالة النجاسة الحسية ويقاس على ذلك النجاسة المعنوية المتعلقة بالباطن كسوء الظن بأحد من المسلمين أو حدوث رياء أو حسد أو غل أو حقد ، أو عجب أو كبر أو نحو ذلك من المعاصى الباطنة ، ولذلك ورد :

« إِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ » .

مع أنه معدود من النجاسة الظاهرة ، فالباطنة أولى لأن القلب محل نظر الرب كما يليق بجلاله قال صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَـٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » رواه مسلم .

وأيضا فكما لاتصح صلاة أحدنا وفى ظاهر جسده لمعة لم يصبها الماء أو نجاسة لايعفى عنها فكذلك القول فى نجاسة الأخلاق الردية .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أجمع الأمة على وجوب الخلوص من النجاسات الباطنة وعدوها من الكبائر كما يدل لذلك ماورد من الأحاديث كعقوق الوالدين والكبر والشك فى الله والحقد والغل وغير ذلك ، وقد ورد :

« لاَ يُرْفَعُ لِلْعَاقِّ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ وَلاَ لِلْمُشَاحِنِ » .

فعدم رفع العمل يدل على عدم صحته ، كما لو تعاطى مبطلا ظاهرا بترك شرط من شروط الصلاة ، قال وما جعل الشرع الطهارة على الأعضاء الظاهرة إلا ليتنبه المكلف على الأخذ فى طهارة محل نظر الله من باب أولى كلما تطهر فإن الحضرة محرم دخولها على من كان عليه نجاسة ظاهرة أو باطنة ولو أراد أن يدخل لما قدر وقد أغفل هذا غالب الناس اليوم فترى أحدهم يأكل حراما ويستغيب الناس ويقع فى أعراضهم ، ويقع فى النميمة وغير ذلك ثم يصير يدلك يده بالماء ويتوسوس فى الوضوء حتى ربما غسل العضو أكثر من ثلاث مرات لغلبة نظره إلى ظاهره دون باطنه .

ومعلوم أن من كمال الإيمان المطابقة بين الظاهر والباطن فى الطهارة .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يدخل به حضرات الإيمان حتى يشرف

به على أحوال يوم القيامة ويخرق ببصره إلى الدار الاخرة ويصير ينظر فى باطنه أكثر من ظاهره ، ومن لم يسلك على يد شيخ فمن لازمه الوقوف مع طهارة ظاهره حتى يموت ، فاسلك يا أخى على يد شيخ ليوصلك إلى ما ذكرناه والله يتولى هداك .

روى البخارى وابن حبان فى صحيحه: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ سَمِعَ صَوْتَ إِنسانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فى قُبُورِهِمَا ، فَقَالَ إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فى كَبِيرٍ ، ثُمَّ قَالَ بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ » .

وبوب عليه البخارى : باب من الكبائر أن لا يستبرىء من بوله .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَذَّوْنَ مِنْ رَائِحَةِ مَنْ لَمْ يَتَنَزَّهْ مِنْ بَوْلِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الأَذَى، فَيَقُولُونَ لَهُ : مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنَ الأَذَى ، فَيَقُولُ : إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ لاَ يُبَالِى أَيْنَ أَصَابَ الْبَوْلُ مِنْهُ وَلا يَغْسِلُهُ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « اتَّقُوا الْبَوْلَ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ فى الْقَبْرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بخروج نسائنا للحمامات والأعراس إلا لمرض أو نفاس أو حيض ، والمرأة المتدينة تعرف حالها فى الغسل فى البيت فإن كانت تعلم أن بدنها يتفتح من المرض أو النفاس مثلا ، وتخاف من العرى فى بيتها أن يلحقها هواء مضر فالحمام لها مطلوب ، وإن كان بدنها يتحمل العرى فى البيت فاغتسالها فيه أولى . وأما غير المتدينة من النساء المتبهرجات فإن كان زوجها يحكم عليها فله منعها ، وإن كانت تحكم عليه فهو تحت حكمها كما هو شأن من استرقتهم شهوات النساء من التجار والمباشرين وغيرهم ، فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبدا ، ويلحق بمنع النساء من الخروج للحمام خروجهن للأسواق والزيارات للأصحاب والأعراس التى لا انضباط فيها على القوانين الشرعية والعزومات والمتفرجات التى يقع فيها اختلاط الرجال بالنساء ، وقد كثرت خيانة هذا العهد من غالب الناس فكل موضع طلبته امرأة أحدهم أذن لها مع عدم التفتيش على الحاجة التى خرجت لها هل هى من الأمور التى ندب الشارع لها أو كرهها، ولا يخفى ما فى ذلك من المفاسد وهو مناف لغيرة أهل الإيمان ، وربما كان أحدنا شيخا مقلع الأسنان قد طعن فى السن أو قبيح المنظر وهى شابة حسناء فترجع من

ذلك السوق ، أوتلك الزيارة وهى لاتشتهى أن تنظر إلى زوجها ، ولاأن يقبلها أويجامعها وهذا أقل ما يحصل من مفاسد الخروج .

وقد أخبرتنى امرأة دينة مصلية وقالت لى إنى أكره الخروج للسوق ؟ فقلت لها لماذا فقالت لأنى أنظر إلى الأشكال الحسنة فتميل إليها نفسى فأرجع لا أقدر أنظر فى وجه زوجى ، قالت : وقددخلت مرة سوق الوراقين فرأيت شابا فأخذ بمجامع قلبى فرجعت فوالله مارأيت زوجى فى عينى إلا كالقطرب أوكالغول أو كالعفريت أوكالمبقرة ، وكماأن الرجل إذا رأى المرأة الحسناء مالت إليها نفسه فكذلك المرأة إذا رأت الشاب الأمرد الجميل تروح نفسها إليه ضرورة . قالت ورأيت مرة إنسانا من الطاق وزوجى عندى وصرت أنظر إلى حسن شكل ذلك الإنسان ، وحسن لحيته ووجهه وعيونه وأنظر إلى زوجى وإلى تشعيث شعر لحيته وكبر أسنانه وأنفه وعمش عينيه وخشونة جلده وملبسه وفظاظته وتغير رائحة فمه وإبطه وقبح كلامه ، فما كنت إلا فتنت بذلك الإنسان قالت ثم إنى تبت إلى الله تعالى عن الخروج مطلقا لا لحمام ولا لزيارة ولا لغيرها فصار زوجى فى عينى كالعروس ، فعلمت بذلك صدق توبتى اه .

فاعلم أن من أذن لزوجته فى الخروج من غير ضرورة وحصل له ضرر فاللوم عليه ، وسيأتى فى عهود النكاح ما ورد فى المرأة إذا خرجت متعطرة لابسة ثياب زينتها فراجعه وامنع يا أخى زوجتك من الخروج ما استطعت لتكون راضية بك لا التفات لها إلى غيرك والله يتولى هداك .

وروى الترمذى مرفوعا وحسنه : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الْحَمَّامَ » .

وفى رواية لابن ماجه وغيرها مرفوعا :

« أمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْحَمَّامَ إِلاَّ مَرِيضَةً أَوْ نُفَسَاءَ » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال إنه صحيح الإسناد :

« اَلْحَمَّامُ حَرَامٌ عَلَى نِسَاءِ أُمَّتِي » .

قلت : ويقاس على الحمام غيره من المواضع التى يخشى منها الفساد والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نؤخر غسل الجنابة فى ليل أو نهار إلا بعذر شرعى ، وكذلك نأمر حليلتنا بالمبادرة إلى الغسل وهذا العهد يخل

به كثير من الناس اليوم حتى بعض العلماء فيجامع أحدهم قبل النوم وبعد العشاء ، وينام جنبا حتى يطلع النهار ويخرج إلى الحمام ، وربما لم يخرج من الحمام إلى ضحوة النهار كما شاهدت ذلك من بعض الناس .

وقد وقع لى أننى نمت مرة على جنابة فسمعت قائلا يقول لى : من نام على جنابة تعسرت عليه أسباب رزقه ، فلا يحصل له الرغيف حتى تكاد تزهق روحه ، فمن ذلك اليوم وأنا أخاف من النوم على جنابة ، وربما كان الوقت باردا ولم أجد ما أسخن به الماء فأغتسل بالماء البارد ، بعد أن أقول بتوجه تام يارب احمل عنى ضرر هذا الماء ، فإنك تعلم أننى ماتحملت مشقة هذا الماء إلا إجلالا لك ياربى وتعظيما أن أجالسك على جنابة ، فلا يضرنى استعمال ذلك الماء البارد فإن رأيت عندى ضعفا فى التوجه وخفت على رأسى استعملت الماء البارد فيما عدا الرأس وتيممت عنه إلى أن أجد الماء المسخن ، فينبغى تعليم المرأة ذلك فإن كان توجهها ضعيفا أو قليلة الدين ، فقلل ياأخى الجماع أو أعطها ثمن ماء الحمام : وعبارة المنهاج وعليه ثمن ماء غسل جماع أو نفاس لا حيض واحتلام .

وكان سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : استعملوا ماء البئر فى الشتاء فإنه أنفع من ماء الحمام ، لأن ماء البئر يعقبه حرارة وماء الحمام يعقبه برودة ، وإذا ألف البدن استعمال الماء البارد ذهبت ضرورته إن شاء الله تعالى ، فعلم أنه لايقدر على العمل بهذا العهد إلا من صدق فى محبة الله عز وجل ومحبة أهل حضرته من الأنبياء والأولياء فإن الجنابة حضرة بعد وجفاء وحجاب عن الله عز وجل وأهل حضرته والمحب لايصبر على عدم شهود محبوبه طرفة عين .

وقد كان الشبلى رحمه الله يقول : اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب :

وكان أخى الشيخ أبو العباس الحريثى رحمه الله يضع إناء الماء قريبا من محل الجماع ، فإذا قضى وطره اغتسل على الفور وهو فى غاية الخجل من الله تعالى من خوفه أن تكون النية فى ذلك الجماع دخلها شىء من الحظوظ النفسانية ، مع أن ذلك الحظ يدق مع العارف ولا ينقطع ، وبعض العارفين يقلب لذة الجماع إلى وجه مرضى عند الله تعالى ، وذلك لأن العارف يعلم أن فيه مجموع الأضداد ، ففيه من يطلب اللذة النفسانية المباحة ولو وصل أعلى المقامات ؛ وهو مسئول عن توفية حقوق رعيته كلها ، وبعضهم يحضر مع الله تعالى فى حال جماعه كما يحضر فى صلاته سواء بجامع أن كلا منهما مأمور به ، وهذا أمر لايقع

إلا ممن قهر شهوته وصارت تحت رجليه وإلا فمن لازمه الغيبة عن الله بلذته الطبيعية حتى يحس بأن اللذة عمت جميع بدنه ، ولذلك أمر كل مجامع بتعميم بدنه بالماء ليحيي جميع سطح البدن الذى سرت فيه اللذة فتأمل .

وقد كان سيدى الشيخ أحمد بن عاشر المغربى شيخ تربة السلطان قايتباى بمصر المحروسة إذا حملت زوجته لايقرب منها حتى تلد وتفطم الولد ، ويجيء أوان الحمل ويقول لاأحب أن أتعاطى مايمنعنى من دخول حضرة ربى ولو لحظة واحدة رضى الله عنه وغالب جماع الناس فى هذا الزمان شهوة نفس منهم اللهم إلا أن تكون زوجة أحدهم شابة ويخاف عليها الالتفات إلى غيره فعليه أن يعفها حتى لاتلتفت إلى غيره .

فاسلك ياأخى على يد شيخ صادق حتى يقطع بك حجب الشهوات النفسانية ، ثم لايبقى لك مانع من دخول حضرة ربك أى وقت شئت إلا ماستأذنى شرعا ، وهناك تحب ربك وأهل حضرته وترى حجابك عن حضرته أشد من العذاب ، ومادام لك حجاب أو عائق فمن لازمك التهاون بارتكاب كل مايحجبك عنه وليس لك فى كمال محبته قدم كما هو شأن أهل الحجاب والطرد والعوام من الظلمة فيقيم أحدهم فى مواطن الغفلات والبعد عن الحضرة الإلهية اليوم والجمعة والشهر لايشتاق لربه ، ولا لأهل حضرته .

فعليك ياأخى بالسلوك على يد شيخ صادق يقطع بك الحجب ويخلصك من كل عائق ، وتصير عند الله مقدما على ذلك الشخص الغليظ السمين الذى يرى نفسه فوق الخلق أجمعين .

وتأمل ياأخى عبد الرق الأمين الخالص فى العبودية كيف يصير داخلا خارجا على السيد لايحتاج إلى إذن لأنه لاعائق له عن خدمته بخلاف الأمير الكبير يصير واقفا على الباب لايقدر على الدخول حتى يأخذ له ذلك العبد الإذن فاعلم ذلك .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : من كان من أهل الحضرة عرف مقدار الهجر والوصل . قال وقد نمت مرة على جنابة فما استيقظت إلا وجميع أهل الحضرة قد اصطفوا بين يدى الله عز وجل فى سائر أقطار الأرض فلا تسألوا ماحصل عندى من الخجل من الله تعالى حتى كدت أذوب اه .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا تَقْرَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ : جِيفَةُ الْكَافِرِ ، وَالْمُتَلَطِّخُ بِالْخَلُوقِ ، وَالْجُنُبُ إِلَّا أَنْ يَتَوَضَّأَ » .

قال الحافظ المنذرى رحمه الله : والمراد بهؤلاء الملائكة هم الذين ينزلون بالرحمة والبركة دون الحفظة ، لأن الحفظة لايفارقون الإنسان على أى حال من الأحوال ثم قيل إن هذا فى حق كل من أخر الغسل من غيرعذر ولا عذر إذا أمكنه الوضوء فلم يتوضأوقيل هو فى حق من يؤخره تهاونا وكسلا ويتخذ ذلك عادة اه .

قلت : قد رأيت فى مسند الإمام سنيد رحمه الله مرفوعا :

« اسْتَحْيُوا مِنْ مَلاَئِكَةِ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لاَ يُفَارِقُكُمْ إِلاَّ عِنْدَ الْجِمَاعِ وَالْبِرَازِ » .

فصرح بأن الملائكة تفارقه فى حال الجماع والبراز اللهم إلا أن يريد ملائكة الرحمة والبركة فيصح قول المنذرى والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك التسمية على طهرنا وذلك لأن كل شىء لايذكر اسم الله تعالى عليه فهو كالميتة وما شرعت الطهارة بالماء إلا لنحيى سطح البدن ، وبعد أن مات أو ضعف بالمعاصى وأكل الشهوات وتراكم الغفلات ، فإذا سمى الله تعالى مع الماء حصل له تمام الحياة فبذكر اسم الله تعالى يطهر الباطن والماء يطهر الظاهر فيقوم يناجى ربه بكل شعرة فيه وكل ذرة ، بخلاف من ترك التسمية فإنه ميت القلب أو مريضه ، وهذا العهد يتعين العمل به على كل متدين ، وغالب الناس يقولون هذه سنة يصح الوضوء بدونها ولايقدح فى صحته تركهاولا يعرفون ماذكرناه من سرها .

فواظب ياأخى على التسمية وأعد وضوءك استحبابا إن تركتها والله يتولى هداك .

قال الحافظ عبدالعظيم : ومما جاء من الترهيب فى ترك التسمية عامدا قول الإمام أبى بكر بن أبى شيبة ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُسَمِّ اللهَ » كذا قال .

وروى الإمام أحمد وأبوداود وابن ماجه والطبرانى والحاكم مرفوعا :

« لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لاَ وُضُوءَ لَهُ ، وَلاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ » .

لكن ضعفه بعض الحفاظ . وقد ذهب الحسن والنخعى واسحق إبن راهويه وأهل الظاهر إلى وجوب التسمية فى الوضوء حتى إنه إذا تعمد تركها أعاد الوضوء ، وهو رواية

عن الإمام أحمد. قال الحافظ المنذرى : ولا شك أن الأحاديث التى وردت فى التسمية وإن كانت لاتسلم من مقال فإنها تتعاضد بكثرة طرقها وتكتسب بذلك قوة والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقرب من الحائض حتى تطهر ، ومنع بعض العلماء من الاستمتاع بما بين السرة والركبة لأنه حريم الفرج :

« وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » .

ويسمى هذا تحريم الوسائل خوف الوقوع فى المقاصد كتحريم قليل النبيذ وإن لم يسكر وكتحريم قبلة الشاب الصائم خوفا أن تدعوه إلى الوطء ونحو ذلك ، وأهل هذا القول لايدارون مع علة التحريم لأنهم لو داروا معها لقالوا بالإباحة عند فقدها فافهم .

واعلم ياأخى أن القول قول المرأة فى انقطاع حيضها ونفاسها إن وثق بصدقها . وقد وقع لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان تحته امرأة تكره الرجال فكانت تتعلل بالحيض فقالت له مرة إنى حائض فكذبها ، ثم أتاها فوجدها صادقة ، فقال أف ثم تركها ، ثم لايخفى أن تحريم وطء الحائض تحريم شفقة خوفا على الجامع أن يحصل لذكره ضرر .

وقد أخبرنى شخص أنه جامع فى شدة الحيض فكاد ذكره أن يقع وكذلك وقع لى وأنا شاب أتيتها بعد إدبار الدم وانقطاعه وقبل غسلها فحصل فى قبلى أكلة كالجرب نحو شهر وقاسيت منه ضررا شديدا وكانت المرأة لم تغسل فرجها ، فإياك ياأخى ثم إياك .

وروى أبو داود وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ الْاَسْتِمْتَاعَ بِالْحَائِضِ أَلْقَى عَلَيْهَا خِرْقَةً ثُمَّ بَاشَرَهَا » .

يعنى من غير جماع والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخرج من المسجد بعد الأذان إلا إن كنا نخرج لنرجع قبل أن تقام الصلاة أو ندرك الصلاة فى مسجد آخر تساوى جماعته جماعة مسجد الأذان ، وكذلك لانمكن أحدا من إخواننا المنقادين لنا أن يخرج من المسجد كذلك إلا بعذر شرعى ، ويقاس بصلاة الجماعة المذكورة الخروج بعد

نصب مجلس الذكر أو العلم أو مجلس مناقشة الشيخ للفقراء ، وتخليص حقوقهم من بعضهم ونحو ذلك من الخيرات العظيمة ، بل وربما يكون بعض هذه المذكورات فى حق بعض الناس أكثر أجرا من صلاة الجماعة التى نهينا عن الخروج من المسجد لأجلها .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يعرف مقادير العبادات وتفاوتها وما هو الأولى بالتقديم منها على غيرها كشفا ويقينا لا تقليدا وتخمينا ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه الإخلال بتقديم ما هو الأحق بالتقديم بل من الناس من يقدم شهوات بطنه وفرجه على عبادة ربه ، ويخرج من المسجد ويفارق صلاة الجماعة وغيرها ولا يبالى بما فاته من ذلك .

فاسلك ياأخى على يد شيخ ناصح واخدم نعاله واصبر على تنكراته عليك وعدم قيامه بواجبك العادى والله يتولى هداك .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « إِذَا كُنْتُمْ فِى الْمَسْجِدِ فَنُودِىَ بِالصَّلَاةِ فَلَا يَخْرُجْ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُصَلِّىَ » .

وروى الإمام أحمد أن أبا هريرة رأى رجلا خرج من المسجد بعد ما أذن المؤذن ، فقال : أما هذا فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لَا يَسْمَعُ أَحَدٌ النِّدَاءَ فِى مَسْجِدِى هٰذَا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ ثُمَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَّا مُنَافِقٌ إِلَّا لِحَاجَةٍ » .

وفى رواية لابن ماجه : « مَنْ أَدْرَكَهُ الْأَذَانُ فِى الْمَسْجِدِ ثُمَّ خَرَجَ لَمْ يَخْرُجْ لِحَاجَةٍ وَهُوَ لَا يُرِيدُ الرَّجْعَةَ فَهُوَ مُنَافِقٌ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نرائى فى عباداتنا أحدا من الخلق خوفا من مقت الله عز وجل سواء كان الرياء مصاحبا للعمل أو متأخرا عنه ، كأن يحب أحدنا والعياذ بالله تعالى ظهور أثر الطاعة عليه من نور الوجه وحسن السمت فى المستقبل ، أو ظهور أثر السجود فى جبهته مثل ركبة العنز . أو كثرة المصلين فى جنازته لغير غرض صحيح ، أو يميل إلى قول الناس له إذا مر عليهم وعلى وجهه نور شىء لله المدد ياسيدى الشيخ ، ونحو ذلك ، فإن ذلك كله يرجع إلى الرياء ولو لم يصاحب العبادة .

وقد كنت مرة جالسا عند سيدى على الخواص رحمه الله وهو يضفر الخوص ، فمر بنا شخص من المتعبدين قوامين الليل الصائمين النهار والنور يخفق على وجهه ، فقلت له ياسيدى انظر إلى هذا النور العظيم الذى على وجه هذا الرجل ، فرفع الشيخ رأسه فقال اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ماتشاء قدير ، فقلت له لم ذا؟ فقال: ياولدى إذا أراد الله بعبد خيرا جعل نوره فى قلبه ليعرف مايأتى وما يذر من الحسن والقبيح ، وجعل وجهه كآحاد الناس ، وإذا أراد الله بعبد سوءا نقل النور الذى فى قلبه على وجهه وأخلى باطنه من النور وجعله مظلما ليقع فى كل فاحشة وفى كل رذيلة ، ويقول له الناس مع ذلك شىء لله المدد ياسيدى الشيخ لما يرونه من النور الذى على وجهه مع أن قلبه خراب مظلم ، فقلت له ياسيدى أما يجمع الله تعالى لأحد بين النورين ؟ فقال يمكن ولكن قد أمرنا الله تعالى بالستر لأعمالنا فى هذه الدار فلا يظهر لنا كمال إلا فى محل يقتدى بنا فيه ، فقلت له حصول النور على وجه العبد لايجىء بالتفعل ، فقال صحيح ولكن لايظهر عليه شىء قط إلا مع ميل سبق منه ولولا ميله ماظهر ، فقلت له فيحتاج الإنسان إلى ميزان دقيق ، فقال نعم وهو كذلك فربما ظهر كمال العبد بميل خفى لايشعر به فليفتش العبد نفسه انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : الكامل المكمل من كان على عبادة الملائكة ، ومع ذلك لم يظهر على ظاهر منه شىء فهذا هو الذى يخرج من الدنيا وأجره موفر لاينقص منه ذرة ، ومن هنا ترك بعض الأكابر العذبة والسبحة وتربية الشعر ولبس الصوف والجلوس على السجادة ودخلوا فى غمار العامة فلايكادون يتميزون عن العامة بهيئة ، فإن هذه الأمور قد صارت علما على أن صاحبها من أهل الطريق ، وأما من لبس الطيلسان وأرخى العذبة ولبس الصوف وجلس على سجادة بلانية صالحة فكأن كل شعرة منه تقول للناس أنا من الصالحين ، ومحك ذلك أنه إذا ترك تلك اللبسة ولبس ثياب العوام على الدوام يجد فى نفسه استيحاشا ، لأن هيئة المشيخة فارقته وما هو شيخ إلا بها ، فصار كالحداد بلا فحم .

قال : وقد طلبت مرة أن أعمل لى شملة حمراء كالأحمدية فشاورت سيدى عليا الخواص ، فقال إن قدرت تقوم بواجبها فالبسها ، فقلت له وماواجبها ؟ قال أن تمشى على قدم سيدى أحمد البدوى ، قال : فقلت له لاأطيق فقال ، فاترك ذلك ثم قال وعزة ربى إنى جعلت فى زيق جبتى شرموطا أحمر محبة فى سيدى أحمد وأنا مستحى من الله تعالى

فى لبسه ، وكذلك القول فى لباس كل خرقة من الخرق ، إن لم يمش الإنسان على قدم أصحابها وإلا فليتركها ، وأين قدم الشيخ عبد القادر الجيلى وسيدى أحمد الرفاعى ، وسيدى إبراهيم الدسوقى مثلا من أقدام من يلبس خرقتهم اليوم .

وقد رأيت خليفة سيدى أحمد البدوى وهو لابس عمامة سيدى أحمد ، وبشت سيدى عبد العال وجهه مصفر ، كالذى له شهر ضعيف ، فقلت له ماسبب هذا الاصفرار ؟ فقال من هيبة صاحب العمامة والبشت ، ثم قال والله إنى لما ألبسهما أحس بأن عظمى ولحمى ذائب انتهى .

وقد رأى سيدى أحمد الرفاعى يوما مريدا لبس جبة بيضاء ، فقال ياولدى لقد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأصفياء ، فإن لم تسلك طريقهم وإلا فانزع لبستهم ، فاعلم ذلك .

وكان على هذا القدم من الأشياخ الذين أدركناهم سيدى الشيخ أبو العباس الغمرى وسيدى إبراهيم الشاذلى ، وسيدى على المرصفى ، وسيدى محمد الشناوى ، فكانوا لايتميزون عن العامة فى لبس رضى الله عنهم أجمعين .

وسمعت الشيخ أمين الدين رحمه الله يقول : سمعت سيدى أبا العباس الغمرى يقول لسيدى محمد بن عنان : الظهور يقطع الظهور ، وربما استوفى من أظهر صلاحه فى هذه الدار جزاء أعماله كلها من كثرة الاعتقاد فيه ، وقضاء حوائجه وإرسال الهدايا له ، ونحو ذلك فيذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الأعمال الصالحة .

فعلم أن الله تعالى ماطلب منا إلا أن نعبده خالصا لوجهه لانشرك بعبادته أحدا من خلقه حتى أنفسنا إلا بقدر نسبة العمل إلينا لأجل التكليف ، فياخسارة من يرائى بعمله فى هذه الدار ، وياندامته يوم القيامة فإنه ليس مع الخلق الذين راءاهم شىء يعطونه له يوم القيامة فى نظير مراءاتهم ، ولا هو عبد الله تعالى خالصا حتى يثيبه على عبادته قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط العمل الصالح أن لا يرى به نفسه على أحد من خلق الله تعالى ، فمتى رأى له به فضلا على أحد خرج عن كونه صالحا إلا إن قصد بذلك الشكر انتهى .

ثم لايخفى على كل عاقل أن العبد لايستحق قط على خدمة سيده شيئا لأن خدمة السيد واجبة على عبده شرعا لكونها وظيفة الرق ، وكل عبد لايرى المنة لسيده عليه فى إذنه له فى الوقوف بين يديه فضلا عن إعطائه الثواب الجزيل فهو أعمى القلب فى العبيد ، فإنه لو طرده مثل غيره ومنعه الوقوف بين يديه لهلك مع الهالكين .

واعلم ياأخى أن أكثر مايدخل الرياء فى الفضائل الزائدة على الفرائض ، أما الفرائض فلا يدخلها رياء إلا من حيث تحسينها باظهار الخشوع فيها ونحو ذلك . والفرق بينهما أن العبد فى فعل الفرائض عبد اضطرار وفى النوافل عبد اختيار فكأنه يقول فى نفسه قد فعلت ماكلفنى الله تعالى به وزدت عليه ، ولو شئت لم أفعله ، فلذلك يغلب عليه شهود فضله على أخيه بفعل ذلك بخلافه فى الفرائض ، ولذلك أمر العبد أن يقول فى سجود التلاوة «سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته» بخلاف الفرائض لايقول فيها بحوله وقوته لأنه لايرى نفسه بها على غيره غالبا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ صادق يفنى اختياره فى اختياره ويصبر على نهره ومناقشته له حتى يسير به فى طريق الغيب ويوصله إلى حضرة ربه عز وجل ، ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه شهود العمل لنفسه وحب المحمدة به عند الناس وحب الشهرة بالصلاح شاء أم أبى .

وإيضاح ذلك أن من لم يسلك الطريق لايصح له غالبا دخول حضرة الإحسان التى يعبد الله فيها كأنه يراه أبدا ، فهو واقف فى عبادته مع نفسه ومع الخلق فى الأعمال ، ولو أنه دخل حضرة الإحسان لشهد الله تعالى هو الفاعل لجميع أعماله خلقا وإيجادا على الكشف والشهود ، وما بقى للعبد إلا وجه إسناد الفعل إليه مجازا لأجل قيامه بالحدود والتكاليف لاغير ، ومن كان كذلك لم يجد لنفسه عملا أصلا فاستراح من ورطة الرياء بالأعمال والإعجاب به وطلب الثواب من الله تعالى لأجله ونحو ذلك ، فصار يشهد جوارحه كالآلة التى يحركها المحرك على الفارغ فيرى الله هو الفاعل فى جوارحه بالامداد والقوى لاهو ، فإن العبد إذا أمره الحق تعالى ، بقوله افعل يتيه إعجابا فى نسبة الفعل إليه ، ثم يسبقه إمداد الحق تعالى لقوته الفاعلة عند الفعل من حيث لايشعر ، فيظن أنه الفاعل وينسى الفاعل الحقيقى ، ولو أنه نظر إلى قواه الباطنة وما أمده الحق تعالى لها من القوى لذهب عنه الرياء جملة واحدة ، فكان حكمه حينئذ حكم من نام إلى الصباح وبجانبه شخص

نائم يصلى طول الليل والناس ينظرون فهو لايصح له أن يرائى بما فعل ذلك الشخص أبدا ولو أنه ادعى ذلك لكذبه الناس ، ومثل ذلك أيضا مالو استعار ثوبا ليحضر به عرسا وجميع من حضر العرس يعرفون أن ذلك الثوب لفلان أعارها له ، فلا يصح له أن يدعيها لنفسه ، ولو ادعى كذبه الناس ولم يحصل له به تجمل ، بل كان العرى له أولى من لبسه ، فكذلك القول فى المرائى بعمله يكذبه الله وملائكته وجميع العارفين وتمقته القلوب ، قال تعالى :

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ) .

أى لو انكشف حجابكم لرأيتم الله تعالى فاعلا ومقتم نفوسكم عنده يعنى فى حضرة شهوده لادعائها مالبس لها لأن الله تعالى يمقت العبد على وجه نسبة الفعل إلى نفسه ، فإنه تعالى قد أضاف الأفعال إلى عباده وما أضافه إليهم لايصح مقتهم لأجله فافهم .

وبالجملة فمن راءى الناس بأعماله فهو مجنون والسلام .

وروى مسلم والترمذى وغيرهما مرفوعا : « أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَيُؤْتَى بِهِ فَيُعَرِّفُهُ اللهُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَيْهِ فَيَعْرِفُهَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ مَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ فَيَقُولُ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِيكَ ، فَيَقُولُ لَهُ الْحَقُّ تَعَالَى كَذَبْتَ وَلٰكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْقَارِئِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي؟ فَيَقُولُ بَلَى يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ : فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ : كُنْتُ أَقُومُ لَكَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ، وَيَقُولُ لَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ قَارِئٌ ؛ وَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ فَهُوَ مِنْ أَوَّلِ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ عَمِلَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « مَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَهُوَ لاَ يُرِيدُهَا وَلاَ يَطْلُبُهَا لُعِنَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَبِي يَغْتَرُّونَ ؟ وَعَلَى عَظَمَتِي يَجْتَرِئُونَ فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ طَمَسَ اللهُ وَجْهَهُ وَمَحَقَ ذِكْرَهُ وَأَثْبَتَ اسْمَهُ فِي دِيوَانِ أَهْلِ النَّارِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا عن ابن عباس قال الحافظ المنذرى ولعله موقوف :

« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا تَسْتَعِيذُ جَهَنَّمُ مِنْ ذٰلِكَ الْوَادِي كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةِ مَرَّةٍ ، أُعِدَّ ذٰلِكَ الْوَادِي لِلْمُرَائِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ لِحَامِلِ كِتَابِ اللهِ وَالْمُتَصَدِّقِ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللهِ وَالْحَاجِّ إِلَى بَيْتِ اللهِ وَالْخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللهِ » .

وروى الإمام أحمد باسناد جيد وابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعا :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ قَالُوا ؟ وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ قَالَ : الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟ » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ لِلّٰهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِهِ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « يُؤْمَرُ بِأُنَاسٍ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رِيحَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَمَا أَعَدَّ اللهُ لأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنْ اصْرِفُوهُمْ

عَنْهَا لاَ نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الْأَوَّلُونَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِينَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا ، قَالَ : ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ ، كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعَظَائِمِ ، وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاءُونَ النَّاسَ بِخِلاَفِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ ، هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي ، وَأَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي ، وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي الْيَوْمَ أُذِيقُكُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَا حُرِمْتُمْ مِنَ الثَّوَابِ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكُ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ ، قِيلَ وَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلاَ وَثَناً وَلاَ حَجَرًا وَلَكِنْ يُرَاءُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ الرِّيَاءُ شِرْكٌ هُوَ؟ قَالَ نَعَمْ : قِيلَ فَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ قَالَ : يُصْبِحُ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيُفْطِرُ » .

وروى ابن خزيمة مرسلا « لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ رِيَاءٍ » .

وروى ابن خزيمة مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؟ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ : يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فَقِيلَ فَكَيْفَ نَتَّقِيهِ يَارَسُولَ اللهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَالَ قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا لاَ نَعْلَمُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى فعل شيء من القاذورات فى المسجد ، سواء القاذورات الحسية كالنجاسة العينية والمعنوية كالغيبة

والنميمة ، والنظر إلى مالا يحل ونحو ذلك كل ذلك إجلالا وتعظيما لما نحن فيه في حضرته الخاصة به ، لأن المسجد بيت الله فهو كنهى الصائم عن الغيبة فى رمضان مع أنها حرام فى رمضان وغيره .

وقد ورد النهى عن تقذير المساجد بالأمور المحسوسة كالبول والبصاق ، فقسنا عليها تقذيره بالأمور المعنوية ، وفى الحديث :

« إِنَّ أَحَدَكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ » يعنى فى المسجد .

فعلم أنه لاينبغى للجالس فى المسجد أن يتهاون بتطاير شىء من بصاقه فيه ، ولا أن يخرج فيه ريحا ولا أن يلغو فيه ولا أن يتهاون ويتساهل فى الخواطر السيئات ، ولا أن يأكل على حصره أو أرضه عسلا يعف عليه الذباب ، ولا أن يأكل فيه ثوما أو بصلا أو شيئا مما له رائحة كريهة مطلقا كالسمك المقدد ونحو ذلك ، ومن وقع فى شىء مما ذكرناه فليبادر إلى التوبة وإزالة القذر منه على الفور إن كان حسيا وهذا العهد لايقدر على العمل به من سكان المساجد وخدامها إلا القليل :

فيحتاج من يريد العمل به إلى شيخ يسلك به فى درجات تعظيم الله عز وجل التعظيم الممكن للخلق حتى يوقفه فى حضرة الله الخاصة ، ويشاهد أهلها بعين قلبه وهم صفوف واقفون وراكعون وساجدون على اختلاف طبقاتهم فى التقريب ، ويرى هناك من الملائكة كل ملك لو أراد أن يبلع السموات والأرض فى جوفه لهان عليه ذلك ومع ذلك فهو يرعد من هيبة الله ، فإذا كانت هذه عظمة عبد من عبيد الله فكيف بسيده الذى لايحيط بوصفه الواصفون ؟ .

وإيضاح ذلك أن رؤية الملك سبحانه فى حضرته الخاصة وجنود واقفون بين يديه ، أكمل من شهوده بغير جنود ولذلك أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحضرات العلى ، ليطلع على ما لم يكن عنده فى الأرض من حيث العظمة الإلهية ، فإن فى الإنسان جزءا ازداد علما بالشهود فكان فى الإسراء زيادات الآيات والعلامات وإعطاء العين حظها من النظر .

وتأمل يا أخى لو أن أحدا من ملوك الأرض لبس لبسة العوام وخرج مستخفيا فى الناس إذا رأيته لا يقوم بقلبك تعظيمه كما تعظمه إذا رأيته فى دست مملكته وعسكره ، فكذلك القول فى الحضرات الإلهية :

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى) .

الذى لا يحاط به فإنها على صورة المواكب الأرضية فى الهيئة نظير الوقوف فى صلاة الجماعة .

فعلم أن من طلب تعظيم بيوت الله تعالى من غير سلوك على يد شيخ ناصح فقد أخطأ الطريق ، لأن تعظيم البيت فرع عن تعظيم رب البيت .

وما رأت عينى فى عمرى كله أكثر تعظيما للمساجد من سيدى على الخواص رحمه الله تعالى ، كان لا يقدر على رؤية أحد يلغو فى المسجد أو يعمل فيه حرفة أو يدخله لحم نىء أو قديد سمك أو غافلا عن الله عز وجل . وقد رأى مرة الأخ الصالح أبا العباس الحريثى يمشى بتاسومة فى المسجد فنهاه عن ذلك وقال هذا عيب عظيم من مثلكم وقلة تعظيم لربكم فنزعها من رجله ، واستغفر فما لبسها فى المسجد حتى مات ، وهذا الأمر قد كثر فى المتورعين تنطعا لاخوفا من الله عز وجل فيأكلون الحرام ويفعلون الحرام ثم يمشى أحدهم بتاسومة على حصر المسجد .

وقد قالوا فى المثل السائر رأوا مرة شخصا سكرانا يقرأ القرآن ، فقال الناس له غن ليشاكل بعضك بعضا وهكذا من يفعل ماذكرناه ، وماهكذا كان يفعل أهل العلم والدين الذين أدركناهم رضى الله تعالى عنهم فالله تعالى يرد العاقبة إلى خير آمين .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ إِذَا صَلَّى فَلاَ يَبْصُقْ إِذَا صَلَّى بَيْنَ يَدَيْهِ » .

وروى ابن خزيمة : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلمَ كانَ إِذَا رَأَى نُخَامَةً فِى الْمَسْجِدِ يَغْضَبُ وَيَقُولُ : إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى يُقَابِلُ رَبَّهُ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَحَدٌ وَجْهَهُ فَيَبْصُقَ فِى وَجْهِهِ » .

وفى رواية أخرى له مرفوعا : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِى صَلاَتِكُمْ ، فَلاَ تُوَجِّهُوا شَيْئاً مِنَ الأَذَى بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » .

وبوب عليه ابن خزيمة باب الزجر عن توجيه جميع ما يقع عليه اسم أذى تلقاء القبلة فى الصلاة ، ثم روى مرفوعا :

« مَنْ تَفَلَ تُجَاهَ الْقِبْلَةِ جاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَتَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ » ومعنى تفل بصق.
قلت ومعنى قوله : « إِنَّ اللهَ فِي قِبْلَةِ أَحَدِكُمْ أَوْ تُجَاهَ وَجْهِهِ » .
أن حضرة خطاب الحق تعالى تكون بين يدى المصلى فلا يبصق قبلها أدبا معها وإلا فالحق سبحانه لا تأخذه الجهات والله أعلم .

وروى الشيخان مرفوعا : « الْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا » .

وروى أبو داود وغيره : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ نَهَى عَنْ إِنْشَادِ الضَّالَّةِ فِي الْمَسْجِدِ وَعَنِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَعَنْ تَشْبِيكِ الْأَصَابِعِ فِيهِ » .

وروى ابن ماجه وغيره مرفوعا : « خِصَالٌ لاَ تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ لاَ يُتَّخَذُ طَرِيقاً وَلاَ يُشْهَرُ فِيهِ سِلَاحٌ ، وَلاَ يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نِيءٍ ، وَلاَ يُضْرَبُ فِيهِ حَدٌّ ، وَلاَ يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ ، وَلاَ يُتَّخَذُ فِيهِ سُوقٌ » .

والنيء : هو الذى لم يطبخ وقيل هو الذى لم ينضج .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمُ الدُّنْيَا لَيْسَ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ » .

قال نافع : وكان ابن عمر رضى الله عنه يخرج من رآه يلغو فى المسجد إلى الرحبة ويقول من أراد أن يلغو فليخرج إلى الرحبة :

وروى الشيخان مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ » يعنى الثوم (فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا » .

وفى رواية لأبى داود : « فَلاَ يَقْرَبَنَّ الْمَسَاجِدَ » .

وفى راوية للطبرانى : « مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلاً فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيُنْهِكْهُمَا بِالنَّارِ يَعْنِي فَلْيَطْبُخْهُمَا » .

وروى مسلم مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ كُرَّاثاً فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى بِهِ النَّاسُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ فِجْلاً فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا » .

وروى مسلم : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ شَمَّ رَائِحَةَ بَصَلٍ فِى رَجُلٍ فِى الْمَسْجِدِ فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ » .

قلت : ويقاس بالروائح الكريهة المحسوسة الروائح الكريهة المعنوية ، فمن عصى الله تعالى ولم يتب توبة نصوحا فليس له أن يدخل المسجد حتى تزول رائحة تلك المعصية الخبيثة ، هذا فى شأن من يعصى خارج المسجد فكيف حال من يعصى الله تعالى فيه متكررا دائما ، والله إن أكثر الناس اليوم كالبهائم السارحة .

وقد رأيت بعينى شخصا مسك امرأة ليزنى بها فى جامع عمر بمصر العتيق ونحن محرمون فى صلاة الجمعة فغارت القدرة عليه فضربوه حتى كاد أن يموت ، فالله تعالى يلطف بنا أجمعين اللهم آمين .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بصلاة الجماعة ونصلى فرادى إلا لعذر شرعى امتثالا لأمر الله عز وجل بالأصالة لا طلبا للثواب الوارد فى ذلك ، فإن الثواب من لازم من يخدم الله عز وجل لأنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وما كان يحصل ضمنا من سائر حظوظ النفس فلا ينبغى لعبد أن يخدم سيده لأجله وهذا الأصل يسرى معك فى سائر العبادات فيقصد بفعلها امتثال أمر الله عز وجل بذلك لا غير .

فعلم أن من قصر نظره فى عباداته على الثواب فهو دنىء الهمة خارج عن أدب العبودية .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لجار المسجد أن يترك صلاة الجماعة فى المسجد ويصلى فى بيته ولو جماعة إلا لعذر من مرض أو حال غالب عليه منعه من الخروج للناس .

قال : ويحتاج صاحب هذا الحال إلى ميزان دقيق ينظر به ما هو الأرجح هل هو خروجه أم عدم خروجه فليفعله فقد يكون الإنسان فى جمعية بقلبه مع الحق لا يستطيع مفارقة تلك الحضرة خوفا من تفرقة قلبه وإسدال الحجاب بينه وبين تلك الحضرة إذا خرج .

وكان سيدى أبو السعود الجارحى رضى الله عنه إذا كان فى غلبة حال يصلى مع زوجته فى البيت ولا يخرج للمسجد .

وكان سيدى محمد بن عنان إذا مرض يخرج للجماعة زحفا ولا يترك صلاة الجماعة ، وحضرت أنا وفاته فأحرم بالصلاة خلف الإمام وهو جالس فى النزع وقدمات نصفه الأسفل فصلى بالإيماء مع الإمام ، فلما سلم أضجعناه فصار يرمهم بشفتيه والسبحة فى يده ، فكان آخر حركة يده فى السبحة طلوع روحه رضى الله عنه .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : لا أستطيع أن أقف بين يدى الله فى الصلاة وحدى أبدا ، وقد وقفت بين يديه وحدى مرة فكدت أن أموت من الهيبة كما تحصل الهيبة لمن أدخلوه على السلطان وحده فى مجلس حكمه والجنود مصطفة بين يديه ، وقد عمتهم كلهم الهيبة وخوف السطوة بخلاف من وقف بين يديه من جملة الناس الواقفين فإنه يستأنس بالناس فلو أن الحق تعالى شرع لنا الوقوف بين يديه على الانفراد للداب عظم المصلين مع الحضور ولحمهم فكان مشروعية الجماعة إنما هو رحمة بنا .

قال : وتأمل يا أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى به وزجه جبريل فى النور وحده بين يدى الله عز وجل كما يليق بجلاله كيف استوحش حتى أسمعه الله تعالى صوتا يشبه صوت أبى بكر يقول :

« يَا مُحَمَّدُ قِفْ فَإِنَّ رَبَّكَ يُصَلِّى » الحديث .

فزالت تلك الوحشة الطبيعية من حيث البشرية وبقى روحا مجردا ، فزالت تلك الوحشة إذ الأرواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش فافهم اه .

وسمعته أيضا يقول : إنما أكره الصلاة فرادى لأنى لا أعلم آداب حضرة الله عز وجل فإذا وقفت مع الناس ربما رأيت أحدا من أهل الأدب مع الله فتشبهت به ، ولو أنى صليت وحدى ما وجدت أحدا يعلمنى شيئا ، قال ولكل صلاة أدب جديد ، فليس هنا أدب جديد ، فليس هنا أدب يتكرر إلا فى الصورة لا فى الذوق ، ثم قال : والله ما أرى نفسى بين يدى الله فى الصلاة إلا كالمجرد الذى استحق العقوبة ولم يقبل الملك فيه شفاعة اه .

واعلم يا أخى أن بعض الناس قد يواظب على الجماعة رياء وسمعة ، لا امتثالا لأمر الله عز وجل ، فينبغى التفطن لذلك .

وقد حكى أن شخصا من السلف الصالح واظب على صلاة الجماعة فى الصف الأول سبعا وعشرين سنة فتخلف يوما عن الصف الأول فوجد فى نفسه استيحاشا من ذلك فأعاد الصلاة مدة السبع وعشرين سنة اه .

وقد كثرت خيانة هذا العهد من جماعة من طلبة العلم ويحتجون بالمطالعة ، حتى إنى رأيت شخصا فى جامع الأزهر يطالع فى علم المنطق وصلاة الجماعة فى العصر قائمة ، فقلت له فى ذلك فقال الوقت متسع ، فقلت له أما تعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل أى الأعمال أفضل ؟ فقال :

« الصَّلاَةُ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا » .

ثم قلت له : وبتقدير أن الوقت متسع فهل تقدر تجمع لك جماعة يصلون معك قدر هذه الجماعة ؟ فانقطعت حجته وبقى على مطالعته فمثل هؤلاء لايفلحون ، فإن أوامر الله الخاصة بأوقات ينبغى تقديمها على الأوامر العامة ، بل ربما يجب ولذلك كان الإنسان يقطع صلاة النافلة ويدخل فى صلاة الجماعة إذا أقيمت مع أنه فى النافلة بين يدى الله تعالى كل ذلك اهتماما بشأن الجماعة ، وفى الحديث :

« يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ » .

أى تأييده ورحمته وشفقته ونعمته ، ففى ترك الجماعة حصول ضد ذلك للعبد :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يتهاون أحد قط بعبادة ندب الشرع إليها إلا وعنده بقايا من النفاق ، فمن أراد زوال تلك البقايا فعليه بالسلوك على يد شيخ ناصح يسلك به فى حضرات الإيمان واليقين والنور ويخرجه من حضرات الشك والنفاق والظلمة وهناك يصير لا يشبع من خير ولا عمل من عبادة ولا يستثقل الخروج لصلاة الجماعة ولو فى طرف البلد .

فإن كان عندك يا أخى ملل من العبادات فاسلك على يد شيخ يخرجك عن ذلك الملل والله يتولى هداك .

وروى ابن ماجه والحاكم مرفوعا بإسناد صحيح :

« مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَارِغاً صَحِيحاً فَلَمْ يُجِبْ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ » .

وفى رواية لأبى داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا .

« مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ اتِّبَاعِهِ عُذْرٌ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ الصَّلاَةُ الَّتِي صَلاَّهَا قَالُوا وَمَا الْعُذْرُ ؟ قَالَ : خَوْفٌ أَوْ مَرَضٌ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا .

« لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ فِتْيَتِي فَيَجْمَعُوا لِي حُزَمًا مِنْ حَطَبٍ ثُمَّ آتِي قَوْمًا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْسَتْ بِهِمْ عِلَّةٌ فَأُحَرِّقُهَا عَلَيْهِمْ » .

فقيل ليزيد بن الأصم الجمعة عنى أو غيرها؟ قال: صمت أذناى إن لم أكن سمعت أبا هريرة يقول يأثره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر جمعة ولا غيرها .

قلت : وهذا الحديث يرد جواب من أجاب بأن همه صلى الله عليه وسلم بالتحريق إنما كان فى حق جماعة منافقين لايصلون فى بيوتهم ، أما المصلون فى بيوتهم فلم يهم صلى الله عليه وسلم بتحريقهم ، وهذا الجواب مذكور فى شرح المهذب وغيره والله أعلم .

وروى الترمذى عن ابن عباس موقوفا :

« لَوْ صَامَ رَجُلٌ النَّهَارَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَلَٰكِنْ لَمْ يَشْهَدِ الْجُمُعَةَ وَلَا الْجَمَاعَةَ فَهُوَ فِي النَّارِ » .

وتقدم حديث مسلم عن أبى هريرة فى رجل خرج من المسجد بعد الأذان :

« أَمَّا هَٰذَا فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ » .

قال ابن المنذر : وممن قال إن حضور الجماعة فرض عين عطاء وأحمد بن حنبل وأبو ثور والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك الاستعداد للعصر خوف الفوات ولو كان من عادتنا المواظبة على الاستعداد لجميع الصلوات ، فنجعل للعصر مزيد اختصاص لأجل ما ورد من تحذير الشارع صلى الله عليه وسلم من تركها ، زيادة على غيرها وهى الصلاة الوسطى بإجماع أهل الكشف ، حتى كان سيدى الشيخ مدين رضى الله عنه ، وسيدى محمد ابن أخته ، وتلامذته الأجلاء الصالحون ، وكسيدى على المرصفى وسيدى محمد السروى وغيرهما لا يخرجون من بيوتهم إلا لصلاة العصر ، فكانوا يصلون جماعة فى البيت فيما عدا العصر أما هو فيخرجون له إلا أن يكون أحدهم فى جمعية غالبة عليه ، وهى مشتقة من العصر الذى هو الضم فتجتمع أرواح الخواص

فى حضرة الله عز وجل ، حتى تكاد من شدة قربها تخرج عن الحدود البشرية ، فمن لم يعطه الله تعالى كشفا يعرف به مزيد اختصاصها على غيرها فليقلد الشارع صلى الله عليه وسلم فى المبالغة فى التحذير من فواتها ، فلم يأت لنا فى فوات غيرها مثل ما أتانا فى فواتها .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما أهاب شيئا من الصلوات الخمس مثل ما أهاب صلاة العصر ، فقيل له لماذا ؟ فقال السر لا يفشى :

وكان أخى العارف بالله تعالى أبو العباس الحرثى رحمه الله تعالى يستعد لصلاة العصر والباقى من وقت الظهر عشر درج ، فكان يستعد فى الأخذ فى المراقبة وغض البصر والاستغفار من الخطرات ليدخل عليه وقت العصر ولا عائق له عن دخول الحضرة :

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « بَاكِرُوا بِالصَّلاَةِ فِى يَوْمِ الْغَيْمِ فَإِنَّ مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةُ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » .

قلت : ومعنى باكروا بادروا وإلا فالعصر لا يبكر لها أول النهار ونظير ذلك من بكر إلى المسجد يوم الجمعة الحديث ، فإن المراد به عند بعضهم المبادرة إلى محل إقامتها بعد سماع قول المؤذن حى على الصلاة قال وذلك أكثر أدبا ممن يحضر من غير أن يدعى للحضور على لسان المؤذن اكتفاء بالأذان العام له بالحضور قبل الوقت والله أعلم .

وروى الإمام أحمد . « مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » .

وروى مالك والشيخان وغيرهم مرفوعا :

« الَّذِى تَفُوتُهُ صَلاَةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ » .

قال مالك : ومعنى ذلك ذهاب الوقت فكأنما ذهب أهله وماله من حيث الأسف والحزن عليهم .

قلت : وقد نمت مرة بعد العصر قبل أن أصليها فرأيت فى المنام أخوى وقد أشرفا على الموت فاستيقظت مرعوبا وتذكرت هذا الحديث فأدركتها قبل المغرب بنحو عشر درج والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نؤم قوما وهم لنا كارهون ، ولا سيما إن كرهونا بحق .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى أن يتقدم للإمامة بالناس إلا من لم يكن عليه ذنب ، فإن كان عليه ذنب بحيث لو اطلع عليه المأمومون لم يصلوا خلفه أويكرهون الصلاة خلفه فلايؤم فليعرض من يريد الإمامة بالناس جميع زلاته على المأمومين لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ويعرضها عليهم ، فإن كان يغلب على ظنه أنهم كلهم يصلون خلفه مع ارتكابه هذه المعاصى فليتقدم وإلا فليتأخر اه .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ يعلمه طريق السياسة للناس تارة بماله وتارة بقوله ، وتارة باطعامهم الطعام ، وتارة بقضاء حوائجهم ، وتارة بشكرهم فى المجالس ، وتارة بالأجوبة الحسنة من ورائهم وإيثارهم على نفسه وغير ذلك ، فعلم أنه ينبغى لنا أن لا نتعاطى أسباب كراهة الناس لنا كضد الصفات المذكورة ، فإن من لازم ذلك كراهة الناس لنا ومن تعاطى ذلك وتقدم عليهم فى صلاة جماعة أوجمعة وطلب منهم أن لا يكرهوه فهو مخطىء لاتيانه البيوت من غير أبوابها :

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى أبو داود وابن ماجه مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَلاَةً فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ » .

وروى الطبرانى أن طلحة بن عبيدالله صلى بقوم مرة ثم قال أرضيتم بصلاتى ؟ قالوا ومن يكره ذلك ياحوارىّ رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، قال إنى سمعت رسول اللهصلى الله عليه وسلم يقول :

« أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ لَمْ تَجُزْ صَلاَتُهُ أُذُنَيْهِ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« ثَلاَثَةٌ لاَ تُرْفَعُ صَلاَتُهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ شِبْرًا ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقف فى الصف المؤخر ونترك المقدم إلالعذر صحيح شرعى ، وقد عد الصوفية من الأعذار المسوغة للوقوف

فى الصف المؤخر أن يكون أحدنا كثير الوقوع فى المخالفات ، كثير الأكل للشهوات بخيلا على الفقراء والمساكين بما زاد عن حاجته بحب الشهرة بالصلاح والعلم ونحو ذلك كما سيأتى فى عهد الزهد فى الدنيا مرفوعا :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ فِى الدُّنْيَا : وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » رواه الترمذى .

فجعل من يجمع الدنيا مجنونا وهو يؤيد ما ذكره الصوفية ، فإن من كان كثير الوقوع فى المعاصى والشبهات فهو قليل العقل بيقين لأن العقل ما سمى بذلك إلا لعقله صاحبه عن المخالفات :

فعلم أنه لا ينبغى على هذا التقدير لكثير المعاصى أن يتقدم لأوائل الصفوف وإنما ينبغى ذلك لمن كان سالما منها :

قلت : ولعل هذا كان مشهد من نقل عنه الوقوف فى أواخر الصفوف من الأولياء كسيدى أحمد الزاهد وسيدى مدين وسيدى محمد الغمرى رضى الله عنهم ، فقد أخبرنى جماعة من أصحابهم أنهم لم يروهم قط يصلون فى غير الصف الأخير ويقولون : قد بلغنا أن الرحمة تستقر فى الصف الأخير ، وإذا غفر لأهل صف غفر لمن وراءهم ، وربما كانوا يظنون بأنفسهم السوء وأن فيها سائر العيوب .

وقد قيل مرة لسيدى الشيخ أبى العباس الغمرى رحمه الله : لم لا تصلى فى الصف الأول؟ فقال لست من أهل الصف الأول حتى أتقدم إليه ، فقيل له ومن أهله فقال من لم تتطلع جارحة من جوارحه بذنب أو لم يصر على خطيئة لحظة ، فقيل له اعتقادنا فيكم أنكم كذلك بحمد الله فقال أنا أعلم بنفسى ولم يزل يصلى فى الصف الأخير إلى أن مات اهـ .

وهذا ما عليه أئمة الصوفية الذين تحفهم هيبة الله عز وجل وكشف الحجاب عنهم فلو أقمنا لأحدهم الأدلة على أن يقف فى الصف الأول لا يستطيع من هيبة الله عز وجل والحياء منه ، وأما ما عليه جمهور الفقهاء والمحدثين فهو مطلوبية الوقوف فى الصف الأول لكل بالغ عاقل البلوغ المشهور : والعقل المشهور الذى بنيت عليه أحكام التكليف ، ويميز به بين الحسن والقبيح ولو لم يعمل بعلمه حتى صار معدودا من الفسقة بخلاف البلوغ والعقل فى مصطلح أهل الله عز وجل من الصوفية ، فإن البلوغ عندهم هو بلوغ الشخص أوج مراتب الكمال فى الولاية والعقل عندهم الاشتغال بما هو الأولى فى كل وقت حتى لا يكتب عليه كاتب

الشمال أبدا شيئا على أن العلة التى فهمها الصوفية من حديث « ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى » يقبلها العقل ولا يردها إذا حملنا أولى النهى على العقل الكامل الذى يحجز صاحبه عن المعاصى ، فكما أن الصوفية دائرون مع العلة التى هى عدم جمع الدنيا فإن وجدت عندهم تقدموا إلى الصف الأول وإن فقدت تأخروا ، فكذلك جمهور العلماء دائرون مع ظاهر أحاديث الشريعة ولو فقدت العلة ، كما داروا مع ظاهر الشريعة فى المواضع التى وردت على سبب مثل الرمل فى الأشواط الثلاثة فى طواف القدوم فإن العلة قد زالت ، وهى أن الصحابة كانوا يرون الكفار قوتهم وجلدهم حين بلغ الكفار إنه سيقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فلذلك أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاضطباع والرمل فى الاشواط الثلاثة تكذيبا لما توهمه قريش فيهم .

فعلم أن من جمع العقل والبلوغ على مذهب الصوفية والفقهاء والمحدثين فهو مأمور بالوقوف فى الصف الأول ، اتفاقا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى للشخص أن يبادر ويزاحم على الصف الأول إلا إن كان سالما من العيوب الباطنة ، التى لو اطلع الناس عليها لحقروه وأخروه ، فليتنبه المصلى لمثل ذلك فإن فى الحديث « صفوا كما تصف الملائكة عند ربها » أى لا يتقدم صغير على كبير ولا مطرود على مقرب بالنظر لاختلاف المراتب واعتبار المشاهد وإلا فالحق تعالى قريب من كل أحد على حد سواء كما يعرف ذلك من انكشف حجابه لتنزيهه تعالى عن التحيز ، فكما لا يتقدم الملك الأصغر فى الموقف على الأكبر ، فكذلك لا يتقدم مرتكب المعاصى ولو سرا على السالم منها ولو جهرا .

وتأمل ياأخى فى المملكة الدنيوية لا يتقدم صغير فى حضرة السلطان فى موقف الكبير أبدا ، ولو أن شخصا من الصغار زاحم ودخل فى غفلة مع نقباء الحضرة أخرجوه بعد ذلك وزجروه أشد الزجر .

وقد قال بعض أهل الكشف : إن ترتيب المملكة السماوية على ترتيب المملكة الأرضية حتى أن الملائكة التى تكتب الحسنات تكون على يمين الداخل للحضرة الإلهية وكاتب السيئات يكون على يسار الداخل لها كما فى كاتب بيت الوالى وكاتب الجيوش ، فإن كاتب السيئات دائما يجلس على يسار الداخل ولو لم يقصد معلم الجيوش الآن ذلك لجهله بالحضرات السماوية .

وبالجملة فكل من العلماء والصوفية على هدى من ربهم فيما فهموه من الكتاب والسنة ولكن منهم المشدد ومنهم المخفف على الناس بحسب الأمر الغالب :

(وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) ، فـ (الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَرَكَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا أَضْعَفَ اللهُ لَهُ أَجْرَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ » .

وروى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما مرفوعا :

« لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ فِي صِغَرِ السِّنِّ وَخِفَّةِ الْعَقْلِ » .

فجعل الأمر بالوقوف فى الصف الأول لكاملى السن والعقل ، وهو يحتمل المعنيين السابقين عن الصوفية وعن الفقهاء والمحدثين :

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى أَهْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ » .

وهو يشمل أهله حقا وأهله مجازا كما قاله بعضهم ، ويكون المراد بأهل الصف الأول الذين جمعوا صفات الكمال ثم وقفوا فى الصف الأول ، لا من عصى ربه وتعاطى أسباب الفسق ثم وقف فيه ، وكذلك يشمل المعنيين أيضا حديث مسلم مرفوعا :

« خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا » .

فإن بعض الصوفية قال المراد بالرجال هم الكمل من الأولياء الذين لايشغلهم عن الله شاغل كما فى قوله تعالى :

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ) اهـ .

فليتأمل ذلك ويحرر والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بالوقوع فى مسابقة الإمام فى الركوع والسجود والرفع منهما كما عليه غالب الناس اليوم ، فصاروا يرفعون رؤوسهم ويخفضونها بحكم العادة لا العبادة ففاتهم أجر الاتباع وعصوا أمر الله ورسوله ، ولعمرى من أحرم خلف إمام ناويا أنه لايفارقه حتى يسلم أى فائدة فى مسابقته فى أثناء الصلاة وهو مربوط معه إلى السلام .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ صادق يسلك به فى مقامات الأدب مع الله تعالى ومع الأئمة الذين نصبهم الشارع يصلون بالناس حتى يصير لا يركع ولا يرفع من ركوع ولا سجود إلا بحكم الاتباع لهم والحضور مع الله تعالى فى ذلك ، فإن ذلك هو فائدة صلاة الجماعة ، وأما بغير سلوك فلا يصح له ذلك ولوأنه راعاه يراعيه فى الغالب بتكلف بخلاف السالك للمقامات لا يصير عنده تكلف فى امتثال أمر الشارع أبدا ، كما أنه لا يتكلف لدخول النفس وخروجه فتأمل ذلك فإنه نفيس :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ رُكُوعٍ أَوْ سُجُودٍ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ كَلْبٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « الَّذِى يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ قَبْلَ الْإِمَامِ إِنَّمَا نَاصِيَتُهُ بِيَدِ شَيْطَانٍ » .

قال الحافظ المنذرى : وممن قال بعدم صحة صلاة من خفض ورفع قبل الإمام عبد الله ابن عمر ، ولكن عامة أهل العلم على أنه أساء فقط وصلاته مجزية غير أن أكثرهم يأمرونه أن يعود إلى السجود ويمكث فى سجوده بعد أن يرفع الإمام رأسه بقدر ما كان ترك قاله الخطابى والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتساهل بترك إتمام الركوع والسجود والاعتدال فيهما سواء كنا أئمة أو مأمومين أو منفردين وأما الزيادة فى التطويل على الذكر الواجب والمندوب ، فلا يليق بالإمام بل ربما أبطلوا صلاته إذا طول الاعتدال زيادة على الذكر الوارد فيه المطلوب منه وإنما يليق ذلك بالمنفرد ، وأما المأموم فهو تابع لإمامه ، ثم إن طول تطويلا خارجا عن المأمور به فله مفارقته ولو بلا عذر :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى للفقير إذا كان يغلب عليه الذهول فى حضرة الله عن شهود المأمومين أن يجعل نفسه إماما بالناس لأن مثل هذا تحت أسر القدرة الإلهية لا اختيار له إلا أن يأمره الشارع بتطويل قراءة الثانية على الأولى كقراءة سورة الغاشية فى الركعة الثانية من الجمعة وفى الأولى بسبح اسم ربك الأعلى مع أنها أقصر

من الغاشية وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم نص على أن تكون القراءة فى الركعة الثانية دون الأولى والقراءة فى الرابعة دون الثالثة :

وفى حديث عائشة : « وَكَانَتْ صَلَاتُهُ بَعْدُ إِلَى التَّخْفِيفِ » اه .

ومن الحكمة فى ذلك كون النفس تزهق من طول الوقوف بين يدى الله عز وجل عجزا أومع الغفلة إذا لايقدر كل أحد على مراعاة كونه بين يدى الله عزوجل على الدوام من غير أن يتخلل ذلك شهود الكون ، فإن ذلك ليس من مقدور البشر إلا أن يمن الله تعالى بذلك على بعض أصفيائه :

وتأمل يا أخى نفسك إذا طول الإمام الثانية على الأولى أو طول الدعاء فى التكبيرة الرابعة فى صلاة الجنازة تكاد روحك تخرج من حضرة الله عز وجل ، ولا يصير واقفا يصلى منك إلا الجسم فقط ، وتلك الصلاة لا تصلح للقبول بل هى إلى الرد أقرب كما مر فى عهد الخشوع فى قسم المأمورات :

واعلم يا أخى أن الاعتدال قد وردت فيه أحاديث فى تطويله وتقصيره ، فروى البخارى :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ كَانَ يُطَوِّلُ الْأَعْتِدَالَ حَتَّي نَقُولَ إِنَّهُ نَسِيَ » .

وفى رواية : « كَانَ إِذَا جَلسَ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ كَأَنَّمَا جَلَسَ عَلَى الرَّضْفِ » يعنى الحجارة المحماة .

فأما الإمام أبو حنيفه فقال : يجب الاعتدال فى الرفع عن الركوع والسجود بقدر مايفصل الركن من الركن ، لأن الاعتدال فى هذين الموضوعين إنما شرع تنفيسا للمصلى مع الحضور من المشقة العظيمة التى تجلت له فى ركوعه وسجوده :

وأما الإمام الشافعى فقال يجب الاعتدال عن الركوع والسجود حتى يرد كل عضو إلى موضعه التى هى حالة القيام :

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى أسرار الصلاة فراجعه والله أعلم :

وروى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« لاَ تجْزِى صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ » .

وروى الإمام أحمد : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ نَهَى عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ » .

وروى الطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَى رَجُلاً لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لَوْ مَاتَ هٰذَا عَلَى حَالَتِهِ هٰذِهِ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ » .

وروى النسائى مرفوعا : « مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّى الصَّلاَةَ كَامِلَةً ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّى النِّصْفَ والثُّلُثَ وَالرُّبُعَ وَالْخُمُسَ حَتَّى قَالَ : وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّى الْعُشْرَ » .

وفى رواية للنسائى بأطول من هذا وفى حديث المسىء صلاته :

« فَارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَافِعاً ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ، ثُمَّ اجْلِسْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً ، ثُمَّ افْعَلْ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا » اهـ.

فالكامل من دار مع الأحاديث والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك الحضور مع الله تعالى فى صلاتنا وجميع طاعاتنا ولا بالخشوع فيها ، لأن روح كل عبادة هو الحضور والخشوع فيها ، وما أمرنا الله تعالى بفعل طاعة إلا لنشهده تعالى فيها وكل عبادة لا تجمع العبد بقلبه على الله تعالى فهى عادة لاعبادة فلا أجر فيها ، ومن قال من الفقراء إن الخشوع فى الصلاة لايضر تركه فقدأخطأ طريق الكمال ، وإذا كان حامل القرآن والعلم يترخص هذا الترخص فيمن يقتدى بالناس. فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يدشيخ صادق حتى يزيل حجبه وعوائقه التى تبعده عن دخول حضرة الله تعالى ويدخله حضرات القرب ويصير الخشوع لله تعالى من شأنه لا يتكلف له ، وأما من أكل ونام ولغا فى الكلام وارتكب الآثام وشبع حتى صار بطنه كبطن الدب من الحرام والشبهات فمن أين يأتيه الخشوع ، فإنهم أجمعوا على أن من شبع من الحلال قسا قلبه فكيف بمن شبع من الحرام وهذا حال أكثر الناس اليوم ، فيتعاطى أحدهم أسباب قسوة القلب ثم يقوم للصلاة ويطلب يحضر مع الله ويخشع

وجوارحه كل جارحة فى بلد أو حارة ، وذلك لا يصح وقد قالوا فى المثل السائر : من مشى فى غير طريق يتيه ولو كان فى النهار .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ليدلك على طريق الوصول إلى الحضور والخشوع ، ولا تكبر نفسك عليه وتقول أنا عالم فتخسر فإن من شرط العالم أن يعرف دواء كل علة وينزل الدواء على الداء ، ومن قال دواء الحمى مثلا كذا وكذا وهو لم يعرف الحمى كأنه لم يعلم شيئا ، وقد ذكرنا فى عهود المشايخ أنه يجب على كل فقيه أن يتخذ له شيخا يدله على الطريق التى تسهل عليه الوصول إلى درجة العمل بما علم ليكمل نفعه لنفسه وللناس ، ولا يكون كالشمعة التى تضىء على الناس وتحرق نفسها وقد قال تعالى :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) .

أى أكبر ما فيها كتلاوة القرآن غافلا والركوع والسجود وغير ذلك والمراد بذكر الله هنا شهود العبد ربه بقلبه أو علمه بأنه فى حضرته تعالى والحق ناظر إليه فمن صلى كذلك نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر خارجها لاستصحاب شهوده إن الله تعالى يراه التى هى حضرة الإحسان ، وأما من لم يحضر فى صلاته فليس معه من الحضور ذرة حتى يستصحبها خارج الصلاة ولذلك تجد خلقا كثيرا مواظبين على الصلاة ويقعون فى كل فاحشة ورذيلة وهذا أولى من تفسير من قال المراد بكون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر أنه مادام فيها من حين يحرم بها إلى أن يسلم منها لا يتصور منه معصية ، فتأمل ذلك وحرره .

واعلم يا أخى أن من لم يتصور له الحضور فى الصلاة فقد خسر ، والله لا يحب الخاسرين .

وقد قال بعضهم : إن العبد لا يتنعم فى الآخرة إلا بمقام حصله هنا ، وإن كل من لم يحصل مقاما فى هذه الدار لا يعطاه فى الآخرة :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) .

لحجابهم عن دخول حضرته فى دار الدنيا ، وإن تفاوت حجاب المؤمن والكافر .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لولا دخول الأولياء حضرة الإحسان ما حفظوا من المعاصى :

قال : وقد دخلها الإمام الليث بن سعد ، والإمام الشافعى رضى الله عنهما ، فكان كل

واحد منهما يقول أنا أعرف شخصا فى عصرنا هذا من منذ وعى على نفسه ما أتى معصية قط فكان أصحابه يعرفون أنه يعنى بذلك نفسه ، لأن أحدا لايعرف ذلك من غيره إلا من طريق الكشف على أنه قد يحصى الله تعالى على عبده مالم يخطر له على بال .

ثم من المعلوم أن حضرة الإحسان لا يتصور دخول إبليس فيها أبدا ولو بحيلة من الحيل إذا لو صح دخوله لها لم يبق أحد تضاف إليه المعاصى بالوسوسة حتما ، فتعين أنه لا يدخلها وإن من وقع له وسوسة فى صلاته وادعى أنه فى حضرة الإحسان فهو غير صادق فى دعواه ، ومن هنا عصمت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعكوفهم فى حضرة الإحسان على الدوام ، حتى فى حال أكلهم وجماعهم ومزاحهم :

وسمعت أخى أفضل الدين يقول لفقيه رآه يقفز فى الصلاه ليصطاد النية من الهواء ، كيف تطلب النية والحضور والخشوع مع الله وكل عضو منك فى واد مربوط بعلاقة شهوة من الشهوات ، فاقطع علائقك أولا ثم صل وإلا فلا يمكنك أن نقطع علائقك كلها حال إحرامك ، ومن لازمك الالتفات لغير الله تعالى فى صلاتك فلا يصح لك حضور ولا خشوع اه :

وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم لايسامحون مريدهم قط فى حضور شىء من الدنيا على باله وهو الصلاة ، بل كان الجنيد رضى الله عنه يقول للشبلى : يا أبابكر إن خطر فى بالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد تائبا فإنه لا يجىء منك شىء اه .

فلا تظن ياأخى أن هذا المشهد من أعلا المقامات وإنما هو من أوائل مقامات المريدين وذلك لأن أول قدم يضعه المريد فى الطريق يشهد الخالق للذوات ويحجب عن الوقوع مع اللذات كمن وصل إلى مجالسة السلطان لا يلتهى عنه بمشاهدة غلام يخدم خيل بعض جنده يحجبه بذلك الجمال البديع عن رؤية غيره :

ومن كلام الجنيد رحمه الله من شهد الحق تعالى لم ير الخلق ، ولا يجمع بين رؤية الحق تعالى والخلق معا فى آن واحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكمل ورثته ، وهذا الأمر لايدرك إلا ذوقا :

وقد كان الشيخ معروف الكرخى رضى الله عنه يقول لى ثلاثون سنة أكلم الله والناس يظنون أنى أكلمهم .

وأخبرنى الشيخ يوسف الكردى من أصحاب سيدى إبراهيم المتبولى وكان يجتمع

بالخضر عليه السلام كثيرا ، قال : كنت مع سيدى إبراهيم فى مصر ثم رجعنا إلى بركة الحاج فمر على بستان النخيل الذى غرسه فى البركة ، فقال سيدى إبراهيم ماهذه النخيل ؟ فقلنا هذا بستانكم ، فقال من غرسه فقلنا له أنتم ، فقال وعزة ربى أنا لى منذ سبعة عشر سنة ماخرجت من حضرة الله تعالى ، ولكن أستحى إن خطر على بالى وأنا فى حضرة الله أن أغرس بستانا أو أبنى زاوية يأوى إليها الغرباء والحجاج ، فلعل الله تعالى أرسل ملكا على صورتى فغرسه ، هذا لفظ على رضى الله عنه .

فعلم أن من لم يسلك طريق القوم فهو واقف مع شهود الخلق دون الحق ، فلا يحصل له خشوع غالبا لعدم إدراكه لتجليات الحق جل وعلا التى دكت الجبال دكا وخر منها السيد موسى عليه الصلاة والسلام صعقا .

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : ماقطع بعض أهل الجدال عن الوصول إلى مقامات الأولياء وكراماتهم إلا دعواهم أنهم أعلم بالله منهم وخوفهم على علمهم الذى به رياستهم أن ينسى حين يتبعون طريق الفقراء وهو خديعة من النفس والشيطان ، فإن طريق الفقراء لاتزيدهم إلا علما إلى علمهم وجلاء لقلوبهم وحضورا فى عباداتهم اهـ .

قلت : وليس مرادنا بالفقراء هؤلاء الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر فى الزوايا وعقدوا مجالس الذكر ، فإن الفقهاء بيقين أحسن من هؤلاء وأعلى مقاما لزيادتهم عليهم فى العلم والفهم فى الكتاب والسنة ، وكلام الأئمة ، وإنما مرادنا العارفون بالله تعالى وبسائر مذاهب المجتهدين ومقلديهم الذين أتتهم تلك العلوم من طريق الوهب وهؤلاء قليلون فى مصر ، ولكن من صدق أوقعه الله تعالى عليهم اهـ .

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام رحمه الله يقول : وهل ثم طريق غير مافهمناه من الكتاب والسنة وينفى طريق القوم ، فلما اجتمع بسيدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى وأخذ عنه صار يقول : ماقعد على قواعد الشريعة التى لاتهدم إلا الصوفية ، قال : ومما يدلك على ذلك مايقع على يد أحدهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شىء منها على يد غيرهم ، ولو بلغ فى العلم مابلغ هذا لفظه فى كتاب ألفه فى طريق الصوفية سماه التقريب ، وكذلك بلغنا عن الغزالى قبل اجتماعه بشيخه البازغانى رحمه الله .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : غاية حضور العالم فى الصلاة أن يتدبر فيما يقرؤه ، ويلقى باله لمخارج الحروف واستنباط الأحكام ، وهذه كلها أمور مفرقة

عن الحضور مع الله تعالى ، فإن من الآيات مايذهب به إلى الجنة فيشاهد مافيها ، ومنها مايذهب به إلى النار فيشاهد مافيها ومنها مايذهب به إلى قصة آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف الحضور إلى الله تعالى ؟ وليس فى قدرة النفس أن تشتغل بشيئين معا فى آن واحد ، ومن هنا قال مالك رحمه الله بأن إرخاء اليدين فى الصلاة أولى للضعيف من وضعهما تحت صدره آخذا يمينه بساره ، لأن مراعاتها تشوش على العبد وتمنعه من كمال الإقبال على مخاطبة الله عز وجل ومناجاته ، ولا شك أن مراعاة أدب الخطاب مع الحق أولى من مراعاة وضع اليدين تحت الصدر :

فعلم أن وضع اليدين تحت الصدر لا يؤمر به إلا من لم تشغله مراعاته عن كمال خطاب الله عز وجل من الأكابر الذين ثبتهم الله تعالى . أما الأصاغر فربما ذهلوا عن عدد ماصلوا من الركعات ، وماقالوه من التسبيحات لأنها حضرة تذهل العقول كما يعرف ذلك أهل الله تعالى ، ولولا أن الله تعالى يلطف بهم لمـــا عرف أحد منهم عدد ما صلى ، والله تعالى أعلم :

وروى الترمذى والديلمى مرفوعا : « لاَ يَقبَلُ اللهُ تَعَالَى مِنْ عَبْدٍ عَمَلاً حَتَّى يَشْهَدَ قَلْبُهُ مَعَ بَدَنِهِ » .

وروى الترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا :

« الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى تَشَهُّدٌ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَتَخَشُّعٌ وَتَضَرُّعٌ وَتَمَسْكُنٌ وَتَبَأُسٌ وَتَقَنُّعٌ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ خِدَاجٌ » .

وقوله « تبأس » معناه إظهار البؤس والفاقة ، وقوله « تمسكن » من المسكنة والوقار وقوله « تقنع » أى يرفع يديه فى الدعاء ، وقوله « خداج » أى ناقصة الأجر والفضل :

وروى الطبرانى مرفوعا : « إذَا صَلَّى الْعَبْدُ فَلَمْ يُتِمَّ صَلاَتَهُ بِخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ » .

وفى رواية له : « أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ حَتَّى لاَ تَرَى فِيهَا خَاشِعاً » .

وروى الطبرانى وأبو داود وغيره : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كانَ إذَا صَلَّى يُسْمَعُ لِصَوْتِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ » .

يعنى أن لصوته وقلبه أنينا كصوت غليان القدر على النار القوية ، والأزيز بزاءين معجمتين .

وروى الطبرانى أن عبدالله بن مسعود كان إذا صلى كأنه ثوب ملقى من شدة الخشوع.

وروى الطبرانى مرفوعا . « ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : تَعْجِيلُ الْفِطْرِ وَتَأْخِيرُ السُّحُورِ وَضَرْبُ الْيَدَيْنِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الصَّلَاةِ » أى لأنها صفة الخاشعين والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتخطى قط رقاب الناس ، وقد اصطفوا جلوسا ينتظرون الصلاة ، أو يستمعون الخطيب أو الواعظ أو تدريس العلم ونحو ذلك أدبا مع الله تعالى ومع إخواننا المسلمين ولو زبالين ، فإن هذه الحضرات تزل فيها الملوك الجبابرة فضلا عن غيرهم ، فمن تخطى رقاب الناس فيها فهو معدود من قسم البهائم ، فمن الأدب لطالب الخير أن يحضر قبل الناس أو يتخلف حتى يقوموا للصلاة فيخرق الصفوف لسد تلك الفرجة ، إن كان من أهل الوقوف فى الصفوف المتقدمة أو يصلى أواخر الصفوف ، وليحذر من إظهار نعله إذا دخل وهو فى يده بل يستره بردائه ونحوه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله لا يتجرأ قط أن يدخل المسجد إلا تبعا لغيره ، فإن جاء ولم يجد أحدا داخلا من الباب صبر حتى يجىء أحد ثم يدخل كأنه مجرم أتوا به إلى الوالى .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : والله إنى لأرى الجميلة للناس إذ مكنونى من الدخول للصلاة ولم يطردونى ثم يصلى فى أخريات المسجد قريبا من النعال ويقول : إن مدد الله النازل فى بيته لا ينزل على متكبر ولا على غافل عن الأدب :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الامام أحمد وأبو داود وغيرهما : « أَنَّ رَجُلاً تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَالنَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَخْطُبُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَنَا وَأَذِيتَ » وفى أخرى « فَقَدْ آذَيْتَ وَآنَيْتَ » بمد الهمزة : أى أخرت المجىء .

وروى ابن ماجه والترمذى مرفوعا : « مَنْ تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ اتُّخِذَ جِسْرًا إِلَى جَهَنَّمَ » .

وروى الطبرانى : « أَنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَى رَجُلاً يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ وَيُؤْذِيهِمْ فَقَالَ : مَنْ آذَى مُسْلِماً فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نرفع بصرنا إلى حضرة خطابنا لربنا سواء كانت حضرة الخطاب فى العلويات أو السفليات وهما معا على حسب اتساع حال العبد وضيقه فى وجوه المعارف ، وكذلك لا ينبغى لنا الالتفات عن حضرة الخطاب بقلوبنا فضلا عن جوارحنا ، وهـذا الأدب مطلوب من كل الناس وإن كان الحق تعالى لا يتحيز ولا تأخذه الجهات ، ونظير ذلك أنه تعالى طلب منا ستر العورة فى الخلوة والظلام وغيرها وإن كان لا يحجبه تعالى شيء عنا فافهم .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ وإلا فلا يقدر على كف جوارحه عن الانتشار والتفرقة أبدا ، وأقل مايفعله من لم يسلك الطريق أنه يشبع ويطلب من جوارحه الكف عن الفضول وذلك لا يكون لأن من شأن الجوارح إذا أكل الإنسان زائدا على السنة أن تنتشر ويكثر فضولها بخلاف من وقف على حد السنة فإن جوارحه تكون ذليلة خامدة عن سائر الملاهى فضلا عن الحرام . وقد قررنا مرارا أنه لا ينشأ فعل الحرام إلا من أكل الحرام ، ولا فعل الطاعات إلا من أكل الحلال ، فلو أراد آكل الحلال أن يعصى لما قدر ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِى صَلاَتِهِمْ لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذٰلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا فى حديث طويل :

« فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِى صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ » .

وفى رواية للامام أحمد وغيره مرفوعا :

« لَا يَزَالُ اللهُ تَعَالَى مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ » .

وفى رواية للامام أحمد وغيره مرفوعا :

« لَا يَزَالُ اللهُ تَعَالَى مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَالْتَفَتَ رُدَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ » .

وفى رواية له أيضا : « لَا صَلَاةَ لِلْمُلْتَفِتِ ، فَإِنْ غُلِبْتُمْ فِي التَّطَوُّعِ فَلَا تُغْلَبُوا فِي الْفَرِيضَةِ » .

وروى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن عن أم سلمة قالت : كان الناس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا لم يعد بصر أحدهم موضع سجوده ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا لا يعدو بصر أحدهم موضع سجوده ، فلما توفى أبو بكر كان لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ، ولما كانت الفتنة زمن عثمان رضى الله عنه أكثر الناس يمينا وشمالا :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتكلم والإمام يخطب إلا لضرورة أدبا مع نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن للنواب من الأدب ما لمستنيبهم وإن تفاوت المقام ، ثم إن ارتفع مشهدنا إلى سماع ذلك من الحضرات الإلهية كان لنا أدب آخر فوق ذلك ، ومن نظر بغير الكشف وجد جميع الوعاظ رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، فلا ينبغى له أن يجعل كلام الخطيب فى حق غيره فيفوته ثمرة الحضور لسماع الواعظ كما عليه غالب الناس ، فيأخذ كل كلام وعظه به الخطيب فى حق غيره وينسى نفسه ، وربما قال أفلح الواعظ اليوم فى الحط على الفسقة والظلمة الكلاب المنافقين ولا يأخذ من الخطيب كلمة فى حق نفسه ، هذا إن صغى إليه فإن اشتغل بحديث الدنيا أو الغيبة أو النميمة فقد فسق وأساء الأدب مع الله ورسوله بتعديه حدود الله ، والواعظ يعظه فى حضرة الله .

فيحتاج من يريد أن يكون من أهل الانصات إلى شيخ يسلكه ويبين له عيوبه حتى

يصير يأخذ كل كلام سمعه من الواعظ في حق نفسه فلا سبيل له إلا الانصات ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ أَنْصِتْ فَقَدْ لَغَوْتَ » .

ومعنى لغوت : خبت من الأجر ، وقيل معناه أخطأت ، وقيل بطلت فضيلة جمعتك ، وقيل صارت جمعتك ظهرا ، وقيل غير ذلك .

وروى الإمام أحمد والطبراني وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ أَنْصِتْ لَيْسَ لَهُ جُمُعَةٌ » .

فالحيلة في نهيه أن يشير له أنصت من غير لفظ .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « مَنْ لَغَى وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَانَتْ ظُهْرًا » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقر أحدا من المسلمين على تأخره عن حضور الجمعة حتى يصعد الإمام بل نأمره أن يحضر قبل صعوده وذلك لما روى الطبراني والأصبهاني مرفوعا .

« أَحْضُرُوا الْجُمُعَةَ وَادْنُوا مِنَ الْإِمَامِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَتَأَخَّرُ عَنِ الْجُمُعَةِ فَيُؤَخَّرُ عَنِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِهَا » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقر أحدا من المسلمين على تركه الجمعة بل ننهاه ونزجره أشد الزجر رحمة به وخوفا أن الله تعالى يطبع على قلبه فلا يدخله بعد ذلك خير حتى يموت ، ومتى علمنا أن أحدا ترك حضور الجمعة بغير عذر وسكتنا على ذلك بغير عذر فقد خنا الله ورسوله ، وارتكبنا إثما عظيما ، وهذا العهد قد كثر الإخلال بالعمل به فلا تكاد ترى أحدا ينكر على أحد ترك الجمعة أبدا ؛ والقاعدة أن كل من استهان بارتكاب غيره المعاصي فهو دليل على استهانته هو بارتكاب المعاصي في نفسه ، ومن استعظم وقوع نفسه فيها استعظم وقوعها من غيره ، فإن لم تكن هذه القاعدة كلية فهي أكثرية نسأل الله اللطف .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلاثًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَهُوَ مُنَافِقٌ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجمع من الذهب والفضة قط نصابا إلا إن كنا نثق من أنفسنا بأنا نخرج زكاتها وهى مخلصة منشرحة لها ، فإن لم نثق من أنفسنا أننا نخرجها كذلك اقتصرنا فى الجمع على مادون النصاب .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد على وجهه إلى السلوك الكامل على يد شيخ مرشد صادق وإلا فلا يشم من العمل به رائحة بل يجمع ويمنع ، وإن أخرج شيئا فهو لعلة فادحة فى قبولها .

فاسلك يا أخى على يد شيخ حتى يفطمك عن محبة الدنيا يعنى من الميل إليها ، إذ الدنيا لاتبغض لذاتها ، وإنما المطلوب الزهد فى الميل إليها لافى ذاتها إذ لو كان الزهد مطلوبا فى ذاتها لما جاز لأحد إمساكها ولا قائل بذلك ، فإن المحذور إنما هو فى إمساكها محبة لذاتها إذ هو الذى يتفرع منه الحجاب والشح والبخل فيمنع العبد من إخراج زكاته ، وقد غلط فى هذا الأمر قوم فتركوا جمع الدنيا أصلا ورأسا فاحتاجوا إلى سؤال الناس تعريضا وتصريحا ولو أنهم كانوا سلكوا على يد الأشياخ حتى فطموهم عن الميل إليها لجمعوا القناطير من الذهب وأنفقوها على المساكين وحصل لهم خير الدنيا والآخرة .

وقد حكى أن فقيرا دخل زاوية سيدى إبراهيم المتبولى فجلس للعبادة ليلا ونهارا وترك الكسب ، وكان الشيخ لايحب للفقير عدم التكسب ، فقال له ياولدى لم لاتحترف وتقوم بنفسك وتستغنى عن حمل الناس لك الطعام ، فقال ياسيدى لما دخلت زاويتكم رأيت فى تلك الطاقة بومة عمياء لاتطيق أن تسعى مثل مايسعى الطيور ، ورأيت صقرا يأتيها كل يوم بقطعة لحم يرميها لها فى طاقتها ، فقلت أنا أولى بالتوكل على الله من هذه البومة ، فقال له سيدى إبراهيم ولم تجعل نفسك بومة عمياء؟ هلاجعلتها صقرا تأكل وتطعم البومة ؟ فقال الفقير التوبة وخرج للكسب اه .

فيحتاج الفقير إلى حال صادق يرمى به الدنيا وحال صادق يأخذها بعد ذلك به :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

روى الشيخان مرفوعا : « مَامِنْ مُسْلِمٍ جَمَعَ ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » الحديث .

قال شيخنا رضى الله عنه : وإنما خص الله الكى بهذه الثلاثة الأعضاء ، لأن صاحب المال إذا رأى الفقير جاء له يعرقص جبهته له ؟ فإذا جاء وجلس عنده يسأله شيئا أعطاه جنبه فإذا ألح عليه أعطاه صاحب المال ظهره وفارقه ، والأحاديث فى منع الزكاة كثيرة مشهورة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتوكل توكل العام ، فنترك التكسب بالتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك ، ونصير نسأل الولاة والأغنياء تصريحا أو تعريضا ، فإن ذلك جهل بمقام التوكل كما هو شأن من يطلب الوظائف والأنظار بالوسائط وكتابة القصص ثم يدعى التوكل بعد ذلك ، وهو قد سأل مع الغنى ، وربما يحتج بأن التكسب يعطله عن الاشتغال بالعلم وذلك حجة لاتنهض إلا إذا لم يكن فى بلده أو إقليمه من يقوم بحفظ الشريعة . أما إذا كان فى بلده من يقوم مقامه فى الافتاء والتدريس فالأدب اشتغاله بالتكسب إلا أن يمن عليه بما يأكل وما يشرب من حيث لا يحتسب ونحو ذلك .

فإياك ياأخى وسؤال الناس بلا ضرورة ، وقد كثر وقوعه من غالب حملة القرآن مع قدرتهم على الكسب بالحرف والصنائع وغيرها ، وإذا أمره أحد بالتكسب يحتج بأنه مشتغل بالعلم والحال بخلاف ذلك فإن من شرط من يجوز له أكل الصدقة أن تكون له علامات ظاهرة على حفظه والإكباب على الاشتغال بالعلم ليلا ونهارا ، بحيث لو اشتغل بالتكسب لتعطل مع حاجة الناس إلى علمه مع الإخلاص فيه ، بحيث يحس بنفسه أن لو سأل الله تعالى به حاجة لقضاها ، كما فى خبر الثلاثة الذين وقعت عليهم الصخرة فسدت عليهم فم الغار ، وقالوا لاينجيكم إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم :

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا إذا أصابه وجع فى رأسه وأنا أطالع له العلم لما

كفت بصره يقول نويت الاستشفاء بالعلم فيذهب الوجع لوقته، وقال لى مرارا عند ثوران الصداع برأسى قل نويت الاستشفاء بالعلم فأقوله ذلك فيذهب الوجع لوقته فلا أدرى هل ذلك من جهة إخلاصى أو ذلك ببركة الشيخ رضى الله عنه .

واعلم أن المروءة من الإيمان ولا مروءة لمن يسأل الناس وهو قادر على الكسب ، فمن أراد العمل بهذا العهد فليسلك طريق القوم على يد شيخ صادق يسير به حتى يدخل به حضرات اليقين ويرى أهلها ويخالطهم ويصير معتمدا على الله تعالى لا على الكسب ولا على أحد من الخلق وهناك لا يضره سؤال إن شاء الله تعالى لأنه حينئذ إنما يسأل من الله تعالى والخلق أبواب للحق فهو مع صاحب رب الدار لا مع الدار ولا مع بابها ، ومن لم يسلك على يد شيخ فغالب أحواله علل ، فإن سأل كان لعلة وإن ترك كان لعلة والله أعلم .

وقد روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَلَيْسَ بِوَجْهِهِ مُذْعَةُ لَحْمٍ » .

وروى البخارى وابن ماجه : « لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ فَيَأْتِي بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » .

وروى البخارى : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

وفى رواية : « إِنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ الْقِفَافَ مِنَ الْخُوصِ » .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « إِنَّمَا السَّائِلُ كُدُوحٌ يَكْدَحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ ، فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ ذَا سُلْطَانٍ أَوْ فِى أَمْرٍ لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا » الكدوح : الخموش .

وروى البيهقى : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ نَزَلَتْ بِهِ أَوْ عِيَالٍ لاَ يُطِيقُهُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِوَجْهِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ » .

وفى رواية أخرى له مرفوعا : « مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْمَسْأَلَةِ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ نَزَلَتْ بِهِ أَوْعِيَالٍ لاَ يُطِيقُهُمْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَاقَةٍ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » .

وروى البيهقى : « أَنَّ رَجُلاً أُتِيَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وَسلمَ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ : كَمْ تَرَكَ ؟ فَقَالُوا دِينَارَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً قَالَ : تَرَكَ كَيَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَ كَيَّاتٍ » .

قال عبد الله بن القاسم وكان ذلك الرجل لم يزل يسأل الناس تكثرا :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ سَأَلَ مَسْأَلَةً عَلَى ظَهْرِ غِنًى اسْتَكْثَرَ مِنْ رَضْفِ جَهَنَّمَ ، قَالُوا وَمَا ظَهْرُ غِنًى ؟ قَالَ : عَشَاءُ لَيْلَةٍ » .

وفى راوية لأبى داود : « قَالُوا : وَمَا الْغِنَى الّذِى لاَ يَنْبَغِى مَعَهُ الْمَسْأَلَةُ ؟ قَالَ : قَدْرُ مَا يُغَدِّيهِ وَيُعَشِّيهِ » .

وفى رواية لابن حبان وابن خزيمة فى صحيحه :

« هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ شِبَعُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » .

قلت : وهذه الأحاديث وماشا كلها إنما خرجت مخرج الزجر والتنفير عن ترك الكسب ولها تحقيق آخر عند العلماء والله أعلم :

وروى الشيخان مرفوعا : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » .

قال مالك وغيره : والعليا هى المنفقة :

وقال الخطابى وغيره : والأشبه أن المراد بالعليا هى المتعففة عن سؤال الناس لأن ذلك مأخوذ من علاء المجد والكرم لامن علو المكان ، وسياق الحديث يقتضيه فإنه صلى الله عليه وسلم قال : ذلك يحض على الصداقة والتعفف عن المسألة والله أعلم ،

وروى الطبرانى مرفوعا بإسناد حسن : « شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ غِنَاهُ عَنِ النَّاسِ » .

وروي مسلم مرفوعا : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ » .

وروى مسلم وغيره : « وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسأل الحق تعالى تكثرا وما دام عندنا غداء وعشاء أو قيمة مانشترى به لا نسأله تعالى زائدا ، وكذلك حكمنا فى ملبوسنا وأدمنا وغير ذلك لا نسأله تعالى شيئا إلا وقت الحاجة فى ذلك الشيء وذلك لنكون متوجهين إلى الله تعالى كل يوم وليلة إظهارا للفاقة والفقر ، لكون الحق تعالى يحب منا ذلك .

ولا تصل يا أخى إلى هذا المقام إلا بعد سلوك على يد شيخ صادق يسير بك فى الدرجات واليقين حتى يجعلك لاتهتم بأمر الرزق ، ولا تخاف من جهة ذنوبك أنه يضيعك أبدا ، ويتساوى عندك كون الدنيا فى خزانتك وكونها فى خزانة غيرك على حد سواء وهناك تصح لك القناعة ، وإن لم تسلك كما ذكرنا فمن لازمك الشح والهلع وعدم القناعة غالبا والله أعلم .

روى مسلم مرفوعا : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ » .

وفى رواية للترمذى بإسنادين صحيحين مرفوعا :

« طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ » والكفاف ما كف عن السؤال .

وقال بعضهم : الكفاف ما كان على قدر الحاجة من غير زيادة .

وروى مسلم والترمذى : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا أَبْنَ آدَمَ إِنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَلاَ تَسْتَكْثِرْ شَرٌّ لَكَ » .

وروي الترمذي مرفوعا : « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نأخذ من أحد مالا ولا نأكل له طعاما إلا إن علمنا طيب نفسه بلا علة ولا نية فاسدة تتبعه على ذلك من حب محمدة

أو شهرة تنكره ونحو ذلك ونعرف طيب نفسه وعدم طيبها بنور الكشف أو باحتفاف القرائن ، فإن القرائن إحدى الأدلة الشرعية .

فيحتاج من يريد العمل بذلك إلى سلوك على يد شيخ ناصح حتى يخرج به من أودية الطمع وشره النفس ، ويصير يقدم أمر آخرته على دنياه ويؤخر رضا نفسه إذا عارضه رضا الله .

وما رأيت أحدا أقام بهذا العهد مثل ما قام به سيدى على الخواص رحمه الله ، كانوا يأتونه بالأموال والأطعمة وفيها العلل فيردها فإذا قالوا له والله خاطرنا بها طيب يقول لهم أنا خاطرى بها ماهو طيب رضى الله عنه .

فعلم أننا نراعى حفظ أعمال إخواننا من الآفات كما نراعى أعمالنا ولا نساعدهم فيما ليس فيه أجر لهم ، فنأخذ أموالهم ونأكل طعامهم المعلول لأجل نفع نفوسنا ولا نلتفت لنقص رأس مالهم ، فمن فعل ذلك فقد أساء على نفسه وعلى إخوانه :

(وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

روى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إنَّ هٰذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَعْطَيْنَاهُ شَيْئًا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْ غَيْرِ تَشَرُّهِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَعْطَيْنَاهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنَّا كَانَ غَيْرَ مُبَارَكٍ لَهُ فِيهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والإمام أحمد وغيرهما مرفوعا :

« إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِى بِحَاجَتِهِ مُتَأَبِّطَهَا ، وَمَا هِىَ إلاَّ النَّارُ ، فَقِيلَ يَا رسولَ اللهِ فَلِمَ تُعْطِيهِمْ ؟ قَالَ : يَأْبَوْنَ إلاَّ أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْبَى اللهُ لِى البُخْلَ » .

وقوله متأبطها : أى جاعلها تحت إبطه والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسأل أحدا ونقسم عليه بوجه الله إجلالا لله عز وجل ، إلا أن يكون ذلك لضرورة شرعية وكذلك لا نبخل بشىء قط سألنا فيه أحد بوجه الله ولو ثيابنا وجميع مالنا أو بيعنا فى السوق ، وأخذ ثمننا بحيلة يفعلها كما وقع للخضر عليه السلام ، وهذا العهد يظهر زغل خلق كثير ممن يدعون أنهم يجلون الله عز وجل ، فتراهم يدعون تعظيم الله تعالى وإجلاله ويسألهم الفقير بوجه

الله أن يعطوه فلسا فلا يعطونه بل رأيت الفقراء وهم بفناء الكعبة يقولون للطائفين لأجل هذا البيت درهم أو خرقة نستر بها عورتنا أو كسرة نسد بها جوعتنا فلا يعطيهم أحد شيئا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من مر على سائل يسأل شيئا ولم يجل الله تعالى باعطائه كل ماطلب فقال له إنسان إنك لا تحب الله تعالى فقد صدق ، لأن من شرط المحب إجلال محبوبه . وكان يقول : إياكم أن تخرجوا إلى السوق بلا حاجة إلا أن يكون معكم شيء تعطونه لمن يسأل بالله على الطرقات لا سيا إن كان شريفا من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم اه والله أعلم .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ صادق يسير به فى طريق أهل الله حتى يخرجه عن حب الدنيا ويجعلها لا تساوى عنده جناح بعوضة كما هى عند الله فهناك لايبخل بشيء يسأل فيه ولو بلا قسم بأحد من أولياء الله فضلا عن الله عز وجل ومن لم يسلك على يد شيخ كما ذكرنا فلا يشم من العمل بهذا العهد رائحة ومن لازمه الاخلال بجانب التعظيم :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد روى الطبرانى مرفوعا ورجاله رجال الصحيح :

« مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللهِ ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ هُجْرًا » .

الهجر بضم الهاء وسكون الجيم : الأمر القبيح الذى لايليق ، وقيل السؤال القبيح بالكلام القبيح .

وروى أبو داود وغيره « لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلاَّ الْجَنَّةُ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ » .

وروى النسائى وابن ماجه وغيرهما : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ رَجُلٌ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ فَلاَ يُعْطِى » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الْخَضِرِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ،

قَالَ : بَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَمْشِي فِي سُوقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْصَرَهُ رَجُلٌ مُكَاتَبٌ فَقَالَ : تَصَدَّقْ عَلَيَّ بَارَكَ اللهُ فِيكَ ، فَقَالَ الْخَضِرُ : آمَنْتُ بِاللهِ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ أَمْرٍ يَكُونُ مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَهُ ، فَقَالَ الْمِسْكِينُ : أَسْأَلُ بِاللهِ لَمَا تَصَدَّقْتَ عَلَيَّ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاحَةِ فِي وَجْهِكَ وَرَجَوْتُ الْبَرَكَةَ عِنْدَكَ . فَقَالَ الْخَضِرُ آمَنْتُ بِاللهِ مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَهُ إِلاَّ أَنْ تَأْخُذَنِي فَتَبِيعَنِي ، فَقَالَ الْمِسْكِينُ فَهَلْ يَسْتَقِيمُ هٰذَا ؟ قَالَ نَعَمْ . أَقُولُ لَقَدْ سَأَلْتَنِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ أَمَلاً فِيَّ لَأُجِيبَكَ بِوَجْهِ رَبِّي بِعْنِي فَقَدَّمَهُ إِلَى السُّوقِ فَبَاعَهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ » الحديث والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانرد شيئا جاءنا من غير سؤال ولا استشراف نفس ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير ممن يحب أن يشتهر بالزهد ويرد ماأعطيه خوفا أن يجرح مقامه عند الناس وعار عليه أنه جرح مقامه بذلك عند الله تعالى فخذ من الله تعالى وأعط الله والله يتولى هداك .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا الْمُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَفْضَلَ مِنَ الآخِذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » .

وفى رواية لابن حبان : « مَا الَّذِي يُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الَّذِي يَقْبَلُ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانرد قريبا سألنا شيئا ونحن فى غنى عنه ، ولا نتعدى قط بصدقتنا إلى الأجانب ونترك قريبنا الفقير أو نتعدى بالحسنة جارنا الفقير إلى الأبعد ، ولو فقيرا ، فضلا عن أن يكون غنيا ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس فيسألهم قريبهم ثوبا أو طعاما أو دراهم فلا يعطونهم شيئا ويسألهم شخص لا قرابة بينهم وبينه فيعطونه ؛ ولعل العلة فى ذلك أن القريب يأخذ ولا يشكر أصلا أو يشكر ولا يبالغ فى الشكر ، ويقول لاجميلة فى ذلك لقريبى بخلاف الأجنبى فإنه إذا أخذ من أحد شيئا يشكر صاحبه فى المجالس ويبالغ فى الثناء عليه والنفس من شأنها أنها تحب ذلك .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به فى الطريق حتى يوقفه على

حضرات الإخلاص ويصير يستلذ بالعطية لمن يكتم أشد من لذته لمن يعترف بها ويشكره.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله صاحب مروءة ومال في الباطن وكان مشهورا بالفقر، فكان يجمع الزكوات من الناس جهرا ويخلط معها أكثر منها سرا ثم يفرقها على الفقراء والمساكين وبقية الأصناف، وإذا نسبوه إلى أنه اختلس من زكوات الناس شيئا لنفسه ولم يعط الناس منها إلا القليل ينشرح ويفرح ويقول الحمد لله الذى وفر علينا ماتفضل به علينا فى الآخرة من الأجر ولم يضيعه فى الدنيا بمدح الناس وشكرهم لنا، فعلم أن من تعدى قريبه بالعطاء والهدايا والصدقات إلى الأجانب من غير عذر شرعى فهو مراء خالص وكذلك من تعدى جاره إلى الأباعد:

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

« مَنْ تَصَدَّقَ عَلَى زَوْجٍ أَوْ أَيْتَامٍ فِى حِجْرِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ: أَجْرُ الصَّدَقَةِ، وَأَجْرُ الْقَرَابَةِ ».

وروى الترمذى والنسائى مرفوعا: « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِى الرَّحِمِ ثِنْتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ».

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا: « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِى الرَّحِمِ الْكَاشِحِ الَّذِى يُضْمِرُ عَدَاوَتَهُ ».

كشحه: وهو خصره، يعنى أن أفضل الصدقة على ذم الرحم القاطع لرحمه المضمر العداوة فى باطنه.

وفى رواية لابن خزيمة: « وَعَلَى الْقَرِيبِ » بدل « ذِى الرَّحِمِ ».

وروى الطبرانى مرفوعا: « الصَّدَقَةُ عَلَى الْقَرَابَةِ يُضَعَّفُ أَجْرُهَا مَرَّتَيْنِ ».

وروى الطبرانى مرفوعا: « وَالَّذِى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَدَقَةً مِنْ رَجُلٍ وَلَهُ قَرَابَةٌ مُحْتَاجُونَ إِلَى صِلَتِهِ وَيَصْرِفُهَا إِلَى غَيْرِهِمْ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَامِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمِهِ فَيَمْنَعُهُ فَضْلَهُ إِذَا سَأَلَهُ وَيبخَلُ عَلَيْهِ إِلاَّ أَخْرَجَ اللهُ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا شُجَاعٌ فَيَتَلَمَّظُ فَتَطْوِى بِهِ » .

وفى رواية أيضا مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَمَنَعَهُ إِلاَّ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقبل صدقة ولا هدية من امرأة إلا بعد أن نسأل عن ذلك ، فربما كان من مال زوجها بغير إذنه ، فنقع فى الإثم ونعينها على الحرام ، وهذا الأمر يقع فيه الفقهاء المغفلون الذين يقرئون النساء البخارى والقرآن والموالد وقد نهى جميع أشياخ الطريق عن قبول الرفق من النساء ولو كان من كسبهن ، لأن الله تعالى قال :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) .

قالوا : ومن ترخص فى ذلك فهو دنىء الهمة والمروءة لايجىء منه شىء فى الطريق .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلكه ويرقى به إلى مقامات الرجولية ، ويفطمه عن محبة الدنيا وإلا فمن لازمه أنه يلعق كل ما وجده :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الترمذى مرفوعا وقال حديث حسن :

« لاَ تُنْفِقُ امْرَأَةٌ شَيْئًا مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَلاَ الطَّعَامُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تَصَدَّقَ مِنْ مَالِ زَوْجِهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ » زاد العبدرى فى جامعه : « فَإِنْ أَذِنَ لَهَا فَالأَجْرُ لَهُمَا ، وَإِنْ فَعَلَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَالأَجْرُ لَهُ وَالإِثْمُ عَلَيْهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمنع أحدا يستقى

من بئرنا ولو عدوا لاسيا إن كان عطشانا فى طريق الحج ، ولا نمنع دوابه من الماء والكلأ رحمة بعدونا وبالبهائم فنجيء نحن وبهائمنا مع عدونا لئلا يموت معهم عملا بأوامر الشارع صلى الله عليه وسلم لنا ، بأن نحب للمسلمين ما نحب لأنفسنا وخوفا من غضب الحق تعالى علينا يوم القيامة ، كما سيأتى فى الأحاديث :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلكه ويخرج به من حضرات رعونات النفس حتى يصير يحب الخير لكل مسلم من أعدائه فضلا عن غيرهم ، ويصير يتأسف على كل خير فاته ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من أهل الرعونات فأول مايقع بينه وبين أحد من جيرانه عداوة يحجز بينه وبين أن يستقى من بئره ورأيت بعضهم ردمها حتى لايستقى ذلك العدو منها وهذا كله من بقايا النفاق فى القلب :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْخَلاَ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيلِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ » .

وروى أبو داود : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الشَّيْءُ الَّذِى لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ ؟ قَالَ : المَاءُ وَالمِلْحُ وَالنَّارُ » قال أبو سعيد : يعنى الماء الجارى .

وفى رواية لابن ماجه : « مَنْ أَعْطَى نَارًا فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَا أَنْضَجَتْ تِلْكَ النَّارُ ، وَمَنْ أَعْطَى مِلْحًا فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَا طَيَّبَتْ تِلْكَ المِلْحُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى سبب إفطارنا شيئا من رمضان فنحتفظ من أسباب المرض كأن تستحم فى الشتاء بالماء البارد بغير عذر شرعى وفى المرض قبل التنصل منه فيؤدى ذلك إلى المرض فنفطر ، وهذا وإن لم يقصد به المسلم الافطار فالتحفظ منه من حزم عقل المؤمن ، وإن احتاج إلى شرب دواء أو حقنة فليجعل ذلك ليلا إلا إن قال عدل من الأطباء إن تأخير ذلك يزيده مرضا فاعلم ذلك .

وروى الترمذى وأبو داود وغيرهما : « مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ وَلاَ مَرَضٍ لَمْ يقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّه إِنْ صَامَهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمنع حليلتنا من صوم التطوع طلبا لشهوة نفوسنا القوية للجماع فى النهار ، ونوطن نفوسنا على الصبر إلى الليل ، إلا إذا خفنا العنت وهذا من حسن العشرة فلا نتسبب قط فى نقص أجر حليلتنا :

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى منع الحلائل من الصوم إلافى أوقات توقع الحمل طلبا للحمل فله منعها من الصوم لتحمل ، فإذا حملت المرأة فلا ينبغى منعها من الصوم :

« وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » :

وينبغى حمل منع الزوج لهامن الصوم فى الأحاديث على ماإذا خاف العنت ونحو ذلك :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » زاد فى رواية الإمام أحمد « إِلاَّ رَمَضَانَ » .

وفى رواية للترمذى مرفوعا : « لاَ تَصُمِ الْمَرْأَةُ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ يَوْمًا مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » .

وفى رواية للإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« فَإِنْ صَامَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ تَطَوُّعًا جَاعَتْ وَعَطَشَتْ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخص الجمعة أو السبت أو الأحد بالصوم لحديث مسلم والنسائى مرفوعا :

« لاَ تَخُصُّوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي وَلاَ تَخُصُّوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصَوْمٍ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ صَامَ يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ » .

وروى البخارى وأبو داود « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَىَ عَائِشَةَ صائِمَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فقَالَ: أَصُمْتِ أَمْسِ ؟ فقَالَتْ لاَ ، قَالَ : أَتُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غدًا ؟ قَالَتْ لاَ ، قَالَ : فَأَفْطِرِى » .

وروى الترمذى وابن ماجه فى صحيحه مرفوعا :

« لاَ تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إِلاَّ فِيماَ افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلاَّ لِحَاء عِنَبَةٍ أَوْ عُودَ شَجَرَةٍ فَلْيَمْضُغْهُ » واللحاء: هو القشر .

قال الحافظ المنذرى: وهذا النهى إنما هو عن إفراده بالصوم كالجمعة، فأما إن صام يوما قبله أو يوما بعده فلا بأس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نصوم فى السفر إلا إن سهل علينا من غير مشقة عملا برخصة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وميلا إلى الضعف ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من المتصوفة الجهال ، فيصوم أحدهم فى السفر ويقاسى المشقات الشديدة ولا يفطر ويرى أن ذلك أفضل له ويقدم رأى نفسه على الشارع صلى الله عليه وسلم ، وقد جرب أنه ما شدد أحد على نفسه وخالف الشارع إلا أخل بمأمورات أخر ، فإن الله تعالى أعلم بما يتحمل عبده المداومة عليه ، ولو علم منهم القدر على أكثر ما شرع لزاد عليهم فى التشريع ، بل جرب أن كل طفل قرأ يوم الجمعة وكتب لوحه فلا بد أن يكسل عن لوحه فى يوم آخر من الجمعة ، فلا أكمل ممن يقف على أحد ما أمره به الشارع أبدا .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يهديه إلى سلوك طريق العبادات التى يطيق العبد المداومة عليها ، ولا يؤدى عليه :

« فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

وأيضا حال للعبد فى حال فعله برخصة الشارع يسمى متبعا ، وفى التشديد على نفسه يسمى مبتدعا ، ومعلوم أن الاتباع أولى من الابتداع ولو استحسن ، والله أعلم :

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ وَصَامَ النَّاسُ ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ

إِلَيْهِ ثُمَّ شَرِبَ ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ ؟ فَقَالَ أُولٰئِكَ الْعُصَاةُ أُولٰئِكَ الْعُصَاةُ » .

وفى رواية لمسلم : « فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ فِيمَا تَفْعَلُ ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَشَرِبَ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ فَرَأَى رَجُلا قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ مَالَهُ ؟ فَقَالُوا صَائِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ » .

زاد فى رواية : « وَعَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا » .

وروى ابن ماجه والنسائى مرفوعا :

« صَائِمُ رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ كَالْمُفْطِرِ فِي الْحَضَرِ » :

ورواه بعضهم موقوفا على ابن عمر . وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا :

« مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رُخْصَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ جِبَالِ عَرَفَةَ » .

لكن قال البخارى كأنه حديث منكر . وروى مسلم عن أنس قال :

« كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فِي يَوْمٍ حَارٍّ أَكْثَرُنَا ظِلاًّ صَاحِبُ الْكِسَاءِ ، فَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ فَسَقَطَ الصُّوَّامُ ، وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ فَضَرَبُوا الْأَبْنِيَةَ وَسَقَوْا الرِّكَابَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ » .

وكان عمر بن عبد العزيز وقتادة ومجاهد إذا سئلوا عن الصوم والافطار فى السفر أيهما أفضل ؟ يقولون أفضلهما أيسرها : واختار هذا القول أبو بكر بن المنذر ، وقال الحافظ عبد العظيم وغيره وهو حسن والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون قط فى الوقوع فيما نهانا الشارع عنه ، ولو رأينا أكابر العلماء يقعون فيه ، وذلك كالغيبة والنميمة والحسد والكبر والغل والحقد وسوء الظن بالمسلمين ونحو ذلك فى رمضان وغيره ، بل نراعى ترك وقوع ذلك منا فى رمضان أشد من مراعاتنا له فى غيره عملا بتأكيد الشارع صلى الله

عليه وسلم علينا فى ترك ذلك فى رمضان ، ولا يجوز لنا الاغترار بمن رأيناه يقع فى ذلك من أكابر الناس ، لأن الاغترار لا يكون إلا فيما لم يرد لنا فيه عن الشارع ، أما ما ورد فيه ذلك فاغترارنا بمن وقع فيه ضلال مبين ، بل الذى يجب علينا التباعد عن الوقوع فى ذلك أشد من العلماء والصالحين لنقص مقامنا عنهم ، فربما سامحهم الحق تعالىٰ دوننا لمحبته لهم ، وأكثر من يقع فى خيانة هذا العهد من فى قلبه شىء من النفاق ، تراه يقع فى الغيبة والنميمة ويشتم الناس فى رمضان ويقول : هذا أمر لا يقدر العلماء يتحرزون عنه ، فضلا عن مثلى ، ولعمرى هذا كلام لا يقع ممن يخاف الله عزوجل ، وهوحجة له فى قلة الدين .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح حتى يسد عليه مجارى الشيطان التى يدخل منها إلى قلب العبد ، فيوسوس له بالسيئات ، ومن لم يسلك على يد شيخ فمن لازمه غالبا عدم حفظ جوارحه الظاهرة والباطنة عن الوقوع فى كل عضو والصوم جنة ما لم يخرقه بغيبة أو نميمة ، ومعلوم أن الشيطان بالمرصاد لما تخرق من صوم العبد ليدخل إلى قلبه من ذلك الخرق ، فيحتاج إلى تحفظ زائد ليسد جميع الثغر الذى يدخل منه .

وقد أجمع العارفون على أن من حفظ صومه من التخرق حفظ من الشيطان إلى رمضان الآتى ، ثم من أعون شىء لإبليس على وسوسة العبد كثرة الأكل فى العشاء والسحور ، فإن العبد إذا شبع شبعت جوارحه وأجابت إبليس إلى كل ما دعاها إليه من المعاصى ، وهذا الأمر قد عم غالب الناس ، فتراهم يأكلون فى رمضان أكثر مما يأكلون فى غيره ، فأخطئوا طريق الصواب وصار صومهم كأنه عادة لا عبادة .

وقد كان السلف الصالح يخرجون من صيام رمضان يكاشفون الناس بما فى سرائرهم من كثرة نور العبادات ، وتوالى الطاعات وترك أكل الشهوات ، وهجر المباحات ، وكان أحدهم إذا فاته ليلة القدر فى سنة يعاقب نفسه تلك السنة بصومها كلها ، فإن جميع ما يتقدم ليلة القدر من الصيام إنما هو كالاستعداد لرؤيتها ، فإنها خير من عبادة ألف شهر وهو نحو ثلاث وثمانين سنة . وإذا كان من ترك صلاة العصر من المؤمنين يحصل له من الحزن على فواتها مثل حزن من فقد أهله وماله ، فكيف لا يتأسف أحدنا على فوات عبادة ثلاث وثمانين سنة .

فاسلك يا أخى على يد شيخ لتكمل لك عبادتك ويزيل عنك النقص الواقع فيها ،

فإن مقصود أهل الطريق كلهم بالمريدين إنما هو ليلحقوهم بالسلف الصالح فى إتمام عباداتهم على الوجه المشروع لا غير :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى البخارى وأبو داود والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ » .

زاد فى رواية : « وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِى أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » :

أى إن الله لم يأمر بالصوم على هذا الوجه فافهم :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ لَمْ يَدَعِ الْخَنَا وَالْكَذِبَ فَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » .

وروى النسائى بإسناد حسن وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« الصِّيَامُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا » .

زاد فى رواية الطبرانى : « قِيلَ وَبِمَ يَخْرِقُهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : بِكَذِبٍ أَوْ غِيبَةٍ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وغيرهما مرفوعا :

« لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ » .

وروى البخارى وغيره مرفوعا لكن فى إسناده من لم يسم :

« أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا ثُمَّ جَلَسَتَا تَأْكُلَانِ مِنْ لُحُومِ النَّاسِ فَأَمَرَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَقِيئَا مَا فِي بُطُونِهِمَا فِي قَدَحٍ فَقَاءَتَا كُلُّ وَاحِدَةٍ قَيْئًا وَدَمًا وَصَدِيدًا وَلَحْمًا حَتَّى مَلَأَتَا الْقَدَحَ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا » .

زاد فى رواية : « وَلَوْ أَنَّ ذَلِكَ بَقِيَ فِي بُطُونِهِمَا لَأَكَلَتْهُمَا النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتخلق بالفظاظة

وعدم الشفقة والرحمة على أحد من المسلمين وسائر الحيوانات ، بل نكون رحماء بخلق الله كلهم بطريقه الشرعى إدخالا لعدم الأذى عليهم كما نحب أن يفعل بنا ذلك ، فإن من لا يرحم لا يرحم ، فنحد الشفرة لذبح ما شرع لنا ذبحه أو قتله من الحيوانات المؤذية ، ولا نمثل بشىء منها قط ولو نملة أو بعوضة فضلا عن الكلب أو الهر .

وقد أصاب الجرب والجذام كلبا فى بلد سيدى أحمد بن الرفاعى حتى قذره الناس وأخرجوه إلى الصحراء ، فبلغ ذلك سيدى أحمد فخرج إليه وضرب عليه مظلة ، وصار يدهنه ويطعمه ويسقيه ، ويغسل يديه سبعا إحداها بالتراب صباحا ومساء مدة أربعين يوما ، حتى عافى الله تعالى ذلك الكلب ، فسخن له ماء وغسله ودخل به البلد فأبكى الناس من شدة ما فعل من رحمته بذلك الكلب .

ودخل عليه مرة يعقوب الخادم فوجده يبكى ويعتذر ويقول : لا تؤاخذ حميدا بما وقع منه فإنه ماقصدى ، فقال ياسيدى من تعاتب وما أرى عندك أحدا؟ فقال ياولدى نزلت ناموسة على يدى فوضعت أصبعى عليها أنحيها فانكسر جناحها ، فخفت أن يؤاخذ الله بها حميدا يوم القيامة أو يكسر ذراعه فى الدنيا كما فعل معها لعدم تحرزى حين وقعت عليها يدى .

وكان يأمر رضى الله عنه أصحابه بالصبر على أذى القمل ويقول : كيف يدعى أحدكم الصبر على البلاء وهو ينفذ غضبه فى قملة أو برغوث ولا يحمل أذاها فضلا عن أذى أعدائه من الناس .

فان أردت يا أخى العمل بهذا العهد فأسلك على يد شيخ ناصح يلطف كثائفك ويزيل عنك الغلظة والتجبر ويلحقك بالملائكة الكرام ، وتصير تشفق على غيرك من سائر خلق الله كما تشفق على نفسك ولا تتجبر إلا على من أمرك بالتجبر عليه ، والله يتولى هداك .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » .

ورو الطبرانى وغيره : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعًا رِجْلَهُ

عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا قَالَ أَفَلاَ قَبْلَ هٰذَا؟ أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا: « إِذَا ذَبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجْهِزْ » أي يسرع ذبحها ويتممه .

وروى النسائى والحاكم وصححه مرفوعا : « مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلاَّ سَأَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا ، قِيلَ يَا رسولَ اللهِ وَمَا حَقُّهَا ؟ قَالَ يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلاَ يَقْطَعُ رَأْسَهَا فَيَرْمِي بِهَا » .

وقوله « فما فوقها » يعني في الصغر قاله بعض المفسرين .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك حج الفرض مع الاستطاعة ولو خفنا أن أحدا يسعى فى إخراج أنظارنا عنا أو تدريسنا ، وخطابتنا أو غير ذلك ، بل نخرج إلى حجة الاسلام ولو فاتتنا الدنيا بحذافيرها ، فإذا قضينا حجة الاسلام فلنا ترك حج التطوع إذا خفنا ماذكر ، لأن تحصيل مابه قوام معايشنا من الوظائف المذكورة أولى من حج التطوع مع الحاجة إذا رجعنا إلى أوطاننا ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس مع القدرة ، فيكون عنده من الأمتعة والكتب ما يفضل عن مؤنة حجه ذاهبا وراجعا بل يكفيه نفقة سنة أو سنتين بعد الحج ويترك حجة الاسلام ويحتج بخوف السعي على وظائفه ، والإنسان على نفسه بصيرة وقد قال تعالى :

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً) .

يعنى أنهم يأتوك مشاة ولا ينتظرون حصول شيء يركبونه تعظيما وخوفا من تأخير أمر الله عز وجل .

وقد بلغنا أن الخليل عليه السلام ، لما أمره الله تعالى بالختان لم ينتظر الموسى بل بادر بأذن القدوم يعنى الفأس فاختتن بها ، فقيل له يا خليل الله هلا طلبت الموسى ، فقال إن تأخير أمر الله شديد .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ صادق يرقيه فى درجات

التعظيم لله تعالى حتى يصير فوات الدنيا فى جنب طاعة الله كفوات ذرة من التراب ، وفوات ذرة من طاعة الله تعالى أصعب عليه من فوات الدنيا بحذافيرها لو كانت فى يده ومن لم يسلك الطريق كما ذكرنا فمن لازمه غالبا تقديم أهوية نفسه على مرضاة ربه :

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

روى الترمذى والبيهقى وغيرهما : « مَنْ مَلَكَ زَادًا أَوْ رَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحُجَّ فَلاَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » وذلك أن الله تعالى يقول : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) .

وفى رواية البيهقى مرفوعا : « مَنْ لَمْ تَحْبِسْهُ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ أَوْ مَرَضٌ حَابِسٌ أَوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعا :

« يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَهُ وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِى الْمَعِيشَةِ تَمْضِى عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لاَ يَفِدُ إِلَىَّ لَمَحْرُومٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمكن عيالنا المخدرات من الخروج لحج التطوع بخلاف حجة الفرض ، وذلك لضعفهن عن تحمل مشقة الطريق ولكونهن عورة ، أو لغير ذلك من الأمور الواقعة للحجاج لا سيما أن تفرسنا فيهن عدم الاخلاص ، فإن غالب النساء يسافرون بلا صلاة ولا طهارة ذهابا وإيابا ويتخذن ذلك تنزها وفرجة لاسيما سفرهن عقب موت أولادهن فى الفصل فيما جرن من أوطانهن بعدا عن المواطن التى مات فيها أولادهن ، فعلم أننا لانمنع غير المخدرات أو من صلحت نيتهن أو احتجنا لهن فى السفر كأن كان عندنا شدة غلمة وخفنا على أنفسنا أن يخطر فى بالنا شهوة محرمة فنؤاخذ بها ، فإن من خصائص الحرم أن الله يؤاخذ من أراد فيه سوءا وإن لم يعمل به .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الامام أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن :

« أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِنِسَائِهِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ هٰذِهِ ثُمَّ ظُهُورُ الْحُصْرِ » .

قال أبو هريرة : فكن كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش ، وسودة بنت زمعة كانتا يقولان والله لا تحركنا دابة بعد ماسمعنا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم يعنيان به قوله صلى الله عليه وسلم : «هذه ثم ظهور الحصر» .

كما فى رواية الطبرانى باسناد صحيح ولفظه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع :

« هٰذِهِ الْحَجَّةُ ثُمَّ الْجُلُوسُ عَلَى ظُهُورِ الْحُصْرِ فِي الْبُيُوتِ » .

وفى رواية أخرى له فقال صلى الله عليه وسلم للسائه .

« إِنَّمَا هِيَ هٰذِهِ ثُمَّ عَلَيْكُمْ بِظُهُورِ الْحُصْرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك تعلم آلات الجهاد كالرمى بالنشاب والمسارعة والمدافعة ونحو ذلك ، ثم لا نتركها بعد التعلم حتى ينفك إدماننا ، وهذا العهد قليل من الناس من يعتنى به اكتفاء بعسكر السلطان ويقول إذا وقع دخول عدو بلادنا فعسكر السلطان يكفى فكل ذلك جبن وكسل وبيس طباع ، وكذلك من الأدب أن لا نتهاون بترك تعلم السباحة فى البحر لاحتمال أن يضطرنا عدو عند شاطىء البحر فيهلكنا ، ولو أننا كنا نعرف السباحة لربما خلصنا منه. وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى مع كبر سنه يعوم بحر النيل كل سنة مرة ويقول أنا أخاف أن ينفك منى الإدمان فى العوم ، فإن ترك العوم نقص فى الإنسان والله أعلم :

روى مسلم وابن ماجه مرفوعا : « مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ فَقَدْ عَصَى » .

وفى رواية : « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِي » .

وفى رواية للطبرانى : « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ نَسِيَهُ فَهِيَ نِعْمَةٌ جَحَدَهَا » .

وفى رواية : « مَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ كَفَرَهَا » .

ويقاس على الرمى ماذكرناه من آلات الجهاد ومالم يذكر ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نفر من جماعة

اجتمعنا معهم على أمر فيه إقامة للدين كالجهاد فى سبيل الله أو أمر بمعروف تعين عليه أو إزالة منكر أو مجلس ذكر لله إلا لضرورة شرعية لاسيما إن كان الناس ينفرون عن ذلك الخير تبعا لنا ، وهذا العهد يتأكد العمل به على علماء هذا الزمان وصوفيته لكونهم رؤوس الناس فإن قاموا فى أمر قامت العامة معهم ، وإن غفلوا فى أمر غفلت العامة معهم عنه ، والله تعالى يحب كل من نصر شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم وأعان من يريد إقامة شعائرها كما مرت الإشارة إليه فى ضمن العهود أوائل الكتب .

وبالجملة فلا يتخلف عن نصرة الشريعة مع القدرة إلا من فى قلبه نفاق والسلام .

وقد ورد الترهيب فى الفرار من الزحف فقسنا عليه الفرار من كل خير فيه حياة الدين :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد روى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّ السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ فَذَكَرَ مِنْهَا الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ الشِّرْكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نغل من شىء دخل يدنا على اسم الفقراء والمساكين كمال الزكوات والصدقات ، ولا نخص النساء وأولادنا بشىء زائد على الفقراء إلا بطيبة نفوسهم بعد إعلامهم بما نأخذه زائدا عليهم عملا بحديث :

« إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ الْعَبْدَ الْمُتَمَيِّزَ عَنْ أَخِيهِ » .

وهذا العهد لا يقدر على العمل به إلا من سلك على يد شيخ حتى قطعه عن محبة الدنيا ، فمن لم يقطع عن محبتها فمن لازمه غالبا تخصيص نفسه عن إخوانه سرا وجهرا :

فاسلك على يد شيخ إن أردت الوفاء بهذا العهد والله يتولى هداك :

وروى البخارى وغيره : « أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَلَى ثِقْلِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَمَاتَ ،

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وَسلمَ هُوَ فِي النَّارِ ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا » .

قال العلماء : والغلول هو ما يأخذه أحد الغزاة من الغنيمة مختصا به ولا يحضره إلى أمير الجيش ليقسمه الغزاة سواء قل أو كثر وسواء كان الآخذ أمير الجيش أو أحدهم اه .

وروى مالك وأحمد وأبو داود : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ امْتَنَعَ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى رَجُلٍ غَلَّ حِرْزًا لِيَهُودِيٍّ لاَ يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ ، وَقَالَ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ كَتَمَ غَالاًّ فَهُوَ مِثْلُهُ » .

أى ستر عليه ولم يعلم الناس بما غله ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نغفل عن تحديث أنفسنا بالغزو فى سبيل الله لنكتب إن شاء الله من جملة أنصار دين الله ، فإن من لا يحدث نفسه بالجهاد ليس له اسم فى ديوان أنصار الله وأنصار رسوله ، وإن كان له اسم من حيثية أخرى كالاشتغال بالعلم ونحوه مما يئول لنصرة الدين أيضا وكفى بذلك طردا عن صفات كمال المؤمنين : أى لأن الكامل هو من كان قائما بنصب الدين من سائر الجهات التى تنصب بها القوة وإن كان هو فى حالة الفعل أكمل منه فى حالة القوة إلا أن يبعد عليه ذلك فيعذر وهذا العهد قد اندرس العمل به فى إقليم مصر وغيرها ولا نعلم أحدا يعمل به الآن إلا جند السلطان ابن عثمان نصره الله تعالى ، فإنه هو الحامى لبيضة الاسلام الآن شرقا وغربا برا وبحرا فالله ينفعنا ببركاته ويحشرنا من جملة جنده وأنصاره آمين آمين .

وروى مسلم وأبو داود مرفوعا « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ » .

وروى أبو داود وابن ماجه مرفوعا : « مَنْ لَمْ يَغْزُ أَصَابَهُ اللهُ بِقَارِعَةٍ الطَّرِيقِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » يعنى العذاب .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « إِذَا تَرَكَ أُمَّتِي الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزَعُهُ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِمْ » ، (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بعدم تلاوة القرآن فى كل يوم ولو خمسة أحزاب خوفا من نسيانه ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من طلبة العلم ومتصوفة الزمان فيشتغلون بالعلم وقراءة الأوراد ويهجرون تلاوة القرآن حتى يمتنع حفظهم له وربما نسوه ويزعمون أن ماهم فيه أفضل :

فعلم أنه يجب تعاهد القرآن وقراءته بالتدبر لأنه قوت القلوب . وقياس القرآن أنه يجب تعاهد كتب الفقه الشرعية وآلاتها كل قليل إذا كان تقدم للعبد حفظها عن ظهر قلب خوفا أن تنسى إذ هى كأنها تفسير للكتاب والسنة ، وتبيين لما أبهم وأجمل فيهما ، وإن لم يلحق في التعظيم بالقرآن :

وقد وقع لسيدى الشيخ أبى المواهب الشاذلى أنه اشتغل بالأوراد وهجر القرآن فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاتبه فى ذلك وقال تترك تلاوة كتاب الله لأجل وريداتك فكان الشيخ أبو المواهب بعد ذلك يقرأ كل يوم خمسة أحزاب بتدبر إلى أن مات والله تعالى أعلم .

روى الترمذى والحاكم : « إِنَّ الَّذِى لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرَابِ » .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن خزيمة مرفوعا :

« عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ . وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أُوتِيهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَا مِنْ امْرِئٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَنْسَاهُ إِلاَّ لَقِيَ اللهُ أَجْذَمَ » .

قال الخطابى والأجذم هو المقطوع اليد ومعناه أنه يلقى الله خالى اليدين من الخير كنى باليد عما تحويه اليد ، وقال بعضهم معناه لاحجة له والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نغفل عن الاكثار من ذكر الله عز وجل ليلا ونهارا سرا وجهرا إجلالا لله تعالى وعبودية له :

والمراد بذكر الله تعالى شهودنا ليلا ونهارا أننا بين يديه وهو يرانا ويرى أفعالنا وأقوالنا وخواطرنا :

وأما الذكر اللفظى فإنما هو وسيلة إلى حصول هذا الذكر .

ولا تصل يا أخى إلى هذا المقام إلا بالسلوك على يد شيخ مرشد ناصح ، ومن لم يسلك كذلك فمن لازمه الغفلة عن الله تعالى ولا يذكره إلا عند الحاجة لاغير ، فإذا أعطاه حاجته نسى ذكره ومن شك فليجرب .

وروى الطبرانى والبيهقى وغيرهما مرفوعا : « لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا » .

وروى الطبرانى : « مَنْ لَمْ يُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ فِيهَا » .

وفى رواية أخرى للطبرانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِذَا ذَكَرْتَنِي شَكَرْتَنِي وَإِذَا نَسِيتَنِي كَفَرْتَنِي » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجلس مجلسا ولا نقوم منه ولاننام ولا نقوم إلا ونذكر الله تعالى ونصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن وقع منا مخالفة لذلك استغفرنا الله تعالى سبعين مرة وهذا العهد وإن كان داخلا فى العهد الذى قبله لكنه خاص بتغاير الأحوال وذلك آكد من الذكر المطلق كما قالوا فى التلبية للحج والله أعلم .

روى أبو داود والترمذى مرفوعا : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّمَ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ إِلاَّ كَانَ عَلَيهِ مِنَ اللهِ تِرَةً » :

والترة هى النقص والتبعة .

وروى أبو داود والحاكم وغيرهما مرفوعا : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلاَّ قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانستبطىءالإجابة من الله تعالى ، ولا نقول دعونا فلم يستجب لنا لأن فى ذلك سوء ظن بربنا :

وقد بلغنا أن داود عليه السلام استبطأ إجابة دعائه على من ظلمه فأوحى الله تعالى إليه :

« يَا دَاوُدَ إِنَّمَا أُبْطِئُ إِجَابَةَ دُعَائِكَ لِأُعَامِلَكَ بِنَظِيرِ ذَٰلِكَ إِذَا ظَلَمْتَ أَحَدًا وَدَعَا عَلَيْكَ » اهـ .

مع أن قول العبد دعوت الحق فلم يستجب قوله لى قلة حياء وقلة أدب وكذب من حيث لايشعر ، فإن الإجابة فى الحقيقة من الله هى قوله تعالى للعبد لبيك إذا قال يا ألله وهذا لابد منه لكل داع ، فليس المراد بالإجابة قضاء الحاجة فوق مايتوهم ، ثم إن العبد يقول يارب افعل لى كذا فيقول الله تعالى له نعم لكن فى الوقت الذى هو أولى لك ، إما فى وقت آخر فى الدنيا أو فى الآخرة ، فالدعاء مجاب بقوله لبيك على الدوام ، وكذلك قضاء الحاجة مجاب على الدوام ، وما ورد أحد الحضرة الإلهية ورجع بلا قضاء حاجة قط لأنها حضرة أكرم الأكرمين .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ يعلمه آداب الدعاء والتفويض لله تعالى فيه ، كأن يقول اللهم أعطنى كذا وادفع عنى كذا إن كان لى فى ذلك خيرة ومصلحة وسبق ذلك فى علمك ، وكلامنا فى غير المضطر أما المضطر فيجاب لوقته ، ثم إن العبد الذى لم يضطر إذا فوض إلى الله تعالى كذلك فعل معه خير الأمرين ، فإن أعطاه كان خيرا وإن منعه كان خيرا :

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ ، يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي » .

وفى رواية لمسلم والترمذى : « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ ، قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ مَا الْاسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَٰلِكَ وَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ » .

ومعنى يستحسر أى يمل ويعيا فيترك الدعاء .

فعلم أن المراد بعدم الإجابة عدم السرعة فيها وإلا فالاجابة حاصلة فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانرفع بصرنا إلى السماء حال دعائنا بل نغمض بصرنا وننظر إلى الأرض ، وكذلك لاندعو وقلبنا غافل فإن فى ذلك من سوء الأدب مالا يخفى لاتباع الشريعة واتباع العرف فى ذلك ، وإلا فالجهات كلها فى حق الله واحدة ، وإنما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه فى السماء لأنها طريق لنزول الوحى المعهود ، كما أنه قد تلفت فى صلاته ينظر إلى العين الذى أرسله لينظر له خبر القوم فهو التفات إلى مخلوق ونظر إلى مخلوق من جبريل وغيره فافهم فإن الله تعالى مدحه قبل ذلك بقوله عند ليلة الاسراء :

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) يعنى ما جاوز حضرة الخطاب .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص يقول فى حديث كانت خطيئة أخى داود النظر يعنى النظر إلى غير الله بغير إذن من الله اه .

وأما رفع اليدين إلى السماء فإنهما آلة يقبل بهما صدقات الحق تعالى التى تصدق الحق بها إليه ويضمهما إلى بعضهما كالمغترف بهما ماء كما قاله الشيخ أحمد الزاهد ، والله أعلم .

وروى مسلم والنسائى وغيرهما مرفوعا : « لَيَنْتَهِينَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ لَيَخْطَفَنَّ اللهُ أَبْصَارَهُمْ » .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ » .

وفى رواية : « لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لاندعو على أنفسنا ولا على ولدنا ولا على خادمنا ولا على مالنا ، فإن ذلك من سوء الخلق ، وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمرنا أن ننظر إلى مجارى الأقدار الإلهية التى قدرت على من دعونا عليه ، وقد فعل مادعونا من أجله مما لايلائم طباعنا ، وكثيرا مايدعو الإنسان على من يحبه فيستجيب الله تعالى له فيه فلا يهون عليه ذلك ، فيريد أن يرد ذلك عنه فلا يجيبه الحق تعالى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا وجد أحدكم فى نفسه إقبالا على الله تعالى ورجا الإجابة فليقل اللهم لاتستجب لى قط دعاء على أحد من المسلمين لا فى حق نفسى ولا غيرى ولا فى حال غضب ولا فى حال رضا ، فإن الله تعالى يفعل له ذلك ، ولما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش بالهلاك أنزل الله تعالى عليه :

• (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

عتابا فاستغفر الله تعالى وصار يدعو لقومه بالهداية ويقول إذا خالفوه إلى مايضرهم :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلكه ويقطع به الحجب حتى لايضيف إلى الخلق إلا ماأضافه الله إليهم من إسناد الأعمال لا إيجادها ولهذا يصير لايدعو على أحد إلا سبق لسان :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

روى مسلم وأبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لاَ تُوَافِقُوا سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ » .

وروى الترمذى وحسنه موقوفا : « ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ لاَ شَكَّ فِي إِجَابَتِهِنَّ : دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « دَعْوَةُ الْوَالِدِ تُفْضِي إِلَى الْحِجَابِ » والله تعالى أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نجعل الدنيا فى يدنا ولا ندخل حبها قلوبنا كما كان عليه السلف الصالح ، ولكن يحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يرقيه وإلا فلا يشم له رائحة ولو كان من أعلم الناس فاعلم ذلك :

وروى الشيخان مرفوعا : « قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌ فِي حُبِّ اثْنَيْنِ ، حُبِّ الْعَيْشِ ، وَحُبِّ الْمَالِ » .

وفى رواية للترمذى : « طولِ الْحَيَاةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ » .

وفى حديث مسلم والنسائى والترمذى مرفوعا :

« وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثاً وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » .

وروى الترمذى مرفوعا: « يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَعْطَيْتُكَ وَخَوَّلْتُكَ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَا صَنَعْتَ ؟ فَيَقُولُ: يَارَبِّ جَمَعْتُهُ وَنَمَّيْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ ، فَإِذَا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خَيْرًا فَيَمْضِى بِهِ إِلَى النَّارِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بأكل الحرام والشبهات ، سواء كان كسبنا بالتجارة أو الصنائع أو الوظائف التى لانسد فيها لابأنفسنا ولا بنائبنا ، ومن الشبهات أن يطعمنا لأجل مايعتقده فينا من الصلاح والدين ، ولا يخلو حالنا من أمرين إما نكون صالحين كما ظنوا أو غير صالحين ، وكلا الأمرين لاينبغى لنا الأكل بسببه ، اللهم إلا أن يخلص من أطعمنا فيطعمنا لله لالنية صلاح ولاغيره ، فهذا لابأس بالأكل منه ، وقد كثر الأكل بالدين والصلاح فى طائفة الفقراء واصطادوا بذلك أموال السلاطين وغيرهم حتى صار لأحدهم كل يوم عشرون نصف فضة وأكثر ، وإذا مات أحدهم يجدون بعده الألف دينار وأكثر وهو مع ذلك لابس جبة صوف :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الطبرانى مرفوعا : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِى جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ وَفِيهِ دِرْهَمٌ مِنْ حَرَامٍ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ صَلاَةً مَادَامَ عَلَيْهِ » .

وروى ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه :

« مَنْ جَمَعَ مَالاً حَرَامًا فَتَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ وَكَانَ وِزْرُهُ عَلَيْهِ » .

وفى رواية لأبى داود : « مَنِ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ مَأْثَمٍ فَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِى سَبِيلِ الله ، جُمِعَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ جَمِيعًا فَقُذِفَ بِهِ فِى جَهَنَّمَ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يَكْتَسِبُ أَحَدٌ مَالاً حَرَامًا فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ وَلاَ يَنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلاَّ كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ إِذْ لاَ يُمْحَى السَّيِّئُ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يُمْحَى السَّيِّئُ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْخَبِيثَ لاَ يَمْحُو الْخَبِيثَ » .

وروى البخارى والنسائى مرفوعا : « يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِى الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنَ الْحَرَامِ » .

زاد فى رواية رزين : « فَهُنَالِكَ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ دَعْوَةً » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ : الْفَمُ وَالْفَرْجُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ لاَ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ لَحْمًا نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ » .

والسحت : هو الحرام، وقيل هو الخبيث من المكاسب .

وروى أبو يعلى والبزار والطبرانى مرفوعا :

« لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَسَدٌ غُذِّىَ بِحَرَامٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقر أحدا من المسلمين على جباية الظلم ولو علمنا أن ذلك الظلم قد استحكم فى بلدنا ، ثم إذا عجزنا فيجب علينا أن نوصيه كل الوصية على المسلمين ونأمره بأن لايأخذ شيئا من المكس لنفسه فإن هذه الأموال قد تقررت وعجزت الأولياء عن رفعها ، ويحتاج من يقف فى هذه الجهات إلى موازين دقيقة وسياسة تامة مع صاحب الجهة الأصلى فربما غمز عليه أحدا إذا تغافل عن أحد ولم يأخذ منهم شيئا فيحصل له الأذى .

وروى أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ » .

يعنى العشار الذى يأخذ من التجار إذا مروا عليه مكسا باسم العشر قاله البغوى ، أما الآن فإنهم يأخذون مكوسا أخرغير العشر لها اسم ، يعنى بل يأخذونه حراما سحتا يأكلونه فى بطونهم نارا وحجتهم فيه داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . قاله الحافظ المنذرى .

وروى الإمام أحمد وغيره « ويل للعرفاء، ويل للأمناء » ،

وروى أبو يعلى مرفوعا بإسناد حسن .

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَالَ طُوبَى لَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَرِيفاً » .

وروى أبو داود : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ عَلَى مَنْكِبَي الْمِقْدَادِ ابْنِ مَعْدِيكَرِبَ ، وَقَالَ : أَفْلَحْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَمِيرًا وَلاَ كَاتِبًا وَلاَ عَرِيفًا » .

وفى رواية لأبى داود : « قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي الْعِرَافَةَ بَعْدَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ الْعِرَافَةَ حَقٌّ وَلاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ عَرِيفٍ وَلٰكِنَّ الْعُرَفَاءَ فِي النَّارِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانغش أحدا من خلق الله تعالى سواء استرشدنا فى ذلك الأمر أم لا ؟ وهذا العهد لايتم للعبد العمل به إلا إن سلك على يد شيخ صادق حتى صار لايغش نفسه فى شىء من عباداته ولا معاملاته ، فإن من غش نفسه غش غيره من باب أولى ، ومن نصح نفسه نصح غيره :

فيجب على العبد أن يسلك على يد شيخ حتى يكشف الله تعالى له عن جميع دسائس النفوس وعللها فى سائر الأعمال ، وإلا فن لازمه غالبا الغش لنفسه ولغيره :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وقد روى مسلم مرفوعا : « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وروى الطبرانى مرفوعا وقال رواته ثقات :

« مَنْ غَشَّ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » والأحاديث فى مثل ذلك كثيرة .

وكان سفيان الثورى يقول : الأدب تبقية أحاديث التنفير على ظاهرها من غير تأويل تبعا لغرض الشارع :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانحتكر طعاما للمسلمين خوفا من وقوعنا فى محبة غلاء السعر ولو فى سرائرنا ، وهذا الأمر قلّ من يتخلص منه ، بل وقع لى أننى كنت أخرج إلى مصلى الجنائز فى الفصل فأصلى عليها فابطأت الجنازة وقتا فصارت النفس تنتظر مجىء الأموات وتتألم إذا قلت الجنائز ، فنظرت فإذا فى ذلك محبة موت المسلمين حتى أصلى عليهم ، ويحصل لى الأجر ، فانصرفت من ذلك الوقت وتركت ذلك الانتظار فى المصلى وصرت أصلى من غير انتظار .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به طريق القوم حتى يصير العبد يحب لأخيه المسلم مايحب لنفسه ، ومالم يصل إلى هذا المقام فمن لازمه محبة الخير لنفسه ولو أدى ذلك إلى ضرر غيره .

فاسلك ياأخى على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد ، والله يتولى هداك .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى وصححه :

« لاَ يَحْتَكِرُ إلاَّ خَاطِئٌ » .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وغيرهم مرفوعا :

« مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ بَاتَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللهِ » .

وروى ابن ماجه والحاكم مرفوعا : « الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلاَسِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانأكل من طعام من يعامل الناس بالربا والحيلة إلا لضرورة شرعية كأن لم نجد شيئا نسد به الرمق أو ترتب

على ذلك مصلحة دينية ترجح على تركه ؛ وهذا العهد قد كثر خيانة الناس له حتى لا يكاد يسلم منه تاجر ولا عالم فصاروا يعملون الحيلة فى الربا ويكتبون ذلك فى محاكم القضاة ويعترف أحدهم ويدعى الآخر بما ليس له بحق ، ثم يصير المرابى يطالب المرابى اسم مفعول ، فإن لم يعطه ما اتفق معه عليه يعترف له بزيادة على ذلك ثم يكتبونها كذلك ، فلا يزالون كذلك حتى تصير المائة دينار أكثر من ألف دينار ثم يمحق الله مال الجميع .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ صادق يسلك به الطريق حتى يدخله حضرات القناعة وحضرة الزهد فى الدنيا وتصير نفسه تقنع بالخبز الحاف اليابس من غير إدام ، ويلبس الحصر بدل الثياب ، ومن لم يسلك فمن لازمه محبة الدنيا غالبا وعدم صبره عن شهواتها فكلما طلبت نفسه شهوة تحمل الدين لأجلها ورضى بالربا له وعليه .

وكان سفيان الثورى رحمه الله يقول : والله لو أجبت نفسى إلى كل ماتطلب منى لخفت أن أكون شرطيا أو مكاسا اهـ .

فاسلك يا أخى كما ذكرنا التخلص من ورطة الربا والوقوع فيه ، والله يتولى هداك :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ، فذكر منهم : وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ » الحديث . الموبقات : المهلكات .

وروى الشيخان مرفوعا : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي وَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ فذكر الحديث إلى أن قال : فَقُلْتُ ؟ مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي النَّهْرِ ؟ فَقَالَ : آكِلُ الرِّبَا » .

وروى مسلم والنسائى وأبو داود وغيرهم مرفوعا :

« لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ » وزاد ابن حبان وغيره : « وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ » .

وفى رواية الإمام أحمد وأبى يعلى وابن خزيمة وابن حبان عن ابن مسعود قال :

« آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَشَاهِدَاهُ وَكَاتِبَاهُ إِذَا عَلِمُوا بِهِ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ » .

وروى الحاكم والبيهقى مرفوعا : « الرِّبَا ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا عن عبد الله بن سلام :

« الدِّرْهَمُ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرِّبَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً يَزْنِيهَا فِي الْإِسْلَامِ » وقيل إنه مرفوع .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ » وفى رواية : « عِقَابَ اللهِ » .

وروى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما :

«قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهعليهِ وسلمَ رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَأَنَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ رَعْدًا وَبَرْقًا وَصَوَاعِقَ ، فذكر الحديث إلى أن قال : فَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالْبُيُوتِ فِيهَا الْحَيَّاتُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هٰؤُلَاءِ؟ قَالَ : هٰؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا » .

وروى الطبرانى والأصبهانى مرفوعا : « مَنْ أَكَلَ الرِّبَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يَتَخَبَّطُ ، ثُمَّ قَرَأَ (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) » .

وروى أبو داود وابن ماجه مرفوعا : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا ، فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَبِيتَنَّ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشَرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ فَيُصْبِحُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ بِاسْتِحْلَالِهِمُ الْمَحَارِمَ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا » الحديث والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانغصب من أحد شيئا ولو دواة أو قلما أو سواكا أو خلالا أو شيئا من سائر الحقوق خوفا من وقوعنا فى العقوبة .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ يسلك به إلى حضرات الإيمان بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يصير ماتوعده به كأنه رأى عين على حدسواء، ويحتاج ذلك إلى جوع شديد ورياضة تامة حتى لايبقى عنده تجبر ولا استهانة بحق أحد من المخلوقين .

وكان جدى الأدنى الشيخ على رحمه الله يوصى الشركاء إذا حرثوا القمح أن يجعلوا بينهم وبين قمح الجار خطا من الفول ، وإذا زرعوا الفول أن يجعلوا بينهم وبين الجار خطا من القمح ، يحول بينهم وبين الجار ثم يتركونه للجار ، وكان إذا بنى دارا ترك للجار قدر موضع الجدار داخل ملكه ، ويحصل الحظ الأوفر للجار . وأخذ ولده مرة عود خلال من شخص بغير طيبة نفسه فهجره شهرا ، وهذا أمر يعز وقوعه من غالب أهل هذا الزمان ، بل رأيت وقوع الغصب من الفقراء الذين يترددون إلى جهة الأمراء ، فأخذوا حجارة الناس فبنوا بها زواياهم وبيوتهم فقلت لأصحاب الحجارة ألا تشكون من أخذ حجارتكم ؟ فقالوا نخاف أن يرمى فينا سهما عند الظلمة فيحبسونا ويضربونا حتى نموت، فوالله إن الأمر أعظم مما نظن .

وقد حكى لى شخص من الفقراء أنه مر على مارس قمح فى سنبله ، فرأى سنبلة أعجبته فأخذها وفركها ، فلما أراد أن يأكلها تذكر الحساب عنها يوم القيامة فرماها فى المارس ، فنام تلك الليلة فرأى القيامة قد قامت وجاء صاحب السنبلة فادعى عليه بسنبلته، فقال يارب خفت من الحساب فى هذا اليوم فرميتها فى مارسه ، فقال صدق يارب ولكن لم يصل إلى تبن البرج لأنه طار فى الريح ، قال فأعجزنى فى تحصيله ثم استيقظت فزعا مرعوبا اهـ .

قلت : ولا أعلم لأحد من خلق الله بحمد الله على حق الآن إلا شخص من تجار الخانقاه أجلسنى فى دكانه وأنا دون البلوغ فأخذت من غلته نحو ثمانية نقرة أكلت بها حلاوة ولم أذكره إلى أن مات ، وقد أخذت لأولاده بما قدرت عليه وقرأت القرآن كثيرا ودعوت له وما على قلبى أثقل منه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَنْ ظَلَمَ قَدْرَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » .

وفى رواية للإمام أحمد مرفوعا : مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شِبْرًا بِغَيْرِ حَقِّهِ طَوَّقَهُ اللهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » .

ولفظ مسلم : « لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ إلاّ طَوَّقَهُ اللهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قيل أراد طوق التكليف لاطوق التقليد ، وهو أن يطوق حملها يوم القيامة ، وقيل إنه أرادأن يخسف الله به الأرض فتصيرالبقعة المغصوبة فى عنقه كالطوق قاله البغوى وهذا أصح ، ويؤيده رواية البخارى وغيره :

« مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شِبْرًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ » .

وفى رواية لأحمد والطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَخَذَ أَرْضًا بِغَيْرِ حَقِّهَا كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَ تُرَابَهَا إِلَى الْمَحْشَرِ » .

وفى رواية للامام أحمد والطبرانى مرفوعا باسناد حسن :

« أَظْلَمُ الظُّلْمِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ يَنْتَقِصُهَا الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ ، وَلَيْسَ حَصَاةٌ مِنَ الْأَرْضِ يَأْخُذُهَا إلاّ طُوِّقَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى قَعْرِ الْأَرْضِ وَلاَ يَعْلَمُ قَعْرَهَا إِلاّ الَّذِى خَلَقَهَا » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَأْخُذَ عَصَا أَخِيهِ بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ » .

قال ذلك لشدة ماحرم الله من مال المسلم ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانبنى فى هذه الدار بناء فوق الحاجة ولا نزخرف لنا دارا خوفا من حب الإقامة فى هذه الدار ونسيان الدار الآخرة كما جرب ذلك فلا يكاد فاعل ذلك يقدر على تحرير نية فى ذلك أبدا ، وما

وضع صلى الله عليه وسلم لبنة على لبنة ، حتى إن درجة من درج الغرفة التى ينام فيها تزلزلت فلم يأذن لأحد فى إصلاحها مع أنها زهقت من تحت رجله فانفكت رجله ومكث سبعا وعشرين يوما لايقدر على الخروج للناس :

فاتبع ياأخى نبيك فى ذلك ، ثم إنك لو تبعت الحل فى كسبك لما وجدت ثمن الطوب الذى تبنى به فضلا عن الحجر والرخام، فوالله ثم والله لقد خسر من اتخذ هذه الدار وطنا ؛

وقد رأيت فى المنام شيخ الإسلام زكريا وهو يقول لى قل لولد ولدى زكريا : كن فى الدنيا بجسمك وفى الآخرة بقلبك ، فإنى والله هكذا كنت فاعلم ذلك والله يتولى هداك :

وفى حديث الشيخين فى بيان الإسلام والإيمان والإحسان :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلمَ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ أَخْبِرْنِى عَنْ أَمَارَاتِهَا - يعنى الساعة - قَالَ : أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ » .

وفى رواية للشيخين : « وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبُهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فى الْبُنْيَانِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا » يعنى الساعة .

وروى أبو داود وابن ماجه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ مَرَّ بِقُبَّةٍ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا قُبَّةٌ بنَاهَا فُلَانٌ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ : كُلُّ مَا كانَ هَكَذَا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى صاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَبَلَغَ الأَنْصَارِىَّ ذَلِكَ فَوَضَعَهَا ، فَمَرَّ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ بَعْدُ فَلَمْ يَرَهَا فَسَأَلَ عَنْهَا ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ وَضَعَهَا ، لِمَا بَلَغَهُ عَنْهُ فَقَالَ يَرْحَمُهُ اللهُ يَرْحَمُهُ اللهُ » ومعنى وضعها : هدمها .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صاحِبِهِ إِلاَّ مَا لاَ بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْهُ مِمَّا يَسْتُرُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالسِّبَاعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ » .

وفى رواية للطبرانى بإسناد جيد مرفوعا :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرًّا خَضَّرَ لَهُ فِى اللَّبِنِ وَالطِّينِ حَتَّى يَبْنِىَ » وفى رواية له أيضا « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ هَوَانًا أَنْفَقَ مَالَهُ فِى الْبُنْيَانِ » .

وفى رواية له أيضا : « مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الدارقطنى والحاكم مرفوعا : « وَمَا أَنْفَقَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّ خَلَفَهَا عَلَى اللهِ وَاللهُ ضَامِنٌ إِلاَّ مَا كَانَ فى بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « يُؤْجَرُ الرَّجُلُ فِى نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلاَّ التُّرَابَ ، أَوْ قَالَ فِى الْبُنْيَانِ » .

وروى أبو داود فى المراسيل : « أَنَّ حُجَرَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَتْ جَرِيدَ نَخْلٍ ، فَخَرَجَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فِى غَزَاةٍ لَهُ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُوسِرَةً فَجَعَلَتْ مَكَانَ الْجَرِيدِ لَبِنًا ، فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلمَ مَا هٰذَا ؟ قَالَتْ أَرَدْتُ أَنْ أَكُفَّ عَنِّى أَبْصَارَ النَّاسِ ، فَقَالَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ : إِنَّ شَرَّ مَا ذَهَبَ فِيهِ مَالُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الْبُنْيَانُ » .

وروى أبو داود وغيره : « أَنَّ الْعَبَّاسَ بَنَى قُبَّةً فَأَمَرَهُ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يَهْدِمَهَا ، فَقَالَ:يَارَسُولَ اللهِ إِذًا أَتَصَدَّقُ بِثَمَنِهَا ؟ فَقَالَ لاَ : اُهْدِمْهَا » .

وروى الترمذى مرفوعا : « النَّفَقَةُ كُلُّهَا فِى سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ الْبِنَاءَ فَلاَ خَيْرَ فِيهِ » .

وروى ابن أبى الدنيا عن الحسن قال :

« لَمَّا بَنَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ الْمَسْجِدَ قَالَ : اُبْنُوهُ عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى » .

قيل للحسن وما عريش موسى ؟ قال إذا رفع يده بلغ العريش يعنى السقف .

وفى رواية لابن أبى الدنيا عن عامر بن عمار موقوفا :

« إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ بِنَاءً فَوْقَ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ نُودِىَ يَاأَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ إِلَى أَيْنَ ؟ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نفر من مواضع غضب الله عز وجل التى جعل نفسه خصما لنا فيها كعدم إعطاء الأجير أجرته أو عدم إعطاء الذى ظلم ظلامته ونحو ذلك مما ورد ، فمن استهان بذلك استحق إدخاله النار ولو

كان من المشهورين بالصلاح ، فالمؤمن من فر من مواطن الغضب والسلام .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد يعطى الفعلاء والبنائين أجرتهم من صلاة العصر خوفا من تأخير إعطائهم عن الفراغ والعمل .

وروى البخارى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« قالَ اللهُ تعالَى : ثَلاثَةٌ أَنا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ قَصَمْتُهُ : رَجُلٌ أَعْطى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ باعَ حُرًّا وَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نخوف العبد إذا أبق من سيده ونعلمه بما ورد فى الإباق ثم لانرجو منه خيرا قط بالإحسان إليه ، فإنه لو كان فيه خير كان لسيده الذى أعطى ثمنه وأطعمه وكساه زمانا طويلا ، فينبغى للمتدين أن لايقرب الآبق ولا يحسن إليه لأن فى ذلك إعانة له على استحلاء الإباق ، حتى لايكاد يذوق له مرارة ولايتذكر سيده ، ومن هذا الباب أيضا العاق لوالديه ، فلا ينبغى لأحد الإحسان إليه إيثارا لجانب الحق تعالى فإنه غضبان عليه كما هو غضبان على العبد الآبق .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وقد روى مسلم مرفوعا : « أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ » .

وفى رواية لمسلم : « لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَالعَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ فَيَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِ مَوالِيهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَيُّمَا عَبْدٍ ماتَ فِي إِباقَتِهِ دَخَلَ النَّارَ ، وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) إذا أعتقنا عبدا أو أمة أن لانستخدمه إلا برضاه ونعطيه ورقة عتقه ونشيع ذلك بين الناس ، وهذا العهد يخل به كثير من الأكابر ، فيعتقون عبيدهم فى الشدائد والفصول ثم يخفون ورقة عتقهم ويستخدمونهم كرها ، وذلك عصيان للشارع صلى الله عليه وسلم .

روى أبو داود وابن ماجه مرفوعا : « ثَلاثَةٌ لا تُقْبَلُ مِنْهُمْ صَلاةٌ فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ اعْتَبَدَ مُحَرَّرَهُ » .

واعتباد المحرر يكون من وجهين : أحدهما يعتقه ثم يكتم عتقه أو ينكره ، وهذا أشد الأمرين . والثانى أن يعتقله بعد العتق فيستخدمه كرها .

وروى ابن ماجه : « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا وَأَكَلَ ثَمَنَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نكثر الحلف بالله عز وجل على بيع أو شراء أو حكاية شىء من الوقائع المتعجب منها ونحو ذلك إجلالا لله تعالى ، وإن سبق لساننا إلى الحلف بالله تعالى فى شىء من الأمور المذكورة بادرنا إلى التوبة والاستغفار ، وهذا الأمر قد أغفله غالب الناس فأذلهم الله ، فإن من أجلّ الله أجله .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يوقفه على حضرات العظمة الإلهية ويقيم به فيها السنة والسنتين حتى يخالط أهلها ، ويكتسب منهم الإجلال والتعظيم لله عز وجل فإنه ورد : اطلبوا الرفيق قبل الطريق . وأوجبوا على التائب التباعد عن إخوان السوء والقرب من إخوان الخير ، وقالوا إن ذلك أعون له . فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها ، وكم من أخلاق نبوية وصحابية وتابعية صارت بين ظهر الناس ينظرونها ولا يصح لأحد العمل بها ، لفقد إمام يمشى بهم فى الطريق ، ولفقد من يطلب الطريق ، وبذلك اندرست بعض معالم الشريعة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

روى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّمَا الْحَلِفُ حِنْثٌ أَوْ نَدَمٌ » .

وروى الإمام أحمد وغيره . « إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ؟ قَالَ بَلَى : وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْثَمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وذكر منهم : وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ » .

وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَرْبَعَةٌ يَبْغَضُهُمُ اللهُ ، فذكر منهمْ الْبَيَّاعَ الْحَلَّافَ » .

وفى رواية : « التَّاجِرَ الْحَلَّافَ » .

وروى الطبرانى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كانَ يَخْرُجُ إِلَى التُّجَّارِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ » .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ » .

وفى رواية لأبى داود : « مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ » .

وفى رواية لمسلم والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ فَإِنَّهُ يَنْفَقُ ثُمَّ يَمْحَقُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نعمل على طريق اليقين بحيث لايبقى عندنا اهتمام ولاحرص على شىء من الدنيا .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به وإلا فلا يشم من رائحة اليقين رائحة ، بل يحرص على الدنيا حتى يموت .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ : جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ وَطُولُ الْأَمَلِ وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا » .

وروى الطبرانى : « لاَ تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسُخْطِ اللهِ وَلاَ تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللهِ وَلا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ فَإِنَّ رِزْقَهُ لاَ يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ ، وَلاَ يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ » .

وسيأتى فى عهد الزهد إن شاء الله تعالى زيادة على ذلك ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخون شريكنا ولا من استأمننا على شىء لابالفعل ولابالنية ، فإن ذلك خسارة فى الدنيا والآخرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من خيانة الشريك أن يعزم على أن يميز نفسه على شريكه بشىء ولو لم يفعل ، فإن البركة ترفع بمجرد هذه النية ولو لم يتخصص بشىء ، ثم يصير الشريك يحلف بالله وبالطلاق أنه ماأخذ من ذلك شيئا ولا واكس عليه فيتحير الناس فى ذلك ، والحال أن البركة ارتفعت بمجرد النية المذكورة لكونها خيانة ، وهذا العهد لايقدر على العمل به إلا أكابر الأولياء الذين تخلقوا بالرحمة على العالم حتى صاروا أشفق على المسلمين من أنفسهم بحكم الإرث فى المقام لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعلم أن كل من لايعلم من نفسه القدرة على عدم وقوعها فى الخواطر المذكورة فليتاجر لنفسه ولايشارك أحدا ، فإن فى ذلك ضررا عليه وعلى شريكه بارتفاع البركة شاء أم أبى :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

روى أبو داود والحاكم وغيرهما مرفوعا :

« يقُولُ اللهُ أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَإِذَا خَانَ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا » .

زاد فى رواية رزين : « وَجَاءَ الشَّيْطَانُ » .

وفى رواية للدارقطنى : « يَدُ اللهِ عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَإِذَا خَانَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ رَفَعَهَا عَنْهُمَا » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لانفرق بين والدة وولدها) حتى من البهائم والطيور ، وسواء كان التفريق بالبيع أوغيره رحمة بخلق الله ، فإن الوالدة والولد يتألم كل منهما بالفراق :

« وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ » .

وما رأت عينى أكثر عملا بهذا العهد من أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى : كان إذا وقع عصفور صغير من عش أمه من سقف مسجد أو غيره ، يأتى بسلم من خشب ويصعد به إلى عش أمه ، ورأيته يبذل فى ذلك نصف فضة لمن يطلع بالعصفور لأمه .

وقد بلغنى عن سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه أن حمامة جاءته فى إسكندرية

فجلست على كتفه وساررته، فقال: بسم الله ، فقالت : هـذا الوقت فطلب دابة وخرج مسافرا معها إلى مصر ، حتى بلغ جامع عمرو وهى معه ، فعرشت نحو المنارة الغربيـة ، فأرسل الشيخ وراء المؤذن وقال له إن هذه الحمامة جاءت بى إليـك من إسكندرية سياقا على أنك لاتعود تذبح أولادها ، فقال له المؤذن صدقت ياسيدى فيما قالت : فانى ذبحت أولادها ثلاث مرات ، وخافت أنى أذبحهم رابع مرة فسافرت إليك ، وأشهدك ياسيدى أنى تائب إلى الله عز وجل عن مثل ذلك .

فانظر ياأخى أولياء الله كيف تعرف الطيور ماعندهم من الرحمة ، وكيف علم الله سيدى ياقوت منطق الطير وراثة سليمانية ، فعليك ياأخى بالرحمة لكل حيوان ، والله يتولى هداك .

وروى الترمذى والحاكم والدارقطنى مرفوعا :

« مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن ماجه والدارقطنى عن أبى موسى قال :

« لَعَنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا ، وَبَيْنَ الأَخِ وَأَخِيهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا نحو ذلك .

وسيأتى فى عهد الرحمة بالبهائم :

« أَنَّ حَمَامَةً عَرَّشَتْ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم: مَنْ فَجَعَ هٰذِهِ فِي وَلَدِهَا ؟ فَقَالَ شَخْصٌ أَنَا ، فَأَمَرَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَحَضَّرَهُ فَطَارَ مَعَ أُمِّهِ » الحديث بمعناه .

وقد اختلف فى وقت تحريم التفريق ، فقال بعضهم يحـرم التفريق بين الأم وولدها حتى يميز ، وقال بعضهم حتى يبلغ ، ويقاس على ذلك بلوغ الحيوان من البهائم والطيور وغيرها وتمييزه ، وأهل الكشف يعرفون ذلك وربما عرف ذلك الصيادون للطير والكلابون مثلا .

(وَاللهُ غَفُورٌ رحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانستدين شيئا من أعز أصحابنا إلالضرورة شرعية فلا نستدين شيئا لشهوة مأكل أو ملبس أو حج نفل مثلا أو توسع فى نفقة على العيال أو ضيوف أو بناء دار أو زراعة بستان ونحو ذلك مما لاضرورة إليه ، وهذا العهد يتعين العمل به على من اشتهر بكرم فى هذا الزمان، ويجب عليه سد بابه والإحضار عن قريب فى الحبس ، ثم يجيء الذين كانوا يجتمعون على سماطه يأكلون فيشهدون بتفليسه ويتفرقون عنه كأنهم لم يعرفوه قط .

ثم إن العامل بهذا العهد لابد له من شيخ يسلكه حتى يخرجه عن حكم الطمع عليه بحيث يراعى أوامر ربه فى الإنفاق دون الخلق ، حتى لو جاء له أمير أخرج له كسرة وبصلة ولا يستحى من ذلك، ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه الدين وإطعام الناس رياء وسمعة ، ولولا شدة الدين فى الدنيا والآخرة ماشدد الشارع فيه .

وروى النسائى والحاكم : « أَنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ كانَ يقولُ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْـكُفْرِ وَالدَّيْنِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رسولَ اللهِ أَتَعْدِلُ الْـكُفْرَ بِالدَّيْنِ ؟ قَالَ نَعَمْ ! » .

وروى الحاكم مرفوعا : « الدَّيْنُ رَايَةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُذِلَّ عَبْدًا وَضَعَهُ فِي عُنقِهِ » .

وروى البيهقى : « أَنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم أَوْصَى رَجُلاً فَقَالَ لَهُ : أَقْلِلْ مِنَ الدَّيْنِ تَعِشْ حُرًّا » .

وروى الإمام أحمد والحاكم مرفوعا : « لاَ تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا قَالُوا وَمَا ذَاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قَالَ الدَّيْنُ » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِىءٌ مِنْ ثَلاَثٍ دَخَلَ الْجَنَّةِ ، الْغُلُولِ وَالدَّيْنِ وَالْـكِبْرِ » .

وفى رواية : « وَالْـكَنْزِ » بالنون والزاى، وهى أصح .

وروى البخارى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عنهُ ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « مَنْ ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ أَدَّاهُ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنِ اسْتَدَانَ دَيْنًا وَهُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ حَتَّى يَمُوتَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يوْمَ الْقِيَامَةِ : ظَنَنْتَ أَنِّي لَا آخُذُ لِعَبْدِي حَقَّهُ ، فَيُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَيُجْعَلُ فِي حَسَنَاتِ الآخَرِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الآخِرِ فَيُجْعَلُ عَلَيْهِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمطل أحدا له علينا دين بل نبيع له جميع ثيابنا وأمتعتنا ماعدا ستر العورة ومالابد منه من آلات الطهارة ، لأن السلامة مقدمة على الغنيمة ، وهذا العهد يخل به خلق كثير لاستهانتهم بالدين وكثرة حبهم للدنيا :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلكه حتى يقطع به الحجب ويوقفه على حضرات الحساب يوم القيامة حتى تشاهدها بصيرته ، وإلا فمن لازمه المطل وعدم سماح نفسه ببيع شيء من أمتعته التى لاضرورة إليها :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مِلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ » .

قوله : أتبع بضم الهمزة وسكون المثناة : أى أحيل .

قال الخطابى : وأهل الحديث يقرءونه اتبع بتشديد المثناة وهو خطأ .

وروى ابن ماجه والحاكم وغيرهما مرفوعا :

« لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ » .

أى مطل الواجد الذى هو قادر على وفاء دينه يحل عرضه أى يبيح للناس أن يذكروه بسوء المعاملة ليحذره الناس ، وأما عقوبته فهى حبسه .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا : « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الظَّلُومَ » .

وفى رواية للطبرانى وغيره « مَنِ انْصَرَفَ غَرِيمُهُ وَهُوَ سَاخِطٌ كُتِبَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَشَهْرٍ وَجُمُعَةٍ ظُلْمٌ » .

وروى ابن ماجه وغيره : « أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ لاَ أُخْرِجُ عَنْكَ إِلاَّ إِنْ قَضَيْتَنِي . فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا وَيْحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ ؟ فَقَالَ : إِنِى أَطْلُبُ حَقِّى ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ ؟ » الحديث ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نطلق بصرنا إلى شىء من زينة الدنيا سواء الصور الجميلة والثياب الفاخرة فى الأسواق والبيوت فان خلاصه من ذلك عسير ، وفى الحديث :

« كَانَتْ خَطِيئَةُ أَخِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ النَّظَرُ » .

أى سبب النظر ، وذلك أنه رفع رأسه بغير صالح نية تقدمت ، إذ الأكابر مكلفون بأن لا يقع منهم حركة ولا سكون إلا بعد تحرير نية صالحة ، وإذا نظر أحدهم إلى شىء مثلا مع غفلة أو سهو عوقب على ذلك وسمى ذلك خطيئة له ، إذ الأنبياء معصومون من كل ذنب ، وللحق تعالى أن يؤاخذهم على كل حركة وقعت على غير حضور مع الحق وشهود له :

ومن هنا كان الفقراء يؤاخذون المريد على كل حركة فعلها مع غفلة أو سهو ، فأرادوا له أن يمشى على مدرجة الأنبياء وهجروه على ذلك طلبا لترقيه فافهم ، وإياك أن تظن أن داود عليه السلام نظر إلى امرأة أجنبية ولو فجأة ، فان ذلك لم يقع منه لعصمته ، وهذا جواب فتح الله به لم أره لأحد قبلى ، وهو فى غاية الوضوح :

ومن الأولياء من ينظر إلى جميع ماخلق من التراب بعين التراب فيراه فى جميع تطوراته ترابا من ملك وأمير وصالح وطالح وقاض وفلاح وغير ذلك ، لايراه إلا ترابا يتكلم وينهى ويقبل ويولى ويعزل وهو تراب ، وهذا من عجائب مشاهد الأولياء ، وهو

مشهدنا بحمدنا الله فى سائر أطوار الخلق على اختلاف مراتبهم ، وما زاد على التراب فإنما هو خلع يخلعها الحق تعالى على عباده عارية مردودة ، وهنا أسرار يذوقها أهل الله تعالى لا تسطر فى كتاب .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ عارف ليسد مجارى الشيطان من البدن حتى يسد عن العبد جميع مجاريه من بدنه ، وهناك لا يبقى على القلب الذى هو أمير البدن داعية إلى النظر إلى شىء من الدنيا إلا إن أمره الشارع بالنظر إليه ، وهناك يصح للعبد العمل بهذا العهد وإلا فلا يشم من العمل به رائحة ، وقد اختصرت لك الطريق :

وقد روى الترمذى وأحمد وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه :

« يَاعَلِيُّ إِنَّ لَكَ كَنْزًا فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا فَلَا تَتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَ لَكَ الْأُخْرَى » .

وقوله «ذو قرنيها» أى ذو قرنى هذه الأمة ، وذلك لأنه كان له شجتان فى قرنى رأسه إحداهما من ابن ملجم لعنه الله والأخرى من عمرو بن ود ، وقيل غير ذلك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، الْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْاِسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ » .

زاد فى رواية لمسلم وغيره : « وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ » .

وروى مسلم وغيره عن جرير قال :

« سَأَلْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ : اصْرِفْ بَصَرَكَ » .

وروى البيهقى وغيره : « الْإِثْمُ حَوَّازُ الْقُلُوبِ ، وَمَا مِنْ نَظْرَةٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ » .

ومعنى حوار بفتح الحاء وتشديد الواو : أى غالب على القلب حتى يركب صاحبه ما لا يليق :

وروى الطبرانى مرفوعا : « لَتَغُضُّنَّ أَبْصَارَكُمْ وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ أَوْ لَيَكْسِفَنَّ اللهَ وُجُوهَكُمْ » .

وروى ابن ماجه الحاكم مرفوعا : « مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ » .

وروى ابن ماجه : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نَهَى الرَّجُلَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ثِيَابِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نختلى قط بأجنبية يخاف منها الفتنة ، ولو كنا من أصلح الصالحين ، وهذا العهد يخل به كثير من الفقراء الساذجين لا سيما طائفة الفقراء الأحمدية والبرهامية والقادرية ، فيأخذون العهد على المرأة بآداب طريقهم ، ثم يصيرون يدخلون عليها فى غيبة زوجها ، وهذا من المنكر الصريح ، ومن قال من الفقراء نحن بحمد الله محفوظون من مثل ذلك ، فنقول له لا يخلو حالك من أمرين : إما أن يكون قلبك ساذجا لا حذر عندك من الوقوع فى محظور ، أو حاذقا تدرك الأمور ، فإن كنت ساذجا عمل عليك إبليس الحيلة كما عمل على أبيك آدم حين حلف له إنه لمن الناصحين ، وإن كنت حاذقا تدرك الشينة فأنت من حزب إبليس ، فوقوعك فى للفواحش من أقرب ما يكون ، فتحريم الشريعة عام فى حق جميع الناس ، ومن ادعى شيئا يخرجه عن ذلك العموم كذبناه فإن اللهسبحانه وتعالى لايحرم شيئا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ويسر إلى أحد من أتباعه شيئا يخالف شرع نبيه صلى الله عليه وسلم أبدا ، فاعلم ذلك واحذر مما حذرك الله تعالى منه :

وقد رأى الشيخ أبو بكر الحديدى نفعنا الله ببركاته الشيخ محمدا العدل وهو يضع يده على بطن امرأة يرقيها من مرض كان بها ، فصاح بأعلى صوته واديناه وامحمداه تضع يدك على بطن أجنبية ؟ هل أنت معصوم؟ هذا مع كونهما كان من أولياء الله تعالى ، فإياك والخلوة بأجنبية ، ثم إياك وإن دخلت عليك على غفلة فازجرها حتى تأتى بامرأة معها أو محرم :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » .

وروى الديلمى مرفوعا : « لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَخْلُوَنَّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَحْرَمٌ » .

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد جيد مرفوعا :

« لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لاَ تَحِلُّ لَهُ » .

والمخيط : ما يخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهما .

وروى الطبراني : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلمَ قَالَ : إِيَّاكُمْ وَالخَلْوَةَ بِالنِّسَاءِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَلاَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ دَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا وَلَأَنْ يُزَاحِمَ الرَّجُلُ خِنْزِيرًا مُتَلَطِّخًا بِطِينٍ أَوْ حَمْأَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُزَاحِمَ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ امْرَأَةٍ لاَ تَحِلُّ لَهُ » .

والحمأة : هو الطين الأسود المنتن ، والله تعالى أعلم .

فانظر ياأخي في هذه الأحاديث وإطلاقه فيها لفظ المرأة والنساء فإنه يشمل من يخاف منها الفتنة ومن لا يخاف والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتعاطى أسباب ارتكاب حلائلنا الذنوب ، كأن نقلل عنها النكاح حتى يطمح بصرها إلى غيرنا ، أو نقتر عليها النفقة مع قدرتنا على توسعتها ، أو نتسرى عليها أو نتزوج عليها ونحو ذلك لغير غرض شرعي أو بغير سياسة ترضيها ونحو ذلك ، فإن غاية النكاح أن يكون واجبا أو مستحبا ، وإذا تعارض عندنا واجب ومحرم قدمنا ترك المحرم عملا بقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وهذا العهد يقع في خيانته كثير من الناس ، فيتزوج أحدهم على زوجته من غير حاجة ضرورية ، أويتسرى عليها ويخالفها في أهويتها المباحة حتى تتعاطى أسباب مخالفة أهويته كذلك ، فيسخط عليها ويقول لها حرام عليك أن تسخطي زوجك وينسى ما فعله هو معها .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى نور قلب وكثرة سياسة ، فإن صورة أخلاق المرأة صورة نفس الرجل لأنها مخلوقة منه ، فعوجها من عوجه واستقامتها من استقامته .

وقد كان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : إنى لأقع فى مخالفة فأعرف أثر ذلك فى خلق حمارى وزوجتى وخادمى ، وكأن الحق تعالى يقول لعيال العبد وأصحابه أطيعوا عبدى ما أطاعنى واعصوه ما عصانى ، وهذه قاعدة أكثرية لا كلية ، فربما كان الوالى مستقيما مع الله تعالى فيبتليه الله تعالى بمخالفة زوجته وغيرها اختبارا له لينظر تعالى صبره وغير ذلك .

فعلم أنه لا ينبغى للرجل المبادرة إلى إلحاق الإثم بالزوجة بسخطه عليها إلا إن سار معها سيرة حسنة وفتش أخلاقه معها كلها .

وقد كان سيدى عبد العزيز الديرينى يقول : إياك أن تتزوج على امرأتك أو تتسرى عليها إلا إن وطنت نفسك على نكد الدهر ، ولما أوقعه الله تعالى فيما كان يحذر الناس عنه وتزوج على امرأته أنشد يقول :

تَزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لِفَرْطِ جَهْلِي ... وَقَدْ حَازَ الْبَلاَ زَوْجُ اثْنَتَيْنِ
فَقُلْتُ أَعِيشُ بَيْنَهُمَا خَرُوفًا ... أُنَعَّمُ بَيْنَ أَكْرَمِ نَعْجَتَيْنِ
فَجَاءَ الْحَالُ عَكْسَ الْحَالِ دَوْمًا ... عَذَابًا دَائِمًا بِبَلِيَّتَيْنِ
رِضَا هٰذِي يُهَيِّجُ سُخْطَ هٰذِي ... فَمَا أَخْلُو مِنَ احْدَى السَّخْطَتَيْنِ
لِهٰذِي لَيْلَةٌ وَلِتِلْكَ أُخْرَى ... نِقَارٌ دَائِمًا فِى اللَّيْلَتَيْنِ
إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا ... مِنَ الْخَيْرَاتِ مَمْلُوءَ الْيَدَيْنِ
فَعِشْ عَزَبًا وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْهُ ... فَوَاحِدَةٌ تَكْفِي عَسْكَرَيْنِ

والله تعالى أعلم .

ولنذكر ما ورد فى إسخاط المرأة زوجها ومخالفته بغير حق أو بحق :

روى الشيخان مرفوعا فى حديث طويل :

« وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً يَنْوِي أَنْ لاَ يُعْطِيَهَا مِنْ صَدَاقِهَا شَيْئًا فَمَاتَ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ زَانٍ » .

وفى رواية أخرى : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ » والأحاديث فى ذلك كثيرة .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ لَا تُرْفَعُ صَلَاتُهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ شِبْرًا ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ : وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا وَزَوْجُهَا كَارِهٌ لَعَنَهَا كُلُّ مَلَكٍ فِى السَّمَاءِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ غَيْرَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ حَتَّى تَرْجِعَ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نرجح إحدى زوجاتنا على الأخرى فى نوم أو نفقة أو بشاشة أو نحو ذلك ، فإن الشارع صلى الله عليه وسلم ماسامحنا إلا فى ميل القلب فقط ، وأما مازاد على ذلك فلم يسامحنا فيه إلا فى غيبة المرجوحة : فلنا أن نزيد فى البشاشة لكل من اختلينا معها على الأخرى مداواة لها ، وما نهينا إلا عن ترجيحها بحضرة ضرتها لا غير .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سياسة عظيمة حتى لا تلحق إحدى الضرتين بترجيحه لضرتها إساءة :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الترمذى والحاكم مرفوعا : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ » .

ولفظ أبو داود مرفوعا : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ » .

ولفظ رواية النسائى : « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ لَهُ مَيْلٌ لِإِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى جاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت :

« كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ هٰذَا قَسْمِى فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » يعنى القلب ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نشتغل بشىء من العبادات ونترك الكسب بحيث نضيع عيالنا وأنفسنا ، ونحتاج كلنا إلى سؤال الناس ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من المتعبدين وطلبة العلم .

فيحتاج من يريد العمل به إلى سلوك الطريق على يد شيخ يعلمه مراتب العبادات ، وما هو الأولى منها ليقدمه على غير الأولى ، لأن عمر الإنسان أعز من الدنيا وما فيها وهو قصير ، فوجب أن يبدأ العبد بالأهم فالأهم ، ليكون الأعز فالأعز ، ولولا أن من شأن العبد الملل لما كان له أن يشتغل بغير الأعز فيه أبدا ، فلما ركبه الله تعالى على الملل جعل له رتبة أخرى مفضولة لينتقل إليها إذا مل ، فإذا مل منها كذلك ينتقل إلى المباح وهذا كله من رحمة الله بعباده :

وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، مع أن الثلث الأخير من الليل كان يصرفه فى التهجد دائما ، فلولا أن العبد يمل من الاشتغال بالعلم لكان جعل الثلث الأخير كذلك للعلم .

وحاصل الأمر أن تقديم الكسب واجب مقدم على الاشتغال بالعلم وغيره بأى طريق كان الكسب حتى بالسؤال للناس بشرطه ، فإذا حصل الإنسان قوته اجتمع فكره :

وقد كان الإمام الشافعى رحمه الله يقول : لا تشاور من ليس فى بيته دقيق أى لأنه مشتت البال ، فعلم أن حياة الأبدان مقدمة على حياة الأرواح ، والقوت بالعلم لأن حياة الروح فرع عن حياة الجسم ، من حيث أنه محل لظهور أفعال التكليف ، وإقامة شعار الدين ، وهذا اللوم فى حق من يضيع من يعول مع اشتغاله بخير آخر فكيف بمن يضيعهم لاشتغاله باللهو واللعب ونحو ذلك :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى أبو داود والنسائى مرفوعا : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقوتُ » .

وفى رواية للنسائى « مَنْ يَعُولُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَهُ أَمْ ضَيَّعَهُ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسمى أولادنا وخدامنا بالأسماء التى نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أن الله تعالى يكرهها ، وإن وقع أننا سمينا أحدا بها غيرناها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا العهد يخل بالعمل به أكثر الناس ومانهى الشارع عنه إلا لإثم يترتب عليه، فمن أدبنا معه صلى الله عليه وسلم أن نجتنب مانهانا عنه سواء اطلعنا على علته أم لم نطلع إذ هو معصوم من أن يغش أمته :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقد روى أبو داود والنسائى : « أَقْبَحُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ حَرْبٌ وَمُرَّةُ » .

وروى مسلم وغيره عن جندب رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لاَ تُسَمِّ غُلاَمَكَ يَسَارًا وَلاَ رَبَاحًا وَلاَ نَجِيحًا وَلاَ أَفْلَحَ فَإِنَّكَ تَقُولُ أَثَمَّ هُوَ؟ فَيُقَالُ لاَ » .

وروى ابن ماجه عن جندب أيضا قال :

« نَهَانَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ أَنْ نُسَمِّيَ رَقِيقَنَا بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءَ أَفْلَحَ وَنَافِعٍ وَرُبَاحٍ وَيَسَارٍ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ تعالى رَجُلٌ يَتَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ » .

قال سفيان مثل شاهشاه، قال أحمد بن حنبل : سألت أباعمرو عن أخنع؟ فقال أوضع وأذل :

وفى رواية لمسلم : « أَغْيَظُ رَجُلٍ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ » .

« وَكَانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يُغَيِّرُ الِاسْمَ الْقَبِيحَ » .

فروى الترمذى وابن ماجه أن ابنة لعمر كان اسمها عاصية فسماها جميلة .

وروى الشيخان : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم غَيَّرَ اسْمَ بَرَّةَ وَسَمَّاهَا زَيْنَبَ » .

قال أبو داود : « وَغَيَّرَ صلى اللهُ عليهِ وسلم اسْمَ الْعَاصِي عَزِيزًا وَعَتَلَةَ وَشَيْطَانَ وَالحَاكِمُ وَحَرَابٌ وَعُبَابٌ وَجَبَّابٌ وَشِهَابٌ ، فَسَمَاهُ هِشَامًا ، وَسَمَّى حَرْبًا سِلْمًا ، وَسَمَّى الْمُضْجَعَ الْمُنْبَعِثَ ، وَأَرْضًا تُسَمَّى عَفْرَةَ فَسَماهَا خَضِرَةً ، وَشِعْبُ الضَّلَالَةِ فَسَمَاهُ شِعْبَ الْهُدَى وَبَنُو الزِّنْيَةِ سَمَّاهُمْ بَنِي الرَّشْدِ » .

قال أبو داود : وتركت أسانيدها اختصارا ، والله أعلم :

(خاتمة) ينبغى التحفظ من التسمى بأسماء الله تعالى إلا ماأطلقه الشارع على العبيد ، مثل لفظ : مؤمن ومتكبر وعليم وعدل وعلى وكريم وولى وجامع ووارث ونحو ذلك :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لاننكر انتسابنا إلى أبينا أوأمنا إذا رفع الله قدرنا فى الدنيا ولوكانا من أراذل الناس كفلاح وحجام وكناس ، أو ننفى كون أمنا أما لنا أو كون أبينا أبا لنا ونسكت عن انتسابنا إلى غيرهما ونحو ذلك ، وهذا العهد يخل بالعمل به كثير ممن يريد أن يترأس بين الناس الذين لايعرفون أصله من القضاة والمباشرين والتجار ، بل رأيت قاضيا جاءته أمه من بلادالريف فدخلت عليه فسلم عليها سلام الأجانب خوفا من زوجته المصرية أن تعايره بأمه ، وصاريقول غدوا الفلاحة عشوا الفلاحة ، وقال لها ياعجوز إن قلتى أنا أم القاضى أخرجتك وما أخليك تدخلى لى بعد ذلك أبدا .

وكذلك رأيت شخصا آخر من طلبة العلم أنكر أباه لما جاءه من الريف وصار يقول بحضرة طلبته غدوا الفلاح وقال له ياشيخ النحس إن قلت أنا أبو فلان ماعدت أخليك تدخل لى أبدا ، فجاور عندى فى الزاوية نحو سنة حتى رجع إلى بلاده ، ولوأن أحدهذين الرجلين كسا والده أو أمه كسوة حسنة مماهو قادر عليه ثم أدخلها أو أدخله داره بعد ذلك لصارت أم القاضى أو أبا العالم حقيقة ولم يحصل له المعايرة بهما ، وهذا كله من غلبة الجهل والمقت من الله تعالى وإن كان يفتى ويدرس ، فالله تعالى يلطف بنا وبه آمين .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ » .

وفى رواية أخرى لهما : « وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً » أى لا فرضا ولا نفلا .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنِ ادَّعَى نَسَبًا لاَ يُعْرَفُ كَفَرَ بِاللهِ ، وَمَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ كَفَرَ بِاللهِ » .

ومعنى دق : صغر فى أعين الناس ، والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نضيف امرأة غيرنا إذا زارتنا بالأطعمة الفاخرة ، ولا نبش فى وجهها ولا نكلمها الكلام الحلو ، إلا إذا علمنا منها ثبات الود لزوجها التى هى فى عصمة نكاحه ، وهذا العهد يخل بالعمل به كثير من أكابر الناس فضلا عن غيرهم ، بل بلغنا أن شخصا ضيف زوجة صاحبه فقامت امرأته لبيت الخلاء فصار يقبلها ويعانقها ، فمالت نفسها إليه وكان شابا أجمل من زوجها فنشزت على زوجها حتى طلقها وأخذها ذلك القيم ، فالعاقل من لا يمكن عياله تزور أحدا إلا إن عرف منها الأمان من مثل ذلك :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ ، وَمَنْ خَبَّبَ عَلَى امْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَه فَلَيْسَ مِنَّا » ومعنى خبب : أفسد وخدع .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه :

« مَنْ خَبَّبَ عَبْدًا عَلَى أَهْلِهِ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَمَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً مِنْهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ صَنَعْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ

مَاصَنَعْتُ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ وَيَلْتَزِمُهُ » والله أعلم .

(خاتمة) إذا تعب شيطان الإنس أو الجن ولم يقدر إلى وصوله إلى إفساد امرأة الغير وسوس بذلك لعجوز الإنس ، فتدخل البيت وتظهر الزهد والصلاة إلى أن تجد فرصة ، فتفسد تلك المرأة على زوجها بنحو قولها : فلان من أجمل الناس ، وهو يحبك كثيرا وكاد أن يموت على القرب منك ، ويود أنه لو طلقك زوجك وأخذك ، وربما يرسل مع العجوز المآكل والملابس والذهب لها فتميل إليه ضرورة وتصير تكره زوجها بالطبع وتود مفارقته . بل حكى لى شيخى سيدى على الخواص رحمه الله أنه كان بجواره شخص من القضاة يحب زوجته وتحبه ولا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر ، فعجز إبليس عن أن يوقع بينهما فوسوس بعجوز من الإنس فدخلت بيت القاضى ومعها سبحة وسجادة ، وأظهرت الدين والصيام والطى فمكثت عندهم مدة وهى صائمة النهار قائمة الليل ، فمال القاضى وزوجته إليها أشد الميل ، وكان القاضى له شخص يعتقده من الصالحين ، فكان كل قليل يبيت عنده فجاءت تلك العجوز إلى زوجة القاضى ، وقالت لها قد صرت كابنتى وخيرك علىّ ويسوءنى مايسوءك ، وقد تزوج القاضى امرأة من ورائك فهو يبيت عندها هذه الأيام التى يغيب فيها وأنا مقصودى تأخذى السكين وتقطعى لى خصلة من لحيته ، مما يلى زوره حتى أعقد لك عليها عقدا يطلق لك المرأة ولا يعود يتزوج عليك أبدا ، وجاءت للقاضى من وراء زوجته وقالت له ياسيدى قد صار لك فضل علىّ ، والذى يسوءك يسوءنى وقد عزمت امرأتك على ذبحك فى هذه الليلة لتتزوج غيرك ، وإن شككت فى قولى فتناعس لها ونم وغمض عينيك وشخر وانظر ماذا تصنع ، فتناوم القاضى وهو ينظر نظرا خفيا لا تكاد زوجته تلحظ به فجاءت بالسكين وأدخلت يدها ترفع لحيته عن زوره ، وأدخلت السكين فزعق القاضى وأخذ المرزبة وضربها تحت أذنها فماتت ، فعلم بذلك أهلها فجاءوا وأخذوا القاضى للوالى فقتله فخرجت العجوز بسبحتها ، وهى تقول : سبحان الله سبحان الله ، فالعاقل من منع العجائز دخول بيته والسلام .

وقد دخلت بيتى مرة عجوز فكانت أم الأولاد تحسن إليها فدخلت مرة فسمعتها وهى تقول لها إيش حصلتى من وراء هذا الشيخ من الثياب والأساور والحلى ، فقالت لها ماحصلت شيئا ، فقالت قد دخلت على امرأة الشيخ التبنى فرأيتها حصلت من ورائه

دغادى ذهبا وثيابا حريرا وغير ذلك ، فقلت لها إيش ياعجوز فخرّجتها ومنعتها الدخول حتى ماتت ، فلو أن أم الأولاد كانت صالحة لفسدتها علىّ ومرادها بالشيخ التبنى شيخ الشيخ نور الدين الشونى فنسيت الشون وتذكرت التبن فاعلم ذلك والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمكن زوجتنا من خروجها للطريق متعطرة متزينة بما يميل النفوس الغوية إليها ، حفظا لدينها ودين من تمر عليه من إخواننا المسلمين ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من نساء العلماء والصالحين فضلا عن غيرهم ، فيغلب عليهم حكم الطبع النفسى ويستحيون من عيالهم أن يمنعوهن من ذلك ، ومعلوم أن الحياء الشرعىّ لايكون إلا فى ترك المذمومات ، وأما ترك المأمورات فإنما ذلك قلة دين .

وقد كان أخى أفضل الدين رحمه الله له أخت من أجمل النساء ، وكانت إذا خرجت للطريق تلبس الثياب المخرقة الوسخة وتنزع ثيابها الفاخرة المعطرة حتى ترجع إلى بيتها ، وكانت تدخل بيوت الأكابر بتلك الثياب ولا تستحى منهن ، وتقدم مصلحة دينها على حكم الطبع رضى الله عنها .

فاعلم ياأخى ذلك وأمر به عيالك والله يتولى هداك .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما مرفوعا :

« كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا » يعنى زانية .

وفى رواية لابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما مرفوعا :

« أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ » .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه مرفوعا بإسناد متصل :

« لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنِ امْرَأَةٍ صَلاَةً خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرِيحُهَا يَعْصِفُ حَتَّى تَرْجِعَ فَتَغْتَسِلَ » .

وبوب عليه ابن خزيمة باب إيجاب الغسل على المطيبة للخروج للمسجد ونفى قبول صلاتها إن صلت قبل أن تغتسل .

وروى أبو داود والنسائى مرفوعا : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بُخُورًا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الأَخِيرَةَ » .

وروى ابن خزيمة مرفوعا: « يَاأَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمَسْجِدِ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمُ الزِّينَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي الْمَسَاجِدِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نفشى سر الصاحب ولا لزوجة ولا لأحد من المسلمين إلا لعذر شرعى .

واعلم ياأخى أنه لا يشترط فى كونه سرا أن يوصينا صاحبنا على عدم إفشائه ، بل يكون سرا بالقرائن كما إذا كان يحدثنا ويلتفت يمينا وشمالا ، فنعلم بالقرائن أنه يريد منا الكتمان ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من غالب الناس حتى صار لا يسلم من خيانته إلا القليل وذلك لكثرة انحلال القلوب وعدم ارتباطها ببعضها بعضا ، فمن أفشى سره وطلب من الناس كتمانه فهو أحمق ، وقد أنشد الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

إِذَا الْمَرْءُ أَفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ ... وَلاَمَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَهُوَ أَحْمَقُ
إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الَّذِى أَوْدَعْتَهُ السِّرَّ أَضْيَقُ

واعلم أن غالب الفقراء يغلب عليهم السذاجة ، فإياك أن تعطى الفقراء سرا حتى تمتحنهم غاية الامتحان فإنهم غافلون عما الناس فيه من العداوة والبغضاء والحسد ، ولا يخلو من تودعه سرك من أحد رجلين : إما ساذج كما ذكرنا وإما شيطان وكلاهما لايؤمن على سر .

وفى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه : من كتم سره كانت الخيرة فى يده .

وقال : من نم لك نم عليك ، ومن نقل إليك نقل عنك .

فانظر ياأخى من تودعه سرك ، فإن رأيته ينقل عن الناس ما يسمعه منهم فاعلم أنه لا يكتم لك سرا وأنشد :

أُحِبُّ مِنَ الإِخْوَانِ كُلَّ مُوَاتِي ... وَكُلَّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عَنْ عَثَرَاتِي
يُسَاهِمُنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ أَرُومُهُ ... وَيَحْفَظُنِي حَيًّا وَبَعْدَ مَمَاتِي
فَمَنْ لِي بِهٰذَا لَيْتَ كُنْتُ أَصَبْتُهُ ... فَقَاسَمْتُهُ مَا لِي مَعَ الْحَسَنَاتِي

وأنشد أيضا :

خَبَرْتُ الدَّهْرَ مُلْتَمِسًا بِجُهْدِى أَخَا ثِقَةٍ فَأَكْدَاهُ التِّمَاسِى
تَكَدَّرَتِ الْبِلَادُ عَلَىَّ حَتَّى كَأَنَّ أُنَاسَهَا لَيْسُوا أُنَاسِى

فعلم أن من كتم الأسرار مايتعلق بعزل الولاة وأضرابهم ، فإياك أن يطلعك الله تعالى على شيء من أحوالهم ومن أحوال السلطان الأعظم فتخبر به الناس ، بل اصبر واكتم ذلك حتى يقع فى الوجود ويشهده الخاص والعام .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه يقول : إياكم وإطلاعكم الناس على ما كشف لكم من أحوال الخلق ، فإن المفشى لذلك حكمه حكم الجالس فى بيت الخلاء، مكشوف العورة مفتوح الباب ، فكل من مرعليه من العقلاء يلعنه لكشفه عورته ، وهتكه سريرته وتعريضه نفسه للقتل بذلك .

وقد قال رجل من أهل الكشف مرة لرجل من الناس : رأيت فلانا مع امرأتك ، فجاء ذلك المتهوم وقتل الشيخ الذى أخبر بالزنا .

وقد أنشدنى شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى نفعنا الله ببركاته :

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَيَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ فِى الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

فاكتم ياأخى السر المتعلق بك وبالمسلمين والله يتولى هداك .

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الرَّجُلُ يُفْضِى إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِى إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَنْشُرُ أَحَدُهُمَا سِرَّ صَاحِبِهِ » .

وروى الإمام أحمد عَنْ أسماء « أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قُعُودٌ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : لَعَلَّ رَجُلاً يُخْبِرُ بِمَا فَعَلَ بِأَهْلِهِ ، وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَأَرَمَّ الْقَوْمُ ، فَقُلْتُ : وَاللهِ يا رسولَ اللهِ إِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ ،

وَإِنَّهُن لَيَفْعَلْنَ ، فقَالَ : لَا تَفعَلُوا فَإِنَّمَا مَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ لقِيَ شَيْطَانَةً فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنظُرُونَ » .

ومعنى أرم القوم : أى سكتوا ، وقيل سكتوا من خوف ونحوه .

وفى رواية للبزار مرفوعا : « أَلَا عَسَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَخْلُوَ بِأَهْلِهِ يُغلِقُ بَابًا ثُمَّ يُرْخِي سِتْرًا ثُمَّ يَقْضِي حَاجَتَهُ ثُمَّ إِذَا خَرَجَ حَدَّثَ أَصْحَابَهُ بِذٰلِكَ ، أَلَا عَسَى إِحْدَاكُنَّ أَنْ تُغلِقَ بَابَهَا وَتُرْخِي سِتْرَهَا ، فَإِذَا قَضَتْ حَاجَتَهَا حَدَّثَتْ صَوَاحِبَهَا . فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُنَّ لَيَفعَلْنَ وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ . قَالَ : فَلَا تَفعَلُوا فَإِنَّمَا مَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنهَا ثُمَّ انصَرَفَ وَتَرَكَهَا » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « السِّبَاعُ حَرَامٌ » .

قال ابن لهيعة : يعنى به الرجل الذى يفتخر بالجماع .

وروى أبوداود مرفوعا: « المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إلاّ ثَلَاثُ مَجَالِسَ : سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ ، أَوْ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « إِذَا حَدَّثَ رَجُلٌ رَجُلاً بِحَدِيثٍ ثُمَّ التَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانطول ذيل قميصنا ولا قنان سراويلنا ، ولا نرخى إزارنا ولاغير ذلك من ملبوسنا إلا على حد ماورد فى السنة من حيث أن ذلك من شعار الخيلاء المتكبرين والله لايحب المتكبرين . ويتعين فعل السنة والوقوف عندها على كل من علم من نفسه أن الناس يقتدون به ببادى الرأى ولا يسألونه هل ذلك سنة أم لا ، وكذلك القول فى كل فعل وقول . وأما من لايقتدى به فالأمر فى حقه أخف ، ثم لايخفى أن محل الأمر بتطويل القميص وما عطف عليه إلى حد السنة ماإذا وجد ثمنه من مال حلال لاشبهة فيه ، فإن لم يوجد بدأنا بما يستر العورة ثم زدنا على قدر مانجد من الثمن الحلال إلى حد السنة لما تقدم فى حديث الإمام أحمد فى عهد من صلى فى ثوب ثمنه عشرة دراهم وفيه درهم واحد من حرام من أن صلاته لاتقبل، فينبغى لكل

متدين أن يراعى الحل فى ملبوسه لاسيا حال الوقوف بين يدى الله عز وجل فى الصلاة وغيرها :

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : من الأدب فى هذا الزمان للعبد أن لا يأكل طعاما إلا ويستغفر الله منه ولا يلبس شيئا إلا ويستغفر الله منه لغلبة الشبهات وقلة من يتورع من الناس، فأى تاجر يقف عليه قاض يأخذ الرشا أومكاس أو ظالم يشترى منه قماشا فيرده ويقول دراهمك شبهات ، وأى عابد فى هذا الزمان يأتيه الآن شىء من هؤلاء فيرده ويقنع بالخبز اليابس الحاف فهذا أمر قد تودع منه مابقيت الدنيا .

وقد كان سيدى على الخواص يضفر الخوص مزدوجا من غير تشقير ويحطه فى الندا دون رشه بالماء طلبا للقوة والنفع ، فكانت القفة تمكث عند صاحبها السنتين والثلاث زيادة على قفف الناس ويقول فى نفسى شىء من أكلى من هذا الكسب لأنى بتقدير نصحى فى صنعتى أبيع على من ؟ فان غالب الناس اليوم متهورون فى مكاسبهم، وإذا بعت على من لايرد فلوس مكاس فكأنى بعت على المكاس ، وكان ملبسه رضى الله عنه جبة صوف ونحو سبعة أذرع عمامة فكان كل سنة يجدد الجبة ويتصدق بالخلق . وكان يغسل عمامته كل سنة مرة بملح من غير صابون ، وكذلك الجبة تخفيفا للمؤنة لقلة الحلال المشاكل لمقامه .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى شيخ يربيه حتى يخرجه من رعونات النفس بحيث لايبقى عنده التفات إلى شىء ، فإنه من الشبهات بل يفرح بفواتها وهناك يصلح له التقلل من الملابس والمطاعم وربما لبس الفقير جبة خشنة وأكل طعاما خشنا وعنده من الرعونات والكبر ماليس عند الظلمة ، ولو كان له شيخ يربيه لنبهه على ذلك وأخرجه من العلل فى أعماله :

(وَاللهُ غَفورٌ رحيمٌ).

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وحسنه الترمذى وصححه الحاكم :

« كانَ أَحَبَّ الثِّيابِ إلَى رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ الْقَميصُ » .

وروى البخارى والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِى النَّارِ » .

وروى أبوداود عن ابن عمر قال: ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإزار فهو فى القميص .

وروى مالك وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أُزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُوَ فى النَّارِ ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « لَا خَيْرَ فى أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ » يعنى فى الإزار .

وفى رواية له عن ابن عمر قال : « دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عليهِ وسلمَ وَعَلَيَّ إِزَارٌ يَتَقَعْقَعُ فَقَالَ مَنْ هٰذَا ؟ فَقُلْتُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَر فَارْفَعْ إِزَارَكَ فَرَفَعْتُ إِزَارِى إِلَى نِصْفِ السَّاقَيْنِ » .

قال زيد بن أسلم : فلم تزل أزرته حتى مات .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ » .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم مرفوعا :

« الْإِسْبَالَ فى الْإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ ، مَنْ جَرَّ شَيْئًا خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والخيلاء : بالمد وضم الخاء وكسرها وفتح الياء هو الكبر والعجب :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ لَا يُرِيدُ بِهِ إِلاَّ الْمَخِيلَةَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمخيلة : بفتح الميم وكسر المعجمة من الاختيال ، وهو الكبر واحتقار الناس :

وفى رواية للشيخين : « أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ إِزَارِى يَسْتَرْخِى

إلاّ أنْ أتعاهَدَهُ ، فقَالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وَسلمَ : إنكَ لَسْتَ مِمّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلاءَ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وغيرهما مرفوعا : « مَنْ وَطِئَ إزَارَهُ خُيَلاءَ يُوطِئُهُ فى النَّارِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ جَرّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنظُرِ اللهُ إلَيْهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَإنْ كانَ عَلَى اللهِ كَرِيمًا » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « مَنْ أسْبَلَ إزَارَهُ فى صَلاتِهِ خُيَلاءَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى حِلّ وَلا حَرَامٍ ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَقْبَلُ صَلاةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ إزَارَهُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانكسو عيالنا من الثياب التى تصف البشرة ولا نقرها أن تشترى لنفسها ذلك مبالغة فى سترها عن عيون الأجانب ، الذين يدخلون الدار من الرجال الأجانب والنساء ، فربما نظرت الأجانب إلى فرج المرأة من تحت الثياب الرقيقة كما تنظره من تحت الزجاج الصافى ، وما أمرنا الله تعالى إلا بما لاترى البشرة من تحته ، فينبغى للزوج إذا رأى زوجته تحب لبس ذلك أن يمد لها بساطا فى فضل ستر المرأة بدنها عن العيون لاسيما العورة ، ويبين لها أنه لاينبغى لها النظر إلى عورة نفسها ولو فى خلوة إلا لحاجة ، لكن غالب النساء يجهل ماذكرنا ثم بعد ذلك يأمرها بعدم لبس الرقيق ولعلها لاتخالف زوجها .

(وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا : « يَكُونُ فى آخِرِ أُمّتِي رِجَالٌ نِسَاؤُهُمْ كاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ كأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإنَّهُنَّ الْمَلْعُونَاتُ ، لَوْ كانَ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ خَدَمَتْهُمْ نِسَاؤُكُمْ كما خَدَمَتْكُمْ نِساءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ » .

وفى رواية لمسلم وغيره مرفوعا : « صِنْفَانِ مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ

سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لَايَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا كَذَا » .

وروى أبو داود وقال مرسل حسن : « أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَقَالَ : يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلاَّ هٰذَا وَهٰذَا وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقر أحدا من الظلمة والمباشرين وغيرهم من المتهورين فى دينهم على لبس الحرير والجلوس عليه ، ولا على التحلى بالذهب .

ويحتاج من يزيل منكرات مثل هؤلاء إلى سياسة تامة وزهد تام وعفة عما بأيديهم من سحت الدنيا، وأما من لاسياسة عنده ولا زهد ولا عفة فلو نهاهم وأنكر عليهم لايصغون إلى إنكاره بل يزدرونه ويضحكون عليه ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من غالب الناس فيسكتون عن الإنكار على لبس الظلمة الحرير ، أو ينكرون عليهم مع طمعهم فيما بأيديهم وقبولهم هداياهم وترددهم إليهم لأجل ذلك ، أوينكرون عليهم بلا سياسة من غير أن يتجسسوا عليهم هل يردون إنكارهم عليهم أو يعملون به ، فينبغى جس المخاضة أولا ، فإذا لم ير علامات القبول عرّض له بالانكار ثم يتمهل حتى تخمد نفس ذلك الظالم ثم يأمره برفق وسياسة .

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِى الآخِرَةِ » .

وفى رواية للشيخين : « إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَاخَلَاقَ لَهُ » .

وروى أبو داود والنسائى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَخَذَ حَرِيرًا

فَجَعَلَهُ فِى يَمِينِهِ ، وَذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِى شِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هٰذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِى الدُّنْيَا حُرِمَهُ أَنْ يَلْبَسَهُ فِى الآخِرَةِ » .

وروى البزار والطبرانى عن معاذ قال : « رَأَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ جُبَّةً مُجَيَّبَةً بِحَرِيرٍ فَقَالَ طَوْقٌ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقوله مجيبة : أى لها جيب ، وهو الطوق .

وروى الإمام أحمد والطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي وَهُوَ يَتَحَلَّى بِالذَّهَبِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ لُبْسَهُ فِى الْجَنَّةِ » .

وروى مسلم : « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ وَطَرَحَهُ ، وَقَالَ : يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَطْرَحُهَا فِى يَدِهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقر أحدا من أهل السخرياء يتشبه بالنساء ولا نحضر له مجلسا إلا إن كان يسمع لنا فى ترك ذلك ، وكذلك لا نقر أحدا من إخواننا يرسل وراء المخبطين فى عرس أو ختان أو غيرهما ، لأنهم لا ينضبطون على الأمور المباحة ، وإنما يتعدون الحدود لأجل إضحاك الناس ، ومن ذلك إلباس المغنين للعروسة لباس الرجال من جندى وقاض وغيرهما كل ذلك حرام لا يفعله فى داره من له مروءة أهل الإيمان مع أن الزمان صار لا يناسبه السخرياء لتراكم الهموم على الأكابر والأصاغر ، ومن خالف وحضر مجالس المخبطين وخلبوص المغانى وضحك فلابد له من حصول نكد عقب ذلك ، ومن شك فليجرب .

وقد قال لى رئيس المخبطين إن لى كذا وكذا سنة أتكلف إضحاك الناس ويضحكون تكلفا كذلك ثم بعد مدة رأيته بهيئة غير تلك الهيئة ، فقلت له ماشأنك ؟ فقال تركت

تلك الحرفة لكثرة ما الناس فيه من الكرب في مصر وقراها ، ثم نظم لي أبياتا على البديهة منها :

لَهفِي عَلَى مِصْرَ كَانَتْ فِي عِزٍّ ذَلَّتْ وَهَانَتْ
وَعَنْ بَقَاهَا تَفَانَتْ وَكَانَ لَهَا ذِكْرٌ يُذْكَرْ
أَيْنَ الفَرَحْ وَالمَكَاسِبْ وَأَيْنَ عَزْمُ الأَرْبَعْ مَذَاهِبْ
وَأَيْنَ كُلُّ مَطْلَبْ وَطَالِبْ وَأَيْنَ مَنْ طَالَ وَقَصَّرْ
أَيْنَ المَخَادِيمُ وَالأَرْزَاقُ وَأَيْنَ التَّخَاوِيضْ بِبُولَاقْ
وَأَيْنَ الزَّمَانُ الَّذِي رَاقْ وَبَعْدَ حُلْوِ تَمَرَّرْ
زَادَتْ عَلَى الخَلْقِ أَهْوَالُ وَخُلْفُ نِيَّاتٍ وَأَقْوَالُ
حَتَّى بَقَى الكَرْبُ رِسْمَالُ لِكُلِّ مُعْسِرٍ وَمُوسِرْ
أَحْوَالُ ذِي الخَلْقِ هَاجَتْ وَمَرْكَبُ الكَرْبِ مَاجَتْ
فَغَرَّقَتْنَا وَمَاجَتْ وَمَا بِتَرْسِي عَلَى بَرّ
هٰذَا زَمَانُ العَجَائِبْ وَهٰذَا الكَثِيرُ المَصَائِبْ
مَنْ يَتْرُكِ الطِّفْلِ شَائِبْ مِثْلَ الحَزِينِ الفَقِيرْ
هٰذَا الزَّمَانُ الَّذِي جَارْ وَحَقَّرَ الشَّيْخَ وَالأَحْرَارْ
فِيهِ عَقْلِي حَارْ ذِهْنِي وَفِكْرِي تَحَيَّرْ

إلى آخر ما قال (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وأبو داود وغيرهما : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لَعَنَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَلَعَنَ المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » .

يعني في لباس أو كلام أو حركة ونحو ذلك .

وروى الطبراني وابن ماجه : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَى امْرَأَةً مُتَقَلِّدَةً قَوْسًا فَقَالَ : لَعَنَ اللهُ المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » .

وفى رواية للبخارى : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ » .

والمخنث بفتح النون وكسرها : من فيه انخناث وهو التكسر والتثنى كما يفعله النساء ، كالذى يفعل الفاحشة الكبرى .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرها :

« لَعَنَ رَسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ ، وَالْمَرْأَةُ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ » .

وروى أبو داود : « أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلم أُتِىَ بِرَجُلٍ قَدْ خَضَبَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ بِالْحِنَّاءِ ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : مَا بَالُ هٰذَا ؟ قَالُوا تَشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ، فَأَمِرَ بِهِ فَنُفِىَ إلى الْبَقِيعِ ، فَقِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ أَلاَ نَقْتُلُه ؟ قَالَ : إِنِّى نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ » والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نلبس لباس شهرة ولا لباس فخر ولا مباهاة ، كأن نلبس المرقعات الملونة من رقع خضر وصفر وحمر وسود ونحو ذلك ، كما يفعله الفقراء الأحمدية والقادرية ونحوهما ، أو نلبس بشتا من ليف وخوص أو حلفاء أو جلودا منزوعة الشعر أو طرطور جلد أو خوص مكشوفا بغير عمامة أو شملة حمراء أو خضراء أو نحوهما ، أو نلبس طيلسانا رقيقا أوجبة نقية البياض جدا ونحو ذلك إلا بنية صحيحة شرعية .

وقد كان الأشياخ فى العصر المتقدم لايلبسون الرقعة إلامن قلة الحلال ، فكانوا إذا تقطع لهم ثوب أو رداء يرقعونه بحسب مايجدونه من الحلال ولا يلتزمون لونا خاصا ، فكانت ثيابهم على طول تصير ملونات من غير قصد بخلاف من يأخذ الرقع من حلال وحرام أو يأخذ الخرقة الكبيرة فيقطعها على قدر هوى نفسه من غير تخرق تحتها ونحو ذلك ، فإن ذلك معدود من رعونات النفوس .

واعلم أن الأشياخ فى الزمن المتقدم كانوا يعرفون نفاسة الطريق ، وكانوا لايأذنون للمريد فى لبس الجبة من الصوف إلا بعد فراغه من تهذيب نفسه ورياضتها ، ثم إن الشيخ

بجمع الفقراء الموجودين فى العصر ويقرءون الفاتحة ويدعون له ثم يلبسه الجبة بحضرتهم ، فكانوا ينكرون على كل من لبس الصوف قبل خمود نار بشريته ويأمرونه بالنزع لرد ذلك .

وكان سيدى أحمد بن الرفاعى إذا رأى على فقير جبة صوف وهو محتاج إلى رياضة الأخلاق يقول له اخلع ياولدى هذا اللباس وجاهد نفسك حتى تخمد نارها بحيث لو لطخ أحد وجهك بالعذرة بحضرة الناس ، ولطخ ثيابك لاتتأثر . ورأى مرة شخصا عليه سيما الصالحين لابسا صوفا فقال ياولدى إنما تزينت بزى الصالحين وتحليت بحلية المتقين ، فإن لم تسلك طريقهم وإلا فانزع لباسهم . وكان يمنع أصحابه من إرخاء العذبة ويقول لاترخوا العذبة حتى تخمد نيران نفوسكم ، فإن من أرخاها بنية التمشيخ فهو حرام .

فاعمل ياأخى على تحصيل الأخلاق الباطنة حتى يشهد لك شيخك بالكمال أولا ، ثم البس الصوف ليشاكل ظاهرك باطنك وإن لم يوافق باطنك ظاهرك فالبس لبس العوام من آحاد الناس .

وقد رأيت جماعة يلبسون الصوف ويأخذون فى أيديهم السبحة وألسنتهم كالعقارب وأفواههم كأفواه التماسيح وبطونهم كالسفن ثم بعد ذلك يدعون الطريق فإياك وإياهم ، بل رأيت من عمل منهم مكاسا وهذا كله لاينبغى لأحد من أهل الطريق أن يقر عليه إلا من كان من أهله ، وقد أدركنا طريق الفقراء ولها حرمة عند الناس وعلى أصحابها الخير والهيبة ، فرفع الله تعالى ذلك بموت شيخنا سيدى على المرصفى بمصر رضى الله عنه ، وموت سيدى على الخواص ، وموت سيدى محمد الشناوى رضى الله عنهم ، فما رأيت أشد تعظيما لأولاد الفقراء من هؤلاء الثلاثة .

وقد حكى سيدى محمد الشناوى أن سيدى الشيخ عبد الرحيم القناوى قام لكلب مر عليه فلامه بعض الناس فقال إنما قمت لزى الفقراء الذى فى عنقه ، فرأوا فى عنق الكلب شرموطا من جبة فقير ، فاعلم ذلك ولا تلبس لباس شهرة ، والله يتولى هداك .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَلْبَسُ ثَوْبًا لِيُبَاهِيَ بِهِ فَيَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهِ إِلاَّ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ حَتَّى يَنْزِعَهُ مَتَى نَزَعَهُ » .

وروى الإمام أحمد : عَنْ ضمرة بن ثعلبة « أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلمَ

وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ ، فَقَالَ : يَا ضَمْرَةُ أَتَرَى ثَوْبَيْكَ مُدْخِلَيْكَ الْجَنَّةَ ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَئِنِ اسْتَغْفَرْتَ لِي لاَ أَقْعُدُ حَتَّى أَنْزِعَهُمَا عَنِّى ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِضَمْرَةَ ، فَانْطَلَقَ سَرِيعًا حَتَّى نَزَعَهُمَا عَنْهُ » .

وروى بن أبى الدنيا مرفوعا : « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فى الْكَلاَمِ » .

زاد فى رواية الطبرانى : « وَيَشْرَبُونَ أَلْوَانَ الشَّرَابِ » .

وروى رزين مرفوعا : « مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أُلْهِبَ فِيهِ » .

وفى رواية أخرى : « مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فى الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أُلْهِبَ فِيهِ نَارٌ » .

وفى رواية أخرى : « مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى يَضَعَهُ مَتَى وَضَعَهُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقر أحدا من النساء على وصل شعرها أو وشم بدنها أو تحفيف وجهها ، يعنى أخذ شعره أو تفليج أسنانها بالمبرد ونحوه ، ويتعين إشاعة النهى عن ذلك بين النساء ، فإن أكثرهن جاهل بتحريم ذلك ، كما يجهلن تحريم تثقيب الآذان والأنف ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

فإن لم يعلم الرجل زوجته وإلا فمن يعلمها ، وقد كثرت خيانة هذا العهد من قراء القرآن وطلبة العلم ، فينظر أحدهم زوجته وهى تصبح وتمسى وهى جنب ولا يأمرها ولا ينهاها ، وينظرها تترك الصلاة فلا ينهاها ، وينظرها تأخذ شعر خدودها فلا ينهاها ، وربما كانت قابلة للتعليم والتفقه فى دينها فلا يتعب خاطره فيها ، ويحوجها إلى أن تخرج إلى الوعاظ فى المساجد ، وتتعرض لعدة من المفاسد بسبب خروجها وخلطتها بمن لايصلح ، فالعاقل من أغنى زوجته عن الخروج إلى غيره إلا إن كان عاميا والسلام ، فيجب عليه

تعلم الحلال والحرام أولا ، ثم يعلم عياله : ولما رأى سيدى أحمد الزاهد هذا الأمر قد فشا فى النساء مع ترك بعولتهن تعليمهن لأحكام الدين كان رضى الله عنه يجمع النساء فى المسجد ويعلمهن أحكام دينهن ولا يمكن أحدا من الرجال يدخل عليهن رضى الله عنه :

وروى مسلم وابن ماجه : « أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ ابْنَتِي أَصَابَتْهَا الحَصْبَةُ فَتَمَزَّقَ شَعْرُهَا وَإِنِّي زَوَّجْتُهَا أَفَأَصِلُ فِي شَعْرِهَا ؟ فَقَالَ : لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمَوْصُولَةَ » .

وفى رواية : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ » .

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ » .

زاد فى رواية أخرى للشيخين وغيرهما : « وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ » .

والواصلة : التى تصل الشعر بشعر النساء ، والمستوصلة المعمول بها ذلك ، والنامصة : التى تنقش الحاجب حتى ترقه هكذا ، قاله أبو داود . وقال الخطابى : هو من النمص وهو نتف الشعر من الوجه ، والواشمة : هى التى تغرز اليد والوجه بالإبر ثم تحشو ذلك المكان كحلا أو مدادا ، والمستوشمة المعمول بها ذلك ، والمتفلجة هى التى تفلج أسنانها بالمبرد ونحوه للتحسين :

وروى الشيخان : « أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : إِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ زِيَّ سُوءٍ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ نَهَى عَنِ الزُّورِ » .

وفى أخرى لهما : « أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَخْرَجَ كُبَّةً مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ : مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا يَفْعَلُهُ إِلاَّ الْيَهُودَ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم بَلَغَهُ فَسَمَّاهُ الزُّورَ » .

قال قتادة : والمراد به ما تكثر به المرأة شعرها من الخرق . قال وجاء رجل بعصا على رأسها خرقة فقال معاوية : ألا هذا الزور والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخضب لنا لحية

بالسواد ولانقر زوجتنا ولا غيرها على خضب رأسها بالسواد تقديما لغرض الشارع صلى الله عليه وسلم على غرضنا، إلا لغرض شرعى كالجهاد فى سبيل الله؛ فللمجاهد فعل ذلك، وله أن يقر عليه من يفعله من المجاهدين إرهابا للعدو، وسيأتى بسط ذلك فى عهود تزين المرأة لزوجها إن شاء الله تعالى:

وروى أبو داود والنسائى وابن خزيمة مرفوعا:

« سَيَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فى آخِرِ الزَّمَانِ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ لا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » .

وروى الديلمى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لا بأس للرجل أن يخضب لحيته للمرأة ولا بأس للمرأة أن تخضب لزوجها إنما هو زينة، والله تعالى أعلم:

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك التسمية على الطعام والشراب، ولا ندع أطفالنا يتركون ذلك، بل نتعاهدهم كل يوم بقولنا للطفل إذا جلس للأكل قل:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) حتى يصير ذلك عادة له لاينساها .

وفى القرآن العظيم:

(وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) .

والعبرة بعموم اللفظ عند المحققين لابخصوص السبب، فمن تهاون بتركها جره ذلك إلى كثرة انتهاك محارم الله تعالى:

وكان سيدى على الخواص رحمه الله لايأكل من عجين أو طبيخ لم يذكر العاجن أو الطابخ اسم الله تعالى عليه ويقول: كل مالم يذكر اسم الله عليه فكأنه عندى كالميتة .

وكان أخى أفضل الدين لايأكل لقمة واحدة حتى يقول دستور يا ألله: ونسى مرة ذلك فاستغفر الله سبعين مرة كفارة لذلك، وكان يقول لا أحب لأصحابى أن يأكلوا على غفلة كونهم بين يدى الله عز وجل ولكل مقام رجال:

(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عليه وسلم كانَ

يَأْكُلُ طَعَامًا فِى سِتَّةٍ مِنْ أَصحَابِهِ ، فَجَاءَ أَعْرَابِىٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم : أَمَا إِنَّهُ لَوْ سَمَّى لَكَفَاكُمْ » .

وروى أبو داود وابن ماجه زيادة وهى :

« فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَإِنْ نَسِىَ فِى أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ : بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ » زاد فى رواية : « فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذٰلِكَ قَاءَ الشَّيْطَانُ مَا فِى بَطْنِهِ » .

وروى مسلم مرفوعا : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ الَّذِى لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقر عيالنا وغيرهم على استعمال المكحلة الفضة ، أو المرود الفضة ، أو المعلقة أو الخلال الفضة فضلا عن الذهب لعموم الأحاديث الواردة فى ذلك ، لأن الآنية هى كل مانقل شيئا من محل إلى محل فافهم ، فإن المرود ينقل الكحل إلى العين فافهم ، وهذا العهد يخل بترك العمل به خلق كثير فيرون نساءهم وهم يكتحلون بما ذكر ولا ينهونهم عن ذلك ، كل ذلك لعدم غيرتهم على الشريعة المطهرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من الإيمان أن يعتنى العبد بما اعتنى به الشارع صلى الله عليه وسلم ولا يتهاون به ، والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الَّذِى يَشْرَبُ فِى آنِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِى بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » .

وفى رواية لمسلم : « إِنَّ الَّذِى يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فِى آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَكَأَنَّمَا يُجَرْجِرُ فِى بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » .

وفى أخرى لمسلم : « مَنْ شَرِبَ مِنْ إِنَاءِ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِى بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » .

وروى الحاكم وقال صحيح الاسناد مرفوعا :

« مَنْ شَرِبَ فِى آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَمْ يَشْرَبْ بِهَا فِى الآخِرَةِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانهمل أولادنا الصغار بتقريرهم على الأكل والشرب باليد الشمال مثلا ، أو بتقريرهم على النفخ في الإناء أو الشرب من فم السقاء أو من ثلمة القدح ونحو ذلك مما ورد فى آداب الأكل والشرب ، وهذا العهد يخل به غالب الناس فلا يلتفتون لأولادهم بتعليمهم الآداب الشرعية حتى يبلغوا الحلم وهم على ذلك كل ذلك لعدم غيرتهم على الشريعة المطهرة ، فلا يزال الناس ينقصون من العمل بآدابها حتى تصير مجهولة لعدم مشاهدة من يعمل بها :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « لاَ يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ وَلاَ يَشْرَبُ بِهَا ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا » .

زاد فى رواية لابن ماجه : « وَلاَ يَأْخُذُ بِهَا وَلاَ يُعْطِى بِهَا ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِى بِشِمَالِهِ وَيَأْخُذُ بِهَا » .

وروى الترمذى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَى عَنِ النَّفْخِ فى الْإِنَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : الْقَذَاةُ أَرَاهَا فى الْإِنَاءِ ؟ فَقَالَ أَهْرِقْهَا » .

وروى أبو داود وغيره : « أَنَّ النَّبِىَّ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَى عَنِ الشُّرْبِ مِنْ ثُلْمَةِ الْقَدَحِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَى أَنْ يَشْرَبَ الرَّجُلُ مِنْ فِى السِّقَاءِ » .

وروى الحاكم « أن شخصا شرب من فى السقاء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت له حية » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نمنع أصحابنا وأولادنا وعيالنا من الشبع ومن التوسع فى المآكل والمشارب شرها وبطرا ، وهذا العهد قد أخل بالعمل به غالب الناس ، وهذا دليل على قلة الورع فى الكسب ، لأن الإنسان لو تورع التورع المشروع لم يجد شيئا يشبع منه ولا وسع به على نفسه فضلا عن أن يوسع على غيره وفى الشبع من الحلال مفاسد كثيرة فكيف الشبع من الشبهات والحرام أقل ما فيها أن الإنسان

إذا أكل وشبع جاعت جوارحه فلا تشبع إلا إن وقعت فى المعاصى المشاكلة لذلك الأكل فى الحل والحرمة خفة وثقلا .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا كان الأكل حراما نشأ منه أعمال حرام ، وإذا كان خلاف الأولى نشأ منه ارتكاب خلاف الأولى ، ومن قال إن الأعمال تنشأ على غير مشاكلة الأكل فليس عنده تحقيق اهـ :

وكان إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول أطب مطعمك ولا عليك أن لاتصوم النهار ولا تقوم الليل :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى يقول : إياكم والأكل من الشبهات فإنها تؤثر فى قلب العبد ولو كان من أكابر الأولياء .

ومن مفاسد الأكل الكثير أيضا ثقل الأعضاء عن القيام بالطاعات فى الليل والنهار ، فعلم أن من نوّع الأطعمة فى بيته فى هذه الأيام وبالغ فى التوسعة على عياله فلا بد أن يندم عن قريب وتدور عليه الدوائر :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الْمُسْلِمُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فى سَبْعَةِ أَمْعَاء » .

وفى رواية للبخارى أن رجلا كان يأكل أكلا كثيرا فأسلم فكان يأكل أكلا قليلا فذكر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« إِنَّ الْمُسْلِمَ يَأْكُلُ فى مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرَ يَأْكُلُ فى سَبْعَةِ أَمْعَاء » .

وفى رواية لمسلم : « أَضَافَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ضَيْفًا كَافِرًا فَأَمَرَ لَهُ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ بِشَاةٍ فَحَلِبَتْ فَشَرِبَ حِلَابَهَا ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَ حِلَابَهَا حَتَّى شَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ ، فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِشَاةٍ فَشَرِبَ حِلَابَهَا ثُمَّ بِأُخْرَى فَلَمْ يُتِمَّهَا ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرَ يَشْرَبُ فى سَبْعَةِ أَمْعَاء » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ،فَحَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » .

وروى الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد :

« عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ : أَكَلْتُ مَرَّةً ثَرِيدَةً مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ فَجَعَلْتُ أَتَجَشَّى فَقَالَ : يَا هٰذَا كُفَّ مِنْ جُشَائِكَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

زاد فى رواية «فما أكل أبو جحيفة ملء بطنه حتى فارق الدنيا ،كان إذا تغدى لا يتعشى وإذا تعشى لا يتغدى » :

وفى رواية لابن أبى الدنيا « قال أبو جحيفة فما ملأت بطنى منذ ثلاثين سنة » :

وروى البخارى فى كتاب الضعفاء ، وابن أبى الدنيا عن عائشة قالت « أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها الشبع ، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم » :

وروى البيهقى : « أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ رَأَى عَائِشَةَ أَكَلَتْ فِى الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ : أَمَا تُحِبِّينَ أَنْ يَكُونَ لَكِ شُغْلٌ إِلَّا جَوْفَكِ ! الْأَكْلُ فِى الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ مِنَ الْإِسْرَافِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

وفى رواية : « يَا عَائِشَةُ اتَّخَذْتِ الدُّنْيَا بَطْنَكِ ، أَكْثَرُ مِنْ أَكْلَةٍ كُلَّ يَوْمٍ سَرَفٌ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِى بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى ورواته ثقات :

« أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ ، فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والله أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتخلف عن الإجابة إلى الولائم إلا بعذر شرعى ، ومتى تخلفنا ترفها وضخامة واحتقارا للداعى فقد عصينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا العهد يخل بخيانته كثير من الفقراء والمتنفسين الذين يضخمون نفوسهم بغير حق لاسيما إذا صار الناس يمدحون أحدهم بقولهم فلان على طريقة عظيمة لايتردد إلى أحد ولايحضر وليمة ولا عقد نكاح ولا جمعية أبدا :

وقد قالوا المؤمن يتقلب فى اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة ، والمنافق يمكث على حالة واحدة أكثر من سبعين سنة وذلك أنه يخاف أن يغير سيطه بذلك الأمر الذى مدح لأجله ، بخلاف المؤمن فإنه دائما دائر مع الفضائل ، فتى رأى أمرا أفضل مما هو فيه يترك ماهو فيه :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح ليخرجه من دركات الرياء والنفاق إلى درجات الصدق والإخلاص وعدم مراعاة الخلق فى ذمهم ومدحهم إلا على وجه التفكر والاعتبار ، لحديث :

« أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فى الأَرْضِ ، فَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَهُوَ شَرٌّ » .

فالعاقل يأخذ عنوان مايقع له يوم القيامة من أفواه الناس من غير اعتماد عليهم وعلى قولهم ، قال تعالى :

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت أن تعرف مراتب الأعمال وما هو أحق بالتقديم منها على غيره ، والله يتولى هداك :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « شَرُّ الطعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الأغْنِيَاءُ وَتُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ سَارِقًا وَخَرَجَ مُغِيرًا » وفى سنده راو ضعيف .

وروى مسلم مرفوعا : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْهُ عُرْسًا كَانَ أَوْ نَحْوَهُ » .

وفى رواية له : « إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيُجِبْ ، فَإِنْ شَاءَ طَعِمَ ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ ، فذكر مِنْهَا إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ » الحديث .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « سِتُّ خِصَالٍ وَاجِبَةٌ لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، مَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُنَّ فَقَدْ تَرَكَ حَقًّا وَاجِبًا فَذَكَرَ مِنْهَا : يُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ » .

واعلم أن من العذر الشرعى لنا فى عدم الإجابة وجود منكر هناك لايزول بحضورنا ، ومن عذرنا فى ترك الأكل وجود شبهة فى الطعام أو عدم صلاح النية فى عمله .

وقد روى أبو داود : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَى عَنْ طَعَامِ الْمُتَبَارِيَيْنِ أَنْ يُؤْكَلَ » .

والمتباريان : هما المتفاخران بالطعام والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى شيئا يؤذى الملائكة الكرام الكاتبين ويقرب منا الشيطان ، وهذا العهد لايقوم به إلا من نوّر الله تعالى قلبه ولطف حجابه حتى يصير مؤمنا بحضور الملائكة وإن لم يرهم . وقد بالغ أخى أفضل الدين رحمه الله فى الأدب مع الملائكة الكرام الكاتبين فكانوا يكلمونه ويكلمهم لكن لايراهم فإنه لايجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه إلا الأنبياء فقط ، أما غيرهم فإن وقع أنه رأى ملكا لايكلمه الملك ، وإن كلمه لايرى شخصه .

وقد كان ثابت البنانى رضى الله عنه يتحادث كثيرا مع الملكين الكاتبين ويسلم عليهم صباحا ومساء فيقول لملائكة النهار أو ملائكة الليل إذا نزلوا السلام على الملكين الكريمين الكاتبين الحافظين اكتبا :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأشهد أن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الصراط حق ، وأن الميزان حق :

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهاَ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فى الْقُبُورِ) .

اللهم إنى وهذا اليوم أو هذه الليلة خلقان من خلقك فلا تبتلنى فيه أو فيها إلا بالتى هى أحسن ، ولا تزين لى فيه أو فيها جراءة على محارمك ولا ارتكابا لمعصيتك ، ولا استخفافا بحقماافترضته علىّ ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها :

(إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

اللهم إنى أعوذبك فى هذا اليوم من الزيغ والزلل ، ومن البلاء والبلوى ، ومن شر شماتة الأعداء ، ومن الظلم ومن دعوة المظلوم ، ومن شر كتاب قد سبق : اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همى ولامبلغ علمى ولامصيبتى فى دينى ولا تسلط علىّ بذنوبى من لايرحمنى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم اه :

وقد تقدم فى الحديث أن الملائكة تتأذى بما يتأذى به بنو آدم ، ومما يتأذى منه بنو آدم رؤيتهم العورات وشمهم القاذورات فلاينبغى لمؤمن أن يكشف عورته خاليا حياء من الله ومن الملائكة .

وقد كان أبو يزيد البسطامى إذا أراد أن يدخل الخلاء يبسط رداءه ويقول للملكين اجلسا أكرمكم الله حتى أقضى حاجتى .

وكان الإمام البخارى يقلل أكله حتى انتهى إلى الاكتفاء فى اليوم بثمرة أو لوزة ، فقيل له فى ذلك فقال حياء من الملكين حتى لايكثر ترددى إلى الخلاء ويشمون من أجلى الرائحة الكريهة ، وكذلك أدركت سيدى محمد بن عنان وسيدى تاج الدين الذاكر يفعلان ذلك :

وأخبرنى الشيخ عبد الباسط خادم الشيخ تاج الدين أنه قلل الأكل حتى صار يدخل الخلاء كل أسبوع مرة وجميع وضوئه فى الأسبوع لكل صلاة كان تجديدا لاعن حدث ، فرحمة الله على أهل الأدب .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ نَامَ وَفِى يَدِهِ غَمْرٌ وَلَمْ يَغْسِلْهُ فَأَصَابَهُ شَىْءٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ » والغمر: هو ريح اللحم وزهومته .

وروى الترمذى والحاكم مرفوعا : « إنَّ الشَّيْطَانَ حَسَّاسٌ لَحَّاسٌ فَاحْذَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَنْ بَاتَ وَفِى يَدِهِ رِيحُ غَمْرٍ فَأَصَابَهُ شَىْءٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ » .

وفى رواية للطبرانى باسناد حسن : « مَنْ بَاتَ وَفِى يَدِهِ رِيحٌ فَأَصَابَهُ وَضَحٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ » والوضح : المراد به هنا البرص .

وروى الديلمى مرفوعا : « لاَ تُبَيِّتُوا الْقُمَامَاتِ فِى بُيُوتِكُمْ فَإِنَّهَا مَبِيتُ الشَّيْطَانِ » .

وفى رواية : « فَلاَ تُبَيِّتُوا مِنْدِيلَ الْغَمْرِ فِى بُيُوتِكُمْ فَإِنَّهُ مَبِيتُ الشَّيْطَانِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانشير على أحد من الناس أن يتولى ولاية فى هذا الزمان لقصور نظرنا عمن يستحق تلك الولاية ، سواء كان المستشير ظالما أو قاضيا أو ناظرا على وقف ونحو ذلك ، فإن البلاء قد كثر على أهل تلك الوظائف ، فإذا أصابهم بلاء لايطيقونه يصيرون يدعون على من أشار عليهم بذلك .

فعلم أنه ينبغى لكل من عمل شيخا فى هذا الزمان أن يقول لمن يستشيره فى ولاية استخر ربك واعمل بما ينشرح به صدرك .

واعلم ياأخى أن من الأدب أن لاتشفع قط عند ظالم أن يولى فلانا من تحت يده فى الظلم وشفاعتك له عدم الشفاعة ، وإذا كان لاينبغى لعاقل أن يشفع فى أحد أن يتولى القضاء فكيف بالمكاسين ، وستورد لك ياأخى الأحاديث الواردة .

وقد حكى لى من أثق به من العلماء المدرسين قال وردت نواحى الغربية فرأيت هناك فى طريق سوق البلد قاضيا وعنده أوراق مكتوبة يخوف بها الفلاحين ، فيقول للانسان ما اسمك فيقول فلان بن فلان ، فيقول عندى عليك مسطور لفلان وهؤلاء شهوده ، فإن وجد معه فلوسا أخذها وقطع الورقة وإلا أخذ الحمارة أو الجدى أو غيرهما حتى يصير عنده مراح بهائم ، وأرادوا الانصراف يوما فرأوا يهوديا على حمارته فقال اصبروا حتى نتحمل على اليهودى فادعى القاضى على اليهودى بالحمارة أنها لأحد شهوده وصدقه الحاضرون ،

فأخذوها منه ، ثم جاء له شخص وقال له أعط القاضى دينارا يخلص لك حمارتك فأعطاه الدينار فجعله القاضى فى فمه وصاح بأعلى صوته سكوا هذا الكلب يبرطلنى على الشرع ويظهر أنه متورع ، وقد أخذ الدينار منه فجعل اليهودى متاعه على كتفه وولى وهو يقول بين يدى الله تلتقى الخصوم ووالله إن قاطع الطريق أرحم بالناس من هذا القاضى ، فلا ينبغى أن يتولى أمور الناس إلا من تعين غلبة عليه والله أعلم .

وروى الشيخان مرفوعا : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » الحديث .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « مَنْ وَلِىَ الْقَضَاءَ أَوْ جُعِلَ قَاضِيًا بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » .

قال الحافظ عبد العظيم ومعنى ذبح بغير سكين أن الذبح بالسكين يحصل به راحة للذبيحة بتعجيل إزهاق روحها ، فإذا ذبحت بغير سكين كان فيه تعذيب لها ، وقيل إن الذبح لما كان فى ظاهر العرف والعادة غالبا بالسكين عدل صلى الله عليه وسلم عن ظاهر العرف والعادة إلى غير ذلك ليعلم أن مراده صلى الله عليه وسلم بهذا القول مايخاف عليه من هلاك دينه دون هلاك بدنه ذكره الخطابى .

وروى الترمذى وابن ماجه مرفوعا : « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : وَاحِدٌ فِى الْجَنَّةِ وَاثْنَانِ فِى النَّارِ ، فَأَمَّا الَّذِى فِى الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِى الْحُكْمِ فَهُوَ فِى النَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِى النَّارِ » .

وفى رواية للترمذى وغيره مرفوعا : « مَنْ كَانَ قَاضِيًا فَقَضَى بِالْعَدْلِ فَبِالْحَرَى أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْهُ كَفَافًا » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِى الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِى تَمْرَةٍ قَطُّ » .

وفى رواية للامام أحمد وغيره مرفوعا :

« يُدْعَى الْقَاضِي الْعَدْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِى تَمْرَةٍ قَطُّ » .

وروى الطبرانى والبزار وغيرهما : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ : إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ ، فَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ ، وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ ، وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ ، وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أَقْرَبِيهِ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا جَاوَزَ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ فَهَوَى فِى جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا » .

وروى ابن ماجه والبزار مرفوعا : « مَا مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا جَازَ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ » .

وروى ابن ماجه والبزار مرفوعا : « مَا مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَلَكٌ آخِذٌ بِقَفَاهُ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِنْ قَالَ أَلْقِهِ أَلْقَاهُ فِى مَهْوَاةٍ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا » .

قلت قال سيدى على الخواص رحمه الله تعالى ولعله إنما قال أربعين دون غيرها من الأعداد لأن ذلك فى حق من حكم بين الناس أربعين خريفا ولو أنه كان حكم خمسين لقال صلى الله عليه وسلم خمسين كما قال ذلك فى حق بعض المنافقين لما مات وسمعوا هدة عظيمة فقالوا ماهذا فقال صلى الله عليه وسلم :

« حَجَرٌ أُلْقِيَ فِى جَهَنَّمَ مِنْ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَهُوَ يَهْوِى حَتَّى وَصَلَ قَعْرَهَا » .

وكان ذلك الميت هو أبي بن خلف فحسبوا عمره فوجدوه سبعين سنة ، والله تعالى أعلم .

وروى الإمام أحمد : « أَنَّ حَمْزَةَ عَمَّ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْنِي عَلَى شَيْءٍ أَعِيشُ بِهِ ، فقَالَ: يَا عَمِّ نَفْسٌ تُحْيِيهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُمِيتُهَا ؟ فقَالَ نفسٌ أُحْيِيهَا ، فقَالَ عَلَيْكَ نَفْسَكَ » .

وروى أبو داود : « أَنَّ الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِيكَرِبَ قالَ : ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ : أَفْلَحْتَ يَا قُدَيْمُ إِنْ مِتَّ وَلَمْ تَكُنْ أَمِيرًا وَلاَ كَاتِبًا وَلاَ عَرِيفًا » .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ ، وَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » .

وفى رواية لمسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :

« يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَتَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلاَ تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ سَمُرَةَ كَانَ يَقُولُ قَالَ لِي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا » الحديث .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « مَنِ ابْتَغَى الْقَضَاءَ وَسَأَلَ فِيهِ شُفَعَاءَ وُكِلَ إِلَى نَفْسِهِ . وَمَنْ أُكْرِهَ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ » .

وفى رواية للترمذى : « مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وُكِلَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أُجْبِرَ عَلَيْهِ نَزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يُسَدِّدُهُ » .

وتقدم عدة أحاديث فى باب الزكاة تتعلق بالعمال إذا جاروا فراجعها إن شئت ؛ وكذلك بسطنا الكلام فى عهود الولاة فى كتاب البحر المورود فراجعه إن شئت والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانمكن أحدا ممن صحبناه من الولاة فى هذا الزمان وانقاد لنا أن يشق على رغيته ، أو يجور عليهم أو يغشهم أو يحتجب عنهم ، أو يغلق بابه دون حاجتهم، فإن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وإذا عدل الوالى فقد قام بحق دين الله، وإذا جار فقد أخل بحقه ، وهذا العهد خاص فعله بأكابر العلماء والصالحين المتعففين عما بأيدى الظلمة والولاة الذين لهم عند الولاة لابر ولاحسنة ولا جوالى ولا مسموح ولا مرتب على بساط السلطان ونحو ذلك ، لأن هؤلاء ربما سمع لهم الولاة وأما من يأكل من أموالهم ويقبل صدقاتهم وبرهم ولو بلا سؤال فلسانه أخرس وعيناه عمياء وأذناه صماء قهرا عليه لايقدر على نفسه أن يكلمهم كلمة ، وقد قل العالم والصالح العفيف عن مثل ماذكرناه وصار هذا النوع فى العلماء والصالحين أقل من القليل وربما نهوا أحدا من الولاة أو أمروه بمعروف فقام لهم من له عند الولاة علاقة فصار خصما لهم حتى كأن الذى أمر بالمعروف هو الذى فعل المنكر ، ومن شك فى قولى هذا فليجرب فإن أهل الشر قد غلبوا على أهل الخير :

(لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً) .

وإذا غلب أهل الله عن إقامة الدين فلا لوم عليهم بل أقول إنه لو أراد الأئمة الآن أن يعدلوا فى رعاياهم لايقدرون لعدم استحقاق رعيتهم الرحمة بهم ، فعلة الظلم والجور مركبة من الرعية والظلمة ، وما بقى يرجى لهم تنفيس حتى يخرج عيسى بن مريم عليه السلام .

وكان آخر كلام سمعناه من سيدى على الخواص قبل موته بثلاثة أيام : قد صار الخلق الآن كالسمك الذى كان فى بركة ماء ثم نشف عنه الماء وصار فى أرض يابسة ، فالكلاب والحدادى تخطفه وتفسخه فى النهار والذئاب والثعالب تفسخه بالليل ، ولا بقى يرجى عود الماء حتى ينغمر فيه السمك الذى هو كناية عن الرحمة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وسمعته قبل ذلك يقول : قد صارت بيوت الحكام الآن جمرة من نار ولا بقى فيها واسطة خير إنما همتهم البرطيل ولا يقضون حاجة إلا به وعن قريب يصيرون يأخذون البرطيل من الجانبين ولا يقضون لأحد منهما حاجة ثم إن صاحب الحاجة يطلب منهم أن يردوا له ماأعطاه لهم فلا يعطونه وربما دفعه وضربه غلمانهم وأخرجوه اهـ :

وبلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوما لأصحابه ماتصنعون بي إذا انعوجت؟ فقالوا نعلو هامتك بالسيف ، فقال بارك الله فيكم هكذا كونوا اهـ :

فعلم أن من الأدب أن نقول إن العمال ما جاروا إلا بحسب جور الرعية على أنفسهم وعلى إخوانهم بالعداوة والبغضاء وعدم قيامهم بواجب الدين فاللوم على الرعية لا على الولاة فلو قدرنا أنه أتانا فى مصر نائب من الصالحين وكانت أعمال أهل مصر معوجة فلا تزال أعمالهم تعوجه حتى يصير كالخطاف ، ولو قدرنا أنه أتانا فى مصر نائب أعوج وكانت أعمال أهل مصر مستقيمة فلا تزال أعمالهم تقيمه حتى يصير كالرمح وقد بسطنا الكلام على ذلك فى عهود البحر المورود .

وعلم أيضا أنه ما كل عالم ولا صالح يقدر على أمر الولاة بالمعروف ونهيهم عن المنكر لاحتياج فاعل ذلك إلى سياسة تامة فيمهد للمنصوح بساطا يشهد فيه ماله من المصالح إن استقام وماله من الفساد إن اعوجّ ويكون أهل كشف إذا أخبر ذلك الوالى بحصول أمر له فى المستقبل يقع كما قال فى ذلك الوقت : وأما إذا لم يكن عنده كشف ولا اطلاع فلا يسمعون له وآخر أمره بعد العناء والتعب أن يمنعوه عن الدخول لهم :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَبْعَدُهُمْ عَنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ جَائِرٌ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ » .

وروى البزار مرفوعا : « يُجَاءُ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُخَاصِمُهُ الرَّعِيَّةُ فَيَفْلَجُوا عَلَيْهِ فَيُقَالُ لَهُ سُدَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ جَهَنَّمَ » .

وقوله فيفلجوا عليه بالجيم : أى يظهروا عليه بالحجة والبرهان ويقهروه حال المخاصمة :

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةَ إِمَامٍ جَائِرٍ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ لَهُمْ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ » فذكر منهم « الْإِمَامَ الجَائِرَ » .

وروى البزار والبيهقى وغيرهما مرفوعا : « السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ تَعَالَى فِى الْأَرْضِ يَأْوِى إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ فَإِنْ عَدَلَ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ وَكَانَ » يعنى « عَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ وَإِنْ جَارَ أَوْ خَافَ أَوْ ظَلَمَ كَانَ عَلَيْهِ الْوِزْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ وَإِذَا جَارَتِ الْوُلاَةُ قَحَطَتِ السَّمَاءُ وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ الْمَوَاشِى » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح على شرط مسلم :

« مَا بَخَسَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ ، وَلاَ يَحْكُمُ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَاسْتَنْقَذُوا بَعْضَ مَا فِى أَيْدِيهِمْ ، وَمَا عَطَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ عَلَى جَوْرِهِ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ فَلَهُ النَّارُ » .

وروى الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وغيرهم مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى مَعَ الْقَاضِى مَا لَمْ يَجُرْ فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « مَا مِنْ وَالِى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ لَقِىَ اللهَ مَغْلُولَةً يَمِينُهُ فَكَّهُ عَدْلُهُ أَوْ غَلَّهُ جَوْرُهُ » .

وروى الطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه وغيرهما مرفوعا :

« إِنِّى أَخَافُ عَلَى أُمَّتِى مِنْ أَعْمَالٍ ثَلاَثَةٍ . قَالُوا وَمَا هِىَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : زَلَّةُ عَالِمٍ وَحُكْمُ جَائِرٍ وَهَوًى مُتَّبَعٌ » .

وروى مسلم والنسائى وأبو عوانة فى صحيحه مرفوعا :

« اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ » .

وروى الطبراني وغيره مرفوعا ورجاله رجال الصحيح :

« مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ تَعَالَى فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَنْظُرَ فِي حَاجَتِهِمْ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَغَشَّهُمْ فَهُوَ فِي النَّارِ » .

وفي رواية أبي داود مرفوعا : « مَنْ وَلَّاهُ اللهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَّا احْتَجَبَ اللهُ تَعَالَى دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وكان معاوية يجعل رجلا على حوائج المسلمين إذا احتجب لضرورة :

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن وأبو يعلى مرفوعا :

« مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ الْمِسْكِينِ وَالْمَظْلُومِ وَذَوِي الْحَاجَةِ أَغْلَقَ اللهُ عَنْهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ دُونَ حَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقر أحدا من الولاة الذين صحبناهم أن يولى على المسلمين من تحت يده إلا من يراه خيرهم بعد أن يجتهد ويبذل وسعه في ذلك، وهذا العهد قلّ من يسمع له من المكاسين ونحوهم من جباة الظلم ، لأنه يعرف أنه إذا ولى شخصا يخاف على دينه ضيع ذلك المال الذي يجبونه من تلك الجهة :

وقد سألني مرة شخص من أعوان المكاسين أني أطيب عليه خاطر كبير المكس ، فقال أطيب عليه ولكن بشرط التوبة ، قلت وما هي ؟ قال أن لايفرج على أحد عليه مكس فقلت اخرجا من عندي فتوبا في الكنيسة :

فيحتاج العالم أو الصالح الذي يأمر المكاسين ونحوهم بالمعروف إلى سياسة تامة في لين الكلام ، وإلا لم يسمعوا له :

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يوصي أصحاب هذه الجهات ويأمرهم

بالتخفيف عن الناس جهدهم ، وكان يقول لأصحابه من التجار إذا جاءكم جباة الظلم يطلبون عادتهم بإذن السلطان فأعطوها طاعة للسلطان ، وإلا حصل لكم من الضرر أشد مما تخلتم به عليهم ، وكان يقول للتجار الذين يجيئون من الشام إلى مصر : أعطوا الظلمة عادتهم فى غزة وفى قطية ، فإن ذلك غفارة ليس من المكس فى شىء ، فإن السلطان لو تزلزل أمره ما قدر أحد منكم يخرج بتجارة فى البرارى من الشام إلى مصر أبدا ، وعلى كلام الشيخ فليس من المكس إلا الذى يؤخذ من قوم جاءوا إلى مصر فى ظل سيوفهم من غير حاجة إلى مساعدة السلطان أو الذى يأخذه المحتسب من السوقة وهم آمنون فى بيوتهم وحوانيتهم ، هكذا قال رضى الله عنه ، فليتأمل . وكان إذا تولى مكاس يأمره بلبس الجبة والفروة للكباشى فى الشتاء والرضا بالرغيف ولو كان حافيا وركوب الحمار والرضا بجارية تخدمه من غير زوجة ، ويأمره باجتناب لبس المحررات والتبسط فى الشهوات ، ونكاح النساء الجميلات ، والسكنى فى القاعات المرخمات ، ويقول له إن أردت تعمل مثل من كان قبلك من المتهورين فى دينهم ، وتتبسط فى المأكل والملبس وغير ذلك ، لم يكفك مال الجهات كلها وهذا كله من باب ظلم دون ظلم فافهم ، وإياك والاعتراض على الشيخ والله يتولى هداك .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد :

« مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ » .

وفى رواية أخرى للحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد :

« مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَى لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً حَتَّى يَدْخُلَ جَهَنَّمَ » .

رواه أحمد باختصار والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نلعن الراشى والمرتشى والساعى بينهما إلا إن كان مختارا وقبل الرشوة لنفسه ، فإن أكره على أخذها لغيره فلا ينبغى لنا لعنه ، كما أننا إذا لعناه لا نلعنه إلا بحكم العموم دون الخصوص لجهلنا بعاقبة

أمره ، فقد يتوب الله عليه قبل موته ، وحقيقة الرشوة ما يأخذه القاضى ليحكم بحق أو يمتنع من ظلم وقوله تعالى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) .

المراد به كفر دون الكفر الذى يخرج به الشخص من دين الإسلام ويحتاج من يريد ينكر على قاض للفحص العظيم عن كونه مختارا فى أخذ الرشوة لغيره أو لنفسه ، وذلك بكثرة مخالطته فلا تكفى الاشاعة بأخذه الرشوة لكثرة تساهل الناس فى هذا الزمان فى ذمهم القضاة من غير أن يشاهدوا منهم أخذ الرشوة أو حكمهم بغير الحق ، وربما أشاع الناس عن قاض أنه يأخذ الرشوة قياسا على من رآه أخذها ، ويقولون بعيد عن مثل هذا أن يتورع عن مثل ذلك ، وياليت شعرى من يفسق هؤلاء القضاة كيف يسوغ له أن يطالب بالحقوق التى ثبتت عليهم فإنها غير ثابتة فى اعتقاد هذا المفسق لهم : ففتش يا أخى على من يأخذ الرشوة مختارا ثم العنه بلعنة الله ولعنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وصن لسانك عن التجريح فى قضاة الشريعة ، إلا بطريق شرعى تقدر على إثباته ، وإلا يخاف عليك الحبس والضرب ، وإخراج وظائفك عنك تعزيرا لك على تجريح الحكام بغير طريق شرعى .

وقد وقع من بعض طلبة العلم أنه طلب منه تزكية بعض قضاة العساكر فأبى وقال هذا رجل فاسق فوشى بذلك بعض الأعداء وشهدوا عليه بأنه مصرح بفسق القاضى فى المجالس ، فأخرج عنه جميع وظائفه وصار يسوق عليه السياقات فلا يقبل منها أحدا ، فإن اضطررت يا أخى إلى تزكية قاض فزكه ، وور فى ألفاظ التزكية حسب طاقتك ، كما يفعله علماؤنا الآن والله يتولى هداك .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا وقال حسن صحيح :

« لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي » .

وروى الطبرانى والبزار مرفوعا : « الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي النَّارِ » .

وروى الإمام أحمد بإسناد فيه نظر مرفوعا :

« مَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الزِّنَا إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّشَا إِلاَّ أُخِذُوا بِالرُّعْبِ » .

وروى الإمام أحمد والبزار والطبرانى : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ الرَّاشِيَ وَالمرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ » .

يعنى الماشى بينهما : أى بين الراشى والمرتشى :

وروى الطبرانى مرفوعا عن ابن مسعود بإسناد صحيح :

« الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ كُفْرٌ وَهِيَ بَيْنَ النَّاسِ سُحْتٌ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك الإنكار على من رأيناه ظلم أخاه من الفقراء وغيرهم ولو بسوء الظن به ، بل ننكر عليه وننصر المظلوم ويحتاج العامل بهذا العهد إلى سياسة تامة ، وإلا نسبه الناس إلى غرض مع ذلك المظلوم فيصير خصما للظالم ؛ ويخرج عن كونه ميزان عدالة بين الخصمين ، فيحتاج الأمر إلى شخص آخر ثالث يصلح بين الظالم والمظلوم ، ثم إذا رأى نفس الظالم ثائرة فليصبر عليه حتى تخمد نارها ، وذلك ليصغى إلى وعظه له فإن العبد إذا غضب ركبته نفسه هى وزوجها أبو مرة ، فيصيران راكبين عليه ، فلا يتكلم فيه إلا شيطان .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من علامة ركوب الشيطان لخصمك أن تراه يتكلم بالكلام القبيح الذى ليس من عادته النطق به ، فإذا رأيت ذلك منه فاصبر على جوابه حتى ينزل الشيطان من على ظهره ، فإن أجبته قبل ذلك ضحك عليك الشيطان حين تظن أن الذى يكلمك هو أخوك :

وسمعته أيضا يقول : يجب على من يصلح بين الناس إذا رأى نفس المظلوم ثارت ونفس الظالم خمدت أن يتربص ساعة حتى تخمد نار نفسه ، فربما لايرضيه من الظالم إلا أكثر من حقه ، ومن سلك هذا المسلك مع الخصمين وطاوعاه استغنيا عن رواح بيت الوالى .

واعلم أن من أقبح الصفات فى الفقراء خصامهم بين الناس ، وتمزيقهم أعراض بعضهم بعضا ، وإن ادعوا أنهم تحت تربية شيخ كذبوا وشيخهم برىء منهم إلا أن يتوبوا ، وكذلك أقبح من كل قبيح خصام الظالم أو المظلوم لشيخه إذا لم يطاوعه على غرضه الفاسد ، ومن فعل ذلك مع شيخه مقته الله وطرده عن حضرات الصالحين ، وربما عوقب بتركه التوبة حتى يموت على أسوإ حال ، وهذا المقت قد عم غالب الفقراء

في هذا الزمان ففتنوا وصاروا أبدانا بلا أرواح ، فالله تعالى يلهمهم التوبة من ذلك بفضله وكرمه إن شاء الله تعالى ، ويصبر شيخهم عليهم وعلى سوء أدبهم معه آمين .

وروى مسلم والترمذي وابن ماجه مرفوعا :

« يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » الحديث .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « لَا تَظَالَمُوا فَتَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ وَتَسْتَسْقُوا فَلَا تُسْقَوْا وَتَسْتَنْصِرُوا فَلَا تُنْصَرُوا » .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَيَقُولُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَتَخَاصَمَا وَتَفَرَّقَا إِلَّا بِذَنْبٍ أَحْدَثَهُ أَحَدُهُمَا » .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِنَّ اللهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما : أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِمُعَاذٍ « اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ ، وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » .

وروى الحاكم مرفوعا : « اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ » .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعا :

دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ » .

وقال الإمام مالك : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عليهِ وسلمَ « دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ » .

وروى الطبراني مرفوعا : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَى مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَا يَجِدُ لَهُ نَاصِرًا غَيْرِي » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ فَقَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ قَالَ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا ندخل على ظالم إلا لضرورة شرعية بشرط أن نعلم من نفوسنا عدم تصديقه وعدم معاونته على باطل ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس الذين يقبلون من الظلمة الهدايا ، ويأكلون على سماطهم ، فتدخل رأس أحدهم الجراب ويعوم مع ذلك الظالم ويصدقه على مقالته على ذلك المظلوم ؛ فمن أراد السلامة من تصديقهم أو من سكوته على ذلك ومن معاونتهم فليستعفف عن قبول هداياهم ، والأكل من طعامهم ، وإلا فمن لازمه معاونتهم وتصديقهم .

وقد وقع أن شيخا من مشايخ العصر دخل على محمد بن بغداد ليشفع عنده فى مظلوم فأغلظ القول على محمد فصبر عليه حتى فرغ ، ثم قال محمد لأصحابه سرا : ايش قلتم فيمن يلقى عليه الإكسير فينقلب معنا على من جاء يشفع فيه ، فقالوا كيف ؟ فقال : هاتوا لى ورقة ودواة ، فكتب له خمس قناطير عسل وخمسة وعشرين أردب قمح محمولة إلى زاويته وأعطى ذلك الوصول للنقيب ، فأعلم به الشيخ فتحول الشيخ فى الحال على ذلك المظلوم ، فصار يقول الحق مع شيخ العرب وأنت مالح الرقبة تنهى إلى الفقراء خلاف الواقع ثم رده من غير قبول شفاعة .

فادخل يا أخى إلى حضرة قبول شفاعتك عند الحكام من باب التعفف إن أردت قبولها أو دوامها وإلا فتب عن الدخول على الظلمة والله يتولى هداك .

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة فى النهى عن الدخول على الظلمة لغير ضرورة :

فروى الإمام أحمد بإسناد صحيح مرفوعا :

« مَنْ بَدَا جَفَا وَمَنْ تَبِعَ الصَّيْدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلاَّ ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا » .

وروى نحوه أبو داود والترمذى والنسائى .

وروى الإمام أحمد والبزار وغيرهما : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَالَ لِكَعْبِ ابْنِ عُجْرَةَ أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ قَالَ وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ ؟ قَالَ أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلاَ يَرِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضَ وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ » الحديث .

زاد فى رواية أخرى للإمام أحمد :

« وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » .

وروى الأصبهانى وغيره عن بلال بن الحرث أنه قال : إذا حضرتم عند ذى سلطان فأحسنوا المحضر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يَظُنُّ أَنَّهَا تَبْلُغُ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ تَعَالَى بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلاَ يَكُونَنَّ عَرِيفًا وَلاَ شُرْطِيًّا وَلاَ جَابِيًا وَلاَ خَازِنًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نبادر لمساعدة خصم على خصمه وإعانته إلا بعد تصبر وتمهل فى ذلك ، فربما يكون ظالما وهو يصيح أنه مظلوم :

وقد رأيت بعينى امرأة قبضت على بيض زوجها وسحبته إلى الأرض فصار فوقها وهى تحته وهى تصيح يامسلمين ارفعوه عنى قتلنى ، فصارت الناس يضربونه بالعصى على ظهره ومقعدته حتى أثخنوه ، وهو يقول لهم قولوا لها تطلقنى وهم لا يدرون بالحكاية ، فما عرفوا الحكاية حتى كادوا أن يهلكوه ، وهم يظنون أنهم فى قربة إلى الله

تعالى بنصرتهم المظلوم على الظالم ، وكذلك لاتبادر قط للشفاعة فى إنسان ادعى أنه مظلوم حتى تفحص عن حكايته ، فربما يكون وقع فى حد من حدود الله عز وجل ، فتقع فى نهى الشارع عن الشفاعة فى الحدود .

وقد جاءنى شخص يبكى ويطلب منى الشفاعة فيه عند عامر بن بغداد، فأرسل يقول لى إن هذا زوّر على كتابا للكاشف وعلمه بعلامتى أنه يقتل فلانا وفلانا اللذين عنده فى الحبس، ويكبس على البلد الفلانية ويأخذ منها فلانا ، وفلانا فمثل هذا يستحق التأديب الشديد ، ومن ذلك اليوم وأنا أتربص فى كل حكاية ولا أشفع إلا بعد تأمل زائد لكثرة إنهاء الخلق للفقراء خلاف الواقع .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى فراسة تامة وإلا وقع فى النهى وهو لا يشعر ، كما يقع فى ذلك من كان ساذجا من الفقراء .

وقد وقع لشيخ الاسلام نور الدين الطرابلسى الحنفى رحمه الله أنه ركب للأمير غانم الجمزاوى يشفع عنده فى شخص كان قد عمل على قتل غانم مرارا فقال غانم للجماعة الفقهاء الحاضرين تدرون ما يقول سيدنا شيخ الإسلام ؟ قالوا لا : قال : يقول لى أطلق هذا الثعبان الذى كنت خائفا منه سنين حتى يلسعك فتموت لأجلى ، فقال الجماعة كلهم هذا لاينبغى فرجع شيخ الإسلام بلاقبول شفاعة ، ولو أنه كان حاذقا يعرف أحوال الناس ما شفع فى مثل ذلك إلا بطريق يمهدها أولا للمشفوع عنده ثم يشفع على بصيرة من أمر المشفوع فيه والمشفوع عنده .

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ سَقَاهُ اللهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ » .

والخبال : عصارة أهل النار أو عرقهم كما فى رواية مسلم .

وفى رواية للحاكم : « مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِغَيْرِ حَقٍّ كَانَ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه :

« مَثَلُ الَّذِى يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ كَمَثَلِ بَعِيرٍ تَرَدَّى فِى بِئْرٍ فَهُوَ يَنْزِعُ مِنْهَا بِذَنَبِهِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى الْخَلاَصِ » .

ومعنى الحديث كما قاله الحافظ عبد العظيم أنه قد وقع فى الإثم وهلك كالبعير إذا تردى فى بئر فصار ينزع بذنبه ولا يقدر على الخلاص .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ لَمْ يَزَلْ فِي غَضَبِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ غَضَبًا عَلَى مُسْلِمٍ فِي خُصُومَةٍ لاَ عِلْمَ لَهُ بِهَا فَقَدْ عَانَدَ اللهَ حَقَّهُ وَحَرَّضَ عَلَى سُخْطِهِ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ تَتَابَعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ يُعِينُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلاَمِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نرضى الحكام وغيرهم بما نعرف أنه يخالف شرع الله عز وجل ، ونحذر إخواننا المترددين إلى الحكام من ذلك أشد التحذير ، وهذا العهد لا يعمل به إلا من زهد فيما فى أيدى الولاة ، وأما الراغب فيما بيدهم فبعيد أن يقع منه ما يغيظهم عليه ، وكيف يقدر شخص أن يخالف من ينعم عليه بالمآكل والملبس والذهب والفضة ، هذا يكاد أن يكون خروجا عن الطبع فإن الحاكم مشهود له والله تعالى غير مشهود له ، والغالب على من لا يشهد بالعين أو بالقلب عدم المراعاة لمرضاته ، ومن هنا حرم الله تعالى أكل مال اليتيم تحريما مغلظا لكون اليتيم لا والى له إلا الله تعالى ، وماله والد يراعى لأجله ، والله تعالى غير مشهود ، فلذلك أكل غالب الناس مال اليتيم بغير حق ، فافهم وابعد عن الدخول للحكام مادمت ترجح الذهب على الزبل ، فإن دخلت وأنت كذلك فمن لازمك غالبا أن ترضيهم بما يسخط الله تعالى :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَقُولُ : « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسُخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسُخْطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ » .

وفى رواية ابن حبان مرفوعا : « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ » .

وروى الحاكم مرفوعا : « مَنْ أَرْضَى سُلْطَانًا بِمَا يُسْخِطُ بِهِ رَبَّهُ خَرَجَ مِنْ دِينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ » .

وروى البزار وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِي اللهِ عَادَ حَامِدُهُ لَه ذَامًّا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ تَحَبَّبَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُحِبُّونَهُ وبَارَزَ اللهُ تَعَالَى لَقِيَ اللهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نؤذى أحدا من خلق الله تعالى بضرب أو هجر أو كلام أو نحو ذلك إلا بأمر شرعى ، وقد عدوا الإضرار بالناس من الأمور التى تقارب الكفر ، وأنشدوا فى ذلك :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ اللهَ ذُو كَرَمٍ ... وَمَا عَلَيْكَ إِذَا مَا أَذْنَبْتَ مِنْ بَاسِ

إِلاَّ اثْنَتَيْنِ فَلاَ تَقْرَبْهُمَا أَبَدًا ... الشِّرْكُ بِاللهِ وَالْإِضْرَارُ بِالنَّاسِ

وإيضاح ذلك أن حقوق الآدميين مبنية على المشاححة من أصحابها إذا نوقشوا الحساب يوم القيامة ، ولا يخرج عن حكم هذه المناقشة إلا أفراد من الناس ، والجم الغفير كلهم يناقشون ويحصى الله تعالى عليهم مثاقيل الذر لعدم مناقشتهم نفوسهم فى دار الدنيا ، وتركها هملا كالبهائم السارحة ، بخلاف الأفراد الذين ناقشوا نفوسهم فى حقوق الله تعالى وحقوق عباده لا يناقشون فى الآخرة لأنهم قضوا ما عليهم فى الدنيا ، وإن وقعت مناقشة فإنما هى فى أمور يسيرة خفيت عليهم ففرطوا فيها والله أعلم .

واعلم أن من أشد الناس مناقشة ومشاححة لخصمه يوم القيامة العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ، فإياك أن تؤذى أحدا منهم ، فإنك لا تقدر على أن ترضيه فى الدار الآخرة أبدا لكثرة إفلاسه وفقره من الأعمال الصالحة ، فإن المسامحة معدودة من صدقات العبد والصدقة لا تكون إلا على ظهر ، ومن كان فقيرا شح ضرورة ، ولو أنه أعطى

أحدا شيئا تبعته نفسه قهرا عليه ؛ فإياك وغيبة كل فاسق فى دار الدنيا إلا بشرطه بل قال بعضهم فى معنى حديث « لا غيبة فى فاسق » أى احفظوا لسانكم فى حقه ولا تغتابوه فجعل لفظة « لا » ناهية اهـ :

فإياك يا أخى أن تستغيب فاسقا أو تؤذيه أو تشق عليه أو تستعمل عبدك ، أو أمتك فى أمر يعجزان عنه ، أو تحمل دابتك فوق طاقتها ، أو تسم شيئا من الحيوانات بالنار إلا بأمر شرعى ، كوسم إبل الصدقة أو غنمها أو كى الحيوان لمرض ونحو ذلك ، وقد نصحتك ، ووالله إنى لأعرف من بعض الحساد الذين تمكن فيهم البغضاء والحسد أنه او عرض عليه بعض أعدائه يوم القيامة جميع أعماله الصالحة ليأخذوا ثوابها فى نظير غيبة واحدة فيه مارضى بها فكيف حال من لاتحصى غيبته فى الناس ، فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم :

وروى أبو داود وغيره مرفوعا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ : « لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِىٍّ » .

وروى الحاكم وغيره : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ » .

يعنى إذا ذبحتها فاذبحها وأنت راحم لها ، وليس المراد أنه يترك ذبحها أصلا .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« اتَّقُوا اللهَ فِى هَٰذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَاذْبَحُوهَا صَالِحَةً » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَنَّ رَجُلاً دَنَا مِنْ بِئْرٍ فَنَزَلَ وَشَرِبَ مِنْهَا وَعَلَى الْبِئْرِ كَلْبٌ يَلْهَثُ ، فَرَحِمَهُ فَنَزَعَ أَحَدَ خُفَّيْهِ فَسَقَاهُ فَشَكَرَ اللهُ لَه ذَٰلِكَ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكاً لَهُ أَوْضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ » .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا ورواته ثقات :

« مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكاً ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى البخاري وغيره أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم قَالَ : « إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ فَضَّلَكُمُ اللهُ تَعَالى عَلَيْهِمْ، فَمَنْ لاَ يُلاَئِمُكُمْ فَبِيعُوهُ وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ ».

وروى أبو يعلى والطبراني : « أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلم دَعَا وَصِيفَةً لَهُ وَهِيَ تَلْعَبُ فَلَمْ تُجِبْهُ وَقَالَتْ لَمْ أَسْمَعْكَ يَارَسُولَ اللهِ، فَقَالَ لَوْلاَ خَشْيَةُ الْقَوَدِ لَأَوْجَعْتُكِ بِهٰذَا السِّوَاكِ » .

وفى رواية : « لَضَرَبْتُكِ بِهٰذَا السِّوَاكِ » .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم مَرَّ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ : لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ » .

وروى الطبراني وغيره : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ نَهَى عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مداهنة للناس وطلبا لمرضاتهم الفاسدة ، فإن أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أحق بالمراعاة والتقديم ، وهذا العهد لايقوم بحقه إلا من سلك طريق القوم على يد شيخ حتى وصل إلى حضرة الله تعالى وشاهد أفعاله وتصاريفه وتيقن أنه ليس بيد مخلوق ضر ولا نفع إلا إن شاء الله .

ومعلوم أن من راعى أمر الله تعالى وقدمه على أمر عباده لا بد أن ينصره الله تعالى على ذلك الظالم الذي يخالف المعروف ويفعل المنكر ، قال الله تعالى :

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

فإن أردت العمل بهذا العهد فادخل من بابه واسلك على يد شيخ كما ذكرنا وإلا فمن لازمك مراعاة المخلوقين وتقديم مرضاتهم خوفا من شرهم ورجاء لبرهم :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وقد مضى الأئمة والعلماء القوامون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأظلمت الدنيا لفقدهم وكانت أنفاسهم تحميهم من الظلمة حتى يقوموا بالمرتبة حين كان الدين فى زيادة ، فلما أخذ الدين فى النقص فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة وضعفت قلوب

العلماء ، وعجزت عن إزالة المنكرات لكثرتها وقلة من يساعد عليها الولاة الذين يسمعون للعلماء ، بل نقول : لو أن العلماء الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الزمان الماضي عاشوا إلى اليوم لكانوا مثلنا في عدم الإنكار ولكن سبقونا بالزمان :

وقد حكى لي شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شارح الروض والبهجة رضي الله عنه ، أن سفيان الثوري كان يخرج إلى السوق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فما مات حتى صار يرى المنكر فلا ينكره فقيل له في ذلك ، فقال كان قد انفتح في الإسلام ثلمة فأردنا أن نسدها فانفتح في الإسلام ذروة وانهدمت من أركانه أركان ، ثم صار يبول الدم إلى أن مات من القهر اه .

وبلغنا عن سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي رضي الله عنه أنه كان يعظ السلطان أيوب وولده السلطان الصالح وينهاهما عن المنكر فيقبلان يده ويقولان له جزاك الله عنا خيرا . وبلغه مرة أن غالب الأمراء الأكابر إلى الآن في الرق لم تعتقهم ساداتهم ، فقال كيف يحكم هؤلاء بين الناس ؟ فطلع إلى السلطان وقال كل من لم يأتنا بعتاقته بعناه ووضعنا ثمنه في بيت المال فباع منهم جماعة ونادى عليهم في الديوان ، ثم أعتقهم السلطان فاجتمعوا على قتله وجاءوا بالسلاح ووقفوا على بابه فخرج إليهم فوقع السلاح من أيديهم هيبة منه ، فقال له ابنه الحمد لله الذي لم يقتلوك ، فقال والدك أحقر من أن يقتل في إقامة دين الله تعالى اه .

فانظر حالك يا أخي الآن إذا أمرت قاضيا أو أميرا . وكذلك حكى لي شيخنا شيخ الإسلام زكريا المذكور آنفا ، أنه كان يحط على الولاة في خطبته ، ويتعرض للسلطان قايتباي بأنه ظالم غاش لرعيته ، فتكدر السلطان منه لكون ذلك على المنبر بحضرة الناس والعسكر والعوام ، ثم قال له لما انقضت الصلاة والله يامولانا إنما وعظتك في الملأ مبادرة لنصحك ؛ ثم مسكت يده أو قلت له والله إني خائف على جسمك هذا أن يكون فحما في جهنم اه ، فهل نقدر يا أخي الآن تفعل مثل ذلك مع بعض قضاة السلطان .

وقد كان الشيخ شمس الدين الدمياطي الواعظ بالأزهر يحط على السلطان الغوري على كرسي الوعظ في الجامع الأزهر ، فبلغه ذلك فأرسل وراءه بنية أنه يبطش به ، فطلع له القلعة وقال له السلام عليك أيها السلطان ، فلم يرد الغوري عليه ، فقال رد السلام واجب عليك ومن ترك الواجب فسق ، فرد السلطان السلام ثم قال له قد بلغنا أنك تحط علينا في المجالس من جهة ترك الجهاد وغيره وليس عندنا الآن مراكب ،

فقال عمر لك مراكب أو استأجرها وجاهد، فقام على السلطان الحجة ، ثم قال له يامولانا السلطان ماجزاء من نقلك من الكفر إلى الإسلام ، ثم من الرق إلى الحرية ، ومن الجندى إلى الأمير ومن الأمير إلى السلطان ، إلا الشكر ، فقال : الحمد لله ، ثم قال له : وعن قريب تموت ، وينزلونك فى حفرة ويغرزون أنفك فى التراب ، ثم تصير ترابا ثم تبعث ، ثم تحاسب وتدعى عليك جميع رعيتك فى مصر والشام وقراهما ، بما أخذته أنت وعمالك منهم ظلما ، وتصير تحت أسرهم فاصفر وجه السلطان ، وارتعد فسلم الشيخ وخرج ، فلما صحا السلطان قال هاتوا الشيخ فأتوا به ، فقال ماحاجتكم ؟ فقالوا رسم السلطان لك بعشرة آلاف دينار ، فقال الشيخ للسلطان ردها إلى من ظلمتهم فيها ، ولكن إن كان مولانا السلطان يحتاج إلى مال أقرضته فإنى رجل تاجر كثير المال ، فقام له السلطان وشيعه وعظمه .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : تغير المنكرات بالقول خاص بالعلماء وباليد خاص بالولاة ، وبالقلب خاص بأولياء الله تعالى ، وعمدة التغيير فى كل إنما هو على للعلماء العاملين والأئمة المجتهدين رضى الله عنهم أجمعين ، وأما الفقراء فإنما يقع منهم تغيير بقلوبهم فى نادر من الزمان وذلك أن يتوجه أحدهم بقلبه إلى الله تعالى فى إزالة ذلك المنكر من ذلك المكان فيزول بقدرة الله عز وجل ، هذه صورة تغييرهم المنكر بقلوبهم ، وأما قوله فى الحديث :

« وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

فلاينافى ماذكرناه ، فإن الإيمان يضعف من جهتين إحداهما مذمومة والأخرى محمودة : فأما المذمومة فالمراد بها ضعف اليقين والشك ، وأما المحمودة فالمراد بها رقة الحجاب ، إذ الإيمان لا يكون إلا من خلف حجاب ، فكلما ترقى العبد إلى مقام الإحسان الذى هو مقام حضرة الشهود ، وضعف حجاب الإيمان ورق قوى مقام الشهود ، ومن قوى مقام شهوده على مقام إيمانه فليس بمذموم فتأمل ؛ فنسأل الله تعالى أن يلطف بنا وبعلمائنا فى هذا الزمان ، ويخرجنا منه على التوحيد إنه سميع قريب مجيب آمين .

وروى الشيخان وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال :

« بَايَعْنَا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد :

« سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ » .

قلت : يعني ولم يكن في بال الرجل أنه يقتله ، وإلا فالأمر بالمعروف يسقط عند خوف القتل أو الضرب الشديد أو الحبس الطويل والله أعلم .

وروى مسلم وغيره : « سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي نَاسٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

وروى الشيخان عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : « يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ نَعَمْ : إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ » .

وروى ابن ماجه بإسناد رجاله ثقات مرفوعا :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ يَا رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ أَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى » .

وروى الأصبهاني مرفوعا : « إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ لاَ يَدْفَعُ رِزْقًا وَلاَ يُقَرِّبُ أَجَلاً وَإِنَّ الْأَحْبَارَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَمَّا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ ثُمَّ عُمُّوا بِالْبَلاَءِ » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال صحيح الإسناد :

« إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ أَنْ تَقُولَ لِلظَّالِمِ يَا ظَالِمُ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ » والأحاديث في ذلك كثيرة والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نطلق أبصارنا

فى عيون الناس ولا نسأل قط عن تحقيق ما سمعناه فى حقهم من التهم ، ونحفظ أسماعنا وأبصارنا عن مثل ذلك ، فمن شق جيب الناس شقوا جيوبه ، ومن كان عليه دين قديم قضاه لا محالة .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : والله لقد أدركنا أقواما كانت عيوبهم مستورة فبحثوا عن عيوب الناس فأظهر الله عيوبهم ، ورأينا أقواما ليس لهم عيوب فبحثوا عن عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوبا » قال : ولقد عايرت مرة رجلا بذنب فلحقنى ذلك الذنب بعد خمسة عشرة سنة . ووقع أن فقيرا عندنا فى الزاوية تجسس ليلة على أخيه لسوء ظنه به فأصبح فى بيت الوالى وحصل له ضرب شديد حتى كاد يموت .

فإياك يا أخى والتجسس على عيب أحد فإن هذا العهد قد قل العمل به فى غالب الناس ، فلم يزل الواحد منهم يتجسس على معرفة عيوب الناس ونقائصهم ، ثم غاية أمره احتقار الناس وازدراؤهم ومخالفة أمر الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« الْمُسْلِمُ أَخُوا لْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ » .

فيحتاج العامل بهذا العهد إلى سلوك الطريق على يد شيخ مرشد ، حتى يصير يحترم الوجود كاملا ويعظمه لكونه من شعائر الله كل شىء بما يناسبه على الوجه الشرعى ، وأيضا فإنه صنعة الله تعالى وصنعته كلها حسنة ، والقبيح إنما هو عارض عرض من حيث الصفات لا الذوات وجميع ما أمرنا الله بمعاداته إنما هو من حيث الصفات ، فلو أسلم اليهودى وحسن إسلامه أمرنا بمحبته ، فما زالت منه إلا صفة الكفر وذاته لم تتغير »

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من إكرام الله وإكرام رسوله صلى الله عليه وسلم إكرام جميع المسلمين :

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وَسلم صَعِدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَلاَ تَزْدَرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَتَبَّعُ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِين وَلاَ تُعَيِّرُوهُم وَلاَ تَطْلُبُوا عَثَرَاتِهِمْ » .

زادفى رواية لأبى داود : « وَلاَ تَغْتَابُوهُمْ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ » .

وفى رواية لأبى داود مرفوعا : « إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِى النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نغتر بإهمال الحق تعالى وحلمه علينا إذا وقعنا فى شىء من معاصيه سرا أو جهرا ، تعظيما لأمر الله عز وجل ومحك الصدق فى تعظيم الله عز وجل أن نتأثر ونندم إذا وقعنا فى المعصية سرا ، مثل ما نتأثر ونندم إذا وقعنا فيها جهرا أوشاعت عنا بين الخاص والعام ، ومتى زاد قبح المعصية الواقعة جهرا على وقوعنا فيها سرا فنحن لم نبالغ فى تعظيم حرمات الله حدها المشروع لنا ، من أنه تعالى أحق أن يستحيى منه .

واعلم يا أخى أن كل من احتجب حال عصيانه عن غيره فليس بمحسن فى سيره ، بل هو إلى المقت أقرب ، لكن من رحمة الله تعالى بنا حصول الندم منا إذا وقعنا فى المعصية مع علمنا بأن جميع ما قدره الله تعالى علينا كائن لا محالة ، مع أن المقدر لا يقع إلا مع حجاب عن شهود أن الحق تعالى يرى ذلك العاصى ، ولا يمكن أن العبد يعصى على الكشف والشهود بأن الحق تعالى يراه أبدا ، ولوقدر أنه شهد ذلك فلا بد أن يشهد الحق تعالى غير راض عنه فى تلك المعصية .

ولا تصل يا أخى إلى حضرة الاستيحاء من الله تعالى إلا إن سلكت على يد شيخ صادق وأدخلك لحضرة الإحسان التى فيها يعبد العبد ربه كأنه يراه ، ثم إنك يا أخى تستصحب هذا الشهود على الدوام حتى فى حال جماعك ، وما دمت لم تدخل حضرة الإحسان فأنت فى حضرة إبليس ، فلا تستبعد يا أخى وقوعك فى أكبر المعاصى فضلا عن صغارها ؛ ومن هنا عصمت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعكوف قلوبهم على الدوام فى حضرة الإحسان ، فلم يتصور منهم ذنب ولو صغيرا ، وجميع ماوقع من بعض الأنبياء

إنما هو صورة ذنب وليس هو ذنب حقيقة ، وإنما هو مباح ليعلم قومه كيف يفعلون إذا وقعوا فى الذنوب وكيف يتوبون ، بل قال بعضهم : إن النبى يثاب على فعل المباح والمكروه ثواب الواجب من حيث تبيينه الجواز لذلك الأمر فى الجملة اهـ ، ومن قال فى الأنبياء خلاف ذلك فعليه الخروج من ذلك بين يدى الله عز وجل .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت عدم الوقوع فى انتهاك الحرمات إما التحفظ من الوقوع وإما التعرف كيف التنصل من ذلك الذنب والله يتولى هداك .

وقد روى البزار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ أَقُولُ إِيَّاكُمْ وَجَهَنَّمَ إِيَّاكُمْ وَالْحُدُودَ إِيَّاكُمْ وَجَهَنَّمَ إِيَّاكُمْ وَالْحُدُودَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِذَا أَنَا مِتُّ تَرَكْتُكُمْ وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ فَمَنْ وَرَدَ أَفْلَحَ » الحديث .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ » .

وروى ابن ماجه قال ورواته ثقات مرفوعا :

« لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاء فَيَجْعَلُهَا اللهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا ، لَا نَكُونُ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا » .

وروى البزار والبيهقى مرفوعا: « الطَّابَعُ مُعَلَّقَةٌ بِقَائِمَةِ عَرْشِ اللهِ ، فَإِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرْمَةُ وَعُمِلَ بِالْمَعَاصِي وَاجْتُرِئَ عَلَى اللهِ تَعَالَى بَعَثَ اللهُ الطَّابَعَ فَيَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا » .

وروى ابن ماجه والبيهقى مرفوعا : « اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نداهن فى ترك إقامة الحدود ، بل نقيمها على كل من قدرنا عليه من شريف ودنىء ، تقديما لمرضاة الله عز

وجل على مرضاتنا ، وهذا العهد لا يعمل به خالصا إلا من سلك الطريق على يد شيخ ناصح ، ومن لم يسلك فمن لازمه الإخلال به وإقامته لعلة نفسانية . وأما حديث :

« تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ » .

فالمراد به الذنب الذى لا حد فيه أو قبل أن يبلغ الحاكم :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما : « إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » والله أعلم .

قلت : ويلحق بالحدود فى ذلك الضرب للتأديب من وصى أو ولى أو قيم أو فقيه يؤدب الأطفال ، فلا ينبغى مراعاة الولد فى ترك التأديب بالسوط ونحوه ، ولا يخفى أن تأديب الطفل بالضرب لا يكون إلا بعد عدم سماعه الكلام ، كما أن الكلام لا يكون إلا بعد عدم سماعه بالإشارة فالضرب ثالث مرتبة :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نصحب من يشرب مسكرا كالخمر والنبيذ والبوظة والحشيش أو يبيع ذلك أو يشتريه أو يعصره ، أو يحمله أو يأكل ثمنه ، وذلك هروبا من صحبة من لعنه الله تعالى أو لعنه الأئمة رضى الله عنهم إيثارا لجناب الله عز وجل ، اللهم إلا أن تكون صحبتهم نقصد بها تمهيد بساط التوبة لهم فهذا متعين كما عليه الدعاة إلى الله تعالى فإنهم لا يبعدون عن مستقيم ولا أعوج ، فإن المستقيم لا يجوز هجره والأعوج محتاج إلى من يقوم عوجه :

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام حين أنفت نفسه من مخالطة عصاة بنى إسرائيل إيثارا لجناب الله عز وجل :

« يَا دَاوُدَ الْمُسْتَقِيمُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكَ وَالْأَعْوَجُ قَدْ أَنِفَتْ نَفْسُكَ عَنْ مُخَالَطَتِهِ وَتَقْوِيمِ عِوَجِهِ فَلِمَاذَا أُرْسِلْتَ » .

فتنبه داود عليه الصلاة والسلام لسر حكمة إرساله ، وصار يجالس العصاة ليلا ونهارا ويسارقهم بالمواعظ ، وقد أغفل هذا الأمر خلق كثير من طلبة العلم فبعدوا عن خلطة

المعوجين من الظلمة فحرموا بركة هدايتهم ، ولو أنهم قربوا منهم مع العفة عما بأيديهم من الدنيا وسارقوهم بالمواعظ لربما أثرت فيهم مواعظهم :

وقد كاتبت يهوديا مرة من عمال المكس بكلام لين فأسلم :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

زاد فى رواية أبى داود ولكن التوبة معروضة بعد ، إذ من عقل العاقل أن لا يصحب من لعنه الشارع أو الأئمة خوفا أن يلحقه من اللعن جزء ، وسيأتى بيان المراد برفع الإيمان من أصحاب هذه الصفات فى العهد بعده :

وروى أبو داود وابن ماجه والترمذى مرفوعا :

« لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَبَائِعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ » .

وزاد فى رواية للترمذى : « وَآكِلَ ثَمَنِهَا » .

وروى أبو داود مرفوعا : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ قَالَهَا ثَلاَثًا ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ فَبَاعُوهَا فَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا إِنَّ اللهَ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَةَ عَشَرَ خَصْلَةً نَزَلَ بِهَا الْبَلاَءُ قِيلَ وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دُوَلاً وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَعَقَّ الْوَلَدُ أُمَّهُ وَبَرَّ صَدِيقَهُ وَجَفَا أَقَارِبَهُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ وَشُرِبَتِ الْخَمْرُ وَلُبِسَ الْحَرِيرُ وَاتُّخِذَتِ الْمُغَنِّيَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَلَعَنَ آخِرُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلَهَا فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذٰلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ أَوْ خَسْفًا وَمَسْخًا » .

وروى الحاكم مرفوعا : « مَنْ زَنَى أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الْإِيمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الْإِنْسَانُ الْقَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ » .

وروى الامام أحمد مرفوعا : « مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ » .

وروى البيهقى : « إِذَا اسْتَحَلَّتْ أُمَّتِي خَمْسًا فَعَلَيْهِمُ الدَّمَارُ إِذَا ظَهَرَ التَّلَاعُنُ وَشُرِبَتِ الْخَمْرُ وَلُبِسَ الْحَرِيرُ وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى من شهوات الأكل والشرب إلا بقدر الحاجة خوفا من انتشار جوارحنا لفعل المعاصى ، لاسيما الفرج لاسيما بحليلة الجار ومن غاب زوجها ، من حيث أن الله تعالى هو خليفة الغائب فى أهله وهو الحارس لهم ، فمن تعرض لهم بسوء كان خصمه الله ومن كان خصمه الله أكبه فى النار على وجهه ومقته وأزال عنه النعم كما هو مشاهد فى الزناة ، ومن شك فليجرب ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من كثير من الناس حتى وقع أن جماعة من أكابر الناس اجتمعوا فى مجلس فقال شخص منهم من سلم منكم من الزنا فليحلف لنا بالله تعالى أنه مازنى فاتجرأ أحدمنهم على الحلف ، واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فى ذلك فى شبابهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأصل ذلك كله تعاطى ما يثير الشهوة مع تقدير الله عز وجل :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يروض نفسه على يديه شيئا فشيئا حتى يترك الشهوات المكروهة كلها ويصير أكثر أوقاته مراقبا لله عز وجل ومشاهدا لأهل حضرته من الأنبياء والأولياء والملائكة ، وهناك يسرق من طباعهم الحسنة ، وأما من أكل الشهوات وخالط أهل الغفلة المطرودين عن حضرة الله تعالى وطلب السلامة من الزنا فقد رام المحال ، وقد فسد جماعة من كثرة أكل الشهوات وخلطة من لا يصلح من أولاد مصر وكسبوا بالوالى وخسروا الدنيا والآخرة .

فإياك يا أخى من الشبع ولو كنت شيخا ، فإنه لولا أن الشيخ يقع فى الزنا ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الشَّيْخَ الزَّانِي » .

فلولا وجوده لما وجد لغضب الحق نفاذ .

واعلم يا أخى أننا لانعلم ذنبا ينشأ من أكل الشهوات بعد الكفر والقتل أقبح من الزنا فإن الله تعالى قال فيه :

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً) .

فنسأل الله تعالى من فضله أن يحفظنا منه وإخواننا وجميع العارفين آمين :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » الحديث.

قلت : معناه أنه لا يزنى وهو مؤمن بأن الله يراه إذ لو كان يؤمن بذلك حال الزنا ما زنى فلا بد من حجاب للزانى عن شهود إيمانه بأن الله يراه حتى يقع ، وليس المراد نفى إيمانه بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونحو ذلك فافهم والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ الثَّيِّبِ الزَّانِي وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ » .

وروى الطبرانى باسناد صحيح مرفوعا : « يَا بَغَايَا الْعَرَبِ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الزِّنَا وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ » .

يعنى الرياء فى العبادات كما صرح به الحديث :

وروى الطبرانى مرفوعا باسناد فيه نظر : « الزُّنَاةُ تَشْتَعِلُ فُرُوجُهُمْ نَارًا » .

وروى البيهقى مرفوعا : « الزِّنَا يُورِثُ الْفَقْرَ » .

يعنى به الفقر الذى استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم والنسائى والطبرانى وغيرهم مرفوعا :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الشَّيْخِ الزَّانِي وَالْعَجُوزِ الزَّانِيَةِ » .

وفى رواية له أيضا : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى الأَشْمَطِ الزَّانِي » .

الأشمط : من اختلط شعر رأسه الأسود بأبيض .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفشُ فِيهِمُ الزِّنَا فإذا فَشَا فِيهِمُ الزِّنَا فَأَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ » .

وروى البزار مرفوعا : « إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا ظَهَرَ الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مِنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :

« لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ قَعَدَ عَلَى فِرَاشِ مَغِيبَةٍ قَيَّضَ اللهُ لَهُ ثُعْبَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمغيبة : هى التى غاب زوجها عنها والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نحذر مما حذرنا الله تعالى منه ولو كنا على قدم صالحى زماننا ، فلا نستبعد وقوعنا فى أعظم الكبائر كاللواط فى آدمى أو بهيمة أو شرب بوظة أو أكل حشيش أو نحو ذلك ، فإن طينة الآدمية واحدة والجائز وقوعه من أفسق الفاسقين جائز وقوعه من أصلح للصالحين ، وماخرج عن هذه الطينة سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم وبعض الكمل لحفظهم ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الفقراء فيظنون بأنفسهم الحفظ وأن مثلهم لا يقع فى مثل ما ذكرناه ، فما يمضى عليهم زمان إلا وقد وقعوا فيما حذرهم الله منه فالعاقل من خاف مما خوفه الله منه والسلام .

وقد روى ابن ماجه والترمذى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ » .

وروى ابن ماجه والبزار والحاكم والبيهقى مرفوعا :

« مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلاَّ كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ وَلاَ ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِمُ الْمَوْتَ » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةَ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا

إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا » .

وروى الطبراني مرفوعا : « إِذَا كَثُرَتِ اللُّوطِيَّةُ رَفَعَ اللهُ يَدَهُ عَنِ الْخَلْقِ فَلاَ يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا » .

وروى الطبراني أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ : « مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ وَرَدَّدَهَا ثَلاَثَ مَرَّات ، ثُمَّ لَعَنَ مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنَ الْبَهَائِمِ مَرَّةً وَاحِدَةً » .

وروى الطبراني والبيهقي مرفوعا : « أَرْبَعَةٌ يُصْبِحُونَ فِي غَضَبِ اللهِ وَيُمْسُونَ فِي سَخَطِ اللهِ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ الَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي الرِّجَال » .

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي مرفوعا :

« مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد جيد : أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق أنه وجد رجلا في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع لذلك أبو بكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم على بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال على: إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار .

وروى الطبراني مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُقْبَلُ مِنْهُمْ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : الرَّاكِبُ وَالْمَرْكُوبُ وَالرَّاكِبَةُ وَالْمَرْكُوبَةُ وَالإِمَامُ الْجَائِرُ » .

وروى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه مرفوعا :

« لاَ يَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلاً أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا » .

وروى أحمد والبزار ورجالها رجال الصحيح .

« هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى » يعني الرجل يأتي امرأته في دبرها .

وروى ابن ماجه وغيره :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لاَ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ »

وروي الطبراني مرفوعا ورواته ثقات: «لَعَنَ اللهُ الَّذِينَ يأْتُونَ النِّسَاءَ فِي مَحَاشِّهِنَّ» .

وفى رواية : « فِي أَسْتَاهِهِنَّ » .

قال الحافظ عبد العظيم : وحرق اللوطية أربعة من الصحابة : أبو بكر وعلى وعبد الله ابن الزبير وهشام بن عبد الملك ، وتحقيق هذه المسئلة من حيث كيفية الحد فيها مقرر فى كتب الفقه والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نشمت قط بقتل عدوّ من المسلمين لا سيما إن قتل بغير حق ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس ، فيفرحون إذا قتل عدوّهم من المسلمين ، ومن وقع له ذلك لا بد أن يقع فى مثل ذلك ويشمت فيه الناس كذلك ، وقد جرب أنه ما سعى أحد فى قتل عدوّ إلا وألقى الله تعالى عليه الغم والهم ؛ حتى أنه لا يتهنى بعده بأكل ولا نوم حتى يموت بعده بقليل ، ولولا أن الغم ملازم للقاتل ما قال تعالى ممتنا على موسى عليه الصلاة والسلام :

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) .

مع أن تلك النفس التى قتلها موسى كانت كافرة : أى نجيناك من الغم الذى جعلناه على كل قاتل .
وقد رأينا جماعة من ملوك الجراكسة سعوا فى قتل عدوهم فقتلوا كلهم بعده بقليل :
فإياك يا أخى أن تسعى فى قتل نفس أو تشمت فى قتلها :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الترمذى وقال حسن غريب مرفوعا :

« لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمُهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ » .

قال الإمام أحمد قالوا : من ذنب قد تاب منه :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا أيضا : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، فَذَكَرَ مِنْهَا قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ » والموبقات : هى المهلكات .

وروى البخارى والحاكم مرفوعا : « لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول : من ورطات الأمور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن والترمذى والبيهقى وغيرهم مرفوعا :

« لزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

زاد البيهقى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَدْخَلَهُمُ اللهُ بِقَتْلِهِ النَّارَ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلم طَافَ بِالْكَعْبَةِ فَقَالَ : مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ ! مَا أَعْظَمَكِ وَمَا أَعْظَمِ حُرْمَتَكِ ! وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَتِكَ مَالِهِ وَدَمِهِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةَ عَامٍ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نحضر قتل إنسان أو ضربه أو معاقبته ظلما ولو كنا غير راضين هروبا من السؤال عنه يوم القيامة ، وهذا العهد يتعين العمل به على حملة القرآن ونحوهم من المؤمنين ، فلاينبغى لأحد منهم أن يحضر مع الأطفال مواطن الظلم أو يخرج من بيته حتى ينظر من شنقه الولاة أو شنكلوه أو خوزقوه أو وسطوه ، أو خزموه فى أنفه أو سمروا أذنيه فى حائط أو جرسوه على ثور أو شحططوه فى أذناب الخيل ، أو ضربوه فى قطع الخليج أو عدم نقده الفلوس الجدد التى تدخل عليه ونحو ذلك ، فربما يكون أرباب هذه الأمور مظلومين فيؤاخذ بعدم نصرتهم ، ولو أننا لم نحضرهم ربما لا نؤاخذ على ذلك .

وقد أخبرنى سيدى على الخواص قال : رأيت الشيخ عز الدين المظلوم المدفون فى كوم

الريش بين مصر ومنية الأمير وهو يخشب هو وجماعته على جمال وهو يضحك ، فقلت له يش هذا الحال ؟ فقال ما أراد أن نقدم عليه إلا هكذا ، قال وكان أصل هذه الواقعة أن الشيخ عز الدين قال لجماعته فى أيام الغلاء يافقراء رأيت أنه ينزل علينا بلاء ، فمن أحب أن يشاركنا فيه فليقعد ، ومن أحب أن يهرب فليهرب ، فقال بعض الفقراء كأن الشيخ استثقل بأكلنا فى هذا الغلاء فبعد أيام قلائل ضربت المناسر مصر وكان الشيخ عز الدين وجماعته يسهرون الليل فى العبادة وينامون بالنهار فى الزاوية فى كوم الريش ، فجاء إنسان إلى السلطان وقال له قد عثرنا على المنسر الذى يدق المدينة ، فأرسل الوالى فقبض على الشيخ وجماعته وكانوا أربعين رجلا ، فأمر السلطان الوالى بتوسيطهم فوسطهم فى الكوم ، فبينما الفقراء بالليل وإذا بكلب يأكل من الموسطين ، فزحف الشيخ وأخذ جريدة وطرد الكلب عن جماعته ، فأخبر الوالى بذلك فجاء يعنف الشيخ ، فقال له الشيخ أنت وسطتنا بسيف السلطان ونحن نوسطك بسيف القدرة ، فأشار بالجريدة فوسط الوالى فهم الآن كلهم مدفونون فى الكوم الشيخ والوالى والفقراء رضى الله عنهم .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « لاَ يَشْهَدُ أَحَدُكُمْ قَتِيلاً لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا فَيُصِيبُهُ السُّخْطُ » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « لاَ يَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ مَوْقِفًا يُقْتَلُ فِيهِ رَجُلٌ ظُلْمًا فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ حِينَ لَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ وَلاَ يَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ مَوْقِفًا يُضْرَبُ فِيهِ رَجُلٌ ظُلْمًا فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ حِينَ لَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ » .

قلت وخرج بقوله ظلما من قتل بسيف الشرع أو جلد فى زنا لقوله تعالى :

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) والله تعالى أعلم .

وروى الطبرانى مرفوعا باسناد حسن : « مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « ظَهْرُ الْمُؤْمِنِ حِمًى إلاَّ بِحَقِّهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بارتكاب شيء من صغائر الذنوب فضلا عن كبائرها ، ولا بارتكاب شيء من مكروهاتها حتى خلاف الأولى منها ، ولا نصر على ذنب بل نتوب منه على الفور ، وذلك لأن ارتكاب المعاصى وما قاربها مع الاصرار يظلم به القلب حتى يصير لا يحن إلى فعل شيء فيه خير ، وتتفاوت الناس فى مقدار ظلمة القلب بحسب مقاماتهم ، فربما أن بعض الناس لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب الكبائر دون الصغائر ، وربما إن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب الصغائر دون المكروهات ، وربما أن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب المكروهات دون خلاف الأولى ، ولكل مقام رجال ، فكلما صفا القلب كلما ظهر فيه الظلمة وأدركها بصر صاحبها كالحبر على الورق ، وكلما تكدر القلب خفى فيه الظلمة ولم يدركها بصر صاحبها كالحبر على الفحم :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يسد عليه جميع المخارس التى يدخل منها الشيطان ويشغله بالطاعات المتوالية حتى تتراكم عليه الأنوار ، ويخلص من سائر الذنوب ، ويدخل حضرة الإحسان ، فهناك لا يتهاون بذنب ولو خلاف الأولى فضلا عن المكروهات فضلا عن الصغائر فضلا عن الكبائر ، فإن أهل كل حضرة يساعدون بعضهم بعضا بمشاهدة بعضهم أحوال بعض ، ومن هنا شرطوا فى إتمام التوبة هجر إخوان السوء لئلا يزلزلوا توبته بمشاهدته لمعاصيهم ، وأمروا التائب أن يخالط أهل الطاعات ليشاهد طاعاتهم وينقل نفسه من المعاصى ، والطباع تسرق من الجليس الأفعال التى يشاهدها منه من خير وشر ولو على طول ، فينتقل جميع ما فى ذلك الجليس لك يا أخى ، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وقد روى الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ـ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ـ » .

والنكتة : هى نقطة تشبه الوسخ فى المرآة .

وروى الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى مرفوعا :

« إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى تُهْلِكَهُ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَأْتِي بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفَ فِيهَا » .

وروى النسائى بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه وغيرهما مرفوعا :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » .

وروى الطبرانى عن ابن مسعود : « إِنِّي لَأَحْسِبُ الرَّجُلَ يَنْسِى الْعِلْمَ كَمَا تَعَلَّمَهُ لِلْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا » .

وروى البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، يعنى المهلكات .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَوْ أَنَّ اللَّهَ يُؤَاخِذُنِي وَعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ بِذُنُوبِنَا لَعَذَّبَنَا وَلَا يَظْلِمُنَا شَيْئًا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا » .

وفى رواية : « لَوْ يُؤَاخِذُنِي اللَّهُ وَعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ بِمَا جَنَتْ هَاتَانِ يَعْنِي الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ ثُمَّ لَمْ يَظْلِمْنَا شَيْئًا » .

وروى الإمام أحمد والبيهقى مرفوعا : « لَوْ غَفَرَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ إِلَى الْبَهَائِمِ لَغَفَرَ لَكُمْ كَثِيرًا » .

وفى رواية أنه من كلام أبى الدرداء .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد أن عبد الله بن مسعود قرأ :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) .

ثم قال: «كاد الجعل يعذب فى جحره بذنب ابن آدم» والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة تكاد تشبه الخنفساء تدحرج الروث بأنفها والله أعلم.

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بمخالفة أغراض والدينا ولو مباحة، فنفعلها لهما لأنها واجبة أو مندوبة ونجتنب كل ما يكرهونه كأنه حرام أومكروه، وذلك أن الشارع صلى الله عليه وسلم لم يذكر للعقوق ضابطا يرجع إليه، وإنما ذكر أننا لا نخالفهم فيما يطلبونه منا.

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق حتى يعرفه مقام الوالدين عند الله تعالى.

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لايأكل مع والدته قط فى إناء واحد خوفا أن يسبق بصرها إلى لحمة أو رطبة أو زبيبة أو عنبة أو تينة فيأكلها وهو لا يشعر.

واعلم يا أخى أنه لا فرق فى النهى عن مخالفة الوالدين والد الجسم أو والد القلب، بل مخالفة والد القلب أشد لأنه ينقذه من النار أو مما يقرب من النار، وأما والد الجسم فإنما كان سببا فى إيجاده فى أسفل المراتب، فكأنه أوجده كالطينة أو كالحديدة المصدأة فلم يزل والد القلب يلطفه حتى صار كالبلور الأبيض أو كالذهب المصفى، وأيضا قالوا أبو الجسم كان سببا لمجاورته للحيوانات والبهائم، وأبوالروح كان سببا فى مجاورته لأهل حضرة الله من الملائكة والأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: لا يقدر مريد يجازى شيخه على تعليمه أدبا واحدا فى الطريق ولو خدمه ليلا ونهارا، إلى أن يموت.

فاسلك يا أخى على يد شيخ لتعرف مقدار حق الوالدين وتجتنب عقوقهم والله يتولى هداك.

وروى البخارى وغيره مرفوعا: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْـكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَمَنْعًا وَهَاتِ» الحديث.

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا: «أَلاَ أُنَبِّئُـكُمْ بِأَكْبَرِ الْـكَبَائِرِ ثَلاَثًا؟ فَقَالُوا بَلَى يا رسولَ اللهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» الحديث.

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا:

« كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلاَّ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ فَإِنَّ اللهَ يُعَجِّلُهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ » .

قلت : فعلم أنه لا ينبغى التهاون بشىء من حقوق الوالدين أبدا لاحتمال أن يؤاخذ الله تعالى به الولد كما روى الأصبهانى وغيره ، وقال الأصبهانى : حدث به أبو العباس الأصم إملاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه عن العوام بن حوشب قال :

نزلت مرة حيا وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج منه رجل رأسه رأس حمار ، وجسده جسد إنسان ، فنهق ثلاث نهقات ثم انطبق عليه القبر فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا ، فقالت امرأة ترى تلك العجوز فقلت مالها فقالت هى أم صاحب هذا القبر فقلت وما كان قضيته ؟ قالت كان يشرب الخمر فإذا راح إلى أمه تقول له أمه يابنى اتق الله إلى متى تشرب هذا الخمر؟ فيقول لها إنما أنت تنهق كما ينهق الحمار؟ قال فمات بعد العصر فهو ينشق عنه القبر كل يوم بعد العصر فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر .

وروى النسائى والبزار مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ » الحديث والله تعالى أعلم

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بعدم صلة الرحم بل نصلها ولو قطعت طلبا لمرضاة الله تعالى ومصلحة لنفوسنا ، من حيث الأجر العظيم لمن يصل رحمه التى قطعته ، وكذلك لانرافق قاطع رحم ولا نجالسه ، وهذا العهد لا يقوم به إلا من سلك على يد شيخ وخرج عن رعونات النفوس وصار يعامل الله فى خلقه امتثالا لأمره لا لعلة أخرى ، وأما من لم يسلك فمن لازمه غالبا قطع رحمه إذا قطعته ولا يصلها إلا إن وصلته ، وتلك إنما هى متاجر ليست من أخلاق كمل المؤمنين .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح ليوصلك إلى مقام الصدق فى معاملة الله والله يتولى هداك .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا اللهُ وَأَنَا الرَّحْمٰنُ وَخَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ » أو قال : « بَتَتُّهُ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ » .

وروى البخارى واللفظ له وأبو داود والترمذى وغيرهم مرفوعا :

« لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِى إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح مرفوعا :

« لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ لاَ تَظْلِمُوا » .

وقوله إمعة بكسر الهمزة وتشديد الميم وفتحها وبالعين المهملة قال أبو عبيدة : الإمعة هو الذى لا رأى معه ، فهو يتابع مع كل واحد على رأيه .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ » يعنى الرماد الحار .

قلت : وقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ » .

فيه رائحة أن السائل لم يكن من أهل ذلك المقام ، فاستبعد الشارع صلى الله عليه وسلم وقوع ما قاله منه من أنه يفعله والله أعلم .

وروى الطبرانى وغيره مرفوعا وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم مرفوعا :

« أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الصَّدَقَةُ عَلَى ذِى الرَّحِمِ الْكَاشِحِ » .

ومعنى الكاشح : أى الذى يضمر عداوته فى كشحه وهو خصره يعنى أن أفضل الصدقة على ذى الرحم المضمر العداة فى باطنه ، وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

« وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ » .

وروى الإمام أحمد والحاكم : « أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ قَالَ : لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ صلى

اللهُ عليهِ وسلمَ فأخذتُ بيدِهِ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ أخبرْنِي بفَوَاضِلِ الأعمالِ فقالَ : يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » .

وفى رواية البزار والطبرانى : « وَتَعفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَكْرَمِ أَخلاَقِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ ؟ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » .

زاد فى رواية : « وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ » .

وفى رواية للبزار : « وَتَحْلُمَ عَلَى مَنْ جَهِلَ عَلَيْكَ » .

وروى ابن ماجه والترمذى والحاكم وغيرهم :

« مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ بِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ » .

وروى الطبرانى بإسناد صحيح عن ابن مسعود أنه كان جالسا بعد الصبح فى حلقته فقال أنشد بالله قاطع الرحم لما قام فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة دون قاطع الرحم . ومعنى مرتجة : مغلقة .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ تَنزِلُ المَلاَئِكَةُ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ قَاطِعُ رَحِمٍ » .

وروى الأصبهانى عن عبد الله بن أبى أوفى قال :

« كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ : لاَ يُجَالِسُنَا الْيَوْمَ قَاطِعُ رَحِمٍ فَقَامَ فَتًى مِنَ الْحَلْقَةِ فَأَتَى خَالَتَهُ وَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَاسْتَغْفَرَ لَهَا وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَجْلِسِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الرَّحْمَةَ لاَ تَنزِلُ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ قَاطِعُ رَحِمٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بحق الجار ولو كان من أعدى عدو لنا ، بل نخالف نفوسنا ونقهرها على الإحسان إلى ذلك الجار العدو .

واعلم أن مما يخفى على كثير من الناس تأدية حق الجار من الملائكة الكرام الكاتبين

وكذلك حق الله عز وجل فإنه تعالى أقرب من الجار إلينا كما أشار إليه قوله تعالى :
(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) .

وجماع تأدية حق الله تعالى فعل ما أمر واجتناب مانهى وجماع حق الملائكة الكرام الكاتبين ، عدم عصيان الله تعالى وعدم الروائح الكريهة والكلام القبيح وغير ذلك من سائر أخلاق الشياطين ، فكما أن الشياطين تنفر من أخلاق الملائكة كذلك الملائكة تنفر من أخلاق الشياطين ، ومن تأكيد حق الجار عدم غيبته وافتقاده بالمرقة كل ليلة إذا طبخ طبيخا وفي جميع المواسم كالعيدين ، وأيام العشر ونحو ذلك ، ومن حقه أيضا كسوة أولاده كلما تعروا ، وشراء الفواكه والحلاوات لهم ونحو ذلك ، ومن حقه أيضا القيام له إذا مر علينا والاهتمام بكل ما يهمه من خوف على نفس أو مال أو ولد أو صاحب ونحو ذلك :

وبالجملة فمن عمل ببعض الآداب جره ذلك إلى فعل البعض الآخر :
(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ » الحديث .

وروى الإمام أحمد والطبراني ورجاله رجال ثقات :
« لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشَرَةِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ » .

وروى البخاري ومسلم وأحمد : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » .

زاد أحمد في رواية : « قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : شَرُّهُ » .

وروى أبو يعلى والأصبهاني مرفوعا : « إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ يَبِيتُ حِينَ يَبِيتُ وَهُوَ آمِنٌ مِنْ شَرِّهِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي نَفْسُهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ » .

وروى مسلم مرفوعا : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ أَوْ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

وروى الطبرانى أن رجلا قال يارسول الله إنى نزلت فى محلة بنى فلان وإن أشدهم لى أذى أقربهم لى جوارا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا يأتون المسجد فيقومون على بابه فيصيحون :

« أَلاَ إِنَّ أَرْبَعِينَ دَارًا جَارٌ ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَائِقَهُ » .

يعنى شره وغائلته ، كما فى رواية : وفى رواية أن البوائق : هى العطش والظلم .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « مَنْ آذَى جَارَهُ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ ، وَمَنْ حَارَبَ جَارَهُ فَقَدْ حَارَبَنِي ، وَمَنْ حَارَبَنِي فَقَدْ حَارَبَ اللهَ » .

وفى رواية للطبرانى : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ كَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : لاَ يَصْحَبْنَا الْيَوْمَ مَنْ آذَى جَارَهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا بَنَيْتُ فى أَصْلِ حَائِطِ جَارِي فَقَالَ لاَ تَصْحَبْنَا الْيَوْمَ » .

قال الحافظ عبد العظيم وفيه نكارة :

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ » .

وروى الطبرانى والبزار باسناد حسن : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم يَشْكُو جَارَهُ فَقَالَ : اطْرَحْ مَتَاعَكَ عَلَى الطَّرِيقِ فَطَرَحَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَلْعَنُونَهُ » أى ذلك الجار « فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلمَ فَقَالَ : يَارَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ : وَمَا لَقِيتَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَلْعَنُونِي ، قَالَ : قَدْ لَعَنَكَ اللهُ قَبْلَ النَّاسِ قَالَ إِنِّي لاَ أَعُودُ فَجَاءَ الَّذِي شَكَاهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَالَ لَهُ ارْفَعْ مَتَاعَكَ فَقَدْ كُفِيتَ » .

وروى البزار والإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم :

« أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا فَقَالَ: هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلاَنَةَ

يذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلاَتِهَا وَأَنَّهَا تَتَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ وَلاَ تُؤْذِى جِيرَانَهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ ».

والأثوار : جمع ثور وهى القطعة من الأقط ، والأقط : شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمى :

وروى الخرائطى مرفوعا : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ جَارِهِ مَخَافَةً عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِمُؤْمِنٍ ، وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، أَتَدْرِى مَاحَقُّ الْجَارِ عَلَى الْجَارِ؟ إِذَا اسْتَعَانَكَ فَأَعِنْهُ ، وَإِذَا اسْتَقْرَضَكَ أَقْرِضْهُ وَإِذَا افْتَقَرَ عُدْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا مَرِضَ عُدْتَهُ ، وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّيْتَهُ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ ، وَإِذَا مَاتَ اتَّبَعْتَ جَنَازَتَهُ ، وَلَا تَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، وَلَا تُؤْذِيهِ بِقُتَارِ رِيحِ قِدْرِكَ إِلاَّ أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا ، وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ ».

قال الحافظ : ويشبه أن يكون قوله أتدرى ما حق الجار إلى آخره من كلام الراوى غير مرفوع :

وفى رواية للطبرانى عن معاوية بن حيدة قال :

« قُلْتُ يَا رَسولَ اللهِ مَا حَقُّ الْجَارِ عَلَيَّ ؟ قَالَ : إِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتَهُ وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ وَإِنْ أَعْوَزَ سَتَرْتَهُ ».

وزاد فى رواية فى آخره : « هَلْ تَفْقَهُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ؟ لَنْ يُؤَدِّيَ حَقَّ الْجَارِ إِلاَّ قَلِيلٌ مِمَّنْ رَحِمَ اللهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ».

قال الحافظ عبد العظيم بعد أن ذكر طرق الحديث : ولايخفى أن كثرة طرق الحديث تكسبه قوة :

وروى الطبرانى مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ مِنَ الْفَوَاقِرِ فَذَكَرَ مِنْهَا وَجَارُ سُوءٍ إِنْ رَأَى خَيْرًا دَفَنَهُ ، وَإِنْ رَأَى شَرًّا أَذَاعَهُ ».

وروى الطبرانى وأبو يعلى ورجاله ثقات مرفوعا :

« مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ » .

وفى رواية للطبرانى : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اكْسُنِي فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اكْسُنِي فَقَالَ أَمَا لَكَ جَارٌ لَهُ فَضْلُ ثَوْبَيْنِ فَقَالَ بَلَى غَيْرُ وَاحِدٍ فَقَالَ لَا يَجْمَعُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فى الْجَنَّةِ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَقُولُ يَارَبِّ سَلْ هٰذَا لِمَ أَغْلَقَ عَنِّي بَابَهُ وَمَنَعَنِي فَضْلَهُ » .

وروى ابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والترمذى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم مرفوعا :

« خَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ » .

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ فَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلٌ لَهُ جَارٌ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » .

وروى الإمام أحمد ورواته رواة الصحيح مرفوعا : « مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ: الْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ » .

زاد فى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ : الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْجَارُ الصَّالِحُ » الحديث .

وروى الطبرانى مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَدْفَعُ بِالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءَ » ثُمَّ قَرَأَ (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقيم عند أخينا بحيث نضيق عليه إذا زرناه ، بل نرجع من عنده بسرعة ، فإن عزم علينا بالإقامة

وأكد بتنا عنده عملا بقوله ثم استأذناه من بكرة النهار على الرجوع من عنده ، فإن عزم وأكد بتنا عنده كذلك لكن بشرط أن يغلب على ظننا الإخلاص وعدم التجمل ، فإن طرقنا منه رياء وحب تجمل فارقناه ولو قهرا عليه لاسيما إن كان مشهورا بالكرم فى بلده والخلق يبيتون عنده كثيرا ، فإن هذا الزمان لايحتمل أن أحدا يظهر فيه بالكرم فى بلده ويكثر عليه الوارد ويصير يطعم الناس بطيبة نفس أبدا ، إنما هى تجوينات ، وآخر الأمر يتوارى عن الناس أو يرحل من تلك البلد . وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الفقراء والفقهاء الساذجين فيزورون مريديهم وأصحابهم بعيالهم أيام النيل بمصر أو أيام الشتاء ويمكثون عند مريدهم وأصحابهم بعيالهم حتى يتمنى أنه لم يكن عزم عليهم لكثرة كلفة الطعام وضيق المكان الذى يبيتون فيه ، فرحم الله من زار وخفف وعمل بكلام الشارع فى ذلك .

فعلم أنه ينبغى للمتورع إذا سافر بلاد الريف مثلا أن لايبيت فى دار من اشتهر بالكرم فى هذا الزمان رحمة به لاسيما إن كان من أصحاب من يكرهنا فإن طعام المتكرمين داء فى جسد الآكل كطعام البخيل على حد سواء ، وإن كان ولابد له أن يبيت عنده فليحمل عنه عليق بهائمه ويكافئه على طعامه ولو بأن يخلع له ثوبه ، وقد مضى أهل المروءات الذين كانوا يعاملون الله تعالى وبقى من يطلب العوض من الناس فى كل معروف أسداه إليهم ، فاعرف زمانك يا أخى والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِىَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ » .

قال الترمذى : ومعنى لايثوى عنده لايقيم حتى يشق على صاحب المنزل : والحرج : هو الضيق .

وقال الخطابى : معناه لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد ثلاثة أيام من غير استدعاء منه حتى يضيق صدره فيبطل أجره .

وقال الحافظ عبد العظيم : وللعلماء فى الحديث تأويلان : أحدهما أنه يعطيه مايجوز به ويكفيه فى يومه وليلته إذا اجتاز به وثلاثة أيام إذا قصده ، والثانى أن يعطيه ما يكفيه يوما وليلة ويستقبلهما بعد ضيافته

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار مرفوعا :

« لِلضَّيْفِ عَلَى مَنْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ثَلَاثٌ فَمَا زَادَ فَهُوَ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى الضَّيْفِ أَن يَرْتَحِلَ لَا يُؤَثِّمَ أَهْلَ الْمَنْزِلِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نحتقر ما نقدمه للضيف ولا نحتقر ما قدم لنا إذا كنا ضيوفا ولو كسرة يابسة أو تمرة واحدة ، لا سيما فى هذا الزمان الذى قلّ فيه الحلال ، حتى أنه لا يكاد يوجد شىء منه فى يد شيخ من مشايخ الفقراء فضلا عن آحاد الناس ، ولم يكلفنا الله تعالى أن نضيف الناس بالحرام والشبهات ، وإنما أمرنا أن نضيفهم بالحلال .

واعلم أن من علامة المتهور فى أكل الشبهات أن يوجد عنده غالب الأيام الطعام واسعا يأكل منه الضيوف ويفضل عنهم ، ولو أنه كان تورع على طريقة القوم ما وجد شيئا يكفيه ويكفى عياله أبدا ، وقد أراد الفقراء المقيمون عندنا فى الزاوية أن يعلموا القطع الخشب الكبار التى اشتريتها لسماط الفقراء ، فقالوا أىّ شىء نكتبه عليهم ؟ فقلت لهم اكتبوا : كبر القصع من قلة الورع .

وقد بلغنا أن الحسن البصرى زار عمر بن عبد العزيز أيام خلافته ، فأخرج له عمر نصف رغيف ونصف خيارة وقال له كل ياحسن ، فإن هذا زمان لايحتمل الحلال فيه الإسراف اهـ .

وقال ميمون بن مهران : زرت الحسن البصرى فدققت الباب فخرجت لى جارية خماسية ، فقالت من تكون؟ فقلت لها ميمون ، قالت كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت لها نعم ، فقالت : وما حياتك ياشقى إلى هذا الزمان الخبيث ؟ ثم استأذنت الحسن فأذن لى فدخلت عليه فأخرج لى كسرة وشقة بطيخ وذكر لى زيارته لعمر بن عبد العزيز وتقديمه له الكسرة والخيارة : فإذا كان هذا حال الخلفاء أمراء المؤمنين فى المائة الأولى فما ظنك يا أخى بالنصف الثانى من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب فى عدم تورع أحد من أهله ذلك التورع :

فأطعم يا أخى لله تعالى بشرط الحل فإنك مسئول عن كل لقمة تطعمها لضيوفك من أين اكتسبتها والله يتولى هداك :

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى عن جابر أنه دخل عليه نفر من أصحاب محمد صلى الله

عليه وسلم فقدم إليهم خبزا وخلا وقال : كلوا فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نعم الإدام الخل » فإنه هلاك بالرجل أن يدخل عليه النفر من إخوانه أن يحتقر ما فى بيته أن يقدمه إليهم ؛ وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قدم إليهم. قال الحافظ وقوله نعم الإدام الخل فى الصحيح وقوله إنه هلاك بالرجل الخ لعله من كلام جابر ، أدرجه فى الحديث وليس بمرفوع والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نبخل ولا نشح على أحد من المسلمين إذا سألنا شيئا ونحن فى غنية عنه ، بل نعطيه له تخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، وهذا العهد لايعمل به إلا من سلك على يد شيخ ناصح ، وخلص من محبة الدنيا وشهواتها ، وإلا فمن لازمه البخل والشح كما عليه طائفة المتعبدين والمتفقهين الذين لم يدخلوا طريق القوم : وإيضاح ذلك أن أصل الإنسان فقير بالذات وما فتح عينه فى هذه الدار إلا وهو فقير ليس له ثياب ولا له متاع فكان من شأنه أن يأخذ ولا يعطى إلى أن يموت ، فلما ذم الله تعالى البخل والشح أنف أهل الله عز وجل أن يقفوا فى مقام يذمهم الله تعالى فيه ، فلذلك طلبوا أن يزيل أمراضهم ويبطل موانعهم حتى يدخلوا حضرات الجود الكرم ، فمنهم من ظفر بشيخ ناصح أوصله إلى ذلك المقام ، ومنهم من لم يظفر :

وكان سيدى الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : لابد للفقير من رمى الدنيا من يده ثم من قلبه قبل سلوك الطريق ، ومحال أن يقدر أحد على إدخال فقير حضرة الله عز وجل ومعه علاقة دنيوية ، إذ جميع أهل حضرة الله عز وجل مطهرون من محبة الدنيا وشهواتها ، لأنهم أنبياء وأولياء وملائكة ، ولا أحد من هؤلاء يحب الدنيا لغرض فاسد ، وإنما يحبها لله عز وجل بالإجماع ، وكان يقول فى تفسير قوله تعالى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ) الآية .

بلســان الإشارة المعروفة بين القوم يقال للولى « وما تلك بيمينك » أيها الولى فيقول هى دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى ، فيقال له ألقها فيلقيها فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها فيأخذ حذره منها ، فإذا حذر منها يقال له (خذها ولا تخف) فكما ألقاها أولا باذن حال بدايته ، فكذلك أخذها بإذن حال نهايته ، وهذا الأخذ الثانى متعين على كل شيخ داع إلى الله تعالى ليحمل كلفته عن المريدين ويرتفع عندهم

مقامه ، فإن كل من احتاج إلى إنسان هان فى عينه لأنه حينئذ يصير معدودا من عائلته فيقل نفع ذلك الشيخ .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : مال المريدين حرام على الأشياخ إلا أن يتحدوا بالشيخ فيصير مالهم معدودا عندهم من فضل شيخهم.وصدقته عليهم اهـ

وقد بلغنا أن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل كان فقيرا أول رسالته ، فكان إذا جاع وقف على أبواب بنى إسرائيل يطلب منهم غداء أو عشاء ، فشق عليه ذلك فقال يارب إن خزائن رزقك ملأى لاتعجز عن غدائى وعشائى ، فلو أغنيتنى عن بنى إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه : يانبى إذا كانت هذه الشكاية فى خلقك على بنى إسرائيل وأنت محتاج إليهم ، فكيف لو أغنيتك عنهم ، فتأدب وصبر حتى أغناه الله من فضله ، وصار بنو إسرائيل يأكلون على سماطه اهـ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يجب على الشيخ ان يكون كريما حمالا للأذى وإلا لم يفلح له مريد ، فعلم أن الدنيا إذا خرجت من قلب مريد لا يتصور وقوعه فى البخل المذموم أبدا بعد ذلك ، وإنما يمنع بالحكمة كما يعطى بالحكمة تخلقا بأخلاق الله تعالى ، فإنه تعالى سمى نفسه المانع ولم يسمّ نفسه بخيلا ، فافهم فلا ينبغى للفقير أن يعطى أحدا شيئا طلبه منه حتى ينظر حاله ، وماذا هو عازم عليه وعلى إنفاقه فيه ، ثم يعطيه بعد ذلك ، فإياك يا أخى أن تسىء الظن بأحد من الأشياخ إذا سألته شيئا ولم يعطه لك فإنه لم يمنعك عن بخل حاشى الأشياخ عن ذلك .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ليعلمك أدب العطاء وأدب المنع والله يتولى هداك .

وروى مسلم وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ » الحديث .

وروى مسلم مرفوعا : « وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » .

قال الحافظ عبد العظيم : والشح مثلث الشين وهو البخل والحرص ، وقيل الشح الحرص على ماليس عندك ، والبخل الشح بما عندك .

وفى رواية لابن حبان وغيره : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا حُرُمَاتِهِمْ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « شَرُّ مَافِى الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ » .

ومعنى هالع : محزن ، والهلع أشد الفزع ، وقوله جبن خالع : الجبن هو شدة الخوف وعدم الإقدام ، ومعناه أنه يخلع قلبه من شدة تمكنه منه .

وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا : « لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَ إِيمَانٌ فى قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « الشَّحِيحُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ وَلَا مَنَّانٌ وَلَا بَخِيلٌ » .

والخب : بفتح الخاء هو الخداع الخبيث .

وروى الطبرانى مرفوعا بإسناد جيد : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِجَنَّةِ عَدْنٍ تَكَلَّمِي فَقَالَتْ : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ فَقَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « خَصْلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فى قَلْبِ مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « الْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْجَاهِلُ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ » ، ويروى هذا الحديث مرسلاً .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « الْجَوَادُ مَنْ أَعْطَى حُقُوقَ اللهِ تَعَالَى فى مَالِهِ ، وَالْبَخِيلُ مَنْ مَنَعَ حُقُوقَ اللهِ وَ بَخِلَ عَلَى رَبِّهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نهب أحدا شيئا ونرجع فيه أو نندم على عطيته بقلوبنا ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من المتهورين

الذين يعاملون غير الله تعالى من وجوه العظم ، فيعطى أحدهم عمامته أو جوخته مثلا لإنسان ثم لما يرى منه خللا فى حقه يندم على إعطاء ذلك له ، وربما يسترجعه منه ، لاسيما إن كان فى أمله أن الناس يشكرونه على ذلك فلم يشكره أحد ولا مدحه على ذلك ، فمن الأدب إذا أعطانا أحد شيئا نعلم بالقرائن أنه يستحلى فى نفسه اطلاع الناس عليه أن لا نقبله منه ، لأنه كالعبث بالنسبة لنفسه هو ، فلا نحن كافيناه بشيء ولا مدحناه على عطائه ، ولا أحد من الناس أعطاه شيئا هنا ، ولا الحق تعالى أثابه على ذلك ، والفقير لاينبغى له قبول شيء إلا إن رأى المنفعة فيه للمعطى فى الدنيا والآخرة ، فان قبل شيئا من أحد يعلم منه عدم الإخلاص فى عطيته كتب فى ديوان الغاشين للأمة المحمدية ، وفى الحديث :

« مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله إذا علم من إنسان أنه ما أعطاه إلا لعلة فاسدة لايقبل منه شيئا ، فإذا قال له ياسيدى أنا خاطرى بذلك طيب ، يقول له أنا خاطرى بذلك ماهو طيب ، وكان يقول : من علامة عدم الإخلاص فى العطية أن يتعدى جاره أو قريبه الأحوج منا ويعطينا ، فإذا قبلنا منه ذلك فقد أعناه على مخالفة السنة ، فإنها أمرته أن يبدأ بالقريب أو الجار الفقير ، ولا يصح العمل بهذا العهد إلا لمن سلك طريق القوم وخلص من محبة الدنيا وصار يتصرف بحسب المصالح الشرعية لنفسه وللمعطى ، وأما محب الدنيا فبعيد أن يشم من هذا المقام رائحة إنما هو يلف كل شيء أعطيه ولو علم أن المعطى تعدى جاره الفقير أو قريبه الفقير .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لفقير أن يقبل من أحد صدقة أو هدية إلا إن علم أنه ليس فى بلده أحد أحق بها منه ، فإن علم أن هناك من هو أحق منه وقبل فقد خان عهد أهل الله تعالى ، نسأل الله اللطف .

فاسلك يا أخى على يد شيخ صادق ليعلمك معاملة الله تعالى حتى لاتعطى أحدا شيئا قط تتبعه نفسك والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « الَّذِى يَرْجِعُ فى هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَرْجِعُ فى قَيْئِهِ لِيأْكُلَهُ » .

وفى رواية الشيخين : « مَثَلُ الَّذِى يَعُودُ فى هِبَتِهِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فى قَيْئِهِ فَيَأْكُلُهُ » .

قال قتادة ولا نعلم أكل القىء إلا حراما :

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما مرفوعا : « لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِىَ لِأَحَدٍ عَطِيَّةً أَوْ يَهَبَ هِبَةً ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا يُعْطِى لِوَلَدِهِ » .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا : « مَثَلُ الَّذِى يَسْتَرِدُّ مَاوَهَبَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَأْكُلُ قَيْئَهُ فَإِذَا اسْتَرَدَّ الْوَاهِبُ فَلْيُوَقَّفْ لِيَعْرِفَ بِمَا اسْتَرَدَّ ثُمَّ لِيَدْفَعْ إِلَيْهِ مَاوَهَبَهُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقبل هدية ممن شفعنا فيه عند ظالم ، بل نردها عليه جزما ، فإن علمنا كسر خاطره بذلك قبلناها وفرقناها على محاويج المسلمين ولا نذوق منها شيئا إن كانت طعاما ، ولا نلبسها إن كانت تلبس ، ولانشمها إن كانت تشم ولا غير ذلك ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من طائفة الفقراء الذين يشفعون فى الناس عند الأمراء أو الكشاف ومشايخ العرب وهو جهل وقلة دين ، ولا سيما هدية الفلاحين ، فإن تحتها ألف بلية ، وتأمل لولا شفاعتك ماأتاك ذلك الفلاح بشيء ، وكم له سنة وهو يسمع بك فلا يعطيك شيئا ، ثم من أقبح مايقع فيه الشافع المحب للدنيا أنه إذا استحلى قبول الهدايا يصير يشفع لأجل ذلك فيعدم الإخلاص فيعدم الأجر في الآخرة من ثبوت الأقدام على الصراط ونحو ذلك مما ورد ، فلا يصير يقدر على نفسه يتجرد عن محبة العوض ، بل رأيت بعض الفقراء تزوج ثلاث نسوة اعتمادا على الهدايا بالواصلة إليه من الناس الذين يشفع فيهم لكونه ليس له كسب شرعى ينفق على عياله منه ، وماكانت إلا مدة قريبة ومسكوه بمعضلة فنفرت الولاة الذين كان يشفع عندهم منه وبطلت الهدايا لبطلان الشفاعة ، وطلق الثلاث زوجات وصار لايقدر على عشاء ليلة :

فاسلك ياأخى على يد شيخ ليعلمك آداب الشفاعة والله يتولى هداك .

وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ شَفَعَ شَفَاعَةً لِأَحَدٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِن أَبْوَابِ الْكَبَائِرِ » .

قلت: وقوله « فأهدى له هدية عليها » يفهم أنه إذا كان من عادة المشفوع له الهدية قبل ذلك الصدقة أو محبة فلا حرج فى قبولها ، لأنه حينئذ لم يهد لأجل شفاعته فيه والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخاصم أحدا ولا نخاطبه بلفظ فيه فحش ولا بأذى تخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن فاحشا ولا متفحشا صلى الله عليه وسلم .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك الطريق على شيخ ناصح يخرجه عن رعونات النفوس ويخرج به من أودية الجفاء إلى حضرات الرحمة والصفاء والرفق بسائر خلق الله عز وجل على الوجه الشرعى . وقد روى أهل السير :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَشْرَفَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ الْحُصُونِ وَهُوَ فِى غَزَاةٍ فَقَالَ يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ مَا عَهِدْنَاكَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ وَاسْتَحَى » .

فاسلك يا أخي على يد شيخ وإلا فمن لازمك غالبا الفحش والبذاء وقلة الحياء شئت أم أبيت والله يتولى هداك .

وقد روى ابن ماجه مرفوعا : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ فَإِذَا نُزِعَ مِنْهُ الْحَيَاءُ لَمْ تَلْقَهُ إِلا مَقِيتًا مُمَقَّتًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلا مَقِيتًا مُمَقَّتًا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلا خَائِنًا مُخَوَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيماً مُلَعَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلا رَجِيماً مُلَعَّنًا نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةُ الْإِسْلَامِ » .

والربقة بكسر الراء وفتحها واحدة الربق : وهى عرى فى حبل تشد به البهائم ويستعار لغير ذلك والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانسىء خلقنا على

أحد من خلق الله عز وجل بغير سبب شرعى هروبا من أن نكتب فى ديوان الأشرار فنحرم بركة النصح لنا ولإخواننا لأنهم ربما رأونا على فعل مذموم، فأرادوا أن ينصحونا فيتذكروا سوء خلقنا فيسكتون علينا ، ولو أنا كنا مطهرين من سوء الخلق لقدموا على نصحنا ، وهذا العهد يتعين العمل به على كل من طلب الدرجات العلى فى الدنيا والآخرة قال تعالى :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) .

فما فرحوا بالامامة إلا بعد صبرهم على مخالفة هوى نفوسهم المذمومة فافهم .

وقد قدمنا أن الإمام عمر بن الخطاب قال لأصحابه يوما ماذا تصنعون بى إذا اعوججت؟ قالوا نعلو هامتك بالسيف ففرح وقال هكذا كونوا اهـ .

فيحتاج كل من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يهذب أخلاقه حتى لا يبقى عنده شىء من الجفاء والفحش ، ويصير يحب كل من نصحه ويشكره سرا وجهرا ، ولا يرى أنه قام له بجزاء ، ومن لم يسلك كما ذكرنا على يد شيخ فمن لازمه الرعونات وسوء الخلق وخبث الطوية :

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقد روى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ سُوءًا مَنَحَهُ خُلُقًا سَيِّئًا » .

وروى الطبرانى والبيهقى مرفوعا : « الْخُلُقُ الْحَسَنُ يُذِيبُ الْخَطَايَا كَمَا يُذِيبُ الْمَاءُ الْجَلِيدَ ، وَالْخُلُقُ السَّيِّئُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ » .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَىَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا فى الآخِرَةِ أَسْوَؤُكُمْ أَخْلَاقًا » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود مرفوعا : « حُسْنُ الْخُلُقِ نَمَاءٌ ، وَسُوءُ الْخُلُقِ شُؤْمٌ » .

وروى الطبرانى : « أَنَّهُ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الشُّؤْمُ ؟ قَالَ : هُوَ سُوءُ الْخُلُقِ » .

وروى الطبرانى والأصبهانى مرفوعا : « مَامِنْ شَىْء إِلَّا لَهُ تَوْبَةٌ إِلَّا صَاحِبُ سُوءِ الْخُلُقِ فَإِنَّهُ لَايَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ إِلاَّ عَادَ فِى شَرٍّ مِنْهُ » .

وروى أبو داود والنسائى مرفوعا : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانستعبد أحدا من إخواننا المسلمين ولا نتميز عنهم إلا بما أذن لنا فيه الشارع صلى الله عليه وسلم ، فلا نمكن أحدا من إخواننا من القيام لنا إذا مررنا عليه ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الفقراء إما لسذاجة قلوبهم وإما لجهلهم بما أومأنا إليه ، وإن قال هؤلاء لاحرج علينا فى استخدام المريد واستعبادنا له ، لأن المريد مأمور بتعظيم شيخه ، قلنا لهم إنما التعظيم للأشياخ بعدم مخالفتهم لما يأمرونه به ، وأما القيام لهم مع مخالفة إشاراتهم فلا فائدة فيه ، وأول من أحدث هذا القيام بين يدى الأشياخ فقراء العجم ، فربما يقف المريد بين يدى أحدهم نحو الثلاثين درجة لايقولون له اجلس ، وكل ذلك ليس من نظام الفقراء إنما هو من نظام الملوك وأرباب الدولة ، وفى الحديث :

« لَاتَقُومُوا عَلَى رُؤُوسِ أَئِمَّتِكُمْ كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ عَلَى رُؤُوسِ مُلُوكِهَا » رواه الديلمى .

وقد أدركنا نحو مائة شيخ من أولياء مصر وقراها فما رأينا بحمد الله أحدا منهم يمكن مريده من القيام له ، بل يظهرون له الكراهة هروبا من مزاحمة أوصاف الربوبية رضى الله عنهم أجمعين :

(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) والله يتولى هداك .

وقد روى أبو داود مرفوعا والترمذى باسناد صحيح وحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

قال الجلال السيوطى وهو حديث متواتر .

وروى أبو داود وابن ماجه باسناد حسن عن أبى أمامة رضى الله عنه قال :

« خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عليهِ وسلمَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ لَاتقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

قلت : وفى حديث أنس أنه قال، لم يكن أحد أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا لانقوم له إذا مر علينا لما نعلم منه من كراهيته لذلك والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون برد السلام من غير لفظ بل نتلفظ به حتى نسمع من سلم علينا إلا أن يكون بعيدا منا فنرد بالإشارة باليد أو بالرأس مع اللفظ ، وهذا العهد قد غلب على أرباب الدولة الاخلال بالعمل به فلا تكاد تسمع من أحدهم لفظ السلام ، وإنما يسلمون ويردون بالإشارة بالرأس ، بل بعضهم يركع جملة واحدة .

واعلم أن السلام أمان ، فكان المسلم يؤمن أخاه بقوله « السلام عليكم » ويؤمنه الآخر بقوله « وعليكم السلام » وأصل مشروعية السلام إنما هو على الذين يخافون من بعضهم بعضا ويتسلطون على بعضهم بالقتل وأخذ المال وإفساد الحريم ونحو ذلك ، وأما نحو الملوك فهم فى أمان من آحاد الرعية وقولنا لهم « السلام عليكم » معناه أنتم فى أمان منا أن نخالف أمركم ونخرج عن طاعتكم ، وكذلك السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه أنت فى أمان منا يارسول الله أن نخالف شريعتك ، فيحصل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طمأنينة القلب على ذلك الذى سلم عليه أن يقع فى معصية الله عز وجل ، وذلك لكمال وفور شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ، وكذلك يحصل للملوك ومن والاهم طمأنينة القلب بانقياد رعيتهم لهم وعدم الخروج عليهم هذا أصل مشروعيته ، وقد فهم هذا الذى ذكرناه ومشروعيته بعض حاشية الملوك فجعلوا التحية بانخفاض الرؤوس وانحناء الظهور ، وقالوا الملوك فى أمان من مثلنا أن نؤذيهم حتى نؤمنهم وما فهموا كمال الأمر ولاالسر الذى ذكرناه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا مررت على عدوك فسلم عليه واجهر به جهرا قويا حتى إنك تكاد تشق قلبه بالصوت ، ولكن بشرط أن تعلم منه أنه يرد عليك السلام ، فإن لم تعلم أنه يرد عليك لغلبة النفس عليه فارحمه بعدم السلام لئلا تعرضه للمعصية بعدم رده السلام اهـ .

قلت : وهذا هو الذى شرطه الشيخ هو مذهب بعضهم ، والراجح من مذهب الشافعى استحباب السلام مطلقا لحديث أبى داود وغيره مرفوعا :

« لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ فَلْقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِى الْأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ السَّلَامَ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ وَخَرَجَ الْمُسْلِمُ عَنِ الْهِجْرَةِ » والله أعلم .

فاعمل يا أخى بالسنة فإن الخير كله فيها والله يتولى هداك :

وقد روى الترمذى والطبرانى مرفوعا : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا ، لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ بِالْإِشَارَةِ بِالْأَصَابِعِ ، وَإِنَّ تَسْلِيمَ النَّصَارَى بِالْأَكُفِّ » .

وروى أبو يعلى بإسناد صحيح : « تَسْلِيمُ الرَّجُلِ بِأُصْبُعٍ وَاحِدٍ يُشِيرُ بِهَا فِعْلُ الْيَهُودِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانسلم على كافر ولا نكلمه بكلام فيه تفخيم إلا لضرورة شرعية مع عدم ميل قلبنا إليه بالمحبة ، وهذا العهد يقع فى خيانته خلق كثير ممن يقبل من الكفار برهم وحسنتهم ، أو يتطبب بهم ويحصل له الشفاء من الله تعالى أيام تطببه ، أو يصبر عليه بالخراج إن كان مباشرا تحت أيدى الظلمة فيحكم على ذلك الفقير أو المريض أو الفلاح الميل إلى ذلك الكافر قهرا عليه ، فيعسر عليه معاداته بالقلب كما أمره الله تعالى ويودهم ، فيصير عاصيا بذلك لأوامر الله عز وجل فى نحو قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) الآية .

وانظر كيف بين الله تعالى لنا عداوة الكفار حتى لايبقى لنا عذر فى مودتهم ، لعلمه تعالى بأن فينا من لايغار لله تعالى ولا يعادى من عاداه الله تعالى إجلالا لله تعالى ، فأخبرنا تعالى أنهم أعداء لنا كذلك تحريضا لنا على عدم موادتهم من كل وجه ، ولو علم تعالى منا كمال الإيمان والمحبة له وأننا نترك موادة الكفار إذا خالفوا أمر الله وحده دوننا

لما أخبرنا بمعاداتهم لنا فافهم ، وإياك والاعتراض على من رأيته يفخم الكفار ببادى الرأى ، بل تربص فى ذلك فربما يكون له عذر شرعى فى ذلك من خوف أذاه ونحوه كتمييل قلبه لأهل الإسلام أو الإسلام ، وأقم العذر لإخوانك المسلمين فإنهم لم يعظموا اليهود والنصارى إلا بعد تقريب الولاة لهم ، وجعلهم صيارف ومكاسين وحاكمين على تجارنا وعلمائنا ومشايخنا فى جميع مايأتيهم من الأنواع التى لهم عليها عادة ، فتصير أحوال الواحد منا مطروحة على شاطىء البحر مثلا لا يقدر على تخليصها حتى يأتى المعلم ويفرج عنا ، فطاعتنا لهم وتحسيننا لهم الألفاظ إنما هى حقيقة أدب مع الولاة الذين ولوهم ، فاعرف زمانك يا أخى ؟

وقد كاتبت مرة يهوديا وقلت فى مكاتبتى : وأسأل الله تعالى أن يدخل المعلم الجنة من غير عذاب يسبق ؛ فأنكر على بعض الفقهاء وأجاب عنى فقيه آخر بأن ذلك فى غاية الصواب ، لأنه لا يدخل الجنة حتى يسلم فطوينا له وقوع الاسلام قبل دخول الجنة ، لئلا تنفر نفسه من قولنا له حال محبته الكفر اللهم اجعل المعلم يسلم ، فإن قلنا له ذلك يؤذيه كما يؤذينا قوله هو لنا اللهم اجعل فلانا يموت يهوديا ، قال تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) .

وقد حكى القشيرى عن معروف الكرخى نحو ما قلناه لما مر عليه جماعة فى زورق فى دجلة بغداد ومعهم لهو وطرب وخمر يشربونه ، فقال الناس له ادع الله عليهم كما تجاهروا بمعاصى الله تعالى ، فقال معروف ابسطوا أيديكم وقولوا معى اللهم كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة ، فقال الناس إنما سألناك ياسيدى أن تدعو عليهم ، فقال كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه ودعا له ، ولا يفرح الله تعالى هؤلاء فى الآخرة إلا إن تاب عليهم فى الدنيا ، فانظر كيف طوى لهم رضى الله عنه فى هذا الدعاء التوبة .

قال شيخنا شيخ الإسلام زكريا فى شرح رسالة القشيرى وهذا من حسن سياسة معروف رضى الله عنه فاعلم ذلك والله يتولى هداك .

وروى مسلم وأبو داود والترمذى مرفوعا :

« لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَي بِالسَّلَامِ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِى طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه مرفوعا :

« إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ قولُوا وَعَلَيْكُمْ » .

وسيأتى بسط ذلك فى قسم الترغيب فى السلام وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها :

« السَّامُ هُوَ الْمَوْتُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بإطلاق بصرنا فى دار أحد من إخواننا ، من خلل بابه أو من طاقة تشرف عليه وفاء بحقه ولو لم يتأثر هو بذلك.

وقد كان الامام الشافعى رضى الله عنه يقول : لاتقصر فى حق أخيك اعتمادا على مروءته ، وهذا الأمر قد كثرت الخيانة فيه من فقراء الأحمدية والبراهنية ونحوهم كفقراء الزوايا المقابل شباكها لطيقان بيوت الربوع ، فيجلس الفقير فى الشباك بلية القراءة والنظر للناس ، فلا يزال به أبو مرة حتى يصير يسارق المرأة المتبهرجة بالنظر ، وهى فى الطاقة ثم يصير يقصدها بالنظر المحقق ، ثم لايزال إبليس يؤلف بينهما فى الحرام حتى تميل المرأة اليه ، فربما طلع لها فى غيبة زوجها فراقبهم الجيران ، وأعلموا جماعة الوالى فقبضوا عليهم وأدخلوهم بيت الوالى وغرموا جملة فلوس : فإياك يا أخى من الجلوس فى شبابيك الجامع أو الجلوس على بابه ثم إياك ، وكذلك لا ينبغى لفقير أن يتهاون برؤية امرأة أخيه إذا دخل بيته فى عزومة ، فتخرج امرأة أخيه مسفرة وجهها عليه ويرى زوجها أن ذلك من طريق الفقراء ، ولا يخفى أن طريق الفقراء محررة على الكتاب والسنة ، قال تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) .

وذلك لعدم العصمة ، فإن النهى لا يقع فى محل إلا مع صحة وقوع ذلك المحل فيه ، ولو أنه كان معصوما من الوقوع لما احتاج إلى نهى فافهم ، لكن جوز بعض العلماء الخلوة للولى بالولية الأجنبيه كرابعة العدوية ، وسفيان الثورى ، نظرا إلى المعنى الذى حرم النظر لأجله والخلوة لأجله ، وهو مذهب فيه ترخيص كترخيص من جوز شرب قليل النبيذ الذى لايسكر نظرا لانتفاء العلة التى حرم الشرب لأجلها وهو الإسكار ؛

والحق أن مذهب الفقراء وغالب الأئمة إنما هو مبنى على الاحتياط والتشديد فى الدين لكونهم عمدة أهل الاسلام ، فإذا فعلوا شيئا تبعهم عوام الناس على ذلك مع عدم شهودهم منازعهم فيها فيهلكون الناس .

وقد كان الشيخ العارف بالله تعالى أبو بكر الحديدى إذا رأى أحدا من الأولياء الذين يتبرك الناس بدعائهم ورقيتهم يضع يده على محل الوجع من الأجنبية يصيح به ارفع يدك وارقها باللسان هل أنت معصوم ؟ رضى الله عنه .

وقد أخبرنى الشيخ شرف الدين الحطابى المدرس فى زاوية سيدى عثمان الحطابى أن زوجة الشيخ الحافظ عثمان الديمى كانت تخرج سافرة الوجه على سيدى عثمان الحطابى ، وكذلك زوجة الآخر مع الآخر ويأتى كل واحد منهما إلى دار الآخر فيختلى بزوجة الآخر وتخرج له ما يأكل وما يشربه فى غيبة الآخر مثل ما نقل عن رابعة العدوية وسفيان الثورى ، ولكل رجال مشهد ، والمشى على ظاهر الشريعة أحوط :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنِ اطَّلَعَ فى بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَيْهِ » .

وفى رواية للنسائى مرفوعا : « مَنِ اطَّلَعَ فى بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَئُوا عَيْنَهُ فَلاَ دِيَةَ وَلاَ قِصَاصَ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى مرفوعا : « أَيُّمَا رَجُلٍ كَشَفَ سِتْرًا فَأَدْخَلَ بَصَرَهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَقَدْ أَتَى حَدًّا لاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً فَقَأَ عَيْنَهُ فَقَدْ أُهْدِرَتْ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مَرَّ عَلَى بَابٍ لاَ سِتْرَ لَهُ فَرَأَى عَوْرَةَ أَهْلِهِ فَلاَ خَطِيئَةَ عَلَيْهِ إِنَّ الْخَطِيئَةَ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ سُئِلَ عَنِ الاسْتِئْذَانِ فى الْبُيُوتِ فَقَالَ مَنْ دَخَلَتْ عَيْنُهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ وَيُسَلِّمَ فَلاَ إِذْنَ لَهُ وَقَدْ عَصَى رَبَّهُ » .

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ مِنْ بَعْضِ حُجَرِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وَسلم

فقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلمَ بِمِشْقَصٍ أَوْ بِمَشَاقِصَ كأَنِّي أَنظُرُ إِلَيْهِ يَخْتِلُ الرَّجُلَ لِيَطْعُنَهُ » والمشقص : سهم له نصل عريض .

وفى رواية للشيخين وغيرهما : « إِنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ عَلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِنْ جُحْرٍ فى حُجْرَةِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَمَعَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِدْرَاةٌ يَحُكُّ بِهَا رَأْسَهُ فقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَنظُرُ لَطَعَنْتُكَ بِهَا فِي عَيْنَيْكَ إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ النَّظَرِ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُنَّ فَذَكَرَ مِنْهُنَّ وَلَا يَنظُرُ فى قَعْرِ بَيْتٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ دَخَلَ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لاَ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَلَـكِنِ ائْتُوهَا مِنْ جَوَانِبِهَا ، وَاسْتَأْذِنُوا فَإِنْ أُذِنَ لَـكُمْ فَادْخُلُوا وَإِلاَّ فَارْجِعُوا » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نستمع لحديث قوم وهم لنا كارهون ولا تفتقر معرفتنا لكراهتهم إلى لفظ يقع منهم ، بل تكفى القرينة التى طرقت قلوبنا منهم ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس تهاونا به وهو دليل على قلة الدين ، فإنه لولا عظمة ذلك الذنب مانهى الله ورسوله عنه ولا قال تعالى : (ولا تجسسوا) فافهم . فان من علامة تعظيم العبد لله تعالى تعظيم ما عظمه الله واعتنى به تعالى بالنهى عنه . فإياك يا أخى أن تتجسس على أخبار أحد من أعدائك وما جرى له بل أعرض عن أحواله جملة أو اسأل عنها لتتوجع له أو لتحمل همه والله يتولى هداك .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فى آذَانِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والآنك بالمد وضم النون : هو الرصاص المذاب ، والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك رياضة نفوسنا أبدا هروبا من وقوعها فى سرعة الغضب بغير حق حمية جاهلية ، فيتعين على كل من ولاه الله تعالى ولاية أن يروض نفسه على يد شيخ ناصح ليصير سداه ولحمته الحلم على رعيته إلا فى مواضع أمره الشارع فيها بعدم الحلم ، كإقامته الحدود الشرعية على أربابها

ونحو ذلك ، فمن راض نفسه كما ذكرنا قل غضبه على زوجته وولده وغلامه وصاحبه . وصار لايغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله عز وجل لاغير ، وقد درجت الأئمة وجميع مشايخ الصوفية على العمل على عدم الغضب جهدهم ، فإن الغضب بئس الصفة ، لاسيما فى حق من كثر دعاؤه إلى الله تعالى فإن حكم غضبه على تلامذته حكم غضب راعى الغنم إذا غضب على غنمه من شدة شتاتهم وتركهم فى البرية للذئب والسبع بعد أن كان تعب فيهم من حين كانوا يرضعون اللبن ، وذلك معدود بيقين من سخافة العقل .

فاسلك يا أخى على يد شيخ ناصح يخرجك عن رعونات النفوس ويلطف كثائفك حتى تكاد تلحق بالملائكة ، لتصير تتحمل من رعيتك جميع الصفات المخالفة لأغراضك ولاتتأثر والله يتولى هداك :

وقد روى البخارى : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلى اللهُ عَليهِ وَسلمَ أَوْصِنِي قَالَ لَاتَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ لَا تَغْضَبْ » .

وروى الإمام أحمد عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : فكرت فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغضب ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه : « أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسلمَ مَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَاتَغْضَبْ » .

وروى الترمذى مرفوعا : « إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمُ الْبَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ ، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرُّجُوعِ وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الرُّجُوعِ » .

وروى البخارى تعليقا : « من صبر عند الغضب وعفا عند الإساءة عصمه الله وخضع له عدوه » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ دَفَعَ غَضَبَهُ دَفَعَ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانشاجر أحدا من المسلمين ولا نهجره ولا ندابره إلا بوجه شرعى :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى طول مجاهدة وسـلوك على يد شيخ ناصح ليخرج به من حضرات رعونات النفوس ويدخل به إلى حضرات الصفاء ومحبة كل من علم أنه يحب الله ورسوله ، وقليل من الناس من يصبر على طول المجاهدة المذكورة ، وما نهانا الشارع عن هذه الأمور إلا شفقة علينا ومحبة لنا خوف أن ينزل علينا البلاء الذى لامرد له ، وتندرس معالم الشريعة بذلك ، ولو لم يكن إلا أن من ارتكب شيئا من هذه الأمور لايرفع له إلى السماء عمل لكان فيه كفاية ، فإن الشارع ألحق أعمالنا بأعمال الكفار فى عدم رفعها مادمنا متشاحنين ، وقد عم هذا البلاء غالب الخلق حتى بعض العلماء ومشايخ الزوايا وصار أحدهم لايحب لأخيه خيرا ويشمت به إذا نزلت به مصيبة ، وصرت إذا سألت أحدهم عن الآخر يقول بئس من ذكرت خلونا بلا غيبة تعريضا لما فيه من النقائص ؛ وصار أحدهم إذا قام أخوه يأمره بالمعروف يخذل عليه ويحمله على الرياء وحب السمعة حتى اضمحل غالب أركان الشريعة وقواعدها ، وما هكذا أدركنا المشايخ ولا العلماء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ووالله إنا قد استحققنا الخسف بنا لولا عفو الله تعالى وحلمه وإذا كان المريدون والعوام الذين غلبت عليهم رعونات النفوس يقبح عليهم مشاحنة مسلم ، فكيف بالعلماء ومشايخ الطريق ؟ ولكن سبب ذلك كله عدم فطام هؤلاء المشايخ على يد أشياخهم ، ولو أنهم سلكوا الطريق لأكرموا عباد الله بمحبتهم لله ولرسوله وتحملوا أذاهم لله ولرسوله كما قالوا فى المثل : لعين تجازى ألف عين وتكرم ، فوالله إن عظمة الله ورسوله خرجت من كل مشاحن .

فعلم أن من الواجب على كل من يدعى أنه يحب الله ورسوله أن يعفو ويصفح عن جميع هذه الأمة المحمدية ولو فعلوا معه من الأذى مافعلوا إكراما لمن هم عبيده سبحانه وتعالى ولمن هم من أمته صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكرنا فى عهود البحر المورود أن من الواجب على المريد إكرام كل من كان شيخه ومولاته ، وأن من كره أحدا من جماعة شيخه بغير طريق شرعى فهو كاذب فى دعواه صحة الأخذ عنه ، وذلك دليل على تمكن المقت منه ، ولو أنهم صح لهم الأخذ عن شيخهم لأحبوا كل من كان شيخهم يحبه ، وما رأيت أحدا على هذا القدم فى عصرنا هذا سوى سيدى محمد الشناوى ، والشيخ سليمان الخضيرى ، رأيتهما إذا رأيا أحدا ممن يحب شيخهما يرفرفان عليه بقلوبهما ويكرمانه أشد الإكرام ، فرضى الله عنهما .

فاعلم ذلك يا أخى والله يتولى هداك:

وقد روى البخارى ومالك وأبو داود والترمذى والنسائى مرفوعا:

« لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » ورواهُ الطبرانى وزاد فيه « يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هٰذَا وَيُعْرِضُ هٰذَا وَالَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ يَسْبِقُ إِلَى الْجَنَّةِ ».

وفى رواية للشيخين وغيرهما مرفوعا: « وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ ».

قال الإمام مالك رحمه الله: ولا أحسب التدابر إلا الإعراض عن المسلم يدبر عنه بوجهه:

وروى أبو داود والنسائى مرفوعا: « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ ».

وفى رواية لأبى داود مرفوعا: « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلَاثٍ فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِى الْأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ وَخَرَجَ الْمُسْلِمُ مِنَ الْهِجْرَةِ ».

وفى رواية لأبى داود مرفوعا: « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَإِذَا لَقِيَهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذٰلِكَ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ ».

زاد فى رواية للامام أحمد « فَإِنْ مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا لَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ جَمِيعًا أَبَدًا ».

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه: « فَإِنْ مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا لَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَجْتَمِعَا فِى الْجَنَّةِ ».

وفى رواية لابن أبى شيبة: « وَأَيُّهُمَا بَدَأَ صَاحِبَهُ بِالسَّلَامِ كُفِّرَتْ ذُنُوبُهُ، فَإِنْ هُوَ سَلَّمَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَلَمْ يَقْبَلْ سَلَامَهُ رَدَّ عَلَيْهِ الْمَلَكُ وَرَدَّ عَلَى ذٰلِكَ الشَّيْطَانُ ».

وروى أبو داود والبيهقى مرفوعا: « مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ ».

وروى مسلم مرفوعا: « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلٰكِنْ فِى التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » .

قال الشيخ عبد العظيم: والتحريش هو الإغراء وتغيير القلوب والتقاطع .

وروى مالك ومسلم مرفوعا : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِى كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَغْفِرُ اللهُ فِى ذٰلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاء فَيَقُولُ اتْرُكُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا » .

قال أبو داود وإذا كانت الهجرة لله تعالى فليس شيء من هذا ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم هجر بعض نسائه أربعين صباحا وهجر ابن عمر ابنا له حتى مات اهـ .

قلت : وكان سيدى الشيخ عبد العزيز الديرينى يقول لا يليق الهجر بأمثالنا الغارقين فى حظوظ نفوسهم وإنما يليق الهجر بالعلماء بالله الغواصين على دسائس النفوس .

وروى البيهقى وغيره مرفوعا ومرسلا : « يَطَّلِعُ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ » .

قلت : وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ينبغى للشيخ إذا أصلح بين فقيرين ولم يسمعا له أن يهجرهما جميعا كما هجرهما الله تعالى ومنع صعود عملهما إلى ديوان السماء والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بحصائد ألسنتنا كقولنا فى حال غضب على مسلم يا كافر يا قليل الدين يا عديم الدين ونحو ذلك مع جهلنا بعاقبته ، فإن أطلعنا الله تعالى من طريق الكشف الصحيح الذى لا يدخله محو على أن ذلك المسلم يموت كافرا أو قليل الدين أو عديمه فلنا ذلك ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس حال غضبهم اللهم إلا أن يكون القائل لذلك يقصد به كفر النعمة أو الكفر الذى لا يخرج به المسلم عن دين الاسلام المشار إليه بقوله تعالى :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) .

قال قتادة ومجاهد وغيرهما هو كفر لا يخرج به المسلم عن الإسلام ، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« الْمِرَاء فِى الْقُرْآنِ كُفْرٌ » .

يعنى التشكيك فيه فيأتى الراقى لن يتهم من القرآن أمرا يجزم به فيدخل عليه الشبهة حتى يشككه فيه ويخرجه عن الجزم به . واعلم أنه لا ينبغى لولد الصلب أو والد القلب أن يستنسعى على والده المذكور إذا سبق لسانه بقوله يا كافر يا نصرانى يا يهودى يا مشرك بالله يامراق الدم ونحو ذلك ، فإن مراد والده بذلك تعظيم الأمر الذى خالفه فيه وتغليظه عليه وتقبيحه فى عينه لاغير ، بدليل أنه إذا وقع فى معصية وأرادوا أن يقتلوه أويضربوه لا يهون عليه مع أن كل هذه الأمور تحتمل التأويل ، فإن الكفر هو الستر ولا بد أن يستر ذلك الشخص عن الناس أمرا ما ، والنصرانى الذى ينصر غيره فى أمر واليهودى المائل إلى دينه الراجع إليه والمشرك به فى وجود أو فعل أو ملك ، والمراق للدم الذى يفصد أو يحجم ونحو ذلك فاعلم ذلك .

وروى مالك والشيخان وغيرها مرفوعا : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا فَإِنْ كَانَ كَمَا قِيلَ وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ » .

وفى رواية لابن حبان فى صحيحه مرفوعا: « مَا كَفَّرَ رَجُلٌ رَجُلاً إِلَّا بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَافِرًا وَإِلَّا كَفَرَ بِتَكْفِيرِهِ » .

وروى البزار مرفوعا ورواته ثقات : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَهُوَ كَمِثْلِهِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانسب آدميا ولا بهيمة ولا غيرهما من المخلوقات ولا نلعنهما إلا بلعنة الله تعالى ، كلعننا إبليس إذا تراءى لنا مثلا وذكر اسمه كلعن من عمل عمل قوم لوط وغير حدود الأرض ، أو ذبح لغير الله ، أو كان اللعن لغير معين كقولنا لعن الله اليهود ونحو ذلك ، ويجب على كل مسلم أن يعود لسانه الكلام الصدق والحسن دون الكذب والقبيح .

وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر على خنزير ، فقال ما معناه أنعم صباحا فقيل له فى ذلك ، فقال إنما فعلت ذلك لأعود لسانى الكلام الحسن .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى رياضة تامة على يد شيخ حتى يمحق من نفسه الرعونات ، ويخلقه بالأخلاق الحسنة وإلا فلا يشم من العمل بهذا العهد رائحة :

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما : « سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « المُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ ، وَيَتَكَاذَبَانِ » .

وروى أبو داود وغيره مرفوعا متصلا : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قَالَ لِجَابِرِ ابْنِ سُلَيْمٍ : لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا ، قالَ جابِرٌ : فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ حُرًّا وَلَا عَبْدًا وَلَا بَعِيرًا وَلَا شَاةً » الحديث .

وروى البخارى وغيره مرفوعا: « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » .

وروى البخارى وغيره مرفوعا : « لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا » .

وفى رواية للحاكم مرفوعا : « لَا يَجْتَمِعُ أَنْ يَكُونُوا لَعَّانِينَ صِدِّيقِينَ » .

قال ذلك لأبى بكر حين لعن بعض رقيقه .

وروى الطبرانى بإسناد جيد عن سلمة بن الاكوع قال: كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه رأينا أنه قد أتى بابا من الكبائر :

وروى أبو داود مرفوعا : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِتِلْكَ اللَّعْنَةِ وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا » .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ سَمِعَ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ فى بَعْضِ أَسْفَارِهِ تَلْعَنُ نَاقَتَهَا حِينَ ضَجِرَتْ فَقَالَ صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ » .

قال عمران بن حصين فكأنى أراها الآن تمشى فى الناس ما تعرّض لها أحد .

وروى أبو يعلى وابن أبى الدنيا : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ رَأَى رَجُلًا يَلْعَنُ بَعِيرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ » .

وروى النسائى مرفوعا : « لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ » .

وفى رواية للطبرانى : « أَنَّ دِيكاً صَرَخَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسلمَ فَسَبَّهُ رَجُلٌ فقَالَ لَا تَلْعَنْهُ وَلَا تَسُبَّهُ فَإِنَّهُ يَدْعُو لِلصَّلَاةِ » .

وروى أبو يعلى وغيره : « إِنَّ رَجُلاً لَدَغَتْهُ بُرْغُوثٌ فَلَعَنَهَا فقَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ لَا تَلْعَنْهَا فَإِنَّهَا نَبَّهَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لِلصَّلَاةِ » .

وفى رواية للبزار ورجاله رجال الصحيح : « لَا تَسُبَّهُ — يعنى البرغوث — فَإِنَّهُ أَيْقَظَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ » .

وروى الطبرانى : « أَنَّ الْبَرَاغِيثَ ذُكِرَتْ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ فَقَالَ إِنَّهَا تُوقِظُ لِلصَّلَاةِ » .

وفى رواية له عن على رضى الله عنه قال :

« نَزَلْنَا مَنْزِلاً فَآذَتْنَا الْبَرَاغِيثُ فَسَبَبْنَاهَا فقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ : لَا تَسُبُّوهَا فَنِعْمَتِ الدَّابَّةُ فَإِنَّهَا أَيْقَظَتْكُمْ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ » .

وروى أبو داود والترمذى وابن حبان : « أَنَّ رَجُلاً لَعَنَ الرِّيحَ عِنْدَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقَالَ لَهُ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ لَا تَلْعَنِ الرِّيحَ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نطلق ألسنتنا بألفاظ تفهم القذف لأحد من المسلمين فضلا عن القذف الصريح ، وإن وقع أننا وقعنا فى ذلك سلمنا نفوسنا للمقذوف يتصرف فيها كيف يشاء ولا نتشفع عنده بأحد من الأكابر أومن أصحابه ليسامحنا بترك الحد ولو كان من أرقائنا ، وهذا العهد يخل به كثير من الناس ، فيقع أحدهم فى عرض أخيه المسلم بحسب إشاعة الناس الذين لا يتورعون فى منطق ويقولون فلان كلب ، فلان فاسق فلان لوطى فلان يشرب الخمر ، فلان زان فلان يبلع الحشيش ، فلان علق فلانة تحبه ونحو ذلك ، ولا رآه قط على فاحشة من هذه الفواحش

ولا أقيمت عند الحاكم بذلك بينة عادلة ، وهذا كله من عدم خوف من وقع فى ذلك على دينه :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح حتى يخرق بصره إلى الدار الآخرة ، ويطابق بينها وبين هذه الدار وينظر ما يمشى عند الله هناك فيفعله هنا ومالا يمشى هناك فيتركه هنا ، ومن لم يسلك كما ذكرنا فمن لازمه أن لايشم شيئا من رائحة التورع عن الوقوع فى أعراض المسلمين :

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ فَذَكَرَ مِنْهُنَّ وَقَذْفَ المُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ » .

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعا : « إِنْ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَمْيُ المُحْصَنَةِ » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد مرفوعا : « مَنْ ذَكَرَ أُمْرَأً بِشَىْءٍ لَيْسَ فِيهِ لِيَعِيبَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللهُ تعَالَى فى نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَأْتِيَ بِنفَاذِ مَا قَالَ فِيهِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كما قَالَ » .

قلت : فى هذا الحديث تصريح بأن أحكام الدار الآخرة قد تخالف الحكم الشرع فى دار الدنيا ، وإلا فقد صرحت الأحاديث بتحريم الغيبة والنميمة ، وإن كان صاحبها محقا والله أعلم .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد عن عمرو بن العاص أنه زار عمة له فدعت بطعام فأبطأت الجارية فقالت ألا تستعجلين يا زانية ؟ فقال عمرو سبحان الله لقد قلت عظيما هل اطلعت منها على زنا ؟ قالت : لا والله ، فقال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أَيُّمَا عَبْدٍ أَوِ امْرَأَةٍ قَالَ أَوْ قَالَتْ لِوَلِيدَتِهَا يَازَانِيَةُ وَلَمْ تَطَّلِعْ مِنْهَا عَلَى زِنًا جَلَدَتْهَا وَلِيدَتُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ لاَحَدَّ لَهُنَّ فى الدُّنْيَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نروّع مسلما ولا نشير إليه بسلاح ونحوه لا جادين ولا مازحين لا سيما الأطفال ، إذا طلبنا أننا نخوفهم ليناموا فى الليل مثلا أو يسكتوا عن الصياح خوفناهم بتغليظ الصوت أو البعوة ، كقولنا اسكت البعوة جاءت ونعنى بها قيام الساعة لأن كل عاقل يخاف من مجيئها ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس ويقولون إنما نلعب فيقال لهم تلعبون بشىء نهى عنه الشارع صلى الله عليه وسلم واعتنى بالنهى عنه :

واعلم أن من أقبح الأمور أن يخاصم الرجل أخاه ثم يصير يخيفه بشكواه من بيوت الحكام ، وربما حلف أنه لا بد أن يشتكيه للمفتش مثلا أو للقاضى أو للوالى ، وربما كان المخاف ضعيف القلب لاعادة له بدخول بيوت الحكام فيرى سلب ما له أهون عليه من الحكام والوقوف بين أيديهم :

فالزم ياأخى حرمة المسلمين كما أمرك الشارع ولا تتهاون وتقول إنما أنا ألعب وليس مقصودى شكوى حقيقة فإنه سوء أدب عظيم ؛ فإياك ثم إياك من ذلك والله يتولى هداك :

وقد روى أبو داود أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا سائرين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام رجل منهم فانطلق إلى رجل معه جمل فأخذه ففزع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا » .

وفى رواية للطبرانى أن رجلا كان مسافرا مع النبى صلى الله عليه وسلم فخفق على راحلته فانتزع رجل سهما من كنانته فانتبه فزعا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا » ومعنى خفق : نعس .

وروى أبو داود والترمذى مرفوعا : « لَا يَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ أَخِيهِ لَاعِبًا وَلَا جَادًّا » .

وروى الطبرانى والبزار وغيرهما أن رجلا أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« لَا تُرَوِّعُوا الْمُسْلِمَ فَإِنَّ رَوْعَةَ الْمُسْلِمِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

وروى الطبرانى أن رجلا كان عند النبى صلى الله عليه وسلم فقام ونسى نعليه فأخذهما

رجل فوضعهما تحته فرجع الرجل فقال نعلى ، فقال القوم مارأيناهما ، فقال الرجل هودة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فكيف بروعة المؤمن مرتين أو ثلاثا :

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَخَافَ مُؤْمِنًا كَانَ حَقًا عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُؤَمِّنَهُ مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية له أيضا : « مَنْ نَظَرَ إِلَى مُسْلِمٍ نَظْرَةً يُخِيفُهُ فِيهَا بِغَيْرِ حَقٍّ أَخَافَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِى لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » .

ومعنى ينزع : يرمى ، وأصل النزع الطعن والفساد .

وروى مسلم مرفوعا : « مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ » .

وروى الشيخان مرفوعا: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». وفى رواية لهما أيضا « إِنَّ الْمُسْلِمَيْنِ إِذَا حَمَلَ أَحَدُهُمَا عَلَى أَخِيهِ السِّلَاحَ فَهُمَا عَلَى حَرْفِ جَهَنَّمَ ، فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلَاهَا جَمِيعًا فَقِيلَ يَارَسُولَ اللهِ هٰذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسب الدهر الذى نحن فيه يعنى الزمان ، وأما سبه بالمعنى الآخر فهو كفر صريح ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من العلماء والصالحين فضلا عن العوام والفاسقين ، فيقولون هذا زمان السوء هذا زمان الشؤم ، وكأنهم يسبون أنفسهم إذ الشر والخير إنما هما فعل المكلف لا فعل الزمان وأنشدوا :

نَسُبُّ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا   وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

إلى آخر ما قالوا ، وفى الحديث : « إِذَا قَالَ ابْنُ آدَمَ لَعَنَ اللهُ الدُّنْيَا قَالَتِ الدُّنْيَا ؟ لَعَنَ اللهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ » .

فافهم وأضف الشر والشؤم إلى المكلفين فإنه صدق بخلاف الزمان ، ومن تأمل فى نفسه وجد نفسه تحت حكم قضاء الله وقدره فى كل مايقع على يديه من المعاصى والشرور فليس فى يده دفعها عنه ولا دفع جزائها عنه إذا وقعت ، وكذلك جميع أفعال الظلمة والولاة ، فأمسك يا أخى الأصل وتنزل فى الفروع من غير غفلة عن مشاهدة الأصل لئلا تشرك بالله تعالى شيئا من خلقه على وجه أن لذلك الشىء أثرا فى إيجاد الأفعال ، وأضف الأفعال إلى الخلق من حيث الوجه الذى أضافه الحق تعالى إليهم بقوله تعالى :

(تَفْعَلُونَ ـ تَعْمَلُونَ ـ تَكْسِبُونَ) ونحو ذلك .

وسمعت سيدى الخواص رحمه الله يقول : اجتمع أصحاب سيدى الشيخ سالم أبى النجا الفوى بمدينة فوة بالبحيرة وهو محتضر وكانوا سبعمائة رجل ، فقالوا له أوصنا فى هذا الوقت وصية موجزة نحفظها عنك فسكت ، ثم قال اعلموا يا إخوانا أن كل مافى الوجود يقابلكم بشاكلة مابرز منكم من الأعمال الظاهرة والباطنة فانظروا كيف تكونون . قلت وهذا كلام فى غاية النفاسة فمن تأمله لم يضف قط إلى الزمان وأهله شيئا إلا على وجه الاستناد لأجل إقامة الحدود والتكاليف كما أشار إليه حديث :

« الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ » اهـ .

فلولا أنه يصح نسبة الأمور للدنيا ما أخبر الشارع صلى الله عليه وسلم أنها ملعونة ، فتأمله والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » .

وفى رواية : « أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَإِذا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا » .

وفى رواية لمسلم : « لاَ يَسُبُّ أَحَدُكُمُ الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » .

وفى رواية للبخارى : « لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ وَلاَ تَقُولُوا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » .

وفى رواية لأبى داود والحاكم وغيرهما مرفوعا :

« قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَقولُ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ ، فَلاَ يَقلْ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّى أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ » .

وروى الحاكم والبيهقى مرفوعا : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِى فَلَمْ يُقْرِضْنِي وَشَتَمَنِي عَبْدِي وَهُوَ لاَ يَدْرِي يَقُولُ : وَادَهْرَاهُ وَادَهْرَاهُ وَأَنَا الدَّهْرُ » .

وفى رواية للبيهقى : « لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا الدَّهْرُ ، الأَيَّامُ وَاللَّيَالِى أُجَدِّدُهَا وَأُبْلِيهِمَا وَآتِى بِمُلُوكٍ بَعْدَ مُلُوكٍ » .

وقوله أنا الدهر ضبطه الجمهور بضم الراء . وكان أبو داود ينكر ضم الراء ويقول لو كان كذلك لكان اسما من أسماء الله تعالى ، وكان يقول إنما هو بفتح الراء على الظرف ومعناه أنا أطول الدهر والزمان أقلب الليل والنهار ورجح هذا بعضهم والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نسارر أحدا قط من إخواننا بنميمة إلا بطريق شرعى ، كما إذا رأينا ظالما قد عزم على أخذ مال أحد بغير حق أو حبسه أو ضربه أوعزم على السعى على وظيفته أو الزيادة فى كراء بيته أو عزم على السعى على أنه يوليه وظيفة لا يطيق القيام بحقها ، كأن يجعله قاضيا أو عاملا أو محتسبا أو نحو ذلك ، فإن النميمة ماحرمت إلا على وجه الإفساد :

(وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) .

وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من أهل هذا الزمان ويقولون لمن نموا له لاتقل إنى قلت لك وصارت الإقامة بين أظهركم من أخوف ما يكون .

وقد أجمعت الأمة على تحريم النميمة وأنها من أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، فخذ حذرك يا أخى من كل من نم لك فإنه ينم عليك بيقين ، وكن عالية العوالى فى الحذر وإلا وقعت ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ » .

وفى رواية : « قَتَّاتٌ » وهو بمعنى النمام .

وقيل النمام الذى يكون مع جماعة يتحدثون حديثا فينم عليهم ، والقتات الذى يتسمع عليهم وهم لايعلمون ثم ينم ، وتقدم حديث الشيخين مرفوعا :

« أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « النَّمِيمَةُ وَالشَّتِيمَةُ وَالْحَمِيَّةُ فِي النَّارِ » .

وفى رواية : « إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْحِقْدَ فِي النَّارِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ مُسْلِمٍ » .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الْكَذِبَ يُسَوِّدُ الْوَجْهَ ، وَالنَّمِيمَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « شَرُّ عِبَادِ اللهِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ » .

وفى رواية لأبى الشيخ : « الْهَمَّازُونَ وَاللَّمَّازُونَ وَالْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ يَحْشُرُهُمُ اللهُ فِي وُجُوهِ الْكِلاَبِ » .

وروى أبو داود وابن حبان فى صحيحه مرفوعا فى حديث طويل :

« فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » .

ثم قال ابن حبان ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلٰكِنْ أَقُولُ تَحْلِقُ الدِّينَ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون فى وقوعنا فى غيبة فضلا عن وقوعنا فى البهتان ، ولا نرى لنا أعمالا مكفرة لذلك كما عليه طائفة المتهورين فى أعراض الناس بل لا نزال خائفين من وقوعنا فى ذلك ، وهذا دأبنا حتى نلقى الله عز وجل ونصدر عن الحساب ، وهناك تظهر لنا الأعمال التى لنا هل تكفر تلك الغيبة أم لا ؟ فإن أعمالنا الصالحة عندنا تحتاج إلى مكفرات أخر لما فيها من العلل والآفات كما قيل :

ذُنُوبُكَ فِي الطَّاعَاتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ ... إِذَا عُدِّدَتْ تَكْفِيكَ عَنْ كُلِّ زَلَّةِ

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لايقعن أحدكم فى غيبة مسلم ثم يقول ولو فى نفسه إن لى أعمالا صالحة تكفر عنى تلك الغيبة فربما كان من اغتبناه أو بهتناه لا يرضيه جميع أعمالنا يوم القيامة ، وهذا الداء قد عم غالب الخلق وماسلم منه إلا القليل ، وصار غالب

الناس من وراء الواحد بوجه ومن قدامه بوجه ، فالعاقل لا يتكدر من الغيبة فيه بل ينبغي له الفرح لأن الله تعالى يحكمه يوم القيامة فى أعمال الذى اغتابه فيأخذ منها ماشاء .

وقد سمعت أخى أفضل الدين رحمــه الله يقول عن شخص اغتابه : اللهم اغفر له ماجناه من جهتى واقسم له الاخلاص فى أعماله ليعطى الناس منها يوم القيامة ، فإن الأعمال التى دخلها رياء أو سمعة لايصل إلى الآخرة منها مع صاحبها شيء حتى يرضى به الناس الذين اغتابهم ، فرضى الله تعالى عنه ما كان أرحمه بعباد الله عز وجل :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به الطريق حتى يصير يشاهد بقلبه عرصات القيامة وما يمشى هناك من الأعمال وما يردّ وما يؤاخذه الله به وما لايؤاخذه ليحذر من الوقوع فى كل شيء لايمشى هناك ، فإن غالب إيمان الناس صار فيه ضعف فلا ينهض بصاحبه إلى مقام اجتناب هــذه الموبقات ، ولو أن الإيمان كان قويا لما وقع أحد قط فيما حرم الله ؟

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كل من لايكون عنده ما توعده الله تعالى به كالحاضر على حد سواء ، فمن لازمه وقوعه فى المخالفات ، وتأمل صاحب الشهوة للجماع وصاحب المـال إذا بخل بإخراج الزكاة لو أجج السلطان له نارا عظيمة وقال له إن منعت الزكاة أو زنيت بهذه المرأة عذبتك وأحرقتك بهــذه النار قولا حازما كيف لا يفعل الزنا ولا يمنع الزكاة لمشاهدته للعذاب ببصره ، فكذلك من يشهد ببصيرته كفارة الغيبة ، ومن هنا قلت معاصى كمل المؤمنين وكثرت معاصى غيرهم ؟

وقد بلغنا أنسيدى الشيخ أبا المواهب الشاذلى رضى الله عنه كان يقول : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت يارسول الله ماكفارة الغيبة إذالم تبلغ صاحبها ؟ فقال كفارتها أن تقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين وتهدى ثواب ذلك فى صحائف من اغتبته اهـ :

(وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وروى الشيخان وغيرهما : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هٰذَا، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا: « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ ، وَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ » .

وروى البزار بإسناد قوىّ مرفوعا :

« إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَمِنَ الْكَبَائِرِ السُّبَّتَانِ بِالسُّبَّةِ » .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح :

« أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا » قال بعض الرواة : يعنى قصيرة ، « فَقَالَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ » .

أى لو قدرت جسما وطرحت فى البحر لكدرته وصيرت ريحه منتنا :

وروى أبو داود : أن زينب قالت لصفية مرة يايهودية فى حال غضب فهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ذا الحجة والمحرم وبعض صفر ؛

وروى ابن أبى الدنيا عن عائشة قالت :

« قُلْتُ لِامْرَأَةٍ مَرَّةً وَأَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إِنَّ هٰذِهِ لَطَوِيلَةُ الذَّيْلِ ، فَقَالَ الْفِظِي فَلَفَظْتُ بَضْعَةً مِنْ لَحْمٍ » .

ومعنى الفظى : ارمى ما فى فمك ، والبضعة : القطعة .

وروى أبو يعلى والطبرانى : « أَنَّ رَجُلاً قَامَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فَرَأَوْا فِي قِيَامِهِ عَجْزًا فَقَالُوا مَا أَعْجَزَ فُلاَنًا فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَكَلْتُمْ لَحْمَ أَخِيكُمْ وَاغْتَبْتُمُوهُ » .

وروى الأصبهانى بإسناد حسن : « أَنَّهُمْ ذَكَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رَجُلاً وَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يَأْكُلُ حَتَّى يُطْعَمَ وَلاَ يُرَجِّلُ حَتَّى يُرَجَّلَ لَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدْ اغْتَبْتُمُوهُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا حَدَّثْنَا بِمَا فِيهِ ، قَالَ حَسْبُكُمْ إِذَا ذَكَرْتُمْ أَخَاكُمْ بِمَا فِيهِ » .

وروى الطبرانى ورواته رواة الصحيح :

« أَنَّ رَجُلاً قَامَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَوَقَعَ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ تَخَلَّلْ قَالَ وَمِمَّ أَتَخَلَّلُ ؟ مَا أَكَلْتَ لَحْماً، قَالَ: إِنَّكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ » .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى مرفوعا قال :

« أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الأَذَى فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ كَانَ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ بِالْغِيبَةِ وَيَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ » .

وروى الإمام أحمد : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ نَظَرَ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِيفَ ؟ فَقَالَ مَنْ هؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » .

وروى أبو داود مرفوعا قال : « لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هؤُلاَءِ يَاجِبْرِيلُ؟ قَالَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى مرفوعا :

« الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا، قِيلَ وَكَيْفَ؟ قَالَ: الرَّجُلُ يَزْنِي ثُمَّ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ » .

وروى الأصبهانى مرفوعا : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى كِتَابَهُ مَنْشُورًا فَيَقُولُ يَا رَبِّ فَأَيْنَ حَسَنَاتُ كَذَا وَكَذَا عَمِلْتُهَا لَيْسَتْ فِي صَحِيفَتِي ؟ فَيُقَالُ لَهُ مُحِيَتْ بِاغْتِيَابِكَ النَّاسَ » .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما مرفوعا : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ فَقَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ فِي أَخِيكَ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك وقوعنا فى الكلام اللغو خوفا أن يجر إلى مكروه أو حرام ، ونعوّد اساننا أن لايجيب عن الكلام إلا بعدتأمل وتثبت ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الحجاج إذا رجعوا من الحج فيصير يحكى ماوقع له من غير أن يسأله الناس عنه فيصير الناس الذين يسلمون عليه متقلقلين لأجل حوائجهم التى وراءهم من سلام على حجاج آخرين أو غير ذلك وهو يهدر لهم كالشاعر ، وكذلك يقع فى خيانته كثير من الفقراء الذين تزورهم الأمراء فيفتحون على ذلك الأمير باب الكلام الذى ليس للذلك الأمير به حاجة كقوله له : كان فلان الأمير عندنا البارحة أو الباشا زارنا أمس أو قاضى العسكر أو أعطانى الباشا حصانا مليحا ونحو ذلك ، وهذا دليل على أن ذلك الشيخ دنياوى دق المطرقة لاستعزازه بالخلق ، وربما طول الشيخ الكلام على ذلك الأمير فيقول للشيخ وهو فى وسط الكلام اقرءوا الفاتحة ياسيدى الشيخ فيكلح الشيخ فيصير دعاؤه خداجا من قلة اعتقاد الأمير فى الشيخ ، ولكثرة ماوقع فيه من اللغو والهذيانات ، فعلم أن من الأدب الكف عن مثل ذلك ، والله غفور رحيم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا عن أبى موسى قال :

« قُلْتُ يَارَسولَ اللهِ أَىُّ المُسْلِمِينَ أَفْضَلُ قَالَ: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ ».

قلت : قال سيدى على الخواص رحمه الله ، وهذا من شرط كل داع إلى الله عز وجل ، فمن ادعى مقام المشيخة ولم يسلم الناس من لسانه ولا من يده فهو كاذب ، لأنه إذا لم يسلم له كمال مقام الإسلام فكيف بمقام الإيمان؟ فكيف بمقام الإحسان الذى يدعيه ؟ فإن شرط الداعى أن يقف فى محل القرب يدعو المطرودين عن حضرة الله إلى حضرة الله والله أعلم .

وروى الشيخان مرفوعا : « إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ » .

وفى رواية لابن ماجه والترمذى : « إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِى بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا » .

وقوله مايتبين : أى مايتفكر هل هى خير أو شر ؟ .

وروى البيهقى مرفوعا : « إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لاَ يَتَكَلَّمُ بِهَا إلاَّ

لِيُضْحِكَ بِهَا الْمَجْلِسَ يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَزِلُّ عَنْ لِسَانِهِ أَشَدَّ مِمَّا يَزِلُّ عَنْ قَدَمَيْهِ » .

وروى الترمذى والبيهقى مرفوعا : « لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي ».

وروى مالك بلاغا أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كان يقول : لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، وإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لاتعلمون .

وروى الترمذى وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللهِ » .

وروى أبو الشيخ مرفوعا : « أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ » .

وروى الترمذى مرفوعا ورواته ثقات: « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ ».

أى مالا تدعو إليه ضرورة دينية أو دنيوية ، والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانحسد أحدا من خلق الله ولانتمنى زوال ماأعطاه الله تعالى له من علم أو جاه أو كثرة اعتقاد فيه أو نحو ذلك من الأمور الدينية أو الدنيوية هروبا من رائحة الإعتراض على الله عز وجل أو خوفا من مقتنا وطردنا ولعننا كما وقع لإبليس ، فإن جميع ماوقع له كان أصله الحسد لآدم عليه السلام كما صرحت به الآيات والأحاديث والأخبار ، فمن حسد أحدا من العلماء والصالحين فلا يستبعد أن يقع له كما وقع لإبليس .

ومن كلام سيدى على بن وفا رحمه الله تعالى : كن لأولياء الله خادما إما لترحم أو لتغنم أو لتسلم ، وإياك أن تكون لهم حاسدا ، فإنه لابد لك أن ترجم وتلعن وتطرد ولو على ممر الأيام ، وإن كان لك مؤلفات أو تلامذة عدمت النفع بهم .

وبالجملة فجميع مايطلبه العبد لإخوانه من خير أو شر يجازيه الله تعالى بنظيره ، وهذا ضابطه .

واعلم أنه يا أخى لايصح لك العمل بهذا العهد إلا إن سلكت على يد شيخ ناصح

وخرجت عن جميع رعونات النفوس وإلا فمن لازمك الحسد ، ولو كنت عاقلا لطلبت من ربك أن يعطيك كما أعطى من حسدته واسترحت من تعرضك للمقت :

قلت : وأنا أعطيك ميزانا تعرف به الحسود من غيره ، وهو أن كل من عجز عن تصوير دعوى شرعية عليك فى الدنيا والآخرة ، وهو مع ذلك يكرهك فاعلم أنه حسود لا يرضيه إلا زوال النعمة عنك :

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد والله يتولى هداك :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا فى حديث طويل :

« وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا » .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم مرفوعا .

« لاَ يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَفَيْحُ جَهَنَّمَ ، وَلاَ يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ، أَوْ قَالَ الْعُشْبَ » .

وروى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا : « لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا » .

وفى رواية له أيضا مرفوعا : « لَيْسَ مِنِّي ذُو حَسَدٍ وَلاَ نَمِيمَةٍ » الحديث .

وفى رواية له أيضا : « لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلاَّ ثَلاَثَ خِصَالٍ أَنْ تَكْثُرَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَيَتَحَاسَدُونَ » الحديث .

وروى البزار بإسناد جيد والبيهقى وغيرهما مرفوعا :

« دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ ، أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِأَنَسٍ « يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ حَسَدٌ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ » .

وروى الإمام أحمد على شرط الشيخين :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَطْلُعُ الآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ فَأَخْبَرَ ذَلِكَ الرَّجُلَ بِمَا قَالَهُ صلى الله عليه وسلم فِي حَقِّهِ وَقَالُوا لَهُ مَا عَمَلُكَ؟ فَقَالَ لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي حَسَدًا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ غِشًا وَلاَ أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتكبر على أحد من المسلمين ولا نفتخر عليه ولا نعجب بشىء من أحوالنا الظاهرة والباطنة .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يسلك به حتى يسد عنه جميع المخارس التى يدخل عليه منها الآفات .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : مخرس الكبر الذى يدخل على الإنسان منه الكبر والفخر والعجب هو شهوده أن الفضائل التى تكبر بها أو افتخر بها له ، فإذا سلك الطريق وجدها كلها لله عز وجل كشفا ويقينا ليس للعبد منها شىء وإنما هى عارية لله تعالى عند العبد ، ولها مصارف شرعية يصرفها فيها ، كإظهار التكبر على فعل ماأمره به إبليس وإظهار الفخر على الكفار والظلمة ، وإظهار العجب من أفعال الحق تعالى فى حلمه عليه وكثرة إحسانه له مع كثرة مخالفته .

واعلم أن تكبر العوام إنما هو بشهودهم النقص فى أنفسهم ، فيريدون أن يزيلوا ما فى نفوس الناس من احتقارهم لهم ولذلك يقولون فى المثل لاتجد النفورة إلا عند الحمير العرج

وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : قل من يكون فى جسمه نقص إلا وعنده تكبر أى لأجل العلة التى ذكرناها .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لايصح لأحد التكبر على الله تعالى أبدا وإنما تكبر من تكبر على أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فتكبروا عن أمر الرسل مع غفلتهم عن كون أوامر الرسل هى أوامر الله تعالى حقيقة إذ الجناب الإلهى معظم عند سائر الملل فافهم .

وكان الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله تعالى يقول : التكبر خاص بالإنس والجن دون غيرهما من سائر المخلوقات ، قال : والحكمة فى ذلك كون المتوجه على إيجادهما من الأسماء الإلهية أسماء الحنان واللطف والرحمة دون أسماء القهر والذلة ، فخرج الإنس والجن من حضرات تلك الأسماء فلم يروا فى نفوسهم ذلا ولا انكسارا فتكبروا بخلاف

غيرهما من الملائكة والبهائم وغيرهما، فإن المتوجه على إيجادهما أسماء القهر كالذل، والمنتقم والجبار ، فلذلك خرجوا أذلاء فى نفوسهم ولا تكبر عندهم اه :

ثم لايخفى أن صفات البشر وإن كانت من الأصل لغيره لكنها لما حلت فيه تشكلت بشاكلته وصارت كأنها من أصل طينته لايمكن زوالها منه أبدا ، وإنما الحق تعالى يعطل استعمالها فى عباده المخلصين قال تعالى :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) .

فأخبر أن الشح من لازم البشر لكنه توقى العمل به فضلا منه تعالى عليه ، وقال تعالى

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

وما قال (ومن شر) أن يقوم بأحد حسد لى لعلمه تعالى بأن الحسد فى كل جسد من البشر من الأمم .

وقد كنت رأيت مرة لوحا أحمر نزل من السماء فى سلسلة فضة مكتوب فيه بالأخضر ، اعلموا أن حكم البشر حكم الطينة المعجونة من سائر الأجرام والطعوم والروائح والنفاسة والخبثة والخفة والثقل والجبن والبخل والشجاعة والكرم والروائح الطيبة والكريهة وغير ذلك ، فإذا فرقت هذه الطينة بعد عجنها حتى صارت روحا واحدا أجزاء صغارا على أدق مايقضى به العقل بحكم العقل ، بأن فى كل جزء مجموع مانفرق فى غيره ففى طينة البشر من صفات الشر مالا يحصى ومن صفات الخير مالا يحصى ، وفى الأكابر من الصفات الناقصة كما فى الأصاغر وعكسه لكن الصفات الناقصة خفية فى الأكابر والصفات الكاملة خفية فى الأصاغر وعكسه ، هذا حكم جميع ولد آدم ماعدا الأنبياء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد طهر الله تعالى طينتهم بسابق العناية لابعمل عملوه ولابخير قدموه ، فطينتهم كلها خير لاشر فيها ، وأما غيرهم فهو باق على أصل طينته ، وما كان جبليا فى النشأة فمحال أن يزول إلا بانعدام الذات ، وما دامت العناية تحف العبد فالصفات الحسنة مستعملة فى العبد والسيئة معطلة ، وحينئذ يقول الناس لذلك الشخص شىء لله ، المدد ياسيدى الشيخ ، فإذا تخلفت عنه العناية قامت الصفات السيئة للاستعمال وتعطلت الحسنة ، فيكون العبد كالشيطان يقول الناس عند رؤيته نعوذ بالله من شر مارأينا وتتبرأ منه الخلق أجمعون اه ، مارأيته فى اللوح فى واقعة من وقائعنا بمصر المحروسة وقد جهل العارفون من قال فى كتابه باب علاج

زوال العجب باب علاج زوال الكبر ونحو ذلك ، لأنه يوهم أن هذه الصفات تزول من العبد والأمر بخلاف ذلك كما بيناه آنفا والله غفور رحيم .

وقد روى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فى أَسْفَلِ سَافِلِينَ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « وَمَنْ تَكَبَّرَ قَصَمَهُ اللهُ أَوْ قَالَ أَخْسَأَهُ فَهُوَ فى أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ وَفى نَفْسِهِ كَبِيرٌ » .

وروى الطبرانى مرفوعا ورواته ثقات : « إِيَّاكُمْ وَالْكِبْرَ فَإِنَّهُ يَكُونُ فى الرَّجُلِ وَإِنَّ عَلَيْهِ الْعَبَاءَةَ » .

وروى الإمام أحمد والترمذى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ » .

وروى أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وغيرهم مرفوعا :

« يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى فَمَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فى النَّارِ » .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » . والعائل بالمد: هو الفقير .

وفى رواية للنسائى : « وَفَقِيرٌ مُخْتَالٌ » .

وفى رواية لابن خزيمة وابن حبان : « وَفَقِيرٌ فَخُورٌ » .

وفى رواية للبزار : « وَعَائِلٌ مَزْهُوٌ » يعنى المزهو المعجب بنفسه المتكبر .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِسْكِينٌ مُتَكَبِّرٌ » .

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعا : « مَنْ كَانَ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل مِنْ كِبْرٍ كَبَّهُ اللهُ لِوَجْهِهِ فى النَّارِ » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ فَقَالَ رَجُلٌ إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَناً قَالَ : إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، وَالْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » .

وبطر الحق دفعه ورده ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم ، وكذلك غمصهم بالصاد المهملة .

وروى البخارى والنسائى وغيرهما مرفوعا : « بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ يَجُرُّ إِزَارَهُ خُيَلَاءَ إِذَا خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فى الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . والخيلاء : هو الكبر والعجب .

وقوله يتجلجل فى الأرض : أى يغوص وينزل فيها .

وروى الإمام أحمد والبزار مرفوعا : « بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فى بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى فى حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ يَخْتَالُ فى مِشْيَتِهِ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى أبو يعلى عن كريب قال كنت أقود ابن عباس رضى الله عنهما فى زقاق أبى لهب ، فقال يا كريب بلغنا مكان كذا وكذا قلت أنت عنده الآن ، قال حدثنى العباس ابن عبد المطلب قال بينما أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضع إذ أقبل رجل يتبختر بين بردين وينظر إلى عطفيه قد أعجبته نفسه ، إذ خسف الله به الأرض فى هذا الموضع فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وروى ابن حبان فى صحيحه والترمذى : « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ سَلَّطَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

والمطيطاء : هو التبختر ومد اليدين فى المشى .

وروى الترمذى مرفوعا : « لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ » .

وقولهم يذهب بنفسه : أى يرتفع ويتكبر .

وروى البزار بإسناد جيد مرفوعا : « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ الْعُجْبُ » والله تعالى أعلم .

أخذ (علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانعظم أحدا إلا تبعا لتعظيم الشارع صلى الله عليه وسلم ، كما لانقر أحدا على تعظيمه لنا ولو كنا على القدم الذى تعلم من الناس أنهم يعظمونا لأجله خوفا من مزاحمة أوصاف الربوبية ، ثم مرادنا بتعظيم الشارع لأحدنا حتى نعظمه أن توجدفيه الصفات الحميدة التى مدحها صلى الله عليه وسلم ، فكل من وجدت فيه صفة منها عظمناه وقمنا بواجب حقه ، وكل من لم توجد فيه أعرضنا عن تعظيمه ، ولو كان من أركان الدولة إلا أن يترتب على ذلك مصلحة لنا أو للمسلمين فعلم أنه لاينبغى لنا تعظيم فاسق ولا مبتدع بنحـــو قولنا له ياسيدى أو نحوها من كلمات التعظيم والتفخيم إلا إن سبق لساننا بحكم عادتنا مع الناس السالمين من الفسق ، بل ربما سبق لسان بعض العلماء بقوله لليهود حشاك ياسيدى أو مليح ياسيدى ، ومثل ذلك لايؤاخذ به العبد إن شاءالله تعالى قاله بعضهم ، وكلامنا فى الفسق الاصطلاحى كشارب الخمر والمبتدع ونحوهما مما توعد الشارع صلى الله عليه وسلم عليه ، وليس المراد به فعل مطلق الأمور التى ترد بها الشهادة كالأكل فى السوق وإضحاك الناس والمشى بلا رداء أو مكشوف الرأس ونحو ذلك . ويجمع الفسق كله ارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة أو مداومة ارتكاب المكروه والإخلال بالسنن المشروعة ، ثم لافرق عند محققى الصوفية بين المعاصى الظاهرة كما قدمنا وبين ارتكاب المعاصى الباطنة كالحسد والكبر والحقد ونحوها ، فمن كان مرتكبا لشىء من هـــذه المعاصى فلا ينبغى لأحد أن يقول له ياسيدى ولاينبغى له أيضا أن يقر الناس على ذلك وهو يعلم من نفسه الفسق بارتكاب مالو أبداه للناس لفسقوه ، والله غفور رحيم .

وروى أبو داود والنسائى بإسناد صحيح مرفوعا :

« لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ يَا سَيِّدِى فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ » .

ولفظ رواية الحاكم : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِلْمُنَافِقِ يَا سَيِّدِى فَقَدْ أَغْضَبَ رَبَّهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بالوقوع فى الكذب من غير تثبت ، سواء كان قولا أو فعلا ظاهرا أم باطنا كأن يدعى أحدنا مقام التقريب عند الله تعالى ، وأنه محل أسراره وأنه يشفع فى أهل عصره أو إخوانه يوم القيامة من غير أن يطلعه الله تعالى على ذلك من طريق الكشف الصحيح الذى لايدخله محو ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من غالب أهل هذا العصر حتى من بعض المشايخ الموجودين فيه فيقول أحدهم لصاحبه إذا جاءك الشيطان فتوجه إلى وقل يافلان أدفعه عنك ، مع أن نفس الشيخ ربما كان إبليس راكبه هو ليلا ونهارا لا يكاد ينزل عنه بل بعضهم يقول إذا جاءك منكر ونكير أو زبانية جهنم فقل أنا من جماعة فلان فإنهم يتركونك ونحو ذلك من الهذيانات ، وقد استتر الأولياء أصحاب القدم وتركوا ناسا مثل هؤلاء لعلمهم بخروج الأشياء عن موضوعاتها الآن كالمقثأة إذا خربت وأطلقوا فيها البهائم ، ووالله لا ينبغى للعبد الآن أن يدعى مقام الإسلام التام المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم :

« الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » .

فإن غالب الناس إذا أنصفوا يعلمون من أنفسهم أن المسلمين لم يسلموا من لسانهم ولا من يدهم فضلا عن سوء الظن بهم فيلزم العبد الألفاظ التى لاتشعر بكمال فإنها إلى الصدق أقرب :

وقد سئل الشيخ ذو النون المصرى رضى الله عنه عن الصدق فى الطريق ما هو فأنشد يقول :

قَدْ بَقِينَا مُذْنِبِينَ حَيَارَى نَطْلُبُ الصِّدْقَ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فأين هذا من قول بعض أهل الزمان أنا القطب الغوث ويمدح نفسه بذلك فى الملأ ،

وأين هذا أيضا من قول الحسن البصرى سيد التابعين لمن قال له رأيتك البارحة فى الجنة أما وجد إبليس أحدا يسخر به غيرى وغيرك ؟ وأين هذا أيضا من قول مالك بن دينار لما قيل له اخرج معنا للاستسقاء وأبى إنى أخاف أن تمطر عليكم حجارة بسبب وقوفى معكم ، وكان إذا أملى الحديث فمرت به سحابة يقطع التحديث ويقول : حتى تمر هذه السحابة فإنى أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها. وكان يقول والله لو حلف شخص أننى ما أخاف الله ولا يوم الحساب فقلت له لا تكفر عن يمينك صدقت فإن أفعالى تصدق ذلك ، وأين هذا أيضا من قول معروف الكرخى رضى الله عنه والله إنى لأنظر إلى أنفى فى كل يوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود من سوء ما أتعاطاه ، وكان كثيرا ما ينظر فى المرآة إذا قام من النوم وربما حسس على وجهه بيده ويقول أخاف أن يكون الله عز وجل قد حول وجهى وجه خنزير ، وأين هذا أيضا من قول سيدى الشيخ عبد العزيز الديرينى لما طلبوا منه كرامة والله يا أولادى ما عندى الآن كرامة أكرمنى الله بها أعظم من إمساك الأرض ولم يخسفها بى حين أمشى عليها ، ووالله يا أولادى لقد استحقينا الخسف بنا لولا عفو الله تعالى : وأحوال السلف فى خوفهم من الله تعالى كثيرة مشهورة خلاف ما عليه بعض أهل هـــذا الزمان من حسن الظن بنفوسهم من غير طريق شرعى :

ومعلوم أن من شأن كل عارف بالله تعالى أن ينظر للذى عليه ولا ينظر للذى له ، وغالب المدعين فى هذا الزمان وغيره لابد أن يفتضحوا لأن كل مدع ممتحن ، وقد قال شخص من صوفية عصرنا هذا أطلعنى الله تعالى على جميع ما كتبه فى اللوح المحفوظ المشار إليه بقوله تعالى :

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) .

وكان ذلك بحضرة بعض الحذاق ، فقال له ياسيدى فكم فى حاجبك من شعرة ؟ فما درى ما يقول فافتضح : فاعلم ذلك وإياك والدعاوى الكاذبة حتى تجاوز الصراط والله يتولى هداك .

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا » .

وفي رواية لابن حبان : « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ » .

وروى الإمام أحمد : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَمَلُ أَهْلِ النَّارِ ؟ قَالَ : الْكَذِبُ . فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَذَبَ فَجَرَ ، وَإِذَا فَجَرَ كَفَرَ ، وَإِذَا كَفَرَ دَخَلَ النَّارَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ » الحديث .

وروى الإمام أحمد والطبراني وغيرهما مرفوعا :

« لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمِزَاحِ وَالْمِرَاءِ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا » .

وفي رواية لأبي يعلى مرفوعا : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ صَرِيحَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرُكَ الْمِزَاحَ وَالْكَذِبَ » الحديث .

وروى البزار وأبو يعلى ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ » .

وروى مالك مرفوعا : « قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟ قَالَ : لَا » .

وروى الإمام أحمد : « كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ » .

وروى الأصبهاني مرفوعا : « الْكَذِبُ يُنْقِصُ الرِّزْقَ » .

وروى ابن أبي الدنيا والترمذي وقال حديث حسن مرفوعا :

« إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلاً مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ »

وروى البزار وأحمد وابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ما اطلع على أحد من ذلك بشىء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة » .

وفى رواية كان يغضب على الكذبة الواحدة الشهر والشهرين وأكثر .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « إِنَّ الْكَذِبَ يُكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبَ الْكِذْبَةُ كِذْبَةً » .

وروى الإمام أحمد وابن أبى الدنيا مرفوعا :

« مَنْ قَالَ لِصَبِىٍّ تَعَالَ هَاكَ ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِىَ كِذْبَةٌ » .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى والبيهقى مرفوعا :

« وَيْلٌ لِلَّذِى يُحَدِّثُ الْحَدِيثَ يُضْحِكُ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون باستهزائنا بأحد من خلق الله عز وجل ، وذلك بأن نؤتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه على وجه الاستهزاء لا على وجه المداراة ، لأن الله تعالى لم يؤاخذ المنافقين بقولهم للذين آمنوا (إنا معكم) فقط ، وإنما آخذهم بقولهم (إنما نحن مستهزءون) ولذلك لما رد الله عليهم لم يرد إلا استهزاءهم فقط ، فقال (الله يستهزئ بهم) فافهم ، فإن هذا من لباب التفسير .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ حتى يدخل به حضرات الأولياء ويعرف قدر عظمة المؤمن ومن هو المخاطب بالاستهزاء به ، ووالله لولا الجهل لكان الإنسان يستحق باستهزائه نحو دخول النار .

فاسلك يا أخى على يد شيخ إن أردت العمل بهذا العهد وإلا فمن لازمك أن تكون ذا وجهين وذا لسانين والله عليم حكيم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا ، وَتَجِدُونَ خِيَارَ النَّاسِ فِى هٰذَا الشَّأْنِ ، يعنى الإمارة ، أَشَدُّهُمْ لَهُ كَرَاهَةً ، وَتَجِدُونَ أَشَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِى يَأْتِى هٰؤُلَاءِ بِوَجْهٍ ، وَهٰؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » .

وروى البخارى أنه قيل لعبد الله بن عمر : إننا كنا ندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ماتتكلم إذا خرجنا من عنده فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الطبرانى مرفوعا : « ذُو الْوَجْهَيْنِ فى الدُّنْيَا يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ وَجْهَانِ مِنْ نَارٍ » ورواه أبو داود وابن ماجه بنحوه .

وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى والأصبهانى مرفوعا :

« مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ جَعَلَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ » . والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بالحلف بغير الله عز وجل لاسيما بالأمانة ولا بقول ، وألا يكون أحدنا بريئا من الإسلام أو نصرانيا أو يهوديا ونحو ذلك من ألفاظ العوام والفسقة ، وهذا العهد أكثر من يقع فى خيانته من كان سيء الخلق فيجب على العبد رياضة النفس حتى يصير إذا خاصم أحدا لايتعدى إلى الحلف بمثل ذلك ، وإن كان قصده بذلك الحلف إنما هو التباعد عن الكفر لكن فيه رائحة وعد بالكفر إن كان الأمر بخلاف ماقصد التباعد عنه ، فالواجب اجتناب ذلك بل بعض المذاهب يرى تكفيره بذلك لأنه كمن عزم على الكفر غدا فيكفر فى الحال :

فاسلك ياأخى على يد شيخ حتى يخرجاك من رعونات النفوس والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى نَهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » .

وروى الترمذى وحسنه فى صحيحه والحاكم وغيرهم مرفوعا :

« مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ أَوْ كَفَرَ » .

وروى الطبرانى عن ابن مسعود أنه قال : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلىّ من أن أحلف بغير الله وأنا صادق :

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا » .

وروى أبو داود وابن ماجه والحاكم مرفوعا :

« مَنْ حَلَفَ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَي الْإِسْلَامِ سَالِمًا » .

وروى أبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَهُوَ كَمَا حَلَفَ إِنْ قَالَ هُوَ يَهُودِىٌّ فَهُوَ يَهُودِىٌّ وَإِنْ قَالَ هُوَ نَصْرَانِىٌّ فَهُوَ نَصْرَانِىٌّ وَإِنْ قَالَ هُوَ بَرِىءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَهُوَ بَرِىءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى » .

وروى ابن ماجه : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ أَنَا إِذَنْ يَهُودِىٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلمَ وَجَبَتْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانحلف قط يمينا كاذبة بالله عز وجل ولو لم نقتطع بها مالا لأحد إجلالا لله وتعالى وهذا العهد يخل به كثير من الناس فيحتاج من يريد العمل به إلى سلوك على يد شيخ صادق يسير به حتى يدخل حضرات التعظيم بالله عز وجل فيصير فى غالب أوقاته يرعد من هيبة الله عز وجل ، وهناك لايجرأ قط على الحلف بالله تعالى لاجادا ولا مازحا .

ونقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه كان يقول : ماحلفت بالله لاجادا ولا هازلا ولا لغوا ، ولكن هنا دقيقة وهى أن بعض المتورعين يتوجه عليه اليمين وخصمه كاذب فلا يرضى أن يحلف ويغرم المال بغير طيبة نفس وهذا معدود من الورع البارد ، بل الذى ينبغى له أن يحلف كما كان الصحابة يحلفون ليحرموا أخاهم من أكل الحرام والمال الحرام وكذلك القول فى الأيدى المترتبة على ذلك ، ولو أنه كان حلف لأخذ حقه الحلال وحرم أخاه من الاثم إلا إن كان يبرىء ذمته مما أخذه منه بغير حق بطيبة نفس (والله غفور رحيم) :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِىَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » .

وفى رواية لهما أيضا : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ لَقِىَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » وفى رواية لهما « وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ » .

وفى رواية لأبى داود وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« لاَ يَقْتَطِعُ أَحَدٌ مَالاً بِيَمِينٍ إلاَّ لَقِيَ اللهَ أَجْذَمَ » .

وروى البخارى والترمذى والنسائى مرفوعا : « الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ ـ الحديث ـ فَقِيلَ يَا رسولَ اللهِ وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ الَّذِى يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ـ يعنى بيمين ـ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ » .

قال الحافظ عبد العظيم : وإنما سميت اليمين الكاذبة غموسا لأنها تغمس الحالف فى الاثم فى الدنيا وفى النار فى الآخرة :

وفى رواية للترمذى وقال حديث حسن والطبرانى وابن حبان فى صحيحه :

« والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يَحْلِفُ رَجُلٌ عَلَى مِثْلِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إلاَّ كَانَتْ كَيَّةً فِى قَلْبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفى رواية : « نُكْتَةٌ فِى قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وروى البزار مرفوعا : « الْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تُذْهِبُ الْمَالَ أَوْ تَذْهَبُ بِالْمَالِ » .

وروى البيهقى مرفوعا : الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ » .

وروى الامام أحمد مرفوعا : « خَمْسٌ لَيْسَ لَهُمْ كَفَّارَةٌ الشِّرْكُ بِاللهِ وَالْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ الْفَاجِرَةُ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالاً بِغَيْرِ حَقٍّ » الحديث .

قال الحافظ الخطابى : واليمين الفاجرة هى اللازمة لصاحبها من جهة الحكم فيصبر من أجلها إلى أن يحبس وهو يمين الصبر ، وأصل الصبر الحبس ومنه قولهم قتل فلان صبرا أى حبسا على القتل وقهرا عليه :

وروى الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا :

« مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَأَوْجَبَ لَهُ النَّارَ وَلَوْ سِوَاكًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نحتقر مسلما ولو بلغ فى الفسق مابلغ لجهلنا بخاتمته ، وإنما نأمره وننهاه من غير احتقار وربما يكون أحسن

حالا منا ، فكيف نحتقر من نحن أسوأ حالا منه ؟ وإيضاح ذلك أن السبب الموجب لوقوعنا فى احتقاره إنما هو حسن الظن بأنفسنا وسوء الظن بغيرنا والواجب العكس ، كما قالوا من حكمة العارف بالله أن يوسع على الناس ويضيق على نفسه ويرى أن الله تعالى سامح الخلق ويؤاخذه هو :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ يلحقه بمقام العارفين وإلا فمن لازمه أن يرى نفسه ناجيا وغيره هالكا .

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم وغيره مرفوعا : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ ولاَ يَخْذُلُهُ ولَا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هٰهُنَا ، التَّقْوَى هٰهُنَا ، التَّقْوَى هٰهُنَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَيُشِيرُ إِلى صَدْرِهِ ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ » .

وتقدم حديث مسلم والترمذى وغيرهما مرفوعا :

« الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » ومعنى غمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم .

وروى الإمام مالك ومسلم وغيرهما «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهوأهلكهم» قال أبوإسحق سمعته بالنصب والرفع. قال أبو داود لاأدرى مراد أبى إسحق معنى بنصب الكاف من أهلكهم ورفعها ، وفسره مالك بما إذا قال ذلك معجبا بنفسه مزدريا لغيره فهو أشد هلاكا منهم لأنه لايدرى سر أمر الله فى خلقه اهـ.

وروى مسلم مرفوعا : « قَالَ رَجُلٌ وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ . فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُ ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ » .

وروى البيهقى مرسلا : « إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُمْ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فإِذَا جَاءَهُ أُغْلِقَ دُونَهُ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُفْتَحُ لَهُ الْبَابُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلُمَّ فَلَا يَأْتِيهِ مِنَ الإِيَاسِ » .

وروى الإمام أحمد والبيهقي مرفوعا : « لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ » .

وفي رواية لهما : « لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالدِّينِ أَوِ التَّقْوَى » .

وروى البيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَأَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، لَافَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

وتقدم الحديث الصحيح أوائل هذه العهود :

« وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانخلف وعدا وعدنا به أحد من ذهاب إلى مكان كذا أو عطية نعطيها أو عمل نساعده عليه ونحو ذلك ، وكذلك لانخون ولا نغدر ، ولا نقتل معاهدا ولا نظامه بشتم أو ضرب أو غيبة ونحو ذلك .

وقد ورد أن خلف الوعد أو العهد في حق الخلق مذموم ، فكيف بمن يوعد الله تعالى أو يعاهده ويخلف ؟ نسأل الله تعالى اللطف .

وقد وقع لي في أيام الصبا أنني عاهدت الله تعالى في أيام على أني لا آكل من طعام قاض ولا مباشر ولا من يبيع على الظلمة أو أصحاب المكوس مادمت أعيش ، فرأيت سيدي محمدا الغمري المدفون في المحلة الكبرى رضي الله عنه يقول لي : من عاهد الله تعالى على فعل أمر ليس هو في يده لقي الله تعالى يوم القيامة وهو أجذم اه فمن تلك الليلة ماعاهدت الله تعالى على شيء أبدا . ومن هنا كان النذر مذموما لأن الناذر ينذر ماليس في يده فعله أو تركه ، لأن خلق الأمور ليس هو بيده ، وإنما هو خاص بالقدرة الإلهية .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ ناصح يسلك به حتى يخرجه من الظلمات إلى النور فيعرف قدر عظمة المسلم فيحذر من إخلاف وعده له ويعرف قبح الخيانة فلا يخون قط أحدا في مال ولا كلام ، ولا يغدر قط فيما أعطاه أو فيما عاهد عليه ، ومن لم يسلك على يد شيخ فهو معرّض للوقوع في الخيانة والخلف وفي كل منهي لعدم الحماية له من الله تعالى

على يد شيخ ، فإن من لا شيخ له فشيخه الشيطان فافهم ؛ (والله غفور رحيم) وروى أبو داود وابن أبى الدنيا عن عبد الله بن أبى الحسين قال :

« بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ فَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِى مَكَانِهِ فَنَسِيتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِى مَكَانِهِ . فَقَالَ : يَا فَتَى قَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ ، أَنَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ » .

وروى أبو داود والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ » .

وروى البخارى مرفوعا: « يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ » الحديث .

وروى الإمام أحمد والبزار والطبرانى مرفوعا :

« لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » .

وروى الحاكم مرفوعا وقال إنه صحيح الإسناد :

« مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ » .

وروى أبو داود مرفوعا : « مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وفى مسنده مجهول .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانقبل من أحد من

الأشرار هدية كالظلمة وأهل البدع فضلا عن الكفار ، لأن المرء مع من أحب ولا نحب أن نحشر مع ظالم أو مبتدع ولا كافر ، فإن من قبل هدية هؤلاء مال بقلبه إليهم ضرورة إلا أن تحفه العناية بالسلوك على يد شيخ ناصح يسلك به فى حضرات التوحيد، حتى يصير يشهد الملك لله عز وجل وحده ، ويتحقق بذلك ذوقا ، ثم إنه إذا تنزل لنسب الشرائع بكسر النون أضاف الأمور إلى الخلق من غير وقوف معهم ، وما لم يسلك العبد على يد شيخ لا يشهد الملك ببادى الرأى إلا للخلق ولا المنة فى ذلك إلا لهم دون الله تعالى ، ولا يكاد يشهد المنة لله تعالى إلا بعد تأمل وتفكر على أن التحقيق فى ذلك أنه لا ينبغى لمسلم أن يقبل هدية من أحد من الأشرار إلا لعذر شرعى مطلقا ، ولو كان ذلك القابل من أكابر الأولياء ، لأن الجزء الذى يشهد الملك للخلق ويرى المنة لهم ببادىء الرأى يدق مع السالك فى المراتب ولا يزول بالكلية ، وهذا أمر لا يذوقه كل سالك إنما هو لأفراد منهم هذا حكم جميع الأمة ، وما خرج عن ذلك سوى الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام لعصمتهم (والله غفور رحيم) :

وروى الإمام أحمد والطبرانى مرفوعا : « لَا يَجِدُ الْعَبْدُ صَرِيحَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَبْغَضَ لِلهِ وَيُحِبَّ لِلهِ ، فَإِذَا أَحَبَّ لِلهِ وَأَبْغَضَ لِلهِ اسْتَحَقَّ الْوَلَايَةَ لِلهِ » .

وروى الشيخان : « أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلم قَالَ لِرَجُلٍ قَالَ لهُ إِنِّى أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » .

قال أنس : وما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : إنه مع من أحب ، فإنا نحب النبى صلى الله عليه وسلم ونحب أبا بكر وعمر ، ونرجو أن نكون معهم بحبنا إياهم :

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِناً وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِىٌّ » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد مرفوعا : « لَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا حُشِرَ مَعَهُمْ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعلم علم سحر ولا كهانة ولا تنجيما بالرمل والحصى ونحو ذلك ولا نصدق من يفعل ذلك ، لكن رخص بعض العلماء فى تعلم علم حل المعقود عن زوجته وإن عد ذلك من السحر لأن أصل تحريم السحر إنما هو لكونه يضر بالناس وهذا ينفعهم .

واعلم أنه قد غلب على الجهال فى هذا الزمان إتيان المنجمين الذين يخبرون بالضائع والعمل بقولهم حتى الحكام فصاروا يعاقبون المتهوم اعتمادا على قول المنجم وهذا كله جهل بالشرائع ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد أنشد الإمام الشافعى رضى الله عنه فقال :

فَوَاللهِ مَا تَدْرِى الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى ... وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ
فَسَلْهُنَّ هَلْ يُبْدِينَ غَيْباً مَتَى الْفَتَى ... يُلَاقِى الْمَنَايَا أَوْ مَتَى السَّيْلُ وَاقِعُ

واعلم يا أخى أن فى السحر أمورا مكفرة كما أخبرنى بذلك بعض من كان ساحرا وتاب من ذلك أنه لايصح السحر قط من مسلم فلا بد أن يكفر حتى يصح السحر على يديه فقلت له وماذا كان وقع منك حتى صح منك السحر ؟ فقال كنت أتوضأ كل يوم بالبول وأسجد للشمس عند طلوعها وعند غروبها ، وقلت لآخر ما كان عملك حتى صح لك هذا السحر ؟ قال كنت إذا أردت أن أسحر أحدا أكتب سورة يس فى إناء وأمحوها بالبول وقد كثرت السحرة من اليهود والنصارى فى مصر وقراها وجعل الحكام عليهم فلوسا لأجل تقريرهم على ذلك وبعض النصابين من السحرة يعمل على عقل الرجال ويفعل الفاحشة فى نسائهم ، ويقول لذلك الرجل المحب للدنيا عندك فى بيتك مطلب مايفتح إلا أن تخلى أجنبيا بامرأتك سبعة أيام وأكثر وينام ويصبح معها ، فيقول له افعل فيخلى الرجل زوجته مع ذلك النصاب ويصير يخدمهما بنفسه ويطعمهما أطيب الطعام حتى إن النصاب قال له لابد من شرب الخمر معها فأتاهم بالخمر وبعضهم يقول لايفتح إلا إن مكنتنى من زوجتك أطؤها على باب المطلب فيمكنه ، وبعضهم يقول له لايفتح المطلب إلا إن كتبت لها على فرجها كيت وكيت ، وبعضهم يقول لايفتح المطلب إلا إن كتبت ورقة بمنيى ومنيها وعلقتها فى عنقك ونحو ذلك من الأمور الخارجة عن الدين .

فانظر يا أخى مايؤدى إليه حب الدنيا فإن أردت العمل بهذا العهد فاسلك على يد

شيخ حتى يخرجك عن حب الدنيا وإلا فمن لازمك ظلمة القلب وتصديق الساحر والكاهن والمنجم ونحوهم والله يتولى هداك .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ السِّحْرَ » .

وروى النسائي مرفوعا: « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ فَقَدْ وُكِلَ إِلَيْهِ » يعنى علق على نفسه العقود والحرز .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « كَانَ لِدَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ سَاعَةٌ يُوقِظُ فِيهَا أَهْلَهُ ، يَقُولُ: يَا آلَ دَاوُدَ قُومُوا فَصَلُّوا فَإِنَّ هٰذِهِ سَاعَةٌ يَسْتَجِيبُ اللهُ فِيهَا الدُّعَاءَ إِلَّا لِسَاحِرٍ أَوْ غَاشٍ » .

وروى البزار بإسناد جيد مرفوعا : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ »

وقد عد صلى الله عليه وسلم السحر من الكبائر فى حديث الطبرانى وابن حبان فى صحيحه قال الحافظ عبد العظيم ، والكاهن هو الذى يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطىء أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك .

وروى الطبرانى مرفوعا : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ حُجِبَتْ عَنْهُ التَّوْبَةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَإِنْ صَدَّقَهُ بِمَا قَالَ فَقَدْ كَفَرَ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا : « لَنْ يَنَالَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مَنْ تَكَهَّنَ أَوِ اسْتَقْسَمَ أَوْ رَجَعَ عَنْ سَفَرٍ تَطَيُّرًا » .

وروى مسلم مرفوعا : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » .

قال الحافظ المنذرى : والعراف هو الكاهن ، وقيل هو الساحر . وقال البغوى : هو الذى

يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها ، كالمسروق من الذى سرقه ومعرفته مكان الضالة ونحو ذلك ، ومنهم من يسمى المنجم كاهنا اهـ .

وروى أبو داود وابن ماجه وغيرهما مرفوعا :

« مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ » .

قال الحافظ عبد العظيم رحمه الله : والمنهى عنه من علم النجوم هو مايدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية فى مستقبل الزمان كمجىء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك ، ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاقترانها وافتراقها وظهورها فى بعض الأزمان ، وهذا علم استأثر الله تعالى به لايعلمه أحد غيره ؛ فأما مايدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذى يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى وكم بقى فإنه غير داخل فى النهى اهـ .

قلت : وروى الجلال السيوطى فى الجامع الكبير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : أصل علم النجوم أنه كان لنبى من الأنبياء يقال له يوشع بن نون عليه السلام قال له قومه إنا لن نؤمن بك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله ، فأوحى الله تعالى إلى غمامة فأمطرتهم واستنقع على الجبال ماء صاف ، ثم أوحى الله تعالى إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجرى فى ذلك الماء ، ثم أوحى الله تعالى إلى يوشع عليه السلام أن يرتقى هو وقومه على الجبال فقاموا على الماء حتى عرفوا بدء الخلق وآجالهم بمجارى الشمس والنجوم والقمر وساعات الليل والنهار ، وكان أحدهم يعرف متى يموت ومتى يمرض ومتى يولد له ، ومن ذا الذى لايولد له ؟ فبقوا كذلك برهة من دهرهم إلى أن بعث الله تعالى داود عليه السلام فقاتلهم على الكفر ، فأخرجوا إلى داود فى القتال من لم يحضر أجله ، وخلفوا فى بيوتهم من حضر أجله ، فكانوا يقتلون من أصحاب داود فى القتال ولا يقدر أحد من أصحاب داود يقتل منهم أحدا ، فقال داود يارب أقاتل على طاعتك فيقتل من أصحابى ويقاتل هؤلاء على معصيتك فلا يقتل منهم أحد ، فأوحى الله تعالى إليه إنى كنت علمتهم بدء الخلق وآجاله ، وإنما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله فلذلك كان يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد ، قال داود يارب وماذا علمتهم ؟ قال مجارى الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار ، فدعا داود عليه السلام ربه عز وجل عليهم فحبست عنهم الشمس فزيد فى النهار فاختلطت الزيادة بالليل والنهار فلم يعرفوا قدر الزيادة فاختلط عليهم حسابهم فمن ثم كره النظر فى النجوم :

قال الجلال السيوطي رحمه الله فلذلك كان عمر رضي الله عنه ينهى عن النظر في كتاب دانيال ويضرب من يراه ينظر فيها ويأمره بحرقها .

وروى الإمام سنيد عن جابر قال : « جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ فَغَضِبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم ثُمَّ قَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ حَيًّا الْيَوْمَ مَاوَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي » .

قال الإمام سنيد وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَرُبَّمَا يُخْبِرُونَكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُونَهُمْ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُمْ » .

قال وروينا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ عَمِلَ فِي فُرْقَةٍ بَيْنَ امْرَأَةٍ وَزَوْجِهَا كَانَ فِي غَضَبِ اللهِ تَعَالَى وَلعنَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَضْرِبَهُ بِصَخْرَةٍ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ إِلاَّ أَنْ يَتُوبَ » والله تعالى أعلم .

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه مرفوعا :

« الْعِيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ » .

قال أبو داود الطرق هو الزجر ، والعيافة هي الخط ، وقال ابن فارس الضرب بالحصى هو الطرق وهو جنس من التكهن والجبت بكسر الجيم هو كل ماعبد من دون الله تعالى والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بفعل شيء فيه سوء أدب مع الله تعالى كتصوير الحيوانات من الطيور والسباع في البيوت والأوراق وغيرها ، حتى قص الصور من الأوراق والجاود المسمى بخيال الظل سد الباب سوء الأدب مع الله عز وجل ، وطلبا لدخول الملائكة بيتنا بالرحمة ، فإنها لاتدخل بيتا فيه

صورة كما صح فى الحديث وقال بعضهم المراد بالنهى إنما هو فى الصور التى تعبد من دون الله عز وجل ، والجمهور على خلافه .

فعلم أنه لاينبغى لنا أن نقر عيالنا على عمل سبع من كعك للعبيد للأطفال ، ولا نمكن أولادنا من شراء الصور التى فى الأوراق مدهونة بسواد أو صفرة أو حمرة ونحو ذلك ، وينبغى لكل من وسع الله عليه فى دنياه أن يشترى للعلائق التى تصنعها أهل مصر من الحلاوات ويكسرها ويطعمها للناس غيرة لحرمات الله تعالى ، فإن من عظم حرمات الله عظمه الله تعالى ، وإن شاء الله تعالى يبطل عملها من كثرة إفلاس الناس وضيق مكاسبهم عن قريب كما وعد به الشارع (والله عليم حكيم) :

وروى الشيخان مرفوعا : «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هٰذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَاخَلَقْتُمْ » .

وفى رواية لهما مرفوعا أيضا : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِى فِيهِ صُورَةٌ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ » .

وفى رواية للشيخين مرفوعا : « كُلُّ مُصَوِّرٍ فى النَّارِ يَجْعَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا تُعَذِّبُهُ فى جَهَنَّمَ » .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول . فإن كان أحدكم ولا بد فاعلا فليصنع الشجر ومالا نفس له :

وفى رواية لهما مرفوعا : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِى فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بترك نهى من يلعب من إخواننا بالنرد وما ألحق به من الشطرنج ونحوه ، وهذا العهد يخل به كثير من النـــاس وفى ذلك غش للاعب ، وللساكت على ترك النهى ولولا قبحه مانهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ » (وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى مسلم مرفوعا : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ بِدَمِ خِنْزِيرٍ » .

وفي رواية لمالك مرفوعا : « مَنْ لَعِبَ بِنَرْدٍ أَوْ نَرْدَشِيرٍ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

ورواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي ولم يقولوا أو نردشير .

قال الحافظ عبد العظيم رحمه الله : وجمهور العلماء ذهبوا إلى أن اللعب بالنرد حرام ، ونقل بعض مشايخنا الإجماع على تحريمه .

واختلفوا في اللعب بالشطرنج ، فذهب جماعة من العلماء إلى تحريمه كالنرد ، وكرهه الشافعي كراهة تنزيه وأباحه سعيد بن جبير والشعبي بشروط : منها أن لاتؤخر بسببه صلاة عن وقتها . ومنها أن لايكون فيه قمار . ومنها أن يحفظ لسانه حال اللعب عن الفحش والخنا ورديء الكلام ، فمتى لعب به وفعل شيئا من ذلك كان ساقط المروءة مردود الشهادة . وقد استند من قال بإباحته إلى أنه يستعان به في أمور الحرب ومكائده .

قال الحافظ : وقد ورد ذكر الشطرنج في أحاديث لا أعلم لشيء منها سندا صحيحا ولا حسنا والله تعالى أعلم .

قلت : ويلحق بالنرد الطاب والمنقلة وغيرهما من سائر الأمور التي لاتجلب خيرا لفاعلها (والله غفور رحيم) .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نجالس الفسقة من الظلمة وغيرهم كالواقعين في أعراض الناس إلا لضرورة أو مصلحة شرعية ، وهذا العهد قد كثرت خيانته من الخاص والعام ، فصار الشيخ أو العالم يسمع الغيبة ولا ينكرها ، وربما شارك أهل المجلس فيها ، وربما كان هو البادئ بالغيبة والناس في ذلك له تبع ، كما يقع فيه الأقران الذين يتزاحمون على الوظائف وعلى القرب من الولاة والقضاة وربما طلب من الحاضرين بالباطن أنهم يقعون معه في عرض ذلك الرجل ويفرح بهم ويقربهم لأجل ذلك . فالعاقل من اعتزل الناس إلا لفائدة تحصل له أو لهم كاستفادة علم وتهذيب أخلاق وتعليم طرق سياسة الناس من احتمال الأذى ونحو ذلك .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا يخفى أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد في نفسه الظلم كما يعتقده في الظلمة ، ويجب عليه أن يزجر الناس عن مجالسته خوفا أن يسرق طباعهم من أوصافه الناقصة نصيحة للناس .

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

وروى الشيخان مرفوعا : « مَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَنَافِخِ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً خَبِيثَةً » .

وفى رواية لأبى داود والنسائى مرفوعا : « مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ نَافِخِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجلس وسط الحلقة فى ذكر أو علم أو غير ذلك مما شرع له الاجتماع ، وذلك هروبا من التمييز على إخواننا فى المجلس .

وقد روى أبو داود مرفوعا: « لَعَنَ اللهُ مَنْ جَلَسَ وَسْطَ الْحَلْقَةِ » .

وروى الترمذى وقال حسن صحيح على شرط الشيخين أن حذيفة رضى الله عنه رأى شخصا جلس وسط الحلقة فقال ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

(وكذلك أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نقعد قعدة المغضوب عليهم لا بحضرة الناس ولا وحدنا ، هروبا من التشبه بمن غضب الله عليه ، ويقع فى خيانة هذا العهد كثير من أبناء الدنيا لا سيما بحضرة الفقراء الذين لا جاه لهم ، وذلك من جملة الإخلال بالأدب مع الجليس ، ولو أنه جلس عند فاسق يشرب الخمر ويترك الصلاة من الولاة ما جلس إلا متأدبا مطرقا كالجالس فى الصلاة ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

وقد روى أبو داود وابن حبان فى صحيحه عن الشريد بن سويد قال :

« مَرَّ بِى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ وَأَنَا جَالِسٌ وَقَدْ وَضَعْتُ يَدِى الْيُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِى وَاتَّكَأْتُ عَلَى إِلْيَةِ يَدِى ، فَقَالَ : لَا تَقْعُدْ قِعْدَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » والله أعلم

(وكذلك أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نجلس فى موضع من قام لنا من مجلسه سواء كان بأمرنا أو لأجل حرمتنا عنده أو لغير ذلك ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الراغبين فى الدنيا المعظمين لأهلها من الفقراء ، فترى أحدهم

يقوم من مجلسه فى علم أو صلاة ولو فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويجلس ذلك الغنى بماله مكانه ويتخلف هو إلى وراء ولا يفعل ذلك مع فقير مثله .

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق حتى يخرجه عن محبة الدنيا وتعظيم أهلها ويحببه فى الفقراء والمساكين وفى تعظيمهم وإكرامهم ، فإن تعظيم أهل الدنيا من لازم من يحبها وتعظيم أهل الله من لازم من يحب الآخرة ، وتعظيم الفريقين من لازم من يحب الله لأن الغنى والفقير كلاهما من أهل حضرة الله عز وجل الجامعة لاسمه المعطى والمانع والمعز والمذل (والله عليم حكيم) .

وقد روى أبو داود : « أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَقَامَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ مَجْلِسِهِ ، فَذَهَبَ لِيَجْلِسَ فِيهِ ، فَنَهَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ عَنْ ذٰلِكَ » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ رَجُلاً مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلٰكِنْ تَوَسَّعُوا أَوْ تَفَسَّحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ » .

وكان أبو بكرة وابن عمر إذا قام لهما أحد من مجلسه لن يجلسا فيه ، ويقولان إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتهاون بترك معاونة من قام من مجلسه ورجع عن قرب وأراد أن يجلس فيه لاسيما إن كان بسط مكانه سجادة أو وضع رداءه مكانه ونحو ذلك ، وهذه المسئلة خلاف من يرسل له سجادة يبسطها فى مكان قبل حضوره ، فافهم فإنه لا حق له فى الجلوس فى ذلك المكان وليس له أن يقيم من رفع السجادة وجلس مكانها لأن الشارع ما جعل الحق إلا لمن كان جالسا ثم قام لا لمن أرسل سجادته قبله ، مع أن فى ذلك تحجيرا على الناس فافهم .

وقد روى مسلم وأبو داود وابن ماجه مرفوعا :

« إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَجْلِسٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ » .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« الرَّجُلُ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ لِحَاجَةٍ ثُمَّ رَجَعَ فَهُوَ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نجلس بين اثنين إلا إن علمنا ولو بالقرائن رضاهما بذلك لا سيما إن رأيناهما يتحدثان ويتساروان :

فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى حذق وفراسة والله تعالى أعلم :

وقد روى أبو داود والترمذى مرفوعا : « لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَفرِقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إلاَّ بِإِذْنِهِمَا » .

وفى رواية لأبى داود : « لَا تَجْلِسْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إلاَّ بِإِذْنِهِمَا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجلس على الطرقات سواء كنا على باب مسجد أو طاقات بيت أو شباك مسجد أو غير ذلك إلا لضرورة شرعية ، وهـذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس اليوم ممن ليس لهم همة بحرفة ولااشتغال بعلم ولاعبادة ، فيجلسون فى الحوانيت وأبواب المساجد ولا يغضون أبصارهم ولا يأمرون بمعروف ولاينهون عن منكر ، وربما استغابوا من مر عليهم من العلماء والعمال والمباشرين والمحترفين والظلمة والمكاسين والصالحين، فلايقومون من باب الجامع إلا وقد اجتمع عليهم عده آثام ؛ ولو أنهم لم يجلسوا فى هذه الأماكن لما كان عليهم من ذلك إثم واحد (والله غفور رحيم) :

وكان الشيخ محمدالغمرى وولدهالشيخ أبوالعباس وشيخى الشيخ أمينالدين بن النجار رضى الله عنهم يخرجون من المجاورين من رأوه يجلس على باب المسجد من غير حاجة ويقولون له أنت جئت عندنا تجاور وتقرأ القرآن وتتعلم العلم والأدب وإلا جئت تتفرج على الناس فى السوق ، اذهب من مكاننا إلى مكان آخر :

وكان الشيخ أمين الدين رحمهالله يزجر كل الزجر كلمن رآه جالسا على باب مسجد أو باب حانوت ويقول : إنما بنيت المساجد للصلاة والذكر الله تعالى والجلوس بين يدى الله عز وجل ، فمن لميقدر على الجلوس بين يدى الله عزوجل فى بيته فليذهب إلى السوق (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) :

وقد روى الشيخان مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ : إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ

وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن نشفق على نفوسنا من تعاطى كل شىء يؤذيها فى الدنيا والآخرة ، فليس لنا أن ننام فوق سطح لاحظير له أو نركب بحرا حال ارتجاجه يعنى غلبة الغرق على راكبه ، والسر فى ذلك أن الروح أمة الله تعالى وعبده والواجب علينا إكرامها من هذه الحيثية لا من حيث حكم الطبع والجبن ، فإن كل عارف يشهد نفسه كأنها غيره وهى أمانة عنده يقول الإنسان قالت لى نفسى كذا أو قلت لها كذا مع أنه واحد فى نفسه وهنا باب لو فتحناه لأظهرنا عجيبا (والله عليم حكيم) :

وقد روى أبو داود وغيره مرفوعا : « مَنْ بَاتَ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَيْسَ لَهُ حِجَارَةٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ » .

وفى رواية : « حِجَابٌ » بالباء بدل الراء .

وفى رواية للترمذى : « نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يَنَامَ الرَّجُلُ عَلَى سَطْحٍ لَيْسَ بِمَحْجُورٍ عَلَيْهِ » .

وفى رواية للطبرانى مرفوعا : « مَنْ رَقَدَ عَلَى سَطْحٍ لَا جِدَارَ لَهُ فَمَاتَ فَدَمُهُ هَدَرٌ » .

ورواه أحمد مرفوعا بلفظ : « مَنْ بَاتَ فَوْقَ أَجَارٍ » :

أى فوق بيت ليس حوله شىء يردد داخله .

« فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ » .

والأجار هو السطح ، وارتجاج البحر : هيجانه ، وغلبة الغرق فيه بالنسبة إلى السفن السالمة من الغرق فيكون عدد السفن التى تغرق أكثر من السالمة (والله عليم حكيم) :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نعود نفوسنا بترك السنة فى وقت من الأوقات كالنوم على الوجه من غير ضرورة ، كما يقع فيه كثير ممن يكثر النوم عيثا فيضجر من النوم على جانب فينتقل إلى الجانب الآخر وينتقل إلى الظهر

ثم البطن ، ولو أنه نام على جنبه اليمين بقدر نوم الحاجة لكان إذا استيقظ قام للوضوء والصلاة ولم ينتقل لجانب آخر فلا أكمل من السنة المحمدية أبدا.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من فوائد النوم على الجانب الأيمن عدم الإسراف فى النوم الزائد على الحاجة لكون القلب متعلقا فى الجانب الأيسر فيصير كأنه مستيقظ اه (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

وروى الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه :

« أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ مَرَّ بِرَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى بَطْنِهِ فَغَمَزَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ إِنَّ هٰذِهِ ضِجْعَةٌ لاَ يُحِبُّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

وفى رواية أخرى لأبى داود قال : « هٰذِهِ ضِجْعَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ تَعَالَى » .

وفى رواية لابن ماجه : « قَالَ أَبُو ذَرٍّ مَرَّ بِى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ عَلَى بَطْنِى فَرَكَزَنِى بِرِجْلِهِ ، وَقَالَ : يَاجُنَيْدِبُ إِنمَا هٰذِهِ ضِجْعَةُ أَهْلِ النَّارِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نجلس بين الظل والشمس عملا بالعدل فى جسمنا ، فإما أن ننام فى الظل وحده أو فى الشمس وحدها أو الغيم ، وكذلك لا ننام تحت السماء من غير حجاب من سقف أو ستر أيام الصيف ، لأن ذلك يجعل بدن الإنسان كالقرن أو الرصاص من الثقل فيكسل عن قيام الليل ولا يصير له نهضة ، فينبغى لمن له ورد فى الليل أن ينام تحت سقف ويغلق الشباك أو الطاق التى يأتى منها الهواء عند النوم حتى لا يحصل لبدنه ثقل فيترك قيام الليل والله تعالى عليم حكيم .

وروى الإمام أحمد باسناد جيد مرفوعا :

« أَنَّ النَّبِىَّ صلى اللهُ عليهِ وَسلم نَهَى أَنْ يَجْلِسَ الرَّجُلُ بَيْنَ الضِّحِّ وَالظِّلِّ وَقَالَ إِنَّهُ مَجْلِسُ الشَّيْطَانِ » .

والضح : هو ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض، وقال ابن الأعرابى : هو نور الشمس .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فى الضِّحِّ » .

وفى رواية لمسلم : « فِى الشَّمْسِ فَقَلَصَ عَنْهُ الظِّلُّ فَصَارَ بَعْضُهُ فِى الظِّلِّ وَبَعْضُهُ فِى الشَّمْسِ فَلْيَقُمْ » .

ولفظ رواية الحاكم وقال صحيح الإسناد :

« نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ أَنْ يَجْلِسَ الرَّجُلُ بَيْنَ الظِّلِّ وَالشَّمْسِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتعاطى أسباب كراهيتنا الموت من كثرة المعاصى أو كثرة بناء الدور وغرس البساتين ونحو ذلك ، وهذا العهد قد وقع فى خيانته غالب الناس حتى لاتكاد تجد أحدا منهم مستعدا للموت فيستحب للعبد تعاطى الأسباب التى يصير العبد بها يحب لقاء الله عز وجل ، ولا يتخذ هذه الدنيا وطنا وإنما يتخذها جسرا يمر عليه إلى الدار الأصلية الباقية .

ومعلوم أن القدوم على من يرجى خيره وهو الله عز وجل خير من المقام مع من لا يؤمن شره من النفس والشيطان وفسقة الناس .

وقد أنشدنى الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ شعبان المجذوب :

لَا تَظُنُّوا المَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ ... لَحَيَاةٌ هِيَ غَايَاتُ المُنَى

لَا تُرِعْكُمْ فَجْأَةُ المَوْتِ فَمَا ... هِيَ إِلَّا نُقْلَةٌ مِنْ هٰهُنَا

وهذا فى حق من جاهد نفسه حتى ماتت عن أهويتها وجميع تصرفاتها فغاية موته أنه انتقل من دار إلى دار ، وأما من لم يجاهد نفسه فلابد له من علاج سكرات الموت ومقاساة أهواله .

وفى الحديث : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِى بَكْرٍ رَضِىَ اللهُ عَنهُ » .

لكونه كان قدقتل نفسه بسيوف المجاهدات ومحق إراداتها واختياراتها بالتسليم للحق تعالى ، فعلم أنه ماقاسى أحد شدة فى طلوع روحه إلا لعدم مجاهدته نفسه المجاهدة المطلوبة منه بالنظر لمقامه هو .

وقد أنشد سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه فى مجاهدة النفس :

فَأَوْرَدْتُهَا مَا الْمَوْتُ لَيْسَ بِمَضَّةٍ وَأَتْعَبْتُهَا كَىْ مَا تَكُونَ مُرِيحَتِي
وَلَمْ يَبْقَ هَوْلٌ دُونَهَا مَا رَكِبْتُهُ وَأَشْهَدُ نَفْسِي فِيهِ غَيْرَ زَكِيَّتِي

إلى آخر ما قال .

وبالجملة فلا بد لمن يريد العمل بهذا العهد من السلوك على يد شيخ صادق يسلك به حتى يدخله حضرة الأحباب ولا يبقى عنده عذاب أعظم من الحجاب ، فلو عرض على هذا النار والحجاب لاختار النار بلا حجاب وقد أنشد الشبلى فى ذلك :

وَالْهَجْرُ لَوْ سَكَنَ الْجِنَانَ تَحَوَّلَتْ نِعَمُ الْجِنَانِ عَلَى الْعَبِيدِ جَحِيماً
وَالْوَصْلُ لَوْ سَكَنَ الْجَحِيمَ تَحَوَّلَتْ نَارُ الْجَحِيمِ عَلَى الْعَبِيدِ نَعِيماً

ومن لم يسلك على يد شيخ فمن لازمه محبة الإقامة فى محل البعد وكراهة النقلة منه :

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا رحمه الله يقول : إن الموت يصعب على العبد ويخف بحسب علائقه فى الدنيا وما خرج عن ذلك سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكمل أتباعهم ، فهم وإن حصل لهم صعوبة طلوع روح فإنما ذلك لطلبهم الاقامة فى الدنيا ليكملوا مقامات أتباعهم لما جعله الله فيهم من الشفقة والرحمة ومحبة الخيرات لسائر أممهم ، فليس صعوبة طلوع روحهم لعلاقة دنيوية لعصمتهم أو حفظهم ، وعلى ذلك حملوا قوله صلى الله عليه وسلم وهو محتضر « واكرباه » فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له علاقة دنيوية باجماع (والله غفور رحيم) :

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا : كُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ، قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَـٰكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » .

وفى رواية للامام أحمد وغيره : « فَإِنَّ الْكَافِرَ أَوِ الْفَاجِرَ إِذَا احْتُضِرَ جَاءَهُ

مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ ، أَوْ مَا يَلْقَى مِنَ الشَّرِّ فَكَرِهَ لِقَاءَ اللهِ فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » .

روى ابن أبى الدنيا والطبرانى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِكَ وَشَهِدَ أَنِّى رَسُولُكَ فَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ وَقَلِّلْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَلَمْ يَشْهَدْ أَنِّى رَسُولُكَ فَلاَ تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَلَا تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ وَأَكْثِرْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا » .

وفى رواية لابن ماجه مرفوعا : « اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِى وَصَدَّقَنِى وَعَلِمَ أَنَّ مَاجِئْتُ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَقْلِلْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ وَعَجِّلْ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِى وَلَمْ يُصَدِّقْنِى وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَاجِئْتُ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَطِلْ عُمْرَهُ » .

وروى الطبرانى مرفوعا بإسناد جيد : « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » .

وروى الإمام أحمد مرفوعا : « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ : لِمَ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِى فَيَقُولُونَ : رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ ، فَيَقُولُ : قَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ مَغْفِرَتِى » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نتعاطى أسباب الأذى للناس فى حياتنا فنوقعهم فى الإثم بسببنا بعد موتنا ووقوعهم فى غيبتنا ، ولو أنا كنا تعاطينا أسباب الخير للناس لأثنوا علينا ولم يقعوا فى إثم غيبتنا :

وكان سيدى على الخواص يقول : ربما يؤاخذ العبد إذا تعاطى أسباب الغيبة ويكون حكمه حكم من قدر على إزالة منكر ولم يزله .

وسمعته مرة أخرى يقول : يجب على العبد أن يحفظ على الناس أديانهم ، ولا يفتح لهم بابا ينقص به دينهم :

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يفنى اختياره فى اختياره حتى يسد عنه جميع الأبواب التى يأتيه منها النقص كنقل غيبة الناس له ؛ فإنهم لايستغيبونه إلا بذكر

النقائص التى ظهرت منه، ولو أنه حفظ نفسه من الوقوع فى النقائص لما وجد عدوه شيئا ينقصه به ، ثم لو قدر أنه نقصه بشىء كذبه الناس وردوا عنه :

فاسلك يا أخى على يد شيخ كما ذكرنا ، وإلا فمن لازمك تعاطى أسباب غيبة الناس لك ، وعلى قاعدة قولهم : من سلك مسالك التهم فلا يلومن من أساء به الظن ، وأنه ينبغى لمن تعاطى أسباب غيبة الناس له ، أن لايرى له حقا على من اغتابه فى الآخرة ، لكونه كان هو السبب فى وقوع للناس فى الإثم ، فإن كان ولا بد أن يؤاخذ من اغتابه فليسامحه بالغيبة ليكون ذلك بذلك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياك أن تفهم من قاعــدة من سلك مسالك التهم فلا يلومن من أساء به الظن إباحة الغيبة له ، فإن ذلك فهم مخطئ بل التحريم باق إلا أن يجاهر بما استغابه به ونحو ذلك من الأمور التى أباح العلماء الغيبة بها اهـ :

فإياك ياأخى أن تذكر أحدا من الموتى بسوء ولو تعاطى الميت أسباب النقص فى حياته فكما عليه اللوم فكذلك علينا اللوم (والله غفور رحيم) فتأمل فى ذلك وإياك والغلط :

وروى أبو داود وغيره مرفوعا : « اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ » .

وفى الصحيح مرفوعا : « إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤَمِّنُ عَلَى مَاتَقُولُونَ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « لَاتَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » .

وروى أبو داود مرفوعا : « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ لَاتَقَعُوا فِيهِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسـلم) أن لانمكن أحدا من عيالنا وأولادنا وجيراننا وغيرهم ينوح على ميت ولاينعيه بنعى الجاهليـة ، ولايلطم وجه نفسه لأجله ، ولا يخمش وجهه ولايشق ثوبه ، ولا يحلق شعر رأسه إن كان يربى شعره ولا نمكن عيالنا من حلق رءوسهن ولا غير ذلك مما يشعر بالسخط على مقـدور الله عز

وجل وعدم الرضا به ، وهذا العهد يتساهل بخيانته غالب الناس مع علمهم بتحريم هذه الأفعال .

وقد مات ولد لأبي بكر الشبلي مرة فحلقت أمه رأسها ، فدخل الشبلي فرآها فحلق الآخر لحيته ، وقال أنت حلقتي على مفقود وأنا حلقت على موجود ، ودخل مرة أخرى على زوجته وهو في حال فوجدها لا لحية لها ، فدخل الحمام ورمى شعر لحيته بالنورة ، وقال أحب موافقة زوجتي .

فإياك يا أخي والاعتراض على أحد من أرباب الأحوال إذا فعل مثل ذلك وسلم لهم حالهم فإنهم في حال غلبة الحال غير مكلفين كما هو مقرر بين القوم ، ثم إذا من الله تعالى على الواحد منهم بالكمال حفظ أفعاله كلها من مخالفة السنة .

وقد دخل الشبلي مرة على الجنيد وهو جالس على سرير هو وزوجته فأرادت زوجة الجنيد أن تستتر فقال لها ليس هو هنا ، فتكلم الشبلي ساعة ثم رجع إلى إحساسه ، فقال الجنيد : قد رجع إلى إحساسه استتري الآن ، فلو كان الجنيد يرى أنه مكلف لأمر زوجته بالستر وأنكر على الشبلي الدخول على زوجته بغير إذن ، وما ذكرت لك هذه الحكاية إلا خوفا عليك من المقت ، فإن صاحب الحال ربما أثر فيمن أنكر عليه .

واعلم أنه لا فرق في تحريم النوح والندب بين أن يكون من أهل الميت أو الأجانب سواء كان ذلك من النساء بأجرة أو بغير أجرة والله غفور رحيم .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ » .

وفي رواية : « مَنْ يُنَحْ عَلَيْهِ » .

وفي رواية مرفوعا : « مَنْ يُنَحْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

وروى مسلم مرفوعا : « اثْنَتَانِ هُمَا فِي النَّاسِ : كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ » .

وفي رواية لابن حبان في صحيحه وصححها الحاكم مرفوعا :

« ثَلَاثَةٌ مِنَ الكُفْرِ بِاللهِ : شَقُّ الجَيْبِ ، وَالنِّيَاحَةُ ، وَالطَّعْنُ فِي النَّسَبِ » .

والجيب هو الخرق الذي يخرج الإنسان منه رأسه في القميص ونحوه .

وروى الترمذي مرفوعا : « إِيَّاكُمْ وَالنَّعْيَ فَإِنَّهُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ » .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : النعى هو الأذان بالميت لالصلاة عليه ، فإن أعلمهم ليشهدوا جنازته ويصلوا عليه فلا بأس :

وروى أبو داود عن امرأة من المبايعات قالت :

« كَانَ فِيما أَخَذَ عَلَيْنَا رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلمَ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ لَانَخْمِشَ وَجْهًا ، وَلاَ نَدْعُو وَيْلاً ، وَلاَ نَشُقَّ جَيْبًا ، وَلاَ نَنْشُرَ شَعْرًا » .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَعَنَ اللهُ الْخَامِشَةَ وَجْهَهَا ، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا ، وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانمكن امرأة من نساء أهلنا أو غيرهم أن تحد على غير زوجها فوق ثلاثة أيام ، ويلحق بذلك رفع عصابتها المعتادة ، ولبسها قلنسوة الرجال إظهارا للحزن على والدها أو ولد صاحبتها أو أختها ونحو ذلك ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من نساء العلماء والصالحين فضلا عن غيرهم ، فيجب على كل مسلم أن يزجر النساء عن مثل ذلك ، ولو أن يهجرها فى المضجع والله عليم حكيم

وقد روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » .

ولما مات أبو سفيان دعت ابنته أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فمست منه بعارضيها ، ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر :

« لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ » الحديث .

وكذلك فعلت زينب بنت جحش لما مات أخوها والله تعالى أعلم :

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانلى مال اليتيم خوفا على أنفسنا أن نميل إلى الأكل منه بغير حق فكيف بنا لو أكلناه ، وهذا العهد يجب على كل من استبرأ لدينه وعرضه أن يعمل به ، وقد ظن جماعة من الأكابر الثقة بأنفسهم والخوف من الله تعالى ، فولوا مال الأيتام وأكلوها وجادلوا الحكام وقرابات اليتيم ،

وادعوا فيه حيلا وتلفا وأمورا لاحقيقة لها ، فإذا كان الأكابر قد وقعوا مع علمهم ودينهم فكيف بأمثالنا ، فمن الحزم بعدنا عن أموال اليتامى جهدنا :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : إياك أن تسند وصيتك إلى من رأيته كثير الجدال وتقول إنه يخلص مال اليتيم ممن هو عنده بكثرة جداله فانه ولو خلصه ربما أكل بعد ذلك مال اليتيم وجادل كل من أنكر عليه ويدحض حجته ، لأن حكم الناس معه حكم الجاهل بالدقاق إذا تقدم يداقق عالية الدوال ، وكان يقول إياكم والقرب ممن يتخذ علمه سلاحا يقاتل به الجاهلين بغير حق اه ، فان طابت يا أخى أن تلى مال اليتيم فاعرض على نفسك ، فان رأيتها تخاف الله وتخشاه بالغيب ولا تتجرأ على معصية حياء من الله أو خوفا منه فاقبل ولاية مال اليتيم ، وإن علمت أنها تعصى ربها إذا خلت ، فاعلم أنها لاتصلح أن تلى مال يتيم إذ اليتيم وليه الله تعالى ، والله تعالى غيب غير مشهود لنا ، فى أغلب أوقاتنا ، فما هناك أحد يشهده حتى يرى عليه فربما مقت والله عليم حكيم .

وروى مسلم وغيره : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَبِى ذَرٍّ إِنِّى أَرَاكَ رَجُلاً ضَعِيفًا وَإِنِّى أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِى ، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَلَا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

وفى حديث الشيخين « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ عَدَّ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ مِنَ الْكَبَائِرِ » .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« يَبْعَثُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَوْمًا مِنْ قُبُورِهِمْ تَتَأَجَّجُ أَفْوَاهُهُمْ نَارًا فَقِيلَ مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانمكن عيالنا من الخروج مع جنازة ولا لزيارة قبور أولادهن فضلا عن أولاد غيرهن ، لكن إن رأينا عند إحداهن شدة جزع ورجونا زوال ذلك بزيارتها استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلب ، ثم مكناها من الخروج مع ثقة ، وهذا العهد يقع فى خيانته كثير من الناس حتى

العلماء والصالحين وربما تقول لأحدهم امرأته إن فلانة لها على دين فى زيارتها لولدى لما مات ومرادى أن أكافئها وهى كاذبة ومراعاة غرض الشارع وهو عدم تمكينهن من الزيارة أولى من مراعاة امرأة حكمها حكم المرتدة عن دينها بتركها الصلاة وكثرة سخطها على ربها والله عليم حكيم .

وقد روى الترمذى وقال حديث حسن صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وَسلمَ فى زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ » .

وفى رواية للطبرانى : « وَلاَ تُكْثِرُوا زِيَارَتَهَا » .

يعنى خوف عدم الاعتبار بها ، فان كل شيء كثر هان وقيل لئلا يكتسب الإنسان موت القلب بمشاهدة الأموات ، وقيل غير ذلك :

وقال الحافظ عبد العظيم رحمه الله قد كان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور نهيا عاما للرجال والنساء ، ثم أذن للرجال فى زيارتها واستمر النهى فى حق النساء ، وقيل كانت رخصة عامة والله أعلم .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ » .

وروى ابن ماجه وأبو يعلى : « أَنَّ رَسولَ الله صلى اللهُ عليه وَسلمَ خَرَجَ فَإِذَا نِسْوَةٌ جُلُوسٌ قَالَ : مَا يُجْلِسُكُنَّ ؟ قُلْنَ يَنْتَظِرْنَ الْجِنَازَةَ . قالَ : هَلْ تُغَسِّلْنَ ؟ قُلْنَ لَا : قالَ : هَلْ تَحْمِلْنَ ؟ قُلْنَ لَا : قالَ هَلْ تُدَلِّينَ فِيمَنْ يُدَلّى ؟ قُلْنَ لَا : قَالَ : فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لا نمر على قبور الظالمين ولا على ديارهم غافلين عما أصابهم ونحن نجد طريقا بعيدة عن قبورهم وديارهم ، وذلك لأن قبورهم لا تخلو من نزول اللعنة عليها أو الغضب والمقت فربما أصابنا نصيب وافر من ذلك إذا مررنا على قبورهم . واعلم أن هذا فى حق المطيعين لله الذين لا ذنب عليهم ولا يلبسون لباس الخيلاء ، ولا تخطر الفحشاء على خواطرهم ولا المكر بأحد من المسلمين ،

أما أهل هذه الصفات فهم يستحقون الخسف بهم ، ولكن الله تعالى يحلم عليهم ، فالظلم لايفارقهم فى أنفسهم فى أى موضع حاوا واوفى المساجد .

وقد مر فى عهد الكبر أن شخصا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يمشى فى زقاق أبى لهب ، إذ نظر إلى عطفه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فليحذر من كان مضمرا لأحد من المسلمين سوءا من وقوع العذاب به ، ونزول الغضب والمقت عليه قال تعالى :

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) الآية .

فاسلك ياأخى على يد شيخ صادق ليظهر لك صفاتك الخبيثة ويطهرك منها وتصير ترى أنك قد استحقيت الخسف بك لولا عفو الله ، وتكون خائفا على الدوام ، والله يتولى هداك :

وقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يعنى لما وصلوا الحجر ديار ثمود :

« لَا تَدْخُلُوا عَلَى هٰؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

وفى رواية لهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال :

« لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى جَاوَزَ الْوَادِي » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتعاطى أسباب عذاب القبر كعدم الاستبراء من البول والمشى بالنميمة وسوء الظن بالمسلمين ، كأكل الحرام وسائر مايغضب الله عز وجل ، وذلك لأن هذه المعاصى تحجب القلوب عن مشاهدة الأمور التى يجب الإيمان بها ، وإذا حجبت القلوب عن ذلك وقعت فى الشك بالله تعالى فضلا عن الشك

فى نبيها ، وإذا وقعت فى الشك جاءها العذاب من كل جانب ؛ فالعاقل من ترك جميع مايغضب الله تعالى قبل موته، والأخرق من وقع فى المعاصى ولم يتب، وسأل الله تعالى أن يعيذه من عذاب القبر :

وقد أخبرنى سيدى على الخواص رحمه الله تعالى : أن شخصا من القضاة كان يؤذى سيدى إبراهيم المتبولى وينكر عليه وكان القاضى سيء الخلق ، فلما مات تطور خلقه السيء كلبا أسود فجلس على نعشه والناس ينظرون إلى أن نزل معه القبر ، وكان سيدى إبراهيم يقول له إن هذه البوصة التى فى يدك أصعب عليك من عتلة الحرامى ، فكم تكتب بها على الناس أمورا لاتتيقنها :

وأخبرنى الشيخ أحمد الحفار من جماعة شيخنا الشيخ نور الدين الشونى رحمه الله قال : نزلت ألحد شخصا فرأيت شخصا واقفا فى اللحد ، فلما عارضنى ضربت رجليه بالفاس فكسرته ، ونزلت فجعلته فى جانب وألحدت ذلك الشخص ثم نمت وأنا خائف من ذلك الأمر ، فرأيت ذلك الرجل فى المنام وهو يقول لى جزاك الله عنى خيرا الذى كسرت رجلى حتى نزلت إلى الأرض ، فإن لى أربعين سنة لم يؤذن لى فى الجلوس ، فقلت له وما ذنبك ؟ فقال جلست يوما على طعام قاض فعوقبت بذلك ، فإذا كان هذا حال الجالس على طعام القاضى فما حال القاضى نفسه ؟ نسأل الله اللطف .

وكان سيدى على الخواص يقول : كم من ضريح يزار وصاحبه فى النار :

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما كانت البهائم تسمع عذاب القبر لأنها من عالم الكتمان ، فكل من اتصف بمقام الكتمان من الأولياء سمع عذاب القبر :

وقد أخبرنى الشيخ على الاتميدى صاحب الشيخ محمد بن عنان أن شخصا كان يصيح فى قبره كل ليلة فى مقبرة برهمتوش بالشرقية ، فأخبروا بذلك الشيخ محمد بن عنان فمضى إليه وقرأ عنده سورة الفاتحة وتبارك وسأل الله تعالى أن يشفعه فيه فمن تلك الليلة ماسمع له صياح إلى الآن اه :

فاترك يا أخى كل مايغضب الله تعالى إن أردت أن لاتعذب فى قبرك والله يتولى هداك

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن مرفوعا : « إنَّ المَوْتَى لَيُعَذَّبُونَ فى قُبُورِهِمْ حَتَّى إنَّ البَهَائِمَ تَسْمَعُ أَصْوَاتَهُمْ » .

وروى مسلم مرفوعا : « لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ » .

وروى الترمذى وقال حديث حسن مرفوعا :

« الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ » .

وروى البزار ورواته ثقات عن عائشة قالت :

« قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ تُبْتَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةُ فِى قُبُورِهَا فَكَيْفَ بِى وَأَنَا امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ ؟ قَالَ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ » .

وروى الترمذى وغيره مرفوعا : « مَامِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ » .

والأحاديث فى عذاب القبر وأحوال أهله فيه كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانجلس على قبر مسلم ، وأن ننهى الحفارين عن كسر عظام الميت ، ونعلمهم بما ورد فى ذلك من الوعيد ونغضب لذلك أشد الغضب .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يصلى على الجنائز ويرجع ويقول إنما لم نحضر الدفن لأنه قد كثر من الحفارين كسر عظام الموتى ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والله أعلم .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا :

« لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ تَحْرِقُ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ » .

وروى ابن ماجه مرفوعا : « لَأَنْ أَمْشِىَ عَلَى جَمْرَةٍ أَوْ سَيْفٍ أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِى بِرِجْلِى أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَمْشِىَ عَلَى قَبْرٍ » .

وروى الطبرانى عن ابن مسعود أنه كان يقول : لأن أطأ على جمرة أحب إلىّ من أن أطأ على قبر مسلم .

وروى الطبرانى عن عمارة بن حزم قال :

« رَآنِي رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلمَ جَالِسًا عَلَى قَبْرٍ فَقَالَ يَا صَاحِبَ القَبْرِ انزِلْ مِنْ عَلَى القَبْرِ لاَتُؤْذِى صَاحِبَ القَبْرِ وَلاَ يُؤْذِيكَ » .

وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« كَسْرُ عَظْمِ المَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانترك شيئا من الأعمال الشاقة التى يخرج منا العرق بسببها كحفر الآبار والقبور والذكر بالهمة ونحو ذلك إلا عملناه فإن لم يتيسر لنا ذلك استغفرنا الله تعالى من عدم فعل ذلك ، وهذا العهد قد قل العاملون به وركنت نفوسهم إلى الأعمال الخفيفة التى لايخرج ممن فعلها عرق فيجتمع عليهم ذلك العرق الذى لم يخرجوه فى دار الدنيـا فى طاعة الله عزوجل ، فيخرج عليهم يوم القيامة فيلجمهم أو يصير إلى حقويهم أو يغطى رءوسهم كما ورد ، ولوأنهم تعاطوا فعل الطاعات الشاقة التى تخرج عرقهم لكان عرقهم يخف عنهم يوم القيامةحتى يصير إلى خلخال رجلهم أو أقل من ذلك ، ويقاس بالعرق العرى والعطش والجوع والخوف وسائر المفزعات ، فمن كسى فقيرا لله بعث مكسوا ، ومن سقاه بعث مرويا ، ومن أطعمه بعث شبعانا ، ومن خاف من الله هنا أمن منه هناك ، فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولى هداك :

وقد روى الطبرانى ورواته ثقات مرفوعا :

« يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قَدْ أَلْجَمَهُمُ العَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذَانِ » زاد أحمد « حَتَّى أَنَّ السُّفُنَ لوْ أُجْرِيَتْ فى عَرَقِهِمْ لَجَرَتْ » .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه مرفوعا :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيُلْجِمُهُ العَرَقُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَرِحْنِي وَلَوْ إِلَى النَّارِ » .

زاد فى رواية للحاكم : « وَهُوَ يَغْلِى فيها مِنْ شِدَّةِ العَذَابِ » .

وفى رواية للطبرانى وغيره : « يَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فى العَرَقِ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ

إلى حِقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا ، وَأَشَارَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم إِلَى فِيهِ » والله أعلم .

زاد فى رواية للإمام أحمد والطبرانى وابن حبان :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ عَرَقُهُ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانغفل عن محاسبة نفوسنا فى جميع أحوالنا لاسيما العلم والمال والعمر والجسم ، فمن حاسب نفسه هنا خفّ حسابه هناك وكان يسيرا ، ومن أهمل نفسه هنا طال حسابه هناك وكان عسيرا .

وكان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله يقول : من لم يحاسب نفسه على الخطرات واللحظات فى كل نفس لم يكتب عندنا فى ديوان الرجال ، وإيضاح ذلك أن مراد الحق تعالى بحسابه عبده الاعتراف بما جناه ورؤية الفضل لله تعالى فى حلمه على العبد أو ترك مؤاخذته ، فمن كان معترفا له بذلك لايحاسب إلا فيما أغفله هنا ، فإن قدر أنه لم يغفل عنه شيئا لم يحاسب أصلا .

واعلم أن أكثر الناس اليوم قد عدموا مناقشة نفوسهم فى العمل بعلمهم ومناقشتهم فى المال الذى دخل فى يدهم، ومناقشتها فى إنفاقه أو إمساكه ، هل يرضاه الله تعالى أم لا ؟ وكذلك عدموا مناقشة نفوسهم فى ذهاب عمرهم فى اللهو والغفلة والمعاصى، فإن كل وقت مضى يختم عليه بما فيه وكذلك عدموا المناقشة فى جسمهم ، هل بلى فى طاعة الله عز وجل أو معصيته أونوم أو لغو أو لعب، فياطول وقوفنا والله فى تلك المواطن إلا أن يتغمدنا الله تعالى برحمته .

واعلم ياأخى أنه كلما كثر علم العبد كثر حسابه ، وكذلك القول فى المال والعمر فيسأل العالم عن كل مسألة تعلمها هل عمل بها أم لا ، وعن كل درهم اكتسبه هل فتش عليه من حيث الحل أم لا ، وهكذا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وروى الترمذى وقال حديث صحيح مرفوعا :

« لَاتَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ عَمَلِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » .

فهذه أمهات الأمور التى يسئل العبد عنها وما عداها فروع والله تعالى أعلم .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ » .

وروى أبو داود والطبرانى والبزار مرفوعا :

« مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » .

وروى الإمام أحمد ورواته رواة الصحيح مرفوعا :

« لَوْ أَنَّ رَجُلاً خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ فى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ » .

وروى البزار مرفوعا : « يَخْرُجُ لِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِينَ : دِيوَانٌ فِيهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَدِيوَانٌ فِيهِ ذُنُوبُهُ وَدِيوَانٌ فِيهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَصْغَرِ نِعْمَةٍ فى دِيوَانِ النِّعَمِ خُذِى ثَمَنَكِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ فَتَسْتَوْعِبُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ ثُمَّ تَجِئُ وَتَقُولُ وَعِزَّتِكَ مَا اسْتَوْفَيْتُ وَتَبْقَى الذُّنُوبُ وَالنِّعَمُ وَقَدْ ذَهَبَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْحَمَ عَبْدًا قَالَ : يَا عَبْدِى قَدْ ضَاعَفْتُ لَكَ حَسَنَاتِكَ وَتَجَاوَزْتُ عَنْ سَيِّئَاتِكَ وَوَهَبْتُ لَكَ نِعْمَتِى » .

وروى الشيخان مرفوعا : « لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ . قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانتهاون بمادينا على شىء من العوج فى أعمالنا وأحوالنا مادمنا فى هذه الدار ، فإن مشينا على الصراط على صورة مشينا هنا على الشريعة المحمدية ، فمتى زغنا هنا زغنا هناك .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول سرعة مرور الناس على الصراط وبطؤهم يكون بحسب مبادرتهم لفعل الطاعات وتخلفهم عنها .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمـــه الله يقول : ثبوت الأقدام على الصراط يكون

بحسب طول الوقوف بين يدى الله عزوجل فى قيام الليل، ومزلة الأقدام تكون بحسب تركه القيام فى بعض الليالى اهـ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : المشى على الصراط حقيقة إنما هو ههنا فى هذه الدار ، فمن تحفظ فى مشيه هنا على الشرع حفظ فى مشيه على الصراط المحسوس فى الآخرة ، فالعاقل من استقام هنا فى أفعاله وأقواله وعقائده ولم يسامح نفسه بشىء يقع فيه من الذنوب بل يتوب ويندم على الفور والله يحفظ من يشاء كيف يشاء .

وروى الشيخان مرفوعا: « يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ : دَحْضٌ مَزَلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ ، وَكَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسْلِمٍ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوشٌ فِى نَارِ جَهَنَّمَ » الحديث .

والدحض : هو الزلق ، والمزلة : هو المكان الذى لا تثبت عليه الأقدام إذا زلت ؛ والمكدوش : هو المدفوع فى نار جهنم دفعا عنيفا والله أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانمل من كثرة تعلمنا العلم والعمل به لكون شربنا من حوض نبينا صلى الله عليه وسلم يكون بقدر تضلعنا من الشريعة ، كما أن مشينا على الصراط يكون بحسب استقامتنا بالعمل بها كما مر فى العهد قبله ؛ فالحوض علوم الشريعة ، والصراط أعمالها .

ويحتاج العامل بهذا العهد إلى تحفظ زائد فى العلم والعمل ولا يكون ذلك إلا إن سلك العبد طريق السلف الصالح على يد شيخ مرشد لكثرة احتفاف العلم والعمل بالآفات الخفية التى لا يكاد يشعر بها إلا كمل العارفين ، فإن الرياء يدق مع السالك فى المراتب حتى يخفى جدا ، فالرياء كالكدر فى الماء كلما روق بشب ونحوه كلما صفا وتميز من الطين .

فاجتهد يا أخى فى حفظ الشريعة ولا تغفل وعليك بكتب الحديث فطالعها لتعرف منازع الأئمة ، ولماذا استندوا إليه من الآيات والأحاديث والآثار ؛ ولا تقنع بكتب الفقه دون معرفة أدلتها والله يتولى هداك .

وقد روى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « حَوْضِى مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ

اللَّبَنِ ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا » .

زاد فى رواية للطبرانى والبزار بعد قوله :

« أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ » والله تعالى أعلم .

(أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن لانبنى لنا فى دركات النار مسكنا ولو قدر مفحص قطاة ، وذلك لايكون إلا بتركنا فعل جميع مانهانا الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم فى الكتاب والسنة من كبائر وصغائر .

ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يطلعه على مراتب القيامة ، ويعرف مايمشى هناك من الأعمال ومالايمشى فيتركه هنا حتى لايبقى له بناء إلا فى الجنة ، وأما والعياذ بالله المذنب من العصاة فإنه لايزال يبنى فى النار الدركات بأعماله حتى ينتهى عمره فيقال له ادخل دارك التى بنيتها .

وقد أنشد الشيخ محيى الدين بن العربى فى ذلك :

النَّارُ مِنْكَ وَبِالأَعْمَالِ تُوقِدُهَا ... كما بِصَالِحِهَا فى الحَالِ تُطْفِيهَا

فَأَنْتَ بِالطَّبْعِ مِنْهَا هَارِبٌ أَبَدًا ... وَأَنْتَ فى كُلِّ حَالٍ مِنْكَ تُنْشِيهَا

أَمَا لِنَفْسِكَ عَقْلٌ فى تَصَرُّفِهَا ... وَقَدْ أَتَيْتَ إِلَيْهَا الْيَوْمَ تَبْنِيهَا

إلى آخر ماقال ، فلا تلم يا أخى إلا نفسك ، فإن جميع ماأعد لك فى جهنم من حميم وزمهرير وحيات وعقارب ومقامع وغير ذلك إنما هو من فعلك بجوارحك كما تعرفه إذا دخلت النار والعياذ بالله على التعيين ، وتعرف جميع الأعمال التى استحالت نارا أو عقربا أو حية أو كلبا ونحو ذلك على اليقين ، وتعلم هناك يقينا أنها كلها عملك ، لم يشاركك فيها أحد ، وغالب أمر إبليس أنه نفذ مارأى نفسك مالت إليه لاغير ، لأن النفس كلسان الميزان وإبليس جالس بالمرصاد لك ينظر ماتميل إليه نفسك ، فبمجرد مايخرج لسان الميزان وتميل إلى فعل معصية من المعاصى الظاهرة والباطنة يجىء إبليس ينفذ ذلك ، وما دام لسان الميزان لم يخرج من الفلك فليس لإبليس على العبد سبيل لأنه إما معصوم أو محفوظ فى حضرة الله عزوجل ، وأهل الحضرة ليس له عليهم سبيل ويؤيد ماقلناه خطبته لعنه الله فى النار حين يقول :

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) .

أى وما كان لى عليكم من سلطان قبل أن تميلوا وتخرجوا عن فلك الميزان إلى جانب المعصية والشقاء ، فلما ملتم دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ، فإنى ماأملتكم ولوموا أنفسكم حيث ملتم قبلى ، وهذا التفسير بلسان أهل الإشارة ، وهو كلام مقبول مفهوم إن شاء الله تعالى .

واعلم يا أخى أن المطيعين الصرف لابناء لهم فى النار قط ، لعصمتهم أو حفظهم ، والمخلطين يبنون تارة فى الجنة وتارة فى النار والمرجع فى أمرهم إلى الخاتمة وإلى عفو الله عز وجل ، فإن بدل الله تعالى سيئاتهم حسنات بالتوبة النصوح فلا يبعد أن تبدل مسا كنهم فى النار درجات فى الجنة كذلك ، وإن لم يبدل الله سيئاتهم لعدم التوبة الخالصة فهم تحت المشيئة كعصاة الموحدين الذين ماتوا على غير توبة ، ولا يخفى مافى ذلك من الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة نسأل الله اللطف :

وأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يبنون دائما إلا فى النار ولا بناء لهم فى الجنة مطلقا ، قال تعالى :

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) .

وهم أربع طوائف :

الأولى : المشركون وهم الذين يجعلون مع الله إلها آخر .

والثانية : المتكبرون كفرعون والنمروذ وأضرابهما .

والثالثة : المعطلون وهم الذين نفوا الإله جملة :

والرابعة : المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ولايخلو ما أبطنوه من ثلاثة أحوال لأنه إما أن يكون شركا أو تكبرا أو تعطيلا .

وقد بسطنا الكلام على أهل النار فى خاتمة كتابنا المسمى باليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر (والله غفور رحيم) واعلم أنه يجب على كل عاقل أن يحمى نفسه من دخول النار امتثالا لقوله تعالى الذى هو أشفق على العبد من والديه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) الآية .

أى قوا أنفسكم بترك كل مذموم شرعته على ألسنة رسلى ، وهذا العهد جامع للعهود السابقة كلها ، فإن كل منهى عنه داخل فيه .

(وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وروى البخارى « كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » .

وروى الشيخان : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عليه وسلمَ كانَ إِذَا حَذَّرَ مِنَ النَّارِ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » .

قال الفراء : والشيح على معنيين : المقبل إليك والمانع لما وراء ظهرك ، وقوله أعرض وأشاح : أى أقبل .

وروى الشيخان والترمذى والنسائى واللفظ لمسلم عن أبى هريرة قال « لما نزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) دَعَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قُرَيْشاً فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فقَالَ : يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ ابْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا » .

وروى الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم :

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قَالَ فى خُطْبَتِهِ أَنْذَرْتُكُمْ مِنَ النَّارِ رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ بِالسُّوقِ لَأَسْمَعَهُ حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ » .

وروى الشيخان : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَرَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتِ الْفَرَاشُ وَالدَّوَابُّ يَقَعْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَتَحِمُونَ فِيهَا » .

وفى رواية لمسلم : « إِنَّمَا مَثَلِي كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَٰذِهِ الدَّوَابُّ يَقَعْنَ فِيهَا وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا قَالَ فَذَٰلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ » .

والحجز : جمع حجزة ، وهى معقد الإزار .

وروى الطبرانى مرفوعا : « اهْرُبُوا مِنَ النَّارِ جُهْدَكُمْ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَنَامُ طَالِبُهَا وَالنَّارُ لَا يَنَامُ هَارِبُهَا » .

وروى البيهقى مرفوعا : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ارْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَكُمُ اللهُ فِيهِ وَاحْذَرُوا مِمَّا حَذَّرَكُمُ اللهُ مِنْهُ وَخَافُوا مِمَّا خَوَّفَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِى دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ » .

وروى البزار مرفوعا : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُرْضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرِ كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْءٌ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَٰؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَثَاقَلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَى قَوْمٍ عَلَى أَدْبَارِهِمْ رِقَاعٌ وَعَلَى أَقْبَالِهِمْ رِقَاعٌ يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَحُ الْأَنْعَامُ إِلَى الضَّرِيعِ وَالزَّقُّومِ وَرَضْفُ جَهَنَّمَ ، قُلْتُ : مَنْ هَٰؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤَدُّونَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حِزْمَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَٰذَا ؟ فَقَالَ : هَٰذَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ عَلَيْهِ أَمَانَةٌ لِلنَّاسِ لَا يَسْتَطِيعُ أَدَاءَهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْءٌ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَٰؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَٰؤُلَاءِ خُطَبَاءُ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَعِظُونَ النَّاسَ وَلَا يَتَّعِظُونَ » الحديث .

وسيأتى « أَنَّ جُبَّ الْحُزَنِ وَادٍ فِى جَهَنَّمَ أَعَدَّهُ اللهُ لِلْفُقَرَاءِ الْمُرَائِينَ » .

قلت : وظاهر السياق يقتضى أن هذا العذاب بأنواعه فى حق عصاة الموحدين لا فى حق المشركين ، فإياك أن تقول هذا فى حق الكفار فإنه يؤدى إلى نفى تعذيب أحد من أهل القبلة وهو خلاف مذهب أهل السنة والجماعة فلابد من طائفة تدخل النار من الموحدين ثم تخرج من النار بالشفاعة .

وانظر يا أخى إلى ما كان عليه السلف الصالح من الخوف حتى كأن النار ما خلقت إلا لهم ، واسلك طريقهم . وفى حديث البزار :

« ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَى وَادٍ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مُنْكَرًا فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَا هٰذَا الصَّوْتُ ؟ فَقَالَ : هٰذَا صَوْتُ جَهَنَّمَ تَقُولُ يَا رَبِّ ائْتِنِى بِأَهْلِى وَبِمَا وَعَدْتَنِى فَقَدْ كَثُرَتْ سَلَاسِلِى وَأَغْلَالِى وَسَعِيرِى وَحَمِيمِى وَغَسَّاقِى وَغِسْلِينِى وَقَدْ بَعُدَ قَعْرِى وَاشْتَدَّ حَرِّى ائْتِنِى بِمَا وَعَدْتَنِى ، قَالَ لَكِ كُلُّ مُشْرِكٍ وَمُشْرِكَةٍ وَخَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ ، وَكُلُّ جَبَّارٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ، قَالَتْ قَدْ رَضِيتُ » .

فهذا يقتضى أن أهلها الحقيقيين هم هؤلاء والله تعالى أعلم .

وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا قَالُوا : وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ » .

وروى البزار « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَرَّ بِقَوْمٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ تَضْحَكُونَ وَذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ قالَ ابنُ الزُّبير : فما رُئِىَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ضَاحِكاً حَتَّى مَاتَ وَنَزَلَتْ فِيهِمْ (نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) » .

وروى أبو يعلى : « أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ خَطَبَ يَوْمًا فَقَالَ : لَا تَنْسَوُا الْعَظِيمَتَيْنِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَى وَبَلَّ دُمُوعُهُ جَانِبَىْ لِحْيَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

وَالذِى نَفسِى بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ لَمَشَيْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ وَلَحَثَيْتُمْ عَلَى رُؤُوسِكُمُ التُّرَابَ » .

وروى الطبرانى : « أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وَسلمَ فى غَيْرِ حِينِهِ الّذِى كَانَ يَأْتِيهِ فِيهِ فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ فقَالَ : يَا جِبْرِيلُ مَالِى أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ ؟ فقَالَ : مَا جِئْتُكَ حَتَّى أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنَافِخِ النَّارِ. فقَالَ رَسولُ الله صلّى اللهُ عليه وَسلمَ يَا جِبْرِيلُ صِفْ لِيَ النَّارَ وَانْعَتْ لِي جهَنمَ . فقَالَ جِبْرِيلُ : إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتعالَى أَمَرَ بِجهَنمَ فأُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ عَامٍ حَتّى ابْيَضّتْ. ثُمَّ أَمَرَ فَأُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ عَامٍ حَتَّى احْمَرّتْ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ لاَيُضِيءُ شَرَرُهَا وَلاَ يُطْفَأُ لَهَبُهَا ، وَالَّذِى بَعثَكَ يَا مُحَمَّدُ بِالحَقِّ لَوْ أَن قَدْرَ ثُقْبِ إِبْرَةٍ فُتِحَ مِنْ جهَنَّمَ لَمَاتَ مَنْ فى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا مِنْ حَرِّهِ ، وَالّذِى بَعثَكَ بِالحَقِّ لَوْ أَنَّ خَازِنًا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنّمَ بَرَزَ لِأَهْلِ الأَرْضِ لَمَاتَ مَنْ فى الأَرْضِ كُلّهُمْ مِنْ قُبْحِ وَجْهِهِ وَمِنْ نَتْنِ رِيحِهِ ، وَالَّذِى بَعثَكَ بِالحَقِّ لَوْ أَنَّ حَلَقَةً مِنْ حِلَقِ سِلْسِلَةِ أَهْلِ النَّارِ الّتِي نعتَ اللهُ فى كِتَابِهِ وُضِعَتْ عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا لاَرْفَضّتْ وَلَمَارَتْ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلى الأَرْضِ السُّفْلَى ، فقَالَ النّبيُّ صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ : حَسْبِي يَا جِبْرِيلُ لاَيَنْصَدِعُ قَلْبِي فَأَمُوتُ ، فَبَكَى جِبْرِيلُ ، فقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وَسلمَ : تَبْكِي يَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ بِالمَكَانِ الّذِى أَنْتَ فِيهِ ؟ فقَالَ : وَمَا لِى لَا أَبْكِي ؟ أَنَا أَحَقُّ بِالبُكَاءِ لَعَلّى أَكُونُ فى عِلْمِ اللهِ عَلَى غَيْرِ الحَالِ الّتِي أَنَا أُوثِّلُهَا ، وَمَا أَدْرِى لَعَلّى أُبْتَلَى بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ وَجِبْرِيلُ يَبْكِيَانِ حَتَّى نُودِيَ : أَنْ يَا جِبْرِيلُ وَيَا مُحَمّدُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَّنَكُمَا أَنْ تَعْصِيَاهُ ، فَارْتَفَعَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ فَمَرَّ بِقَوْمٍ مِنَ الأَنْصَارِ يَضْحَكُونَ وَيَلْعَبُونَ ، فقَالَ: تَضْحَكُونَ وَوَرَاءَكُمْ جَهَنّمُ ، فَلَوْ تَعْلَمُونَ

مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَمَا أَسَغْتُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » . والصعدات : هى الطرقات .

وروى الطبرانى : « أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ حَزِينًا لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، فقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ ، مَالِي أَرَاكَ يَاجِبْرِيلُ حَزِينًا ؟ فقَالَ : إِنِّى رَأَيْتُ لَفْحَةً مِنْ جَهَنَّمَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَيَّ رُوحِى بَعْدُ » .

وروى الإمام أحمد : « أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وَسلمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ : مَالِي لَا أَرَى مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ ؟ فقَالَ : مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ » .

وروى ابن ماجه والحاكم مرفوعا : « إِنَّ نَارَكُمْ هٰذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَوْلَا أَنَّهَا طُفِئَتْ بِالْمَاءِ مَرَّتَيْنِ مَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، وَإِنَّهَا لَتَدْعُواللهَ تَعالى أَنْ لَا يُعِيدَهَا فِيهَا » .

وروى مسلم والترمذى مرفوعا : « يُؤْتَى بِالنَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفُ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : « إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ فُضِّلَتْ عَلَى نَارِكُمْ هٰذِهِ بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

وروى البيهقى مرفوعا « أَتَحْسَبُونَ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ مِثْلُ نَارِكُمْ هٰذِهِ ؟ هِيَ أَشَدُّ سَوَادًا مِنَ الْقَارِ » .

وفى رواية للامام أحمد : « إِنَّ هٰذِهِ النَّارَ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » .

وروى البزار مرفوعا : « لَوْ أَنَّ فِى الْمَسْجِدِ مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَتَنَفَّسَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَأَحْرَقَهُمْ » .

وروى الطبرانى مرفوعا : « لَوْ أَنَّ غَرْبًا مِنْ جَهَنَّمَ جُعِلَ فِى وَسَطِ الْأَرْضِ لَآذَى نَتْنُ رِيحِهِ وَشِدَّةُ حَرِّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَوْ أَنَّ شَرَرَةً مِنْ شَرَرِ جَهَنَّمَ بِالْمَشْرِقِ لَوَجَدَ حَرَّهَا مَنْ بِالْمَغْرِبِ » والغرب: هو الدلو العظيم .

وروى أبو داود والترمذى والنسائى مرفوعا : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ تعالى النَّارَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ لَهُ انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ فِيهَا لِأَهْلِهَا ، فَنَظَرَ جِبْرِيلُ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ تَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَقَالَ ارْجِعْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا » .

وروى الترمذى وابن ماجه والبيهقى مرفوعا :

« إِنَّ النَّارَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ » .

وروى ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « لَوْ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَصَابُوا نَارَكُمْ هٰذِهِ لَنَامُوا فِيهَا وَلَقَالُوا فِيهَا » أى ناموا فى القيلولة .

وروى البيهقى وغيره مرفوعا « فى قوله تعالى :

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) إِنَّ النَّارَ مُظْلِمَةٌ لَا يُطْفَأُ لَهِيبُهَا وَلَا يُضِيءُ » .

وروى الطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله تعالى :

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) قَالَ : هُوَ وَادٍ فِى جَهَنَّمَ يُقْذَفُ فِيهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ » .

وروى البيهقى بإسناد جيد مرفوعا : « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ أَوْ قَالَ وَادِى الْحَزَنِ . قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا جُبُّ الْحَزَنِ ؟ قَالَ هُوَ وَادٍ فِى جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْفُقَرَاءِ الْمُرَائِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ » .

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة فى كتب الترغيب والترهيب ، وفى هذا القدر كفاية والله تعالى أعلم .

وليكن ذلك آخر كتاب لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية والله تعالى أعلم تأليف سيدنا ومولانا مربى المريدين قدوة السالكين سيدى الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى رحمه الله تعالى وأعاد علينا من بركاته . وكان الفراغ منه فى سابع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وتسعمائة بمصر المحروسة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين .

الفهرس